
تاريخ الحضارات العام
القرن التاسع عشر

تاريخ الحضارات العام

موسوعة
تاريخ الحضارات العام

في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيميه

٢

روما وإمبراطوريتها

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيميه

٣

القرون الوسطى

إدوار بروي أستاذ في السوربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنييه أستاذ في السوربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنييه
أستاذ في السوربون

و

إرنست لابروس
أستاذ في السوربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه مفتش المعارف العام في فرنسا

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد السادس

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

القرن التاسع عشر

تأليف

روبير شنيرب

أستاذ فخري في الدراسات العليا

دكتوراه دولة في الآداب

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر   فريد م. داغر

الطبعة الثالثة ١٩٩٤

مدخل

> لكل شيء أثره ... وعلى هذا فالكل او لا شيء.
> فالكشف عن الحقيقة التاريخية كاملة غير منقوصة يقتضي
> له التقصي واقتفاء ما تركت من أثر ملحوظ أينما وقع
> وبأي شكل ظهر، مهما صغر او دق.
>
> ميشليه

١٨١٥ - ١٩١٤

وإن شئت فقل القرن التاسع عشر. وإذ ذاك تنطّ أمام نواظرنا هذه العناوين الغرّارة التي يشير اليها مارك بلوك عندما يستعرض أمامنا هذا التشويش او الاضطراب الذي يلازم «تصنيفاتنا الزمنية». بعد هذا، هل يقف راوية ما من أمثال هيرودوتس مثلاً، عند «سرد ما حدث او جرى» دون ان يرد هذه الأحداث الى أطرها التاريخية ومفارقاتها المميزة؟ فاذا لم يرو ماجريات التاريخ وفقاً للتسلسل الزمني حسب تعاقب الملوك وتوالي السيطرات السياسية او الحربية، فسيستمر، في اضعف الايمان، عاملاً في إقامة الحدود ووضع الصوى بين هذه العهود التاريخية المعروفة لدينا باسم: التاريخ القديم، والأجيال الوسطى، والعصر الحديث والزمن المعاصر. ولكن أي معنى بعد لهذه الأدوار والأطوار، وأي مدلول لهذه المصطلحات والمسميات؟ ففي نظر ليتريه، التاريخ المعاصر «يدون وقائع الزمن الذي عاش فيه الناس وجرت حوادثهم» بينما يمتد العصر الحديث من حقبة الانبعاث الادبي في القرن السادس عشر الى يومنا هذا. ومع ذلك فقد جرت التقاليد منذ عهد سحيق، وهي تقاليد وأعراف لم تنسخ بعد، على جعل سنة ١٧٨٩، حداً فاصلاً لهذه الحقبة. ومثل هذا الاضطراب في المسميات الزمنية يشوب الحقب التاريخية الاخرى. فاذا ما جعلنا من عام ١٧١٥ نهاية القرن السابع عشر، فمن المعقول ان نجعل من عام ١٨١٥ الحد النهائي للقرن الثامن عشر. ففي التسليم بمثل هذا التقسيم الزمني، لم يعد القرن التاسع عشر ليتفق وحدود الاصطلاح المسيحي للأزمنة التاريخية، كما انه لا تقاطع هنالك ولا حدود في ديمومة التطور وحركة النشوء. فالأمر، والحالة هذه، لم يعد ليتعدى الاصطلاح على حقبة هي خير ما يتفق وروابط الحوادث لتماسكها وفقاً للمفهوم الاوروبي للتاريخ.

لا مراء قط انهم توصلوا الى مقررات هامة في هذه المفاوضات التي دارت في مؤتمرات باريس وفينا وغنت. ومع ان التعاند لم ينقطع قط بين مفهوم النظام القديم والأيديولوجيا الجديدة التي طلعت علينا منذ عام ١٧٨٩ ، فباستطاعة اوروبا التي أعاد اليها نظامها « هذا العالم المتمدن » ، كما جاء على لسان مترنيخ بالحرف الواحد ، ان تتنفس الصعداء ، وأن تنعم بسلام دائم . وقد استثمرت البورجوازية الفوائد الجسام التي سيعود عليها بها الاقتصاد الصناعي المتطور ، الحر ، في تكامله المتصاعد . فليس بعد ما يبقى او يحد من استشراء الحركة التجارية وانبساطها عبر البحار والقارات . وستجد انكلترا بنوع خاص نفسها في وضع لم تعرف خيراً منه لتفرض على الناس ما تنتج من السلع والبضائع .

واندلعت عام ١٩١٤ حرب أكول ، ضروس ، حملت الحضارة الاوروبية على قاب قوسين وأدنى من الانهيار والهالكة ، في هذا الانقلاب الجذري الذي لف العالم لفاً فكان نذيراً بطلوع عهد جديد على البشرية جمعاء .

فأوروبا ، ولا شك في ذلك ، هي روح العالم وريحانته في هذا العصر . ومع ذلك ، فالسبق الذي سجلته لها في المضمار الحضاري ، مهما بلغ من مداه ورحبه وبعد مراحله ، لم يكن بمأمن من كل منافسة او مزاحمة . فقد كشفت اميركا الفتية في صحة موصولة لبروموتيه ، عن سر نهضة عارمة سريعة الخطى ، كما ان بلداناً ودولاً اخرى اخذ يدب في ثناياها رسيس نشاط وتتمطى بين جوانحها وجوارحها هزة طافرة .

فالقرن الثامن عشر الذي كان عصر نهضة فكرية وتقنية وسياسية جعل اوروبا تسير في طليعة الركب الحضاري. فهل كتب لهذه القارة، في حلبة الزمن، ان يكون القرن التاسع عشر، عصرها الجلي وذروة التطور عندها ؟

القسم الأول

بين الاستمرار والتغيرات المحتملة في مطلع العصر

خصائص هـذا العصر وميزاته برزت واتضحت شيئاً فشيئاً . فأنماط العيش وطرق التفكير التي سيطرت وراجت بعد حقبة الثورة والعهد النابوليوني لم تكن ، ولم يكن لها ان تكون جديدة بالنسبة للغرب . فتحرير الفلاح المشدود الى الارض لم يكن امراً مشكوكاً فيه وحسب لدى قسم كبير من دول اوروبا ودويلاتها ، بل ان طرائق العمل ووسائل استثمار الارض سجلت تقدماً بطيئاً . لم يطلع علينا بعد ١٨١٥ كما لم يحدث قبل ١٧٨٩ ، ثورة صناعية ، إذ نحن أمام تطور يتسم بالبطء في كل ما يتصل بتقنية الانتاج ووسائل النقل والانتقال، ولا تزال اكتشافات القرن الثامن عشر هي التي تفيض بنعمائها على القرن اللاحق. فالأفكار التي صدمتها بعنف التصدعات السياسية وما صاحبها ولازمها من هزات اجتماعية وارتجاجات سياسية ، بقيت عرضة لهواجس الحيرة والتردد والتشكك ، وما زالت المشاعر الهتاجة في تفاعل وانفعال . فالصراع لا يزال على أشده بين النظام التقليدي والروح التحررية التي جاشت بها البورجوازية ؛ والقلق الذي يبعثه في النفوس مرأى الفقر المدقع المسيطر على الأحياء المكتظة بالسكان في المدينة ينحسر عن أعمال تافهة او عن نظريات خدّاعة، برّاقة ، والطريقة الثورية التي شرعها احتلال الباستيل ودكها تستمر وتتأسد، والتحالف المقدس الملكي والارستوقراطي يستهدف دوماً الأخذ بهذه الاساليب التي سيطرت على دبلوماسية بلاطات الملوك . فاذا مـا هيأت سنوات حكم لويس الرابع عشر الاخيرة وثورات انكلترا وانتفاضاتها ، طلوع القرن الثامن عشر ، فحضوره يتمثل في معظم المجالات والنشاطات. ألم يُرس أُسس الاستقلال الاميركي الذي رحبت مغاليقه واتسعت جنباته ما بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ ؟ ألم يرح بالحملة المستمرة المضادة للرق ؟ ومع ذلك فنفوذ اوروبا ولا سيما انكلترا ، لا يزال يتعاظم ويتجسم أكثر فأكثر ، كما ان شخصية اميركا برزت بصورة أجلى . وبالرغم من تحكم وضع اقتصادي لم يكن مؤاتياً ، فالبورجوازية المدنية اخذت تستبد بالسلطة في هذه البلدان بالذات التي تستبد بها وتسيطر عليها عوامل المال والتجارة والصناعة . والمعارك العنيفة التي خاضتها البروليتاريا الكادحة عكست من جهتها شكيمة رأس المـال وسيطرته الناشئة . فانتصب في وجه الطبقة الظافرة المتحكمة طبقة اخرى اخذت تحاول إثبات وجودها بشق طريقها واحتلالها محلاً مرموقاً تحت الشمس . وفي الوقت ذاته طلع على العالم اكتشاف تقني جديد يتمثل بدخول البخار في خدمة الغرب ، وبفضل هـذا الكشف العلمي العظيم عرف الغرب ان يفيد ، الى حد بعيد من خدمات ووسائل يسّر استعمالها ، لم يعلم في الامس الغابر ، من ظن بها خيراً ، ولا من رأى بها نفعاً . وهكذا تستطيع اوروبا استئناف السير حثيثاً وهي على مثل ما نرى من نشاط زاخر وعافيـة ، السيطرة على العالم وبسط نفوذها ، في الوقت الذي انصرف فيه الاميركيون ، من جهتهم ، لبسط سيطرتهم على اميركا .

الفصل الأول

سكان أوروبا

النمو المطرد

تضخم عدد سكان العالم ، خلال القرن الثامن عشر ، إذ ارتفع هـذا العدد من ٦٠٠ مليون حوالي عام ١٧٠٠ الى ٩٠٠ مليون في مطلع القرن اي في سنة ١٨٠٠. وقد عرفت اوراسيا ان تحافظ من جهتها على تفوقها العددي . صحيح ان اميركا الشمالية عدّت ، إذ ذاك ، ٦ ملايين نسمة بعد ان ضمت مليوناً واحداً من السكان فسجلت بذلك اكبر معدل في الزيادة ، بينما بلغ عدد سكان ما تبقى من العالم الجديد ١٩ مليوناً بعد ان كان في حدود ١٢ مليوناً . أما افريقيا فقد بقيت على وضعها المعروف تقريباً أي في حدود المائة مليون . وبالمقابل بلغت آسيا ٥٧٥ مليون نسمة بعد ان كانت ٣٣٠ ، واوروبا ١٨٧ مليوناً بعد ان كانت ١١٨ مليوناً . وهكذا فقد أربى معدل الزيادة في اوروبا على معدل النمو في آسيا [١] .

وهذا النمو المتصاعد لم يتوقف ولم يخف كما انه لم تتغير كثيراً نسبة التوزيع الديموغرافي في النصف الاول من القرن التاسع عشر. هنالك في العالم زهاء ١٢٠٠ مليون حوالي عام ١٨٥٠. فاذا ما عرفت اميركا ان تحتفظ بأكبر معدل في هذا النمو السكاني ، إذ ارتفع عدد السكان فيها من ٦ ملايين الى ٢٥ مليوناً، فقد سجلت آسيا ٧٦٠ مليوناً وأوروبا ٢٦٦ مليوناً . وهكذا نرى كيف ان معدل النمو ازداد في اوروبا . وقد يتأتى معدل الزيادة أعلى من ذلك بكثير اذا ما اخذنا بعين الاعتبار حركة الارتحـال الاوروبي الى الولايات المتحدة الاميركية (اي ما يقارب ١٠ في المائة من سكان عام ١٨٥٠) .

وقد طرأ ما غيّر من معدل توزيع السكان داخل المجموعة الاوروبية . فالخمسة والثلاثون مليون فرنسي، عام ١٨٥٠، لم يكن ليبزهم عدداً إلا الـ ٥٧ مليون روسي . والدويلات الالمانية (باستثناء النمسا) تعادل لوحدها هذا الرقم، بينما ارتفع عدد سكان ايطاليا من ١٨ مليوناً الى ٢٥ مليوناً ، كما نلاحظ زيادة مرموقة في معدل نمو السكان في الجزر البريطانية إذ ارتفع رقمهم

---

(١) راجع في هذا الصدد الجدول البياني لتعداد السكان في اول الفصل الرابع من القسم الثاني من هذا الكتاب.

من ۹ ملايين ، في عام ۱۷۰۰ ، الى ١٦ مليوناً ، عام ۱۸۰۰ ، والى اكثر من ٢٧ مليوناً ، بينهم ۸ ملايين ونصف في ايرلندا . والسبق الفرنسي في هذا المضمار أصابه التمهل ، فالتأخر لعلة تناقص المواليد ، بينما يرتفع معدل نمو السكان في البلدان الاخرى . فبينما يبلغ معدل النمو في فرنسا ، عام ۱۸۰۰ ، ٣٢ في الالف ، تحافظ انكلترا على مثل هذا المعدل ، عام ١٨٥٠ ، ويبلغ في المانيا ٤٠ في الالف و ١٣،٣ بالالف في الولايات المتحدة الاميركية .

المعدل العالي في الوفيات
الأوبئة الفتاكة والطاعون

قابل معدل المواليد العالي معدل عال في الوفيات . ان الامل بحياة طويلة الامد ضعيف أينما كان ، فالسواد الاعظم من السكان هم من الاحداث . ان ٤٤ ٪ من سكان فرنسا، عام ١٨١٥ ، لهم من السن اقل من عشرين سنة والذين تجاوز منهم الـ ٦٠ لا يؤلفون سوى ٧ ٪ لا غير . فاذا ما انخفض معدل الوفيات قليلاً في غربي اوروبا والبلدان السكندينافية ، فالظروف الاقتصادية السيئة تحول دون أي تحسن في هذا المجال وتقف حجر عثرة في اي امل بتحسن الوضع . لا بد من ان نتذكر هنا ان السواد الاعظم من الاوروبيين لا قدرة عندهم على مقاومة المرض ولا مناعة عندهم بالنظر لما هم عليه من نقص في التغذية ولأن موقفهم من المرض ليس خيراً من الآسيويين والافريقيين . ففي مدينة ليل ، عام ۱۸۳۰ ، لا يتجاوز معدل سن نصف الاحداث بينهم ، خمس سنوات ، بينما لم يزدد معدل مدى الحياة في مدينة ملهوز على ٢٢ سنة . ويكفي ان تجدب الارض سنة واحدة او ان تجدب غلالها حولاً واحداً حتى يتهاوى المساكين والبائسون بعشرات الالوف.

فاللقاح الذي اكتشفه جنثر ساعد كثيراً على التحكم بسير الجدري، والبرص اعتصم في أشباه الجزر الجنوبية والسكندينافية ،بينما بقيت حمى البرداء على فتكها الذريع في بلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، والتدرن الرئوي المتلبس أشكال مرض السل ومظاهره المألوفة بقي يحصد الناس دونما رحمة او شفقة .

فالتيفوس والوباء والطاعون هي اكثر الأوبئة الوافدة التي خشي الناس شرها الوخيم . فالتيفوس ، كالطاعون ، مرتعه القذارة وانعدام الوسائل الصحية ، فهو يعشش في الزرائب وفي الاوساط التي تعاني من سوء التغذية ، او تذهب فريسة لويلات الحرب وفتكها الذريع . فقد تميزت اواخر الحروب النابوليونية بجائحة تيفوس فتكت دونما رحمة بالمانيا ، وبقي هذا المرض الوبيل الخبيث ينتقل من محل الى آخر في جميع ارجاء اوروبا ، معلناً عن قدومه واستشاطته بجبهات فتاكة تقضي على ۲۰۰،۰۰۰ في بلجيكا ، خلال الازمة التي استحكمت بها بين ١٨٤٦-١٨٤٧، وينزل بالمحاربين في الشرق ، عام ۱۸۲۹ ، ولا سيا في حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) من ويلاته ضحايا لا تحصى ولا تعد . وقد عرفت اوروبا ، بين ۱۸۱۰ - ١٨٣٢ ، ان تتفادى وافدة الوباء الذي نشأ بين سكان السلطنة العثمانية . وقد اتضح للجميع بالاختبار ان افتراس الجرذان الاغبر للجرذان الاسود والتهامه له فيه ما يخفف من انتشار هذه الجائحة .

ان الطاعون ضيف طارىء ثقيل ، يزرع الرعب أينما حلّ وقام ويسمر الخوف في القلوب والنفوس . فوافدته الكبرى اجتاحت اوروبا في اثر حملة الروس على ارمينيا وعلى ايران وأثناء الدور الاول من الصراع الدامي الذي نشب بين مصر وتركيا . فالعدوى سَهُل انتقالها خلال الحملات والاشتباكات الحربية ، التي قامت بين الروس والبولونيين ، عام ١٨٣٣ ، عقب وصول بعض السفن الموبوءة الى سواحل البرتغال محملة جنوداً وعتاداً لحساب دون بدرو، ووافدة الوباء لم تتجاوز استراخان عام ١٨٢٣ ، إلا انها اتجهت بعد ١٨٣٠ ، شطر اوروبا فاشتدت عليها وطأتها مدة سبع سنوات ومنها امتدت الى الجزائر [1] . فقد بلغ عدد الضحايا الذين خلفتهم وراءها في فرنسا مائة الف ، بينهم ١٦،٥٠٠ في باريس نفسها ، و ١٤٠٠ في برلين ، و ٢٠٠٠ في فينا و ١٠٠٠ في النرويج ، و ٦٧٠٠ في لندن . والمدن التي تثاقلت عليها وطأة الجائحة ، فرّ اهلها بأنفسهم الى الريف . فيا له من خوف مريع . فبمَ يستطب الناس ويتعالجون ؟ هل يفيد في سبب الموت الزؤام، البزموت والكلور والكينا وحمامات البخار . وعندما اصدر حاكم مقاطعة السين اوامره بنقل الاوساخ والنفايات بالعربات ، راح الزبالون بعد ان حرمهم هــذا القرار من لقمة العيش ، يشعلون النار في عدد من هذه العربات ، كما راح خصوم لويس فيليب ، يستغلون لحسابهم الخاص ، الاضطرابات التي نشبت في العاصمة ، كما راحوا يسممون الخواطر ، بالشرائع المغرضة والاقاويل زاعمين مرددين ان كزيمير بريّه يسمم الشعب بالتواطؤ مع الاطباء والكهنة . ولم يلبث الناس ان راحوا يتخاطفون النعوش والتوابيت وصناديق الموتى . ومع كزيمير بريه غابت وجوه: شمبوليون الابن وكوفييه وسادي كرنو .

والرياح الموبوءة الفاسدة اخذت ، بــين ١٨٤٧ و ١٨٥١ ، تهب من سباسب آسيا وفلواتها الموحشة في الحين الذي اخذت تستحكم في الرقاب ازمة اقتصادية حادة. ولما كان الشعب البلجيكي ضعيفاً وهناً لكثرة ما يعاني من ضنك العيش وسوء التغذية فقد رأت فيه الجائحة مرتعاً خصباً وفتكت فيه فتكاً ذريعاً ، فحصدت من بين صفوفه ٢٣،٠٠٠ نسمة . وبلغ عدد الضحايا ، في لندن ضعفي عددهم عام ١٨٣٢ ، كما ان امبراطورية القياصرة الروس سجلت لوحدها اكثر من ٦٠٠،٠٠٠ ضحية، وحصدت هذه الوافدة في باريس، بين ١٦،٠٠٠ و ١٧،٠٠٠ فريسة وجرأت على الجنرال بوجو ، « ملاذ المجتمع ومعقله الحصين » ، كما يقول فيه لويس فوير . واشتد الوباء بالأكثر في الاحياء المدقعة الفقر ، كما يؤكد ارمان دي ميلون . وكان الجيش النمساوي أداة نقل هذه الوافدة الى ايطاليا ، ومن مرسيليا انتقلت الى الجزائر . وقد سلكت الطريق ذاته عــام ١٨٥٥ ، فأناخت هذه المرة بكلكلها الثقيل على بلدان الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ، كما

---

(١) انظر الى الخريطة ص ٢٤ - ٢٥ ، وزيادة في المعلومات يحسن مراجعة البحث الاستقصائي الذي قام به السيد لويس شفاليه بعنوان: « الكوليرا أولى وافدات القرن التاسع عشر » المنشور في مجلة مكتبة جمعية الثورة، عام ١٨٤٨ (التي صدر عام ١٩٠٥)

سارت في ركاب الفرق الفرنسية في حروبها في شبه جزيرة القرم ، وانتقلت عن طريق النازحين الى اميركا . وقد عرفت اوروبا في آخر الامر كيف تتقي هذا الشر الوخيم .

مع ملطوس وضده

فلماذا ينجب الناس مثل هذا العدد من الولد اذا كانت قسمتهم الفقر المدقع والموت الخاطف وحياة ملؤها الغصص ؟ هـذا السؤال كثيراً ما طرحه على نفسه القس ملطوس في كتابه الموسوم : « بحث حول مبدأ السكان » الذي صدر عـام ١٧٩٨ ، والذي احدث صدوره دوياً عظيماً [١] . فعندما راح يهاجم نظرية النشوء والارتقاء ، هـذه النظرية التي قال بها فلاسفة القرن الثامن عشر وعلوا ، حسب عليه هجومه هـذا شجباً للقانون الانكليزي المتعلق بالفقراء ، هـذا القانون الذي حبذ تكاثر النسل لدى طبقة المعوزين، مشيراً بذلك الى ناموس المتوالية الهندسية ، بينما « وسائل التغذية » لا يمكن ان تتطور وتزداد بأسرع من « المتوالية الرياضية » . وقد تنطح للرد عليه غودون ، فراح يؤكد ان البؤس والفقر انما ينشأ عن تفاوت في توزيع مصادر الثروة الطبيعية او عن سوء في هذا التوزيع ، وعن تمركز الملكية العقارية وحصرها في ايدي عدد قليل من الملاكين . وقـد وقف هذا الموقف المناهض لمالطوس هذا القبيل من الناس الذين راحوا يتمنون ردة عكسية للحد من حرية التصرف المؤاتية» في نظر سسموندي ، « للدول الثرية ، حيث ظاهرة البؤس والفقر العـام تسير جنباً الى جنب والثراء المادي » . وقد حرص ماركس ولا سيما انغلز على تجريح نظرية ملطوس ودحضها ، الذي ينزل العامل منزلة حيوان الجر ، تأميناً للانتاج ، ويذهب بالحكم عليه بالموت جوعاً ، والعيش اعزب طوال حياته . وعلى عكس هذا تماماً راح المتحررون من علماء الاقتصاد ، يرحبون بمبدأ يتنافى والاصلاح الاجتماعي . من الواجب ، وأيم الحق ، تشجيع النـاس على الاقتصاد وحملهم على التوفير ، بدلاً من التكاثر والانسال بكثرة ، كما يؤكد جان باتيست ساي المعروف بشدة تفاؤله والذي لم ينفِ قط « ان جانباً من الناس يموتون من العوز والتضور جوعاً حتى بين الشعوب التي تنعم بالازدهار المادي » . وراح دونويه ، عام ١٨٣٣ يوصي بقطع المساعدات الانسانية عن كل الأسر التي لا يزيد عدد الاولاد عندها ، على ولد واحد . وجان ستيوارت ميل لا يتورع قط عن « النظر الى الأسر العديدة الاولاد والبنين نظرة الازدراء والاحتقار التي يحتفظ بها للمدمنين على تعاطي المسكرات او لغير ذلك من الموبقات الجسدية » . وتألفت في انكلترة عصبة خاصة تعرف بعصبة ملطوس اخذت على نفسها مناهضة الانسان والأسر الولود بين البائسين .

وهكذا انفتح باب الجدل والنقاش على مصراعيه . فهل يقضي العصر لملطوس او عليه ؟

---

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٥٩٩ و ٦١٢ (الطبعة العربية)

الفصل الثاني

العناية بالأرض في اوروبا
أنماط الحياة القديمة والتطور

« كل مخلوق بشري أوتي القدرة على انتاج كمية تزيد على حاجته من الغذاء » ـ غودوين: (نظرات حول السكان ـ ١٨٣٠)

الطابع السائد في اوروبا لا يزال طابع التربة والارض

لم يكن في مقدور « الثورة الصناعية » ان تزيل عن اوروبا ، وهي بعد عند عتبة القرن التاسع عشر ، الطابع الريفي الذي لازمها منذ عهد سحيق . ومهما كان من الدفع الرأسمالي في انكلترا ، فالتوازن لم ينقطع ، لدى سكان الجزيرة ، بين الثروة العقارية (*Landed Interest*) وبين الثروة النقدية (*Moneyed Interest*) لجهة الاخيرة منها . أما في فرنسا ، التي دخلت في ظل إعادة الشرعية الى الحكم ، فالتربة تمثل ثلاثة أخماس الثروة الوطنية ، وهي نسبة تجاوزت هـذا الحد في معظم دول القارة . فإن كان الانسان لا يزال يعول في معايشه على عمله في الارض والسعي لتأمين ما فيه كفافه ، فقد بقي الخوف من الجاعة هاجسه اليومي الذي لم يبارحه إلا في السنوات التي تجود بالمواسم الطيبة والغلال المشجعة ، حتى المدن التي كان شأنها متواضعاً على الاجمال فقـد وجدت نفسها غارقة في محيط ريفي تعيش معه في مقايضة موصولة وتبادل لا ينقطع .

الاقتصاد الريفي لا يزال على طابعه التقليدي

حرص الاوروبيون الذين همهم ، في الدرجة الاولى ، تأمين أوَد العيش ، على ان يجنوا من غلال الارض ومحاصيلها المتنوعة ما يؤمن معايشهم العادية. مضبوطة هي الارض التي تكفي نفسها وتفي بفرائضها المرسومة ومباركة المواسم التي تتيح لأصحابها توفير بعض الغلال ، بعد ان يسدد المزارع ما عليه من رسوم وأتاوات وضرائب وعوائد .

فالمساحات المخصصة لانتاج الحبوب لم تكن ابداً ، فائضة عن الحاجة ، إذ المهم في هـذه الحياة تأمين حاجـة المرء من الحنطة . فالمحاصيل الزراعية في البلد الام تكفي عام ١٨١٠ ،

بحاجات ٩٠٪ من البريطانيين . فإن قصر موسم الشوفان شال موسم القمح . ومع ذلك بقي خبز القمح ورغيف القمح من الامور الكمالية او الترفيهية . والشوفان والشعير والذرة دخلت أكثر فأكثر في تكوين الرغيف والطلبة والعصيدة . أفليست كعكة الحلوى او قرص الحلوى في سكوتلندا من الترطم ؟

وتربية الماشية تأتي بالرديف المؤمل والعنصر المساعد ، وهي تربية تعوّل ، الى حد كبير ، على انتاج الحقل اكثر منها عملية استثمار قائمة بذاتها . فهي تولي صاحبها القوة وتوفر له حاجته من اللبن واللحم ، اذا ما كانت تقوم على تربية الخنزير وتعتمد على السماد الطبيعي . وهذه السائمة التي تعيش قطعانها بصعوبة كلية ، على المراعي والمحصول الجاف والتي تفتقر احياناً للملح ، هي عرضة ، من حين الى آخر ، لجوائح وأوبئة تصيب الماشية ، فتفتك بها حتى الفناء ، باستثناء الوباء البقري منها . ومع ذلك فالخروف ، يسرح في الجنوب ويمرح في مراع واسعة يغشاها دورياً مع مواسم الظعن . والماعز الذي يعرّفونه عادة ببقرة الفلاح يقضي على الخضرة في الارض بعد ان يقضمها قضماً من الاساس .

والأهمية التي اتخذتها زراعة البطاطا بحيث اصبحت الركن الركين في نظام التغذية تعبر من نفسها عن حراجة الوضع ، كما انها دليل على قلة الطمأنينة للمواسم الزراعية وتقلباتها المحتملة . فما من شك قط ان السهول الساحلية الرطبة لم تكن تكفي لتأمين ما فيه أوّد العيش لسكان الآخذ عددهم بالازدياد لولا التعويل على المحاصيل الاخرى في البلاد ، وهذا ما يفسر لنا كيف ان ايرلندا لم تقفر من السكان منذ عهد بعيد .

وفي اماكن وفراح كثيرة ، لم يكن الجهد البشري ، حتى بعد ، السيطرة على سطح الارض القابل للزراعة . فقد يقنع الفلاح باستثمارها الموقت مستعيناً على ذلك بوسائل بدائية تؤول الى حرق الاعشاب بعد كشطها ، وعزق التربة واحيائهـــا والتسميد ، كما اخذ العمل بذلك كلــه مناطق عديدة من الاردن . ومهما تكن دورة الارض الزراعية فهنالك دوماً ارض بور . وأمام فقدان السماد الحيواني ، كثيراً ما عمـــد الفلاح الى الزبال او السماد الاخضر . وكثيراً ما يقنع بعزق الارض على الطريقة الصينية ، اذا لم يتوفر له ما يلزم ، من حيوانات الجر والفلاحة وكثيراً ما جرّ البزار الرديء او المتأخر عن اوانـــه ، والعزق الناقص ، الى مواسم سيئة . فالأعمال الزراعية يقتضي لها جهود شاقة ووقت طويل وسواعد مفتولة . فالبزار يتم باليد ، وهي حركة معرورة تبقى عماد الموسم الزراعي الى اواخر القرن . فالحصاد يجري بالمنجل ، والدراسة بالخابط او النورج تجره الأبقار . فالصور الفرعونية لعملية الحصاد لا تجرح انظار الصغار .

الازمات الزراعية

هذا النظام الاقتصادي القائم على موسم الحبوب ولا سيما الحنطة يبقى دوماً عرضة لتقلبات خطيرة اساسها اصلاً ضعف معدل انتاجية الارض ، وهذه التقلبات التي تطرأ على الحد الاعلى في المحصول ، وقصور وسائل النقل وبطئها . وهكذا اصبحت سوق الحبوب سريعة الحساسية الى حد بعيد . وهـــذه التقلبات السريعة كثيراً ما تقع خلال فترة من

ركود الاسعار او هبوطها ، هذا الهبوط الذي يطبع بيسم خاص، عام ١٨١٧ وما بعده ، وهو ركود تعقب حقبة طويلة من ارتفاع الاسعار استطالت الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر [١].

ومع الاستقرار ، انعكس الوضع وانقلب ، إذ يكفي ظهور موسم عاطل واحد لتطل الازمة برأسها من جديد . فعندما برزت ازمة عام ١٨١٦ ، ارتفع ثمن الهكتوليتر من القمح في فرنسا ، من ٢٢ الى ٣١ حتى بلغ ٤٦ فرنكاً في بعض الاماكن . وراح الناس ينزلون باللائمة على المحتكرين ، كما راحوا بالتالي يطالبون بالمصادرة . وقد تجلى الهيجان ، إذ ذاك ، بأعمال سرقة الطحين ومحاولات تعدٍّ بالقوة . وكما حدث في عهد لويس السادس عشر ، راحت الحكومة تعفي القمح من رسم الدخولية ، وتعطي مساعدات لمستوردي الحبوب ، وفتحت ابواب المشاغل الخيرية . ومنذ ١٨٢٥ ، اخذت البلاد تشكو من فقدان البطاطا مما سبب زيادة جديدة في اسعار المواد الغذائية ، ولا سيما في اسعار الحبوب ، فعادت الاضطرابات وسيطر الهيجان في مطلع عهد ملكية تموز ، وجرت اعمال عنف ضد النبلاء وضد جباة الضرائب غير المباشرة ؛ فإذا ما هبطت الاسعار عقبَ ذلك هدوء الاحوال. وعندما عادت الاسعار الى الارتفاع من جديد ، عام ١٨٣٢ ، عاد الهيجان يطل ثانيــة ليعكر صفو الامن . فندرة المواد الغذائية اوجدت مناخاً لا ينسجم واستتباب الامن في البلاد ، عام ١٨٣٨ و ١٨٤٠ .

وقلة المواد الغذائية وفقدانها كانت اصلاً وراء الانتفاضة الثورية التي وقعت عام ١٨٤٨، اذ قلت البطاطا في الاسواق بعد ان فتكت بها حشرة مهلكة . ففي الحين الذي لاقى فيه مئات من الألوف في ايرلندا حتفهم جوعاً وتضوراً (الأمر الذي سبب مهاجرة أكثر من مليون نسمة من سكانها) طرأ موسم جفاف اجدبت معه مواسم الحبوب في هــذه المقاطعات الواقعة بين السين والرين فتعرض لمجاعة شديدة سكان منطقة واسعة تقع على سواحل البحر الابيض المتوسط . وهكتولتر القمح الذي كان سعره يتراوح بــين ١٨ – ٢٣ فرنكاً قفز فجأة الى ٤٣ فرنكاً . كما أن سعر الخبز تضاعف من جهة ثانية ، هــو الآخر . فالانعكاسات والردات هي واحدة مما شجع جول فاليس على أن يضع كتاباً حول فتنة انتفاضية في فرنسا في مقاطعة الاندر ، صدر بعنوان « البلوزات » . وكان من جراء حركة ارتفاع الاسعار والاستيراد، أن ضعفت السيولة بين أيدي الناس وأوصلت الازمة الى القطاع الصناعي . وعند أقل بادرة تساهل من قبل القوى الساهرة على حفظ النظام ، كانت الجماهير المهتاجة في كل مكان تعمل على اسقاطها والتخلص منها ولو الى أمد قصير .

---

(١) راجع الكشف البياني ، الشكل ، في الفصل ٦

نتائج « الثورة الزراعية » في النهج البريطاني

هنالك كما يبدو تطورات ملحوظة بدت طلائعها منذ القرن الثامن عشر .

راح آرثر يونغ يؤكد عالياً « ان طريقة تعاقب المزروعات العلفية ، الخاصة بالماشية مع زراعة الحبوب الغذائية ،هي القاعدة الاولى والركن المعول عليه في النظام الزراعي المتبع في انكلترا » . ويؤكد نورفولك بالفعل : ان الدورة الزراعية الرباعية من شأنها ان تقضي على الارض البور وان تزيد الارض خصباً بمزجها التربة بالنباتات والحشائش والمواد العلفية الغنية بمنصر الازوت وهي النظام الذي ارتكزت عليه واعتمدته «الثورة الزراعية» . وعلى هذا فان اضافة بعض انواع الفصيلة الصليبية كاللفت والكرنب والسلجم وبعض الحشائش الريفية التي تتكاثر بالبذار كالفصة والبرسيم والحلفا يجب ان تعتبر من افضل الطرائق العلمية التي استنبطها العصر الحديث . وقد اخذ بطريقة التحويل الزراعي وتطبيقها كبار المزارعين الانكليز . بينما عارض المزارعون ، في فرنسا ، اقتباس هـــذه الطريقة لما تمثله من صدمة تلحق التقاليد المتبعة لدى صغار الملاكين والمزارعين ، في فرنسا ، مثلاً . ومع ذلك فقد راحت اراض عديدة معروفة بطيب تربتها ، بين المارش ومقاطعة بوهيميا او في سهل نهر البو ، تحاول زرع الشمندر السكري بينما اخذت أماكن اخرى تعاقب بـــين زراعة السلجم ، وبين زراعة الحبوب والبطاطا ، ومثل هذه البقول تجد لها سوقاً رائجة في المدن المكتظة بالسكان . وراحت زراعة الكرمة في الغرب تتقهقر أمام الاقبال المتزايد على زراعة التفاح . بعد ان ثبت بالتجربة ان التربة والمناخ في المقاطعات الجنوبية هي أكثر ملاءمة لها . كذلك حشيشة الدينار اخذت مناطق زراعتها تنحدر من الشمال الغربي ، نحو وادي الرين ومقاطعتي بورغوني والبافيير .

وقد عولوا في علف الماشية ، على بعض الحبوب . فراح العاملون في تربيـــة الماشية في انكلترا يعنون ، على الاخص ، بتأصيل عروقها واستيلاد انواع جديدة بالمصالبة . فقد همهم أن يحصلوا على عرق من الابقار يعطي المزيد من اللحم او الحليب . كما راحوا يستولدون عروقاً جديدة من الغنم الجيد الصوف . وهكذا استطاعوا ان يجعلوا لهم تقاليد محترمة يعمل بها في مجال تربية الماشية . من ذلك مثلاً ، النوع المعروف عندهم بـ *Durham Shorthorned* القصير القرن . كذلك صرف المزيد من الاهتمام والعناية بنظام السقاية والري استوحيت اصوله من الاساليب المستعملة في الاراضي الاسبانية *huertas* المروية المشهورة بخصب زراعاتها . وكان من بعض نتائج هذه الطريقة ظهور مروج ومراع هامة في انكلترا وفي بعض بلدان القارة .

وأخذت اوروبا تجري تجارب تأصيل واستنبات عروق جديدة بين الغنم والبقر . فبعد ان كان الخروف من عرق المارينوس يعد في فرنسا مليون ونصف المليون ، عام ١٨١٥ ارتفع عدده في عام ١٨١٠ الى ٨ ملايين رأس . وقبل أن تدخل بلدان جديدة مضمار تربية الماشية ،

أقبلت اوروبا القارية على هذا النوع من الاستثارات ، بصورة غريبة بحيث ان المانيا عدت ٢٠ مليون رأس ، منها ٨ ملايين في بروسيا .

وبذلوا كذلك المزيد من الاهتمام والعناية لرفع الإنتاج في الاراضي الخاصة بزراعة الحبوب بعد ان ظهر للجميع فائدة تسميدها بالكلس وتخصيبها . ومع انه اصبح في الامكان التعويل ، أكثر فأكثر ، على السماد الحيواني ، فقد راحت شركات استثارية بريطانية ، تعنى باستعمال العظام المسحوقة لهذه الغاية حتى ان احداها اخذت تستعمل تربة بعض الحقول التي كانت ميداناً لاحدى المعارك النابوليونية الكبرى . وأخذ الغوانو Guano يلعب ، بعد عام ١٨٤٠ ، دوراً بارزاً في عملية تسميد الاراضي الزراعية ، ومثل هذه المادة تتوفر بكثرة في بلدان اميركا الجنوبية المطلة على شواطىء المحيط الهادي . كذلك جاء بفائدة كبيرة الاختراع الذي تم على يد ليبيغ Liebig ومكنه من صنع مخصبات صناعية تستمد من الكيمياء الصناعة .

ومما استدعى اهتماماً أكبر وجهداً مريراً هي الاراضي التي عرف الانسان ان يستخلصها من البحر . فقد طرأ تحسين كبير على طريقة تصريف المياه تدريجياً بواسطة قساطل متخذة من الطوب والقرميد ، وهي الطريقة التي اقترح العمل بها السكتلاندي سمث عام ١٨٢٣ . وقد عرف بيل Peel ان يحدث حولها دعاية للترويج لها ، وذلك باعتماده لها في مزرعته الواسعة في شافوردشير بانتظار الانابيب التي اوصى عليها في معامل هوايتهيد في برستن . ونظام تصريف المياه مع نظام سقاية دقيقة مكن من زراعة واستثمار السهل البادالي . وهكذا امكن ادخال تحسينات ملحوظة على الاراضي الواطية في يوركشير ولنكولنشير ، وسهل فوريز ، وبطائح سولوني والمستنقعات القائمة في المانيا الشمالية .

ولعل ما يلفت النظر في هذا النشاط الزراعي ، عمليات تجفيف الاراضي الواطية وانشاء المزارع مكانها . وبهذا تم للانكليز الاستيلاء على Fens ، كما اخذ الفرتيون يجففون مستنقعات Moors . وتمكن الهولنديون على الاخص ، بين ١٨١٥ – ١٨٧٥ ، من استخلاص اراض من البحر مساحتها ٥٨،٠٠٠ هكتار ، مقابل ٢٥،٠٠٠ هكتاراً تم استخلاصها منذ عام ١٦٧٥ ، وبذلك تم ضم مقاطعات كيفراس ، وانابولونا ، وأزالوا بحر هارلم ، وراحوا فيما بعد يعملون على تجفيف ونزح مياه مستنقعات مياه لوماس وبولينا ، بعد ان استبدلوا المضخات التي تعمل على الهواء بأخرى تعمل على البخار . وفي الوقت ذاته ، استمر العمل في بناء سدود ماركنتير ، وإحياء اراضي مستنقعات البراتو ، وتثبيت كثبان الرمل في مقاطعة كغوني . وهكذا اتسعت شطآن اوروبا المطلة على الاطلسي وأمكن تثبيتها .

وهذا الجهد لا يعني قط إغفال ما للأدوات الزراعية من قيمة والانتقاص من شأنها بعد التحسين الملحوظ الذي طرأ عليها قبل اكتشاف البخار . ولم تلبث انواع المحاريث الانكليزية المحسنة ،

على اختلافها ، من طراز *Bibble* و *Howard* و *Mathieu* ان غزت القارة واكتسحت أسواقها وذاع استعمالها في مختلف البلدان الاوروبية .

ومع ذلك فهذه النجاحات التي حققتها الهندسة الزراعية لم تكن بحاسمة قط . فالتجارب والمشاريع الفردية التي قام بها في هذا المجال أمثال ماثيو دي دومبال وإيفار ، الذي كان في فرنسا ، ما كانه آرثر يونغ في انكلترا ، لم تلقَ التشجيع المرتجى من قبل السلطات في باريس . فالأساليب والطرق الفنية الانكليزية وجدت لها استجابة اكبر بين كبار الملاكين في بروسيا ، وأصبحت المدارس الزراعية تعتمدها كل من *Thaer* و *Thumer* . وطبّق بسمارك في مزارعه الواسعة ، في كنيفوف ، الارشادات والاقتراحات التي أوصى بها الاخير منها ، كذلك اخذ بأسباب التجدد وتطبيق وسائل الزراعة الحديثة وأساليبها كبار الملاكين في الامبراطورية النمساوية ، وفي ايطاليا ايضاً امثال كافور ، وفي روسيا .

كل من تطلع ، عام ١٨٥٠ ، الى الارياف ، في كل من فرنسا وانكلترا رأى الفرق والتباين بين ما كانت عليه مناظر الريف والحدائق بين البلدين ، وكلها تشهد بالسبق الذي سجلته الزراعة الانكليزية في هذا المضمار . كذلك جاء الفرق كبيراً بين اسطبلات الخيل في مقاطعة نورمنديا ومقاطعة الليموزين . ويتضح من البيانات والحسابات الدقيقة التي وضعها ليونس دي لافيرني انه يلزم فرنسا ثلاثة ارباع القرن من الجهد والتطور الزراعي لتصبح في المستوى الذي بلغته جارتها في هذا المضمار .

بريطانيا العظمى وكبار الملاكين

عندما انتهى كبار الملاكين في انكلترا ، عام ١٨٤٥ من إقامة السياجات وعملية التحصين حول ممتلكاتهم العريضة ، كان قد صدر ، قبل ذلك ، منذ عام ١٧٠٠ ، نحو من ٤٠٠٠ قانون او قرار ، تطالب بشكل او بآخر اصحاب الاملاك إحاطة أملاكهم الواسعة بالأسوار والسياجات اللازمة . وهكذا أتيح لهؤلاء الملاكين الاستيلاء على جانب كبير من الاراضي في انكلترا .

هنالك زهاء ٢٠٠٠ من كبار الملاكين كانوا يملكون اكثر من ثلث مساحة الاراضي الزراعية في انكلترا ، ولا يزال تحت تصرف البعض منهم اليوم ، من هذه الأملاك الشاسعة ما يربو على ١٠٠٠٠٠ والبعض على ٤٠٠٠٠٠ هكتار ، وهي ممتلكات تضم لعمري جانباً كبيراً من الاراضي الموات والمراعي . ورغبة من الارستوقراطية العقارية البريطانية في رفع وارداتها ، راحت تحاول لتجعل من اراضيها وممتلكاتها استثمارات زراعية ناجحة . ان آل بدفورد مثلاً ، استطاعوا ، بعد ان عنوا بتصريف مياه المستنقعات من بعض ممتلكاتهم ، وإحياء الكثير من الاراضي الموات ، ان يؤمنوا لهم دخلاً سنوياً من مواسمهم الزراعية تجاوز مليونين ونصف [١] . فأملاك الكونت

---

(١) الاشارة هنا الفرنك الفرنسي وفقاً لقيمته الفعلية في شهر جرمينال من العام الثوري الحادي عشر .

ليستر الذي عرف بمعارضته لنظام الدورة الزراعية ، والتي بلغت مساحتها ١٢،٠٠٠ هكتار ، وقيمتها خمسة ملايين، في عام ١٧٧٦ ، ارتفعت اسعارها الى ٣٥ مليوناً ، عام ١٨٤٠ . فالأملاك الواسعة تولي اصحابها ومالكيها سؤدداً ونفوذاً عظيمين . فالبورجوازي الكبير بيل لا يخرج عن كونه ابن درايتن مانور او صرح درايتن .

ففي انكلترا نحو من ٢٠٠،٠٠٠ من هذا الصروح التي تبدو ببساطتها من الداخل وتشرف بارتفاعها على المروج السندسية والغابات . ووجود هذه الحدائق والمروج التي تكثر فيها اسباب القنص والصيد تضفي على مالكيها شخصية تفرده ، كما انها تيسر له ولضيوفه ونزلائه ما يبعث في نفوسهم البهجة إذ تمكنهم من الانصراف لرياضة الخيل والالعاب الرياضية . فعلى مقربة من مدينة شفيلد التي تغشاها الجلبة والضوضاء كما تغشى جوها سحابة دائمة من الدخان الكثيف ، يقوم قصر هوق ديفونشير المنيف الذي يحاكي بجماله وروعته ومناظره ، قصر فرساي من قريب بباهه المادرة ومساقط مياهه وأحواضه وفسقياته المزدانة بالتماثيل، وبدفيئته الفنية التي عولوا عليها لتجهيز معرض لندن ، عام ١٨٥١ ، بما يلزم . ويحتشد الأسياد من كبار الملاكين بالمئات في حفلات الصيد المرحة فينصرفون لصيد الثعلب وما اليه من طرائد الطير والوحش التي تحوم في الغابات والمرتفعات الفيحاء .

فالجهاز الاداري في المنطقة يقع تحت تصرف الطبقة المالكة بما لديها من قوى الشرطة وأجهزة العدل حتى ورجال الاكليروس تنويها بما توليه الملكية العقارية لصاحبها من شرف وسؤدد. وهذا الوسط الكبير من كبار اصحاب العقارات الكبرى يعرف ان يؤمن له ريعاً كبيراً مما على سطح الارض او في بطنها ، يساهم الى حد كبير في تأمين ما يؤول الى تطوير المدينة ومرافق الصناعة في البلاد . ويملك كل من اللورد وستمنستر وبدفورد ، جانباً هاماً من لندن يتكون من أطيان وعقارات طائلة ، ويقومان فيها بمعاملات وأعمال تجارية واسعة ، وإيجارات مع رهن وبنيان العديد من المباني والعمارات التجارية لاستثمارها . ويحصل لورد دورهام ولورد لندندري في تجارة الفحم الحجري وتسويقه ويملك كثيرون من كبار الملاكين المصانع والمعامل. ما من شركة تجارية ولا من مصرف مالي إلا وله عائدات عارمة من ريع العقارات التي يملكها ، وهذا الريع هو في انكلترا أعلى منه في القارة بفضل قوانين الحبوب (*Corn Laws*) التي تحظر دخول الحنطة الأجنبية الى البلاد. في مقدورنا ان نلاحظ شيئاً من التناظر بين القوانين المتعلقة باقامة السياجات (*Enclosure Acts*) وبين الثمن سعر الحبوب. ففي الحين الذي كان فيه علماء الاقتصاد وآدم سمث ينظرون الى الدخل او الريع العقاري نظرهم الى هبة او عطية من الله رأى ملطوس في هـذا الريع نتيجة حتمية للضغط الديموغرافي في البلاد . وما هو ريكاردو يشجب ربيبة القلة والعوز ، هذه الثمرة المبارزة الخائنة . ويتساءل كوبدن المتفائل مستوضحاً ما اذا كان باستطاعة صغار الملاكين في البلاد ان يعرّضوا، باستمرار ، سكان المدن للمجاعة. ولذا حتمت المجاعة التي وقعت عام ١٨٤٠ *Hungry Forties* على اصحاب الاملاك الكبيرة، القيام بتنازلات ملحوظة بهذا الشأن.

ومن جهة اخرى ، كان المزارع في انكلترا الطفل وضعاً من زميله في القارة ، إذ إنه يملك منزلاً بورجوازياً يضم غرفة الاستقبال وينعم في سويعات فراغه بالمطالعة والرسم ويبعث زوجته لتبتاع من المدينة ما رغب في شرائه من ألبسة وزينة . هنالك ، بالمقابل بروليتاريا هي دوماً عرضة لتقلبات سوق العمل ، كما يوجد في البلاد ، طبقة من اصحاب الفقر المدقع ، كما يدل على ذلك هذا العدد المرتفع من هؤلاء العمال المسجلة اسماؤهم في بيت العمل *Workhouse* ، إذ تتراوح نسبتهم بين ١٠ و ١٥ ٪ من سكان الناحية ، وهي حالة فقرية يزيد من بؤس اصحابها وتعاستهم التطورات السريعة التي اخذ بأسبابها رأس المال الصناعي ورأس المال الزراعي ، إذ جرّ الاول الخراب على الحِرف اليدوية في الريف كما استأثر الثاني بالسيطرة على الارض . فالاصلاح الزراعي الذي أجري عام ١٨٣٤ لم يحدث اي تغيير يذكر ولم يحوّر شيئاً من المبادىء التي كرست ديمومة هذا الشكل من الفوضى الاجتماعية في البلاد . وبالرغم من المساعدة التي قدمها هــذا الاصلاح للراعويات التي لم يعد بامكانها مد يد المساعدة للمعوزين والبائسين ، فهو لم يمنع المساعدة عن هذه الأسر إلا ليجعل العمل الالزامي أشد اسراً وأنكد عيشاً .

الفلاح الايرلندي
وما يعانيه من بؤس ومذلة

بحق الفتح وباسم القوة سيطر كبار الملاكين على ايرلندا هذه الجزيرة الواقعة الى الغرب من انكلترا . فسواء أقام فيها صاحب الارض او في مدينة بلفاست او في دبلن او مكث في انكلترا ، فهو لا يستثمر منها سوى قسم ضئيل من رأس ماله وهو على يقين بأنه سيجد دوماً فيها السواعد المفتولة. فالسكان الذين يتناسلون فيها بسرعة يتوزعون بين ٧٠٠،٠٠٠ مزرعة (مقابل ٢٠٠،٠٠٠ في بريطانيا العظمى) معظمهم لا تزيد مساحة مزرعته على هكتارين وتبقى شبه ضائعة لا تقع عليها عين بين ممتلكات تتراوح مساحة الواحـــدة منها بين ٦٠٠٠ و ٦٠،٠٠٠ هكتار . فالمرابع او المزارع الضعيف الجانب يشده الى الارض عقد مشروط لا يستطيع معه مبارحة المزرعة التي يعمل فيها لأخرى إلا بعد إنذار صاحب الارض برغبته تلك بستة اشهر ، عملاً بالعرف المتبع (*rundale* او *runrig*) الذي يجعل القريـــة بأجمها متضامنة متكافلة معاً في أداء المفروض عليها من الغلة او *Conacre* المرتبط دوماً بأمل الحصول على موسم طيب ، تسديداً ووفاء لعوائد باهظة . فهو لا يتمتع حتى بهذه الطمأنينة التي تتوفر لرقيق الارض . فهو يستدين ليؤمن بذاره والعشر المترتب عليه نحو الكنيســة ، سواء أكان من أتباع الكنيســة الانكليكانية او لا ، والضرائب العقارية التي زادت فداحة منذ الحروب الاخيرة . ولما كان دخله لا يمثل إلا ثلث المحصول القائم ، كان على ملتزم الارض ان يتدبر امره بالاستدانة بفوائــــد عالية وبيبيع قسم من حصته . وكان من جراء هــــذا التصرف ان فقدت البلاد مواردها لا سيما اذا ما عرفنا ان مساحة الارض المخصصة لزراعة المواد الغذائية أخذت تتناقص امام إقامة المراعي والمروج. والبطاطا وحدها هي المعول عليه في تأمين أوَد الاسرة والخنزير الذي يحتل قسماً من المطبخ في الزريبة فيأخذ الفلاح الايرلندي يجوب الارض بحثاً عن عمـل (هنالك اكثر من ٦٠٠،٠٠٠ يبقون عاطلين عن العمل اكثر من

نصف السنة) وإلا اضطر ان يبلغ عيث الضنك في منزله الموحل يصطلي، على الرديء من الفحم . يتنازعه عاملا الاستسلام واليأس .

زد على ذلك الاضطرابات الزراعية التي كثيراً ما رافقتها حرب دينية وصراع مستميت ضد اجنبي طارىء استباح باحة البلاد مما لم يترك للانكليز سوى فترات قليلة من الهدوء النسبي وراحة البال . فبعد الهيجان الذي احتدم أواره عام ١٧٦٣ - ١٧٦٤ ، والفتنة الدامية التي قامت بين ١٧٩٦ - ١٧٩٧ ، وهذه الفوضى التي استبدت بالبلاد بين ١٨١٠ - ١٨١٤ ، والمجاعة التي أنشبت أظافرها ، عام ١٨٢٢ ، كل ذلك جر البلاد الى اضطرابات دامية تخللت الازمة التي نشبت عام ١٨٣١ اصبحت معه الجزيرة مسرحاً لأعمال العنف والحرائق والجرائم السياسية . ولم يعد الأمن الى نصابه إلا بعد حوادث ١٨٤٦ - ١٨٤٨ المفجعة التي أدت ليس الى إفقار الريف فحسب بل الى ثورة دامية .

في فرنسا مجتمع من صغار الملاكين المتواضعين

بعد عودة البلاد الى الشرعية وجد ملوك آل بوربون عندهم طبقة من الفلاحين متحررة تماماً من النظام السيادي . وهذا المجتمع ما زال يتألف في كثير من المناطق من مزارعين ومرابعين وعمال مياومين . فبعد ان صدمت آمالهم في ما علقوا النفس به وتوقعوا من تقسيم ، استمسك اكثرهم حرماناً بالأعراف المعمول بها جتمعياً ، هذه الأعراف التي شجبتها ونددت بها غالباً التشريعات الفردية والاقتصادية . وعندما راحت حكومة تور تفكر بإلغاء حق رعي الماشية في المراعي الخاصة ووقف العمل بما تمتعوا به من حق المرور ، والمباشرة بإحياء الاراضي الشاعية وتمييرها ، ألمرت المجالس البلدية امامها احتمال قيام هيجانات شعبية في البلاد. وقد استقر في روعها انه من الافضل الاخذ بنظام تأجير الارض بدلاً من توزيعها. وقد صدر بذلك، عام ١٨٥٠ ، قانون بيّن وسائل تطبيقه ووضعه موضع التنفيذ .

هنالك أملاك ساروا في استثمارها وفقاً لأصول الزراعة الحديثة كما حدث احياناً منذ القرن الثامن عشر ، وظهر للعيان الفرق بينها وبين الاملاك التي سادت العناية بها فبارت بالتالي مواسمها وفانت غلالها. ويلحظ ستاندال في « مذكرات سائح » تحول بعض اصحاب الاملاك الذين قالوا بالشرعية ، الى العناية بالارض . وراح بعض البورجوازيين وبعض اصحاب الاراضي من النبلاء ، خذاً منهم بالنظام الانتخابي المعمول بـه ، يتحكون بمجتمع ريفي تسوده الفردية والتشتت . الأملاك العقارية هي متواضعة الحجم ، اجالاً ، باستثناء بعض المقاطعات حيث المزارع الكبرى بقيت تدار وفقاً للتقاليد المرعية، وحيث المستأجر يفتقر للنقد والسيولة لتأمين ما يطمع فيه من ارباح واستقرار .فهل كان فوربيه يغلو عندما يؤكد لنا، عام ١٨٢٩ ان هنالك في ارجاء مقاطعة بيكارديا ، فلاحين ومزارعين لا فراش عندهم في هذه الأكواخ الترابية التي يعيشون فيها ، فهم يتخذون لهم فراشاً من الاوراق اليابسة التي تعبث فيها الهوام والحشرات . ويتساءل نويل


تفليس
طرابزون
ارضروم

بارفيه ، عام ١٨٤١ ، ما اذا كان وضع الفلاحين العاملين في سهول Beauce يختلف كثيراً عن وضع آبائهم وجدودهم، إذ كان طعامهم دون ما يحتاجون اليه بكثير ، إذ لم يكن غذاؤهم اليومي سوى الخبز الاسود الناشف بعد ان كانوا يؤمنون لنا خبزاً ابيض شيأ – وبعض البقول ، وشيئاً من الجبنة مع الماء بالقدر الكافي ، هذا الماء الذي ينقص احياناً ، في فصل الصيف بعد ان تجف البرك والغدران وتنزح الينابيع والآبار ، بينما لا يذوقون من انواع اللحم غير دهن الخنزير ضمن ورقة الملفوف ، مع العلم ان الحصة السنوية للفرد الواحد من القمح واللحم قد ارتفعت ، من عهد لافوازييه الى سنة ١٨٤٠ ، من هكتولتر وربع و ١٨ كيلو من اللحم الى هكتولتر و ٣/٤ من القمح و ٢٢ كيلو من اللحم ، بالاضافة الى كمية اكبر من البطاطا والخضراوات والحليب وأحياناً النبيذ . والنظام الاقتصادي الذي حرص ابن الريف دوماً على التمسك به هو ان يكفي نفسه بنفسه وان يبيع كل ما يعطيه مردوداً أطيب ، وهي عقلية رجل مقتصد همه الوحيد ان يتمكن من زيادة املاكه مهما كلفه الامر من حرمان ، ويحمل من غصص ومضض ، مع العلم انـــه لن يتمكن دوماً من تفادي الوقوع في الدين . وهذا هو بالذات ما حمل بردون ان يرى في عمليات الرهن التي كثيراً ما تعرض له ابن الريف،المشكلة الكبرى، هذه المشكلة التي رأى فيها ماركس انه حلت محل الرسوم السيادية .

وهكذا مهما بدا من امر هذه المفارقات الاقليمية القائمة ، فالريف الفرنسي بقي متمسكاً بالأعراف والتقاليد التي أقصرت سكانه على العيش الحقير . فهم يصرفون اوقاتهم في المماحكات والانتقاص من خدمة المعلمين ورسالتهم ويسلمون بالخدمات التي يؤديها الطب ، ويعولون كثيراً على الاطباء الدجالين ، ويخشون جانب النبلاء ويستسلمون بكليتهم كالأطفال ، لمباهج الأعيـــاد الوطنية وأفراحها ، ويتنكرون هنا ، للخوري الذي يقوم على خدمتهم الروحية ، ويجلونه هنالك ، محتفظين من المسيحية بمعظم ما لها من مظاهر وثنية ، عارضين صورة العذراء مريم الى جانب صورة نابوليون . وبالرغم من ثورة ١٧٨٩ التي حررته من العشر والحقوق الاقطاعية ومنحته تلقائياً الحق القانوني دون الحق الفعلي بالاستملاك واقتناء الاراضي ، فالعالم الذي يعيش فيه هذا الريفي الفرنسي هو، من الوجهة المادية والعسكرية، يحاكي من قريب ، العالم الذي عرفه وغمره في العهد البائد . فهو لن يتخلص ، من الوجهة الديموغرافية بسهولة ، من عقابيل الازمة التي اخذت بتلابيبه بين ١٨٤٦ – ١٨٤٨ .

انكفاء النظام السيادي في المناطق الواقعـــة بين البحر الشمالي وجبال الالبين

على اثر الفتوحات الفرنسية ، استمرت حركة تحرير الفلاحين في احتدامها الصاعد وان لم تأت هـــذه الحركة واحـــدة قدراً ونوعاً ،في كل مكان في البلاد الواطية ومقاطعات الرين وسويسرا وايطاليا الشمالية . فقد ألغيت في كل من هذه الاقطار تقريباً الحقوق السيادية كما اخذ يختفي فيها تدريجياً ، رق الارض ، وسهلت بالتالي امام الاهلين حقوق التملك

ومعاملات توزيع الارض ، مع ما نرى الى جانب هـــذا كله ، من بوادر حركة رجعية وردّة عكسية بعد عام ١٨١٥ .

ففي البلاد الواطية حيث بقيت الكنيسة وطبقة النبلاء محافظتين على امتيازاتها ، استحوذت البورجوازية على حصص كبيرة من الاراضي بينا بقي مستثمرو الارض من مستأجرين ومكارين على عسرهم المالي المعروف . ففي السهول الفلمنكية حيث لا يزيد معدل مساحة الارض التي يتصرف بهـا الفلاح او المرابع على ثلاثة هكتارات ، يوجد نحو من ٣٠٠،٠٠٠ من الشغيلة المياومين ، بحيث ان نصف عدد سكان الريف لا يستطيعون العيش إلا باحتراف الحياكة وصناعة النسيج . فقد كانت السنوات ١٨٤٠ – ١٨٤٨ ، وبالاً على هذا القطر الذي اصطلحت عليه ، في آن واحد ، أزمة خانقة من هـذه الأزمات التي حلت ببضاعة النسيج ، ومرض زراعي فتك بزراعة البطاطا ، بينما كان سكان مقاطعتي البرابنت والهينو في وضع يحسدون عليه .

أما في سويسرا ، فالمجتمعات الريفية تعيش متحررة ، مستمسكة بأعرافها وتقاليدها ، بينما يرزح المزارعون العاملون في المرتفعات ، تحت سيطرة كبـار الملاكين في المدن الذين لا يزالون متمسكين بأعراف السخرة وضريبة العشر ، فلن يكتب الفوز التام لحركة التحرر هذه إلا بعد جهود الديموقراطية الريفية وتضحياتها السخية في أعقاب سنة ١٨٤٨ .

أما في المانيا حيث لا نزال نرى بعض واحات ترزح تحت وطأة رق الارض ، فالحرية مثال جانبها ، والأملاك السائدة لم تعد تمثل شيئاً يذكر اذا ما قيست بنظام اكتراء الاراضي الزراعية . فليس فيها من يفكر بالتخلي عن الاجراءات التي تم وضعها تحت تأثير الثورة الفرنسية . فقـد صدر في مقاطعة ورتنبرغ مرسوم يقضي بإلغاء رق الارض ، واستبدلت السخرات الاعتباطية بأعمال سخرة محددة ، مشروطة ، كما ان التشريعات التي صدرت في مقاطعة بادن يسّرت شراء او افتكاك الرسوم المتوجبة كما اصبح إلغاء السخرة ، بعد عام ١٨٣٠ ، امراً واقعياً في هـذه الفراندوقية . ومع ذلـك فالفلاح يقاسي كثيراً من حرمانه من الارض ومن الربا الفاحش مع الرهن ، بحيث ان ثورات الفلاحين ، في المانيـا الجنوبية ، عام ١٨٤٨ ، اتجهت ضد اليهود وضد كبار الملاكين من النبلاء ورجال الكنيسة .

فالسوادُ الاعظم من سكان الريف ، الى الجنوب من الالب ليسوا بأسعد حـالاً ، بالرغم من زوال الرسوم الاقطاعية . فنظام استثمار الارض وتأجيرها على أساس المرابعة ، هو النظـام الذي لا يزال متبعاً في هذه المرتفعات ، والارض غير المروية الواقعة في سهول البو بينـا نرى المرابعين والعمال المياومين العاملين في سهول لومبرديا ومقاطعة البندقية وفي دوقيات مودين وبارم هم عرضه لأبشع الاستغلال من قبل اصحاب الاملاك الجشعين وأرباب الأسـر الكبيرة ، الذين يعيشون عيشة الترف والتعسف على مقربة من هذه الاكواخ المتخذة من اغصان الشجر ومن اللبن المجفف . وبالرغم من تبجحه بالتضلع من أفانين الزراعة وأصولها . فان هيولوولد مي توسكانا

الذي يزور مزارعه معتمراً قبعة من القش ولابساً قماطه أبيضمن ان يفكر في تلطيف وضع هؤلاء المرابعين والعمال المياومين ، بعض الشيء . وهذه المستحدثات التي اخذ بها وتبناها قرّاء رجال الاقتصاد ، من بينهم مثلاً ، كميل بنسو دي كافور ، كانت اعجز من ان تدخل تحسينات سريعة على وضع الطبقات الكادحة .

الاطيان الضخمة على حدود اوروبا الشرقيا وشبه الجزر المطلة على البحر الابيض المتوسط

ساد الى الشرق من نهر الايلب ، والى الجنوب من جبال الابنين في توسكانا والبيرانيس نظام الاطيان والمتلكات الضخمة . فرق الارض هو النظام المسيطر هنا وهنالك في هذه المقاطعات المتصلة بروسيا والبلقان .

ففي شبه الجزيرة الايبيرية ومملكة نابولي اصبح الخطر يهدد وضع النبلاء والاكليروس تحت تأثير مفارقة غريبة تتمثل في هذا التنافس الانكليزي الفرنسي . فراح الفلاحون الذين عُرفوا بكرههم للاجنبي وبتعصبهم الشديد يتصرفون تصرف سكان مقاطعة الفانديه . واذا لم يعد آل بوربون ، في ايطاليا ، بعد عودة الشرعية في فرنسا ، فالبوربون في اسبانيا ، قوّضوا من الاساس، بحركة جذرية، العمل الاصلاحي الذي بوشر به في عهد الملك جوزف او جرى الاخذ به عن طريق الكورتيس بتوجيه منه .

وكانت هذه المتلكات الواسعة *Latifondi* تمتد من جبال الابنين الوعرة المسالك حتى السهول الساحلية التي ساء تصريف مياهها. فقد أخذت في مقاطعة بولوني ٧٢٪ من مجموع مساحة الولاية، نصفها للنبلاء والنصف الآخر لأصحاب الطبقة البورجوازية . ويصور لنا لامارتين ، سنة ١٨٣٢ ما كان عليه ، وضع الشواطىء البحرية في مقاطعات روماني وكالابريا والاراضي الواقعة في جوار مستنقعات بونتين وبطانحها ، من فقر واستبحاش ، . هنا ارستوقراطية زاهية متطرسة تتخفف من مشاغل الارض والعناية بها تاركة امرها لمتعهدين عامين ، لتنشغل بالعبث واللهو وللاستمتاع بمشاهدة التمثيل وسباق الخيل ، وهناك بروليتاريا بائسة ، كادحة قوامها مزارعون ومرابعون وعمال مياومون ، تؤلف معيناً لا ينضب من شذاذ الآفاق ومرتعاً للمعوزين .

والاحصاء الذي أجري عام ١٧٨٧ ، سجّل ملاّكاً واحداً بين ٣٥ شخصاً . فمقاطعات البَشك تخلو من كبار الملاكين ، هذه المقاطعة التي كانت تفاخر بما فيها من معمرين يعملون في استثمار الارض ، ومثلها مقاطعة النافار ومقاطعة كتلوني حيث راج نوع من الايجار المرهون يكاد يؤلف شبه ملك للفلاحين . فسهول فالنسيا تتقاسمها آلاف الحصص الصغيرة التي لا تتجاوز مساحة الواحدة منها بضع درنمات، بينما يخيم، على ولايتي غاليسيا واستوريا حيث يسيطر توزيع الاراضي المرهقة بحقوق الارتفاق ورق الارض، البؤس والشقاء وما يحملان في ثناياهما من ويلات. فالمزارع المرتبط بالارض بعلاقة واهية يرزح تحت وطأة الاعشار، كما ان الفلاح القشتلاني يتضور، من جهته ، جوعاً فوق قطعة ارض تزرع قمحاً يبقى نصفها بوراً . والمياوم الاندلسي يغادر المدينة

وما اعتاد عليه فيها من بطالة لينصرف للعمل مرتين في السنة ، وذلك في اوان الحصاد او لتقليم الكرمة وقطف العنب . ونقابة العاملين في تربية الاغنام (*La Mesta*) ، تحول دون زراعة الارض وتعميرها واحيائها لتؤمن لقطعان الغنم ، المراعي اللازمة وفقاً لمقتضيات الظعن . والكنيسة من جهتها ، تعمل على منع الفلاح من التملك ، هـذا الفلاح الذي يتسكع في مهاوي الجهل والخرافات ، ليكون ابداً على استعداد لتأمين الاعمال الوحشية ، هـذا الفلاح الذي يصوره لنا غويا في « ويلات الحرب » يقنع بشرحة لحم وكسرة خبز اسود او ببصلة او كراثـة او بحبة بندورة او بجز بطيخ مع قليل من النبيذ اذا ما اسعفت الحال . فاذا ما تمت عام ١٨٣٥ مصادرة املاك الكنيسة ، فلا يستفيد من العملية غير الملاكين العقاريين والبورجوازية .

أما في بروسيا ، فالمعارضة التقليدية المتمثلة في كلايست وآدم مولر ، والمتمركزة حول الملاك الاقطاعي الكبير لودفيغ فون دي ماروتز ، أوجست خيفة من ان تفقد الخدمات التي كان رب الارض يفرضها على المستأجر ، ليحسن استثمار الارض التي هي باستلامه ، هذه الارض التي يحاول مالكها ان يوسعها ويزيد من نطاقها بضم قطع اليها ، الامر الذي يعيد الى الاذهان عملية التسييج التي اخذوا بها في انكلترا . فالأطيان الواسعة آخذة فيها بالازدياد والاتساع وعرفت ان تؤمن لها يداً عاملة احتياطية ، تكلف اقل من الاولى ، كما انها تسعى في تأمين المزيد من الاصلاحات الزراعية . إلا ان اتجاه اوروبا الوسطى نحو رأسمالية عقارية من النمط السائد في انكلترا لم يكن ليتحقق إلا على انقاض النظام القديم . فرق الارض لن يزول في هـذه المناطق التي يرويها نهر الدانوب قبل عام ١٨١٨ . وهذا ما سبب تأخر البلدان الدائرة في فلك آل هبسبورغ . هنالك بعض كبار الملاكين امثال تشيني يدعون عالياً للأخذ بالأساليب والمناهج الانكليزية ، فتنتصب في وجههم طبقة النبلاء الصغرى ، بما هو في مصلحة فيينا العليا التي عرفت ان تفيد من هـذه الانقسامات إبقاء منها لوضع كان لا بد ان يفضي في نهاية المطاف الى خرابها فهلاكها .

القرى الروسية الكبرى الخاضعة لرق الارض

لا نعرف بلداً احسن استغلال الطغيان المستبد مثل روسيا القيصرية التي فرضت عبوديتها على الفلاح . ففي الوقت الذي اتسع فيه العمل بنظام رق الارض ، اشتد في تلك البلاد ساعد المجتمع القردي (*Le Mir*) بحيث اصبح باستطاعة القيصر ان يعهد اليـه بجباية الرسوم والعوائـد والضرائب المترتبـة .

مما لاشك فيه قط ان علم الاقتصاد الريفي عرف ان يجتذب اليه بعض ذوي الاملاك الواسعة ، امثال آل غالتزين وآل سامرين وآل مورافييف الذين لم يفتهم قط الاطلاع على النظريات الانكليزية والفرنسية والالمانية الحديثة فيما يتعلق بخير الاساليب الخاصة باستثمار الارض . فالاصلاح الزراعي الذي قامت به بروسيا بين ١٨٠٧ - ١٨١١ ، كان له اثره البالغ على طبقة النبلاء البلطيقيين من دم الماني ، هـذه الطبقة التي كانت تبيع محاصيلها الزراعية لتجار مدينة ريغا ، بفضل اعمال ونشاط هذا المزابع الذي كان يحسن تسميد الارض بكشط سطحها مع ما عليه من احشاش يحرقها تخصيباً للارض وإلا مات عليها جوعاً .

فالعمل المأجور يعود على صاحبه بربح اكبر اذا ما تم في المجال الصناعي الذي تأذى كثيراً من رق الارض وعبودية الفلاح . وانتشرت بين الناس فكرة تقول ان العمل المأجور يربح اقل مما يربحه العمل الحر . فاذا كان الفلاح او المزارع يطمح في المزيد من الحرية فلرغبته بالخلاص مما يعانيه من أعمال السخرة ومما يرزح تحته من عوائد الارض وأتاواتها ، والعمل على تحرير المجتمع الفردي ، لا ان يضطر للقضاء يومه كادحاً يعمل في حقل سيد الارض . ومع ذلك ، فعندما راح القيصر يلغي بعد التجربة التي قام بها في ليفونيا ، رق الارض ، في الولايات البلطيقية ، فقد رمى من حركته الاصلاحية هذه الى تسهيل تحويل سواعد القرويين الذين جرى تحريرهم ، للعمل في ممتلكات البارونات . ففي بولونيا ، لم يتدخل القيصر نيقولا لوضع حد لمساوىء النظام ، إلا لغاية واحدة ، هي تقليم اظافر النبلاء الذين وضعوا انفسهم في موضع سيء خلال الثورة التي نشبت ، عام ١٨٣١ . فبعد ان سلّم واقتنع بأن رق الارض ، كما يجري العمل به آنذاك هو شر واضح، فالتعرض له الآن وتبديل هذا النظام يفضي الى شر اكبر. ومع ان الاضطرابات المستمرة التي زاد عدد الفتن التي قامت خلالها على ٥٥٥ فتنة ، بين ١٨٢٦ - ١٨٥٥ ، باعتراف الادارة ذاتها حملته على التسليم ببعض التنازلات ، فهذه التنازلات لم يفد منها سوى الفلاحين العاملين في املاك التاج ، مع العلم ان القائمين بالحركة الاصلاحية يترددون جداً في حركتهم هذه . و «جمعية الجنوب» برئاسة بستل تواجه احتمال القيام بتغييرات جذرية ، بينما «جمعية الشمال» ترفض تحت تأثير نيكيتا مورافييف ، التسليم والاخذ بمبدأ التقسيم .

وايجازاً للوضع يمكننا ان نقول بأن اسباب التذمر آخذة بالازدياد والارتفاع. ففي السنوات التي يجود فيها المحصول وتطيب الغلال ، تعجز السوق الداخلية فيها من تصريف الانتاج واستهلاكه فتسقط الاسعار . أما في السنوات العجاف فالمجاعة تطل بقرنها على الابواب . فالجماهير الريفية تتسكع في البؤس ، ويروح الملاكون المعروف سوادهم بالكسل والقعود وعدم الاكتراث ، يستدينون إشباعاً لمطالبهم التي يعجز ريع الارض عن اشباعها . وهكذا نرى الامبراطورية تتجه نحو ازمة حادة إلا اذا حلت في الوقت المناسب ، المعضلة الزراعية الآخذة بالخناق ، وذلك بالغاء رق الارض والقضاء على النظام السائد فيها ، مشجعة بالأحرى الدعوة للرأسمالية الطارئة . فالظروف العارضة يمكن ان تقنع النبلاء بأن في اتخاذ مثل هذا التدبير ، وهذا التدبير وحده ، الخلاص ، شريطة ان تتبع هذه المحاولة الاصلاحية العامة دون ان يلحق أذى بالنظام السياسي والاجتماعي المعمول به في البلاد .

الفصل الثالث

التقنيات الجديدة في الصناعة والنقل

سبر العلم بين جيل وآخر

جاش عصر الانوار برغبة جامحة لحفز المعرفة لتغاص عميقاً في الابحاث الرياضية وتوغل الى نظرية علمية لتفسير نشأة الكون وسبر أبعاد النجوم في مناهاتها وأبعادها السحيقة ، واستثمر البحار المترامية الاطراف ، وأنشأ علم النبات ودشّن عهد الكيمياء وسخّر الكهرباء للترفيه عنه واستنبط المحرك البخاري وتوقف ملياً متمعناً النظر في ماهية الاجيال الطالعة كما اعرض جانباً عن الآداب الكلاسيكية . صحيح ان الحروب الدولية لم تساعد كثيراً على تطوير الاتصالات التي هيأت اسبابها الشعوبية الدولية ، غير ان الحوافز الضرورية جعلت العلماء في يقظة واستنفار حتى اذا ما عاد السلام الى نصابه والامن الى عرابه ، تجددت الاتصالات . فاذا ماراح شاتوبريان ومدام دي ستال يلومان بتشهير « الطغمة الرياضية » ، واذا ما رأى لامارتين في العلوم الرياضية غلاً وقيداً للفكر البشري ، فلقد عرف غوتيه ، من ناحيته ، ان يحافظ على هدوئه وربطة جأشه ، وغاص « كونت » الى ما فوق أذنيه في الفلسفة الوضعية بعد ان اولى العلم المقام الاول ووضعه في رأس النظام الفلسفي .

أما العمل وظروفه وأوضاعه فلم يطلع عليه شيء جديد . فقد باتت باريس جذوة هذه المعاهد الكبرى التي أسسها المؤتمر الوطني (الكنفنسيون) والتي راحت تنافس بنجاح ما قام فيها من ركائز ومؤسسات سابقة وطيدة تعمل في خدمة العلم ، امثال : كوليج دي فرانس وأكادمية العلوم والسوربون شيخة الجامعات . أما في انكلترا ، فقد تقدمت الركب وسارت في الطليعة هذه المؤسسات المتمتعة باستقلالها فتقدمت على جامعتي اكسفورد وكمبريدج. وايطاليا لا تزال تتمتع بكنوز فنونها التي تفيض نعومة وعذوبة ودقة . وهذه « الجمهوريات العلمية » التي طلعت في سماء اوروبا الوسطى ، تمثلت على خير وجه في هذه الجامعات التي نمت بنصرة الامراء المستنيرين ومؤازرتهم ، حتى ان روسيا نفسها ساهمت بهذا النشاط الفكري العارم . وقد اوشكت تأزف ساعة هذا الجامعي الذي يدرس كل شيء في أثناء طلبه العلم ، بعد ان قل عدد نصراء العلم في صفوف الارستوقراطية . فالروح تهب حيث تشاء ، والتفاعل الفكري وتبادل المعلومات ساعد ادفر على اكتشاف السيّار نبتون بواسطة مرصد جامعة كمبريدج ، في

الوقت لذي راح فيه لوفريه يعين بالارقام مكان هذا الكوكب وموضعه بحيث اخذ عدد من علماء الفلك امثال غوس الالماني ولوبتشفسكي الروسي وبولييه المجري يدعوة كل نفسه فضل السبق الى وضع هندسة غير إقليدية هي الهندسة الإهليجليجية .

عرفت العلوم الاخرى ، من جهتها ان تفيد من الانجازات البعيدة الاثر التي حققتها العلوم الرياضية في تطورها الصاعد . فقد تعاون لابلاس ولافوازيه فيما بينهما وتعرضا في الابحاث التي وضعاها للعديد من المشكلات والقضايا العلمية . وامبير الذي تميز بفضوله العلمي وبروح طلعة لاتني ولا ينطفيء لما غليل انطلق من الاختبار العلمي الذي قام به دورستد حول زيغان الابرة المغنطيسية ، فوضع لهذه الظاهرة قاعدتها المعروفة . وغوس ارتبط اسمه بالتحليل العلمي وبالهندسة المتناهية الصغر والرياضيات العليا وحساب المحتملات والميكانيكا الفلكية والجيوديسيا . هنالك لعمري نوابغ بين العلماء انصرفوا للرياضيات النظرية ، امثال ابيل الذي كشف عن قواعد واسس حساب التكامل ، وايفارست غالوا الذي وضع نظرية الفئات والاجناس ، فمات الاول بائساً ، كما قتل الثاني في حادث مبارزة . وفي اثر المعطيات العملية لحساب المتناهي الصغر التي تم الكشف عنها في الحقبة الكلاسيكية على يد نيوتن وليبنتز بعد أولير وفوريه ولوجاندر ، وضع غوشيه مبادىء الدالة التحليلية والمعادلة التفاضلية ربما يتمكن ريمان من وضع الاساس الحقيقي الدالة الجبرية بعد ان اقترح فرضية هندسية جديدة غير اقليدية .

كل الانجازات العلمية التي حققتها العلوم التجريبية تتصف بطابع علمي صرف . ومناهضة منه لنظرية نيوتن حول الانبعاث البصري ، راح فرسنل يؤيد النظرية الرجوية التي كان لاح لهويجنز بعض ملامحها الاولية . واذ ذاك اخذ بيو وأراغو ودافيد بروبستار يوضحون للملأ ظاهرة استقطاب الضوء . وبفضل حاشدة (بطارية) فولطا ، اخذ اورستيل يفسر عملية زيغان الابرة المغنطيسية ، ثم تمكن امبير من ان يضع اسس الكهربائية المغنطيسية ، اساس الملف الاولي والمغنط الكهربائي والتلغراف البرقي . وعلى عكس ذلك ، كتب لفرادي ان يكشف عن اسرار ظاهرة اخرى هي الحث ، اساس الدينامو . وبالاتفاق مع جاكوبي فقد توصل الى اكتشاف الكيمياء الكهربائية المتعددة التطبيق في مجال صناعة التعدين : كالفلفنة والتذهيب والتفضيض ، وصب امهات احرف الطباعة والكليشيهات في الطباعة والحفر المباشر : ففي الحين الذي كان يعمل فيه كل من انطوان بكربل ودانيال على تحسين حاشدة فولطا ، نرى سيبك يتصرف لدرس مؤثرات الكهرباء ، الحرارية التي سبق ا « اوم » ان وضع قوانينها .

كشف لافوازيه ولابلاس وفي اثرهم فوريه عن نظرية الحرارة التحليلية ، هذه الحرارة التي تجلت مظاهرها بشكل قوة حية جزيئية . فالعلماء غاي لوساك وبيوا وبوتوليه وبروست بما فيهم دالتن وقانون الانساب المتعددة وافوغادرو الذي كشف عن ثقل الجزئي ، بقوا عند هذا الحد .

لا شك في ان رامفورد ودايفي هما اول من ظنا بالعلاقة الموجودة بين الحرارة والعمل . ويعود لسادي كارنو احد اولاد لازار كارنو ، الفضل في اثبات التكافؤ بينهما ، في بحث وضعه من قبل لم يكترث له احد . فكان اساس الدينامكا الحرارية التي انشد اليها أنظار روبرت ماير وجول في الابحاث التي وضعاها في هذا المجال . فالمحافظة على الطاقة واندثارها او انحلالها ، والميكانيكا التطبيقية اتخذت اساساً لها هذه الابحاث .

ومنذ لافوازيه اخذت الكيمياء المعدنية تكشف تباعاً عن اسرارها الدفينة ونواميسها . كذلك اخذت الكيمياء العضوية تحسر هي الاخرى عن اسرارها ، عندما تمكن شفرويل من ان يستخرج الشحوم على اختلافها من الحوامض الدهنية ومن الغليسرين ، كما استخرج بلوتيه وكافنتو القلويات من المواد النباتية . فالمعارك القلمية احتدمت حول نواميس العلم الجديد فراح علماء لاول مرة يقول بالنظرية الذرية ويبسطها وراح القائلون بالتكافؤ الذري يهاجمون بعضهم بعضاً : جان باتيست دوماس والذريون وعلى رأسهم برزيليوس الذي قال بنظرية « ثنائية » في التفاعلات الكيمياوية والكهربائية التي تصحبها ، ولم تلبث امثالت نظرية التعادل او التكافؤ ، هذه النظرية التي نهض بها جرهاردت ، وورتز وكيكوليه بينا راح بوتليروف يوضع النظرية الايسومارية او نظرية التقابس والنظرية التجزئية .

وقامت معارك اخرى في مجالات العلوم الطبيعية . فقد سبق لبيدرو وبوفون ان استشعرا نظرية الارتقاء والتطور كما ان روسو راح يشدد ، من جهته على ناموس الانتقاء الطبيعي او بقاء الاصلح ، وهي نظريات ادخلت الشك والارتياب على عقيدة خلق الكون ، وبالتالي الديمومية او الاستقرار كعقيدة دينية . وراح احد تلاميذ بوفون هو لامارك يثير جدلاً حامياً عندما وضع عام ١٨٠٩ كتابه المعنون : « فلسفة علم الحيوان » ، حيث اخذ يعرض نظرياته وآراءه حول تطور الانواع وتغيرها زارعاً الارتياب في نظرية الثبوت او نظرية الاستمرار التي يبدو ان لينيه قال بها ، وعلّم . وفي بحث له مشهور حول « تصنيف الثدييات » اخذ كوفييه الذي يعد من مؤسسي علم التصنيف المقارن وعلم الاحاثة او الباتيولوجيا ، ينشر عام ١٨١٢ ، كتابه الموسوم : « خطاب حول جوائح الكرة الارضية » ، وذلك ليفسر لنا عن طريق الكوارث الطبيعية ، كيفية ضياع الانواع البائدة وزوالها . فعودة هذه الانواع الى الحياة من جديد لا يمكن ان يكون الا هبة من الله. فقد سلموا بوقوع هذه الكوارث او الجوائح الجيولوجية – وهو قول يؤيده كوفييه – الا انهم رفضوا الاخذ بالنظرية والبركانية ، التي تقول بالظهور التدريجي لقشرة الارضية البركانية التي تبنى القول بها ليل فيا بعد . واذ ذاك اصطدم كوفييه بصديقه جوفروا سانت هيلار الذي تبنى في كتابه « الفلسفة التشريحية » النظرية التي تقول بسلم الكائنات . فأثارت هذه القضية ضجة حملت اكاديمية العلوم على التدخل في النقاش العلمي . وقام غوتيه يكتب عام ١٨٣٠ لايكرمان بعد ان بادر الى اذنه انه يهتم بقضية *Les Trois Glorieuses* ، يلفت نظره الى ان

« المناقشة تدور على ما هو اهم من ذلك بكثير» . الا ان كوفييه عاد فانتصر بعد الموقف الرسمي الوطيد الذي وقفه وانتصر معه ، الى حين ، خصوم نظرية النشوء والارتقاء التي تبنى مقالتها الفلاسفة الطبيعيون وغوته نفسه .

ففي الوقت الذي توطدت فيه ابحاث بيشا حول علم التشريح اطلت علينا نظرية الكائنات المتناهية الصغر بفضل المجهر الذي ساهم في اختراعه اسرة درلوند. فاذا بالعالم امام كشوف جديدة واسرار جديدة . فما هي لعمري هذه المادة التي يدعوها هوغو فون موهل : البروتوبلازما ؟ فالخلية لا تتولد الا من الخلية كما يؤكد فيرشوف *Virchow* بعد هارفي وشليدن وشوان . وعلى هامش الجدل الذي قام حول نظرية النشوء تبدو العلوم الحياتية على اتم استعداد للانتقال الى مرحلة جديدة مهمة جداً .

ومهما يكن من الامر فالتاريخ الطبيعي علم يأخذ بمجامع القلب . وعندما راح جوفروا يقدم للملك شارل العاشر في سان كلو ، ظرافة اهداها اليه محمد علي ، اظهرت الجماهير حماسة عارمة افاد منها المتحف الوطني . وبستوحي كونت تعاليم بلانفيل خصم كوفييه اللدود ليشيد نظريات علم الاجتماع .وسانت بوف يتطلع من جهته لوضع التاريخ الطبيعي للعقل البشري ، ويأخذ اسكندر همبولدت بوضع كتابه : « الكون » الذي جاء شبه موسوعة في العلوم الطبيعية .

كشوف المنسة الصناعية

عبثاً نحاول ان نعرف بالضبط الوقت الذي استطاعت فيه الآلة ان تحدث فيه تغيراً واقعياً في ظروف الحياة واحوالها في الغرب ، فالعقل المتعدد – الفنون ، الشغيف يداعب احلاماً معسولة ، وفي هذا يكتب كونت قائلاً : « مما لا شك فيه قط ان طبقة المهندسين ستبقى العامل المباشر الذي لا بد منه لتأمين التحالف بين العلماء ورجال الصناعة، هذا التحالف الذي سيرفع البنيان الاجتماعي الجديد » . هنالك على ما يبدو شيء من الاستعجال لدى ابناء العصر الذي يتنون متأسفين هدر القدرات العقلية والطاقات الفكرية كما يأسفون الاسف الشديد لهذا السير المتروش والمخالف للمنطق الذي يسيره التقدم البشري

ففي السنة التي مات فيها واط – ۱۸۱۹ – لم تكن الآلة التي استنبطها استطاعت بعد ان تقضي على مطاحن الماء والهواء، كما ان الساقية لا تزال هي التي تتحكم بالمكان الذي يصلح لاقامة منسج الحياكة . وبالرغم من هذا كله فظهور كشف البخار سيبقى العلامة المميزة لهذه « الثورة الصناعية » التي رأت النور في القرن الثامن عشر والتي كانت عصب القرن التاسع عشر بطوله وهذا البخار ليس بالواقع سوى الماء الغالي ، مهما كان الوقود المستخدم لرفع حرارة هذا الماء الذي استحال الى حالة الغليان بدلاً من ان يكون سائراً يتدحرج فوق الحصى . وقد بذلوا قصارى العناية لادخال تحسينات على طريقة واط ليفيدوا منها الى الحد الاقصى ، فطلعت علينا المرجل ذات الوقد الداخلي . وفي سنة ۱۸۲۹ خرج علينا آل ستيفنسن بقاطرتهم الاولى:

الصاروخ (The Rocket) على الشكل الاسطواني وجاءت النتيجة رفع الطاقة التي يولدهـا الاحتراق الى العشر . ومن جهة اخرى كان الناس خارج انكلترا يفتقرون جـداً للاشخاص الذيـن المتخصصين بصنع هذه القاطرات وتركيبها . وقد عرفت انكلترا ان تحافظ طويلاً على السبق الذي سجلته في هذا المضمار اذ كان لديها عام ١٨٣٠ نحواً من ١٥٠٠٠ من الآليـات البخارية بينما لا يتوفر منها لفرنسا سوى ٣٠٠٠ ولبروسيا ١٠٠٠ .

فقد عرفت هذه الجزيرة ان تزاوج بين فوائد الحديد والفحم الحجري لسد حاجات الصناعة المعدنية التي فاقت بكثير المستوى الذي سجلته هذه الصناعة في دول القارة . فقد اخـذت ترسل الاخصائيين المهيئين لاعمال النقب والحفر . وكان حفر الدهاليز واستخراج الفلزات لا يزال يقوم على سواعد العمال . ولم يلبث ان حل التقفيص المعدني محل الآجر او الطوب . واخذت آلات الجر التجارية تجر العربات الى سطح الارض محولة على روافد من الخشب ُنضت عليها قضبان من الحديـد عرفت باسم Rails ، كما تم تحسين ملحوظ في طرق الضخ واساليبه الفنية . وأطل على العالم في انكلترا المصباح الذي وضع تصميمه الكيميائي همفراي دايفي فجاء هـذا الاختراع ضمانة نسبية ضد انفجار غبار الفحم ومع ذلك ترددوا كثيراً في التعمق والتوغـل في بطن الارض . فقد اقتصر التنقيب عـن الفحم والمعـادن في المقاطعة الريفيـة على الحفر عنـد سطح التـلال . وفي سنة ١٨٣٣ فقط تجرأوا عـلى فتح عـرق في قلب الارض على عمق ٥٤ متراً .

وصناعة الصب التي تستعمل كوك الفحم لم تكن من المستجدات ولا عمليـة نزع الكربون بواسطة تسويط الحديد (Puddlage)، وهي عملية تلتني العامل جهداً شاقاً (اذ كان عليه ان يحرك الصب المصهور بواسطة مسعر من الحديد يعرف باسم Ringard). وهـذه الطرائق الميكانيكية التي عرف الانكليز ان يدخلوا عليها ، في القرن الثامن عشر تحسينات ملحوظة زادت كثيراً من فعاليتها ، أولتهم اسبقية ظاهرة في مجـالات الصناعة عـلى انواعها . فمثلات الحديد ، ثمنها في فرنسا ضعفا ثمنها ونصف في انكلترا . وتمكن الانكليزي ولكـن من استعمال الكوك وقوداً في المعامل التي انشئت لصب الحديد في الكروزو عام ١٧٨٢ . اما بلجيكة فلم يقم فيها مثل هذا الفرن ، قبل عام ١٨٢٢ ، وقام واحد منها في سانت الجـلبرت عام ١٨٣٢ ، وفي الروهر عام ١٨١٧ . وجروا على الطريقة ذاتها في عملية تسويط الحـديد . فالكوك قيد الاستعمال في نيوويد ، عـام ١٨٢٤ ، وعند ستوم في الروهرعـام ١٨٣١ ، وفي سيليزيا بعد ذلك بخمس سنوات . واذا كانت صناعة الزجاج تخلت عن وقود الخشب لتقبل على المواقد ذات الشعرية ، فصناعة الخزفيات الانكليزية اعتمدت طريقة ودجوود الفنية التي يعود وضعها الى عـام ١٧٦٠ هـذه الطريقة التي ضمنت للخزفيات الانكليزيـة الرواج اينما كان .

وتركزت حول حرفة الخزاف ، مهنة النجار هذه المهنة التي يجب ان يراعي مقتضيات دولاب الطاحونة او نول الحائك . الا ان الآلة البخارية تأثرت من عدم توفر الدقة في تركيب الدواليب . ولذا اخذوا يفكرون بالفوائد التي تعود على الصناعة بصنع آلة متحركة توصّل العلم الى صنعها بعد قرن من المحاولات والتجارب ، بعد استلهام اجهزة الساعة والمواد التي توفرها صناعة الخشب. فقد خطرت « براماه » من قبل» صورة عن المكبس المائي كما وضع ولكنسن صورة لمثقب يستعمل في صنع المدافع ، وموديسكي صنع دولاباً معدنياً للولوزة البراغي وفارة النجارة ، كما اخترع مارك إيزمبار برونل المنشار المستدير . وتمكن فيربيون الذي اخترع محركاً من المعدن النسيج ان يدخل تحسينات ملحوظة على مثقب إشعاعي .
وتوصلوا بين سنة ١٨٣٨ – ١٨٤٢ الى اختراع المدقة الحديدية التي تعمل على البخار وتستطيع ان تقوم بتركيب خام اكبر القطع المعدنية وأدقها على السواء . وكان من نتائج اختراع هذه الادوات المتنوعة ان مهدت السبيل لظهور العديد من المهندسين الميكانيكيين امثال فرنسوا كاليه .

وقد حقق النول الميكانيكي انتصاراته الاولى اذ ساعد كثيراً على تسهيل اعمال الحياكة والنسيج الخاصة بصنف حديث من الخيطان مأخوذة من مادة القطن . ففي الوقت الذي تمكن فيه الاميركي ايلي هويتني ان يخترع عام ١٧٩٣ محلج القطن الذي حل معه الثروة والازدهار بانشاء ما يعرف بحزام القطن في بلاده، فقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا بسر صنع الادوات الخاصة بصناعة النسيج والحياكة . وبمساعدة احد الهاربين المدعو ديكسون ، تمكن رسلر احد سكان مدينة ملهوز المدعو شلمبرجيه من ان يبني مصنعاً يعنى بصنع آلات النسيج . وقد أدخلت تحسينات على فن طباعة الاقمشة على يد برو ، وعلى نول الحياكة نفسه على يد السويسري بودمير الذي استوطن برلطن وعلى يد احد سكان ملهوز المشارك مع كوكلي هو هيلمان ، هذا النول الذي اخترعه كارترايت من قبل والذي يعمل بالبخار . كذلك هنالك تحسينات لحقت طبع الاقمشة باختراع اسطوانة نحاسية ، كما ان المكوك المدبب كان باعثاً على ازدهار هذه الصناعة في نوتنغهام قبل ان يتم ادخالها بالحيلة الى فرنسا . كذلك شاع استخدام آلة *Jacquard* في صناعة التخريم او الدانتلا التي بعث النشاط الصناعي في مدينة كاليه . وصناعة الكتان نفسها عرفت بدورها انقلاباً ثورياً بفضل المكوك الذي اخترعه سكان مدينة غنت المدعو برفانس ثم ادخل عليه كروكس ولاسيا جيرارد فيما بعد تحسينات ملحوظة . وقد سجل مطلع القرن في عداد الانجازات العلمية التي سجلها اختراع الانوال الخاصة بنسيج التريكو والصدارى بدون خياطة والتطريز الآلي ، ناهيك عن المشبك الذي اضفى على المنسوجات الحريرية المتنوعة في ليون ما امتازت به من نعومة ودقة ومتانة . ولكي نتبين اهمية هذا التطور التقني يجب ان نتبين ان حائكاً ميكانيكياً يعمل في صناعة القطن اصبح ينتج سبعة اضعاف ما كان ينتجه حائك آخر يعمل باليد .

من المستجدات في الكشوف العلمية آلة الخياطة الآلية التي اخترعها خياط متواضع للألبسة هو تيمونيه . وكان من بعض نتائج هذا الاختراع ان احدث ثورة في مصنوعات الألبسة وعمل على ترويج ما يعرف بـ *Sweating system* .وقد ادخل فيما بعد هو وسنجر في الولايات المتحدة تحسينات هامة حيث آلة تركيب الالعاب وآلة خياطة الوجه والنعل مكنت صناعة الاحذية من تأمين الانتاج بالجملة .

ومما يلفت النظر في هذا التطور التقني العظيم هو ان المواد الاولية في التغذية بقيت خاضعة لوسائل العمل التقليدي . فاستخدام الآلة في مجـال الزراعة هو في اول مراحله . فالحاصدة الميكانيكية التي اخترعها الاميركي ماك كورميك لم تفرض نفسها على الاستعمال الا بعد مدة طويلة . ومطاحن الماء والهواء ستبقى قيد الاستعمال على نطاق واسع ولمدة طويلة ، والخباز لا يزال يستعمل يديه في ترضيب العجين وتهيئة الخبز ، كما في السابق ، مع انه عـام ١٨١١ اختراع معجن آلي لا يزال غير متقن ، والكرّام لا يزال يستعمل رجليه في عصر العنب او المعصرة ، وتخمير الشعير لصنع الجعة يقتضي له عناية كبيرة . والوسيلة المثلى لحفظ اللحوم تبقى التمليح والتدخين ، والالبان لا يمكن حفظها وصيانتها الا بشكل جبنة ، يجب استهلاكها بسرعة ومحلياً والا تعرضت للفساد سريعاً . وقد اشار أبير الى الوسائل التي تضمن مكافحة الفساد والتعفن عن طريق الحرارة العالية التي تسبب التعقم ، ولم يحن بعد الوقت الذي يمكن فيه استخدام التبريد الاصطناعي . فصناعة سكر الشمندر وحدها تطور بسرعة بفضل الطريقة التي توصل الى استنباطها اشار بفضل تكريره بالحامض الكبريتي وبازالة لونه بواسطة المـادة السوداء من طريق استعمال مداخل اسطوانية الشكل تمتص العصير .

لم نلاحظ من ناحية اخرى اي تقدم يطرأ على فن البناء ، ومع ذلك فقد ظهر منذ عام ١٨٢٤ سيمنت بورتلاند الذي يلتصق ببطء ، ولا في مجال التدفئة . ولما كانت بريطانيا مهتمة بتصريف محصولها من الفحم الحجري فقد جرت محاولات لصنع رجاقات ومدافىء من ذوات الموقد المسيج ، واجهزة توزيع البخار المائي على المنازل .

والاستصباح بواسطة الغاز المستخرج من حطب الوقود ومن الفحم الحجري لعدم وجود الغاز الطبيعي الذي اخذ الاميركيون بضبطه واستغلاله في بلادهم ، شق طريقه نحـو الاستعمال منذ التجارب الاولى التي قام بها لوبون وموردوخ . وقد راحت لندن تباهي باريس وتدل عليها بسبقها لها على استعمال الغاز في التنوير والاضاءة العامة . وسيمضي نصف قرن قبل ان تتمكن منازل البورجوازيين ، في المدن الفرنسية من تقدير نعمة التمتع بالغاز في كل ادوار المنازل . والمصطلح عليه هو عادة قنديل زيت الكولزا المستخرج من بزر السلجم بعد ان ادخل عليـه أرغان بعض التحسينات بعد ان راح كنكيه يتبجح بانـه صاحب الفضل في اختراعه ، وقـد ادخلت عليه تحسينات فيما بعد على يد جيرار وقرانشو ، كما ان الناس ظلوا يعولون على استعمال

الشمعدان الخفير المقوف . وستحل الشمعة في نهاية الامر محل الشمعدان التي نرى في اسمها شيئاً من اثر الجزائر التي كانت قد سكان البندقية بشمع العسل الذي اخذ يدخل مزوجاً بصنع الشموع مع مادة الشحم . وقد سبق لشفرويل ان اشار الى الدور الذي يمكن للحامض الستياري لعبه في هذا المجال . وقد توصلوا فيما بعد الى تأمين نوع من التصبن والى صنع فتيلة صالحين للاستعمال . ومن الاجهزة الاساسية في الملاحة البحرية المنائر التي يعمل فيها قنديل من طراز أرغان ،هذا القنديل الذي استطاع رملورد تزويده بعدة فتائل متراكزة والتي تضاعفت طاقة الضوء فيها بواسطة جهاز عدسية وعاكسة فرسنل .

وليست اقل اهتماماً بالملاحظة والتقدير العالي التطورات التي امكن للغرب ادخالها على صناعة الكتاب والجريدة والصورة ، رغبة منه في الترويج لها ونشرها على الملأ . فقد درجوا الى الآن ، على استعمال الورق المصنوع من الياف القنب والكتان بعد مزج عجين الورق بالصلصال (وهي طريقة اكتشفها لويس روبرت في مصانع ديدون في أسون ، اذ ان الالة الخاصة بصنع رب الورق لم تكن معروفة الا في انكلترا) . وسكب احرف الطباعة وصبها كان يتم بواسطة قوالب امهات الحروف او باليد . كذلك أدخلت تحسينات على حبر الطباعة وعلى فن صنع الكليشهات ، وهي طريقة مكنت من توفير النسخ باعداد غير محدودة . كذلك تمكن اللورد ستانهوب من اختراع نموذج لا مثيل له من امهات الحروف .

وتمكن اللورد ستانهوب نفسه من اختراع مكبس من المعدن ترك بعيداً وراءه المكبس الذي كان اخترعه غوتنبرغ وحل عام ١٨١٠ محل الآلة التي وضعها كونيغ السكسوني بالاشتراك مع الطباع اللندني بنسلي . وقد كان سبق لجون والتر مدير جريدة التيمس ووصف لكونيغ طريقة الدفع الميكانيكي التي ارتسمت صورتها لبكلن مدير جريدة الجورنال الفلسفي عندما وقع نظره على الاسطوانات الطابعة للاقمشة . ففي ٢٩ تشرين الثاني ١٨١٤ ، جرى طبع هذه الجريدة الكبرى في لندن لاول مرة على طابعة تعمل بقوة البخار المحركة للآلات . وبعد ذلك بقليل اخترع كونيغ مكبساً يعمل على عجلتين كما اخترع روسليه ، عام ١٨٣٧ ، مكبساً ذا رد فعل . ومهما يكن ، فالطبلية كانت تركز مسطحة على ارضية من المرمر . وكان لا بد من الانتظار الى سنة ١٨٤٦ حتى يتمكنوا من تركيبها على الاسطوانات نفسها . وهذا الشكل الاسطواني هو الذي سيهيء السبيل للتركيب الطابعة المعروفة بـ الروتاتيف بحيث اصبح ميسوراً ، منذ ذلك الحين ، سحب ٨٠٠٠ نسخة في الساعة بدلاً من ١١٠٠ نسخة عام ١٨١٤ وبذلك أطل على العالم عهد الدورية ذات الانتشار الواسع .

فلا عجب قط ان تفيد صناعة الكتب من هذا التطور العظيم الذي طرأ على فن الطباعة . ولم يلبث ان تمكن الذوق الفني في الطباعة على انواعها واستبد بالانتاج الفكري . ففي باريس نشطت اعمال النشر في دار النشر ديدو وازدهرت . وصناعة الحفر التي اصبح الآن بامكانها

استنساخ الصور والرسوم انتشرت وعم استعمالها بسرعة على اشكال متنوعة ، كالحفر على الخشب وفقاً لطريقة بيويك ، والحفر على الحجر او الطباعة الحجرية التي توصل اليها الممثل المسرحي سنيفلدر . وانفتح الباب على مصراعيه امام الجورنال المصور الذي عُرف باسم مغازين . كذلك عرفت طباعة العملة الورقية ان تفيد هي الاخرى من هذا الاختراع (وبذلك عرف جاكوب بركنز الاميركي ان يعقد الامور في وجه مزوري النقد) ، وهو ائلة جمع الطوابع البريدية ستطلع بعد حين لتوفر للعاملين على تكوين المجموعات الفنية ، اللذة والفائدة معاً .

وفي سنة ١٨٢٩ ، اخترع برايل بالتعاون مع فوكو الكتابة النافرة لتعليم العميان ومكفوفي النظر .

ذروة السرعة في وسائل النقل

لم تنقطع العناية طول القرن الثامن عشر بتحسين شبكة الطرقات وتطويرها بشكل يسهل الاتصالات والانتقال . ولحن لا نقصد هنا التأكيد بان الطرقات التي كان يسلكها الانسان ماشياً على الاقدام او ممتطياً صهوة احد الحيوانات او راكباً احدى العربات كانت في وضع يركن الانسان اليه . فمن الحوادث الحرية بالذكر مثلاً ان تيوفيل غوتيه ، في الرحلة التي قام بها الى اسبانيا عام ١٨٤٠ كان يشكو من ان العربة التي أقلته لم تمكن لتستطيع التقدم الا بفضل قبضة من العمال تسير في ركابه ، اذ « كانوا يعملون على التخفيف من حدة كر العجلات في المنحدرات والمنعطفات الخطرة» والسهر على متانة السرج واستقراره ، وسلامة الازمّة والارسنة والقدرة على كبح البغل الحرون الجفول » . وبالفعل لم يمكن في اسبانيا ، اذ ذاك من الطرقات الموصوفة « معبدة » ما يتراوح طوله بين ٣٠٠٠ و ٦٠٠٠ كلم . تم شقها خلال خمسين سنة ولم يتوفر شيء من هذا في صقلية قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وجادة موسكو في بطرسبرغ لم ينجز شقها الا في سنة ١٨٣٤ ، وعلى عكس ذلك تماماً كانت شبكة الطرقات الفرنسية التي بلغ طولها ٣٠،٠٠٠ كلم ، قامت السياسة التي اوحت بناءها على مطالب وطنية واعتبارات سياسية والرغبة في الظهور والتأثير في الخارج ، وكانت الرئيسية منها باتجاه المانيا وسويسرا وايطاليا الشمالية . وعلى هذا الشكل وتلك السياسة سارت الدولة البروسيانية ، رغبة منها في تيسير العمل بالوحدة الجمركية (*Zollverein*) . اما في مملكة البلاد الواطية ، فقد نشطت الشركات والهيئات البلدية فيها النهوض بطرقها . وفتحت سويسرا من جهتها طريق الفريزون وجبل سان غوتار .

ولعل ما هو اصعب وأشق من هذا كله هو صيانة هذه الطرق . فقد راح كل من تاليه وبكوف ينصحان عبثاً بكشط الطريق بعد كل مطرة ، بينما راح بولونسو ولامورانديير بوصيان باستخدام المداحل الضاغطة التي فكروا بفائدة استعمالها منذ عام ١٧٨٠ . وعلى عكس الطرق الفرنسية التي كانت تُعد ، اذ ذاك ، اجمل واحسن الطرق في العالم كله ، كانت الطرق في انكلترا تتمتع بسمعة عاطلة لما كانت عليه من ضيق وتعرج وتقاطع الحواجز . ألم يكتب يونغ عن الطرقات التي تنطلق من لندن باتجاه

اطراف البلاد ، بأنها على الوضع الذي تركها له في بعد الطوفان ؟ اذ كان شق هذه الطرق وصيانتها تقع على شركات محلية (*turnpike trusts*) قوامها اعيان المنطقة ووجوهها ، تقوم بجباية رسوم الدخولية واستيفاء عوائد معينة . ومع ذلك اخذت شبكة الطرق فيها بالامتداد والاتساع اذ بلغ طول هذه الشبكة ٣٢٠٠٠ كلم عام ١٨٣٠ وارتفع الى ٥٠٠٠٠ كلم عام ١٨٥٠ . وقد تطورت على الاخص الوسائل التقنية في شق الطرق : اذ غلب عليها بتأثير بلفوره ، السطح المقبب للطريق بحيث يسمح هذا الشكل بتصريف المياه المتسربة ، كما اوصى ماك آدم في هذه الابحاث التي عقدها وحث فيها على الاهتمام بطرق البلاد ، برصف الطرق بالحصى فيسهل دحل الطريق كما يسهل بالتالي تأمين الشكل المقبب لها . وطريقة (تحصيب) الطريق التي دخلت الى بلجيكا عام ١٨٣٠ ، لم تنتشر في فرنسا الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

والاميركيون ، رغبةً منهم في التغلب على مشكلة المسافات ، أخذوا ، على الاجمال ، بهذه الطريقة الفنية ، عام ١٨٤٠ ، وبذلك جعلوا صالحة لسير هذه المسالك السيئة *corduroy roads* كما كانوا يصفونها لمشابهتها كثيراً شريط المخمل والتي لم تكن تفضل قط الطرقات المعروفة في الغرب باسم *Plank roads* التي اتبعوا في شقها الطريقة الروسية اذ فرشوها او بالاحرى دقوها بالواح الخشب من جذوع الشجر .

وكما في السابق ، فالطريق يسير عليها جمهرة من المشاة ومن اصحاب الحرف وعمال المناجم بينما الموسرون يمتطون خيولهم او يدرجون في عرباتهم ، في الوقت الذي تأخذ فيه الطرقات العامة بالانتظام . فالحالة البريطانية تتمتع بسمعة طيبة . فهي تقطع الـ ٦٠٠ كلم التي تفصل بين لندن وأدنبره في ٤٢ ساعة ، اما عربة *Quick silver* فلا يقتضي لها اكثر من ٤ ساعات ونصف لقطع المسافة بين لندن وبرايتن ، وبعد ١٨٣٠ تقطع المسافة بين لندن وبرمنغهام بسرعة ٢٣ كلم في الساعة . اما في الشق المقابل من خليج المانش ، فالانتقال بالعربة من باريس الى مدينة رينّ ٤ ايام ، والى مدينة ليون ٦ ايام و١٢ يوماً الى ستراسبورغ ، في عهد الامبراطورية . ومدة الوقت تهبط الى النصف بين ١٨١٥ و ١٨٤٠ ، اذ كانت العربة تقطع ٦ كلم في الساعة بدلاً من ٣ ، وهي عربة ضخمة ثقيلة زنتها ٤ اطنان وتشحن من ١٦ - ١٨ راكباً في حجراتها الاربع من درجات مختلفة . ومنذ عهد الديركتوار كانت عربة البريد التي تؤمن نقل البريد تنقل ايضاً من ٣ - ٤ ركاب فكانت عربة خفيفة تجرها ٤ جياد وتقطع ١٠ كلم في الساعة حوالي عام ١٨١٥ ، ثم ارتفع المعدل الى ١٥ كلم عام ١٨٤٠ ، وتبلغ بوردو وليون وستراسبورغ في ٤٠ ساعة ، تسير « كهبوب الريح » كما يكتب موفو ، اذ ذاك . فاذا كانت الرحلة لا تعوزها المناظر الشيقة امثال : السائق الطروب الهازل ، والكحول احياناً وغالباً السكران ، وفرقعة السوط ينهال على اقفية الخيل ، والموسيقى عند الانطلاق ، وحدوث ما ليس بالحسبان من المفاجآت ، ووقوع الحوادث المثيرة . فقد كان من مميزاتها ومفارقاتها غالباً : المقاعد الضيقة

ارتجاجات لا نهاية لها ، والزمهرير هنا ، والحر هناك، تارة يغوصون في الوحل وطوراً يغشاهم الغبار ،وأسرة لا يمكن الاطمئنان اليها في هـــذه الخانات المشبوهة،بقطع النظر عما تتعرض له العربات احياناً من تحطم العجلات .فاذا كانت المسافة اصبحت تقطع بوقت أقل ، فظروف السفر لم تتغير هي كثيراً .

ففي الوقت الذي سجل فيه النقل ارتفاعاً في معدل الواردات بفضل ازدياد النشاط التجاري، فقدسجلت اسعار النقل فيه هبوطاً محسوساً. فكانت كلفة الرحلة من باريس الى بوردو في عهد لويس الرابع عشر ، ١٢٤ ليرة ، فاذا بها تهبط الى ١٠٨ فرنكات ، في عهد نابليون والى ٧٤ فرنكاً عام ١٨١٠. غير ان الجر العادي للطن الواحد كان يكلف ٢٠ سنتيماً عام ١٨٤٨بينما كان بمعدل ٣٣ سنتيماً عام ١٨١٠ ، اما الجر السريع وشحن البضائع فقد كان اكثر كلفة. فالبضائع لا تسير بسرعة اذ كان الشحن من باريس الى مدينة ليل يقتضي له ٤ ايام . ويقتضي ١٤ يوماً من باريس الى مرسيليا ، ولما كانت كلفة نقل الرسالة مرتبطة بوزنها وثقلها كان على قاطن باريس ان يدفع ٢٠ سنتيماً عن تحرير يبعث به الى فرساي ، وفرنكاً و ١٠ سنتيمات الى مرسيليا ، فيما كان على قاطن لندن ان يدفع فرنكاً و٤٠ سنتيماً على رسالة من لندن الى ادنبرة . ومع ذلك ، فالبريد كان يوزع ١٠٠ مليون رسالة ، في فرنسا حوالي عام ١٨٤٠ ، مقابل ٣٠ مليون رسالة في عهد الوزير تورغو . وبعد ان ادخل رولاند هل تعديلات على تشريع قديم ،عمل على تبني رسم موحد هو بنس واحد (١٠ سنتيم)، كما ان الجمهورية الثانيـــة وضعت من جهتها رسماً موحـــداً مقداره ٢٠ سنتيماً الامر الذي افضى الى زيادة غير متوقعة في عدد الرسائل المتبادلة .

كل هذا والطريق تخدم في الدرجة الاولى ، المدن الرئيسية : فهي تتجاهل مصالح النواحي والملحقات اذ كان يترتب على ذوي العلاقة في المقاطعات والاقاليم ان يسهموا متضامنين في صـــيانة طرق المواصلات في الناحية ،وقد صدر في فرنسا،عام ١٨٣٦ ،قانون اناط العناية بالطرق الرئيسية بمأموري الطرق لا سيما تلك التي تربط بين المناطق، فجعلتها على عاتق البلديات . ولن تلبث حركة السير ان اعتمدت طرقات ثانوية في الوقت الذي اخذت فيه سكة الحديد تستأثر تدريجياً بطرق المواصلات الرئيسية .

حمى الاقبال على الممرات والاقنية المائية

لما كان نقل البضائع والاحمـــال الثقيلة يكلف غالياً على الطرق البرية ، فقد استأثر النقل النهري بالاهتمام واستبد بالخواطر ، واصبح من الوسائل التي لا مندوحة عنها ولا بد من التعويل عليها امام هـــذا التطور الذي طرأ على صناعة التعدين واستغلال المناجم واستثمارها.ولذا بادر الانكليز الى ربط مصابّ أنهرهم الكبيرة بالمراكز الصناعية الرئيسية . فقد تم فتح قناة *Severn* كما ان مشروع *Shropshire Union* ضاعف نشاط الـ *Trunk* الكبير وبالرغم من وجود ٢٨ هاوساً على طول

القناةالكاليدونية،فقد استغني عن المرور على مقربة من جزر الاركاد المحفوفة بالمخاطر. وهبطت بالتالي كلفة النقل بين ليفربول ومنشستر الى سبعة امثالها ، كما ان سعر الاسهم في هذا المشروع الاستثماري ارتفع عشرين ضعفاً . الا ان عدم وجود اي اتفاق بين الشركات ينظم المقاييس والرسوم سبب هبوطاً سريعاً عند ظهور الخط الحديدي .

والشرعية التي عادت الى آل بوربون افادت كثيراً من تقليد مرعي الاجراء كما افادت من الغاء رسم الدخولية على ايدي الثورة . فقد اشترى النظام الجديد الاقنية وشمّر عن ساعد الجد لانجاز المشروعات التي كان بوشر بها في عهد لويس السادس عشر، وفي عهد لويس فيليب برزت بوضوح شبكة الترع المائية التي شدت الاحواض المائية ، بعضاً الى بعض . صحيح ان شبكة الاقنية كانت غير كاملة وتفتقر كثيراً التجانس فيما بينها : فقد امتنع على سفينة شحن قادمة من الفلاندر مثلاً المرور عبر قناة الاردن ، كما ان الكباري القائمة على نهر الرون في مدينة ليون وقفت حائلاً دون الملاحة بين نهري الساون والرون . الا ان دخول البخار كقوة محركة ذهب بكل هذه العوائق .

جاء في توصية لغرفة تجارة ستراسبورغ ان « على نهر الرين ان يؤلف اداة وصل بين كل الشعوب» . فقد كان شحن بضاعة من درسدن الى همبورغ يكلف اكثر من نقلها بين مرفأ نهر الايلب ومدينة نيويورك . فقد سبق لمؤتمر فيينا (١٨١٥) ان دعا الدول الواقعة على مجرى الرين للتعاون فيما بينها للقيام بتحصينات على مجراه . وقد ظهرت السفينة البخارية لتعمل في وقت مبكر بين مدينتي روتردام وكولوني ، ولم تمم ان شقت طريقها الى ستراسبورغ. ولم يباشروا في تنظيم مجرى هذا النهر الا في عام ١٨٥١. وقد حدث رغبة جامحة بكل المرافىء الواقعة على سواحل البلاد الواطئة الى اجتذاب الحركة التجارية ونشبت على أثر ذلك منافسة حادة فيما بينها زادها حدة وتعقيداً دخول السكة الحديدية الحلبة . فبينما راحت روتردام تتحرر من حوائل الزويدرزة بانجازها قناة البحر الشمالي الكبرى، كان حوض نهر الموز يحاول تيسير اتصاله بمرفأ انفرس بين ليبج وشارلروا، وبين هذه الاخيرة وبروكسل . وراحت بروسيا والدول المجاورة لها تطلق حرية النقل التجاري على نهر الإيلب. وقد عقد اتفاق روسي –بروسي يرسم خطة تؤمن قيام اشغال بقصد تحسين الملاحة على نهر الفستول ، في الوقت الذي كانت فيه فيينا تخطط هي الاخرى ، للاستفادة من نهر الدانوب . وتوصل نيلز أركسون عن طريق قناة ترولهاتن الى تفادي شلالات غونالف فيسّر بذلك وصول الخشب والحديد السويدي الى مضيق كاتيغات .

اما في روسيا والولايات المتحدة الاميركية المعروفتان بمساحتها الشاسعة فقد ألفت البحيرات والانهر الضخمة فيها طرق مواصلات طبيعية مهمة الغاية ، مع ما هي عليه من حاجة ملحة لاصلاح مجاريها وربطها بعضاً ببعض بشبكة متجانسة من الاقنية والترع. فالسبق القصير الامد الذي

سجلته الامبراطورية القيصرية في هذا المجال ، لم يـدم طويلاً امام هذه الانجازات الضخمة التي تحققت في العالم الجديد . فقد بقي نهرا الدون والدنيبر منعزلين . وقامت شركة روسية السفن التجارية العمل على نهر الفولغا وكاما، واذا كان نهر النيفا يتصل ببحيرتي لادوغا واونيغا وفالفولغا بقي منفصلاً عن خليج فنلندا الى عام ١٨٥٠ . كل هذا يبقى تافهاً زهيداً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الامكانات الضخمة والطاقات الواسعة التي ستحظى بها السفالة القديمة . وعلى عكس ذلك هنالك شعور عارم في اميركا بوجوب ربط نهر الميسيسبي وروافده العديدة باحواض المحيط الاطلسي الساحلية ، وهذه بالبحر الداخلي القائم عند حدود كندا . فقد ألفت مواعين الشحن الهبوط من نهري الاوهايو والميسيسبي حتى اورليان الجديدة، حاملة اليها من السهول والمروج الفيحاء ، الحبوب ولحم الخنزير المملح ، كان سكان الولايات الشرقية يشدون الرجال لنقلها براً على عربات النقل البدائية ، راسمة في سيرها دورة هائلة . واختصاراً منهم للمسافات وتفاديا للموانع الحائلة والعقبات القائمة ، راحوا يضعون الخطط لانشاء ما يلزم من الترع والاقنية الموصلة ،عندما خطر لفولتن التصعيد في نهر الهدسون على السفينة التجارية الجديدة وكليرمونت، التي تم بناؤها في برمنغهام، وضربت المعول الاولى التي بوشر بها عام ١٨١٧ ايذانا بشق الخندق الذي سيمتد الى بحيرة ايريه والبالغ طوله ٦٠٠ كلم . الذي تم الفراغ منه بعد جهود وشاقة استمرت سبع سنوات بكاملها ، وكلفت ٤٥ مليوناً من الدولارات سيسمح بوصول ٣٠٠,٠٠٠ طن ، عام ١٨٢٥ ومليوني طن ، عام ١٨٦٠ . وعن طريق هذه القناة ارسلت شيكاغو اول شحنة لها من الحبوب . والطون الذي كان نقله يكلف ٥٠٠ فرنك هبطت كلفة نقله الى ١٠ فرنكات في اقل من عشر سنوات وهكذا جاءت حركة النقل التجاري هذه تكرّس اسبقية مرفأ نيويورك في مضمار التجارة في العالم الجديد . ومنذ ذلك الحين قامت منافسة حارة بين الولايات الاميركية والمدن الكبرى الواقعة على الاطلسي ، اذ راحت كل من هذه الولايات والمدن تحاول جاهدة الوصول الى احواض الغرب حيث عدد كبير من الاقنية كان على وشك ان يؤلف شبكة متجانسة من هذا النوع المالية . مما لا شك فيه قط ان هذه التصاميم الموضوعة لم يحالفها النجاح . فشبكة بنسلفانيا التي تألفت من قناتين تربط بينهما جادّات منحدرة السطح تجتازها العربات المشحونة ، لم تتجاوز لنشبورغ ، الامر الذي حمل بلطيمور على تفضيل سكة الحديد. ومع ذلك ، فالولايات المتحدة التي ترك لنا ميشال شفاليه باعجاب كلي وصفاً دقيقاً لمجاريها المائية القابلة للملاحة النهرية، بلغ طول شبكتها هذه ٧٠٠٠ كلم عام ١٨٣٥ ،وبذلك هيأت اسباب تغلب البخار . وهذا الحماس لم يلبث ان خمد وانطفأت جذوته بسرعة امام طلوع البخار في انكلترا بالذات .

ظهور سكة الحديد

من اليسير ان يتصور المرء ان استخدام الانحاء للبخار وتسخيره له كوسيلة من وسائل النقل الحديث كان ثورة طارئة . فقد عاش والحق يقال جيل كامل من الناس تنازعهم عاملا الامل والشك حول مستقبل القطار والخط الحديدي . فما عسى ان تكون عليه يا ترى ، سكة الحديد، هذه السكة التي تتألف من خطين متوازيين من الخشب،

ثم خطين من الصب واخيراً من الحديد ظهرا في اواخر القرن الثامن عشر؛ احسن المدنون واصحاب المناجم ، في انكلترا ، استخدامه لنقل عربات الفحم . ولكن هل يكفي ان يلتصق الجانت بالخط الحديدي حتى لا تبقى العربة تتأرجح في مكانها ؟ ليس من عنصر حاسم في الامر منذ العربة التي صنعها كونيوت قبل ان يخترع ستيفنسن عربة *Puffing Billy* عام ١٨١٤. فقد شهد عام ١٨١٤ نهاية عظمة نابليون كما شهد ظهور القاطرة التي تجر ثماني عربات تزن معاً ٣٠ طناً بسرعة ٧ كلم في الساعة [1] وهي آلة باهظة التكاليف كما يقولون ولا تصلح من جهة ثانية الا لنقل الفحم لمسافة قصيرة . فهي عبارة عن فكرة خطرت لمدنٍ فتنت بما تخيّلته نزولاً عند مقتضيات المنجم . وعندما خطر للمركيز دي لور سالوس ، عام ١٨٢٣ ان ينشىء له خطاً حديدياً ينقل عليه وقود الفحم من سانت اتيان الى منطقة اللوار ، لم يفكر بغير الخيل والحمير كأداة لجر العربات . ومع ذلك ، قام جورج ستيفنسن ، عام ١٨٢٥ بتجربته الحاسمة على خط دارلنغتن ستوكتن للتدليل على الخدمات التي تؤديها القاطرة . وتمت التجربة في ٢٧ ايلول امام حماس جميع الذين شاهدوها . فقد استطاعت ثلاث قاطرات تعمل على البخار ، قوة الواحدة منها ٥٠ حصاناً – كما تروي الخبر جريدة التيمس – ان تنقل ١٣ عربة محملة بالبضائع وغير ذلك من المواد المختلفة ، على خط حديدي مرتفع الصعيد . فقد وصلوا هذه العربات وعربة اخرى تحمل السلطات والمدعوين والمساهمين ، بقاطرة نقالة عرفت باسم *Experience* . وتألف القطار من ٣٤ عربة بينها عربة تحمل فرقة الموسيقى تصدح بانغامها الشجية ، بينما كان يرفرف على احدى العربات ، علم كتب عليه : « خطر فردي لقاء منفعة عامة » وعند انطلاق اشارة معينة اخذ القطار يتحرك فراحت الجماهير تهتف هتاف الفرح . وراح بعض الفرسان الخيالة يحاولون إستباق القطار الا انهم لم يلبثوا ان شعروا بانه فاتهم كثيراً . فالمسافة التي كان الانحدار فيها قوياً بلغت سرعة القطار معها ٢٦ ميلاً (٤٠ كلم) في الساعة . وفي سنة ١٨٣٠ ، فاز ستيفنسن وابنه روبرت بالجائزة ضد ادكسون ، وهي جائزة وضعها تجار لانكشير لمن يفوز بالسبق بين ليفربول ومنشستر . فقد جرت قاطرتهما ١٢ طناً بسرعة ٢٢ كلم في الساعة . فالحادث لم يقل اهمية عن حادث *les trois glorieuses* في المدى التاريخي .

فبينا كان الشباب المتحمس في فرنسا يدفع المهندسين ومعظمهم من خريجي البوليتكنيك ومن انصار السان السيمونية ، ويطالبون بالسكك الحديدية ، نراه يصطدم هنا بتنكر البعض الفكرة كما تلقى الفكرة هنالك عدم رضى الآخرين ، كما اصطدمت بمعارضة الذين رأوا في هذا المشروع ، اذا ما خرج الى حيز الوجود ، مساً بمصالحهم ، ويتطلعون بغلاء الحديد ، رأينا الفكرة ذاتها تفوز برضى الرأي العام الانكليزي كما انها نزلت منزل الرضى من الاميركيين . وفي اثر إنفالس فكر ستيفالس ان يربط بين المدسون وبحيرة ايريه باختراع يدخل فيه الخط الحديدي

---

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ، ص ٥٩٦ (من الطبعة العربية) .

والآلة البخارية ، فيكون ذلك الفضل من وصلها بقناة مائية . وقد كان لنجـــاح التجربة اثر حمل بعض رجال الاعمال في بلسلفانيا على شراء قاطرة من انكلترا . وها هي بلطيمور تندفع بكليتها في الامر فتستخدم اول ما استخدمت الحصان والشراع ، فالقاطرة فـــازت في السنة التالية . وانهالت الاموال على المساهمين فسهّل هذا الاقبـــال مد فروع الخط الى واشنطون، ومنشـــار . وفي الوقت ذاته سارت الآلة البخارية على خط شارلستن – همبورغ . ولما كانت السفينة الشراعية تسبب مشاكل وتثير المتاعب فقد كتب النجاح لاحسن صديق او رفيق الذي باستطاعته ان يقطع ٣١ كلم في الساعة جاراً وراءه أربع عربات والذي انتهت رحلته بانفجـــار عقب ان جلس السائق الزنجي على الصمّام ليمنع البخار من الصفير . فالقاطرة *Old Ironsides* التي صنعها بُلدوين وتلـــك المسماة *Thumb* التي جرى صنعهـــا في احواض وست بوينت اصبحتا حديث القوم . وبالرغم من بعض الحوادث المبكية المضحكة التي رافقت تجربتهـــما ، فقد رسمتا مصير هذه الوسيلة الجديدة من وسائل النقل . ومنذ ذلك الحين ، ســـارت الولايات المتحدة في الطليعة وتخطّت اوروبا بمراحل ، فمن ٦٥ كلم للاولى مقابل ٣١٦ في اوروبا (منها ٢٧٩ لانكلترا) عام ١٨٣٠ ارتفعت الولايات المتحدة الى ٤٥٠٩ مقابل ٢٥٣٤ لاوروبا، عـــام ١٨٤٠ – وبعـــد ذلك بعشر سنوات يصبح لدى الولايات المتحدة ١٤٥٠٠ كـــلم من الخطوط الحديدية قيد الاستعمال وتأخذ في الامتداد والتغلغل في الداخل. صحيح ان هذه الشبكة ليست بعد كلها متجانسة فيما بينها . فتفاوت البعد بين الخطوط يختلف بين خط وخط وشبه وشبه وعملية التفريغ وانزال الشحن المعد الفنادق تفرض على القطار التوقف ليلاً بعض الوقت . ومع ذلك فقد راحوا يقطعون المسافة بين بوسطن ونيويورك باربع وعشرين ساعة بدلاً من ٨٠ ساعة. وفي سنة ١٨٥٤ كانت خمسة خطوط تجتاز جبال الابلاش . وهكذا يبدو واضحاً ان الولايات المتحدة الشمالية حققت لها اسبقية ملحوظة في اعتمادها على الخطوط الحديدية .

ففي اوروبا الضيقة لا يزالون بعيدين البعد كله عن هذه الانجازات البنّاءة الطموحـة النيرة التي يقترح ميشال شفاليه الاخذ بها والاقبال عليها ممثلة « بشبكة البحر المتوسط » ، اي القيام بشق قناة مائية تربط كل الخلجان الواقعة في اوروبا على سيف هذا البحر بأم المراكز الصناعية والمدن الكبرى . فالطريق والنهر هما قوتان . وجاءت ردة الفعل وفقاً لطبيعة ومزاج ومصالح كل بلد من هذه البلدان المعنية بهذا الامر . فمن جهـة الجنوب والشرق نرى انهما يفتقران كلياً لرؤوس الاموال اللازمة كما يفتقران للفنيين والتقنيين . فما هي ايطاليا التي تنبأ لهـــا أزغليو بأن انشاء السكة الحديدية فيها « سيخيّط الجزمة » لا تملك ، عام ١٨٤٦، سوى بعض شعبات من هـــذه الخطوط (خط ميلانو – مونز ، وخط بادو – البندقية ، وخط ليفورنو – بيزا ، بقطع النظر عن خط مقاطعة كبانيا ، هذا الخط الذي انشأه فردينان دو.نابولي لنفسه الخاصة وجهز كل محطة تقع عليه بكنيـــسة صغيرة ، وحظر السير عليه ليلاً وايام الاعياد) . اما هنغاريا فستبقى طويلاً لا تملك غير الخط الدائري الذي يلتف حول بودابست (بعد ان كانوا يرددون فيها القول بان

كل من ينظر الى القطار في سيره على الخط يصاب بالجنون . وفي روسيا كان على القيصر ان يضرب بعرض الحائط المخاوف التي جاشت بها نفوس المصابين بمرض العصر ، يعارضون فكرة بناء خط موسكو – بطرسبورغ. ومن جهة اخرى لمحافظ انكلترا على سبقها في هذا المضمار وعلى التقدم الذي سجلته على كل جيرانها . فهي البلد الوحيد الذي يتمتع بشبكة حديدية تربط ما بين مدنها الرئيسية وحواضر البلاد الكبرى . وقد اقبلت بشيء من الهوس الجنوني على بناء هذه الشبكة التي استمر العمل فيها من ١٨٤٠ – ١٨٤٧ بالرغم من المنافسة الحادة التي ابداها اصحاب العربات ومعارضة بعض الشركات المالية ولا سيما معارضة *Turnpike Trusts* وكل من يعتاش من صناعة الجر ، وبالرغم من المضاربات على الاراضي. ان و . شابلن الذي كان في حيازته عام ١٨٣٦ نحو من ٣٠٠٠ عربة نقل و ١٥٠٠٠٠ حصان جر رأى انه من الايسر والاسهل نقل الطرود البريدية بالقطار الحديدي ، وقبل ان يترأس شركة خط لندن والجنوب الغربي . وقد احدث انشاء خط حديدي بين بروكسل ومالين تحولاً في الرأي العام الذي اخذ يعطف على الفكرة بعد ان تنكر لها فاخذ يظاهر الاقتراح الجريء الذي كان يرمي الى انشاء خط حديدي يربط ما بين انفرس – كولوني وهو مشروع تقدم به الوزيران روجيه ولوبو . وقد تعللوا في معارضتهم لهذا المشروع بانه يجر الخراب على اصحاب عربات النقل ويدهك الارض الصالحة للزراعة ويدخل الرعب على الماشية والحيوانات ويحقلها . فبعد سنة ١٨٤٣ ،قام في هذه المملكة الصغيرة من الخطوط الحديدية ما يوازي ما كان منها في فرنسا . وكان من حسن وضع شبكتها ان اجتذبت اليها كل الحركة التجارية في اوروبا الريفية . اما البلاد الواطية التي تخلفت عن جارتها في هذا السبق ، فلا عجب قط ان تفقد جانباً من الارباح التي كانت تعود اليها من الحركة التجارية وحركة النقل التي كانت تتجه اليها .

كبير جداً عدد رجال المال والاعمال والاقتصاد ورجال الادارة في المانيا الذين ادركوا كما يجب، الفوائد والمنافع التي يحملها الى المانيا المنقسمة على نفسها سياسياً وعلى الاتحاد الجركي الذي قام فيها التخلف عن الركب في هذا المجال . ولكن كيف العمل وقد راح الاطباء يؤكدون ان السرعة التي يتعرض لها المسافر تعرضه لفقد بصره وبالتالي العمى،كما ان بعض المصالح الفردية الخاصة وفقدان الثقة التي يجب ان تقوم بين الدويلات الالمانية وقلة رؤوس الاموال، كل هذه التعللات قامت وانتصبت في وجه القائلين بالتطور في هذا المجال والقائلين بوجوب الاخذ باسبابه . ففي عام ١٨٣٥ فقط ، وتحت ضغط ليست استاذ الاقتصاد السياسي في جامعة توبنجن وبفضل المبادرة التي اخذها شارير، عمدة نورمبرغ ، تم انشاء فرع خط نورمبرغ – فورث . وقد وجه البروفسور ليست نفسه ، نداءً الى سكان مقاطعة ساكس دعاه « البراءة الكبرى ، الخطوط الحديدية» يحثهم الى معاضدة خطة تطوير المواصلات الحديدية واخذ يجمع اشتراكات المساهمين بقصد بناء خط يربط بين ليبزيغ ودرسدن ، هذا الخط الذي جرى تدشينه باحتفال عظيم ، اقيمت فيه اقواس النصر واشتركت فيه اجواق الفتيات . وراحت كل مدينة

تطالب بوصلها وربطها بجارتها او بأقرب نهر منها ، وكل وحدة ترغب في ان تصبح عقدة مواصلات. الا ان الحكومات المستبدة كانت في حذر من هذه المشروعات الخاصة: اذ ان القانون البروسياني كان يقيم مراقبة شديدة على كل مشاريع الاستثمارات وراحت بعض الدويلات الالمانية تحتفظ لنفسها مسبقاً بحق استثمار الخطوط الحديدية فيها. فمن المفارقات الحرية بالملاحظة ان تلعب السلطات العامة في المانيا هذه التي تفتقر اصلاً الى حكومة مركزية دوراً اكبر من الدور الذي قامت به الحكومة الفرنسية. اذ لم تنتهِ ان اصبح لديها ٥٠٠٠ كلم من الخطوط الحديدية مقابل ٣٠٠٠ في فرنسا وهي شبكة تتألف من خط رئيسي يربط بين اكس لاشابل وبوزن، ماراً بهانوفر وبرلين ويقطع الانهر الكبيرة في شمالي البلاد. ومن هذا الخط تتشعب فروع نحو بريمن وهمبورغ كانت قيد الانشاء. ولما كان الرين الأوسط لا يفي تماماً بالغرض فقد تم وصل فرانكفورت بمدينة بال ، كما ان بروسيا ارتبطت بالنمسا واتصلت بها عن طريق سيليزيا وبوابة مورافيا.

وطالت فترة التردد في فرنسا وانتصب فيها جبهتان: المجددون التقدميون الجريئون، والنظاميون الرجعيون. من هنا السان سيمونيون ومهندسو الكباري والطرقات، ومن هناك رجال المال المتحفظون وفريق النبلاء الحذرون، والمتشائمون على انفسهم ذوي الموقف المتزعزع، وحكومة لويس فيليب الذي يتأرجح بين الأخذ باقتراحات له غران ومارتن دي نور ، وبين تحفظات المجلس الوطني وتردده. فلم يكن الى سنة ١٨٤٢ سوى بعض فروع قائمة. وعبثاً يحاول كل من اميل بيرابر في جريدة « الناسيونال » وفلاشا في جريدة « الدستوري » وشارل دي فربيه في جريدة « الكوريدي » وشفاليه في جريدة « الديبا » امتداح سياسة الانشاءات العامة ويحثون رجال الاقتصاد على وجوب تبنيها. صحيح ان جيمس دي روتشيلد اقتنع في نهاية الامر ليقامر بتنفيذ خط يربط بين باريس وسان جرمين ، تحت سمع الباريسيين وبصرهم، تأميناً لما فيه الترفيه والسرية عنهم. وقد ساهم الجيش الفرنسي ببناء جسر أنيير. وجرى تدشين الخط باحتفال كبير ،عام ١٨٣٧ وعند افتتاح خط نيم - بوكير راح احدهم يقرظ شعراً فوائد القاطرة، منشداً :

ما اجمل القاطرة العروب اللاهثة
يداعب عرف شذاها النسيم العليل
مري باعربة الجود والكرم
عنزقة من ارضنا السهل والجبل
ممالك الاقليم هو خير بدار
يفيض الخصب من الاتلام والحركات

وهذا الحماس يتجاوب مع نشوة الطرب يهز مشاعر ميشليه وهو في القطار من لندن الى ليفربول فيقول : خمسون فرسخاً باربع ساعات. ليس ما يستطيع وصف هذه السرعة الجنونية

التي نجتاز معها كأننا مع قصة من قصص الخيال ، هـذه المناظر الفناء. نحن لا نعدو ،نحن نطير فوق الحقول المبسطة وفوق الصخور والبطاح ، نمر سراعاً فوق الكباري المعلقة والقناطر التي تذكرنا بما لجمعه من فن وملاحة ،في كل لحظة والتفاتة ، بهذه المباني الاوروسكية والرومانية . نحن نحوّم فوق المهاوي والاغوار » .

اما في فرنسا فالمسافات رحبة هي وشاسعة ، واصحاب رؤوس الاموال يفضلون ريعاً تكفله الحكومة، بينما اكثر المشاريع الاستثمارية تعيش فيها عيشاً نباتياً. وراح اراغو يحذر الناس من « هذه الاحلام التي يطلقونها على قضيبين من الحديد » . ففي عهد حكومة غيزو فقط ، وبفضل حركة ازدهار قصيرة الامد، صدر قانون ١٨٤٢ الذي اوجب على الدولة معاضدة المشروعات الخاصة ومؤازرتها ، انما تحت مراقبتها الرسمية واشرافها الفعلي . فتأسست في البلاد شركات جديدة ، واخـــذت الاسهم المالية تترى في حمى من المضاربات ، وقامت ورشات احتدمت بالنشاط . فالازمة التي استبدت بالبلاد شلت الاعمال لا بل عطلتها تماماً . فالذهاب من باريس الى ليون ، عام ١٨٤٨ كان يضطر المسافر ان يستقل القطار الى كورباي ، ليعود فيستقله من جديد من ميلون الى تروى واخيراً من ديجون الى شالون . ولكن لا مندوحة له من ركوب القارب او العربة بين كورباي وميلون – وتروى وديجون ، وبين شالون وليون . ومع ان ركوب القطار يكلف ٢٥ سنتيما الكلم الواحد مقابل ٦٠ للعربة ، فالعربات تسير اسرع وتسير تواً .

ففي ديوانه الشعري *Les Destinées* ، تتزى ريشة فينيي بشيء من الشك المبهم عندمـــا يقول :

هذا الثور الحديدي الذي يدخن ويلهث ويخور
فاي عاصف فيه يُطلق هذا الاعمى الهائج ؟

عالج القرن الثامن عشر البطء في المواصلات بالاختراعات الجديدة يكشف فيها عن اسرار القوى الطبيعية ، ويأتي بها علاجاً اولياً نشراً لافكاره وبثاً لها بالسرعة المرتجاة . فالاهتمام بتوفير وسائل الاتصـــال والاعلام عن بُعدٍ لايزال يستبد بالخواطر حتى بعد ان اكتشف الانسان التلغراف البرقي . ففي سنة ١٨٣٨ فقط ، اعتمدت الحكومة الروسية طريقة شاب للاتصال السريع بـــين فرصوفيا وبطرسبورغ، هذه الطريقةالتي كان لها في فرنسا اذ ذاك ٥٠٠ محطة فمكنتها الاتصال بين باريس وطولون في اقل من ١٥ دقيقة واتفق عام ١٨٣٧ ان كان الانكليزي هويتستون ، والالزاسي ستاينهايل الاستاذ في جامعة ميونيخ ، والاميركي مورس ، ان تقدموا في وقت واحد تقريبـــاً، بشهادة اختراع جهاز خاص للمخابرات السريعة عن طريق استخدام شاحنة فولطا بعد التجارب التي قام بها غوس وويبر حول المغنطيسية الكهربائية فاستنبط هويتستون طريقة المحطـــات للتغلب على عنصر المسافة وعامل المقاومة ، بينما راح ستاينهايل يقترح الاخذ بالشبكة الوحيدة

من التلغراف البصري الى التلغراف البرقي

لتكون الارض فيها سلك رجوع ، في الوقت الذي استنبط مورس طريقة جديدة مبسطة جداً تتألف من علامات ترسم على لفافة من الورق . فبدلاً من تسجيل الاشارات الرمزية تسجل البرقية نفسها . واستطاع مورس ان يتبادل البرقيات بين واشنطون وبلطيمور عام ١٨٤٤ . ولم يمض كبير وقت حتى راح كل من برنار وولف بالاشتراك مع ارنست ورنر سيمانس ثم رويتر المعروف بصداقته لغوس يستخدمون طريقتهم هذه في هذه الوكالة للاخبار التي انشأوها . اما التلغراف البصري فقد احتفظوا به في مصالح الجيش والبحرية .

ازدهار السفن الشراعية وبدء العمل بالبخار

كانت تنقلات الانسان على البحار حتى الآن مرتبطة الى حد بعيد بمزاج الارياح والاهواء التي حاول جهده ان يكبحها او يتحكم بها بشكل او آخر . والعمل في السفن الشراعية كان مليئاً بالمخاطر والمشقات اذ تقتضي القائمين به والناهضين باعبائه واحكامه ، الكثير من المهارة والجرأة ورباطة الجأش . فعلى من يرتضي حياة البحر مهنة له وحرفة ان يقنع بفراش خشن وحجرة ضيقة ، ضئيلة النور ضعيفة الانارة ، فاسدة الهواء كثيراً ما تنبع منها رائحة العطن ويعيث فيها الجرذان ويعبث بها الهوام. اما طعامه فقوامه المعجنات والمملحات والتبلغ غالباً بماء مز أجاج . فهو ابداً عرضة للامراض تترصده المخاطر بين الصخور ومهاوي البحر واغواره . وتطل عليه من سطحه واعماقه ، فيسير على بركات الرحمن متوثقاً بالظروف والامكانات الآنية ، ويقلع ملؤه النشاط كلما سمحت له الظروف وافتر له القدر ببسمة الامل . فوكالات السفر البحرية اخذت بتنظيم اسفار في مواعيد محددة بين نيويورك وليفربول ، شهرية في بدء الامر ثم نصف شهرية بعد حين ، كما قامت وكالات اخرى في لندن والهافر تنظم السفر الى شواطىء الهدسون، في رحلة يقتضي لها من اسبوعين الى ثلاثة اسابيع ، ذهاباً من الشرق الى الغرب ، ومن ٣٠ — ٤٠ يوماً إياباً في الاتجاه المعاكس ، والمهم في هذا كله تأمين الطمأنينة والسلامة اكثر من الوقت .

وبالرغم من هذا كله فقد قطع الاوروبي مسافات شاسعة فوق البحار يخترق عبابها قبل ان يتاح له السيطرة على القارات والتحكم بالمسافات. فبعد ان اعتمدوا في اواخر القرن الثامن عشر السدسية *sextant* في تحديد خطوط الطول وقياس ارتفاع الاجرام السماوية وابعادها اكثر من اعتمادهم على الاسطرلاب ، استطاع الميقت او الكرونومتر بعد التحسينات التي ادخلها عليه كل من بريغيه وابرهم لويس ان يسجل تطورات عظيمة في قياس الوقت بدقة كلية . ولن يلبث رجل البحر حتى يرى تحت تصرفه خرائط مفصّلة لرحلات فصلية مرتكزة على رصد مهب الارياح . اما البركار فلن يصبح في مأمن من الاضطرابات التي تحدثها الجيوم المعدنية الواقعة على مقربة منه الا بعد لأي من الزمن .

فكيف السبيل والحالة هذه الى استبدال السفينة الشراعية بأداة للملاحة تكون اسرع واكثر ايحاءً للطمأنينة ؟ وفكرة استخدام البخار كمحرك في الملاحة وجدت لها رواجاً اكبر

بعد نجاح تجربة السفينة التي تعمل على الشراشات في المياه الداخلية التي قـاموا بها في العالم الجديد . وكانت نقطة الانطلاق هذه التجارب والاختبارات التي قام بها جوفروا دبالس على نهري الساون والسين ولاسيا التجربة التي قام بها فلتن على سفينـة *Clermont* في خليج هدسون . هنالك عام ١٨١٥ نحو مـائة بيروسكاف (وهو الاسم الاول لسفن البخارية) تعمل على الحطب كوقود لها لوفرة هذه المدة ورخص ثمنها بينا ارتفع هذا العدد عام ١٨٣٠ ، الى ٥٠٠ بيروسكاف . وهكذا طلع علينا الـ *steamboat* مهداً السبيل لظهور الـ *steamer* . ولكن هل باستطاعة المركب البخاري الذي اطلقه دل وفسن على الكلايد ان يستجيب لمقتضيات رحلة بحرية طويلة ؟ فقد ارادوه للملاحة القريبة من الشواطىء ولاجتياز البحار الضيقة كبحر إيرلندا مثلاً . فليس من الغريب قط ولا ما يدعو العجب ان تجتاز « السافانا » شمالي المحيط الاطلسي عام ١٨١٩ ، بخمسة وعشرين يوماً ، فلا تصل الى مرفأ ليفربول الا بعد ان استعانت بالشراع . وقد ذهبوا بها الى كرونستادت الا انها لم تجذب بشيء اهتام الامبرالية الروسية ، فاضطرت التكول راجعة الى اميركا مستعينة في ذلك بالقلوع مرة اخرى . فقد برهنت التجربة على ان العجل الذي يحرك الفرّاشات لا يعطي النتيجة المطلوبة ، اذ ان حركة السفينة من الاسفل الى المقدمة تكشفه تارة وتغطيه طوراً . ومن جهة اخرى ، ان تحتك العجلات الذي يتحكم بالآلات يفقد السفينة الكثير من قوة الدفع بعد ان يفقدها المرجل ذو المربعات قسماً كبيراً منها . فهي من جهة ثانية لا تصلح كسفينة حربية اذ انها هدف سهل المنال لرماية العدو . اما اذا ما عـادت سفينة الفنكس بسرعة ٩ عقد تذيع في فرنسا على الاهلين خبر سقوط مدينة الجزائر عام ١٨٣٠ ، فالسفن التجارية لم تكن لتخلو اذ ذاك من محاذير سيئة . اما كان يقتضي لها من وقود الفحم ما يملأ كل الفراغ المخصص فيها للشحن ؟ والسفينة انتربرايز وصلت كلكوتا عام ١٨٢٥ بعد رحلة استغرقت ١١٣ يوماً ، منها ٨ ايام قضتها تمتار الماء والوقود في مدينة الكاب . والى هذا كان لا بد من ان يحسب المرء حساب لخطار الحرائق والانفجارات الطارئة ، وهي اخطار لم تكن نادرة الوقوع على خطوط الملاحة . فالسفر في عرض الاوقيانوس ، بدون انقطاع او توقف ، على ظهر سفينة تشحن الفحم ليس باقل خطر من رحلة يخططون الى القمر تنطلق من ليفربول ، كما يؤكد ذلك العالم الرياضي لاردنير ، عام ١٨٣٥ . فليس من غرابة قط ، والحالة هذه ، ان يتردد نواجذة البحر ، قبل الاقدام على تعريض اموالهم للخطر .

ومع هذا لم تمر ثلاث سنوات حتى وقعت التجربة التاريخية المشهورة التي قامت بها السفينة سيريوس والسفينة الاخرى *Great Western* اللتان عرفتا كيف تستفيدا من البخار والشراع معاً ، اذ قطعتا الاوقيانوس ، بين ليفربول ونيويورك ، الاولى في ١٦ يوماً ونصف والثانية في ١٣ يوماً ونصف . وعلى الاثر يتعهد البحار السكتلندي صموئيل كونارد بنقل البريد على اربع سفن تجارية اولاها بريتانيا التي قطعت المسافة بين ليفربول وبوسطن بـ ١٧ يوماً محققة بذلك الاقتراح الذي تقدم به المهندس إيزمبير كنغدوم برونيل ، الى شركة *Great Western Rail Way*

بعد خطها حتى اميركا وذلك باستخدامها سفن بخارية في اسفار مطردة .

واخيراً هل في مكنة السفينة البخارية لمصري ان تستغني الى الابد عن الاشرعة التي تحتاج الى ايد عاملة كثيرة ؟ فقد اتجهت السفانة نحو تحقيق هذا المطلب باستعمالها المروحة القائمة على مبدأ برغي ارخميدس ، هذا المبدأ الذي خطر لبعضهم ، منذ القرن الثامن عشر استعماله وتطبيقه ، والذي قام باخراجه الى حيز الوجود في وقت واحد تقريباً احد بناة السفن في بولونيهوسوفاج، ومزارع انكليزي هو بتيت سمث واركسن نفسه ؛ بين ١٨٣٢ – ١٨٤٤ . وستمر ١٥ سنة قبل ان يعم استخدام هــذا المحرك الحلزوني او الدوامة . كذلك سيتم بالبطء نفسه من حيث التطبيق والافادة من خدماته،الاختراع الذي وضعه هول عندما وضع المكثفالسطحي الذي يرفع من حرارة المرجل ويزيد كثيراً من طاقتهــا الآلة المزدوجة التي ستوفر الكثير من الوقود لن تظهر للوجود قبل عام ١٨٦٠ .

وفي غضون ذلك تعرف السفينة الشراعية اندفاعة عن نفسها بنجاح بفضل عناية الاميركيين انفسهم وتفوقهم الذي عرفوا اثناء حروبهم عام ١٧٩٣ و ١٨١٤ ، ان يفيدوا الى حــد بعيد، مما لديهم من احراج وغابات كثيفة ظليلة . وزادوا ثلاثة اضعاف من حجم اسطولهم فتجاوزوا في المرتبة الثانية بعد انكلترا،كما انهم راحوا يقلبون النظر في كيفية التغلب علىاسطول الملك جورج من حيث السرعة واستيافه ، وذلك بتنعم شكل السفينة دون ان يلحقوا اي ضرر او اي وهن بمتانتها . وفي هذا السبيل اخـذوا يبنون سفناً شراعية يزيد طولها ٦ او ٧ اضعاف عرضها ويجهزونها بعدد اكبر من الصواري يباعدون فيما بينها . وهكذا طلع علينا نوع جــديد من السفن من طراز *Clipper* وهو نوع ادق قيادة لمصري وان كانت سحنه دون سعة الطراز المعروف بـ *Brick* ، تسير برشاقة وسرعة باشرة ١٠٠٠ متر مربع من الاشرعة ، لها من الطاقة ما يساعدها على اجتياز المحيط الاطلسي من الشرق الى الغرب بـ ١١ يوماً لتعود إياباً بـ ١٠ يوماً . فبلغت سرعة السفينة *Lightning* عام ١٨٥٥ نحواً من ٣٣ كلم فيالساعة اي ١٨ عقدة، وهي سرعة لن تتخطاها السفينة التجارية الا بعد مرور ٢٥ سنة . والذي جعل منها بحق ملكة السفن الشراعية ورجح جانبها الى حين واولاها الافضلية على منافستها هو قدرتها على القيام بالرحلات الطويلة . الا انه بالنظر لاعمــال وتهريب الافيون الى الصين في اعقــاب ١٨٢٥ والاتجــار الحر بالشاي الهندي بعد ان الغت انكلترا عــام ١٨٣٣ ، الحكر الذي تمتعت به شركة الهنــد الانكليزية ، واكتشاف مناجم الذهب في كل من أوستراليا وكاليفورنيا ، اوجب التعويل على سفينة الـ *Clipper* واستخدامها في هذه الرحلات الطويلة، من كلا جانبي اميركا، من جهة بين اميركا وآسيا ، ومن اخرى بين اوروبا نفسها والقارات الاخرى . فمنذ سنة ١٨٢٦ دشنت السفينة *red rover* الاتجار بالافيون مع كلكوتا وهونغ كونغ. وفي سنة ١٨٤٥ انطلقت سفينة « قوس قزح » من نيويورك لتبلغ كنتون بعد ٩٢ يوماً . وفي سنة ١٨٤٩ قطعت السفينة الشراعية *Oriental* المسافة بين هونغ كونغولندن بمثل هذه المدة من الزمن.والسباق على الاتجار

بالشاي بين الشركات الانكليزية والاميركية استمر الى ان فازت انكلترا بالسبق على منافستها بعد عام ١٨٥٠ . ولكنت السفينة *Cap hornier* من ربط شمالي الاطلسي وكاليفورنيا بثلاثة اشهر بدلاً من ستة اشهر او سبعة اشهر لتدور حــــول الطرف الجنوبي العالم الجديد في طريق رجوعها من ملبورن التي تأليا متبعة طريق الكاب ورأس الرجاء الصالح . فالغوانو والنترات المتوفر بكثرة على سواحل جبال الاندس يصل اوروبا بالطريق ذاته .

وهكذا صانت الـ *Clipper* شرف السفينة الشراعية من الهوان والاستخفاف ، فالبخار لم يكسب بعد قصب السبق . ففي عام ١٨٥٠ يبلغ حجم السفن الشراعية ١٠ ملايين طن بينها ليس منها السفن البخارية غير ٧٥٠ الف طن . ومهما يكن ، فحجم الاسطول البريطاني يتضاعف ، وسيكون تحت تصرف الاوروبيين ، عام ١٨٧٠ نحو من ١٤ مليون برميل مقابل ٣ او ٤ ملايين ، عام ١٨١٥ .

الفصل الرابع

الدفع الرأسمالي والبورجوازي

« فقد اتخذوا لهم من ركائهم معبداً ومن مكتبهم كرسياً للاعتراف ومن ملصقاتهم توراة ومن مستودع بضائعهم هيكل . فالجرس الصلق تفرع عندهم السلام الملائكي . والذهب الرنان اصبح معبودهم . والاعتماد المالي دينهم ووجدانهم » .

(هنري هاين : رسائل من برلين)

حقبة تسيطر عليها حاجة ملحة للنقد سارت التكنولوجيا قدماً الى الامـام . فهل توفر لهم الاسواق التجارية مـا يطمع المجتمع بتحقيقه من اهداف تسعى الوسائل التقنية الى تحقيقها . وكما حدث في القرن الثامن عشر ، عهد اشتداد الحاجة للنقد والسيولة ، نرى ان انتاج المعادن الثمينة اخذ بالهبوط، اذ لم يعد هذا الانتاج ليتجاوز ٢٠،٠٠٠ كيلو من الذهب قبل سنة ١٨٤٠ ، بينما ارتفع هذا الانتاج ، بين ١٨٤٠ - ١٨٥٠ الى ٥٥،٠٠٠ كيلو ، ليسجل بين ١٨٥١ - ١٨٥٥ انتاجاً بقدر ٢٠٠،٠٠٠ كيلوغرام . وحركة ارتفاع الاسعار التي ظهرت منذ الربع الثاني من القرن الثامن عشر توقفت تماماً بمداعادة السلام واستتبابه تماماً في القارة . فاذا ما عدنا نتمعن النظر في الكشوف البيانية [1] ونحلل ارقامها لاحظنا هبوطاً ملحوظاً يستمر حتى عام ١٨٥٠ .

رافق حركة الاستثمارات هذه نزعة الى احداث تخفيض في الاجور بعد ان توفرت في معظم البلدان ، اليد العاملة ، وهي نزعة تأرجحت بين فرص الحماية الجمركية وبين النزعة الى التوسع

(١) راجع الكشف البياني ، ص ص ٨٨ . كذلك من المستحب الرجوع الى الكشوف البيانية الاخرى المنشورة في المجلد الخامس من تاريخ الحضارات العام ، ٥٩٣ - ٥٩٥ (الطبعة العربية).

في الحركة التجارية . فاذا كان رأس المال يدر ربحاً صافياً لم يكن مع ذلك ليخرج من صناديقه بسهولة . ولعل خير من يرسم لنا صورة واقعية عن الوضع السائد اذ ذاك هو هذه الشخصيات التي يمثلها الاب غرانديه لبلزاك ، والبخيل في رواية « اجراس كورنفيل » ، ولا سيا شخصية مردستون وشقيقته في رواية«دافيد كوبرفيلد» ورواية السير رالف نيكلباي لديكنس، حيث نرى غوبسك يقرض بفائدة ٥٠ و ١٠٠ ٪ . وعند اقل بادرة او اشارة خطر تظهر في وضع شركة تجارية او مصرف مالي ، يتهافت الناس على المصرف ويندفعون لسحب ودائعهم . فالمهم قبل كل شيء في دنيا الاعمال ، هو تاريخ الاستحقاق وشهرة ومكانة اقوى المحلات التجارية وارسخها ، فتصبح تحت رحمة مدين لا يستطيع وفاء ديونه . ولذا كثيراً ما يلجأ ارباب المال والاعمال الى استعمال القوة والاكراه ، والسجن يؤلف عندهم سيفاً مصلتاً فوق رأس الدائن العاجز بعد ان انزله الشارع منزلة السارق .

الدول : مصاعبها المالية ومشكلاتها

من الامور التي لها دلالتها في فرنسا ، بعد اعادة الملكية ورجوع الشرعية اليها ، الرغبة في عصر موازنة الدولة وتشحيلها ، على اعتبار ان كل انفاق لا كبير مبرر له يلحق الضرر بالوضع المالي العام الذي تتحكم فيه البلاد . ففي بريطانيا العظمى نفسها ، بلغ من ضعف الثقة بالوضع المالي بحيث ان التغطية الذهبية للبنك الاهلي فيها ، عجزت مرتين عن منع الذعر يدب بين الاهلين كما عجزت عن منع حوادث افلاس بالجملة .

ومن جهة اخرى ، فالرجوع الى التعامل من جديد بالنقد المعدني كان من شأنه ان يسبب هبوطاً في الاسعار . فالسوق يرتاح الى الطمأنينة ويؤازرها على التوسع في حركة الاعمال .

فالتداول بالأسيناء ، ترك في فرنسا ذكريات مريرة استمرت طويلاً في الخواطر والاذهان. فثلثا قيمة القسيمة لم يتجاوز الالف فرنك،والقسائم ذوات الخمسين فرنكاً ، لم تدفع قيمتها قبل ١٨٦٥ . والبنك الاهلي في بروسيا فرض عليه نظام شديد ووضع تحت مراقبة شديدة من قبل الدولة البروسيانية حتى انه لم يتمتع بحق حسم السندات المالية الا في سنة ١٨٤٦ وكذلك بحق التسليف . فحكومات النمسا وروسيا واسبانيا وادارة صغار الامراء الايطاليين كلهم في عسر مالي وحاجة ملحة للنقد .

ان اجبار المصارف في الولايات المتحدة الاميركية على دفع السندات بالعملة المعدنية أثار صعوبات كثيرة بين وزارة المال وبين خصومها من كبار المزارعين في الولايات الجنوبية ، والرواد في الغرب، وصغار الملاكين في الشرق الشمالي الذي راحوا يشكون من فداحة الضرائب ورسوم الايجارات المحددة بالعملة المعدنية . وعندما راح جاكسون ، عام ١٨٣٦ ، نزولاً عند ثورة الشعب وتحقيقاً لمطالبه ، يتجاوز امتيازات البنك الاهلي ، حدثت في البلاد ازمة عنيفة امتدت عقابيلها الى جميع ارجاء اوروبا .

كبار رجال المال والحكومات

يجيد ستندال للملاحظة ويعبر بعمق عندما يقول : المصرف هو رأس الدولة . فالبورجوازية حلت محل حي سان جرمين ، واصبح المصرف بالتالي بالنسبة الطبقة البورجوازية ما كانته طبقة النبلاء بالنسبة الشعب ». فقد طلعت على البلاد اوليغارشية مالية لم يعد في وسع الحكومات تجاهلها والاغضاء من شأنها ، معظم اعضائها ينتمون الطائفة الانجيلية . وقد اخذوا يشيرون الى هذه الفئة، منذ عام ١٨١٥ ، باسم كبار رجال المال ، وانخرط في صفوفها بعض اصحاب المصارف من اليهود الالمان امثال هاين . وقد تمتع اصحاب هذه الاقلية بسمعة مالية قوية واخذوا يتحكمون بمصرف فرنسا الذي رأى النور تحت جناح ورعاية المالي الكبير بيريغو منسكان نيوشاتل . وقام في لندن آل بيرنغ، هذا البيت المالي الذي يعود اصله الى ابن قسيس في مدينة بريمنهو فرنسيس بيرنغ ، مدير شركة الهند والذي مد يداً سخية ليبت في المشاريع التي نهض بها . وبعده طلع اسكندر الذي اصبح فيها بعد اللورد أشبرتن الذي آل اليه الاشراف ، بين ١٨١٥ – ١٨١٨ ، على الاعمال المالية الضخمة التي جرت في هذه الفترة، ثم دخل شريكاً مع آل هوب في امستردام وباريس . وقد تمكن احد حفدته هو اللورد نورثبروك ان يتولى مقدرات وزارة الخزينة ثم وزارة المالية . وقد تحلى افراد هذه الفئة بالفطنة والحذق وحسن الاطلاع وهي كلها من هذه الصفات التي ميزت كبار رجال المال اذ ذاك . فقد اتقنوا الى حد بعيد ، معاملات الكوميسيون (الوساطة) في كل ما يتصل بشراء وبيع السفاتج والسندات المالية واسهم المعادن الثمينة لحساب الغير ، كما تمت لهم في الوقت ذاته خبرات واسعة في الاعمال التجارية الكبيرة ، كما هي حال آل ايشبورن في مدينة بريسلو الذين هيمنوا على مصانع نسيج الكتان وتجارة البن ، كما ان آل هلزمان اصحاب مصانع الاصواف ، انشأوا لهم شركة التأمين ، كما ان انطوان برليه أسس مع شقيقه كزمير مصرفاً له ، وامتلك مصانع لتكرير السكر ومعامل النسيج ، ومسبكا للحديد والصب في شايو ، كذلك تعاطى تجارة غاز الانارة .

لم تسجل الاسواق المالية حتى عام ١٨٣٠ تطوراً كبيراً . فالمصافق او البورصات التي نشطت اذ ذاك ولا سيا بورصة الاسهم المالية في لندن لا تتداول بسوى قسم ضئيل من الاسهم العائدة لبعض المحلات الصناعية ، فالاعمال التي تستأثر بالانتباه والنشاط هي المعاملات العائدة للقروض التي تجريها الدول والتي كان يرغب فيها كثيراً اصحاب رؤوس الاموال وتحوز رضاهم . فالمصارف الكبرى تلعب هنا بالفعل دور المصالح الادارية في تأمين الخدمات العامة .

ثروة آل روتشيلد

لاحظ جنتز مستشار مترنيخ ورفيقه في مؤتمر فيينا ، بما له من شدة الفراسة ودقة الملاحظة ، ان آل روتشيلد « يتمتعون بغريزة مدهشة وموهبة ممتازة يتبنون معها احسن الحلول العارضة يختارون الافضل بين حلين جيدين ». فقد كان المؤتمر المذكور فرصة طيبة عرضت امام هذه الاسرة التي كتب لها ان تبرز وتلمع من بين هذه

البيوتات المالية الكبرى التي كتب لها ان تلعب بمقدرات الدول في القرن التاسع عشر .

يعود اصل هذه الاسرة البعيد الى الطائفة الاسرائيلية في مدينة فرانكفورت حيث كان جدها الاول أمشل - ماير يتعاطى بنجاح، اعمال الصرافة ويدير بكل جدارة اعمال منتخب هس كاسل ومصالحه العديدة. وقد رزقه الله خمسة اولاد عرفوا بـ « سادة فرانكفورت الخمسة » ، تسلم اكبرهم المدعو أمشل ادارة اعمالهم في فرانكفورت بينما استقر اخوه سلومون في فيينا واتجه اخوهم الثالث ناثان ، وهو اكفؤهم وأنبلهم الى لندن ، بينما توجه جاكوب او جيمس الى باريس ، واتخذ اصغرهم كارل مقراً له في نابولي . واعتاد هؤلاء الاخوة ان يعقدوا - كل سنة في المدينة الامبراطورية الحرة ، اجتماعاً لهم يستعرضون فيه سير العمل في علاقاتهم على ضوء بيانات وكشوف دقيقة ، ودراسة الاوضاع العارضة. وسواء أصحت عملية مضاربة مالية ضخمة قاموا بها بمناسبة معركة واترلو التاريخية ام كذبت ، فقد كرست هذه العملية شهرتهم وجعلتهم اشد اطلاعاً على بواطن الامور وخفاياها ، من رؤساء الدول وملوكها . فقد اصبح آل روتشيلد المموّلين الاوائل لدول الحلف وشركاتهم . ويقوم سر النجاح الذي اصابوه ، بتأمينهم نقل مبالغ ضخمة قد تكون صورية او وهمية ، بين انكلترا وشركائها ، في ظروف صعبة ، خطرة من الحروب القائمة ، في وقت كان نقل مبالغ ضخمة من المال لمسافات بعيدة ، محفوفاً بالاخطار . فاتخذوا لحلفهم شعاراً ان دل على شيء فعلى ما جاشت به نفوسهم من اعتداد وطموح بعيد وهو شعار تألف من الكلمات الثلاث اي : إتفاق ، مهارة ، نزاهة .

وهكذا لم يبق في وسع الملوك الاستغناء عن خدماتهم. ومعظم عمليات القروض الكبرى التي وقعت بعد عام ١٨٢٠ تمت على ايديهم وبواسطتهم . وكافأهم الامبراطور فرنسوا باعطائهم لقب بارون . ولما كان من المهم جداً لديهم ان يسود الامن بين الدول والشعوب بحيث ينصرفون هم لاعمالهم التجارية والمالية بطمأنينة ، فقد حرصوا جهدهم على تأمين اسباب التفاهم بين الملوك والامراء. ففي الوقت الذي كانوا فيه يُتهمون بتحسين وضع ابناء ملتهم في العقيدة والدين الذين كثيراً ما كانوا يتعرضون للاضطهادات ، فقد راحوا يعملون على توطيد اسباب النظام بعد ان عاد السلام الى اوروبا . وكيف لا تقلق خواطرهم وتجزع نفوسهم على ثرواتهم الطائلة بعد ان اصبحت اسطورية ومضرب الامثال بين الناس ؟ فقد راحوا يستثمرون اموالهم في مشروعات عديدة على شاكلة آل فوجرز قديماً . فقد حازوا على مناجم الزئبق في ادريا كما راح ناثان يعمل لتأمين سيطرته على مناجم المادن في الوقت الذي كان فيه سلومون الذي يسيطر على مناجم وافران فتكوفتش العصب يعمل على تأسيس شركة لويد النمساوية للاسفار البحرية. كذلك عنوا بتجارة الشاي والتبغ. وامتلكوا لهم اماكن للراحة والاستجمام والترفيه عن النفس، وابتنوا لهم دارات وقصوراً جمة يقيمون فيها الحفلات الواسعة ويستقبلون عليه القوم بكل مظاهر البذخ والأبهة . وقد عرف ناثان وابنه ليونيل ان يتغلغلا في صميم الارستوقراطية البريطانية ، بحيث راحت مدينة لندن تنتخب عام ١٨٤٧ ليونيل ممثلاً لها في مجلس العموم. إلا انه لم يتمكن

من القيام بالمهمة الملقاة عليه والمشاركة باعمـــال المجلس . واعادت البلدية انتخابه من جديد عام ١٨٥٨ ، وجرى تعديل نص القسَم لاجله ليتمكن من القيـام بواجباتـه كعضو في المجلس ، وكارل الذي اصبح شخصاً مرغوباً به في نابولي ، عرف ان يكسب ثقة الادارة البابوية . فقد قدم له البابا يده ليقبلها وعلق على صدره الاوسمة البابوية. امـــا جيمس البارون الذي كان اصهب الشعر ، احمر الوجه والذي كان يتكلم الفرنسية بلهجة المانيـة ظاهرة ويقيم من الولائم والمآدب السخية ما يدهش الناس لما فيها من بذخ واسراف، فقد راق له ان يلعب دور نصير الادباء والادباء والفنانين . فقد اخذ على عهدته مؤازرة ميربير – كما اخذ تحت جناح حمايته برليوز وهاين ، وسلف بلزاك ما يحتاج اليه من مال بعد ان قدم له مؤلفاته واخذ يجمع الآثار الفنية .

ومع انه دخل في خدمـة آل روتشيلد صحفيون أمنوا لهم كل اسباب السعـــادة وعضدوا مشاريعهم – من ذلك انهم عرفوا كيف يصطنعون جنتز ويؤمنون موالاتـــه – فالنجاح الذي حققوه لم يؤلف مع ذلك تياراً موالياً للسامية . كان آل روتشيلد مضرب الامثال في الغنى والثراء اذ كانوا يقولون : هو في غنى روتشيلد ، قول يردده الناس بشيء من الاعجـاب الذي يشوبه الحسد أو الغيرة فقد تعرضت عام ١٨٣٠ ، حياتهم للخطر . وفي سنة ١٨٤٨ اضرمت النيران في قصرهم الصغير في غابة لنـين على مقربـة من باريس كـا ان سلومون اضطر للنجاة بنفسه والهرب من قصره الواقـع في فيينا بعد ان هاجمـه الثوار . وكان باستطاعة توسيـل وهو من القائلين بمذهب فوريه الفلسفية ان يصرح عام ١٨٤٤ وان يكتب وينشر عـام ١٨٤٧ ، رسالة بعنوان : « اليهود هم مـــلوك العصر » جاء فيها قوله : « ما من احد يعترف ويقدّر اكثر مني ما للامة اليهودية ، من عبقرية وموهبة عالية . فليس من ملك في فرنسا غير اليهود . فاليهودي هو الذي يملك عندنا ويحكم . فاليهودي الانكليزي والهولنـدي والجنيفي يؤلف اليوم اسباط اسرائيل الاربعة ، اسرائيل الذي يدعي انه شعب الله المختار ، هذا الشعب الضاري ، المفترس الذي يعيش على الخطف والربا الفاحش ، والذي ينهش في جسم البشرية نهش النسور الجيف » .

الشعور بالحاجة الى توزيع احسن في الثـروة

ارستوقراطية المال الحذرة هذه، تهزها الى الاعماق نظرية السان سيمونية التي راحت تطالب بتوزيع أفضل للثروة بين الناس. والحال، فالتجارة والصناعة لا تزدهران إلا ضمن تسهيلات خاصة تؤمن لهـــا النجاح في عمليات الحسم والتسليف .

وقد جاء فريداً في بابه اقدام البلاد الواطية على تأسيس الشركة العامة لتشجيع الصناعة الوطنية بحيث يمكن اعتبار هذه الشركة أول مصرف نشأ في القارة لتشجيع الاعمال المالية . فقد اصيبت مشروعات لافيت في فرنسا بالفشل ، فجاءت محاولاته هذه نذيراً بطلوع محاولات بيراير في عهد الامبراطورية الثانية .

وهذا النهج الجديد في الاعمال المصرفية لقي قبولاً في انكلترا التي اصدرت قانوناً خـــاصاً

يلبح انشاء شركات مساهمة القطع ادارتها مشتركة بين رجال الصناعة والتجارة ، مهمتها تسهيل وتيسير الاعمال التجارية الكبرى . وسيمضي وقت طويل قبل ان تتمكن هذه الشركات من القضاء على ما اكتنف اعمالها ونشاطاتها الاولى من التشكيك والظنة .

فالشركات المعروفة بـ *Commandite* او شركات التوصية المساهمة هي في طريقها للظهور، في ظروف اكثر ملاءمة تتيح لها الازدهار ، مفسحة الطريق امام الشركات المغفلة التي تمثل طرازاً او طوراً جديداً من اطوار ازدهار رأس المال ، وهي شركات توقع طلوعها بعد حين بعض بعيدي النظر في الشؤون المالية .

معارك سيطرة رأس المال على الرأي العام . الاتجاه نحو الصحافة الرخيصة

كان المالي الفرنسي نيكر يطلق اهمية كبرى على هذه القوة الجديدة الطالعة التي كان يحلو له ان يسميها «الملك المجهول» الرأي العام . فقد استقر في روع الجميع ان المطبوعة ،على اختلاف انواعها ، ولا سيما الصحيفة الدورية هي التي تساعد على خلق هذا الرأي العام وتكوينه . فاذا ما اخضعت الحكومة الصحيفة للمنحة والكفالة المالية استطاعت ان تؤثر عليها وان تخضعها لحضانة رأس المال وكفالته . ويلاحظ مونتاليير بكثير من الحذق والبصيرة ، وقد كان من كبار الصحفيين في زمانه « ان الدولة تجهل كيف تربح المعارك بدون التضحية بجنودها ولا تعرف ان تؤمن نشر الجرائد في البلاد دون ان تبذل فلوسها » . ولذا كان عدد الدوريات قليلاً ومحدوداً ، كما انها كانت تسحب اعداداً محدودة تكلفها غالياً . فالناس كانوا اذ ذاك يذهبون للمقاهي لقراءة الجريدة ، ولذا أخذت هذه المقاهي تشترك بالجرائد اجتذاباً منها لزبن جدد . فالرأي العام كان متعطشاً للاطلاع والمعرفة .

لا شك قط في ان الطابعة الميكانيكية كانت خير وسيلة وأفضل اداة في يد جون ولتر، مدير جريدة التيمس، اتاحت له عملية تضعيف النسخ بسرعة اكبر. ولما تبين لهذا الرائد، على ضوء الاختبار، بان البريد بطيء جداً في حركاته وتنقلاته بحيث لا يفي بالفرض، فقد خطر له ان ينشيء مراسلين . فأنشأ في هذا السبيل ادارة خاصة ادخل عليها البحار توماس فلتشر وغهورن تحسينات جمة عُرفت عندهم بالبريد القاري أو « بريد الهند » . وأخذت تظهر اذ ذاك وكالات للاخبار لم تلبث ان السعت شبكتها وامتدت في جميع الاتجاه ، غايتها جمع الاخبار والانباء. انشئت اول هذه الوكالات عام ١٨٣٥ بناء على اقتراح تقدم به شارل هافاس الذي ربط بين باريس ولندن وبروكسل ، بشبكة من المواصلات السريعة مستخدماً لها حمام الزاجل ثم الخط الحديدي واخيراً التلغراف البرقي . . وحذا حذوه في هذا المضمار رويتر احد مستخدميه وكذلك وولف، هذا في برلين وذاك في لندن . وفي الوقت ذاته راحوا يكثرون من الاعلانات بقصد الدعاوة بحيث احتل قسم الاعلان في جريدة التيمس ، كل يوم ، ٦٠ حقلاً أو عموداً ، وهكذا اطل علينا الاعلان الصحفي والنبأ التجاري . فهنا يكمن على ما نرى ،

سر الصحيفة الرخيصة . واخذت الشمس تنشر كل يوم مئات الاعلانات التجارية النقيلة ، وبذلك غطت النفقات الباهظة التي تتكبدها في سبيل جمع الانباء وتأمين الاخبار الجديدة المشوقة ، ودفع أجور المقالات العلمية والادبية التي كانت تستكتبها بعض الاقلام المشهورة التي تتابع نشرها . وفي اميركا اخذ بنجمين داي يبيع جريدته بسعر سنتين للعدد الواحد ، منبثاً الاعلانات التجارية بين الاخبار المشوقة .وراح غوردون بنيت يصدر جريدة المورننغ هيرالد التي عينت مراسلين لها في الخارج يمدونها بالاخبار ، مشددة على الحوادث المثلة التي تثير الاهتمام .

وبعد ذلك بقليل أطل اميل دوجاردن وتمكن ، بعد محاولات شتى ، من اصدار جريدة يومية جعل اشتراكها السنوي ٤٠ فرنكاً بدلاً من ٨٠ ، وهكذا ظهرت جريدة « الصحافة » كما ظهرت في الحين ذاته جريدة « الجيل » بمساعدةأحد المتمولين يدعى دوتاك ، فامتنع على دوجاردن التفاهم وبالتالي التعاون معه ،فاذا كان الفضل في رواجها يعود أصلاً للاعلانوالدعاوة فقد كان من نشرها الروايات المسلسلة المشوقة اثره البعيد في الترويج لها. وبعد النقد الذي قوبل به النهج الجديد من جانب بعض الكتاب ، أخذ بعض حملة الاقلام الذين يتمتعون بشهرة واسعة امثال بلزاك وجورج صاند يساهمون في التحرير . وراح الكسندر دوماس واوجين سو يؤمنان لها شهرة واسعة. وازدادت جريدة الـ *Débats* انتشاراً بين الناس وذيوعاً بنشرها مسلسلة رواية « اسرار باريس» ، كما راحت جريدة الدستور تنشر على الطريقة ذاتها رواية اليهودي التائه ، وبذلك عولت الجريدة اكثر فاكثر على الاعلان وزادت انتشاراً وأمنت بالتالي ارباحاً كبيرة . ووقعت جريدة الديبا والدستور اتفاقاً مع الشركة العامة للاعلان،هذه الشركة التي ألفها بعض أتباع سان سيمون ، امثال دو فريب وبيراير واراس – دو فور .

وراح بلزاك يضع على لسان احد شخوص رواياته ، بشيء من الغلو هذا الكلام: «كل الجرائد جبانة ، مداجية ، وكاذبة ، لا اخلاق لها ، سفاكة . فهي مقتلة الافكار والنظريات والناس وبذلك نجاحها وازدهارها » .

بين تجار وصناع

فالاستثمارات الفردية والعائلية تشكل النظام المسيطر للآن . فنحن في عصر المسؤولية غير المحددة وفقاً للقوانين المعمول بها. فالمشروعات هي في الغالب بنت المبادرة الشخصية الجريئة ولذا تعرضت لمخاطر كثيرة.

فنظام التاجر الصناعي لا يزال هو المعمول به للآن على الغالب . فالتاجر يبيع السلع التي تخرج من مصنعه ويتصرف على هواه بما يتوفر له من رؤوس الأموال ، وهو مطلع على متطلبات الاسواق ومستلزماتها ويؤمن بنفسه المواد الأولية ليد عاملة متوفرة ، عُرفت بمهارتها اليدوية تتمتع بما تم له من صنعة ، بتقدير الجميع واحترامهم .. وقد لوحظ جيداً ان هذا النظام العائلي استمر الأخذ به والنهج على منواله في صناعة الحياكة . فالحائك العامل في منزله أو بيته سيصمد

طويلاً في وجه مزاحمة المعمل له بالرغم من البؤس والشح والتقتير الذي يرزح تحتـه . والمشغل العائلي ، سيصمد هو الآخر في وجـه المصنع حيث العمل اخذ يتجه نحو المركزية . ولعـل خير مثل نضربه على هذا النمط من النشاط الذي يحمل الصناعة مرتبطة بالتجارة تابعة لها ،هو المصنع الحريري (في مدينة ليون) اذ يبدو لنا صاحب المصنع تاجراً أو من كبار التجار احياناً ، يوزع النشاطات في مصنعه ويقسّمها بين معلمي الكار ورؤساء الورش يجري عليهم الرزق والمرتبات كلا بحسب درجته من الفن والصنعة والتقنية . والنشاطات التي يضطر التخلي عنها هـذا النظام الصناعي العائلي هي التي تتمثل في الحياكة والنساجة . إلا أنـه يبقى محتفظاً بالنشاطات التكميلية كصنع الملابس التحتانية والقبعات وما أشبه . وسيُعرف هذا النشاط في الصناعة باسم « النظام المفرّق » .

ومع ذلك فقد برز في المجال التجاري نشاطات جديدة كتجارة الفرادى او المفرق وتجارة الجملة التي جاءت وسيطاً بين الصناعة والتاجر الصغير وهكذا أطلت علينا بيوتات تجارية كبيرة تعنى بالاستيراد او بالتصدير . وفئة الوسطاء والعملاء زادت كثيراً من نشاط الحركة التجارية. كذلك ظهر للوجود « العميل الرحالة » . فها هو كوبدن يقطع كل يوم ٥٠ كيلومتراً يعمل في سني حداثته عميلاً في صناعة الموسلين ، وقسمات هذا العميل خلدها بلزاك في الصورة التي وضعها « لغوديسار » المشهور .

فاذا ما طمحت التجارة بالجملة لتوفير السلع والبضائع لاصحاب الدكاكين والباعة بالمفرق ، فقد أخذ الدكان والاعمال التي تتم فيه يرتدي طابع عمل تجاري له شأنـه . فقد زالت من الوجود معالم تاجر الفرادى الصغير والدكان المتواضع الحقير أمام ما اصطلحوا على تسميته بالمخزن الكبير ، هذا الطراز الجديد من المحلات التجارية التي تعمل على إرضاء زبائنها وتلبية رغائبهم وفقاً لامزجتهم وأهوائهم . ومن الرواد في هذا المجال نرى في باريس البقال باريسو الذي حـذا حذو لابيل جاردينير وتخصص ببيع ملابس النساء الداخلية ، ثم اعتزل العمل في وقت مبكر بعـد أن جمع ثروة لا تقل عن ٣ ملايين. والسعي وراء « الجديد » والرغبة في حيازته ، ساعـد على ظهور مخازن كبيرة ، منها مثلاً المحـل التجـاري المعروف بـ (*Les Deux Magots*) ، ومخزن (*Le Bonhomme Richard*) والمخزن المعروف بـ (*Les Trois Quartiers*) . وقـد رأت الجريدة الهزلية شاريفاري في هذا الطراز من المحلات التجارية ، ما أطلقت عليه اسم المخـازن العملاقة وراحت تعطي عنها بصورة هزلية رسوماً وصوراً معقدة . وبتخصصه ببيع المصنوعات من الجلد الممتاز ، وباحترامه الوزن الدقيق الى اقصى حد استطاع البقال بونرو أن يحقق له شهرة واسعة في هذا المجال ، جاء ينافسه اياها فيما بعد صاحب محلات بوتين الذي باشر بانشاء مراكز فرعية للتموين في الملحقات .

عاد عدد كبير من اصحاب المصانع لابناء طبقة النبلاء . فأبناء هـذه الطبقة في انكلترا

يهيمنون على عدد كبير من المؤسسات الصناعية . وعلى هذا قس أيضاً في بروسيا ابناء طبقة (*Junkertum*) . وقد لعبت التجارة دوراً كبيراً في تطوير ما يعرف بنظام الفبارك. ففي معظم الحالات نحن أمام عامل يدوي متواضع يستثمر لحسابه الخاص طريقة جديدة استحدثهاه أو اخترعها اكتشفه، وتحت تصرفه المال اللازم لاستثماره باشراف او اشراك أحد ارباب المال . فها هو سليفاسن يتعاون مع الكويكر بيازالغري المقيم في ارلنغن؛ وها هو ماسون صانع الريّش والاقلام في منشستر يستثمر الاختراعات التي تمت على يد الكنفن في عمليات التفضيض والتذهيب . وصنع وليم كوكريل لحساب سيمونيس وبيوليه في فرفيه ، آلات الحلاجة والحياكة التي شوهدت لاول مرة على القارة . واضاف احد اولاده المدعو جون الى مصانعه العديدة في سيرانغ حوالي عشرين معملاً وزعها على بلجيكا وفرنسا والمانيا وبولونيا . واوجين شنيدر ، حفيد أحد القواد من تلاميذ الفوج الاول الذي تخرج من مدرسة الفنون العليا (البولتكنيك) كان رفيق الحال لما دُعي لاستلام ادارة مسابك بازاي الواقعة على مقربة من سيدان ، واستطاع مع شقيقه أدولف أن يبعث النشاط في معامل كروزو بعد أن أصيبت بالجمود . وقد عملا فيما بعد في مصرف سايير الذي كان شريك توصية في شركة شليدر وشركاه . وتمكن فرنسوا وندل من اعادة النشاط الى معامل ديانج ، وذلك بفضل مؤازرة أحد الطرفين في ميلهوز وبتطبيق الطريقة الانكليزية في عملية تسويط الحديد . كذلك كانوا مهندسين آل موني ودوريان وتالابو الذين استعانوا بالاموال الموضوعة تحت تصرفهم لاستثمار ثقافتهم الفنية .

نحن هنا أمام معين لا ينضب من أرباب الصناعة عرفوا بنشاطهم وجهادهم وكفاءاتهم في مواجهة مسؤولياتهم الواعية . وهذا المصنع الموجود في محيط ريفي يؤلف مؤسسة مغلقة على نفسها . فهي ملك سيدها ورئيسها، يوجهها كما يوجه عقاراً يديره على هواه ، لا تترك ابوته للسلطات العامة أي باب لتتدخل في اموره الا فيما يتعلق بالمحافظة على النظام والامن الداخليين وضبط العامل ، وذلك بما لها من أسوار عالية هي أشبه ما يكون بسجن يبرز كقلعة تسيطر عليها الاقطاعية الصناعية .

الاقتصاد : تطوره ومشكلاته حمّى الصناعة

بالرغم من التغييرات التي طرأت على النظام السياسي والنهج المتبع ، فقد استمر الانتاج وحركة المبادلات التجارية في نموها الصاعد .

فالانتاج تضاعف على الاجمال في هذه الحقبة الواقعة بين ١٨١٥ – ١٨٤٨ . ففي انكلترا وحدها زاد انتاجها من الحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليه من قبل ، كما زاد انتاجها من الفحم أربعة اضعاف عما كان عليه عام ١٧٨٩ . وزاد انتاج فرنسا من الفحم والصب والحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليه عام ١٨١٥ . ونلاحظ حدوث مثل هذه الزيادة لدى كل من بروسيا وروسيا. أما في الولايات المتحدة الاميركية ، فالتطور الذي تم عندها خلال هذه الحقبة هو جدير بكل

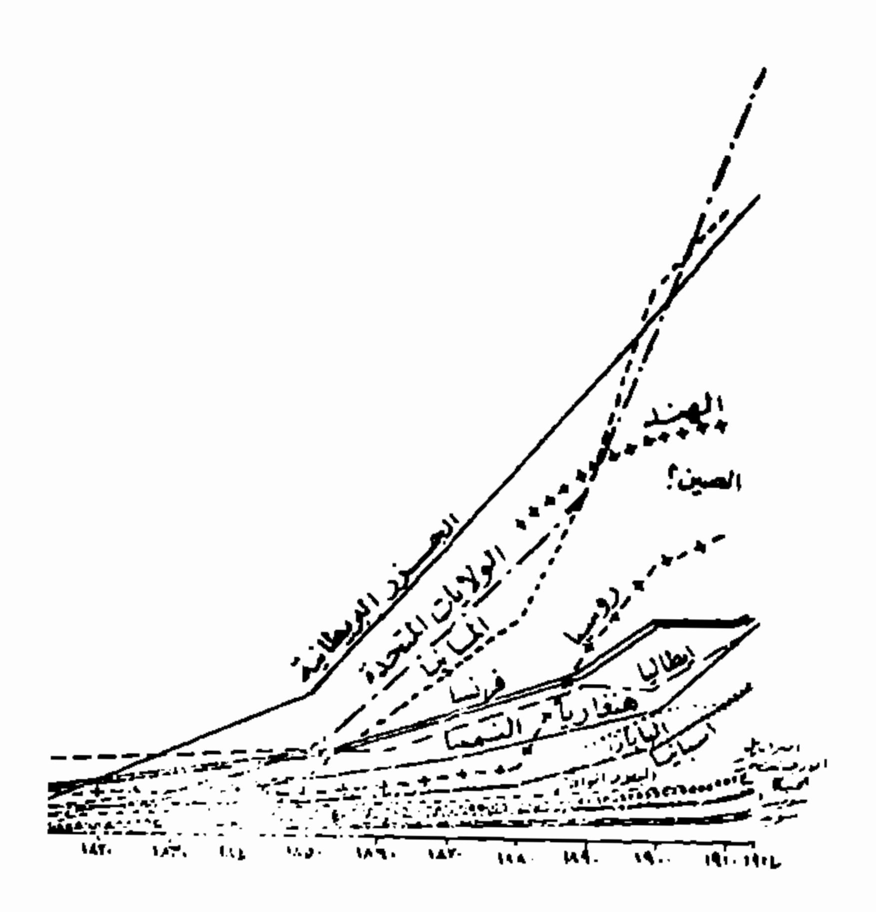
اهتمام وتقدير . فقد زاد انتاج الفحم عندها عشرة أضعاف ، كما ان انتاجها من الحديد زاد ١٢ ضعفاً . وقطاع النسيج الذي يأتي في طليعة القطاعات الاخرى في تلك البلاد بلشاطه ، زاد بالنسبة ذاتها .

ومع هذا ، فالتقدم يبدو أدنى مما حققه القرن الثامن عشر في هذا المضمار ، ومن التطور الذي تم فيما بعد . فقد تطورت الحركة التجارية في الدول الغربية ١٠٠٪ بين ١٧١٧ و ١٧٥٠ بينما تطور هذه الحركة بين ١٨١٥ – ١٨٥٠ لا يتعدى قط ١٥٠٪ . والسبب في ذلك هو ان الاستهلاك لم يتطور بسرعة أكبر . فالسوق الريفية ، وهي عنصر هام في الموضوع، لها قدرة محدودة على الشراء في وقت لم تكن الطاقة الانتاجية فيه كافية لتلبية الطلب . اما العمال أو الشغيلة فهم في وضع زري ، على الاجمال . فرب العمل يشدد كثيراً تجاههم مع أن الوضع المسيطر اذ ذاك لم يكن ليخلو من مخاطر تهدده . فالعالم الرأسمالي يعاني أزمات عديدة ليس ريفية فحسب بل أيضاً يشكو انكماش الاسواق المالية .

ومهما بلغ من تفاؤل علماء الاقتصاد الاحرار من تلاميذ آدم سميث ، فلا يمكن تجاهل الصعوبات الكامنة . فقد نفى الاقتصادي الاميركي جون سيوارت مل عام ١٨٤٨ : « الركود الشامل الذي يعاني منه الوضع » . وقد سبق لسيسموندي فصرح : « بأن هذا هو الوضع نفسه في كل الازمنة » ، وأن الازمة هي نتيجة محتومة لهذا التطور الذي بلغه الرأسمال الاقتصادي ، هذا النشاط من الاقتصاد الذي شجبته المدرسة التي تطالب بنظام ُعرف فيما بعد بالنظام الاشتراكي .

ولذا راحت المصالح الكبرى تتجه بأنظارها نحو الدولة. وفي هذا السبيل أصدرت انكلترا بعد عام ١٨١٥ ، قوانين الحبوب تسييجاً منها حول ما يعرف عندهم (*The Landed interest*) محافظة منها على ريع الأرض والدخل العقاري . أما في فرنسا فالتحالف القائم بين البورجوازية وبين كبار الملاكين حمل الحكومة على اتخاذ سياسة حماية شديدة. وفي الولايات المتحدة الاميركية، لا يتطور النظام المعروف بـ (*Factory System*) الا في ظل تعريفات حماية تفرض رسوماً عالية. وعلماء الاقتصاد في بروسيا الذين وضعوا الاتحاد الجمركي المعروف *Zollverein* ، انما رموا من وراء تشكيله الى ايجاد سوق وطنية تشبهاً برجال عام ١٧٨٩ . ومما له من مغزى خاص، الموقف الذي وقفه ليست الذي راح يضع عام ١٨٢٧ ،بعد أن تبين نظام الحماية الذي تعيش فيه الولايات المتحدة في ظله ، وهو نظام شمل قارة بأسرها ، كتابه المعنون : « محاولة اقامة نظام اقتصادي سياسي جديد ، تدليلاً على حسناته لمجموعة من الولايات تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها». ان مثل هذا النظام الاقتصادي الوطني هو سليل هذه الروح التجارية التي جاشت بها نفوس الملوك والامراء ، هذه الروح التي جرى التعبير عنها عام ١٨٤١ ، خير تعبير ، في الكتاب الموسوم : « النظام الاقتصادي الوطني » ، وقد راق الكتاب في عيني الامبراطور نقولا الاول فأمر بنقله مع الكتاب السالف الذكر الى الروسية .

هذه السياسة القطرية او الانانية القائمة على الحماية كانت تسيء في الصميم الى الرأسمالية الفتيـــة التي بالتفاؤل . ولما كان تلاميذ آدم سمث منطقيين مع انفسهم توجب عليهم التسليم بفائـــ العمل بحيث يشمل العالم اجمع. ان معاهدة ايـدن ـ رينفال المعقودة عام ١٧٨٦ تركت



الشكل ٢ ـ عدد المدن التي يتجاوز عدد سكانها المائة الف
(وفقاً لاحصاء يبور العام التقلع)

في فرنسا ذكريات مريرة . فقد رأى فيها كل الذين قالوا بان القلق الذي يشعر به العالم التغلب عليه لعدم تمتع التجارة بسياسة حرة واسعة ،درساً مفيداً وعبرة لمن يعتبر . فقد انكلترا الخطوة الاولى في هذا المجال ، انكلترا التي كانت اول من عانى من نتائـــج الحماية الجمركية . فاصحاب المصانع من التجار في تلك الجزيرة ، ايقنوا صادقين بانهم يجـ

البلاد الى سياسة تؤدي الى رفع اسعار الخبز والى الاضطرابات الاجتماعية فيها . فقد وقفوا الى جانب انصار بيل وعسكن اللذين عملا على التخفيف من تأثير قانون الملاحة واجازا للاجانب الاتجار مع المستعمرات على شرط المعاملة بالمثل ، وحولا حظـــر الحبوب الى مرقاة متحركة الدرجات تشبها منها بالقانون الفرنسي. واخذ كوبدن وسكان منشستر بشن حملة شديدة ادت بالبلاد الى انتهاج سياسة تؤمن حرية التجارة والتخفيف من الرسوم الجمركية ، وهـو تصرف لم يلبث ان انتقلت عدواه الى بلدان اخرى ونهجوا نهجه في الخارج .

هذا لا يعني قط ان حرية التجارة ربحت القضية وكتب لها النصر ، ومثل هذا الأمر لن يتحقق ابداً بصورة كاملة . وعندما نشر بستيا ، عام ١٨٥٠ كتابه المعنون : « المؤتلفات الاقتصادية » الذي نادى فيه بسياسة حرية التجارة المطلقة ، راح العالم الاقتصادي الاميركي كاري يصدر ، هو الآخر كتابه الموسوم: « انسجام المصالح » ويطالب على طريقة ليست بتضامن القوى الانتاجية القائمة في بلد واحد . فدنيا الاعمال تتحرك دوماً بين طريقتين او مذهبين تضمن لها احداهما الطمأنينة المؤقتة بينما تفتح الاخرى امامها منافذ جديدة وانطلاقات اوسع .

مدن الامس ومدن الغد

ففي نظام اقتصادي من هذا النوع ، المدينة هي التي لها الكلمة القطع والرأي الاول . من الطبيعي ان تطورها السريع مربوط الى حـــد بعيد بالسياسة الاقتصادية التي تنتهجها البلاد . فالتطور الذي عرفته الوظيفة التجارية والمركزية الصناعية الى حد ما ، عاد على المدينة بفوائد جزيلة عادت عليهـا بالخير دون ان نسقط مـــن حسابنا التقدم الذي لا يمكن لجاحد والذي اصاب المصالح العامة وتناول المهـــن الحرة . الا ان حركة التكييف فيها جاءت على غير ما يرام . فقد بقي مظهرها الخارجي على ما عهدناه من قبل والملامح الجديدة التي اقتبستها تمت لها بسرعة وبشكل تعوزه اللباقة والبراعة .

اياما ، مع ذلك ، والظن بسيطرة المدينة . فالنمو الذي حققته المدينة في انكلترا حـــري بكل تقدير واهتمام . هنالك في انكلترا ، بقطع النظر عن المدن السبع - باستثناء لندن - التي تجاوز عدد السكان في كل منها ١٠٠٬٠٠٠ نسمة ، ١٨ مدينة أخرى بدلاً من سبع ، تجاوز عدد السكان في كل واحدة منها ٥٠٬٠٠٠ ! فالعاصمة قفز عدد سكانها من ٩٨٨٬٠٠٠ الى ٢٬٣٦٣٬٠٠٠ نسمة . وغلاسكو من ٧٧٬٠٠٠ الى ٣٢٩٬٠٠٠ نسمة . وبرمنغهام من ٧١٬٠٠٠ الى ٢٣٢٬٠٠٠ نسمة . ومنشستر وضاحيتها سالفورد من ٩٥٬٠٠٠ الى ٤٠١٬٠٠٠ نسمة . أمـــا في الولايات المتحدة فقد قفز عدد سكان مدينة نيويورك من ٨٠٬٠٠٠ الى ٥٠٠٬٠٠٠ نسمة ، وفيلادلفيا من ٤٠٬٠٠٠ الى ١٢٠ الف نسمة ، بينما مدينة اورليانز الجديدة وسنسناتي وبوسطن وبلطيمور لا يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠٬٠٠٠ نسمة . أما البر الاوروبي ، فالنمو المدني ليس فيه مـا يصدم الحواس اذ أن هذا النمو اقتصر على العواصم دون سواها بينما لا تتطور رومــا وبعض المراكز الصناعية سوى القليل . فباريس التي تضاعف عدد سكانها اذ انه قفز من ٥١٨٬٠٠٠ الى

١،٠٥٣،٠٠٠ ، تأتي بعيداً في الطليعة . فالمدينة التي يتراوح عدد سكانها اجمالاً بين عشرة آلاف وثلاثين الفاً تتوفر لها النسبة التي تلائم مثل هذا المجتمع البشري كما تتلق ووسائل الاتصال والتنقل الرئيسية التي تتم بها وهي السير على الاقدام .

أما من حيث النشاط التجاري والصناعي فلم يأت بأي إثر ملحوظ التطور . فالحياة في المدينة هي استمرار في وتيرة واحدة واطار واحد يتسم بالجمود الملازم لطابعه القديم . وعلى هذا تبدت المدن الاسبانيه لتيوفيل غوتيه ساحرة فاتنـــة لا تتحرك . فمدينة بورغوس المقفرة حيث الصعلوك يتدثر بعباءته بوقار بحيث تخاله امبراطوراً متجلبباً بالارجوان، ومدينة فالاموليه والتي بامكانها أن تستوعب ٢٠٠،٠٠٠ نسمة ، لا تعد غير ٢٠،٠٠٠ نسمة ، فتبدو نظيفة ، هادئة ، جمية تبشرنا طوالعها بقرب الشرق . ومدريد نفسها ببيوتها المبنية من روافد الخشب والقرميد أو من قوالب الشيد ، ومدينة طليطلة حيث المنازل لها مظاهر الدير والسجن والحصن وأحياناً الحريم ، بعد أن تعرف أن الاسلام مر من هنا ، وغرناطة التي تبدو موزعة بين الطراز العربي والطراز القوطي ، حيث « قباب الكنائس تواكب مآذن الجوامع » ، بينما تبدو قرطبة اكـثر طابعاً افريقياً من أي بلد آخر في الاندلس كلها . ففي هذه الرحلة يقوم بها غوتيه عام ١٨٤٠ الى الاندلس لا نرى فيها شيئاً ينبىء من قريب أو بعيد بطـــابع القرن التاسع عشر البورجوازي والعمالي .

فالمدينة القديمة تحشر نفسها داخل اسوار نصف متهدمة تتراكم فيها الحوانيت والدكاكين كما تتراكب منازل السكن فيها بعضاً فوق بعض . فهي تستوعب من السكان اقصى مـــا تستطيع استيعابه ، ولم يوضع لها أية خطة أو تخطيط ينظم امتدادها وتوسعها في المستقبل . والحـــد الفاصل بين المدينة والريف يرفرف فوق قرية أو دسكرة برزت من الارض استجابة لمقتضيات النقل . فمدن برمنغهام ومنشستر وليفربول تثير الدهش في نفس المسافر بعد أن يرى كيف أن نواتها القديمة توارت بين ما نشأ فيها من أرباض وضواح واسعة لم تلبث أن غلبت عليها الجدة بما تم لها من اتساع وبما توفر فيها من خدمات تؤمنها مؤسسات مدنية ، كما يشهد ميشليه على ذلك : فالطريق بين روشدايل وليفربول أصبحت كناية عن شارع طويل تقوم على جـــوانبه بيوت ومساكن تتعادل ارتفاعاً وعرضاً ولوناً . وهذا التماثل أو التشاكل لا يلبث أن يبعث في النفس السأم والملل . « بينما مدينة ليدس ، اكبر مدن النسيج في انكلترا تفترش بشكل مـــدرج المرتفعات المطلة على النهر كأنها تزهد في السهل لا تنزل اليه الا لماماً، فتبدو وكأنها قفير نحل وقد ارتفعت مداخنها الضخمة في الجو أشبه ما تكون بمسلات فرعونية تنفث دخانها الاسود فينعقد قباباً قاتماً يغطي كاتدرائيتها » .

فانكلترا هي البلد الوحيد في اوروبا تقريباً حيث نرى المساكن في لندن وفي بعض المدن الصناعية مبنية بالقرميد ومن طراز الـ *Cottage* ، ينبئك منظرها الخارجـــي عن طلوع العصر

الصناعي في البلاد. والمعامل لا تقوم في الريف بل بالقرب من الاحياء القديمة على الغالب، وأحياناً تختلط بها، كلما قام في احيائها ساحات تتسع لبناء المصنع أو المشغل، كما انه من مصلحة الدكاكين والمخازن أن تقوم في حركة المرور. ومن بعض نتائج هذا الوضع أن البورجوازية وأبناء طبقة الشعب يبقون على مقربة بعضهم من البعض. فلا يبتعدون كثيراً عن أماكن عملهم، مع العلم أن هذا التمركز يجد فقراء الحال يبنيهم على السكن في مآو واكواخ يكاد لا ينفذ الى داخلها الهواء ولا النور. ومع ذلك فمن النادر جداً ان تخلو مدينة ما من احياء جية فخمة المباني يبدو على ساكنيها الثراء، درجوا على اعدادها وتهيئتها منذ أواخر الاجيال الوسطى أو بفضل هبات أو وقوفات تعود الى القرن الثامن عشر، اذ أن جانباً من البورجوازية الثرية والارستوقراطية تسكن قصوراً خاصة بها أقيمت لهم على جنبات الشوارع الرئيسية، حولها ساحات واسعة مسوّرة يتألف من مجموعها أحياء وحارات رتيبة، تكشف بمظهرها هذه الفوضى والضوضاء المخيمة على الاحياء الشعبية، وعلى الاحياء التجارية. وقد تكاثر عدد الاثرياء الذين راحوا يبنون لهم منازل كبيرة تتوفر فيها أسباب الراحة والرفاه. ومع ذلك هنالك نزعة تبدو في انكلترا أشد منها في أي بلد آخر على القارة، الى اقامة مبان سكنية للاستثمار، لم تلبث أن تصبح الطابع الذي يميز المدن الحديثة.

فقد جمعت لندن بين حي المدينة، محور رجال المال والاعمال، وبين حي وستمنستر بحي تجاري يعج بالنشاط ووسعت مرفأها وأرصفتها الى ما وراء جسر البرج وغطت السهل المترامي أمامها بالوف المنازل المتماثلة شكلاً كما شغلت مساحات واسعة من الريف.

أما باريس فبالرغم من أن المزارعين أقاموا حولها نطاقاً من المزارع والبساتين قبل أن ترتفع في ضواحيها التحصينات العسكرية التي أمر الرئيس تيير باقامتها فلا تزال مدينة سحر وفتنة، مقصد كل من لم يرها، واليها تتجه الانظار، تحمل الخير والشر (وفقاً للأقدار والحظوظ) الى ساكنيها، وتخلف الأسف والغصة في قلب من يغادرها بعد ان سكنها ردحاً من الدهر. فالسكان يزدامون كثافة في القلب والمداربه، وفي ضاحية سانت انطوان. فاذا ما راح ذوو اليسر والثروة من أبنائها يطلبون الهواء الطلق باتجاه الغرب، راح الشغيلة من سكانها يحتشدون قريباً من مكان عملهم. وهكذا راح فريدريك سوليبه يصف لنا و كيف ان سكان المدينة يندفعون بكليتهم ايام الآحاد وفي عطلاتهم، الى الخارج بحثاً عن الهواء النقي، مخترقين الابواب والمنافذ.

الا ان معظم المدن لا تزال تبدي طابعها الريفي لما عليه من صغر الحجم. فقد كتبت جريدة برمنغهام عام ١٨٢١ تصف لنا كيف ان الناس في الريف يقفون مشدوهين أمام منظر الواجهات وهم متراصون، يخشون ان يقعوا تحت عربات الجر وعربات النقل التي تتخطى الارصفة غالباً نظراً لما كانت عليه الشوارع من ضيق، بينما الجزارون وتجار الخيل يساومون في جدل لا ينتهي، الفلاحين والمزارعين بشأن قطعان الماشية التي تغص بها الازقة. وتحتل الجانب الاكبر من جادة

الطريق ، مع ما عليها من أسراب الدجاج، وقطعان الخنازير غادية رائحة بحرية تامة بينما يتدافع صبيان الازقة ويتراشقون بالبيض الفاسد وكتل الوحل والزبل ، هذا يكنش رغيفه ممسكاً به بين يديه بينا الكلاب في نباح لا ينقطع حبله والمتسطون يملأون الشوارع . وما أن ينهمر المطر مدراراً حتى تستحيل الأزقة والشوارع بركاً من الوحل والمقاصات. فالوحل يغطي برمنغهام كما يغطي غرينوبل ، هذه المدينة « النتنة» كما ينعتها ستندال.ومثل هذا الوضع يجعل برودون يتململ قائلاً : « ترى جيداً انه يكفيني ما تعارت به طوال حياتي من أوحال ليون ! يا لها من مدينة قذرة ! عسى ألا يتحول عدم الاكتراث بهندامي، هذه التهمة التي يلصقونها بي، الى التهامي بالاوساخ . فكيف النجاة من هذه الحمأة ؟ ومن هذه الاقذار التي لا حصر لها ؟ ليس في المدينة من دورات مائية جارية : فالماء ينقل على الظهور واكتاف الحمالين ، وليس من مجارير لتصريف القاذورات والمياه الملوثة . فالقذارة والمرض يسيران دوماً جنباً الى جنب » .

وعندما تكون المدينة صغيرة ، تشعر وكأن الريف يسحقها سحقاً . فما هي سيدان ، هذه المدينة القديمة، الحصنة التي ماتكاد تعطى فيها اشارة اطفاء النور حتى تقفل منها الابواب.هي عبارة عن شبكة من الازقة الضيقة المعتمة حيث تكثر الحفر والاخاديد المليئة بالمياه الآسنة تفح منها الروائح الكريهة ، سكانها عمال وشغيلة يعملون في صناعة النسيج ، يروّحون عن نفوسهم في هذه الاحياء والحارات المحيطة بالبلدة او يعتنون بحدائقهم وبساتينهم . لنضرب مثلاً على ذلك بلدة سان ديزييه التي كان لها من السكان ، عام ١٨٤٦ نحو من ٧٠٠٠ نسمة ، ١٣٪ منهم يعملون في زراعة الكرمة ، و ١٩٪ عمال مياومون ، و ٧٪ يعملون في الحدادة . فالكرامون يقطنون أكواخاً في ضاحية جيني ، ثم يليهم باتجاه الوادي البحارة والمتاشون من البحر . كما يسكن في ضاحية نر الحـوذية وسائقو العربات وصانعوها ، والبيطريون والمنجدون والحمالون والباعة الجوالة. ويقوم مقابلهم بناة السفن والشخاتير بينا يتوزع الحدادون على مربعات سكنية لا يزيد عدد سكان المربع الواحد ، على مائة نسمة . أما ابناء البورجوازية ، فقد سيطروا على الشوارع القائمة في وسط المدينة ، بينهم بعض اصحاب الدكاكين ، وبعض المحامين والملاكين . وهذا الحي هو أحسن بناء الا انه قليل السكان اذ لا يوجد فيه اكثر من ١٧٠٠ شخص لا غير .

ومدن العالم الجديد لا ماضي لها ولا تقاليد،ليس فيها ما يلفت النظر سوى اتساعها ورحبها ، « فشوارع مدن الاتحاد ، كبيرة كانت أو صغيرة ، تبدو مستقيمة الزوايا وعريضة . ولشوارع فيلادلفيا عرض كبير يستلفت الانتباه ، تنتصب الاشجار من كلا جانبيها ، كما يروي خبر ذلك عاملان فرنسيان . » هنالك منازل عديدة ، مغطاة واجهاتها بالمرمر الابيض » والحركة فيهذه المدن ناشطة قوية . ترى في نيويورك الى جانب العربات التي تجرها الجياد، حافلات تسير على خطوط حديدية ، تتسع الواحدة لأكثر من ١٠٠ راكب بكل ارتياح . صحيح ان عدداً كبيراً من هذه المدن يبدو حقير المنظر . ففي شوارع بوسطن وازقتها كانت قطعان الخنازير الى وقت

قريب لسرح فيها ولمرح وتتكفل بالقضاء على النفايات والاوساخ المتراكمة في مدن الغرب التي تبدو وكأنها ورش لا حدود لها ولا سدود . الا ان هذه المدن كالفطر ، تنمو بسرعة كلية ، وتبشر بضخامتها الهندسية بقرب طلوع هندسة المدن الحديثة .

البورجوازي في عهد الملك لويس فيليب

فالبورجوازية ماضية في تصميمها . فهي التي تفرض الذوق وتعطي القياس في كل بلدان الغرب . ومما هو حري بالملاحظة ان الشعب فرض ذوقه في كل ما يتعلق بالهندام واللباس. فالسروال هو الذي يتحكم بالذوق والجبة في طريقها الى الزوال. فالبورجوازي يتميز عن السوقة بالريدنغوت وزيه وقبعته، بينما يرتدي الاخير سترة. وهذا البورجوازي ينتعل السكربينة أو البابوج الخفيف او حذاء ناعماً ويضع حول عنقه عقدة كبيرة . واما سيدة المجتمع الراقي ، فهي تتفنن في تأمين الانسجام والتنافي في كل ما يتصل بملابسها وزينتها مجاراة منها للذوق الرومنطيقي . فهي تحلم دوماً بالفساتين المطفطفة الاكمام والاردان وتكثر من استخدام الدانتيلا والشرائط، ولا تستغني عن أكمام الفرو ، كما انها تتفنن في عقص شعرها وتصفيفه وتحليته . فالهندام الخارجي هو الذي يدل على هوية صاحبه : « أخواجا » هو أم « علقة » ام « كريمة » من ابناء العصر ؟

فالمال وحده العنصر الذي يحدد مركز الفرد ومكانه في هذه البورجوازية وداخلها . فالمال وحده يوليه المركز الاجتماعي والاحترام اللائق . في قمة السلم الاجتماعي نرى أرباب البذخ من اصحاب المصارف، كما يحتل الدركة السفلى منه البقال او العطار « الحشو الذي لا بد منه ولا غنى عنه للحياة الاجتماعية » كما يسميه بلزاك. ويتوزع بين مختلف درجات السلم كل من تعاطى التجارة أو حاز عقاراً له طابع صناعي . وهكذا نرى القوم في بلدتي بارمن وابرفيلد ، كما يؤكد انجلس « غارقين بين الارقام والاعداد في عمليات حسابية لا تنتهي بحماس، وتكالب لا نظير لها . وفي ساعات معينة، في المساء يخرجون لقضاء السهرة فيلتهون بلعب الورق ، ويبحثون في امور السياسة العارضة ويدخنون ليعودوا الى منازلهم عند الساعة التاسعة ليلاً ».

عاملان يوليان المرء أهميته وشأنه : الوظيفة العامة والمهنة الحرة . ففي بلدان مثل فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية ، ليس ما يحد من اطماع الفرد او يصد من طموحه ومن تطلعه الى المراكز الكبرى في خدمة الدولة . غير ان ابناء طبقة النبلاء من كلا جانبي المانش يكافحون للاحتفاظ بالمراكز العليا : في الجيش والسلك الدبلوماسي . ففي أوروبا الوسطى وروسيا ، لا يرقى العامة من الناس الى مراتب الادارة الا بفضل إنعام خاص من أولي الامر او بفضل مواهب وكفاءات خاصة تفرّد صاحبها وتميزه . الا ان ابواب القضاء مفتوحة على مصراعيها امام ابناء البورجوازية . فالطبيب سواء وجد في المدينة او في الريف، هو في مستوى النبيل منزلة ومقاماً يتبادل مع أصحاب العقارات الكبيرة.« فقد اصبح – كما يؤكد بلزاك – من دعائم الحضارة والمجتمع » . ان ما يجمعه في الصدر من علم يوليه شأناً عالياً ينهض بأطماعه السياسية .

فالعيش على النهج البورجوازي ، يقتضي له منزلاً تتوفر فيه كل التسهيلات ووسائل تأمين التعلم والتربية للاولاد ، وتأمين بائنة البنات ، هذا فيما يختص بالرجال . اما عند المرأة ربة المنزل ، فأن تزور وان تزار . هنالك درجات متفاوتة في الوضع الاجتماعي . ففي مدينة كانت مثلاً كانوا يقسمون المجتمع عام ١٨٣٥ الى ٨ طبقات او درجات في السلم البورجوازي وفقاً لنهج الحياة ، اعلاها مرتبة من يبلغ ريعه السنوي ١٢٠٠٠٠ فرنك، يستطيع معه ان يدفع ١٠٠٠ — ١٢٠٠ فرنك ايجاراً في السنة لمنزله ، وعنده عربة وحوذي واسطبل . اما من يراوح ريعه السنوي بين ١٨٠٠ — ٢٠٠٠ فرنك فهو من صغار البورجوازيين. باستطاعة البعض ان يرتادوا المدن المائية ويختلفوا الى المسابح التي اخذت تظهر هنا وهنالك، كما ان البعض الآخر يقنع بارتياد المتنزّهات القائمة على مقربة منهم . والكل يتوق لارتياد دور التمثيل ودور اللهو . ان معظم اصحاب معامل النسيج وكبار التجار في مدينة ليل من آل سكريف وآل ماثون مثلاً ، لهم صروحهم وداراتهم الباذخة . وبعد انسحابهم من حياة العمل نرى اشخاصاً امثال كوليبيه — بتّور واغاش دمعد يحيون حياة بذخ اصحاب القصور .

وبفضل الدور الذي مثله تيير في مجالات الصحافة والادب والسياسة ، ارتقى حتى اصبح وزيراً للملك لويس فيليب ، وهي وظيفة كانت تدر عليه مرتباً يتراوح بين ١٠٠ الف و ١٢٠ الف فرنك في السنة . وقد در عليه كتابه « تاريخ الثورة » مبلغ ٥٠ الف فرنك ودخل عضواً في مجلس ادارة جريدة « الدستور » وبذلك عاد اليه قسم من الارباح . وعندما تزوج عام ١٨٣٣ انفق على فرش دارته عشرة آلاف فرنك . وكان معه نقداً ٦٠ ألف فرنك وملك قصراً في شارع سان جورج باعه فيما بعد بمائة الف فرنك كما ملك منزلاً في مدينة اكس . وقد كلف جهاز عروسه عشرين الف فرنك وجلبت معها بائنة تقدر بثلاثمائة الف فرنك تدر في السنة ريعاً صافياً قيمته ١٥ الف فرنك . وتراه يشتري الخيل والعربات ويجمع التحف والكتب النادرة ويسافر محوطاً بمظاهر الابهة ويتعاطى المضاربة بالعقارات .

وهذا النموذج المثل بجوزف برودوم وجيروم باتورو وقيصر بيروتو الذي كان يمثل الاناقة ويتحدث عن الشرف وينادي بالانسانية المثالية والذي كان يزعم انه يخشى الشعب ، يدعي انه من الشعب ويتبجح بأنه يتكلم باسم الشعب ، هو نفسه سبب نفرة واشمئزاز لهؤلاء الذين يتهمونه في ذوقه الفني والتبجح بنزاهة الضمير والوجدان، ويهزؤون من رضاه عن نفسه . وهذا النموذج المثالي يبدو على أتمه في هذه الصورة التي وضعها الرسام انفر لبرتن الاب مؤسس جريدة الديبا. فصوره لنا غارقاً في كرسيه الكبير ويداه مسبلتان على ركبتيه ، شاخصاً بانظاره ، معتداً بنفسه وستبرز لنا صورته من جديد بعد عام ١٨١٨ بنصب وبجهد ، وينشد فريتاغ بذكراه في كتابه المعروف *Droit et avoir* .

في فجر هذا العصر الصناعي الذي تتجه اليه البورجوازية بخطى حثيثة ، تطلع علينا الرومنطيقية ، لتحرر قوى الاستقلال بعد ان عقلها النقد الاجتماعي وكبتها عندما استبطر شأنه .

الفصل الخامس

الحركة الرومنطيقية
وعودة الشرعية الى أوروبا

الروح الرومنطيقية
بين جيل وآخر

أي متى ظهرت ، يا ترى ، الحركة الرومنطيقية الـتي تجلت بوضوح وبرزت على أنها في مستهل القرن التاسع عشر ؟ هل منذ عام ١٧٧٧ ، بعد ان شن كلنجر ، في هذه السنة بالذات ، هجومه على المذهب العقلي، في مأساته الموسومة : « *Sturm und Drang* » (عاصفة وصراع) التي ينم عنوانهـا عن زخم التيار واندفاعه الشديد ، او منذ عام ١٧٧٣ ، تاريخ وصول «غلوك» الى باريس ؟ فقد تخلى غلوك عن النهج الايطالي وسار على طريق « رامو » راميا من وراء ذلك الى اخضاع الموسيقى للشعر وادخال الطبيعة في المأساة الموسيقية. وقد مهد رامو في مسرحيته *Les Indes Galantes* لطلوع برليوز كما انه جاء بالدليل على ان مؤلفات موزارت تتزى بالزي الجديد الذي رسخ وتوطد في النفوس .

ففي الحقبة التي تلت العاصفة الثورية والنابوليونية مباشرة ، برز للعيان من جهة ، الشعور بالقلق ، ومن جهة أخرى التمرد على الحياة الرتيبة التي تشوبها الروح البورجوازية . ولذا بـدا هذا الشعور متشائماً على شيء من مظاهر التدين ، ومن الحنين الى الوطن المألوف . فقد اخذ من الشعوبية النزعة نحو النظام الاجتماعي ، وقد فُتِنت الشبيبة البورجوازية بهذه النزعة الجديـدة واقبلت عليها بشغف ، فجامت الاستجابة عندها وفقاً لمشاغلها الخاصة ، وبذلك اصبحت الروح ذات نزعة متحررة ووطنيـة الاتجاه ، تتجه تحت تأثير العاطفة ، شيئاً فشيئاً ، نحو مثالية من الاخوة الديموقراطية جاءت بلسماً خففت نوعاً ما من أوصاب البروليتارية وآلامها . وهكذا لن تلبث المثالية ان التفت بالتفاؤلية التي ميزت العصر الماضي . فهي في نظر ستندال الذي عايشها: « عامل لا يبصر ولا يسمع في خدمة مستقبل غامض » .

بين الاتباعية والابداعية : رضع غوته وبيتهوفن من بعده

وصف دليكلوز في يومياته : الابداعية (الرومنطيقية)، بالحواء، مع العلم ان هذه الحركة انطلقت تحت مظـــاهر الاتباعية او الكلاسيكية وتطورت تحت جناحيها . والفنانان داليد وأنغر ليسا بمنفردين. فالجماهير التي وقفت مشدوهة امام تمثال « تأليه هوميروس» والتي قابلت بتصفيق حاد طالما، يحتفظ بمثل هذه الحماسة لراشيل. الا ان الفكرة التي ارتسمت في الاذهان عن التاريخ القديم برزت اقل مطابقة للصورة المألوفة او الصورة التقليدية . وقـــد اطلت علينا رؤى عن الحضارتين الاغريقية والرومانية ، ألصق بالتاريخ واعلق بالواقع التاريخي واخذت تبدو شيئاً فشيئاً الصورة الادبية التي علقت في الخواطر عن بشرية خالدة . ومما له دلالة خاصة بهذه الحركة هو اكتشاف شكسبير بعد جهل العالم له ، فأنزله فولتير منه منزلة خـــاصة ، واشاد به لسنغ عالياً وترجمه شليغل وتيك وادخله كرامزين الى روسيا فأدخل الغبطة على روح بوشكين. وقصة فوست التي دخلت المسرح على يد مارلو احد معاصري شكسبير ، حلت لسنغ على معالجتها وتدبرها قبل ان اصبحت موضوع اهتمام غوته .

فالتحولات التي خضع لها فوست انما تدل على تطور الفكرة عند غوته . فصورة فوست البدائية رمزت اليها صورة بروميثية المتقمص في رواية *Sturm - Drang*، الى آخـــر تجسد من تجسداته المديدة الحلولية الطابع والصيغـة مروراً بفوست المتـاضل الذي يهوي الى الارض . ففي هذه القصة رمز البحث عن الحقيقة ، عن طريق الثورة اولاً ، ثم عن طريق التكامـــل المتناغي للقوى العقلية المنسجمة . فيدع فوست وخالقه هو هذا الاديب الاولمبي الخـلاق الذي يهيمن من علٍ على الظروف والصروف ويتحكم بها بحيث تتم له المطـــابقة ويحصل التلبيب بين افكاره وبين الوظائف التي شغلها في بلاط وعار ، وهذا التجريد الموسوعي العقلاني الذي يسعى وراء البحث العلمي محولاً على اجنحة التفاؤل البشري . فهو يطري الى ابعد حد هذه الحرية التي يجود ابطاله بأرواحهم دونها ، هؤلاء الابطال المتمثلون بـ : غوتز واغمونت وفوست ، ويؤمن ايماناً عميقاً برسالة الشاعر . وسيبقى في نهاية الامر الشاعر الكلاسيكي الامثل في الادب الالماني ، بما له من انشاء جزل ولغة سامية .

يتمتع بتهوفن بشخصية لا ترام ، كما يقول فيه غوته نفسه . فلقـــد توفرت له خصائص وسمات مفردة : عنفوان شباب لم يلبث ان استحال نزعة قوية تدفعه نحو العظمة الوقور ، ومفهوم اكمل للاثر الفني بوصفه منجاة من عاطفة الحب المشبوبة ، والسعي الرصين بحثاً عن الوحدة وراء التناقض ، بين القوى الخيرة ، وقوى الشر ، هذا التناقض الارستوقراطي الطابع هنا ، والشعبي الجماهيري، هناك، الذي يذكرنا بأبحاث جان جاك روسو في انعزاليته الاجتماعية في ما جمع بينهما ووحد من قالب كلاسيكي ، والكلاسيكية الموسيقية الحقة التي عمر بها الجو الذي استكشفه باخ وهندل. فالمعجزة البيتهوفنية تقوم في ان سيد بون نفخ روحاً جديدة في الانغام دون

ان يبدل بشيء في الفنون . فبعد ان وسع من الاركسة وباعتماده على المعزف كوسيلة اولى في الانشاء والتنغيم ، وعن طريق ادخال الحزن أو الشجى في التعبير الشخصي ، فتح الباب على مصراعيه امام المدرسة الابداعية الرومنطيقية . فالكمال الفني الذي بلغه موزارت قد يُدخل اليأس على نفوس الشباب . اما السمو الفني الذي حققه بيتهوفن ، فيبعث النشاط والتجدد بعد ان حرر الفن من ربقة التقاليد .

الرومنطيقي وحلمه الدفين

يحلو لهذا الرومنطيقي ان يلفت الانظار بطريقة أو بأخرى من طرائقه الغريبة كالمظهر الخارجي والفروق ، والمزاج ، والطبع ، فهندامه او زيه « مدروس الى اقصى حد » كما يقول فيه تيوفيل غوتيه . فقد سبق ليون غوزلان ووضع لنا عنه صورة هذه بعض قسماتها المميزة: بزة رسمية، سوداء اللون مزررة مما اتصل بالبطن حتى الشريان السباتي ، وياقة فضفاضة مسترخية، الى سحنة مكمدة اللون، مستديرة، عليها شيء من اللامبالاة ، لون وجهه ينم عن القلق المنبىء بموت قريب ، اذ عليه ان يحيى حياة ملؤها العنف والنضال او يزول من الوجود . وبالفعل فاللورد بيرون ، هذا اللورد الذي صدمه الواقع فجاء مزيجاً من المرارة والفصاحة عبر عن الطريقة الفرسية التي لا تتوقع شيئاً من البشر ، وذلك قبل ان يجود بنفسه بكبر في مدينة مسولونغي ؛ وساندور بتوفي يُقتل في ساعة الوغى ، في معركة سجسفار، عام ١٨٤٩ ، وحوادث البراز تخترم بشكل مبكر حياة بوشكين وله من العمر ٣٧ سنة ، كما تودي بحياة ليرمونتيف وهو ابن ٢٧ سنة ، وغالوا، هذا العالم صاحب الفكر الرياضي، يموت وهو ابن ٢١ سنة . وها هو كليست يقتل عشيقته ثم يحطم رأسه امام جثتها؛ وجيرار دي نرفال يشنق نفسه في احد الازقة؛ والمثل نورّي يقذف بنفسه من النافذة خلاصاً من الحياة . واذا اتفق وقام، انتهت حياته بالجنون، او الادمان على الكحول، امثال لينو وشومان وبو ، فهناك غيرهم امثال نوفاليس وشيلي وكيتس وليوباردي وشوبرت وشوبان وديلاكروا وابيل تتخاطفهم حوادث المرض والعوز والبؤس واليأس . كم هو كبير عدد هؤلاء الامراء في هذا العصر الذين يبدون كريشة في مهب الريح ، على شاكلة شارل البير ، وفريدريك غليوم الرابع، ولويس الاول ملك بافاريا ، بينما لويس نابليون المصاب « بالتوحشة » يعيش في احلامه ويؤمن بطالع نجمه .

ولما كان الفرد هو قسطاس نفسه وله نمطه الخاص في العيش ، راحت روح الثورة تدفعه الوقوف في وجه الاعراف والتقاليد المعمول بها فرقاقة اللغة وريشة ديلاكروا الشبقة ، وموسيقى برليوز « الرهيبة ، المفزعة ، البركانية الاثر » ، كلها ذرائع ووسائل لاستشاطة البورجوازي وإثارته . فبيرون يستشيط غيظاً ضد التصنع والتزمت المقالي ، ورياء اللغة ، ودجل التعبير ، وبوشكين لا يتورع عن ابراز معايبه ونقائصه ، واوروز دوبين ، بارونة دوديفان تحتسي ال Punch وتدخن السيكار ، وتظهر تارة بلباس القندور المتأنق الانيق ،

وطوراً بلباس البوهيمي . « يعجبني ذوو الطبائع والغرائز الشاذة ، واني لواحـــد منهم » يصارحنا بلزاك في مساراته جورج صاند .

من يستطيع على شاكلة برليوز ، ان يسمر الهلع بواسطة موسيقـــاه الرهيبة ، في نفوس مستمعيه ، ومن يستطيـــع على شاكلة جريكو ، ان يجمع جثث الموتى في مرسمه ، ليؤلف لنا هذه القطعة الموسيقية المعروفة بـ « طوف المدوزة » ، هؤلاء بالذات يذهبون فريسة التأمـــل والتفكير . هذا ما ينصحه نوفاليس بخواء النفس وهذا هو المهلّس عند هوفمان وتيك ، وهذه هي رائحة الضباب الذي يغشى المقابر ، مطلب غـــار ـ دافيد ـ فريدريك ، ومنظر المكتنع الآسن ومنجم الفحم الذي يجتذب اليه أنيت دي دروست ـ هولشف ، هذا هـو لويس سولر الذي يجد لذته ومتعته المفضلة « واقفاً امام قـبر ، او في دير حيث يسود الصمت والسكون او امام صرح قديم منعزل » ، على ضوء « قمر ممتقع اللون » ، هذا القمر الذي يوحـــي لاندرسن اقاصيص غريبة عذبة . فالصورة التي خلفها لنا هوغو تعبر عن اللذة التي تجيش في صدر من يرزح تحت الكابوس او ما يوحي الشعور بالضغط المرهق . معبود كورو ، رسام المناظر المشهور ، هو ان تكتحل عيناه بهذا الوشاح المهفهف الذي يتألف من هذا الضباب الفضي ، الذي يترك الاشياء قلقة ، لا تستقر على وضع او حال . هنالك من يتطلع للرحلة والسفر بروح طُلَعَة او بروح ملول كما ان البعض يؤثر المشاهد الهادئة التي تكثر بين الناس داخل أسرهم ، ومعظمهم يحاول ان يجد في الطبيعة سلواه وعزاءه . فاذا ما رهب فيني برودة هذه الام الشرسة الطباع ، واذا ما نقم عليها ليوباردي لامبالاتها وعدم اكتراثها لهذه البشرية البائسة ، واذا مـــا غاص لامرتين في احشائها واذا ما نظر اليها ميشليه كما هي على علاتها ، بعجرها وبجرها ، وهو يقول : مـــا من شيء في الطبيعة لا يثير فيّ الانفعالات ، فأنا اكرهها واعبدها سواء بسواء ، كما امقت المرأة واعبدها » . ولما كان الزواج يقيد صاحبه ويفرض عليه شيئـــاً من العبودية ، فأنا احتقره واسخر منـــه ، فالاتحاد البورجوازي يجب الا يقوم الا على العاطفة التي يجب ان تتمتع بكل حرية ، وها هو غريلبرسر وهيبل يجعلان من المرأة بطلة مسرحياتهم التي تذكرنا عن قريب بمسرحية راسين .

بيئا وأدوات التعبير

هذه الشعوبية المستنيرة ، الارستوقراطية الطابع ، والطبقة البورجوازية العليا اللتان اتخذتا من فرنســا موطناً لها ومستقراً ، لم تختفيـــا قط من الوجود . فالصالونات ونوادي المجتمع الراقي ونصراء الادب والفنانين من الاثرياء ، لم تتمكن الثورة الكبرى من القضاء عليها او ان تستأصل شأفتها من البلاد . فاذا ما سلمنا جدلاً بأن فرنســا خسرت كثيراً في هذه العملية ، فسيطرتها الفكرية لم تتأثر كثيراً من هذه المغامرة الكبرى . من المعروف باتفاق الآراء ، ان باريس هي مدينة الذوق الرفيع ومقياس الشهرة الواسعة . الا ان الظروف لم تعد تماماً كما كانت من قبل . فقد مرت بسماء فرنســا عاصفة هوجاء ، والمستقبل يبدو عندها وكأنه على كف عفريت . ومن جهة اخرى ، فالخطل الذي ذهبت اليه المغامرة النابوليونية

والحركة البطولية التي سبقتها ، تسببت في ردة فعل هوجاء ضد الروح الفرنسية ، كما عاد كل ذلك على القومية الفرنسية بمثل هذا الخسف .

ولذا فليس بعجيب قط ان يصاب في الصميم هذا الاتساق أو الانسجام والفلسفي ، الذي طبع النماذج الفرنسية وميزها في القرن الثامن عشر . وعندما كان المهندسون والنقاشون ، والرسامون ، والمذوقون يقومون بعملية الخلق والابداع كل في فنه ، كانوا كلهم يستوحون النماذج الفرنسية ويستلهمونها . ولذا لا نرى في الفن هندسة رومنطيقية . فالارستوقراطي والبورجوازي الذي يبتني له منزلا يستوحي ما وقع تحت انظاره من نماذج قائمة ، عندما لا يرغبون في بعث الطراز القوطي. فالرغبة الجنونية بتقليد كل ما هو انكليزي فرشت بلدان القارة بالحدائق والجنان التي تبدي طابع الجزيرة المزدانة بالخرائب او الآثار المزيفة . وهكذا زالت من الوجود النقوش والمحفورات – باستثناء « رود » الذي يؤلف وحده خروجاً على القاعدة . ولذا راح العاملون في النقش، يتجهون على الغالب، نحو الموضوعات التي يعالجها النقاشون عادة ، مثال ذلك الرسام باري المتخصص برسم الحيوانات والذي لقب بحق « ميكالو انجلو الكواسر » ، وأفيد انجيه المتخصص برسم الاشخاص،ودانتان الابن المتخصص بالرسم الهزلي او الكاريكاتور . ففي الوقت الذي يتوارى فيه فن الرسم التشكيلي عن المسرح ، يطل علينا فن التصوير على مسند ويزدهر بشكل لم يكن ليتوقعه احد .

وهذا النوع الذي يأتلف كما يجب ، والهوى او الرغبة ، كما يطابق معارض الصالونات والمتاحف ، والذي يصف بدقة كلية ، هذه اللخبطة العجيبة ، وهذه الفوضى الماكرة المتقلبة باستمرار ، هذه الفوضى التي « توحي الضبطة » كما يؤكد بلزاك ، وتوحي السماجات البشرية ، والهلع ، او توحي هذه الطبيعة الذاتية او الغنائية الموحشة او المعبرة عن سرائر النفس الدفينة ، فن شخصي يستمد كل قوته من اللون . ولذا كانت عناية أنغر بالرسم على نسبة صدق محاربته للريشة الثملة .

كذلك تتوفر للموسيقى وسائل هائلة لتعبر عن انفعالات النفس وتثير الاخيلة . فهي تنبعث وتتجدد بالتأليف بين هذه الانغام والتعبير عن المبادىء والقواعد التي يقوم عليها ائتلاف الانغام وانسجامها . فهي تتوخى التنويع وتهدف للتأثير على القلب اكثر من تأثيرها على العقل. وهكذا يطل على الناس عهد المعزف الذي له من الايقاع المدوي ما لا يتوفر بعضه للبيانو القديم. فكبار صانعي المعازف امثال ايرارد وبلايل عملوا على انتشاره وجعله في كل منزل ، وفي متناول البورجوازية الحديثة العهد . فالمعزف هو الآلة الموسيقية الفضلى لدى شومان وشوبان وليست . وجل ما يريده الموسيقاريون الكبار او يطمحون فيه من القيثارة مع بغانيني ، ومن الفيولونسيل والناي مع الآخرين ، هو الخلق الفني . وساكس، رب الآلات الموسيقية النحاسية النافخة ، كما يسميه هابربير ، جدد الحياة وبعث النشاط في آلات النفخ وزاد عليها اختراعه الكبير

مثلا بالسكاتور .

فاذا ما ابرز الكونسرفتوار موهبة النبوغ الموسيقــي ، فقد عقدوا الأمــل على القصائد الرومنطيقية المعروفة بـ *Leide* والتي تلائم تلاؤماً بين النغم واللفظة لكي تعبر عن ادق خوالج النفس البشرية ومشاعرها الدفينة . فموسيقى الحجرات المغلقة التي تتجه من عدد معين من المستمعين تأتي ادنى مرتبة من المسرح الغنائي الذي طلع علينا بعهده الذهبي ، هذا المسرح الذي يعمل في سبيله العديد من المؤلفين واضعي نصوص الاوبرا . هذا المسرح الذي يقفز عن *Belcanto* ومن رقص جيل ميزته الكبرى قربه من افهام الجماهير . من هذه التواريخ المفردة روائع ويبر المسماة *Freischutz* عام ١٨٢١ ، و *La muette de sortici* أحد آخر اوبير ، ١٨٢٣ ، ومقطوعة « روبير الطريت » من تأليف ميير بيير عام١٨٣١ ، و« اليهودية » من وضع هاليفي عام ١٨٣٥ .

والمسرحية الرومنطيقية هي من نفس المعين والمصادر . فالعاطفة الجماعية تمتد الحركـــة والشعارات المثيرة وبكل ما يثير الحنان والشفقة . فالعاطفة الجماعية تجد فيها كما يجد المؤلف نفســه ما ينفعها . فهاهو هوغو يباشر معركة مرناني التي يكتب له فيهــا الفوز عام ١٨٣٠ ، كما ان مســرحيته « سقوط البورغراف » التي صدرت عام ١٨٤٣ جاءت تعلن للملأ ان ساعـــات الرومنطيقية الكبرى قد ولت ومضت . من المفيد ان نلاحظ هنا ان في الوقت الذي تفقد فيه الاستدارة البيانية ، ما لها من سحر وفتنة ، كان الشعر الغنائي او الوجداني قــد اعطى معظم روائعه الادبية هذا الفن الذي يفرغ المرآة الغنائية ، في القصيدة الفلسفية ، والذي عرف كيف يمازج بين السارة والسرد الملحمي . فمنزلته من الادب منزلة الرسم من الفنون التشكيلية ، لا حد لصوره وصيغه واشكاله كما لا حد قط لموضوعاته ، ويعبر بصورة ذاتية او شخصيــة ، أكان ذلك تعبيراً عن المشاعر الدفينة او تعبيراً صادقاً عن فكرة او خاطرة وجدانية .

فالرومنطيقي ، بما له من اسلوب بيـــاني فخم يحول دون ابراز الحقيقة عنده ، بما لها من قوة ، سواء اراد تحلية الامور او تسويدها ، يستعمل بكل ما اوتي من قوة ، حتى ولو لم يكن شاعراً ، هذا الاسلوب التقني الجديد ، اعراباً عن سخريته وتهكمه . ففي الوقت الذي يتـــاح فيه لشارليه ورافيه الترويج لشخصيــة « الجندي الأمين » ولشخصيــة « العريـــف الصغير » ، سلستين نزتيل تذويق مؤلفات هوغو وغوتيه واسكندر دوماس وتحليتها بالصور و الرسوم ، ولديكروا تحلية فوست لغوتيه ، عرفت الطباعة الحجرية (الليتوغرافيا) ان تؤمن لها ازدهار التصوير المنزلي .

ففي الوقت الذي اتاح فيه فن الفكاهة عند الانكليز خلال شخصية بكوربك لديكنز ، وجعله نموذجاً لا يقل شهرة بشيء عن شخصيــة روبير ماكيه ، كما ابدعت الفكاهة الاميركية شخصية نيكربكر لواشنطون اروين ، نرى بلزاك من ناحيته ، يضع امامنا ، شخصيـات ذات مفارقات متعاندة متضاربة ، فيهوي بالسوط على عابدي المال ، كما نرى سانت بوف يعد حمة النقد المعاصر بالنقد

العبق الذي كان بمثابة مرآة تنعكس على صفحتها ، كل المدرسة الرومنطيقية .

رومنطيقيا رجعية المفعول

التاريخ مدلول بعمل عميقاً في ربط الحاضر بالماضي . فلقد سبق القرن الثامن عشر ان وضع تفسيراً عقـلانياً للتطور البشري دون ان يذكر بشيء المسألة التي طرحها بوسويه . فلقد شدد كل من فيكو وهردر على هذه القوة التي توجه العالم ، حلولية هي عند الاول ، عضوية وخاصة بكل شعب ، عند الثاني ، اي ردة مجرمية للاعقلانية[1] الى ان وقعت اذ ذاك الهزة العنيفة عام ١٧٨٩ الـتي استبدت بالفكر والمفكرين امثال بورك وجوزف دي مستر وبونالد الذين تسلحوا بدليل الديمومة ، حجـة الكنائس والارستوقراطية . والتاريخ الذي يسير في ركاب الضمانة الربانية والسلطـات المنوط بها امر المحافظة على الامن ،يتبنى هو نفسه فكرة الاستمرار والديمومة ، وبذلك ربط نفسه بهذه الاصول الرجعية .

وقد تكفلت المعرفة الواسعة والبحث عن العنصر الجمالي او الصورة الذهنيـة ، بالباقي . ليس من وجوب قط لرفض او التنكر لما جاء به اليونان واللاتين : فالنزعة الانسـانية جامت والحـق يقال ، مثيرة ، مهيجة . ففي الحين الذي راح فيه نيبهور يكشف عما التقليد الشعبي الشفهي من قوة عند تيت ليف ، نرى الاعجاب بالهيلينية يثير الهمم ويحرك المشاعر . ومع ذلك فالحركة الاستشراقية التي طلعت علينا ، والاعمال الوحشية المرعبة، ونبش معالم الحضارة في كل من مصر وايران والهند ، كل ذلك وسع كثيراً من آفاق المعرفة البشرية ، حتى هذه النظريات الحدسية المتعلقة بالأصل او العرق الآري للشعوب الغربيـة ، هذه النظريات التي راودت الاذهان اذ ذاك ، لم تأت بأي فائدة للـتراث الكلاسيكي لشعوب حوض البحر المتوسط . فالدروس التي استفدناها من آسيا وافريقيا اختبارات اكثر وشعوراً اعمق بالتقاليد . أفلم ينزع ديلاكروا الى ان يرى في الاسلام تكملة للحضارة الهيلينية او حصيلة هذا القران الذي تم بـين الشرق والغرب ؟

فالكشف العظيم هو الكشف من الاجيال الوسطى . وسار شليغل في اعقاب لسنغ عندمـا هتف قائلاً : « ليل الاجيال الوسطى ؟ ليكن ، انما هو دليل متلألىء بالنجوم الزواهر . انهـا حقبة عجيبة مدهشة ، كل ما فيها مشرق وأخاذ، فاضلة، ساذجة خصبة بالمعجزات والخوارق ، ليس اصغرها لعمري هذه التقوى المسيحية المستبدة بالنفوس ، وعندما يروح شاتوبريان يتغنى في كتابه « نبوغ المسيحية » بعودة الايمان الى البلاد على يد ابن الثورة وجنديها ، يحقق هـذا هيكله بوصفه ارستوقراطياً محباً للجمال . اما هؤلاء الناصريون ، هؤلاء الرسامون ، المأخوذون بالجمال الديني ، فقد تبنوا الحياة الرهبانية . ثم من المانيا هذه التي ينعتها ماكنتوش بوصفه لها : « المترهة بصورة ميتافيزيقية » ، حيث لاقت الروح التقوية رواجاً عظيماً . وهذه الاقاصيص

---

(١) انظر تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ص ٥٨٦ (الطبعة العربية) .

الاسطورية ، اقاصيص البطولة ، كالساغا السكندينافية والرواية البطولية الاسبانية المعروفة بـ *romancero* ، ولا سيا الالمانية منها ، وفوست وغيرها من هذه القصص الشعبي المعروف باسم *Marchen* واغنية رولان ، لاقت او ستلاقي شهرة منقطعة النظير ، بحيث تكاثرت وانتشرت الى حد بعيد اقاصيص الابوكريفا او المزيفة . وفي الوقت ذاته عرفت الروايات التاريخية ازدهاراً رائعاً . فقد أمدنا والتر سكوت بانتظام مدهش باقاصيص رسمت نهجاً خاصاً احتذوه في كل مكان وكان له اتباع ومريدون في كل قطر وصقع : روايات بطولة تبهر بالرائها الزاهية اظهرت ، على الاجيال ، احترامها للتقاليد والاعراف الشعبية . وهذا القصص التاريخي، امد الى هذا كله ، المسرح بمادة خصبة استلهمها قبل كل من شكسبير ، وكالديرون ولوب ودي فيغا .

وقد كان هذا الجو جد مؤات للمؤرخ الطلعة اذ جاءت القصة تستند الى الوثيقة التاريخية وتنهض على الدليل الاثري . فقامت على الاثر جمعيات علمية،في كل مكان تقريباً، تولت تصنيف النصوص وتحقيقها،وحاولت فك ما تحمل من رموز في خطوطها وردها الى اصولها.من ذلك مثلا الجمعية الخاصة بدراسة التاريخ الالماني التي رأت النور على يد المؤرخ شتاين عام ١٨١٩ ، ومدرسة القراطيس او معهد الوثائق الذي تأسس في باريس عام ١٨٢٢ ، وهذه الكشوف العلمية التي حللها غيزو . وعلى هذا الاساس وضع اوغسطين تييري وميشليه تاريخ الاجيال الوسطى بعد ان تفننا في التوفيق بين مراعاة اللون المحلي وبين التفاصيل الدقيقة ، محافظة منها على احترام المصادر ونصاعة التعبير .

والاجيال الوسطى هذه تبدت صورتها لكل واحد كما تبدت على صحيفة مرآة . فهي تمثل في نظر سيسموندي عهد الاستقلال الذاتي للمدن ، كما رأى فيها فيلسوف بارجمونت عهد السلطة المسلسلة التي نفر منها سيسموندي . ولم يلبث ان رأى فيها كل شعب صورة لما يرجو ولما يطمع اليه . فهذه الرومنطيقية الابداعية ذات المفعول الرجعي ألبسوها لباساً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً حتى وثورياً . فما من مكان قط استشرى فيه هوس الاصول التاريخية المتوسطية بين افراد الشعب كله مثل المانيا اذ راحوا فيها يستبدلون الـ *Aufklrrung* بالروح القومية الموعودة نافرين من هذه الشعوبية العقلانية ومن الروح التحررية البورجوازية . فمنذ عام ١٧٩٩ واجه نوفاليس هذه المعضلة الثانية : اوروبا المسيحية ، فحلها باختيار او بتحقيق الامبراطورية المقدسة بشكل جديد تحت اشراف الكنيسة « الخيرة ، الملائمة للطبيعة البشرية ، حتى اذ ما كاد يتوارى ، اشتد التيار بعده ، عنيفاً ، غلاباً مطالباً باعادة الهيرخية او الملكية الشرعية . ومع ان المدرسة الشعرية في انكلترا تطورت باكراً، رافعة لواء الثورة ومنادية بسلطان الحب ، فقد تركت ودمغت عليها طابع الروح المحافظة المهذبة ، كما كانت لذة سكوت الخاصة ان يبعث التجدد والحياة في بريطانيا العظمى التقليدية المحافظة في الصميم . من دعاة الشرعية ومؤيديها ، هوغو في دواوينه ولامرتين في « تأملاته » اذ راح كلاهما يتغنى ، عام ١٨٢٥ وشيد عالياً

بنكريس شارل العاشر ، وبلزاك نفسه يتجه آنذاك نحو الشرعية . بعد عام ١٨٣٠ . ومع انها من اقحاح الوطنيين الايطاليين ، راح منزوني يضع : « الاناشيد المقدسة » ، فالحاً بذلك نقاشاً حاداً مع سيسموندي حول الدور الذي لعبته الكنيسة في ايطاليا ، كما راح سلفيو بالبكو بروي علينا بكلمات تتنزى بالرضوخ وروح الاستسلام المسيحي ، قصة اعتقاله . والكل يتفادى او يحاول ان يتفادى هذه البورجوازية الراقمة تحت تأثير عبودية العجل الذهبي .

هيغل واستبدادية الدولة

راحت المثالية الفلسفية تقدم هي الاخرى ، خدماتها لقضية الشرعية ، كما راح كل من غـوتيه وكانت وفخت يستجيب عالياً للاتجاه الذي اختلقته الثورة الفرنسية . فقد بقي غوتيه ، على الاقل امينا للمثال الجمهوري كما راح فخت بدوره يرسم لنا نظريته عن الدولة معترفاً لها بحق الاكراه وحق الركون اليه . ومن هذه الثنائية التي قال بها كانت والتي اعترف فيها بقدرة العقل على معرفة مظاهر الاشياء دون كنهها يفضي بنا الى القول بالأحدية القائمة ولو بصورة ذاتية .

واذ ذاك طلع علينا هيغل الذي راح يقول بمثالية مطلقة مناقضاً بذلك تعاليم القرن الثامن عشر . فصلاً بمنطق ديناميكي هو الديالكتيكية الجدلية ، فالافكار المتحركة توجد الواقع وتخلقه وتدفع بالكائن دوماً ليتجاوز باستمرار وضع وجوده . ولذا فالمطلق عنده هو وحده الذي له وجوده الخاص وينزع دوماً التحيز بفضل فكرة الدولة المثل الملكية الطابع من اساسها ، هذا الشكل السياسي الوحيد الذي باستطاعته وحده ، التوفيق بين الحرية والسلطة . اما الفرد هذه الفكرة المجردة التي لا قوام لها ولا كيان فلا وجود له قط بذاته . فالدولة هـي تجسيد لله على الارض لها وحدها الحق بالسيادة المطلقة والاستئثار بها .

وبعد ان دعي هيغل عام ١٩١٩ للتدريس في جامعة برلين راح يثبت ان الصورة المثلى لهذه الدولة هي الدولة البروسيانية . فقد واخذ هذا الفن الغني المتوجه بأنظاره نحو الماضي يبرر ، بطريقته الخاصة ، الشرعية التقليدية . وقد كان لا بد لنظريته هذه عملاً ببدأ رجوع الامور الى نقطة الانطلاق ، من ان تزول الى راديكالية واضحة ، فقد انتصب في وجه الابداعية الرجعية ، هيغلية محافظة او ملتزمة ، كما قام في وجه ابداعية مستقبلية ، هيغلية ثورية .

عودة النظام في اوروبا الى الشرعية

وهذا الصراع العملاق الذي وضع وجهاً لوجه ، هنا النظام الاوروبي القديم وامتداداته الاستعمارية ، وهناك القوى البورجوازية الجديدة والجماهيرية ، استمر قائماً . فقد اتصل بشبه الجزيرة الايبارية التي اعلنت الثورة وامتد الى اوروبا نفسها حيث انصار الحرية ومؤيدوها استمروا ماضين في كفاحهم . فالانتصار الذي حققه للملوك في ساحة القتال ذهب جزافاً كما ان قرارات مؤتمر فيينا بقيت حبراً على ورق وكلمات فارغة ، اذا لم يقم في اوروبا نظام دائم يفرضه القائمون بالثورة المعاكسة هو نظام ديني ملكي ارستوقراطي .

النزعة الدينية

ان قيام شعور ديني رومنطيقي لدليل على وجـــود يقظة دينية . فارتدادات فريدريك شليغل وستولبرغ وهولر، واعتناق آل راتسبون اليهود الكثلكة ، واعتناق ستاهل البروتستانتية ، يشير بوضوح لا يدع مجالا للشك الى مـــا في المسيحية من قوة جذب واغراء . فنوادي مونتالمبير ومونيه لها روادها الكثيرون . ففي الوقت الذي راح فيه هنغستنبرغ المدافع الاكبر عن اللوثرية الاصيلة ، يهاجم المذهب العقـــلي بعنف ، دوت في جميع ارجاء فرنسا صرخة انذار واستنفار اطلقها كل من لامنيه في كتابه « محـــاولة حول اللامبالاة في امور الدين » وجوزف دي مستر في كتابه الموسوم : « حول البابا » مشيدين بالدور الذي يمكن للبابوية ان تلعبه في هذا المجال . ويحاول الاب بلميس ، سيراً منه على خطـى بوسويه ، الكشف عن « التغييرات » التي لحقت بالكنائس ، والملـل الانجيلية . فاذا مـــا عاد الكاثوليك ، ولو متأخراً ، الى الدراسات الكتابية التي تخلوا عنها فترة للأوساط البروتستانتية والعقلانية ، فقد برزت الدعوة التعليـــم وفي اوساط النخبة الفكرية ، بعودة بيوس السابع الى روما وباعادة الرهبنة اليسوعية الى الوجود ، (كما ان الاب لاكوردير سيقوم بتجديـــد الرهبنة الدومنيكية في فرنسا) . وقد تكاثر عدد الرهبانيات التربوية والتأملية والخيرية ، ولا ســيما الجمعيات التي تعنى منها بشؤون المرأة . فنحن امام حركة عارمة من ازدهار الجمعيات الخيرية ، والكتب الجيدة والدراسات القومية وجمعيات القديس يوسف للدفاع عن المسيحية . ومما هـو ابرز من هذا كله ، اعمال الارساليات الدينية التبشيرية التي نشطت لنشر المسيحية ، وحـــمل الصليب الى البلدان التي لم تعرف شيئاً عنه ولا عن المصلوب شيئاً ، كما انها اخـــذت توزع على المؤمنين الاشياء التقوية وتقوم بالكرازة بالانجيل من مكان الى مكان آخر .

ومع تسلم الادارة الرومانية في روما بفوائد الادارة العلمانية فقد اضطرت للخضوع لهـذا التيار الذي يؤيده المتزمتون الذين فازوا باقرار التشريع القديم ، والنزول عند « اصـــلاحات البارونات » ، وديوان التفتيش والى توصيات « مجمع الايمان» الذين نجحوا ، في مجمع الكرادلة عام ١٨٢٣ ، وانتخبوا عام ١٨٣٠ للكرسي الرسولي ، احد ابناء الرهبنة « الكامالدولية » المعروف بتزمته في امور الدين وتقشفه ، هو البابا غريغوريوس الرابع عشر . فبعد ان كرر حـــرم المذاهب الفلسفية والجمعيات السرية ، فلم يتورع قط في توجيه اللوم الى رؤساء الحكومات لما هم عليه من فتور ديني ، طالباً اليهم مؤازرتهم بحيث يتعاون التاج والهيكل . الا ان المفاوضات التي بوشر بها لعقد معاهدة دينية (كنكورداتو) بين الكرسي الرسولي والدول الاخـــرى ، هذه المفاوضات التي تسم دوماً بالدقة وتحف بها المخاطر والصعوبات لم تلبثه الى ما يرضي مطالب الكرسي الرسولي .

فالكرسي الرسولي يضع نفسه في موضع حرج عندمـــا يطالب الكنيسة الكاثوليكية بامتيازات ومنافع بعد ان يرفض منح مثلها الكنائس الاخرى . فهو يتجاوز عن السماح لليهود

بإقامة حي لهم في روما ، كما يتجاوز عن تركهم تحت رحمة الدول عرضة للاضطهاد في دول اوروبا الوسطى (مع العلم ان الكاثوليك لا يتمتعون بحرية اكبر في روسيا)، في الوقت الذي راح فيه يطالب سويسرا والبلاد الواطية وبروسيا بالمزيد من الحرية للكاثوليك . وباسم الكاثوليك يمارس بشدة قانون الشهادة في انكلترا كما يمارض بشدة امتيازات الكنيسة الانكليكانية في ايرلندا . وبفضل هذا الجو من التساهل استطاع اوكونيل والرابطة الكاثوليكية ان يحققا مبدأ الانتصار الذي حققاه عام ١٨٢٦، مسجلين بذلك المرحلة الاولى من مراحل سحب اعتراف الدولة بالكنيسة ، كما ان الكاثوليك الاحرار في فرنسا طلبوا من الحكومة ان تتقيد بأحكام دستور عام ١٧٨٩ الخاص بحرية التعليم فيها . وما عسانا ان نقول ، من جهة اخرى عن هؤلاء المؤمنين والكهنة الذين راحوا ، في كل من ايطاليا وكرواتيا وهنغاريا والامارات الرومانية يسهمون سراً وعلانية ، بالحركات التحررية التي تقوم بها الاقليات في هذه المناطق في سعيها نحو الحرية . ألم ينعت وزير الدولة والباقي، قبيل اندلاع الثورة البلجيكية، بـ مرعب، التحالف الذي تم بين الكاثوليك والاحرار ضد الملك غليوم الاول البروتستانتي ! ومع ذلك فهذه المتاقات التي تنطلق من حناجر الجماهير التي تجمعها وحدة المقيدة او الوحدة القومية والحربية ، قبيل عام ١٨٤٨ ، موجهة ضد البابا بيوس التاسع أتاحت للمؤرخ ان يقول فيها : « توقعت كل شيء ما عدا قيام بابا متحرر » . كل ذلك سراب غرار يمكن تبريره .

ففي الوقت الذي تطل فيه على المجتمعات الكلفينية في فرنسا « يقظة » إنجيلية وتتكتل في بروسيا الكنائس اللوثرية والاصلاحية ، يقترح فيه المفكر السويسري فينه الكبير على اوروبا ، الاحتذاء بالولايات المتحدة الاميركية . وقد لقي اقتراحه استجابة لدى غيزو ولدى بعض الفئات في فرنسا وجنيف ولا سيما في اسكتلندا . وكان المسيحيان النبيلان مونتلمبير وتوكفيل معجبين جداً بالديموقراطية الاميركية حيث اخذت جميع الطوائف الدينية تتنافس فيما بينها بعد ان نعمت البلاد بفصل الدين عن الدولة . وفي انكلترا حيث راح جماعة يطالبون في اثر ولبرفورس واشلي وتوماس ارنولد مع اتباع الكنيسة العريضة الاخذ باصلاحات تحررية ، كما قام من جهة ثانية فريق مناهض للكنيسة العليا عرفوا باسم «المتساعين» كانوا من غلاة الطائفة الطقسية يطالبون برفع ولاية الدولة للكنيسة الرسمية ، فانتهوا في تطورهم الديني عند نهج بيوزي الذي لم يكتب لطريقته الاكتمال ، والبعض منهم عند نهج نيومان والرجوع بالتالي الى الكثلكة . ان روح الكفاح الذي جاشت بها بعض الطوائف الدينية المنشقة (لا سيما الموديست منها) تبلورت عن عدائها العنيف للبابوية ، هذا العداء الذي لم يكن ليبزه شدة الا النفرة من المذهب اللاعقلاني .

وهكذا بالنسبة لوضعها الداخلي ، وفي عجزها عن الصمود في وجه الاندفاع المطالبة بالحرية لم تستطع المسيحية في اوروبا ان تؤلف لمدة طويلة ، ضمانة للنظام الذي يدعو للمحافظة على النهج .

السلام الاوروبي عن طريق شرعية النظام الملكي

ألم يخطر ، مع ذلك، للقيصر اسكندر الاول ان يؤمّن الوحدة بين المسيحيين عندما راح يقترح على الحلفاء،وضع الحلف المقدس تحت حماية « الثالوث الاقدس غير المنفصل» ؟وماذا يهم ان تأتي الموافقة، كما أتت المبادرة من صفوف بعض المتصوفين او ادعياء التقوى ، وان يكون غرتيه رأى في هذا الاقتراح « خير محاولة وامثلها جرت لخير البشرية جمعاء ، هذه الحركة «الطنانة الجوفاء »، كما يصفهـا مترنيخ ، والتي لم يرَ فيها سياسيو تلك الحقبة ، سوى المقاصد البعيدة وتحقيق السيطرة التي راودت القيصر ، من خلال صليبية اوروبية جديدة ضد الاتراك .

والحال، ان العدو الذي يجب وضعه تحت الانظار هو « تنين الثورة » . ان الخـير الاكبر الذي حلم ميثاق عام ١٨١٤ بتحقيقه ، هو « تأمين الراحة والهدوء لاوروبا عن طريق اقامـة توازن عادل بين دولها » ، اذ كان المنتصرون عاجزين كما انهم غير راغبين في اعادة اوروبا الى حدودها الجغرافية التي كانت لها عام ١٧٨٩ ، فالحق العام هو نتيجة موافقتهم ، وبعبارة اخرى هو هذه الشرعية التي تؤلف بالنسبة النظام القديم ، ما تمثله طبقة الاشراف المتحدلة بالنسبة لطبقة النبلاء الاصلية . فالقضية لا تخرج عن كونها قضية اتفاق بين الدول المنتصرة الاربع التي انضمت اليها فرنسا البورجوازية لتؤمن معاً النظام الحقيقي ، اي توازناً يأتي في صالح هـذه « السلطة الحامية الادبية » .

وسلطات هذا الدير كتوار الاوروبي تبقى غامضة ، مبهمة، ولذا كان لا بـد من التشاور وتبادل الرأي فيما بينها كلما دعت الحاجة الى ذلك . وهكذا اصبح مترنيخ رجل المؤتمرات اذ راح من مؤتمر فيينا الى مؤتمر فيرونا ثم الى مؤتمر مونيخ ـ غراتز يحـاول توطيد اسس الوئام السائد بين الملوك .

الا ان هذه المؤتمرات تبقى دونما جدوى تذكر اذ لم يكن هنالك من قوة بوليسية او حربية تعضدها او تسندها . وبالفعل فقد كان الكونت سدلنتسكي بمثابة كلب نيوفاوندلند الحـارس للامبراطورية النمساوية ، بعد ان عهدت اليه ، عام ١٨١٧ مهام دقيقة قام بمسؤولياتها مدة ثلاثين سنة أولته حق الاشراف المزعج على المانيا برمتها وعلى ايطاليا متعقباً اثر اللاجئين السياسيين ومتعقباً لحركاتهم وسكناتهم في ارض غربتهم في كل من سويسرا وفرنسا . فقد عرفت هـذه البلدان نظاماً من الاستثناءات القضائية منها هذه المحاكم التي قامت في عهد لويس الثامن عشر وفي عهد اعادة الشرعية في فرنسا للمرة الثانية والمعروفة بـ « المجلس العدلي » ، التي لا تقبـل احكامها اية مراجعة امام اي قضاء ، والمحاكم الاستثنائية التي قامت في كل من نابولي ومودينا وتورينو ، في عقب الثورات التي طلعت عن تلك المدن سنة ١٨٢٠ – ١٨٢١ ، وعقوبة الشنق في اسبانيا اثناء الحركة الرجعية التي شجرت عام ١٨٢٣– ١٨٢٤ .فالشرطة البوليسية والمراقبة تحد من حرية الكلام وتحكم افواه الجامعات والصحافة ، وتجور على المسرح . ففي فرنسا بـين

١٨١٥ – ١٨٣٠ ، ما من مسرحية تمثل قبل ان يتم فحصها بالتدقيق فيها جملة جملة ، ثم راح النظام الملكي الجديد المعلن في تموز يفرض غرامة مالية على المتجاوزين للقرارات الحكومية . وقد صدر عام ١٨٣٧ امر في ميلانو يمنع تمثيل رواية بوليوكت لكورناي ، مع انه جرى استبدال كلمة « المسيحيين » فيها باتباع الزرادشتيه . وانكلترا نفسها خضعت ، ولو لأمد وجيز لنظام خاص عرف عندهم بنظام القوانين الستة هذه القوانين التي اقرتها ، عام ١٨١٨ ، حكومة المحافظين في عهد ليفربول ، اضف الى هذا كله التدخل المسلح من قبل كل من فرنسا في اسبانيا، والنمسا في ايطاليا ، وروسيا في بولونيا .

وهذا النظام الملكي والمحافظة عليه يتوقف الى حد بعيد ، على الموقف السلبي المفروض بالقوة او المقبول به من سكان الريف ، مع الملاحظة هنا متانة موقف الحكومات المحافظة في هذه البلدان حيث تسيطر الملكية العقارية الضخمة . ففي الوقت الذي راح فيه القانوني الالماني الشهير سافيني يؤكد حق العرف ويعليه على الحق الطبيعي والقائلون بأن الملكية حق إلهي هي، ومعظمهم من النبلاء ويشيدون عالياً بفضائل السلم الاجتماعي المتسلسل، تولي طبقة الاشراف ولاءها للملوك : فكلا الحزبين : الاحرار والمحافظين، يقفان موقفاً عدائياً من السلطة الشخصية، في بريطانيا العظمى . وفي فرنسا يقف المتطرفون موقف المدافعين عن حقوق المؤسسات التمثيلية ويعلنون انفسهم ملكيين اكثر من الملك . وفي اسبانيا الوسطى يستمر الخوف على اشده بين البيروقراطية الملكية وبين المجالس التمثيلية . وفي كل مكان يبقى صامداً في موقفه لا يتزحزح ، من يتمتع بامتيازات مالية او قضائية ، او عسكرية . ولعل ما هو افضل من ذلك، هنالك عدد من كبار النبلاء يتبجحون بالحرية ويؤيدون مطالب القوميات . مما لا شك فيه قط ان الخوف من الاضطرابات والاستمساك بمرى السلام حملا البورجوازية على تبني اعادة الشرعية والوقوف الى جانبها . فاذا لم يكن للدول من حليف افضل غير المصرف (ارباب المال) فالهم الاكبر الذي يقض مضجع الحكومات الدستورية هو ان يُعتَرف بشرعيتها . فالملك لويس فيليب يتمسك باصرار بالتأييد التقليدي . وبفضل ماله من محتد كريم ، استطاع ليوبولد ساكس كوبورج ان يدخل بارتياح مصف الاسرة المالكة .

كان من الصعب على القوى الاجتماعية المحافظة ان تتغلب على هذه الخصومات او العداوات المستعصية التي كثيراً ما كانت الباعث الحقيقي لهذا الصراع الذي كثيراً ما يقوم بين الدول . فنظام الحكومات الخمس يفضي بأصحابها الى الجمود الموصول بينا سياسة الوضع القائم التي تفرضها فيينا وارتضتها قاعدة لها ، وجدت في وجهها الى جانب هذه الاطماع التي جاشت بها نفوس بعض الامراء ، النزعات القومية التي لا تزال تتفاعل وتتطور بالرغم من كل شيء .

الفصل السادس

الحركات القومية والقضية العمالية في أوروبا
الروح التحررية والأبداعية المتفائلة

جاء في كتاب بوناروتي : « مؤامرة في سبيل المساواة »
« ليست الحرية سوى القدرة المحدودة على التملك »
(مؤامرة في سبيل المساواة ، المعروفة بمؤامرة
بابوف ، ١٨٢٨) .

الاحرار

بقي الحزب الثوري حتى عام ١٨٣٠ ، كما يؤكد كورنو ، يشد بنواجذه متمسكاً بنظريات وافكار القرن الثامن عشر ، كما ان توكفيل يؤكد هو الآخر ، من جانبه : بأن تاريخنا (تاريخ فرنسا) بين ١٧٨٩ - ١٨٣٠ ، اذا ما نظرنا اليه عن بُعد ، نظرة شاملة ، ليس سوى مشهد صراع عنيف قائم بين النظام القديم بما له من تقاليد وذكريات ، وآمال ورجالات ، يمثلون خير تمثيل ، في طبقة الارستوقراطية ، وبين فرنسا الجديدة بقيادة الطبقة الوسطى » . وجماعة الثورة هذه ليست سوى طبقة الاحرار . وقد حدد غيزو الطبقة الوسطى: « هذه الطبقة التي لا يعيش افرادها على المراتب والاجر ، والتي ينبض الفكر عندها وتجيش الحياة فيها بالحرية ويتخلل نشاطها بعض الفراغ ، والتي تستطيع ان تخصص جانباً ملحوظاً من وقتها لبحث القضايا العامة ، اي هذه الطبقة التي تجد نفسها على بعد متساو بين الامتيازات الماضية ، وبين هذه الطبقة المنصرفة للعمل اليدوي » .

وهذه الروح المتحررة، قوام الشرعية وعدة الشرعية الدينية على الاخص، تقترح نظاماً هو خير الانظمة وافضلها ، والهدف الاسمى لحقبة تاريخية طويلة من حقب التاريخ امتدت الف سنة، هو الملكية الدستورية التي يوجهها اعيان البلاد الذين جرى انتخابهم من بين المواطنين الذين تتوفر لهم عن طريق الثروة التي تمت لهم، ونعمة التعلم التي صقلت نفوسهم، الامكانيات السياسية . فالجمهورية التي رسم دعائها صاحب الفضل واشنطون ، لها بالطبع المعجبون بها والقادرون لفضلها . غير

ان معظم اصحاب الفكر الحر يفضلون عليها نظام الملكية : « فلو لم يكن من نظام ملكي ، يقول كلازيير بيريه ، لهبط النظام الى درك الديموقراطية ، وبذلك تكون البورجوازية قد اضاعت سيادتها . والحال يجب ان تتمتع البورجوازية بهذه السيادة لاسباب مبدئية ، لأنها أكفأ الجميع » .

واذا كان بروز البورجوازية له ما يبرره ويزكيه ، فهي تعتبر نفسها والحالة هذه ، تتمتع بصورة طبيعية بالحرية لان لديها من الاستنارة ما يجعلها تدرك جيداً ان سعادة الجنس البشري تتوقف قبل كل شيء ، على التنعم بالحريات الفردية التي تأتلف مع تطور الجسم البشري وتؤمن سلامة المقتنيات . ولهذه الاسباب ، فالافضل هو النظام الانتخابي او التمثيلي القائم على اساس دافعي الضرائب والصالح للوقوف معاً في وجه الفتن الجماهيرية والثورة الماحكة .

فالروح التحررية حتى الرومانية منها ، تشجب الملكية القائمة على حق الهي وترفض كذلك التسليم بأي سلطة للاديان والكنائس وستجردها مما تتمسك به من حقوق الاحوال الشخصية ، وتعلن الزواج ولا تقبل بخدمات الكاهن او خادم الدين في التعليم الا لغرض ادبي واخلاقي . وهذا العداء للاكليروس ، يقابله لا سيما في البلدان الكاثوليكية المعاوة الدينية . فبين ١٨١٧ – ١٨٢٩ ، اصدرت دور النشر ٣١٦،٠٠٠ نسخة من مؤلفات فولتير ، و ٢٤٠،٠٠٠ نسخة من مؤلفات روسو . وقد ادت هذه المنافسة الحادة في قضايا الدين ، والدعاية أو الدعاية المضادة لها ، الى حروب اهلية ، في كل من سويسرا والدول الايبرية .

والى هذا ، فمن آدم سمث وجان بابست راي الى جون ستيوارت مل ، راح علم الاقتصاد السياسي بعد ان انتسب الى الكلاسيكية ، يضع القواعد الذهبية التي تنهض عليها المصلحة الشخصية القائمة على تفهم صحيح للامور والاوضاع ، وعلى المنافسة الحرة . وهذا يعني حتماً الاقتصاد الحر الا فيما يتعلق بمصالح الدولة التي تمتزج بمصالح البورجوازية .

الحركة الرومنطيقية والقوميات

من مفهوم الحرية والصفات المعقودة عليها ، القـدرة على إثارة وتحريك الشعور والهابها . فبيرانجيه يجعلها ، في فرنسا عروس قصائده واغانيه الشعبية ، وهكذا سكريب في مفكراته واوبير في موسيقاه . ففي صفوفها وعداد الناهضين بها ، نرى الحداة المتفنين بها ورجال الاقتصاد الى جانب العاملين في الدعوة لها والفلاسفة والمؤرخين والمناضلين حيالها . فهي تعتمد ، الى حد بعيد ، على اصوات الناخبين في الانتخابات العامة وأعضاء الجمعيات السرية واحياناً على الثوار والحاربين في الشوارع . ففي وضع من هذا النوع الموصوف ، التحررية انما تعني الكفاح ضد السلطة الشخصية تارة ، وطوراً الصمود في وجه الاجنبي الدخيل ، هذا الصمود الذي كثيراً ما يصطبغ بالمطالب الوطنية او القومية .

فالثورات الاميركية والفرنسية كانت في الاساس ردات فعل شعبية ، في وجه الحق الملكي

الالمي القديم . وهل يصلح لعمري التاريخ وحده بحقوق الانسان مبرراً لهذه الرغبة الجامحة التي تهيب بالامم الى النهوض بعد ان يجيش في عروقها الحياة ؟ فيكو يجد هذه القوة في الكون ، في الامة الـ *Volksgeist* عند هردر ، اما فخت فيشدد من جهته على الـ *Urvolk* بينا يراها هيغل في الفكرة ذاتها التي يعمل التاريخ على تحقيقها . وما عسانا ان نصف به هذه الموازرة الموائية تشد ازر الحركة اتفاقاً يقدمها احدهم هو شارل الببر فريسة الاوهام والهواجس والظنون، هـــذا التلميذ الاثم لجوزف دي مستر ، او يتبرع بها آخر من صف فريدريك غليوم الرابع ، هذا الفنان السقيم المزهو بالامبراطورية المقدسة ؟

والى هذا ، فيما كان من سحر الفتوحات الفرنسية التي لا يمكن للمؤرخ ، مهما اعماه التعصب وضيق الصدر ان يتجاهلها ، ومن هذا الاثر المدوي الذي تركته في النفوس والقلوب الامجـــاد التي سجلها الامبراطور الكبير ، هذه الامجاد الآخذة ذكرياتها بالانتشار والتبرعم ، فلا مجـــال لنكران عنصر المفاجأة – العنصر الاسطوري ، في التاريخ بحيث لا يمكن للمؤرخ ان يجهل قط الاثر العظيم الذي تركه التوسع الفرنسي في القارة، فساعد على بعث المطالب الوطنية المتعددة بين الشعوب التي وقعت ضمن هذا الفتح . ففرنسا لا تزال ، حتى في سنة ١٨٣٠ ، تعطي اشارة الانطلاق والتقدم الى الامام . الا ان بيكر يضع عام ١٨٤٠ في وجه النشيد الوطني الفرنسي « المرسلياز » ، النشيد الالماني *Wacht am Rhein* الا اذا بنشيد هوفمان دي فالرسليبن : « المانيا فوق الجميع » يدوي عالياً مطالباً بالمانيا واحدة موحدة :

من الموز الى النيمن

من الاديج الى البلت

فمن هذا الريفي السلافي الذي يشدو متغنياً ويرقص معبراً عن تعلقه الشديد بهذا المـــاضي المجيد ، الى هذا العالم الالماني الذي يكتشف بغبطة ويفهرس ويفسر ويشرح بشغف هـــذه النصوص والوثائق التي تشهد عالياً بخلود ثقافته الوطنية ، تم عمل عظيم ساعد كثيراً ، شيئاً فشيئاً ، على ابراز سمات ارض هذه الجماعات التي تجيش في صدورها الرغبة في الظهور والتجلي وعلى اثبات ما أوتيت من نشاط زاخر وما فيها من العضلات المفتولة . وهذه المطالب الوطنية تتجند في سبيل تحقيقها اجيال متعاقبة من الكفاءات والطاقات المشحونة المتعددة الالوان ، فتوحي الشعر وتحرك الاطماع السياسية وتسخر الموسيقى ، وتجند الغناء ، والرسم ، والتصوير والنقش والحفر ، وتستغل القانون والاقتصاد السياسي . وكل شعب من هذه الشعوب يهيم بليلاه ويغني على هواه .

فالهوى او الغرض قلما يعمل في قلب هذه الشعوب التي لم يكن لديها من سبب يحملها على التذمر من هذه القرارات التي اتخذت عام ١٨١٥ . فالكبرياء التي يحمل جون بول (انكلترا) يتيه عجباً وهو المعروف بكرهه لكل ما هو فرنسي ، لا قبل لها بهذه المطالب التي تعلن عنها

ايرلندا الفتاة ، كما ان السويد لا يمكن ان تهضم او ان تتقبل اي فكرة ترمي لتسع المشارحة بينها وبين النرويج، والداغارك ليست على استعداد للاصغاء الى اي مطلب الماني يرمي لاسترداد مقاطعتي شلسويغ وهولشتاين . ولم تكن هولندا احسن استعداداً لتسليم بانفصال بلجيكا عنها. وايطاليا تتحرك وتفور جنباتها تحت تأثير الحركة الانتفاضية التحررية التي اطلقتها جمعية الفحامين السرية . الا ان قيام الدولة البابوية عليها جعلتها تواجه مشكلة وجدان ، فراحت الرومنطيقية القومية تبث في شبه الجزيرة « *Italia fara da se* » ايطاليا فخورة بذاتها. فخورة لعمري الا ان لا امر لها ولا شأن ، وكثيراً ما أطل عليها النهار بفجر الم . والحركة الالمانية المتأرجحة بين بروسيا والنمسا وعدد من الامراء من الصف الثاني، والتي تتقاذفها البروتستانتية والكاثوليكية والمتمرجحة بين الاتحاد الجمركي والسوق النمساوية، والمشبعة بروح التقليدية القضالية تحلم بتحويل هذا الـ *Bund* العاجز، المستضعف، الى رايخ تجهل تماماً ما اذا كان سيأتي على نطاق المانيا العظمى او المانيا الصغرى. واطل البعث السلافي على العالم على اثر اتصاله بالعلم الالماني ، كحركة رجعية قامت في وجه الروح الالمانية المتبطرة ، رافعاً لوائي العلم والفن، مستعيناً على تحقيق اغراضه الوطنية . بالفيلولوجيا تارة ، والشعر طوراً، هذا الشعر الذي يرقص على انغام موسيقى جياشة. فليس افضل من شوبين على لعب دور السفير المتجول الذي يبعث الاسى اينما حل، وينشر الشجى في قلب شعب خذلت اقداره فتعس . الا ان وقوع القوميات السلافية في اوروبا الوسطى تحت سيطرة عدد من الدول القومية جعلها في حيرة من امرها لا تعرف ما ذا كانت تستجيب للدعوة العقلية : قيصرية كانت ام ثورية ، او انها تنضم تحت جناح شقيقتهم الكبرى روسيا التي تُقلق منها البال وتُشغل الخاطر .

واوروبا الفتاة هذه ، سواء رهبوا امرها او رغبوا فيها ، ذات الملامح الغامضة تستبد بقلوب السياسيين ، وتشغل بال الدبلوماسيين ، فتغزو الادب وتوحي الفنون . فقد بذلت دماً غالياً ذكياً من هذه الاضاحي والشهداء تقدمهم قرابين على هيكل الفداء ، وقام من بينها الابطال يناضلون ويكافحون في سبيل الرؤى الحلوة والاحلام المعسولة، فنزح بنوها بالألوف . وقد احسنت باريس وفادتهم. فها هو متسيافتش يغنينا امجاد بولونيا ويصف لنا اخلاق وعادات واعراف بولونيا هذه، المضطهدة والمهيضة الجناح والتي لا تُغلب مع ذلك ولا تُقهر. وهاهو هاين حفي بهذه الصداقة والضيافة بعد ان رفرتها له المدينة المضيافة غِبّ انتفهت واكتنهت سره، هذا الانسان اللطيف الذي تخيفه غرائز ما وراء الرين الحربية ، واخوة « حلف الشعوب المقدس » ، الذي يحيي بيرانجيه طلوعه، والذي يحتفظ فيه كل من كينه وميشليه لالمانيا هردر بمركز ممتاز . يا لها من فكرة جبارة !

من لا يعلق قلبه وعقله بحب هذه الامة الكبيرة كما يتصورها ميشليه ويشيد بها ؟ فموذجي ، مثالي ، على كل حال ، كتابه الضخم « تاريخ فرنسا » الذي انتهى من وضعه ، بطله الاول

والأخير هو الشعب الفرنسي ، وليس غير الشعب الفرنسي بنزواته وغضبه ، بأفراحه واتراحه بأحزانه ومباهجه ، هذا الشعب الجاهد الصابر ، الحبيب الى قلوب ابنائه .

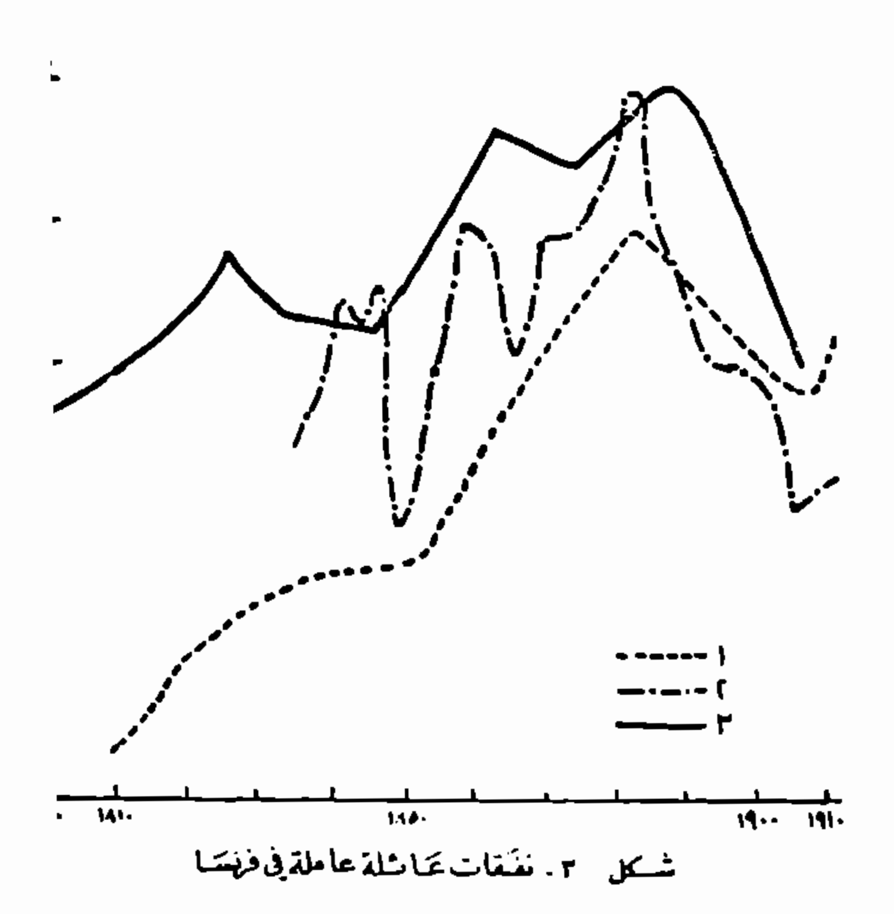
وضع العامل الصنع بؤس البروليتاريا

اخذ البعض يتساءل عما اذا كان الوطن يعير اي انتباه لهؤلاء الذين يعولون في تحصيل أودهم على سواعدهم وقوامم البدنية . فالريف لا يزال يحتضن عدداً كبيراً من اصحاب الحرف الصغيرة الذي ليس بوسعه ان يستغني عنهم فحسب ، بل انه في الريف ايضاً اشياء كثيرة تصنع فيه لها أصواتها وعدتها يقتضي لها الكثير من الوقت والعناء والمراس الطويل لتدر على صاحبها دخلاً متواضعاً يدخل المسرة الى نفسه ويعتبره مسعفاً في تحمل اعباء الحياة. ومن الامور التي استأثرت بالانتباه والملاحظة وضع عمال النسيج ، هؤلاء العمال الذين يعملون معزولين ، فرادى في القرى والدساكر ، وضع يأتي دون وضع العمال في المدن المتمركزين في المصانع والمعامل ، يخلدون التقاليد التي سجلتها مصنوعاتهم الفنية من الابنوسيات والبرونزيات والخزفيات والزجاجيات والمنقوشات فبرزوا نخبة مختارة من رجال الفن والصنعة . وهذا العامل ليس أسوأ وضعاً من وضع زميله او رصيفه عامل النسيج في انكلترا وفي مقاطعات الفلاندر او رينانيا او سيليزيا . الا اننا نرى في بعض الاوساط التي يتمركز حولها العمال ، في المناجم مثلاً او في مصانع حياكة الاجواخ او معامل صناعة الحديد ان العامل الذي يتناول اجره من صاحب العمل تقلقه مزاحمة الآلة له وتزيد من اليد العاملة بكثرة . ويلاحظ احد علماء الاقتصاد والاحرار هو ادولف بلانكي ، عام ١٨٤٨ « ان الصناعة اخذت تتمركز حول معامل ضخمة هي اشبه ما تكون بقشلاقات او سرايات او اديار ، يتكدس العمال فيها بالمئات ، واحياناً بالألوف ، يعملون في عنابر يصرّد فيها النور والهواء تصريداً ، يرتبط فيها العمل بالآلة ، فيبقى مثلها ، عرضة للعدثان ولتقلبات المرض والطلب » .

فمع تباين ظروف العيش تبايناً ملحوظاً بين بلد وبلد ، وبين حرفة وحرفة ومهنة ومهنة ، فمن الثابت على العموم هو ان هذه الظروف لم يطرأ عليها أي تحسن يذكر في القسم الأول من هذا القرن ، بينما تكاليف العيش السنوية لدى الاسرة العاملة ، في فرنسا مثلاً كانت دوماً بارتفاع مطرد الى عام ١٨٢٥ وما تكاد تنتهي إلى اقرار حتى تأخذ بالهبوط فيها بعد[1] . فمعدل كلفة الحياة يرتفع اكثر بكثير من معدل الاجر الحقيقي الذي يدفع للعامل ، فمرتب عامل المنجم الذي كان ١٠٠ عام ١٨٩٢ ، كان ٣٦ عام ١٨٠٥ ، و ٤٢ عام ١٨٣٠ و ٤٩ عام ١٨٥٠ . وقد حدث هبوط في قطاع النسيج لا يمكن تجاهله او نكرانه . فمن ٨٠ عام ١٨٠٠ هبط الى ٦٥ عام ١٨٢٠ ، والى ٤٠ عام ١٨٢٧ ، والى ٤٥ عام ١٨٥٠ . والأدلة كثيرة تشهد غالباً على ما في هذا القطاع من تفاوت وتناقض ومفارقات . فالعامل في مصانع كروس - روس في مدينة

(١) راجع الكشوف البيانية الثبتة في الصفحات (٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠) .

ليون الذي يعمل في صناعة الحرير ، هبط اجره الى النصف في هذه الازمة – ازمة الم
التي وقعت بين ١٨٢٤ – ١٨٣٠ . فدزينة المناديل في مدينة روان ، يتراوح ثمنها ،

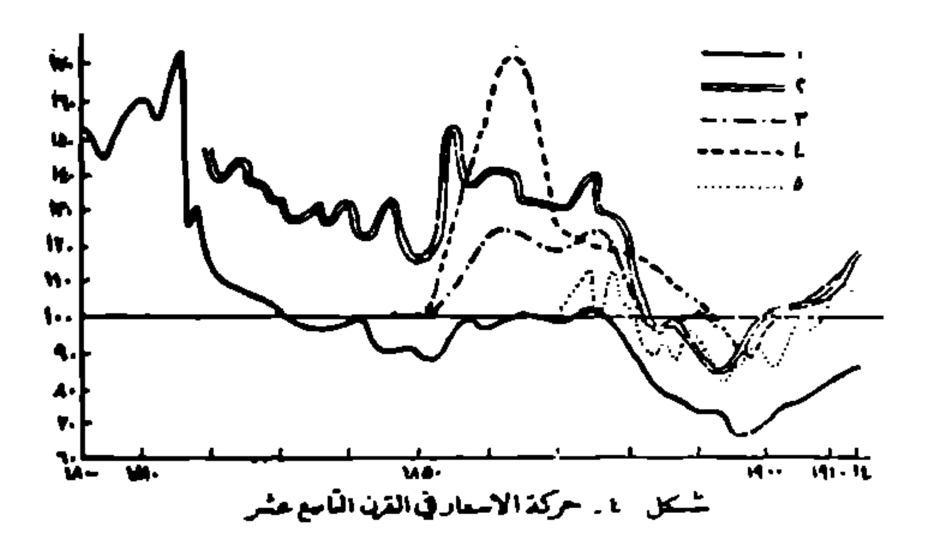


شكل ٣ . نفقات عائلة عاملة في فرنسا

١ ـ عائلة بدون اولاد ٢ ـ عائلة من ٩ اشخاص في باريس ـ ٣ ـ عائلة من ٤ اشخاص
(ماخوذ من الاحصاء العام في فرنسا . والدليل ١٠٠ وضع على اساس سنة ١٩٠٥ للحالة الاولى
اساس سنوات ١٨٩٥ ـ ١٩٠٠ للحالة الثانية ، وعلى اساس سنة ١٩٠٨ للحالة الثالثة .

عرض المنديل من ٥ – ٣٠ فرنكاً ، عام ١٨١٥ ، بينما هبط ثمنها الى سعر يتراوح بين
ونصف و ١ فرنكات ونصف عام ١٨٣٠ . اما في انكلترا ، فعامل النسيج الذي يعمل في
كان ربحه في الاسبوع ، عام ١٨١٠ يتراوح بين ٧–٩ شلن بينما بلغ ربحه ٣٠ شلناً حوالي .
والرقم القياسي عند سوبربيك يشير الى هبوط في هذه الحقبة ، في اسعار البضائع وال
فالرقم القياسي هو ٩٣ لفترة ما بين ١٨٣٨ – ١٨٤٧ ، بينما كان ١١١ في السنوات بين ١٨

١٨٢٧ ، فكان باستطاعة العامل المذكور ان يحصل على الكمية نفسها من دقيق القرية والعصيدة، بينما يحصل على نصف هذه الكمية من دقيق القمح ومن الزبدة . اما اللحم ، اما الجعة فلا اثر لها على مائدته .

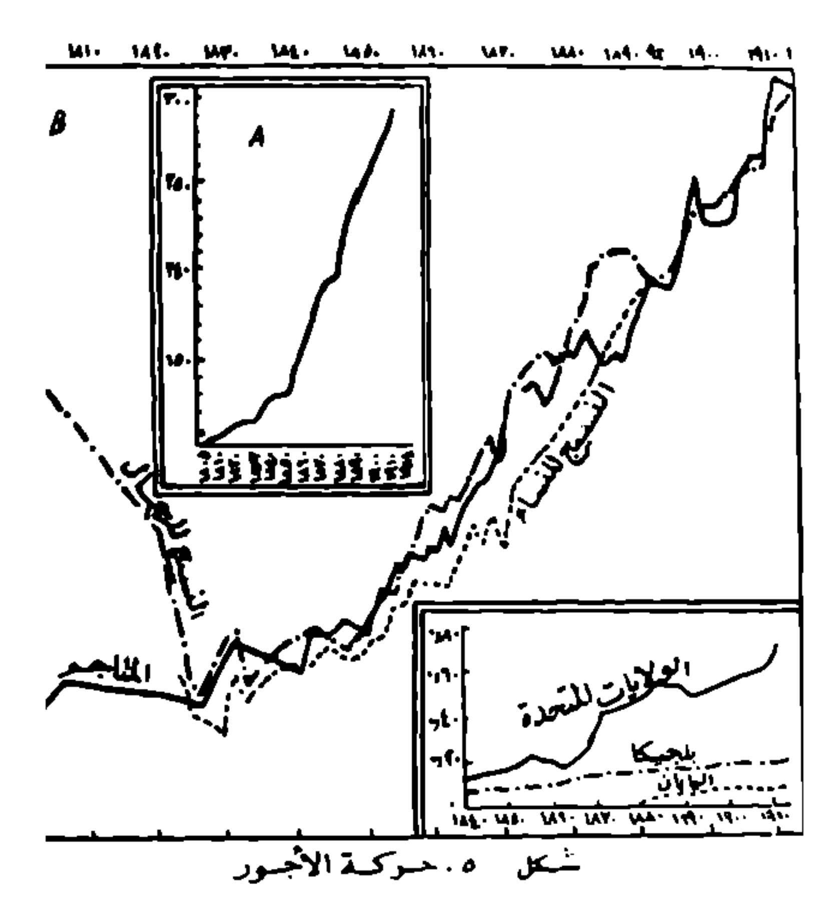


شكل ٤ ـ حركة الاسعار في القرن التاسع عشر

١ ـ وفقاً لدليل سلبرلنغ وسوربيك : سعر الجملة البريطاني (معدل ١٠٠ : ١٨٦٦ ـ ٧٧) .
٢ ـ سعر الجملة الفرنسي وفقاً للاحصاء العام في فرنسا (معدل ١٠٠ : ١٩٠٠ ـ ١٩٠١) .
٣ ـ وفقاً لمعدل شاقلي جرنز : الاسعار البريطانية (معدل ١٠٠ : ١٨١٥ ـ ١٨٥٠) .
٤ ـ وفقاً لجداول الايكونوميست : الاسعار البريطانيا (معدل ١٠٠ : ١٨١٥ ـ ١٨٥٠) .
٥ ـ اسعار الجملة الايطالية : وفقاً لجدول فرساتي : الانتاج في ايطاليا (معدل ١٠٠ : ١٨٧٠).

حري بالملاحظة هنا هذا العدد من المطبوعات التي اخذت تطـــل علينا منذ عام ١٨٣٠ واصفة البؤس الذي تتردى فيه الطبقة الكادحة . ان تحديد الحياة عند العامل في مدينة نانت : « ان تحيى هو ان لا تموت» كما يؤكد لنا ذلك الدكتور غيبان عام ١٨٣٥ . وهذا الوصف يشدد بالاخص على الظروف القاسية التي تكتنف العمل : حرارة مرتفعة او واطية ، عدم توفر النور ضيق المبنى ، ورطوبة المكان ، مضار المواد المستعملة وأذاها في صحة العامل ، لاختلاط الجنسين والاعمار . ويلاحظ ادولف بلانكي « ان العاملات في مصانع كروس ـ روس تربح الواحدة منهن « ٣٠٠ فرنك في السنة ، بمعدل ١١ ساعة عمل في اليوم الواحد على انوال تكون معهـــا العاملة مربوطة بسير من الجلد ومعلقة بحيث تستطيع استخدام رجليها ويديها معاً في هـــذه الحركة الدائمة المتراقتة التي لا بد منها لتنسج ما وزنه غالون » . وفي احد معامل النسيج في مدينة أنسي ، جاء في احدى العرائض المؤرخة عام ١٨١٨ ما يلي : « هنالك مراقبون لا

بدان لهم ولا خبير » يسمون العمال والعاملات المكلفين بأشغال الوصل» القسوة الفا
عدداً كبيراً مهماً يقضون نحبهم تحت الضرب المبرح » . ولكن اي زريبة يجد ا
روجه من المعمل ؟ قليلون جداً أرباب العمل الذين يعنون ببناء منازل لائقة الـ



شكل ٥ . حركة الأجور

A - دليل الاجور في فرنسا ، المعدل ١٠٠ : ١٨٠٩ (وفقاً للاحصاء العام في فرنسا)
B - الاجور في فرنسا في المناجم وصناعة النسيج ؛ معدل ١٠٠ : ١٨٩٢ (وفقاً للجداول التي
سيان تحت عنوان : الاجر والتطور الاجتماعي والنقد) .
C - الاجور بالساعة في حياكة المنسوجات القطنية (وفقاً للجداول التي وضعها ف. فان هوت
تطور صناعة النسيج في بلجيكا وفي العالم) .

ا العمال . فالقبو او الكهف ينتظرهم في مدينة ليل وفي ليفربول » والزريبة في د
نس وروان » والبيت الخرب العالي الجدران النتن الساحة في ليون . وفي الداخل

الفتى فلا عرف الشرشف او الحرام غطاء في الليل ، حيث يستلقي رازحين ، لصيق ، شخصان او ثلاثة ، «يصعب عليك وصفه ، او التعرف اليه »، مما وقفت عليه انظار ادولف بلانكي في روان وشاهده مارتن نادو لدى البنائين العاملين في معمل كروز ، في باريس ، او هذا المراقب على زرائب عمال الحياكة الفلمنكيين . فخلال المجاعة التي اشتدت وطأتها عام ١٨٤٥ – ١٨٤٦، يأخذ العمال بنبش جيف الخيل ويتناهشون في مخاطفهم الكلاب والهررة ، ويلاحظ عدد من المسافرين ان العاملة في انكلترا تنتفخ سحنتها من كرع كؤوس مشروب الجن، كما ان شعرها وسخ قذر . وكثيراً ما يصادف ادولف بلانكي في روحاته وغدواته في روان اولاداً : «شاخوا وهم بعد احداث ،... ضمرت اجسادهم وقصرت قاماتهم بحيث لا يستطيع المرء ان يتبين، ولو بصورة تقريبية ، اعمارهم كما يجد في مدينة ليل ، صبية احدودبت ظهورهم وتلوت اجسامهم ، وشوهت اعضاؤهم ، معظمهم عرايا ليس ما يتزرون به ، وقد فشت بينهم الامراض على اختلاف انواعها : كرض الخنازير والزهري والتدرن الرئوي وراحت تحصدهم حصداً بعد ان تأصل فيهم الادمان على المسكرات واعتبر بغاء البنات من الموارد العادية التي يعولن عليها عادة».

فمن اصل ٣ مواليد في باريس واحد منها يولد سفاحاً ، وواحد من ٥ في مدينة ميلهوز ، عام ١٨٢٧ ، ويموت منهم قبل أن يبلغ الخامسة الثلث في بعض شوارع ليل . ويروي لنا أشيل بينو « أن معظم العمال يشاهدون اولادهم يموتون دون ان يبالوا بشيء واحياناً بكل ارتياح» ، كما ان البعض منهم يعتبر نفسه سعيداً ومحظوظاً اذا ما وجد عملاً له، الا ان بينهم من يهرب من العمل ويتفاداه . وعلى كل فالمستعطون والمتشردون الذين لا حرفة لهم ولا عمل تغص بهم الازقة والطرقات كما في الماضي . ان محافظة الاور–واللوار كانت تضم ، عام ١٨٣٣، نحواً من ١٧،٥١٦ معوزاً بينهم ٨٨٦١ من المستعطين . وفي عام ١٨٣٩ ، ارتفع عدد من يلتمس الصدقة الى ١١،٦٧٧، وفي سنة ١٨٤٥ ، كان من المطلوب مد يد المساعدة وتأمين الاسعافات ﻟ ١١٤٣ من اصل ٦٨٥٢ في مدينة نوجان - له – روترو . وفي عام ١٨٢٨ ، هنالك في محافظة الشمال ١٦٣،٠٠٠ عامل من اصل ٢٢٤،٠٠٠ سجلة اسماؤهم في سجلات الاحسان والاسعاف . وفي كتابه : «بين الماضي والحاضر » يرينا كارليل انكلترا تختنق بالغنى والثراء الفاحش ، بينما هنالك مليونان في اصلاحيات الاحداث ، و ١،٤٠٠،٠٠٠ من المعوزين الجياع . « هنالك طيف بشع يزحف على صدر اوروبا هو طيف الشيوعية » . كما يؤكد ماركس في بيانه ، عدا عن خطر الاملاق والفقر المدقع .

تنظيم العمال
الاضطرابات العمالية العفوية

فالشعور بعدم الاطمئنان والخوف من الوقوع فريسة البؤس لاعجز من ان تحمل العامل على الاخلاد للاستكانة والركون الى الدعة والسكون . ففي المانيا حيث التحسس بالروح النقابية او المهنية لا يزال حياً في النفوس ، فقد اتخذ اصحاب الحرف القديمة الطراز من هذا الشعور

"تكأة" لهم لتنظيم صفوفهم والصمود في وجه القانون الذي ينظم المنافسة الحرة في مجال العمل . وقد بقيت قوية وطيدة ، هذه الرابطات او الجمعيات المهنية ، مثل: رابطة ابناء سليمان المعروف اعضاؤها باسم « Gavots » ، ورفاق العمل ، ومورة فرنسا وغيرها التي مهما بلغت بينهما المصالح الخاصة لا تزال مع ذلك تشدها عاطفة من التضامن والتعاضد بين ابناء المهنة الواحدة ، والعمل على توجيهم التوجيه الصحيح .

وفي وسط هذه الجمعيات والأخويات الحرفية اختمرت الفكرة النقابية التي من اهدافها الرئيسية السعي لتخفيف من الاضرار والاذى التي يتعرض لها ابناء المهنة : كحوادث العمل ، والمرض والبطالة ، وذلك عن طريق الصناديق الخيرية التي تغذيها التبرعات . وقد عدت باريس وحدها في عهد عودة الشرعية الى البلاد ، ١٣٢ جمعية مهنية تحت ١١،٠٠٠ عضو بينهم ٢٦٠٠ من عمال المطابع الا ان هذه الجمعيات تفتح ابواب عضويتها على الاخص للعمال الذين لمت لهم الخبرات الفنية وبعض المهارات بعد ان توفرت لهم درجة ما من التنظيم ايقظت فيهم روحاً اقتصادية . واولى التعاونيات التي ظهرت في الولايات المتحدة وفي انكلترا جاءت وفقاً لأوينيّة، هذا المذهب الذي قام وفقاً لنظريات Owen في الوقت الذي طلعت في فرنسا احدى هذه التعاونيات باسم « الرواد المنصفون » التي اتخذت اساساً لنشاطها المبادىء التي قال بها وهلم روشدال ، كما قامت تعاونية اخرى على اساس المبادىء التي قالت بها المدرسة البوشيزيانية التي كانت تطالب بادارة حكيمة . والاتحاد النقابي الوطني الكبير الذي بني عليه أوين آمالاً كبيرة ، والذي اصيب بالتفسخ والانحلال من كثرة المطالب والاهداف التي وضعها نصب اعينه . فلم يجن بعد طلوع عهد النقابية حتى السلبية منها والنفعية .

فالعمال وأصحاب المهن مقتنعون جميعهم بالضرر والاساءة التي تسببها لهم الآلة . فالآلة هي عدوتهم الاولى وخصمهم الكبير ومنافستهم الجديدة . فمن انكلترا حيث عم استعمال الآلة في اوائل القرن التاسع عشر ، اطلت على دنيا العمال نزعة لتحطيم الماكينات في المصانع[1]. فالعامل او الانسان الذي يعتمد كلياً على سواعده وقوته البدنية لكسب معاشه يقف ، وهذا امر طبيعي ، في وجه كل قوة اخرى تزاحمه او تقف حائلاً دون تأمين معيشته ، او التي تتسبب في تخفيض اجره او مرتبه . ولذا تكاثرت حوادث تحطيم الماكينات والآلات في كل من فرنسا وبلجيكا وبريطانيا وسويسرا نفسها . فقد انطلقت الحركة من مدينة فرفييه في آب عام ١٨٣٠ ، مطالبة « بتحطيم الماكينات » . وعمال المطابع الذين تمردوا ضد الملك شارل العاشر في تموز ١٨٣٠ ، راحوا يطالبون بعد ذلك بسنة « بالتخلي عن المطابع الآلية » .

فالعهد عهد غليان يلف الريف والمدينة على السواء . وقد انضم عمال الكرمة في مدينة بيزنسون الى المظاهرات احتجاجاً على توحيد الرسوم ، عام ١٨٣٠ . والثورات البلجيكية التي نشبت في السنوات ١٨١٥ - ١٨٤٦ في المقاطعة الفلمنكية تحت المجتمعات الريفية كما تحت مدينة

عمّت . وهذه الفتن والاضطرابات التي تكرر وقوعها لا يقوم بها العمال الفحامون في منـاجم الزين او القوار او الفحامون في المناطق الانكليزية ، بل ايضاً اصحاب الحرف والعمال المياومون العاملون في المرافق الزراعية . وهكذا نرى العـمـال يمسكون عن العمل ويضربون في ولايات البيامونت ولمباردیا والبندقية ، في الاشهر الاولى من سنة ١٨٤٨ . وقد برزت الحركة تظاهرة في الشوارع على شاكلة مظاهرات الشوارع في الثورة الكبرى . فالعمال والصناع ينضمون الى اصحاب الدكاكين والمخازن والمستودعات والى جماعات البورجوازيين في الفتن التي وقعت عام ١٨٣٠ و ١٨٣٢ ، و ١٨٣٤ ، وفي شباط ١٨٤٨ ويثورون لشؤونهم الخاصة عـام ١٨٣١ وفي حزيران ١٨٤٨ .

قمعت السلطة الفتنة التي نشبت في ليون عام ١٨٣١ بعد مـا لاحظ المعاصرون ما للحادث من خطر وشأن . فقد كتب سان مارك جيراردن حول هذه الحادثة في جريدة الديبا قائلاً : ان الفتنة التي نشبت في ليون اظهرت الناس امراً خفياً هو هذا الصراع الداخلي في مجتمعنا والقائم بين طبقة الملاكين وطبقة الفقراء المعوزين . . . وراح يشهّر بـ « هؤلاء البرابرة »، من نوع خاص الذين « يشكلون خطراً » على هذا المجتمع « والقائمين في ضواحي مدننا الصناعية وأرباضهـا » . وهذه الكلمات ردد صداها ماركس في كتابه : « بؤس الفلسفة » حيث جاء « فالبربرية أطلت برأسها من جديد وطلعت هذه المرة علينا من احشاء حضارتنا واصبحت من اجزائها المقومة » . وهذا لا يعني قط ان نظرية سياسية جديدة هي التي تحفز العمال في صناعـة الحرير ، هؤلاء « المنبوذين » كما يصفهم لامرتين ، بل هذه النقابة التي دعا الى تأسيسها معلمو الورش والمصانع الحد من تعنت تجار الحرير والتي تعمل من وراء العمال وتعتبرهم رفاق عمل . الا ان جل ما يطلبه هؤلاء العمال المتمسكون بتقاليدهم المرعية هو رفع اجورهم . « نحن نجاهد ونكافـح لتأمين خبزنا اليومي ، ولتوفير العمل لنا » كما يصرحون . ولما كانوا يخشون عاقبة الحركات التي يقومون بها ، نراهم يتراجعون عن موقفهم ويفسحون بذلك المجال للجنود لاسترجاع المدينة التي سيطروا عليها مدة من الزمن . فقد اسفرت هذه الحركة عن سقوط اكثر من الف بين قتيـل وجريح ، الا ان اثنين حكم عليهما بالشنق بعد ان قبض عليهما الثوار وهما متلبسـان بجريمـة النهب والسلب . ومن الملاحظ انه لم تقع حوادث عنف على اصحاب الممتلكات الخاصة او العامة

وباستطاعة انجلس ان يشدد فيما بعد قائـلاً : « ان الصراع الطبقي بـين البروليتاريا والبورجوازية برز الى الصف الاول في تاريخ اكثر بلدان اوروبا تقدماً وتطوراً » .

حرية العمل والنضال دونها

واذ خشي محافظ الرون ان يرموه بتهمة الضعف ، رفع الى اولي الأمر تقريراً مسهباً جاء فيه : هنالك بين ٦٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ من العمال كانوا بالفعل يتضوررون بؤساً . فلم يكن بالامكان مقابلة مظاهرتهم السلمية اعراباً عن

مطالبهم المشروعة بإطلاق النار عليهم الا اذا كنا بالفعل ننوي النامم بالجملة ». فقد بلغ من شدة خوف اصحاب الاملاك » في باريس » عام ١٨٣٤ ان راح تيير يعلن عالياً : « لا مكان للرحمة قط » » كما راح الجنرال بوجو يصرح بدوره : « يجب قتل الجميع » لا رحمة على الاطـلاق . كونوا بدون شفقة ... يجب القضاء على ٣٠٠٠ من العصاة » . واذ ذاك وقفت مذابح شارع ترانسنونين . وقد جاءت حركة القمع » عام ١٨٤٨ » أشد منها واقوى .

فالمحافظة على النظام انما تعني التسييج حول العمل ومنع او حظر كل ما يمسه او يوقفـه . فالتشريعات الاجتماعية التي صدرت اذ ذاك في اي مكان » انزلت الاعتصاب بمنزلة الجناية » كما ان اي اخلال بالقوانين التي توصي باحترام الملكية وصيانتها كان جزاؤه التوقيف» وربما السجن مع الاشغال الشاقة . وقد تناولت احكام من هذا النوع » بضعة آلاف في السنة الواحدة .

فالمجتمع غير ملزم بمساعدةمن وقع فريسةالعوز» وتوفير ما يلزمن أرده دون ان يقوم بأي عمل . ولهذا استمرت انكلترا في اخذها بنظام فرض الاصلاحيات على المخالفين . فالحركة الاصلاحية التي ادخلت على « سجن البؤساء المعدمين » » عام ١٨٣٤ هي من بعض نتائج المساعي الجيدة التي قام بها المتأثرون بتعاليم بنتهام » والمنشقون عـن الكنيسة الانكليكانية في انكلـترا والاحرار من اتباع الـ *Broad Church* وبعض اعضاء حزب المحافظين الاجتماعيـين زاد صعوبة عملية الاختيار بين العمل الاجباري » والتشغيل في المدينة والمهاجرة . وهكذا نستطيع ان نتفهم اليوم بصورة ادق تعلق المحافظين الالمان بالروح التعاونية النقابية القديمة » هذه الروح التي عرفت كيف تصمد في وجه الاجراءات الاصلاحية التي حصلت بين ١٨٠٧ – ١٨١٢والتي رؤي اكثر من مرة جعلها الزامية .

اما في فرنسا حيث القوانين المعمول بها تحول دون بعث الروح النقابية » فقد راح بعض من الكاثوليك يقترحون» بعد ان تبينوا العجز الذي يشل عمل المؤسسات الخيرية الفرنسية » الاخذ بطريقة التحكيم وتشكيل مجالس نقابية مختلطة وانشاء تعاونيات . « علينا ان نشجع العامل على استكمال تهذيبه خلقياً وعلى اكتساب طبائع اكثر انسانية وذلك عن طريق تقوية وسائل التملك والحيازة عنده وانشاء توفيرات له » . هذا ما كتبه زوبير الكلفيني ومن رجـال الاعمال في الألزاس . ففي كل مكان ترتفع الدعوة مطالبة بالادخار والتوفير .

وقد عدت انكلترا نفسها مجدودة الحظ اذ انها تقدمت غيرها من الدول في وضـع قوانين العمل في المصانع» هذه القوانين التي خولت العمال حق الاحتكام لدى السلطات العامة عندما يتجاوز ارباب العمل حقوق الحريات المعطاة لهم » وهي قوانين ترمي لحماية الولد . وبالرغم من انشاء هيئة تفتيش خاصة بالعمل » كثيراً ما عبثوا بالنصوص المتعلقة بسن تشغيل الاولاد ومدى يوم العمل وضربوا بها عرض الحائط» ولا سيا الامتناع عن تشغيلهم ليـلاً » فيقضي المفتش او المراقب مأمور الشرطة عن المخالفات . وصدر قانون جديد » حدد بموجبه يوم العمل للولد

بست ساعات ونصف ، و ١٢ ساعة للنساء اللواتي حظر عليهن العمل في المناجم منذ عام ١٨٤٢، كما انه عملاً بأحكام الوثيقة ، نشطت الدعاية لاصدار قانون يجعل ساعات العمل في اليوم عشر ساعات فقط . واتخذت بروسيا الاجراءات الاولية التسييج حول مصلحة العمال الصغار ، الا انها جاءت غير وافية بالمرام . اما في فرنسا فاذا مـــا وقفت المؤسسات التشريعية الى جانب ارباب العمل لعدم وجود دائرة خاصة تعنى بالتفتيش ، فلم يكن هذا الموقف ليملي عليها وجوب التصرف في مصلحتهم . ولذا فقد اقرت الجمهورية الثانية قانون العمل بـ ١٢ ساعة عمـــل في اليوم .

احلال المدرسة محل المصنع ، سياسة تتفق ومتطلبات التقنية والاخلاقية . فغيزو البروتستانتي يلتقي هنا مع مطالب النحل الانكليكانية البريطانية . ولذا راح يقترح عام ١٨٣٣ المباشرة بتعليم مدرسي يتولاه اعيان من رجال الدين والدنيا . « لتحسين وضع العمال يجب قبل كل شيء تنقية نفوسهم وتوطيدها وتنويرها » . وراح مسيحي آخر مشهور هو مونتلمبير ، يعلق على هذه القضية قائلاً : « هنالك شيء ما تم في فرنسا مع تقدم التعليم العام : هو الحركة الاجرامية » .

الرومنطيقية الاجتماعية وانبياء المدينة الفاضلة

مما لا مراء فيه قط ان الجريمة الاجتماعية تـــلاقي السخط في اصحاب الضـــمائر الحية ، وتهيج المشاعر في القلوب الحساسة . وهذا الشعور الغامض في اعماق النفس يستحيل ، شيئاً فشيئاً عاطفة انسانية عارمة كما ان الرومنطيقية الوطنية تحتدم جذوتها امام التهمة التي يرمون بهـــا الوطنيين من انهم سيغدون غير مبالين بنداء الوطن . فالجمعيات والهيئات العامـــة في حقل الاصلاح الاجتماعي كثيرة هي، ولكل واحدة شعاراتها وتعاليمها ومراسمها ، وكلها تنطق باسم المسيحية وتنزل الله على الارض وترسم لنا صورة السيد المسيح متسربلاً بلباس الثوار ، بزي ابن البروليتاريا . فعلى البشارة الجديدة ان تُعلَن وبكرز بها بانتظار اليوم العظيم . فبعد اعلان حقوق الانســان وبعد اعلان ابناء الشعب ، والبيان الصادر عن *Les Egaux* ، يطل علينا قانون ايمـان السان سيمونيين وبيان الفورياريين المعنون : « الديموقراطية المسالمة » الى جانب الكتاب الذي اصدره برودون بعنوان : « ما هي الملكية »؟ الذي يخاطب فيه الطبقة الرابعة على شاكلة الاب سييس في تساؤله : « ما هي الطبقة الثالثة » ؟ ريثما يطلع علينا البيان الشيوعي والبيان المعروف ببيان الستين وبيان الدولية الاولى .

والشعراء الفنانون ، كل منهم مؤمن برسالته . فقد جمع احد رجال المال المعروفين هو اولند رودريغس من اتباع السان سيمونيين ، عام ١٨٤١ ، تحت عنوان : « قصائد العمال الاجتماعية ، نخبة من قصائد عامل اللبعات كلود دسو ، وقصائد الساعاتي لويس فستو ، والاسكافي دي لابرانت ، وعاملة التطريز اليزا فلوري ! والشاعر الغنائي بيرانجيه قـــدم لهم ديوانه الشعبي : « حورية القوافي » ! ووضع لامنيه على شرفهم « كتاب الشعب » ، وهو غير يطمئنهم من جهته

ويؤكد لهم قائلاً : « نحن كلنا عمال ، حتى الله نفسه . والفكر عندكم يجهد فوق ما الجهد اليد والتعب » . ولوكونت دي ليل ينشر في جريدة « لافالانج » العديد من القصائد ، والموسيقار ليست يضع للعزف قطعة يسميها « ليون » ، ويهديها العمال في صناعة الحرير ، تخليداً لثورتهم ولامرتين يكرس لهم احدى مؤلفاته (*Harmonies*) ويمتدح عالياً في مجلس النواب الممثل الوحيد لطبقة الحظ العاثر .

هنالك عدد كبير من الكتاب في المانيا الفتاة ، امثـــال بورن ، وهرويغ وفريليغرات يعبرون عن مثل الجماهير الشعبية ومطالبها ؛ والبؤس الذي يرسف فيه العمال اوحى الى توماس هود « انشودة القميص » كما اوحى لاليوت « قوافي قانون القمح » ، ولديكنز اروع المشاهد التي تهز المشاعر ، بعنوان : « الازمنة العصيبة » ولدزرائيلي روايته المشهورة « *Sybil* » الـتي تدور صفحاتها بالالوان والتي تدور حول واجبات الطبقة الارستوقراطية ، اذ من اول واجبات هذه الطبقة مد يد رفيقة للبائس ضد البورجوازي الذي لا شفقة عنده ولا رحمة . واستطـاع هرزن من ان يثني بكلنسكي عن مثاليته الفن للفن بحيث يكن المزيد من العطف على الشعب « اسوة بغارات » . وراح ايوتفوس ينادي بتحرير اليهود ، والغاء النظام الاقطاعي في هنغاريا ، وتصوير المجتمعات التي يخيم عليها البؤس اتخذ هو الآخر اتجاهاً مثيراً ، بينا حرص الطليعيون في الحركة الرومنطيقية على التماس الاخلاق العمالية شكلاً مثالياً . وعلى مثل هـذا النهج سار هاين في كتابه : « رحلة الى هارز » . لم يكن المطلوب منهم وضع خطة شاملة للاصلاح الا انهم وضعوا اصبعهم على الداء .

وهذه المرأة التي يشتد التعلق اليها والتي لا تزال مضطهدة ومزدراة في المجتمع ، تعبر بدقة عن مطالبها الرئيسية . فالاخوات برونتيه ينطقن بألسنة حداد ما تخفيه التقاليد المرعية من رياء . وتروي لنا فلورا تريستان ، هذه المرأة السفاح التي عرفت زواجاً مشؤوماً ، قصة حياة بائسة . ويشدد السان سيمونيون على وجوب تحرير شريكة الرجل ورفيقته . ويطالب كتاب معروفون امثال جورج صاند ودانيال ستيرن غير مبالين بهزء الهازئين وعذل العاذلين ، بحق المرأة في التعلم وحقها كمواطنة . وتقدمت نوادي السيدات وجمعياتها ، عام ١٨٤٨ بطلب المساواة وبالزواج الحر المبني على الحب المتبادل .

وقد رؤي ، تحريراً للرجل ، ان يصار الى تنظيم المجتمع من جديد . وهكذا قامت حركة رجعية ضد التحررية الطبيعية تمثلت في هذه النظريات والآراء حول التعاون والتعاضد . والسان سيمونيون يوصون باستخدام الدولة في هذا السبيل بعد ان يجردوها من شكلها السياسي ، كما يستخدمها لويس بلان لتحقيق الجمعيات العمالية ، الا ان أوين ينصح ابناء البروليتاريا بان يتدبروا امرهم بيدهم وان يحكموا جلدهم بظفرهم) ومدرسة فورييه لا تعتمد الا على التجمع الواعي او التلقائي ، كما يوصي برودون من جهته بالاعتماد على تبادل الخدمات . ومعظم هذه

المذاهب الاجتماعية كما يبدو اما انها لا تعلق اية اهمية على الآلة او الماكينة ، واما انها تعكس بوضوح النزعة المثالية . فهي تتمنى ، على العموم سعادة هادئة في احضان الطبيعة . وانبيـاء المستقبل السعيد هؤلاء المسالمون ، يرمون الى انقاذ البشرية من الاضطرابات ومن تشتيت القوى جزافاً بشكل لا يقل بشيء عن رغبتهم في انقاذهـا من البشاعة . فسان سيمون يشجب « استثمار الانسان للانسان » وهو اصطلاح يتبناه الكتاب ويمضي مثلا في الارض ، ويدعو كلا من المهندس والصيرفي والعامل الى التعاون العام للتغلب على البؤس . وهذه الشيوعية التي نادى أوين وكابه والتي تقام عن بسمة الامل لا تقل رضى عن الديموقراطية المسالمة التي نادى بها أتباع فورييه ، عدوة العنف . ومقابل « الانسجامات البشرية » للامرتين ، والانسجامات الاقتصادية لبستيا ، يجب ان نذكر الانسجامات الاجتماعية التي قال بها اصحاب هذه النظريات . فراح البعض يصفهم بأنهم غـير واقعيين او خياليين ، اذ انهم كما يقول فيهم انجلس : « لا مندوحة لهم من التعويل على العقل لوضع اسس بنائهم الاجتماعي الجديد » . فالخط الذي رسموه يلتقي بتوماس مور عبر فلاسفة القرن الثامن عشر .

ماركس وردة الفعل التي قام بها

من بين هذه النداءات التي طلعت علينا ، هذا النداء الذي أحدث اكبر واضخم دوي في العالم والذي اطلقه ماركس بعنوان : « نداء الحزب الشيوعي » بعد ان تعاون على وضعه في اواخر عام ١٨٤٧ ، كل من كارل ماركس وفريدريك انجلس ، كلاهما عضو في هذا الفريق الثوري الالماني ، من سكان مقاطعة رينانيا ، العامل في المنفى . كان ثانيهما ابن عامل يعمل في صناعة النسيج ، نشر بحثاً بعنوان : « وضع الطبقة العاملة في انكلترا » ، عقب اقامته القصيرة في منشستر درس خلالها التنظيم الذي كانت عليه الصناعة في تلك البلاد . « فقد ظهر له - كما يؤكد لنا - بأن الامور الاقتصادية التي لم يعرها التاريخ ، حتى ذاك ، أي وزن وكاد يجهلها بالمرة ، تؤلف ، أقـله في عالمنا الحديث ، قوة تاريخية حاسمة هي اساس الصراع القائم اليوم بين الطبقات » . اما الاول منهما ، فهو سليل اسرة بورجوازية من اصل يهودي وعلى مذهب هيغل الفلسفي ، خرج من نقده للمثالية التي قال بهـا هيغل ، الى نقد الاقتصاد السياسي . فبعد ان احتفظ من الفلسفة الهيغلية بالنهج الديالكتيكي الذي يحسب حساباً كبيراً للحقيقة المتغيرة وانتهى للقول بفلسفة مادية غير اخلاقية ولا فردية - كما يقول النفسيون - بل تاريخية ، اي انها ترى في العلاقات الاجتماعية القائمة نتيجة احتياجات انسانية وذرائعها المتحركة . وبعد ان اتخذ موقفاً له المبدأ القائل : « بأن ليس ضمير الانسان هو الذي يحدد نهجه في هذا الوجود ، بل ان النهج الذي يسير عليه الانسان هو الذي يحـدد ضميره » ، راح يؤكد مع الجناح اليساري الهيغلية ، ان الانسان هو الذي يخلـق فيه فكرة الله وليس الله هو الذي يخلق الانسان . وهكذا وصل الى فكرة تحول الانسان . وهذا التحول ليس في وسع الانسان منعه الا بتغلبه على المتناقضات الحاصلة من صراعه مع الطبيعة ، وبتجـاوزه

المستعر للظروف الخاصة التي تكتنف حياته . فاذا ما رأى نفسه ، في آخر المطاف مضطراً ليعلن في بيانه « بأن تاريخ المجتمع البشري برمته ، لم يكن حتى يومنا هذا سوى تاريخ طبقاته المتصارعة فيا بينها » ، فلأن هذه الطبقات تتكيف ومنه الفئات الاجتماعية هي التي تتصارع فيا بينها، وصولاً منها للتحكم بوسائل الانتاج . ففي مجتمعنا البشري اليوم يقوم صراع بين الطبقة البورجوازية والطبقة الاقطاعية ، كل منها تعتمد نظاماً اقتصادياً خاصاً بها . فبمجرد استيلائها على الملكية العقارية ، تؤلف البورجوازية ، بالضرورة ، طبقة خاصة او منازعة ، بينما تروح البروليتاريا تسعى بالضرورة ، هي الاخرى ، تأميناً لحريتها ، للقضاء على هذه الخصومة التي تسببت بانشاء البروليتاريا . وقد تبين ماركس في الدولة الحديثة فريسة او آلة في خدمة الطبقة المسيطرة . ففي تحطيمه لها تحرير بالتالي، للانسان . الا ان الفرد لا يمكن ان يتحرر الا ضمن طبقته وبواسطتها . نحن هنا امام غائية انسانية يرجى منها ان يبلغ الفرد البشري تفتحه الكامل في مجتمع لا اثر للطبقات فيه . ففي البروليتاريا مناط هذا الامل المعسول . ومع اسقاطها مبدأ العدالة ، فالماركسية لا تتعرى ، والحالة هذه ، من كل مثالية .

ومها جاءت فكرة ماركس ونظريته الفلسفية ، اصيلة فهي تتصل بنظريات ريكاردو حول الدخل والربح والاجر ، ونظريات سيسموندي حول تجريد الرأسمالي لصاحب الاجر، من كل شيء . فهي تعيد الى الاذهان اقوال بيكور الذي كثيراً ما ردد بأن الآلة تفضي الى الحشد في الصناعة ، وهذا الاخير الى وجوب وضع آلة الانتاج تحت مالكية المجتمع وسيطرته . فأمام ما نرى من مفارقات البذخ والبؤس في البلدان الأكثر تطوراً في اقتصادياتها التي تنهض على التبادل التجاري الحر ، نرى بالاضافة الى ذلك ، هذا الاقتصاد يجيش بعوامل وتفاعلات ثورية من جراء تصادم المجتمعات الديمقراطية والراديكالية، والطوباوية والرائقية . فلا يمكن فصمها عن هذه الحركة الدولية التي تعمل ضد النظام القائم الذي اتخذ محاوره الكبرى في كل من لندن وبروكسل ولا سيما باريس . فقد كان لاقامة ماركس في باريس ومكثه الطويل فيها، تأثير عميق على بنيانه السياسي .

الديمقراطيون والثوريون
الراديكالية والرائقية

تجر العجلة الصناعية التي تزداد سرعة يوماً بعد يوم وبشكل لا يقاوم (ميشليه ، ١٨٣١) وراءها القوى الديمقراطية التي تعتمدها الروح التحررية في صراعها ضد النظام القديم ، وادهى ما تخشاه هو ان يتم طلوعها . وهكذا تسبيت البورجوازية في بعث الطبقة الرابعة ، وليس من يدري قط ما اذا كان بالامكان تأمين الاتفاق فيما بينها ، وفي اي مكان ، في هذه الشعوب التي تعتمد النظام النيابي او التمثيلي .

ليست الديمقراطية في الظاهر سوى فرد تشبع بالروح التحررية ويسلم بالاقتراع العام . «صوت الشعب هو من صوت الله» ، هتف الشاعر ، وعبثاً يتحدث لامرتين عن القفز في المجهول،

فهو لا يسعه الا التسليم بأن الامر قضي به على هذا الشكل . يحدثنا كورمنين عن « الايمان بسيادة الشعب » . ولكن هذه الرمزية ، يعارف ارستوقراطيون مشهود لهم بالاطلاع الواسع امثال شاتوبريان وتوكفيل ، بما لها من قوة وسحر ، لنهوضها على المنطق واعتمادهــا عليه . فالاقتراع الشعبي المستنير المثقف ، من شأنه ان يلي ، في اضعف الايمان ، من العنف ، وان يطأطىء برأسه امام الكفاءات .

فمهما بلغ من غموض النظام الجمهوري ، فالمعاصرون الذين عاشوا تجربته المريرة يعيدون الى الاذهان ، ذكر الحوادث الكالحة التي حدثت عام ١٧٩٣ . اما في ايطاليا والمانيا ، فحظ هذين البلدين منها مربوط بقدرتهما على تحقيق وحدة الامة. كذلك شأن اي انسان يرد الحروب الى خناقات الملوك بعضهم مع بعض ، يتمنى من الصميم طلوع عهد الجمهورية العامة .

أما فرنسا ، فالبلبلة السائدة فيها يغذيهــا هذا الوضع الديموقراطي الخــاص القائم على النظرية النابوليونية . صحيح ان روبسبيير وسان جوست ، لهــما هما الآخران ، انصارهما ومريدوهما . غير ان نابوليون فهو يتمتع في البلاد بشيء اشبه ما يكون بالعبادة وقد رسخت على الأصل واعرقت بين صفوف صغار القوم على الاخص . ففــي حــالة وقوع اي اضطراب ، فالوريث الشرعي لهذه الاسطورة التي تأخذ بمجامع القلوب يبرز للجميع كالمنقذ الوحيد للنظام ، هذا النظام الذي يراه قادراً على الخلق والتجديد . فاللبس والغموض يفيدانه ويزيــدان من الحنين اليه والتلهف عليه . « عد نابوليون ، وانزل قصرك وكن ابناً باراً للجمهورية » ، هذا ما كانت تردده احدى الاغنيات الشعبية ، عام ١٨٤٨ .

فاذا لم يقم في انكلترا ما يمس بعاطفة الولاء للنظام الملكي ، هذا النظام الذي وطد اركانه وشدد من دعائمه حكم الملكة فكتوريا السديد وادارتها الرشيدة ، فالقلق الاجتماعي المسيطر على البلاد يضع وجهاً لوجه هذا النصف مليون من اثرياء القوم هنالك، اصحاب الامتيــازات والاعفاءات ، مع هذه الملايين الثمانية من الفقراء المعوزين . فقد ساد تلك البلاد مزاج خاص من الراديكالية المتصلة بحبل وثيق بالبيوريتانية المتزمتة التي يتردد على لسانها القول المأثور : العمل صــلاة » ، شعار ديموقراطية الاكفاء أمام الله . وبفضل الحالة الفقرية الآخــذة بالاحتدام ، تستبد بالأفكار اكثر فأكثر، فكرة الصراع الاجتماعي المكشوف الذي يدعو اليه علانية فرغوس اوكنور ، وفرونتير اوبريان ، وكلاهما ايرلنديان ، ومن ابناء ايرلندا المتحررين ، راح الاخير يترجم الى الانكليزية كتاب بيوناروتي عن بابوف ، فربط بين برامة الشعب التي تطــالب بالاقتراع العام ، والغاء طبقة اللوردات ، وبين وثيقة اعلان حقوق الانسان التي صــدرت في فرنسا عام ١٧٩٣ . غير ان الصدام العنيف المتوقع لم يحدث وذلك لاضطرار زعماء الوثيقــة التسليم بأن كوبدن وبيل بكسبهما معركة الرغيف بسعر رخيص ، اقاما الدليل على ان امام النظام الرأسمالي دور كبير يجب ان يلعبه . فالمجلس الذي وضع آنذاك كتابه حول الطبقــة

العاملة في انكلترا ، وماركس عضو العصبة الشيوعية فكرا عميقاً بنتائج موقفهما هذا . وهكذا ختما بيانهما بالدعوة الى تضامن البروليتاريا في جميع انحاء العالم ومسا بحاجة لمناصرة الثورة والوقوف الى جانب الثوار في القارة . فاذا ما راح الراديكاليون في فرنسا على طريقة لودري - رولن ، يشجبون بحماس ، اكثر مما جرى في المانيا ، الاشتراكية (استعمل هذا الاصطلاح لأول مرة ، عام ١٨٣٧) فلم يتورعوا عن التحدث عن الجمهورية الديموقراطية والاشتراكية . ومهما يكن ، هنالك في باريس اوغست بيانكي وانصاره ، وكلهم شيوعيون ملحدون ، يعتقدون بوجود مؤامرة انقاذ . والحال فقد لعب فيليبو بيوناروتي ، حتى ساعته الاخيرة ، دوراً بارزاً ، اذ كان بمثابة اداة وصل بين جمعية الفحامين والبيانكيين والوائليين ، وبين اليعقوبيين والبابوفيين من أنصار الثورة الفرنسية ، وبين دعاة اليعقوبية الجديدة وانصار البابوفية الجديدة الذين أخذوا يعون اكثر فأكثر ، القطيعة القائمة بين البورجوازية والبروليتاريا .

عهد الجمعيات السرية والدسائس وثورات الشوارع في اوروبا الغربية

في عهد سيطرة الحلف المقدس ، راحت المنظمات والفئات السرية التي وضعت نصب اعينها تقويض السلطات القائمة وهدمها ، تنظم صفوفها في الخفية . وقد رمت من وراء نشاطها السري هذا الى توفير عنصر المفاجأة ، وبغتة أطلت الفتنة برأسها ان لم نقل حركات الانقلابات العسكرية . انها أمر ضروري ولا شك ، ولكنهامزاج خاص ايضاً . فالرومنطيقية تتعشق الظلام والانقلابات العسكرية .

فاذا لم يكن من الراجح، الظن بأن مؤامرة ماسونية كانت وراء ثورة عام ١٧٨٩،فليس ما يؤيد الادعاء كذلك بأن الماسونية هي التي بثت الحركات الثورية التي وقعت بعد الثورة الكبرى بأربعين او بستين سنة . فقد اقامت لها علاقات صريحة مع الحكومات منذ اليوم الذي تقدمت منها بطلب التساهل الفعلي . فهي ثورة المسلك والطابع ، في هذه الاقطار الواقعة الى الجنوب من اوروبا ، تصدياً منها لهذه النظم الملكية الكلية او المستبدة التي تنتصب في وجهها وتسد عليها الطريق . فقد جعلت فلسفة الانوار منها في روسيا ، حركة مناهضة لنظام النظام الجاري الاخذ به . ومما لا شك فيه مع ذلك ان الثورة الموصوفة décabriste التي انطلقت عام ١٨٢٥ ، سببها المباشر اغلاق المحافل الماسونية عام ١٨٢٢ ، بعد ان استمرت البابوية ، منذ القرن الثامن عشر على شجب الماسونية بعنف كلي وتحريمها . ولذا استمر الصراع بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية . وهذه المنظمات او الجمعيات التي نعتها كل من البابوات إقليمس الثاني عشر ، وبندكتوس الرابع عشر ، « ضارة ، تؤذي ليس فقط باستقرار الدول وهدوءها ، بل تؤلف خطراً شديداً على النفوس » .

ففي البراءة الرسولية التي اصدرها البابا ليون الثالث عشر عام ١٨٢٦، ويلاحظ ان من هذه

الجمعيات الماسونية القديمة التي لم يظهر لها نشاط قط ، طلعت علينا عدة جمعيات سرية اشد كراهية منها ومقتاً . فنذكر منها منظمة « الفحامين » التي « وضعت نصب اعينها قلب الحكومات الشرعية والقضاء على الكنيسة » . رأت جمعية الفحامين هذه النور في مملكة نابولي واستطاعت ان تقيم لها شبكة من الفروع غطت كل ايطاليا وامتدت الى كل من فرنسا واسبانيا. وقد عرفت ان تكتسب لها اعضاء كثيرين بين افراد جيش نابوليون . حاولت هذه المنظمة عام ١٨٢٠ – ١٨٢١ تنظيم فتنة ضد الشرعية في فرنسا . وبالمقابل نشطت دعاية قوية في الاوساط العسكرية ، في كل من بولونيا وروسيا . واثارت بمناسبة وفاة القيصر اسكندر الاول فتنة (*décabriste*) . الا انه انطلاقاً من ١٨٣٠ ، اقتصرت الانقلابات العسكرية على اسبانيا وحدها . والمطالب الشرعي بالعرش النابوليوني ، حاول عبثاً مرتين مغادرة جزيرة ألبا .

ففي هذه الجمعيات ذات النزعة الجمهورية التي تكاثر وجودها ، لا تزال روح الفحامين تغمرها وتسيرها . فالغاية المتوخاة من الدس والتبييت الاعداد لانقلابات جديدة . وكلما تواري العنصر العسكري عن الانظار بتواري « قدامى » الحروب المظفرة ، ازداد بالتالي اقبال العناصر المستنيرة واعضاء المهن الحرة وحتى العمال على الانخراط في هذه الجمعيات التي جاشت في نفوس اعضائها فكرة الجمهورية الديموقراطية والاجتماعية .

ولما كانت اقلية ضيقة من اصحاب الامتيازات هي التي تستأثر بالسلطة ، كان يكفي على ما يبدو لاسقاطها ، مهاجمتها على حين غرة . « فيوم » الثورة ، حيث يصفى الوضع في بضع ساعات – هو عبارة عن حرب في شوارع العاصمة . فخطط المدينة تستجيب جيداً لمحاربة جيش نظامي يضطر للتناور والتحرك بين الاحياء والحارات والمنازل المرتفعة ، وهو اعجز من ان ينتشر او ان يستعمل بنجاح المدفع ، بينما يسعى الثوار من جهتهم ، الى تحويل هذه المنازل الى حصون مرتجلة يطلقون النار منها على افراد الجيش بنجاح او على الواقفين امام الشرفات او على السطوح .

والمهم في هذه الفتنة ، المتاريس التي تقام في الشوارع. فأمر اقامتها يسير اذ يتخذ منها الثائر ملجأ يطمئن اليه ويخلق منه مركز دفاع جديد لا يمكن القضاء عليه بنيران البنادق ، فيحد من تقدم صفوف الجند الذين يحاولون اجبار الحي على التسليم ، كما يساعد الثوار على الالتفاف حول المباني الحكومية للاستيلاء عليها . ووضع حد للفتنة المشتعلة المسلحة يقتضي الجيش المزيد من الضحايا ، الا اذا ضعفت المقاومة امام عناد الثائرين وصمودهم . ففي الحالة الاولى تطلع علينا المذابح الهائلة ، في باريس عام ١٨٤٨ ، ومعارك فيينا في تشرين الاول ١٨٤٨ . ثم يتدخل عنصر التهدئة على طريقة هوسمان وينتهي الامر بسيطرة المدفع . اما في حال نجاح محاولة الانقلاب هذه ، تأتي الخسارة في الارواح اقل . وتتوقف اعمال القتل مع توقف الحرب واعمال المقاومة . ان قمع الفتنة وانكسارها قد يؤدي الى هدر دماء كثيرة ، وزج الالوف في السجون ، كما

أن عدد الذين يأخذون بالنزوح الى الخارج ومغادرة البلاد فيتضاعف يوماً بعد يوم .

تهجرون قبلنا هذه الارض اللعينة
بعد ان يقف الله فيها الى جانب الاقوياء
حيث الفقير يرسف في السرداب عبداً ويرفل فريته
وحيث الجاعة لا تستطب الا بالموت الزؤام

(لويس مينار « تحية الثوار » حزيران ١٨٤٨)

الثورات الاوروبية ١٨٣٠ - ١٨٤٨

فعهد الثورات الذي اطل علينا عام ١٧٨٩ ، لم ينته بانتهاء نابليون .

فالهزة العنيفة الاولى التي تعرضت لها مقررات مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، وقعت ١٨٢٠ - ١٨٢١ ، وهي هزة تعرضت لها بالاحرى مقاطعات الجنوب المتخلفه في تطورها ، ولم يلبث ان قمع التدخل العسكري هذه الفتن التي قامت في شبه الجزيرة الايبارية والايطالية على اكتاف اقليات ضعيفة العدد والعُدد . الا ان الثورة التي انطلقت في اليونان طال حبلها وانتهت بالفوز بفضل اطماع الدول الكبرى المتنافسة في المنطقة ، امثال روسيا وانكلترا وفرنسا .

اما الثورات التي شبت عام ١٨٣٠ - ١٨٣١ ، وفي سنة ١٨٤٨ - ١٨٥٠ ، فقد ارتفع لهيبها عالياً فاكتوت اوروبا بنيرانها اللافحة . ولم يبق في مأمن منها غير الامبراطورية الروسية . والسلطنة العثمانية التي لم تنج من الحريق ومن سقوطها فريسة بيد محمد علي ، صاحب مصر ، الا بفضل دسائس الدول الكبرى . ومما لا مراء فيه هو ان التوقيت المتزامن لم يمكن من الثقة بحيث تستقيم له اسباب النجاح . فاسبانيا والبرتغال اللتان لم تمرقا الاستقرار طويلاً عرفتا فترات من الاضطرابات الداخلية . والاتحاد السويسري استطاع ان يقضي على الاقليات القديمة قبل وقوع الاصطدام العنيف عام ١٨٤٨ .

«وها هي الثورة الفرنسية تتأجج نيرانها من جديد وتندلع ـ كما يصرح توكفيل عام ١٨٤٨ـ بعد ان تماثل الوضع وتشابهت الظروف » ، ودكتاتورية السلامة العامة لم تظهر الا لفترة قصيرة. وبصورة استثنائية ، في كل من روما والبندقية ، وبودابست . واتفق كذلك ان الدفع الرومنطيقي هبط وانحط بالسرعة ذاتها التي ارتفع فيها وانكشف الحلم عن خيبة امل مريرة وتحطمت الجهود . وعلى كل فقد علمنا ترميدور ان لا ننتظر طويلاً ، فارتفاع اللهيب لحظة ويخف ، فتضطر المجالس الدستورية للاخذ بتسويات غرارة ، والحصون التي وقعت في ايدي الثوار لم تلبث ان افلتت من ايديهم ، كما ان القوميات الثائرة سرعان ما يصيبها البهر وعسر التنفس .

وعندما برزت بلجيكا للوجود انهارت بولونيا ، من جهتها . ففي غربي البلاد بورجوازية

مستنيرة ؛ بينما في الشرق ارستوقراطية عقارية هي اعجز واضعف من ان تقف في وجه نفوذ الملكية المتمتعة بالكثير من الامتيازات. فمن مكيليكس انيجسب الف حساب لتزار تورسكي. والثورة في بلجيكا انطلقت ضد جوزف الثاني ، قبل عام ١٧٨٩ وجاء زوال جمهورية كراكوفيا قبيل عام ١٨٤٨ ، تكريساً لاقتسام بولونيا نهائيا ، هذا الاقتسام الذي شرعوا به في الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

وبعد ان فتنتها النزعة التحررية ، لم تماش البورجوازية التيار الاصلاحي الاجتماعي الا بمقدار ما تكنه هذه الاصلاحات من احترام للملكية الخاصة وتوطد اصولها . فالغاء عبودية الارض يؤلف لمصري اجراء من اهم الاجراءات التي طلع بها علينا القرن . فالمؤتمر الوطني في فرنسا اعطى المثل الصالح في هذا المضمار ، فسارت على النهج ذاته بريطانيا العظمى ، كما ان الجمهورية الثانية جاءت لتدعم قرار الجمهورية الاولى وتشدد عليه . والتقاليد التي كرستها ثورة عام ١٧٨٩ ، قضت بتحرير الفلاح من جميع العبوديات الاقطاعية ، وثورة ١٨٤٨ التي رفعت بمبدأ حتى حدود روسيا ، عبودية الارض والرسوم السيادية ، جعلت اوروبا الوسطى ، في وضع مطابق لوضع دول الغرب من هذه الناحية . الا ان الخوف المستحوذ على العامل يرغم على اتخاذ موقف معاكس ، كل هؤلاء الذين يرون فيه ، مثلا للفوضى ، والموصل الى الجماعية . وهذا الهاجس الكبير الذي جثم على صدر سنة ١٧٨٩ ، واستحوذ على الفلاح والبورجوازي الفرنسي خلال ازمة المواد الغذائية الحادة ، كان من بعض نتائجه ان دك معالم العهد القديم من الاساس ؛ والازمة الاقتصادية التي اشتدت حلقاتها بين ١٨٢٦ – ١٨٣٢ ، عرفت ان توحد تارة ، وان تقيم الواحدة ضد الاخرى طوراً البورجوازية والبروليتاريا دون ان تحرك طبقة الفلاحين طبعاً. أما أزمة ١٨٤٥ – ١٨٤٨ ، فبالرغم من انها شجعت سكان الريف في بلدان اوروبا الوسطى على التحرر ، فقد عجزت عن تحريك الطبقة الثالثة (طبقة الشعب) وفشلت بالتالي في ما رمت اليه من دك النظام القديم دونما رجعة ، بينما اثارت في فرنسا موجة جديدة من الهلع الكبير ، الذي اثاره « المطالبون باقتسام الثروة » و « الحمر ». « ضاع كل شيء » في ٢٤ شباط (فبراير) ١٨٤٩ ، كما زعم بلزاك ، «ويبدو انكم يا سيد اراغو لم تذوقوا ابداً طعم البؤس » ، اجابه احد ثوار حزيران . وقال بوجو لتيير عام ١٨٤٩ : « يا لهم من وحوش ضارية . كيف يسمح الله للامهات ان يتصرفن على هذا الشكل ! هؤلا لمصري الاعداء الحقيقيون وليس الروس او النمساويون ! » . وبالفعل فالعامل نفسه يتورع كثيراً في تصرفه عندما يتصرف للمطالبة بحقوقه ، اذ ليس من غريزة توجهه الى ما فيه ضمانة مباشرة ، وهو حقه في العمل يلوح به عالياً على رؤوس الأشهاد ، بينما يجهل تماماً ، وهو امام البورجوازي الذي يبادر في الحال الى خلع قبعته عندما يقف امام الجندي ، كيف يفك القيود التي تكبله ، ولن يلبث ان يرى نفسه بين احتمالين لا ثالث لهما : اما الموت واما الرضوخ والاستسلام .

« أفضل عندي بكثير ٩٣ على ٤٨، كان هوغو يصرح وهو في طريق الاغتراب والنفي. أفضل الف مرة رؤية الجبابرة يتمرغون في الحواء على رؤية المغفلين الاغبياء يتخبطون في حمأتهم » .
حكم قاس لعمري ، انما يعبر احسن تعبير عن المرارة التي تنغص حياة هؤلاء التاليين ، ثمانية واربعين ساعة التي تلي هزيمتهم . درس قاس لعمري لهؤلاء الديموقراطيين والاشتراكيين الذين يضطرون التطلع الى المستقبل ، بعد ان يتفحصوا بدقة الامكانات المتوفرة، كما لعبه عبر ايضاً للكنيسة الكاثوليكية نفسها التي يترتب عليها تجديد رسالتها بصورة اوضح . الا ان هناك بعض الافتراضات تفرض نفسها بعد لم يعد بالامكان الركون الى أوهام الرومنطيقية، والتعويل عليها بالكلية .

الفصل السابع

بروز الذات الاميركية في وجه الاستعمار القديم
الدفع الاستعماري الجديد بعد فترة من التمهل

« هنا نصبنا علم الحرية ، وهنا لنمتحن قدرات الناس على حكم انفسهم بأنفسهم » .

(وولت هويتمان في كتابه « حشد القرى » - ١٨٤٦)

تقهقر الاستعمار الاوروبي القديم في العالم الجديد

بدت على نظم اوروبا الاستعمارية في اميركا عوارض التفسخ والانحلال ، وذلك نتيجة حتمية لهذه المنافسة الحادة التي اقامت الدول الاوروبية الكبرى بعضاً على بعض ، من جهة ، ومن جهة ثانية ، نتيجة النظام الاستعماري نفسه الذي كان موضع نقد وتذمر . وهذه السياسة الاستعمارية التي اعتمدت على « الاستثناء » انتهت الى الفشل التام في هذه الاقطار التي تعذر على العرق الابيض فيها التفكير ، والسعي الى رفع كثافة السكان بين الملونين . فقد قام في وجه هذه السياسة معارضة شديدة من قبل المعمرين الاوروبيين في هذه الاقطار التي ألفوا فيها العنصر الاقوى . ومما لا شك فيه قط ان قيام الولايات المتحدة الاميركية وتحقيقها الاستقلال الناجز ، بعث الامل وحرك الهمم بين الاقوام المطالبة بحقها الطبيعي في الحياة ، كما ان مبادىء ثورة عام ١٧٨٩ ، ونفوذ فرنسا الادبي وسيطرتها كان له الاثر البعيد في ما وراء المحيط . ففكرة التحرر تغلغلت بين شعوب المستعمرات وايقظت فيهم الوعي ورغبة صادقة في التحرر السياسي تخلصاً من ربقة القيود الاقتصادية التي احكمت فرضها البلد الام [1] .

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٣٤٤ و ٥٩٠ (الطبعة العربية) .

فاذا ما اعتبرنا ، من جهة ، ثورة اميركا اللاتينية ، مرحلة حاسمة في القضاء على الاستعمار المستحكم في بلدانها والقائم على « الاستئثار » ، فقد لعب مع ذلك الانكليز ، في هذا المجال دوراً بارزاً . ففي حروبها ضد نابوليون ، اضطرت بريطانيا للرد على الحصار البري المعلن ضدها لانتهاج سياسة اقتصادية اكثر انطلاقاً لتتجه من اسواق العالم الجديد . فقد ظهر لها بوضوح ، بعد عام ١٨١٥ ماعليه الاسواق الاوروبية من ضيق ، كما قام في وجهها سياسة من الحماية الجمركية كان لها صداها في حمل الولايات المتحدة الاميركية على رفع رسومها الجمركية، كما ان الازمة التي نشبت في المملكة المتحدة حملت هذه الجزيرة القائم نشاطها على التجارة ، على تحرير اسواق قارة بأسرها واستخلاصها من سياسة « الاستئثار » التي اخضعتها لها دول شبه الجزيرة الايبرية . وفي الوقت ذاته راح اسطول صاحب الجلالة بمارس في المحيط الاطلسي حق الزيارة (او حق التفتيش) وهو حق اعترفت له به المعاهدات الدولية المعقودة عام ١٨١٥، مكافحة منها لاعمال النخاسة . كذلك ان نشاط حركة الهجرة بين البيض وانشاء مستعمرات « إسكان » ولا سيما بريطانية » ، اوجب البحث عن بديل جديد او صيغ جديدة في ادارة وحكم هذه المقاطعات النائية حيث يغلب العنصر الاوروبي ، بحيث ان افضى استقلال الولايات المتحدة الاميركية وبالتالي بلدان اميركا اللاتينية ، الى نظرية جديدة او نهج جديد في الاستعمار هو نهج الحكم الذاتي الذي عرف ان وفق بين مطالب البلد الام ومصالح مستعمراتها عبر البحار .

تحرير اميركا اللاتينية
حروب الاستقلال

في عام ١٨١٥ ، كادت الشرعية تعود بكامل مستلزماتها الى دول شبه الجزيرة الايبرية والى ممتلكاتها الواسعة في القارة الاميركية ، ولما كانت قوى الثورة في هذه المقاطعات سيئة التسلح ، ومشتتة تتوازعها اراض شاسعة ، فقد باءت المحاولات التحررية التي قامت فيها بالفشل، مع العلم ان البريطانيين المنهمكين بحروبهم مع فرنسا ومع الولايات المتحدة الاميركية ، لم يكن في وسعهم قط التدخل في هذه الثورات ومساعدتها بصورة ناجعة .

فكيف تغيرت الحال بأخرى وانقلب الوضع غيره يا ترى ؟ فالصعوبات التي اعترضت سبيل الثورة وارتهنت نجاحها بقيت لعمري قائمة ، كانعزال مراكز الثورة بعضها عن بعض بما يباعد بينها من مسافات شاسعة تغشى الحشائش والاعشاب والغابات الملتفة في غرناطة الجديدة ، او تعترضها السهول المرتفعة الجرداء المترامية الاطراف بين البيرو والتشيلي ، سهول اوليا الواقعة بين التشيلي ولابلاتا وسلسلة جبال الاندس الشاهقة الارتفاع حيث تكثر الغياض والبطائح والمستنقعات ، والمعارضة الشديدة التي قوبلت بها الثورة من جانب كبير من الطبقات الموجهة التي لم تسقط من حسابها احتمال قيام الهند بحركة ثأرية ، وتأرجح الكنيسة وترددها اذ كانت تهيب التسبب بزوال سلطة تقليدية صديقة ، والخصومات العنيفة والمنافسات الحادة التي جاش بها زعماء الحركة فتفرقوا معها مشارب ومطالب اذ توقعوا ان تتصدى لحركتهم التحررية قوات

أشد تدريباً ، وأكثر تسلحاً وقيادة مما تم لهم من هذا كله ، وعدم توفر أية منظمة لديهم تستطيع مدهم بالسلاح وتزويدهم بالعتاد الحربي الذي لا بد منه لتسليح فرق المتطوعة من ابناء الريف واضطرارهم للتمويل ، قبل كل شيء ، على الاسعافات التي قد تصلهم من الخارج . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه النواقص، هنالك امكانات تتوفر الآن لم تكن متوقعة من قبل غذت فيهم الامل بالفوز والنجاح ، تمثلت في حركة القمع العنيفة التي قامت بها السلطة الحاكمة فولدت في النفوس احقاداً مشبوبة وبغضاً ازرق وضغائن عنيفة ، كما امكن ان يعولوا، من جهة اخرى، على تدخل الدول البحرية الكبرى التي تهيمن اساطيلها على البحار ومؤازرتها بصورة اوسع ، وفعالية اكبر واوقع .

واشتدت روابط التعاضد والتضافر بين طلاب الحرية وناشديها من كلا جانبي المحيط ، كما اشتدت روابط التضامن بين الاميركيتين الشمالية والجنوبية . فالثورة التي ارتفع لهيبها في لشبونة، عام ١٨٢٠ اجبرت الملك جان السادس على مغادرة البرازيل والعودة الى البرتغال ، تاركاً زمام السلطة فيها لابنه دون بدرو . كما ان الثورة الاخرى التي نشبت في قادش اربكت فردينان السابع وشلت فيه كل حركة . غير ان استئثار الاحرار بالسلطة ، في شبه الجزيرة الايبيرية ، ولو لأمد وجيز ، شجع الكنيسة في تلك المستعمرات الثائرة ، على الوقوف الى جانب حزب الاستقلال ، فساندت ثورة إيتوربيد في المكسيك . وتفادياً للمحاذير التي يثيرها اعلان الجمهورية في الريو ، راح كبار الملاكين ينادون بدون بدرو ، امبراطوراً على البلاد ، بينما تطرح بريطانيا بكل ثقلها في كفة الميزان التي يرفرف فوقها خط الثورة ، ولم يصعب عليها وجود المغامرين والعسكريين المسلكيين الذين يتطوعون لتنفيذ المهام التي سيعهد بها اليهم .

ومنذ عام ١٨١٩ ، استقبلت واشنطون ممثلاً لبوليفار بعد ان سبق لها واعترفت بجمهورية كولمبيا الكبرى والمكسيك .

اظهرت الولايات المتحدة كل استعداد لديها لتقدم لهما كل ما يحتاجان اليه من مساعدات مالية وعتاد حربي. وبعد ان احتجت حكومة لندن ضد تدخل فرنسا وضد مؤازرتها لفردينان السابع ، اقترحت على الاميركيين اصدار تصريح مشترك بتأييد استقلال الجمهوريات الجديدة . فاذا لم يشأ مونرو الارتباط بأي وعد صريح ، فقد ساعد التصريح الذي اذاعه عام ١٨٢٣ ، في توطيد هذه الجمهوريات الناشئة ، كما رأى كاننغ ، من جهته ، ان يعترف بالامر الواقع . ففي سنة ١٨٢٤ ، حدث في أياكوشو انهيار آخر مركز للمقاومة الاسبانية في تلك البلاد ، ولم يبق لمدريد سوى جزيرتي كوبا وبورتو ريكو . اما تحقيق مثل هذه النتائج المحرزة ، فقد تم بعد سبع سنوات من الجهاد العنيف والحروب الدامية ، كانت محكاً قاسياً لشجاعة هؤلاء الثوار المطالبين بالاستقلال، ولقوة احتمالهم ولمهارتهم تحت قيادة زعيم ارتجيل ارتجالاً هو الزعيم (كوديلو) الذي اعطى كل طاقاته .

وقد لمع في هذا الصراع المحتدم احمان ، وبرزت شخصيتان هما : بوليفـــار وسان مارتن ، كلاهما من مواليد المصرين الاغنياء ، متطليان من الفنون الجميلة وامجاد تاريخهم القـــديم . برز اولهما في كركاس وطلع الثاني في بونس ايرس. كلاهما على اطلاع واسع على امور اسبانيا لاقامتها ردحاً من الدهر في اسبانيا . فالشاب الفنزويلي ذو العاطفة المشبوبة والذي فقد زوجته وهو ابن ٢١ سنة ، طوف في جميع اطراف اوروبا وقبس من التجربة والخبرة ما حنكه في العمل الذي ندب نفسه له ، متوجهاً بأنظاره نحو الاجنبي ولا سيا نحو الانكلوسكسون ، بعد ان تبين ما هم عليه من قوة وبأس وبعد أثر ، يطو قامته رأس جاش بعظائم المقاصد ، جذاب ، شديـــد الفتنة ، له القدرة على ان يجر وراءه الجنود دون ان ينفر منه كبار الملاكين . وقد أوتي من قوة الاحتمال وطول الاناة ما لا يتوفر بعضه القليل ، مع ما تعرض له من مسببات اليـــأس وبواعث القنوط . فقد عرف ان يفرض النظام وروح الانضباط على افراد جيشه ، الا انه عجز باعتباره زعيماً مؤقتاً ، ان يؤلب حوله كل القوى الراغبة في الاستقلال .

ومع رغبتها الصادقة بتجريد اسبانيا والبرتغال من كل مستعمراتهـــا ، فقد حرصت الدول الاسكندينافية ،مع ذلك على ألا تشجع كثيراً قيام اميركا لاتينية موحدة. وبوليفار الذي كان يخشى كثيراً وطأة او ضغط وحدة سياسية من هذا العيار ، نزع في الصميم الى انشاء اتحاد فـــدرالي شبيه بهذا الاتحاد الذي تم في اليونان قديماً على يد فيليبس المقدوني. فكانت مدينة كورنثس مركزاً له . ولكن هيهات ان تلعب بناما دور كورنثس، اذ ان كولومبيا الكبرى ليست بمقدونيـا ، وروما هـــذا العصر القابعون في جزيرتهم ، في المحيط الاطلسي ، حريصون على زرع بذور التفرقة والانشقاق .

وهكذا برزت اميركا اللاتينية لدى وفاة المنقذ الاكبر (ليبراتور) سوقاً ضخمة مشرعة الأبواب امام سادة البحار وارباب التجارة والاعمال ، لم تلبث ان ازدادت تفسخـاً ، كما ان الفوضى استحالت فيها مرضاً عضالا .

توسع الولايات المتحدة وامتدادها

في الوقت الذي عجزت فيه اميركا اللاتينية او تحررها ، من تشكيل اتحاد فدرالي فيها ، اخذت الولايات المتحدة الاميركية بعد الحرب المظفرة التي خاضتها ضد انكلترا بين ١٨١٢ – ١٨١٤، تتسع وتمتد جغرافياً بسرعة مدهشة حتى انها أطلت في الغرب على مشارف المحيط الهادي ، وما ان طلعت سنة ١٨٥٠ حتى كانت حدودها من هذه الناحية بارزة العيان ، واضحة ، واقتسام اميركا الشمالية الذي بقـــي مرجرجاً لا يستقر تماماً على وضع معين واحد اوحد، مستقيم ، انتهى الى وضع ثابت . فالروس اقتطعوا لأنفسهم المقاطعة المعروفة بالاسكا التي كونت عبر مضيق بهرينغ استطالـــة طبيعية لسيبريا ، والقسم الذي كان اسبانياً لعهد قريب، اقتصر الآن على المقاطعات الرائعة حول المنطقة

الاستوائية بعد ان اقتطع الاميركيون الاراضي الواسعة التي ألفت قسماً من المكسيك في الشمال. وجاءت معاهدة اوريغون توزع بصورة حبية القسم الاكبر من هذه القارة بين بريطانيا والاتحاد الاميركي . ومع انه لم يخطر لسياسيي واشنطون اذ ذاك ، ان يضعوا خطة شاملة يستشرفون فيها سوى تطورهم الصاعد في المستقبل والعمل على تحقيقها ، فقد جاءت ، مع ذلك ، عوامل عديدة كالاسكان والحاجة المستمرة الى اراض جديدة ومحاربة الهنود واستئصال شأفتهم ، والرغبة الخفية في التحرر من الضغط البريطاني وحتى من الروس في الشمال، والحد من الامتداد اللاتيني ، وغير ذلك من ظروف عارضة ، ساعدت على تحييز هذه الرغائب وتحقيقها . الا انه جال في رأس أولي الامر من الاميركيين ، افكار توسعية برزت بوضوح من خلال الازدهار التجاري الذي نعم به الاتحاد الاميركي وبناء اساطيل تجارية وحربية ضخمة ، سام ، انهاك اوروبا بحروبها المتصلة ، على تحقيقها. وهكذا قامت ضد الشركات الروسية والانكليزية، ولا سيما ضد الشركة المعروفة بشركة خليج هدسون الاميركية القراء ،بادارة ألماني مهاجر يدعى استور كان خير من يمثل مصالح الجمهورية الفتية ، هذه المصالح التي راحت اميركا تدافع عنها ، بحذرة بلسان رئيسها مونرو ، من مقاصد الروس واهدافهم التوسعية ، وباخراج بريطانيا شيئاً فشيئاً من هذه الشراكة في السلطة على مقاطعات الاوريغون .

صحيح ان الاستيلاء على هذه الاراضي جاء متقطعاً . فقد رافق تحقيق مراحل الاستيطان والاسكان الزراعي والراعوي والتعديني ، مساحات شاسعة غير مشغولة . فالابيض يتطور على حساب الهندي الاحمر بعد ان يسلبه ارضه التي يطمئن اليها ويتحرك فيها على هواه ، هذه المنطقة التي لا تعرف الهدوء ولا الاستقرار لما يحف بها من مخاطر ، فيضرب خيامه في ارض معادية ، في هذه المنطقة المتحركة المتنقلة التي يعرفها الاميركي بالحدود ، والتي شهدت صراعاً خفياً ، لا يرحم ولا يلين منذ القرن الثامن عشر ، لا ينتهي الا في اواخر القرن التاسع عشر . والقائمون بهذا الصراع الخفي الغامض هم على الغالب ، رواد مغامرون في بحثهم عن الاصفر الرنان ، وقد اجتذب سناؤه من بعيد هذه الألوف المؤلفة ممن سال لعابهم على بريقه ولمعانه ، فتركوا لنا في سعيهم اليه وتكالبهم عليه حوادث لها وصف رائع في هذه القصص والروايات التي تركها لنا فنيمور كوبر و واشنطون ايرفن .

وفي اثر هؤلاء يهبط العطاش الظامئون الى الاستقلال ، الى الوحدة ، هؤلاء المزازون الذين يعيشون في هذه الحيرة المحمومة، بانتظار المدينة الفاضلة، المثل، رمز المدينة السماوية،بعيدين عن الخطيئة والخطاة ، بمعزل عن المشركين الضالين . ولعل ابرز هذه الجماعات ، جماعة المورمون الذين يهبطون ضواحي البحيرة المالحة الكبيرة ، حيث يؤسسون لهم مملكة القديسين : صهيون الجديدة . وهذا الغرب البعيد يفتن بسحره الاخاذ ، هؤلاء الاوروبيين الذين اضلوا يرون في اميركا ارض الميعاد الجديدة التي عليها يتوقف تحقيق هذه المثل الخيالية التي راودت الحكلر

وخيال اتباع هذه الجماعات الدينية التي طلعت جديداً ، امثال الـ *Owénistes* في نيو هارموني من اعمال ولاية انديانا ، والـ *Icariens* في مدينة نوفو ، من اعمال ولاية ألينوي ، وفي تكساس ايضاً فئة الـ *Sociétaires* واخيراً وليس آخراً اصحاب بدعة الـ *Mennonites* كما يتوارد على حوض نهر المسيسبي ، باعداد تأخذ دوماً بالارتفاع والاتساع ، البريطانيون والايرلنديون ، والالمان والسكندنافيون الذين غادروا بلادهم تحت وطأة البؤس والمسكنة او تحت عوامل الضغط السياسي الذي كثيراً ما تعرضوا له .

واميركا الفتاة هذه التي بونقت انسانيتها بخشونة وغلظ اقصرتها على تربية الماشية والأعمال الزراعية على نطاق واسع ، في هذه المروج والسهول المترامية الاطراف ، ذات التربة المعطاء والاقليم القاسي . فما يكاد المعمر يطل بقامته الفارعة الطول من وراء جبال الابلاش الملتفة الأحراج، حتى يفضي به المطاف الى سهول جرداء ، حيث تغمره وحشة مخيفة، عليه ان يتدبر امره بأي حل وحال . ولما كان لا مال عنده، كان عليه ان يستلف ويستدين ليؤمن حاجته من البذار معولاً على الموسم لتسديد دينه . وهذا الغرب البعيد النائي الذي يصقل الطباع ويوحي الى ساكنيه الشعور بالمساواة ، ويحرك روح المغامرة في النفس ، يدور بالفعل ، في فلك الولايات الشرقية مع انه يمد المؤخرة بالكثير من حاجاتها للحبوب واللحوم ، وهكذا تنظر الى الساحل المنبسط امام المحيط الهادي نظرتها الى مستعمرة نائية . كان الاتحاد الاميركي يضم عام ١٨٥٠ نحواً من ٢٣ مليون نسمة ، بينما لم يتجاوز عدد سكانه عام ١٨٢٠ ، تسعة ملايين لا غير . فكان خط العرض، المار بدينة بتسبرغ المحور الذي يمر فيه العمود الفقري للاسكان، بينا محور الانتاج الصناعي يقع في بلطيمور وضواحيها. فشبكة الخطوط الحديدية جمعت بين شيكاغو وسان لويس قبل عام ١٨٥٢ ، ومع ان الولايات الأطلسية اخذت تتحسس بهذه الروح الاستقلالية التي جاش بها الغرب ، فلم تكن على استعداد قط للتخلي عن سيادتها وسيطرتها .

روح واشنطون وجيفرسون الديموقراطية

وهذه الجمهورية الفتية تلفت النظر بمؤسساتها ونظمها الوطيدة. فها هو ميشال شيفاليه يقف مشدوهاً امام الانجازات المادية التي حققتها ، والطاقات الاقتصادية التي تتوفر لها . فتوكفيل يرى في هذه الاوضاع التي تمت لها دليلا قاطعاً على متانة هذه الديموقراطية ورسوخها ، وبشيراً بمستقبل زاهر عظيم . فهل تجمعت يا ترى الحرية على التأقلم في هذه الديار دون ان يطرأ عليها أي زيغ او انحراف أو ان تصاب بأي سوء ؟

فالتطور الديموغرافي الذي أخذت بأطرافه لا يمكن رده الآن الى هجرة كثيفة واسعة . فالنازحون اليها بين ١٨٢٠ - ١٨٤٥ يزيد عددهم قليلا على المليون . ففي عام ١٨٥٠ ، نرى مهاجراً واحداً يدخل البلاد مقابل ٩ ولادات . فالشعور الاميركي الاصيل يستبد قوياً بالسكان الذين اخذت نفوسهم تجيش بروح اميركية صرفة .

وهذه الأوساط الاجتماعية التي استقر عليها وضع هذه الامة الجديدة هي التي تتولى التوجيه في البلاد وتستأثر بادارتها . فسكان الريف في هذه الولايات المعروفة بانكلترا الجديدة وفي بنسلفانيا من ذراري البيوريتيين المتزمتين في امور الدين والمتوديست الذين جاؤوا البلاد من قبل بكثير ، قد حافظوا على بساطة النفس في اخلاقهم ومعايشهم ، فانقطعوا للأعمال اليدوية يبتغون شيئاً من كل شيء ، واتخذوا من قراءة الكتاب المقدس عادة لهم واستمسكوا بروح الديموقراطية المحافظة .

اما على الساحل حيث تكاثر الخلجان العميقة ومصبات الانهر العريضة ، فلقد قامت بورجوازية ناشطة انقطعت للمشاريع والانشاءات البحرية والاعمال التجارية الواسعة : كتجارة الرق وتجارة الروم وصيد السمك ، وكلها اعمال عادت على اصحابها بثروات واسعة استثمروها في تجارة الشاي والتوابل فالحرير وانشأوا دور صناعة ضخمة لبناء السفن ، امنت للاتحاد ردحاً من الدهر ، اقوى اسطول تجاري شراعي في العالم ، وارست لها صناعة ضخمة للنسيج والحديد تبشر بمستقبل عظيم . وهؤلاء الأغنياء الحديثو النعمة الفوا في البلاد طبقة من النبلاء توطدت علاقاتها مع الانكليز واقتبست الكثير مما طلعت به الحضارة البريطانية وشمخت بأنفها على الملكية وطبقة النبلاء في البلد الأم سابقاً . وقد تجلت ثقتها بنفسها على الوجه الاتم، فهذه المثالية التي يمثلها خير تمثيل أمرسون ، هذا الوزير التوحيدي المذهب والطريقة التي صرح عنها عام ١٨٣٧ قائلاً : « طال اصغاؤنا لمواقف اوروبا وموحياتها . فقد حان الأوان لأن نمشي على ارجلنا وان نعمل بأيدينا وان نعبر عن خوالجنا وهواجسنا وافكارنا » .

وهذا التطور الصناعي الذي حققه شعب انكلترا الجديدة ونيويورك وبنسلفانيا ولّد في نفوس القوم هناك عقلية اقتصادية سيطرت على العقول . فمنذ عام ١٧٩٠ ، اقيم في مدينة بتسبرغ مصب كبير للحديد، وارتفع عام ١٧٩١ أول مصنع فيالبلاد للنسيج في ولاية رود ايلاند وفي سنة ١٨١٠ ، استملت لويل احد مساقط نهر مريماك لتوليد القوة المحركة، فانشأت في هذا السبيل شركة خاصة اشترت الارض وشيدت عليها مصنعاً وبنت مدينة ، فبلغ انتاج المعمل ٣٨٠٠٠٠ تول لحل القطن عام ١٨٤٠ . الا ان عدم توفر اليد العاملة وقلة كفاءتها وغلاءها جعل المصنع المذكور يعول اكثر فأكثر على الآلة . كما ان ارباب العمل المذكور اتخذوا الطريقة الابوية في معاملتهم العمال . وهكذا نرى في لويل ٥٠٠٠ امرأة ينزلن بنسيونات يقوم على ادارتها ارامل تدفع اجورهن من حسومات يقتطعها ارباب العمل ، مع تأمين الوسائل الصحية والتقيد بأوقات الخدمة الدينية في مواعيدها المعينة . وعبثاً قامت نقابات عمالية مطالبة بتطبيق العمل على القاعدة التي تقول من الستة الى الستة بدلاً من شروق الشمس الى مغيبها، وعبثاً يخطب فرنسيس رايت نصير المرأة واحد انصار فلسفة أوين حول صراع الطبقات امام حشود من حزب العمال. إلا ان ارباب العمل أصموا آذانهم امام هذه المطالب متعللين بحرية العمل وراحوا يسعون التحكم

بالاسواق الداخلية . كان باستطاعة الاثرياء ان يؤمنوا حاجاتهم من انكلترا ، امـا الاصناف المحلية الصنع فيجب ان تخضع لنظام التعرفة ، بعد ان صدر بذلك عام ١٨١٨ قانون كان بالنسبة السفن الأجنبية بمثابة قانون الملاحة في انكلترا. وهذه السياسة المستوحاة من مبدأ مونرو يمكن اعتبارها بمثابة استقلال البلاد الاقتصادي .

ومن حسنات قانون الجمارك هذا ان ادى الى تغذية ميزانية الاتحاد، كما أتاح للحكومة فرصة لتأمين وضع سليم لمالية الدولة . وقد برز ، في الشمال ، نفوذ رجال المال وذلك بانشاء البنك الوطني وانتهاج سياسة تخفيض النقد المتداول في البلاد ، وهي سياسة سببت الكثير من المتاعب والازعاج للمدينين والمتعهدين في الغرب. وقد غصت سجون بوسطن بالمئات من الموقوفين لتأخرهم عن تسديد ما يستحق عليهم من ديون . وراح الجنوب الذي كان يعتمد في معايشه على محصول التبغ والقطن يتذمر من فداحة نظـام التعرفة الجمركية فألف شيئاً من التحالف بين صغـار الملاكين وكبار المزارعين ضد هذه الاوليغارشية المالية والصناعية كان من بعض نتائجه ان حل الى الحكم انصار جكسون الديموقراطيين ، عام ١٨٢٨ .

من الامور المتعارفة في الولايات المتحدة أن الحكم هناك قاعدتين يقوم عليها تتمثلان في هذا الفريق من اصحاب الاعمال في الشمال ، وارستوقراطية كبار الملاكين في الجنوب ، هـذه الارستوقراطية التي امدت البلاد حتى الآن، بالقسم الاكبر من السياسيين الذين جلبوا الاستقلال الى البلاد وشكلوا الاتحـاد ، امثال واشنطون ورجالات فرجينيا ، بينهم : جيفرسون ومادبسن ومونرو الذين تعاقبوا ، مع آل ادامز من سكان بنسلفانيا ، على رئاسة الاتحـاد الأميركي .

ففي مثل هذا الوضع الاجتماعي الذي لا ينصرف فيه الأبيض للعمل في الأرض بملء ارادته قام في البلاد نظام اقتصادي اساسه الزراعة نهض على مزدرعات واسعة امتدت من ضفاف نهر البوتوماك حتى بلغت مشارف خليج المكسيك ، قوامه اليد العاملة والملكية العقارية الكبيرة وهو نظام لم يلبث أن اكتسح بنسلفانيا على يد فريق من الهولنديين والمهتزين (الكويكرز) ، وامتد الى ولايتي ماريلاند وفرجينيا اللتين تألف منهما ما يعرف هناك بـ « نطاق التبغ ». فـلم يكن من النادر قط في هذه الولايات أن نرى بـين اصحاب الأطيان الكبيرة ، من يملك ٢٠٠،٠٠٠ هكتار واكثر. الا ان جمهرات المزارعين كان معظمها يتألف، في كارولينا وفرجينيا على الأخص ، من الملاكين المتوسطين الذين تتراوح الثروة العقارية لدى الواحد منهم من ١٠٠ – ٣٠٠ هكتار بحيث ان ١٠،٠٠٠ أسرة فقط كان للواحدة منها ٥٠ عبداً من أرقاء الزنوج. هنالك لعمري طبقة من فقراء البيض تتألف من الـ *Crakers* ومن الـ *Sandhillers* أفرادها اميون كسالى ، يسكنون الزرائب ويكرهون بغضاً ازرق الزنوج. وكان هؤلاء الزنوج يقطنون ، على

الغالب زرائب واكواخ ضيقة ويجبرون على العمل بين ١٦ و ١٨ ساعة في اليوم الواحد، وضعهم في فرجينيا أرفق منه في اية ولاية اخرى ، وسيء جداً في مزارع الأرز في ولاية كارولينا ، يعيشون حياة الحرمان والبؤس متسكعين في جهل مدقع، ومع ذلك عُرفوا النكتة وخفة الدم، يهوون الغناء على الطريقة الافريقية الشعبية (الجاز) كما عرفوا ان يفوزوا خلال خدمتهم ، بثقة اسيادهم ، يراعي جانب الزنجية المرضع التي فرضت نفسها . فاذا ما كان الدين يوصي ابناء حام بالخضوع والخنوع ، فاللامبالاة التي تقرأ على سيمائهم تخفي وراءها الكثير من المشاعر الدفينة. الا ان الغاء النخاسة وتحرير عدد كبير من الزنوج ادخل في روع البعض ان تجارة الرق تلفظ انفاسها الاخيرة . الا ان اختراع هويتني للمحلاج في عملية حلج القطن واشتداد الحاجة الى الزنوج ، في كل من اوروبا وانكلترا الجديدة ، بعث المزيد من النشاط في هذه التجارة . واقبل الجنوب على تنشيط زراعة القطن، وعرى بشيء من الهوس الجنوني من اشجارها الاراضي التي تطل على مشارف خليج المكسيك حيث غلبت زراعة القطن الطويل التولة ، والقطن القصير التولة . وكلها زراعات يقتضي لها الكثير من اليد العاملة. وبالرغم من تزايد اليد العاملة ونموها المتصاعد فقد عجزت ، مع ذلك ، عن الوفاء بمطالب زراعة القطن وحاجتها العمال بعد أن اخذ الانتاج يتضاعف كل عشر سنوات . وقد ركن المزارعون الى اسواق النخاسة لتأمين حاجتهم من اليد العاملة من الزنوج ، مما ادى الى ارتفاع اسعارهم حتى ان بعض البلدان راحت تنظم عملية تربية « ماشية الملونين » دون ان يؤمنوا أمور تغذيتهم بالقدر الكافي ، واستطاع تجار النخاسة في كوبا وغيرها أن يؤمنوا لهم ارباحاً طائلة ، كما ان التشريع اخذ ينزع الى الحد من تحرير العبيد والحؤول ما امكن دون هربهم من المزارع .

فالمزارع يقطن عادة منزلاً رحباً له شرفات عالية تقوم على حفافي الأعمدة وينعم بأثاث وثير هو على الغالب من صنع انكليزي ، متخرج على العموم من جامعة هارفرد او أية جامعة أخرى وفّرت له ثقافة عالية ، ويستلم للذة المطالعة في اوقات فراغه ويستقبل في منزله عدداً كبيراً من الأصدقاء ، ويهوى الصيد والقنص وسباق الخيل ومشاهدة مصارعة الديكة ، ويقيم الولائم الفنية ، ويشترك بادارة الناحية ، كما يُعهد اليه عادة بادارة الشرطة ، كما يتولى الاشراف على العمال في مزدرعاته ، ويبهجه أن لا يتنقل إلا لصوت الانسانية ولمطالبها الحقة ؛ إلا أن وضعه مرتبط الى حد بعيد بتقلبات المواسم والاسعار ، اذ كثيراً ما كان يحيا في مستوى يفوق امكاناته المادية ، ولذا كثيراً ما رأى نفسه بحاجة للاستدانة والاستلاف من التاجر الذي اعتاد شراء محصوله من القطن أو التبغ . ولما كان كثير الاعتداد بمنزلته ، فقد تألم كثيراً في قرارة نفسه من هذه التابعية التي اقتصر عليها أرباب الثروة وأصحاب رؤوس الاموال في الولايات الشمالية .

والدستور الذي عمل به منذ عام ١٧٨٩ ، جاء مطابقاً للروح الذي جاشت في صدور

أصحاب اليسار والدعة ، ويتفق تماماً مع ذهنية بلاد تتعدد فيها الملل والنحل ، لا يحسن أتباعها الانقطاع الى عاداتهم ومناسك عقيدتهم الدينية الا في ظل التسامح الديني . فقد أعجب توكفيل بالطريقة التي تتوزع معها السلطات العامة في البلاد التي جاءت وفقاً لما قصده مونتسكيو في كتابه «روح الشرائع» وبالنشاط الذي تزخر فيه المجتمعات البلدية هنالك ، وهذا الورع المدني الذي يبثه في النفس مخافة الله والاحتكام الى المحكمة العليا عند طغيان الهيئات السياسية وخروجها على القانون.صحيح ان الشكل الاتحادي تغلب ، في نهاية الامر،على صيغة التحالف ، وكل ما لا يدخل بشكل او بآخر في اختصاصات مجلس الكونغرس او حكومة الاتحاد ، يبقى ضمن اختصاصات الولايات او الشعب . فالنزعتان الاتحادية والجمهورية اختفتا تماماً ، في هذه الفترة التي سيطرت فيها المشاعر الطيبة . فالتسويات النافعة والمفيدة أنيط امرها بهذه المؤسسات التي تعمل بطواعية ومرونة ، منها على الأخص التسوية الحبية التي تميز بها حل مشكلة الميسوري ، هذا الحل الذي تم وضعه ، عام ١٨٢٠ ،وضمن المستقبل وأمنه، وأجل البت بقضية ما اذا كان سيعوّل على العبد او اليد العاملة الحرة في بلاد الغرب . وقد خشي على النظام من أن يؤول انتخاب جكسون للرئاسة ، الى الاخلال بحبل الامن في البلاد ، بعد ان وصل الى الرئاسة الاول على اكتاف حلف من المتذمرين كرس الاخذ بالنظام المعروف *Spoil System* هذا الرئيس الذي جيء به من الغرب ، ووضع حداً لسلالة حكام فرجينيا وتصدى للامتيازات التي يتمتع بها رجال المال ، وخفض رسوم الجمارك . الا ان الحزب الديموقراطي وانصار الرجوع الى «عهد المشاعر الطيبة» - الاحرار - قاموا بتنازلات متبادلة . فالى عام ١٨٥٠ ، تاريخ الاتفاق الذي تم بشأن كاليفورنيا ، استمر الاندفاع نحو الغرب حتى حدود المحيط الهادي، على حساب المكسيك ومصالحه الحيوية ، دون ان تثير قضية الرق في البلاد اي اضطرابات يخشى منها . وقد خرج الاتحاد من هذه المشكلات اقوى وارسخ وضعاً . فعقد مع انكلترا معاهدة تضمن حياد قناة يحتمل انشاؤها عبر قناة بناما . وهكذا اصبح الاتحاد دولة كبرى محترمة الجانب. وقت لها عام ١٨٦٠ ثروة زادت ثلاثين ضعفاً عما كانت عليه عام ١٨٠٠ ، كما ان دخلها القومي زاد ستة اضعاف .

ضربة تنزل بالاستعمار القديم: الغاء الرق

فالنظام الاستعماري الذي ساروا عليه في البلدان الحارة ارتكز ليس على شد المستعمرة بالبلد الام شداً وطيداً فحسب ، بل ايضاً على استثمار اليد العاملة الملونة فيها ، فعولوا عليها في استثمار الارض واستغلالها الى اقصى حد . والحال فقد قام في القرن الثامن عشر تياران ضد الرق ، من هنا فلسفة الانوار باسم حقوق الانسان ، تبنتها معظم الملل والنحل الدينية في انكلترا من متوديست وانجيليين وكويكرز ، وبعض الكاثوليك ، رفضاً لبعض تعاليم المسيحية فراحوا يهاجمون نظاماً مضاداً في الصميم الاخلاق ، ومن هناك ، الاقتصاديون المتحررو النزعة الذين

راحوا ينتقدون شكلاً من أشكال العمل لا يفسح مجالاً لأي محرك او مشوق الربح الشخصي. وراحت هذه النظريات المشبعة بالروح الانسانية، وهذه الحجج التي تقوم على الواقع تصدم بشدة مصالح بعض الفئات الخاصة والتقاليد القوية المعمول بها في البلاد. ففي الوقت الذي راح فيه دستور الاتحاد الاميركي يحدد بحكمة بالغة، عام ١٨٠٨، كتاريخ اقصى لتحريم الرق، كان قانون إلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية الذي اصدره المؤتمر الوطني في فرنسا، قد بقي حبراً على ورق، اذ ان بونابرت ابطل هذا القانون، عام ١٨٠٢، مما سبب فقدان جزيرة سان دومنيك الى الابد. والقرار الذي اتخذه جيفرسون عام ١٨٠٧ تنفيذاً للوعد الذي قطعه الدستور الاميركي، والدعاوة الناشطة التي قام بها ولبرفورس وبعض اصدقائه في هذه الفئات الفيتية، حملت مجلس العموم البريطاني على اتخاذ قرار يحظر النخاسة والاتجار بالرق، كما ان كسلريغ نال من بعض الدول الكبرى الممثلة في مؤتمر فيينا قراراً بتحريم هذه التجارة الوحشية، وهو قرار أعيد إقراره من جديد في معاهدة اكس لاشابل وفي معاهدة فيرونا. ونابوليون، خلال فترة المائة يوم، ولويس الثامن عشر في معاهدة باريس الاولى قطعا على نفسيهما مثل هذا التعهد. الا ان تطبيق الوعود والاتفاقات شيء وقطعها آخر، لا سيما وقد اشتد الطلب، في العالم الجديد على الزنوج، إثر التطور الذي عرفته مزدرعات القطن والسكر. فقد استقبلت جزيرة كوبا اكثر من ١٠٠ الف رق من الزنوج بين ١٨١٠ – ١٨٢٠، واستوردت البرازيل منهم اكثر من ٤٠،٠٠٠ اسير زنجي في السفن التي ترفع العلم الفرنسي، حسبما جاء في تقرير قيادة البحارة البريطانية [1].

وقد اثارت قضية حق تفتيش السفن مشاكل حادة بين بريطانيا العظمى ومعظم الدول الاخرى التي ابت عليها القيام بمهام المراقبة البحرية. ففرنسا والولايات المتحدة تسلمان بمثل هذا الحق على اساس المعاملة بالمثل على ان تتم المراقبة بالاشتراك معاً. ولم ترضخ اسبانيا لهذا القانون الا عام ١٨٣٥، بعد وفاة الملك فردينان، والبرتغال عام ١٨٣٩، تحت التهديد بمطاردة السفن التابعة له، والبرازيل عام ١٨٥٠، في اثر ظهور الاسطول البريطاني امام شواطئه. فبالاضافة الى المعاهدات الـ ٢٦ التي تم وضعها ودخلت دور التنفيذ، يجب ان ننوه هنا بهذه المعاهدات الثنائية الاخرى التي عقدتها بريطانيا مع رداما ملك مدغشقر ومع سلطان مسقط، بغية إحكام نطاق المراقبة في المحيط الهندي.

مما لا شك فيه قط ان النخاسة لا يمكن ان تنقطع حركتها تماماً، بل تبقى على شيء من النشاط الخفي طالما لم يتقرر بعد إلغاء الرق بصورة رسمية قاطعة. ألم تحذر الجمعيات المطالبة بالغاء الرق من ان نظام المراقبة والتفتيش الجاري الاخذ به من شأنه ان يحمل تجار النخاسة على

(١) راجع تاريخ الحضارات العام، مجلد ٥ ص ٣١٦ من الطبعة العربية.

ممارسة تجارتهم هذه بصورة افظع واكثر فظاظة من ذي قبل .

ونشطت على الاثر دعاية قوية مطالبة بالغاء الرق ، اختلفت نتائجها وتباين مفعولها بين بلد وآخر .

فالموقف الذي ستقفه الولايات المتحدة من هذه القضية ، سيكون حاسماً . الا ان تحرير العبيد وعتقهم لقي فيها معارضة قوية من قبل كبار المزارعين لم يتزحزحوا عنها قيد أنملة . صحيح ان الرق يجد الكثيرين ممن يشجعون عليه في اوساط عديدة . فأمام السياسيين واوساط رجال الاعمال الذين يترددون متأرجحين في مواقفهم ويخشون الانقسام الذي يلوّح اكثر الجنوبيين حاسة بالجوهاليه ؛ وامام موقف القساوسة الذين يستشهدون بنصوص التوراة التي تعترف باستعباد سلالة حام ، فقد وجدت جماعات الكويكرز والانجيليين والمعمدانيين ، وحتى الكاثوليك انفسهم امام شعور عارم يأخذ بالازدياد كل يوم ، اعظم فأكثر بين صغار التجار واصحاب المخازن والعمال والمصرين في الغرب حيث لا يرون فائدة تذكر من عمل الارقاء . فمع شجب الكويكرز لاعمال العنف والقسر ، فقد راحوا مع ذلك ينصحون باعتماد اسلوب مقاطعة المواد الاستهلاكية التي يؤمن انتاجها انصار الرق و « من لف لفهم » . فقام من يقترح اعادة الزنوج الى افريقيا وطنهم الاصلي . وفي هذا السبيل أسست مدينة فريتون ومونروفيا . ولن تلبث ليبيريا ان اصبحت جمهورية مستقلة ، كما اطلت علينا مدينة ليبرفيل . وفي سنة ١٨٣١ ، قابلت اميركا ثورات اوروبا بالنداء الذي اذاعه منضد الحروف ، الاميركي غاريسون في جريدة « ليبراتور » ، وبالثورة الدامية التي قادها الزنجي نات ترنر فجعلت الجنوب يرتعد هلعاً . ومنذ ذلك الحين اخذت المشاعر بالهيجان . ومع ذلك فلم يكن ثمة ما يمكن اعتباره تهديداً مباشراً للرق . هنالك مصالح عديدة يهددها اصدار قانون بالغاء الرق وتحريمه . ولم يقنع الجنوب بمواجهة الدعاية ضد الرق بدعاية معاكسة ، ورفع التوراة في وجه التوراة . فلقد انتصرت عام ١٨٤٨ سياسة السيطرة والتحكم التي كان يمثلها في تكساس . وبعد ذلك بسنتين فرض الاتفاق الذي اعلنت بموجبه كاليفورنيا ولاية جديدة ، والمكسيك الجديدة ، فضاء حراً ، وجوب اعادة الزنوج الفارين الى اسيادهم الاول . وهكذا فالمصير القاتم بقي جاثماً على صدر الولايات المتحدة يشل منها الحركة وليس من يستطيع التنبؤ بموعد زحزحته او رفعه .

حل عام ١٨٤٨ ، وفي السابع والعشرين من نيسان من هذه السنة ، قررت الجمهورية الثانية في فرنسا ، إلغاء الرق في كل الاراضي والممتلكات التابعة لها . كان لا بد من ثورة شباط ليتمكن شولشر من الحصول على قرار التحرير .

فاذا ما سبق الفرنسيون الدانمارك وهولندا على دروب تحرير الرق ، فلم يكن الاسبانيون في جزر الانتيل ، ولا البرازيل ، من جهتها ، على استعداد بعد للسير على النهج ذاته . وعلى

حكومتي هاتين الدولتين ، ها هي انكلترا نفسها تطلق الاشارة الاولى في هذا المضمار . فالصعوبات الاقتصادية التي قامت في تلك البلاد في اعقاب عام ١٨١٥ اجبرت انصار كلفتنغ القائلين بالنظرية النفعية ، على معاضدة وجهة نظر الفريق المغاير لهم في الرأي ، هذه النظرية التي اعتنقها بدورهم انصار بنتام وتوصل في نهاية الامر المحافظون والاحرار الى التعاون فيما بينهم ، وتم تبني قانون عام ١٨٣٣ الذي يتحول بموجبه الارقاء الى عمال متدربين كما واجه امكانية التعويض على اصحابهم المتضررين في هذا القانون . وقد ادى هذا الاجراء الى تعقيد الامور في جزيرة جامايكا التي كانت تعاني الصعاب ، وفي مستعمرة الكاب ايضاً . فبدلاً من ان يرضخ سكان هذه المستعمرات لاحكام القانون الجديد ويحرروا اليد العاملة الملونة التي تعمل في خدمة كبار الملاكين ، فضل المعمرون في تلك البلاد ، وجلهم من اصل هولندي ، مغادرة المستعمرة. وقد اعطي السكان الحرية التامة برفض المواطنية او باعطائها لمن يجري تحريرهم من الارقاء بحيث ان الالغاء النهائي للرق ارتبط الى حد بعيد باصلاح النظام الاستعماري في تلك البلاد .

الاتجاه نحو امبراطورية بريطانية متحررة

نشأ في اميركا الشمالية ، وفي النصف الجنوبي من الكرة الارضية مناطق ضخمة للاسكان لدى البريطانيين ، تعوض عليهم الخسارة التي فقدوها من ثورة الولايات المتحدة ونيلها استقلالها التام في أواخر القرن الثامن عشر . ولما كان قد صرف النظر عن نظام الاستثناءات الذي برهن الاختبار عن عدم جدواه ، فقد رؤي استعمال حلول جديدة تتفق ومستلزمات الوضع الجديد والمزاج الانكلوسكسوني المعروف بنزعته الفردية . فهذا التوسع ليس فيه ما يضير قط اذ انه يحمل الخير كل البشرية جمعاء ، اذ يفضي الى تطوير هذه الاقطار البكر بالسرعة والحرية المطلوبتين . فالحرية الاقتصادية تجر وراءها الحكم الذاتي .

وتوالت الهجرة من الجزر البريطانية ، معتدلة اذا ما قيست بالزخم الذي اتسمت به حركة النزوح في منتصف القرن التاسع عشر ، الا انها جاءت اقوى وانشط من اية حركة مماثلة في اي بلد اوروبي آخر . فمع ان السواد الاعظم من النازحين يتجهون شطر الولايات المتحدة ، فقد تزايد سنة بعد سنة، عدد الذين قصدوا البلدان التي يرفرف فوقها علم صاحب الجلالة البريطاني. فالازمة التي اخذت بخناق البلاد ، في اعقاب ١٨١٥ وتسريح الجند من الخدمة العسكرية ، غذى هذا التيار الذي تضخم من جراء تأزم ظروف العيش واشتدادها على ابناء الطبقة الفقيرة . فقد ركب البحر مهاجراً ، عام ١٨٤٣ ، نحو من ٦٠٫٠٠٠ ، وقد ارتفع العدد الى ٢٦٠٫٠٠٠ ، عام ١٨٤٧ ، ثم الى ٣٠٠٫٠٠٠ عام ١٨٤٨ ، حتى بلغ معدل من يغادر البلاد ١٠٠٠ شخص في اليوم الواحد . وهكذا اطلت علينا في خريطة هذه البلدان الشاسعة ، ولايات جديدة ، عمّرها البريطانيون . وحركة الهجرة هذه نشطت باتجاه الكاب واتجاه كندا وبرزت في مقاطعة الناتال وكولومبيا البريطانية وتضخمت في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية في اوستراليا ومقاطعة اوستراليا

الجديدة الغربية ثم في مقاطعة اوستراليا الجنوبية ، ومقاطعة فكتوريا ومنها انصلت بزيلاندة الجديدة . هذه الانشاءات الاستعمارية الجديدة أثارت مشاكل جديدة ارتبط بعضها بالارض والبعض الآخر بالنظم السياسية .

منذ القرن الثامن عشر تمت الملكية العقارية ، في بريطانيا بامتيازات متحررة من كل قيد وشرط تخالف تماماً ما عرف من الامتياز الاقطاعي المعروف باسبانيا ، باسم *Encomiénda* وهو امتياز يعطى مدى الحياة . وقد لوحظ شيء من بعثرة الاراضي المقتطعة لبعض الشركات الخاصة في هذه المستعمرات القائم انشاؤها على براءة ملكية ، او في تلك المستعمرات التي يقطعها التاج البريطاني . ولن تتم المضاربات المالية ان استبدت بها لتأخر من جراء ذلك نموها . وقد كانت قوة الجذب في الولايات المتحدة اقوى منها في هذه المستعمرات راشد، اذ كان العمل الحر فيها يعطي مردوداً اطيب . ولذا عمدوا الى وضع تخطيط عام قام على ثلاث عناصر يجب توفرها معاً : هي الارض ورأس المال والعمل . وفي سنة ١٨٣٣ ، نشر ويكفيلد كتابه المشهور بعنوان : « انكلترا واميركا » عرض فيه بصورة جلية واضحة النظام الذي ارتبط باسمه . فقد قدم الدليل على صحة هذا النظام وحسن جدواه اذ اسس منذ سنة ١٨٣٠ ، شركة اوستراليا الجنوبية . ثم جاء بتجربة اخرى في زيلاندة الجديدة حيث ارتدت هذه الشركة طابعاً دينياً . وفي عام ١٨٤٢ صدر قانون يعرف بقانون *Torrens* فرض القيام بعملية مسح شاملة للاراضي البور ، وحدد منها سعر الفدان الواحد .

وقد وصل الى اوستراليا بين ١٨٣٠ – ١٨٥٠ ، اكثر من ٢٠٠،٠٠٠ مهاجر انكليزي بينهم عدد كبير عجز عن دفع ثمن الاراضي المقتطعة لهم ، فعملوا في خدمة مربي الماشية او في المدن . اما في الكاب فقد ادى بيع الاراضي بالمزاد والغاء نظام الرق فيها الى مشاكل وصعوبات مع البوير ، بعد ان تعذر عليهم ايجاد مراع تفي بالظمن بمواشيهم وعجزهم عن توفير اليد العاملة مما اضطرهم للاتجاه شمالاً الى مقاطعة فالد . اما في المستعمرات الكندية حيث قام نظام الاراضي المحمية الخاصة بالاكليروس والتاج ، فقد كان من العسير فيها توزيع الاراضي بحرية .

ومهما يكن من الامر فنظام مستعمرات الاسكان اقتضى الاعتراف للمستعمرة بصلاحيات ومسؤوليات عليها ان تقوم بها وتتحمل اعباءها . فمنذ عام ١٧٩١ ، اعترفت انكلترا في اعقاب تحرر الولايات المتحدة ونيلها الاستقلال الناجز ، لمقاطعتي كندا العليا وكندا السفلى ، بانشاء نظام تمثيلي في كل منها . وفي الكاب ، بالرغم من المنافسة الحادة القائمة بين البريطانيين ، وبين البوير ، اضطرت السلطات هنالك لمسايرة الاهلين والعمل على ارضائهم ، بالاعتراف لهم شيئاً فشيئاً ، بامتيازات معينة ، بعد ان برهنوا عن ارادة قوية في التوسع باتجاه مقاطعة الفالد . وقد نال آخر الأمر هؤلاء الذين اغتصبوا الاراضي (*The Squatters*) في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية المعروفين بفرديتهم ، شيئاً من أوليات النظام التمثيلي .

اما الحادث الخطير فهو هذه الازمة التي اخذت بخناق كندا رامت فيها الى تطبيق برنامج دورهام ، عام ١٨٣٩ . ولما كانت اكثر المستعمرات البريطانية المكتظة بالسكان وموضوع اشتهاء القومية الاميركية ومرامي اطماعها التوسعية ، ونظراً لهذه الاقلية الفرنسية القوية التي تمتعت فيها بنظام تمثيلي ، اجتازت كندا فترة من الاضطرابات الحادة . فالقانون الدستوري الذي صدر عام ١٧٩١ وقضى بفصل كندا العليا عن كندا السفلى ، امّن السيطرة في البلاد لارستوقراطية عقارية ، او تجارية ، واعترف ، في الوقت ذاته بمركز ممتاز الكنيسة الانكليكانية فيها . وقد أهاج مثل هذا الاجراء ، المزارعين وعمال الارض من الكاثوليك واتباع بعض الطوائف البروتستانتية . فألّفوا من بينهم معارضة انتصبت في مجالس الأقليات . فالاضطرابات التي وقعت عام ١٨٣٧ ، اقامت لندن واقعدتها . فبينا مال اللورد بروغهام وبعض اعضاء الحزب الراديكالي الى منح كندا استقلالها ، راح اللورد دورهام ، من ناحيته ، يقوم بتحقيق دقيق حول الموضوع ووضع عند انتهاء تحقيقه تقريراً كان صدوره حدثاً تاريخياً في تلك البلاد ، اذ اقترح بأن تتمتع كلا الولايتين بالحكم الذاتي ، لكل منها مجلس تمثيلي منتخب ، ومجلس اداري معين وحاكم له اختصاص رئيس وزراء . وهذه المؤسسات المنقولة عن النظام البريطاني جرى توسيعها فيا بعد لتشمل الولايات البحرية في ابكوسيا الجديدة وبرونسويك الجديدة ، كما انها طبقت فيها بعد ، على كل من الكاب واوستراليا .

وهكذا اطلت علينا هذه الامبراطورية المتحررة ، في هذا الوقت الذي سيطر على الانكليز النظام الانتخابي القائم على اساس الضريبة وسياسة حرية التجارة .

عودة الى التوسع والبسط في كل من البحر المتوسط والهند

فاذا ما توقف الاخذ بالسياسة الاستعمارية القديمة ، من جهة الغرب وفي النصف الجنوبي من قارتنا الارضية ، فقد سيطرت هذه السياسة واعتُمدت اساساً واتخذت قاعدة ، تمشوا عليها من جهة الشرق . وهذا الانحراف زامن فترة بسط النفوذ البريطاني على الهند برمتها ، لم يفت الاجيال الماضية معرفة شيء مما يتصل : بطريق الكاب وشعوب البربر القاطنة في المغرب ومصر ، والسلطنة العثمانية الآخذة بالانحلال والتفكك ، واستثمار هذه الارخبيلات الآسيوية الواقعة الى الجنوب من آسيا والى الجنوب من الهند ، وما العالم الاصفر من فتنة وسحر ، وما الى ذلك كله مما يتصل بالقضية الشرقية التي ألف الاوربيون شؤونها . وهكذا قامت العلائق التجارية وتوطدت واخذت الاطماع الاستعمارية تبرز وتتضح .

فلم تكن الحركة التجارية بحاجة لأكثر من وكالات تجارية واسكلة بحرية على طول الشواطىء الافريقية التي تسير وإياها في رحلة طويلة من هذا النوع . فلما كانت مدينة الكاب الهولنديين وجزيرة موريس للفرنسيين ، فقد فرض البريطانيون سيطرتهم بشدة على هذا الطريق السلطاني . فالقسم الداخلي هو موضوع اهتمام بعض الرحالة المستكشفين ، وهو ميدان رحب

لأسواق النخاسة والاتجار بالرق . فالاهتمام تركز حول مسالك البحر المتوسط . فمنذ الحملة الفرنسية على مصر ، راحت الدول الكبرى ، محافظة منها على مصالحها الحيوية ، تضع الخطط التي تخدم مصالحها في الغرب وتنهض بها على الوجه الأكمل . فقد خطر لميشال شفاليه ان يوصل الى مصر ، شبكة الخطوط الحديدية . وعندما انتظم سير بريد الهند البري خطر للمهندس (انفانتين) القيام بمشروع ضخم هو فتح قناة السويس . واعلنت الحرب بشدة على القرصنة ورجالها ، فراح الاسطول الانكليزي بقصف بشدة مدينتي الجزائر وطرابلس وقام اسطولهم بمظاهرة بحرية وعرض القوى ضد الداي الى ان جاءت الحملة الفرنسية ، عام ١٨٣٠ ، تضع حداً لحكمه وادارته. وفي حادثتين تركز الاهتمام بمصر واشرأبت اليها الانظار : هنا رغبة في توطيد الجهود التي يبذلها محمد علي باشا لخلق دولة قوية له على ضفاف النيل ، وهنالك من جهة ثانية فريق يخشى كثيراً من بروز اسرة مالكة طموحة ويوجس شراً من سيطرتها على هذا المفارق الدولي الهام . فكلا الفريقين يراقب عن كثب وضع المضايق والممرات المائية الهامة ، فتشهد القسطنطينية طوراً جديداً من هذا الصراع العنيف الناشب بين روسيا وانكلترا ، السيطرة على هذه الممرات التي تعد من اهم مفاتيح البحر المتوسط .

ان عدم التسليم بالانتقاص من هيبة الدولة وضرورة السير الى الأمام لترسيخ نفوذ الدولة ، كل هذه الاعتبارات تفسر لنا البطء والصعوبات التي رافقت عملية فتح الجزائر وهي عملية جاءت بنت الخاطر ولم يخطط لها من قبل . فالتصرف الفرنسي في هذه الناحية من الناحية الافريقية الشمالية يشبه الى حد بعيد ، مسلك انكلترا وتصرفها ، في الناحية الجنوبية . فنظراً للمسافات الشاسعة ، ولقيام هذا الجدار الذي يؤلفه البوير في وجه تقدم الانكليز شمالاً ، اقتضى التغلغل الانكليزي في هذه الاقطار الجنوبية طوال القرن بكامله ، بينما إخضاع الشعب الجزائري كاد يفرغ منه في الوقت الذي سقطت الملكية في فرنسا ، في تموز .

واهم من هذا كله واوسع ، هذه الأهداف التي رسمتها انكلترا من حروبها الطويلة في الهند . فهي امام كتلة بشرية من ٢٠٠ مليون نسمة تختلف عنهم عرقاً وأصلاً وفصلاً ولغة وديناً ونمط عيش ، ليس فيهم ما يجمع او يوحد ، وامامهم غاز طامع فيهم يرى نفسه بعيداً عن قواعده ، قليل العدد والمدد ، انما تجيش نفسه بالجرأة والاقدام ، مبطن بدبلوماسي مراوغ . وهنا ، كما في الجزائر ، فقد حل تدريجياً محل الاحتلال المحدود اشراف عام على البلاد بأجمعها. صحيح أن وضع امراء الهند ساعدوا جزئياً على تأمين نجاح هذه المغامرة الضخمة . وهكذا استطاع خلفاء كورنواليس ولسلي من هاستنغز الى اوكلاند الى ألنبورو أن ينفذوا من الهند الرطبة الى الهند الجافة ، وأن يبسطوا نفوذهم حتى مشارف ايران ، وأن يحتلوا السواحل الجبلية الممتدة من الخليج الفارسي حتى بورما . فالهدف الأساسي لسياسة لندن الدولية في هذه المنطقة هو إخضاع أمراء هذه المقاطعة أو تلك لسيطرتها والتحكم بثغورها ومسالكها. فاذا

كان لا بد من ضمان حرية الطرق الموصلة بين اوروبا والشرق الادنى ، استلزم ذلك وجوب السيطرة التامة على المحيط الهندي مما ادى الى احتلالهم لسنغافورة ولمضايق مالقا، ولمضيق عدن من جهة الغرب،وهما بمثابة جبل طارق . فسنغافورا ومالقا يتحكمان الى حد بعيد بشواطىء الهند الصينية وبالامبراطورية الهولندية في الانسولاند والممتلكات الاسبانية في الفيليبين . ففي الوقت الذي تتصرف فيه البلاد الواطية لحروبها الاستعمارية رامية منها لبسط سيطرتهـا على جاوا وصومطرة بعد ان اعيدت هذه اليها ، راحت بريطانيا العظمى تسعى لبسط سيطرتها على اسواق الشرق الاقصى . وانتهزت مناسبة حرب الافيون ، فاحتلت هونغ كونغ وارغمت الصين على فتح منافذها للغرب . فبعد ان تحولت لتجارة الحرير والشاي باتجاه البحر ، فلن تلبث ان وقعت ضمن الشبكة التجارية التي يشرف عليها الانكلوسكسون .

وفي هذا الوقت بالذات توفد الامبراطورية الروسية تجار الفراء عندها الى آلاسكا فتهدد بذلك الامير كين في عقر دارهم في المحيط الهادي ، كما تدفع ببعض القوزاق على الطريق السرية التي يسلكها تجار الشاي ، باتجاه واحات آسيا الوسطى . صحيح ان بيروفسكي يفشل تماماً في محاولته الوصول الى خيوة وسط الصحراء ، فقد استطاع مورافييف العاموري ان يظهر امام ساخالين . وقام نيفلسكي بتأسيس مدينة نيقولايفسك ، فهلع لب انكلترا لهذه الانجازات . ومع ذلك صمدت مقاطعة القفقاس طويلا امام الفتح الروسي ، واذا ما تمكن الروس من تطويق هذه المنطقة الجبلية واستطاع الجيش الروسي النفاذ الى قلب مقاطعة جورجيا واذربيجان ، فستبقى المنطقة الجبلية على عصيانها وتمردها ، مدة طويلة ، وهنا ، كما في الجزائر ، وكما في الهند وماليزيا، يحاول العالم الاسلامي ان يصمد ويواجه القوة بالقوة .

ففي الوقت الذي حاول بعضهم فيه استشراف المستقبل امام روسيا وانكلترا ، تحافظ اوروبا الغربية من وراء انكلترا على سبقها ، هذا السبق الذي يؤلف لها خير حافز لاستثمار موارد العالم الغنية .

القسم الثاني

قوى الغرب
وتوسع الأوروبيين العالمي

في السنة ١٨٥٠ ، بدا النظام الاوربي ، الناتج عن معاهدات سنة ١٨١٥، وكأنه قد عاد الى نصابه ، وفي السنة عينها ، زال خطر الحرب الاهلية الى حين في الولايات المتحدة بفضل التسوية الكاليفورنية ، واقعاً ، منذ السنة ١٨٥٤ ، بينما بلغت أزمــــة الرق ذروة حدتها في العــالم الجديد ، اندلعت الحرب – للمرة الاولى خلال القرن التاسع عشر – بين الدول الكبرى في العالم القديم ، فابتدأت بذلك اعمال حربية لن تنتهي الا في السنة ١٨٧١ . انهار النظام الاقليمـــي المقرر في مؤتمر فيينا والهيمنة العسكرية الفرنسية ؛ وحققت كل من ألمانيا وايطاليا وحدتهما ، وسيطر الريخ البسمار كي بدوره على اوروبا البرية الجديدة التي عرفت ، منذئذ ، السلام المسلح . اما الحرب الانفصالية فقد حررت مستقبل اميركا الانكلوساكسونية مما يعترض سبيله .

وطدت اركان الولايات المتحدة ، وعرفت اوروبا انقساماً لم تعرفه من قبل : وقد بــدا ، منذئذ وكأن مصير هذه الاخيرة يتردد حائراً .

ولكن الحقيقة على غير ما يبدو ، اذ ان قوى القارة الصغيرة ما زالت سائرة قدماً في نموها الحثيث . فاستمرت حركة توسع بريطانيا العظمى التي لم تدخل طرفا في حروب القوميــات ؛ وما لبثت فرنسا أن دخلت دور النقاهة بسرعة ، فساورتها رغبة متزايدة في اثبات وجودها خارج اوروبا ؛ وما زالت الكتلة الروسية تنوء بثقلها على آسيا ؛ ولن تلبث ان تبرز « السياسة العالمية » التي اختطتهـــا الامبراطورية الالمانية المتميزة بقوة هائلة . ولعل الحضارة الاوروبية أشعت حينذاك اشعاعاً فائق القوة .

الفصل الأول

المنعطف الحربي خلال القرن
الحروب القومية في أوروبا
والحرب الانفصالية في الولايات المتحدة
(١٨٥٤ ـ ١٨٧١)

من حرب القرم الى الحرب الفرنسية الالمانية ، حرب الانفصال وانقلاب الوضع في البر الاوروبي لمصلحة المانيا

تميزت السنوات ١٨٥٣ - ١٨٧١ بمزيد من الاضطرابات . فهبت على الغرب ريح حربية . وكان ميدان المعركة الاول شواطىء البحر الاسود . فقد حالف نابوليون الجديد انكلترا، وهاجم بجيوشه روسيا. ولكن نتيجة حرب القرم هذه لم تكن هزيمة للامبراطورية القيصرية وقيام ازمة داخلية فيها فحسب ، بل عجلت التوسع الاوروبي شطر الشرق واندلاع الحروب القومية في اوروبا نفسها في آن واحد . فمن جهة شعر مهزومو سيبستوبول ، الذين ابعدوا مرة اخرى عن المتوسط ، بحاجة الى الاندفاع نحو آسيا الوسطى والشرقية زاد من حدتها نشاط حمل فرنسا وانكلترا على الطرق البحرية المؤدية الى آسيا الجنوبية . ومن جهة ثانية ، برزت حركات الشعوب بسرعة في المانيا وايطاليا والدول الدانوبية بسبب انعزال النمسا وعداء الامبراطورية الفرنسية الثانية لمقررات مؤتمر فيينا الاقليمية. فأدى ذلك،بدون انقطاع تقريباً،الى الحرب الايطالية في السنة ١٨٥٩ ،وحرب دوقيتي شلسفيغ وهولشتاين في السنة ١٨٦٤، والحربين النمساوية-البروسية والنمساوية-الايطالية في السنة ١٨٦٦ : فبدلت خريطة اوروبا تبدلاً كلياً، ولم تنج ملكية آل هبسبورغ الا بثنوية نمساوية - هنغارية .

عقب هذا الهيجان في العالم القديم هيجان في العالم الجديد . فمبين تخلخل التوازن غير الثابت بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها بارتفاع عدد سكان الشمال ونمو اقتصاده ارتفاعاً ونمواً لا

بغارمان ، انتهى الجنوب الى تحرير الانفصال ، فكانت الحرب الاهلية التي نشبت في السنة ١٨٦١ نزاعاً مسلحاً بين فئتين اجتماعيتين تكاملتا وتضامنتا زمناً طويلاً ، وانتهى الامر بينهما الى عداء ازرق . لا شك في ان المذهب إلغاء الرق ، الذي زاد انتشاراً منذ السنة ١٨٥٠ ، واحرز الغلبة في الانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٦٠ بنجاح لنكولن ، أثره الكبير في تصدع الاتحاد ؛ ولكن الازمة المالية الاقتصادية - أزمة ١٨٥٧ - قد شددت اصحاب المزارع في موقفهم الحذر من رأسماليي الشمال ، بخلقها تيار حماية الصناعة الوطنية في الاوساط الصناعية . اجل انها حرب اجتماعية ، ولكنها حرب ضارية ، استطال عهدها ، لا نظير لها آنذاك في ما اسفرت عنه من تقتيل وتخريب .

أما اذا خرج منها الاتحاد اكثر قوة ، فان ضعفه العابر قد شجع مع ذلك بعض مطامع الدول الاستعمارية القديمة . وان الغزوة الفرنسية للمكسيك ، التي يعتقد البعض بأنها « الفكرة الكبرى » التي راودت حكم نابوليون الثالث ، قد جرت على طريقة من اميركا العاجزة عن فرض مبادىء « مونرو » . فهل هي فكرة لاتينية يا ترى ؟ أم هل هي نظرة الى المنطقة البرزخية بين الاطلسي والهادي في الوقت الذي تعد فيه العدة لفتح ترعة السويس ؟ ولكن القصد قد تصدع بناؤه منذ ان رفضت اسبانيا ، شأن انكلترا ، التورط حتى النهاية ، وحاولت عبثاً انتزاع الجزر « الأنتيل » الثنية » و « الغوادلوب » . فان حكومة لندن ، التي عملت بوحي الاختباء ، آثرت منع كندا نظام المستلكات . فكانت نتيجة المغامرة الفرنسية تقهقراً النفوذ الاوروبي في نصف الكرة هذا .

بعد أن صُدّ في المكسيك ، فكّر نابوليون الثالث بالاعاضة عما ناله في المناطق الرينانية . ولكن عداءه المتأخر للوحدة الالمانية ، بُعيد « سادوفا » ، قد جعله وجهاً لوجه امام بروسيا فكانت له « سيدان » بمثابة « واترلو » لنابوليون الاول .

في السنتين ١٨٧٠ - ١٨٧١ ، استكملت الدولتان الايطالية والالمانية عناصر وحدتهما ، الاولى بالاستيلاء على روما ، والثانية بسحق فرنسا التي خسرت الالزاس وجزءاً من اللورين بعد ان كانت استردت السافوا ونيس . اجل لن تتجدد الحروب الكبرى طيلة نصف قرن لأن المانيا الجديدة بحاجة للاستراحة . ولكن اهواء الشعوب لم تهدأ ، وهو السلم الذي عبر عنه بالسلم المسلح ما سيميز العلائق الدولية في اوروبا حتى السنة ١٩١٤ .

بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية للعهد الحربي

حاول بعضهم تقدير كلفة هذه الحروب : مليار ونصف المليار للحرب الايطالية ، ومثلها لحرب السنة ١٨٦٦؛ وبين ١٣ و ١٥ ملياراً للحرب الفرنسية الالمانية ، وقرابة ٣١ ملياراً لحرب الانفصال. وما ان سدد تعويض المليارات الخمسة حتى استعادت الموازنة الفرنسية توازنها مرة اخرى . الا ان الاقتصادين النمساوي والروسي قد تأثرا اكثر من الاقتصاد

الفرنسي، وامضت حكومة الولايات المتحدة زهاء ١٥ سنة في محو آثار عجز مالي الليل الوطأة.
وعلى اي حال ليس رأس المال ما تحمل هذا العبء في هذه الجهة من المحيط الاطلسي او تلك:
فهي رسوم الاستهلاك والرسوم الجمركية ما وفر النصيب الاكبر من الواردات الاضافية التي
يتوجب على جمهور السكان أن يؤمنوها؛ اما تضخم الاوراق النقدية «ذات الظهر الأخضر»
فقد سهلت المضاربة وانتقال الثروات الى اميركا.

رافقت الحروب ارتفاع في الأسعار، كما حدث بين السنة ١٧٨٩ و ١٨١٥. ارتفعت نسبة
الكسب الرأسمالي: ارباح الصيارفة عن طريق القروض (اصدر منها «ارلنجر» واحداً في اوروبا
لحكومة جنوبي الولايات المتحدة، ولكن ثلث القيمة خصص لتجهيز السفن التي لم تسلّم)، ارباح
المبارة(مورغان، كرلجي، روكفلر، واناماكر، فاركورهار، مار كلس في الولايات المتحدة)
مار كس ببيعه الروم والوسكي، وفاركوهار ببيعه الحامل لنقل الجرحى)؛ أرباح مصانع
الآلات الحربية والذخائر: كروب في اسّن، وشنيدر في الكروزو، وارمسترونغ وفيكرز في
انكلترا، والاسوجي نوبل في روسيا، و «دي بون دي نومور» في اميركا (زوّد هذا الاخير
الطرفين المتحاربين في حرب القرم) رمنتون وهولشكيس اللذان لجأ «محبنا» الى خدماتهما.
وحققت الكيمياء وصناعة استخراج المعادن نجاحات سريعة.

ميزات الحروب وعدد الحرب في منتصف القرن

تميزت النزاعات المسلحة التي ادمت اوروبا بقصر مدتها وسرعة
تقرر مصيرها لأن القوى بمعظمها تتجابه منذ الاصطدامات
الاولى. اجل حافظ معظم الدول على الجيش التقليدي المحترف،
وبقيت القوى المتقابلة في جبهة القتال محدودة العدد نسبياً. الا أن الجيش الوطني البروسي قد
ارتفع عدد أفراده منذ الاصلاح الذي فرضه بسمارك في السنة ١٨٦٢ – ١٨٦٣؛ وقد هزم هذا
الجيش على التوالي جنود الامبراطورية الثانية والفرق التي ارتجلتها حكومة الدفاع الوطني عائدة
في تنظيمها الى أساليب السنة ١٧٩٣.

أما في الولايات المتحدة، فقد جرت حرب «مكلة» حرب شاملة يلعب الارتجال فيها الدور
الاول في النهاية، ولكنها تستلزم وقتاً طويلا واستهلاكاً عظيماً في الرجال والعتاد؛ وما زال
اختصاصيو «وست بوينت» المحترفون يأنفون من ارسال الجيوش بأعداد كبرى الى جبهة
القتال، فكانت النتيجة ان الشمال أحرز السيطرة بقوة النار وبالعدد على السواء.

ان فترة السلم الطويلة التي عقبت السنة ١٨١٥ لم تكن موافقة لطلوع بتعاليم عسكرية
جديدة. وتأمل المعنيون بالأمر في مآثر كبار القادة من أمثال فردريك الثاني ونابوليون: فاكتفى
«جوميني» الذي أخضع كل شيء للعقل المفكر، بعدد صغير من القواعد الثابتة ونادى بتوفير
القوى؛ ونادى «كلوسفتز»، الذي خص المبادرة بنصيب اكبر، بأهمية القوى المعنوية،
وترابط السياسة والحرب، وراعى دور القطار الحديدي. أما عملياً فان الجيش النمساوي كان

ينصب الى المركة كا الى لعبة شطرنج ، والجيش الفرنسي ، الذي فاتته عادة العمليات الواسعة، لم يستخلص من حلاكه على الجـزائر سوى دروس شجاعته و « حسن تصرف » . وعاش العسكريون البروسيون ، بعد ليبزيغ وواترلو ، في مناخ الثقة الجافلة نفسه الذي عاشوا فيه بعد انتصارات فردريك ، فتلمسوا طريقهم قبل ان يسيروا على خطى « مولتكه » الذي انضجه عوزه في بدء حياته وبعض خيبة الآمال في تركيا ، وخدمه مبدأ جمع كافة الجندين في فرقة واحدة — مما يسهل احداث رحلات كبرى على بعض الاستقلال — فاختـار استراتيجية على طريقة كلوسفتز ، وعـين من ثم على رأس الجيش أركان حرب يعرفون كيف يتحملون مسؤولياتهم ، وفضل على « المركز الحسن » الذي يسعى وراءه المشاة ، المناورة التي وسع من أجلها مور المدفعية .

استمرت المنافسة بين الرماية والدرع ، ففي سيبستوبول وحول ريشموند شلت حركة المهاجم زمناً طويلاً أمام الخطوط المحصنة ؛ ولم يحاول الالمان الاستيلاء على متز بالقوة ، كما أن باريس قاومت طيلة خمسة أشهر . ولكن الاسلحة الهجومية حققت بعض التقدم : فان ابتكار كبسولة التفجير ، والطلقة النحاسية ، والرصاصة المستديرة - المخروطية الشكل ، كان بمثابة انتقال من البندقية الزنادية الى السلاح المفرض الذي يحشى من المؤخرة ، من نوع « درايز » المعتمد في الجيش البروسي ، أو من نوع « شاسبو » الذي اختاره الجيش الفرنسي . واذا كان المدفع المسدس ومدفع الرصاص-رشاش الكولونيل « دي رفتي » — اللذان ابتكرا في أميركا ، أثار في فرنسا ، في السنة ١٨٧٠ ، آمالاً ليس لها ما يبررها ، فان المدفـع المفرض ، الذي انكب على دراسته الكولونيل « رووي دي بولبو » والذي يطلق قذيفة مقوسة المقدمة تعرف بالقنبلة ؛ قد احتل مركز المدفع الصقيل الذي يطلق القذائف الملأى والمستديرة ؛ ولكن الحشو من المؤخرة واستبدال الشبه بالفولاذ لن يعتمدا الا شيئاً فشيئاً .

وتنافس الدرع والقذيفة على البحر أيضاً . فقد كان حدثاً هاماً ابتكار مدفع « بكسان » لاطلاق القنابل ، الذي جعل السفينة الخشبية عرضة للتدمير ، وهو هذا المدفع ما أتاح للروس تدمير الاسطول التركي في « سينوب » . زد على ذلك أن « فولتن » قد ابتكر القذيفة الناسفة التي استخدمها المدافعون عن « كرونستات » و « سيبستوبول » ، وبنى الجنوبيون لقذفهـا اول سفينة تسير تحت الماء . ولكن الاختراع المضاد له قيمته الكبرى ايضاً . فقـد سبق لفولتن واركسون ان فكرا بتصفيح هياكل السفن . ثم ظهرت السفن المعدنية والآلات البخارية في السنة ١٨٥٠ : فرفق « غوباس » الى تعويـم خمس مدفعيات استخدمت في القرم ، ثم حققت « دوريان » في السنة ١٨٥٩ ، السفينة الحربية المدرعة مستعينا بتصاميم « ديبوي دي لوم » اطلق عليها اسم (*Gloire*) المجد ؛ ولكن الانكليز ما لبثوا ان حققوا سفينة حربية تنافسها هي « المحارب » .ولم يمض وقت قصير حتى حققت في الولايات المتحدة السفينة (*Monitor*) التي صممها اركسون الشماليين ، فكانت لا تري بسهولة ولا تقاوم الامواج بقوة ، ولكنهـا كانت

مدرعة بصفائح حديدية سميكة جعلتها تقف بالمرصاد « (Merrimac) سفينة الجنوبيين الخشبية المزودة بجهاز معدني في طرف مقدمتها ، وتكيل لها الضربات الواحدة تلو الاخرى . فخشيت بريطانيا العظمى فترة من الزمن على زوال هيمنتها ، فبنت بسرعة سلسلة من « المدرعات » التي زودها « ارمسترونغ » بالابراج .

بيد ان النجاحات التقنية لم تكن من التقدم بحيث تتجاوز الخسائر في الارواح خسائر حروب الثورة والامبراطورية تجاوزاً يذكر . فان معركتي « ريزونفيل » وسان – بريفا اللتين تعتبران ام المعارك الدامية في السنة ١٨٧٠ قد اسفر كل منها عن ٠٠٠ ٣٣ ضحية ؛ والحال ، اسفرت واغرام عن ٠٠٠ ١٠ قتيل وواترلو عن ٠٠٠ ٥٠ . وبالامكان اضافة الوفيات المعزوة للامراض . فتقدر ضحايا حرب القرم بمجموعها بـ ٠٠٠ ٨٠٠ شخص تقريباً، وحرب السنة ١٨٧٠ بـ٠٠٠ ٦٠٠ وحرب الانفصال بـ ٠٠٠ ٣٢٠ ١ .

ولكن الشاعر لا يريد ان يفقد الامل :

« لا ! لا ! ليس مصير الانسانية

أن تجلس بلا حراك عند عتبة المدافن الباردة ...»

(فكتور هوغو ، « السنة الرهيبة »)

الفصل الثاني

عصر الايمان المطلق بإمكانات العلم

« تمسك بعقيدة التقدم تمسك المؤمن بعقيدته ...»

(فلتير)

رسالة الغرب

كانت حرب الانفصال حدثاً عابراً في مرحلة ارتقاء تميز بسرعته ، فلم تضعف عند الاميركي شعوره بأنه معدّ لدور عظيم ، ولكن المنازعات القومية قــد عجزت هي ايضاً عن صرف الاوروبي عن اعتقاده بأنه يحمل مشعل « الحضارة » . ولا يشك « فوريـيه » في ان مفهوم الحضارة نفسه لا ينطبق على « الفترة الخاصة من الحياة الاجتماعية التي بلغتها الامم الاوروبية » . ويسخر « ماكولي » من أولئك الذين يرغبون في تثقيف الهندي وفقاً لمفاهيمه الخاصة : « حين نعلم فلسفة سليمة وندافع عن الحقيقة في التاريخ ، نكون كمن يكتب بالاموال العامة لعلم فلك من شأنه اثارة الضحك في مدرسة الفتيات الانكليزيات ، او القصة ملوك يبلغون ثلاثين قدماً ارتفاعاً ويتولون الحكم آلاف السنين ، أو لجغرافية لا ذكر فيها الا لبحور من الزبدة أو من السائل الحلو الكثيف الذي يبقى بعد تبلور السكر » . والسبب في ذلك ان تفوق الثقافة الغربية لا يمكن ان يكون موضوع جدل . وقد قال « برودون » في هذا المعنى: « ان قدسية الانسان مصونة ، وما علينا ، نحن العرق المتفوق بالنسبة للاعراق المتخلفة ، سوى رفعها الينا ، ومحاولة تحسينها ، وتقويتها ، وتثقيفها ، وتشريفها . ورأى « بول لروا-بوليو » ، وهو صهر « ميشال شيفاليـيه » القائل قول « سان - سيمون » ، ان ما يتوجب على « الشعوب العصرية » هو « عدم التخلي عن نصف الكرة الارضية لأناس جهلة وعجزة » . واستند «تيودور روزفلت » ، على غرار معاصره غليوم الثاني ، الى الرسالة التعليمية المتوجبة على هذا الشطر من البشرية الذي يطلق عليه الربان « ا . ت . ماهان » اسم « واحة الحضارة في صحراء البربرية »، وتقوى من عزم فؤاده « استملاك الاعراق العاصمة الاهلية » لمصلحته . ورأى ماركس من جهة ثانية ان مهمة ارشاد المجتمعات وقيادتها تعود الى البروليتاريا المتنورة،أي بروليتاريا البلدان المتطورة.

مسألة الثقافة

فالأمر الهام من ثم هو المعرفة ، هو التربية التي قال عنها فولتير انها « المنبع الخصب لكل نظام وهدوء وسعادة » .

ان نقطة الانطلاق هي محاربة الامية ، ذلك العيب المخزي . لقد اسهمت المطبعة والمدرسة في ذلك . وما كانت الثانية لتعطي ثمارها لولا التقدم الذي احرزته الاولى . ولكن اذا رغب الانسان في القراءة والكتابة - اذ أن الكتاب والصحيفة والاعلان آخذة كلها بالانتشار والرسالة تنقل بسعر منخفض - فليس معقولاً ان يطلب من التعلم الابتدائي فوق ما يستطيع اعطاءه ، ومهما يكن من فضل هذه الثقافة الأساسية ، فهي لا تعدّ للمهنة . من هنا تنشأ الميل الى تعلم مهني لا ينفصل فصلاً كبيراً بين النظرية والتطبيق العملي ، ويوسع في الوقت عينه افق الكتاب المدرسي. ولكن نادراً ما قهرت الصعوبة ، فقد استمر التفريق بين من يتوجب عليه تأمين قوته وبين من يستطيع متابعة تحصيله العالي ، وقد ساعدت على هذا التفريق التمييزات الاجتماعية السائدة .

ولكن ما هي قيمة تعلم آداب قديمة يتذوقها أبناء الارستوقراطية والبورجوازية في الكليات والجامعات ؟ هل في الثقافة الكلاسيكية القديمة ، التي أرضت اهواء النخبة ، استجابة دائمة للحاجات ؟ لذلك كان القرن التاسع عشر ايضاً مجادلة بين الاقدمين والمعاصرين . فقد قال أراغو من اعلى منبره : « لا يصنع سكر الشمندر بالكلام الحلو ؛ ولا يستخرج الاشنان من ملح البحر بالأبيات الشعرية » ، بينا دافع لامرتين عن قضية « الحقائق الاخلاقية التي تأتينا عن طريق الدروس الادبية » . فهل ان الآداب هي والعلوم على طرفي نقيض ؟ ان مستلزمات القرن واقع ثابت ، والاختيار المتفاوت الحرية - بحسب الأمزجة القومية - أملى التسويات بين الانظمة الفكرية المختلفة . ومهما يكن من أمر فالحقل العلمي اتسع بسرعة . ولم يبق سوى تدبير التوفيقات الضرورية بين المختبر والمصنع : تحققت الحالفة بعض الشيء بين الفني والعالم ؛ وهي المانيا التي ارشدت الى الطريق في اوروبا. واذا ما زال ممكناً ان يكون المخترع في الغالب ممتهناً وضيعاً ، فقد اصبح الاختراع ، اكثر فأكثر ، ثمرة الدرس. ولكن العائلات صاحبة الامتيازات لم تفقد مكانتها . فعائلة « هرشل » ، وعائلة « سابروف » ، تملان وحدهما مائة سنة من علم الفلك . وقد سيطر اسم عائلة « كاندول » ، زمناً طويلاً على تاريخ علم النبات . وفرضت عائلة « بكريل » نفسها في حقل علم الطبيعة منذ منتصف القرن . واكبت عائلة « لينورمان » بكل نجاح على علم الآثار . ويمثل الاخوة « سيمنس » العشرة جيلاً من الفنيين يثير الاعجاب والدهشة : فقد اعطوا مثلاً نادراً في نجاح وتوسيع تطبيقات العلم على الصناعة .

تقدم الروح العلمية : الاثر الوضعي

ازدادت ثقة العلم بنفسه اكثر فأكثر، فأوضح اساليبه وتنظيمه. لقد خلف مذهب العقليين الكرتزياني الذي استند الى بصيرة العقل مذهب عقلي يرتكز ارتكازاً أساسياً الى الاختبار . يضاف الى ذلك من جهة ثانية أن القرن قد نبذ نبذاً نهائياً المنطق الصوري الذي علمته الفلسفة الكلامية والذي ليس ابتداعياً ،

وأرسخت للبرهنة على الاستدلال الحسابي الذي يفتح الطريق باستمرار امام الاكتشاف . وقد جمع « جون ستيورات ميل » قواعد الاستنباط بواسطة المعطيات المتنمة . وبينا أخضع «غالوا» الحساب نفسه للاختراع ، لم يبق « كلود برنار » على الاختراع الا ليجعله في خدمة الاختبار ، مقاومة منه للمنطق الكرتزياني الذي أخضع الاختبار للتصور النفعي : ليس الفكر ان يخضع الاختبار امام متطلبات فكرة تكون ببصيرة العقل ؟ اذا كان هنالك بصيرة عقلية عرافية ، فان الاختبار يستدعي بصيرة عقلية رقابية . وليس من الصعب استشفاف ما ينطوي عليه هذا الموقف من خصب وامكانات . فهو ما سيوفر لعلوم الطبيعة عدّة فكرية عليّمة وبعيدة الغور . ولكن مذهب ماركس المادي الجدلي قد اقترح كذلك،انطلاقاً من الواقع، نظرة «ديناميكية» على العالم تنطبق على تصرف البشر . زد على ذلك ان علماء الرياضيات قد قدموا النتيجة بعد اليوم على اقامة البرهان .

لا ريب في ان المذهب الوضعي قد ابتنى من العلم أن يمين بوضوح صفاته المميزة ومداه وحدوده . ومن حيث هو يدّعي تحديد « الحالة النهائية الحقيقية للعقل البشري » ، فقد عين للعلم موقعه بالنسبة لعلم المعقولات والنظريات المنطبقة على مفهوم الغائية ، وأسند اليه مهمة اكتشاف السنن النهائية للظواهر باستخدام البرهنة والملاحظة معاً ، واقترح عليه ، كثل أعلى ، جمع كافة آرائنا حول الكون في مجموعة واحدة من الحقائق المترابطة رابطاً عادم الانفصال ، وطلب اليه اخيراً خدمة التقدم البشري قبل أي شيء آخر ، فربط بذلك الدروس العلمية بعلم الطبيعة الاجتماعي أو علم الاجتماع .

معرفة الكون

لاحظ « كورنو » ان الرياضيات اتجهت « اتجاهاً تغلب عليه الصفة النظرية حين كان القرن يبدي مزيداً من الاهتمام بالناحية العملية » . فما زالت موضوعَ الساعة التوابعُ والاعداد والمجاميع الحسابية ، تلك المسائل الكبرى التي أكبّ على ايضاحها « ويرستراس » و « هرميت » و « كرونيكر » والعديد غيرهم ممن حجب اسماءهم لمعان اسم « هنري بوانكاريه » . فلم يكتف هذا الاخير، في المجلدات الثلاثين والبيانات الكثيرة التي نشرها ، بانجاز جهود سابقيه ، كأن يعود الى توابع « فوكس » مثلاً ويطبقها على الهندسة الاوقليدية ، بل تناول في ابحاثه المعادلات التفاضلية ، والكميات الصغرى ، وحساب التكامل، ومسألة الاجسام الثلاثة (سبق للآلية النيوتونية ، ان حلت مسألة الجسمين) ، واهتم بالعلائق بين الظواهر الكهربائية والظواهر الضوئية . وان « ريمان » الذي ابتدع هندسة غير اوقليدية قد وجد نفسه منساقاً ، منذ السنة ١٨٥٤ الى اقتراح فضاء ذي أربعة ابعاد ، والشعور شعور بعيداً بالنسبية . وقد وضع المعالم على هذه الطريق الاخيرة كل من « هاملتون » بنظرية الجمل الجبرية الخيالية ، و « كايلي » و « سيلفستر » بنظرية الثوابت .

وهكذا فتح علم الرياضيات امام علم الطبيعة آفاقاً غير منتظرة . ولكن ذلك لم يمنع الانسان من ان يروّح الوقت «وقته» ، لاجل راحته وتسهيل اعماله : حدد ساعة وسطاً ولختار

من ثم خط طول أصلياً (هو خط طول « غرينوتش ») ، ورسم اقساماً وهمية منزلية الشكل لتحديد الوقت وتوحيده في مختلف الدول ، وسينشىء مكتباً دولياً للساعـة . ولحت قبلب المراصد ، التي ارتفع عددها ارتفاعاً مطرداً ، وزودت بالمراقب الجبارة ، وأجهزة التصوير ، ثم بالمناظر الطيفية ، رسم خريطة السماء بصبر وطول أناة ، وثابر على اكمالها بالكواكب التـي حقق هويتها واوضح طبيعتها وابعادها وحركاتها . ثم عين « فيزو » سرعـة الضوء بواسطة عجلة مفرضة ،وبرهن « فوكو » ، الذي أكب على البحث نفسه ، ان الارض تدور حول محورها بواسطة رقاص جعله يتذبذب بعد ان علقه بخيط تحت قبة الـ « بانتيون » . ثم سار فن التحليـل الطيفي قدماً بفضل « كيرشوف » و « بونسن » و « هوغنز » و « ميلر » (مولد علم الطبيعة الفلكي) . واصاب « ماكسويل » بتفسيره ان الضوء نتيجة تموجات مغنطيسية وكهربائيـة مشتركة . ودنت الساعة التي سيحقق فيها « هرتز » الموجات الكهربائيـة . فبدت الموجات منذئذ وكأنها تؤلف مجموعاً ضخماً ، ابتداء من الموجات وراء البنفسجية التي لا تتجاوز بعض اجزاء مئوية من المليمترات حتى موجات « هرتز » التي تبلغ ألوف الكيلومترات . أفليس في هذه الظواهر الضوئية والتموجية والكهربائية والكيميائية دليل وحدة هي وحدة الكون نفسها ؟ .

زمانا « مرسلين برتلو » واللورد « كلفن » : الدورة الآلية

في بيان نشره في برلين في السنة ١٨٤٧ ، طرح « هلمهولتز » مسألة ذاك الشيء المبهم الذي يظهر في الآلة البخـارية والكهرباء والنور نفسه : مسألة الطاقة . والحال ، فان « ماير » و « جول » و « كلوزيوس » ، و « كارنو » من قبلهم ، قد عينوا سنن علم القوة الحرارية ، التي طبقت على درس الغازات فقادت « ماكسويل » و « بولتزمن » الى النظرية الحركية ؛ وفي الحقل العملي ولّد الضغط والتذويب صناعة التبريد .

بعد صياغة سنن دوام وتلف الطاقة ، بقي هنالك اخضاع المادة العضوية نفسها لقواعـد الطاقة الآلية . وقد توصل اليها الكيميائيون فعلاً ، ولو بعد مجادلات عنيفة : ألم ينبىء « دوماء » بأن الكيمياء ستصبح قادرة على مجاراة الطبيعة الحية ؟ فبعد مرور عشرين سنة ، جاء تحليـل كلورور الالومين على يد « سانت كلير - دفيل » ، وتركيب الكحول الخشبي انطـلاقاً من عناصره على يد مرسلين برتلو ، يحكيان لما قاله . وهكذا فان بعض الاجسام ، التي كانت تبدو ثابتة ، قد تحللت ، في بعض الظروف الحرارية ، الى عناصرها ،فلحق مدلول التوازن غير الثابت بسنن علم القوة الحرارية . وفي السنة ١٨٦٣ تحقق تركيب الاسيتيلين انطلاقـاً من عناصره بمجرد تدخل الشرر الكهربائي . ثم جاء على التوالي دور البنزين والنفتالين والشحوم . وأيـد « برتلو » تأكيد الدانمركي « تومسن » بأن الحرارة المتكونة بالتفاعل الكيميائي قابلة القياس ، فقام علم حراري كيميائي الى جانب علم القوة الحرارية .

كـلِف بالاختبار وامتنع بقدرة العلم القاهرة ، فتخيل بفضل العلم مستقبلاً عظيماً جـداً

للانسانية . وجد على غرار « نوبل » في اتقان المتفجرات ، ولكنه انتج الـ « اوزون » صناعيا ووفر لمعاصريه وسيلة لتعقيم الماء وتخيل للسنة ٢٠٠٠ غذاء قوامه صفائح آزوتية : آمن بالتقدم اللامحدود واسهم في وضع الكيمياء في خدمة التدمير . انه لوجه هادم المثيل والنظير . وقد وصف « ميثليه » كتابه « الكيمياء العضوية المبنية على التركيب » وكأنه «المسلح الذهبي» في هذا الفرع الذي بلغ اشده .

ان « ملك الكيمياء » هذا - كما اسماه « جول لو ميتر » ، الذي استقبله في الاكاديمية الفرنسية - قد مات في السنة ١٩٠٧ ، سنة وفاة اللورد كلفن ، المثل العظيم الاخير للايمان المطلق بامكانات العلم . كان « وليم تومسن » عبقرياً عملياً اكثر منه نظرياً ، فاكتشف المبدأ الذي سبقه « كارنو » الى اكتشافه ، وحسن خصوصا اجهزة كهربائية كثيرة ، وادار عملية انزال السلك البحري الاول عبر الاطلسي ، وكتب العديد من المقالات والبيانات وترأس جمعيات علمية كثيرة في بريطانيا العظمى وسواها . احيط بالتكريم وأغدقت عليه الدرجات الرفيعة ولكنه لم يتوار عن مسرح هذه الحياة قبل ان يشهد هبوط المذهب الآلي الذي دافع عنه اكثر من اي عالم آخر .

معرفة الحياة والانواع الداروينية

بعد مبارزة « كوفييه » وجوفروا سانت - ايلير » بدا النصر وكأنه حليف مذهب ديمومة الانواع ونظرية التبدلات الفجائية . الا ان بعض معطيات الجيولوجية وزمن ما قبل التاريخ وعلم الاحاثة قد امالت العديد من الطبيعيين الى مذهب التحول الذي قال به « لامارك » .

والحال ، اصدر شارل داروين ، في السنة ١٨٣٩ - ١٨٤٠ ، « يوميات اجتياله » الذي دوّن فيه ملاحظاته خلال سفرته البحرية في المياه الجنوبية : فلقد لفت انتباهه الاختلافات في النوع الواحد بين جزيرة واخرى . لقد سبق له ان عرف الجيولوجي « ليال » ، المناوئ للمذهب الذي ينسب التبدلات التي حصلت على الارض الى الفيضانات والزلازل ، كما قرأ مؤلفات « مالتوس ». ارتأى ان الصراع من اجل الحياة ظاهرة عامة تتم بواسطتها عملية انتقاء طبيعية. واصل استقصاءه ، وفي السنة ١٨٥٩ اصدر كتاب « منشأ الانواع » الذي بيع منه ١٢٥٠ نسخة في فترة قصيرة ونقل الى ست لغات .

كان الانتباه متجهاً آنذاك الى الانواع الضخمة من الحيوانات المنقرضة : الزحاف الاريش ، والطير الانيّب . وقد وضع « اوسبورن » بياناً بانسال الهر منذ الدور الجيولوجي الثالث . ولكن ماذا عن اصول الانسان ؟ فهل سنكتشف يوماً بقايا « بشر سابقين الطوفان » كما انبأ بذلك « بوشيه دي برت » ؟ في الواقع عثر فجأة على جد انسان نيندرتال في السنة ١٨٥٢ ، ثم جاءت الاكتشافات الحاسمة في منطقة « بيريغور » ، في « اوريناك » ، و« غريمالدي ». ولم يخش بعضهم من اقامة نسب بين القرد والانسان .

قام في الوقت نفسه ، منذ ان حقق « بوهل » جبلة خلايا الاجسام الحية ، نقاش حاد حول

تركيب الخلية وصورها ، وهما موضوعان هامان عني بها التقليديون ، المناوئون لمبدأ التطور والتناسل الذاتي . فبينما كان الداروينيون يرفضون التناسل الذاتي ، لثبتّ بعض العلماء من امثال « باستور » و « كلود برنار » من السير وراءهم حتى النهاية . ولكن « هكسلي » شدد على اوجه التجانس بين الانسان والقردة في السنة نفسها (١٨٦٤) التي ندد فيها البابابيوس التاسع عشر برفع مشهور ، وما لبث « فريتز مولر » ، بعده بوقت قصير ، ان ربط بين علم تخلق الجنين والانتقاء الطبيعي . افترض هكسلي ان المادة العضوية الاصلية موجودة في قعر البحار ، بينما طبق « هكل » ، الذي ربط نظرية الخلايا بمذهب داروين ، سنة « بار » المعروفة بسنة نشأة الحياة ، على الجنس البشري . وقال الفيلسوف « هربرت سبنسر » نفسه بمذهب تحولي ينطبق على حقل المعرفة بكليته ابتداء من تثل السديم حتى القول بصيرورة اجتماعية متناسقة .

كان سبنسر من اولئك الذين لا يعتقدون بصراع الانواع اعتقادهم بأثر البيئة . وقد تقبل آنئذ « هيات » و « كوب » من اميركا لاماركية حديثة حلت « لوب » على الطلوع بنظرية التفاعلات بين المادة الحية والظواهر المحيطة بها . اما « موريتز فاغنر » فقد قال بتجمع الانواع المتشابهة بدلا من الانتقاء الطبيعي ، بينما استند « هوغو دي فريز » الى السنن التي وضعها الراهب النمساوي « غريغور مندل » ، وعاد ، تحت اسم التحولية ، وعن طريق التناسل ، الى نظرية التحولات الفجائية . فيجلي من ثم ان مواقع الداروينية قد ضعفت منذ ان قامت بهجومها القوي .

الصراع من اجل الصحة
كلود برنار والثورة الباستورية

مهما كان من امر النظريات حول اصل الانواع وتطورها ، فقد ولد شيئاً فشيئاً ، بفضل علم الوظائف وعلم الحياة ، طب جديد قدمت له الجراحة مؤازرة قيمة . أتاحت الملاحظة الطبية للانسان معرفة جسمه والعوامل المرضية التي تهاجمه معرفة فضلى : فساعدته بقوة على تخفيف الالم وبعث الآمال المتزايدة في الحياة .

ومهما كان من اختبارية الطب حتى في منتصف القرن – فهو ما زال ينعت الحمى التيفية والزحار بالأمراض « العفنية » – فانه قد استفاد من اعمال « لاينك » و « بروسيه » و « اندرال » و « برايت » الذين قطع علم الامراض العضوية بفضلهم المرحلة الهامة اعداداً لعلم الامراض المرضية الصحيح . ولكن الجراحة ما زالت تقاسي من جهل طرائق استئصال الجراثيم وتأمين المناعة .

على الصعيد العلمي ، يجب انتظار « كلود برنار » لاحراز تقدمات حاسمة . البت تلميذ « ماجندي » هذا وجوده للمرة الاولى في السنة ١٨٤٩ ببيان حول كيفية هضم الشحوم ، ولا سيا باكتشاف وظيفة الكبد السكرية التي تسيطر على عملية التغذية كلها . وبعد ان افضى به الامر الى ادراك ان السكر الرقود الذي يحترق في الانسجة ويأتي به الدم مع الاوكسجين، ران ينسب الى الاعصاب الاشتراكية دور منظم حركة الدم ، ويدرس فعل السموم في الاعضاء ،

نشر كتابه « دروس في علم الوظائف الاختباري وتطبيقه على الطب » ، ثم « مدخل الى درس الطب الاختباري » الذي كان بمثابة الانجيل لعالم الطبيعيات والعالم بصورة عامة ، والذي اولى فيه الافتراض والاستقلال أهمية كبرى ، وأوصى بمناقضة الآراء السابقة ، وأراد اسناد الطب الى سنن ، شأنه في ذلك شأن علم الطبيعة . وحين أدركته المنية في السنة ١٨٧٨ ، كان قد توصل بالفعل الى اثبات وحدة التطاقين الحيواني والنباتي ، واعتاق علم الوظائف من الاختبار وعلم المعقولات ، وتحقيق احد آمال « اوغست كونت » . ان هذا الانسان الذي تميز بهيئة مهيبة وطيبة قلب وطلاقة وجه ، قد استمال اليه الناس وأشع من حوله اشعاعاً قوياً . خلفه في « كلية فرنسا » ، « برون – سيكار » الذي نجح في مواصلة درس الافرازات الداخلية ، فدفع من ثم بدرس الغدد دفعة الى الامام . وتخصص احد تلامذته « بول برت » في فحص الوظائف الحاسية وظواهر التنفس ، قبل ان يتفرغ للديموقراطية الجمهورية ويلقى حتفه في الـ « تونكين ».

الا ان امنية كلود برنار الاولى كانت تحرير الطب من ضلاله المعتاد . وقد اكب احد الكيميائيين من جهته على تحقيقها . كان « لويس باستور » قد تقدم في السنة ١٨٥٧ ببيان حول الاختمار الكحولي ؛ وقد خلص فيه الى وجود الخائر والمواد القابلة للاختمار معاً ، والعلاقة بين تعفن الخضة – وهي جرثومة قوسية – وحياتها بدون هواء . اجل لقد سبق لـ « ليبيغ » وأعلن وجود مثل هذا الدور ، ولكن باستور قد اظهر علمياً كيفية حدوثه . ثم انتقل الناس الى التساؤل عما اذا كانت الاجهزة العضوية المجهرية لا تهاجم الكائنات الحية . وقد صادف أن أصيب دود القز بمرض مجهول ، فاكتشف باستور جسيمات بالغة الصغر تنتقل بواسطة البيوض ، هي البكتريات . وقد اثبت الجراح السكتلندي « ليستر » آنذاك ان الفساد الذي يحول دون شفاء الجروح مرده هذه الجراثيم التي اتقاها بالتطهير او تأمين المناعة ضد العفونة . عند ذاك توفق الدكتور « كوخ » من « برسلو » الى زرع جرثومة الفحم التي اكتشفها « دافين » و « ايرت » ، والتي كانت تفتك فتكاً بالمواشي . درس باستور بيانه ولاحظ اتفاقاً ان جرثومة هيضة الدجاج ، تمنع الدجاجة ضد المرض اذا ما لقحت بها ، ثم لقح بالفحم ، في السنة ١٨٨١ ، خمسين خروفاً بعد ان طعم ٢٥ من بينها بنسبة خفيفة من الجرثومة (وفاقاً للطريقة التي اتبعها « جنر » في اعداد لقاحه ضد الجدري) ؛ فلاحظ الجمهور ان الخرفان غير الملقحة وحدها قد ماتت . انه لاكتشاف على جانب كبير من الاهمية : فلن تنسب الامراض بعد اليوم الى الاعتلال بلا تمييز ؛ لقد امسك بالجراثيم ؛ ورورقبت اعمالها ، وحوصرت بحيث امكنت محاربتها في معركة مباشرة وناجعة . وقد بلغ مجد باستور ذروته حين شفى ، في السنة ١٨٨٥ ، ولداً عضه كلب كلِب .

قضى باستور عشرين سنة في المجادلات الحادة قبل ان يتغلب على المقاومات والآراء المقبولة قبل التحقيق . ولكنه انتصر في النهاية ، وقد استمد جيش من التلامذة الحلول محله في مقاتلة الجراثيم والطفيليات . فان احدهم « لوبليه » قد توفي في الاسكندرية حيث كان مكباً على

دراسة صيفية وتقنية ؛ وتوفق آخر، هو «شامبرلان»، الى إحكام مطهرة بالبخار المضغوط ومصفاة مالية صحية ؛ وتخصص بعضهم في الكيمياء الزراعية : « رولين » ، « فان تيغم » ، « اميل ميكلو » الذين استكشفوا بتدقيق الحقول المختلفة التي تعيش فيها النباتات وحققوا به شلوسنغ » و « مونتز » و « فينو غرادسكي » في بحثهم عن بكتاريات العالم النباتي : فحققوا اكتشافاً عظيماً حين اثبتوا ان الاختمار سبب تكوين الأزوت في التربة .

في هذه الاثناء واصل سواهم تحقيق هوية اصاغر الجراثيم - ك . « كوخ » مثلاً الذي اكتشف جرثومة مرض السل ، بعد ان درس الفحم ، ثم اكب على دراسة جراثيم الهيضة والملاريا ومرض النوم والبرص ، الى ان ادركته النهكة فتوفي هو نفسه بعد اصابته بمرض السل - فمست معالجة الامراض السارية معالجة وقائية . وقد احرز تقدم جديد بالمعالجة المصلية التي توفق اليها « شارل ريشيه » فدشن بذلك الطريقة النوائية ؛ ثم طبق « اميل رو » و « فون بهرنغ » الطريقة على مرض النباح (دفتاريا) الذي حقق « كلبس » هوية جرثومته في السنة ١٨٨٣ ، وركب مصله في السنة ١٨٩٤ ؛ ومن جهة ثانية امتدت حالة المعالجة الكيميائية ضد الفساد التعفني الى حالة الامراض المتسببة عن الاوليات .

اتسع حقل الابحاث امام الغربي ، الآخذ في السيطرة على العالم ، كلما وُجد وجهاً لوجه امام الادواء والاوبئة في المناطق الحارة . نشط منذ زمن بعيد في معالجة الملاريا والقضاء عليها في الحوض المتوسطي : في السنة ١٨٨٠ لاحظ « لافران » الحيوانات الدموية في قسطنطينة ؛ وجاء بعده « رونالد روس » ، الطبيب في جيش الهند ، يعين بعوضة الاجمة كناقلة للملاريا فحاربها بنجاح في كوبا وباناما ومصر ؛ ثم اهتم الاطباء الايطاليون المتخصصون في معالجة الملاريا ، الذين شق « غراسي » الطريق امامهم ، بتطهير مناطق المستنقعات في بلادهم وجعلها صحية . وشن الهجوم على الهواء الاصفر حين حقق « فنلاي » ، الطبيب الكوبي ، هوية جرثومته . واكتشفت جرثومة الطاعون الدبيلي في « كانتون » في السنة ١٨٩٤ بفضل « يرسين » ، تلميذ معهد باستور ، والياباني « كيتاساتو » . واوضح « سيموند » ان الجرذ الاسود ينقله الى الانسان. وحقق الدكتور « فورد » من غامبيا وبمثة « بروس » هوية الحشرة التي تسبب مرض النوم . وسوف يبرهن « نيقول » و « كونت » و « كونساي » في السنة ١٩٠٩ ، ان القمل هو ما ينقل الحمى النمشية . وقد وضعت ابحاث في الجغرافيا الطبية والطفيليات ترشد الى مراكز الاعداء بين سكان المناطق الحارة .

الا ان العرق الابيض لم يستطع التغلب على عدة امراض خطيرة ، بالاضافة الى انه نقل بعضها احياناً . فقد تفشت الامراض الجنسية بفعل الخوف من الاقرار بها . ووصف الاطباء ظواهرها واشاروا الى معالجتها بالزئبق . واكتشف « نيسر » جرثومة السيلان الابيض في السنة ١٨٧٩ ؛ وانما يجب انتظار السنة ١٩٠٥ حتى يتوفق « شودين » و « هوفمن » الى عزل جرثومة الداء الزهري ، والسنة ١٩٠٦ حتى يكتشف له « واسرمن » الدواء الشافي - بانتظار معالجته

بالبزموت . وبدا السرطان اصغر خطراً ايضاً . واذا كان علم الأمراض الرئوية قد اكتشف جراثيم الالتهابات الرئوية ، فان تشخيص التصوير بالاشعة ليس كل شيء ، وليس للطهرات والمصل مفعول اكيد . أما السل ، وهو المرض الاجتماعي الناجم عن البؤس والتعب ، فقد استلزم حماية ترتبط بظروف فضل العمل طال انتظارها؛ يضاف الى ذلك ان المعالجة الجراحية لا ترقى الى ابعد من السنة ١٩٠٨؛ تاريخ تجميع الهواء في الصدر الذي اعتمده «فور لانيني» . وقد اخذ الاطباء يستشفون استشفافاً بعيداً دور نقص بعض المواد في الجسم ودور الاضطرابات الغددية؛ ولم تدرس الامراض الوراثية فعلاً الا منذ اكتشاف السنن المندلية (نسبة الى «مندل») حوالي السنة ١٩٠٠ .

بيد ان طرائق المعالجة قد تحسنت تحسناً مستمراً . فمقابل طريقة معالجة الداء بضده التي بقيت رائجة ، كان لطريقة معالجة الداء بمثل خواصه من الدواء انصارها من الاتباع المتحمسين الذين آثروا تخفيف الادوية بالمزج تخفيفاً مفرطاً . وقد اثبت كلود برنار ولا سيا برون – سيكار اهمية المعالجة بواسطة السوائل الحيوانية . ثم برزت المعالجة الكيميائية في اعقاب الدروس التي قام بها « اهريش » . ثم نادى « ارسونفال » بالمعالجة بالعوامل الطبيعية ، ثم أدى تطبيق الموجات الحرارية على المعالجة الى تعزيز فعالية المعالجة بالماء وبمياه الينابيع في الينابيع نفسها التي سهلتها وسائل النقل الجديدة . الا ان التردد على ينابيع المياه المعدنية قد استلزم ، بالاضافة الى مستوى حياتي مرتفع ، معرفة علم خصائص المياه ونواميسها معرفة يقظى . لا بل برزت معالجة مناخية حقيقية في اعقاب ابحاث « بول برت » و « جوردانيه » حول نتائج انخفاض الضغط الجوي في الجبال ، كما اتضحت اهمية الاشعاعات الشمسية والجفاف والبرد .

تميزت انطلاقة الجراحة بمزيد من الجرأة ايضاً وهي في ذلك مدينة بالكثير للطهرات . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان باستور قد فضل استعمال المواد المطهرة ، وقد اتضح فيما بعد ان تفضيله كان في محله . وتوجب كذلك اهمال ألم المريض في حساب المصالح : وهم بعض الاميركيين من اشار باستعمال روح الحوامض الممزوج بالكحول او اول اوكسيد الآزوت ؛ وقد نشر احدهم ، سمبسون ، في السنة ١٨٤٧ ، بياناً حول اهمية الكلوروفورم (البنج)التخديرية. فأصبح باستطاعة الجراح ، منذئذ ، اجراء عمليته بأمان. وهكذا بات استئصال الزائدة الدودية عملية سهلة في السنوات ١٨٨٠ – ١٨٩٠ ، في حال ان اصابة هذا العضو بالتهاب حاد قد اعتبر حتى ذاك التاريخ احد اعظم الامراض فتكاً بالانسان . وخطت جراحة الاعصاب خطواتها الاولى بفضل نظرية طلع بها « بروكا » في السنة ١٨٦١ حول تعيين وظائف مختلف اقسام الدماغ . واستفاد علم جراحة العين من الاكتشافات التي توفق اليها هلمهولتز ، ولا سيا «غراف» الذي فكر بازالة السادّة بعملية دائرية . وبفضل النجاحات التي احرزتها تقنية علم الامراض النسائية ، سار في طريق الزوال سبب غير نادر من اسباب الوفاة : استخدم الطريق المهبلي حتى السنة ١٨٩١ ، تاريخ اعطاء الافضلية للطريق الجوفي بفضل طاولة عمليات « ترندلنبورغ »

وأجرى « بور [3] » و « سالجر » العملية القيصرية بنجاح ، ولم يستفد فن التوليد من تقدم استعمال المواد المطهرة فحسب ، بل من التحسينات المدخلة على ملقط الجنين ايضاً .

وهنالك حقل من ادق الحقول لم يعد وقفاً على الاختبار والرأي المقبول قبل التحقيق : اعني به حقل الامراض العقلية . فبعد ان احرز علم قراسة الدماغ نجاحاً فضولياً نراه يدخل في طور اختباري ، بحيث لم يعد الجانين موضوع تدابير امن وسلامة فحسب : فان « فالنتين ماغنان » و « اميل كريلين » ومدرسة « ادنبرا » قد توصلوا ، من اجلهم ، الى الغاء الاقتسار . وقد رأت النور بعض الطرائق الدوائية ولمع في طب الامراض العقلية اطباء مشهورون . وأخذ أحدهم ، « لومبروزو » ، على نفسه اثبات قيام العلائق المحتومة بين النظام الوظيفي الطبيعي والإجرام . ولا ريب في أن نظريته حول المجرمين منذ ولادتهم ، التي شرحها في مؤلفه العام « الانسان المجرم » (١٨٧٥) ، قد أثارت مجادلات عنيفة : ولكنه نشر في السنة ١٨٨٨ « الانسان العبقري » الذي جمع فيه بين علم الوظائف وعلم النفس . ورأى بعضهم ان الكائن البشري يأتمر بكليته بالمراكز العصبية التي يرتبط بها الفكر نفسه .

المعرفة التاريخية والاجتماعية

ما عساها تكون قيمة العلم اذا لم يتح هذا الاخير معرفة كيفية التطور البشري وسببيته ؟ لقد جعل « كونت » من درس الظواهر الاجتماعية قمة بناء الفلسفة الوضعية . وارتكز الجدل الماركسي الى حركة الحقل التاريخي . وبالاضافة الى أن توسع آفاق هذا الاخير قد أثار فضولاً متزايداً والى انه قد امسى سلاحاً سياسياً ، فليس من شك في ان منهب العقليين المؤمنين بامكانات العلم الشاملة قد حرك الحاجة الى تفسير الاحداث تفسيراً افضل . فحدث من ثم في الوقت نفسه تعمق في البحث وتوسع في الحقل التاريخي . وقد بدت المهمة مزدوجة : يجب اثبات الواقع بواسطة العلم الراسخ في التاريخ ، ولكن العقل البشري يرغب في استخلاص العام من الخاص . وقد كتب « فوستيل دي كولانج » ما يلي : « ان يوما واحداً نقضيه في التأليف يجب أن تقابله سنوات نقضيها في التحليل » . واكد فوستيل هذا نفسه ان التاريخ « ليس فناً بل علماً بحتاً » ، بينا رأى « رينان » ان « التاريخ فن وعلم سواء بسواء » . وأنجز عمل توضيحي عظيم في حقل الوثائق سهلته نجاحات العلوم المساعدة ، لا سيا علم الكتابات وعلم الآثار ؛ ولكن أسرى الآراء العقائدية والآراء المقبولة قبل التحقيق قد استسلموا أبداً للميل الى رسم لوحات عريضة . وهكذا فان « تين » الذي ادرك مهمته خير ادراك لم ينشغل يوماً عن العمل المنسق النظامي ، وليس كتابه « أصول فرنسا المعاصرة » سوى دفاع عن نظريته . كما ان فوستيل دي كولانج ، المشهور بتدقيقه ، قد استخلص من الديانة المنزلية دون غيرها مؤسسات « المدينة القديمة » . ولم ير لا « ميبل » ولا « سوريل » تشابك المعطيات التي تدخل في تفسير الثورة الفرنسية . بيد أن المؤرخين اتجهوا شيئاً فشيئاً شطر الموضوع المحدد أو المجموعة التي يجب أن تكون حقلاً جامعاً .

لم يستخلص اهمية العوامل الاقتصادية الا ببطء كلي . وكان « ليت » و « شمولر » في طليعة من تولوا هذا الاستخلاص ؛ ولكن يجب انتظار آخر القرن حتى تظهر الماركسية في هذا الحقل نظرية مقبولة للبحث . اما التاريخ فقد برهن عن جرأته في معالجة مسألة الاصول الدينية . اجل ان التاريخ قد طبق في نقد التوراة الطرائق نفسها التي استخدمها في كشف حقيقة نشأة روما او المسألة الهوميروسية . الا ان الباحث الذي تحوم حوله شبهة العداء لحقائق ايمان حي يأخذ على عاتقه مهمة غاية في الدقة . فقد سبق لكتاب « حياة يسوع »، الذي نشره شتراوس في السنة ١٨٣٥ ، ان أثار مجادلات حادة . ثم جاءت مؤلفات « فورباخ » و « برونو بوير » التي اعتبرت باعثة الشقاق : هل تصمد الفصول الاولى من سفر التكوين امام اكتشافات ما قبل التاريخ الطبيعي ؟ ومها يكن من الامر ، فان «حياة يسوع » التي لطفها رينان وأبعد عنها كل ما هو اسطوري ، قد أثارت ردة فعل عنيفة وكللت مؤلفها منبره في كلية فرنسا . فقد وقف رجال الاكليروس موقفاً دفاعياً قوياً وانشغل الكثيرون منهم باثبات التوافق بين تأكيدات العلم واقوال الكتب . ولكن ذلك لم يحل دون اتساع الهوة بين المؤمنين المتمسكين بالرواية التقليدية وبين الوضعيين والعقليين والقائلين بحرية التدين الذين اعتبروا انفسهم احراراً فيمناقشة الاناجيل كما هم احرار في مناقشة اية شهادة أخرى .

بينا كان التاريخ متجهاً ، ولو ببعض الصعوبة ، شطر التعريف بماضي الانسان في جميع مظاهره ، كان علم الاجتماع يبحث عن نهج واسلوب . كان رأي ماركس ان التركيب يجب ان يرتكز الى الجدل وقوة الصراع بين الطبقات ؛ أما هربرت سبنسر فقد اعتقد بوضع قواعد مذهب تطوري يكون نتيجة تكيف المجتمعات تدريجياً على البيئة . ثم جاء « دوركهايم » يقاوم المدرسة الآلية التي يمثلها « باريتو » و « والراس » والمدرسة المعنية بعلم طبائع الانسان التي يمثلها « جايمس فرايزر » - وهو من سار على خطى « فردريك ماكس مولر » باهتمامه بتفسير الاساطير - ، والمدرسة المعنية بعلم النفس التي يمثلها « تارد » و « فوييه » ؛ فحاول بقوة وضع الشروط التي قد تتيح لعالم الاجتماع القيام بعمل علمي حقاً ؛ وقد نشر كتابه «قواعد الأسلوب الاجتماعي » في السنة ١٨٩٥ ، فكان له بدوره صداه العظيم .

الايمان بامكانات العلم والعلم الاخلاقي النفعي

لاحظ « كورنو » زوال الميل الى الحقيقة الفلسفية البحتة » . فالواقع الاختباري قد فرض نفسه فرضاً على الانتباه . واذا صدق كلود برنار ، فان للعقل البشري قد تفرغ منذ اليوم الى « دراسة الظواهر الطبيعية في واقع الأشياء الموضوعي » . زد على ذلك ان رينان قد اعلن منذ السنة ١٨٤٨ : « العلم دين ؛ العلم وحده قادر على تمكين الانسان من حل المسائل الازلية التي تفرض طبيعته حلها بالحاح » . ولكن الاختبارية النفعية تنتهي عند « جون ستيوارت ميل» الى إدبار مماثل أمام علم المعقولات . وان مذهب الطبيعة المؤمن بامكانات العلم الشاملة قد حمل « تين» على رد النشاط الدماغي الى تصادم الذرات العقلية . ورأى اتباع المذهب الظاهري من امثال

« بان » و « جايمس ميل » ان الوجدان ليس سوى توارد افكار وصور (ولن يرى اتبـــاع الظاهرية الحتمية ، من امثال « مودسلي » و « هكسلي »، في الوجدان ، سوى مجـرد وميض فوسفوري دماغي) . وعاد « بوخنر » و « فوغت » و « مولسكوت » الى صيغ « كابانى » (الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء ، مثلا) ، وقد عاصرت بياناتهم تحليلات علم الوظائف . وافتتح « ووندت » في ليبزغ مختبراً لعلم النفس ، واسس « فشنر » علـم النفس الطبيعي ، وربط « ريبو » بين علم النفس وعلم وظائف الجهاز العصبي . فتبخر كل مفهوم سام او لم يعد سوى وهم خادع .

ولكن نشاط الفرد ، مهما بلغ من ارتباطه بعلم الوظائف ، لا يفسر تفسيراً مقبولا الا على الصعيد الاجتماعي . ان هذا الوجدان الاجتماعي المتفاوت الطواعية ، يشكل الترياق الواقي من الحتمية المطلقة المستحيلة ، عند ماركس كما عند سبنسر ، وعند جون ستيورات ميل كما عند « رينوفييه » . ومن جهة ثانية ليست الحرية في نظر هذا الاخير ، كما في نظر « كانت » ، سوى مبدأ اساسي مسلم به من مبادىء العقل العملي . وأعطى « هكسّل » مذهب الواقع الواحـد الذي قال به معنى فلسفة البهجة الخلاقة ، وأبان « ووندت » بجلاء هيمنة الارادة .

يتضح من ثم ان الايمان بامكانات العلم الشاملة عارم بالنشاط والقوة الفاعلة . ومادياً كان أم مشبعاً بالنفسية ، فانه لا يبتعد عن علم المعقولات السامي الا ليكتفي بالواقع. وسيعلن «وليم جايمس » ان « الفكر حقيقي لانه نافع ، وانه نافع لانه حقيقي » ، كما سيظهر مذهب العملية ايضاً كعلم اخلاقي موضوعه العمل .

الفصل الثالث

استكشاف الأرض
وانتشار المثل الأوروبية

معرفة الارض وتمثلها

انطلق الانسان الغربي بفرح وبهجة الى فتح الكرة الارضية . وان ما دفعه دفعاً الى امتطاء المغامرة هو الهوى والشجاعة والكلف بالرسالة والعلم ، لا سيا وان عالم المجهول ما زال واسعاً جداً .

غذّت الرغبةَ الحـــارة في المعرفة مجموعات المؤلفات وروايات السفر وكتب الارشادات والتعليمات . فقد بيع « ملايـــين عدد يومياً من « اخبار لندن المصورة » التي ظهرت في السنة ١٨٤٢ . وقد عرفت « مغامرات روبنسون كروزويه » نجاحاً مطرداً منقطع النظير ، ونقلت الى كافة لغات اوروبا ، فأوجدت الكثيرين من امثـــال روبنسون ، السويسري ، والاميركي ، و « روبنسون البالغ من العمر اثني عشرة سنة »، و« امثال روبنسون الحقيقيين»، ولا سيا مغناة « ار فنباخ » الهزلية . واشتهر عدد من ارباب القصة الاجنبية : « ماريات »، مؤلف« مغامرات بيتر سمبل » ، والاميركي « ملفيل »، والسكتلندي « ستيفنسون » ، و « لوتي »، الملاح المحترف الذي تذوق جمال الكون اثناء تجواله في تذوق الفنان المتوحد . وأوجد « جول فيرن » القصة الجغرافية . فتجول هو ايضاً في العالم ، دون أن يغامر مكتبه، وجمع بين السبق العلمي ومشاهدة المناظر والمجتمعات مشاهدة صحيحة ، وخلق اشخاصاً يستهوون الفتيان ، كـ « فيلياس فوغ » الذي يدور حول العالم في ثمانين يوماً ، والقبطان « نيمو » الذي نسير على خطاه ٢٠٠٠٠ عقدة تحت البحار ، والقبطان هاتراس الذي انتصر على القطب الشمالي ؛ وهي الماسة الاسطورية « نجم الجنوب » ، ما لفت انتباهه ، في السنة ١٨٦٧ ، الى افريقيا الجنوبية ؛ أما فكرة الدوران حول العالم فقد أوحى بها اليه ، في السنة ١٨٧٢ ، اعـــلان لوكالة كوك . وسوف يتولى دور الراوي الفرح في « كتب الغابة المتلبدة » احد قرائه ، روديارد كبلنغ ، الذي كان ، من جهـــة ثانية ، صديقاً لابن « توماس كوك » .

لم يعد قط من مدرسة خلو من خريطة قارات العالم الخمس وخريطة الوطن الأم . واذا وفر الاطلس تمثيلا اكثر دقة ، فان الأداة العلمية المثلى ، التي جاءت ثمرة عملية مسح وقياس ارتفاع استغرقت وقتاً طويلا ، هي الخريطة الطوبوغرافية : وهكذا فان المسقط المخروطي المشكل الذي صححه « بون » قد استخدم في رسم خريطة بقياس ١/٨٠٠٠٠ حلت في فرنسا محل خريطة « كاسيني » .

اسهم علم طبيعة الارض ، والجيولوجيا ، والجغرافية الطبيعية اسهاماً متوازياً ، ان لم يكن تضامنياً ، في معرفة الكرة الارضية . فقد أمكن وزن هذه الاخيرة وقياسها . اجل ، لقد تعاقبت النظريات حول طبيعة القشرة الارضية ، فحلت الواحدة محل الاخرى ؛ ولكن تفسير نواتىء الارض بات اذ ذاك أكثر ارضاء واقناعاً حين نشر « سويس » النمساوي في السنوات ١٨٨٣ – ١٨٨٨ ، بروح شاعر وعالم واسع الاطلاع ، كتابه « وجه الارض » . وقد صرح « كورتلين » آنذاك ايضاً : « لا اقرأ من المؤلفات الخيالية سوى القشرة الجوية احياناً » ؛ ولكن علم المناخ الذي اتقنه نمساوي آخر ، هو « هان » ، قد البث في المهد نفسه تقريباً ، لان درس التيارات الهوائية الكبرى وانواع الطقس المختلفة قد سجل نتائج قيمة مهدت لها دروس مهندس البحرية الاميركية « موري » ، ودروس « لو فربيه » .

هي حاجات الملاحة بصورة خاصة ما يجدر بنا ان نعزو اليها النجاحات الجديدة المحققة في علم البحار . فبين السنة ١٨٢٠ والسنة ١٨٥٠ أدت اسفار « ديمون دورفيل » و « ويلكس » الى رد القارة الجنوبية أبعد الى الجنوب . وبالاستناد الى المعلومات التي دونها « موري » في « خريطة جية التيارات البحرية » أو في « توجيهات الملاحية » القيمة ، ابتكر « بروك » مرجاساً سهل تحديد الاعماق البحرية ، واتاح البخار كذلك سهولة استخدام الملفاف لانزال اجهزة المراقبة واخراجها . ولعل اهم حدث هو الرحلة التي قامت بها بين السنة ١٨٧٢ والسنة ١٨٧٦ ، السفينة « شالنجر » التي عادة بمعلومات وفيرة جداً اوردتها لجنة برئاسة « ويفيل طومسون » في ٥٠ مجلداً . وفي السنة ١٨٨٥ سيّر « البير الاول » امير موناكو بعثته العلمية الاولى . وفي السنة ١٨٩٩ ، تألف في كوبنهاغن مجلس دولي دائم لاستكشاف البحر .

الاستكشافات البرية

حوالي السنة ١٨٦٠ اشير في الخرائط الى الاراضي المجهولة في القسم الاكبر من افريقيا وفي آسيا الوسطى والجزيرة العربية و « امازونيا » . وما زال تكون الجبال وحياض الانهار يخفي مفاجآت كثيرة ، والاستكشافات البرية تسفر ابدا عن وقوع ضحايا كثيرة . فركوب مخاطر الصحارى الشاسعة الاطراف ومناطق التوامي الحرجية يقتضي صوفية حقيقية وجلداً غير اعتيادي . وهو الجمل الافغاني القادر على البقاء ١٣ يوما بدون تجرع الماء ، ما استطاع وحده اجتياز الصحراء الاوسترالية ؛ ولم يفلح « لابرين » في اجتياز الصحراء الافريقية الكبرى الا بمعونة جنود من قبيلة « شامبا » يمتطون الجمال ؛ كما ان « برازا » ، على الرغم من رغبته في الظهور بمظهر المسالم ، قد اصطحب ٣٠ بحاراً ورقيباً ، و ٣٠٠ بحار



شكل ٦ ـ اكتشاف الارض في القرن التاسع عشر

سنغالي ، ١٢٠٠ جذاف اوكندي او امومي وقرابة الف حمال باتكي وبابوندي وخمسة زوارق بخارية ؛ وجهز مستودعاً في « ليبرفيل » وانشأ ٢١ محطة ومركزاً عسكريا بين الشاطيء والكونغو . زد على ذلك ان امر المهمة الحامل توقيع احد الملوك لم يكن شيئاً يستهان به : فقد استحصل « ناشتيغال » على مثل هذا الامر من ملك بروسيا لتقديمه الى الشيخ عمر في « بورنو » ، وقصد «جوزف هاليفي » مأرب، مدينة ملكة سبا القديمة ، مرتديا زياً اسرائيلياً، ومزودا بكتاب توصية من حاخام صنعاء ؛ وتنكر « بالفراف » ـ على غرار « كايه » في الصحراء الافريقية ـ بزي اسلامي ليتمكن من دخول صنعاء عاصمة الوهابيين . ولم يهمل كذلك امر المال والبضائع . فكشفت القارات اسرارها .



كانت هنالك مسألتان في افريقيا : مسألة الانهار الكبرى التي تصلح دون غيرها لربط ساحل بآخر عبر السباسب والاحراج ، ومسألة الصحراء الافريقية الكبرى التي تمتد بين المتوسط والمناطق السودانية . يضاف الى ذلك مسألة النخاسة ، لان النخاس يحرص على ان يضل المسافرون المسالك ، ويحرّك الزعماء البلديين ، ويقاوم بالحيلة ، وحتى بالعنف ، كل دخول يرتدي طابع العداء للرق . ففي منتصف القرن نجح « بارت » و « ديفربيه » و « رولف » و « ناشتيغال » ، ببذل جهود خارقة ، في اجتياز الصحراء وبلوغ الساحل النيجيري و « تشاد » . واسدل في الوقت نفسه الستار الذي كان يخفي الشبكة المائية في المنطقة الاستوائية : اهتدى ليفنغستون الى ينابيع الزامبيز وينابيع الكونغو ؛ اما ستانلي الذي انطلق للبحث عنه فقد

قام بحركة كبرى في المنطقة الكونغولية . وفي السنة ١٨٨٠ بدأت عملية تقاسم الاراضي .

لم يكن قلب آسيا اسهل منالا . بينما كان الروسيان « تشرسكي » و « برجفلسكي » يدخلان الاراضي المرتفعة في الشرق الاقصى السيبيري ، كان «ريشتوفن» يتجول في اصقاع الصين ويصفها . ولكن العائق الحيف كان « سطح العالم » الواسع الذي توغل فيه برجفلسكي الى اكتشافات هامة ، اعني بها ينابيع الـ « يانغ تسي » و « تاريم » و « لوبنور » ؛ ولم يستطع لا « ماتنغ » ولا الاخوان العازريان « هوك » و « غابيه » مشاهدة «لاسا» الا باخفاء شخصيتهم؛ ولم يلحق غيرهم هذه الامنية . فقد الف الارتفاع حاجزاً : واذا استطاع هواة تسلق الجبال اقتحام اعلى القمم شموخا في اوروبا ، فان قمم آسيا قد تحدت جرأة الانسان الابيض .

القطب يجتنب كالمنطيس ، ومثال القبطان « ماراس » ليس من نسج الخيال .

فتح القطبين

سارت السفن الشراعية أولاً على خطى كوك في البحار الجنوبية ، فجر صيد الحوت اعظم الملاحين جرأة الى أبعد من القواعد المأهولة . وبرزت الرغبة كذلك ، في عهد مبكر ، في اكتشاف مجاز بين الاطلسي والهادي شمالي اميركا وآخر الى الشمال من العالم القديم . ولكن الصعوبة قامت في وجوب تمضية فصل الشتاء في مناطق يمتد فيها الليل بين أربعة وستة أشهر ، ومقاومة الجبال الجليدية التي قد تتداخل وتسحق السفينة : فهكذا انتهى في ظروف فظيعة الاميركي « لونغ » ومن معه على السفينة « جانيت » خلال رحلة الى المجاز الشمالي الشرقي ؛ وفي هذا التاريخ نفسه تقريباً عرفت بعثة « غريلي » النهاية نفسها في « غرينلند » حيث عثر على جثث مرعبة ابلترت اعضاؤها العلوية والسفلية ، بسبب دفع الجوع ببعضهم الى أكل لحوم البشر . فمست الحاجة من ثم الى التجهز بأدوات خاصة والتزود بغذاء ملائم . وليست البعثة الى القطب مما يلائم الشماليين فحسب، فهي توجب ارتداء البسة شعوب المناطق المتجمدة والتدهن بالشحوم. وفي أواخر القرن ، كان « نانسن » و « بيري » و « اموندسن » قد تلقوا درساً من الاختبار ، فلم يتركوا شيئاً للمصادفة : بنى « نانسن » السفينة « فرام » القادرة على مقاومة ضغط الجليد ؛ وتزود بمؤن تكفي لمدة خمس سنوات وفكر حتى ببعض اسباب اللهو ؛ وتعلم بيري تقنية الاسكيمو الذين ادخلهم في خدمته وامتحن رجاله ومعداته على جليد الارض الغرينلندية .

بعد أن تلاشى الاعتقاد بوجود قارة جنوبية ، بقي التقدم ، ما أمكن التقدم ، فوق الامواج المتلاطمة باتجاه القطب الجنوبي . وفي سبيل تحديد موقع القطب المغنطيسي الجنوبي ، وضع ويلكس وروس رسماً تقريبياً لحدود القارة المتجمدة الجنوبية الحقيقية وتعرفوا الى براكينها وخلجانها الواسعة . ثم توقفت النجاحات : اذ اقتصر العمل على صيد الحوت والاستيلاء على الجزر والارخبيلات الصغرى المتناثرة في مياه المحيط المتجمد الجنوبي .

يرد هذا التوقف الى أن مسألة مجازي الشمالي الغربي والشمال الشرقي كانت اشد استهواء . فقد عند البريطانيون في بذل الجهود لاكتشاف الاول ، وانتهى « ماك كلور » ، الذي انطلق للبحث عن بعثة « فرانكلن » المفقودة ، الى الدوران حول القارة الاميركية من الشرق الى الغرب . ثم

لجم « نانسن » ، و « اموندسن » من بعده ، في اجتياز « فرينلند » . أما مجاز الشمال الشرقي ، فقد توصل « نورد نسكجولد » الى عبوره بالسفينة « فيغا » بعد أن امضى الشتاء في الجليد على بعض المسافة من مضيق « بيرنغ » . عند ذلك مطــــع وم « بحر القطب الطليق » بالسفينة « جنتهوف » ، ثم بالسفينة « جانيت » ، نحو الشمال ؛ ولكن حوض البحـــــر المتجمد الشمالي لم يستكشف إلا في أعقاب حيدان مركب « نانسن » ، « فرام » ، عن طريقه طيلة ثلاث سنوات ، فاستفاد المهندس الاميركي « بيري » من ذلك وسار تكراراً على رأس بعثات قرّبته شيئاً فشيئاً الى القطب الشمالي الذي توفق الى بلوغه في السنة ١٩٠٩ بواسطة مزالج تجرها الكلاب .

كان القطب الجنوبي أكثر بعداً وأشد وعورة ، ولكن المستكشفين ما لبثوا أن بلغوه هو ايضاً . لقد تعددت المحاولات بين السنة ١٨٩٧ والسنة ١٩٠٥ ؛ فكان شاكلتون قد اقترب من الهدف وبلغ نقطة ترتفع اكثر من ٣٠٠٠ متر وتبعد عنه أقل من ٢٠٠ كيلومتر ، ولكنه افتقر في النهاية الى المؤن ؛ وأخيراً ظفر اموندسن النروجي ببلوغه في السنة ١٩١١ ، بينا لاقى سكوت حتفه في عاصفة ثلجية .

معرفة الكون

ولكن ما هي بالضبط الشعوب المختلفة التي يتألف منها الجنس البشري ؟ لقد وقع مدلول العرق موقع الرضى من الرومنطيقيين الذين تكلموا عن العـــرق الفرنجي والعرق الكلتي والعرق الجرماني ؛ فالعرق يفسر كل شيء ، وحتى السلوك الفكري ؛ وسوف يبث « غوبينو » فكرة وجود عرق آري ، هو أنبل الأعراق البيضاء ومُمَهّد للمهام المصطفاة . وقد قام نقاش حاد بين القائلين بوحدة النوع والقائلين بتعدد الانواع . لا بل لم يعرف ما اذا كان يجدر الكلام عن علم طبائع الانسان أم عن علم خصوصيات الشعوب . وكان مقدراً للصوفية العنصرية ، بفعل تشوش الآراء ، أن تغذي ، في أواخر القرن ، الاهواء القومية والتوسعية الاستعمارية .

الا أن هذه النظرية الساذجة قد صادفت مقاومة شديدة تولاها اولئــــك الذين ارتأوا ، كـ « ميشليه » مثلاً ، ان البيئة والحياة المشتركة أعظم أهمية من الدم أو شكل الرأس في تكييف الشعوب والأمم . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، أن « كارل ريتر » ، الذي يبدو المهـــد الحقيقي لجغرافية بشرية تفسيرية ، قد حاول ، منذ السنة ١٨١٧ ، وصف البلدان وسكانها وصفاً يستهدف اثبات تبادل الارتباط . وفي هذا الاتجاه سار من بعده « برغهوس » و « بيترمن » و « ركلو » . وبينا يقترح « راتزل » ، المتشبع بالنظريات الحتمية ، درس العلائق القوية بين الدول وسياستها وبين المعطيات الطبيعية ، تشبث « فيدال دي لا بلاش » و « ماكندر » بالتوسع في مدلول طريقة الحياة الناجم عن تعاون صادق بين النوع والطبيعة قادر على تفسير التعددالقائم في طرائق التكييف ، ومن ثم تفسير النماذج البشرية . ونزولاً عند طلب « لافيس » ، وعلى طريقة ميشليه ، سوف يقدم « فيدال دي لا بلاش » ، لكتاب مفصل في « تاريخ فرنسا » من وضع مجموعة من المؤرخين ، بـ « لوحة جغرافية » متنوعة الألوان .

دور اللغة في انتشار الثقافة الاوروبية

نظر الغربي الى الاداة والنسيج والطريق والخط الحديدي، وحتى الى المسكن، كما الى وسائل عمل في الاجزاء الأخرى من العالم، ولكنه لمس الحاجة الى افهام غيره فوائد وجوده. واذا وجد موافقاً أن يتعلم بالضرورة لغات تختلف كل الاختلاف عن لغته، فقد بدت له أفضلية انتشار لغـــات تنقل بسهولة تأثيره وحالته النفسيـة. وقد رأى سابقاً تثير الانتباه في قوة انتشار اللغتين الاسبانيـة والبرتغـاليـة في العالم الجديد.

من دواعي الأسف أننا لا نستطيع أن نتعقب ذاك الهجوم اللغوي الذي قام به المهاجـــر والمستعمر والتاجر ومعلم المدرسة والمرسل، بواسطـة الصحيفة والبيان والكتاب – وكتاب التوراة بصورة خاصة. وهكذا فان اللغة الفرنسية، التي احتفظت بمركزهـا في جزيرتي هايتي وموريس، قد احرزت تقدماً مطرداً في كندا وأفريقيا الشمالية (حيث اقتبست بعض المفردات من العربية) والشرق الأدنى وحتى الشرق الأقصى. ولكن كم كان اشعاع اللغة الأنكليزية أعظم قوة: فان الأماكن الكثيرة التي تحمل أسم فكتوريا وادوارد وجورج في العالم لتدليل على عظمة البريطانيين العالمية؛ وإنما تفاهمت الشعوب بواسطة اللغة الانكليزية في الهند؛ واللغة الانكليزية ملكت سيدة في كافة الطرق البحرية. إلا أن الاتصالات بين الشعوب قد خلقت لغات مشتركة غريبة: ففي «لويزيانا» عرفت البقاء لغة عامية فرنسيـة – زنجية، «غـــامبو»، وفي آسيا الشرقية يتكلم الحمال والعامل والتاجر لغة عامية تعرف بالـ «بدجن الانكليزي». ومن الصعوبة بمكان احياناً كتابة لغة بالاحرف اللاتينية أو الانتقال من كتابة الى أخرى (ان مثل الـ «كوك نغو» في فيتنام مثل استثنائي على وجه العموم). يضاف الى ذلـــك من جهة ثانية ان الدولة المستعمرة آثرت في المستعمرات تنشئة البلديين عن طريق لغتها الخاصة: فالطريقة البريطانيـــة المعتمدة في الجامعات الهندية تعكس الاساليب السائدة في اوكسفورد وكمبردج، ولم يهتم الهولنديون إلا في عهـد متأخر بـ «مدرسة شعبية» تعلّم فيها اللغة الماليزية واللغة الجاوانية.

انتشار المسيحية

اعتبر الاوروبي والاميركي اللذان حركتهما الحرارة الدينيـة ان الحملة الصليبيـة لم تتوقف قط. لذلك فان المذاهب التي تنتسب للمسيح قد نمت نمـواً مطرداً؛ زد على ذلك ان العالم الجديد الذي بُشر فيه بالانجيل واستُعمر في آن واحد قـــد زاد من الحيوية المسيحية. اما دعوة الرسالة، التي عرفت فترة من التوقف، فقد نمت مجدداً يساندها الاستعمار الذي ساندته هي بدورها.

برزت قوة الارثوذكسيـة، التي ساندتها اجهزة الدولة الروسيـة، في مـــا بين الشرق الأدنى وآسيا الشرقية. بيد ان علينا في الدرجة الأولى تقدير الأهمية التي ارتدتها تقوية الكاثوليكية في مركزها. فان ما فقدته الكنيســة الرسولية الرومانية في ايطاليا، في المجال الزمني، أمـــام تيار الحركة القومية، قد حاولت بنجاح الاستعاضة عنه في المجال الروحي بتحديدمركزها بدقة ليس من الالحاد فحسب، بل من المبادىء العصرية أيضاً. ألم يؤكد المجمع الفاتيكاني في السنة ١٨٧٠

ان خليفة القديس بطرس «يمتلك... العصمة التي اراد المخلص الالهي ان يقلدها كنيسته في تحديد العقيدة حيال الايمان والاخلاق» ؟ وبفضل الوحدة وتسلسل السلطان حقق العمل الكاثوليكي، آنذاك نتائج قيمة خارج اوروبا. فقد سبق لبيوس السابع ان احيا جمعية اليسوعيين واعاد إنشاء جمعية الرسالات في الخارج . واستفاد خلفاؤه من الظروف (ضعف الامبراطورية التركية، واحتلال الجزائر، والتدخل في الصين) لاحداث نيابات واسقفيات رسولية جديدة . وقد جمعت جمعية نشر الايمان وحدها ٢٦٨ مليوناً، تبرع الفرنسيون بـ ١٧٤ منها، بين السنة ١٨٢٢ والسنة ١٨٩١ . فاستطاع بيوس التاسع ولاون الثالث عشر تقسيم اوقيانيا، وافريقيا، وآسيا من ارمينيا الى اليابان، الى دوائر كنسية . وقد برزت أسماء شخصيات شهيرة : الأب «هوك»، وصاحبا السيادة «اوغدار» و «رسول الكونغو»، «ولافيجري»، مؤسس الآباء البيض، والاب «دي فوكو» الذي كان ناسكاً اكثر منه مبشراً على كل حال . وبينما لم يكن هناك أكثر من ٣٠٠ مرسل خارج أوروبا في السنة ١٨١٥، نرى عددهم يرتفع الى ٦١٠٠ في السنة ١٩٠٠، بصرف النظر عن جوقات المربين . فسارت الهند في الطليعة لجهة عدد الاهتداءات، تليها الهند الصينية والصين، والف الشرق الادنى منطقة ثالثة من حيث الاهمية، متقدما على افريقيا . اما اذا اخذنا عدد السكان بعين الاعتبار، فاننا نرى ان النجاح المحرز في بعض الجزر كان اكبر منه في البلدان المذكورة . ولعل المهتدين بلغوا بين ٤ و ٥ ملايين تقريباً .

اعتمدت البروتستانتية على مستعمرات التوطين الكبرى التي اسسها الهولنديون -في الكاب- ولا سيما البريطانيون؛ ثم اشعت الولايات المتحدة بدورها بكل غيرة . فاسفرت «يقظة» القرن الثامن عشر عن ولادة مؤسسات كبرى لنشر المسيحية المصلحة : الجمعية المعمدانية التبشيرية، وجمعية لندن التبشيرية، اللتين تأسست على غرارهما منظمات عديدة لا تقل عنها غيرة تبشيرية متقدة . ففي السنة ١٩٠٠ كانت ٢٤٩ جمعية بروتستانتية تتولى أمر الانفاق على ١٦٠٠٠ مبشر؛ كما ان جمعية الكتاب المقدس باعت أو وزعت ٤ ملايين انجيل طبعت بـ ٣٥٠ لغة؛ وتراوح عدد المهتدين بين اربعة ملايين وأقل من ثلاثة (بحسب المؤلفين)، وتوزع بين الهند، وافريقيا الجنوبية واندونيسيا، وجزر المناطق الحارة، والصين. وكانت المكاسب هنا ايضاً اكبر منها في المستعمرات الصغيرة الخاضعة لوصاية ادارية شديدة .

ليس من ينكر فائدة التدخل السياسي للدفاع عن الايمان . أجل قد يحدث أحياناً ان تتأذى الارساليات من التدابير التي تتخذها بعض الحكومات بحق بعض الجمعيات. ولكن عداء الجمهورية الفرنسية الثالثة للاكليروس لم يعتبر يوماً مادة من مواد التصدير . لا بل غالباً ما اتخذت من الدفاع عن المصالح الدينية حجة لتبرير نزعتها الاستعمارية. ولذلك غالباً ما نرى قضية الانجيل تختلط في نظر البلديين بقضية الاجنبي الذي يريد السيطرة عليهم .

يضاف الى ذلك ان الشكل التجاري الذي ارتداه التبشير الديني قد اغاظ هؤلاء البلديين . فقد اشتهر العديد من المهتدين الصينيين باسم «المسيحيين من اجل الارز» . ولم ينس اليابانيون

يوماً « الاغراء بالحرير والبندقية » التي استخدمها اليسوعيون لاستمالتهم . وهو الطبيب المبشر ، القس « شارل غتزلوف » ، من ركب السفينة كترجمان في خدمة شركة « جاردين وماتسون » لبيع الافيون من الصينيين في السنة ١٨٣٢ ، بعد ان قبض منها مساعدة مالية . ودخل الاب « فيناز » اليسوعي « تاناناريف » في السنة ١٨٥٥ متنكراً برفقة عميل مصنع فرنسي للاسلحة. ولا شك ، في رأي « ستانلي » ، ان الافريقيين جميعهم ، اذا ما اخذنا مسيحيتهم بعين الاعتبار ، يفضلون التاجر على المرسل المبشر ؛ بيد ان هذا الاخير سيلعب في افريقيا الشرقية دوراً اعظم من دور الاول ، اذ ان الكتاب المقدس يجب ان يسبق بالة البضائع ؛ في حال ان العكس هو ما حدث في افريقيا الغربية .

تناسلت المنافسات بين الارساليات من جهة ثانية مع الخلافات بين الدول. فقد استمر النزاع حول الاماكن المقدسة تتخلله حوادث مفجعة في أغلب الاحيان ؛ وقام هذا النزاع في الهند بين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين الاكليروس البرتغالي في « غوا» والارساليات الكاثوليكية الفرنسية ، وفي الصين بين العازريين في « مكاو » واليسوعيين ، وبين هؤلاء والآباء الانكلوساكسونيين، وفي « هاواي » بين الاميركيين والبريطانيين؛ وفي مدغشقر لم تخف المنافسة بين الكاثوليك والبروتستانت الخصومة الفرنسية الانكليزية .

فمن الوهم الخادع من ثم الاستنتاج بان المسيحية قد حققت مكاسب حاسمة . وبصرف النظر عن مقاومة متباينة العنف قابلتها بها السلطات التقليدية في الشرق الاقصى ، يجب الاعتراف بان الاسلام قد صمد في كل مكان ، لا بل حقق نجاحات ذات قيمة في افريقيا وربما في آسيا دونها نجاحات المسيحية .

انتشار الروح الانسانية ؛ مواصلة مكافحة النخاسة

كتب لاون الثالث عشر الى صاحب السيادة « لافيجري » ما يلي : «اني اكبر علو الهمة الذي تبرهنون عنه حيثما اقتضى ذلك خلاص البشر ». ولكن هذا العمل الروحي لا ينفصل عن المحبة التي تستهدف التخفيف من الآلام الارضية وتتصل بدورها بصراع الطامنين من اجل الانسانية .

كانت مكافحة المرض مع التعليم مهمة الارساليات الرئيسية ، دينية كانت هذه الارساليات ام غير دينية . فان « بنات المحبة» اللواتي اسس جمعيتهن القديس « منصور دي بول» قد انشأت في الجزائر والشرق الادنى ومدغشقر والصين ملاجىء للاطفال ودور ايتام ومستوصفات وادرن مستشفيات دخلت في عدادها مستشفيات البرص احياناً) . وكان الكثيرون في الهند ، من بين المبشرين البروتستانت ، أطباء وممرضين؛ ولما كانوا متزوجين ، فقد سعوا الى ازالة عادة تعدد الزوجات ورفع مستوى المرأة. وكان تحسين الصحة وحفظها ، في نظر الاوروبيين والاميركيين ، احد حقوقهم الاول في اقرار السكان البلديين بفضلهم .

اعتبروا ان للاستعمار ما يبرره اذا ما نجح في استئصال احدى افظع آفات عالم المناطق الحارة طغياناً ، اعني بها النخاسة . فكان عليهم ، والحق يقال ، اقفال هذه السوق الكبرى ، بسبب

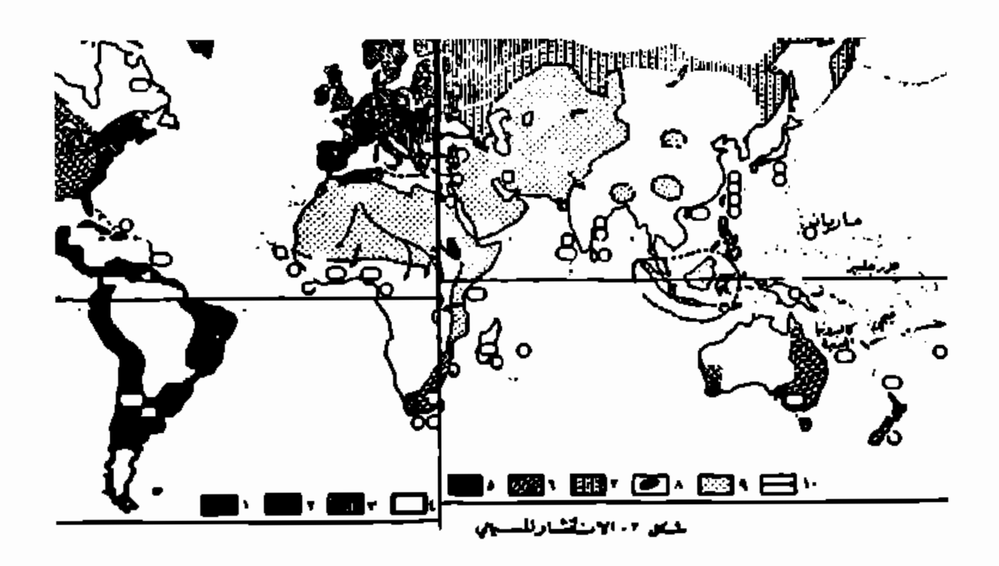
لمهمتهم ايها في مغارسهم في العالم الجديد. ولكن ما هو السبيل الى استنزاف النبع الذي يغذيها ان لم يكن بمراقبة القارة الافريقية بكليتها ؟

كان المستكشفون والمبشرون يعلمون بالآفة ، ويفتدون بعض المساكين ويسكنونهم . ولكن عملية استئصالها كانت تستلزم بوليساً دولياً وحملات عسكرية منظمة . الا ان « الجمعية الدولية الافريقية » التي اخذت على عاتقها فتح ابواب افريقيا امام الحضارة عقدت في « بروكسل » في السنة ١٨٧٦ جلسات ظهر فيها « ليوبولد » ملك بلجيكا بمظهر « المحسن الى الزنوج » ، ولكنها ما لبثت ان تحولت عن هدفها الى استعمار رابح يخدم مصالح الملك . ولن يحدث شيء حاسم قبل سنة ١٨٨٠ .

في هذه الاثناء مارست انكلترا الضغط على سلطاني زنجبار ومسقط للحيلولة دون النخاسة بين شاطئي المحيط الهندي ؛ واستحصلت من جمهورية افريقيا الجنوبية على وعد بتلطيف حالة الزنوج ؛ وعاتبت خديوي مصر واستحثته التدخل في « دارفور » . ولكن النخاسين ، بعد ان اقصوا عن المحيط الهندي ، صمموا اكثر فأكثر بالمقابلة على الاحتفاظ بالطرق التي يسلكونها بين السودان والبحر الاحمر . وفي الوقت الذي اعترفت فيه الدول المجتمعة في برلين ، في السنة ١٨٨٤ – ٨٥ ، بدولة « الكونغو المستقلة » موجبة عليها مكافحة النخاسة ، سقطت الخرطوم في ايدي الثورة المهدية ، وربما بدا موت « غوردون » باشا ، الذي كان يعتبر فارساً من فرسان المسيح ، في قرن لا يعير الفروسية اهتماماً يذكر ، تحدياً لاوروبا المسيحية المناهضة النخاسة . فعقد في بركسل في السنة ١٨٨٩ مؤتمر جديد واجه اتخاذ تدابير قانونية ، ولكن النخاسين لم يزولوا من السودان الا بعد سحق الدراويش على يد كتشنر في السنة ١٨٩٨ ، وسحق ملك « اويداي » ، « رباح » ، على يد الجيوش الفرنسية في السنة ١٩٠٠ .

لا ريب في واقع العاطفة الانسانية التي املت هذه المكافحة . ولن يستوقفنا هنا سوى النجاح المنقطع النظير الذي احرزه كتاب « كوخ العم توما » من تأليف السيدة « بيشر ستو » الذي نقل الى معظم اللغات الغربية وطبع اكثر من ٥٠٠ طبعة وصيغ حتى بابجدية العميان. ولا نستطيع كذلك ان ننعت بالمراءاة كلمة التهدئة التي ترد باستمرار في كتابات المستعمرين حين يعلن هؤلاء عزمهم على وضع حد للحروب الداخلية ، والجرائم الطائفية الطابع ، والاتاوات المرتفعة التي تفرضها الاقطاعيات البلدية . فقد استهدفت اتفاقية بروكسل في السنة ١٨٨٥ واتفاقية برلين في السنة ١٨٩٠ ايجاد حق دولي حقيقي ، بتنظيم الفتح وتوصية الفاتح بتحسين مصير السكان والغاء النخاسة وتجارة الاسلحة وبيع الكحول . وفي السنة ١٨٨٨ اصدر لاون الثالث عشر رقيماً اثنى فيه على مبادهات الكردينال لافيجري .

كان من شأن هذا العطف الكريم ، في اعتقادنا ، تبرير الوصاية التي توجبت ممارستها على حضارة متفوقة . فهو قد وفر عليها الاستناد الى حق الاقوى ، لا سيما وانه اتفق كل الاتفاق والرغبة ، الصادقة ايضاً ، في استثمار الكرة الارضية استثماراً أبعد بصيرة .



شكل ٢ - ١ الانتشار المسيحي

الفصل الرابع

ارتفاع عدد السكان وتزوحات الأوروبيين الكبرى

نمو عدد السكان في اوروبا والعالم

كان ارتفاع عدد سكان الارض في النصف الاول من القرن الثاني عشر اسرع منه في القرن الثامن عشر ، وقد برزت هذه الظاهرة بروزاً أوضح بعد السنة ١٨٥٠ . فاذا سلمنا بأن عدد سكان الارض كان ٥٠٠ مليون في السنة ١٦٥٠ و ٧٠٠ مليون في السنة ١٧٥٠ ، فاننا نرى العـــدد يرتفع الى ضعفه بين السنة ١٦٥٠ ومستهل القرن التاسع عشر ، بينما هو يتضاعف مرة ثانية بين السنة ١٧٥٠ والسنة ١٨٨٠ . كما نرى ان معدل الارتفاع في النصف الاول من القرن التاسع عشر أعلى منه في النصف الاول من كل من القرنين السابقين ، الا في آسيا . وعلى الرغم من ان سكان آسيا قد تجاوزوا ابداً نصف سكان الارض ، فان هيمنة هذه القارة قد ضعفت . وكذلك فان اميركا لم تحتل بعد سوى مركـــز وضيع على الرغم من تقدمها الملحوظ . أما الكتلة الاوروبية الآسيوية فقد جمعت بمفردها ثلاثة ارباع السكان . ولكن ما يستوقف انتباهنا بصورة خاصة هو سكان اوروبا : كان اكثر من خمس سكان الارض في السنة ١٨٠٠ ، فارتفع الى اكثر من الربع بقليل في السنة ١٩٠٠ . فاذا اعتبرنا ان هذا العدد قد بلغ ضعفه على الاقل خلال القرن التاسع عشر ، وان مساحة اوروبا تأتي في المرتبة الرابعة بين القارات الخمس – وفي المرتبة الاخيرة ، اذا لم تدخل فيها روسيا – فاننا ندرك الطاقة الديموغرافية التي تنطوي عليها .

يجب الا ننسى ، بالاضافة الى ذلك ، ان اوراسيا انما نمت بذاتها . فان افريقيا قد استقبلت اكثر مما اعطت ، والامريكتين لم تقدما اي عنصر للهجرة ؛ كما لم تقدم اوقيانيا اي عنصر ايضاً . والحال ، نحن نرجح ان الذين هاجروا آسيا اقل عدداً من أولئك الذين هاجروا اوروبا . ففي السنة ١٩٠٠ ، يجب ان نضيف الى الـ ٤٠٠ مليون اوروبي كل البيض الذين جاؤوا الى القارات الاخرى من أوروبا او انحدروا من ارومة اوروبية : لذلك فان ابناء اوروبا قد مثلوا آنذاك

ثلث الجنس البشري[1] .

(١)

عدد السكان بالملايين

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	١٨٧	٢٦٦	٤٠١
آسيا	٥٧٥	٧٦٠	٩٠٠
افريقيا	١٠٠	١٠٠	١٢٠
اميركا الجنوبية	٦	٢٥	٨١
اميركا الوسطى واميركا الجنوبية	١٩	٣٣	٦٣
اوقيانيا	٢	٢	٦
	٨٨٩	١١٨٦	١٥٧١

نقلا عن الدبرلت ويلكوكس وساندبارغ

نسبة توزيع السكان

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	٢٠٫٩	٢٢٫٣	٢٥٫٥
آسيا	٦٤٫٦	٦٤٫١	٥٧٫٤
افريقيا	١١٫١	٨٫٣	٧٫٦
اميركا الشمالية	٠٫٥	٢٫٦	٥٫٢
اميركا الوسطى واميركا الجنوبية	٢٫٦	٢٫٥	٤
اوقيانيا	٠٫٣	٠٫٢	٠٫٥

كثافة السكان

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	١٨٫٧	٢٦٫٦	٤٠٫١
آسيا	١٣٫٧	١٧	٢١٫٣
افريقيا	٣	٣٫١	٤
اميركا الشمالية	٠٫٢	١٫١	٣٫٤
اميركا الجنوبية واميركا الوسطى	١	١٫٢	٣٫٤
معدل الكثافة	٦٫٧	٨٫٧	١٢

(نقلا عن ساندبارغ)

نسبة الزيادة

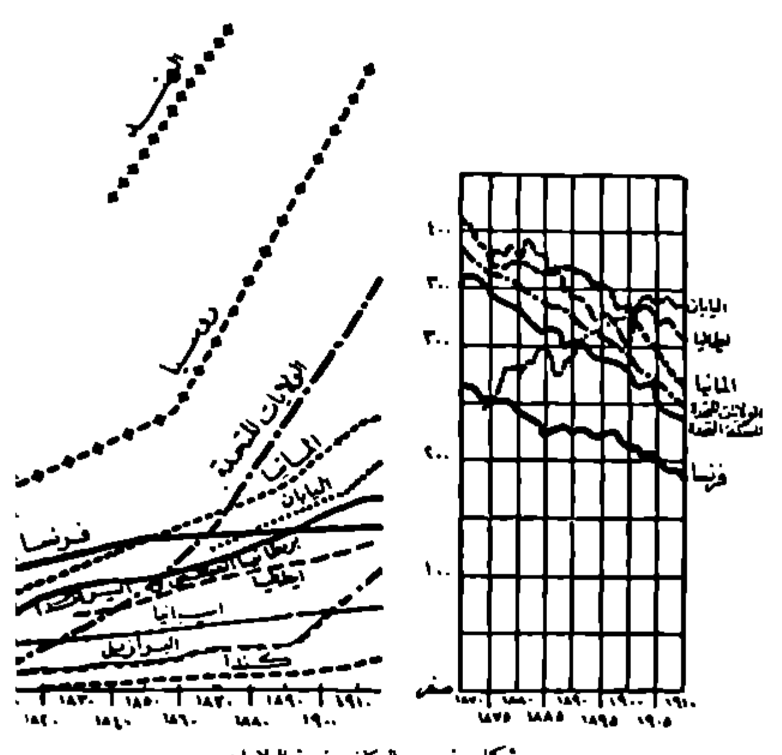
	١٨٠٠-١٧٥٠	١٨٥٠-١٨٠٠	١٩٠٠-١٨٥٠
اوروبا	٣١ ٪	٤٣ ٪	٥٠ ٪
آسيا	٢٨٫٥ »	٣٣ »	١٨ »
افريقيا		٠ »	٢٠ »
اميركا الشمالية	١٤٥ »	٣٠٠ »	٢٢٢ »
اميركا الجنوبية واميركا الوسطى	٥١ »	٧٣ »	٩٢ »
اوقيانيا		. »	٣٠٠ »

(بكل لمظ للفترة ١٧٥٠ ـ ١٨٠٠)

الزيادة السنوية ٠٫٧٠٧ بالمئة بين ١٨٠٠ و ١٨٥٠ ؛ ٠٫٨٢٣ بالمئة بين ١٨٥٠ و ١٩٠٠

النزوحات الاوروبية الكبرى

كان لنزوحات السكان التي حدثت ابتداء من السنة ١٨٥٠ ا البعيد في المعاصرين.ولا ريب في ان ارتفاع عدد السكان ا قد كان لها محركاً ودافعاً ، وامتحنت تطورها التقني والاقتصادي ، واوجـــد فيها هجرة أتاحت بعض التوافق بين العرض والطلب في سوق العمـــل ، وسهلت على العم المدن الكبرى ، ولا سيا مراكز الصناعة الكبرى والتجارة الناشطة.ولكن المقايضات لم تكن كافية ، فنزح عدد كبير من الاوروبيين عن اوطانهم ، نزوحاً مؤقتاً او نهائيـاً منهم في تحسين مصيرهم .

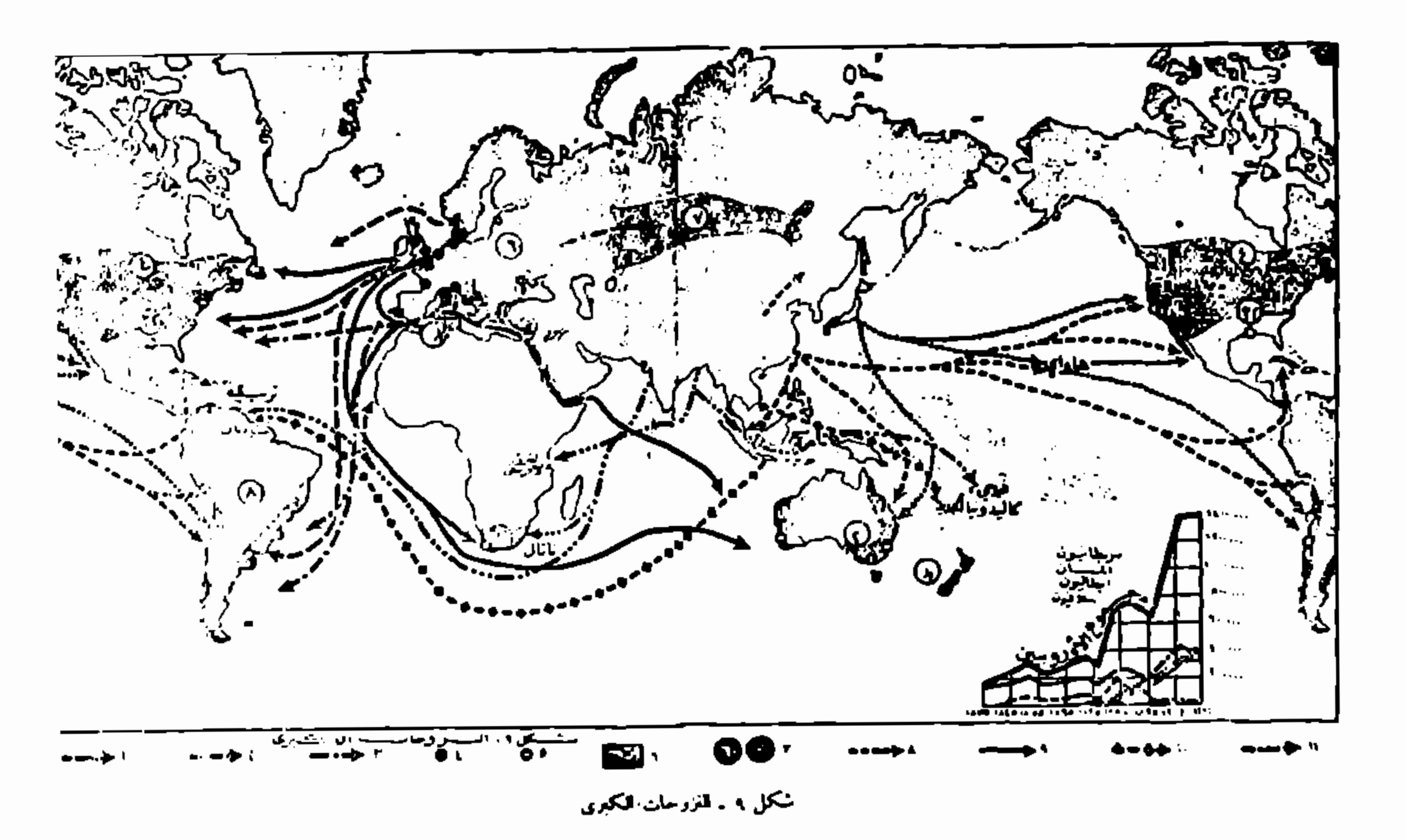


شكل رقم ٨ ـ السكان ونسبة الولادات

الى اليسار : سكان بعض البلدان بملايين النسمات (نقلا عن احصاء « بيرو » العام)

الى اليمين : نسبة الولادات ل ... ١٠ نسمة (نقلا عن « هوبر » ، بونل » ، « بوشر » « سكان ا وعن احصاء « بيرو »)

وما كانت هذه الهجرة لتتحقق في القرن الثامن عشر . فان ظروفاً مؤاتية كثيرة ـ كلفة وسائل النقل ، وعدم قابلية المدن لاستيعاب كافة النازحين عن الارياف ، وحرية في التوجه الى مناطق واسعة خالية من السكان والاستيطان فيها ـ قد توفرت في الوق



شكل ٩ - النزوحات الكبرى

بدت فيه تقديرات « مالتوس » وشبكة التحقق في كل مكان تقريباً ، بين الاطلسي والمتوسط ، وحتى الاورال في وقت لاحق قريب . فكان هذا الوقت هو البرهة السريعة الزوال: فبالامس اعتبرت الروح التجارية تزوح الرعية مضرة باقتصاد الامير ، وغداً ستفرض الوطنية قيوداً اما على الخروج واما على الدخول عبر الحدود . ومنذ السنة ١٨١٦ ، نادى « ورتون » ، تلميذ « مالتوس »، بهجرة « على نطاق واسع » في كتابه « تضخم عدد السكان وعلاجه » . فنشطت الدعاوة ، دون اي عنّق ، في اغراء المساكين ، واخذت بعض الجمعيات الدينية وشركات الملاحة على عاتقها امر النقل والايواء ، ورضيت الحكومات ، وتولت بعض دول ما وراء البحار دعاوة تشويقية . ولم يحكن مهما ان يتم السفر في ظروف صعبة (فقد زعم بعضهم ان ١٥٠٠٠ من اصل ٩٠٠٠٠ مسافر من بريطانيا العظمى قد ماتوا في الطريق او بعد انزالهم الى البر في السنة ١٨٤٧) ، اذ ان اليقين من وجود اراض وعمل مضمون كان حافزاً قوياً للمعوزين .
اما أولئك الذين ارغمتهم الازمات السياسية او الاضطهاد الديني على الجلاء او الانتفاء فكانوا اقلية ضئيلة (عدة آلاف من الفرنسيين بعد السنة ١٨١٨ ، وعدة آلاف من سكان الالزاس واللورين بعد السنة ١٧٨٠) : فالمليون يهودي شرقي الذين دخلوا العالم الجديد بعد السنة ١٨٨٠ قد فروا من البؤس ومن الاضطهاد الروسي (« بوغروم») على السواء . وقد سبق لـ « ميشليه » في السنة ١٨٣٥ ان شاهد ذلك جيداً في ليفربول : « جاء الآن دور المهاجرين المساكين الذين يُدفعون دفعاً الى ظهر السفينة . انهم لقطيع بشري بائس . . . لا مفر من أن يسافروا . صغار الحاكة يتضورون جوعاً في جوار منشستر » . هذه هي هجرة الكادحين .

تراوح عدد المهاجرين ، حتى السنة ١٨٤٠ ، بين ٣٠ و ٤٠ الف شخص في السنة : اي ١٥٠٠٠٠٠ منذ السنة ١٨٠١؛ وكان جلهم من الصناعيين اليدويين الذين افقرهم المعمل والمصنع . ثم ارتفع هذا العدد في السنة الواحدة ، بقفزة اولى ، الى ٢٠٠٠٠٠ وحتى الى ٣٠٠٠٠٠ ؛ ويرد ذلك الى خطورة ازمة ١٨٤٥ – ١٨٤٨ ، والغاء القنادة في اوروبا الوسطى – الذي حرر الفلاح من ارتباطه بالارض – ، والاندفاع وراء الذهب في كاليفورنيا واوستراليا : وهم البريطانيون والايرلنديون والالمان خصوصاً من هاجروا باعداد كبيرة ؛ فان ٨٠٪ من مجموع المهاجرين بين السنة ١٨١٥ والسنة ١٨٥٠ ، و ٥٠٪ حتى السنة ١٨٧٥ ، انتسبوا الى انكلترا وايرلندا وحدهما . ويقدر عدد المهاجرين بين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٨٠ بـ ١٣ مليوناً . ثم مرت فترة توقف نسبي في السنوات ١٨٥٧ - ١٨٧٥ التي توافق انطلاقة صناعية ملموسة في اوروبا والحرب الاهلية في الولايات المتحدة . ولكن التدفق تجدد وتعاظم مرة اخرى بعد السنة ١٨٨٠ : فنزح عن اوروبا ١٣ مليوناً خلال عشرين سنة فقط ؛ نسبة اقل من البريطانيين والنسبة نفسها من الايرلنديين والالمان ، يضاف اليهم السكندنافيون ؛ اما الجدة الكبرى فهي بدء هجرة سكان اوروبا الجنوبية والشرقية : البرتغاليون والاسبانيون اولا ، ثم رعايا فرنسوا – جوزيف والقيصر .

حركة انتقال الشعوب والشعوب الجديدة الاوروبية المنشأ

سجلت الجغرافية من ثم انقلاباً عظيماً يلفت الانتباه فيه واقعان هامان : فمن جهة اخذ شطر كبير من اليهود يجتاز الاطلسي بحيث اصبحت اميركا ، بعد روسيا ، موطن اكبر عدد منهم في العالم ؛ يضاف الى ذلك ان شعوبا صغيرة عدة – كالايرلنديين والبرتغاليين – كانت تتوزع مناصفة بين ديار الاغتراب واراضي الجدود ؛ ومن جهة ثانية ، امتدت شبكة المجتمعات المنظمة تنظيماً اوروبياً الى القارة الاميركية كلها تقريباً ، واوستراليا وزيلندا الجديدة ، ومناطق افريقية معتدلة المناخ ، وحتى الى بعض مناطق آسيا . فأسهم المهاجرون في استثمار الكرة الارضية ونشروا في الوقت نفسه الحضارة الاوروبية ، بحيث ان وجه هذه العوالم الاوروبية الجديدة ، الذي لم يكن مماثلا كل المماثلة لوجه اوروبا القديمة ، قد اعاده الى الذكرى ، على الرغم من ذلك ، بصورة مؤثرة جداً .

الفصل الخامس

فتح المحاصيل الكبرى الحيوانية والنباتية

طلبت اوروبا من العالم مساعدته على التغذية والاكتساء .

القنص والصيد — ان التقنيات الصناعية لم تضعف فروع الاقتصاد الاساسية بل قوتها ودفعت بها الى الامام .

فان ردة الفعل الدفاعية ضد الحيوانات المؤذية قد افضت الى ما يشبه القضاء عليها في الغرب، ولكن حيوانات المناطق الاخرى كانت كذلك مطمع حرصاء لا يعرفون الشفقة معنى . فقذت الجبال المرتفعة والاراضي المتجمدة حول القطبين الاسواق العالمية بالفراء ؛ وفي المناطق الحارة طورد الظبي والغزال ولا سيما الفيل في عملية استثمار استباحت كل تجاوز ووحشية . ولا عجب من ثم اذا انقرضت بعض الانواع ، واذا ما توجب ، للمحافظة على الحيوانات المهمة ، ايجاد احتياطي طبيعي او اللجوء الى تربية الحيوان (تولت افريقيا الجنوبية تربية النعامة) . وقد بلغ من الحاح الطلب ان صناعة الفراء قد اكتسبت خبرة واسعة في فن استخدام كل قنيص موبر .

وعلى الرغم من ان الانسان لم يعد ليتقيد بالصوم ،فانه قد مال اكثر فأكثر الى طلب غذائه من البحر . وقد تحسنت عدته لتحقيق مطلبه ، بينما كشفت المياه عن اسرار حياتها العضوية . فان البخار والمروحة وهيكل السفينة الحديدي قد اتاحت بناء سفينة الصيد التي كان باستطاعتها ، اذا ما زودت بالمحروقات الكافية ، اطالة رحلة الصيد وتعقب السمكة عن كثب وحتى معالجتها عليا . وقد بوشر في السنة ١٨٧٥ استخدام الشبكة التي تجر تحت سطح المياه. وبفضل التبريد ، بات باستطاعة السفينة المزودة بالجليد توسيع نطاق عملياتها. وقد ولد مرفأ «غريمبي» في السنة ١٨٥٨ وجهز « بالخط الحديدي المركزي الكبير » الذي سارت عليه قطارات نقل

لاصناف الاولى . وبرز نشاط ملحوظ في البحار الضيقة والساحلية، وعلى شواطيء اوروبا الشمالية الغربية ، واميركا الشمالية في الغرب والشرق على السواء ، وآسيا الشرقية . فأثار هذا النشاط منازعات بين الفرنسيين والانكليز حول صيد ، الارض الجديدة ، الغنية بالاسماك ، وبين الانكليز والاميركيين في صيد ، بيرنغ ، ، فأقر مؤتمر عقد في لاهاي قانوناً دولياً للصيد ، كما استهدفت احدى الاتفاقيات حماية الانواع المهددة بالانقراض .

كان الحوت في عداد هذه الأنواع . فقد جد الصيادون في اثره الى ان زال من نصف الكرة الشمالي منذ السنة ١٨٥٠ . فتحول الصيد الى المحيط المتجمد الشمالي حيث قام به النروجيون بمهارة فائقة وولع عظيم . وقد روى ، ملفيل ، هذه الملحمة في ، موبي ديك ، .

تحولت حياة اهل البحر : فطال غياب الصياد ، وامسى اقل استقلالاً، وازدهرت المشاريع الرأسمالية بفضل معدات تميزت بمزيد من الفعالية .

استخدام الشجرة

قضت المجتمعات العصرية على قسم كبير من احتياطي الاشجار الحرجية في اوروبا الغربية ، وجر الاستعمار الى الافراط في قطع الاشجار في جنوبي الولايات المتحدة وشرقيها . وكانت الكميات المتوفرة في تناقص مستمر حين تكاثر استخدام الاشجار على الرغم من اللجوء الى الفحم الحجري .

ثم جاء دور الاحراج الواسعة في المناطق المحيطة بالقطب الشمالي التي لم تشك بعد من الاعتداءات البشرية : فغدت اسكندينافيا وفنلندا وكندا دولاً منتجة كبرى . فقدمت شركة ، خليج هودسون ، خشب البناء بصورة خاصة حتى منتصف القرن وزودت مصانع السفن بخشب الصنوبر ، ثم جاء عهد الالواح الخشبية الطويلة المقطوعة من جذوع ضرب من أشجار الصنوبر وعهد الاشجار التي لم تعر اية اهمية حتى ذاك التاريخ . فوظفت رؤوس اموال جديدة في مشاريع هامة كثيرة كـ ، شركة الورق الدولية ، التي ابتاعت ٣٠٠٠٠ كيلومتر مربع . وقد امتلك اللورد ، نورثكليف، صاحب صحيفة الـ ، دايلي مايل ، ٦٠٠٠٠٠ هكتار في جزيرة ، الارض الجديدة ، وبنى في ، غراند فولز ، مصانعه الورقية الخاصة .

لم تكن احراج المنطقة الحارة اقل فتنة وسحراً بأشجارها الثمينة . الا ان اميركا الجنوبية والهند واندونيسيا قد تقدمت على افريقيا في هذا المجال بفضل وسائل النقل . فبينا استخرج العفص من شجرة الـ ، كبراكو ، في الارجنتين ، استخرجت الكينا والكوكا من اشجار جبال ، اندس ، . وعاد ، لاكوندامين ، باسم المطاط الذي لن يستخدم صناعياً الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ ومنذ السنة ١٨٧٠ ، انتشرت حمى الذهب الاسود في الاحراج الامازونية : فجال جامعو صمغ المطاط في الاحراج المظلمة لتأمين طلبات الزبن الموصين الذين نقلوا المحاصيل المجموعة عن طريق الانهر . وستبلغ هذه الحمى ذروتها في السنة ١٩١٢ .

مكاسب متاجر للمناطق الحارة

ما زال الغرب ملتفتاً بالطور التي وفرتها له المناطق الرطبة المرتفعة الحرارة : واذا كان استكشار الفحم المعدني قد وفرّ له صباغات صنعية واسم قرمزية خوالالا ونيلج الصين والهند، فانه ما زال يتجه نحو الطبيعة الغنية بالنباتات للحصول على الجانبة والقرنفل والاوجبة . فوسع زراعة الخشخاش المنوّم التي وفرت له اربلحاً طائلة ، واستخلص من الكوكا احدى ثقاله الطبية . وادخل في سلسلة الزراعات المتقنة عالم التوابل : اشجار القرفة ، واشجار الونيلية ، واشجار الفلفل واشجار القرنفل ، التي كانت تنمو ، كما يلمس لها النمو ، بعناية البلديين الكسال . ولم يأبه الضرر الذي سيلحق باشجاره الزيتية الخاصة، فطلب من الهند زيت السلجم لمصابحه واستعمله في غذائه كما استعمل الفول السوداني وزيت البلح وجوز الهند ، والسمسم ، واستخدم الخروع التداوي والتصوير . ووسع كذلك صناعة المنسوجات التي أتته من المصادر عينها : قنّب سيام الذي اسماه «حرير كانتون »، والراليا ، وقنب مانيلا أو « اباكا » ، والقنب المكسيكي ، والقنب الهندي بنوع خاص . واتجه أكثر من اي يوم مضى شطر الشرقين الأدنى والأقصى في طلب الخز أو الحرير الخام بعد انتشار مرض التنقنق الطفيلي الذي اصاب دود القز في مغزالة نفسها ؟

بيد أن ما اراد توسيعه واخصابه في الدرجة الأولى هو زراعة القطن . فان الخبازيات النهمة قد انتشرت في أكثر من مليون كيلومتر مربع حين افتقرت بعض المراكز الصناعية الرئيسية في اوروبا الى المادة الخام بسبب الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأميركية . ومهما يكن من أهمية نهضة وانطلاقة زراعة القطن الاميركي – الذي لن ينافسه قطن آخر – فان صاحب المصنع في « لانكاشاير » أو « ميلهوز » أو « شمنيتز » لن يستطيع الاكتفاء بعون واحد . لذلك تم الاتفاق على انتاج القطن ، حيثما سمحت الحرارة بذلك ، على أن تؤخذ بعين الاعتبار المياه ، والتربة التي يجب ان تكون خصابة ، والسواعد التي يجب أن تكون كثيرة : فيُنتج من ثم في ارض « بيرار » السوداء، ووادي الـ « غانج » ، وعلى جنبات النيل ودارايا – بواسطة الري ؛ ثم في البرازيل وجزر الانتيل الانكليزية الصغرى والصين ؛ وأخيراً في المكسيك و « كويلسلند » ونيجريا و « اوغاندا » . وفي اوائل القرن لم يغط النسيج النباتي الأول سوى ١٢٪ من حاجات البشر ، بينما هو غطى أكثر من ٥٠٪ في اواخره .

ولم يكن توسيع زراعة اشجار الشاي والبن والكاكاو اقل الحاحاً في المناطق الحارة ، لا سيما وان الاشربة المصنوعة من ثماره كانت مرغوبة جداً . فان الاحتكار الصيني القديم ، الذي غذى تجارة رابحة عن طريق كانتون وآسيا الوسطى منذ ان زرع البريطانيون في اسام وسيلان، والهولنديون في جزر الـ « انسولند » ، شجرة الشاي التي حسنوا انواع عصورها . على ان آسيا لم تفقد مرتبتها الممتازة . فان البن ، الحبشي الاصل ، الذي احتكره العرب تحت اسم « مخا » قد وجد في اميركا ارضه المختارة . فقد اعتنى به الهولنديون في جاوا والانكليز في سيلان ، ومن جاوا انتقل الى «غويانا» بينما استورده الفرنسيون الى الـ «ماسكارانيه» والانتيل، وزرع البرتغاليون

شجرته بدورهم في منطقة « برنامبوك » و « باهيا » ، لم يلبث « ساو باولو » التي وافقته تربتها الحمراء ومناخها ، وانتقل اخيراً الى أرض كولومبيا « المشذبة » والمزارع الفنزويلية ، وسفوح منحدرات الـ « كورديليير » ، وغزا اميركا الوسطى . إلا أن البرازيل اتلفت منه الى الاسواق قدراً من الأكياس لم يعد لتاجيه معه عليه رابحاً . فليس من اقتصاد أوهى من هـذا الاقتصاد المرتبط بالطلب الغربي . ولكن اقتصاد الكاكاو ليس بالاقتصاد الافضل : فان الأكوادور تدين له بما تدين كولومبيا او ساو باولو البن . وكان الكاكاو شراباً مفتخراً في اواخـر القرن الثامن عشر ، وقد عرفه هنود اميركا ، فانتقل من ثم الى اسبانيا . ولكنه احتل فجأة مرتبة رفيعة حين انزل السويسريان ، « بيار » و « لندت » ، الشوكولاتا الى الاسواق ، فوظفت رؤوس الأموال في مغارس البرازيل وفنزويلا والاكوادور ؛ ثم انتقلت شجرة الكاكاو الى مستعمرة الشاطىء الذهبي حيث أغرى البريطانيون الزنوج بانتاج عائلي . وبفضل ذلـك لاحت في أفق القارة الافريقية ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، زراعة لن تقل شأناً عن زراعة شجرة الشاي في آسيا وشجرة البن في اميركا .

ولكنها لن تستطيع مزاحمة هذه الأخيرة طويلاً على المرتبة الأولى في تجارة الموز . أجل لقد عني المستعمرون الانكليزيون باشجار الموز التي تظلل اشجار الكاكـاو والبن ؛ ولكن موز « كناري » كان موضوع تقدير اعظم . فتبدل الوضع في أواخر القرن حين ابتاعت بعض الشركات الاميركية – وعلى رأسها « شركة الثمار المتحدة » – اراضي واسعة جداً في اميركا الوسطى ؛ يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، أن أحد فروع هذه الشركات ، « الدرز اند فيفز » ، قـد احتكرت تجارة الموز مع الكناري .

الثمار والبقول على الخوان في الغرب

ليست ثمرة الموز سوى واحـدة من الثمار الكثيرة التي دخلت اوروبا واميركا الشمالية حديثاً . وقد تنوع الغذاء من ثم ، بصورة عامة ، تنوعاً وفيراً ، ولا سيما في المدن . ولم تأت الكميات الكبرى من الثمار والبقول التي طالبت بها المدن من الأرياف المحافظة على الطرائق التقليدية فحسب ، بل من بعض الأراضي التي اكتشفت ، بفضل هذه الزراعة ، مصدر ثروة لم تحلم به قط . ويجدر التذكير هنا باستفادة هولندا وبريطانيا الساحلية و « كورنواي » الانكليزية وبعض المناطق المتوسطية من زراعة بواكير الثمار . فان هنالك ، الى جانبي خطي السرطان والجدي ، مستعمرات اتقنت انتاج النبيذ والزبيب والزيتون والبواكير المختلفة الكثيرة . أما مناطق زراعة شجرتي التين والبلح فكانت محاذية لهذه الأراضي وأبعد نحو الصحراء . وقد اتسعت كذلك اتساعاً عظيماً أراضي زراعة الحمضيات : ففي السنة ١٨٦٠ ابحرت سفينة تجارية من فالنس وأفرغت في لندن شحنتها الكاملة من البرتقال . وفي السنة ١٨٨٣ وصل خط حديدي بين كاليفورنيا الجنوبية وشرقي الولايات المتحدة . وما لبثت كاليفورنيا وفلوريدا والانتيل ومستعمرة الـ « كاب » وأوستراليا واليابان أن انتجت التفاح الذهبي على غرار البلدان المتوسطية القديمة .

التنافس والحرب بين الشمندر وقصب السكر

ارتفعت نسبة استهلاك السكر ارتفاعاً كبيراً. فلم يعد البريطاني ليكتفي بثلاثة كيلوغرامات للشخص الواحد كما في اوائل القرن، بل اصبح بحاجة الى ٤٠ ؛ واستهلك الفرنسي منه ٢٣ بدلا من ٢ ؛ واستهلكت المانيا ٧ ملايين قنطار في سنة ١٩٠٠ مقابل مليون واحد حوالي السنة ١٨٥٠ ؛ ولن تلبث الولايات المتحدة ان تؤلف سوق البيع الاول لهذا الصنف . اجل ان في ذلك لدليل يسار : ولكن مـا يلفت الانتباه من جهة ثانية ان هذه المادة الغذائية قد رغب فيها سكان المناطـق الشمالية اكثر من سكان المناطق الجنوبية ، وابن المدينة اكثر من الفلاح . لذلك لم يعد قصب السكر ليكفي بعد السنة ١٨٥٠ ، فانتزع الشمندر مركزه ، بعد ان احرز نجاحات ملموسة : ولكنه تأخر هـا منيت به المناطق الحارة ، عند الغاء النخاسة ، امام اوروبا واميركا الشمالية اللتين حمتا الثورة الزراعية واستا المزيد من معامل السكر في كنف الحماية الجمركية . ولكن الاشياء عـادت الى حالها بعيد الثورة الكوبية التي وافقت في الزمان فترة تدن في الزراعة : وقد افضى الى ذلـك المجهود الذي بذله في آن واحد الهولنديون في جاوا ، والبريطانيون في الهند وجامايكا وموريس ، والبرازيليون في بلادهم ، واليابانيون في فورموزا ، ولاسيما الخطوة التي خطتها كوبا « وبورتوريكو » الى الامام في كنف الولايات المتحدة . ثم اوجدت الاتفاقات الدولية المساواة بين الزراعتين ، فتوزع قصب السكر والشمندر ، مناصفة تقريباً ، انتاجاً استهلك الغرب ثلاثة ارباعه .

توسع مساحات زراعة الحبوب

كان الجـدب بالامس يعني الحاجة الى الخبز . ومن جهة ثانية قابلت التجمعات البشرية المناطق التي كانت فيها الحبوب مرتكز الغذاء . ولذلك كانت معركة الارز في آسيا ومعركة الحنطة في اوروبا معركتين حيويتين في نظر المجتمعات المرتفعة عدداً ؛ ولكن كانت هنالك معركة الذرة الصفراء عند الهنود الاميركيين ومعركـة الذرة البيضاء والجاورس في افريقيا . وقد اشار « مالبو دي دومبال » الى الصيغة التي توافق اوروبا الضيقة : « ان الاهراءات الحقيقية اليسار هي الدورات الزراعية المتقنة » . ولكن الزراعة الوفيرة الانتاج متعذرة في المساحـات الواسعة التي يجب ان « تصنم فيها الارض » اولاً . فهي المساحة الصالحـة العراثة مـا يعول عليه حين يكون المقصود فتوح الارض البكر بواسطة المحراث .

انه لظاهرة عظيمة تقدم جبهة مستصلحي الاراضي عبر المروج او السباسب من الشرق نحو الغرب في اميركا الشمالية ، ونحو الشرق عبر سيبريا ، ومن الشواطىء نحو الداخل في المناطـق الجنوبية . ومن الطبيعي ان الامكانات وطرائق المعيشة قـد اختلفت بين فريق وآخـر : فشتان بين « المزارع » الاميركي الذي استفاد من الخط الحديدي والآلة الزراعية ، وبين الفلاح الروسي المشدود الى عادات جدوده في اعتماد الزراعة الجماعية . اما وجه التشابه فهو ضعف الانتاج الذي يفيض عنه ضعف الاستهلاك محلياً ؛ بحيث اعطت اراضي زراعة الحبوب فـائض انتاج بيع بمعظمه في الاسواق العالمية . اضف الى ذلك ان الطرائق والتقنيات قـد افادت من

الاختبار : فقد شوهد قمح شتوي ، هو القمح « التركي الاحمر » ، يزرع في اراض واسعة بين « كنساس » و« داكوتا » وقمح ربيعي ، هو الـ «مزمار الاحمر» الغاليسي المنشأ ، يغزو «اونتاريو» و« مانيتوبا » و « ميناسوتا» و«داكوتا» ثم بلغت اراضي زراعة القمح في الدهما المتاخم نصف الصحراوية التي وافقت ، بفضل « الزراعة البطيا» ، لوما من الحنطة اعظم قــدرة على مقاومة الجفاف والبرد ، هو « المركيز» ، الذي استحصل عليه بتهجين «المزمار الاحمر» والقمح الهندي .
اما في الهند فقد وجه الانكليز جهودهم شطر البنجاب والسند حيث ساعـد الري على انتاج قمح ربيعي .

بيد ان اعظم نجاح هو نجاح اميركا الشمالية التي افادت من تنظيم مجاري متين مرتكز الى الاهرامات ، ووسائل نقل سريعة ، وصناعة طحينية متقدمة . فقد خصصت لزراعة الحبوب ، بما فيها زراعة الذرة الصفراء ، مساحة ٧٠ مليون هكتار في الولايات المتحدة ، و ٧ في كندا ، فتوفر ٥ مـلايين طن من طحين الحنطة في السنوات ١٨٩٠ – ١٩٠٠ . وباتت «مينيا بولس » و « شيكاغو » و « وينبيغ » تؤمن الخبز لـ ١٠٠ مليون نسمة . اما الارجنتين واوسترالبا والهند فقد اسهمت ، بامكاناتها المتواضعة ، في تسليم اوروبا الغربية ما تحتاج اليه ، اي ١٢ مليون طن بالاضافة الى ما كانت تسلمها اياه اوروبا الشرقية على غير نظام .

تقهقرت امـــام القمح الحبوب المعروفة منذئذ بالثانوية ، لان الخبز الابيض كان دليل حضارة متقدمة .

ولا يخلو من المغزى كذلك التقدم البطيء في انتاج الارز الذي لم يعره الغرب اهتماماً يذكر . ولكن الغرب قد توفق ، بحمل بورما تلعب دور ممون الجماهير الآسيوية الشاكية من التغذية الناقصة ، الى ان يتحكم بتموين شطر عام من هذه البشرية .

حاجات تربية المواشي

ان المروج والسباسب التي يسهل اعدادها لزراعة الحبوب تصلح لتربية المواشي ايضا . لذلك نرى ان تربية المواشي ارتبطت بالزراعة في البلدان الاوروبية التي زاولت الزراعة منذ القدم . امـا فتح الارض البكر فغالبا ما تم بواسطة القطيع الذي يمكن ان يكون موضوع مضاربة مائعة .

هذه هي حال الخروف الذي انكفأ في اوروبا الغربية والوسطى امام النباتات المفيدة المقلقة ، ووافق المساحات الجافة الشاسعة في الغرب الاميركي والسهل الروسي ونصف الكرة الجنوبي . وتعطينا اوستراليا على ذلك مثلا عظيما. فان الحدث الرئيسي بالنسبة لها ليس انزال ٧٥٠ محكوماً من لفظهم المجتمع في خليج (سدني) بامرة « ارثور فيليب » في ٢٦ ك٢ ١٧٨٨ ، بل انزال ٢٩ خروفاً . ففي السنة ١٨٢١ ارسلت بالات الصوف الاولى الى انكلترا، وفي السنة ١٨٦٠ ارتفع عدد الاغنام الى ٢٠ مليون رأس ، والى ١٠٠ مليون في السنة ١٨٩٠ . وعلى الرغم من الجفاف الرهيب الذي حصل في السنة ١٩٠٢ ، ومن جرد الارانب للارض ، اللذين انـــزلا اضراراً

كبيراً بعد ذلك بهذا العدد الضخم من الاغنام ، فان صحة المثل الاسباني السائر تتحقق في هذه القارة القليلة السكان : « اقدام الخروف من ذهب ، والأرض التي تظهر فيها آثار اقدامه تتحول الى ذهب » . فبات بمقدور العالم ، الذي لم يستهلك قط أكثر من ١٠٠٠٠٠ طن صوفاً في اوائل القرن أن يستخدم ١٣٠٠٠٠٠ طن حوالي السنة ١٩٠٠ ، فاصبح الانفصال نهائياً بين المناطق المنتجة والمراكز الصناعية .

وهنالك واقع آخر كان من شأنه تشجيع تربية المواشي ، اعني به أهمية اللحوم والاجبان في تغذية المجتمعات الجديدة . لا ريب في أن جهود أوروبا الشمالية الغربية ، التي حسنت فيها المراعي التي ترويها امطار كافية ، قد تكللت بالنجاح : فمع غرار الزراعة ، ارتدت تربية الأبقار والغنم طابع التصميم على انتاج عظيم . ولكن النشاط الزراعي في البلدان الجديدة ، التي توفرت لها المراعي الطبيعية الواسعة والحبوب المغذية ، قد تقدم كل جهود . فان « منطقة الأبقار » ، حيث اعتمدت في تربية المواشي الطريقة البدوية ، مع ما استلزمته من رعاة بقر وحراس (*Gauchos*) ، ليست سوى المرحلة الأولى من النشاط في هذا الحقل ، ثم جاء دور المحطات الثابتة ، او مزارع التسمين ، التي غذت صناعة المعلبات ، ثم اخذت ترتسم انطلاقة الحليب : فقد دخلت كندا وزيلندا الجديدة وأوستراليا الى جانب الولايات المتحدة في منافسة الشمال الغربي الأوروبي في قيمة المنتوجات ، وقد سهلت الذرة الصفراء ومصالة الحليب ، بالاضافة الى ذلك ، نمو تربية الخنازير ، ونجاح الـ « مارغارين » (مزيج حليب وشحم حيواني حلله « ميج - موريس ») وشحم الخنزير . ولم يكن أقل شأناً كذلك تقدم تربية الطيور والدواجن ، بفضل الانتقاء التزاوجي وبسبب طلب متعاظم للحوم والبيض . أما النحل فقد اصبح موضوع استثمار أكثر تنظيماً قياسياً : فبعد « ريو مور » ، جاء هوبير و « دزيرزون » ، اللذان اكتشفا التناسل الذاتي لدى العاملات الباضات ، و « لانغستروث » ، و « دادان » ، اللذان ابتكرا القفران ذات النحت المتحركة . كان الغذاء الحيواني المنشأ لا يزال نادراً ومتوسطاً في القرن الثامن عشر : فلا مجال من ثم للتقليل من أهمية التبدل الذي حدث في هذا النطاق ، اذا ما اردنا فهم ارتفاع مستوى المعيشة العام في الغرب منذ منتصف القرن اللاحق .

انتشار الغريبين ونتائجه غير المقصودة على الانواع النباتية والحيوانية

الا ان الانسان قد تأثر ، على الرغم من ذلك ، بالنتائج غير المرتقبة التي اسفرت عنها الصالاته . وقد لاحظنا ان استيراد اصواف المناطق الجنوبية كان كافياً لانتشار أكثر من خمسين نوع نباتي جديد حول مراكز صناعة الجوخ في جنوبي فرنسا . ويفسر شراء الحبوب من الشرق الأوروبي دخول بعض انواع نباتات البورات الى فرنسا. وقد انتقلت من العالم الجديد الى أوروبا آفة الارمداد التي فتكت منذ السنة ١٨٤٧ بالكرمة المتوسطية القديمة ، بينما قاومتها الانواع الاميركية مقاومة فضلى . وانطلاقاً من نصف الكرة الغربي ، انتشرت كذلك آفة الطرونة وقمل الشجر المثمر . وكان الصرصور الذهبي قد تردد الى الباذنجانيات البرية في الولايات المتحدة قبل

أن يفتك فيها بالبطاطا ، وظهر في أوروبا مرتين بين السنة ١٨٧٦ و ١٨٨٠ .والتلف داء الكرمة كذلك الجفون الأوروبية التي زرعت في اميركا قبل أن ينتقل الى أوروبا ويحدث فيها الكارثة التي لم تعالج إلا جزئياً بعملية تطعيمها . وظهر داء اوراق البن العربي في سيلان ، ثم انتشر في أقل من عشرين سنة في كافة البلدان الواقعة حول المحيط الهندي ، وتسرب اخيراً الى قلب افريقيا . أما الدوري النهم فقد دخل اميركا بعيد السنة ١٨٥٠ ثم اوستراليا حيث جاء الأرنب بدوره يحدث اضراراً أكثر مثولا الميان ايضاً . واذا استصوب في بوهيميا إدخال الجرذ المسك الذي ابتغاه الكنديون من أجل جلده الفروي ، فانه من جهة ثانية قد تكاثر تكاثراً خطراً في موطنه الجديد .

الفصل السادس

العبقرية الصناعية في أوج انتاج الفحم الحجري وعند ظهور الفولاذ

« وا أسفاه ! ان الطاحونة التي تدور ، تدور لم تزل » .
(« فيرهارن » ، « الاسيلت »)

« ايها النزلة الهالكة التعب ، انها انتم الآن تحرمونني من شعلة عروقي ... »
(« غردو » ، « اغنية الفحم الحجري »)

ترويض القوى الطبيعية وسيطرة الفحم الحجري

سارت الحضارة الصناعية بخطى حثيثة بعد السنة ١٨٥٠ : فلرتسم حينذاك الخلاف في اوروبا بين بلدان الحصان البخاري وبلدان حصان الجر ، ووصل الاميركي الشمالي حقاً الى استثمار ثروات قارته ، وحقق الغرب في العالم تفوقاً ماديا ساحقاً .

لم تتخل المياه قط عن وظيفتها كقوة فاعلة . فبالاضافة الى الخدمات الضرورية التي ما زالت تؤديها ، من غسل نسائج وتسقية شغار وتوفير الانبجاس القوي المضغوط الذي يستخدمه المنجم للتحليل ، نراها تحرك آلات الرفع وتغذي مضخة « ايولد » المبعدة عن المركز وتتيح تركيب المصعد وتوليد الكهرباء بواسطة العنفة . واذا ما تدنى شأن الطاحونة الهوائية والسفينة الشراعية ، فان الهواء المضغوط قد حرك كذلك المعاصر والمثاقب وامن المتانة لفرملة « وستنكهوس » .

أجل ان البخار ، الذي هو وليد الماء على كل حال ، قد استقطب العديد من المحبين ، كما ان تحقيقاته قد اخرست المرتابين . الا ان المهندس والعالم قد أخذا منذئذ يبحثان عن محرك

أعظم فاعلية : اما بواسطة الهواء الساخن كما توخاه « اريكسون » و « فرانشو » ، واما بواسطة الغاز كما ارتأى « هوخون » ، وكما ارتأى بعده « لنوار » و « اوتّو » و «لانجن» ، واما بواسطة عروق سائل ايضاً . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق تحققاً نهائياً، وقد عجزت الكهرباء نفسها التي اثبتت قدرتها على اضاءة افضل ، عن توفير قوة دافعة كافية . فالمجال ما زال واسعاً امام الفحم الحجري .

امتد المنجم ونشر الدخان ولوث الاراضي المجاورة الهادئة ؛ وجمع البشر بمئات الالوف في هذه « البلدان السوداء » حيث اخضعهم لعمل شاق مضن ؛ وغالباً مـا تسبب بالموت والمر الاحقاد ، ولكنه عرف كيف يستميل الناس اليه . وتعمق التعدين بفضل المطرقة القارضة والمثقب (مثقب «كاني» حوالي السنة ١٨٢٠ ، ومثقب « سومايه » بعد ذلك بعشر سنوات) ، وبفضل اجهزة فضل التدعيم والضخ والتهوية والافراغ (بواسطة سلة مزودة بفرملة ابتكرت في السنة ١٨٥١) . وسهلت الآلات استنزاف المياه والغسل والغربلة ؛ ولكنها لم تخفف الجهد اللازم لقطع الاشجار ومحرجتها واعدادها للتخشيب ولردم الحفر . فتضاعف الانتاج تضاعفاً متبايناً جداً . ولكن نسبة الاستهلاك ارتفعت ارتفاعاً عظيماً جداً . فتنوع استعمال الفحم : استخدم وقوداً في المدن ، ثم مست الحاجة اليه في القاطرة وفي صناعة الحديد والحديد المصبوب والفولاذ ؛ وسير العديد من الانوال ، واحدث ثورة في صناعة الورق والزجاج ، واوجد معمل السكر الشمندري ؛ و«كرّر» فأعطى غاز الانارة الذي حل محل الزيوت والنفط؛ والقار الذي استخرج منه البنزين والانيلين ، ومواد تلوينية كثيرة ؛ وحوامض الفينول على انواعها التي استخدمت في الطب الدوائي وصناعة الجلود ، واملاح حمض البكريك القابلة الانفجار .

يقدر العارفون ان استخراج الفحم قد انتقل من ٩ ملايين طن حوالي السنة ١٧٩٠ الى ٩٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠ ؛ ولكنه ارتفع حتى ٣٠٠ في السنة ١٨٨٠ وناهز الـ ١٠٠٠ في السنة ١٩٠٠ . وقد كتبت صحيفة التايمس يوماً : « ان الاماكن الغنية بالفحم الحجري امست وكأنها حجر الفلاسفة المعاصر ... » ورأى فردريك سيمنس في الفحم « قياس كافة الاشياء » ، وسيذهب «مكسيمليان هاردن» الى ابعد من ذلك باعلانه : «لا خلاص بدون الفحم ». فقيست القوة منذ ذاك التاريخ بالوحدات الحرارية التي يولدها الوقود المعدني . ومهما يكن من الامر فان سلاح المحارب وقلم الدبلوماسي يجب ان يحسبا حساباً لمول عامل المنجم . ومنذ السنة ١٨٧٠ انتجت مناجم الـ « روز » ضعفي ما تنتجه مناجم فرنسا . وعلى نقيض هذه الاخيرة ، تجمعت داخل حدود البلدان المنتشرة بين الـ « أبالاش » والـ « دونتس » اغنى طبقات الفحم الحجري في نصف الكرة الارضية الشمالي : الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، المانيا ، ولا سيما بريطانيا العظمى التي تقدمت غيرها في الاستثمار واستفادت من تسهيلات كبرى لعقد الصفقات .

كانت الاولوية البريطانية ساحقة في السنة ١٨٥٠ (٥٦ مليون طن) ؛ ولن تزول الا قبيل

السنة ١٩٠٠ ، حين احتلت الولايات المتحدة بدورها المرتبة الاولى . ولكن بريطانيا العظمى احتفظت ، حتى بعد هذا التاريخ ، بالسيطرة على الاسواق من حيث نسبة المبيعات : واذا هي تراجعت بعض التراجع في اوروبا الوسطى امام المنافسة الالمانية ، فانها ما زالت تزود الموانىء البحرية بالوقود . فكانت نتيجة وجود الفحم الانكليزي في كل مكان الوجود الانكليزي في كل مكان ايضاً: وان لندن التي توفرت لها هذه الامكانية العظيمة قد سيطرت في كل مكان ايضاً.

ارباب صناعة الحديد والفولاذ

في القرن التاسع عشر انطلق عصر الحديد . فقد تحققت انتصارات تقنية تشي بنفسها وبالمستقبل : بناء الجسور المعدنية الكبرى في « بروكلن » و « فورث » و « غارابيت » – وقد بنى هذا الاخير « ايفل » ، « رجل الحديد » ، « رجل البرج – » وبناء هذا البرج الساحر نفسه فوق معرض السنة ١٨٨٩ . وغزا المعدن المروض حياة الغربي ودخل في كافة ادواته المألوفة . فالريشة بقيت ريشة حتى ولو صنعت من الفولاذ ، واستعرت المرأة في حل لحى المشد وان لم تكن لحى حوت حقيقية .

تحتمت هزيمة الفحم الخشبي الذي كان يغذي « الكور الكاتالاني » ؛ لقد انتقلت السيطرة الى الفحم الحجري المقطر: انه لتحول بطيء لعمري، اخّرته في أماكن عديدة نوعية المنتوجات المحققة حتى ذاك التاريخ والمصالح المشتركة القائمة بين الحدادين واصحاب الاحراج . وازدادت طاقة المصاهر بفضل اكبار « كوبر » : فقد بني منها ما انتج ٥٠٠ طن في اليوم الواحد ، وحتى ٩٠٠ طن في الولايات المتحدة . وتحسن التصفيح الذي تناول الفولاذ ايضاً .

وكان انتاج الفولاذ المستوفي كافة الشروط هدف الطرائق التقنية التي مثلت ثورة حقيقية في صناعة الحديد والفولاذ خلال القرن . فقد اعطت بعض المعادن الحديدية غير الخالصة فولاذاً سائحاً عن طريق التكليس في مصهر مزود بمرايا عاكسة للنور ؛ وأنتج في أميركا فولاذ عرف بالفولاذ الممزوج بالكربون ؛ وتحقق الفولاذ « الدجاجة » في « بتسبورغ » في السنة ١٨٤٠ ، والفولاذ السائح في السنة ١٨٥٣ . وفي هذه الاثناء فكر « هنري بسمر » الذي كان قد هوى تعطيل الطوابع البريدية واستخراج عصير قصب السكر واختراع مضخة مبعدة عن المركز ، بتحويل الحديد المصبوب تحويلاً مباشراً الى فولاذ سائح بواسطة تيار هوائي مضغوط ؛ وكان محوله هذا يبعد كربون الحديد المصبوب السائح فلا يبقى الا الاستعاضة عن الكربون بواسطة حديد مصبوب ممزوج بالمنغنيز او الكبريت . وكان ذلك في السنة ١٨٥٦ . فاستقبل الاختراع في البدء استقبالاً حاسياً ، ثم تغلب الارتياب ، فاضطر بسمر لان ينشىء بنفسه في « شفيلد » مصنعاً للفولاذ بحسب نظريته . وما لبثت فوائد طريقته ان برزت شيئاً فشيئاً ، مع انها لم تنطبق على المعدن غير الخالص الممزوج بالفوسفور واستلزمت مادة خاماً نقية جداً .

ثم ابتكرت طريقة اخرى : هي طريقة اذابة الحديد المصبوب مع الحديد اللدن . وكان

هذا الاختبار قديم العهد : وقد سبق لـ « ريو مور » و « هاسنفراتز » ان اشارا اليه. فقد عاد اليه « لويس لو شاتلييه » في السنة ١٨٥٦ بواسطة كور مزود بالمرايا يحترق فيه الكربون احتراقاً بطيئاً ، ومن شأنه إتاحة استخدام نفايات الحديد وقراضاته . ولكن العملية لم تنجح نجاحاً تاماً إلا في السنة ١٨٦٤ حين استخدم الاخوان « اميل » و « بيير مارتين » كوراً زودت جدرانه بأوكسيد السليسيوم ومولداً للغاز من صنع « فردريك سيمنس » . فتم انتاج الفولاذ بشتى درجاته وبكميات كبرى . وانتقل استخراج المعدن الغير الخالص من ٤ ملايين طن إلى ١٨ مليونا بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ .

في هذه الأثناء تحسنت السقاية وتعلم الناس الاستفادة من المعادن غير الخالصة الممزوجة بالفوسفور . وكان « فروزر » قد اثبت أن القاعدة الكيميائية وحدها قادرة على تثبيت الجسم الممزوج بالفوسفور والخالي من الماء ؛ ولكن لما كان جدار الكور مزوداً بأوكسيد السليسيوم فان القاعدة كانت تحلل هذا الأوكسيد . والحال وجد للمسألة حلان في السنة ١٨٧٧ – ١٨٧٨ : فمن جهة فكر « توماس » و « جلكرست » بتلبيس الكور بكربونات الكلس المزدوج والمنيزيا؛ ومن جهة ثانية اعتمد « بورسيل » و « فالران » تلبيساً مماثلاً لكور « مارتين » . فقفز الاستخراج قفزة جديدة ، وبلغ ٢٧ مليون طن في السنة ١٨٩٠ و ٤١ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

تسبب هذا التطور السريع في التقنيات في انتقال المشاريع من مكان الى آخر . فقد كانت المؤسسات الصغرى من قبل موزعة هنا وهناك على مقربة من الاحراج والمياه . ثم برزت الحاجة الملحة الى حديد وفحم حجري يتوفران معاً . ففي انكلترا مثلاً تجمعت المصانع في « مدلسبره » ومنطقة « غلاسكو » الغنية بالحديد ؛ ولكن منجم الفحم الحجري لا يلبث أن ينزف ولا يكفي: فتنتقل المصانع نحو البحر الذي تأتي عن طريقه المعادن غير الخالصة من البلدان الأخرى، وتستخرج هذه المعادن كذلك من الطبقات الجوراسية بين « كليفلند » و « غلوستر » ؛ ولكن هذه المعادن لم تكن كثيرة الانتاج بسبب امتزاجها بالفوسفور . بيد أن طريقة توماس لم تحل دون فقدان الجزيرة أولويتها ، لا سيا وقد سُلّم فيها بافضلية طريقة مارتين . وتأخرت بلجيكا كذلك تأخراً نسبياً لأن الحديد قد نزف فيها . وأحدق الخطر بفرنسا التي انقذها منجم اللورين الصغير . ولكن هذا المنجم الأخير لم يكف المانيا ، فكان أن الصناعات الحديدية والفولاذية الكبرى في انكلترا وألمانيا قد استوردت حاجاتها من بلدان لا تستخدم كل ما تستخرجه من المعدن غير الخالص (فرنسا ، اسوج ، اسبانيا) أو تصدره بكليته (الجزائر) . وفي روسيا ، تأخر الأورال نسبياً أمام تقدم الـ (دونتس) . وفي الولايات المتحدة باتت بتسبورغ عاصمة صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ، وحتى في السنة ١٩٠٠ ، اجتذب اليها كرنجي ، المالك فيها سعيداً ، معدن « ماركيت » الادبس اللون بفضل فتح قناة « سولت – سانت – ماري » . إلا أن المؤسسات العاملة لحساب البحرية قد اقتربت من الاطلسي ، والجنوب أخذ يتجهز شيئاً فشيئاً ، وقامت مدن الحديد والفولاذ في السهول الكبرى بعد اكتشاف أهمية المناجم الحديدية

في منطقة البحيرات ، دون أن يؤدي ذلك الى تخفيض انتاج هذا المركز العظيم . فأكد كرلجي حينذاك أن الولايات المتحدة « سوف تستطيع سد حاجات العالم بأجمعه » .

تنوع المعادن غير الحديدية والاملاح

كان الفولاذ من ثم امتزاج حديد وكربون . أما صناعة انواع الفولاذ الخاصة فقد استلزمت معادن غير حديدية كثيرة كان بعضها جديداً ، كالتونغستين والمنغنيز والنيكل .

صنع الشبهان من امتزاج النحاس والخارصين ، وحل محل الورق المقوى في صناعة اسطوانة الخرطوشة ، وبفضل لدانته استخدم في صناعة انابيب المصابيح وصناعة الصنابير ، ومماثل المجوهرات وارتدى مظهر البرونز المذهب . ومن حيث ان النحاس مادة حسنة الايصال فقد استخدم في مصانع التقطير والتمحيص ومعامل السكر ، ودخل في خدمة الكهرباء . أما الزئبق فقد استخدم في اذابة المعادن الأخرى وأضفى على المتفجرات خاصيات فاعلة ، واستعين به لمعالجة المصابين بالداء الزهري . وأمنت علب المحفوظات ازدهار الحديد الابيض (التنك) الذي ليس سوى حديد ملبس بطبقة رقيقة من القصدير . واستخدم البورق لبرنقة الزجاج وطلي الخزف الصيني والتصوير . وتمت كذلك تقنيات خاصة سيقوم لها التحليل بالجرى الكهربائي عوناً كبيراً ؛ وهو هذا التحليل ، بصورة خاصة ، ما سوف يحقق آمال « وهلر » و « بونسن » و « سانت كلير دفيل» بااتاحته تحليل الألومين. ولكن اذا استمرت أوروبا ثرواتها خير استثمار ، فانها لا تستطيع مقارنة مواردها من النحاس والرصاص والنكل بموارد اميركا : وليست جزر (كاسيتريد) المعاصرة من بعد قائمة على مقربة من شواطئها بل في ارخبيل الا « سوند » .

بين الاملاح ما زال ملح الطعام ، المقوي والمــدر البول ، والضروري للانسان والحيوان ، يستخرج من الملاحات الساحلية ومناجم الملح . وليست هذه المادة ما افتقرت اليهــا أوروبا . ولكن الحاجة مست الى املاح أخرى في الزراعة ومن أجل خصائصها الصناعية. فأوجد «ليبيغ» في « جيسن » و « جان باتيست دوما» و « جلبير » و « لوز »من بعدهما ، الكيمياء الزراعية، مع ان المزارعين ما زالوا يفضلون الأسمدة العضوية على انواعها: الدمن والاشنة ومقذوفات البحر والغوانو . وقد غدى هذا الأخير» الذي ليس سوى فوسفات كلسي تكون من ذرق الطيور ، تجارة كبرى خلال نصف قرن في كافة ارخبيــلات المنطقة الحارة ، لا سيا وأن استثمار جزر « شنشا » في « بيرو » قد استمر منذ السنة ١٨٣٠ حتى السنة ١٨٧٥ . ثم اكتشفت أهمية املاح الفوسفات الموجودة في بعض الصخور اما بشكل عقد أو بمر الشيطان ، واما بشكل حجارة طبشورية فوسفورية . وفي الوقت نفسه لفت الانتباه إلى شواطىء اميركا الجنوبية نفسها ملح البارود الذي صنع منه عمال المناجم بارودهم والذي كان من شأنه انتاج سماد ازوتي من النوع الجيد . وبسرعة ذاعت شهرة هذه الاملاح ، فاستفاد التشيليون من الحرب المعروفــة بحرب الباسيفيكي في ١٨٧٩ — ١٨٨١ وانتزعوا من « بيرو » و « بوليفيا » المنــاطق الغنية بنترات الصوديوم في جوار صحراء « اتاكاما » . ومن جهة ثانية وفر الملح الطبيعي المعروف بال «كاينيت»

والمركب من سلفات المغنيزيوم وكلورور البوتاسيوم ، الاشنان للزراعة الأوروبية المتقدمة ، ثم توفق « جوزف فوغت »، اثناء بحثه عن الفحم الحجري في السنة ١٩٠٤ ، الى اكتشاف كلورور البوتاسيوم الطبيعي في الالزاس العليا .

امبراطورية الكيمياء الواسعة الاطراف

كانت نتيجة توسع المناجم أن الغرب امتلك مواد خاماً وفيرة ومتنوعة جداً تطلبتها عبقريته الصناعية وتفتحت في تحويلها. وقد سلكت في ذلك طريقين .

فان الكيمياء قد اشتركت اشتراكاً فعالاً في المعركة من أجل الحياة وغدت عاملاً قوياً من عوامل الموت . حاربت الأمراض التي تصاب بها الانواع النباتية كالكرمة، وحفظت المأكولات (حين حقق « شارل تليه » - بعد « جاكوب بركنس») - التبريد الاصطناعي بواسطة روح الحوامض الخشبية والكلورور الكلسي ، قامت السفينة « البراد »في السنة ١٨٧٦برحلتها الأولى ذهاباً وإياباً بين اميركا الجنوبية وأوروبا))، وحسنت عملية التخمير واشتركت في اعداد الجعة. وساعدت على مزج الخمور بسوائل أخرى وعلى غشها أيضاً ، ووسعت نطاق الانبيق والكحول التي تعاظم استهلاكها تعاظما مخيفاً ، والتي صلحت ، اذا ما أفسدت ، التدفئة والانارة والصباغة وصناعة البرنيق على اختلاف انواعه. ومن بين فروعها الأولى انتاج الحامض الكبريتي الذي لعب دوراً رئيسياً في صناعة الأسمدة الفوسفاتية والقلي والمواد الملونة والعطور والمتفجرات ، والذي صنع بواسطته الحامض الأزوتي والحامض الكلوري. يضاف إلى ذلك أن صناعة القلي قد تجددت بالطريقة المرتكزة الى محلول النشادر التي احكمها « سولفاي »و « شلوسنغ » : وأن هذا الملح قد أعطى ماء(جافيل) بامتزاجه بالكلور، وملح التبييض اذا ما أضيف اليه كبريت أو كربونات، واذا ما أضيف اليه الكربونات سهل الهضم واختمار العجين واشترك في تركيب معجون « بوردو »لمكافحة طفيليات الحدائق، واذا ما أضيف اليه حامض البور أصبح مطهراً واستخدم في صناعة الجلود الرقيقة . واذا ما عرف الكيميائي كيف يحسّن توشية النسائج (انتقلت التوشية من لونين في النسائج الهندية والنسائج القطنية في السنة ١٨١٣الى ٨ بفضل « كوشلين » في السنة ١٨٥٦ والى ٨٥ في السنة ١٩٠٠) ،فانه لن يلبث أن يبتكر العديد من الألوان بفضل « رونج » و « باير ». ولكنه بانتظار ذلك سيبتكر ، بمجرد إضافة الكافور الذي يخفف من الخصائص التفجيرية التي يتميز بها السلولوز الازوتي ، والسلولويد الذي صنعت منه الامشاط والطواق القمصان واطراف الاكمام (هذه هي الياقات الاميركية) ، والذي حل محل القشرة والند،والذي استخدمه وايستمن ، في صنع الأفلام الفوتوغرافية . ثم ان تثبيت الصور بواسطة الاملاح السريعة التأثر بالنور قد أحرزت نجاحات عظيمة جداً .

اودع الانسان فكره الورق اكثر فاكثر يوماً بعديوم. فجاءت الكيمياء عوناً له بواسطة المعجون الخشبي الذي عالجه بالكلور والقلي والاشنان والنشادر .وفكر « مونغولفييه » بخشب الزيزفون؛ وفي السنة ١٨٦٠، عند الساعة الخامسة مساء،خرجت « الصحيفة الاميركية الشمالية » من المطبعة

بينما انطلقت شجرة الحور التي ضحي بها من اجلها في الساعة العاشرة من صبيحة النهار نفسه .

« ولكن الانسان يحارب الامواج الهائلة ... »

(« الماء والشيء » ا « فيكتور مي لابراد »)

قبل الولاعة الفوسفورية ، مثل الثقاب خير نجاحاته في اشعال النار : جمع بين مفاعيل الكبريت والفوسفور وبين الخشب ، بعد ان اقترحه « رومر » ، « وبريشل » في النمسا ،لحصنه « لونفسلروم » و « جونكوبنغ » . فبدأ القرن الثامن عشر ، الذي لجأ ابداً الى ضرب الصوانة بمعدن لاشعال الصوفان وكأنه ، بالمقارنة ، اقرب الى العصور الاولى . وكان غاز الانارة موضوع رضى لسكان المدن ، فتقدم تقدماً حثيثاً سهله ليس صنبور « اوير » فحسب بل مضرم« بونسن » ايضاً . وتوجب على الشمعة الشحمية ان تحسب حساباً للاسيتلين ولا سيا للمصباح البترولي الذي بدا عملياً واقتصادياً . وفرض الهيدركاربور نفسه بصورة مفاجئة في اعقاب احكام الاجهزة المزودة بالفتيل التي يصعد فيها الزيت بفعل الخاصية الشعرية ؛ ولكن لنجاحه تفسيره في نجاحات استخراجه وتطهيره : فان حمى البترول التي انتابت اميركا غداة الاختبار الذي اجري في السنة ١٨٥٩ في « تيطوسفيل » على يد الكولونيل درايك – الاندفاع نحو « اوهايو » – قد رفعت الانتاج من ٣٠٠٠ هكتوليتر في السنة الاولى الى قرابة ٤ ملايين منذ السنة ١٨٦٥ .وبينما تأسست شركات قوية لاستثمار هذا المصدر غير المرتقب للثروة ، واجه بعضهم الطاقة الحرارية ، وبالتالي مصدر القوة الفاعلة ، التي قد يوفرها هذا الوقود السائل اذا ما ابتكر محرك موافق .

تباشير الكهرباء الجديدة

لا شك في ان المستقبل يخبىء في طياته تهديداً للبترول كعامل انارة بفعل نجاحات الكهرباء . فان « بلانته » قد اخترع المركم ، و « غروف » فكر بأول مصباح كهربائي ، و « رايت » استحصل على شهادة اختراع قوس كهربائي توفق « فوكو » الى تطبيقه عملياً بعد حين : كان كل ذلك مجرد تباشير . ولكن الجدة المشجعة تحققت في السنة ١٨٦٩ حين وفر «غرام» بدينمه تياراً قادراً على تغذية المصدر الضوئي. ثم حقق « جابلوشكوف » شمعة من الفحم المركوم . اما المصباح الكهربائي الاول المضيء في الفراغ فيجب نسبته الى« سوان » . ولكنه لم يضيء سوى برهة قصيرة . فأخذ اديسون يبحث آنذاك عن خيط ثابت ؛ وفي سبيل الحصول عليه اوفد البعثات الى كافة الجهات ، وبعد ان امتحن الخيط القطني ونشارة الصنوبر وشعر اللحية ، استقر اختياره على نوع من الخيزران الياباني. ثم جاءت السنة ١٨٧٩ : فاحدث الاكتشاف ضجة كبرى . وقامت اول شبكة توزيع منذ السنة ١٨٨٢ في نيويورك ؛ ثم أنشىء صف انوار في مقدم اوبرا باريس ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ، كان بالامكان مقارنة اضاءة « مبنى عام » بمعدل ١٦ شمعة في المتر المربع باضاءة « رواق المرايا » التي لم تعط سوى ٢,٥ فقط. ولكن الشوط لم يبد خاسراً ، لا بالنسبة للغاز الذي كان اقل كلفة ولا للمصباح البترولي الذي كان اكثر ملاءمة للمساكن الوضيعة والارياف .

جهز « برجيس » اول شلال مائي في السنة ١٨٦٩ فولدت الكهرباء المحققة شعوراً قوياً بأن

التيار الذي سيكون وفيراً . وجاء التلغراف والهاتف الكهربائيان عطين لوريين لنقل الفكر . وشق التحليل بالجرى الكهربائي ، في الوقت نفسه ، الطريق امام تحويلات عظيمة في المادة : وبحسب الطريقة التي اشار اليها « ارنست – ورنر سيمنس » ، استخدم « هول » في اميركا و «كيلياني » في المانيا و « هيرو » في فرنسا فرناً لاذابة معدن الالومينيوم بواسطة القوس الكهربائي ؛ ثم طلع « مواسان » بصناعة الكربورالكلسي ومركبات الحديد والمعادن الاخرى . ولن يلبث الشرر ، الذي يشعل امتزاجاً غازياً قابلا للاحتراق ، ان يولد المحرك المبني على هذه الظاهرة : وهكذا فان الكهرباء ستسهم ، بمخالطة غريبة ، في فتح آفاق وامكانات جديدة امام البترول .

الهجوم الآلي

لقد افضى كل شيء الى انتصار الآلة التي بدت وكأنها لا تعرف الكلل وتتفوق على الانسان تفوقاً كبيراً بالسرعة وبمزيد من الاتقان والدقة في اغلب الاحيان . ففي السنة ١٧٧٦ كان عشرة اشخاص ينتجون ٤٨٠٠٠ دبوس : فجاءت الآلة ، بعد مرور مئة سنة ، تنتج ١٨٠ دبوساً في الدقيقة اي ما يعادل مليونين بالنسبة لهؤلاء العمال العشرة . وفي الولايات المتحدة انتج عامل النسيج ٩٦٠٠ يردة من النسيج القطني في السنة ١٨٤٠ خلال ١٣ ساعة عمل في اليوم؛ وفي السنة ١٨٨٠ بات ينتج ٣٠٠٠٠٠ يردة خلال عشر ساعات عمل في اليوم. وبينما كانت امهر عاملات صناعة الجوارب تنجز بين ١٥٠ و ٢٠٠ عقدة في الدقيقة، انجز النول المستقيم ٥٤٠٠ ، والنول الآلي ٤٥٠٠٠ ، والنول المستدير ذو الابر المتصلة حتى ٤٨٠٠٠٠ . وبواسطة آلة « ماك كورميك » الحاصدة التي يجرها حصانان ، جمع المزارع الاميركي سنابل سبعة هكتارات بينما لم يستطع فلاحان اوروبيان ، في الوقت نفسه ، حصد اكثر من هكتار واحد .

تطلبت الآلة وقتاً للعمل منظماً بكل دقة . وباستطاعتنا تحديد السنوات ١٨٥٠ – ٦٠ تاريخاً لانطلاق صناعة الساعات صناعة منسقة ، وهو فيليبس من احكم زنبرك الرقاص في السنة ١٨٦١ .

« ايتها الساعة ! الاله التاعس ، والمخيف ، والعديم الاحساس ... »
« بودلير »

حققت الآلة اكثر الاشغال دقة ، فانتشرت انتشاراً عظيماً ، سواء في اعمال الخشب (آلات النجر والنشر والتفريض والتلسين) ام في اعمال المعادن (المخارط، والمثاقب، والمناشير المتصلة الاطراف ، والمثاقب الولبية) . وقد احكم « هوبتوورث » دقتها بعد « مودسلي » و « كليان » .

حافظ القطن ، بين النسائج ، على تقدمه التقني . فاعتمدت آلات غازلة جديدة ، نول « روبرتس » الذي عمل آلياً ، والنول المستمر الحركة الذي ابتكره « بار كورليس » و « مادسلي » . وارتفع عدد الصنانير في النول الواحد من ٣٠٠ او ٤٠٠ الى ١٢٠٠ . وازدادت كذلك سرعة المكوك في الحياكة . وبشر النول الآلي ، الذي ابتكره الاميركي « نورثروب » ،

بتغييرات هامة جداً : فالمحمة تستبدل آلياً حين ينقطع احد الخيوط، وباستطاعة حائك واحد ان يراقب لا آلتين فقط او اربع الآت بل حتى ٤٠ و ٥٠ آلة. أجل، لن تعرف آلة « نورثروب» في اوروبا قبل السنة ١٩١٤ . ولكن الانتاج في الساعة قد تحسن في كل مكان (ارتفع خلال قرن في بريطانيا من ١٠ الى ١٠٠ في الغزل ومن ٤ الى ١٠٠ في الحياكة) . وزودت صناعة الغسل بآلات تؤمن عمليات التقصير والمضمضة والتنشيف والتنظيف الكيميائي. وكانت آلة التطريز مصدر ثروة (« سان غال ») كما ان آلة « بوناز » الخياطة والتطريز ، التي اخترعت في السنة ١٨٦٣ ، قد استعملت لصنع الالبسة والاثاث ، ونول « موشليه » والحق تخريم النسيج الدقيق . فانتشرت آلة الخياطة انتشاراً سريعاً وتحسنت تحسناً مطرداً، فاحتلت المركز الاول في صنع الالبسة . واستخدمت الآلات في خياطة القفافيز وتثبيت الكعب وخياطة الساق وجمع وجه الحذاء والنعل . وتوفرت لصناعة الفراء اجهزة تدلك وتصقل .

واذا ما زال الحجر ينحت باليد ، فان الانسان قد استخدم آلات لرفع الاثقال ؛ وجلب الى مراكز عمله القراميد والآجر والانابيب المصنوعة كلها آليا بواسطة الطواحين الهارسة والكسارات المبعدة عن المركز والمخارط . وفي صناعة الزجاج وفرت الناقلة الآلية على العامل الاقتراب من الفرن ؛ وقضت الآلة النافخة على طريقة استخدام القصب المثقوب الذي كان ينفخ فيه بالفم .

وجاء انتصار الآلة كاملاً في صناعة الورق . فقد استخدم « مونغولفييه » ، في هرس الخرق الرثة ، الآلة العاجنة المخترعة في اميركا ؛ واكتملت اجهزة صناعة الورق بآلة لتقطيع الخرق وآلة رفع المعجون ومنظم الحركة وجهاز التصفية والمساطح . وكان الحدث الاكبر في حقل الطباعة ظهور الآلة الدائمة الحركة التي احكمت شيئاً فشيئاً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥ بفضل استخدام الصفائح المستديرة والوشيعة التي تطبع الوجه والظهر : فبينما لم يطبع سوى ٨٠٠٠ طلحية في الساعة وعلى الوجه فقط في السنة ١٨١٥ اصبح بالامكان طبع ٩٦٠٠٠ طلحية من ١٢ صفحة في السنة ١٩٠٠ ؛ ولم تؤمن الآلة الاسطوانية الدائمة الحركة طي الطلاحي فحسب ، بل جمعها حزماً من ٥ و ١٠ او ١٥ طلحية بحسب المراد .

والى السنة ١٨٦٧ يعود تحقيق الآلة الكاتبة الاولى على يد الاميركيين « شولز » و « منسور » اللذين اشترى (رمنغتون) شهادتيها . ولكن طموح الآلة بلغ حد منافسة آلات الطرب نفسها أو اقله حد تسجيل الاصوات : وهذا كان الهدف من الحاكي (الفونوغراف) الذي ابتكره اديسون في السنة ١٨٧٧ .

فهل كان من أمل في تحقيق نتائج على مثل هذه الأهمية في انتاج المواد الغذائية يا ترى ؟ انه لجلي أن الآلة الزراعية أعجز من أن تنظم هذا الانتاج على غرار الآلة المستخدمة في الصناعة ، ولكن من شأنها تلافي نقصان السواعد والمساعدة على فتح مساحات جديدة ما كانت الزراعة بدونها لتنتزعها من الطبيعة القاهرة . وهكذا فقد اهتدت إلى أرضها المختارة في اميركا

الشمالية حيث نستطيع ملاحظة تقدمها في عهدين ثلاثينيين : عهد الآلة الحاصدة ابتداء من السنة ١٨٥٥ ، وقد عقب عهد المحراث الحديدي ، ثم عهد الحاصدة الرابطة . ويجب هنا ان نعترف لـ « ماك كورميك » بفضله الأول في تحقيق حركة اسنان المنشار تناوبياً . وقد سهلت المسلفة استخدام المبذر الآلي فغدت تتدحرج وتدور وتهرس ، بينما جمع المحراث في هيكله حتى أربعة اجهزة حارثة . وأتاحت الآلة الدارسة ، الكتدية الأصل ، التي ادارها فريق من ستة رجال ، درس ١٥٠ هكتولتراً بينما لم يستطع الرجل الواحد درس أكثر من ٣ بواسطة المدقة . وفي صناعة الطحين التجاري تخلى الرحا عن مركزه لسحق مستدير من الحديد المصبوب المسقي، ونُظف القمح بالنسافيف والغرابيل ، ونُخل الطحين بالمناخل . واذا تأخر اعتماد المعجن الآلي في صناعة الخبز، فان الآلة قد لعبت دوراً هاماً في صناعة البسكوت والمعجونات الغذائية، ومعامل التصفية ، وصناعة الشوكولاتا . وفي المسالخ جزرت الآلة الحيوانات ونظفتها بالفرشاة وأفرغتها وقطعتها وملحتها . وفي المزرعة أخذت آلة مبعدة عن المركز تحل محل المخضة ، ومخلت مصنع الالبان مفرزة الكُتْلة الدائمة الحركة .

لا يعني ذلك أن التيار كان عارماً لا يقاوم ، وأن طرائق العمل القديمة كان محكوماً عليها بالزوال في كل مكان. فكل ما حصل هو أن التضاد قد أتضح وبرز بين مهنة وأخرى وبين بلد وآخر . ويجب ألا ننسى من جهة أخرى أن المسألة غالباً ما كانت مسألة دفع إلى الامام . فبالإمكان مثلاً تسيير الآلة الدارسة بساعد الانسان ، أو المدورة ، أو البخار ، ولكن ما هو المحرك الذي يجب استخدامه في العاجنة الآلية ؟ وكيف يجب جر الآلة الزراعية ؟ وفي هذه الحال الأخيرة ما زال الحصان مفضلاً على القاطرة البخارية التي عرضت منذ السنة ١٨٥٠ .

أكب القرن من ثم على زيادة قوة الجهاز الحراري: فخفف ضرر نقاط فقدان مفعول مكبس المحرك في سيره ، وحد من التخثير في الاسطوانة ، وزاد مساحة الاحماء ، ولجأ إلى الانفجار المزدوج والثلاثي وحتى الرباعي بواسطة الطريقة المركبة . ولكن هذا المحرك ما زال ثقيل الوزن ، كبير الحجم ، متوسط الفعالية بالنسبة للوقود المحرق . وعلى الرغم من ذلك فقد قدر بعضهم أنه أدى لأوروبا واميركا ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عملاً يوازي عمل مليون عبد .

المعارض

تباهى ذاك العهد بتحقيقاته ، فطاب له تعدادها واظهارها . ففي السنة ١٨٥١ جمعت لندن ١٧٠٠٠ عارض في قصر البلور حيث أحل « باكستون » ، في مساحة تبلغ ٩ هكتارات ، الحديد والزجاج محل الحجر والقرميد ، وفي السنة ١٨٥٥ ، قام في باريس قصر الصناعة مع « رواق للآلات »تحرسه أربع قاطرات صنعت على شكل أبي الهول. وفي كل عرض جديد توسع نطاق المعرض وتعاظم الاقبال . وعلى غرار لندن التي دعت العالم في السنة ١٨٦٢، وجهت اليه باريس الدعوة في السنة ١٨٦٧ لزيارة قصر الـ « كوليزيه » المظلم ذي الاروقة الدائرية السبعة التي كان أحدها « رواقاً جديداً للآلات » : فكتب « هوغو » : « هذا هو الميثاق السلمي

العظيم » . وفي السنة ١٨٧٣ أقامت فيينا معرضاً في إطار « برابر » ، وليون في إطار « الرأس الذهبي » ؛ وفي السنة ١٨٧٦ أقيم معرض في فيلادلفيا التي جعلت منه احتفالاً بالذكرى المئوية للاستقلال الاميركي ؛ وفي السنة ١٨٧٨ ، أقيم معرض جديد في باريس التي شيدت « تروكاديرو » وعرضت المصنوعات الحزقية . ثم أقيمت المعارض على التوالي في « سيدني » ، و « ملبورن » ، و « امستردام » ، و « انفرس » ، و « اورليان الجديدة » ، و « برشلونة » ، و « بروكسل » ، وشيكاغو التي أحيت في السنة ١٨٩٣ ذكرى اكتشاف كولومبوس لاميركا . ولكن اعظم المشاهد كانت المشاهد الباريسية بمناسبة الذكرى المئوية للسنة ١٧٨٩ ، والاحتفال بنهاية القرن الرسمي في السنة ١٩٠٠ : فقصدها الزائرون بعشرات الملايين للتمتع بروئيتها . « ان السنة ١٩٠٠ ... سوف تكون نهاية قرن كامل من الجهود المدهشة في حقلي العلم والاقتصاد » ، كما جاء في مرسوم صدر في السنة ١٨٩٢ . « وسوف تكون كذلك عتبة عصر يتنبأ العلماء والفلاسفة بعظمته وستبلغ وقائعه حيث لم تبلغ احلام مخيلاتنا في الارجح ... فمعرض السنة ١٩٠٠ سوف يشكل تأليف القرن التاسع عشر ويحدد فلسفته » .

وسواء كانت المعارض شاملة أو دولية ، فانها تؤرّخ السير الظافر للحضارة الصناعية

الفصل السابع

الانطلاقة الكبرى لوسائل المواصلات في عهد البخار

انتصار الخط الحديدي

ان حلم سان – سيمون باحتلال الكرة الارضية بواسطة الخط الحديدي قد تحقق ما بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ : نصف قرن كان جديراً باسم « عصر الخط الحديدي » الذي اطلق عليه . ولكن الجسر على الخطوط الحديدية بقي عمل الغرب بصورة خاصة . ففي السنة ١٨٦٠ تقاسمت اوروبا والولايات المتحدة ، بما يقارب التساوي ، ١٠٨ ٠٠٠ كيلومتر ، بينما لم يتجاوز طول هذه الخطوط في اجزاء العالم الاخرى ال ١٥ ٠٠٠ كيلومتر ؛ وفي السنة ١٩١٠ كان نصيب الولايات المتحدة ٣٨٠ ٠٠٠ واوروبا ٣٣٠ ٠٠٠ من اصل مليون كيلومتر ونيف في كافة انحاء العالم .

لقد جند بناء الخطوط الحديدية رؤوس اموال عظمى وافضى الى ولادة اجهزة خاصة قوية ، حين لم تتولاه الدولة مباشرة ، والى قيام اشغال عظمى . ودفع كذلك بصناعة المعادن ، واضفى على الآلة البخارية كل رونقها ، وكثّر الاعمال الفنية .

ان الخط الحديدي ، الذي اخترق الارياف ، قد استلزم تسوية ترابية متينة ، وقد صنعت العوارض من خشب السنديان الذي حفظ من الفساد بحقنه بالكريوزوت او بكلورور الزنك . ثم حل الخط الفولاذي محل الخط الحديدي ، كما استعيض عن الجسر الحجري بالجسر المعدني .

وان في اختراق الجبال ما يثير الاعجاب في هذا المجال . ففي التسلق امتحان البخار ، وفي فتح الانفاق امتحان التقنية . وسوف يستخدم الماس والمثقب المحرك بالهواء المضغوط للتغلب على الحجارة الصلبة ؛ وسوف يلبس الرواق بالحديد المصبوب لا بالخشب ، وتؤمن التهوية بواسطة الآلات الجاذبة الهواء او النافثة . وجاء تحقيق نفق « سنيس » مشجعاً جداً من هذا

القليل على الرغم من ان اجتياز الرواق على ارتفاع ١٣٠٠ متر وبطول ١٣٦٠٠ متر قد استغرق ١٥ سنة . وبفضل الخبرة المكتسبة ، تحقق نفق « غوتار » في عشر سنوات ، بطول ١٥٠٠٠ متر تقريباً ، بواسطة المثقب الآلي وبالرغم من عذاب العمال الذين اضطروا الى تحمل حرارة بلغت ٨٦ درجة مئوية . ثم فتحت الانفاق بالتفضيل في اسفل الجبال (نفق سمبلون سيفتح على ارتفاع ٧٠٠ متر) ، فصرف النظر رويداً رويداً عن النفق في المرتفعات، كنفق «سمرنغ» الذي فتح منذ السنة ١٨٥٤ بعد ١٤ نفقاً تقريباً و ١٦ جسراً .

فلم يلبث النفق من ثم ان بدا افضل من الجسر لاجتياز الانهار العريضة والاقسام المستطيلة الضيقة من البحر . فحفر الانكليز نفقي « مرسي» و «سفرن» (طول هذا الاخير ٧ كيلومترات) والاميركيون نفق « هدسون » . ولكن العقبة السياسية حالت دون تنفيذ مشروع اتصال تحت مضيق « با ـ دي ـ كاليه » ، كما ان الاتصال بين شبه الجزيرة السكندنافية والمانيا قد تم بواسطة سفن خاصة مجهزة بخطوط حديدية لنقل القطار ، بين « ساسنيتز » « روغن » و « مالمو » .

احرزت القاطرة تقدماً حاسماً منذ ان فكر المهندس الانكليزي بين « كرامبتون » بوضع العجلات المحركة في مؤخر مسخن البخار لا تحته ، وهي عجلات مترابطة ثناءً تتناقل حركة دورانها . وفكر النمساوي «انغرت» الخطوط السريعة الانحدار «والفرنسي «بتيه» القطارات نقل البضائع ، بأجهزة محكمة خاصة . فارتفع الوزن شيئاً فشيئاً من ٢٥ و ٣٠ طناً الى ١٥٠ طناً ، فاستطاعت القاطرة جر مقطورات يبلغ وزنها ٢٠٠٠ طن . واستعيض عن المكبح اليدوي القديم بالمكبح الآلي او المائي او المكبح العامل بالهواء الخفيف الكثافة او الهواء المضغوط . وأحكم تسيير القطارات البخارية التي تسير بالحبال على منحدرات الجبال (في ريغي وبيلاط ، في جبال الالب ، وفي جبل واشنطن ، في اميركا) . ووفر الابراق الكهربائي عوناً مفيداً لنقل الاشارات . كما اتاحت العربة السهلة التوجيه للمقطورات السير في منعطفات الخطوط واطالة القاطرة والمقطورة .

باتت المقطورة اكثر راحة . فأنيرت بغاز زيت المنضد بعد ان كانت تنار بزيت السلجم . ثم أجريت محاولة إنارتها بالكهرباء على خط « لندن » - « برايتون » . وتمت التدفئة بواسطة مساخن يغذيها البخار . وبسبب المسافات بنى الاميركيون مقطورات النوم مع متنفعاتها ومقطورات للاستقبال وحتى مقطورات فخمة استطاعت العائلات الثرية بواسطتها الانتقال دون ان تخالط المسافرين الآخرين . وجهزت القطارات التي تصل دول العالم الجديد بجسور ضيقة تتيح التجول بين مقطورة واخرى اثناء سير القطار . وفي السنة ١٨٨٠ اضيفت الى قطار خط الباسيفيكي مقطورة تحتوي على مطبعة اصدرت فيها صحيفة يومية تنشر الاخبار الواردة برقياً في المحطات . وازدادت السرعة ازدياداً مطرداً . فمن معدل ٢٨ كيلومتراً في الساعة حوالي السنة ١٨٥٠ ارتفعت الى ٧٤ في انكلترا و ٥٩ في اميركا في السنة ١٨٨٠ . وبعد انقضاء

عشر سنوات تجاوزت سرعة القطار بين نيويورك و « بوفالو » ١٠٠ كيلومتر في الساعة . كما أن السفر من باريس الى مرسيليا لم يعد ليستغرق سوى ١٤ ساعة . وفي نصف قرن انخفضت الكلفة الى نصفها وحتى الى ثلثها بحسب البلدان .

اذا استثنينا بريطانيا العظمى وبلجيكا وجزءاً من المانيا ، لرأينا ان الخطوط الحديدية لا تؤلف شبكات في بلاد اخرى قبل السنة ١٨٦٠ . اما في فرنسا فان الاتصال بين باريس وحدود الحدود الكبرى او المرافىء فقد بدت تباشيره في الافق. وقد بذل الجهود الكبير في هذه البلاد في عهد الامبراطورية الثانية واوائل عهد الجمهورية الثالثة . فارتسمت حينذاك بوضوح في اوروبا الغربية شبكة خطوط حديدية هامة تقع الى الشمال من جبال البيرينيه وال « ابنين » وجبال الالب الشرقية . ولم تشمل هذه الشبكة شبه الجزيرة الايبيرية والسوق الايطالية والبلدان الواقعة الى الشرق من خط الطول المار بـ « دانزيغ » و « بودابست » ، ولكن ايطاليا الشمالية استفادت منها بفضل الانفاق الالبية . وأخذت سويسرا تلعب دور الانطلاق في وسط اوروبا . وبينما اتصل الغرب بالنمسا بواسطة نفق « ارلبرغ » ، نرى النمسا ، التي حفلت نفق « سومرينغ » على طريق ترستا ، تمد شبكتها نحو الدانوب الشرقي والبلقان وتتصل بالقسطنطينية وتصل اوروبا الوسطى بالشرق الادنى .

وفي اميركا الشمالية لم يطرأ على البناء اي توقف . فهي الولايات المتحدة ما وضعت في السنة ١٨٦٩ اول شريط معدني يصل بين الاوقيانوس والآخر . انها لفكرة جريئة اخرت الحرب الاهلية تحقيقها ، على الرغم من ان الاعمال ، التي تقررت منذ السنة ١٨٦٢ ، قد شرع فيها في السنة التالية . وقد اشرف القائد « غرنفيل م. دودج » على هذا المشروع اشرافه على حملة عسكرية : فجند اليد العاملة في « الغرب الاوسط » من بين الجنود المسرحين والمهاجرين الايرلنديين واستخدم الصينيين في كاليفورنيا . وقد واجه عقبات كثيرة اهمها الهنود – وقبيلة « سيو » بصورة خاصة – ونواتىء الارض وفقدان اليد العاملة ، ولا سيا التنافس بين شركة « الاتحاد الباسيفيكي » و « الشركة الباسيفيكية المركزية » اللتين كان على حكومة الاتحاد ان تفصل في خلافاتها . زد على ذلك ان المنحدرات كانت سريعة والجسور خشبية ، والسرعة محدودة ؛ ولكن اكمال العمل قوبل بحماس منقطع النظير ، وسوف تنجز خمسة خطوط هامة اخرى بين المحيط والمحيط ما بين ١٨٦٩ و ١٨٩٣ ، بما فيها ذاك الذي انشأته الحكومة الكندية بين « هاليفاكس » و « فانكوفر » مروراً بـ « كيبيك » بغية تحقيق ضم كولومبيا البريطانية الى ميثاقها الاتحادي .

وجاء المجهود الروسي مماثلا ، وان متأخراً ، بمساعدة رؤوس اموال الغرب على كل حال ، وبغية توسع نحو الشرق الآسيوي يقابل التوسع الذي قاد الولايات المتحدة وكندا حتى الباسيفيكي . فأنجز الخط القزويني اولاً ، الذي سوف يكمله الخط الارالي في السنة ١٩٠٥ ، وهو اقصر من الاول واكثر استقامة : وهذان الخطان هما في آسيا الوسطى شبيهان بالخطين المارين في الصحراء

الافريقية . وبدت الصعوبات في سيبيريا امضى منها في اميركا : طبقات ارضية متجمدة او تسرب مياه الثلج فوبان الجليد ، وانهار عريضة يصعب اجتيازها ، ومسافات شاسعة ، وكثافة سكان متدنية جداً ، يضاف اليها نوالىء جبال « بايكال » المستعصية . ولكن الطرق المعدة للخيل لم تعد لتفي بالحاجة امام الاستعمار المتوقع والمستقبل المنشوري . فشرع اذن في اطول خط حديدي في العالم منذ السنة ١٨٩١ وصل الى « فلاديفوستوك » في السنة ١٩٠٢ بفضل اتفاق عقد مع الصين اجيز بموجبه اجتياز منشوريا الشمالية .

كان الخط الحديدي أداة توحيد جلى لاميركا الشمالية وللامبراطورية الروسية . وقد خدم كذلك الشراكة الجمركية في الدول الالمانية ، وعرف الريخ البسماركي خير معرفة ما هو مدين له به ، فلم يتركه في ايدي الافراد . وفي ايطاليا ايضاً كان عوناً لاسرة « سافوا » على إرساخ سلطتها ، فجمعت حكومة روما الشركات الخاصة واشارتها . ولكن الشركات الخاصة ما زالت تتقاسم الارض الفرنسية ؛ تلك هي الشبكات الست ، ولكنها اتجهت كلها الى باريس باستثناء شبكة الجنوب . ومنذ السنة ١٨٥٣ ، وضع اللورد دالوزي تصميماً لشبكة هندية تكون خير صلة بين بلدان وشعوب غير متلاحمة وربما خير وسيلة لارساخ السيطرة البريطانية .

نبض الخط الحديدي بطاقة كبرى وكاد يتمخض بخلق الامم ، وكان بالاضافة الى ذلك قادراً على اصدار احكام بالموت . فكان ممكناً ان يتسبب في الاضرار بالطريق المائية وحتى ان يقضي على بعض التجارات (سيكون الخط المنشوري سبب زوال قوافل نقل الشاي التقليدية بين بكين وسيبيريا) . ولكنه احيا المقايضات التي ادارها ، والمشاريع التي استخدمته ، والمناطق التي اجتازها وانتهى اليها . وقد نقل بين ١٠٠ و ٥٠٠ مليون مسافر وبين ٢٠٠ و ٣٠٠ مليون طن من البضائع حوالي السنة ١٨٥٠ ، و ٤ مليارات مسافر و ٥ مليارات في كل من السنوات ١٩٠٥ – ١٩٠٧ .

سباق الطرق البرية ودفاع الطرق المائية

على الرغم من مقاومة يائسة ، كان على نقل البضائع بالعجال ان يعترف بخسران قضيته حيثما مر الخط الحديدي . فكانت الضربة قاسية للطريق البرية التي توجب عليها من ثم تحديد اطماعها فلن تكون بعد اليوم سوى رافد الخط الحديدي وتكون سعيدة اذا ما اتصلت بمحطة القطار الحديدي وحافظت على وظيفة توزيع ما ينقله القطار . كانت كافية للعربات والمشاة والدراجات. ولكن اذا لم تتوفر المصلحة القديمة للنقل البري ، فغالباً ما لا يكون هنالك شيء البتة . اما الطريق الزراعية فقد استفادت من النشاط التجاري الذي أغنته الخطوط الحديدية ، وتحسنت .

واذا ما أبدت الطرق المائية بعض المقاومة في ظروف أفضل ملاءمة ، فمرد ذلك الى انها كانت تتقاضى اجور نقل أقل ارتفاعاً بالنسبة للوزن . وما زال الجدل قائماً بين انصار كل من طريقتي النقل المذكورتين . اما الحقيقة فهي ان النقل المائي يتقهقر اذا ما اعتمد معدات واجهزة

قديمة العهد . ففي انكلترا مثلاً اثارت شركات السكك الحديدية وسائل النقل المائي ، وفي فرنسا كانت الملاحة تتلاشى في بعض الانهر كالـ « لوار » والـ « آليه » ؛ ولكن الرأي العام أقلقته قوة أسياد الخط الحديدي ، ومنذ السنة ١٨٧٢ ، كرس اكثر من مليار فرنك لاعادة انشاء وتوسيع شبكة يكون مركزها في المناطق الصناعية الشمالية والشرقية .

أحست المانيا بحماس حقيقي للملاحة الداخلية . فاستخدمت ما استطاعت الى ذلك سبيلا الطرق الطبيعية الممتازة التي تؤدي الى بحر الشمال وتؤمن المواصلات بين مختلف مناطق رينانيا ، ولكنها نظمت كذلك تموين برلين بالخامات وجعلت منها مركزاً صناعياً من الدرجة الاولى . وكان الشريان الكبير الذي يشكله نهر الرين موضوع عناية يقظى : سدود في حوض « كولونيا » لتقويم منعرجات ، وتنظيم مجرى في الوادي الضيق وما قبله من جهة البلبوح ، وحفر احواض بالغة الاتساع في المرافىء التي جارت المرافىء البحرية من حيث حمول السفن ؛ وانخفاض أجور النقل انخفاضاً جعل النهر ينظم ويحرك ويقلب تيارات مقايضة كبرى ، ويجتذب المؤسسات الصناعية ، ويسهم في ازدهار الـ « رور » وكافة انحاء المانيا الغربية ، ويتحكم برقعة واسعة تؤلف سويسرا جزءاً منها ، ولم تتجاهلها برين وحتى همبورغ ، وتنازعتها كذلك المرافىء البلجيكية والهولندية . واذا كانت قناة « دورتموند » – « امس » مخيبة للآمال ، فقد ارتسمت الخطوط الكبرى لطريق نهرية كبرى تصل الغرب بالشرق .

ولم يكن لتجهيز الحوض الدانوبي اقل فتنة واغراء . ولكن انتاجية الاعمال كانت اقل شأنا . فبعد أن توفقت معاهدة باريس ، في السنة ١٨٥٦ ، الى تحرير النهر من كل عائق سياسي ، تنظم الامن فيه بوليقة ملاحة وتولت الملكية النمساوية الهنغارية تنظيم تدفق مياهه ؛ وتحول الانتباه بعد ذلك الى مختنق « الابواب الحديدية » وحاجز « سولينا » اللذين يطلقان الممر الضيق العميق الماء الصالح للملاحة : والسبب في هذا التحول مرده الى اهمية النهر المتعاظمة لتجارة الحبوب .

استمر التضاد بين روسيا والولايات المتحدة المتشابهتين من حيث اهمية شبكة النقل الطبيعية فيها . فقد فتحت روسيا قناة الـ « نيفا » وانجزت شبكة « ماري » التي كانت تكملة لطريق تبلغ ... ٤ كيلومتر بين بحر قزوين وبحر البلطيق . ولكنها لم تستخدم سوى ثلث انهارها ولم يتجاوز طول اقنيتها مجتمعة الـ . . ٨ كيلومتر ؛ يضاف الى ذلك ان نهر الـ « فولغا » الذي سار فيه اكبر عدد من السفن لم يتصل بالانهار الصابة في البحر الاسود . اما في اميركا ، فلم تسق قناة « ايريه » القديمة نمواً مستمراً فحسب ، ولم تتخلف مصاب الميسيسبي فحسب ، بل اصبحت البحيرات الكبرى بحراً داخليا حقيقيا تنشط فيه حركة نقل عظمى ايضا .

وقد امنت السفينة البخارية ، في البرازيل بواسطة الامازون ، وفي الصين بواسطة الـ « يانغ تسي » ، توغل التجارة الى مناطق شاسعة شبه خالية من الطرقات والخطوط الحديدية بمساعدة رؤوس الاموال الاوروبية اجمالا . كما انها سهلته احيانا بالاشتراك مع الخط الحديدي ، على النيل والكونغو و « البارانا » مثلا .

تفوق السفينة الشراعية وتفوق السفينة البخارية

على غرار عربة المسافرين التي عرفت ذروة اكتمالها حين كان مقدراً لها أن تمحي امام القطار الحديدي ، كذلك بلغت السفينة الشراعية أوج عزها حين أخلت السفينة البخارية تقصيها عن البحار .

ان السفينة الشراعية السريعة الحركة ، المعدة للأسفار البحرية الطويلة ، قد لعبت دوراً لامعاً حتى أواخر القرن. فان السفينة البخارية المزودة بالمروحة لم تتفوق عليها سرعة إلا حوالي السنة ١٨٨٠ ، والسرعة ثمنها على كل حال . ولذلك استمرت الملاحة الشراعية ، في طرقات كثيرة ، لنقل المشحونات الثقيلة. فالبناء المعدني قد ساعد على إطالة هياكل السفن : فانتجت بين السنة ١٨٩٠والسنة ١٩٠٠ السفن الطويلة الكبرى المزودة باربعة وحتى بخمسة صوار التي جابت البحار الواسعة في نصف الكرة الشمالي ، وشحنت النكل من كاليدونيا الجديدة وقنب مانيلا وقصدت « شيلي » والشاطىء الغربي من الولايات المتحدة . ودافعت بعناد وشجاعة عن سمعتها. ولكنها غالباً ما واجهت الصعوبات بين الاطلسي والباسيفيكي حول رأس « هورن » – الرأس الوعر – بينا وقفت منافستها في مضيق « مجلان » . وهو فتح ترعة السويس بصورة خاصة ما كان لها ضربة قاسية (فالقناة اضيق من أن تساعد على السير بقوة ريح مستمرة ، والأرياح نادرة في البحر الاحمر) . واخيراً ازداد الامان بواسطة السفينة البخارية وكان التأمين على الأشرعة مرتفعاً. ففي السنة ١٩١٣ بلغ محمول ٠٠٠ ٢٣ سفينة بخارية ٠٠٠ ٥٠٠ ٢٦ طن ومحمول ٦٦٠٠ سفينة شراعية ٠٠٠ ٩٠٠ ٣ طن ، فكتبت صحيفه « تايمس » بحزن : « ان غياب السفن الشراعية يولد فينا التأثير الذي يولده غياب صديق قديم » .

قال « وليم موريس » عن السفينة البخارية « أنها كاتدرائية العصر الصناعي » ، وقد اثارت حماس روسكين نفسه : فان هذا الأخير يحمد الله الذي أتاح له رؤية الباخرة التجارية الكبرى التي هي اشرف ما انتجه الانسان ، ذاك الحيوان العائش في جماعة. فقد تعاظم قوامها واتضحت خطوطها الخاصة التي لا تخلو من الأناقة .

في السنة ١٨٥٢ انزلت الى البحر السفينة الأولى المعدة لنقل الفحم ، « جون بوّر » ، وهي سفينة بخارية مزودة بمجلات . فتعددت من ثم مستودعات الوقود على الطرقات البحرية . ومن جهة ثانية اتاحت موانىء التموين بالمحروقات تموين مسخن البخار بالمياه العذبة لأن مياه البحر قد تتآكله . فقام آل بورن مؤسسو « شركة الملاحة البخارية في شبه الجزيرة والشرق » ينشئون مستودعات الفحم وخزانات المياه واحواض إصلاح السفن في السويس وعدن وبومباي وكلكوتا. وحوالي السنة ١٨٧٠ استخدم المكثر الذي وفر الماء، والآلة المركبة التي وفرت الفحم . زد على ذلك أن هذه الالة قد زادت من السرعة ايضاً .

لكارديف يعود الفضل في قوة الاسطول البريطاني ، والهيكل المعدني كذلك . والسبب في ذلك أن المروحة لا تلائم إلا هذا الهيكل . وقد اعتمدها آل بورن في السنة ١٨٥١ في السفينة حملايا التي عين لها السير على خط مدينة الكاب ؛ ولكن استعاضتهم عن الخشب بالحديد استهدفت

كذلك تجنب العفونة والاهتراء وتعرض الخشب للنمل الابيض في مياه المناطق الحارة ؛ وبالمقابل احتفظوا بالعجلة في المتوسط الذي تفتقر موانئه الى احواض لاصلاح السفن . وكانت شركة « كونار» قد انزلت الى البحر سفنها الخشبية الاربع المزودة بعجلات ذات لوحات ؛ وفي السنة ١٨٥٤ كان في حوزتها سفينة حديدية ، « بوسيا » ، التي كانت تستهلك ١٥٠ طنـاً من الفحم الحجري في اليوم وتعبر الاطلسي في تسعة أيام بدلاً من اربعة عشر بفضل آلاتها المزودة برقاص جانبي ؛ وفي السنة ١٨٦٢ كسبت اربعاً وعشرين ساعة بفضل المروحة ، ولكن جهازاً من الحبال والحبال احتفظ به فيها لمساعدة الآلات عند الحاجة . أما البارجة نابوليون ، من الاسطول الحربي الفرنسي ، وقد بنيت وفاقاً لتصاميم « ديبوي دي لوم » ، فقد بلغت سرعتها ١٣ عقدة في السنة ١٨٥٣ . وبهذه السرعة عبرت سفينتا النقل«بيريره»و«مدينة باريس»الاطلسي في تسعة أيام. وجهزت السفينة بمزيد من وسائل الراحة : فان مالك السفن «واحاي» ، الذي اسس شركة « الملاحة البخارية البحرية » قد زود السفينة « اوسيانيك» بغرف وردهات بنيت في الوسط لا في المقدمة ، وبقاعة الطعام تمتد على طول السفينة ؛ وفي السنة ١٨٦١ ظهرت الشرعة الخفيفة التي غطت الشرعة الرئيسية لايواء المسافرين .

حين استخدم الفولاذ بدلاً من الحديد ، اجازت متانة الهيكل وصلابتها قياسات كبرى وسرعة متزايدة . وقد استحدثت حيازيم جانبية عززت ركانة السفينة . وأعطى سخن البخار والآلات المحركة ، بفضل المروحة المزدوجة ، طاقة فاعلة كبرى ، بينما تدنى استهلاك الوقود نسبياً . فانتقل معدل محمول السفن في السويس من ٧٦٦ طناً في السنة ١٨٧٠ الى ٢٠٠٣ في السنة ١٨٩٠ و ٢٨٣٣ في السنة ١٩٠٠ . وبلغت السرعة القصوى ١٨ عقدة في السنة ١٨٨٠ و ٢٥ في السنة ١٩٠٥ . فقامت المنافسة من أجل « الشريط الازرق » بين الشركتين البريطانيتين « كونار» «والنجم الابيض» ، وبين شركة « الخطوط البحرية بين همبورغ واميركا » . فدفعت الى انزال سفن الى البحر تتميز بمزيد من الحجم والسرعة (فان قوة آلة السفينة «بريطانيا» كانت ٧٥٠ حصان بخاري في السنة ١٨٤٠ ، بينما بلغت قوة آلة «الامبراطور » ٦٨٠٠٠) .

دُفع من ثم بصناعة بناء السفن الى الامام. وقد صنعت المعامل البريطانية وحدها ثلاثة ارباع البواخر بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٥ ، ثم خمسيها فيما بعد .

انخفضت اسعار الشحن . فان كلفة نقل مد القمح الاميركي إلى انكلترا، التي كانت ٦٠ سنتيما في السنة ١٨٦٠ ، قد هبطت الى ١٥ سنتيماً في السنة ١٨٨٠ والى ٥ في السنة ١٩١٠ . ولم يتم السفر في ظروف فضلى فحسب ، بل نقلت البضائع بسعر متدن ايضاً . فوحد البحر العالم أكثر من أي وقت مضى .

المرافىء البحرية الكبرى

أوجدت السفينة المرفأ ، فجددته وأحيته الاساطيل البحرية . ووصل الخط الحديدي كذلك بين المرافىء وبين بحر وآخر ، فتقاربت بذلك أوجه الاوقيانوسات المتقابلة أو المتدابرة . فلعبت أوروبا اكثر فأكثر دور برزخ حقيقي لا

بل دور برازخ عدة بين الاطلسي والمتوسط ، واميركا الشمالية دور الجسر بين الاطلسي والباسيفيكي .

استندت حياة المرفأ بالامس الى كل ما من شأنه الاجتذاب اليه . وغالباً ما استخدم للحرب والنشاطات الاقتصادية معاً . فان « لو هافر » قد بقيت مرفأ عسكرياً حتى السنة ١٨٢٤ . وفي برست و شربورغ ، كانت الوظيفة العسكرية مثاراً للوظيفة التجارية . إلا أن التخصص لم يعد شيئاً نادراً . فرفأ صيد السمك هو لمصري من انجازات القرن التاسع عشر . و كارديف مدينة بنموها للفحم الحجري ولبواخر نقله ، وقد قدّر بعضهم أن نسبة ارتفاع عدد سكانها كانت ١٠٠٠ نفس لكل مليون طن تصدرها الى الخارج ، وفرت لهـا لندن وبريستول وليفربول المواد الغذائية ، وبلغت دائرة عملها شانغاي نفسها . وانشىء في اقرب النقاط الى البحار الصيقة مرفأ السرعة الذي ترسو فيه السفن فترة قصيرة . وفي أمكنة أخرى أخذت الوظيفه الاقليمية بعين الاعتبار . أما الوظيفة الدولية ، وهي اوسع نطاقـاً ، فقد لجزأت بفعل توسع الشبكات الحديدية والنهرية : فتنازعت انفرس وروتردام وامستردام المناطق القائمة ما وراء رينانيا التي نازعتها اياها برين وهمبورغ، بينما تزاحمت جنوى ومرسيليا على مداخل أوروبا الآلبية . وأما لندن التي كادت تحتكر اعادة التوزيع فقد تقهقرت نسبياً ، ولكن نيويورك مدينة لاعـادة التوزيع هذه بثروة طائلة جداً . وعلى الطرقات البحرية الكبرى ازدهرت المرافىء المجهزة خير تجهيز كالكاب وبومباي وسنغافورة وهونغ كونغ .

إلا أن السفن المتعاظمة قوة والمتكاثرة عدداً استلزمت احواضاً أكثر عمقاً واتساعاً. فالمطلوب تأمينه هو الدخول والخروج والتحميل والتفريغ في أقصر وقت ممكن . وبرز من ثم مثالان ، يشكل أولها غزو اليابسة للبحر بواسطة سدود مبنية وأرصفة تعزل الاحواض المنتظمة بمحاذاة الشاطىء ؛ وهذا المثال غير نادر في المتوسط : فحين لم يعد جون مرسيليا الطبيعي ليكفيهـا ، تقدمت نحو الشمال الغربي حيث بنت حوض «لاجوليات»،ثم الحوض الامبراطوري أو الوطني ، ثم حوض «لابيفيد» وحوض «مدراغ» . أما المثال الثاني فيقوم بالحفر في اليابسة عند مصاب الانهر الواسعة ، كما في لندن وليفربول وانفرس وهمبورغ ونيويورك . وبغية تجنب محـاذير الارساء قرب الارصفة في النهر ، جهزت لندن احواضاً واسعة جداً في نهر التايمس لتعويم البواخر . ولما كانت البرك وراء السدود قد اتسعت ، فقد امتدت انفرس الى ٩٠ هكتاراً منها . ثم ووجهت مسألة المداخل ، المقضة بالنسبة لروتردام ، ضحية تراكم الرمل في الممرات الضيقة القائمة على الانهار الرينانية :وهذا ما حمل وشوره على تولي عمل جبار يحرفه الرمل من أحد هذه الممرات على طول ٣٣ كيلومتراً وعمق ٩ امتار تحت مستوى البحر اثناء مده. وانشئت اجهزة قوية منجسور قابلة التدوير ، ومحطات لربط السفن بالقلوس ، وآلات لرفع الاثقال ، ومستودعات في الاماكن المردومة بالاتربة وفي الملاجيء البحرية للسفن . وجلي أن كل ذلك قد فرض تقنية متقدمة جداً .

فتح الترع: السويس وبناما

لو نظرنا إلى شكل القارات لرأينا أن الاطلسي يؤلف اداة اتصال كبرى بين نصفي الكرة الارضية ، وان العالم الجديد يشكل حاجزاً يحول دون الملاحة حول الارض ، وان افريقيا تشكل كتلة ماثلة تحول دون المرور من الغرب الى الشرق بين الاطلسي والمحيط الهندي . ولكن الكتلتين البريتين الرئيسيتين تبدوان وكأنها تتلاشيان في وسطهما . فان البحار المتوسطة تخترقها ولا تبقى منها في هذه النقطة سوى برازخ ضيقة ما كانت لتحول ، الا بنوع من السخرية ، دون الملاحة حول الارض عند خطوط العرض الوسطى .

كان مقدراً لفكرة ايجاد طريق مائية بين المتوسط وبحر الهند أن ترى النور في المرحلة الاولى . لقد رأت النور منذ القرن الثاني عشر مشاريع كثيرة استهدفت فتح هذا « البوسفور الجديد » ، كانت ستتوقف السانسيمونيين وتستهوي محمد علي : فتأسست شركة مهمتها اعداد الدروس لفتح قناة ، اشترك فيها « انفانتين » و « ارليس - ديلور » و « بولين تالابو » مع ستيفنسون الابن ، بعد ان ثبت لهم ان مستوى المياه في المتوسط لا يختلف عنه في البحر الاحمر .

إلا ان احد محاذير المشروع كان انه يخدم النفوذ الفرنسي في نظر المسؤولين البريطانيين الذين صرفتهم مصالح كبرى ، من جهة ثانية ، عن ان يمدوا له يد المساعدة . فما زالت الطريق المألوفة هي طريق الكاب ، كما ان نقل البريد والمسافرين ، الذي يرتدي طابع السرعة ، ما زالت تؤمنه ، منذ ١٨٣٩ - ٤٠ ، مصلحة « البريد عبر اليابسة » التي كانت تستخدم السفينة في المتوسط حتى الاسكندرية ، ثم بين السويس وبومباي ، بعد اجتياز مصر بطريق النيل وبطريق برية . أجل كان الانتقال يستغرق عشر ساعات من الاسكندرية إلى رشيد ، وستة عشر ساعة من رشيد الى القاهرة ، وثمانية عشر ساعة من القاهرة الى السويس ، يضاف اليها الوقت الذي يُضاع في المحطات بين مرحلة وأخرى ، مما يرفع مجموع الساعات الى ٨٠ أو ٨٥ . فكان يقتضي شهر لقطع المسافة بين مرسيليا وبومباي ، في حال ان السفر بين لندن والهند ، عن طريق الكاب ، كان يستغرق ثلاثة اشهر . ولكن قناة النيل قد حسنت ، ومرفأ السويس قد جهز تجهيزاً حسناً ، والقاهرة قد شيد فيها فندق توفرت فيه وسائل الراحة بما فيها حوض السباحة ، وجُند الوف الجمال والجمالين لعبور الصحراء . اما كان يكفي لذلك خط حديدي ، بني بين السنة ١٨٥٥ والسنة ١٨٥٩ على كل حال ؟

في هذه الاثناء كان « فردينان دي لسبس » ، القنصل السابق في الاسكندرية ، والمشدود بصلة القربى الى الامبراطورة «اوجيني» وبصلة الصداقة الى الامير محمد سعيد ، ابن محمد علي ، يتقدم سواه في تنفيذ المشروع،اطلع على آراء السانسيمونيين، وتميز بطبع متكبر، وكان فارساً ماهراً ، فتوصل الى اقناع سعيد باصدار فرمان يمنح الامتياز بموجبه لمصلحة شركة عالمية قدم لها المهندس النمساوي « نغرلي » ، مشروع قناة دون سدود ، واخذ على عاتقه انجاز المشروع بـ ١٦٠ مليونا ، وتجول في اوروبا لجمع الاموال اللازمة ، واستحصل من صندوق التوفير الفرنسي على اكتتاب بـ ٢٠٧٠٠٠ سهم من اصل ٤٠٠٠٠٠ سهم قيمة كل منها ٥٠٠ فرنك وتخلى منها عن

٠٠٠ ٨٥ سهم للخديوي الذي اصدر امرا بمصادرة ٠٠٠ ٢٠ فلاح . فشرع في فتح الترعة في شهر نيسان من السنة ١٨٥٩ .

ولكن عشر سنوات قد انقضت دون ان تحول اليها المياه . فقد قامت صعوبات سياسية : اعترضت انكلترا لان الفرمان لم يحرص على موافقة الباب العالي، وحين توفي سعيد في السنة ١٨٦٣، وجب مراعاة جانب نوبار، وزير خارجية خلفه المتردد، اسماعيل . وكان هناك مسألة اليد العاملة الملاصقة، التي استغلها خصوم القناة : فقد بلغ من الاحتجاج على التسخير ان الشركة ارغمت على استخدام عمال احرار براي نابليون الثالث نفسه الذي احتكم اليه في هذا الموضوع، اما العمال البالغ عددهم ٠٠٠ ١٥، فقد جاؤوا من انحاء حوض المتوسط المختلفة، ولكنهم تقاضوا اجوراً مرتفعة ورفضوا جبل الطين بايديهم : فارغم ذلك على اللجوء الى الآلات، ولاسيما جارف الرمل البخارية، بعد ان ضحي عبثاً بالعديد من العمال. وحين تحطمت الغلبة على العائق التقني الرئيسي، واعني به سحي الوحول السوداوية اللون، قام عائق جديد هو انتشار الهواء الاصفر والتيفوس. اجل لقد تبدل الرأي العام الانكليزي شيئاً فشيئاً في هذه الاثناء بعد ان امركت الاوساط المشترية الفائدة التي ستجنيها التجارة من هذا النجاح . ولكن ما زال هناك الشاغل المالي، لان الاكلاف قد تجاوزت التقديرات الى حد بعيد : وقد فشل الاكتتاب بموجب سندات في السنة ١٨٦٨، لاسباب مختلفة منها حملة قامت بها الصحافة البريطانية، ولكن الهيئة التشريعية انقذت الموقف باقرار اصدار بشكل انصبة . واخيراً احتفل في السنة ١٨٦٩ بايصال البحرين بشهد شرقي فاتن : اذ رافقت السفن الذاهبة من بورسعيد الى السويس، مروراً بالاسماعيلية، الانوار التزيينية والموسيقى والرقصات الشعبية .

ان القناة البالغة ١٦٢ كيلومتراً طولا و ٢٢ متراً عرضاً و ٨ امتار عمقاً قد فرضت قيادة السفن بحذر وبسرعة محدودة (يتم التلاقي في « المحطات » ويستغرق عبور الترعة ثلاثة ايام). ولكنها استفادت من وجود السفينة التجارية ومن اتساع حركة المقايضات بين اوربا واراضي الشرق، مشجعة بدورها هذا الطراز من السفن ومسهمة اسهاماً قوياً في الانطلاقة التجارية المثنية. وبدا بين ليلة وضحاها وكأن العالم القديم كله قد اقترب من اوروبا الغربية، وكانت نيويورك نفسها قد اقتربت من المحيط الهندي . فان « جول سيغفريد » قد امضى ستة وعشرين يوماً في السنة ١٨٦٢ للانتقال من مرسيليا الى بومباي، وفي السنة ١٨٧٢، لم يمض « فيلياس فوغ » الآتي من لندن سوى ثمانية عشر يوماً لبلوغ المرفأ الهندي . وتدنت اجور النقل الى ربعها بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٨٠ . الا ان السنوات الاولى كانت صعبة مالياً لان محمول السفن المدرة في القناة لن يبلغ الارقام التي قدرها « لسبس » المتفائل الا في السنة ١٨٨٨ . وحين تطورت الشركة بفضل الوجود البريطاني في مصر والاتفاقية الدولية المعقودة في الاستانة، اخذت توزع ربائح مغرية وقررت توسيع وتعميق القناة وتجهيزها بالانارة الكهربائية. فكان ان سهم الـ ٥٠٠ فرنك الذي سعّر بـ ١٦٣ في السنة ١٨٧١، قد ارتفع الى ٥٠٠٠ في السنة ١٩١٤ . وجملة القول

ان القناة ربما كانت « اعظم انجازات القرن » .

انتظر الرأسماليون نجاح قناة السويس للاهتمام بالبرازخ الاخرى . فان قناة كورنثوس، التي فكر بها نيرون ، قد تحققت بين السنة ١٨٨٣ والسنة ١٨٩٣ ؛ وحققت المانيا في السنة ١٨٩٥ الاتصال بين البلطيق وبحر الشمال بواسطة قناة « كيال » التي ستكون مشروعاً خاسراً على كل حال ؛ وفكر بعضهم بحفر ترعة « كرا » ، ودرست بعض اللجان مشروع قناة بين الاطلسي والمتوسط . ولكن المغامرة الكبرى كانت مغامرة باناما .

ان فتح قناة في هذه الجهات كان، والحق يقال ، اقل إفادة لاوروبا منه للاميركيين. فبالنسبة لمصر : فتنة المكان ، مفترق اجزاء العالم الثلاثة ، والضرورات المتوسطية والآسيوية ؛ اما هنا فطبيعة تسيطر عليها امطار غزيرة ، واحراج واسعة وغابات متلبدة ، ومنطقة غير آهلة ، على شواطىء محيط لا يسلك بعد الا نادراً . وعلى الرغم من ذلك فسحر المشروع كان أخاذاً ، لا سيما وان البرزخ يضيق باطراد بين تهوانتيبك (١٩٧ كيلومتراً) حتى باناما (٧٠ كيلومتراً) . فالقرن السادس عشر قد استرسل في خياله في صدد مثل هذا المشروع ؛ وهمبولدت فكر به في السنة ١٨٠٨ . وحين افتتح بوليفار مؤتمر باناما في السنة ١٨٢٦ اقترح غوتيه بدوره فتح القناة ، ونادى كلاي بعمل جماعي . جاءت السنة ١٨٥٠ : حين سمع الناس صوت نداء الذهب الكاليفورني . فعقدت الولايات المتحدة اتفاقاً مع كولومبيا بغية اعلان حياد البرزخ في اضيق نقاطه ؛ ولما كانت انكلترا تحتل بليز وشاطىء « موسكيتو » ، وتسلم بامية جون فرنسيكا، عقد الاميركيون معها معاهدة تنم عن حذر متبادل بنعها كل تحصين في تلك الجهات ، ثم حققوا ، على الرغم من تفشي الملاريا ، مشروع خط حديدي بين كولون وباناما . اما في الواقع فقد ارادوا كسب الوقت وآثروا العمل بمفردهم .

في السنة ١٨٦٩ فتحت ترعة السويس للسفن واجتاز اول قطار « الجبال الصخرية » . وعلى الرغم من العودة الى مشاريع فتح القناة ، اما على تهوتنتيبك ، واما على نيكاراغوا ، فلا شيء يدعو بعد للاسراع في العمل . فان المصالح البحرية ومصالح الخطوط الحديدية قد تضافرت للحيلولة دون تنفيذ مشروع اجمع الرأي على اعتباره محفوفاً بالاخطار . فهل تركب اوروبا الخطر يا ترى ؟ اما اميركا فقد وقفت مرة اخرى موقف التريث والتبصر والسخرية . فأوصت بعثة « وايز — ركلو » (١٨٧٦ – ٧٨) بباناما ؛ ثم حصل « وايز » على الامتياز في بوغوتا ؛ ثم انعقد المؤتمر الاول للدروس الذي رفض اقتراح ايفل حفر قناة ذات سدود ووافق على اقتراح لسبس حفر ترعة عميقة يكون مستوى مياهها موازياً لمستوى مياه المحيطين ؛ ثم وضع مشروع تقديري بالاكلاف التي بلغت ١١٧٤ مليوناً ؛ ثم اسس لسبس الشركة العالمية لقناة ما بين المحيطين ، التي احاطت الشروع في العمل بمزيد من الدعاوة، على الرغم من انها لم تجمع سوى ٣٠ مليوناً ، بدلا من ٤٠٠ ، عن طريق الاكتتاب، واصطدمت بمناخ قاس قتال وبفيضانات النهر المتكررة وانهيارات جانبي الترعة . فانتهى مشروع هذه القناة الى الفشل وانفضت الشركة في السنة

١٨٨٩ بعد ان لجأت الى الرشوة لحمل البرلمان الفرنسي على منحها قرضاً مقابل اسهم ودون ان تتمكن من حفر قناة ذات سدود . وبعد هذه الفضيحة السياسية والبرلمانية والمالية والمصرفية معاً التي انتهت بالحكم على لسبس وابنه وايفل ، مست الحاجة الى قيام شركة بديلة اخرى . فعرفت اوروبا بذلك لمثلا ستستغله اميركا .

سبق ا د غرانت ، ان اعلن بان ما يلزم الولايات المتحدة هو « قناة اميركية بمال اميركي، في ارض اميركية » . فاستمرت المنافسة مع انكلترا في نيكاراغوا ، وفي السنة ١٩٠٧ ، سوف ينشأ خط حديدي في تهوانتيبيك. اما في الواقع فهي باناما ما يترصده الاتحاد . فقد استفاد من النزاع الجنوبي الافريقي لالغاء مطالبة بريطانيا ، فأعلنت المعاهدة الموقعة لهذا الغرض حياد القناة قبل حفرها ومنحت الملتزم ، في الوقت نفسه ، حق تحصينها واقفالها في حالة الحرب.وبات بمقدوره من ثم ارغام كولومبيا على الاعتراف بدولة باناما التي تخلت عن كل ما يحتاج اليه بناء الترعة وحمايتها . وبينما تولى الزعيم غوتهلز ، الاختصاصي في بناء السدود ، ادارة المشروع الفنية ، قضت الحملة التي تولاها روس على البعوض الذي ينقل الهواء الاصفر والملاريا ؛ ثم زود بالمعدات ٤٠٠٠٥ عامل (من بينهم ٣٠٠٠٠ زنجي) استهوتهم الاجور المرتفعة ، ففتحوا الممر المائي الذي سيدشن في ١٥ آب من السنة ١٩١٤ . وقد بلغ ما انفقه الامير كيون على هذا المشروع ١١١٥ مليونا بعد ان كرس له الفرنسيون ١٢٧٤ مليونا .

كانت باناما فكرة طلع بها القرن التاسع عشر ، وهي ستسهل في القرن العشرين ارتقاء اميركا بجعلها الباسفيكي والشرق الاقصى اقرب الى نيويورك منهما الى لندن .

الاتصال البعيد

بعد السنة ١٨٥٠ غدا نقل البريد نمواً فجائياً . فان معدل الرسائل في المانيا مثلاً كان ١,٥ للشخص الواحد في السنة ١٨٤٠ ، و١٢,١ في السنة ١٨٧١ ، و٥٨,٦ في السنة ١٩٠٠ . وقد بيع في الولايات المتحدة مليون ونصف المليون من الطوابع البريدية في السنة ١٨٥٠ ، و ٣٩٩٨ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

ومما يثبت كذلك توسع الشبكة التلغرافية المعتمدة رموز « مورس » ، التمديدات التي بلغت ١٦٠٠٠٠ كيلومتر من الشريط حتى السنة ١٨٥٨ ، والتي ستبلغ ستة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وقدارسلت في اوروبا ٩ ملايين برقية في السنة ١٨٥٨ و ٣٣١ مليوناً في السنة ١٩٠٨ (منها ٧٠ مليوناً الى الولايات المتحدة).ومنذ السنة ١٨٦ اتاح جهاز هوغ الاكتفاء ببثة واحدة للحرف الواحد وطبع الحرف مباشرة؛وخطر ا «هويتستون» ان يطبق على جهاز مورس طريقة احكام جهاز نول «جاكار»بشكل دائرة الساعة ؛ وبفضل « الطريقة الازدواجية » التي انتهت اليها دراسات «ستيرنز» ارسلت في الوقت نفسه برقيتان في الاتجاهين معكوسين؛ ثم وصلت آلة «ماير» الباعثة عدة اجهزة بخط واحد واتاحت طريقة«بودو» الرباعية بث... ٧ كلمة في الساعة

بدلا من ...٢٠٠ بواسطة جهاز هوغ ، وهو عدد سيرتفع الى ...٢٠٠ بفضل البث على تيارات مختلفة القوة .

استهوى الابراق الدول المفتقرة الى الطرقات والخطوط الحديدية . فان ايقاف الاعمدة الخشبية ومد الخطوط اسهل من توطيد عوارض السكة الحديدية بالقطع الحجرية . ولذلك كان لبلاد ايران في السنة ١٩٠٥ ، ٩٦٠٠ كيلومتر من خطوط التلغراف مقابل ١٣ كيلومتراً من الخطوط الحديدية ، ولبلاد الصين ... ٣٥ مقابل ٥٥٠٠ .

ولم يقف البحر حاجزاً في سبيل الخط التلغرافي . فمنذ السنة ١٨٤٥ ، وبفضل صمغ المطاط ، غط الاميركيون حبلا سلكياً تحت نهر الهودسن . ولكن السنة الحاسمة كانت سنة ١٨٥١ . فقد ساعد المهندس كرامبتون مواطنه «جاكوب برايت» على تحقيق الاتصال بين دوفر وكاليه . وفي السنة ١٨٥٣ غط الحبل السلكي تحت قناة الشمال من جهة وتحت بحر الشمال من جهة اخرى . ثم حاول جون دووكنز برايت ، اقامة خط تحت البحر المتوسط ، بين الشاطىء البروفنسي وكورسيكا وسردينيا اولا ، ثم بين هذه الاخيرة والجزائر . واثناء حرب القرم انشىء خط تحت البحر بين فارنا و بالاكلافا .

تكوّن آنذاك مشروع اتصال عبر الاطلسي . فأسس الاميركي « سيروس - وست فيلد » شركة اسندت الى مؤسسة « غلاس واليوت » في لندن صنع حبل سلكي يبلغ ٣٦٥٠ كيلومتراً طولا بغية ربط جون فالنتيا وترينتي - باي على شاطىء الارض الجديدة . الا ان العملية لم تتكلل بالنجاح بعد ثلاث محاولات فاشلة ، الا في ١٢ آب ١٨٥٨ . وفي ١٦ منه وجهت الملكة فكتوريا رسالة الى الرئيس بيوكانان : فاستغرق نقل بعض الكلمات ١٧ ساعة و ٤٠ دقيقة ، ولم يرد الجواب الا في ١٨ منه . زد على ذلك ان الحبل قد انقطع ، فبردت الهمة فترة من الزمن . ولم يتحقق المشروع اخيراً ، بعد شتى الصعوبات ، الا باستخدام حبل سلكي اعظم متانة يبلغ وزنه ... ٢٤ طن ، من انتاج معمل هنلي في وولويتش . ثم انشئت شبكة عالمية بلغت ١٢٥٠٠٠ كيلومتر طولا في السنة ١٨٩٠ ، و ...٥٠٠ في السنة ١٩١٤ ، تسيطر عليها لندن القادرة وحدها على الاتصال مباشرة بمعظم بلدان الارض (مراكز ٢٢ شركة من اصل ثلاثين تقريبا موجودة في الشارع نفسه) . فبدا ما كتبه « ادمون ابو » في السنة ١٨٦٤ دون الواقع الى حد بعيد : « لا ينقضي في ايامنا اكثر من شهر حتى تدور الفكرة دورة كاملة حول الارض » . وحين احتفل بيوبيل « وليم طومسون » (اللورد « كلفن ») في غلاسكو في السنة ١٨٩٦ ، بعث اليه ببرقية عن طريق الارض الجديدة وسان فرنسسكو وواشنطن اجيب عليها خلال سبع دقائق .

ولكن الكهرباء اثبتت قدرتها على نقل الصوت ، اي الكلمة . فأبصر الهاتف النور ، بعد اينياع طويل الامد ، في السنة ١٨٧٦ ، بفضل العالمين الاميركيين « اليشع غراي » و « غراهام بل » .

فحقق هذا الاخير الاتصال الاول على مسافة ٣ كيلومترات . وكان الاختراع مرتكزاً الى قدرة الكهرباء على ان تنقل الى مسافات بعيدة الارتجاجات التي تسجّل على صفيحة رنانة ويعاد تسجيلها على لوحة اخرى عندما تبلغها الارتجاجات المنقولة. وقد اصبحت الطريقة عملية بفضل الميكروفون الذي ابتكره هوغ وبفضل الملف المغناطيسي الذي ابتكره اديسون والذي يوسع الارتجاجات. فافتتح المكتب الاول في نيوهافن في السنة ١٨٧٨ والثاني في باريس في السنة ١٨٧٩ . فبلغت الاجهزة ، في السنة ١٩١٠ ، اثني عشر مليوناً في العالم ، منها ثمانية ملايين في اميركا الشمالية ، وثلاثة في اوروبا . وقد اعلن ولم طومسون آنذاك : « عجيبة العجائب » .

ولم يكن اقل إثارة للعجب الحاكي الذي يسجل الصوت والذي توصل « شارل كرو » الى اكتشاف مبادئه واديسون الى تحقيقه في السنة ١٨٧٨ ، سنة مؤتمر برلين .

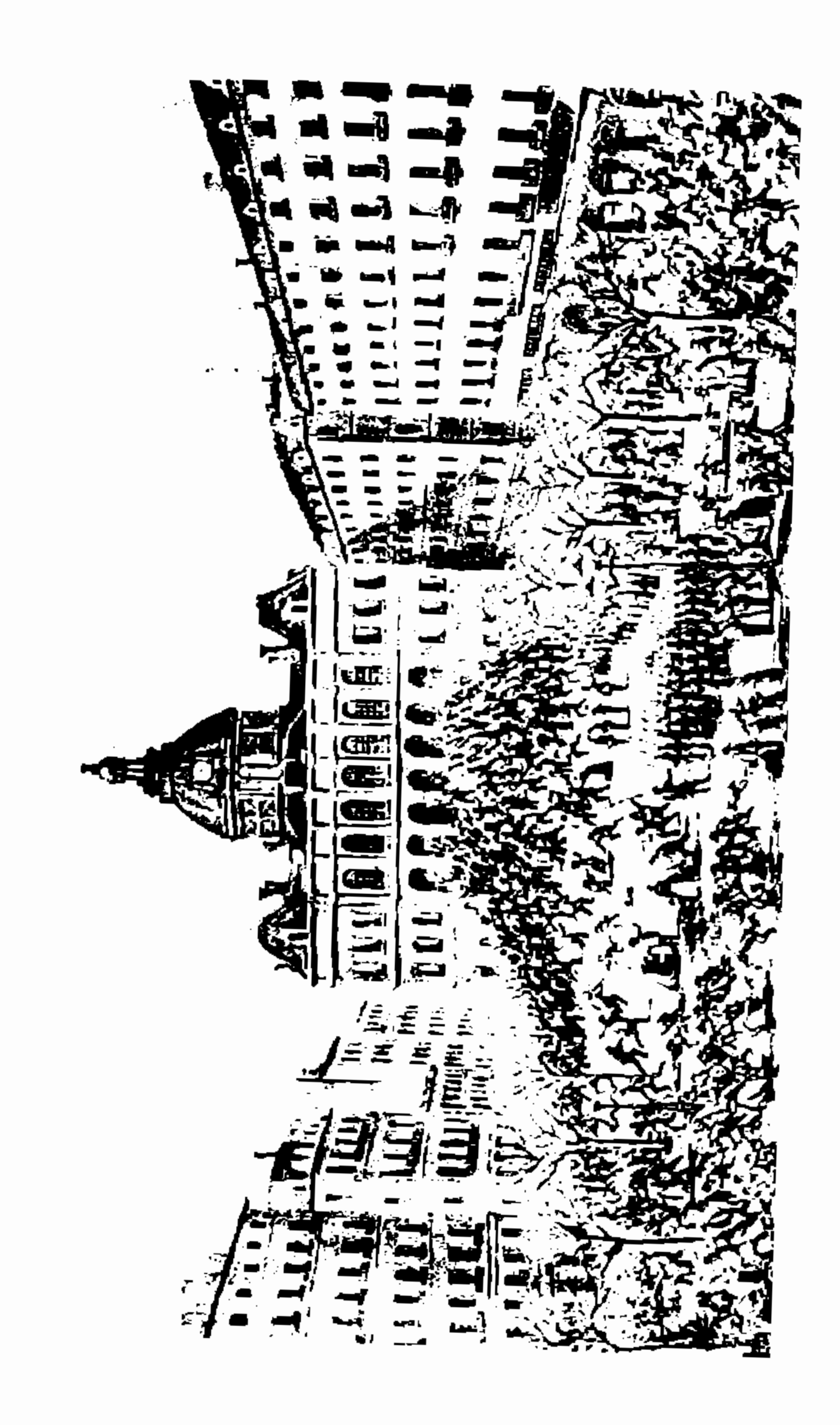


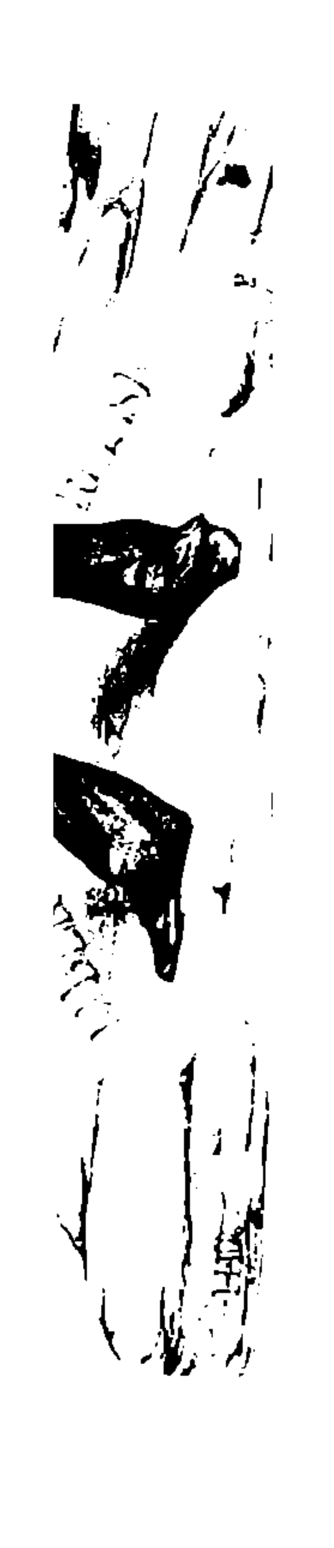




٣ ـ تجربة الآلة الحاصدة التي اخترعها سيروس هول ماك كورميك (١٨٣١) .



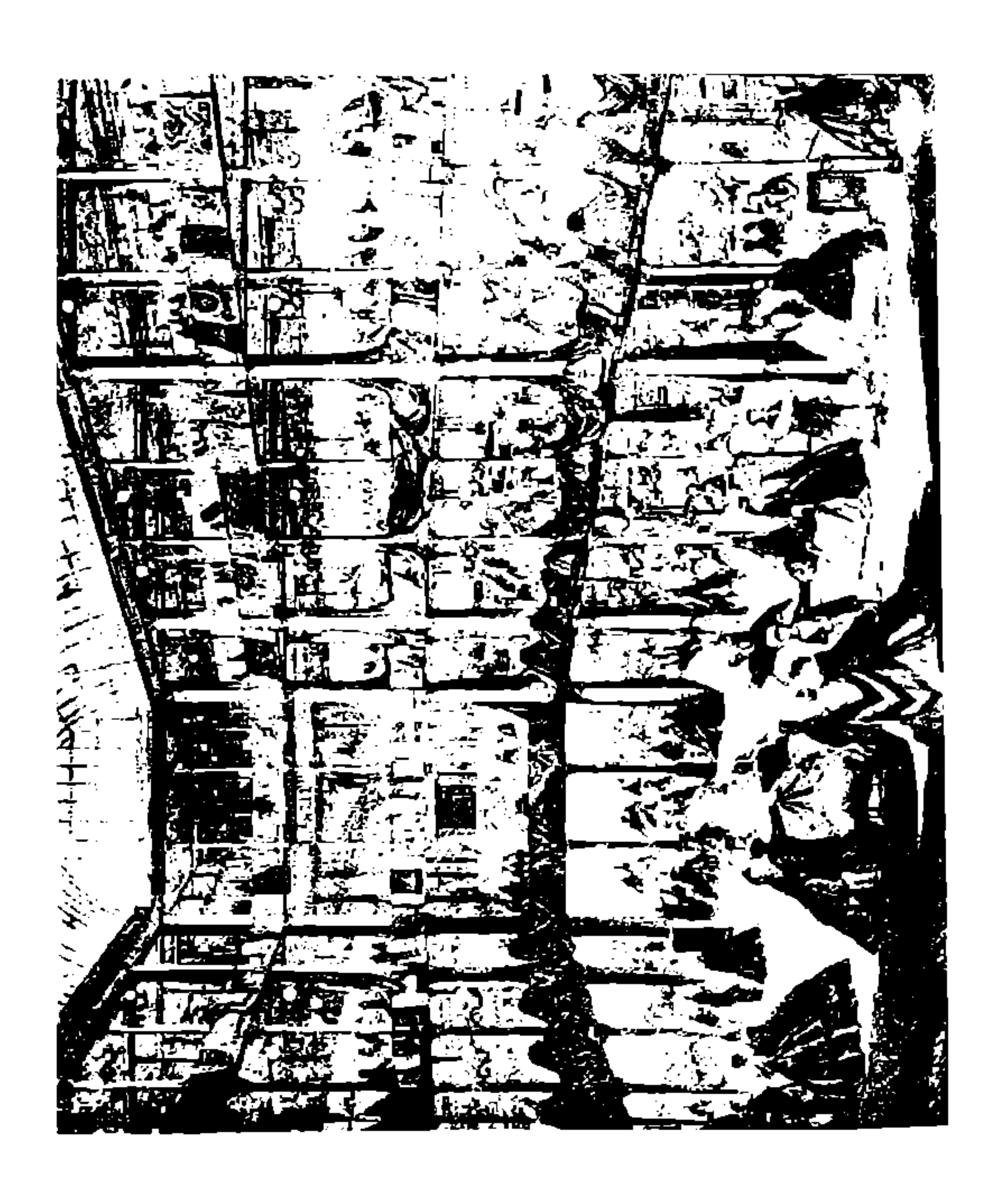










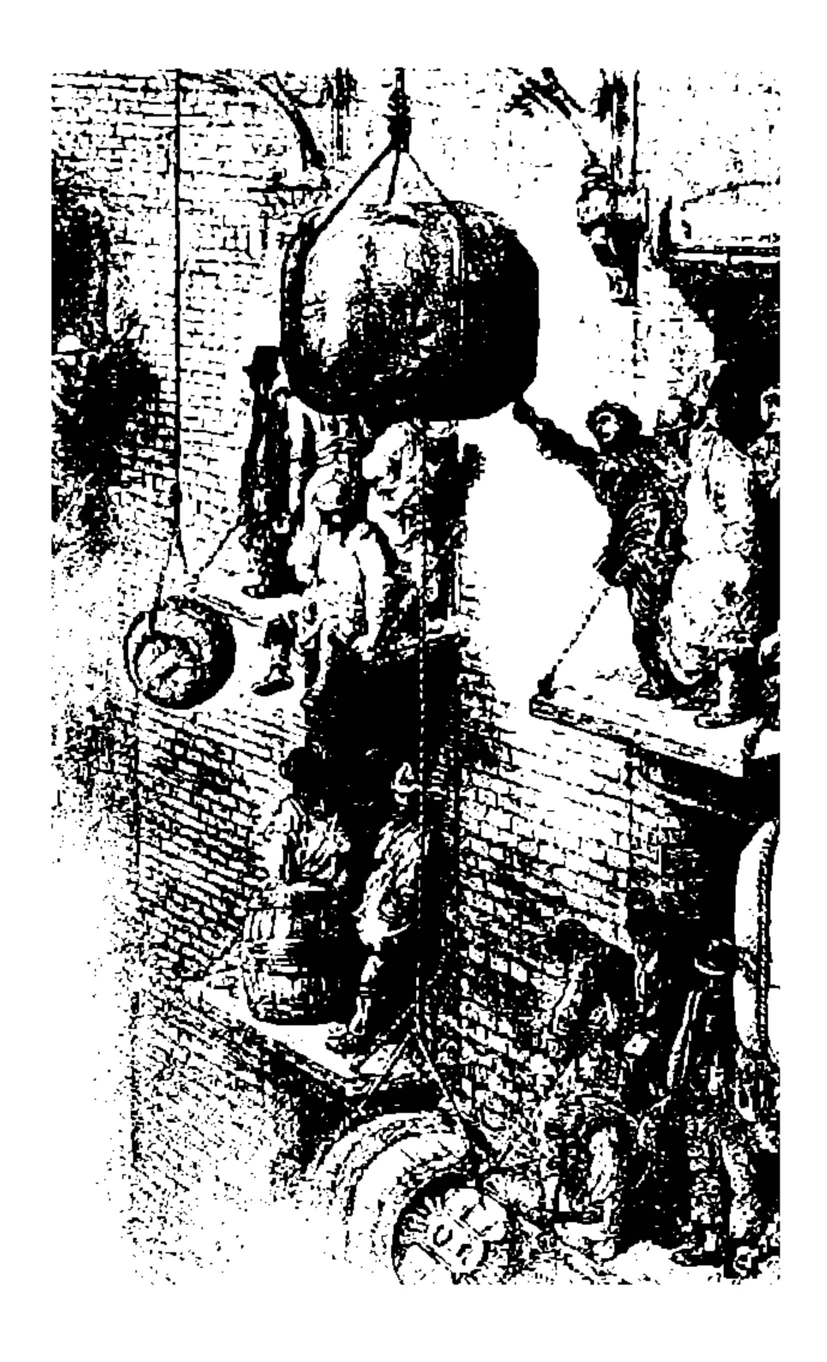












الفصل الثامن

انطلاقة الرأسمالية في الغرب

رسالة الغرب الرأسمالية

«غزت البورجوازية كافة انحاء الكرة الارضية بدافع الحاجة الدائمة الى اسواق جديدة، المكان لزاماً عليها الدخول الى كل مكان، والاقامة في كل مكان، وخلق وسائل اتصال في كل مكان. وباستثمارها السوق العالمية، طبعت البورجوازية الانتاج والاستهلاك في كافة الدول بطابع الوطنية الشائعة. وبفضل سرعة اتقان ادوات الإنتاج ووسائل الاتصال، ادخلت البورجوازية في تيار الحضارة حتى اكثر الامم تخلفاً وهمجية ...». هكذا تكلم «ماركس» و«انجلز» في السنة ١٨٤٨ في «البيان الشامل للحزب الشيوعي». وهذا يعني أن طبقة اجتماعية معينة هي البورجوازية، «ثمرة النمو الطويل العهد، وعدد من الثورات في طرائق الانتاج والاستهلاك»، قد دفعت بأوروبا الى فتح العالم. والمقصود بهذا الفتح فتح تجاري اولاً، وفتح صناعي ثانياً. ولكن ماركس وانجلز يتكلمان عن نمو «البورجوازية أي الرأسمالية». لذلك فان نظاما معيناً، اقتصادياً واجتماعياً معاً، يميز اوروبا ويفسر توسعها قبل ان تشمل في توسعها هذا اميركا الشمالية وبعض انحاء العالم الاخرى وتبعث فيها حركات مماثلة.

وفرة المعادن الثمينة
سيادة الذهب

رأينا ان القرن التاسع عشر هو قرن الفحم الحجري والحديد، ولكنه في الوقت نفسه قرن الذهب والفضة ايضاً. فقد برزت مناطق جديدة غنية بالذهب، هي اعجب ما عرفته البشرية في تاريخها: كاليفورنيا، «مونت - مورغان»، «كلونديك»، «كمبرلي»، «ويتووتر سراند». بيد ان الكثيرين قد خشوا من ان يفقد المعدن الابيض والمعدن الاصفر، اللذان لم يعودا نادري الوجود، صفتهما الذاتية الرئيسية؛ وعلى نقيض ذلك، ابتهج كثيرون غيرهم ممن رأوا الصلة الوثقى بين النشاط الاقتصادي ووفرة المعادن المعروفة بالثمينة. ومهما يكن من الامر، فان الغرب هو الذي استثمر هذه الكنوز لمصلحته، وهي الاراضي الانكلوساكسونية التي ورثت الامتياز الذي كان في فترة من الزمن امتياز الامبراطوريات الايبيرية.

اذا نظرنا الى الذهب وحده ، واعتبرنا ان معدل الانتاج السنوي قبل اكتشاف اميركا هو ١ ، فان هذا المعدل يرتفع الى ٥٠ في اواخر القرن الثامن عشر ، والى ١٠٠٠ في السنة ١٨٦٠ ، والى ٢٨٠٠ في السنة ١٩١٤ . وهذا يعني ان المعدن الاصفر الذي دخل في التداول في الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ الى السنة ١٨٧٠ ، يوازي ما دخل منه بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٨٥٠ . وازدادت كذلك كمية الفضة ازدياداً عظيماً : فبعد ان تجمع منها ١٤٠ مليون كيلو بين السنة ١٤٩٣ والسنة ١٨٥٠ ، ارتفع وزنها ٢١ مليوناً بين السنة ١٨٥٩ والسنة ١٨٧٠ و ٦٧ مليوناً بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٣ .

قبل ان تتخلى المكسيك للولايات المتحدة عن كاليفورنيا بتسعة ايام ،عثر «مارشال»، صانع العربات ، صدفة على بعض قطع المعدن الاصفر في جوار « ساكرامنتو » . فاندفع الناس وراء الذهب اندفاعاً منقطع النظير . وقد جاؤوا من كل مكان : استخدم بعضهم مسالك « لارامي » او مخطورة « سانتا – في » – وكانت المسافة تستغرق خمسة اشهر – وسلك البعض الآخر طريق « باناما او «ماجلان»، فكان سفرهم في البحر مضنياً لا بل مهلكاً احياناً؛ ووصل قرابة ٢٠٠٠٠ من آسيا . اما نتيجة هذا التدفق ، الذي ادى الى خلو الحقول والمصانع من اليد العاملة ،فكانت تنشيط بناء وحركة السفن ، واستقرار ٣٠٠٠٠٠ شخص في كاليفورنيا ، واكتشاف الزئبق في «نيو المادان» وإلحاح الحاجة الى تحقيق الاتصال بين الباسيفيكي والاطلسي بواسطة القطار الحديدي.

وكان « الهواء الاصفر » قد انتقل الى اوستراليا ، القارة الخالية من السكان تقريباً ، التي اطلق عليها ، بمعرفة غريزية غريبة ، اسم « الشاطىء الذهبي » في الخرائط البرتغالية القديمة . وخشية من اختلال النظام والانضباط بين المجرمين المبعدين اليها البالغ عددهم ٤٥٠٠٠ حاول حاكم ولاية «وايلز الجديدة» الجنوبية اخفاء سر الاكتشاف الذي توفق اليه احد الرعاة في شهر شباط من السنة ١٨٤٩ ، في مقاطعة باثورست . ولكن سفر المهاجرين المستعمرين قد احدث انقلاباً؛ وقد تعذر من جهة ثانية منع هذا التدفق حين توفق المهاجر هارغريفز العائد من اميركا، الى اكتشاف ذهبية تبلغ قيمتها ٤٠٠ جنيه استرليني وأثبت تشابه التربة بين منطقة ساكرامنتو ومنطقة ما كاري . ومما شجع البحث عن الذهب ان مستعمرة فكتوريا ، التي تنظمت في السنة ١٨٥١ ، خصصت مكافأة لمن يكتشف ذهباً في اراضيها . وهكذا تم العثور على منجم بالارا وبنديغو الشهير . وقد بلغ من تدفق الحفارين ان عدد سكان فكتوريا قد ارتفع الى اربعة اضعافه خلال اربع سنوات .

اما مجتمع هؤلاء الباحثين عن الذهب فمجتمع غريب . لقد عاشوا في اكواخ خشبية مسقوفة بصفائح حديدية او تحت خيام بسيطة . وقاسوا الامرين من الغبار والاذبة والتهاب الاعين والحمى التيفية . وبرهنوا عن بطولة ، على طريقتهم الخاصة ، وسنوا لانفسهم قانوناً ديموقراطياً مختصراً احترموه احياناً . ولكن حالة الحدة الدائمة التي سيطرت عليهم جعلتهم قادرين على القيام باسوأ اعمال العنف . وقد جرهم تفاوت العدد بين الجنسين الى الفجور ، والدعارة كما ان تجارة

النساء في كاليفورنيا جعلت من الانسان الابيض منافساً رهيباً للرئيس الهندي الذي صحب عليه جمع النساء في حرمه . اضف الى ذلك ان الحفار العامل لحسابه قـد افسح مكانه شيئاً فشيئاً للعامل المأجور الداخل في خدمة الشركة الرأسمالية التي اعتمدت تقنية اكثر اتقانا .

خلال اربعين سنة سيطرت اميركا الشمالية واوستراليا على سوق المعادن الثمينة. فقد اجريت بين «ارض النار» و«آلاسكا» اعمال تنقيب منظمة . وجمع الباحثون الذهب الرسوبي من نهر فرازر في كولومبيا البريطانية . واستفادت «ليدفيل» في الكولورادو من بحث واسع مماثل في منحدر «بيكس بيك» : ففي اقل من سنتين خرجت من الارض مدينة مبنية بالقرميدجمعت بين ١٥٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ مغامر ، و خمس كنائس و ٣٠ فندقاً ومسرحين وقرابة مائة قاعة للاجتماع والرقص ، يضاف اليها الكثير من الحانات والمقامر ؛ وكان فيها بائعو المشروبات ومديرو الحانات المذكورة اسياداً مسيطرين ؛ وصدرت فيها اربع صحف منها اثنتان يوميتان . ولكن الفضة كانت اوفر من الذهب ، ممزوجة بالرصاص والنحاس وحتى بالزئبق ، واعتبروها بعضهم نوعا ثانوياً من المعادن الاخرى التي تعيرها الشركات الصناعية اهتماماً اكبر احياناً. ففي ليدفيل مثلاً اهتم الناس على التوالي بالفضة ، والرصاص الممزوج بالفضة ، والزنك ،وهو النحاس ما انقذ «برت» و «هيلينا» و «اناكوندا» .

تسبب الذهب بعد ذلك في تدفق بشري جديد في اقصى الشمال الاميركي : «كلوندايك» و«آلاسكا» . فقد نزل بين ٣٠ و ٤٠٠٠٠ باحث في سكاغواي واجتازوا الجبال التي تفصل بين الباسيفيكي والـ «يوكون» وانحدروا بواسطة الزوارق او الاطواف على نهر الـ «لوّمس» حتى داوسون سيتي : فاغل المنجم ١٠ ملايين دولار في السنة ١٨٩٨ ، وحتى ٢٢ في السنة ١٩٠١ . وفي السنة ١٩٠٠ حدث تدفق جديد باتجاه شبه جزيرة سيوارد قبالة مضيق بيرنغ ؛ ففي «نوم» التي تسيطر عليها ارياح جليدية ، وحيث انشئت على جناح السرعة حانة وبيت دعارة وملهى؛ عثر في الرمال ،في اشهر معدودة ، على ذهب تبلغ قيمته اكثر من مليون دولار . وفي السنة ١٩٠٩ ،تكلم الناس عن بحيرة «بوركوبين» بعد ان اظهر فيها حريق طارئ شرايين مرو ابيض.

وعلى الرغم من كل هذا ، فان نصف الكرة الارضية الجنوبية كان قد انتزع ، منذ ١٥ سنة تقريباً ، صولجان الذهب من اميركا التي احتفظت بصولجان المعدن الابيض . ففي اوستراليا توالت الاكتشافات : في مونت مورغان من اعمال كوينسلند وفي «بروكن هل» من اعمال وايلز الجديدة. وحدث ان احد المهاجرين ،مالك الارض التي سيجمع فيها الاخوة مورغانووليم دارسي ثروة طائلة ، باع الاكر بجنيه استرليني دون ان يعلم بما كانت تخبئه ارضه ومات حزناً . ولكن اوستراليا لم تكن اقل ثروة معدنية واجتذاباً للباحثين : فقد اكتشف الذهب في الصحراء على مسافة ٢٠٠ كيلومتر من «برث» ، ثم اكتشفت كنوز «كولغاردي» على مسافة ٣٠٠ كيلو متر من برث ، في منطقة تتميز بمناخ حار جداً ، وهو الجمل ما انقذ المشروع من الخطر بنقله الماء والمؤن والمعدات ، قبل ان تبنى اقنية جر المياه والخطوط الحديدية . فضمن ذلك القارة

الاوسترالية المرتبة الاولى في السنة ١٩٠٣ .

بيد ان العالم عاد الى الحديث عن افريقيا : وهو عود طبيعي الى بدء ، اذ ان هـــذه القارة كانت قد اعطت اكبر كميات من المعدن الاصفر . اجل لقد بذلت محاولات فاشلة بغية الوصول الى كنوز السودان الاسطورية انطلاقا من الشاطىء الذهبي وعبر السهول المعشبة . ولكن مـــا ذهب بعقل الناس آنذاك هو هضبة « فلد » الجنوبية . فقد توفق احد الـ « بوير » ، في السنة ١٨٦٣ ، الى اكتشاف الحجارة الكريمة الاولى ، ثم اشهر اكتشاف « نجم الجنوب » حقول الماس حول كمبرلي . وكانت شركة « دي بيرز ميتنغ » ، التي تولت الامر ، على علم بان الذهب لم يكن بعيدا . فقد اكتشف في السنة ١٨٧٧ في « غريكوالند » ، ولكن حكومة «بريتوريا» حاولت منع الباحثين من فحص الارض لمعرفة ما يحويه جوفها من المعادن في منطقة ويتو وترسلراند التي قدر بانها اغنى المناطق ثروة معدنية ، اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الباحثين ما لبثوا ان واجهوا طبقات صوانية تمتد تحت الاتربة والصخور الرملية . ولذلك مست الحاجة الى استخدام الوسائل الآلية ، ولم يتمكن من الاستمرار في العمل سوى المشاريع الكبرى القوية وحدها . وصادف في السنة ١٨٨٧ ان « ماك ارثور » و « فورست » من غلاسكو توفقا الى فصل الذهب عن كبريتور الحديد بواسطة التحليل بالجرى الكهربائي او بالزنك . فأسست شركة دي بيرز فرعا لها هو شركة « الحقول الذهبية في افريقيا الجنوبية » التي عقدت اتفاقات مع شركة شارترد لصاحبها «سيسيل رود» وشركة نوبل ، وقد نص الاتفاق مع هذه الاخيرة على ان تقدم النيتروغليسرين القادر على تفكيك المعدن الخام . وقد تغلبت هـــذه المصالح الكبرى في النهاية على اشمئزاز وكراهية البوير بعد تدخل انكليزي مسلح . وكما ان النترات كانت سببا لحرب الباسفيك ، كذلك لم يكن الذهب غريباً عن حرب الـ « ترنسفال » . وهكذا فقد كان مقدراً لافريقيا الجنوبية ، التي بلغ انتاجها من الذهب الناعم ٢٢ طن في السنة ١٨٩١ ، ان تنتج ٨٠ طنا في السنة ١٩٠٦ و ٢٨٣ في السنة ١٩١٢ ؛ كما كان مقدراً لها ان تتفوق بدورها على اوستراليا والولايات المتحدة .

الخلافات والاتفاقات المالية

ادت وفرة المعادن الثمينة الى وفرة النقد . اضف الى ذلك ان حيازة مخزون معدني هام قد سمحت باصدار كميات اكبر حجما من النقد الورقي . فاعتاد الناس استخدام الورقة النقدية كعملة رائجة .

كان النقد المعدني في نظر الساعين وراء الربح التجاري هو الثروة بعينها ، بينما نظر اليه القائلون بمذهب الحرية نظرهم الى وسيلة مقايضة . ولكن سوء الطالع اراد ان لا يكون اداة قياس ثابتة . فهل يتحقق توحيد القواعد النقدية القومية على الاقل يا ترى ؟ لا شك في ان قيام « الاتحاد اللاتيني » في السنة ١٨٦٥ كان سيراً في هذا الاتجاه ؛ الا ان البلدان الانكلوساكسونية لم تقبل بفرنك المائة سنتيم كما لم تقبل من قبل بالنظام المتري .

ولم يكن اختيار العيار النقدي اقل صعوبة . فقد قام نقاش مستمر بين انصار المعدن الواحد

وانصار المعدنين . فقبل السنة ١٨٥٠ ، وبينما لم تعرف آسيا سوى الفضة ، كانت بريطانيا قد اختارت العيار الذهبي ، واختارت اغلبية الدول الاوروبية الاخرى والولايات المتحدة عليها العيار الذهبي والعيار الفضي معاً . ولما كان تدفق الذهب قد صادف بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٧٠ طلب المزيد من الفضة في الهند والشرق الاقصى ، اهتم المسؤولون بالنتائج التي قد تستتبعها اولوية المعدن الابيض . ولكن هذا الاتجاه قد انقلب شيئاً فشيئاً حين تدنى انتاج الذهب وخطا استخراج الذهب بالمقابلة خطوة كبرى الى الامام . ثم جاء الانحطاط الاقتصادي واعاد رباطة الجأش الى انصار المعدنين الذين ساندهم « بارونات الفضة » في الولايات المتحدة . ولكن لمعان نجم الترانسفال واوستراليا وآلاسكا قد اتاح الفرصة لانصار العيار الذهبي لاعتباره قادراً على الوفاء بالحاجات ، بينما كانت قيمة الفضة آخذة بالتدني .

مهما يكن من الامر ، فان الارتباط المتبادل بين حركات الاسعار وحجم النقد المتداول قد بدا وكأنه تأيد تأيداً واضحاً . وعلى غرار «بودين» و«كانتيون» وكثيرين غيرهما ، فكر علماء الاقتصاد القائلون بمذهب الحرية بان نمو حجم المعادن الثمينة مفيد ، وقد سبق لميشال شفالييه ان حيّا ارتفاع انتاج الذهب معتبراً اياه « حدثاً على جانب كبير من الاهمية للجنس البشري بأجمعه » . وكان ماركس قد عارض وحده تقريباً هذه النظرية الكمية للنقد ، اعتباراً منه ان ارتفاع الاسعار مرده الى الكسب الرأسمالي . فكانت من ثم معركة النقد: مظهر المنافسة ، والاتفاقات النقدية : مهادنات مؤقتة او جهود لتقاسم الاخطار والمكاسب على السواء . ولكن بعض الاستقرار قد لوحظ على الرغم من الازمات والثورات .

نمو سوق رؤوس الاموال والجهاز المصرفي

كتب «كورسل سنوي» في السنة ١٨٤٨ : « لا يُحصل دائماً على الاعتماد بطرق المواصلات ، اما بالاعتماد فالحصول على طرق المواصلات امر مضمون » . وفي كتابه «تاريخ المصرف» ، قارن « ماك لود » الاعتماد بفيضان النيل المخصاب . وقد سبق للسانسيمونيين ان اعتبروه علة قيام كل مشروع كبير .

فالمال من ثم ضروري للعمل . ولكن اين يوجد المال ؟ اعتبر التوفير احتياطيا اساسيا . والتوفير توفير اقتصاد لعمري ، وقد تبارى الصحافيون والسياسيون الاحرار في تعظيم هذه الفضيلة . ولكن من المستحسن ان يتخذ هذا التوفير شكلاً اشد نشاطاً .

هذا هو منذ الآن مثل التوفير – التأمين . فالتأمين يستجيب لحاجة الامان ، ولكنه خلاق من حيث هو يتصل بالقرض الطويل الاجل . وقد اهتمت الادارة باكراً بفروعه الثلاثة الرئيسية : التأمين البحري ، التأمين ضد الحريق ، التأمين على الحياة . وفي اواخر القرن ، أمنت ٨٥ شركة بـ ٢٢ ملياراً . وقدر بعضهم ، باتخاذ المعدل ١٠٠ في السنة ١٨٥٠ ، ان حجم التجارة العالمية قد بلغ المعدل ٦٥٠ في السنة ١٩٠٠ وحجم المبالغ المؤمنة بلغ المعدل ٢٥٠٤ . وتعددت

المحادات التأمين الدولية واجرى التأمين على التأمين على نطاق واسع. وربما كان هذا القطاع خير القطاعات لتقدم الراسمالية المالية. وكانت معظم الشركات التي تأسست في سويسرا شركات تأمينية. كما كانت الصلة وثيقة بين التأمين والتجارة والملكية العقارية.

بقي المصرف المؤسسة الرئيسية للاعتماد. فقد وفر لاوساط الاعمال مساعدة لا بد منها بشكل حسم. فبينما تأرجح معدل الفائدة تأرجحاً بطيئاً (انخفض شيئاً فشيئاً من ٥ الى ٣ ٪ بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٩٠٠) ، بقي الحسم خاضعاً لحركات فجائية وغير منتظمة. وقد حاولت مصارف الدولة الكبرى ، كمصرف انكلترا ومصرف فرنسا ، تنظيم نسبته . واطلقت السفتجة بعض جذورها بفضل التسهيلات الجديدة في وسائل المواصلات. الا ان لندن قد احتفظت بمركزها الممتاز ، لا بل حسنته ، في ما يعود السفاتج في المناطق الخارجية . وانتشر استخدام الشك في العالم الانكلوساكسوني اولا ؛ وقد سهل الى حد بعيد تسديد الحسابات بمجرد معاملات كتابية. وليست اوراق الدفع المخزنية سوى اشكال مختلفة للتسليف القصير الاجل ، واذا ما لجأت الحكومات الى القرض ، فانها قد توجهت الى الموفرين توجها مباشرا اكثر منه في السابق؛ ولكن ارباح المصارف ما زالت هامة جداً .

هو التسليف الطويل الاجل ما اتاح توظيف رؤوس اموال كبرى في الحقل الصناعي والتجاري. فتوسع فرع الاموال المنقولة من ثم توسعاً عظيماً . وقد نشر «برودون» في السنة ١٨٥٣« كتاب المضارب في المصفق » احتجاجاً على « عصر اتخذ المصفق واعماله لوحة وصايا إلهية ، والمصفق فلسفة ، والمصفق سياسة ، والمصفق علماً اخلاقياً ، والمصفق وطناً وكنيسة » . وفت صحافة مالية ، وقامت الصحف الكبرى بدعاوة فعالة لخدمة اصدار الاوراق المالية . ثم جاء التشريع في حينه يخفف من وطأة لتجارة المال . ففي السنة ١٨٥٨ صدر قانون يوسع حريات « الشركات المالية المتحدة » ؛ وفي السنة ١٨٦٣ والسنة ١٨٦٧ شجعت الامبراطورية الثانية قيام الشركات المحدودة المسؤولية . واذا لم يصدر «سمسرة ولومبارد ستريت » في لندن سوى نشرة يومية واحدة في السنة ١٨٦٠ ، فانهم قد اصدروا ١٦ نشرة يومية حوالي السنة ١٩٠٠ انطوت على ٤٠٠٠ بيان بالاسعار . فتعاظم دور شارع فيفيان في باريس ، و « وول ستريت » في لندن ، و « اورانيبورغرستراس » في برلين . وفي مصفق باريس بلغ مجموع النقد القابض ٨٥٠ مليوناً في السنة ١٨٣٠ ، و ٨٩٨٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠ ، و ٢٥٦١٢ مليونـاً في السنة ١٨٨٩؛ ثم بلغ ٨٧ مليارا في السنة ١٩٠٠ .

استلزم توزيع الاعتماد اجهزة اكثر عدداً واعظم تخصصاً. ففي اساس النظام احتفظت مصارف الاصدار بمركزها الممتاز ، منظمة نسبة الحسم ، ومزاولة دور تسوية وتعديل (دور المكتب المركزي) ، وموافقة على تسليف السلطات العامة . ولكن مصارف الاعمال المساهمة قد تكاثرت ، وجرت في الوقت نفسه عملية توزيع بين المصارف الحديثة منها ، التي اهتمت بشؤون التوفير ، وبين بعض المؤسسات القديمة – المصرف الفرنسي السامي مثلاً الذي يعود الى النصف

الأول من القرن – التي تخصصت في رقابة الاعمال الكبرى. ولم يشهدها التوزيع دون منازعات؛ فالمنازعة بين « بيرير » و « الابر » في فرنسا واوروبا الجنوبية لامتلاك خطوط المواصلات الكبرى ليست سوى احد هذه الخلافات المعروفة جيداً ؛ وبعد ان تغلبت على مصرف التسليف ، استطاعت مجموعة « روتشيلد » في السنة ١٨٨٢ من تضخيم الاتحاد العام الذي كان يحاول بدوره منازعته السيطرة. اضف الى ذلك ان مثل هذه التنازعات امر مألوف في الولايات المتحدة. وقد كان لها صداها البعيد في الحياة السياسية . ومهما يكن من امر ، فان العالم المالي قد وطد مركزه الاجتماعي .

قال « باستيا » عن المناقشة : « انها اكثر القوانين تقدمية ومساواة وجماعية من بين القوانين التي وكلت اليها العناية الالهية تقدم المصائر البشرية » . بفضل هذا المبدأ ، وفي مناخ الحرية السياسية والقضائية ، ارتفع عدد المؤسسات الصناعية والتجارية ارتفاعاً سريعاً . وهو اتجاه استفاد ، من جهة ثانية،من توسع عملية التسليف، وتقسيم العمل ، والنجاحات التقنية ، وحاجات الحضارة الغربية .

تمو المشاريع الرأسمالية

وجدت الحرفة الصغرى والحانوت علة وجود جديدة في هذا التخصص . وما زالت المهارة اليدوية ، التي انقذت الكثير من الصناعات التقليدية ، ضرورية جداً في الانتاج الصغير الحجم . وتقدمت بعض فروع الصناعات المنزلية لانها استخدمت صناعيين يدويين ابعدوا عن عملهم او يدا عاملة نسائية : وهذا ما حدث في صناعة الالبسة والخياطة وصناعة الملابس الداخلية. وتمت تجارة التفصيل ، على الرغم من ان المخازن الكبرى قد انتشرت انتشاراً عظيماً ايضاً .

ولكن الحدث الذي لفت الانظار هو التوسع الذي عرفته الشركة المحدودة المسؤولية. فان الاموال الطائلة التي وظفت في المانيا بعد السنة ١٨٧١ قد ادت الى قيام ٧٨٠ شركة خلال سنتين، وان الشركات الـ ٧٩٣٩ التي احصتها الادارة الاميرية الفرنسية في السنة ١٩٠١ قد ارتفعت رؤوس اموالها الى ٣٦ ملياراً . ولكن مشاريع كثيرة لم تعرف سوى وجود سريع الزوال . فكل ارتفاع في الاسعار بعث ازدهاراً جديداً ، وكل ازمة او كل هبوط ادى الى الافلاسات . هذا هو الانتقاء الطبيعي في نظر الاقتصاديين الاحرار : انما الغلبة للاذكياء والاقوياء في النهاية : فلا يمكن من ثم ان يتوالى تكاثر المشاريع الى ما لا نهاية له ، لان ذلك قد يضر بانتاجية الاعمال نفسها .

وينجم عن ذلك ان نظام التنافس يفضي ايضاً الى الحصر الذي يفضي بدوره الى الاحتكار ويميل طبعاً لالاشاة هذا النظام . ولكن التخصص ادى منذ البدء الى هذه النتيجة : ان القطاع المستثمر حديثاً عرضة لان يسيطر عليه عدد صغير جدا من المشاريع.

شوهد تأيد هذا الاتجاه الآخر منذ البداية في صناعة الحبال السلكية وصناعة النفط كلما جدت جدة في صناعة المعادن او الكيمياء . وكانت الصناعة المنجمية الالمانية احدث عهداً من الصناعتين البريطانية والفرنسية فتجمعت وانحصرت اكثر منهما. فلم يقل عدد الشركات الفحمية

عن ٧٠٠ في الارخبيل بينما نحن نرى في الرور ٤٥ لربع او خمس مؤسسات قد أشرفت على صناعة الفحم منذ السنة ١٨٨٠ . وهو الحصر الافقي ما يبرز في البداية . ولكن « كيرموف » و « ستنس » ثم « تيسن » ، انطلاقاً من الفحم الحجري ، و « كروب » ، انطلاقاً من صناعة المعادن ، قد اشرفوا منذئذ على اشكال اولية للحصر العمودي بايجادهم اسواقهم الخاصة للبيع ووسائلهم الخاصة للنقل . ومنذ تأسيسها في السنة ١٨٣٧ ، اتجهت « شركة الجبل القديم » طبعاً الى تنظيم صناعة الزنك تنظيماً يخدم مصلحتها . وبعد معاهدة التجارة المعقودة في السنة ١٨٦٠ ، جمعت « لجنة الحدادين » العدد الاكبر من ارباب صناعة الفولاذ الفرنسية . وبالاختصار اذا ما كان مناخ البلدان الحديثة العهد في الانتاج الكبير اكثر ملاءمة للحصر ، فان الحصر يبدو تلقائيا وكأنه تعبير دفاعي غريزي لاتقاء الاخطار يُتخذ اثناء الصراع الذي يقوم بين مؤسسات متفاوتة القوى .

تعاظم دور معرض المال واتسعت في الوقت نفسه المسافة بين المتعهد والمساهم . وربحت الشركة المساهمة على حساب المشروع الفردي او العائلي ، بحيث قامت صلات وثقى بين مؤسسات الفرع الواحد ومؤسسات الفروع المختلفة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان التجمع المصرفي كان شرطاً ونتيجة معاً لادارة رأس المال ، وقدرله بدوره التجمع الصناعي والتجاري . ولكن الاتفاقات قد نجحت على الرغم من ذلك من تنسيق جغرافي للنشاطات سهله تقصير المسافات وتوسيع الآفاق . وقد استهدفت بصورة طبيعية تحسين تنظيم العمل بتجمعات جديدة تتيح مطابقة العرض على الطلب مطابقة اكثر دقة . وهذا ما عبرت عنه مفردات خاصة : « موافقة حصرام الاخلاق » ، « الشراكات » ، اسواق البيع ، الجمعيات ، النقابات ، الاستثمارات ، التجمع الافقي والتجمع العمودي ، الانصهار ، الضم .

البرجوازية الرأسمالية الكبرى

« ان مستقبل فرنسا لا يختلج بعد اليوم في شارع سان - دنيس ، وساحة « غريف » ، الارض الكلاسيكية لاندلاع الثورة ، بل في شارع فيفيان وساحة « فندوم » ، عند « بيرير » وعندكم » . (من رسالة « جول فاليس » الى جول « ميريس » ، ١٨٥٧) .

يتوقف النجاح على الانسان الذي يقود الزورق ، ذلك « الانسان المكوني » ، الجريء والمتبصر ، القادر على التضحية بصحته وملذاته اليومية ، سعياً منه وراء القوة المادية والمال ، واقتناعاً بأن عليه ان يلعب دوراً مفيداً ، وبأن على المجتمع عدم مطالبته بالعظمة والثروة لانه يعمل للتقدم العام ويوزع المهام ويستطيع ان يظهر بمظهر نصير الانسانية . وقد اعرب له جوريس عن تقديره واحترامه : « ان في الانتاج البورجوازي وقوته وتجدده التقني المستمر ومسؤولياته المتجددة ابدا لدافعاً عظيماً لطاقات العمل عند من يشرفون عليه » .

تعايشت الفئات الرئيسية الثلاث تعايشا كاملاً : التاجر الذي تقلقه بصورة خاصة حاجات

السوق وامكاناتها (الرأسمالية التجارية) ، والصناعي الذي يستنزف نشاطه في الحقل الثاني (الرأسمالية الصناعية) ، والصيرفي الذي يجمع رؤوس الاموال ويستخدمها (الرأسمالية المالية).

وربما كان من العبث محاولة تمييز مرحلة اولى قد يمكن ان تكون مرحلة المؤسسين ، التي قد تليها مرحلة ثانية تعرف بمرحلة المقلدين . ولا شك في ان عباقرة الاجيال السابقة غالباً ما اصبحوا آباء لسلالات كبرى ، ولكن استثمار طريقة او فكرة او موقف قد يؤدي في كل آن الى بروز مؤسسين جدد . وغالبا ما انحدر حديثو العهد بالثروة من اصل وضيع : فاذا ما ذكرت اميركا « روكفلر » و « وفاندربلت » كابني فلاحين ، و « كرنجي » كابن حائك ، وهاريمان كابن راع معوز ، واذا كان « سلفردج » ، مؤسس المخازن الكبرى في شيكاغو ثم في لندن ، قد بدأ حياته خادماً في ميدان السباق ، فان هيربو و شوشار كانا بالعين عاديين قبل ان يؤسسا الـ «لوفر» و «جاندورف» و«تياتس» و «وورتهايم» مؤسسي المخازن البرلينية الكبرى ، قد كانوا من قبل اصحاب حوانيت صغرى ، شانهم في ذلك شان بوسيكو ! كما ان «باس» ، ملك صناعة الجعة الانكليزية ، كان حوذيا ، و«جوسنغ ماسون» الذي اسهمت ريشته المعدنية في اثراء برمنغهام قد كان بياعاً جوالاً في الطرقات والارياف .

بيد ان غيرهم قد تحلى بثقافة تقنية وحتى علمية : بسمر ، اميل راتنو ، سيمنس . وقد تردد معظمهم في امرهم قبل ان يهتدوا الى الطريق التي سيجدون فيها الشهرة والثروة . ودان بعضهم بالكثير للحروب والازمات التي اتاحت لهم تحقيق مضاربات جريئة . ولكن لكل الفروع «مغامريها الفاتحين» : فان براسي قد فرض نفسه متعهداً للخطوط الحديدية ، وجوزف طوم في البناء ، وموند في صناعة ملح القلي ، وكوهلمن وبيشيناي في صناعة الكلور ، و ريتز في العمل الفندقي ، وبولنك في المصنوعــات الصيدلية ، و كروسلي في صناعة طنافس هاليفاكس ، و وورث وغيلدرو و باكين في الخياطة ، و ماربنوني في الطباعة رغوردون بنت و ويليسان و ميلو و جان ديبوي في الصحافة ؛ وما زلنا نتذكر كبار بناني السفن من امثال كونار و اسماي و ويلرايت وبورن و الان و رود ولكن « هيوليت وورمس » هو من زود مرافيء التموين بالفحم الحجري ، وجدد « بوتين » طرائق تجارة الافاويه ، ولكن لويس دريفوس قد نظم تجارة الحبوب . واذا حافظ المصرف – المالي المفاخر بتقاليده على مركزه ، فانه قد اضطر لان يفسح مكاناً لـ « بيرير » ومفري جرمان وتشرنوسكي و لازار . وغني عن البيان ان المؤسسات الموطدة الاركان قد حافظت على مستواها او استمرت في سيرها الصاعد احيانا .

وما زالت كذلك في سيرها الصاعد اعمال عائلة روتشيلد التي لم تترك فرصة تفوتها دون استثمار اموالها ، واذا ما تقهقر مصرف بارينغ الشهير قديماً فان تقهقره لظاهرة استثنائية . وقد توالت اجيال عدة عند آل شنيدر و وندل و دميدوف وكروب في الصناعة المعدنية الثقيلة وآل بوجو وجابي وكوشلين في الصناعات الآلية ، وآل دولفوس وشلومبرجيه في خيوط الخياطة وآل ميكيلي – نوبلو في الصناعات القطنية المختلفة ، وآل سان في صناعة الانسجة الكتانية والحبال ،

وآل ماريلاي في صناعة الورق ، وآل فيلورين في التاج المجبوب ، وآل منسي وكولنيه وكولنكرو و برنو في صناعة المشروبات . ويلفت الانتباه كذلك ان توظيف الاموال في الاملاك الغير المنقولة ما زال مرغوباً فيه جداً : ففي نيويورك ، كمس استور ودجريحه رولت طاقة ببيع الاراضي للبناء ، في حال ان ارستوقراطية الاعمال في أوروبا قد ابتاعت القصور واعادت لذهب اشجرة الشرف القديمة.

تجنيد اليد العاملة للأجورة

ما كان هؤلاء العظماء ليستطيعوا شيئاً الا بتجنيد الجماهير المكرهة على بيع طاقتها العملية . وبفضل هجرة الارياف الواسعة تعبأ جيش للأجورين الذين هاجر بعضهم الى اميركا ودخلوا في خدمة مشاريعها . زد على ذلك ان المرتكز الى الكسب قد أبعد الوسط الزراعي عن الاعمال التي تستهدف مجرد سد الحاجات الاولية ، وان توسع المدن قد انمى نشاطات موافقة لتوسع الاسواق .

اذا كان نظام الاجور مرتبطاً بالنظام الرأسمالي ، فمرد ذلك الى ان هذا الاخير يعتبر قوة العمل سلعة تخضع لسنّة العرض والطلب . وانما يميل مذهب الحرية الاقتصادية الى تأمين العمل بهذه السنة . لا بل ان ماركس ، الذي عاش الصراع المتكرر ضد النظام التعاوني من جهة ، وضد الرق والفدادية من جهة اخرى ، قد استخلص من ذلك ان استثمار المأجور يفسر الكسب الرأسمالي . وقد استطاع توكفيل ان يكتب ما يلي : « ماذا نفعل حين نمنح الزنوج مؤقتاً من امتلاك الارض ؟ اننا نضعهم في موقف العامل الاوروبي». اما كورنو فقد شك في ان الغيرة على الاعتناء بخير البشر ستفلح في التوصل الى إلغاء الرق . بيد ان العبودية كانت تبدو منافية للاستثمار الموسع الذي يستجيب لمتطلبات الغرب . والدليل على ذلك ان المطالبة بالغاء الرق لم تجد سنداً اثبت من اوساط الاعمال ؛ فذن ستيفنس الصناعي المشهور من بنسيلفانيا ، و د جاي كوك ، الصيرفي ومؤسس شركة الباسيفيكي الشمالي هما من ادارا عملية تجديد البناء. وهذان الرجلان نفساهما هما من استصدرا قانوناً غايته اعمار الغرب بالمستعمرين الاحرار . ولذلك فان الاقتصاد الرأسمالي ، الذي توفرت لديه وسائل الانتاج ، قد استطاع دون غيره تجنيد الفلاح المبعد عن حقله والفدادي السابق والعبد السابق المجردين عن الاراضي .

حرية المقايضات

حدثت في منتصف القرن ثورة تجارية حقيقية . كانت الرأسمالية منطلقة مع نفسها ، فأرادت تحطيم العوائق القائمة في سبيل حركة انتقال البضائع انتقالاً حراً . فحدث تيار قوي يقول بحرية المقايضة في الفترة الممتدة من السنة ١٨٤٠ حتى السنة ١٨٧٠ ، وهي الفترة التي تحقق فيها ارتفاع سريع في حجم المعاملات ، وانتشار التسليف ونمو وسائل المواصلات . وهي بريطانيا العظمى ، المتمتعة بمركز صدارة لا ينازعها اياه منازع في حقول المال والتجارة والتقنية ، التي اعطت المثل بسلوكها هذه الطريق ؛ فمدرستها المنشسترية هي التي قامت بحملة ناشطة من اجل سوق عالمية موحدة ، مستندة في دعاوتها الى

الفوائد التي يجنيها السلم والتقدم – المرتبطان ارتباطاً وثيقاً على كل حال – من تضامن اشد قوة بين الشعوب والافراد على السواء بفضل تقسيم العمل تقسيماً مبنياً على العقل .

اجل كان محتوماً لمثل هذه الحركة أن تصطدم بالروح القومية . ولكن التجارة الحرة ، بشكل معاهدات تجارية تفرض تخفيضاً ملموساً على رسوم الاستيراد والتصدير ، قد وافقت الدول الصغرى – بلجيكا وهولندا – التي تعيش من تجارة مرور البضائع . لا بل ان اسبانيا وروسيا نفسيهما قد تخلتا عن موقفهما المتصلب المعاكس . ولكن فاتحة عهد الاتفاقات الناصة على المقايضة الحرة تعود في الواقع الى الانقلاب الجمركي الذي قام به نابوليون الثالث ضد جموع ارباب المهن المتمسكين بمذهب حماية الصناعة الوطنية .

ان هذه السياسة التي شجعت المقايضات بين الدول وكانت حافزاً لتجديد التقنيات ، قد كانت في الوقت نفسه بمثابة ناقوس نعي « الحصرية » المزعزعة قبلا . ثم خطت بريطانيا العظمى خطوة اخرى الى الامام ، فألغت الحقوق التفضيلية ، ومالت الى منح المستعمرات « الحكم الذاتي » ، فوافقت حيالها على معاملة الباب المفتوح . ثم زالت « الحصرية » الفرنسية بدورها بعد السنة ١٨١٨ . فزالت شركة الهند الانكليزية من الوجود بعد ثورة الجنود البلديين . وعلى غرار نظام الامتيازات الذي بموجبه منحت الامبراطورية العثمانية « الفرنجة » بعض الحصانات ، فتحت الدول الآسيوية ابوابها تحت ضغط الاوروبيين السلمي او المسلح . وفي الاتجاه نفسه – الميل الى الباب المفتوح – عدلت دولة الكونغو الحرة في السنة ١٨٨٥ عن فرض اي رسم على دخول البضائع الاجنبية . وحتى في السنة ١٩٠٦ مغزى وثيقة « الجزيرة » حول مراكش تستوحي فكرة المقايضة الحرة .

وعن طريق الاتفاقات الدولية سُوّي حياً عدد معين من المسائل التقنية والاقتصادية التي تهم مجموع الامم . فقد تأسست سبعة أجهزة دولية قبل السنة ١٨٥٧ – بما فيها لجنة الدانوب الاوروبية التي تأسست في معاهدة باريس في السنة ١٨٥٦ ؛ ورأت النور ١٢٨ لجنة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . فنجم عن ذلك قيام اتحادات دولية كان عددها ٧ في السنة ١٨٦٤ ، ثم اصبح ٢٣ في السنة ١٩١٤ . وكانت هذه الاتحادات في البدء اوروبية في الدرجة الاولى ، ثم شملت او استهدفت شمل كافة اقطار العالم . وقد عني معظمها بالمواصلات وانتقال البضائع . أما أول اتفاقية من هذا النوع فهي الاتحاد التلغرافي الذي تأسس في السنة ١٨٦٥ . وفي السنة ١٨٧٤ أبصر النور في برلين الاتحاد البريدي العالمي الذي سيعاد تنظيمه في اتفاقية روما في السنة ١٩٠٦ . وفي احد المؤتمرات اختيرت باريس مركزاً لاتحاد من اجل توحيد النظام المتري بين الدول ، وأقر في اتفاق آخر تنظيم الطرق البحرية . وعقدت مؤتمرات اخرى ، من اجل الكونغو في برلين (١٨٨٤ – ٨٥) ، ومن أجل تدويل قناة السويس في القسطنطينية (١٨٨٨) .

الحركة المالية الدائرية الفائضات

اذا كانت التجارة بين الدول تقدر بمليارين ونصف المليار حوالي السنة ١٨٠٠ ، فقد ارتفعت الى ٢٧ مليارا في السنة ١٨٥٠ والى ١٠٠ في السنة ١٩٠٠ . ويقدر الخبراء ان معدل التجارة في بريطانيا العظمى قد ارتفع خلال قرن من ١ الى ١٤ ، وفي فرنسا الى ١٥ ، وفي ألمانيا الى ٣٤ ، وفي الولايات المتحدة الى ١٤٩ . الا أن بريطانيا العظمى قد احتفظت بالمركز الاول باحتكارها سدس مجموع المعاملات التجارية العالمية .

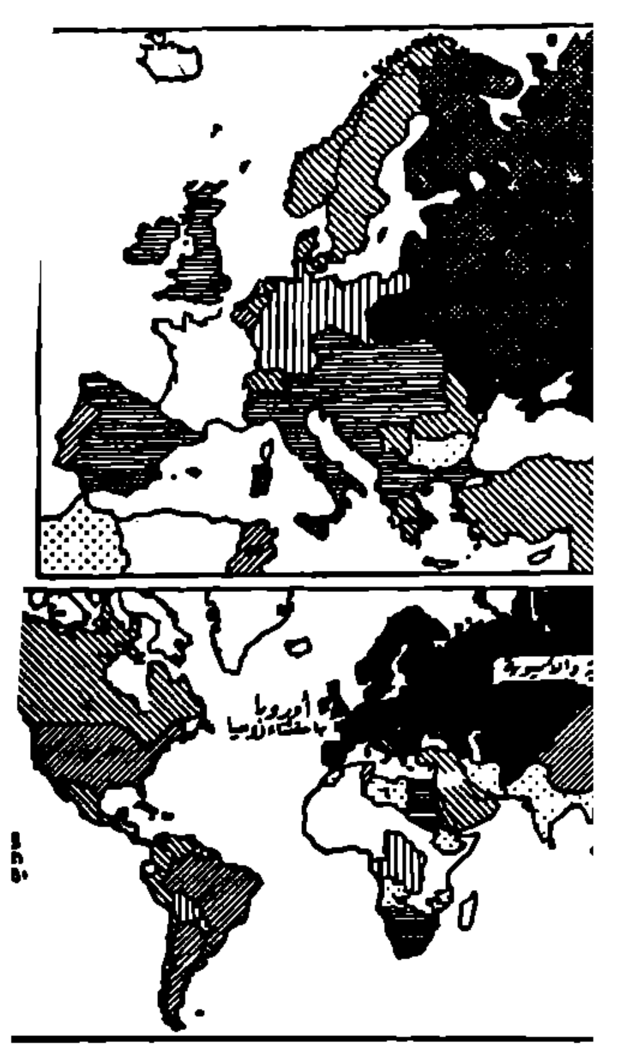
واشتدت المنافسة وتقسيم العمل الجامعين أساسيين . فكان هناك أولا نوع من التوزيع الافقي النشاط بين الدول المتطورة صناعيا ، وكان ذلك نتيجة عجز كل منها عن أن تكتفي تقسيما بنفسها : فان فرنسا وبريطانيا العظمى مثلا قد تبادلتا شراء الكثير من المصنوعات الرائجة. ثم حدث تقسيم عمودي للعمل : فمن جهة طلبت اوروبا من القارات الاخرى الخامات الزراعية والصناعية ، بغية تحويلها بنفسها ؛ ومن جهة ثانية زودت الدول الجديدة النامية بالمصنوعات . وقد سهل توظيف رؤوس الاموال هذه الحركة الدائرية ، لأن رؤوس الاموال تنشط استثمار المناطق المتخلفة وتزيد من قدرة سكانها على الشراء . وجملة القول ان العالم كان سائرا في طريق التحول الى مجموعة اقتصادية وحيدة عظيمة مرتبطة بالرأسمالية الاوروبية ، وانه جاز للبريطانيين الاعتقاد بأن موقفهم خير موقف لجني خير الثمار من مثل هذا النظام .

إعلام واسع وإعلان ناشط

ارتكز حسن سير التجارة العظمى الى معرفة السلع التجارية والحاجات. ولكن الجهاز القادر على تجميع كافة المعطيات لم يكن متوفرا . فقد انشئت دوائر استعلامات في لندن أولا ، ثم في نيويورك وباريس ؛ وتوفر لبرلين ٧٥٠ ٠٠٠ جذاذة في السنة ١٨٩٠ . وعقدت مؤتمرات الاحصاء الاولى وتناولت موضوع المعارض عندما سنحت الظروف . وابرزت صحف عديدة كالـ « اقتصادي » (ايكونومست) و « صحيفة الاقتصاديين » ، و « الاقتصادي الفرنسي » معلومات ومستندات وفيرة. وفي السنة ١٨٧٩ عقد في بروكسل مؤتمر للجغرافية التجارية .

كانت السوق الدورية ، من قبل ، ملتقى الشارين والباعة . ثم تلاشت اهميتها ولم يبق منها حوالى السنة ١٩٠٠ سوى سوق النماذج وسوق العرض . ومرد ذلك الى ان التفاوض في المعاملات التجارية اصبح يجري في المصافق أي في اجهزة دائمة تقرر فيها الصفقات نقداً ولآجال معينة في الدرجة الاولى . فعقد البيع المؤجل قد نظم المعاملات التجارية التي تتناول كميات كبرى من السلع بين اطراف تفصل بينهم مسافات كبرى . ولكن المضاربة قامت الى جانب وظيفة المصفق الطبيعية ، من حيث أن البائع يرجح تدني الاسعار لأنه يكسب عند التسليم ، بينما يحسب الشاري حساب مكاسب الارتفاع ؛ ومما يؤيد ذلك ان التفاوض غالباً ما تناول سلفاً وهمية وكان أشبه ما يكون بالمراهنة . فقد تناول التفاوض حصيد قمح او قطن مقبلا ومنسوجات او مصنوعات معدنية لم تخرج بعد من المصانع . ومنذ السنة ١٨٤٤ ، مست الحاجة في لندن الى

كية » بغية التخلي عن البناء القديم (« مقايضة المخزونات » ثم
رر مصير القطن في ليفربول والهافر وبريمن ونيويورك) ومص



شكل رقم ١٠ ـ الثروة الفرنسية في الخارج
مليارات ؛ ٢ ، بين مليار وخمسة مليارات ؛ ٣ ، بين ٥٠٠ مليون وملي
مليون ؛ ٥ ، بين ٥٠ مليونا و ١٠٠ مليون ؛ ٦ ، اقل من ٥٠ مليونا .
« نقلا عن التحقيق الذي اجري في السنة ١٩٠٢ »

الحبوب في انفرس ومرسيليا وشيكاغو . وكان من عدد العمل
ع قد تكاثرت : فلعصر المهم في « مارك لاين » على الحبوب ،

« منسغ لاين » على الشاي ، الخ . وفي ما مضى، اختلف سعر الحبوب بين منطقة انتاج واخرى: ولكن التجارة الكبرى توصلت شيئاً فشيئاً الى فرض الاسعار وفاقاً للحصيد والطلب العالميين . ومن ضفاف الـ « ميشيغن » الى ضفاف الـ « مرسي » ، ومن مونتريال وسيدني وبوينوس ايرس الى لندن اعطيت المعلومات يومياً ، بواسطة التلغراف ، حول اهمية المخزونات والمحاصيل المرتقبة وطلبات البضائع والاسعار المتداولة . وركزت مؤسسات الحرير اهتمامها على ظروف الصناعة ، التي غدت بمثابة تحكيم تقني حقيقي في موضوع النوعية .

وتعاظم دور الوكالات . فسارت « هافاس » قدماً في طريقها الصاعدة: وقد توصلت شبكة فروعها ، التي كانت على اتصال تلغرافي يومي بالوكالة الام، الى ضم الصحافة الفرنسية في الولايات. وغدت « رويتر » في لندن اكبر جهاز اخباري في العالم : فان الابن الثالث لحاخام «اسرائيل بير » قد امن الخدمة بين العاصمة الانكليزية والبر الاوروبي منذ السنة ١٨٥١ ؛ وفي السنة ١٨٥٩ فاز بموافقة صحيفة الـ « تايمس» على نشر البرقيات حول الحرب الايطالية؛ وخلال حرب الانفصال اعطى الاخبار بواسطة مركب بخاري يلاقي السفن الآتية من اميركا في عرض البحر ؛ وفي السنة ١٨٦٦ استحصل على امتياز حبل سلكي يصل لندن بالهند مباشرة.

كان « بارنوم » مثال المخترق المصري ، وربما عاد اليه فضل ترويج الفن الاعلاني :فبعد ان عرف « طوم بوس » الشهرة بواسطة الدعاوة ، دون آراءه حول فن جمع الثروة باستغلال فضول البشر وسرعة تصديقهم المفرطة (« خدائع العالم » ، ١٨٦٥). فلجأ الثلاثي « موريسوف » – « بار » – « هولواي » آنذاك الى الاعلان لتمجيد الاقراص الدوائية،وزاد « غوردن بنيت » من نسخ صحيفته « نيويورك هارولد » بفضل ادراجات يشتبه في مغزاها الاخلاقي . ودان اميركي آخر هو « سلفردج » للاعلان الصاخب بنجاح مخزنه في ساحة لندن . وقابل الدعاوة لصابون « بير » الدعاوة لصابون « سن لايت » ، واستخدم ليثون طرائق جديدة بـ « بارنوم » لتصريف شايه في الاسواق الانكليزية . وقد اشماز كثيرون من المصباح السحري الذي عكس على عمود ملون دعاوات السلعات او المواد الصيدلية . فدخل الاعلان نهائياً في الاعراف الصحفية التي اسهم في افسادها اسهاماً كبيراً، ولكنه لم يسد مسد المال المدفوع الذي كان يخدم ، بحجة الاعلام ، هذه الصفقة التجارية او تلك . فاستمر الاستيلاء على الرأي العام بواسطة المال .

وقد جندت الرغبة في هذا الاستيلاء كذلك البيانات والجداول الاعلانية التي وزعت في الطرق العامة او ارسلت الى المنازل . فلا عجب من ثم اذا ما علمنا بأن طوماس هولواي كرس نصف مليون دولار لتعريف الاميركيين باقراصه الدوائية في السنة ١٨٥٠ . لهل يجب ان نرفض شهادة الراعي الالماني الذي ذكر انه استلم ١٣٥٥٧ صفحة من المنشورات التجارية في السنة ١٨٩٩ ؟ ان من المسلم به ان الدعاوة في فرنسا حوالي السنة ١٩٠٠ قد كلفت زهاء ١٠٠ مليون خصص اربعون مليوناً منها للاعلانات في الصحف . ولكن الاعلان قد غزا المناظر الطبيعية . فبواسطة الاعلانات الملصقة على الجدران "فرض الاعلان فرضاً على البصر في شوارع

المدن والطرقات وقاعات الاجتماع والمسارح . فقد اعتبر الاعلان الملق اداة نظرية للدعاوة وقد ولد بولادة الطبع على الحجر ومكابس الطباعة الكبرى ، وبدافع الرغبة في مقابلة الانتاج الكبير بتوزيع كبير على مستواه . فكان الاعلان مزعجاً بلازمته للرائين ولكن أثره الجماعي كان عظيماً جداً .

دين اوروبا على العالم

كانت الرأسمالية الاوروبية في موقف السلف الجليل الفائدة . اجل ان هذا الموقف كان منطوياً على اخطار كثيرة ؛ ولكنه قد وفر لها دخولات كبرى وسمح لها في الوقت نفسه بتنشيط الحركة التجارية الدائرية . فكان من ثم عدد صغير جداً من البلدان بمثابة صيارفة للدول الاخرى لقاء دخل تقتطعه منها . وباستطاعتنا تقدير هذا الدين بـ ١٥٠ مليارا حوالي السنة ١٩٠٠ يعود اكثر من نصفها الى بريطانيا العظمى . وقد توزع قرابة ثلث الاوراق التجارية الفرنسية في الخارج . ويجدر لفت النظر هنا الى ان توظيف الاموال في المستعمرات لا يمثل سوى نسبة مئوية ضئيلة جداً .

كان التعويض الفرنسي لألمانيا مفيداً لمشاريع الحكومة الالمانية في الدرجة الاولى ؛ ولكن حصة التوفير الجرماني ، بعد أزمة السنة ١٨٧٣ ، ولا سيا بعد السنة ١٨٨٠ ، قد سلكت بالتفضيل طريق الخارج (وقد لشكى بسمارك نفسه من ذلك لدى مصرف « بلايخرودر ») : فقد اتجهت اما بشطر الولايات المتحدة او اميركا اللاتينية ، واما شطر اوروبا الوسطى المجاورة . واذا بدأت الولايات المتحدة تصدر الرساميل الى اميركا اللاتينية ، فان المال الاوروبي ما زال يستثمر فيها . ولما كان المكتتب البريطاني منتسباً على العموم الى الطبقات الاجتماعية الميسورة ، وواقفاً على وضع السوق التجارية ، فقد ساند ، في اوروبا وسواها ، معظم المشاريع التي تتطلب مصنوعات بريطانية . فهو قد فكر ، قبل السنة ١٨٥٠ ، بالبر الاوروبي القريب خصوصاً ، مع اهتمامه منذ ذلك الحين بأميركا . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، توسع افقه واهتم اكثر فأكثر بالبلدان النامية وبمستعمراته .

ما زالت بعض رؤوس الاموال المتوفرة توظف في اتجاه اوروبا . وقد سارت في اتجاهين منفصلين هما الشرق والجنوب اللذان كانا اعجز من ان يجهزا بالادوات بوسائلها الخاصة . ففي الشرق اصبحت الامبراطورية الروسية ، منذ السنة ١٨٨٠ ، المستعمرة الاوروبية الرئيسية للرأسماليين الفرنسيين .

ان الشرق لميدان عمل واسع : مشاريع خطوط حديدية ومرافىء ومناجم ، وقروض للحكومات الفقيرة ، وعمليات اخرى كثيرة ، مغرية ومحفوفة بالاخطار معاً ، قد تنجم عنها ملابسات سياسية شتى . وكان هنالك ميدان مفضل آخر للسلفين : اميركا اللاتينية حيث احرزت سوق لندن تقدماً ما زالت تحافظ عليه . اما الشرق الاقصى فقد كان له سحره القوي على الرغم من بروزه متأخراً ؛ وهنا ايضاً كانت السيادة للندن .

وحبذا لو نستطيع تقدير النفوذ الذي توصلت اليه المؤسسات التجارية الكبرى في البلدان التي عملت فيها : فانها كانت دولاً حقيقية داخل بعض الدول .

الازمات الرأسمالية

لم يكن ارتقاء الرأسمالية منتظماً . وقد سبق ا د سيسموندي » ان تنبأ بحتمية الازمات الدورية التي تلازم نظاماً يحكم على نفسه بالاكثار من الانتاج احياناً بفعل اقتطاعه الارباح من اجور اليد العاملة . لا بل برهن ماركس وانجلز لان الرأسمالية منتهية حتماً الى الاضمحلال بفعل مناقضاتها . وقد مثل «جوغلار» الازمات بمراحل الانتقال من عهود الازدهار الى عهود التقهقر التي شبهها « باريتو » و « والراس » « التيار » كورلو » » بالحركات التذبذبية . وقد عزاها « جيفونس » الذاك لاسباب كونية .

بدت الظاهرة وكأنها حركة دورية ، يتألف الدور فيها من مرحلة مؤاتية ومرحلة غير مؤاتية ويستغرق عشر سنوات تقريباً . وهذا ما حدث منذ السنة ١٨١٥ ! وهذا ما سيحدث بعد السنة ١٨٥٠ ، اذ تعاقبت الازمات الهامة في السنوات ١٨٥٧، و١٨٦٦، و١٨٧٣ ، و ١٨٨٢ – ٨٤ ، و ١٨٩٠ ، و ١٩٠٠ – ٠١ ، و ١٩٠٧ . ولكن بينما كانت الازمة ، في السنة ١٨٤٧ ، ازمة نظام قديم او ازمة من الطراز السابق للرأسمالية، التي تبرز في القطاع الزراعي اولا والتي يصعون عاملها الرئيسي افتقاراً الى المواد الغذائية ، نرى على نقيض ذلك ، في السنة ١٨٥٧ ،ان الجهاز الرأسمالي نفسه هو ما تحل به الازمة قبل غيره ، في اهم مركز من مراكزه ، اي في لندن . وكان سير الازمة منذئذ وفاقاً للترتيب التالي : المؤسسات المالية اولا ، ثم الصناعة والتجارة ، واخيرا الارياف . وقد بدا ان الازمة تنشأ ابدا من افراط في المضاربة يتسبب في انهيار مصرفي جزئي .

فهل كانت الازمات ازمات نمو ، مفيدة بعض الشيء ، وعاجزة على كل حال عن ايقاف النظام الرأسمالي في سيره ؟ ام ازمات مشؤومة وسيئة العاقبة لا تترك طبيعتها المزمنة اي شك حول نهاية الرأسمالية ، باعتبار ان فترات الانطلاقة ليست سوى هنيهات سريعة الزوال ؟ ومها يكن من الامر فقد اتفق الاحرار والاشتراكيون على ملاحظة انخفاض معدل الفائدة وحاجة السوق الملحة الدائمة الى التوسع : وهو تطور يرافق التقدم الاقتصادي في نظر الاولين ، ويؤدي الى اشد التسلطات خطراً على مستقبل البشرية في نظر الآخرين .

التقلبات الطويلة الامد
السنوات الجيدة ١٨٥٠ - ١٨٧٣

بعد هزات السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦ ، استؤنف العمل استئنافاً بناء ولكن الاسعار تدنت تدنياً حقيقياً بمدازمة السنة ١٨٧٣،ولم ترتفع نسبة الفائدة بعد انخفاضها ،واستمر الهبوط في الاوراق النقدية والهبوط في الارباح بصورة عامة . فقارن المعاصرون عصرهم بالعصر الذي سبقه وتساءلوا عن معنى انقلاب على مثل هذا الوضوح والتمادي في الاتجاه . فعاودت سكان الارياف ، الذين عانوا من هذا الهبوط اكثر من غيرهم ، ذكرى « السنوات الجيدة » : التي

سببت الحرب الاهلية بالنسبة للمزارعين وأصحاب المزارع في اميركا . وعلى الرغم من استقرار السلم في اوروبا ، فقد بدا لعالم الاعمال ان الاعمال كانت اكثر سهولة قبـل السنة ١٨٧٠ ؛ ولم يحكن القلق الذي أثاره السباق الى التسلح ليفسر الجمود السائد .

فاذا ما درسنا الاسعار ، استطعنا الخلوص الى وجود مرحلة استئناف عمل تعقب مرحلة الهبوط التي عرفها الربع الاول من القرن ، وتبتدىء بعد ازمة السنة ١٨٤٧ – ١٨٤٨ ، لا بل قبل ذلك في انكلترا . ويظهر الخط البياني المنحني انخفاضاً يكاد يكون مستمراً ، ثم ارتفاعاً قوياً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٥٦ يليه تقلبات بقيت اسعار البضائع معها اعلى منها في المرحلة السابقة[1]. واذا اتخذنا المعدل ١٠٠ اساساً السنة ١٨٥٠ في فرنسا ، كان معدل مجموع الارباح ٣٥٨ ، ومعدل الارباح الصناعية ٣٥٦ ، ومعدل الاجور ١٧٥ ، وكلفة المعيشة ١٢٣ ، في السنة ١٨٧٠ . ولكن الحركة كانت مماثلة في كافة البلدان الغربية .

لوحظت آنذاك حركة تجارية نشطة ، فسالت مياه نهر الحرية الاقتصادية غزيرة ؛ وبدا نمو الاسواق السلمي امراً ممكناً بسبب توفر وسائل الاقراء دون اثارة الاطماع . وانطوت الاساليب الاستعمارية نفسها على مزيد من الرفق والتلطف . فعرف هـذا العهد بالعهد التشاؤمي . وعلى الرغم من الازمات العابرة والحروب ، التي ربما اسهمت في نمو الانتاج والاستهلاك على كل حال ، فان المناخ العام ، الذي كان مشجعاً ، قد حل محل التفاؤل .

هبوط السنوات ١٨٧٣ - ١٨٩٠ ونهاية المرحلة ١٨١٥ - ١٨٩٠

انحنى الرسم البياني للاسعار مرة اخرى بعد السنة ١٨٧٣ . فتكاثرت الدلائل المكدّرة : مزيد من المنافسة حول سوق يبدو نشاطها مصاباً بالضعف والارتخاء؛ تدن جلي في الطلب بالنسبة للعرض ؛ هبوط نسبة المكاسب ؛ وجدير بالانتباه ان هذه الوقائع الثلاثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً . وأبطأت في الوقت نفسه حركة الدخل الحقيقي الشخص الواحد التي لوحظت منذ السنة ١٨٥٠ . ولكن سلماً دائماً ، وان مسلحاً ، قد عقب الحروب القومية الاوروبية . فبدا العرض متفوقاً على الطلب بفضل النجاحات التقنية ؛ لا سيما وأن القيمة الشرائية لم ترتفع ارتفاعاً كافياً بسبب استثمار اليد العاملة استثماراً مفرطاً . وأدى بروز البلدان الحديثة الى اشتداد المنافسة ، فتضرر منتج الارياف بصورة خاصة بسبب افتقاره الى الادوات المتقنة : فأدى انخفاض المحاصيل الريفية الى انخفاض شامل سريع الخطى . وصمدت الاجور في البدء صموداً دونه صمودها خلال الفترة المقابلة التي دامت من السنة ١٨١٥ حتى السنة ١٨٤٨ : ولم ترتفع الاجور الاسمية ارتفاعاً مطرداً فحسب ، بل لوحظ ارتفاع الاجور الحقيقية ايضـاً . الا ان الازمات الدورية كانت ثقيلة على العامل ورب العمل على السواء . فكان على المشروع ان يبذل جهداً توفيقياً كبيراً ،

---

(١) راجع الرسوم البيانية في الصفحات ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ .

بالسعي وراء انتاجية متزايدة ، واعادة التنظيم لجهة التجميع ، وتوسيع العمل. واشتدت حدة الصراع من اجل التصريف في الوقت نفسه الذي اشتدت فيه حدة المعركة الاجتماعية . ولكن التغييرات المدخلة على الادوات ووسائل العمل انقذت مؤسسات كثيرة : فان معمل « هولنز » للغزل ، في احدى ضواحي « نوتنغهام » ، الذي هبطت ربائحه من ٣٦ الى ٩٪ ، قد تحول الى نسج صنف اسكتلندي جديد واستغنى عن الوسطاء بتعامله مباشرة مع الباعة بالتفصيل ؛ كما ان معمل « فورتن » للغزل في « غنت » قد جُهّز بأنوال جديدة واستبدل آلات التحضير بحلالات آلية .

يتضح من ثم ان الهبوط الكبير قد استعجل التقدم التقني ودفع بالرأسمالية الغربية الى الضغط بمزيد من القوة على مناطق العالم الاخرى .

يجب لفت الانتباه ، بالاضافة الى ذلك ، الى ان ارتفاع الاسعار ونسبة الفائدة في السنوات ١٨٥٠ — ٧٣ كان سريع الزوال . اوليس الانخفاض الذي ابتدأ منذ السنة ١٨١٧ هو ما استعاد حقوقه بعد السنة ١٨٧٣ ؟ لذلك فان الواجب يقضي بادخال مفهوم موجات تكاد تتجدد قرناً بعد قرن ، هي اعظم تمادياً من التقلبات الطويلة الامد . فيكون امامنا موجة جديدة تمتد من السنة ١٨١٧ حتى السنة ١٨٩٥ وتشمل ٨١ سنة تقريبا ، وتذكرنا بالموجة التي امتدت من السنة ١٧٣٣ حتى السنة ١٨١٧ ، وتميزت بارتفاع تطاول عهده جداً ، وبموجة اخرى ابعد عهداً امتدت من السنة ١٦١٠ حتى السنة ١٧٣٢ وتميزت بالانخفاض عموما . وربما بلغت الرأسمالية الحرة ذروتها اثناء هذه الموجة تقريبا ، مستفيدة من النجاحات التقنية وتوسع الاسواق التجارية . وجملة القول ان كل ما حدث قد حدث وكأن النظام الاقتصادي ، بعد ان استفاد من تدني الاجور اولا ، ثم من تبدل الاجور بالنسبة للاسعار والمكسب خلال الارتفاع العابر ، قد وجد نفسه في موقف دقيق حين تدنت الاسعار والمكاسب مرة اخرى وصمدت الاجور في وجه الاتجاه نفسه . وفي سبيل التغلب على المحنة ، ربما رضي بتغييرات تتناول منه التركيب ، واستنجد بالعبقرية الصناعية ، وسلك طريق السلطية متحمسا ، ولجأ عند الحاجة الى الطرائق التي قد توحي بها اليه القومية .

القومية الاقتصادية تستعيد مكاسبها : العودة الى مبدأ الحماية

ان الهبوط الذي طال عهده من السنة ١٨٧٣ حتى السنة ١٨٩٥ قد كال الضربات القاسية للمقايضة الحرة . وعبثاً حاول القائلون بهذه السياسة تقديم الادلة على ان الانانيات القومية مسؤولة عن القلق السائد ، لأن توزيع العمل بين الدول ما زال ناقصا . اما الخصوم فقد نسبوا لها هبوط الاسعار والمكاسب . وكان الحدث الهام في هذا المجال تحول العناصر الزراعية الى مبدأ حماية الانتاج الوطني ؛ فجاءت آفة الكرم نفسها ، التي قضت على آمال الكرامين في فرنسا تدعم هذا المبدأ مثلا . فتحول كافة المستائين بأنظارهم نحو الدولة وطالبوا بمساعدة

موظفي جماركها . اما الحكام فقد استجابوا لنداءات هؤلاء المتضخبين دون صعوبة لأن الرسوم ستساعدهم على دفع نفقات الخدمات العامة والتسلح . يضاف الى ذلك ان الاوروبيين استطاعوا بذلك اتهام الولايات المتحدة التي استفادت من الرسوم الثقيلة لتصدير محاصيلها ومصنوعاتها ورفضت تسهيل بيع سلع العالم القديم . ولكن العصيان قام في وجه بلاد المدرسة المتشائمة : فمشت المانيا البسماركية على رأس المتمردين ، وانتصر مبدأ الحماية بسرعة نسبية حتى في بلجيكا ، ولم يرفضه سوى هولندا وبريطانيا العظمى . وبينما كانت الحروب الجمركية قائمة بين فرنسا وايطاليا ، وبين المانيا من جهة وروسيا واسبانيا من جهة اخرى ، وبينما كانت الولايات المتحدة تعزز تكراراً اجهزة الحماية ، قام حلف « التجارة السمحاء » يحاول اقصاء « التجارة الحرة » عن وطنها الام .

وهكذا احتمت الرأسمالية الغربية في مواقع مذهب الحماية الدفاعية ، فأطلقت الحرية القومية وتميزت بمزيد من التسلطية . انه لمصير محتوم ، سينتهي اليه البريطانيون انفسهم حتى ولو رفضوا التنكر للكوبدنية التي تتصل ذكراها ، بالنسبة لهم ، بذكرى عظيمة اخاذة .

فيتضح من ثم بعد البحث والتدقيق ان النظام الاقتصادي السائد في اوروبا واميركا الشمالية سينتهي حتما بالاولى ، وبالثانية من بعدها ، الى التوسع بفعل الظروف والاتجاه الطبيعي .

الفصل التاسع

الأستعمار الاوروبي
ونشأة السياسات التوسعية الكبرى

« المستعمرات احدى ضرورات الحياة العصرية ... »
(فرنشسكو كريسبي ، في ٢ آيار ١٨٨٨)

« ان المقياس الوحيد الواجب اعتماده في كل مشروع استعماري هو درجة فائدته ومجموع العائدات والمكاسب التي يجب ان يدرها للوطن الام » .
(« اوجين اتيان » ، مقال في « الطان » ، ١٨٩٧)

الافاق الظروف القومية في اوروبا والاستعمار في منتصف القرن

بعد القضاء على سيطرة الاسبانيين والبرتغاليين البرية في اميركا، لم يبق في منتصف القرن سوى امبراطورية واحدة عالمية حقا، هي الامبراطورية البريطانية ؛ فمعظم الممتلكات الهولندية كانت مجموعة في جنوبي شرقي آسيا ، ولم تستطع فرنسا حتى ذاك التاريخ سوى التمكن هنا وهناك في بعض النقاط الدائرية من افريقيا واوقيانيا والهند الصينية . والحال توفق الاوروبيون خلال سنوات قليلة ، في النصف الثاني من القرن ، الى الاستيلاء على الشطر الاكبر من افريقيا (١١٪ فقط في السنة ١٨٧٥ ، و٩٠٪ في السنة ١٩٠٢)، ومجموع الاراضي الاوقيانية تقريبا (٩٨٪ مقابل ٥٦٪) ، بينما تكونت نهائيا حدود الولايات المتحدة الواسعة في اميركا الشمالية . واذا ما استثنينا المغرب وليبيا ، فان المستعمرات الاوروبية قد تحددت آنذاك بما يقارب ثلاثة اخماس اليابسة واكثر من نصف سكان الكرة الارضية، بصرف النظر عن اوروبا.

لم تشكل المنازعات القومية حجر عثرة في سبيل هذا التوسع . واذا كانت الحروب الكبرى التي نشبت بين السنة ١٧٩٢ والسنة ١٨١٥ قد اعاقت مؤقتا الجهود الاستعماري الفرنسي

والهولندي ، فانها قد أدت من جهة ثانية الى توطيد الوجود البريطاني خارج اوروبا ؛ ويجب انتظار السنة ١٩١٤ حتى نرى دولة تفقد مستعمراتها حين ينقطع اتصالها بها . لا بل ان النصر الالماني في السنة ١٨٧٠ وقيام المملكة الايطالية قد استجلا في الواقع ظهور تيار استعماري قوي . فمن جهة الفتت اتجاهات روما الى تحويل البحر الابيض المتوسط الى حلبة منازعات ؛ ومن جهة ثانية اسهمت السياسة الاميركية في تحريك وغالب الدول الاستعمارية التقليديـــة ، ودفع فرنسا الى الانقضاض على افريقيا ، وروسيا على آسيا ، ووقوف فرنسا وروسيا معاً ضد بريطانيا العظمى التي ما كانت لتقف موقف اللامبالاة من اقتسامات جديدة . ولعبت المصادفة نفسها دوراً هاما في ارشاد منافس جديد ، هو ليوبولد ملك بلجيكا ، الذي استغلها بمهارة ، الى طرق القارة السوداء . وبعد ان قطع توزيع الانصبة شوطا بعيداً ، اعلنت المانيا، ربما بعد فوات الاوان ، عن عدم رضاها واستهلت سياسة استعمارية رهيبة .

استمرار مذهب المناهضة للاستعمار

بيد ان التوسع الاستعماري قد صادف خصوما يناهضونه . نصادفهم في الدرجة الاولى بين اولئك الذين تخوفـــوا من توزع القوى الوطنية . ألم يبد نابوليون الثالث هذه الملاحظة في السنة ١٨٤١ : « نحن نفقد الجزائر بحرب لا هدف لها ... ان هذه الممتلكات النائية ، الباهظة الاكلاف في ايام السلم والمسببة المصائب في ايام الحرب ، تشكل سببا من أسباب الاضعاف » ؟ وقد قاوم حملة المكسيك شطر هام من الاعيان المحافظين والمعارضة الجمهورية : وقد لاحظ المدّعون العامون آنذاك ان الرأي العام يعتبرها « باهظة النفقات ، ... ولا نتيجة لها » . واتفقت احزاب اليمين والراديكاليون في عهد الجمهورية الثالثة على طلب منع ارسال الجيوش الى خارج اوروبا : فلقد صاح كليمنصو في السنة ١٨٨٢ قائلا : « يجب الا نحاول ارتداء عنف اسم الحضارة الخداع » . وفي السنة نفسها اعلن بسمارك في « الرايخستاغ » : « لن ننتهج سياسة استعمارية ما دمت مستشاراً » . وقـــد امتنع سواد البلجيكيين عن مساندة ما انتواه الملك ليوبولد .

وغالبا ما استند الى الاعتبارات العاطفية والانسانية ، ووقفت الاشتراكية موقفا معاديا بيّنا من السياسة الاستعمارية لانها نظرت اليها نظرتها الى احدى طرائق الرأسمالية التسلطية . ولكن يجب لفت الانتباه الى ان النفور قد تجلى زمنا طويلا في صفوف الرأسمـــاليين الاحرار بصورة خاصة . فقد اكد « ايف غويو » في السنة ١٨٨٥ : « اذا ما رغبنا في ان نمثل تمثيلا رمزيا ما كلفه من ضحايا الـ ... ٢٥٠ مهاجر مستعمر الذين استوطنوا الجزائر ، لتبين لنا ان كلا منهم يجلس على اربع جثث ويحرسه جنديان » . ولا يخلو من مغزى ذاك الاتجاه القوي الذي ارتسم في بريطانيا العظمى بين السنة ١٨٤٠ والسنة ١٨٦٠ واستهدف شمل المستعمرات بـ « الحكم الذاتي » والتوقف عن كل فتح جديد . وقـــد كتب « دسرايلي » نفسه الى « ملمـــوري » في السنة ١٨٥٢ : « كل هذه المستعمرات اللعينة ستصبح مستقلة بعد سنوات ، وهي بمثابة رحـــا

مطلق بمنفعتنا » . وقد سلّم « روجرز » ، امين سر الدولة لشؤون المستعمرات ، بأن « مصيرها الاستقلال » . وفي السنة ١٨٦٣ صدر كتاب « غولدوين سميث » المشهور، «الامبراطورية» الذي اقترح فيه المؤلف انفصالاً حبياً بين بريطانيا العظمى وبعض البلدان ككندا واوستراليا . وفي كتابه ، « المستعمرات » ، اعلن الرحالة الالماني العالم بأصول الشعوب ، « ادولف باستيان » ، عداءه الصريح للفتح الاستعماري . أضف الى ذلك الانطباع القوي الذي تركته قصة « ماكس جافلار » (« ادوارد دوز – دكرز » الذي بسط ، باسم « مولتاتولي » المستعار ، تجاوزات طريقة « فان – دن – بوش » الاستعمارية في الهند النيرلندية . اما السياسة السلبية ، والمتحفظة على كل حال ، التي سيعتمدها « غلادستون » المتشائم ، فلها ما يبررها على ضوء نظرية تجارية عززت موقفها المعادي للسلطة الاستعمارية نجاحات « الازمنة الجيدة » : فان استثمار الثروات العالمية لا يبرر البتة تملك هذه الارض او تلك بموجب مبدأ قومي وحتى تحضيري ، ولكنه يستلزم منافسة حرة باعتماد سياسة الباب المفتوح . ولذلك كان كافياً ان يحمي « بلمرستون » حرية البحار التي بفضلها تأمنت ثروة بريطانيا العظمى وكافة الشعوب المتطورة .

ديمومة التقليد الاستعماري والخطوط الاولى لمذهب تسلطي

ابدى « كوبدن » هذه الملاحظة التي لا تخلو من الغم : « تتمسك الطبقة الوسطى بالمذهب الاستعماري تمسك الارستوقراطية نفسها به ، وليس العمال اكثر المية من هذه وتلك » . اما الجاز فقد أسف على ان العمال « يتمتعون بكل طمأنينة مع الراديكاليين المحافظين والاحرار باحتكار انكلترا الاستعماري وباحتكارها السوق العالمية » . فقد ساد الرأي من ثم ان التخلي عن المستعمرات هو فاتحة الانحطاط .

اهتمت الحملات العسكرية في النصف الاول من القرن بتنمية فرق الاختصاصيين المؤهلين للحرب والادارة في المناطق الحارة ، فأعد هذا الاعداد الجنود والموظفون المرسلون الى الهند والجزائر الذين استفيد بعد ذلك من خبرتهم في مناطق آسيوية وافريقية اخرى . وقد تجددت تقاليد قديمة في كثير من العائلات الفخورة بالانتساب الى « رسالة الجندية » او « الخدمة » . وامنت الامبراطورية الثانية استمرار الجهود الذي ما زالت انكلترا تبذله اقله لتوطيد مراكزها . وقد جاهر بلمرستون بما يلي : « لا تتخلوا ابداً عن رأس دبوس يحق لكم الاحتفاظ به وتعتقدون ان باستطاعتكم الاحتفاظ به » .

ربما مت ذلك بصلة الى المفهوم التمدني للصليبية المسيحية ، السلمية او المسلحة . وكان هذا المفهوم قد استعاد قوته بفضل الحماس الذي اثاره تيار القوميات . فبينما ما زالت بعض الشعوب منشغلة بهاجس وحدتها ، تولت شعوب أخرى رسالة اوسع آفاقاً . ألم يقدم كيريافسكي على الشعوب الاخرى ، حوالي السنة ١٨٣٠ ، « الشعبين الفتيين الطريين العود » ، اي الشعب الروسي والشعب الاميركي ؟ اضف الى ذلك ان صدى السلافية الرومنطيقية الشاملة قد تردد في مؤلفات

« كاتكوف » و « أكساكوف » بفكرة الدور المجيد الذي تدخره العناية الالهية لروسيا الارثوذكسية ، وان دوستويفسكي ارتأى ان « كل شعب قوي يؤمن ويجب ان يؤمن » اذا أراد لنفسه حياة طويلة ، بأن خلاص العالم متوقف عليه وعليه وحده » . وقبل ان تستقل الداروينية ونشر « غوبينو » كتابه « محاولة في اختلاف الاجناس البشرية » ، جزم « اغاسيز » و « كارفاج » بتفوق الجنس الابيض ، وتكلم « كوربه دي ليل » عن « الاجناس المتفوقة بالطبيعة » ، وكتب « كارليل » الذي امتدح الحكام ، ما يلي : « ان جزيرتنا الصغيرة باتت ضيقة بسكانها ، ولكن اتساع العالم يكفي لستة آلاف سنة » . وفي أسلوبه الديني ، عظّم « شارلز كنغسلي » ، العزيمة الجماعية ، بينا تغنى « تينسون » بالبطولة في خدمة السياسة البلمرستونية . وحين نشر « شارلز ديلك » كتابه « بريطانيا العظمى » افتتن قراؤه ، قبل أي شيء آخر ، بالنشيد المخصص لعظمة ما وراء الاوقيانوسات فبات ممكناً ان يأتي دسرايلي ويحل الحزب التوري من العربة المتشاركة ويمين له مهام اعظم نبلا ويحمل من فكتوريا امبراطورة الهند . وعلى الرغم من أن غلادستون ، الذي جاء بعده ، قد اصدر اوامره بالجلاء عن أفغانستان والترانسفال ، فان الحملة التوسعية قد عرفت منذئذ نشاطاً مطرداً : فان « سيلي » ، تلميذ « داروين » ، قد عرض في كتابه « توسع انكلترا » ارتقاء مهيأ منذ اليزابيت ؛ كما ان « فرود » ، تلميذ كنغسلي ومنفذ وصية « كارليل » ، قد طاف في الماضي والعالم البريطانيين ، فرأت الذور « عصبة فكتوريا » و « عصبة الامبراطورية » و « عصبة الامبراطورية البريطانية » ، وارتسم في الافق مثال جديد للسياسة الخارجية . وجرى تحول ذو مغزى الى فكرة امبراطورية سيدة مسيطرة تكفي نفسها بنفسها ، هو تحول « جوزف تشمبرلن » ، تاجر البراغي ، الغلادستوني والمتشتري .

حملت الوطنية والرأسمالية معاً – وهذه الاخيرة ، تحت ظل التأخر الاقتصادي – في اتجاه التوسع الاستعماري . فان « ديبون – هوايت » كان بمثابة ممهد الطريق حين عين للدولة مهمة « اغناء البشر باضافة المستعمرات والاسواق النائية والاسواق الجديدة الى وسائل انتاجهم او مقايضاتهم » . ولكن « ليست » و « روشيه » كانا قد عارضا كذلك المدرسة السميثية ، فأخذ الناس يصغون اليهم في المانيا حيث افلحت الجمعيات الاستعمارية ، يساندها مجهزو السفن والصناعيون ، في ارغام بسمارك على « كلونيا » جديدة ، بانتظار « السحر الجديد » الغليومي . فأعاد « بول لروا – بوليو » حينذاك طبع كتابه « الاستعمار عند الشعوب المعاصرة » وفاز بحمل القائلين بمنصب الاحرار على اعتناق هذا المبدأ : « ان الشعب الذي يستعمر هو شعب يبني ركائز عظمته في المستقبل » . وقد برر « فرّي » مبادهاته بربطه بين العظمة والمصلحة : فمن جهة « تأسيس المستعمرة يعني ايجاد سوق » ، ومن جهة ثانية « للأجناس المتفوقة حقوقها حيال الاجناس الدنيا » . وهو سيوجز برنامج الرأسمالية الاستعمارية بعد ذلك في جملة واحدة : « السياسة الاستعمارية وليدة السياسة الصناعية » .

الخطاط الشركات الممتازة القديمة

بعد انهيار النظام التجاري القديم ، عرف الديمومة بعد السنة ١٨١٥ عدد معين من المشاريع الكبرى المبنية على الاحتكار . اجل لم تجدد الملكية ، ولا نابوليون ، شركة الهند الفرنسية ، ولم تزدهر ايـة مؤسسة من مؤسسات هذا العهد باستثناء الشركة الهولندية الجديدة التي تعاطت حتى السنة ١٨٧٥ تجارة رابحة في « انسولند » والشرق الاقصى . وحين تجديد عقدها لم تفقد شركة الهند الانكليزية امتياز التجارة مع الصين فحسب ، بل رأت امتيازها في الهند ، المحدد بعشرين سنة ، يرتدي طابع مجرد مستودع للتاج . ثم حُدّ بعد ذلك من صلاحياتها ، وما لبثت المؤسسة الحكومية ان انهارت بعد ثورة الجنود البلديين في السنة ١٨٥٧ .

كان في نية معظم الشركات القديمة الممتازة استثمار المناطق الحارة . والحال كان عـدد منها قد عرف الديمومة في الشمال الاميركي الغني بالفراء . لا بل ان الشركة الروسية الاميركية وشركة الشمال الغربي وشركة خليج « هودسون » قد تنازعت بشراسة المناطق المخصصة للقنص والممتدة من آلاسكا الى الاوريغون واللابرادور . واتحدت الشركتان الاخيرتان بغية التمكن من مقاومة الشركة الاولى التي كانت تزود سوق بطرسبورغ وتمارس في الوقت نفسه في آلاسكا احتكاراً وضع حداً له ضم هذه البلاد الى الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ . وبعد ان قامت شركة خليج هودسون بعمل ناجح باهر ، اضطرت بدورها الى الانحناء امام الاستعمار الحر الذي غزا الاوريغون ؛ ثم تأسست كولومبيا البريطانية ؛ وحين ابتاعت كندا منها ، في السنة ١٨٦٩ منطقة « روبرت » (مانيتوبا) ، الغنية بالاحراج ، تولت استثماره بوسائل جديدة . ولكنها ما كانت آنذاك سوى شركة رأسمالية ، شأنها شأن غيرها .

الشركات التعاقدية الجديدة

كانت الفترة ١٨٥٠ – ١٨٧٠ ، وهي فترة المقايضة الحرة ، اقل الفترات موافقة للامتياز . ولكن حين احرز مذهب حماية البضائع الوطنية بعض التقدم ، بدت المشاريع الحاظية بالعطف والتشجيع ، التي تمهد الطريق للاستثمار الاستعماري ، مغرية للرأسمالية التوسعية .

مارست اهم الشركات اعمالها في ظل الوصاية البريطانية او الالمانية . وقد اهتمت كلها تقريبا بالقارة الافريقية حيث رأت امامها مثل الجمعية الدولية التي اسسها الملك ليوبولد بغية استثمار الحوض الكونغولي . وهكذا تولجهت في هضاب افريقيا الشرقية « الشركة البريطانية لافريقيا الشرقية » ، التي حملت اسم « الشركة الامبراطورية البريطانية الافريقية » ، و « الشركة الالمانية لافريقيا الشرقية » ، التي أسسها الدكتور « بيترز » . ثم أسس عدد من التجار الانكليز « الشركة الافريقية المتحدة » التي حملت « اسم الشركة الملكية النيجيرية » بعد اتحادها بشركة « التجار الافريقيين في الشاطىء الذهبي » .

على الرغم من حداثة عهد هذه الشركات التعاقدية الجديدة ، يبدو انها كانت ذات شأن عظيم في تاريخ التوسع الاستعماري . فحين اضمحلت « الشركة الملكية النيجيرية » التي لم تعش سوى

١٣ سنة ، دفعت لندن ٢٢ مليوناً للاستيلاء على ما يعرف الآن بـ « نيجيريا » التي يبلغ عدد سكانها ٢٥ مليون نسمة وتوازي مساحتها ضعفي مساحة فرنسا . وكانت هذه الشركة مدينة لضابطين بريطانيين ، هما « جورج توبمان غولدي » واللورد « ابردير » اللذان بلغا الـ « تشاد » بعد ان اجتازا الحاجز الحرجي في سواحل غينيا . وكانت قد وقعت اكثر من اربعمائة معاهدة مع الزعماء البلديين ووفرت فائدة سنوية قدرها ٦٪ لمساهميها. وحين ارغمت على التخلي عن احتكارها امام حملات التجار في الوطن الام ، لم تتوار عن مسرح نشاطها بل استمرت في استخدام موظفيها من ذوي الخبرة واستحصلت على حق استيفاء الرسوم المنجمية لمصلحتها الخاصة طيلة تسع وتسعين سنة . وقد ادت خدمة جلى للعظمة البريطانية في افريقيا الغربية .

ولكن اشهر هذه الشركات التعاقدية اطلاقاً هي «الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي اسسها « سيسل رودس » .

شركة سيسل رودس التعاقدية

لم يكن « نابوليون الراس » ملكاً متربعاً على عرش ، ولكنه كان ملك الماس والذهب ، واسس لانكلترا امبراطورية جنوبية . كان ابن رجل دين ، وقصد « ناتال » للاعتناء بصحته المزرية ، فسمع نداء « روسكين » « لاستثمار الاراضي البائرة » ، وكان عازباً ونافراً من النساء ، فاخذ يفكر في نفسه قائلا : « ان اخضاع الشطر الاكبر من العالم لشرائعنا سيكون بمثابة نهاية كافة الحروب » . وكان مسالماً على غرار « كوبدن » ، فوضع الاستثمار والرأسمالية في خدمة « السلام البريطاني » . سار في البدء في تيار البحث عن الماس في كمبرلي ، فاشترى امتيازات الاستثمار وجرب حظه . فرافقه الحظ حين اعتمد ، على غرار روكفلر ، التقنية والتجميع معاً. وقد ضمنت شركته «دي بيرز مينننغ» في السنة ١٨٩٠ ، رقابة سوق الماس . ثم وقع اختيار رودس كذلك على ذهب الترنسفال ، فاسس شركة « حقول الذهب في جنوبي افريقيا » التي اشترك فيها آل « روتشيلد » . ولكنه ما لبث ان اصطدم بالتشريع « البويري » .

وهو لم يكن تاجراً مغامراً فحسب . فقد كان مولعاً بالحضارة الاوربية ، التي يؤلف العنصر البريطاني خميرها ، فتخيل امبراطورية افريقية تكون قاعدتها مدينة « الراس » وقمتها قناة السويس حيث تمر طريق لندن-بومباي عبر البحر المتوسط الذي يصبح بحراً بريطانياً.وانما يجب اسهام البوير لتحقيق ذلك - لا سيما وانه كان يحتقر الزنوج . اما اذا لم يستجب انسال الهولنديين لندائه ، فانه سوف يسحقهم .ولكن مشروعه يستلزم السرعة لان الالمان والبرتغاليين ينحدرون باتجاه المنطقة الحارة الواقعة بين « لمبوبو » و « زامبيز » . فاعرض حكام « الراس » انفسهم عن تبني المشروع . لذلك تحول رودس بانظاره نحو لندن حيث اعتمد على صداقاته في عالم الاعمال واسس « الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي اسست في السنة ١٨٨٩

ملك التماقد الذي خولها « تنمية بيشوانالند والمناطق الواقعة ابعد الى الشمال » ،فبني على الفور معمل « فورت ـ سالسبوري » في قلب الغابات ، وراء بلاد البوير ، على الطريق التي يسلكها البورتغاليون . وعندما اصبح رئيس وزراء « الراس » ، اخرج البورتغاليين من المنطقة المتنازع عليها واشترى من شركة « البحيرات الافريقية » منطقة شمالي الزامبيز وسحق مقاومة الـ « زولو » ، فضمن له ذلك اعتبار البوير في « الراس ».وفي السنة ١٨٩٥ ، احتلت «روديسيا» مكانها على الخريطة . ولم يبق سوى ضم جمهوريتي « اورانج» والترانسفال ؛وسوف يحققه بعد انتزاع موافقة المسؤولين البريطانيين . ثم اجهز الذهب والامبراطورية على استقلال البوير حين وافته المنية في السنة ١٩٠٢ .

حمية ليوبولد الثاني الدولية الافريقية

كان ليوبولد الثاني استبدادي المزاج ، ومحتالا ومتصلباً ، ومنتسبا الى اسرةمالكة مرموقة،ومفتقراً الى المال ،وشغفاً بمعرفة العالم ومكبلا في تصميه على العمل بفعل النظام السياسي في مملكته نفسها ، ولكنه تميز بمؤهلاته لان يكون مؤسس امبراطورية عظيمة .فقد كتب منذ السنة ١٨٦١ :«لما كان التاريخ يعلمنا ان للمستعمرات قسطها الأوفر في تكوين عظمة الدول وازدهارها ، فلنحاول بدورنا الاستحصال على مستعمرة» .فتحين الفرص،وكان على استعداد لشراء الفيليبين او الكناري او اي ارخبيل اوقيانوسي آخر ، الى ان وقع اختياره على افريقيا الوسطى البكر . واذا هو عقد في السنة ١٨٧٦ مؤتمراً في بروكسل من اجل حملة شديدة تستهدف « العلم والانسانية والتقدم » ، فانه لم يلبث ان ادرك الفائدة الشخصية التي باستطاعته ان يجنيها من مؤسسة مجردة عن الغاية في مستهل نشاطها . وفي سبيل الاستيلاء على البلاد ورسم خريطتها ، فكر بـ « غوردون » وتوجه الى « برازا » واستهال « ستانلي » ودفع الثمن غالياً . وفي سبيل الحصول على رؤوس الاموال ، طرق كافة الابواب . ثم لجأ الى الحيلة وتقدم شيئاً فشيئا في تنفيذ مطلبه ، فعرف كيف يبعد عن مصاب النهر الدول الاستعمارية القديمة التي كانت تطالب بحرية التجارة ، الى ان اناط مؤتمر برلين (١٨٨٥) هذه الحرية بجمعية الكونغو الدولية التي انفرد بعد ذلك في تحويلها الى دولة الكونغو المستقلة ، ثم حمل المجلسين التمثيليين البلجيكيين على منحه حق « رئاستها » وانصرف الى توسيع حدود الدولة باتجاه البحيرات الكبرى في افريقيا الشرقية .الا انه صادف صعوبات مالية حالت دون مشروعه بالاستثمار فأوصى بالكونغو لبلجيكا في السنة ١٨٩٠ واستحصل على قرض بقيمة ٢٥ مليونا وعلى اجازة باستيفاء رسوم الدخول . اضف الى ذلك من جهة ثانية انه لم يتقيد باي تعهد ، فجند اليد العاملة بالقوة واحتفظ لنفسه بمكاسب اراضي التاج الواسعة وسلم الاراضي الاخرى شركات لم تنسه ولم تنس ذويه عند توزيع الرباتح .فكان ما كان من التهافت الجنوني على جمع العاج والمطاط، وكان ما كان من « فظائع الكونغو » .ولكن ليوبولد قد امتنع بغطرسة حتى وفاته عن التسليم بان عليه تأدية حساب للرأي العام .

تدخل الدول الاوروبية الاستعمارية خدمة للمصالح الرأسمالية : مثل تونس ومثل مصر

كتب « ميلك » ما يلي : « حيث تكون المصالح يجب ان تكون السيطرة ». اجل لم يحظ الاختبار الكونغولي بمساندة الامة البلجيكية المباشرة ؛ بينما حال تدخل القوة البريطانية في « الراس » دون مراجعة الوضع وتأزمه المحتمل . فلماذا اعوز « برينشارد » السيطرة على « تاهيتي » ان لم يكن مساندة لندن غير المشروطة ؟ وبامتناعها عن التدخل المعلن ، اطالت فرنسا وانكلترا على السواء عمر الحكومة « الهوفية » ، وربما كان « سربا بتو » توصل الى توحيد انغولا وموزمبيك لو استطاعت لشبونة مساعدته مساعدة فعالة . وعلى نقيض ذلك ، درجت الشركات الرأسمالية على رفع البيرق بجسارة كلما خاضت الدبلوماسية ، وحتى القوة المسلحة ، غمار المعركة . لذلك فان ارتباط السياسة بالاعمال ، ظاهراً كان ام مستتراً ، يفسر معظم الفتوحات الاستعمارية . واذا فات النجاح حملة المكسيك ، فانه قد توج حملة تونس وحملة مصر تتويجا كاملا .

مثلان نموذجيان وتشابه عجيب . مليكان مسلمان يغرقان في الديون بسبب رغبتهما في العيش ببذخ وتفضل ؛ بلادان تتميزان بمركز وموارد من شأنها اثارة الاطماع ؛ دولتان حريصتان على حقوقهما وقادرتان على دعم مطالب رعاياهما . هنا وهناك غزو رؤوس الاموال الاوروبية الذي سهله وضع الاقتصاد المتردي ؛ في مالية باي تونس ومالية خديوي القاهرة ازمة لا يمكن معالجتها معالجة مؤقتة الا بقروض جديدة ؛ ثم رقابة دولية يفرضها المقرضون الجازعون المتشمون ؛ تحسن مؤقت وجزئي تعزز الادارة المالية بفضله مراكزها بوضع يدها على الرهون والكفالات وجميع الموارد الاميرية . وحدث اخير : فبينما خضع الباي للحماية الفرنسية ، اقبل الخديوي اسماعيل خلفه توفيق الى القبول بوجود الجيش البريطاني . فمن جهة ازالت حكومة باريس الخطر الايطالي والحقوق الايطالية ، ومن جهة اخرى صرفت حكومة لندن النظر عن امكانية لم تنظر اليها بعين الرضى هي امكانية مشاركة فرنسا لها في الحكم . وكانت النتيجة فتح ابواب البلادين لنشاطات الغرب الصناعية والتجارية تحت ستار الوصاية السياسية والادارية والعسكرية .

دور الضابط الاستعماري فاتح ومدبر

« وفي افريقيا نفسها ، ماذا احبت يا ترى سوى نشوة دامت سنتين ، نشوة الشباب الخالصة ، نشوة الشمس ، والنور ، والكمال الفني بكل ما للكلمة من معنى ؟... » (ليوتي ، في السنة ١٨٨٢) .

لقد برزت وجوه كبيرة ، مؤسسون ، و « فنيو » استعمار . فكان هناك المستعمرون الاداريون : موظفو دائرة الاستعمار مثلا ، « جايمس فيتز - جايمس ستيفن » الذي أمسى ، ابتداء من السنة ١٨١٣ ، وطيلة خمس وعشرين سنة ، الرئيس الحقيقي للامبراطورية بعد المخطط النظام « المصري » ، او اللورد « كارنارفون » الدافع الى الاتحادات ؛ وفي فرنسا ، مديرو الوزارات ، من « فيلو دي سانت ايلار » الى « غاستون جوزف » الذين يبقون في مراكزهم بينما

بتعاقب الوزراء ، او ذاك المدير الآخر ، البلجيكي « اميل بانتنغ » الذي كان يذكر « افريقيا الباقية معلونة في عزلتها والمنبطحة انبطاح عبدة جسيمة عند اقدام اوروبا اللاامبالية » ويريد ان يجعل منها « حقلاً حراً لكافة النشاطات التجارية » فيشجع انعقاد المؤتمرات الدولية، ولكنه يصطدم برغبة الملك ليوبولد في الكسب .

عمل جنود الفتح بهذه الارشادات او تجاوزوها ، متعرضين لمسؤوليات كبرى احياناً ، وقد واطأهم على الذنب المسافة وصعوبات عملهم اليومي . « بهجة النفس تكمن في العمل » ، هذا هو الشعار الذي اقتبسه ليوتي عن « شلي » . ألم يتكلم يوماً عن « العمل، العمل المقدس والالهي ... » هو الذي لم يرد ان يكون سوى « محارب وزعيم قبلي » ، و « سيد اقطاعي شاب » ؟ فقد كتب من تونكين : « انني اسير الحياة والعمل المباشر ؛ فجمد قضاء يومنا في المقدمة ساعين وراء شق طريقنا بالفأس بين الاشجار الكثيفة ، وباحثين على الارض عن دلائل المرور ، وسائرين في الماء حتى الركبتين ، ومتسائلين باضطراب ، عند نهاية المرحلة ، عما اذا كان الارز سيصلنا ام لا ، وعما اذا كنا سنجد دليلا يرشدنا الى الطريق ، وتكون النتيجة ، بعد استسلامنا للنوم ، عاصفة هوجاء تبلل خيم الجنود ، اؤكد لكم ان الوقت لا يتسع لتفحص النفس ، التي لا يمنعها ذلك من ان تكون في احسن حال » . وفي رأي سيل رودس ان على كل مستعمر ناجح ان يتقن لعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم. اما غوردون الذي كان صوفياً حقيقياً يضع سيفه في خدمة الايمان وتحت تصرف السلطة المدنية على السواء ، فقد اكثر في « يومياته » من الاستشهادات التقوية .

حكم الدبلوماسيون على مبادهاتهم بأنها كانت متهورة احياناً وبأنها لم تخدم المصالح الكبرى دائماً . فهم قد درجوا على انتقاد الدوائر الادارية والسياسيين الذين كانوا يحتقرونهم . كانوا قساة في ادارتهم ولكنهم كانوا يتباهون بمعرفة البلدي على حقيقته وباحترام عاداته وبعدم التقيد بمذهب اداري معين . وقد جاء في كتاب « غاليانى » « مبادىء التهدئة والتنظيم » : « لا شيء يجب ان يكون اكثر مرونة من تنظيم بلاد يجري تطورها باشراف موظفين حازمين تستخدمهم الحضارة الاوروبية والاستعمار الاوروبي » . كما جاء ايضاً : « كل عمل سياسي يجب ان يميز العناصر المحلية الصالحة للعمل ويستفيد منها ويلاشي العناصر المحلية غير الصالحة للعمل ويقضي عليها » .

انحدر جيل اول من الحروب النابوليونية ، حروب اسبانيا وروسيا التي تطلبت صبراً وجلداً ومعرفة صحيحة للسكان والموارد . وقد تخرج من هذه المدرسة رجال من امثال « بوجو » ، و « شارلز — جايمس نابير » ، و « غسو » الذين انتصروا على المهرات والسيخ ، و « باسكيفيتش » و « مورافياف» (كارسكي وأمورسكي) و بيروفسكي ، ابطال الفتوحات في القفقاس وآسيا الوسطى وسيبيريا الشرقية .

ثم جاء اولئك الذين خرّجتهم افريقيا السوداء والهند نفسها، ونخص بالذكر منهم «فيدرب»

الذي لم يكن من ثوابت الناس مثل بوجو ولم يكن له مطامعه السياسية كمحافظ اجتماعي ، بل كان ابن حاولي فقيراً وتأملياً وعنيداً ومثالياً ، فاتكل على غرائزه على الملاحظة المباشرة ، وسيطر على السنغال بوسائل محدودة ، وأسس دكار ، وحارب النخاسة وادخل التلغراف الكهربائي ، وتمسك بالمدرسة العلمانية الفرنسية وبالتعلم الفرنسي الاسلامي العلماني ؛ وغالياني : السكيت ، والحريص على الخبز الثابت والنشاط العملي ، والفاتح في السودان والتونكين ، والاداري القدير في مدغشقر ، والقادر بدوره على اعداد للامثلة كثيرين اشتهر بينهم ليوتي الذي سيطبق المبادىء الواقعية خير تطبيق في الامبراطورية الشريفية . وبالمقابلة تخرج من جيش الهند بناة الامبراطورية الأفريقية البريطانية : « روبرت كورناليس » المنتصر على الجنود البلديين ، الذي سير في السنة ١٨٦٧ حملة اثارت الاعجاب على النجاشي تيودوروس (فقد نقل كل معداته ومؤنه على ظهور الفيلة ثم فتح طريقاً عبر الاحراج) ؛ و « ولسلي » الذي ارغم الـ « اشانتي » على الخضوع ، واشترك في النزاع ضد الـ « زولو » ، وهزم جيوش عرابي باشا في السنة ١٨٨٢ ودخل القاهرة ، ولكنه اخفق في محاولة قام بها لانقاذ الخرطوم التي كان يحاصرها الدراويش ؛ و « روبرتس » الذي كان مع نابير في الهند وفي الحبشة قبل ان يقود في السنة ١٨٧٩ الحملة العسكرية على كابول ، وفي السنة ١٨٨٦ الحملة العسكرية على بورما ، وقبل ان يتسلم قيادة الجيوش التي ستتغلب على البوير ؛ و « كتشنر » الذي انتصر في الخرطوم ثم في الترانسفال .

الحروب الاستعمارية

ربما كان القرن التاسع عشر قرن الحروب الاستعمارية . ولعل سنة واحدة لم تنقض منه دون ان ينفذ الاوروبيون عملا حربياً في احدى نقاط القارات الاخرى .

اذا ما استثنينا الروس ، تبين لنا ان كل هذه الاعمال استلزمت جهوداً بحرياً . فان الحملة على الجزائر قد عبأت ٦٧٦ سفينة تنقل قرابة عشرين ألف رجل . وقد تألفت الوحدة المعدة لمهاجمة « ماجونغا » في السنة ١٨٩٤ من ١٥ الف محارب . فيتضح من ثم الدور المنوط بالبحارة. اجل لقد عاد لـ « كوربيه » امر قيادة الهجوم على الشواطىء الصينية ، و لـ « فردريك بوشان – باجيه » قصف الاسكندرية بالمدافع في السنة ١٨٨٢ ؛ ولكن القيادة العليا للحملة قد اسندت احياناً لضباط البحرية ، كـ « دي بتي – توار » في اوقيانيا ، و « سيمور » في الصين ، وقد ذهب البعض الى الكلام عن « كوشنشين امراء البحر » في عهد الامبراطورية الثانية . وكان مشاة البحر السلاح المفضل في الجيوش المعدة للانزال الى البر ، وقد برز بينهم مستعمرون لامعون من أمثال القائد « بريير دي ليل » .

باستثناء حملات قليلة لم تستغرق وقتاً طويلا ، اعترضت معظم الحملات ظروف صعبة ، فتطلب النهوض بها وقتاً غير قصير وخسائر فادحة في الرجال والعتاد . اما العائق الاهم فكان المناخ في اغلب الاحيان . وقد باء الهجوم الاول على قسنطينة بالفشل بسبب الجوع والبرد

والعناء . وعلى الرغم من جلد الجيوش التي قادها بيرولسكي ، فانها كانت ضحية شتاء قاس في سيرها على « خيفا » ؛ اما في المكسيك والتونكين ومدغشقر ، فهي الحرارة الرطبة والحميات ما فتك بالجنود . وقد تم هجوم ولسلي على الاشانتي في أشد الظروف صعوبة ، عبر مستنقعات السواحل اولاً ، والغابات الكثيفة ثانياً . لذلك كانت الانهار عظيمة الاهمية على الرغم من الشلالات التي تتخللها : فان ستانلي قد استخدم الكونغو ، وكتشنر النيل ؛ كما ان « مارشان » قد انتقل من الكونغو الادنى الى النيل الاوسط عن طريق الـ « اوبانغي » والـ « مبومو » .

انطوى كذلك عدم معرفة السكان ولغاتهم وطرائق معيشتهم واسلوبهم الحربي معرفة كافية على صعوبات خطيرة . اجل كان تفوق الاوروبيين التقني ساحقاً ؛ ولكنهم بصرف النظر عن اضطرارهم التكيف وفقاً لطبيعة البلاد وسكانها ، ما كانوا ليحققوا النصر بوسائلهم الخاصة وحدها . فكانت المسألة من ثم مسألة تجنيد الفرق المساعدة. ففي الهند جرب الانكليز اختباراً تكلل بنجاح عظيم على الرغم من خطر احدق بهم في احد الظروف : اسندوا المحافظة على الامن الى السيخ والـ « غورخا » ؛ وجند « بوجو » الـ « زواوا » (زواف) والفرسان والقناصة المغاربة واستخدمهم ضد غيرهم من المسلمين ؛ وسيطر فيديرب على السنغال بواسطة القناصة الـ « اولوف » ، ولجأ لابرين الى الـ « شامبا » للمحافظة على الامن في الصحراء الكبرى .

الولاة المدنيون

اذا حدث ان اسندت السلطة مباشرة الى احد العسكريين ، فان موظفي الادارة الاستعمارية قد اختيروا قانوناً من بين الموظفين الذين ينتسبون الى ملاكات مدنية خاصة . ولكن غالباً ما توجب على المستعمرين النهوض بالاعمال الحربية والاعمال الادارية في آن واحد ، فتكاثرت الخلافات بين العسكريين والمدنيين. وقد تصرفت كل دولة بحسب مزاجها وبمقتضى الظروف. فطرأت على النظام الاستعماري الفرنسي بنوع خاص تبدلات كثيرة ؛ ويجب انتظار الجمهورية الثالثة حتى يعود الحكم في المستعمرات ، بصورة عامة ، الى السياسيين (« لانسان » ، « جونار » ، « دومر ») ، او كبار الموظفين (« بول كامبون » ، مثلا) .

اختارت بريطانيا العظمى في صفوف ارستوقراطيتها موظفين تحلوا بصفات نادرة وعرفوا ، في كنف ادارة المستعمرات المركزية ، كيف يجدون في مختلف انحاء الامبراطورية البريطانية الحلول الموافقة للحاجات الطارئة دون ادخال اي تبديل على السياسة الاستعمارية التقليدية . فقد اجاد ممثلو العائلات الكبرى هؤلاء ، في الحقل الاستعماري ، تطبيق مبادىء الاختبارية التنظيمية . وقد اتوا مآثرهم الرائعة في فتح الهند وادارتها معا . فهكذا تولى المركيز « دي دالوزي » بنشاط الاعمال الحربية وجهود التطوير التقني . ثم بدأ اللورد كانِنغ سلسلة نواب الملك التي ضمت شخصيات قوية من امثال اللورد « الجن » واللورد «ليتون» واللورد «ريبون». واختير كذلك اختياراً موفقا الحكام المدنيون لتمثيل جلالته في المستعمرات المتمتعة « بالحكم

الذاتي » . ونذكر منهم على سبيل المثل اللورد كرومر حاكم مصر الاول .

الحمايات والمستعمرات

بينما كانت « الحصرية » سائرة في طريق الزوال والتطور منحها اما نحو الحكم الذاتي واما نحو التمثيل بالوطن الام ، في المناطق المأهولة بالاوروبيين او في المستعمرات القديمة ، بدت الحماية اكثر ملاءمة من الوصاية المباشرة لاهداف ووسائل اوروبا الرأسمالية في المناطق المحتلة حديثا . ولا يعني ذلك ان الاحرار المستشارين قد ابتكروا الطريقة : فقد سبق لـ « موبلكس » ان طبقها ؛ كما كان البريطانيون في الهند والهولنديون في « جاوا » متمشين عليها . وفكر المسؤولون في تطبيقها في الجزائر والسنغال وكوشنشين . ووجد الروس فائدة في ابقاء بعض خانات تركستان النافذين في مراكزهم . واستسهل فرّي الذهاب الى تونس بالتذرع بعدّ يد المساعدة للباي ، وصرح غامبتا بما يلي : « لا جلاء ولا ضم » . ولجأت حكومة لندن الى حيلة مماثلة لتبرير تدخلها في القاهرة . واستحصل « دودار دي لاغربه » من ملك كمبوديا على الاعتراف بحق فرنسا في حمايته من تعديات جيرانه السياميين والفياتناميين ، كما استحصل « اوغست بافي » على الاعتراف نفسه من الزعماء اللاوسيين . وقد جرت الامور عموما على هذا النحو كلما رأت الدولة المستعمرة نفسها امام انظمة توخت هي خيراً من مداراتها .

الا ان الضم كان واجبا حين كانت السلطة البلدية مجزأة او لا شعبية او معادية جداً . فتصبح المستعمرة آنذاك مستعمرة سيطرة او إفراد : تبقي الادارة الاوروبية على الزعماء المحليين في مراكزهم وتجردهم في الوقت نفسه من السلطة السياسية وتخضعهم لرقابة شديدة ؛ وقد تستبدلهم بكفلاء عاديين تختارهم من بين البلديين الآمنين ؛ وتدير مباشرة شؤون البلاد وفاقا لما ترى فيه مصلحة السكان العامة . وقد استخدم البريطانيون هذا النظام في الهند حيث لم يكن نظام الحماية كافيا ؛ ثم استخدم على نطاق واسع في افريقيا السوداء ، وحتى في مدغشقر ، بعد قلب الملكية الهوفية .

المنافسات الكبرى والتسويات

خلال القرون السابقة تسببت المنازعات الاستعمارية في حروب بين الدول الاوروبية . والحال ، كما ان سياسة المعاهدات مع الزعماء البلديين قد اعتبرت خير سياسة ، كذلك سوّيت الخلافات الدولية بطريقة المفاوضة .

تخلص العالم الجديد اكثر فأكثر من هذه المنافسات . فباسم المونروية التي كانت تتوخى ابعاد الاساليب الاستعمارية عن القارة الاميركية ، انتهجت الولايات المتحدة طريقة الشراء للحصول على المناطق التي ما زال الاوروبيون يتملكونها فيها : وهكذا تم انتقال هام في السيادة في السنة ١٨٦٧ حين تخلت لها روسيا عن آلاسكا . ولكن الدانيمارك باعت كذلك من بريطانيا العظمى قطاعها الغيني ، كما باعت اسبانيا من المانيا « بالاوس » و « ماريان » و « كارولين » .

الا ان مناطق الاحتكاك الكبرى قامت في اماكن اخرى . فقد اتصل اهمها شأنا من

الغرب الى الشرق ، من مضيق جبل طارق الى المحيط الباسيفيكي الغربي ، على جنبات البحار الداخلية ، والبرازخ والمضائق التي تتيح انتقالا يسيراً بين الكتلتين الاوراسية والافريقية ، ثم على الاراضي الساحلية الجنوبية والجنوبية الشرقية من آسيا. وقد تعاونت طرنسا وانكلترا فيها على ابعاد روسيا او اختلفتا اختلافاً متكرراً . وتأزم الوضع في المتوسط بعد السنة ١٨٧٠ عند نزول ايطاليا الى الحلبة . وامتد البراز الانكليزي الروسي الى كافة انحاء آسيا الوسطى ، ولا سيا عند مشارف الهند . ويجدر لفت الانتباه هنا الى ان الحدث الحربي الوحيد الذي جرى في اوروبا نفسها بسبب المنافسات الاستعمارية - حرب القرم - مرده الصراع من اجل السيطرة على اكثر بقاع هذه المنطقة الحرة التنازع ، الشرق الادنى .

لم يعد صحيحاً ان الخصومة بين بريطانيا العظمى وروسيا كانت قائمة بين امبراطورية بحرية وامبراطورية برية. فالدولة التي كانت مسيطرة على البحر كانت مصممة على الاستئثار من جهة اليابسة . وفي هذا المجال يبدو احتلال الهند بكاملها سابقة ذات مغزى . ولكن الحدث لم يعد لينطوي على اي طابع استثنائي ، اذ ان احدى مميزات الاستعمار آنذاك كانت الحصول على قواعد برية كبرى . وجاز لـ « جول فري » ان يؤكد : « اما اليوم فهي القارات ما يطلب ضمه ، وهو العالم الاوسع ما يطلب اقتسامه » . وان في تقسيم افريقيا لخير تمثل على هذه السياسة . الا ان منافسة قامت من اجل السيطرة على الباسيفيكي .

على غرار ما حدث في الماضي ، سويت الخلافات على العموم بين دولة ودولة بفضل اتفاقات تلزم الطرفين . وباستثناء جزر « الهبريد الجديدة » ، حيث ادخل في السنة ١٨٨٧ ، لم يعش نظام « الامتلاك المشترك » حياة طويلة في اي مكان : فهو لم يدم لا في مصر ولا في « ساموا » . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يعط التحكيم بدوره سوى نتائج هزيلة ، فانه قد اثار في السنة ١٨٨٤ حدثين جديرين بأن نتوقف عندهما : فمن جهة ، النداء الموجه الى البابا ، الذي سلك سلوك البابا اسكندر السادس وفصل في الخلاف الاسباني الالماني حول الكارولين ؛ ومن جهة اخرى ، انعقاد المؤتمر الدولي في برلين . فكان على هذا الاخير « ان يستدرك المنازعات التي قد تثيرها في المستقبل الاستيلاءات الجديدة على شواطىء افريقيا » . وفي الواقع ، كان اعتقاد بسمارك بأنه سيلعب فيه الدور المفيد نفسه الذي لعبه في مؤتمر السنة ١٨٧٨ حول المسألة الشرقية . وكما حدث في السنة ١٨٧٨ ، جرت المناقشات الهامة وراء الكواليس حيث عينت حدود الدولة الكونغولية . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تجدد السباق ، بحرارة لم يسبق لها مثيل ، من اجل احتلال المناطق الدائرية . الا ان فكرة عرض المسائل الاستعمارية الشائكة على محكمة دولية لم تضمحل قط ، فهي التي ستوحي بالدعوة الى مؤتمر « الجزيرة » في السنة ١٩٠٦ . ومهما يكن من الامر فان ريشة الديبلوماسيين قد وجدت لها عملاً دائماً ؛ فقد رسمت على خريطة العالم الاشكال الموائية للانصبة التي آلت في النتيجة الى الدول الاستعمارية المختلفة دون ان يتعرض السلم الاوروبي للاخطار

مصير السكندينافيين المشرف في الشمال الاطلسي

ان المؤسسات الاستعمارية السكندينافية تتصل في الارجح بنزوحات « الفيكنغز » القديمة . وكان السكنديناقيون خير بحارة وصيادين وقناصة في المياه الشمالية ؛ فتأثروا بهذه الصفة بسحر المياه الجنوبية ؛ وما كانت الجزر والاسواق التجارية في المناطق الحارة لتستهويهم استهواء يذكر . وبينما كانت النشاطات الزراعية والصناعية كافية لتشغيل السويد ، اضطر النروجيون ، المرتبطون بهم منذ السنة ١٨١٥ ، الى حصر توسعهم في الاستيلاء على « سبالزبرغ » والمطالبة بـ « جان مايان » و « ارخبيل » « فرنسوا – جوزف » و « غرينلند » . ولكن الدانماركيين نظروا دائماً الى هذه الارض الاخيرة ومعادنها واسماك مياهها الوفيرة نظرهم الى مُلك خاص . فهنا تقوم حدود امبراطوريتهم التي تضم بالاضافة « فار اوير » و « اسلندا » . زد على ذلك ان اسلندا كانت سائرة في طريق الاستقلال : تعرضت لامتحانات قاسية وعانت من المناخ وثورات البراكين والزلازل والمجاعات واوبئة الجدري ، فتخلصت شيئاً فشيئاً من حالتها السيئة باحياء الزراعة وصيد الاسماك وفازت بجمعية محلية ، والغاء « الحصرية » ، ثم باستقلال ذاتي حقيقي في السنة ١٨٧٤ ؛ فأرشدت بذلك ايرلندا جارتها الى الطريق التي يجب عليها سلوكها .

الانحطاط الايبيري

اغتنم الاسبانيون والبرتغاليون بذكرى ماض اعظم سحراً ايضاً ، ثم بفعل كارثة لا دواء لها . فلم يبق في حوزة كلا الشعبين سوى بقايا متناثرة على طرقاتها الامبراطورية القديمة ، ولا وسائل لديهما لتحقيق نهضة متوخاة .

انهارت الامبراطورية البورتغالية انهياراً سريعاً في النصف الاول من القرن بانفصال البرازيل عنها ، وباحتلال الهولنديين لبعض جزر السوند ، كجزيرة « فلوريس » مثلا ، التي خلت من الحاميات العسكرية ، وبالتخلي عن شطر كبير من غينيا والغابون . ثم تلاشت الاسواق التي كانت لشبونة تحتفظ بها في الهند والانسولند على السواء . الا ان محاولة اصلاحية قد جرت بفتح المستعمرات للتجارة الخارجية ، ونقل الممتلكات في المستعمرات الى ايدي المهاجرين المستعمرين ، وبالغاء الرق . ثم تعللت البورتغال بأمل تحقيق السيطرة على افريقيا الجنوبية والوسطى ، ولكن آمالها تحطمت في مؤتمر برلين ، وقد وسم مطلع عهد كارلوس الاول بمعاهدة مذلة وقعها في السنة ١٨٩٠ . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان انغولا وموزامبيك اقتضتا من النفقات فوق ما درتاه من المداخيل ، وعم الرأي في اوروبا ان البورتغال قد تسلم بالتخلي عنها مقابل تعويض كبير .

تعذر على الحكومات الاسبانية المتعاقبة التفكير بأي مشروع خارجي حتى السنة ١٨٥٠ بسبب الاضطرابات الداخلية . وقد حاول القائد « اودونل » ، بدافع النفوذ الشخصي ، تجديد عهد الحملات الصليبية بانقاذ حصون سبتا ومليلا التي ما زالت قبائل الريف تهاجمها بدون انقطاع ؛ ولكن مناورته امام طنجة و « لاراش » وتطوان لم تدم طويلا بسبب تدخل انكلترا . وجرت بعد ذلك محاولة هجومية فاشلة في اميركا اللاتينية : اشتركت اسبانيا في حملة المكسيك ولكنها

انسحبت منها مع انسحاب بريطانيا العظمى ؛ وانزلت جيوشاً في « سان - دومنغ » ، ولكن الاهالي الثائرين طردوا الجيوش منها ؛ وارسلت اسطولا الى شواطىء الباسيفيكي واستولت على الجزر الغنية بالفوانو ، ولكن تحالف الدول الآندية ارغمها على الانسحاب . وبعد ذلك ثارت كوبا على سيطرة احتفظت بميزات « الحصرية » ، وازدادت حالة القلق خطورة في الفيليبين و « بورتوريكو » اللتين عانتا الامرين من اهمال الادارة وتفاقلها . وكانت كارثة السنة ١٨٩٨ قريبة الحصول حين احتل الاسبانيون ساحل « ريو دي اورو » الصحراوي وزعموا حينذاك انهم يقومون « بأول عمل في سلسلة اعمال سياسة افريقية » ستتيح لهم تعزيز موقفهم عند المطالبة بتقسيم المغرب المحتمل .

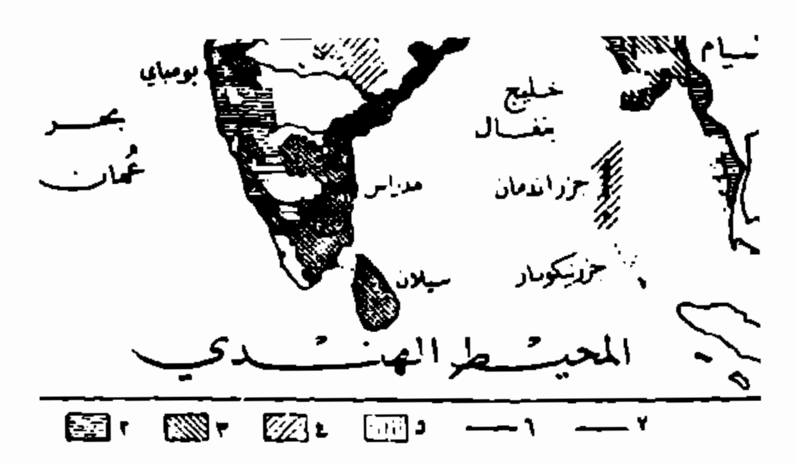
استمرار العظمة النيرلندية

في الوقت الذي نظر فيه الأب « دي برادت » الى البلجيكيين نظره الى « اناس عادمي الفضول في المعرفة وغرباء عن كل ما يجري خارج بلادهم » ، كان الهولنديين تقليدهم الاستعماري الراسخ. اجل كانت لهم خسارة « الراس » وسيلان ضربة قاسية؛ ولكن مملكة هولندا حققت السيادة ، أقله نظرياً، في السنة ١٨١٥ على مستعمرات شاسعة اوسع من رقعتها بستين ضعفاً ومأهولة بأربعة اضعاف سكانها: وتتألف هذه المستعمرات من مجموعتين متميزتين متباينتين شأناً يغلب فيها المناخ الاستوائي، مجموعة الهند الغربية (بعض جزر الانتيل ، كـ « كوراسو » وسورينام) ، ومجموعة الهند الشرقية المتكونة من ارخبيل السوند والشطر الاكبر من بورنيو و « سيليب » والمولوك. فكان ذلك كافيا لنشاط شعب صغير جلود ومثصر : تفرغت هولندا منذئذ لهذه الممتلكات دون ان تحاول توسيعها محاولة تذكر . فهي بعد اليوم لا تتقدم ولا تتراجع ، بل تثبت اقدامها .

امبراطورية الروس الاوراسية

واصلت روسيا ، عبر سهولها اللامتناهية، حرباً هي أشبه بحرب استرداد الاراضي من الاسلام الذي لم ترده الى الوراء بل دخلت بعيداً في الاراضي التي يسيطر عليها . ويبدو من جهة ثانية ان النزاع القديم بين الحضر والبدو كان لا يزال قائماً لان التقدم الروسي عنى كذلك اقامة الفلاحين المزارعين في البقاع الخالية من منطقة البورات الواسعة الاطراف. واذا كانت سيبيريا اخيراً، في مناطقها الشمالية الشرقية ، امتداداً لطبيعة روسيا القاسية ، فان امبراطورية القياصرة لم تتصل بالبحار الباردة فحسب ، اذ كان باستطاعتها النزول الى المر المنشوري حتى وسط عالم الشرق الاقصى ، بل بلغت في الجنوب المناطق الطورانية ومناطق ما وراء القفقاس التي تذكر بالمناطق الحارة . ولا يجوز ان نرى في هذا التقدم تصميماً على فتح المنافذ الى المحيطات فحسب : فهناك هجرة شعب مطرد التكاثر الى مناطق قليلة السكان ، وجاذب الموارد التكميلية .

« ايه روسيا ، ألا تشعرين بأنك منطلقة نحو المجهول على غرار الـ « ترويكا » الجامحة التي لا يستطيع احد اللحاق بها ؟ » (« غوغول » ، « النفوس الميتة ») .



شكل ١٠١ ـ البريطانيون في الهند ، والروس في آسيا الوسطى

١ ، احتلال بريطاني حتى السنة ١٨٠٥ وتوسع روسي في اوائل القرن التاسع عشر ؛ ٢ ، تا
ن حاكمية اللورد « دالوزي » العامة (١٨١٥ ـ ١٨٤٨) ؛ ٣ ، فتوحات اللورد دالوزي حتى
دين في الجيش البريطاني (١٨١٥ ـ ١٨٥٧) ؛ ٤ ، تقدم الروس ومكاسب البريطانيين بين
سنة ١٨٧٠ ؛ ٥ ، تقدم الروس والبريطانيين بعد السنة ١٨٧٠ ؛ ٦ ، حدود امبراطورية الهند
ديدية الرئيسية المثبتة في القرن التاسع عشر .

ادبرت العملية بجلد وطول اناة منذ زمن بعيد. اما الوسائل فكانت هي هي ابداً: القوزاق، التجارة ، « البخشيش » ، والمقاوضة عن طريق الدين كلما كان ذلك مفيداً. فكانت روسيا ارثوذكسية في البلقان والشرق الادنى ، واسلامية في خيفا ، وبوذية في منغوليا .

تميز هذا الاستعمار ، من جملة ما تميز به ، باسهام القوزاق فيه اسهاماً رئيسياً . اشتركوا في كافة الحروب الاوروبية ، وسيشتركون فيها في المستقبل ؛ ولكنهم خدموا بمزيد من الاندفاع ايضا في هذه الثورات التي تذكرهم بثوراتهم . وجند القيصر فرسانه المتفوقين من بين طوائف الـ « ستانتساس » التي كانت تعيش من تربية المواشي وترويض الجياد بحب تفضيلي . وكانت قيادة كل من فرق القوزاق الاحدى عشرة (فويسكوس) - لآل التاج الاحدى عشرة - مسندة الى قائد يدعى « الامان » . وكان القوزاق محاربين لا يبالون بالتعب ، يأكلون الاسماك واللحوم والخبز المجفف ، ويشربون الماء ويمتطون صهوات خيولهم بدون مهاميز ، ويقبضون على السوط الجلدي ، ويرتدون ثوباً كبيراً يعرف بالـ « بورقا » : يتسلحون بحربة ، وسيف دون غمد ، ومسدس ، وبندقية قصيرة خفيفة ، ويتوجهون بدون خريطة ولا بوصلة مهتدين بالشمس والنجوم . واذا دان معظمهم بالارثوذكسية - وقد انتمى بعضهم الى شيع « راسكولنيك » - فقد يحدث ان يكونوا مسلمين في « ترك » او « كوبان » ، وبوذيين في ما وراء بحيرة « بايكال » ؛ وكان بعضهم يهوداً . واشتهر قوزاق الـ « دون » بقيادة « بافل بطروفيتش دي ريلتكاميف » في حروبهم ضد فارس ، وفي بولونيا والقفقاس وهنغاريا والقرم . ثم عهد القيصر ، رغبة منه في توطيد فتح القفقاس ، الى تنظيم قوزاق كوبان ، وقوزاك ترك معطياً اياهم بعض الاراضي في هذه المناطق . واشترك قوزاق الاورال في حملة بيروفسكي . وكان « سكوبليف » يطلبهم في تركستان وفي حملة البلقان في السنة ١٨٧٧ ؛ وكانوا يلقبونه بالـ « باشا الابيض » . وتألفت في « سميرتشنسك » فرقة من قوزاق سيبيريا لمراقبة تركستان . واضاف مورافييف الى الفرقة المقيمة في ما وراء بحيرة بايكال فرقة الـ « امور » ، مجنداً افرادها من بين الـ « بوريات المتولين » البوذيين ، المشهورين بالقنص واحتساء الشاي . وكان هؤلاء بمثابة المراكز الامامية للسيطرة على الشرق الاقصى التي لن يربطها الخط الحديدي بروسيا الاوروبية الا في اواخر القرن .

كانت هذه الامبراطورية اكبر من ان تدار بالضبط اللازم : فان مسألة المسافة لم تحل الا جزئياً بانشاء الخطوط التلغرافية وبناء خطين او ثلاثة خطوط حديدية كبرى . فقد بقي هناك شيء ناقص لم يكتمل ، أعني به وضع اليد على الارض ، بسبب عدم اتصال المناطق المأهولة . ولكن الخطر الروسي كان جديا على حدود هذه الكتلة الضخمة التي بدت وكأنها ستسحق آسيا بكاملها في يوم من الايام .

تأسيس امبراطورية استعمارية فرنسية جديدة

جمع الفرنسيون شيئاً فشيئاً العناصر التي ستتألف منها ، خلال مئة سنة ، احدى أوسع الامبراطوريات الاستعمارية ، دون ان يسيروا على مخطط مدروس ودون ان تحركهم الحاجة الى مناطق قادرة على استيعاب المهاجرين ، ولكنهم كانوا في ذلك حريصين على الدفاع عن مصالح لم تكن دائماً

مصالح مادية .

لم يبق من الممتلكات الماضية سوى بعض اجزاء مستعمرات المناطق الحارة التي تصادم حول ادارتها التقليد التجاري ورأي مواليد المستعمرات من الفرنسيين ومبادىء السنة ١٧٨٩ . وقد الغت الجمهورية الثانية وجودها القصير الامد بالغاء الرق واستهلال سياسة التمثيل ؛ وفي عهد الامبراطورية الثانية زالت « الحصرية » نهائياً من الوجود .

كان الحدث الهام احتلال الجزائر الذي اثار بعض الاسئلة : امتداد للوطن الام ؟ أم تعايش مع البلديين وفاقاً لنظام مختلط ؟ تلمس المستعمرون طريقهم الى ان تأيد حمل فرنسا في المناطق الحارة بارتسام عالمين استعماريين مختلفين ، احدهما في افريقيا والثاني في آسيا : فحوالي السنة ١٨٦٠ ، وفي ظل الحرية الاقتصادية ، بدت الحاجة بروتنها كخير نظام لادارة مناطق مختلفة كل الاختلاف كافريقيا الشمالية والسنغال و كوشنشين؛ ولكن فرنسيي الجزائر قد قاوموا فكرة « المملكة العربية » .

كانت الجمهورية الثالثة مرتابة حيال المستقبل ومرغمة على الوقوف موقف الارتقاب ، فاختارت في البدء سياسة التمثيل التي كان مدعواً للاستفادة منها لا مستعمرات الجزائر القديمة فحسب بل السنغال والمؤسسات الاستعمارية في الهند ايضاً . ثم تألفت كتلة افريقية ، من المتوسط - بجهة زادت اتساعاً على هذا البحر - حتى خليج غينيا و « دارفور » وحتى الكونغو الاسفل . وجرى تجمع آخر في داخل المثلث المرسوم بين جيبوتي وشاندرناغور و « سانت - ماري » في مدغشقر ؛ وارتسمت كتلة ثالثة في الهند الصينية . واذا اضفنا الى ذلك ان فرنسا موجودة في اميركا واشتركت في اقسام اوقيانيا ، اتضح لنا ان امبراطوريتها قد تميزت بوجودها في كل مكان على غرار الامبراطورية البريطانية . وانما تقابلت نزعات مختلفة اتصل بعضها بالفلسفة الجمهورية الديموقراطية وبعضها الآخر بالموضوعية النفعية ، او كانت توفيقاً بين المبادىء والوقائع . واضطرت الانتهازية، بالاضافة الى ذلك، الى ان تأخذ بعين الاعتبار المعارضة المقاومة للاستعمار ، فقامت بتبديل الصيغ وفاقاً للظروف والحالات ، وتبرير « الاستبداد المستنير » الذي يعتمده الحكام، وافساح المجال في الوقت نفسه للمشاريع الرأسمالية. ولم يكن هناك وزارة مستقلة للمستعمرات قبل السنة ١٨٩٤ : بل اكتفي بمجلس أعلى استشاري انشىء في السنة ١٨٨٣ ، ومديرية ترتبط اما بوزارة التجارة واما بوزارة البحرية ، بينما ارتبطت محميتا تونس وأنام بوزارة الشؤون الخارجية . وترقبت التجمعات الاقليمية (اتحاد الهند الصينية ، وافريقيا الغربية الفرنسية ، وافريقيا الاستوائية الفرنسية) انشاء ملاك الحكام الاستعماريين في السنة ١٨٨٧ . يضاف الى ذلك ان ردة فعل مذهب حماية الصناعة الوطنية قد شجعت السياسة المعروفة بسياسة الربط التي كانت التدابير الجمركية نفسها ممكنة التطبيق بموجبها في الوطن الام والجزائر والمستعمرات القديمة ومدغشقر. اما بصدد المحميات والممتلكات الاخرى فيجب التفاوض مع الاجانب .

ان توثيق الروابط هذا بين فرنسا وممتلكاتها قد صادف في الزمن فترة الهبوط الاقتصادي . فاعتمدت الانتهازية والاختبارية طرائق جديدة . وقابل اللامركزية الادارية والتجمعات الاقليمية توجيه نحو الاستقلال المالي الذي كان من شأنه تشجيع التجهيز دون ان يتحمل الوطن الام نفقات كبرى .

دخلت «فرنسا الكبرى» هذه في التراث العاطفي الفرنسي ، مع ان الفرنسي لم يُجد تحديدها كما يجب التحديد . ولكنها لم تعرف ، لمدة طويلة ، سوى تقدم بطيء جداً ، لأنه كان ينتظر منها اكثر مما يسلّم باعطائها .

التفوق البريطاني

منذ أواخر القرن الثامن عشر تجدد ارتقاء بريطانيا وسيرها قدماً . فقد حلت محل امبراطوريتها الاولى ، التي كانت تجارية وتمثلت في اميركا اكثر منها في القارات الاخرى ، امبراطورية ثانية ارتسمت حدودها حوالي السنة ١٨٥٠ وبلغت الذروة في السنوات ١٨٧٠ – ١٨٨٠ . تلك هي امبراطورية العهد الفيكتوري : امبراطورية المقايضة الحرة ؛ امبراطورية بريطانيا العظمى التي اصبحت بدون منازع اعظم دولة بحرية وتجارية وصناعية ومصرفية ايضاً . زد على ذلك من جهة ثانية ان الهيمنة البريطانية قد بلغت، كما يبدو ، من الرجحان الذي لا يقاوم ما جعل بعضهم يعتبرون استخدام القوة وحتى عرضها عملية نافلة كان لها ما يبررها قبل تلك الايام ؛ فليس من حاجة الا للمفاوضة والتجارة لترجح الحجة البريطانية . الا ان وجود الامبراطورية كان ضمانة جليلة الفائدة للتقدم .

تألفت الامبراطورية من عناصر ثلاثة موروثة عن العهود السابقة ما زالت تتقدم تدريجياً : المستعمرات الستراتيجية ، المناطق الحارة ولا سيا الهند ، ومستعمرات الاسكان في المنطقتين المعتدلتين .

كان المضرب المعظم الذي حاكته انكلترا على سطح الارض على وشك الاكتمال . وقد طنبته شبكة كثيفة من الاسواق التجارية ونقاط المساندة ومرافىء التموين ، وفاقاً للطريقة الاستعمارية البورتغالية . فحيثما وجد جون امين ونقطة يسهل اقتراب السفن منها على الطرق البحرية ، هناك يكون البريطاني . امعن في البحث عن الجزر وحتى عن الجزيرات في المضائق، وجعل منها محطات بحرية للتزويد اساطيله بالمياه والمواد الغذائية والمحروقات وتموين السفن الاجنبية . وعلق فيها اسلاكه التلغرافية . وانطلق منها ، عند الحاجة ، لاستطلاع الوضع التجاري في القارات القريبة . واستخدمها كقواعد للعمليات البحرية وحتى البرية . فامتلك من ثم معظم الجزر المتناثرة امام الشاطىء الاطلسي في العالم الجديد ، التي كانت بمثابة الركائز لجسر عظيم يصل اوروبا بافريقيا الجنوبية (حتى ولو كانت ترفع علما ايبريا) ، والجزر المتناثرة كذلك في المحيط الهندي – الذي احتفظ به لنفسه – او المحيطة به ، والجزر التي تسيطر على مدخل بحر الصين . واضاف بريم الى عدن لمراقبة باب المندب مراقبة فضلى ،

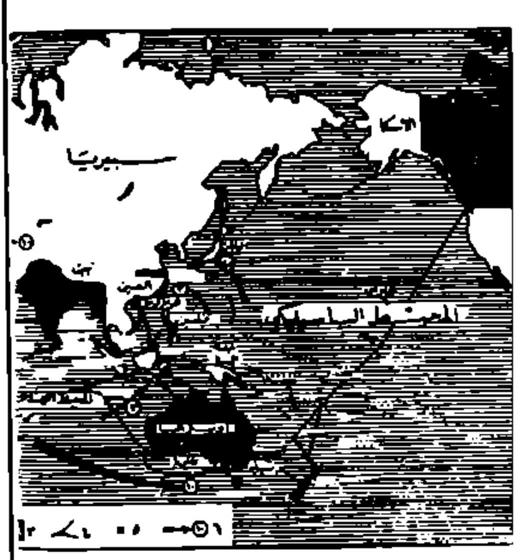
وهونغ كونغ الى سنغافوره لاستقطاب تجارة الصين ، وحين شعر بأنه ما زال بحاجة الى محطة اخرى ، استولى على جزيرة « لابوان » أمام ساحل بورنيو الشمالي ، التي انطلق منها لاحتلال بورنيو الشمالية البريطانية ؛ وخلال السنة ١٨٧٨ ، حين اشتدت الازمة بينه وبين روسيا ، وضع يده على قبرص في المتوسط الشرقي ؛ ولم يكتف بإنزال جيوشه الى جزر البحرين وكشم في مضيق اورموز لمراقبة الخليج الفارسي ، بل وقع اختياره على رأس جلرك قبالة مسقط ، وجزر كوريا – موريا جنوبي الجزيرة العربية ، وجزيرة سكوطرة عند مدخل خليج عدن ؛ وباستيلائه على جزر « فيجي » احتفظ لنفسه باحدى المحطات الفضلى على الطريق البحرية عبر الباسيفيكي من الشمال الى الجنوب . وكانت هذه المواقع بمثابة نوافذ على الاراضي المجاورة : سنغافورة على الدول الماليزية ، ولابوان على بورنيو ، وعدن على مؤخرتها العربية ، ولاغوس على نيجيريا ، و « مباز » على افريقيا الشرقية ؛ بالاضافة الى زنجبار التي قايض مليغولند بها في السنة ١٨٩٠ .

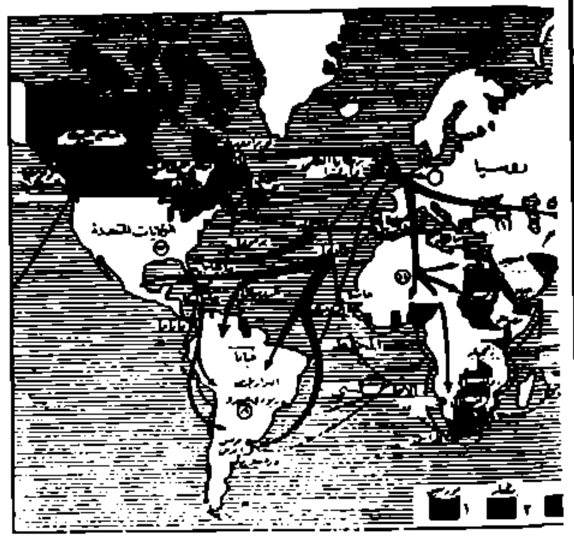
الهند الغربية والهند الشرقية : لوحتان دلتا ابداً على الممتلكات الكبرى في المناطق الحارة . فمن جهة ارخبيل « وندوورد » وارخبيل « ليوورد » في الانتيل ، وجامايكا الجميلة ، وكبرى مستعمرات « غويانا » ، وبقعة من « هوندوراس » حول « بليز » ؛ ومن جهة اخرى الهند وملحقاتها . وفيما بينهما ، اي في افريقيا ، مستعمرات لا اهمية كبرى لها : غامبيا و « سيراليون » وسوقا اكرا ولاغوس على الشاطىء الغربي . فقد انحصر الاهتمام كله بالهند التي لم يدخر الانكليز وسعاً في سبيل استثمارها وحماية حدودها . اليها اتجهت كافة الطرقات التي سهرت عليها غيرة مفرطة : الطريق القديمة التي زاد نمو افريقيا الجنوبية البريطانية من تعزيزها ، والطريق الجديدة التي كادت تصبح بدورها طريقاً بريطانية بعد احتلال مصر . وقد تلاحمت حينذاك الحلقة الاخيرة من السلسلة الامبراطورية التي امتدت بين لندن وبومباي مروراً بجبل طارق ومالطا والبحر الاحمر .

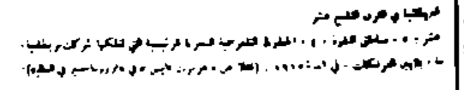
ولم يعتد بكندا وافريقيا الجنوبية والمستعمرات الاوسترالية للاسكان بقدر ما اعتد بها لمساحاتها الكبرى . بيد ان الاوروبيين اخذوا يتوافدون عليها بأعداد كبيرة ، ونمت فيها حياة على الطراز البريطاني . فأخذت تترعرع شخصيات قومية قوية في هذه الاراضي التي اكتسب فيها المهاجر عادات جديدة اضافها الى اخلاق الوطن الام .

والحال ، في الوقت الذي ما زال غلادستون يثبت فيه انه المعبر الامين عن الحرية المنشترية ، وبينا تواصل في الوقت نفسه ، في الوطن الام ، وفي مستعمرات الإسكان ، وحتى في مستعمرات المناطق الحارة ، تطور نحو نظام تمثيلي اوسع عدداً ، دخلت الامبراطورية الثانية في مرحلة تحول .

هي نتيجة الهبوط الاقتصادي ما جعلت المنافسة اشد حدة والحمى الاستعمارية اعظم خطورة في حين بدأ التسابق الى التسلح . فاتخذت الدولة البريطانية احتياطاتها على طريق







شكل ١١ – [illegible] البريطانية في القرن التاسع عشر

[illegible]

الهند عبر السويس ، ولكنها ما كانت لتستطيع البقاء بعيدة عن اقتسام افريقيا واوقيانيــا الذي سوف يتحقق بكل سرعة . اضف الى ذلك من جهة ثانية أن القوميات الفتية استيقظت في داخل مستعمراتها الاسكانية التي سبق ومنحتها الحكم الذاتي : فاذا اصبح بمقدور ممتلكة كندا في شبابها ان تنفتح على اميركا الشمالية ، فان اوستراليا وزيلندا الجديدة اخذتا منذ ذاك الحين تنشطان في الجزر الاوقيانوسية الصغرى ، وانطلاقاً من « الراس » تأسست شيئاً فشيئاً افريقيا جنوبية بريطانية واسعة الارجاء . وهكذا بينا كانت بريطانيا تعزز حدود الهند باستيلائها على الممرات الايرانية والمملاوية وبضمها بورما ، هجمت بجيوشها على افريقيا حيث اقتطعت مستعمرات واسعة جديدة . وكانت مكاسبها الاقليمية عظيمة جداً بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٢ : ١١ مليون كيلومتر مربع .

باتت الامبراطورية برية اكثر منها بحرية . وبعد اليوم تمثلت فيها الجماعات البشرية المتأخرة حضارة والمتخلفة تطوراً تمثلا اقوى ، فتعاظم التضاد سياسياً بين هذه المناطق التي كان الوطن الام حريصاً على الاحتفاظ بها وبين المجتمعات الاوروبية الطابع التي ستكوّن الممتلكات . ولكن بريطانيا اهتدت بمرونة الى خير صيغة تلائم مزاج كل منطقة . واذا قضت الحاجة بأساليب مختلفة ، واذا اقلقت بعض القوى الانفصالية ، الشعوب الانكلوساكسونية الجديدة ، فان التضامن قد عززته الحاجة الى دفاع مشترك واعتماد مبدأ الحماية التجارية اعتماداً مطرداً .

وفي آخر القرن كان العالم البريطاني محافظاً على تلاحمه وعلى الاعتزاز بتفوقه .

المستعمرون الاخيرون : من الارث البلجيكي الى المطامع الالمانية والايطالية

في السنة ١٩٠٠ ، كان اقتطاع المستعمرات قد بلغ مرحلة متقدمة جداً ، وهي الدول القديمة ، ولا سيا فرنسا وبريطانيا العظمى ، ما اصابها النصيب الاوفر . ولكن دولاً استعمارية جديدة قد برزت .

فان الدولة الكونغولية التي كانت ثمرة مبادهة ملكية ومعاهدات دولية لم تضمن مستقبلها ، سوف تخضع لرقابة حكومة بروكسل : انها أوسع الانصبة مساحة واكثرها تجانساً واوفرها ثروة واصعبها استثماراً .

كان بسمارك قد اشرف على ولادة « الدولة » المستقلة . فهل هو لم يصمم بعد على تحمل مسؤولياته يا ترى ؟ ام هل أنه كان راغباً في مراعاة جانب انكلترا ؟ واذا كان هذا هو واقع الحال ، لماذا تستطيع المانيا ، ان لم يكن الاستئثار بما تبقى بعد التقسيمات الكبرى ؟ وهكذا تكونت ، في اقل من عشرين سنة ، مستعمرات المانية شملت مجموعتين ، الاولى في افريقيا (جنوبي غربي افريقيا) وهي نصف صحراوية وتتميز بعدم الاتصال وصعوبة الاستثمار ، والثانية في الباسيفيكي (في ساموا ، وغينيا الجديدة ، ومجموعة الجزر المجاورة) ، وهي نائية جداً وقليلة التجانس . ومن جهة ثانية لم يبتغ بسمارك سوى تشجيع مشاريع مواطنيه ! فهو في

كل مكان تقريباً قد اراح نفسه من شجون الادارة ملقياً اياها على عاتق الشركات التعاقدية ، وحين حل « الرايخ » محل هذه الاخيرة ، وجد نفسه أمام « مقاطعات موضوعة تحت حماية الامبراطور » لا ترتبط الا بالمستشارية الامبراطورية . وبعد بسمارك لم يبق من اهمية لهذه المستعمرات ، في برلين ، الا بالنسبة للسياسة التوسعية الجرمانية ؛ فقد تمت فيها الشركات ذات الامتياز بكل حرية ، وأتت التجاوزات نفسها التي اتتها الامتيازات البلجيكية او الفرنسية.

ولكن ألمانيا ، التي عجزت عن ارضاء حاجات هجرة واسعة وحاجات رأسمالية تزايدت مشاريعها ، والتي لم تمتلك اي موقع من المواقع الهامة الرئيسية ، والتي كانت مع ذلك في موقف ملائم للمطالبة ، اذ ان ممتلكاتها كانت محاطة بممتلكات الدول الاخرى ، ارغمت بالضرورة على اللجوء الى التهديد الجدي للحصول على فوائد جديدة .

كانت ايطاليا دون المانيا قوة ، ولكنها على الرغم من ذلك ، كانت راغبة في الاستيلاء على تونس : فخاب املها مرة أولى . ثم توجهت بانظارها الى افريقيا الشرقية : ولكن قواعد انطلاقها (اريتريا والصومال) كانت ضيقة ، فانتهى هجومها على الحبشة في السنة ١٨٩٦ بكارثة كبرى . وجملة القول انها كانت غنية بالرجال وفقيرة بوسائل العمل ، فلن ترضى ولن تقنع ، بل ستوجه اطماعها شطر ليبيا .

بيد ان مجالات المنافسة قد ضاقت حين استفادت الولايات المتحدة من الانحطاط الاسباني ودخلت المعترك بدورها . فحول المناطق الاخيرة التي لم تدخل في فلك احد - المغرب ، والشرق الادنى ، والشرق الاقصى - كانت الدول الاستعمارية ، القديمة منها والجديدة على السواء ، في حالة ترقب وتأهب . وفي الشرق الاقصى برز شريك مضارب اخير هو اليابان .

لقد بلغ توسع اوروبا الاستعماري ذروة اشرف منها على الانحدار .

القسم الثالث

الحضارة الأوروبية
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

بلغت اوروبا في هذه الحقبة من تاريخها ذروة القوة والسيطرة . فهي تنعم بما تمّ لها من سؤدد وسيادة وسلطان . هنالك لعمري ، في الشرق والجنوب منها، مناطــق ريفية لم تتأثر كثيراً بالتطور الرأسمالي . فالمدينة هي التي تبعث في الغالب ، الحركة والنشاط وتدفع بها الى الامام بسرعة . ففي الاطار المدني ، البورجوازية هي التي توجه الانتاج وتشرف على توزيع الثروات وتتحكم بالمدينة التي تنعم بالحرية وتكيف ما يقوم فيها من نظم ومؤسسات.

ومع ان عملية تفاعل العناصر التي تؤلف قوام الحضارة الاوروبية تنمو بسرعــة وتنشط باستمرار، فالتنوع لا يزال يستبد بالنظر في هذه القارة التي تنبض ، بالرغم من صغرها، بالمفارقات الاقليمية والاجتماعية . فالاثراء في قلب كل دولة من دولها المتعددة يرسم منحنىً تلحظ العين بسرعة ما فيه من نقاط سود يرسمها الفقر . فاذا ما ارتفع فيها المستوى العام للحياة ، فحقوق البروليتارية فيها آخذة بالتضخم .

والى هذه كله فالنفوس في غليان موصول ومعين الفن فيها ابعد من ان يجف او ينضب .

الفصل الأول

المدينة ودفعها الشديد

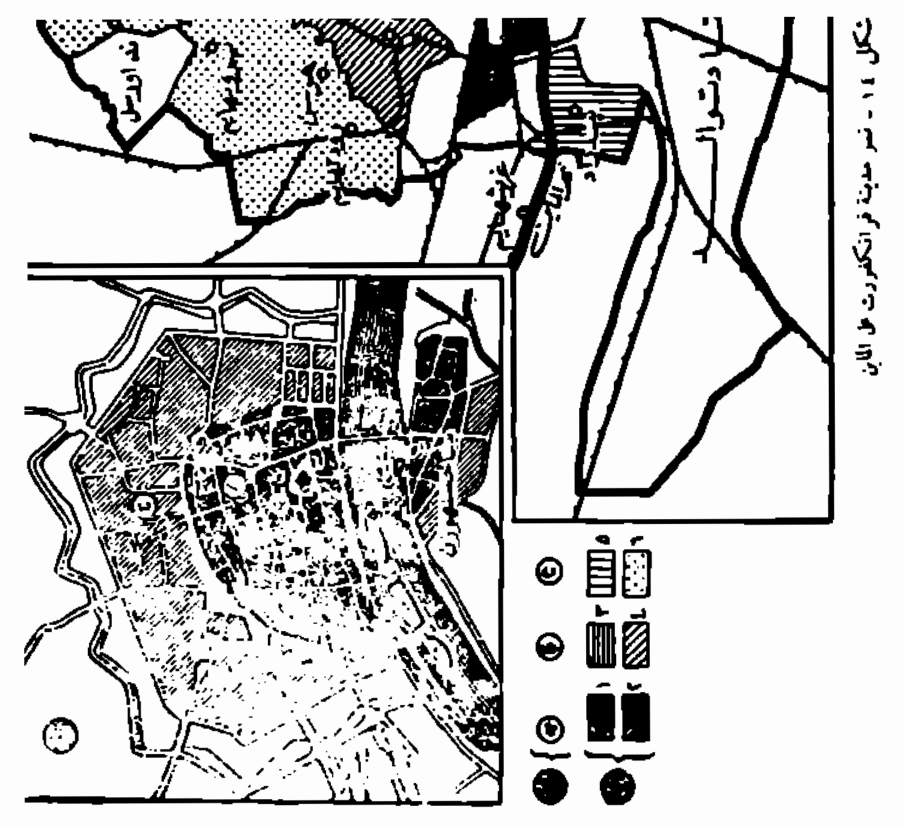
«اخضعت البورجوازية الريف للمدينة وخلقت مدناً جبارة» . (بيان الحزب الشيوعي ـ ١٨٤٨) .

ازدياد السكان في المدن

اتخذت المدن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مظهراً من الضخامة والاتساع لم يسبق له مثيل للآن . كان سكان الريف، حتى عام ١٨٥٠، اوفر عدداً منهم في المدن ، باستثناء انكلترا . واخذت حركة الاحتشاد والتجمع في المدن تزداد بسرعة . وهذا التجمع والتمركز تم بالطبع على حساب الريف، واخذ يتطور ويتضخم. فهو ناجم عن حركة نزوح سكان الريف ، ولا يمكن رده بصورة من الصور النمو والتزايد الطبيعي لنسبة المواليد في المدن . ففي فرنسا مثلا نرى ان المجتمعات التي يمكن وصلها بالمدينة (وهي التي يجب الا يقل عدد السكان فيها عن ٢٠٠٠ نسمة) ارتفع عدد السكان فيها ، بين احصاء ١٨٤٦ و ١٨٩٦ ، الى ٦٣٧٩٠٠٠ وهو عدد يشير ليس الى مجموع الزيادة العامة فحسب بل ايضاً الى نسبة امتصاص المدن من سكان الريف ما مجموعه ٣٢٦١٠٠٠ نسمة . وهنا لا بد لنا من الملاحظة ان سير هذا التطور كان اسرع في مقاطعات الغرب والوسط منه في الشرق والجنوب ، وهكذا يبرز لنا بوضوح كلي تفوق مدني يزداد يوماً بعد يوم في وجه هذه القارة الاوروبية التي لا تزال بعد ريفية في صميمها .

هنالك حوالي ١٨١٥ ، اقل من ٢ بالمئة من سكان اوروبا يقطنون نحواً من عشرين مدينة يتجاوز عدد سكان الواحدة منها ١٠٠ الف نسمة ، بينما نرى عام ١٩١٠ ، ست مدن يزيد عدد سكان الواحدة منها على مليون نسمة ، و ٥٥ مدينة يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠ الف فتضم معاً ١٥ بالمئة من المجموع العام للسكان في اوروبا . فالمرتبة التي تحتلها عواصم

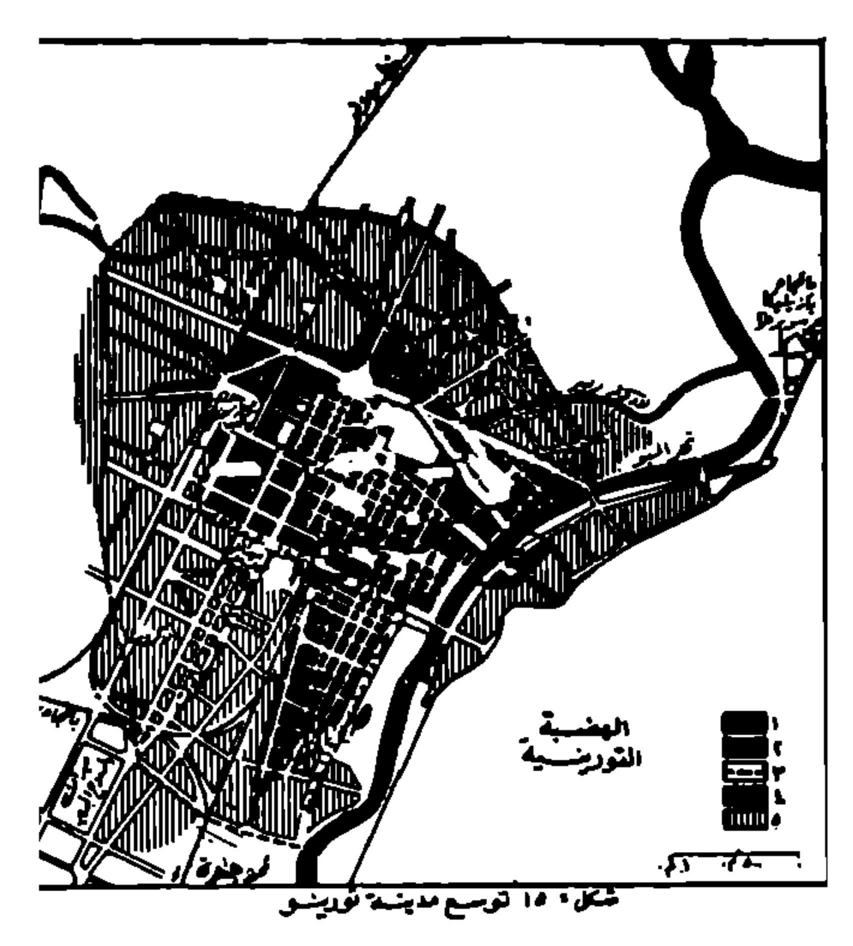




شكل ١٤ ـ نمو مدينة فرانكفورت حتى الآن

ثانياً ـ نمو فرانكفورت في القرن التاسع عشر : يظهر الرسم المدينة القديمة بأحيائها : الالستادت والنوستادت، فيها ٤٠٠٠٠ نسمة عام ١٨٠٠ ، وتأخذ المدينة بالتوسع والامتداد وراء السور الذي اقيم في القرن السادس عشر . تبلغ مساحة المدينة اذ ذاك ١٧٨٢ هكتاراً . كما يرتفع عدد سكانها عام ١٨٦٦ الى ٨٠٠٠٠ نسمة وتأخذ المدينة بالتوسع على حساب المساحات الواقعة وراء السور ، بحيث اصبحت تعد ، عام ١٨٩٥ ، اكثر ٢٨٠٠٠٠ وارتفعت مساحتها الى ٨٠١٤ هكتاراً .

ل لفت النظر والـتلبد بالانتباه والملاحظة فقد هت لندن ، عام ١٨٨٠ ، نحـــوآ
ين من اصل ٣٠ مليوناً انكليزياً ، وحت باريس فرابة ٣ ملايين من اصل ٣٧ مليوناً فر



شكل ، ١٥ توسع مدينة تورينو

- جرى تحصين المدينة في مطلع القرن التاسع عشر (٢٨٠ مكتاراً) تسع ٦٥٠٠٠ نسمة.
- امتداد على عهد شارل البير .
- حدودها عام ١٨٥٣ (١٦٦٢ مكتاراً).
- منطقة جرى اعمارها حوالي عام ١٨٨٥ (٢٥٠ الف نسمة).
- امتداد المدينة في اواخر القرن التاسع عشر (٦٠٠٠ مكتار ، و ٥١٠٠٠٠ نسمة عام ١٩١١) .

(مأخوذة من كتاب ب. غريبود)

ادة في قرن واحد بلغت ٣٠٠ بالمائة في مـــدينة بطرسبورغ ، و ٣٤٠ بالمائة في لند

و ٣٤٥ بالمائة في باريس وبلغت في فينا ٤٩٠ بالمائة ، وفي برلين ٨٧٢ بالمائة . فسكان لندن اذ ذاك يعادلون سكان بلجيكا .

والطابع العالمي والدولي لسكان المدن الكبيرة يشتد ويبرز باستمرار . فتيارات الهجرة الضخمة تتجه اليها . فالايرلنديون والسكنديناڤيون والعديد من سكان القارة يزحفون الى لندن . بينما السلافيون والمجر واليهود يقصدون فينا . فمن مجموع سكان مدينة ميونيخ ، في عام ١٨٩٥ ، ٣٧ بالمائة فقط ولدوا فيها . اما في مدينة سانت اتيين فعدد من ولدوا فيها هم ٥٠ بالمائة .

المدينة القديمة وتوسع المدينة الحديثة

فاذا ما ساعد القرن على تأمين النمو للمدن القائمة ، فقد عمل بالاكثر على صقلها وافراغها .

صحيح ان المنجم والمصنع ساعدا كثيراً على خلق مدن جديدة كانت مواقعهـــا في الامس القريب خواء . والامر يتم ، بالاحرى مع المصنع الذي يقوم عــــادة حيث تتوفر امكانات التوزيع . وقد جاء الخط الحديدي هنا يقوم بعملية غربلة او تخير افادت منها بعض التجمعات اكثر من البعض الآخر ، كما ان فن الملاحة وتطورها ساعد كثيراً في نمو المرافىء وامتدادهـــا . ولا بد من الملاحظة هنا ان النشاطات السياسية والادارية والفكرية حتى والدينية منها لعبت هي الاخرى دورها البارز في نمو المدن وتوسعها .

ولما كانت المدينة ترتبط بالريف الذي يحيط بها ارتباطاً وثيقاً فتؤلف منه سوقـــاً وبندراً تجارياً ، فقد عرفت كيف تحافظ على اسباب وجودها . فقد تجلت صورتها لموريس باريس عام ١٩٠٩ كما يلي : « هاهي منذ اجيال تحتل الرابية نفسها التي تقوم فوقها الآن . هاهي ذاتهـــا تقريباً ، باستثناء سورها الذي فقد الكثير من متانته الاولى . فقد استحال الحيّز الذي شغله حدائق غناء وجنات خضراء وضعت فيها سلواها ومتعتها . ففي كل يوم ، وفي الساعات والاوقات ذاتها نرى هذه الايدي التي تعتني بها ... »

كثيراً ما يحدث ان هذا الماضي الماثل امامنا لم يلحق به عصر الصناعة الكبرى الذي يسيطر الآن؛ اي اذى، وهذه المظاهر والرؤى المثالية تحيى معاً وتتراكب بمدان تتخلى عن ميزاتها الفارقة . فالمدينة القديمة هي التي تحدد موقعها على العموم، وعلى كل خطة توضع لتجميلها ان تحسب حساباً لها وان تكيف ومقتضيات هذا الوضع الطوبوغرافي . وتبذل حركة تطوير المدينـــة كل جهد مستطاع لتحترم آثار المدينة وخططها التاريخية ، فلا تمسها معاول الهدم . ولذا فترا كم المنازل وتراكبها بعضاً على بعض كثيراً ما يجري في هذه الاحياء التاريخية . وقد يجري هــذا الاحتقان قبل ان تتيح وسائل النقل السريعة على اختلاف انواعها ، مراعاة حركة البناء والامتداد لتوفير الفراغ والساحات فيما بينها . ففي برلين حيث الاتساع والامتداد تم باكراً وبسرعة غريبة ، فقد بلغت كثافة السكان في قلب المدينة ، عام ١٨٩٠ ، ما معدله ٣٧٥ شخصاً في الهكتار الواحد ، مقابل ٢٥٠ نسمة الهكتار بالنسبة للمدينة كلها . ومع ذلك فبفضل حركة الامتداد

والاتساع ، لم يعد مركز القلب ليمثل ، في لندن ، سوى ٨،٥ بالمائة من مجموع السكان عام ١٨٩١ ، بينما كان معدله ١٥ بالمائة عام ١٨٠١، بعد ان فقد قلب المدينة ٧٠ بالمائة من سكانه. أما في برلين ، فالاحياء *Altstadt* و *Ferderichstadt* يسجلان تأخراً او بالاحرى تقهقراً بين ١٨٧٥ – ١٨٩٦ ، اذ هبط معدل السكان فيها من ١٧،٦ الى ٧،٣ بالمائة . وفي باريس ، هدمت الامبراطورية الثانية الاحياء العائدة فيها الى الاجيال الوسطى او الى عهد الملكية المطلقة ، وذلك بما يوازي مساحة ٥٠٠ هكتار من اصل ٣٣٧١ هكتاراً هي مساحة المدينة داخل الحصون التي امر بتشييدها الملك لويس فيليب. فقد امر بفتح ثغرات او فجوات واقام ميادين او ساحات في قلب المدينة ، وبنى دوراً للحكومة رحبة ، كما امر بهدم المنازل السكنية الحقيرة المنظر ذات المساكن الضيقة لتحل محلها مبانٍ بورجوازية ضخمة . فهاهو بوردون يحدثنا عن « المدينة الجديدة الرتيبة ، المملة التي انشأها هوسمان ، مع ما لها من جادات مستقيمة الزوايا وفنادق ضخمة وأرصفة بديعة ، مقفرة ، ونهرها الكئيب الذي لم يعد يرى ينقل سوى احمال الحجارة والرمل مع مراكب وعنابر قائمة لدى منتهيات الخطوط الحديدية، التي بعد ان حلت محل مرافىء المدينة ومرافئها القديمة ، افقدتها سبب وجودها لهذه الساحات والميادين ودور التمثيل الجديدة وطرقها المرصوفة بالحصباء ، وهذه الطوابير من الكناسين ، وهذه السحائب الخفيفة ، من الغبار المتصاعد . واخذت الاحياء ترتدي طابعاً خاصاً مميزاً ، لكل منها منظره الهندسي الخاص . هنا الاحياء الخاصة بالتجارة بالجملة ، وهناك احياء محطة سكة الحديد ، واحياء الادارات العامة .وهذه الحواجز والفواصل المادية لم تلبث ان حملت طابعاً اجتماعياً مميزاً اخذ يبرز من خلال ارادة البورجوازية . « فالعملاء أبعدوا بقوة عن قلب المدينة » ، كما يلاحظ اوغسطين كوشين .اما في منشستر حيث يسكن اصحاب المبارك والمصانع،عام ١٨٣٠، يسكنون منازل ، اسودت جدرانها من تراكم السخام عليها ، منازل كانت تحيط بها اكواخ العمال وزرائبهم ، فلم يلبثوا ان نزحوا الى ضواحي المدينة حيث يتوفر الهواء الطلق ، بعيدين عن كل اتصال بطبقة البورجوازيين والمياومين الذين اخذوا يتكدسون في احياء تفتقر الى الوسائل الصحية .

وعلى جانبي الشارع الذي خططوا له من عهد قريب ، ترتفع هذه المباني والعمائر المعدة للاستثمار ، من ابرز انواعها هذه العمارات ذات الواجهة الجميلة ، بينما الظهر منها يطل على ساحة داخلية ظليلة ، والطابق العلوي يحتفظ به للخدم والحشم وقد قسم دائرياً الى حجرات ذات سقف تندي يدخلها النور من منافذ في السقف . والطابق او الدور الواحد ينقسم الى شقق او مساكن ، يضم كل واحد منها عدة غرف كبيرة ، رحبة بعد ان ضحوا بالمطبخ والقسم الصحي، اذ ان غرفة الحمام لم يهتموا بها الا فيما بعد . فكل شيء في المبنى جرى تصميمه على اساس الجاري برسم الايجار .

ويقوم حول المدينة جادة دائرية او صف من مراكز المخولية . وتجاوز هذا الخط الى

الى الوراء يعتبر حدثا هاماً في تاريخ تطور المدينة وامتدادها ، اذ يحررها ، الى الابـــد ، من النطاق المضروب حولها ويفتح امامها مجال التوسع والامتداد . وقد قـام حول باريس عدد من هذه المناطق الدائرية استحالت فيما بعد حارات واحياء جبلة متحدة المركز ، وقـــد حدّ من طاقتها على التطور والاتساع سلسـلة الحصون التي انشئت حولها عام ۱۸٤۰ . ولم تخضع لندن لمثل هذا الارتقاق الذي يحد من قدرتها على التوسع . وقد حل نطاق من المباني والمعالم محـــل الاسوار بعد ان أزيلت من الاساس وُهدمت عـام ١٨٥٧ ،وأزيلت كذلككتباعاً منمدينةانفرس اسوارها عام ١٨٥٩ ، وكذلك من مدينتي بال وبرشلونة ، عام ١٨٦٠ ، ومن كوبنهاغن ، بـين ١٨٥٧ و ١٨٧٢ ، ومن كولوني عـام ١٨٨١ ، وامتدت ميلانو الى ما وراء سلسـلة الحصون التي كانت تحميها ، كما ان مدينة امستردام تجاوزت كثيراً نطاق شبكة الاقنية المائية والترع التي كانت تحيط بها .وعمر حي المحطة بالمباني السوقية حيث اخذت تظهر سلسلة من الفنادق والمقاهي، ولن تلبث المـدينة حتى غطت الضواحي القريبة فاصبحت بدورها احيـــاءً عـامرة اصبحت واسطة العقد بين الريف والمدينة .

بحثا عن هندسة خاصة بالمدن

هنالك رغبة شديدة في احتمـال تعديل اساسي عـلى هـذا الطراز المعماري المسيطر على الاذواق في بناء عمارات ضخمة ، بالجملة . ففي مذكراته يعارف هوسمان « بأنه كثيراً ما ضحى بالخط السوي في البناء ، ويأسف كثيراً لان عهد الامبراطورية الثانية لم يشهد مهندساً خلاقاً يحاول اجراء تجديد في فن العمارة بحيث يراعي الموجبات الجديـــدة » . وبالفعل ، فالعصر كله يتعثر في تردده ، ويكثر من التقليد كما ان ابتكاراته تفتقر الى الإصالة .

وبشعور من الوجل والجرأة ، والتردد والاقـدام ، خيل للكثيرين في هذا العصر ان عليهم او باستطاعتهم ان يقلدوا ، على هواهم، الفن القديم او الفنالقوطي او فن عهد النهضةوالانبعاث. ولذا نراهم يندفعون وراء التجديد والتقليد . فقد علقت باريسبالفن الايطالي في عهـــد النهضة محتذية بذلك حذو العصر الذهبي الكبير (القرن السابع عشر) فتحيي بذلك الفن الكلاسيكي الروماني ، كما يظهر ذلك جلياً لمن يتملى النظر في كنيـسة الثالوث الاقـــدس وسانت فرنسوا كـسافيـه ، والاوبرا والوفر الجديد ، كما يحلو لغارنيـه الاكثار من ترويق الأوبرا بشكل ينبو عن الذوق السليم ، كما ان دوكـنوى عمـد هو الآخر،الى تقليد الفن الكلاسيكيفي هندسته لمحطة الخط الحديدي الشمالية ، ويحذو حذوه هيتورب في بنائه المحطة الشرقية . الا ان بلتار الذي تولى بناء الهال الذي اكثر فيه من المـواد المعدنية آثر ان يضفي على كنيـسة القديس اوغسطين مظهراً بيزنطياً . اما البريطانيـون المحافظون فقد مالوا بالاحرى الى الطراز القوطي بينما اخـــذ الاحرار منهم بالطراز الكلاسيكي كما نتمثل ذلك في قصر بوكنغهام مثـــلا وفي اروقة كاتدرائية سانت بول ، والطابق الارضي لمسلة نلسون، بينما ارتدت مباني الجامعة في لندن طرازاً يونانياً . اما في فيينا فالطراز المسيطر عليها هو المعروف بطراز فرنسوا جوزف . فقد تمثل في الكنيـــة

التذكارية ، الا ان مبنى المصفق (البورصة) ومسرح هولسبرغ والمتاحف التي قامت فيها ، معظمها من طراز فن عهد النهضة . وقد استلهم *Poelaert* الفن الكلاسيكي في تجديد رسم وشكل قصر العدل الضخم في بروكسل .

والهندسة قلدت على اقدار مختلفة من النجاح، المتعارف من فنون القرن الثامن عشر كالجادات والميادين العامة والحدائق . واستعملت على نطاق واسع ، فن الحفر لتزيين القصور ومطارق الشوارع الكبرى ،بالتماثيل والانصاب . ولما كان الحجر يوحي دائماً فكرة الضخامة ، فقد حاول بعضهم استخدام المواد المعدنية فيأتي مظهر البناء من الخارج متمناً مفهماً ... فالمهندس لابروست يكثر من المواد الحديدية في المكتبة الاهلية في باريس ، وفي مبنى سانت جنفيف مخففاً بذلك من تراكم الاعمدة . فالاحجام الثقيلة المشرقة، الهيفاء، تليق كثيراً بالمباني الخاصة بالمعارض ومحطات السكك الحديدية وبالهالات .

تطور الخدمات البلدية الصحية

اثار نمو المدن السريع وامتدادها مشكلات متعددة،متماثلة، فاذا ما حفظ لنا تاريخ تطور باريس اسماء يتمتع اصحابها بالشهرة وبعد الصيت امثال : رمبوتو وهوسمان وبوبيل ، فبروكسل تفخر وتدل برئيس بلديتها أنسباش ، معاصر هوسمان وزميله في الوظيفة محافظاً ، كما اشتهر جوزف شمبرلن بوصفه اميناً لمدينة برمنغهام .

فقد عدت لندن ١١،٠٠٠ شارع اي ما يعادل طول ٨٥٠٠ كلم،كما بلغ معدل طرق باريس ٢٣١٥ كلم ، رصف معظمها بالحجارة والبلاط واقيمت الارصفة العريضة على جانبيها. ورصف الطرق بالخشب ، أخذ به عام ١٨٨٠ ، كما لجأوا الى ترفيت الطرق بعد ذلك بقليل وتم النقل ثلاثة انواع من الوسائل : الامنيبوس او سيارة كبيرة للركاب ، وعربة الجر والخط الحديدي على سطح المدينة او تحت الارض، ثم الترامواي :مكهرباً كان او غير مكهرب. وغاز الاستصباح يبلغ استعماله الذروة عام ١٨٩٠ ، فهو وسيلة سهلة التدفئة لم تلبث ان عمت المطابخ . أفيبقى بعد هذا جائزاً التعويل في تأمين المياه على الحالبين والسقاة ، ولذا رأت ادارة المدن العودة الى استعمال قناطر الجر هذه القناطر التي عول عليها الرومان ، من قبل . فكانت باريس اول من فكر بين المدن باستنباط الماء من تحت الارض بواسطة الآبار الارتوازية ، ولعل اول بئر من هذا النوع هي بئر غرينيل. وراح المهندس بلغران يحاول جمع مياه بعض الينابيع المعروفة في المنطقة ، فارتفع استهلاك الماء لدى الفرد الواحد من ٦٨ لتراً الى ٢٤٠ لتراً في السنة . وبنت مدينة مدريد قناة لجر المياه طولها ٧٠ كلم . ومدينة منشستر تزودت بالمياه من كمبرلاند . وتصريف المياه القذرة او الملوثة عملية ضخمة تطلبت نفقات باهظة . فقد احدث بوبيل (محافظ باريس) ثورة في تلك المدينة عندما اصدر امره بان تطرح النفايات في صناديق خاصة ليتولى عمال من قبل البلدية فيما بعد ، جمعها ، ونقلها ، دون ان يبالي بمعارضة ١٠٠،٠٠٠ من جامعي الخرق والاسمال .

احشاء باريس ، هذه هي التسمية التي اطلقها زولا عندما راح يتكلم عن هال باريس . فالمدن الكبرى في الغرب تعول ، في تأمين موادها الغذائية ، ليس على هذه المناطق المحيطة بها فتؤمن لها حاجات من الخضراوات والحبوب فحسب ، بل ايضاً على هذه المناطق النائية عنها . ففيينا تستقدم حاجاتها من اللحوم من مقاطعات الالب والحبوب من هنغاريا ، والجعة من بوهيميا . وسكان مدن مقاطعة الروهر يؤمنون حاجتهم من البطاطا من المانيا الشرقية ، ومن هولندا ، والحنطة من اميركا ، والخضراوات من هولندا ، وفرنسا ، والخس على انواعه من مناطق البحر الشمالي ، والفاكهة والاثمار من فرنسا وايطاليا . وهكذا ندرك الآن كيف ان الالمان تمكنوا من اخضاع الباريسيين عن طريق تجويعهم .

وهذه الاقوام المحتشدة في هذه المدن العملاقة تعيش جماهيرياً ، لها ساعاتها من الغضب والحب . فباريس لا تغتفر للمجلس في

الشارع في عبثه ولهوه ومقتاته

فرساي «مجلس ابناء الريف» كما يلقبونه ، منافسته لها على لقب « العاصمة » ، فتعرب عن هياجها وعن ثورتها عندما يتقدم احد امراء آل هوهنز ولرن ليرشح نفسه لعرش اسبانيا . ويحلو لهذا الشعب الباريسي التهكم «بالتونكيين» ، ويتحلق حول بيرالجيه ويصفق له ويظهر عداءه للسامية خلال « القضية » (قضية اليهودي دريفوس) ويهتف القيصر مردداً :

لرؤية القيصر كما يجب
قم باكراً واحضر بسرعة
ولا تتمهل في سريرك

وقد تفاءل ادوار السابع خيراً خلال زيارته لباريس ، من موقف الشعب الفرنسي موقفاً حيادياً من الاتفاق الودي ، وراح شعب مدريد ، عام ١٨٨٢ ، يحيي الملك ألفونس الثاني عشر ، اثر عودته من زيارة قام بها الى المانيا ومر فيها على باريس (التي اظهرت استياءها وغضبها) يهتف قائلا : «ليحي الملك الرامح» ، وهذا لم يمنعه قط من ان يحتج بشدة على انزال فرقة المانية في جزيرة ياب . البزة العسكرية لها اغراؤها لعمري : فها هو ابن لندن او زائرها الاجنبي يسارع لمشاهدة حفلة تغيير الحرس امام قصر بو كنغهام ، وابن باريس كابن برلين ، يهرول في سيره لمشاهدة حفلة استعراض الجيش تقام في احياء العاصمة . فالتماثيل والانصاب الوطنية والشوارع تمجّد باسماء مشاهير الوطن ؛ والمبني التذكاري يلعب الدور ذاته الذي لعبه الضريح من قبل .

وجاذبية الشارع أقوى من اي وقت مضى . فالمناظر المتنوعة تأسر الانظار وتسبي الالباب بعد ان تكون شوارع العاصمة قد تألقت بالانوار السواطع ليلا . والنساء والفتيات لا يتحرجن قط عن الخروج ليلا . وفي باحات المقاهي يحتشد النظارة والزبن يتحدثون ويتسامرون محدقين بعضهم لبعض . وفي باريس اصبح للشوارع ولجساداتها البديعة سحر وفتنة دونها سحر القصر الملكي ، والاقبال على احتساء اكواب الجعة اصبح من الامور التي غزت اعراف

الامبراطورية الثانية بعد ان جاءتها من المانيا . فواجهات المخازن الكبرى تلفت اليها الانظار والاعلان يختلب النظر .

بين الاخلاق البارسية والاخلاق البورجوازية

فالموضة او الازياء ، تخرج من باريس وتتحكم بالاذواق في الوقت الذي تفخر معه لندن بأنها محور الاذواق الرجالية ، كما ان فيينا هي محور الموسيقى المرقصة . هنالك لعمري انماط من الحياة هي من صميم حياة الشعب او الجماهير . فالعامل يتخلى عن ارتداء « البلوزة » او السترة بينما يتمسك بارتداء الكاسكيت او القبعة . فهو يشعر بانه في محيطه وبيئته لدى مشاهدته هذه الاعياد التي تقام عند حاجز العرش او في سوق المعجنات والحلويات ، اكثر مما يشعر به عند مرأى الشانزليزه . له العابه المفضلة كالكرة والبلياردو والدومينو والورق . فهو يتردد على الحانة ويأتي الى هذه « الدوّامة » ، كما ينعتها زولا في وصف لها أخاذ . الا ان هذا المجتمع الذي تتحكم به البورجوازية ، كثيراً ما نظر اليه نظرته الى غريب بعيد عنه .

فقد حرص البورجوازي على ان يتميز عن العامل . فهو يلبس الريدنغوت والجاكيت . فاذا ما اعرض عن السوالف ، فهو شديد الاهتمام والعناية بلحيته وشاربيه . اما امرأته فتتبع بيقظة واهتمام شديدين تطورات الزي السائد (الموضة) التي لها غرائبها ومستهجناتها السنوية واحياناً الفصلية ، فتسبب لها نفقات غير ملحوظة كما تقتضيها المزيد من اوقات الفراغ . فسواء حصرت نفسها في مشد او فضلت الشكل المبهم ، وسواء أفضلت القبعة الكبيرة او اختارت القصيرة ، فهي تهتم الى حد بعيد بأحذيتها وتفضل منها ما كان على الزي ، وبقفازاتها ، والحطة اوالطرحة ، والنقاب او الخمار ، وبالمروحة اليدوية . ولما كانت دواعي حياة العصر تحفزها اكثر فاكثر الى الحركة والتنقل والى ركوب العربة ، كان عليها ان ترفع اطراف فسطانها الذي يشكو من الطول اجمالاً . فهي تدل حوالي عام ١٨٩٥ ، بحقيبتها الصغيرة تودعها منديلها وبعض اغراض زينتها . فالالبسة لا تتطور الا حوالي عام ١٩٠٠ ، فالرجال يفضلون بالاكثر السروال والقبعة المستديرة الشكل ، وقبعة القش ، بينما تؤثر السيدة التايور والحذاء الواطي الكعب . فالرياضة البدنية وركوب الدراجات والاستقبالات وارتياد المناظر في الاوبرا ، أمور معقدة وتدعو للبذخ .

اما الدار او المنزل ، فقد حرصوا على ان يوفروا له احسن ما يكون من المفروشات والاثاث والرياش . فقد اخذ الناس يكثرون من الدمى والصحون المزخرفة بشتى الالوان ورسوم الاسرة ، كما حرصوا على ان يؤمنوا لهم غرفة الطعام فرشها من طراز هنري الثاني ، وغرفة النوم من طراز لويس الخامس عشر او لويس السادس عشر . وكثيرا ما يتدلى من السقف الثريات الجمة ، كما حرصوا على تزيين المداخن بالشموع . اما المائدة فترفل عادة بالاطايب من الالوان وصنوف الاطعمة ، ولذا كثرت جداً الكتب والمطبوعات التي تدور حول المطبخ واعداد الطعام . والملاعق والشوك والسكاكين هي مفضضة على طراز ديولز وكريستوفل وملفن والبيانو يضفي على البيت مسحة من الثراء والغنى ولا يفترض في اصحابه مواهب موسيقية عالية ، ويصطحب الغناء عادة .

فهو الآلة الموسيقية المفضلة لدى الطبقة البورجوازية الحديثة العهد . وبانتظار تهيئة الباكنة قبل الزواج، تنصرف الفتاة لاشغال الابرة والتطريز. اما تبادل الزيارات في ايام ومواعيد محددة مسبقاً ، فهذه من الامور والواجبات التي تتقيد بها السيدات في المجتمع ، اما الصالونات الادبية في المنزل ، فمثل هذا الامر لم يعد موضوع اهتمام .

وكثيراً ما يلتقي في هذه الصالونات والنوادي ممثلو الطبقة البورجوازية العليا وابناء طبقة النبلاء القديمة ، على الطريقة الانكليزية ، كنادي جوكي كلوب ونادي الاتحاد .

والاقبال على جمع الاشياء القديمة والتعلق بحفظها يلتقي والغريزة المحافظة التي ميزت هذا العصر . فهذه الهواية تخدم المتاحف والمجموعات الفنية الكبرى . فاذا ما خطر يوماً لاحد هؤلاء الهواة ان يلقي نظرة عابرة على المجموعات الفنية الخاصة المتوفرة في باريس ، كان لا بد له من ان يقضي سنة كاملة قبل ان يشبع فضوله ، كما يؤكد لنا عام ١٨٦٠ ، ولم بورجير . كل بورجوازي من علية القوم يحاور نفسه يرغب صادقا في ان يؤلف له مجموعة منها محتذياً في ذلك حذو ابناء الطبقة الارستوقراطية ، والهبات الخاصة تتوالى وتتكاثر بحيث يمكن انشاء متاحف عامة . فآبل غيميه يحرص على جمع غرائب الشرق الاقصى ثم يهبها للدولة، والصراف سرلوش، والبارون دافليه ودوقة غاليارا وآل كونياس - جساي ، وآل روتشيلد ، وهبوا الدولة مجموعاتهم النادرة .

وهواية جمع الكتب تستهوي الاذواق ، اذ ذاك ، فمن ناطور العمارة الى ساكن الطبقة العلوية، الكل يقرأ الروايات المسلسلة التي تحرص الجرائد المعنية بالإعلام والارباح على نشرها تباعا. وقد توفر من هذا كله ادب روائي رخيص هو من القصص الشعبي او القصص البوليسي .

ومثل هذا الهوس يستحوذ على النفوس فيقبلون بحماس على المسرح الغنائي . فالفن كل الفن يقوم باستثمار اللحن او النهج الغنائي على الوجه الاكمل . فاناشيد روسيني ومدرسة ماير بير وبوالديو وهيرولد وأوبير ومن لف لفهم تنتشر بين الجماهير الشعبية . وبعد هذا الجيل الذي صفق عالياً « للافريقية » و « اليهودية » تطل علينا الميلودراما التي تغص صالات العرض بالمستمعين اليها من الهواة ، منها الـ *Mignon* تأليف امبرواز توماس ، وفوست ، وميراي لغونو ، وكارمن لبيزه ، ومانون لماسنه ، وباريس تقوم وتقعد لواغنر الذي قاد المعركة ، سنة ١٨٦١ وخسرها حول *tannhauser* وكل مدينة لها شيء من الشأن تعمل على انشاء مسرح لها وفرقة موسيقية ملازمة له ، و « موسم فني » تنظم هذه الجوقات رحلات لها تطوف معها الولايات والمقاطعات . والآلة تفيد كثيرا من التقنية التي ازدهرت في هذا العصر ، كما ان فن التزيين والتحلية يتطور بسرعة ، وعرف فن الضوء ، كيف يفيد من غاز الاستصباح ، ثم من الكهرباء .

وهذا الشعب يرغب في ان يلهو وان يعبث . فالى جانب المسارح التي تسير في نهجها على تكريم المؤلفين الاتباعيين (الكلاسيكيين) ، كالكوميديا الفرنسية التي برز فيها نبوغ

ممثلين امثال : بروهان ومونيه - صولي وروزين برنارت (التي اشتهرت باسم ساره برنار) ، فقد حمل بمعزل عن الاوبرا مسرح المهرجين ومسرح بيجازيت ومسرح الامم، ومسرح المستحدث (*Nouveautés*) . وهذا الفن الباريسي الاصيل : الفودفيل او الملهاة الذي يقول عنه سانت بوف انه : مثال لا يخرج كبيراً عن مثال هذا الجيل الذي لا مثالية له ، لن يضعنا وجهاً لوجه امام رواية يشاهدها المرء وهو متكيء الى درابزون الشرفة « موضوع حوالة الطبقة الوسطى التي لا تحلم بشيء احسن » ، وبعد هذا النجاح المنقطع النظير الذي سجله سكريب امكن للابيش ان يطلع علينا، فيلعب لوحده، او مع بعض المساعدين له نحواً من ١٠٠ مسرحية، بين ١٨٣٦-١٨٧٦ واكثر سخرية منه واوفر، كما برز كل من اميل أوجيه واسكندر دوماس الابن الذي تمكن من أقلمة مسرحيات ذات فكرة معينة او تصف لنا اخلاق المجتمع . والاوبريت التي تداني الفودفيل ، تبتعد عن الاوبرا المضحكة على نسبة ما يصبح هـذا الفن الاخير دراما تقف عند منتصف الطريق من القصص الوصفي، اذ كان من المفروض القيام بحركة معاكسة لما يسميه تيوفيل غوتيه الفن الهجين الحقير الذي جاء خليط من طريقتين التعابير تعارض احداهما الاخرى حيث يسيء اللاعبون تمثيل ادوارهم بحجة انهم مغنون ويغنون بصورة شاذة تحت ستار انهم يقومون بعملية تمثيل . كان على الاوبريت ان تضحي بعنصر المرح وحرية الموضوع بدلا من التضحية بالموسيقى التي كان يطلب إعداد الجو الملائم لها . ومع ذلك فالمؤلفون امثال لوكـوك واودران وبلانكيت ومساجيه اتقنوا، الى درجة عالية، فن التلحين او التوزيع الموسيقي للاوركسترا، وقاموا بردة معاكسة ضد هذا الفن الذي وصفه برليوز « بالزقاقي » والسافل او الواطي ، والكثير الحركات ، ضد هذا الفن الذي بفضل النجاحات التي حققتها « هيلينا الجديدة » و « الحياة الباريسية » ، رواجاً عظيماً .

هنالك مع ذلك الذاذات ايسر منالاً وأيسر اخذاً واشد وقعاً. فقد اقبلت باريس على المراقص حيث تقع العين على ما يذهل ويدهش ، امثال ميمي ، تاب تاب ، وبيبيه والبطينة ، كما استلمت لعواية السيرك الذي تملك الاذواق وسارت شهرته بفضل العاب بارنوم ، فعرفت باريس اربع فرق منه في وقت واحد ، حيث أخذ القوم بألعاب الخفة التي قام بها مازوربيه ، صاحب الوجه الصبوح ، واوريول ، هـذا المهرج الذي ليس من يعدله ، ثم الاخوة برانكوني الذين وضعوا تحت اعين النظارة العاب السيرك الاولمبي الذي لم يلبث ان حل محـل سيرك الشاتليه . وفتح مسرح فولي برجير ابوابه في باريس حيث تألب الناس لمشاهدة الضواري والكواسر والالعاب البهلوانية ، ومشاهد العري والعاب الخفة . وراجت كذلك المقاهي الغنائية حيث يستطيع المشاهد ان يدخن ويشرب على هواه ، فعدت باريس منها عام ١٨٨٠ نحواً من ٣٠٠ مقهى .

الحضارة المدينية : مساوئها وعوراتها

كل ما في المدينة ليس باللائق . ففي بعض احيـاء باريس امثال الـ *Salpêtière* ، والمحطـة والبيت الابيض ، وفي اماكن ومواقع كثيرة على الخط الدائري تقوم العلب الليلية وبيوت المشاغلة والسرى .

ولـلراسبورغ مثل هذه، هي الاخرى، اشهرها الـ (Ponts - Couverts)ومثل لذلك المدن روبيه وليون ومرسيليا. اما في لندن، فمقابل الاحياء السكنية الغنية الى جهة الغرب، يقوم حيها القذر، الوسخ East - End، واحياؤها الفقيرة القـذرة. ويرى ماكس اوربل في لندن مزيجاً بشعاً من الجمة والانجيل، وخليطاً من مشروب « الجين »، والتوراة، والسكر والرياء، والاوساخ مما لا يرى في غير مكان، والبذخ الجنوني والبؤس المدقع، والازدهار والانحطاط وغير ذلك من المفارقات والمتناقضات الصارخة، وهؤلاء البائسون الجائعون، الحيارى، وهذا الفريق الغارق بصلف وعلياء في الفن والملذات.

فهذه الزرائب والحشود البشرية التي هي اقرب الى السائمة منها الى الناس، هي نتيجة هذا الازدحام والقذارة معاً. ففي عام ١٨٨٥، كان معدل الغرف التي يسكنها شخصان ١٤٪ في باريس، و٢٨٪ في برلين وفيينا، و ٤٦٪ في بطرسبورغ. وجاء في احصاء حول بروكسل، عام ١٨٩٠ ان ٤٩ اسرة تملك مسكناً خاصاً بها و١٣٧١ تضم ثلاث غرف على الاقل، و ٨٠٥٨ للواحدة منها غرفتان فقط، و ٦٩٧٨ اسرة لها غرفة واحدة، و ٢١٨٦ اسرة تسكن غرفة علوية تحت السقف، و ٢٠٠ في كهف او دهليز ارضي.

ففي عهد ديكنز، آوت ارصفة لندن وعنابرها ١٠٠،٠٠٠ سارق. وهايد ـ بارك حيث لا تظهر الارستوقراطية نهاراً الا على صهوة الخيل، هو مكان يتعرض من يجتازه ليلا لخطر الموت، وكلمة « يخضب بدمائه »هي على كل شفة ولسان. ففي فرنسا ٢٢شخص من كل ١٠٠،٠٠٠ من سكان المدن يقدمون لمحاكم الجنح مقابل ١١ في الريف، عام ١٨٨٠ وحوادث الانتحار هي تقريباً، وبصورة ثابتة بنسبة اهمية التحشدات.

ففي لندن، عام ١٩٠١ نحو ١٨ ولادة لكل ١٠٠٠ شخص في همستيد، و٢٥ في بتنال غرين، وفي تورينو ٢٤،٦ ولادة في الحي الارستوقراطي سان فرديناندو، و ١٥،٤ في حي سان لورتزو الفقير. اما معدل الحياة، فالاحصاءات تقدم لنا ارقاماً في غاية التضارب والتضاد. فالاحصاء الذي وضع ١٨٧٣ - ١٨٧٥، كان معدل الوفيات ١٥،٧ في المقاطعة الثامنة في باريس، بينما بلغ هذا المعدل ٣٦،٢ في حي ١٩، عام ١٩١١، مقابل ٩،٦ و ٣٢،٤. اما في برمنغهام فقد انخفض الى ٢٦ عام ١٨٥٠، والى ١٧عام١٩١٠، بعد ان تطورت الامور الصحية في المدينة، وارتفعت اسبابها. وتظل مقاطع مستمدة من نصوص كثيرة ان سبب هذا الوضع انما يعود كله الى تأثير الزرائب والاحياء الفاسدة في المدينة، فكلمات السكر والسرقة والبغاء والامراض ترقص على لسان الشعراء وتتدافع الى شفاههم عندما يتحدثون عن المدينة العفنة.

من خلال الانوار التي تعبث بها الارياح
بيوت البغاء تتألق نورها في الشوارع
(بودلير : ازاهير الشر)

الهرب من المدينة

كثيراً ماجاشت نفس ابن الضيعة حسداً من ابن المدينة على عيشه، في الوقت الذي يفكر هذا الاخير بنابة لتغيير الهواء الذي يتنشقه. وهكذا نرى ان حضارة المدينة طلعت علينا برغبة جامحة وميل قوي للتنقل والانتقال طلباً للذة وانتجاعاً للصحة؛ وكلما توفر لابن المدينة بعض اوقات الفراغ وكان باستطاعته السفر شمر للرحلة متوخياً المواقع الجميلة واماكن الاستجمام . وكلمة سياحة اطلت علينا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ويخرجها ليتره في معجمه الشهير من الكلمة الانكليزية *Tourist* فقد جاءتنا هذه الحركة ونسميها اليوم هذه الرياضة ، من الانكليز . الا ان الاسفار اصبحت عادة استبدت بالناس وطغت على الامزجة بعد طلوع السكك الحديدية ، فكثرت بين ايدي المسافرين كتب الادلة والخرائط التي تشير بدقة الى معالم الطرق وخطط البلدانية . فالنادي البريطاني الرياضة البدنية التصعيد في الالب ، نشأ عام ١٨٧٧ وسميّه النادي الفرنسي ظهر عام ١٨٧٤ ، وتولى ادارة الثاني منهما شخصيات لها شهرتها الواسعة الترسيخ الرياضة البدنية وحركة السياحة ، امثال : ادرلف جوان وفيوله - لودوق، ودوق دومال والبارون نفليز . وطالع علينا بيارا بالخريطة المصورة التي تشير الى المواقع الاثرية المشهورة .

فاذا ما حرصت كل مدينة على ان تؤمن في محطاتها الكبرى ونهايات خطوطها الحديدية الرئيسية الفنادق الفخمة لاستقبال المسافرين والسياح ، فالصناعة الفندقية فرشت مناطق برمتها ومقاطعات بكاملها بالفنادق والاوتيلات على اختلاف درجاتها . وعلى شواطىء البحر قامت مسابح اثيرة يرتادها المستحمون من كبار القوم واربابهم ومشاهيرهم .

ورياضة الجبل راجت ، هي الاخرى ايما رواج . فقد ام شامونيكس ٩٠٠٠ زائر عام ١٨٦٠ ، كما امها حوالي ٢٥٠٠٠٠ عام ١٩٠٠ . واخذت سويسرا تصنع السياحة في بلادها فدرّت عليها هذه الصناعة دخلاً طيباً . فسويسرا هي التي طلعت علينا بما نسمي *Palace* ، وآدمز التي مائدة الضيوف ليقدم لهم بديلاً عنها غرفة الحمام . ورؤوس الاموال التي استثمرت في صناعة السياحة بلغت المليار ، عام ١٩١٠ . والرياضة الجبلية استفادت من هذه الحركة الناشطة لتحسن ستار قنن الجبال وقممها ، وفتحت بذلك الطريق امام رياضة التزلج على الثلج .

فقد هبط فيشي ٧٠٠٠ ضيف او زائر عام ١٨٥٢ ، و ٦٠ الف عام ١٨٩٠ ، ومدينة بلمبيه تجمع ينابيعها العديدة عام ١٨٥٧ ، حتى ان مترنيخ دعا ممثلي الحلف المقدس لقضاء فترة استجمام في مياه كارلسباد ، ونابوليون الثالث يتردد كثيراً على فيشي ويلوم بمفاوضة كافور في بلمبيه ، بسمارك بأبي وبياريتز . وعدد كبير من المفاوضات الدولية جرت في مراكز المياه المعدنية : في ايمل ، وغاستاين ، وبادن . والبرقية التاريخية التي ارسلها غليوم الاول الى بسمارك في تموز ١٨٧٠ ، انما انطلقت من ايلو حيث كان العاهل الالماني يستجم .

وفي ميادينها وساحاتها المعشوشبة اخذت انكلترا تحيي العابها المفضلة : التنس والغولف

وكرة القدم ولعبة الكريكيت، واخذت عادة التزلج تنزو باريس منذ عام ١٨٦٠ / ٦١ على بحيرة لونشان. اما هواية القنص والصيد بواسطة الكلاب فبقيت الهواية المفضلة لدى الطبقة الارستوقراطية وكبار ممثلي البورجوازية الذين لهم من منخور وفرهم ما يسمح لهم بالانصراف لهذه المتعة. اما صغار القوم فيكتفون منها بصيد صغار الطير ومقبق الطرائد بالبندقية . واخذ الطب يدعو الرياضة البدنية ، واقبلت عليها المدرسة تشجع في صفوفها الرياضة ولا سيما الالعاب السويدية التي روج لها ايما رواج آل لنغ ، الاب والابن . وقامت جمعيات رياضية في جميع البلدان تدعو الشباب للالعاب الرياضية في الهواء الطلق ، ومثل هذه الجمعيات لها موسيقاها واعيادها الموسمية، من هذه الجمعيات من وضع نصب اعينها اغراضاً وطنية كجمعية السوكول عند التشيك مثلاً ، التي رمت الى تنغذية الروح القومية في قلب الشباب الرياضي .

الفصل الثاني

استقلال الذوق

استقلال كل من الكاتب والفنان

كلما تقدم بنا العصر نعمنا بالمزيد من انتاج الادب والفن. وقد تم لنا ذلك بفضل هذا التطور المزدوج في مجالي الفن والاثراء وتوفر اسباب الفراغ والتعليم والثقافة . فالمنشورات على انواعها تتوفر في كل مكان وعن كل شيء . فالجريدة تنير وتزود قراءها بالمعلومات وتثير الفضول في نفس القارىء . وقد طغى الكم على النوع وليس بمستغرب . ومهما يكن فقد ادى انتشار الثقافة الى طلوع نشاطات فنية كانت من قبل وقفاً على اقلية ضئيلة ونفر قليل ، كالموسيقى مثلا . لنعد بالفكر الى هذا الحد الذي سيطر على فيينا فترة من الدهر وكان المرء فيه شعر بانتقاص من كرامته اذا لم يأت اهتمامه بفنون المسرح دون اهتمامه بمهام الحياة وشؤونها الدنيا . فتألفت جمعيات فنية ، عنت باقامة الحفلات الموسيقية ، منها في باريس مثلاً ، الجمعية الوطنية للموسيقى ، وجمعية بادلو للموسيقى ، وكولون ولامور ، وكلها رمت لتصحيح الذوق وصقله وتهذيبه ، كما ان جمعية الحفلات الموسيقية في الكونسرفاتوار الوطني التي نظمها ابنيك اخذت تعرف عبقرية بيتهوفن الى الرأي العام الفرنسي. فاذا ما حل النصراء من رجال المال الذين لا تتوفر دوماً لهم ثقافة عالية محل النصراء الامراء ، فكثيراً ما رأينا نصيراً ذكياً مستبداً يحل محل هوي يبسط الفنان يداً رفيقة دون ان يفرض عليه الامور او الاشياء الاثيرة لديه . فالنوصية حملت دوماً شيئاً من الاستبداد والتسلط . فعلى هذا الهوي الا يأخذ بعين الاعتبار والملاحظة ، هذا الخيال الجنح الخلاق ، بل عليه ان يؤكد حكم الاندية الادبية والفنية .

فكان لا بد ، والحالة هذه من ان يدافع الفنان عن حريته وان يصمد في وجه الضغط الذي يتعرض له من الجمهور . فقد تكاثرت المذاهب والمدارس الصغرى لتفي بمطالب الجماهير ، فراحت في تعنتها توصد ابوابها في وجه العديدين . وهكذا راح الالهام يصون نفسه من هذه

الزقاقية . هنالك اتجاه بارز يرمي الى صبغ الفن بالديموقراطية . فقـــد استطاع الجيل الرومنطيقي ان يفرض نمطه كما يفرض الطغيان ذاته . ومع ان الرومنطيقية بقيت لها القدرة على التعبير عن لواعج النفس بعد عام ١٨٤٨ ، الا انها كانت اعجز من ان تشبع الغرائز في ثورتها على الاعراف والتوافه . فثورة الشباب التي السمت بالرومنطيقية قبل عام ١٨٣٠ ، قامت عـــام ١٨٥٠ تقف في وجه الرومنطيقية . الا ان مراكز العبادة هذه ظلت اكثر من كل وقت مضى ، الى جمع اتباعها وضمهم بعضاً الى بعض . فعبق الجو بهذا الاريج وهذه الالوان الزاهية والانغام الساحرة ، كما يؤكد بودلير لنا ذلك .

والحال ، فالبورجوازي لا يستطيب كثيراً ما يخرج عن الحد الوسط . وفي هذا لعمري كل جاذبية الربيع وسحره – في هذا العهد المعروف بالعهد الواقعي – الذي قابل ، بإعراض كلي حرفة الادب والفن لعجزهما عن تأمين الخبز لمحترفيهما . فقد سبق الشباب الرومنطيقي واحتج بشدة على ما يكتنف العيش من صروف وظروف قاسية ، وشروط راح برودون يفرضها على الفنان في عهد لويس فيليب . فقد راح ميليه ، في مطلع حياته الادبية يقلد بعض آثار القرن الثامن عشر بعشرين فرنكاً للقطعة الواحدة ويصور بافطات . فقد باع صورة «البشارة» ١٨٠٠ فرنك ، التي بيعت ، بعد ذلك بقليل بـ ٥٥٣٠٠٠ فرنك عند بيع مجموعة سكريتان . وراح بعض هؤلاء الفنانين يتساهلون ويتنازلون عن غوائهم في سبيل استدراج توصيات وطلبـــات جديدة . وراح الناس يتذوقون اللوحات المرسومة بريشة فلاندرين وشاسريان بينما رفضوا ان يعرضوا الصورة : «جنازة في اورمانس» بريشة كوربيه ، في متحف باريس للفن ، عام ١٨٥٥ ، فاضطر لعرضها في كشك من خشب . والمحكمون الفنيون لم يعاملوا معاملة احسن آثار مانيه . وقد أحيل الى القضاء اصحاب هذه الآثار الادبية او الفنية : أزاهير الشر – ومدام بوفاري – ونيريز راكن – ومادلين فيرات ، والمدوّخ ، بحجة انها انتهاك للآداب العامة . فقد ترك لنـــا «مورجر» وصفاً لحياة بوهيمية ، حياة على هامش العالم البورجوازي الذي يحرص على دفـــع بعض بنيه الى سلوكها ، ثم يروح ويصفهم بخارجين على المجتمع . وبـــذهب ستيفن زفايغ الى اطراء مناخ باريس الغريب «المشبع بالسذاجة ، وبهذه اللامبالاة المتسمة بالحكمة والرصانة» ، هو الذي «خرج من مدينة فيينا هذه ، الطائشة ، اللعوب» ، وقد وقع الانفصال حقاً : فقد اعلنت مونمارتر ومونبارناس تمردهما في باريس نفسها واصحاب الشهرة لم يعودوا من خلـــق النوادي والصالونات ، ولا وقفاً على الاغنياء ، بل من صنع المقاهي – الساقي والاهراءات . وقد يحدث ان اللغة المحلية في هذه الاماكن لم تعد مفهومة لدى الطبقات العليا . هنالك ضوء خافت يضيء بعض المطلعين او المريدين ، الا ان هذا الضوء لا يبلغ المدينة .

وهذه الثورة ضد الالتزامية او العرفية – وهي ليست بشيء جديد – ظهرت في جميـــع البلدان على اقدار متفاوتة ، فها هو احد الكتاب الروس يتأوه عالياً نادباً حظه التاعس لوقوعه تحت كابوس الروح السلافية ويندب حظه لان ادبه ليس من هذا «الادب المتهم» . فبعد ان استعرض شعراء ايطاليا وقصاصوها البلاد الذي يتضرس به الوطن المضطهد المهيض الجناح في

تطالعهم بإعجاب لهذه الاعمال التي تم انجازها برعاية الاسرة المالكة سعيداً في سردينيا. والفكر الالماني القلق ، المضطرب دوماً ، يمرض جانباً عن هذه المغريات التي توفرها له سياسة بسمارك الوطنية ، فيتيه حائراً بين الفلسفة الراديكالية وبين اللاعقلانية. اما في الجزر البريطانية ، فقد انتصب في وجه هذا الرياء الذي طبع العصر الفكتوري ، هذه الفردية بما اتصفت به من سخرية ومرارة . فلا بيرون معها بالضرورة على خطى اوسكار وايلد الذي حكم عليه لخروجه عن جادة الادب، متجاوزاً هذا التشكك اللااخلاقي،برفضهم لسهولة التعبير فطلعوا علينا بمعظم هذه الآثار الادبية التي وصلت الينا ..

الكون هذه الحضارة المدينية في اوروبا، اسفيناً او اداة طرد بعد ان سجلت في حسابها مثل هذا التطور ، يا ترى ؟

مخلفات المدرسة الرومنطيقية

وهذه الرومنطيقية ، الغنائية السادرة في تأملها والعاطفية، سر قوتها وسر بقائها ، فيقدرتها على ورودها ورد الاحلام والخيالات المجنحة والحماس الوطني. وهذه الينابيع التي كانت تصدر عنها زاخرة ، فياضة اصبحت الان اشبه بخط دقيق يكاد يضيع بين هذه التيارات الجديدة التي اطلت علينا من هذه البلدان التي شهدت طلوع ادب وطني قومي ، فقد كان بوسعها ان تردفه بدفع شديد،فلا نراها تشكو من اي ضعف او وهن في المجال الموسيقي .

وهذا الحس العاطفي والمادة الشعرية الدفينة بقي يستمد منها نبراته المثيرة . فالحب المشبوب طي الضلوع والمنطوي بين ثنايا لواعج النفس ، يلهم هؤلاء الادباء صفحات تمور بالحرارة والوهج والدفء كالاديب الانكليزي روستي ، والاديب الاسباني بكر ، ومعظم الشعراء السلافيين والرومان والسكندينافيين. والطابع المميز لآثار روبرت برونخ هو الطابع السيكلوجي،وهو الذي ادركته الشيخوخة وراح يعاني من اعراضها ، اخـــذ يعنى اكثر فاكثر ، بامور الحياة والموت هذه القضايا التي عالجها الكاتب النرويجي بجارسن منذ ١٨٨٠ . ومع ذلــك فحماسة الناصريين تبرز على اتمها في المانيا ، في ما عرف بـ الفن المثالي الذي لمـــع فيه ماكس كلنجر ، اشهر وابرز نقاش على ما نرى ، منذ طلوع دورر ؛ وهذه الردة التي ظهرت في انكلترا ضـــد الاكاديمية او التقليدية الفنية والتي كان بعض نتائجها هذا الازدهـــار المدهش السابق لرافائيل والذي يتمثل على اتمه في هونت وروستي ، وميلاي ، وبورن – جونز الذين حرصوا جميعاً على ان ينموا فيهم البدائية الفنية ، التي راح رسكن ، هذا الناقد الذواقة الذي راى « في كل فـــن كبير،شكلا من اشكال العبادة، رسكن هـــذا الذي كان همه الاول والأخير ان يطهر البشرية وينقيها مما علق بها من عورات وشوائب، من هذه اللطمة التي لحقتها من جراء وقوع نظرها على هذه المناظر البشعة التي طلعت بها علينا الصناعة » . وهذا الحنين القوي الى الاجيال الوسطى نجده من جهة عند « هيل » ، كما نجده من جهة ثانية عند وليم موريس وولتر كراين اللذين

حلولا لجديد فن الزجاج الملون وصناعة السجاجيد والفسيفساء ، او عند غوستاف مورو هذا الفنان الذي عني بفن النمنمة والتزويق الناعم .

والاشاحة عن المدينة والهروب منها يولد بالتالي النزوع الى الدخيل او الدخيل المستجلب من الخارج ، الذي يبعث الشوق الى تنويع المناظر . « اني امقت كل ما توافقوا على وصفه بحضارة وما طلع علينا من نظريات المساواة » . يصرح لوتي ، كما ان موباسان يكتب بدوره قائلا : « لن ارى بعد الآن اناساً لابسين الحداد ويشربون الافسانت وهم يبحثون شؤون مشاريعهم التجارية » . فاذا ما راح برومون يستعيد بدقة ظاهرة ذكريات حداثته ، عهد كان يحرس قطعان البقر ، ويستحضر كوربيه امامنا الاعمال التي تقتضيها العناية بالارض . والاقبال على تصوير المناظر الطبيعية ، هذه النزعة التي اطلقها بربيزون لقيت رواجاً عظيماً وكانت امتداداً لفن السملونيات الراعوية .

وقد ذهب بعضهم الى ابعد من ذلك حتى انهم اوغلوا ، غير هيابين ، في مجال المستهجن ، فالخوف من المجهول الذي يرزح على الصدر ، عرف ادغار بو ان يفيد منه الى اقصى حد وبعنف كما اجاد ذلك مريميه بمهارته المعروفة ، وغوتييه بذوقه الرهيف ، وجيرار دي نرفال بجهالته . وسيستمر موباسان وكذلك الرمزيون بعده ، في سيرهم على حالة اللاعقلانية .

وهذا العصر يصر على ربط الحاضر بالماضي.من ذلك مثلا مناظر البطولة التي يرسمها لنا ، على غرار هوغو في الريه الخالدين : « القصاص » وملحمته « اسطورة الاجيال » ، وتنسون ، ووليم موريس وماثيو آرنولد ، وفريتاغ في روايته «الجدود» ،وتولستوي في روايته : «الحرب والسلم» . ولهذا السبب بالذات لقي واضمو القصص التاريخي ارتياحاً لدى الرأي العام واقبالا شديداً منه ثم ان الاستمساك بالارض الام والتعلق بتاريخها ، قدم من جهة ثانية ، الشعر الملحمي ، موضوعات قوية . ومع ان هذا القصص خضع لمستلزمات الواقعية واحياناً راعى ، مبدأ الفن لاجل الفن ، فالرومنطيقية ، بقيت لكأة لهذه الآداب الحديثة العهد ، تعتمد على بعث المآتي العظيمة التي تتنزى ، على اقدار متفاوتة بين الكبر والصغر ، بأسطورة هذه المآتي والانجازات التي عرف القصص الشعبي ان ينفخ فيها الحياة . وهكذا اخذت بمعاضدة حركة البعث القومي التي سار في خدمتها منذ عام ١٨١٨ في هذه البلدان الواقعة بين البلطيق في الشمال والبحر الابيض المتوسط ، في الجنوب ، وعرفت ان تعضدها وتهيء لها اسباب النجاح ، كما احسنت تمجيد الذكريات الوطنية بين الاقوام السلافية ، وسكان شبه الجزيرة الايبرية . وفي هذا المجال ، يستلهم كاردوتشي الموحيات التي استوحاها بيرس غالدوس او فركليكي . فنحن في عهد تدوي فيه الدنيا بالاناشيد الوطنية وتشهد ابداعاً موسيقياً في الحقل الوطني .

ومن هذا المعين الرومنطيقي الذي لا ينضب ، تتفجر باستمرار تيارات الهرمونيا . فمنذ ان توارى عن الانظار الممثلون الحقيقيون لهذه المدرسة ، امثال ويبر ، وشوبرت ، وشومان ،

وشوبان ، وليست ، جرت حثيثاً محاولات تمهد لطلوع مناهج أو مدارس جديدة . فلكل هؤلاء الذين يكتبون وفقاً لروح العصر ، لا يستطيعون مقاومة الرغبة في استخدام الطريقة الاحتفالية وباستلهام الموضوعات التي كانت عزيزة على قلوب جيل الثلاثينيات . فشكسبير ما زال مصدر وحي والهام لكثير من المواضيع ، وفوست يعني اكثر من كل وقت مضى ، الموضوع المفضل . فالعبور من ليست الى واغنر تم بصورة طبيعية مع ما صحبه من عنصر الخوارق والمعجزات .

البلدان الرجعية ضد الرومنطيقية : الواقعية ، الطبيعية ، الفن اللاشخصي

مما لا شك فيه قط ان الرومنطيقية لاقت ، منذ عهد بعيد حركات عديدة مناهضة لها . فكثيراً ما قرأنا عن الحركة السابقة للرومنطيقية ، وهي حركة معادية اطلت من نواح عديدة : من بلزاك وميريه ، كما أطلت علينا من ستندال . وكم راح بيالنسكي يتمنى ، قبل عام ١٨٤٨ ، ان يطلع علينا شعر واقعي (وهي امنية تحققت على يد نكراسوف . وضحكة غوغول لم يكن فيها شيء من الرومنطيقية ، الا ان رينان بقي قريب الصلة بيشليه . وفلوبير بسحنته الحمراء وبصوته القاصف والذي تجلت له افاريز ضخمة ، يوضح لنا قائلا : « الطبيعي عندي هو الشاذ الغريب ، المستهجن هذا الزعيق الميتافيزيقي او الميثولوجي » . فلا يحق للروائي ، اياً كان ، « ان يعبر او أن يبدي اي رأي في اي موضوع يطرق » . عليه ان يبذل جهداً كبيراً لئلا يودع الورقة اي شيء من قلبه » . وزولا نفسه يعترف قائلا : « انا اكره الرومنطيقية وامقتها لهذه التربية الزائفة التي لقنتنا ، فانا لا أزال احمل في نفسي اثرها وهذا ما يهيجني بالفعل » ليجمح به الخيال .

ما من احد لاحظ ان المذهب الواقعي انتشر بيسر اكبر في هذه البلدان التي سيطرت عليها الثورة الصناعية . وليس من يستطيع ان يتجاهل ما للوضعية والروح العلمية من تأثير بعيد في هذا المجال ... ! « ان ما أرغب فيه ، يصرح دبكنز على لسان احد شخوصه ، هو الوقائع ... فالوقائع او الاحداث هي الشيء الوحيد الذي نحن بحاجة اليه على هذه الارض ... علينا ان نلغي المخيلة وان ننتزعها عنا الى الابد » . فانتشار الزندقة على هذا الشكل ليس بغريب قط عن هذا الاقبال على الامور الخلاعية والمقذعات فلم يعد ثمة من موضوعات سامية اوخسيسة محطة . كل شيء يمكن ان يصبح موضوعاً بعد ان تحيز واصبح واقعياً . فاذا اعترفنا للماضي ببعض الشأن ، فعلى شرط تجريد الوقائع التاريخية من العنصر الاسطوري الذي يغلفها . وعلى هذا الاساس انزل رينان يسوع الى الارض ورده الى المحيط الذي وُجد فيه وفسره من خلال الناس الذين عاش بينهم . وهكذا تسقط فتنة الاجيال الوسطى ويزول سحرها ، هذه الاجيال التي تبعث الرعب بما فيها من ايمان وبرص ومجاعة ، حسب ما يقوله لوكنت دي ليل . فالتاريخ القديم وعهد الانبعاث ليسا بأفضل منها . فعدم التأثر والتجرد من الغرض ، يمكن صاحبه من تشريح مجتمعه بتؤدة ورسم اخلاق المجتمع بكل صراحة . فقد قامت عبقريات خصبة وقوية جددت المسرح واعادت اليه حيويته ونشاطه ، منها اميل اوجييه ودوماس الابن ، في فرنسا ، وهيل

وهوتاد ، في ألمانيا ، والثالوث الشمالي الذي تألف من يحرمن وابسن وستراندبرغ ، وفي روسيا لتشيخوف . اما انكلترا فيمكن ان تباهي بـ :تاكراي وجورج اليوت ، وبولوير لتن ومريديث، طليعة سلسلة طويلة لا تقل خصباً وشهرة في حقل القصة والرواية تتمثل على خير شكل بفونتان في المانيا ، وكيلر في سويسرا ، وتورغنيف ثم دستويفسكي وتولستوي،مهما كان من روحانيتهم فقد وصفوا لنا بدقة لا ترحم ولا تأخذ بالوجوه ، بالوان صارخـــة ، الطبقة الارستوقراطية الروسية العليا ، وحمل فلوبير مع الاخوة غونكور ، على الترويج للمذهب الواقعي، هذا المذهب الذي حركه الفونس دوديه بكل دراية والذي وصل به زولا الى حافة المذهب الطبيعي.وعرفت ايطاليا ، هي الاخرى المذهب الواقعي (الموسيقي والأدبي على السواء) ، هذا المـــذهب الذي يتمثل على أتمه في هؤلاء الروائيين امثال فرغـــا وكبرانا والموسيقار مسكاني وليونكا فالتو وبوتشيني .

وكوربيه من رجال الطليعة بين الفنانين الذين تصدوا بشدة لا بل بعنف لهـــذه التفاهات الرومنطيقية ، كانوا من جند المذهب الواقعي . وقد عرفوا ان يجتذبوا اليهم ميليه الذي يرى انه : « لا حرج قط من استخدام اللفظ الزقاقي اذا ما صلح التعبير عن السامـــي الجزل » وكلاهما يؤلف « كتلة » انتصبت في وجه هذا الرياء الاجتماعي . امـــا في البلدان الاخرى ، فتصوير الواقع عني بالاحرى ، بتحديد التفاصيل بكل دقة . وبختصر القول على كل من ينادي بمبدأ الفن للفن ان يطرح جانبا كل عاطفة شخصية .

فهذا الشاعر الذي يحرص على نحت وصقل عمله الاثري نحت الصائغ لقطعة ذهب بـين يديه وصقلها ، يبتعد كثيراً ، ولا شك ، عن عنصر التأثير . وهنا عودة ثانية الى النغمة الـتي نشاهد رواجها عند السابقين للنزعة الروفائيلية ، كما انها عودة الى الانشودة . غير ان المذهب الوضعي راك اوجه البعيد في لوكونت دي ليل، وفي «تين» ،ولا سيا في هؤلاء الذين على شاكلة براغا زعيم مدرسة كوامبرا ، يرون في الحادث الواقعي مظهراً جمالياً.واذ كانوا مهتمين كثيراً بتحديد الجمال فقد برزوا لنا خير من يمثل الفلسفة الجمالية . فشخصية رسكن مع باتر تسيطر تماماً على هذا الفريق في انكلترا، وبيرمز لو والون وفوسمير في هولندا، مع تين وواغنر ونيتشه ، كل هؤلاء عبروا عن هذه الفكرة الصحيحة الكامنة تحت هذا النشاط الفني الناصع والمشرق الذي يرى فيه العالم الاجتماعي غوير التعبير الاسمى لهذا التجاوب الجماعي في الشعور .

ان مثل هذه النزعة تتفق تماماً وعودة الكلاسيكية او الاتباعية . فقد تبنى تيوفيل غوتيه عبارة افلاطون عندما يقول: « الجمال هو تعبير عن الواقعي المميز » . و« تين» معجب الاعجاب كله لهذه الحياة الاغريقية المتوافقة . فنظريات انغر وتعاليمه استمرت في سيرها نحـو الامام ، بعد ان عرف كيف يصمد في وجه العواصف الرومنطيقية ، وبوفيس دي شافان ربط بـدوره فن التصوير بالرسم الهندسي رغبة منه في تأمين الانسجام والمساوقـــة . ومن مندلسوهن الى برامز وسان – سابنس وفوريه ، عرف التقليد ان يصمد بعد ان تمسك بتآليف موسيقي آسر

وفقاً للقواعد التي وضعها القرن الثامن عشر ، بينما راح كاردوتشي يقترح الطريقة اليونانية اللاتينية . الا ان تذوق التاريخ القديم يتباين الآن نوعاً وقدراً . فاذا ما راح اناتول فرانس يصب بلغة فاخرة من أريج فلسفة أبيقور ، ورينان بدوره استعمل حبراً سرياً ، كما وجد فن الرثاء للامتة مخلصين ، وفيلسوف التشاؤمية شوبنهاور ينتهي بشكل طبيعي ، الى فن ، يرى فيه كل الخلاص .

« فالرومنطيقي الذي اتقن فنه لم يلبث ان اصبح ابداعياً ، ولهـذا السبب عينه انتهت الرومنطيقية ، الى البرناسية » ، كما يؤكـد فاليري . ويرى تيوفيل غوتيه من ناحيته : « على الكاتب ان يعرف كيف يتحكم بشعوره ويكبت احاسيسه في كل ما يكتب » ؛ ولوكونت دي ليل هذا الجمهوري من تلاميذ فورييه ومريديه ، ونصير الغابة ضد المصنع وضد تعديات الصناعة ، والمستسلم بكليته الى بداية تقول بالاشتراكية ، لم يعد ليرغب في غليانه وكبريائه واشمئزازه ، الا الانقطاع الى هذه القرائن الوضعية . فمعرفة الايقاع والانغام هي فوق كل معرفة ثم تأتي التفصيلات الدقيقة فتكمل ما ينقص . وهذه الدقة التي تميزت بها شاعرية كاردوتشي وشادت عظمته ، سيعرف جوزيه – ماريا دي هريديا ، الذي طلع من الجزر ، على شاكلة لوكونت ، كيف ينميها بدوره ويعني بها في ديوانه *Les Trophées* بحيث ان كل مقطع من مقاطعها « سجل منتهى الدقة ومنتهى الجزالة » ؛ وهذا الفن الذي يتسم بالقوة عند الشاعر الايطالي صاحب : «الاناشيد البربرية» ، والذي يتنزى بالعلم والدقة ، والذي يعنى الى اقصى حد ، بالصيغة المتناهية الكمال ، لا يخلو دوماً من مسحة من الكآبة والسأم . فالامثولة كان لها دوي عظيم : فظهرت عام ١٨٨٢ « الاناشيد القديمة » كما ان « الاناشيد المفجعة » لن ترى النور قبـل عام ١٨٨٥ ؛ وفي هذه الغضون ينشر بودلير ، عام ١٨٥٧ ديوانه الموسوم « ازاهير الشر » كما ينشر فرلين عام ١٨٦٦ : « الاناشيد الزحلية » ؛ وفي سنة ١٨٥٧ ، وضع واغنر : « مذكرة ريستان » . وهكذا أطل علينا شعر جديد ، رمزي الطابع وجد الطريق امامه ممهدة بهذا الانشاء الجزل الدقيق .

الدرسة الانطباعية

في عام ١٨٧٤ راح ناقد فني يعلق على احد الرسوم يوقع اسمه كلود مانيه فيصفه «بالفن الانطباعي» ، بينما دليل المعرض يشير اليه بعبارة « انطباع » الشمس الطالعة . « يا لنا من مساكين ، ومنبلي مساكين » ، طفق يردد الفنانون بعد ان اطلقوا عليهم هذا الوصف التعريفي .

وقد شاء بعضهم ان يرى في مذهب الاخوة غونكور ظهور مدرسة ادبية جديدة يرمي الى وصف الاشياء كما تبرز للعيان في اوضاعها المتبدلة . فهم يشددون على الالوان وعلى المظاهر . ولما كانوا من الاوائل بين من ادخلوا الفن الياباني الى فرنسا ، فليس من عجب قط ان يقعوا تحت تأثيره المباشر . وقد اطلق جول لومتر فيما بعد على نقوده الذاتية عنوان : «انطباعات حول المسرح» . وأناتول فرانس نفسه لا يستعمل تعبيراً آخر عندما يعرض افكاره الشخصية في

كتابه : « الحياة الادبية » .

نحن الآن امام شيء من هذا ، في الموسيقى . وشابرييه الذي ُعرف ببراعته وتفننه سار هو الآخر في اتجاه أفضى به الى مذهب دي بوسي . ولا يسعنا هنا الا ان ننوه بالرواد من الموسيقيين الانطباعيين ، امثال موسورغسكي الذي ُعرف بقدرته على تنويع التدوين الموسيقي . وقد يكون استيفى ، من هذه الناحية في كتابه الموسوم : « بوريس غودونوف » الرغبة التي طالما اعرب عنها دي بوسي ، وهي الاحتفاظ بما يسمى طابع العفوية او الطابع الزئبقي .

ان اسلوباً من هذا النوع ، وقد يكون شيئاً آخر - ظهر مع ذلك بين الرسامين . فالفنان الانطباعي يرى كزميله الفنان الموضوعي بين الامور المستمدة من حياة العصر ، اشياء طيبة . الا ان الاول منهما يأخذ على الثاني اعتقاده بظاهر وظواهر دائمة مستمرة ،كما يأخذ عليه انصرافه للرسم القائم ، في مرسمه السيء الانارة والاضاءة . والحال ، فالمهم في الامر هنا ليس هذا الشيء بذاته ، بل الضوء الذي يكشفه او يبرزه . فالحادث الثوري وقع بالفعل عام ١٨٦٣ عندما عرض مانيه في صالون المرفوضين رسمه المشهور باسم : « زوبقة على الحشيش » وهي صورة وضعها في الهواء الطلق . وعلى شاكلته نرى مونيه مأخوذاً « بهوس الضوء وحمى النور » . والحال، فالنور او الانارة تتغير وتتبدل بتغير الظروف والاحوال الطارئة . ومن ثم فالشيء الماثل امامنا هو هو ذاته في كل الحالات اذ ان لاتنير ولاتبدل في ذاتيته . مما لا شك فيه اننا هنا امام تأثير الـ *Estampe* الياباني الذي لقي في فرنسا نجاحاً عظيماً بعد ١٨٧٠ عندما أخذت امبراطورية الشمس المشرقة تلفت اليها انظار العالم ولا سيما الاوروبيين ، كما اننا ايضاً امام تأثير الفن الهولندي والاسباني ايضاً كما هو ثابت . وهذه الثورة مدينة بنوع خاص لعلم البصريات الجديد الذي استشاطه التصوير الفوتوغرافي ومظاهر المشهد الصناعي: فالرمادي والاصفر يغشيان كل شيء حيث تنمحي الالوان وتبهم وتشتد بالتالي الحاجة لنور ساطع . فالفنان الانطباعي لا يمزج ألوانه على الملون (لوحة الالوان) . فهو حريص على ان يضع جنباً الى جنب الازرق والاصفر ليحصل بها على الاخضر . فهو يحل المركب ويترك للعين مهمة التركيب عن بعد . وهكذا فهو يضاعف اخف المؤثرات وادقها ، والهواء الطلق يوفر له اللقطات الآنية ، كما يفعل المصور الفوتوغرافي اذ يأخذ المشاهد بنت ساعتها .

وكلود مونيه الذي يعتبر خير ممثل لهذا الطراز الفني لم يلتقط من الديكور العارض سوى المناظر الآنية ، والمناظر الهروب ، اذ ان الموضوع لا شأن له بحد ذاته . فالابداع او السمو يكون في رسم « الهواء » . وسيزلي يضحي بمهام الارض في سبيل السماء ، ورينوار الذي برهن عن روح استقلالية كبيرة والذي انطلق من كوربيه الى مونيه ليكون اكثر فأكثر على مقربة من ديلاكروا ، آثر الواناً تهيج الحواس وتثيرها. لا يمكن اعتبار ديغاس في عداد الفنانين الانطباعيين المؤمنين ، هذا الرسام الحافظ ، اليقظ ، انقطع للمرقم (البستل) وتوصل به الى نتائج مدهشة فاذا كان من العسير وضع هوسلر في مرتبة مونيه فقد دشن ليبرمان ، مع ذلك ، في المانيا ،

مدرسة القطيعة او الانفصام ، هذه المدرسة الفنية التي تنتسب للانطباعية وعرفت بدورهـا رواجاً وازدهاراً كبيرين في البلدان الشمالية ذات الجو السويداني . وبوفيس دي شافان مدين بهذا الصفاء الذي عرف به لقضايا من هذا النوع سيطرت عليه واستبدت به .

واغنر والاتجاه نحو الفن اللاعقلاني

كثيراً ما وصف نفسه بـ *tondichter* اي شاعر الموسيقى الذي جمع في شخصه كل التيارات الفنية التي عرفها القرن . رومنطيقي ، فقد « كانه » كل حياته ، اقله في انفتاحه للموسيقى . فقد واجه ثورة ١٨٤٨ كما واجه حدثاً داوياً بسبب النظام الاجتماعي فطلع علينا سيغفريد فوضوي يتحدى الآلهة . وقد وقف في كتابه : الفن والمناخ ، ضد هذه الحضارة المجردة ، السوية الصور وراح يلوم فرنسا التي غنت ، من راسين الى سكريب ، ما هو تقليدي ، في سبيل « النبوغ » ، كما لم يوفر في موقفه هذا « اليهودي » اي روتشيلد مرمزاً من تعابير *Glaubiger* الى دائن الملوك وملهي المؤمنين ، ومندلسون ومايربير مع العلم ان اليهودي يمكن ان يرجع انساناً اذا ما تجرد من يهوديته . ففكرة التجديد تسيطر عليه ، هذه الفكرة المتحكمة باتباع المدرسة الرومنطيقية بالرجوع الى الهرمونيا ، الى الانسجام والوحدة . يجب ان نوحد بين الشعر والموسيقى . ومن هـذه الفكرة طلع علينا « برباعية خاتم آل نيبلونجن » فوضع نص النشيد واحكم الحبكة بين التأويل الموسيقي والمشهد . وتطالعه فلسفة شوبنهور القائلة بالفن المنقذ . وينجه فنه بعيد عام ١٨٤٨ ، نحو الرمزية التي تجلت بكل معانيها في كتابه : « تريستان » . وبعد الفشل الذي اصابه بـ « تانهوزر » في باريس ، لاذ بمرفأ السلامة الذي وفره له لويس الثاني ، ملك بافاريا . ومنذ ذلك الحين وضع كل آماله في المانيا المتجددة . فالقطعة التي وضعها بعنوان : *Les Maitres Chanteurs de Nuremberg* هي تجلٍ لسمو العبقرية المتحررة التي انقذت في شخص ، لوثير المانيا من هذه الصيغ والقوالب الضيقة ، وبهر مسرح بيروث ليشهد تمثيل وقائع سيغفريد الذي برز الآن بطلا قومياً وكذلك برزت شخصية برسيفال المنقذ .

واستبداد موسيقى واغنر بالناس واستئثارها بأذواقهم يتفق وطلوع الوحدة الالمانية . قليلون جداً الموسيقيون الذين لم يؤخذوا بسحر هذه الموسيقى ، ولم يستطع كل من قام منهم بحركة رجعية منهم ، امثال دوبوسي ، ان يتفادى سحر الرمزية . « خرجت مخبولا من مشاهدتي *Festspielhaus* » صرح فيما بعد ادوار هريو بعد ان استمع وشاهد الرباعية *Tetralogie* عام ١٨٩٦ ليس ما هياني « انا الكرتزياني الحديث العهد » لاستمتع بهذا المشهد الموسيقي الضخم ، هذه الميتافيزيقا الموسيقية ، هذا الصدام بين القوة والحب ، ولاحتمال مرأى تشنجات البرنيخ اللزم والحركات السحرية التي رسمها الحلقة الساحرة في دورانها الذي لا ينتهي حول المرساة » .

وقد خطر لليست ان يوسع واغنر ان يحقق حلم المسرح الموسيقي ذي المدلول الفلسفي العالي . والأثر الواغنري هو الذي حققه نيتشه . فبعد ان وضع جانباً العقلانية السقراطية ، واعتقد بالسائل الحيوي الديونيسي الذي يستطيع ، اذا ما تعاون مع القوة الابولينية ، ان يخلق

الانسان الكامل . فقد نزع نيلشه بارادته نحو القول بمبدأ جيالي سام ، الا انه يأخذ بعد قليل ، بمهاجمة موقف واغنر من قضية الفداء أو الخلاص ويتطور ، بعد موت واغنر عام ١٨٨٤ ، باتجاه فلسفة نيورومنطيقية شخصية ، صرفة ، كان لها تأثير كبير في اخريات القرن التاسع عشر .

الابداع الشعري المستقل والرمزية

ربما كان بودلير بين الاوائل ممن انبروا للدفاع عن واغنر مع استمراره في جهاده ذوداً عن كوربيه . فقد اطلق هـــذا الرجل الغريب الطباع ، الوجيم، الصعب التصنيف ، كما يقول فيه هوغو «قشعريرة جديدة ». وفرلين الذي يستحق هو الآخر الشفقة ، والذي تأرجح بين الايمان والتهتك وسيطرت عليه ابسط الغرائز مشترطاً « توفر الموسيقى قبل كل شيء » ، متصرفا بكل حريته بالانظمة ، دونما التزام ، مزدرياً بهذه الاصنام وبهذه التماثيل ؛ وقد رُفع على الهيا كل رسميا بعد عشرين سنة من وفاته . وبأسلوب يفيض بالجرأة التي لم تعرف لها شبيها من قبل، راح رامبو ، محولا على اجنحة الاحلام والخيال الشرود ، يرصف امام اعيننا، صوراً لم تخطر يوماً عـــلى بال ، باحثاً عن الشك الشك ، ثم يلفه صمت طويل وينقطع الرحـــلة والسفر . وعندما توفي هوغو ، بعد واغنر بقليل ، طلـع علينا مالارميه بنظمه التقليدي ينشر على الملأ عدداً معدوداً من قصائده الرائقة الداوية ارادها « ساحرة » تفيض نقاء فكرياً . وهذه الرمزية جاءت كما ارادهـــا واغنر ، اذ شدت وثيقاً ، بين الموسيقى والشعر . وهذا الفريق من الشعراء المعروفين بـ *Décadents* ومن يليهم من الشعراء الرمزيين ، وصفوا انفسهم بشعراء فرنسا الشباب في الحي اللاتيني « قلة » ممن فتحت لهم الابواب ، فتقبلوا بارتياح كلي « البيان الجمالي الجديد الذي طلع علينا به مورياس.

فاذا كان المراد بالرمزية هذا الفن الذي استلم ، بعد ان تسلح بالشعر المرسل، الشعور وحده والعناصر الموسيقية ، وقام بحركة رجعية ضد البيان الوصفي واستخدم الايحاء واكثر من المجاز الشعري ، هذا التيار ارتدى اذ ذاك ، اتساعاً كبيراً . فقد غزا بلجيكا وتمثل فيها على خير وجه بمترلنك وموكل بقطع النظر عن فيرهارين . وقد تمثل في انكلترا بالشاعر بريدجس وسونبرن كما ترك مســه في الثالوث الشالي ، وجانب الكاتب الايطالي دانونزيو وترك فيه اثره ، كما ترك مســه في الكاتب السويسري سبتلر ، ودخل روسيا مع تيوتشيف « فت » . فألهــم المسرح كما ساعد في تمهيد الطريق امام الثورة التي قام بها دوبوسي في الموسيقى.

حركة انقطاع او انفصام تام عن المذهب العقلي او مذهب التعقلية . وفي سنة ١٨٨٩ اخــذ برغسون يطلع على الناس بنظرية الاكتناه . وتبين بين هذه التيارات الفكرية والفنية الدقيقة تباعداً تقدمياً نحو النظرية الموضوعية . وهكذا جاءت خاتمة حقبة عظيمة لعمري .

الفصل الثالث

الريف يأخذ جزئيا بأسباب التطور

فاذا لم ترجح كفة المدينة عدديا من الوجهة السكنية ، فقد سجلت مع ذلك، في جميع انحاء اوروبا شأناً لا ينكره الا كل مكابر عنيد .فعلى العالم الريفي ان يتكيف وان يتطور بما يتلاءم وهذا الوضع . ويحق لنا هنا ان نتساءل ما اذا كان بالامكان ان نقارن بين « الثورة الزراعية » و « الثورة الصناعية » ، يا ترى ؟

اكتظاظ الريف بالسكان ونزوحهم الى المدينة

وهذا الازدياد السريع في حركة السكان في المدن يقابلها انخفاض نسبي في حركة السكان في الريف . فالاسر التي تعيش على مرافق الزراعة انخفضت نسبتها في كل من ايرلندا وفرنسا . فالريف لم يعد في فرنسا سوى ٠٠٠ ١٩٢ ٢٣ نسمة عام ١٨٩٦ ، بينما كان عددهم ٠٠٠ ٧٥٣ ٢٦ ! وبلغ من وضع بعض البلدان من هذه الناحية « ان راحت تنعي الارض التي تحتضر » :

فالسهل كئيب تعب ، ليس من يحمي حماه
والسهل حزين يحتضر وقد ابتلعته المدينة
(فيرهارن « المدن الاخطبوطية »)

ومع ذلك ، فهذا الوضع لا يعني قط ان الهبوط النسبي الذي طبع معظم الدول الاوروبية يكوّن انخفاضاً مطلقاً فلا نزال نشهد في كل من انكلترا والمانيا تزايداً مطرداً وان جاءت حركته اضعف مما كانت عليه في الماضي . أما في الجنوب والشرق من اوروبا ، فهذا النمو يطّرد بصورة محسوسة .

فكل مرة تعجز الارض عن إعالة سكانها او تعجز عن الاحتفاظ بهم ، نرميها باكتظاظ السكان . ومع ان المدن لا تعوّل في معايشها على الفلاحين الاوروبيين وحدهم ، فكثيراً ما نراهم يتخلون عن بعض انتاجهم الطيب طمعاً بالربح او نزولاً عند مقتضيات القانون (لتصدير

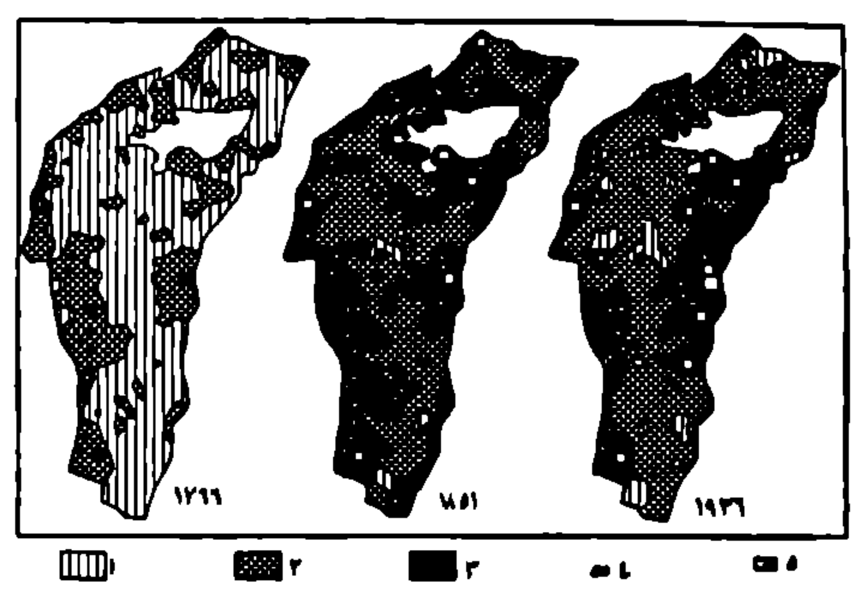
الحنطة في روسيا مثلاً ليس نتيجة فائض الموسم ، بل زهداً بالخبز الابيض) . فكثافة السكان في الريف يمكن اعتبارها على شيء من الشدة في عام ١٨٥٠ ، اذا ما قارناهـا بنسبة المحصول . ولما كان معدل الوفيات لا ينخفض الا قليلا او انه يبقى على حاله ، فقد كان من المتوقع ان ترتفع هذه الكثافة على اقدار ملحوظة لولا حركة نزوح السكان الى المدن او هجرتهم خارج اوروبا .

ومهما يكن ، ولكي يتجنب الفلاح النتائج الوخيمة التي كان لا بد ان يفضي اليهـا ازدياد السكان ، كان عليه ان يبقى حيث هو ويعمل عـلى زيادة موارده ، او ان ينزح عن ارضه ويرحل بعيداً .

فهو لن يتخلى عن ارضه بملء ارادته . ولذا نراه على شاكلة من تقدمه من السلف الراحل ، كثيراً ما يؤجر خدماته . فالهجرات الفصلية او الموسمية ازداد الاخذ بهـا بفضل طرق المواصلات والنقل الميسرة ، وهي هجرة تسبيها دورياً الحاجة اليد العاملة ، في هذه المزدرعات الضخمة ، في بعض المواسم الفصلية ، كالقمح والكرمة . فمواسم الحصاد في سهل *Beauce* يجتذب اليه عدداً كبيراً من الحصادين يأتون من بين سكان مقاطعة بريتانيا او من البلجيكيين. كما ان هذه المواسم في مقاطعة الساكس لتجتذب العديد من البولنديين للعمل فيها . والانسان لا يتردد عن ركوب البحر اذا ما دعاه داعي الهجرة الى ذلك . فها هو الاسباني والبرتغالي والايطالي ينزحون الى اميركا الجنوبية اثناء الشتاء الشمالي للعمل فيها خلال فصل الصيف ، فوضع العامل الفصلي او الموسمي ليس فيه قط ما يرغب او يشوق . فأيام الشغل عنده مضنية ، مرزحـة ، بينما يبقى عاطلا في ماتبقى من ايام السنة . وهكذا يساعد ذويه ويؤمن لهم اسباب العيش، كما ان الملاك الرأسمالي يستثمر الى اقصى حد في مزارعه هذا الرديف الآني من اليد العاملة .

وهكذا نرى كيف ان المجتمعات الريفية اخذت بالتفكك والانحلال في اوروبا الوسطى بينما يتصرف صاحب قطعة الارض الصغيرة للاستدانة في سبيل استثمارها وتوسيع نطاقها . أما في المانيا فالاسر التي يعمل بعض افرادها في الزراعة ، اخـذ عددها بالتناقص بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ بينما يزداد ، من جهة اخرى ، عدد الاجراء والخدام العاملين في المزارع . ففي جنوب انكلترا حيث الاستثمارات الضخمة تشغل ٨٠ بالمائة من مساحة الارض ، نرى تيار الهجرة فيها يجرف عدداً اكبر مما يجرف في الشمال . والهجرة اشتدت في شرقي المانيا أكثر منهـا في غربيها، ولكي تحد الحكومة من تيارها الجارف فرضت النظام المعروف عندهم *Rentenguter* الذي يقضي باقطاع العمال المياومين أراضي بموجب عقود خاصة تخولهم استثمارها. وهذا التدبير اتخذ مثله في كل البلدان التي تقوم فيها املاك واسعة الدولة كما اصاب ايرلندا وشبه الجزر الواقعة الى الجنوب من اوروبا على البحر الابيض المتوسط، والبلاد الاخرى الواقعة الى الشرق من اوروبا. فاذا ما راح ملاك كبير يفرز ارضه قطعاً صغيرة للاستثمار اجتذب اليه عـدداً من الفلاحين المزارعين ، فأدى ذلك بقسم من الـ *Pnita* الحربة الى انشاء عدد من القرى الجديدة قامت حول

مزارع معزولة عرفت عندهم باسم ..... عمرها اقوام من غاليسيا وآخرون من سلوفاكيا . اما تلك المناطق الجبلية كجبال الالب وسلسلة الجبال الوسطى حيث وصلت عملية احياء الاراضي الموات الى حدود المناطق الزراعية فقد عادت عليها هذه الحركة بالحيف والخسارة لصالح السهل،



شكل رقم ١٦ ـ كثافة السكان الزراعيين في ألزاس السفلى

١ ـ اقل من ٧٥ نسمة في الكيلومتر المربع، ٢ ـ من ٧٥ ـ ١٥٠ نسمة ، ٣ ـ اكثر من ١٥٠ ، ٤ ـ مجمعات سكنية تعداد سكانها اقل من ٥٠٠٠٠ ، ٥ ـ مجمعات سكنية تعداد سكانها اكثر من ٥٠٠٠٠ .

الى الغرب : منطقة الكروم وكوشيرسبيرغ . الى الشمال : منطقة هاغنو وغاباتها . الى الشرق : منطقة الريد على طول نهر الرين .

يلاحظ التزايد الفلاحي حتى منتصف القرن ثم الجنوب الذي مارسته ستراسبورغ ومنطقتها .

(نقلا عن جويبار الحياة الفلاحية في الزاس السفلى ، ص ٣٢٩) .

اذ راح المزارع الفصلي يستقر فيها بعد أن اطمأنت نفسه الى ظروف العيش المؤاتية . فمنطقة الـ Vielu(?) مثلا كانت في وضع أخف من غيرها ، اما في ضواحي مدينة سانت أتيان ، فالهبوط لحق بالاخص المقاطعات الريفية حيث اخذت تنشط صناعة صغيرة للتعدين ، بينما الصناعة الضخمة تقتل الحرف المتشتتة بعضها عن بعض كما انها تستقطب اليد العاملة المتوفرة .

هذه التغييرات السكانية انما تشير صراحة الى المساوىء التي يتأذى منها الريف . فاذا ما أدت حركة النزوح هذه الى التخفيف بعض الشيء من الضغط الذي يحدثه اكتظاظ السكان على وضع إقتصادي محدود النشاط ، فقد اضطرت طبقة الفلاحين التي بقيت ملازمة للارض للاخذ باصلاحات جزرية تساعدها على قهر الصعوبات التي تتعرض لها والتحكم بها .

تطور التقنيات الحديثة واستثمار أصلح للارض

من المبادىء التي تستمدها الصناعة الزراعة وتنهض عليها هي ان الزراعة مظهر من مظاهر الصناعة ووجه من وجوهها المتعددة ، تخضع مثلها لمقتضيات العلم والتقنية . فعلم النبات وعلم الحيوان، والاقتصاد الزراعي اساسها كلها العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية وعلم الاسواق بما تقوم عليه من فنون التسويق والتنظيق . ولذا انتشر التعليم المهني وناع . ولا شك ان رأس المال لعب هنا دوره البارز بحيث ان الفلاح المتعلم هو على الغالب ملاك ، ينعم ببعض الثراء . ولكي يتخلص المستثمر الصغير من المصاعب التي يعاني منها ، كان عليه ان يتغلب على ما طبع عليه من روح فردية وان يبرهن عن استعداد للعمل بروح تعاونية . فالمفارقات تبقى كبيرة ، واضحة بين من يرسفون في قيود العادات القديمة البالية ، وبين من اخذوا باسباب التجدد، يجاهد الفريق الاول منهم ويناضل في ظروف وصروف غير متساوية مع الجهود التي يبذلون . فليس بغريب قط ان تلعب سنة الاصلاح وقانون الاكفأ لعبتها المعروفة هنا ايضاً .

ومن جهة اخرى فهذه الاقطار والاراضي الزراعية القديمة في اوروبا لا تصلح جميعها على السواء للاجهزة الميكانيكية. فقد تركت فرنسا المانيا تبزها في هذا المضمار وتتجاوزها بعيداً . فقد كان لالمانيا عام ١٨٨٠ من الحاصدات الميكانيكية ١٢ ضعفاً مما كان لفرنسا منها ، وضعفان من الدراسات التي تعمل على الخيل ايضاً. فبلدان اوروبا الشمالية ،تتبنى قبل غيرها من البلدان الاوروبية الاخرى المماخض الآلية ، لان صناعة الالبان فيها اصبحت موضوع عناية وتخصص مستمرين .

فاذا ما اخذت الزراعة بالتقهقر في هذه الاراضي المرتفعة الواقعة على سفوح الجبال بعد ان تخلت عنها يد الانسان العاملة ، فالاعمال المتعلقة باحياء الاراضي الموات تتقدم باطراد مستمر . وعلى هذا هبطت في فرنسا مساحة الاراضي البور بين ١٨٨٢ - ١٩٠٨ من ٦،٢٠٠،٠٠٠ الى ٢،٨٠٠،٠٠٠ هكتار . وحلت الاراضي الحرجية محل الاراضي السبخية في محافظة غسكونيا. كما ان اعمال تجفيف الاراضي تسير على قدم وساق في مقاطعات سولوني والبراين والدومب ، خلال الامبراطورية الثانية التي قامت ببناء سدود في مقاطعة «كامارغ»،وبذلت جهوداً جبارة باستمرار لاستصلاح الاراضي المنخفضة عن سطح البحر (*Polders*)، واستخلاص بطون المناجم من رواسب المياه واستنزاح الرمال من هذه الاراضي الممتدة من مقاطعة با دي كاليه الى مشارف سكندينافيا . ومثل هذه الجهود تخصص لمقاطعة كمباين ، ولهذه السهول المنبسطة التي تمتد على شواطىء هولندا والمانيا، واراضي الجوتلاند والسويد السيئة التصريف. وانفرس تستعمل نفاياتها وقمامتها المنزلية لتسميد البساتين الواقعة على مقربة منها ، فتعطي مواسم طيبة من الخضراوات والبقول ، ومواسم طيبة متأخرة القطوف من البطاطا ، واعمال تصريف المياه، واقامة السدود والحواجز المائية تفلح لزراعة الحبوب ، مساحات واسعة من اراضي الجسر التي كانت معرضة من قبل لطغيان المياه . اما في ايطاليا الشمالية ، فقد استعملت اقنية الري على نطاق واسع بحيث استطاعت قناة كافور ان تروي ٢٠٠،٠٠٠ هكتار من الاراضي الزراعية ، كما انه وضع

فيها برنامجاً واسع النطاق لاستصلاح الاراضي شمل كل انحاء الجزيرة الايطالية. ومشكلة التشجير هي موضوع اهتمام الجميع منذ ان تبينوا الاخطار التي تتهدد التربة من جراء تعرية الارض من الشجر وتعرضها للانجراف مع المياه المتدفقة شتاء من سفوح الجبال نحو البحر .

كذلك بذلت عناية كبيرة لتحسين قدرة التربة على العطاء والانتاج . فالعهد النحي الذي عولوا فيه على سواد الغوانو والذي يقع بين ١٨٥٠-١٨٨٠ ولى وأمر لتحل محله مخصبات جديدة طلعت علينا بها الكيمياء الحديثة جاءت سخطاً كبيراً لسواد الحيواني . واستعمال السماد الكيماوي الذي نجح نجاحاً باهراً في هذه الناحية ، كان فعله بطيئاً في نواح اخرى ، مما اتاح الفلاح مردوداً اكبر وادى بالتالي الى نتائج اطيب في المحصول . والنهوض بتربية الماشية ، عن طريق الانتخاب الطبيعي والتأصيل ، واستيلاء عروق جديدة ، ومكافحة الاوبئة والجوائح الحيوانية فقد نصح خبراء الزراعة بالتعويل على تسميد الارض بالمواد الطبيعي ، واعتماد انتخاب الفضل في الحيوانات الداجنة ، وتأصيل في النبات ، وكلها ذرائع ووسائل علمية ادت الى محصول اطيب في البطاطا مثلا اذ اعطى الهكتار الواحد في المانيا ٢٠ طناً عام ١٩٠٠ لقاء سبعة اطنان ونصف في فرنسا ، واعطى محصول الشمندر ١١٪ من المادة السكرية بدلا من ٧٪ . كذلك بذلت عناية اكبر في عمليات التطعيم والدرخ ، كما اشتدت اعمال المكافحة ضد الامراض الطفيلية في النباتات اللازهرية ، وهكذا تغلبت زراعة الكرمة على مرض الارمداد ومرض العفن الفطري وعلى الفيلوكسيرا.

فكيف السبيل بعد لتطبيق هذه الاكتشافات وفقاً للبيئات الجغرافية ؟ فاذا ما اقتصرنا على المساحة ، فالمسائل التقليدية لا تزال هي المسيطرة حتى الآن . فالطريقة الزراعية القديمة المتعددة المزروعات ، وهي الطريقة التي تمليها الغريزة والحكمة ، وذات المردود الضعيف ، تصمد في كل مكان وتقاوم تيار التجديد. فهي تلائم تماماً نشاط صغار الملاكين ، وهذا الفلاح الذي لا ارض له ولا املاك ، لا يقبل التخلي راضياً عن العادات والاعراف المعمول بها في مجتمعه والمعول عليها في بيئته . ففي الجنوب الاوروبي ، يتألف معظم الريف مما يعرف عندهم بـ *Saltus* اي من اراضي للرعي تجاور ما يعرف عندهم بالاراضي الصالحة للزراعة التي درجوا في استثمارها وفقاً لنظام التحويل الزراعي . كم هو كبير عدد البلدان التي تمتد حلقاتها من البلدان السكندينافية حتى سلسلة جبال شيارا مورينا في اسبانيا وفي البلقان ، اصبحت عملية الاحتطاب عندهم من ذكريات الماضي البعيد .

والعلاقات في الحياة والاتساع الذي تتخذه في المجتمع هي التي تعمل على تعديل ذهنية ابن الريف . والعلامتان الفارقتان اللتان لا تدعان مجالا للشك مما التخلي عن نظام الدورة الزراعية وفقاً لما درجوا عليه منذ القديم ، والعزوف عن تعاطي زراعة الحبوب وتربية الماشية . ففي هذا انهاك للارض من جهة يوجب الركون الى تسميدها ، ومن جهة ثانية ضمان لنجاح التخصص وترسيخ لاصول الزراعة الاحادية ، مع العلم ان نجاح تربية الماشية يستدعي استبدال عملية

الـ Emblavures بالشعير وزراعة النباتات العلفية والبطاطا التي تحل بشكل اجدى وانفع على الارض البور . فبعد الفصل بينها، تختار كل من زراعة الحبوب وتربية الماشية، الاراضي التي تلائم بالاكثر، كل واحد منها . وربح الواحدة منها، من حيث الانتاج والمحصول، مما تكون خسرته من المساحة ، بينما يسجل التالي ازدهارا اكبر . وهذا الانفصال الارضي يعود بالخير على زراعة الكرمة والحدائق وبساتين الخضرة . غير ان الفصل يستدعي تبادل الخدمات ، والاخذ بنظام يرمي لتقديم الانتاج الزراعي الذي له قيمة اكبر من الوجهة التجارية . فالاكتفاء الذاتي يعني ان تنتج البلاد ليس كل ما تحتاج اليه ، بل القدرة على تأمين ما لا تنتجه البلاد بسعر منخفض . فكل بلد يحدد نوع الاختصاص الصالح له حسبما يحدده علماء الاقتصاد الحر . فبعد ان عزفت انكلترا عن تأمين حاجتها من الحبوب محليا لتحصر جل نشاطها الزراعي بتربية الماشية ، فقد كانت اول بلاد تقوم بمثل هذا الاختيار ، وهو تصرف لم يلبث ان حذا حذوه كل من هولندا وسكندينافيا وسويسرا ، والدول الاخرى التي لا تتوفر لها امكانات اكبر كفرنسا مثلاً تركت لمختلف مقاطعاتها ومحافظاتها ان تختار على ضوء مصلحتها وحاجتها ، نوع النشاط الزراعي الذي يلائم طبيعة تربتها . فالكرمة تنوعت نصوبها ، وتلونت عروقها في الجنوب ، حيث جاءت التجربة تثبت بانه من المقاطعات الواقعة على الساحل الغربي ، لا يمكن ان يعول عليها لتأمين البواكير في انتاج الثمار . والسهول الغربلية اثبتت صلاحيتها لانتاج الحنطة والشمندر فنشطت ، في المقاطعات الجبلية ، تربية الماشية ، وهو نشاط تتقاسمه مع السهول الرطبة. فالخط الحديدي والملاحة يسهلان نقل المحاصيل التي تعطي البلاد مردوداً طيباً . فالمدينة هي التي تنظم وتغني حركة المبادلات . فهي تشتري لتبيع ، وتمد الريف بالآليات الزراعية وتقدم له كل ما لا يستطيع توفيره او صنعه .

التطور الزراعي يتوالى بين مواسم خصبة وسنين عجفاء

ارتبط الثورة الزراعية ارتباطاً وثيقاً بتقلبات طويلة الامد، بعيدة المدى. فقد عاد الريف سنة ١٨٥٠ ، آمالاً طيبة على المواسم ونشطت بالتالي الحركة في المدن كما زاد فيها النشاط التجاري . فالاستهلاك ازداد ووسائل النقل الجديدة سهلت عملية مد الاسواق المحلية بحاجاتها الاولية. وقد صحب ارتفاع الانتاج الزراعي، ارتفاع عام في الاسعار[١]. ومع ازدياد انتاج الارض ارتفعت بالتالي قيمتها التأجيرية . ففي فرنسا ارتفعت قيمة الاملاك بين ١٨٥١ – ١٨٧٩ ، من ٦٠ مليار فرنك الى ٩٠ ملياراً، كما ان ريع الارض ارتفع في المدة ذاتها ، من ٧٠ – ٨٠٪ . وفي بوسنانيا تضاعفت قيمة الفدان الواحد بين ١٨٥٧ – ١٨٧٠ كما ارتفعت اربعة اضعاف في بروسيا الشرقية . وتحسنت جداً الأساليب الزراعية ، واستطاع مزارعون كثيرون ان يؤمنوا وفراً طيباً لهم. فنحن في صميم هذه الحقبة التي تواجه فيها بلدان اوروبا الوسطى زوال النظام السائد

(١) راجع الكشف البياني ص ٨٩

عندما راح العهد القيصري يلغي عبودية الارض . وحركة نزوح طبقة الفلاحين التي اخذت اذ ذاك بالاشتداد ، افرت شيئاً من الارتياح ، بين العديد من الامر . وهكذا ساهم قسم كبير من الريف في شبكة المبادلات والمقايضات ، مع العلم ان منافسة الدول التي طلعت حديثاً لم تكن بعد شعروا بها بصورة ملحوظة .

وقد اكفهر الجو بعد عام ١٨٧٥ . فازدادت الصادرات الاميركية ، والروسية ، كما أن المنافسة الدولية احدثت هبوطاً في الاسعار : الا ان البلدان التي كانت تنتج كثيراً في سبيل التصدير تضررت بنسبة البلدان الاخرى التي تسير على النهج القديم . وقد انخفض مدخول الارض في فرنسا ٣٠ ٪ في هذه الفترة الممتدة بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ ، و ٦٠ – ٧٠ ٪ في هذه المناطق التي تعول على زراعة الكرمة التي فتكت بها آفة الفيلوكسيرا . وقيمة الارض نفسها هبطت من ٥٠ مليارا الى ٣٠ مليارا في بريطانيا العظمى ، بين ١٨٧٥ – ١٩٠٠ ، في هذا الوقت بالذات الذي ارتفعت فيه قيمة بيوت السكن من ٣٥ – ٦٥ ٪ .

واستمر التطور السابق في سيره الصاعد وزاد بنسبة الميل الى الهبوط . ونشطت حركة الهجرة في الريف والنزوح منه ، وهي حركة لم تقتصر على ايرلندا وبريطانيا العظمى، بل تعدتها الى بلدان اوروبا الوسطى واقطار اوروبا الجنوبية والشرقية على السواء . فالمزروعات التقليدية ، وفي الدرجة الاولى منها الحبوب ، سجلت خسائر كبيرة اضطر معها المزارعون ، اكثر مما فعلوا في الماضي ، الى تحسين طرق استثمار الارض باستخدامهم رسائل وادوات جديدة للحصول على انتاج اكبر : وهكذا انصرفت العناية للمزروعات التي تؤمن مردوداً اكبر :كية اصغر من القمح ومقداراً اكبر من اللحم وكية اكبر من الكتولترات في الهكتار الواحد . وتم الفصل تماماً ، في هذه الحقبة بين الحبوب وتربية الماشية . فقد استحالت مساحة ١٦،٠٠٠ كيلومتراً مربعاً من الاراضي الزراعية في انكلترا الى مراع . فقبل عام ١٨٥٠ ، كانت بلدان اسكندينافيا تبيع مواسمها من الحبوب لتشتري اللحوم . ولكن منذ عام ١٨٩٢ لم تعد تنتج سوى نصف ما كانت تنتجه من القمح ، وثلاثة محصولها من الشوفان ، الا انها ضاعفت عدد الماشية فيها ، واخذت تصدر الزبدة . وقام الدانمارك بثورة جزرية في اقتصاده الزراعي ، وارتفع الى البلدان الطليعة في تربية الماشية . وسويسرا اتجهت هي الاخرى نحو مصير زاهر للمراعي الجبلية . وايرلندا نفسها حققت تقدماً محسوساً في هذا المضمار بعد ان تخلت عن زراعة الحبوب لتشجيع المروج الخضراء والمراعي الماشية وبيعها من الانكليز . وتخصصت هولندا بانتاج المواد الغذائية ذات القيمة الغذائية كالحبوب وانواع الجبنة والزبدة والزهور . فالحدائق والبساتين تقام بسرعة في الجنوب بينما تهدد الكرمة جوائح طارئة . فبلدان اوروبا الوسطى وغربيها هي التي اخذت ، على الاجمال، بأسباب حركة التكييف والتسبب هذه ، بينما لا تزال الاقطار الشرقية منها في طور زراعة الحبوب .

وهذا لا يعني قط ان الجهود المبذولة لتأمين حركة التطور ودفعه الى الامام كانت كافية .

فالازمة تصيب بالاحرى هذه المناطق التي لم يطرأ تبدل يذكر على نمط العيش فيها . وبفضل هذه الغريزة التي رُكبت فيها بالفطرة ، اخذت الطبقة العاملة في الزراعة تلتمس من الدولة حمايتها. فسياسة الحماية الجمركية ليست بعلاج بحد ذاتها . فهي ليست باكثر من مسحف آلي – اذ تفسح امامهم الامل بتحسين الاسعار . ومع ان هذا التدبير له كل مساوىء المخدر الوقتي ، فلم يكن بوسع الحكومات الا النزول عنده . ومن جهة ثانية ، فقد اخذ قسم من سكان الريف يبدأ تأليف التعاونيات ، كما اخذ قسم آخر – ولا سيما هذه البروليتاريا العاملة في الحقل ، يبدأ النقابة .

الملكية الضخمة : امكاناتها ومساوئها

ليس بمستبعد قط ان ملاكاً من اصحاب الاقطان الكبيرة تتوفر له الدراية الكافية ولديه الوسائل الكافية، من راس المال واليد العاملة الرخيصة ، ان يأتي في طليعة حركة التجدد هذه ، فيأخذ ، كما حدث لآل بولزني في ايطاليا ، باستصلاح جانب من السهل الالماني وسهل الجر . والمألوف عموماً هو ان يؤجر ارضه حصصاً لقاء نسبة من ريع الارض وغلتها . وقد ينزل به هبوط اسعار الارض ، كما حدث في انكلترا مثلاً ، ضربة مؤلمة، كما ان الاجراءات الرسمية والتدابير التي عرفت، فيها باسم (قانون الاراضي الزراعية ، وطدت جانب المزارعين والمتعهدين الزراعيين الذين تمتعوا باحكام قانون الايجار) ، بحيث ان راس المال المخصص للاستثمار ينفصل عن الرأسمال العقاري. في سنة ١٨٩٠، كان المتعهدون الزراعيون يستثمرون ٢٨ مليون فدان، في الوقت الذي كان فيه اصحاب الاقطان يستثمرون بانفسهم خمسة ملايين فدان لا غير . فالصورة المرتسمة في الاذهان تصور لنا طبقة بورجوازية تنعم في بحبوحة وارستوقراطية لا تزال تحتفظ باملاك وعقارات ضخمة جداً، فالاراضي المرجية تعدّ ٦ ملايين هكتار، درت عليها ربما بلغ ٣٥٠ مليون، وفي بعض الاملاك المتوسطة الحجم بلغ الربع نحو نصف مليون). وفي ارلندا، وضعت الازمة البلاد امام مجاعة وهو وضع اوجب على مجلس العموم البريطاني، عام ١٨٧٠ ، سن قانون خول المستأجر حق المساومة حول قيمة الايجار دون ان يربطه ذلك بشيء. صحيح ان الفقر لا يزال ضارباً اطنابه ، الا ان تيار المهاجرة وحركة الاصلاح التي بوشر بها امران بشرا بطلوع عهد افضل طل على المستأجر الصغير الذي توصل ، شيئاً فشيئاً ، الى ان يتحرر من الرسوم التي رزح تحتها في الماضي . ووقع في ولاية غرونتنغ تطور شبيه بالتطور الذي وقع في انكلترا استحال معه المستأجر مشاركاً في الملكية . وهذا النظام هو المعمول به في مناطق كثيرة في شمالي المانيا وشرقيها. والمطالب الزراعية التي كان على اولي الامر في الرابع ان يعنوا بها وان يهتموا لها نمت عن المشكلات التي تخلفها ما يعرف عندهم *Junkertum* .

اما في النمسا وايطاليا وشبه الجزيرة الايبيرية ، فالاملاك العقارية الضخمة كانت تتسبب في اطالة البؤس والاضطرابات في البلاد . فالكنائس والاديار وابناء الارستوقراطية الطليانية لا

يزالون يتمتعون بسيطرة مقيتة ، منفرة ، مرزحة قلما تتيح لهذه الطبقة المتخلفة من الفلاحين والمزارعين فرصة لتحسين اوضاع معيشتهم .

ففي هنغاريا ١٠ ملايين هكتار من الاراضي الزراعية ، الخصبة هي في قبضة ٢٣٠٠٠ من كبار الملاكين . بينما ١٬٢٤٠٬٠٠٠ هكتار يتقاسمها ١٬٢٧٩٬٠٠٠ من صغار الملاكين. فقد حاز احد امراء استربازي وحده ٢٣١٬٠٠٠ هكتار كما حاز احد امراء آل فستيك ٨٨٬٠٠٠ هكتار ! هنا زرائب واكواخ مبنية من قوالب اللبن ، مغطاة بالاعشاب ، وهنالك صروح وقصور باذخة ، فخمة يقطنها عظماء البلاد . وفي مقاطعة بوكوفينا نرى ١٬٧٪ من مجموع مساحة الارض يملكها ٢٥٧ شخصاً وان ٢٦٪ من هذه المساحة موزعة بين ١٩١٠٠٠ ، بينما في ترانسلفانيا ٣٬٢ شخصاً يملكون ١٨ بالمئة في حين يملك ٤٠٤٢٬٠٠٠ شخصا ٣٩٬٦ بالمائة ويؤلف المرابعون في ايطاليا مع العمال المياومين السواد الاكبر من الشعب الايطالي. فايطاليا لا تعد من أصحاب الاملاك سوى ١٠٠٬٠٠٠ بينما سويسرا تعد ٣٠٠٬٠٠٠ من الملاكين. فصاحب الارض يؤجر أرضه عادة ، حصصاً صغيرة بموجب صك ايجار ينص على اقتسام الارباح والخسارة *Mezzadria* او *Boaria* ، ما لم يلزّمها الى متعهد عام يستأجر لها اليد العاملة الرخيصة . ففي مقاطعة توسكانا ٩٣٬٧٪ من الاراضي المستثمرة ، لا تزيد مساحة القطعة الواحد عن ١٠ هكتارات ، وهي تمثل ١٩ بالمائة من مجموع الاراضي الزراعية في البلاد ! بينما ٢١٬٦ بالمائة يملكها ٠٬١ بالمائة من الملاكين، و ٣٢٬٤ بالمائة يملكها ٢٬٠ بالمائة. والصورة تكاد تكون مماثلة في كل من اسبانيا والبرتغال . فالعقارات التي تبلغ مساحة الواحد منها ١٠٠٠ هكتار تراوح من ٥٠ - ٧٠ بالمائة من مساحة مقاطعات اسبانيا الجنوبية (أي بمعدل ٣٠٠٠ ا ٨ا٢ شخصاً بينما يصيب معظم المزارعين ٣ هكتارات للشخص الواحد . فالقانون الاسباني الذي صدر عام ١٨٨٩ يؤثر التعامل مع الملتزم الواحد بحيث يسهل الدفاع عن مصالحه من جراء هبوط الاسعار مثلا ، والقوانين التي تسهل مبدئياً حق التملك بقيت بالاحرى حبراً على ورق . وقد نجم عن هذا كله ، كما حدث في ايطاليا ، اضطرابات مزمنة تسببت في حركة مهاجرة واسعة النطاق .

تطور الملكية الصغيرة ومشكلاتها والاستثمار المباشر

حطمت الفردية في النظام الزراعي ليس المجتمع القروي فحسب بل ايضاً هذا الطوق الذي وضعه حول عنق المستثمر اصحاب العقارات الضخمة . من الامور المرعية الاشادة بحسنات الملكية الصغيرة التي تكسب اكثر من استثمارها الارض مباشرة . الا ان صغر القطعة الزراعية وتشتتها قد يولدان شيئاً من الضآلة في المواسم بجعل نظام الاستثمار مهدداً بخطر الزوال. ان استملاك الارض من قبل من يستثمرها بقي عرضة للطوارىء اذ لم تكن المراحل التي عرفها هذا النظام متشابهة بين بلد وآخر . فالايجار الدائم او صيغة شريك في الملك كثيراً ما افضيا الى وضع قد لا يختلف كثيراً عن الاستملاك. ففي سكندينافيا والدانمارك حيث عقب عملية توزيع الاملاك السابقة عملية اخرى قامت على تجميع هذه القطع عن طريق التسوية او المبادلة،

نال الفلاحون بموجبها القدر الكافي من الاراضي المنسبة . الا ان هذه الاملاك الصغيرة الحجم او المساحة اخذت تضيق وتصغر لحاقاً ، عن طريق الارث والتوزيع المتعاقب بحيث اصبح وضعها وضع اراض اشتدت حوله رغبة الطامعين بها . فقد رأينا كيف عرف صغار المستثمرين في انكلترا الذين لا تزيد مساحة ارض الواحد منهم عن ٢٠ إيكر (٨ هكتارات) بالاكثر ان يتفادوا الطوق الذي حاول فرضه عليهم النظام الاقتصادي المعروف بنظام الامتلاكية واصحاب المزارع الضخمة ، يملكون نصف الوحدات الزراعية اي ما لا يزيد على ٦ بالمائة من مساحة الاراضي الزراعية .
فاذا ما اعتمدنا اساساً الاصلاح الفرنسي لعام ١٨٨٢ ، نرى ان المزارعين كبارهم ومتوسطيهم يملكون معاً ثلاثة ارباع مساحة الاراضي الزراعية ، بينما ملايين من صغار الفلاحين يملكون الربع لا غير . وهكذا يشتط بعيداً من يقول او يعتقد ان ارض فرنسا الزراعية هي بتصرف صغار الفلاحين ، بل الاصح والاقرب الى الصواب القول في انها تخص في غالبيتها الكبرى ، الملكية المتوسطة ، اذ ما وضعنا في هذا الصف المزارع التي يتراوح حجمها بين ١٠ — ٥٠ هكتاراً . فمن اصل ٠٠٠ ٦٧٢ ٥ مزارع ، هنالك ٠٠٠ ١٧٦ ٢ يملك الواحد منهم اقل من هكتار من الاراضي الزراعية . ولما كان عدد القطع الزراعية في البلاد يبلغ ٠٠٠ ٢١٤ ١٢٥ قطعة ، فالمعدل الوسط للقطعة الواحدة يتألف من ٣٩ آراً . ومثل هذا التوزع والتشتت انما يعني ان عدداً كبيراً من المزارعين كان يعاني الضنك الشديد ويضطر بالتالي القيام بعمل اضافي .

الغنى والفقر في قلب طبقة الفلاحين

ليس من طبقة ريفية اليوم كما في الماضي بل طبقات ريفية تتباين فيما بينها من حيث الوضع العام ونمط العيش .

فاذا ما اقصرنا الكلام هنا على فرنسا ، مثلاً ، هل يصح لنا ان نأخذ بعين الاعتبار بعض التأكيدات العامة ؟ ففي عام ١٨٧٠ ، يؤكد بيغوي ان اي رعوية عامة كانت الف مرة اقرب الى رعوية من القرن الخامس عشر او من القرن الخامس او الثامن من اي رعوية في يومنا هذا » . ولنصغ الى ما يرويه لنا الاب « تيانون » بعد ان رسم اميل غيومين لنا صورة قاتمة عن حياة النكد التي يحياها المزارع ، وذلك في كتابه الموسوم : « حياة أحد البسطاء » فيقول : « قوتنا خبز الشوفان المجروش ، لونه لون السخام ، يجرش تحت الاسنان كأنه ممزوج برمل خشن من هذه الرمال التي تسقيها السواقي . وهم يؤكدون لنا ان ترك النخالة في الطحين تزيد من خاصيته الغذائية . اما الحساء او الشورباء فهو اللون والصنف الرئيسي : شوربا البصل صباحاً وفي المساء ، اما عند الظهيرة فشوربا البطاطا مع الفاصوليا والبطيخ مع لحسة من الزبدة . اما شحم الخنزير ، فلون نادر جداً وصنف يترك لايام الاعياد المعدودة .

« ويضاف الى هذه الالوان احياناً بعض المقالي التي يصعب مضغها بحيث تنغرز فيها الاسنان ولا تستطيع الخلاص منها بسهولة ، وبطاطا مشوية تحت الرماد ، وفاصوليا مسلوقة يضاف اليها

كمية قليلة من الحليب يكاد لا يتغير لها معه لون » . ومع هذا أفلا يجوز لنا ان نجاري جوريس في تساؤله : « كيف يتدبر هذا الفلاح امره من موسم الى آخر، في عمل هو هو، واسطو عاصية دوماً في هبوط، وهذه الديمومة في عمل روتيني، ولذني سمر قمحه وسمر ماشيته، وليله وعصوله من القنب ، ومن الزبيب والحليب ، وأمام هذا الجفاف ، والقحط ، وهذه الضربات المتتالية ، لا يستسلم لحكم القضاء والقدر، استسلامه له امام هبوط البرّد وهبوب العاصفة واشتداد الجفاف، ومع ذلك فهو يشعر ببعض التعزية « لاول مرة في حياته لمشاركته حياة المجتمع » . علينا ان نقر ونعترف ، مع ذلك ان الفلاح ، كان غذاؤه على وجه العموم، احسن مما قرأنا له من وصف . لخبزه اكثر بياضاً . فقد ازدادت كمية البطاطا التي يتناولها كما ازدادت كمية النبيذ التي يشتريها ، او الجعة او شراب التفاح الذي يشربه حسب ظروف المكان. فهو الآن يتناول القهوة ويستهلك السكر ويأكل اللحم اقله مرة في الاسبوع وفي ايام الاعياد . الغذاء عنده اوفر حجماً وكماً منه نوعاً وصنفاً . وشبح المجاعة تضاءلت اسباب ظهوره واوضاع سكنه تحسنت قليلا . فاذا ما قلت رؤية الغرفة الواحدة سكناً للعائلة الواحدة بكاملها ، فلم يكن ، مع ذلك من النادر قط ، ان نرى اهل الدار يتقاسمون مع ماشيتهم بيتاً واحداً هو مسكن واسطبل معاً يفصل بينهما حاجز رقيق. وشيئاً فشيئاً ، فقد حل القرميد محل القش على السقف ، وكابوس الحريق لم يعد المفزعة التي ترزح كابوساً على صدر العائلة . وقبل ظهور الكهرباء لم يكن التنوير شيئاً عملياً ومأموناً والعتمة كانت دوماً تسير جنباً الى جنب مع قلة التهوئة . أما الفرش او الاثاث فغاية في البساطة ، مع ان الخزانة او الدولاب هي دائماً هنالك من طراز ما . والكرسي حلت محل الاسكملة، كما ان الناس ازدادوا اقبالا على المقصف او صوان المائدة . فالالبسة الداخلية والاسرّة اشياء اخذوا يهتمون لها والكل يراعي فيها الزي المسيطر في المنطقة على الاذواق الا ان الفلاح اخذ يتبرم من شيوع هندام ابن المدينة .

فالوصف الذي تركه لنا زولا عن فلاح قليل الكلام ، عنيف الطباع ، متأفف من نير الضرائب والقرعة العسكرية قد يبدو قاتماً اذا ما أطلقناه على هذه الفترة الواقعة بين ١٨٦٠ – ١٨٧٠ ، بينما يبدو مغالياً او مبالغاً فيه عندما يصورونه لا يلين ولا يستجيب للتطور ولا يأخذ بأسبابه ، يحمل في قلبه للارض التي هي بمثابته تعلقاً شديداً ، لين العريكة امام ممثل السلطة ، وذا طبع مستقل يجعل منه من مؤيدي السلطة المطلقة دون ان يدري . واذا كان عليه ان يخرج طوعاً واختياراً من عزلته وان ينزل للمدينة ليتاح منها ما هو بحاجة اليه ، ساعده ذلك على اثارة الفضول فيه ، وراح يشعر ، ولو بصورة غامضة ، بالحاجة للتحوط ضد طوارىء الحياة[1] .

---

(١) ما هي بالفعل نسبة ارتفاع الاجر لدى سكان الريف ؟ فالعامل في الزراعة كان يقبض في اواخر القرن الثامن عشر في انكلترا تسعة فرنكات في الاسبوع ، و ١٢ فرنكا حوالي ١٨٥٠ ، و١٥ فرنكا حوالي —

فبينما يرى البعض ان العامل في الارض هو من هذا الفريق الذي يستحب فريسة القوي ، ويرى غيرهم بأنه حليف قوي في وجه الديماغوجيين، فهو ينظر نظرة المدير للنظام التمثيلي ويؤمن بسحر ورقة الاقتراع التي يطرحها في صندوق الاقتراع. فاللعبة السياسية لم يعد في مكنتها تجاهله قط .

١٨٨٠ . اما في فرنسا فكانت اجرته في السنة ٥٠٠ فرنك عام ١٨٤٠ و ٨٠٠ فرنك عام ١٨٨٠ . اما اجر خادم في مزرعة فكانت اعلى اجرة العامل اليومي غير الممون او المكفى . فالاجر في الريف دون ما هو عليه في المدينة ، ووضع المرأة في حقلا الحالين مجحف جداً بحقها ، اذ كان معدل الاجر الذي يدفع للعامل في الحقل ، عام ١٨٨٢ ، هو ٢٠٢٢ فرنك للرجال و ١٠٤٢ فرنك للنساء العاملات في الحقل ، بينما يدفع للعامل ٣٠٥٨ فرنكات وللعاملة ١٠٧٧ فرنك في المدينة . ومع ذلك فقنطار القمح كان يساوي ثمنه معدل ١٦٠ ساعة عمل للعامل عام ١٨٤٠ ، بينما لم يكن يكلفه سوى ٧٠ ساعة عمل ، عام ١٩٠٠ .

الفصل الرابع

المدينة المتحررة
بين القوى المحافظة والاشتراكية

« لا بد للحرية من العقل »
ادمون بينو ـ « مساوىء التربية والتعليم العام »
كلديس ١٨٦٧

الدول القومية وعبادة القومية

اوروبا في القرن التاسع عشر هي مجموعة من الدول تنهض كلها على اساس قومي وطني ، ولم يبق فيها سوى وضع جغرافي واحد اساسه اسرة وراثية تتعاقب على الحكم هي اسرة آل هبسبورغ ، التزمت لها سياسة قامت على التنازلات إرضاء للقوميات المختلفة التي تألفت منها . فآل رومانوف يستمدون بالاحرى الشعور القومي الروسي لتدعيم امبراطوريتهم بينما تنمي تركيا عجزها عن إضرام شعلة الوطنية الخافتة في البلاد . فقد تبدى لاحرار البورجوازيين ان الأمة هي مشاركة شعور ومصالح متبادلة واحترام حقوق الانسان والمواطن. ويقابل الانتساب الحر الى الأمة رابطة الدم الواحد والتفكير الواحد الذي يوجب على افراد المجتمع الواحد ان يعيشوا معاً. إن اقتطاع الالزاس وقسم من اللورين ، عام ١٨٧١ دليل كاف على بطلان الاحتجاج بالحق التاريخي دون ان يثير ذلك عاصفة من النقد والجدل .

كل شيء يدعو لبعث الشعور القومي بين افراد الشعب الواحد: المدرسة والتجنيد الاجباري وخدمة العلم وتطور طبيعة العلاقات التي تشد اجزاء الوطن الواحد بعضها الى بعض ، ووحدة النمط في العيش والنهج المشترك في الحياة . فعظمة الوطن وجماله هما من هذه الموضوعات التي تهم الشعراء ورجال الفن . فالقصص التاريخي الوطني ينشط ويروح الشعر يتغنى بهذه الامجاد والذكريات الوطنية المشتركة . والموسيقى تستلهم انغامها من هذا الادب الشعبي الذي

يلهب القلوب والعقول معاً ، ويصبح التاريخ معيناً التوكيد ان الماضي يهيء الحاضر ويعزز الايمان بطلوع مستقبل زاهر امام الامة . والروح القومية بفضل ما لها من شعبية تعمل على قتل الروح الاوروبية لما لها من طابع ارستوقراطي وبورجوازي . فهي اقل اخذاً بأسباب العقل ، وألصق بالشعور والعاطفة .

الاقليات ومعزلها عن الامة

ذاب في هيكل الأمة ما فيها من فئات خاصة وطبقات ومجتمعات دينية أو مهنية . فالتسليم العام بالوضع القائم ليس سوى شيء فكري أو عقلي . فقانون الدولة اساسه ارادة الاكثرية . وقد يقوم احياناً وضع خاص نجم عن ضغط أو التزام ما .

والاقليات الدينية هي على الاجمال أكثر الفئات الخاصة رعاية واحتراماً . فمن مبدأ التساهل الذي طلع به القرن الثامن عشر ، طلع مبدأ الدولة العلمانية اي الحيادية . فالروح الليبرالية بالاضافة الى عدم اللامبالاة الدينية من شأنها ان تجعل حياة الكاثوليك اسهل وأيسر في هذه البلاد التي تتألف اكثرية السكان فيها من البروتستانت ، والعكس بالعكس . ومع ذلك فالبرلمان الانكليزي لم يقر قانون فصل الدولة عن الكنيسة الا في عام ١٨٦٩ . وبفضل هذا القانون تم تحرير الايرلنديين الكاثوليك من تابعية الكنيسة الانكليكانية . وسياسة الفصل بين الكنيسة والدولة على مثال ما حققته اميركا لم تنتصر في فرنسا إلا في عام ١٩٠٥ .

وتحرير اليهود حركة لها مغزاها ومدلولها هي الاخرى . فقد جاءت نتيجة ، حتمية لهذا التطور الذي خضعت له فكرة المساواة ، في العالم ، وتقهقر روح العصبية الدينية ، كما ان هذه الحركة قابلت ، ارتفاع شأن الرأسمالية . فقد شهد عام ١٨١٨ تحرير القوميات في اوروبا الوسطى ،وفي هذا الاتجاه سارت ايضاً كل من اسبانيا والبرتغال ، بينما حركة الاضطهاد الديني نشطت في الشرق من القارة الاوروبية وحركة معاداة اليهودية التي تغذيها هذه الاقليات القوية النفوذ في كل من اوروبا الغربية والوسطى ، وهذه الملايين من هؤلاء البؤساء التعساء في اوروبا الوسطى ، لم يخبُ نارها في اي مكان. هذا دليل قوي على رسوخ بعض الاوهام في عقول الناس بالرغم من التطور الذي قطعه التحرر الفكري في العالم .

فقد عجزت لندن عن التوفيق بين وحدة امبراطوريتها وبين النزول عند مطالب الايرلنديين الحقة . لمن هذه المفارقات الصارخة ، مقاومة الشعب الايرلندي الضغط البريطاني اصبح رمزاً التحرر بينما المضطهد المتعسف هو هذا البريطاني الذي يضرب المثل باحترامه الشخصية الانسانية .
والقضية البولونية تشبه من وجوه عدة ،القضية الايرلندية : صراع دولة مستعبدة في سبيل تحرير ارضها ،وتأمين حريتها السياسية والدينية وتحقيق استقلالها السياسي ، يقابلها من الجانب الآخر مسائل تتعلق بأمن الدولة المسيطرة لتبرر موقفها المتصلب الذي لا ينهض على دليل تاريخي بل هو حجة القوي التي عرفوا ان يدعوه في الوقت اللازم ، والرايخ الذي اقتطع الالزاس واللورين ، والذي رفض ان يعيد الى الدانمارك مقاطعة الشلسويغ ،والامبراطور الملك الذي راح من فيينا وبودابست

يستخدم القومية الالمانية والمجرية لكبح جماح الاقليات الواقعة تحت سيطرته ، والقيصر الذي يرغب في لجم المطامحات البلط ، والفنلنديين والبولونيين، يحتج بسلامة الدولة وامنها ، وهو عذر سهل يبرر كل قمع . فالتناقض يبرز بين حق الاكثرية ، وبين سوء استعمالها لهذا الحق . فالدولة التي تهب عليها روح الحرية تبدو عاجزة . فسويسرا وحدها وجدت الحل المرتجى من نظـــام الاقضية الذي ارتضته نهجاً سوياً لها .

الابقاء على الوظيفة الملكيا ومقاومة الارستوقراطيات

ولهذه الاسباب التي ذكرنا لم ينتشر النظام الجمهوري . فقد شاهدت جمهورية الموقتات ، في فرنسا ، بصورة مدهشة ملكية برلمانية والملكية في بريطانيا تستعيد قسماً من شعبيتها . وعلى شاكلة بلجيكا ما كاد معظم الدول البلقانية تفوز باستقلالها حتى تولى رئاستها ملوك جاؤوا من الاسر المالكة في اوروبا .وفي ايطاليا تم حركة التجمع والالتفاف حول الاسرة المالكة في السافوي ، كما تم في المانيا حول اسرة هوهنزولرن . وما كادت النرويج تنفصل عن السويد حتى اقامت فيها النظام الملكي .

فعهد المشاحنات السلالية ولى وأدبر.فالملوك الذين تشدهم بعضاً الى بعض وشائج وطيدة من التزاوج والمصاهرة، أملكوا بحق الهي، كما هي الحال في كل من بروسيا والنمسا، او ملكوا بدون ان يحكموا ، كما هي الحال في كل من لندن وبروكسل ، يؤلفون من بينهم عشيرة يسودها التضامن والتعاضد ، وهي صفات تلعب دوراً رئيسياً في العلاقات الدولية .

والى كنف النظام الملكي تلجأ الكنائس التي تتمتع بامتيازات خـــاصة والارستوقراطيات العلمانية . فالكاثوليكية والانكليكانية والوثرية تحارم كالارثوذكسية، التقاليد التي تقول بعضد العرش الهيكل . وهذه البلاطات الملكية ، سواءً اتسمت الحيـــاة فيها بالبذخ او بالبساطة تستمر حية ناشطة . فبعد ان وقفت في وجه تجاوزات السلطة الملكية ، راحت طبقات النبلاء تطالب بقيام مؤسسة تقيها شر الديموقراطيات الساحقة. ويكفي ان نلقي نظرة عابرة الى هذا الفريق السياسي لنتبين الدور الكبير الذي تلعبه هذه الطبقات مناصفة مع كبار ممثـــلي البورجوازية والعاملين في خدمتها ، امثـــال بسمارك وهوهنلو ورصفاؤهما في كل من انكلترا ، في شخص دربي وسلسبري ، وفي فرنسا ، اقله الى بروز ممثلي « الطبقات الاجتماعية الحديثة » بطلوع غمبتا ثم بروبل وديكاز .

تطور المصالح العامـــة الكبرى

فالطبقة البورجوازية التي ثارت ، عام ١٧٨٩ ضد امتيازات العهـــد القديم وضد الاستثناءات العديدة التي كان ينعم بها ،تصدت كذلك لروح المطرسة والاستبداد في الادارة ، هذه الروح التي لم تكن سوى اداة الدولة الحديثة في تطورها الصاعد . ولذا راح غيزو يصرح قائلاً : « ان فرنسا دولة يوجهها الموظفون ». وفي المانيا بين ١٨٨٠ – ١٩١٠ ، ارتفع عدد الموظفين العاملين في مصلحة البرق والبريد ومصالح الخطوط

الحديدية من ٢٥٠٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠٠ . وراح فرنسوا جوزف يتبجح بأنه الموظف الـوفجي في الدولة . ومهما بلغ من لطلق انكلترا بسياسة الحكم الذاتي المحلي ، فقد شعرت بشديد الحاجة الى موظفين يؤمنون خدمة المصلحة العامة .

هنالك مصالح للدولة يتدبر امرها موظفو «السلك» من عسكريين وديبلوماسيين واداريين . فالسلك لا يدخله الا اصحاب الاستحقاق والاهلية ، ويقتضي ، الى جانب المؤهلات الشخصية شيئاً من اليسر المالي والثروة ، يشد بين اعضائه روح من تضامن الزمالة ، وهي روح تضمن الاستمرار ، فيها يقوم سر كل نجاح . ولذا راح الموظف الكبير يردف الرجل السياسي ويحل بديلاً عنه على رأس وزارة حكومية او على رأس حكومة كلما دعت الى تأليفها مصلحة السلطة العليا .

فالعدالة في البلاد والشرطة هي من هذه المصالح التي تقع مسؤولياتها على كاهل الدولة التي يؤول اليها مهمة السهر على السلامة العامة وحفظ النظام في البلاد الذي يفترض فيه احترام الاشخاص والحفاظ على ممتلكاتهم . فاذا ما توفر للقاضي بعض الاستقلال في عمله ، واذا ما تطور الاخذ بنظام الحكمين فقد كان لا بد من وجود هيئة عليا للامن العام يؤمن ، تدخلهـا المكشوف او الخفي ، الاستمرار للحكومة او سقوطها. فحوادث الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، يجب اعتبارها ، قبل كل شيء عملية بوليسية ، في الدرجة الاولى ، كما ان سقوط الامبراطورية في ٤ ايلول ١٨٧٠ جاء نتيجة لاقصاء البوليس من قصر البوربون . « فالنظام الادبي ، يعتمد عليها قبل كل شيء ، ومدير البوليس لابين يغذي علاقات طيبة مع هذه الجمهورية الراديكالية التي يخدمها بكل اخلاص .

فالمصالح العامة في الدولة العصرية : كالبرق والبريد والخطوط الحديدية والتعليم ، تتولاها هيئة من المواطنين ذات طابع ديموقراطي لا بل شعبي ولكنهم ليسوا عيالاً على الدولة اذ ان مقتضيات الاقتصاد الحر تستلزم عدم وضعهم على نفقة الجماعة .

مشكلات التعليم العام والتعليم المهني

ومع ان الامية لا تزال البلاء الاعظم الذي يعاني منه المجتمع ، فالتعليم الالزامي لم يدخل الا متأخراً جداً في التشريعات الحديثة التي لم تدخل حيز التنفيذ في كل مكان . فالتعليم الابتـدائي سجل تطوراً اكبر كما نلاحظ ، في البلدان الشمالية والمانيا وفرنسا وسويسرا . ومع تفاوت الاعتمادات المرصدة له في موازنة الدولة العامة ، فتبقى هذه المخصصات دون الاعتمادات المخصصة لاغراض الدفـاع بكثير .

ومهما يكن فقد ارتفع حول المدرسة وقضايا التعليم جدل طويل وصراع مرير ارتسمت صورته في ذهنية الطبقات الادارية التي تقاذفتها تيارات مختلفة كضرورة الاخذ بفكرة التطور والتمسك الغريزي بالنظام . فبعد بستلوزي ، راح فريق من امثال لانكاستر وفروبل ومونتاريو ينبذون تبشدة

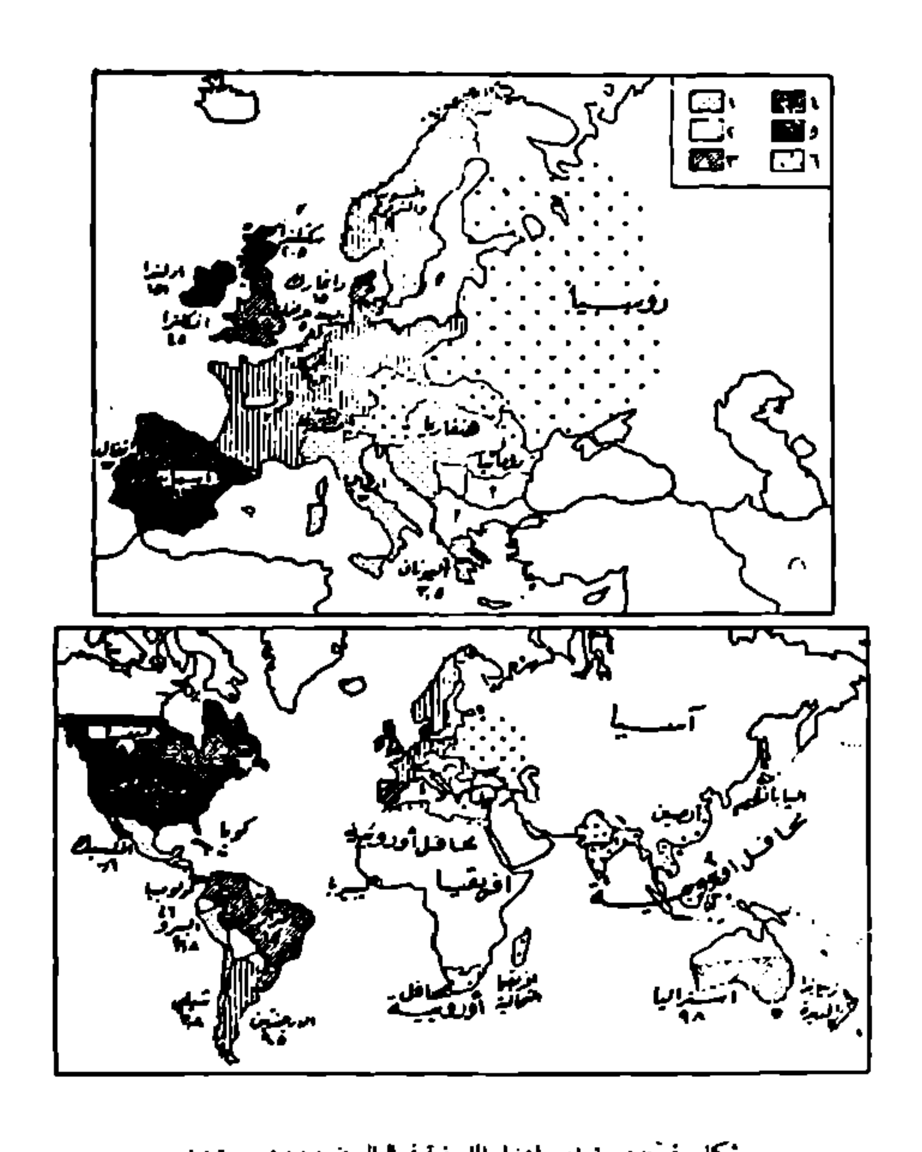
التعريفية او الجزمية . فالانتقالي فكتور كوزين ، اتخذ قاعدة عمل له المبدأ القائل : « ان كل المواطنين من ابناء البلاد ، مهما كان دينهم او مذهبهم ، لهم حق تلقي التعليم » . الا ان حق احتكار التعليم الجامعي الذي كان لا يزال يقول به ويبرر القيام به ، رفض الاحرار التمتنون القبول به من حيث المبدأ ، كما ان الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن لهـا ان تسلم به . ومن جهة اخرى ، هل بالامكان تصور تعليم علماني يحترم في وقت واحد كل المعتقدات الدينية، ويستطيع ان يؤمن الوحدة الفكرية في الوطن ؟ ثم هل من الموافق ومن الحكمة ، من وجهة المحافظة على المجتمع البشري ، ان يكون الله بالضرورة حاضراً في المدرسة ؟

سجلت فرنسا في هذا المجال حادثاً تاريخياً يتمثل في قانون « فالو » الصادر عام ١٨٥٠ ،هذا القانون الذي جاء يوفق بين نظريتين : النظرية المسيحية والنظرية الوطنية القومية . وفي بلجيكا تمكنت المدرسة الطائفية من تقرير مساواتها رسمياً بالمدرسة العلمانية اذ ان النسبة العالية من الطلاب الذين ينتمون اليها امنت لها مساعدة السلطات العامة على قدم المساواة مع منافستها الاخرى . ففي الحين الذي راحت فيه الامبراطورية الالمانية تفرض وجوب التصريح عن الدين في التعليم الرسمي الوحيد ، قررت بريطانيا العظمى ، مراعاة لمزاجها الخاص ، الوقوف بجانب التنويع دون ان تلغي التعليم الديني من مناهجها التربوية، فالدول البروتستانتية تميل نحو التساهل المبدئي ، هذا التساهل الذي ينطبع ، من الوجهة المبدئية على الاقل ، بالفكرة المسيحية ، بينما تنتصب العلمانية في الدول الكاثوليكية في وجه المدرسة الطائفية.

هبوط في الايمان التقليدي وتطور الفكر الحـر

فالجدل حول المدرسة ليس سوى مظهر من مظاهر الصراع الذي احتدم بين الكنيسة والحركة العلمانية التي لا تعني بالضرورة ، مناهضة رجال الاكليروس ، بينما تعلم الاخرى ان لا خلاص للجنس البشري خارج التعاليم الدينية الموحى بها .

ان انصراف العقول عن الدين وزهد الناس بالعبادات والطقوس التقليدية امر لا يختلف فيه اثنان . وقد اشتدت وطأة هذا التحول في المناطق الصناعية او في تلك المناطق التي اكتظت مدنها بالسكان دون ان نستطيع الجزم ما اذا كان اصاب البلدان الكاثوليكية اكثر من البلدان البروتستانتية، الا انه أبعد عن الارثوذكسية وعن الطقوس التقليدية المعمول بها جانباً كبيراً من العنصر الاسرائيلي . ويؤكد الاب بشرت ، عــام ١٨٥٦ . « ان المهمة الملقاة على عاتق عصرنا هذا هو إعادة الطبقات المثقفة الى جادة الايمان ... » . وقـد خشي غليوم الثاني كثيراً من إعراض الناس المتزايد عن الدعوات الكهنوتية . ففي فرنسا كانت حوادث السيامات الكهنوتية ارتفع عددها ، عام ١٨١٥ ،لتهبط بعد حين ، ثم تعود فترتفع قليلاً بين ١٨٧٠ – ١٨٨٠ لتهبط من جديد . هنالك ١٢٠٠ رعوية ، حوالي ١٨١٨ ، واكثر من ١٠٠٠ حوالي عام ١٩٠٠ ليس من كاهن او قس يقوم على خدمتها . فالاكليروس الذي قلت بضاعته من العلم والثقافة ، ضؤل استعداده للقيام بالمهمة الملقاة عليه . وقد لاحظ لامنيه، منذ عام ١٨٢٧ ، هذا الوضع المتحكم ،



شكل رقم ١٧ ـ توزيع اعضاء الماسونية في العالم بين ١٨٨٥ ـ ١٨٩٠

١ ـ ٥ اعضاء من ١٠٠٠٠٠ نسمة ؛ ٢ ـ من ٥ ـ ١٠ ؛ ٣ ـ من ١٠ ـ ٥٠ عضوا ؛ ٤ ـ من ٥٠ ـ ١٠٠ عضو ؛ ٥ ـ اكثر من ١٠٠ عضو ؛ ٦ ـ وجود اعضاء بدون تحديد عدد .

عندما يقول : « يجب رد قوة اعداء المسيحية ليس الى انهم يعرفون كثيراً،بل الى ما هم عليه من جهل الطبيعيون المدافعون عنها ، فلا الفنون التشكيلية ، ولا الهندسة يتخذان بـدأ من التقوى الدينية . « ففن السان سولبيس ، يفتقر اصلاً للانطلاقة ، والموسيقى الكنسية اصيبت ، هي الاخرى بالخسف ، والموسيقارليست عجز تماماً عن التعبير الصحيح الطقوس ، هذه الطقوس التي حاول غيرانجيه ان يبعث فيها النشاط والتجدد .

وقد احتدم الجدل والنقاش الديني بين البروتستانت . فالكنيسة الانكليكانية تجتاز ازمة حادة بعد ان هزتها اعادة السلطة الى الكنيسة الكاثوليكية ، في تلك البلاد وراحت المشاحنات تتجاذب الكنيسة العليا ، والكنيسة المريضة والكنيسة السفلى . والظاهر ان النقطة استنفذت كل نتائجها ، وفي بروسيا والبلاد الواطية ، احتدمت المعركة الدينية بين مستقيمي الرأي واصحاب الرأي الحر بحيث لم تلبث هذه المشاحنات ان امتدت الى الكنائس الانجيلية في كل من سويسرا وفرنسا . وحف الخطر من كل صوب بالطقوس التقليدية من جراء احتدام نقد الكتاب المقدس . والارثوذكسية اليهودية نفسها المعروف عنها تمسكها الشديد بأسباب الدين تعرضت لهزات هدامة جاءتها من هذه الحركة الاصلاحية، الموجهة ،ضد التلمود،كما اصيب الولاء للغة العبرية بالتراخي والانحلال من جراء الانحطاط الذي استشرى بين هذه المجتمعات اليهودية في الغرب التي اخذت تعرض عن استعمال اللهجة البيئية هذه اللهجةالعبرية المجينمن الالمانية والسلافية : وبالمقابل ، فقد انتشرت اللاافريقية بمختلف الوانها فتغلغلت بين المؤمنين الذي انقطعوا عن ممارسة مراسم العبادة فاستحالوا جاحدين ملحدين . فسانت بوف يحدثنا عن : « هذه الابراشية الضخمة التي تغطي كل فرنسا والتي تعد الوف الاتباع من هؤلاء القائلين بالربوبية وناكري الوحي ، او المتصرفين الى مخاطبة الارواح والاستسلام لمراسم العبادة الطبيعية ، والحلوليين الوضعيين .

من الصعب تحديد الدور الذي لعبته الماسونية . ففي عام ١٧٨٥ ، بلغ عدد المحافل الماسونية في العالم ١٧,٠٠٠ محفل ضمت أكثر من مليون من الاعضاء ، نصفهم في اميركا ، بينهم اكثر من ٢٠٠،٠٠٠ من البريطانيين . فالجمعية ليست بثورية . فملوك البلدان البروتستانتية وانسباء هؤلاء الملوك من الأمراء يشرفون على مصير هذه الجمعية . ففي الدول الكاثوليكية عرفت هذه الجمعية ان تجتذب اليها عدداً كبيراً من موظفي الحكومات الذين يحبنون الروح العلمانية ويعملون على الترويج لها وعلى مناهضة رجال الدين . ويجهد خصومها على التشهير بها بشكل لا يخلو من المبالغة ، ويبينون للناس ما لها من قوة ونفوذ . ولكن ، أليست بعد هذا كله ، كما يقول فيها اناتول فرانس : « جمعية » ... للتأمين والترفيع المتبادل » !

مقاومة الكنائس لها مصالحتها للدولة المتحررة

ومها وجدت نفسها مهددة ، فالاديان التقليدية عرفت ، مع ذلك ، كيف تحتفظ بما لها من مواقع حصينة ، كما ان قدرتها على الكفاح والنضال لم تلن ولم تضعف .

فعندما وطدت البروتستانتية اقدامها ورسخت اصولها في بلد ما تعمل على انشاء علاقات

طيبة مع الدولة التي كثيراً ما ترعى مصالحها ، وتقتني بوصفها الحكَم ، في هذه المنازعات التي كثيراً ما تنشب بين النزعات المحافظـــة والنزعات المتحررة . ومع أن المعاهدة القبلية (الكونكوردانو) المعقودة بين الدولة والكنيسة اعترفت بوضـع الكثلكـة في فرنسا ، فقد آثر اتباع هـــذه الكنيسة ان يعتمدوا على انفسهم ورضوا بفصل الكنيسة عن الدولة هذه السياسة التي اقترح فيه الأخذ بها والنهج عليهـا باعتبارها شرطـاً اساسياً في عملية الاصلاح . وهذه الروح الاصلاحية التي كان بوسعها القيام بحركة تبشيرية واسعة النطـاق ، لعبت دوراً بارزاً في اعداد هذه القوانين الانسـانية وفي قضية التعليم العام واتخذت لنزع الحواجز دون تشتت الراعويات وتباين المذاهب العقائدية ، وذلك بالاتجاه نحو اعمال البر والاحسان، منها مثلاً ، مؤسـسة جيش الخلاص ، هـذه المؤسـسة التي تشكلت على غرار الرهبنة اليسوعية ، ولاقت تأسيسها نجاحاً تاماً ، وقد غدت هذه الاعمال الايمان في النفوس ليتلاءم تاماً مع تجمع القوى .

واستمرت الكنيسة الكاثوليكية تعلل النفس بحشد القوى وجمع الطاقـــات الخيرة إلا ان النجاحات التي حققتها في كل من انكلترا والبلاد الواطية لم تنهض قط الى وضع حد لهـــذه الانفصالات التي أدت اليها سياستها المتصلبة ، وهكذا أدت اعمال هرناك الى توضيح وجهة النظر الفوارية وجلائها ، بينما سياستها الرامية لتوطيد السلام تدور على نفسها فقد نجحت سياسة تأييد سيادة البابا . وبعبارة أخرى ، ففي الوقت الذي يتوطـــد فيه الشعور القومي وترسخ الروح القومية بين الشعوب في المجال العلماني ، فقـــد نزعت ، من جهة أخرى ، الى الهبوط في قلب الكنيسة . فعملية التوحيد تمت لمصلحة الفيورجية والفلسفة القومية ، التي عرفت رواجاً كبيراً وتجدداً جديدين ، توّجت من امتيازات الكرسي الرسولي . ان اعلان عقيدة الحبـــل بلا دنس ، والوضوح الذي ميز فهرس الكتب والتعاليم المحرمة *Syllabus* لدى الكنيسة الكاثوليكية ، هيأ إعلان عقيدة عصمة البابا ، هذه العقيدة التي تم إعلانها في مجمع الفاتيكان عام ١٨٧٠ ، معلنـــاً بذلك الراعي الدائم . وهكذا فالكنيسة الكاثوليكية في ردتها العفوية في الدفـــاع عن النفس ، زادتها مركزية وجعلتها تتجه بالتالي نحو الحكم المطلق . فأمام هذه الروح التحررية قامت روح مسكونية ، بعد أن انتشرت الروح العلمانية بين الدول ، وادخال هذه الروح على وسائـــل المواصلات التى تعمل على حشد الخدمات في المدينة الخالدة .

فاذا ما زاد إعداد الكهنة العلمانيين صعوبة ، فقد عرفت المؤســات الرهبانية من جهتهـــا ازدهاراً أدى الى تأييد نفوذ الكرسي الرسولي . فقد أدى القرن التاسع عشر من هــذه الناحية الى دمل أحد الجروح التي فتحها القرن الثامن عشر ، اذ ساعد على إعمار الاديار ، كما ادى الى تأسيس عدد من الرهبانيات الجديدة . وهذا التجدد والبعث للحياة الرهبانية ساعد كثيراً على القيام بحركة التبشير بين المنشقين من المسيحيين وفي هذه البلدان التي لا تزال على الوثنية ، بحيث اصبح من الممكن التحدث الآن عن حركة اصلاحية معاكسة ، في اوروبا نفسها ، الخصم فيهـا الملحد المعطل أقل منه الهرطوقي . وتكاثرت المشاريع الدينية التي وضعت نصب اعينهـا تجديد الروح المسيحية عن طريق المحبة والكرازة والتبشير .

ابتعدت مظاهر العبادة عن المفهوم الجانسيني ، وهذه الروح الرمزية التي انطلقت من ايطاليا عمت الكثلكة جمعاء . وتجلت الناس عواطف تقوية تمثلت في هذه الاحتفالات والمظاهرات العبادية ، وتبلورت على اتمها في هذه الزياحات وهذه المزارات والحجيج الى الاماكن المقدسة . وقد اتجهت عواطف المؤمنين الى يسوع الرؤوف ، الرحيم . ولذا راح المطران هولست يتكلم عن « عصر القلب الاقدس » الذي تكرست له الشعوب ، وعن مريم العذراء . والعبادة المريمية تألقت آنياً بهذه الظهورات العجائبية كما لـ salette ولبرناديت سوبيروس . وقد كان من سحر لورد العجائبي ان جذبت اليها وفوداً ضخمة من حجاج المسيحيين ، اذ ضم حج واحد اكثر من ١١٠ آلاف حاج عام ١٨٧٢ ، كما انه وفد على لورد من الحجاج بين ١٨٧٠ – ١٨٧٨ اكثر من ٦٦٠,٠٠٠ .

وقد ابت على البابا بيوس التاسع تقواه ونفسه البارة مصانعة العصر ، وأعرض عن الخدمات التي كان يمكن للدراسات اللاهوتية ان تؤديها مع دولنجر ، ووقف موقف المدافع عن العقيدة التقليدية ، في تشهيره لاضاليل العصر ، في البراءة البابوية Quanta Cura وفي دليل الكتب المحرمة Syllabus الذي اثارت لهجته الصريحة وعبارته الشديدة ردود فعل عنيفة بين الفرقاء الذين وقعوا مع الكرسي الرسولي معاهدات الكونكورداتو بين الدولة والكنيسة . ولذا فقد تأزمت في اواخر حبرية البابا بيوس التاسع العلاقات بين الكرسي الرسولي والدول كما قامت صعوبات مع كل من اسبانيا والنمسا . ونهج بسمارك نحو الكثلكة سياسة عدائية تمثلت في منهج الـ Kulturkampf (الصراع في سبيل الحضارة) ، كما ان غمبتا اعلن الحرب ضد « النظام الأدبي » عندما أخذ يصرح : « الروح الاكليريكية ، هذا هو العدو بعينه » . فاذا ما تسلح خلفه البابا لاون الثالث عشر بمرونة سياسية اكبر ، فلم يستطع الا المضي في موقف الكنيسة المتصلب من تعاليم العصر ، كما حذّر من المساوىء والمخازي التي يذهب اليها « العقل » عندما يشتط في مداهناته وتدليساته وتغذيته حب العظمة الفارغة ، وكلها أمور محببة لقلب الانسان » .

وقد حدث مع ذلك ما نم عن بعض التحسن في الوضع . ففي البراءة التي نشرها بعنوان : Immortale Dei يصرح البابا قائلا ان الكنيسة لا يمكن ان تقف موقفاً معاديا من أي « تساهل متعقل » ولا تبدي العداء للحرية المشروعة الحقة وهي تحاذر أقل وطأة وأخف اثراً . ويؤكد في براءته انه لا يمكن شجب اي شكل من اشكال الحكم ، اذا ما احترم حقوق المؤمنين ، وحقوق رجال الدين . وقد بدا طلوع عهد من التقارب الى انصار الجمهورية في فرنسا الذين قلقوا من انتشار الروح الاشتراكية ، وراحوا يتمنون لو يصار الى « تهدئة » . ولذا راح البابا ليون الثالث عشر يوحي بوجوب الولاء للانظمة الشرعية القائمة ، بينما رسم في براءته الجديدة برنامجاً خاصا بطبقة العمال ، اطمأن العمال الى مبادئه المعتدلة .

ولم تحل الفوارق والخصومات القائمة بين الكنائس والمجتمع العلماني من عقد هذه الاتفاقات والتنازلات التي لابد منها . أفليست العبادة من هذه الخدمات العامة ؟

ومن ثم فهذا المجتمع العلماني ، في سعيه الحثيث لتأمين استقلاله عن السلطة الكنسية تردد كثيراً قبل ان يقطع صلاته بالدين وشؤونه . ففرنسا لم تقر الطلاق النهائي – مع ان مبدأ الطلاق اعترف به منذ عام ١٧٩٢ – الا عام ١٨٨١ ؛ ثم ان الاقبال تدريجياً على الزواج المدني لم يلبث ان انتشر في البلدان الأخرى . والسويد لم تسلم به الا لغير اللوثريين كالبرتغال الذي أقره لغير الكاثوليك . والنمسا اجازت الطلاق لغير الكاثوليك ، ولم تسلم كايطاليا ، إلا بانفصال الزوجين . فالبلدان البروتستانتية ، اختلف موقفها بنسبة تباين الروح التحررية فيها . فلنسمع ما يقوله هوغو منا : « كل حضارة تبدأ بنظام ثيوقراطي وتنتهي الى نظام ديموقراطي » .

من الاقتراع الضرائبي الى نظام الاقتراع العام ومن حكم النبلاء الى حكم البيروقراطية

في براءته المعنونة *Diuturnum* الصادرة عام ١٨٨١ ، يذكر البابا ليون الثالث عشر : « انه اذا ما اردنا ان نحدد مصدر السلطة في الدولة علينا ان نصغي الى ما تعلمه الكنيسة بهذا الصدد بوجوب البحث عنه في الله » ، ثم يضيف قائلاً : « فاذا ما ربطنا هذه السلطة بإرادة الشعب نكون استهدفنا الشطط ، من حيث الاساس ، ونكون أولينا السلطة اساساً وَهِناً سريع العطب ، لا قوام له » .

وقد وضع العاملون على توطيد النظام التمثيلي نُصب اعينهم ، ضمان الحريات الفردية . فقد كانت انكلترا ، في هذا المجال ، مثلاً يحتذى ، اذ ان سياسة المصارحة التي درجت عليها تلك البلاد العريقة في نظمها القانونية ـ بما فيها من ملاكين وذوي أهليات ـ امنت الاستقرار للحكومة والسير بقدرات البلاد وتوجيهها التوجيه الصحيح . ان نظاماً من هذا الشكل كان من شأنه في نظر الاحرار ، ان يحول دون استئثار الفرد او فئة معينة ، بالسلطة . ولكن هل كان بوسع مثل هذا النظام ان يبقى بعيداً عن السلطة الشخصية ، كما تستطيعه الديموقراطية ؟

فالنصوص الدستورية تفسح المجال ، عادة ، لمواجهة المجلس الادنى المنتخب من قبل الشعب بمجلس اعلى تعينه السلطة التنفيذية او يجري انتخابه من قبل هيئة انتخابية مصغرة . ومع ذلك فهذا النظام – باستثناء فرنسا حيث كان يعمل به منذ عام ١٨٤٨ – مع العلم ان الامبراطورية الثانية عرفت ان تتلاعب به بما يتفق ومصلحتها – لم يستقر في اوروبا إلا بصورة تدريجية . هنالك ، بالطبع بعض تغيير يطرأ على مفهوم الحزب والحزبية ، اذ اخذت قاعدته بالاتساع ، بحيث تتم الشعب بأطر اتخذها من بين النبلاء والاعيان : حزب الطبقة الذي اخذت الاشتراكية تدعو الى قيامه ، لخير الطبقة العمالية ، الامر الذي بعث الريبة والتشكيك في هذه المستجدات الخطرة .

الضرائب والموارد المالية في الدولة

هل يترتب علينا ان نرى في هذه الدولة الحديثة « وضعاً من نسج الخيال ، كل واحد فيه يحاول ان يعيش على حساب الغير » ، كما كان يقول بستيا ، او « لجنة ادارية تتولى شؤون البورجوازية المشتركة » ، كما جاء على لسان ماركس ؟ كل هذا والنبلاء يمارضون ما وسعهم ، فرض الضرائب على الثروات التي جمعوها .

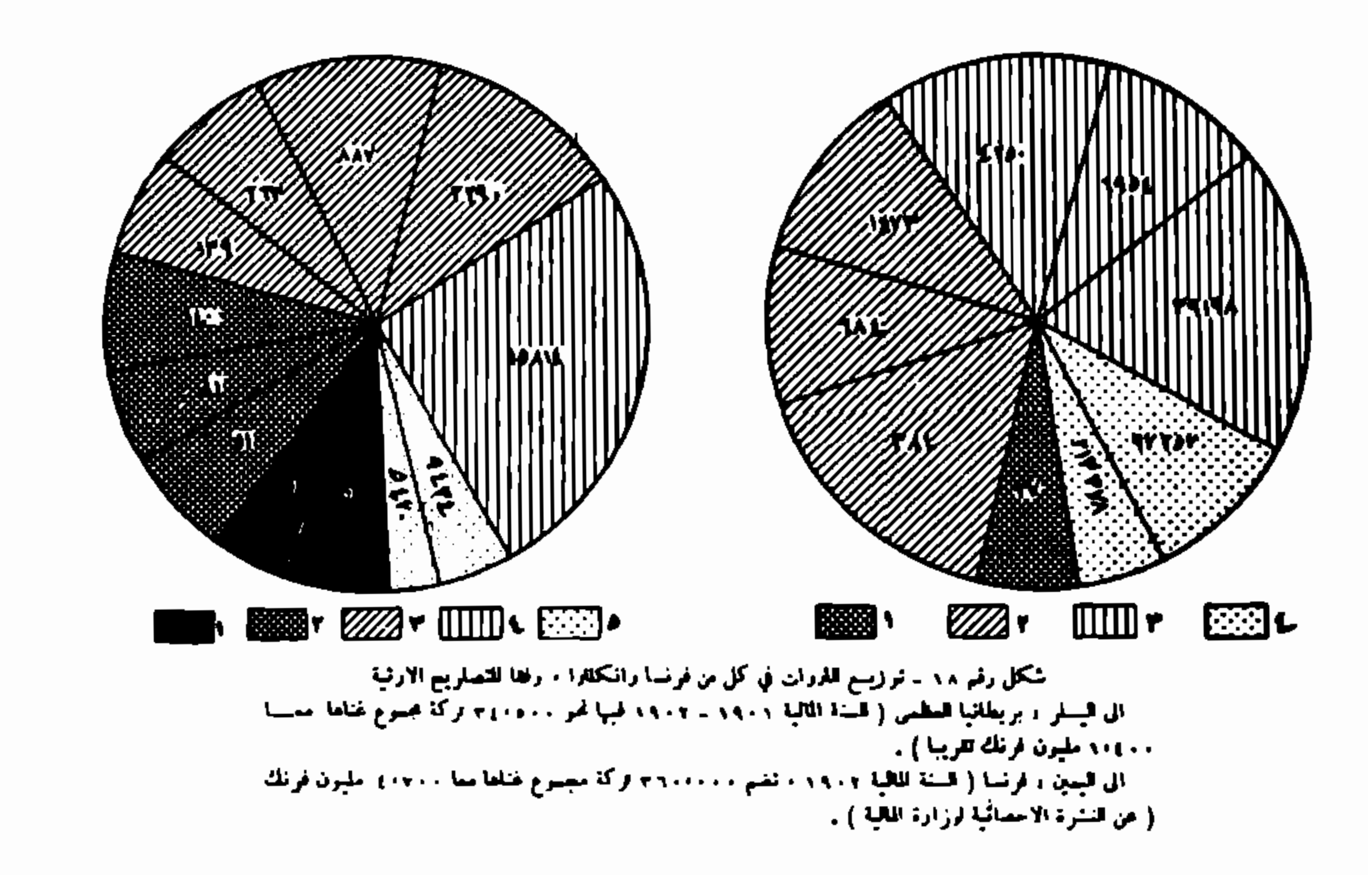
والحال ، فان تضخم موازنات الدول ، سنة بعد سنة ، اثار في صفوف الاحرار المتشددين موجة من الاستياء والتذمر ، فزاد من ضغط الحكومات على دافعي الضرائب، وربطهم اكثر فاكثر باصحاب رؤوس الامـــوال . فقد بلغت النفقات العامة في فرنسا المليار عام ١٨٣٠ ، ثم ارتفعت الى مليارين عام ١٨٦٩ لتصبح عام ١٩٠٠ اربعة مليارات بحيث ان ٢٦ مشروع موازنة جاءت تشكو العجز سنة بعد سنة عام ١٨٧٥ . فالدولة تغطي نفقاتها عادة بفرض الضرائب . الا ان الملاك واصحاب رؤوس الاموال كانوا دوماً يحاولون التخفيف من وطأة الضرائب المباشرة التي تكل امر جبايتها الى مأمورين يعدون هم انفسهم جدول دافعي الضرائب في الوقت الذي زاحم يتمتعون فيه منافع الضريبة غير المباشرة او غير الملحوظة التي تستند الى الاستهلاك المحلي. وكانت الضريبة الفرعية التصاعدية على الدخل التي تبنت مبدأ الاخذ بها الحكومة البروسيانية حيث للموظف هيبة وسطوة كبيرة ، كما تبنتها الحكومة الانكليزية ، كبديـــل عن تخفيض التعرفة الجمركية ، وقد اثارت في فرنسا ، صراعاً عنيفاً لم يخرج فيه الحزب الراديكالي منتصراً الا قبيل الحرب العالمية الاولى ، بمؤازرة الحزب الاشتراكي .

ولما كانت الضرائب التي تجبيها الدولة لا تفي بالحاجة كان لا بد لها من الاستدانة والاستلاف وقد بلغت الديون المستحقة على الدول الاوروبية ما اربى على ١٣٦ مليار بحيث ان هذه الديون المتوجب وفاؤها ، لو وزعت على المواطنـــين لأصاب الفرد الواحد منها فرنكاً في سويسرا ، و ٣٣ فرنكاً في فرنسا ، عام ١٩٠٠ .

ازدياد حركة الثراء العام وتفاوت الثروات

حدد آدم سمث معنى الثروة في الشعب « حيازة كل الاشياء اللازمة للحياة والمسهلة لها » . ويلاحظ بعضهم عـدم الدقة اللازم لهذا التعريف . ومع ذلك فنمو هذه الثروة المطرد ليس من ينكره ، اذا ما مثلت هذه الثروة بنقد متداول لم تتغير قيمته خلال القرن . وعلى هذا الاساس فقد قدّر سوثير ، ثروة بروسيا ٧٨٥٦ مليوناً عـام ١٨٧٦ ، بينما ارتفعت الى ١٠،٢٠٨ ملايين عام ١٨٩٠ ، وذلك على اساس ضريبة الدخل التي لم تكن تطال غير ٨٠٠،٠٠٠ شخص من أصل ٢٢ مليون نسمة . ومنذ عام ١٨٩١ كانت حصة الضرائب التي تصيب مليونين ونصف من دافعي الضرائب ، ٥٨٦١ مليوناً ، عام ١٨٩٢ ، و ٨٨٥٤ عام ١٩٠١ . فالضريبة الموضوعة على التجارة والصناعة في انكلترا اعطت ١٠٦ ملايين ليرة انكليزية تقريباً عام ١٨١٣ بينما اعطت ٣٢٠ مليون ليرة ، عام ١٨٨٠ ، والضريبة A (على رأس المال) اعطت تباعاً ١٨٨ و٤٠٧ ملايين ليرة، بينما الضريبة E (الاجور) مرت ٩٣ و ١٧٧ مليون ليرة . وقد قدر بعض علماء الاقتصاد دخل كل من بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية ٤٠٠ ، و ٢٧ و ٦٠ ملياراً عام ١٨٩٥ ، لقاء ٧٥ و ٦ للاولى والثانية عـــام ١٨١٠ ، و ٣٥ لأميركا عام ١٨٧٠ .

من العسير جداً التحديد بدقة ، توزيع هذه الثروة ، بين مختلف طبقات المجتمع او بـــين الافراد. فالاحصاء الذي جرى في انكلترا ، عام ١٨٧٨–١٨٨٨ ، يشير الى ان ١٨ بريطانيا يحوز الواحد منهم اكثر من ٢٥ مليوناً (روتشيلد ٦٧ مليوناً ، وكل من بيرنغ وبورتلاند ٣٨ مليوناً).



شكل رقم ١٨ - توزيع الثروات في كل من فرنسا وانكلترا ، وفقا للتصاريح الارثية
الى اليسار ، بريطانيا العظمى (السنة المالية ١٩٠١ - ١٩٠٢ فيها نحو ٣٤٥٠٠ تركة مجموع غناها معا ١٠٤٠٠ مليون فرنك تقريبا) .
الى اليمين ، فرنسا (السنة المالية ١٩٠٢ ، تضم ٣٦٠٠٠٠ تركة مجموع غناها معا ٥٧٠٠ مليون فرنك
(من النشرة الاحصائية لوزارة المالية) .

ويدل الكشف الموضوع للتركات الموروثة على ان التفاوت يقل بالانتقال من انكلترا الى ايطاليا ، الى فرنسا وبروسيا . وهكذا نحصل على ٣٠,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ و ١٠ او ١١,٠٠٠ ، و ٥,٠٠٠ الى ١,٦٠٠ صاحب ثروة تزيد ثروة كل واحـــد بينهم على مليون. فالعالم الاقتصادي لوفيل ادخل منذ عام ١٨٨٣ ، في حسابه ٢٠,٠٠٠ عـــائلة من اصحاب الملايين توجد في انكلترا، ثم اضاف قائلا : « ان هذه ثروات تزيد بكثير على المعدل، في بلاد لا يتجاوز عدد سكانها ٣٨ مليون نسمة . فليس في العالم كله على الاطلاق بلد يضم مثل هـــذا العدد من كبار الاغنياء اصحاب الثروات الطائلة » . ويمكن لنا ان نضيف هنا ان الفاً من كبار الملاكين يملكون ثلث مساحة البلاد او ان ٥٪ من سكان البلاد يضمون في ايديهم نصف الثروة المنقولة ، وانه يوجـــد في خدمة الاسر الغنية مليون من الخدم والحشم ، وان ٢٠٠,٠٠٠ رأس من الخيل تدرب كل سنة على فنون الصيد في هذه الاطيان الضخمة .

ففي الحقبة الواقعة بين ١٨١٣ – ١٨٨٠ ، ارتفع عدد البريطانيين المسجلة اسماؤهم في جدول فئة (D) من اصحاب الـ ٥٠,٠٠٠ ليرة ، ثمـــانية اضعاف ونصف ، بينما معدل الزيادة في الفئات الاخرى تضاعفت ثلاث مرات لا غير . وفي بروسيا ، نقلت الزيادة في الحقبة الواقعة بين ١٨٩٦ – ١٩٠٢ ، وفقاً لجدول ضريبة الدخل ٧٣،٩ بالمائة لدى من زاد دخلهم على ٩٠,٠٠٠ مارك ، و ٣٦ بالمائة لدى اصحاب الدخل الذي يتراوح بين ٣,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ مارك . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد ان تجميع الثروة تم في ايدي اقلية ضئيلة .

اضرابات اليد العاملة وتطور الروح النقابية

تفاقم الاختلاف بين اصحاب رأس المال والعمال في هذه الحقبة الواقعة بين ١٨١٥ – ١٨٤٨ في الوقت الذي زاد حرجاً وضع اصحاب الاجور ، كما لا بـــد من الملاحظة هنا ان حوادث الاضرابات والبطالة اخذت تتناقص بعد عام ١٨٥٠ ،وهو هدوء يمكن رده الى عوامل عديدة، منها فشل الثورات والفتن التي نشبت والضغط السياسي وعـــودة النشاط الى الحركة الاقتصادية ، والتخفيف من اسباب البطالة والارتفاع الاسمي ، ان لم يكن الفعلي للاجور . فبعد ان خابت آمال هذه الطبقة واتعظت بحوادث الدهر ، اخذت تفكر بتنظيم نفسها لتحصل على ما ترضى عنه من الوجهة المسلكية فتصبح بالتالي ، اكثر تحصناً ضـــد النظريات الثورية التي تسلقها .

وقد شهدت انكلترا ازدهار الروح النقابية عقب عهد الوثنية التي نادى بها بعض المصلحين الاجتماعيين من انكلترا التي جاءت رومنطيقية اكثر منها سياسية حرفية،عهد النقابية العمالية . وبذلك اخذ أوين ثأره . غير ان هذه الاتحادات لم تضم في صفوفها سوى نخبة ممتازة من العمال اصحاب التخصص الاعلى مرتبا . ومع ذلك ، وبالرغم من حظر الاتحاد لم تمت في فرنسا روح المقاومة وبقيت خافتة تحت الرماد تتربث سنوح الظروف المناسبة ، للظهور والانطلاق من جديد.

ان ارتفاع تكاليف الحياة والتعقيدات التي جرت اليها حرب الانفصال (في الولايات المتحدة) في صناعة النسيج كانت السانحة لانطلاق الهيجان منذ عام ١٨٦٠ وعلى غرار النقابات العمالية ظهرت حركة نقابية لا طابع سياسي لها في المانيا. وراحت حكومات فرنسا وبروسيا وساكس، حرصاً منها على ارضاء العمال واستمالتهم، تمنحهم حق تشكيل اتحادات عمالية، وهو حق جاء في الوقت الذي طلعت فيه علينا الدولية الاولى التي تبنت ما تخفيه الحركة النقابية من شأن وقوة وما يمكن ان تقدمه من فوائد جمة، فراح اعضاؤها يستميلونها للعمل الثوري. وعقدت الحركة النقابية العمالية في انكلترا مؤتمرها العام الاول وراحت تشجب فيه اعمال العنف التي وقعت في مدينة شفيلد، كما اعربت عن ارتياحها لاصلاح قانون الانتخاب عام ١٨٦٧. واذ ذاك، اخذ العمال في المناجم وصناعة التعدين يتحركون، فتكاثرت الاضرابات العمالية في الرزهر وسيليزيا والهاينو وسورانغ وأزين وريكاميري واوبين والكروزو. واخذ الاضطراب يحتدم ويشتد الى ان ظهرت فتنة الكومون في باريس، وهذا الحادث يؤلف تاريخاً بارزاً في حركة البروليتاريا مع ان الباعث الاول والوحيد لهذه الفتنة الشعبية التصميم هو الوقوف في وجه الرأسمالية. وامكن قمع اعتصاب ثان في سيليزيا الطباحين ظهر فجأة قانون يعترف ببعض حقوق العمال النقابية.

وقد اتضح الآن ان الازمات تزيد من ضنك وبؤس صاحب الأجر المحدود وتحمله على الثورة. فهي تتركه في وضع يبقى فيه عرضة أكثر للمخاطر؛ إلا ان موقفه يصبح أقوى مع رجوع الازدهار مع انه لا يفكر بالمطالبة بحقوقه. فاذا ما راح يطالب بزيادة في الأجور فجهوده تنحصر في تخفيض ساعات العمل والشغل لمدة ثمان ساعات، وهذا أقصى ما يحلم به.

وقد اثارت أزمة ١٨٧٣ موجة جديدة من الاضرابات والاعتصابات في انكلترا اشترك فيها العمال العاملون في القطاع الزراعي. إلا ان القانون المعروف بقانون رب العمال والعامل الذي صدر عام ١٨٧٥ أدى الى شيء من التهدئة؛ فالظروف المتحكمة اذ ذاك توضح لنا صعوبة نهوض المنظمات العمالية في فرنسا وتبين لنا سلسلة حوادث الفشل الذريع الذي اصيبت به الحركة العمالية في المانيا والولايات المتحدة الاميركية.

ففي الوقت الذي تزداد فيه الهوة عمقاً، تميل موازنة العامل الى تحقيق التوازن بسهولة أكبر حتى ان الأجر أخذ احياناً بالارتفاع، على شريطة أن تكون حركة تشغيل العمال مرضية. فالاضرابات تخف حوادثها بينما تزداد الحركة النقابية قوة وبأساً في فرنسا، وتأخذ بتنظيم نفسها في المانيا، وتتكاثر في بريطانيا حيث قامت اتحادات عمالية جديدة فتحت صفوفها لعمال غير متخصصين. واليد العاملة في كل مكان في الريف تتململ وتتحرك دون أن يطرأ أي تحسين على دخلها بل انه مال الى الهبوط احياناً، وراح الجمهوريون في فرنسا يعترفون العمال بحق تأليف نقابات لهم، كما راح بسمارك، من جهته، يجري تغييراً في الصورة بوضعه خطة الضمان الاجتماعي.

وحدث اثر تحسن وقتي في الاسعار، عام ١٨٨٦، سلسلة من الاضرابات العنيفة ولا سيما في

مقاطعات الهاينو ولياج ، وفي بريطانيا العظمى والمانيا . وقامت موجة شديدة من هـذه الاضرابات، عام ١٨٨٩ ،وعطل عمال الارصفة في الجزيرة كل نشاط في موانيء انكلترا لمدة خمسة اسابيع متوالية ، وفازوا بمطالبهم بفضل ما لقيت حركتهم هـذه من عطف عليهم لدى الرأي العام ولتضامن العمال الاوسترالبين معهم . ونال عمال المناجم في منطقة الروهر من الامبراطور غليوم الثاني ، بعد ان تخلى عن بسمارك وصرفه ، وعداً بتطبيق مبدأ العمل لمدة ثماني ساعات في اليوم . وعلى أثر الحوادث الدامية التي وقعت في ديكازفيل ، يحاول "غسْد" على غرار هندمان عبر المانش ، ان ينقل الحركة العمالية النقابية ، الى الماركسية ، كما ان البلاد الواقعة في الجنوب شهدت ، هي الأخرى ، حوادث دامية عديدة .

واخذت اسعار الحاجيات تهبط، بعد عام ١٨٩٠ ،وتميزت سنوات ١٨٩١ و ١٨٩٣ بالازمات الشديدة التي شهدتها . وقد قابل هذه الحركات تصلب من قبل أرباب العمل في مواقفهم ، في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ، لا سيا وقد اخذت الحكومات تجزع شديداً لحوادث القتل والاغتيالات ، بعد ان سادت الفوضى نتيجة لردة فعل قوية فسالت الدماء غزيرة في مدينة فورمي ، كما ان المضربين حققوا لهم بعض النجاح المحلي في مدينو كرمو . وقد غُلب عمال المناجم على أمرهم في مقاطعة السار والروهر ، وتحول قسم من نشاط اتحاد العمال الى الجمعية الفابيانية عدوة العنف والضغط ، كما اتجه بلوتيه نحو العمل السياسي البرلماني ، واستطاع ان يثير بنجاح كلي ، في بورصات العمل، فكرة انشاء نقابة ضخمة مستقلة تماماً عن الاحزاب السياسية،عُرفت بالتحالف العمالي العالي . وتم شيء من هذا الانقسام بين اعضاء الحركة العمالية في ايطاليا نفسها ، وفي اسبانيا ايضاً . اما العمال في المانيا فقد وضعوا ثقتهم بالحركة الديموقراطية الاجتماعية التي راحت تطعن بقدرة الحركة النقابية .

الحركات الاشتراكية والفوضوية عام ١٨٦٠ الدولية الاولى وكرمون عام ١٨٧١

وضع رايبو ، عام ١٨٥٢ ، بحثاً نشره في « موسوعة الاقتصاد السياسي » جاء فيه : « ان الحديث عن الاشتراكية يكاد يعني نعياً لهذه الحركة والقاء رثاء فيها . فالجهد المبذول لنشر الاشتراكية انقطع ، ومدلولها محض وجف . فاذا ما استمر الشغف لهذه الحركة ، فتحت ستار آخر وتحت تذريرات أخرى » . وبالفعل ، فهذه الحركة الثورية التي اصيبت في الصميم والتي تلبّس نشاطها الواناً واشكالاً شتى : كالمؤامرات والجمعيات السرية ، واقامة الحواجز في الشوارع والأزقة ، اقتضى لها عشر سنوات لتعيد تنظيمها ولتتخذ لها عبرة وعظة من تجربتها الأولى .

والساعة الحاسمة في نظر ماركس هي فترة التريث والانتظار الجاهدة،انتظار الحادث الاغر الضخم «الرأسمال»الذي انصب على وضعه ونشره فاصدر منه الجزء الأول .وقد كرسه لتحديد خصائص الرأسمالية وتوضيح مميزاتها بدقة ، فكلمات السر والشعارات التي جاش بها « البيان » هي التي شقت طريقها ونيداً والحق يقال ، الى العقول والنفوس . فالمفهوم الرومنطيقي عند المحبذين

للانقلاب بالقوة يُعد سراً وفي الخفاء، وتقوم بتنفيذه أقلية حازمة صلبة العود والرأي، يتمثل على الاخص، في تلاميذ بلانكي « الشيخ » و « السجين » . وقد اصطدم نفوذ ماركس بالدعوة للاشتراكية على الطريقة اللاسالية ، وبالروح الفوضوية. ولاسال الذي رضخ لاحكام قانون الاجور الشديد، ألزم نفسه بعدم الدفاع عن المطالب التي تتقدم بها العمال ، كما رأى نفسه مضطراً للتفاوض مع بسمارك حول الشروط التي قد تؤول الى الاتفاق بين الدولة المشبعة بروح العطف الابوي وبين الطبقة العمالية ، وهو وضع بعيد الى الذاكرة التنازلات التي قام بها برودون الطاغية في الثاني من شهر كانون الاول ، بحيث ان انصاره زرعوا في قلب الحركة الاشتراكية الديموقراطية ، جرثومة الاتفاقات التي يمكن التوصل اليها في مفاوضة زعماء الرايخ. وبما هو اوسع من هذه الحركة وأرحب، النظرية الفوضوية؛ فالروح التحررية المطلقة تكتسح فرنسا وسويسرا وقسما كبيراً من البلاد الى الجنوب، وتتغلغل بين العمال وبين فريق من طبقة البروليتاريا من انصاف سكان الريف وأنصاف سكان المدن، الذين لا يرون في جماهير الثورة الاجتماعية غير بغض السلطة وكرهها ، والرغبة في التحرر منها . وها هو ماركس يلتقي مع برودون ، برودون هذا الذي نشر على الملأ شعارات هزت كل شيء في طريقها ، منها مثلا تصريحه : « ان الاشتراكية ليست بشيء ، ولم تكن شيئاً الآن ولن تصبح شيئاً في المستقبل » ، وكلمته المأثورة الأخرى : « من المستحيل ان لا تفضي الاضرابات التي تعقبها زيادة الأجور الا الى التشديد بالمطالبة بأكثر، وهذا شيء واضح وضوح ٢ + ٢ يعملان ٤». وقد رد ماركس على ذلك قائلا : « نحن ننكر هذه التأكيدات في الاساس باستثناء القول ان ٢ زائد ٢ يعملان ٤ » ، ماركس هذا الذي رأى في كل تنازل تقوم به الرأسمالية تنازلاً يفضي بالتالي الى اضعافها وانهائها .

والحال فالنظرية الفوضوية (على مذهب برودون) التبادلية، الفدرالية، المضادة للاكليروس، اذا ما التقت بالبلانكية في شعارها : « لا إله ولا رب عمل » ، ليست ببعيدة قط عن الجماعية الفدرالية المضادة لكل سلطة ، هذه النظرية التي راح باكونين يحاول نشرها في جميع انحناء اوروبا . « انا أمقت الشيوعية - راح ينادي هذا البوهيمي في مؤتمر السلام والحرية المعقود عام ١٨٦٩ ، لانها تؤلف نفياً للحرية ، اولا ، ولأنه يستحيل علي ان اتصور شيئا بشريا يفتقر كليا للحرية ».وباكونين الذي يُسلّم بقانون الأجور الحديدي يرفض رفضا باتاً دكتاتورية البروليتاريا ويقف بجانب البؤساء ، بجانب الفلاح الروسي الموجيك . وقد رفض ماركس الدعوة الى ثورة اشتراكية اوروبية تقتصر على عالم الزراعة وتنحصر في هذه الاقوام الروسية والسلافية العامة في مجالاتها . ففي زعمه ان البروليتاريا الواعية القائمة في فلك دولة رأسمالية هي وحدها تستطيع ان تفعل وتعمل بنجاح ، كما راح يحذر من هؤلاء الذين لا طبقة لهم في *Lumpenproletariat* الذين ليس بوسع الفوضوية تفاديهم . أهو احتقار الالماني للسلافي - هذا السلافي الذي يجيش صدره بكره بغيض للمزاج اليهودي؟ اهو احتقار هذا البورجوازي الصغير المستكين، في قلب الفرنسي برودون ؟ هنالك من ظن ذلك وقال به . الا ان تشابه هذه النزعات وتعارضها أمر واقعي ،

قائم بالفعل . فهو ينغّص العيش على الحياة الدولية .

وفي عام ١٨٨١ ، جرى عماد الجمعية العمالية الدولية على يـد النقابات العمالية والعمال المتخصصين في فرنسا الذين وقعوا المنشور المعروف بـ « بيان الستين » الذين كانوا تعاونيين اكثر منهم نقابيين . ومع ذلك ، فقد تولى ماركس نفسه إعداد خطبة الافتتاح ، وأخذ بمناهضة كل من البرودونية والباكونينية ، وراحت منذ ذلك الحين ، الاختلافات والشقاقات الداخلية تعمل على اجهاضها، مع انها بقيت توحي الرعب وتسمر الخوف في قلب الحكومات . وامتدت مظاهراتها الى كل مكان ، حتى الى الولايات المتحدة واميركا اللاتينية . الا انها عجزت كلياً عن قطع الطريق على الحرب ، وعن انقاذ الكومون في باريس عن طريق إثارة ثورة شاملة في اوروبا ضـد المجتمع البورجوازي .

وما هي الكومون ، يا ترى ؟ فتنة طارئة قام بها سكان باريس ، بعد ان انزل بهم الحصار الطويل الذي تعرضوا له ما انزل من آلام وعذابات وحرمان، وبعد ان شاهدوا هول الهزيمة التي أصيبت بها فرنسا في الحرب ، وعملية استسلامها ، والفوز الانتخابي الذي حققه النبلاء « الريفيون » . وقد تسربلت سربال سلطة بروليتارية ، وهي سلطة وهنة لعمري ، محصورة في مدينة ، ضخمة منعزلة ، محدودة الموارد ، والتي رفعت ، بالرغم مما انتابها من انقسامات ، العلم الاحمر ، وأقرت فصل الدولة عن الكنيسة ، وألغت العمل ليلاً في الافران والمخابز ، وشجعت قيام « جمعيات تعاونية ذات رأس مال مشترك لا يمكن التصرف به او مسه » ، واقترحت وضع منهج فدرالي ، شعوبي للدولة ، له اتجاهان رئيسيان يمكن لهما ان يتلاقيا . فبعد ان غُلبت على أمرها في معركة طاحنة ، دونها بكثير أهوال ثورة ١٨٤٨ ، فقد خلفت وراءها دوياً تجاوبت اصداؤه بعيداً . وأدت هزيمتها الى هزيمة الشيوعية الدولية الأولى ، الأمر الذي الهم انغلز ان يلاحظ معقباً : « لم يعودوا يتحدثون عن الاشتراكية ، وحسناً فعلوا ، فقد تخلصنا منها » .

نشأة الاحزاب الاشتراكية وتأليف الدولية الثانية

حدثت انطلاقة جديدة عندما راح تلاميذ لاسال وماركس الالمان يشكلون عام ١٨٦٩ ، الحزب الذي عُرف بالحزب الاشتراكي الديموقراطي . صحيح ان مؤتمر غوتا وضع برنامجاً معتدل اللهجة، خصه ماركس بنقد لم ينشر الا سنة ١٨٩١ . وقد عد هذا الحزب اذ ذاك ، مليوناً ونصف مليون من الاعضاء ، كما انه تمثل في مجلس النواب بـ ٣٥ نائباً. وقد استمد هذا الحزب ما عُرف به من روح الصراع والمقاومة من هذا الاضطهاد الذي اصطلاه به بسمارك اكثر من إرداته الثورية ، واذ اصبح بعد وقت قصير من الزمن القوة الصناعية الاكثر والاحسن تنظيماً في اوروبا جمعاء ، فقد قدمت المانيا العالم اجمع نموذجاً للاشتراكية النيابية حسنة التنظيم والانضباط عُرفت بالحذر والحسبان .

وهذا النموذج الجديد للاشتراكية برز كثير التعقيد والتشعب في البلدان الاوروبية الأخرى.

ان تطور المؤسسات والنظم التمثيلية ، وترسيخ القاعدة الشعبية للانتخابات ، وقصور المكاسب التي حققها النقابيون ، والنتائج الهشة التي أدت اليها الاضطرابات ، كل هذا وما اليه ، ساعد على ظهور الاحزاب الاشتراكية على المسرح السياسي بعد ان تقاسمتها فئات المطالبين بالحرية المطلقة ، والحزب الاصلاحي والحزب الماركسي ، وهي احزاب أخذت توصي بمجابهة الاحزاب البورجوازية ، على اساس من المعارضة المنهجية .اما الحزب الاصلاحي فقد تمرس الخوض في الوحل ، في تعاونه مع السوسيال ديموقراط الذين يكرهون الجماعية . وقد أطل علينا من جهة أخرى ، في الاطار الوطني ، بصورة اوضح ، مزاج خاص يؤدي حركة يجب ان تتصف بروح دولية . وهكذا طلع علينا عدد لا يحصى من الفئات والاحزاب السياسية ، اضفت لها لبوساً شتى : إصلاحياً (المستطاعية في فرنسا ، النزعة الشرعية او التطورية في ايطاليا) ، بينما ليس الآخرون لباس الماركسية (هذا وضع حزب العمال في غد) وحزب العمال في بلجيكا الذي اتخذ قاعدة شعبية له التعاونيات ، ووطد نفسه حزباً بلدياً وفقاً التقاليد البلدية المرعية في البلاد الواطئة ، ومن الوان الحزب العمالي الثوروي الحزب المعروف بـ *Communalisme* الذي كان يرمي الى اقامة سلطة بلدية فوضوية او شيوعية الذي ابتعد بدوره عن اتحاد العمال الاشتراكيين في فرنسا ؛ كما ابتعد عن مذهب الاستطاعية *Possibilisme* الذي هدف الى السيطرة على المصالح العامة بينما تألف المذهب الضدي مع بلانكية اللجنة المركزية الثورية . فقد أوجد له انصاراً في الشمال ، وفي الوسط حيث تقوم صناعات التعدين بينما تعتمد الاستطاعية على منطقة باريس .

وخلافاً لما يجري على القارة ، بقيت بريطانيا العظمى متمسكة بالنشاط النقابي ، اذ آثرت المنظمات العمالية ان تؤثر على الحزبين التقليديين معاً في البلاد دون ان تلحق أي تشويش أو اضطراب باللعبة البرلمانية المعمول بها . فقد انتخبت ، عام ١٨٧٤ ، عاملين اعضاء في مجلس العموم ، و ١١ نائباً من « العمال الاحرار » الذين اعطوا اصواتهم لغلادستون ، كما ان حزب الاصلاح الاشتراكي ، راح على مثال رسكين ، يحلم بالمدن ذات الحدائق ، وبمناهج تربوية كالجمعية الفابية ، مثلا (انشئت عام ١٨٨٤) . وعندما رأى حزب العمال المستقل النور عام ١٨٩٣ ،فقط كان ظهوره دعماً قوياً للنظام البرلماني .

وعندما توفي ماركس ، عام ١٨٨٣ ، بدا الناس وكأنه اعظم بكثير مما كان في حياته . والجزء الاول من كتابه : « رأس المال » صدر عام ١٨٦٧ ، وترجم من بعد ، الى الفرنسية فالانكليزية وعرف عدة طبعات له بالالمانية .وقد تابع انجلس رسالة المعلم والجز العمل العظيم . كذلك ترجم « البيان » الى عدة لغات ، والنداء الذي وجهه الى ابناء البروليتاريا بالاتحاد والالتفاف حول العلم الاحمر ، تجاوبت اصداؤه في جميع اطراف العالم . وقد كتب فيه اموار فيان قائلا : « ان منزلة ماركس من هذا العصر ، بالنسبة للعلوم التاريخية والاجتماعية ، هي منزلة دارون من العلوم الطبيعية . هذان الاسمان يبرزان فوق العلم الحديث . لما من احد سام

مثلها على تسليح العقل البشري وتحريره كما فعلا » .

هنالك جهود تبذل لتنظيم الشيوعية الدولية وجعلها فوق كل النزعات الاشتراكية وخلال المعرض الدولي في باريس عام ١٨٨٩ ، عقد مؤتمر سيطر عليه الماركسيون اتخذت فيه توصية بهذا المعنى وفيه اتخذ القرار بجعل اليوم الاول من ايار في كل سنة يوم مظاهرات عامة في جميع انحاء العالم ، بحيث يطالب العمال في كل صقع ومصر ومدينة ، السلطات العامة بجعل ساعات العمل في اليوم ثماني . وقد تميز اول ايار عام ١٨٨٦ ، في مدينة شيكاغو بفتنة لاهبة ، أخمدت بالدم .

عهد الاغتيالات الفوضوية

وقد نبذ انصار الحرية المطلقة الماركسية والمذهب الاصلاحي ، على السواء لشجبها كل دعاوة ذات طابع انتخابي ، وقد هبت على روسيا منذ عام ١٨٧٠ موجة جارفة من الارهاب . وعقد المذهب الفوضوي ، في لندن ، عام ١٨٨١ ، مؤتمراً كان من بعض مقرراته اللجوء الى « اعمال العنف » ، ورفع العلم الاسود . وستصبح الولايات المتحدة من جهة ، واوروبا الغربية من جهة ثانية ، مسرحاً لحوادث الاغتيال توجه ضد الافراد وضد المقتنيات . وحركة الاضطرابات هذه اشتدت في كل من فرنسا وبلجيكا ودول جنوبي اوروبا ، دون ان تستثني دول اوروبا الشمالية . وقد نهض الايرلنديون بهذه الحركة في الجزر البريطانية قاصرين دعوتها للاضراب على بعض الاوساط التي اظهرت بعض الاستعداد لتقبل نظريات برودون وباكونين الهدامة . وعملت هذه الحركة في كل من ايطاليا واسبانيا ودول اميركا اللاتينية ، على إثارة الفتن وحرضت على القيام بها . ووقعت محاولات اغتيال عديدة ضد الملوك ورؤساء الحكومات في الوقت الذي استهدفت فيه حركة القمع توجيه ضربة شديدة ضد الاشتراكية . وتحت مكافحة الاعمال الموجهة ضد الروح العسكرية اخذت الحركة المطالبة بالحرية المطلقة تتغلغل بشدة بين النقابات وتوجهها نحو نهج سياسة مستقلة عن الاضراب وخاصة نحو المطالب التي تهدف صراحة الى الثورة .

الصراع المفتوح ضد الاضطرابات العمالية وضد الاشتراكية

« الارض مغطاة بجثث القتلى . ففي هذا المشهد المريع درس وعظة » (تيير – ٢٢ ايار ١٨٧١) .

وراحت المحاكم تصدر احكامها تباعاً ضد هذه النظريات وضد الرجال الذين يقفون في وجه النظام الرسمالي ، واخذوا يصورونهم ، بالكلام والكتابة ، اعداء السلطة الشرعية والحريات ، فيهم الخطر كل الخطر على الامة وعلى السلام الدولي . فانضمت الكنائس الى العلمانيين للتدليل على ما هو عليه هذا الفريق الآثم من شر خبيث . وراح البابا بيوس التاسع يشجب بقوة هذه التعاليم التي ينعتونها شيوعية « وهذه الانظمة الممنوعة » وهذه الاضطرابات التي تهدف « الى مخالفة الشرائع السماوية والارضية » ، كما ان البابا ليون الثالث عشر ، هاجم بمثل هذا العنف والشدة « هذه الطائفة » التي ترمي الى هدم حق التملك ، هذا الحق الذي هو من حقوق الانسان

الطبيعية ، والتي تغذي في النفوس ، « حقد الفقراء على اصحاب الاملاك » .

وارباب الاعمال يلجأون الى السلطات العامة عندما يرون انفسهم مهددين بالخطر، وكثيراً ما يأخذون المبادرة بأنفسهم . «فأنا حر باستخدام من ارغب باستخدامه في معاملي ومصانعي» ، كان يصرح شنيدر لوفد من العمال جاء لمقابلته في كانون الثاني (يناير عام ١٨٧٠) «وافضل الف مرة ان تخمد النار في مسابك معاملي وتنطفىء الى الابد ، على ان انصاع تحت الضغط والتهديد » . وافضل جواب وانجع رد على مخالفات العمال هو الطرد من الخدمة وهي طريقة كثيراً ما اعتمدها ارباب العمل من الانكليز ، منذ عام ١٨١٥ . وقامت بين ارباب العمل اتفاقات بالتراضي ، فتألفت في ايطاليا محالفات ليس بين ارباب الصناعة فحسب ، بل ايضاً بين الملاكين واصحاب الاقطاعات الضخمة الذين اخذوا ينظمون حركة المقاومة في وجه المطالب التي يتقدم بها المرابعون والعمال المياومون .

العاملة الابوية والتشريع الاجتماعي حدد الخبير الاقتصادي المتحرر لاروا بوليو الاشتراكية بانها « حالة مرضية » . فكيف يمكن ، باري ، معالجة هذا المرض ومداواته ؟

بلغ من حدة القضية العمالية بحيث لم يعد من المستطاع تجاهلها ولا مواجهة حلها بالبطش والعنف . وراح المعنيون بالامر يقلبون الرأي ويعدون الابحاث والتحقيقات حول هذه المشكلة الاجتماعية ، موجهين الاضواء الكشافة لاكتناهها على الوجه الصحيح، معربة عن حقيقة العذابات والضنك الذي يكتنف وضع العمال ، والذي راح كل من ميلرميه وفيلنوف بارجمونت يميطان اللثام عنها ، قبل عام ١٨٤٨ . فقد ارتسمت ، من جهة ، حركة ، تعاطف اشتراكية من وحي مسيحي ، قابلها من جهة اخرى، بين احرار البورجوازيين، حركة ، انسانية علمانية ، وحدت بينهما رغبة مشتركة في تخفيف ، ان لم يكن في ازالة ، هذه المساوىء والشرور التي تكتنف الطبقة البروليتارية ، وذلك عن طريق الاخذ باصلاحات لا تتعرض ، من قريب او من بعيد ، لمبادىء الملكية الخاصة ، ولا تضر قط بحرية العمل ، فعلى الطبقات الموجهة ان تتفهم الوجبات المترتبة عليها ، كما على الطبقات المرهقة ان تعترف باخلاص ونزاهة ، بالانجازات الاجتماعية التي تحققت لخيرها ونفعها .

وقامت البروتستانتية هنا بحركة اجتماعية شديدة جاءت تتجه لهذا العمل الاجتماعي الطيب الذي قامت به بعض الطوائف ، ووفاقاً للمبدأ الذي قال به وعلم بنتهام . فقد خطر لدزرائيلي نظام ملكي يسن له سياسة ابوية نحو العمال ، ولم يبد قط ان عضو المحافظين هذا كان بعيداً عن بسمارك في النظرية التي قال بها للضمان الاجتماعي . وقد خيم على النقابية العمالية جورديني بعث الدفء في الجمعية الفابيانية، ودفعت نحو حزب العمال العصبة المسيحية الاشتراكية وفي المانيا كانت فلسفة فخت والفلسفة الهيغلية قد مهدتا الطريق امام نظرية الدولة الابوية او الدولة العطوف .

ومن جهة اخرى ، فقد وجدت النقابات في المنهجية التاريخية عذرا لها وتبريراً لفوائدها ، هذه المنهجية التي انبثقت منها مدرسة روشير وهيلدبراند وبرنتانو، التي كانت تدعي بأنها تشتق من الواقع وبأنها تحسب حساباً التطور سيراً منها مع مذهب التقليدية الذي قال به الفقيه سافيني . ومهما يكن، فقد أطلت علينا حركة اشتراكية طموحة تبنتها الدولة في إثر ردبرتوس بعد ان تشبع لاسال من كتابه : « رسائل اجتماعية»، وكذلك شمولر وادولف وغنر . والمنهاج الذي وضعه أيزناخ هو بمثابة اعلان حرب حقيقي ضد مذهب كوبدن الذي كان من بعض تأثيره على بسمارك ان غرس فيه اليقين ووطد فيه الاعتقاد بان الامبراطورية الالمانية ستعرف كيف تصبح ، بعد لأي قصير ، نموذجاً يحتذى للدول الابوية .

وقد قام بين البروتستانية الفرنسية والفلسفة الوضعية اكثر من نقطة اتصال استطاع رينان ، في اعقاب حرب ١٨٧٠ ان يتكد «حب الذات» مصدر الاشتراكية، والحسد مصدر الديموقراطية ، كما اعجب تين بالروح التجريبية التي تمت للبريطانيين اعداء التجريد الكاسح . فهم يتمنون ، على شاكلة ليتريه ، حكومة رائدها العقل ، إصلاحية بحكمة وتعقل. فعقلية هؤلاء الجمهوريين الذين يشكلون الدولية الثالثة ويوجهونها تبرز ايضاً في هذه المحافل الماسونية حيث تدرس الموضوعات الانسانية الطابع وتناقش . فهي مدينة بعض الشيء لهذه الفلسفة التي قال بها رينوفييه الذي بعد ان شدد على ما للانسان من منزلة وكرامة، وعلى فكرة العدالة ، راح يوصي بفكرة التضامن والتعاضد التي تلقي على الدولة الديموقراطية واجبات شديدة من المتوجب عليها القيام بها في جو مشبع بالحرية . وها هو السيد له بلاي الذي عرف ان يربط بإحكام بين الفلسفة الوضعية والكاثوليكية الاجتماعية ، راح هذا الباحث القدير يشيد بفضائل الاسرة ويعتمد على الاخلاق اكثر من اعتماده على التشريع في سبيل تحسين العلائق بين العامل ورب العمل ، ويرجو ان يعامل هذا ذاك كما يعامل الاب ابنه . ولكن كيف السبيل لتجعل من المعمل او المصنع شيئاً اشبه بالاسرة ؟ اليس بالعمل على إعادة الروح النقابية ؟

هنالك فريق من الكاثوليك المحافظين يتطلعون الى النظام القديم بما تحلى به من مراتب مسلسلة ومن طابع مسيحي، ونذكر كل من المركيز دي لاتور والكونت دي مون -وكلاهما من ضباط الجيش المحترفين اعجبا وهما في الاسر في المانيا ، بالانجازات العظيمة التي حققها المطران كتلير ، نفسيهما لتأسيس نواد للعمال الكاثوليك . وراح الاتحاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعية واتحاد فريبورغ الذي بعث فيه المطران فرميلود النشاط ، يلقنان بألسنة حداد النظام الرأسمالي و «عبادة العجل الذهبي» وتجلت فعلاً عام ١٨٨٦ الديموقراطية المسيحية بظهور الجمعية الكاثوليكية للشبيبة الفرنسية . وراح ليون هارمل من جهته يقوم بعمل رسولي خليق بكل تقدير في اوساط اصحاب المعامل الكبرى . واخذت هذه الارادات الطيبة تتوقع صدور إشارة مامن قداسة البابا . وتردد البابا ليون الثالث عشر في الامر ، وشجب النشاط الذي كان يقوم به فرسان العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، وابى على نفسه ان يؤازر هذا الفريق

من ابناء فرنسا الذين لا كلمة مسموعة لهم عند الزعماء الجمهوريين . ومع ذلك فرؤساء الاساقفة فيونز وايرلند اخذا يطلقان على النقابيين الاميركيين ، كما انبرى الاساقفة مانتغ راح يبذل وساطته لصالح عمال الارصفة المضربين في لندن . ونداء « الالتفاف » او التجمع حول الجمهورية الفرنسية الذي توقع الكاثوليكان منه ان يحمل « التهدئة » الى البلاد ، قد يعني ايضاً اتفاقاً ضد الاشتراكية .

من هنا تبدو اهمية البراءة البابوية التي يمكن اعتبارها البراءة الكاثوليكية الاولى للحركة الاشتراكية . وفي خطابه للحجاج الفرنسيين الذين قابلوه برئاسة دي مون ، راح البابا يؤكد بأن « القضية العمالية والاجتماعية لا يمكن لها ان تلاقي حلها المرتجى والعملي في الشرائع المدنية الصرفة حتى في افضلها . فالحل الامثل يتوقف كثيراً على الضمير والوجدان » .

كان من المفروض على السلطات المدنية والكنيسة ان تتعاون معاً وفقاً لتقاليدها لتأمين القيام بأعمال الاسعاف والوقاية . الا ان اعمال المؤاساة كانت تروح بالاخص الى المرضى والمشوهين والاولاد الذين تخلى عنهم والدوهم ، وقليلاً جداً الى الاسر المستورة . وقد جاء في تقرير وضع عام ١٨٧٤ : « التشريعات الفرنسية التي تنظم الاحسان اساسها المبدأ القائل ان واجبات المجتمع الادبية ان لا يترك متألماً ما دونما علاج . فالاحسان الموجه للمعوزين لا يمكن المطالبة به كواجب مفروض » .

شهدت المانيا أول ما شهدت طلوع الدولة الوالدية ، وذلك عندما صدر فيها اول تشريع يجعل الضمان الاجتماعي إلزامياً . وقد تبلور مفهوم هذا الضمان ، شيئاً فشيئاً وتجلى على أنه بانشاء تعاونية وصندوق نقابي . ثم صدر قانون آخر اول الحكومة صلاحية تشكيل ادارة خاصة أنيطت بها مهمة مراقبة النقابات المهنية التي تنشأ فيها صناديق اسعاف . ومع ذلك فبسمارك يتردد كثيراً قبل ان يخطو الخطوة الحاسمة وذلك لارتباطه باتفاق مع حزب الاحرار . وراح الكاثوليك في المانيا والحزب الانجيلي يطالبون بتشريع يسيج حول العمل والعمال بحيث يقطع الطريق على الدعاية الاشتراكية . وفي بيان له منشور ، راح الحزب الوسط في الرايشتاغ يعرب عن نياته باستصدار قانون خاص ينظم العمل والعمال . وبعد ان اعتمد مستشار المانيا على حزب المحافظين والحزب الكاثوليكي ، فاز بالتصويت على الضمانات الثلاث : ضمان الحوادث ، ضمان المرض وضمان الشيخوخة والعجز عن العمل . إلا انه رفض ضمان البطالة والاضراب . وبعد ان راح يستشهد بفكرة الطمأنينة ، دعا أرباب العمل والعمال للتعاون معاً تحت رعاية الرايخ كما عزم عزماً اكيداً على تنظيم العمل بما يضمن ازدهار الاقتصاد الالماني . ولما كان الامبراطور مشبعاً بروح السلطة ، دعا غليوم الثاني الى مؤتمر دولي للنظر بأمور العمل يعقد في برلين عام ١٨٨٩ ، راح فيه بمثله الشخصي يؤكد قائلا : « لما كان العمال لا ثقة لهم باخلاق البورجوازية ، فهم يتوجهون بمطالبهم نحو التشريع الرسمي » .

وقد اعترف العامل بحرية تشكيل الاتحادات العمالية مع حق تأليف الجمعيات ، وهي تنازلات محسوسة نعم بها العامل . كان ذلك ضربة شديدة توجه للروح التحررية الفردية بنوع

خاص كما تؤلف الى حد ما عودة الى فكرة التجمع المهني والمسلكي . ولما كانت هذه الحركة الاصلاحية لا تطبق على الموظفين والعمال العاملين في خدمة الدولة ، كان باستطاعة ارباب العمل ان يستفيدوا منها فائدة كبرى . ولما كان القانون الفرنسي الصادر عام ١٨٨٤ يخضع النقابات للتفتيش ويقصر نشاطاتها على الدرس وعلى الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والصناعية والتجارية والزراعية ، كان المطلوب ، حسب رأي غيد ، تطبيق قانون لوشابلييه على « مقتضيات الرأسمالية المستجدة » وبدرجة اقل إلغاء هذا القانون . ومهما كان من الامر ، فـالاعتراف للطبقات المتنافسة بحق تنظيم صفوفها ، لا يساعد على التهدئة والمسالمة ، الامر الذي اولى النقابة المختلطة هذا الحق الذي تتمتع به في بعض الاوساط الكاثوليكية . والحال ، لم نر في اي محل كان ، طريق التوفيق والتهدئة تعمل بصورة فعالة (من ذلك مثلاً الطريقة الفرنسية التي توصي بتأليف لجنة محكمين اعضاؤها منتخبون بين العمال وارباب العمل او لجنة من المحكمين ، كما هي الحال في كل من المانيا وانكلترا)

والتشريع الذي صدر بشأن والعمل: مداه وظروفه ، كان هو الآخر كردة فعل ضد النظرية التحررية [1] . تاريخ معقد ومتشعب تألف من توصيات واحكام عديدة ، لطرح دوماً من جديد على بساط البحث امام الشارع الذي يرغب في وضعها موضع التنفيذ .

قليلة جداً هذه القوانين التي تعرضت لسكن العمال . فالقوانين التي حددت في انكلترا نماذج في بيوت السكن في المدن ، توجب على المالك القيام بالاصلاحات التي تقتضيها اوضاع البيوت . وراحت بعض المدن الانكليزية ، كمدينة برمنغهام مثلاً ، باقتراح من تشمبرلن ، تدرج في التصميمات التي تضعها لتحسين المدن ، مساكن العمال . وفي المانيا كانت الدولة توزع مساعدات للمدن ولارباب العمل تعطى للشركات وتعاونيات البناء . وهكذا تصرف اصحاب معامل كروب وغيرهم من ارباب العمل . الا ان المتبع ، على الاجمال هو ان هذه النزعة الابوية والرأسمالية كانت تؤثر تشييد ابنية خاصة للايجار تؤمن لاصحابها دخلاً في السنة . فالمستخدم قلما يتمكن ، بالنظر للأجر الضئيل الذي يتناوله ، ان يستمتع بمنزل لائق مستوف لجميع الشروط .

آمال وحدود الحركة النقابية

عندما يتعاون الناس ويشاركون في انتاج بعض السلع او في تنفيقها ، لا يفعلون ذلك بالضرورة بدافع منهم للربح والإثراء ، وهي فكرة كثيراً ما راودت خواطر اعضاء الجمعيات الراغبة في الوصول الى طريقة

---

(١) بقيت هذه الظروف قاسية على الاجمال . فالعامل في المنجم بقي ، كالسابق عرضة لامراض عدة كذات الرئة والسل ، كما ان العمل في معامل الكبريت وعيدان الثقاب كان يعرض العامل للتسمم وبالتالي للموت . وكذلك العمل بالقصدير في معامل القصدير ، وصانع السكاكين عرضة للريب لعدم استعمال ما يقيه لفح النار . وكذلك الزجاج الذي ينفخ بواسطة انبوب الحديد ، وهو عمل يسبب تشقق الشفاه وانتفاخ الوجنات وظهور بثور في مجرى اللعاب ، ويعرض صاحبه للفتق ولانتفاخ حويصلات الرئة .

كلمة التنظيم او التجديد الاجتماعي عن طريق الحرية الشخصية وفي حدودها . « فالمهدون العدل «الذين قاموا في روشدايل ، عمدوا ، بادىء الامر ، الى تشكيل تعاونية للاستهلاك ، الغاية منها بيع حاجيات ذات منفعة عامة يشتد عليها الطلب ، بادنى سعر ممكن ، مع حسم صغير على الربح يكون بنسبة الكمية التي يشتريها الزبن الذين هم بالضرورة من حملة الاسهم في التعاونية . وقد انتقلت العدوى والعمل بهذا النظام الى حرف اخرى ، كالخبازين مثلاً . وهكذا استطاع عزن روشدايل ان يقترح على زبائنه تنفيق بعض الحاجيات التي تولى صنعها . ولما رأى الشارع بكل ارتياح هذا المشروع ينمو ويتطور ، فلم يلبث ان اضفى عليه وجوداً شرعياً وصفة قانونية . وحدث بعد ذلك ان بعض المحلات التجارية التي تبيع بالجملة ، في منشستر وفي غلاسكو ، وسعت في نشاطها التجاري بحيث امتد الى اطراف العالم ، وقد بلغ من إقدامهم وجرأتهم إن اشتروا بعض مزرعات الشاي في سيلان واراضي زراعية واسعة في كندا وحقول النخيل في سيراليون ، حتى ان بعض هذه المحلات استحال مصارف تعاونية ، واقبلت على صناعة البسكوت ومعلبات اللحم والالبسة والفروشات حتى والتبغ ، بعد ان كان مثل ومكسويل وامثالهم روح النشاط والحركة فيها .

وهذه التعاونيات الانتاجية بدت مغرية جذابة في نظر بوشيز ولويس بلان في فرنسا . الا ان الشركاء في مشروع الاستثمار هذا صعب عليهم ان يدركوا ان مصلحتهم تقوم في استثمار ارباحهم في مشروعات تتيح لهم التوسع تدريجياً في الاعمال . وكان جواب تيير لاعضاء المجلس التأسيسي الذين راحوا يطالبون ، عام ١٨٤٨ ، باعتمادات خاصة : « ليس بثلاثة ملايين يجب ان تطالبو ، بل بعشرين مليوناً . فانا على استعداد كلي لمنحكم اياها ، اذ ليس بكثير قط ان ارفع مثل هذا المبلغ لأثبت لكم خواء هذه الشركة وعدم كفاءتها » ، ومع ذلك فقد جرت بعض التجارب في باريس . فقد عهدت الكومون الى بعض اللجان الخاصة بمهمة ادارة بعض المصانع التي تخلى عنها اصحابها ، كما ان مؤتمرات العمال التي تم عقدها بعد عام ١٨٧٠ اخذت بمناقشة الموضوع . الا ان الاشتراكيين بقوا متحفظين حيال هذه القضايا . ورأى غد ، على غرار بلانكي ان هذا النوع من التعاونيات لن يلبث ان يحمل البروليتاريا على النعاس . حقق المشروع بعض التقدم حوالي ١٩٠٠ . اما عند البريطانيين ، فبالرغم من الدعاية التي قام بها القسان موريس وكنغسلي والحاميان لدلو وفانسيتارت نيل ، فقد دام إعراض الحركة النقابية والرأي العام طويلاً ، ولم تسجل القضية اي تقدم الا عام ١٨٨٤ ، مع ظهور جمعية العمل التعاونية .

اما خطة إشراك اصحاب الاجور بالارباح ، فقد جاءت اقل توفيقاً ورواجاً . فقد راح عامل رسام يؤسس عام ١٨٢٧ لحسابه الخاص عملاً استطاع ان يقنع بعض العمال بشاركته والمساهمة به . الا ان مشروعه هذا لم يلبث ان اصبح برمته بين ايديهم . وراح المدعو غودين ينظم هو الآخر ، في مدينة غيز ، مشروع استثمار عائلي ، الا انه اضطر بعد قليل التخلي عن مشروعه

العمال العاملين فيه . وهنالك بعض المشاريع من هذا النوع قامت على هذا الأساس ، بينها مطابع ، والـ *Bon Marché* ومناجم بريغز – في يوركشير ، وشركة الغاز في مدينة لندن ، ومعامل الجعة البرلينية لصاحبها بوروشرت . فقد تعرضت كلها لهذه الخصومات والمنافسات التي وقعت بين الاشتراكيين وأصحاب العمل .

الا ان التسليف الزراعي سار بنجاح . ومثل هذا المشروع قلما يخدم مصلحة طبقة البروليتاريا الذين لا تتوفر لهم الامكانات والطاقات المالية ، مثلما يخدم مجموعة من صغار الملاكين الفلاحين الذين يحتاجون في اعمالهم ومشروعاتهم لعملية تسليف طويلة الاجل . لقد وضع برودون اصبعه على الجرح وحاول وصف العلاج اللازم لبرئه عندما اخذ يفكر بإنشاء مصرف شعبي . الا ان النجاح اصاب هذه المشاريع التي قامت في المانيا ، كالمشاريع التي تمت على يد رايفيزن وشولز ، تخصص اولها في الامور الزراعية كما اتجه الثاني للجميع من سكان المدن والريف على السواء . وقد فتحت مصارف من هذا النوع في جميع البلاد .

والازمة التي ألمت بالريف ، في ذلك الوقت ، ساعدت كثيراً على نشر نظام التعاونيات الزراعية التي تعاطت على السواء ، الشراء او البيع او الاثنين معاً . ومثل هذه المشاريع تروق الفلاح الذي يتمكن ، بمثل هذه الطريقة ، من ان يؤمن له ، كل ما يحتاج اليه من الادوات الزراعية والأسمدة ويجد اسواقاً لتنفيق محاصيله . وهكذا قامت في الدانمارك وازدهرت تعاونيات للزبدة ، كما قامت في مقاطعة الجورا ، تعاونيات للاجبان والفاكهة .

فالتعاونية ، على هذا الشكل تصبح طريقة سهلة من مصالح المهنة . فكل همها ان تحصل تخفيضاً محسوساً لاعضائها في اسعار الكلفة وزيادة في ارباحهم ، مع العلم ان اعضاء المجتمع لا يفيدون منها بالضرورة .

وفكرة تعاونية التوزيع التي تتجه من المستهلكين عرفت الازدهار والرواج بفضل هذه الازمات الاقتصادية التي وقعت بين ١٨٧٥ - ١٨٩٥ . وراح بعض رجال الاقتصاد « والعلماء » ، امثال والراس ومنجر يبثون بين الناس فكرة تقديم الاستهلاك على الانتاج ، وهي فكرة تبنتها مدرسة نيم بعد ان بعث فيها شارل جيد النشاط . وفي السويد وبلجيكا عن طريق فورويت ، وفي انكلترا بواسطة كتابات ويب ، راح الناس يحلمون بجمهورية اشتراكية لها القدرة على إشباع احتياجات الناس دون إلحاق الضرر بأجور يحل فيها الحسم المضاف الى الرأسمال محل الربح .

ويرى معارضو هذه الحركة وشاجبوها ان النظام التعاوني الذي فشل في اجتذاب رؤوس الاموال اللازمة ، عجز كذلك عن فرض نفسه في قلب النظام الرأسمالي ، واذ لم يكن في وسعه ان يبيع بالدين ، كان لا بد من ان يفشل في تغيير او تعديل الظروف التي تكتنف حياة البروليتاريا .

الطبقة العمالية تحت وطأة مرض اجتماعي مزمن : الفقر

هنالك ولا شك فريق من اصحاب الاجور حسنت اوضاعهم المادية من جراء التحسن الفعلي الذي طرأ على مرتباتهم بقطع النظر عن التحسن الاسمي . الا ان التحسن المادي في بعض اوساط البروليتاريا على الاجمال هو اقل ظهوراً للعيان منه لدى البورجوازية . هل نحن يا ترى

شكل رقم ١٩ - الاجور والنفقات السنوية . مقارنة بين ٦٢٣ اسرة عمالية في صناعة الحديد ، موزعة بين ٥ بلدان

١ - المرتب ؛ ٢ - الايجار ؛ ٣ - الغذاء ؛ ٤ - اللباس ؛ ٥ - التدفئة والانارة ؛ ٦ - المشروبات (بينها الكحول) ؛ ٧ - التبغ ؛ ٨ - الوفر .

(لتحقيق قامت به وزارة العمل الاميركية ، منقول عن غولد : الوضع الاجتماعي للعمل ، ١٨٩٣).

امام حركة افتقار تصاعدية ؟ ان عملية مقارنة بين النفقات التي يستطيع رب عمل ، من جهة تحملها ، ومن جهة اخرى ، عامل يعمل في المشروع ذاته ، تستطيع وحدها ان توفر لنا عناصر الجواب عن هذا السؤال . فالاحصاءات التي تمت في هذه الناحية انحصرت كلها في موازنة العامل .

من هذه الابحاث والتحقيقات التي قام بهـــا مكتب العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، يتضح لنا ان العامل في الصناعة المدنية ، مثلاً،تستهلك اعاشته نصف مرتبه تقريباً او اكثر من ذلك بقليل ، ولا يبقى له بالتالي الا القليل لايجار منزله ولباسه وتغطية نفقات ثانوية اخرى كالمشروبات والقراءة والتدخين ، اما السكن فيعود على الانكليزي والبلجيكي اغلى مما يعود على الفرنسي والالماني ، او انهم يكرسون له مبلغاً اعلى نسبياً . فالالماني يكتفي بثياب اقل جودة وأرخص بالطبع . واذا كان معروفاً عن الفرنسي انه اكثر تعاطياً للشرب ، فلأن النبيذ قد عد بين المشروبات الكحولية . فالتوفير يكاد لا يظهر على البلجيكي وعلى الالماني ، ويصبح محسوساً عند الانكليزي ولا سيا عند الفرنسي .

فاذا ما قارنا بين وضع العمال الاوروبيين والاميركيين لاتضح لنا جلياً انخفاض الوضع عند الآخرين[١] . ومن ثم فالتوازن لا يمكن تأمينه الا بعمل المرأة ، ان الرجل ، انكليزياً كان أو فرنسياً ، لا يحصل الا ٣/٤ موازنة اسرته والبلجيكي ٣/٥ ، والالماني ٦/٧ ، والاميركي ٩/١٠ موازنته السنوية .

ان معظم الاسر العمالية التي قام بدراسة عنها في الحي الثالث عشر من احيـــاء باريس كل من درمـنيل ومنجنو ، تخصص لايجـــار سكنهـــا من سدس الى نصف دخلهـــا . وبعد حسم نفقة الايجار هذه ، لم يبق لـ ١٣٤ اسرة من اصل ١٨٦٦ اسرة جرى درسها سوى ٤٠٠ فرنك يجب ان تكفيها السنة كلها . فالبعض من هذه الاسر يخصص من ١٥–٢٠ سنتيماً للفرد الواحد كمصروف يومي لغذائه ولباسه ، مع العلم أن كيـــلو الخبز يساوي ٢٥ سنتيماً ، وكيلو اللحم فرنك ونصف ، والسكر ٧٥ سنتيماً . فما من احد ينفق فرنكاً في اليوم على فرد واحـد . وفي بروسيـــا حوالي عام ١٨٦٠ . كانت الفئات الاكثر فقراً تخصص من ٦٠ –٦٦ من دخلها لتأمين حاجتها من المواد الغذائية ، بينا أحسنهم وضعاً كان يخصص من ٨ – ١٠٪ من دخلهم . وكان العامل الالماني في برلين الذي يشتغل في مصنع الابنوس او في ادارة سكة الحديد يقبض ، عام ١٨٨٨ نحواً من ١٠٢٤ ماركاً ، يدفع منها ١٦٨ ماركاً اجرة غرفـــة مع مطبخها (المطبخ دون نافذة) وكان ينفق على طعامه ٥٧٤ ماركاً ، ويغادر مسكنه صباحاً بعد ان يكون تناول في الصباح كوباً من جريش القمح (بمثابة قهوة) مع حليب وسكر وينتقل على نفقته حاملاً معه من المقانق ما ثمنه ١٠ *Pfennigs*، ويتناول في المساء حساء من الخضار والبطاطا. والعائلة تنفق من ٢– ٤ ليبرات من اللحم في الاسبوع،ولا تخصص اكثر من ٤٢ ماركاً للملبوس. وكتب المدرسة ثمنها ٩ ماركات ، كما كان عليها ان تخصص ٧ ماركات ثمن الصابون لاعمـــال التنظيفات . الا ان وضع الاسرة لا يسمح لها بشراء جريدة .

فالضنك والعوز هما ابداً ضيفان ثقيلان يحلان على الاسرة بقطع النظر من هبوط الاسعار .

دليلان على تحسن الوضع الاجتماعي صحة احسن واخلاق انعم

ولكن أكان من حق الناس في اوروبا ان يستسلموا لليأس ؟ ان مدى الحياة يستطيل على الاجيال. فمعدل الحياة ارتفع ، في فرنسا ، بين ١٨٢٠ - ١٨٣٠ ، من ٣٨ الى ٤١ ، والشيخوخة بين الناس خففت من تقهقر معدل المواليد في البلاد . فاذا كان هذا الانكفاء او الانحسار الذي يمكن رده الى تناقص البؤس والشقاء لا يزال يقلق بعض المواطنين ، فتناقص معدل الوفيات يجب ان يدخل خانة حسنات الحضارة . فقد كان معدل الوفيات ٣١ بالألف في اوروبا ، عام ١٨٥٠ ، فهبط الى ٢٦٪ خلال الفترة الواقعة بين ١٨٩١ - ١٩٠٠ .

وطال امد الحياة لدى الانسان لان الاسباب التي كانت تعجل من وفاته اخذت بالزوال الآن (كالحرب) او ان تأثيرها ضعف وخف . وبفضل التحسين العام الذي طرأ على وسائل النظافة سجلت مكافحة المرض تطوراً ملحوظاً ، تباين الشعور بها ، في اوروبا ، باختلاف البلدان والطبقات الاجتماعية ، وهو تقدم لا يمكن لاحد نكرانه . وهذه الأمراض التي تسير دوماً في ركاب الحرب كالوباء والتيفوس اصبحت الآن في خبر كان (مع أن الأول زرع الرعب بين الناس في سنة ١٨٨٤ - ١٨٨٧ ، وفي سنة ١٨٩٢ ، والثاني انتشر في جنوبي فرنسا عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠) . ومعظم الامراض السارية ، تناقص عدد ضحاياها ؛ فالامراض الزهرية تحسنت كثيراً وسائل معالجتها[1] . وقد تراجع ايضاً مرض التدرن الرئوي في بعض البلدان ، كإنكلترا مثلاً ، بينا فتك فتكاً ذريعاً في فرنسا . كذلك تعاطي المسكرات الكحولية التي جرت مكافحتها بنجاح في انكلترا والتي أتت مكافحتها بنتائج طيبة في البلدان السكندينافية وفي هولندا ، عد من الاوبئة الجديدة التي اشتدت وطأتها في بعض البلدان ، من بينها فرنسا ، حيث ارتفع معدل استهلاك الخمور والمشروبات الكحولية ، كما ازداد عدد محلات بيع هذه المشروبات بكثرة. كذلك نلاحظ ارتفاع معدل الذين يدخلون مستشفيات الامراض العقلية ، ومعدل حوادث الانتحار . ومع ذلك فحوادث الاجرام يهبط معدلها .

ولما كانت غريزة الكبح في الانسان وعقيدة التكفير اخذت ترجع تدريجياً على فكرة التخويف وعلى الامل المعقود على التأديب الاصلاحي ، فقد اخذت الشرائع الجنائية تفقد شيئاً

---

(١) ففي ايطاليا حيث الوفيات كانت تعد بالملايين ، هبط معدلها بين ١٨٨٧ - ١٩٠٧ من ٥٢٤ الى ١٣ في مرض الجدري ، ومن ٨٨٢ الى ٢٢٥ في مرض التيفوئيد ، ومن ٥٩٥ الى ٢٥ للملاريا ، ومن ١١٥ الى ١٨ في مرض الحصاف او البلاغرا . اما في انكلترا ، فقد احصوا، للفترتين الواقعتين بين ١٨٧٦ - ١٨٧٠ و ١٩٠١ - ١٩٠٥ ، ما معدله ٩٥٩ و ١٢٥ لضحايا الحمى القرمزية ، و ٨٤٩ و ١١٦ لضحايا التيفوئيد ، و ٥٣٥ و ٣٠٠ لمرض الواق (الشهقة) ؛ و ٢٠٨ و ١٠٦ لضحايا الخناق ؛ و ٢٤٤٧ و ٢١٥ لضحايا التدرن الرئوي وهبط معدل الرجال المصابين بمرض الزهري من ٥٤ بالألف الى ٢١ بالالف في الجيش البروسياني ، بين ١٨٦٧ و ١٩١٣ ، كما هبط من ٩٥ بالالف الى ٥٩ بالالف في الجيش الايطالي بين ١٨٦٧ - ١٩٠٥ ، وهبط من ١٠٩ بالالف الى ٥٥ بالالف في الجيش النمساوي المجاري ، بين ١٨٧٠ - ١٩١١ ، ومن ٥٤ بالالف الى ١٧ بالالف في الجيش الفرنسي بين ١٨٧٦ و ١٩١٣ ، ومن ٢٢٤ بالالف الى ٥٢ بالالف في الجيش الانكليزي في انكلترا بين ١٨٨٥ - ١٩١٣ ، كما ارتفع هذا المعدل في كل حرب استعمارية (لونس - الجسد الترنسفال).

فشيئاً من قوتها . ولم تطبق انكلترا منذ عام ١٨٢٣ ، وبلجيكا منذ عـــام ١٨٦٧ ، الا بصورة استثنائية،عقوبة الاعدام ، بينما قررت البرتغال والبلاد الواطئة ، وايطاليا فيا بعد ، إلغاء هذه العقوبة . وفي فرنسا اخذوا يواجهون تعديل احكام القانون الجنائي بقصد التخفيف من هـــذه العقوبة تدريجياً منذ عام ١٨٣٢ ، وبعد أن راح كل من بكاريا وهوارد ، ومن بعدهما بنتام، بمهاجمة عقوبة النفي والابعاد ، اصبحت هذه العقوبة مثالاً للجدل والنقاش الطويلين في البـــلاد ، فقد اتجهت الافكار الى الجزائر ثم وقع الاختيار على الغويان الى ان استقر في نهـــاية المطاف على كاليدونيا الجديدة . وهكذا احتفظوا بعقوبة الحرمان او السجن المؤبد ليس فقط عند استبدال عقوبة الموت بالسجن المؤبد ، بل ايضاً لمن يحاول التعرض لحق التملك (ان شخصية جان فالجان مجرد شخصية خيالية او روائية او من يهدد امن الدولة وسلامتها) فالحكم على الضابط دريفوس كان له دوياً عظيماً ، وقد زالت بالتالي العقوبات الجسدية من نظام السجون ، بينما رأى فيهـــا البعض تدبيراً تأديبياً لا غبار عليه قط .

أما المرأة العاثرة فقد بقي مصيرها مؤلماً للغاية . وبالرغم من الدعوة لادخالها احـــدى دور الرعاية او ملجأً خاصاً فقد اخضعت لمراقبة شديدة محطة وغير ناجعة من قبل شرطة الأخـــلاق التي لم تستطع أو لم ترد ان تضع حداً للنخاسة بين البيض ، كما ان اغلاق بيوت الدعارة في كل من برلين وفي انكلترا لم يضع حداً للبغاء . وقد ابدى المراقبين بأن هـــذا النشوز يجب رده الى البؤس اكثر منه الى حب الرذيلة ، والى تخلي الضل عن ضحيته بعد ان يكون غرر بهـــا ، والى عمل القوادين او المسمسرين للنســاء والى فرض الاقامة على بنات الهوى . وكان من تأثير الاعراف والعادات المعمول بها ان كثيراً ما أدت الى اقدام الفتاة التي تضع سفاحاً على قتل طفلها كما ان الولد غير الشرعي يبقى منبوذاً في المجتمع .

وبدون أن تصبح مساوية للرجل في الحقوق اخذت رفيقته مع ذلك تتحرر شيئاً فشيئاً من هذه المعتقدات التي تحط من شأنها. فباستثناء فرنسا حيث الطلاق اصبح مشروعاً ،هنالك بعض البلدان،معظمها على البروتستانتية،أباحت للمرأة قطع الرابط الزوجي كلما كانت الزوجة في وضع يجلب لها الذل وتتعرض فيه للمهانة . وخلافاً لبرودون الذي لم يرَ في المرأة غير ربة منزل او خليلة ، فقد استطاعت المرأة على اقدار متفاوتة من النجاح ان تفتح أمامها أبواب الجـــامعة والمعاهد الثانوية ، كما فُتحت امامها ابواب المهن الحرة والوظائف العامة . فاذا ما أثرت حركة تحرير المرأة التي قامت في فرنسا بعض النســاء امثال جورج صاند وفلورا تريستان وبولين رولان ، الحذر والتحرز اكثر من التعاطف والتشجيع ، فالدعاية التي قامت بها الآنسة فولستون كرافت ومطالبة جون ستيوارت مل بالاقتراع العام لم تذهب سدى . فقد اعترفت كل من انكلـــترا والسويد بهذا الحق ولو حصرته الاخيرة منها بالانتخابات البلدية . ومساهمة المرأة في تولي ادارة الشؤون العامة ، امر لا يثير اي اعتراض من قبل الذين لا يعترفون لها بحق المساواة المـــدنية فحسب ، بل ايضاً يقرون بمقدرتها في كل ما يتعلق بشؤون التعليم والصحة .

فاسمع ما كان يصرح به الاب فنتوراه بهذا الصدد : « الحضارة هي قبل كل شيء احترام المرأة » .

خطر السلام القائم على التسلح وضآلة مكاسب القانون الدولي

كان اميل جيرار دين يردد : « المدنية هي السلام » ثم يضيف قائلا : « الضمانة الوحيدة ضد القوي هي الوضع الذي تكون عليه المدنية » . في هذا يكمن الالتباس المخيف. فقبل عام ١٨٤٨ كان الحلف المقدس يتحكم بالدول الصغيرة اكثر مما كان يشركها في الحكم . ومع ذلك ، فاذا ما راح بعض المفكرين امثال جوزف دي ميتر وفخت وهيغل يعتقدون بأن لا مندوحة عن الحرب ، فقد راح كثيرون غيرهم كالكويكرز واتباع بنتام ، والسان سيمونيين ، وتلاميذ فوربيه ومازيني ورودون يجهدون تأليف بعض تشكيلات فدرالية من شأنها ، في نظرهم ، ان تضع حداً للحروب . وراح المطالبون باطلاق حرية التبادل التجاري ، في كل من انكلترا وفرنسا يدلون بدلائهم في هذا الاتجاه . فاجتمع في باريس ، عام ١٨٤٩ ، مؤتمر السلام دُعي هوغو لترؤسه وأسندت نيابة الرئاسة فيه الى كوبدن ، وخرج المؤتمرون بالشعار التالي : « الولايات المتحدة الاميركية » ، وهذا الشعار نفسه كان شعار الجريدة التي اصدرتها عصبة السلام والحرية في اعقاب مؤتمر عقد في ما بعد ، في جنيف عام ١٨٦٧ .

وعادت الحروب للظهور من جديد ، ولم تلبث اوروبا ان عاشت في ظل سلام مسلح الحَكم فيه ألمانيا البسماركية ، اذ راح المنتصرون في حرب ١٨٧٠ يدعون لانفسهم انهم حماة النظام الجديد في اوروبا ، بينما الفتوحات التي حققوها ، والقوة العسكرية التي تمت لهم ، أولتهم السيطرة على اوروبا. هذه السيطرة التي رفض البعض الاعتراف بها بينما خضع لها البعض الآخر ، وشجعت السباق الى التسلح ، وهو سباق كان يكلف اوروبا من خمسة الى عشرة مليارات فرنك كل سنة وكان يستدعي للخدمة العسكرية الفعلية من اربعة الى خمسة ملايين جندي بصورة مستمرة. وقد رضي بعضهم بهذا الوضع معترفين مع سنشر بأنّ السلم المسلح هو شر اخف وله بعض الحظ بالاستمرار والديمومة ، مهما بهظت تكاليفه ومهما بدا سريع الزوال ، في الظاهر .

وفكرة اوروبا واحدة موحدة ، مسيحية ، ملكية كما تمنوها في بدء الامر ، عاد لتبنيها دونما نجاح يذكر ، انصار الجمهورية واصحاب حرية الفكر الذين انضم اليهم ، فيما بعد المطالبون بحرية التبادل التجاري . وفي اعقاب حرب ١٨٧٠ ، اخذت الحركة الاشتراكية تدعو الشعوب للوقوف في وجه مستثمريهم من اصحاب رؤوس الاموال ، وان يضعوا فوق كل اعتبار ، تضامن العمال العام وتآزرهم ، بينما مضت الكنائس والنفوس المؤمنة تبتهل وتضرع الى رب السلام ، لاشاعة السلام على الارض . وراح الفقهاء المشرعون والدبلوماسيون يبسطون للناس مفهوم الحق العام ويعملون على توطيده . وتألفت جمعية تتولى ابراز هذا الحق والتشريع له والتشيع حوله ، كما ان اعضاء المعهد الدولي للقانون اخذوا بعقد مؤتمرات عامة سنة بعد سنة ، وراح مفكرون امثال لوريمر وبلونتشلي ومارتنز وفيور يطيلون النظر فيما عسى ان تكون عليه

المنظمات الفدرالية او الكونفدرالية ، كما رفع ازمبير بذلك تقريراً عاماً رفعه الى مؤتمر العلوم السياسية عند انعقاده في باريس عام ١٩٠٠ .

وقد أثارت فكرة التحكيم الدولي مخاوف وظنون الدول التي كانت تخشى ان تفقدها هذه المنظمة شيئاً من حقوق السيادة والاستقلال . وعبثاً راح مؤتمر باريس المعقود عام ١٨٥٦ يوحي بالرجوع الى وساطة او تحكيم دولة صديقة ، قبل اللجوء الى السيف . وعبثاً ذهبت النتائ . ج الطيبة التي أسفر عنها مؤتمر جنيف المعقود عام ١٨٧٢ للنظر في الاختلاف الناشب بين انكلترا والولايات المتحدة الاميركية بخصوص مقاطعة ألاباما ، فأثبتت هذه القضية ان الحكم الصادر عن مجلس العدل الدولي يمكن تطبيقه . ولعل اهم القرارات التي صدرت عن محكمة العدل هي تلك القرارات التي رمت الى تحسين اوضاع الحروب والتخفيف من ظروفها وويلاتها ، من ذلك مثلاً مؤتمر جنيف الذي عقد عام ١٨٦٤،والذي دوّل الخدمات التي توفرها مؤسسة إسعاف عرفت بالصليب الاحمر الدولي ، والخدمات الصحية في الجيش ، واخيراً التوصية التي اتخذها مؤتمر بطرسبورغ عام ١٨٦٨ ، بعدم استخدام رصاص دمدم .

نتائج حقيرة جداً بالنسبة لهذه المخاطر التي هددت المجتمع الاوروبي المنقسم الى دول وطنية تحافظ جهدها على ما يشبه ان يكون هدنة ، بينما تتهيأ بحرارة واندفاع وبدون انقطاع للمعركة الفاصلة.هناك خطر كبير دائم يتهدد هذه المدنية التي تعمل باستمرار على تحسين وسائل التخريب والدمار ، كما تمن من جهة اخرى ، بأسباب إطالة الحياة .

الفصل الخامس

بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط
الـــدول الاوروبيـــة

« قوام القومية لا يقوم على العرق ولا على اللغة »
(فوستيل دي كولانج - الى ممن - ١٨٧٠)

وجه بارز القسمات وافر التقاطع ، هكذا تبدو اوروبا في ديمومتها . فبالرغم من يســـر المواصلات وسهولتها ، والمكاسب التي حققها هـــذا الطراز السوي ذو الطابع المدني والصناعي ، فقد عرفت غرائز الدول القومية فيها كيف تحافظ على ساتها وكيف تتحامى . وقد شهدت اوروبا عمليات تجمع جغرافي وتركيز قومي . قامت على اعتبارات قومية ، ان لم تفض الى فك اوصال الملكيات الدانوبية والروسية ، ساعدت على التجمع الالماني والايطالي ؛ الا ان تقهقر تركيا وسيرها من سيء الى أسوأ فتح المجال امام « بلقنة » ، شبه الجزيرة الواقعة جنوبي شرقي اوروبا . وقد برزت بعد هذا كله ، مفارقات عدة ، تمركزت في المنطقة الشمالية الغربية المتطور ، وفي المنطقة القلبية الشمالية ، والمنطقة الواقعة الى الجنوب والى الشرق ، المتميزة بضعف حيويتها وقلة نشاطها ؛ وفي قلب معظم هذه البلدان ، بين اوفرها انتاجاً صناعياً ونشاطاً تجارياً وبين هذه المناطق الريفية الطابع والمتأخرة في تطورها . ومن هـــذا التنويع والتباين المظلم في التفاصيل والجزئيات ، تبرز هـــذه الفوارق الكبرى التي تطبع كل عضو من اعضاء الاسرة الاوروبية .

بريطانيا العظمى الشديدة البأس في عهد الملكة فيكتوريا

في عام ١٨٣٨ دشنت الملكة الفتاة فكتوريا عهدها المديد الذي انتهى عام ١٩٠١ . اسم سعيد على ما يبدو . فقد بـــدا العهد الفكتوري كأيمن عهد في التاريخ الانكليزي ، فيه كاد يتحقق سلطان بريطانيا الاكبر ، وسناؤها الاغر .

ومهما بلغ من نشاط انكلترا ، قبل عام ١٨٠٠ ، فطالما ارتفع صوتها بالشكوى من قـلة السكان فيما بينا تجارتها الواسعة واستثمار مستعمراتها الشاسعة الواقعة عبر البحار امنت لها ارباحاً مالية ضخمة ، بينا شكلت اطيانها الضخمة قاعدة متينة لمجتمع عقـاري وارستوقراطي . والحال فقد رأت انكلترا عدد سكانها يقفز بين ١٨٠١ - ١٩٠١ من ١٠ ملايين الى ٣٧ مليون نسمة . فاسمع هتاف كبلنغ المدوي : «، بنيّ ، حملت كثيراً من البنين ولا يزال ثدياي ابعد من ان يجف حليبها » ؛ هذا هو الخصب الذي استثمره ملطوس بخوف ورعدة . فقد هاجر عدد كبير منهم ! اما الآخرون ؟ هذا النسغ الخصب فرض عليها في الوقت ذاته ، تحدياً اكبر وجرأة اشد ، فاستقدمت بحراً مالم تستطع ارض بريطانيا وما تحت الارض فيها توفيره وتأمينه لهذا الشعب المتزايد .

فالمصير الناشىء وضعها طوعاً أو قسراً امام حتمية الاختيار : بين التجـارة او الزوال من الوجود. وامام هذه الحشود المحتشدة في المدن التي توفرت لها كل ما تطمع به وتريد: من اساطيل ورؤوس اموال وتقدم تقني منقطع النظير ، وامبراطورية استعمارية ولا اكبر، عرفت بورجوازية مدينة منشستر ان تقبض بقوة على دفة السفينة وراحت تطلب الخلاص والازدهار عن طريـق التبادل التجاري الحر . وهكذا فقد ضمنت الفوز والاستقرار لفترة نصف قرن ، على الاقل .

وهكذا استمرت انكلترا الشامخة ، القديمة العهد ، في تطورها الصاعد نحو الثروة ، امـام مرأى ومشهد اوروبا التي تهتز وتضطرب تحت الهزات التي تنهال عليها ، وقد قامت فيها ملكية شعبية ونظام تمثيلي مستقر ، وحكومة قادرة على تأمين الديمومة والاستمرار مع محافظتها على الحرية . وبفضل ما عرفت به من احترام عميق للتقاليد المرعية ، استمرت ادارة المنافع العامة في البلاد بيد فريق من سراة القوم أمّن لهم مـا كانوا عليه من غنى وثراء ، الاختصاص واوقات الفراغ . وعرفوا بوصفهم من اصحاب الاقطان الضخمة كيف يتكيفون ، ما وسعتهم الحيلة ، مع تطور الاقتصاد الزراعي المعمول به منـذ القديم ، وتعاونوا ، على اقدار متفاوتة ، مع كبار البورجوازيين الذين يوجهون اللعبة . وقد توفر للبلاد ، رأس مال حكيم ، فطن ، يعرف كيف يناور ويحشد ويستثمر، ليجعل من بريطانيا العظمى ، اكبر سوق تجاري في العالم واغنى بلد دخلاً وطنياً في العالم . وهذا المجتمع البريطاني المثقف ، المهذب الذي توفر له الى حد بعيد ، السكن المريح والاثاث واللباس ، والذي صقلته الرياضة البدنية ونشطته ، والذي تـذوق الاسفار وتعشق اللعب في الهواء الطلق ، يرى ان ثقته بالله وايمانه به لا حد لها ، تزكيها وتبررها فلسفة إنتفاعية لا ينكرها إلا كل متعنت مكابر . وهذا الاشعاع الدظيم الذي عرفته البـلاد في الشعر والقصة والنقد ، وهذه الاصالة التي عرف الفنان الانكليزي ان يكتسبها ، كل ذلك دل بوضوح على ما رُكز في الطبع الانكليزي ، من شعور صادق بالواقع ، وما أوتي من قوة التحليـل ، وما طبع عليه من ميل فطري الى مباهج الطبيعة وما فيهـا من فتنة وسحر ، كما ان إشراقة من الالهام تلت ثنايا الهندسة والموسيقى عند هذا الشعب .

اما المفارقات المتضادة فتطالعك عند كل مأتى عين وعط بصر . فالجغرافية منها تتمثل على أصحها في هذه البقاع السوداء وهذا الريف المخضل المورق ، في هذه المدن التي غشاهـا السواد وجلببها السخام والتي كبرت وتضخمت بسرعة فائقة ، وفي هذه المدن الفـانية التي شابت وهي بعد فتاة في شرخ شبابها.ما الاجتماعية من هذه المفارقات فامثلها هذه الفروق الصادعة الصارخة في تفاوت الثروة والفنى بما لا يتوفر بعضه في اي بلد من بلدان اوروبا الغربية ، مع العلم ان الانسان لا يتمتع في اي بلد كان ، بما يتمتع به الانسان البريطاني من ضمانات عدلية وقضائية . وهذا المشهد بالذات اوحى لماركس ببعض الاحكام النيرة : « ان الصورة التي يوصف فيهـا المجتمع البورجوازي ، هي على ما يبدو لنا ، الحرية الكبرى، لانها تمثل ، على ما يظهر ، استقلال الفرد الناجز » . ومنها ايضاً هذه الفكرة : « اية حرية ؟ وحرية لمن ؟ هي هذه الحرية التي في وسعها سحق العامل ؟ » . وهذا الوضع هو الذي اوحى لصاحبه عنوان كتابه : « حول المحاط انكلترا» الذي اخذ فيه مؤلفه لو درو - رولن ان يتنبأ بسقوط بلد تقوده أقلية من هذا الطراز. ومع ذلك ان ايلاء العمال حق الاقتراع العام ، هؤلاء العمال الذين ينعمون ببعض اليسر ، والأخذ بسياسة نقابية حكيمة ، فطنة ، بتكتلات وحدها بكبح شعب لم تستهوه يوماً الافكار الثورية . صحيح ان الازدهار الذي حققته سياسة التبادل التجاري الحر ، لعب دوراً بارزاً في العزوف عن مسالك الوثبية . فقد عرف كوبدن وبيل ان يؤمنا السلام الاجتماعي لجيل كامل ، عبر الازمات الخانقة التي ميزت الحقبة الواقعة بين ١٨٧٣ - ١٨٩٥ ، الخوف في النفوس . فالى القلق الذي استحوذ على الريف يجب ان نضيف هنا الصعوبات التي اعترضت الصناعة البريطانية ، في كفاحها المرير ، احتفاظاً منها بزبائنها . ففي وجه طبقة من العمال متصلبة في مطالبها ، وفي وجه المنافسة الاجنبية العنيفة ، كان لا بد من التريث والتخفيف من سرعة السير امام إمارات من عسر التنفس ظهرت على البلاد . والقضية الارلندية الحادة اقتضت حلولاً سريعة . وهذه الامبراطورية التي رحبت اطرافها واتسعت جنباتها ، أخذت تتطور كما راحت ادارتهـا تبحث عن صيغة استعمارية جديدة في وقت اظلم الأفق واكفهر .

كفاح الشعب الارلندي

في قلب المملكة المتحدة التي نودي بهـا عام ١٨٠١ ، وقعت الامة الارلندية فريسة امة اخرى ظلمت لها واخذتهـا بالعنف والشدة . وبما انها بلد زراعي يقوم اقتصاده على الأرض ، فقد طلبت ان تنعم بارضها وارزاقها ، وبوصفها بلداً كاثوليكياً ، فقد راحت تطالب بتحررها الديني ، وبما انها ضمت الى بريطانيـا العظمى قسراً وكرهاً منها فقد راحت تطالب بالغاء قانون الاتحاد هذا . فجل ما حققه اوكنيل هو الحصول على المساواة في الحقوق للكاثوليك . الا ان ايرلندا الفتاة هذه ، الرومنطيقية لمجاوزته بعيداً في مطالبتها ، الشديدة بتشكيل دولة ايرلندية مستقلة من ضمنها الاقلية البروتستانتية في مقاطعة الاولستر ، وهو مصير رفضته الاقلية . وبعد لأي قصير وقعت الجائحة الغذائية عام ١٨٤٧ ،

وعقبتها حركة نزوح عارمة جرفت بسكان الجزيرة خارج البلاد والهياج الذي سببه حزب الفانيان السياسي .

اخذت الجزيرة بالانحطاط والتدهور. فقد هبط سكانهــا من ٨ ملايين الى خمسة فهي تعاني كثيراً من الأمية وتتسكع في البؤس والشقاء ، وهو وضع حرص كبار الملاكين على إبقائها فيه . أوتي شعب هذه الجزيرة خيالا جنحــاً وذلاقة في اللسان وعرف باستمساكه بدينه وأرضه ، وبغنى أدبه الشعبي الغاليكي ، وقد تخلت طوعاً واختياراً عن لغتها الام لتتلبس لغة المتغصب ، فانزوت الروح الكلتية في هذه المقاطعات المستوحشة في الغرب التي قسا عليها القدر الغاشم .

وبوادر النهضة يجب ردها اصلا الى هذا التحول الذي طرأ على الارض التي لزرع حبوبــاً فحولت الى اراض للمراعي والكلأ . وقد انتزعت من ايدي الوف الفلاحين الاراضي التي كانت في حيازتهم.غير ان القوانين الزراعية التي اخذ غلادستون المبادرة الى وضعها(بعد ان رضي من قبل بفصل الكنيسة الانكليكانية عن الدولة ، وبالغاء العشر المترتب على الكاثوليك دفعــه للكنيسة الانكليكانية هذه)،جعل من المتعهد الزراعي شبه شريك للمالك،ومن جهة اخرى، فالجهود التي بذلها بارنيل لحل البرلمان، في لندن على قرار فصل في امر سياسة الوحدة، والمطالبة « بوطن قومي » ادخلت الرعب في قلوب البريطانيين ، فسقط المشروع في المجلس، عام ١٨٩٥ . واذا كانت ارلندا عاجزة بعد عن تحقيق استقلالها فقد صرفت جهودهــا لتحسين تربية الماشية على ارضها وطورت صناعتها وسهلت اسباب التعلم لمن يرغب فيها من ابنائها ، وراحت تنمي الروح والاعراف الكلتية في ابنائها ورفعت من مستوى الحياة فيهــا ، وايقظت فيهم الشعور بقواها الروحية . وهكذا ، فساعة الحرية لم تكن لتتأخر فتدق منذرة بالتحرر والاستقلال .

الازدهار يعم سكندينافيا

امام هذا التطور المظلم الذي حققه البريطانيون ، يبدو هزيلا وحريــاً بالشفقة بالنسبة لمصير هـــذه المنطقة المجاورة لبريطانيا في الشمال . في هذه المنطقة المرتفعة من خط العرض ذات التربة الممسكة المفتقرة للفحم، وصاحبة الدور الثانوي المتواضع على المسرح الاوروبي منـــذ القرن الثامن عشر . فالدانمارك والسويد والنرويج التي تتقاسم الجزر واشباه الجزر المتناثرة بين المحيط الاطلسي والبحر البلطيقي ، عجزت تمامــاً عن ان تبعث الى الوجود هذا الاتحاد القديم الذي رأى النور في كلمار . فشبه الجزيرة السكندينافية الكبيرة هذه ، تم توحيدها موقتاً بالرغم من النرويج ، ولصالح السويد . وهذه المملكة السويدية النرويجية لا يتعدى سكانها ٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ومليون دانماركي . فمعدل الوفيات فيها عــال جداً وكذلك الهجرة لاشتداد الفقر فيها ، الامر الذي حمل اكثر من ٨ ملايين سكندينافيا على النزوح تباعاً عن بلادهم الى اميركا ، خلال القرن التاسع عشر .

ليس في وسعنا هنا التبسط طويلا حول الاعجوبة السكندينافية . فبفضل عهــد من السلام استتب طويلا (اذ ان الحرب الدانماركية الجرمانية عام ١٨٦٤ ليست سوى مرحلـــة قصيرة

اضطرب فيها الامن)، بفضل ما تفتحت عنه هذه البلاد من نشاط جم وبعد نظر حكيم . فقد حققت شعوب هذه البلاد درجة من اليسر والازدهار حسدتها عليها شعوب الجزر الواقعة الى الجنوب من البحر الابيض المتوسط . فسر سريعاً بظاهرة تكاثر السكان في هذه البلاد . فالثمانية ملايين التي ضمتها عام ١٨٥٠ وال ١١ مليون التي بلغتها عام ١٩٠٠ ، بقيت ارقاماً متواضعة . وهذه الزيادة الملحوظة في السكان يمكن ردها بالاكثر الى هبوط قوي في معدل الوفيات منها الى ارتفاع نسبة المواليد .

وبخلاف البريطانيين لم ينزح السكنديناڤيون عن مواطنهم في الريف اسوة منهم بالارلنديين. فلم يزد عدد السكان في كل من كوبنهاغن وستوكهولم على ٤٠٠ الف نسمة ، عام ١٨٩٠ . اما كرستيانيا(اوسلو اليوم)فلم يزد عدد سكانها على ١٥٠,٠٠٠، ولعل ابرز حادث ميز تاريخ هذه البلاد الحديث ،قيام الثورة الريفية .صحيح ان جبال النرويج الشرقية اقتصر نشاط سكانها على مقايضة محاصيلهم الزراعية .فالاسر القديمة فيها لا تزال تتمتع بالسيطرة على مقاطعات غودبرنسدال واوسترودال . فالمنازل هناك معتمة ، والبياضات او الملابس الداخلية نادرة والجرب متفش ، الا ان زراعة البطاطا اتسعت وعمت اطراف البلاد ، كما اخذ الناس يعولون في غذائهم على السمك المملح. وقد جرت في الوقت ذاته ، حركة لتجميع بين القطع الزراعية الصغيرة بينما انصرفت حركة عارمة من الاصلاح الزراعي الىتوزيع الاملاك الضخمة فنشطت في البلاد طبقة من الفلاحين انصرفت لاستغلال مزارعها المشتتة التي كان لها من الاتساع مع ذلك ، ما جعل منها وحدة إستثمار مستقلة اخذت تزدهر ، محولة في تطورها الى اراض زراعية او صالحة لتربية الماشية ، الكثبان الرملية والبطائح التي تكونت بفعل الانهر والجليد . وحرية التبادل التجاري وجهت اقتصاد البلاد نحو تنفيق المحاصيل والبيع ، وفتحت امام محاصيلها من الحنطة واللحوم والبيض والزبدة الاسواق البريطانية ، كما شجعت تصدير خشب الشوح . واذ كانت السويد عاجزة عن منافسة الدول الكبرى الصناعية ، كما كان شأنها في السابق ، فقد اخذت ليس في بيع ما لديها من فلز الحديد العالي القيمة فحسب ، بل ايضا اخذت في صنع ادوات وآليات تقنية متطورة ، ازدادت نشاطاً فيها بعد بفضل الشلات ومساقط المياه وكلها قوات محركة تذكرنا من قريب بهذه الطاقات الضخمة التي تتوفر لكندا .

والدنمارك الواقع عند مداخل البلطيق والذي ضعف مركزه ووهن شأنه راح يقوي من قاعدته الزراعية .فقد ساعدت حركة التطور التي اخذ باطرافها على التخفيف من حدة معارضة التاج والانتها ، كما خففت من معارضة النبلاء والاكليروس اللوثري . وبعد ان فقد مقاطعة شلسويغ هولشتاين،اضطر الملك كريستيان التاسع الرضوخ لمطالب الاحرار في الوقت الذي دعم فيه سلطته ونفوذه بهذه المصاهرات التي عقدها مع العائلات الملكية. الاخرى وقامت في البلاد، حركة ادبية وفنية وعلمية حلت بعيد شهرة عاصمة السويد الجبلة .

وعلى غرار السويد فقد بقيت بعيدة عن لعب اي دور بارز .ولما كانت الدنمارك بين الاكبرصوت

مكانتهم وهيبتهم الدنمارك ، فقد كان بامكان ابناء وحفدة برنادوت ان يتولوا ادارة الاتحاد السكنديناڤي . ولكن الحركة السكنديناڤية التي صاغتها الاوساط العلمية في البلاد ، جاءت على شاكلة الحركة الجرمانية والسلافية . كان اوسكار الاول مختصاً بالقضايا الجنائية ، فقد صرف همه الى مد البلاد بشبكة من الخطوط الحديدية وباصلاح قوانين البلاد ومكافحة المسكرات وفي عهد الملك شارل الخامس عشر ، خلعت السويد طابعها الارستوقراطي لترتدي طابعاً متحرراً تقدمياً فأنشأ في البلاد مجلساً نيابياً حديثاً ، حل محل ، طبقات ، النظام القديم ، وعارض بشدة الاعتمادات الحربية ، وتجملت ستوكهولم وخيم على هـذه السويد النشيطة التي اطلعت اركسون ونوبل ، جو من الاحترام والتقدير العالميين. ان ادخال الخط الحديدي على البلاد والتلغراف لم يقتل فيهم ذوق *Stamning* الذي عرف ان يؤمن الانسجام بين الكائنات والاشياء . واقـر الملك اوسكار الثاني حق الاقتراع العام ، كما كان عليه ان يواجه بفطنة ، الحركة القومية التي هزت النرويج .

اما النرويج فلم تكن تشعر قوياً بهذه الروابط التي شدتها العرش في السويد ، وذلك لما بين البلدين من تباين في الامزجة وفي المصالح . والمجتمع النرويجي الديموقراطي القاعدة تألف اصلاً من اقوام احترفوا الصيد وعـولوا في معايشهم على البحر ، فابعدوا عنهم المواطنين الدنماركين كما قضوا على كل نفوذ بينهم لطبقة النبلاء ، عيونهم وولاؤهم هي باتجاه مجلسهم التمثيلي . شواطئهم المفتوحة بطولهـا على البحر ، واستثمارهم لمطـارح السمك الغزيرة الواقعة على مقربة منهم ، ونشاطهم كبهاسرة نقل بحري ، كل ذلك مكنهم من تفادي الفقر والعوز . فقد كان لديهم عام ١٩٠٠ اسطول تجاري حل في المرتبة الرابعة بين اساطيل العالم التجارية الكبرى ، وبزّ الاسطول الفرنسي من هذه الناحية . وبحق تفاخرت الامة النرويجية بنوابغ رجالها المشهورين امثال غريج في الموسيقى وإبسن في الادب ونانسن في كشف القطب . فاشرأبت نفسها للاستقلال . وحققته دونما صعوبة او هدر دم ، عام ١٩٠٥ ، وأولت العرش اميراً دانماركياً ، اتخذ له اسم هاكون السابع حكم بمساعدة مجلس تمثيلي .

والنخبة الفكرية في السويد التي كانت دومـاً تنزع للفكر والادب الفرنسيين ، لم تلبث ان وقعت تحت تأثير المانيا القوي واقامت معها علائق وطيدة ، مع بقاء بريطانيا العظمى مسيطرة من جهة العلاقات الاقتصادية .

بعث النشاط في هولندا وبلجيكا

سجل القرن الثامن عشر فترة تقهقر وانحطاط لهذا المفترق الجغرافي الذي تألف من البلاد الواطية ، اذ ان بروز بريطانيا العظمى من جهة ، وركود النشاط في منطقة الرين من جهة اخرى ، ألحق الخسف بهذه المقاطعات المتحدة ؛ وبلجيكا التي وقعت تباعاً تحت حكم النمسا ثم فرنسا ، لم تحسن النهوض بمرافقها الزراعية والصناعية فحسب بل لم تأت شيئاً لتشجيع وتنشيط الحركة التجارية في مرفأ انفرس.

ولقد شاهدنا رسيا من النشاط خلال عهد اورانج – ناسو وملكها على البلاد . الا ان الشراكتين الشعبين عرفت اياما صعبة بعد ان غلب على البلجيكيين الشعور بأنهم راحوا ضحية مؤامرة سياسية . وقد تركت هذه العلائق المسمومة شيئا من اثرها الوخيم عالقا في الاذهان طبع بالعنف الحركات التي ادت الى شطرها شطرين متميزين مستقلين .

الا ان وقوع هاتين المملكتين في صميم اكثر بلدان اوروبا اكتظاظا بالسكان ، اذ زاد عدد سكان بلجيكا على ٦ ملايين نسمة بحيث بلغ معدل الكثافة ٢٠٠ شخص في الكيلومتر المربع الواحد ، كما ان سكان هولندا زاد على خمسة ملايين بمعدل ١٥٠ نسمة الكيلومتر المربع الواحد، مكنها من الافادة الى اقصى حد من مركزها الممتاز ولوقوعها بين بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا مواجهة هذا السهل الممتد طولانيا على سيف البحر ، عند مصب ثلاثة انهر كبيرة ، وتحت تناولها مقادير ضخمة من الفحم ، مما يبعث الهمم والنشاط في هذه الحيوية التي جاشت في صدر هذه العرق الذي جاءت ازمة ١٨٤٧ – ١٨٥١ امتحاناً جديداً له . ان التحسينات ادخلت على التقنيات الزراعية ، واستخلاص اراض جديدة من البحر ومن الرمول ، وهذه الاعمال الضخمة التي اقتضاها إستصلاح المسالك والاقنية النهرية ، والمرافىء وانشاء شبكة محكمة من الخطوط الحديدية والاقبال على التصنيع الآلي ، واعتماد سياسة التبادل التجاري الحر والمشاركة في الحركة الاستعمارية الضخمة واستثمار رؤوس الاموال المتوفرة في كثير من بلدان العالم ، كل هذه العوامل كانت اساساً لهذه النهضة، المادية التي ألمت بمرافق البلاد الحثانة . فالوسط البشري يحمل الكثير من سمات البيئة البشرية في الارخبيل الانكليزي المجاور ، وبما توفر له من اخلاقية تميزت بالفطنة والدراية والارادة الصادقة والاقبال على ما يؤمن الراحة مع العلم ان هذه الشعوب اصبحت اقل قدرة على الخلق والابداع في امور الفكر والفن مما عرف عنها في الماضي ، فانقطعت بكليتها الى عمل دؤوب ،صبور وتمتعت بسلم طويل بفضل ما نعمت به من نعمة الحياد السياسي ان لم يكن قانوناً فبالفعل .

والتطور العظيم الذي اخذت هاتان الدولتان باطرافه وجاء متوازياً بعيداً عن كل اضطرابات مقلقة موجها لها وجهة النظام التمثيلي ، شدها شداً قوياً الى بريطانيا العظمى. من جهة عرش تناوب عليه تارة آل اورانج وطوراً آل ساكس كوبورج ، تشبع عميقاً من هذه الامتيازات التي نمت له ، غير انه اضطر لمصانعة التمثيل الوطني والتواري امامه ؛ وبورجوازية رشيدة، حكيمة حريصة عرفت ان تحتفظ طويلاً بنظام انتخابي اساسه النسبة الضرائبية ، تنكرت الحركة الاشتراكية واخذت باسباب سياسية ابوية متحفظة ؛ هنا في بلجيكا شعب كاثوليكي نشيط متحمس ، وهناك في البلاد الواطية ، كنيسة كلفينية ، متحفظة ، جفول ، يتعاونان في مناهضة الحركة العلمانية التي جاشت في صدر احرار الفكر من البورجوازيين . وقد ذلب عهد التحرر الترضيات والتنازلات المتبادلة بين الاحزاب الدينية التي زادت نشاطاً وحيوية في توسيع قاعدة الاقتراع العام . وبعد ان انصرفت الطبقة العمالية فيها على تنظيم نفسها واكثرت من انشاء ما

رغب فيه من نقابات وتعاونيات واستجابت لنداء التشكيلات السياسية التي تتلاءم معها، راحت تناهض الامتيازات التي يتمتع بها اصحاب الاملاك العريضة .

ومن مشاكل بلجيكا المعقدة الخاصة بهـا ، انقسام الشعب فيها الى شطرين متباينين لغة وحضارة : شطر فرنسي الطابع والميزة اخذ بالتوسع منذ عام ١٨٣٠ ، وشطر فلمنكي راح يعرض بحماس مطالبه . أفيبدو غريباً ان تفكر بروكسل ، مثلاً ، بانتهاج سياسة اقليمية تذكرنا بالسياسة المحلية الاخرى التي سارت عليها سويسرا .

البيوغرافية الجبلية في سويسرا

هل بامكان الجغرافيا ان تفسر وان تعلل لنا كيف قامت في قلب جبال الألب ، دولة مستقلة ، مع انه لم يسبق ان حدث شيء مماثل لهذا ، لا في شرقي اوروبا ولا في غربيها ؟ استطاعت اقاليم السهل السويسري ان تستقطب حولها الاقوام التي تقطن في جبال الألب وجبال الجورا ، فألفت من مجموعها حمى او ملجأ كان خيراً من هذه الوديان المعزولة عند اطرافها ، معواناً لها لتقي نفسها من تعديات الدول المجاورة لها .

وبعد ان تعرضت لغزو عابر طارىء من قبل الفرنسيين ، استطاعت سويسرا بعد ان بعثتها معاهدة فيينا الى الوجود ثانية وسيجت عليها بالحياد، عرفت كيف تتفادى الحروب التي استهدفت لها واستطاعت رفع مستوى العيش بين سكانها الآخذ عددهم بالنمو والتكاثر .

فمن مليون نسمة عام ١٨٠٠، ارتفع عددهم عام ١٩٠٠ الى اكثر من ثلاثة ملايين. وبلغ من شدة كثافة السكان فيها ان قام ٨٠ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد، وهي كثافة جد مرتفعة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان ثلثي عدد السكان يتمركزون اليوم في مساحة من الارض مرتفعة على الاجبال . وهذا العدد الضخم من السكان الذي طبع البلاد من عهد بعيد ، كان معيناً لا ينضب من المهاجرين واليد العاملة في الصناعة . صحيح ان المدينة فيها جاءت صغيرة على نسبة الناحية او المقاطعة ، مع ان سكان كل من زوريخ وبال في سنة ١٩٠٠ تجاوز ١٠٠,٠٠٠ في كل منها ، الا ان الحرفة المسيطرة على الاسرة فرض قيامها في المناطق الجبلية ، كما ان النشاط الريفي تأثر بعيداً بالحركة التجارية . وهكذا لم تلبث سويسرا ان اصبحت بلاداً تدر الحليب والسمن اثر تضاعف الماشية فيها بين ١٨٥٠ - ١٩٠٠ ، وعرفت ان تكتسب لهـا شهرة عالمية بأجبانها الدسمة وسكاكرها من الشوكولا . واذ كانت تفتقر اصلا للفحم الحجري فقد اتجهت الصناعة فيها الى المصنوعات الدقيقة ، فاستمرت فيها صناعة النسيج القديمة على ازدهارها المعروف ، بينا خلقت المصنوعات الميكانيكية الدقيقة ، عند هـذا الشعب الذي توفرت له تربية مهنية قوية ومراس مهني ، طبقة من الصنعة المهرة . واستثاراً منها لموقعها ولطبيعتها الجغرافية ، عرفت هذه البلاد ان تجتذب الى خطوطها الحديدية ،الشبكة الاوروبية للمواصلات الحديدية فأوجدت لها مركزاً ممتازاً في المجال السياحي . ولم تلبث ان افاقت على عهد من الفحم الابيض بعد ان عرفت كيف

تسخر ما لديها من مساقط المياه والشلالات لتوليد الطاقة الكهربائية . فراحت البلاد تستثمر ثرواتها الطائلة في اعمال التأمين وفي مشاريع انشائية كبرى في الخارج .

وهكذا ازدادت شراكة المصالح وثوقاً وترابطاً وأدت بالتالي الى تقوية الشعور القومي والرغبة المشاركة في العيش معاً في رفقة . وهذا التكتل الذي تألف من هيئات ارستوقراطية وتعاونية من اعيان المدينة ومن مجتمعات ريفية ، هو الاتحاد الفدرالي السويسري ، تبدّى لنا ، عام١٨١٥ وكأنه حلف بسيط ضم الاقاليم بعضها الى بعض. فالتمسك الشديد بأعراف الجدود، ابقى حياً قوياً ، نفوذ الأسر القديمة . ومع ذلك فموكب الديموقراطية يسير دوماً الى الأمام ، بصدق وعزم وعزيمة ، بشيء ملحوظ في التحفظ والاعتدال .ولذا فلا عجب ان تتضح حركة التطور هذه ضد الأقليات والمجتمعات الريفية صاحبة الاطيان ، ضد « اسياد » برن ، وضد المقاطعات الكاثوليكية في الوسط ، بدافع من بعض الفئات الرأسمالية ولا سيا البروتستانتية ، في كل من زوريخ ، وبال ، وجنيف ولوزان . إلا ان هزيمة *Sonderbund* جاءت تبشر بدنو أجل *Staatenbund* وبقرب ظهور *Bundestaat* [(١)]، مع دستور سنة ١٨٤٨ الذي جاء اكثر اخذاً بالنظام الرئاسي الاميركي منه بالنظام الفرنسي، واستمر الصراع قائماً بين السلطة الفدرالية والمقاطعات . وفي اعقاب حرب القوميات أدى تعديل الدستور ، عام ١٨٧٤ الى تقوية الطابع الاتحادي والعلماني للكونفدراسيون الذي تولى توجيهها الحزب الراديكالي الديموقراطي البورجوازي المحبذ لتطوير الخدمات العامة والتوسع فيها ، والمعادي لكل تشريع اشتراكي الطابع او النزعة ، وتحافظ كل مقاطعة بنتهى الغيرة على حقوقها بتنظيم العمل وتنظيم التعليم فيها كما ترغب وترى ، ومساهمة الشعب بالحكم مباشرة تشتد باللجوء الى عملية الاستفتاء العام في كل مرة يتوجب فيها إقرار او التقدم بمشروع قانون هام .

يتمتع السويسري على العموم ، بأخلاق رضية. فقد اشتهر بثقافة فنية وبالعناية بالصحة ، لا يبالي كثيراً بالدراسات الادبية وبالفنون. وهو رصين ، مرح ، عملي التفكير ، ذو طبيعة فياضة.

الديموقراطية الفرنسية بين النظام والحركة

لم يتغير وجه فرنسا جغرافياً . هنالك حادث توسع من جهة الألب ، وقع عام ١٨٦١ ، وعملية اقتطاع من جهة الرين بعد ذلك بعشر سنين . اما التوسع والامتداد فيقع خارج فرنسا ، وعدد السكان فيها يبقى كما هو تقريباً ويؤمن للبلاد كثافة متوسطة ، وهذه ظاهرة تفسر لنا اشياء كثيرة عن الحياة الفرنسية . هل اشتط بريفو - برادول الرأي وذهب بعيداً في تشاؤمه عندما راح يؤكد « نحن الفرنسيين، سيكون لنا من الوزن-بالنسبة للعالم الانكلوسكسوني - مع الاحتفاظ بكل نسبة ؛ ما كان منه لأثينا

---

(١) انتقال البلاد من نظام الكونفدراسيون الى نظام الفدراسيون ، مع بقاء الاصلاح سارياً على الشفاه .

قديماً بالنسبة للعالم الروماني » . فالمقارنة بين فرنسا والمانيا ليست فقط في مصلحة الاولى . فلم يكن عدد الالمان ، عام ١٨٧٠ ، ليزيد كثيراً عدد الفرنسيين ، بينا بلغ عدد الالمان، عام ١٨٩٠ خمسين مليوناً (اي ما نسبته ٩١ نسمة للكيلومتر المربع الواحد) . بينا كان عدد الفرنسيين ، في السنة ذاتها ٣٨ مليوناً (اي ٧٥ للكيلومتر المربع الواحد) . ففرنسا هي الدولة الكبرى في اوروبا التي فتحت ابوابها على مصراعيها امام الهجرة .

وقد ألفت قواعد شعبية ريفية جذور هذه الأمة التي لم تشعر بأي ضغط ديوغرافي . ومع ان المدن الفرنسية تضخمت واتسعت ، فان معظم الفرنسيين فضلوا السكنى في مدن صغيرة نسبياً قامت في محيط ريفي ، واذا ما احتلت باريس محلاً لا يضارعها فيه أحد ، فهذا مرده أصلاً الى ان المركزية الادارية والأدبية تضخمت في الوقت الذي تضخمت فيه مراكز النشاطات الاقتصادية . فبالنسبة للجنوب ، أخذ الشمال ينمو أكثر وكذلك الشرق بالنسبة للغرب . ونلاحظ حركة جذب واستقطاب باتجاه المراكز الصناعية الانكلو جرمانية دون ان يطرأ أي ضعف أو وهن على الروابط الوثيقة التي تشدها الى البحر الابيض المتوسط . وبدون ان نلاحظ أي قطيعة في التقاليد الريفية الفرنسية نرى تحولاً أو بالاحرى انصرافاً بطيئاً عن بعض الاقاليم، يفرغها من سكانها ، لا سيا في الوسط وفي الجنوب الغربي . فالمزارع الذي هو في الغالب صاحب الارض أو مستأجر لها ، لا تتوفر له الادوات والعدة الحرفية اللازمة لارضه ، كما انه لا يستأنس كثيراً لحركات التجدد ويعول كثيراً على النائب ممثله في المجلس النيابي ليتولى الدفاع عن مصالحه ، ولذا نراه يتمسك بشدة بالنظام التمثيلي ، ويرجو من الطبيعة الحالمة التي يعيش في ظلها ومن نظام تمثيلي يرضى عنه ،بتوفير غد له يطمئن اليه ويأتلف مع اطماعه المحدودة. وهذا العامل الذي يعمل في الصناعة الضخمة أو في المنجم ، في هذه المناطق الصناعية الرئيسية ،يؤلف طبقة بروليتارية أخذت تعي مصلحتها الطبقية بينما عرف ان يحافظ على هذه الذهنية الفردية التي هي من مميزات العرق الفرنسي . واكثر من هؤلاء ، الصناعيون واصحاب الحرف الذين يعملون لحسابهم الخاص أو لحساب هذه البيوتات التجارية الكبرى ، وهم متشبعون بفكرة الاستقلال أو نزاعون الى الاضرابات . فالحرف الحرة أو العامة التي يختلف الناس رأياً فيها والتي تتفاوت بينها الاجور ، تستقطب نسبة كبيرة من المواطنين في بلد شقت فيه البورجوازية طريقها الى الوظيفة ، بينما ظل صغار القوم فيها يجاهدون في سبيل البروز والظهور والتقدم . اما هؤلاء الاعيان من اصحاب الاطيان والعقارات الضخمة ، أو من رجال الاعمال أو من رجال الصناعة ، فحبهم للنظام ، والحذر الذي يقابلون به الافكار والنظريات الجديدة ، يعارجه كره لا يغلب لهذه التدابير ولهذه الاجراءات المالية التي من شأنها أن تمس دخلهم ، كما يمقتون تدخل النقابة في تحديد عقود العمل . فبالرغم من اختلافاتهم على الصعيد الفكري وبنأى من كل عقيدة ، فهم لا يرغبون بوساطة الكنيسة الكاثوليكية ومساعدتها ، الا بالقدر الذي ترمي معه للدفاع عن المجتمع . فلا عجب ان تتأثر الحياة العامة عميقاً بمثل هذا الوضع .

هنالك من يدعي ان فرنسا ، في ظل النظام التمثيلي ، كانت دوماً تتردد بين النظام والحركة، هاتان النزعتان اللتان تتقاسمانها اجتماعياً وجغرافياً بحيث ان أقل بادرة تأرجح تبدو على المزاز الانتخابي تكفي للترجيح هذه الكفة او تلك . والواقع ان جمهرة الفرنسيين لا تنزع الى « ردة فعل » ، تؤمن الغلبة للعناصر المحافظة وسلطة البوليس ، كما انها لا تميل الى التعاليم والنظريات الجريئة التي تقول بالتجدد الاجتماعي . يجب على اية خطة عامة او اي برنامج عمل عام ألا يحدث الأخذ به تغييراً كبيراً في الوضع السائد . عي ذهنية صغار البورجوازيين وصغار الملاكين التي تسيطر حتى على طبقة البروليتاريا .

بعد الهلع العام الذي استحوذ على الناس ، سنة ١٨١٨ ، جاء الحكم الامبراطوري تدبيراً احتياطياً سارت معه البلاد من سيء الى اسوأ ، اذ راح يعرض النظام للاعيان والفلاحين ، والعمل لمن يرغب فيه ، ويحاول التسوية بين مبادىء عام ١٧٨٩ والسلطة . ولكن ما ان سنحت الظروف المؤاتية وتوفرت الوسائل ، حتى راح اعيان البلاد يعملون على اقامة حكومة تقدمية متحررة ، فجاءت كارثة عام ١٨٧٠ وسهلت لهم الأمر . وفي اعقاب الكومون ، كانت المطالبة بالعودة الى النظام البرلماني مطلب الأعيان من نصراء الملكية والاعيان من نصراء الجمهورية . إلا أن الفشل الذي اصيب به النظام الادبي ، أدى الى طلوع جمهورية معادية لروح الدين ولرجاله ، قنعت من الأمر بدستور عام ١٨٧٥ ، الذي جاء نتيجة اتفاق تراضٍ بين النزعتين . وموجز القول ان الجمهورية الثالثة جاءت وليدة ارادة أكثرية الشعب الفرنسي وكرساة انقاذ او خلاص طالما تمنوا الوصول اليه منذ عهد بعيد ،ربما منذ عام ١٧٨٩ ،وهو نظام سيكتب له البقاء لأن باستطاعته ان يفرض احترام النظام القائم ، وان يمهد السبيل امام بعض اصلاحات ، بأقل قدر من حكم الجمهورية ، كما يشير الى ذلك ، اناتول فرانس في كتابه : « التاريخ المعاصر». هي اعجز من ان تحقق « المشروعات الكبرى » ، وقد تكشفت عن كونها انتهازية ، "فرصية ، تقدمية معتدلة ؛ وقد خففت من عدائها لرجال الدين ، وتلوم « بتهدئة » ، وتسلك في سياستها الخارجية ، وفقاً لتقاليدها الدبلوماسية ، وتتحالف مع الامبراطورية الروسية وتكشف عن روحها الاستعمارية او الاستثمارية، كما انها خففت من الهزات السياسية تحت ستار عدم الاستقرار الوزاري في الحكم، وتغلبت بقدرة فائقة ، على عدة ازمات ، وراعت بفنها الناعم ، الاعراف المرسومة ، وبشتد منها الساعد على مرور الزمن والمراس الموصول . وطبيعتها الديموقراطية المعلنة لا تمنعها قط ، بسبب نفسه ، من وضع منهاج اشتراكي ، حتى ولا راديكالي .وقد عرفت فترات كان الخطر عليها « في اليسار » ، وعرفت جيداً ، مع ذلك ، كيف تدافع عن مكاسب الاعيان . وقد يفوتها القطار احياناً . فالمحطات والاماكن العامة الأخرى تفتقر كلياً الذوق ، ولكن لا يتطور بالقدر الذي تم لالمانيا وسويسرا . اما المطبخ الفرنسي فهو اطيب المطابخ والذها، والمناخ بعد هذا كله لطيف ، حليم .

وقد عرف الفرنسي ،باقل سرعة من غيره في مجال انتاج المواد الاستهلاكية ، كيف يحافظ على

لذوقه الادبي والفني بسرعة الخاطر عنده ، وذوقه الرفيع وقدرته على التحليل والنقد ، كل ذلك جعله يبرز في مجال الفلسفة التجريدية والنقد التحليلي . ومع انه أقل إقبالاً من جيرانه في الشمال على الاعمال الكبرى ، فهو لا يزال يفيض إلهاماً ووحياً ، في مجالات العلم والفن ، كما انه لم يعرض قط عن ملذات العيش الرضي .

اوروبا المتوسطية وميزاتها الفارقة

لعل فرنسا هي البلد الوحيد الذي يستمد الدفء معاً من المراكز الصناعية في المنطقة الفحمية ومن شمس البحر الابيض المتوسط . فهي تشارك ، عن طريق اللانغدوق والبروفانس ، بهذه الحياة الساطعة التي تنعم بها البلدان المطلة على هذا البحر ، وتأخذ كثيراً من طبائع واخلاق هذه الاقوام المرحة الفرحة ، الطيبة القلب ، التي عرفت ان تقيم لها اسماً بعيد وشهرة عالية في عالم التجارة وفي عالمي الادب والفن .

ويرزح الوضع الاقتصادي في بلدان البحر الابيض المتوسط تحت ثقل الركود والجمود المتطاول . فالتيارات التجارية الكبرى غابت عن ساحته وانتقت عن شواطئه حيث تطالعك انماط من النشاط الصناعي والزراعي ، على الطريقة القديمة . هنالك لقاءات مدهشة يتناوب فيها الروض والبحر . فالصحراء تقف مارداً في وجه الحقل الزراعي ، كما يطرد البدو الحضر ويخنق الجبل الارض القابلة للحرث، فالاقليم يفتقر اصلا للفحم فيضعف النشاط في الصناعات المدنية كما ان المنطقة تفتقر جذرياً لرؤوس الاموال .

وتطل علينا ، مع ذلك ، طلائع نهضة تتلف وتطوير الخط الحديدي كما ان السفن البخارية اخذت تحول ، اكثر فاكثر ، على هذا البحر الذي يتمتع بوضع جغرافي عظيم الاهمية لا سيا ، بعد ان تم شق قناة السويس ، فالآمال التي عقدها ميشال له شفاليه لن تلبث ان تتحقق . فمنذ عام ١٨٨٠ ، اخذ ربع اساطيل العالم يتردد على مرافىء البحر المتوسط ، موزعة في كل مكان ، الفحم والآلة والمنسوجات وتعود منها محملة الخمور والفاكهة والزيوت وفلزات المعادن مؤمنة الاتصال بين اوروبا وآسيا ، ثم ان استيطان الاوروبيين مناطق افريقيا الشمالية ومصر عاد بالنشاط على الحركة التجارية في هذه الاقطار، كما نشطت بالتالي حركة الحج الى الاماكن المقدسة المسيحية والمناطق الاثرية القديمة . وأطل علينا عالم اليونان اولاً ثم عالم ايطاليا،بعد ان زحزحت الأولى عنها ،على غرار اسبانيا والبرتغال، نير الاسلام، كما زحزحت الثانية ،ظل الدولة البابوية ، بعد ثورة عارمة ، جامحة ، بقيادة دولة فارية ، شبيهة بقشتالة وليون ، هي دولة البيامونت .

تأخر اسبانيا والبرتغال عن الركب

مهما بدا الوضع الجغرافي للدول الايبيرية عظيماً فلم يعد يخولها مع ذلك،ايةميزة قط .فهما ابدأ في تأخر وتقهقر واصبحتا في عداد الدول الثانوية ، فاسبانيا لا تفتقر الرجال ، اذ كان عدد سكانها عام ١٨٠٠ يربو على عدد سكان انكلترا ، وقد اوشك هذا العدد ان يرتفع الى الضعفين ، عام ١٩٠١ وهي زيادة

بزّت نسبياً الزيادة التي حققتها فرنسا من هذه الناحية . اما البرتغال التي ارتفع عدد سكانها من ٣ ملايين الى سنة ، فمستوى العيش فيها بقي متدنياً .ما يلفت النظر عندها ، هـذا التفاوت العظيم في توزيـع السكان . فبينما كانت نسبة تكاثف السكان في البرتغال ٥٠ نسمة للكيلومتر المربع ، عام ١٩٠٠ ، كان معدل هذه الكثافة ، في مقاطعة بورتو ٢٢٠ نسمة وفي منطقة بجه في اقليم ظلمنتيخو ١١ نسمة لاغير . كذلك قام في قلب اسبانيا منطقة مرتفعة تكاد تكون خالية من السكان تتكون من هذا الصعيد الجبلي الوسيط ، كما ان اسبانيا الساحلية تغص بالسكان من جهتها. وهذا التوزع الى جيوب او خلايا ، المتحصل عن طبيعة البلاد الجبلية ، من شأنه ان يخلق شيئاً من العزلة بين هذه المناطق ليغذي فيها النزعات والمطالب الاقليمية ، كما كان من شأنه ان يعرقل ، الى حد بعيد ، استثمار الاراضي . فاذا ما شكت اسبانيا دوماً من تصور شبكة مواصلاتها البرية فخطوطها الحديدية التي انشئت متأخرة وكلفت غالياً والتي تم انشاؤها بفضل رؤوس اموال فرنسية ومهندسين فرنسيين ، فقد كانت طاقتها ، من هذه الناحية محدودة للغاية . اما اسطول اسبانيا التجاري فلم يكن بوسعه ان ينقل اكثر من ثلث بضائعها . فالانكليز لا يزالون يسيطرون تماماً على الشواطيء ولهم موطيء قدم وطيد جداً في لشبونة .

اما مواردها المعدنية ، فمعظمها بيد الاجانب والصناعة الاستخراجية تبعث بها الى الخارج (ان ٦٠ ٪ من الاسهم والاعتمادات التجارية في اسبانيا ، سنة ١٩١٢ كانت للفرنسيين) . وهـذا الماضي الزاهي الذي عرفته الصناعات التعدينية ، في شبه الجزيرة الايبرية لم يبق منه غير الذكر الجيد ؛ وهذه الافران والسابك الكبيرة التي قامت في مقاطعة كتالونيا انطفأ الواحد منها بعد الآخر واصبحت أثراً بعد عين . وستطل على البلاد حركة بعث جديدة ، عام ١٨٨٠ تتركز في مقاطعات استوريا وبلباو حيث يتوفر بكثرة العاملان الاساسيان لكل صناعة : الحديـد والفحم . وبالاضافة الى صناعة النسيج التي نشطت في هذه المقاطعات ، هنالك صناعات عديدة أمنت للمنطقة برمتها ، سبقاً ملحوظاً في هـذا المضمار ، لعبت معه اسبانيا دوراً شبيهاً بالدور الذي لعبته المنطقة البدرانية في ايطاليا ، مما ادى بالنهاية الى تقوية النزعة الفردية في المنطقة .

تعبر الجماهير عن رضاها وعن ارتياحها عندما تشبع بطونها . كانت البلاد تصـدر في مطلع القرن الحبوب الامر الذي يحرم المزارعين من هذه المواد الضرورية ، فتضطر الحكومة بالتالي لاستيراد حاجاتها من الخارج لقاء بيعها الخمور والفاكهة . فقد تباينت طبيعة الاقليم فيها ومناطق البلاد . فالمنطقة الشمالية الغربية الواقعة على المحيط الاطلسي امتازت بامطارهـا الغزيرة ، الغارف والاندلس التي يبدو عليها شيء من الطابع الافريقي ، تؤلف ، في مجموعها ، صعيـداً متوسطاً قاسياً ، تلفن لزراعة الحبوب والمزدرعات في هذه الاماكن المطلة على البحر المتوسـط . واستطاعت بعض المناطق المشهورة بزراعاتها الكرمة والخضروات والاشجار المثمرة ان تزيـد من انتاجها بفضل تصديرها هذه الحاصيل الى الخارج ، الا ان التطور العـام في الريف اصيب بالشلل لفرط اهمال الارض ، وعدم العناية بالاملاك واستثمارها كما يجب . وهذا العصر الذي تميز

بكثرة اضطراباته وهزاته الاجتماعية وانتفاضاته السياسية ، حال دون قيام اصلاح زراعي عام، كما حال دون تطور التعليم وزيادة المدارس لمكافحة الامية التي يتسع فيها الفلاح وابناء الريف بالاخص . .

استهلت اسبانيا القرن بحرب مريرة طويلة ضد الغزو الافرنسي والفتح النابوليوني ارزحت البلاد وافقرتها . والحزب التقليدي المعروف في البلاد والذي تألف من كبار المــلاكين ومن الكنيسة ورجال الدين اخذ بصراع طويل مع الحزب الدستوري الحر الذي يساندده الجيش والماسونية والعناصر البورجوازية ؛ كل شيء يقوم على الجيش ويتوقف عليه . فالانقلابات العسكرية المتكررة في البلاد تقيم الحكومة وتقعدها ، وتعلو بها وتنزلها ، وراحت الحزبية العسكرية تتأرجح بين هذا الجانب وذاك ، كما ان النظام التمثيلي اصبح بعد تبنيه ، مجرد واجهة لا غير . والى هذا الوضع يمكن ان نرد بقاء هذه الاضطرابات قائمة في المناطق الشمالية لتغذي الحرب التي اثارتها قضية الملك كارلوس وتأليف الكيانات الاقليمية التي تسن القوانين التي تؤمن مصالحها ، والتي تنزع الى السيطرة على سياسة البلاد وتوجيهها ، والى قيام هذه الفتن المتكررة في الجنوب ، بين اصحاب الاملاك . والجمهورية التي اعلنت في البلاد ، عام ١٨٧٣ ، لم تكن موحدة الاهداف ، ولا متجانسة ، بل كانت فدرالية ، ولذا سهل على الجيش امر تصفيتها . وعندما طلعت على البلاد الحركة العمالية ، نزعت منذ اللحظة الاولى الى الفوضوية فسرت الخوف في قلب البورجوازية واصحاب الامتيازات القديمة دون ان تستطيع اخضاعهم. وجاءت الحركة الاصلاحية التي قام بها الملك الفونس ، الذي اعلن « تمسكه كأسلافه بالكثلكة ، كما اعلن نفسه من جماعة الاحرار المخلصين باعتباره احد ابناء العصر » . فلم يتغير شيء وهدأت الحروب الكارلوسية الا ان السلطة المركزية لم تتوطد قط في البلاد. فالمجالس النيابية لا شأن لها والمرتبات الضخمة أجزلت لكبار ضباط الجيش على حساب موازنة وزارتي التعليم والزراعة، كما بقيت ناشطة ، جياشة الحركة القومية بين اقوام البشر ، واخذت الحركة الكثلانية ، هي الاخرى ، بالاتساع والامتداد ، وتأزمت القضية العمالية . وبالرغم من هذه الامور ، فقد امكن للمؤسسات الدستورية ان تعمل وتنشط ، خلال نصف قرن ، اقله في الظاهر ، بحيث نشط العمل في ظلها، المجتمع القديم الذي بقي حياً وسط مجتمع رأسمالي اكثر حيوية. وحصلت فترة شبيهة من الهدوء في البرتغال في عهد الملك الفنان لويس الاول . وفي احتياجها الشديد للنقد راحت حكومتا مدريد ولشبونة تسنان القوانين دونما طائل . والمشكلة الاساسية المتمثلة بالاصلاح المادي كانت في نظر المفكرين واصحاب الحجى في البلاد ، مرتبطة الى حد بعيد ، باصلاح عام يتناول الاخلاق . وراحت الحركة الادبية الطالعة في اسبانيا تحاول الكشف عن طاقاتها القومية . كما ان الكارثة التي نزلت باسبانيا عام ١٨٩٨ ، وافقدتها القسم الاكبر من مستعمراتها اظهرت للملأ قسوة الجهد ومرارة السعي اللازمين لمقاومة التيار السريع الانحدار . وبدت في البرتغال محاولة لاحلال النظام الجمهوري محل اسرة براغانس الملكية التي عجزت كلياً عن

اخراج ولاية لوزيتانا من الورطة التي تعانيها .

مشكلات المملكة الايطالية الفتية

نقاط التشابه والتماثل كثيرة بين شبه الجزيرة الايبرية والايطالية . فالنمو الديموغرافي اكبر وانشط هنا منه هناك، اذ ان عدد السكان فيها قفز من ١٨ مليونا عام ١٨٠٠ الى ٣٢ مليونا عام ١٩٠١، وبذلك بلغ معدل كثافة السكان ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد ، في سهل البو واودية توسكانا ومقاطعة كومبانيا وعلى سواحل صقلية ، بينما بقيت مناطقها الجبلية وسهولها الجافة التي تركبها الحميات ، قليلة السكان ، تردف بقوة حركة الهجرة الى الخارج والاغتراب . نرى من جهة تقاليد صناعية تحافظ على ما لها من شهرة واسعة . كما نرى من جهة أخرى افتقار البلاد الوقود والمعادن . في البلاد طبقة فقيرة من الفلاحين معدمة ترسف في الجهل والامية وقمت فريسة الملكيات الضخمة ، كما تفتقر البلاد الى رؤوس الأموال . وقد مزقتها نزعات اقليمية تماها عهد طويل من التقاطع والتنابذ ، وحياة عارمة في المدن ضيقة الأفق ، محدودة المرمى والهدف . وقامت بين الشمال والجنوب منافسة حادة ومعارضة شديدة،اذ كان الاول اكثر ارتباطاً باوروبا الوسطى وبالتالي اكثر التصاقاً بالقارة الاوروبية ، شعبه نشيط ، دؤوب على العمل والصناعة ، بينما لا يزال الثاني يحمل سمات القدم والعهد السحيق بتحكم في مساوىء الملكيات الضخمة . فالشمال هو الذي أعطى الوجود السياسي للبلاد وأمن كيان دولة فتية ، قوية عرفت ان تفرض نفسها بمساعدة أجنبية ، مع ان الجنوب كان أقل انقساماً سياسياً من الشمال . الا ان عملية التوحيد بين المقاطعات والافراغ السياسي الجديد للبلاد التي تمت على عجل ، لم تحل كل المشكلات التي اعترضت سير الدولة الجديدة . فالمهمة بدت شاقة ، مرزحة لهذه الدولة الحديثة ذات الامكانات الضيقة بالنسبة لدولة يتكاثر سكانها بسرعة ، كثيرة الاحتياجات .

طلعت عليها هذه الصعوبات في الوقت الذي تمت فيه وحدة البلاد . فالجنوب لم يكن ليرتاح كثيراً للتقاليد الادارية والعسكرية المرعية في تورينو . واسرة آل سافوى التي كانت تتمتع بالعطف والرضى في المناطق الشمالية لجبال الابنين ، كانت ، في الجنوب ، موضوع تشكك وتذمر . وقام في وجه حزب اليمين المناصر للملكية والمضاد للاكليروس في البيامونت ،رجال الاكليروس واصحاب النزعات الاقليمية في شبه الجزيرة الايطالية،والحزب الباري الذي،بالرغم من نزعته المضادة للدين ، كان يشوبه شيء من النعرة المزينية لم تكن باشتراكية ، وكان يجد العديد من الانصار ، بين هؤلاء القاضين في مملكة نابولي القديمة . وراح سكان البيامونت يهاجمون بعزم وصلابة أقوى مما تم لهذه الهيئات الباردية والتوسكانية المتحالفة ، الامتيازات التي تنعم بها الرهبانيات والجمعيات الدينية في هذه المقاطعات التي تم توحيدها ، كما راحت تهاجم حروب المناوشات في الجنوب ، محاولين تأمين التوازن في موازنة الدولة وتوجيه ايطاليا العمل والانتاج . وقد جاءت الاستجابة ضعيفة جداً ، لهذه الحركة الاصلاحية في هذه المناطق التي لا نفوذ فيها للبورجوازية وحيث تسيطر الملكية الضخمة ورجال الدين على الجماهير

الشعبية التي تتحكم في مهاوي الأمية والجهل المدقع . ومع فوز اليسار سيطر على شؤون الحكم في البلاد ، سكان صقلية . فوسموا على ضوء مصلحتهم ، قاعدة التمثيل القائم على نظام الضرائب ومارسوا إفساد الضمائر على نطاق واسع ، وقمعوا هذه الانتفاضات والفتن التي سببتها المجاعة بين صفوف العمال ، وراحوا يطلقون الآمال الكبيرة في الخارج ، وهكذا رأينا كريسبي هذا الماسوني الجمهوري القديم ينهج سياسة التسلط والتحكم بدون ان يتوفر له المال ، ملوحاً بعظمة الرومانيين وحقوق هذا الشعب البائس . وبالرغم من هذا البطء ومن هذا التفاوت الذي ميز التطورات التي اخذ بها الشمال ومقاطعة توسكانا ، فقد أمن ، مع ذلك ، استخلاص الكثير من الاراضي وتوصل لانتاج ٢٤ هكتوليتراً من القمح في الهكتار الواحد مقابل عشرة هكتو ليترات في الجنوب ، كما تطورت فيما بعد كثيراً زراعة الشمندر السكري والحدائق وتربية الماشية . وهكذا زادت بروزاً الفارقات بين الشمال والجنوب ، هذا الجنوب الذي نراه يتذمر باستمرار مدعياً انه مرزح ، مثقل كما ان البؤس الذي يخيم على الجماهير الريفية فيه حملها على المهاجرة بأعداد كبيرة . ان توفر اليد العاملة الصالحة في الشمال واستثمار رؤوس اموال كثيرة معظمها اجنبية ، وروح الاقدام والمبادرة في المجال الصناعي هي من خصائص الشمال الذي عرف كيف يفيد كذلك من القوة الكهربائية مع الطوفان النظام المصرفي فيه كان ضعيفاً وسريع العطب وان سياسة الحماية الجمركية التي سارت عليها البلاد التقدمية لم تفد كثيراً ، وانه الى جانب بؤس الفلاحين والقضية الزراعية يجب ان تحسب حساباً لبؤس الطبقة العمالية ومشكلاتها الحادة

وايطاليا تعتمل فيها تيارات اجتماعية عميقة الغور . وكان من العسير جداً على طبقاتها الحاكمة ان تبني لها قصوراً في الهواء على نفع او جدوى سياسة كبرى تسير عليها ، تكلفها نفقات عسكرية مرزحة ولا على موازنة تشكو دوماً العجز وعدم التوازن . وهذه الطبقات التي تتحلى بالفطنة تولي عنايتها المحاصيل الزراعية والصناعية التي يؤمن بيع انتاجها تأمين ميزان المدفوعات . الا ان ذكريات الماضي الحية في النفوس ، وموقع البلاد الجغرافي حملها على الاهتمام بأسطولها التجاري ، الامر الذي ساعدها على اقامة علاقات واسعة مع دول كثيرة : هذه العلاقات التي ساعدت على استغلال ثروة اخرى تكمن على الاخص في هذه المناظر الطبيعية البديعة والآثار الخالدة الجديرة بكل احترام وثناء ، وقيام الكرسي الرسولي فيها .

اوروبا الوسطى تحت سيطرة المانيا البسماركية

بعد ان خطت خطواتها الاولى نحو الوحدة بمساعدة فرنسا، راحت ايطاليا تتابع طريقها بمساعدة بروسيا متنقلة الى اقصى حد حرب عام ١٨٧٠ .فقد بقيت انظارها مسمرة نحو برلين. وجاءت قضية تونس تشدها اكثر فاكثر بالدول الجرمانية . فشق طريق سان غوتار ثم في الوقت الذي عقد فيه الحلف الثلاثي الذي رموا منه الى عزل فرنسا ووضع روسيا تحت المراقبة .

واوروبا الوسطى التي كانت لاجيال عديدة ساحة حرب ومعارك طاحنة ، اخذت هي

الاخرى ، بالتجمع ، فتقاسمت بلدانها ، منذ الآن فصاعداً مملكتان : هما الامبراطورية النمساوية المجرية التي سيطرت على حوض الدانوب ، والريخ الذي وحّد بين المانيا الشمالية والمانيا الجنوبية تحت سيطرة بروسيا ، وقامت بين الامبراطوريتين منافسة حادة وخصومة عنيفة انتهت بينهما الى شيء من المصالحة تمت معها السيطرة للامبراطورية الالمانية .

الريخ الالماني مجال لتطورات عظيمة

في هذه الحدود الجغرافية التي تمت لالمانيا عام ١٨٧١ وهي تكاد لا تزيد كثيراً عما تم من امثالها لفرنسا ، جاءت المانيا الجنوبية ذات النزعة الاقليمية الخاصة والطابع الزراعي ، والمانيا الوسطى ، الجبلية الطابع ، المتجزئة ، الكثيرة المعادن والاحراج ، والمانيا الرينانية التي احتلت منذ عهد قريب مرتبة صناعية وتجارية من الدرجة الاولى ، وساكس الوافرة الغنى بموارده الزراعية والصناعية ، والسهل الشمالي المترامي الاطراف المعروف بفقره ، الواقع سواده الاكبر في بروسيا والمطل على بحرين، فالغرب والجنوب مناطق كاثوليكية ، بينها الشمال والوسط مناطق بروتستانتية ، في هذه البلاد ثلاثة اقاليم رئيسية : بولونية كاثوليكية الى شرق ، والزاسية لورينية الى الغرب ، معظمها من الكاثوليك ، ودانمركية الى الشمال ، سيطرت في الشمال منها منطقة تميزت باصحاب الاملاك الضخمة ، كما قام في الجنوب والغرب منطقة اخرى ، اصحاب الارض فيها من متوسطي الاملاك وصغارهم . الى هذا كله تنوع كبير : كثير من العادات القديمة واحترام البزة الرسمية والوظيفة في الدولة ، والسلطة على الاجيال،والرضوخ لاوية فعالة والاعتداد بالعمل الذي انجز بالتعاون المشترك والرغبة في المضي بجهود جماعي موصول . فلسنا هنا امام اتحاد كنفدرالي كما هي الحال في سويسرا، ولسنا كذلك امام اتحاد دول كما كان الوضع من قبل في الاتحاد الجرماني . فلبروسيا السيطرة السياسية وملكها هو الامبراطور، كما انه من المتوجب على حكومة الريخ ان تلبي الحدود مع الدويلات التي تسهم في تشكيل *Bundesrath* والرايشتاغ المنتخبين من قبل الامة جمعاء ، كما انه يترتب عليها تأمين الخدمات والمصالح الفدرالية بمواردها الخاصة .

وهذه الوحدة التي تمت في غمرة الانتصارات الداوية هي بحاجة لسلطة قوية تثبت وجودها امام هذه النزعات الاقليمية والتهديدات التي تأتي من الخارج لتأمين الازدهار للبلاد . وبسمارك الرجل الحديدي اليد الذي انشأ الريخ بقيت يده على سكان سفينة الامة يتولى توجيهها وادارتها. فهو منصرف بكليته لترطيد عمله وترسيخه .

ان ارتفاع الطاقة البشرية في البلاد ، بين ١٨٧٠ - ١٩٠٠ ، من ٤٠ - ٥٦ مليون نسمة جعل المانيا تسبه قفزة، فانتشار البسر وتحسن الاحوال الصحية خفض من معدل الوفيات وزاد في معدل امد الحياة دون ان يطرأ اي هبوط او انخفاض في نسبة المواليد التي بقيت قوية . وحركة الهجرة جرفت من البلاد عددا من الفقراء ، والانبال على حركة النزوح الى المدن بلغ من السلعة وقوة تياره بحيث اخذت البلاد تعول اكثر فاكثر ، على الصناعة والتبادل التجاري بعد ان عجزت الارض الممسكة عن تأمين الغذاء واسباب العيش لمن عليها . فبينما كانت البلاد في الامس

الغابر تصدر الحبوب والماشية الى الخارج، فقد اتخذت لها شعاراً الكلمات التالية *Verkehr* و *Handel* هذه الكلمات نفسها التي كانت شعار الاتحاد الجمركي المعروف بـ *Zollverein*

فالعمل الريفي يأخذ بالالباب لنشاطه الجم، محاولا ان يزيد من انتاجية هـذا السهل الرسوبي الممتد طولانياً من مونستر الى سيليزيا فيستصلح هذه الاراضي الرملية والبطاح المعيدة ليجعل منها اراضي صالحة للزراعة تمتد من الـ *Geest* في الشمال الغربي حتى المقاطعات البولونية لتعطي اولى غلالها من البطاطا والشمندر السكري، والخنزير وحشيشة الدينار دون ان يغني هـذا الانتاج عن شراء ما تحتاج اليه البلاد من الحبوب والثمار والخشب. فالارض تتوقع كل شيء من الصناعة ووسائل النقل بعد ان تؤمن لها ما هي بحاجة اليه من الآلات الزراعية والمخصبات، ومثال هذه المحاصيل نتيجة نمو مراكز السكن الكبرى المعروفة بضخامة استهلاكها. وهـذه الصناعة القديمة التي اعتادت ان تنتج عدداً كبيراً من الادوات والمصنوعات الرخيصة، انضمت اليها منظمات تجارية قوية سهل تأليفها توفر رؤوس اموال ضخمة، بعد ان عرفت كيف تفيد من النظام الاجتماعي المسيطر على البلاد ومن جرأة الاساليب العلمية التي هي قيد الاستعمال. وقد برز باكرا، عالم من الاعمال والمشروعات الجماعية رمت الى تأمين حركة بيع وتنفيق ضخمة في الداخل والخارج، على السواء تتناول المنسوجات والمصنوعات المعدنية والمواد الكيماوية والبناء وهي نشاطات توزعت مقوماتها بين مقاطعات رينانيا وساكس وبرلين ومرافىء البحر الشمالي بفضل شبكة ممتازة من الخطوط الحديدية والاقنية المائية من المرتبة الاولى، وبفضل اسطول تجـاري بشر بطلوع نشاط واسع. فالبورجوازي هو الذي في شخص فربتاخ وآل سودرمان وآل هنريخ مان يطبع هذه الرصانة الهادئة الرزينة والثقيلة الوطأة نوعاً.

فأولو الامر يصرفون جهدهم الاكبر لتوحيد العمل واذكاء النشاط في فقير النحـل الذي تمثله الامة الالمانية. فالهدف الاول من السياسة الالمانية هو تسخير الربح في خـدمة الاقتصاد الوطني. ولهذا بذلت الجهود ليس لتوحيد التشريع في البلاد فحسب كتوحيد المكاييل والموازين واصدار نقد واحد موحد لكل المانيا، هو المارك، بل ايضاً رصد مبالغ طائلة للاشغال العامة والنفقات الحربية، فالجيش الالماني يجب ان يكون الاول بين جيوش اوروبا كلها. واذا لم يكن في مقدور الريخ فرض ضرائب على الاشخاص المسجلة اسماؤهم، وهو امر من اختصاص الولايات استطاع مع ذلك تأمين الموارد اللازمة، عن طريق قروض داخلية ورسوم جديدة تفرض على الاستهلاك والرجوع الى سياسة الحماية الجمركية، عام ١٨٧٩، يجب رده جزئياً، الى حاجة الخزينة. فبسمارك في نقاش وحوار لا ينتهي مع مجلس النواب لاقرار الموازنة العامة.

فقبل عام ١٨٧٠ كان ارباب الاراضي الضخمة، المحافظون والمعروفون بعصبيتهم البروسيانية واللوثرية، على خصام وجدل مع الوطنيين الاحرار هؤلاء البورجوازيين الذين يحرصون شديداً على النظام مع تأييدهم النظام البرلماني. وكان بسمارك قد قطع لهؤلاء ولأولئك ضمانة، اذ قبل الاخذ بمبدأ الاقتراع العام، ودون ان يسمح بتطبيق هذا القانون، في جميع انحـاء الامبراطورية

الالمانية اذ ان صلاحيات الرايخشتاغ كانت مقيدة ومحـــدودة ، بينا كان سلطان الامبراطور وصلاحياته واسعة جداً ، فبعد الحرب كان خوفه من الحزب الديموقراطي الاشتراكي الذي برز الوجود من عهد قريب اخف مما سببت له معارضة الحزب الكاثوليكي من قلق ، هــذا الحزب الذي يمكن ان تنضم اليه الاقليات البولونية والالزاس واللورين . فــراح يحاربهم بسياســة *Kulturkampf* يشد من ازره اللوثريون والوطنيـون الاحرار . وفي عام ١٨٧٩ ، قلب ظهر المجن لهذا الفريق الذي طالما ماله ، وعدل عن نظام التبادل التجاري الحر ، وقام بحركة تقارب من حزب الفلاحين المحافظين ، واستخدم ضـد الحزب الاشتراكي ، تارة الضغط والاكراه ، وطورا تشريعاً اجتماعياً لم يكن ارباب العمل يرضون الاخذ به بطيبة خاطر ، على طريقــة المطران كتلير واصحاب الاراضي .

وفي تلك الغضون راحت الازمة الاقتصادية الخانقة تفرض على البلاد في عداد ما تتطلب من مشاريع ، انشاء سوق واسعة تستطيع ان تزاحم الاسواق الكبرى في الخارج. الا ان الطابـــع الاقتصادي بلوقف قبل كل شيء على التنفيق والتسويق وقد عقب عهد الوحدة ، عهد الامتداد عهد « السياسة العالمية » .

وعندما دشن الامبراطور غليوم الثاني « العهد الجديد » ، كان المجتمع الالماني قـــد حقق نجاحات ضخمة في مجال الازدهار والرفاهية المادية صحيح ان نصيب الفلاح والعامل من هذا الرفه كان اقل جداً مما ناله كبار الملاكين وارباب العمال وكبـار الموظفين . غير ان الوفر المفتخر العظيم الذي امكن تحقيقه ، وأهمية رؤوس الاموال التي امكن استثمارها ، كل ذلك جاء دليلا على نمو الطاقة المالية . وحركة تخطيط اصلاح المدن ، انما تدل ، مهما تباينت الآراء من الوجهة الجمالية ، كما يدل التصنيع ، على هذه الإدارة الجبارة ، لحو ما هو ضخم ، عملاق . ومهما يكن هذا التوزيع الموسيقي الذي تم على يد واغنر ، فكل شيء يخضع لمستلزمات الجماعة ومقتضيات الضخامة ، مدنية جماعية . فالانسان فيها يربط نشاطه الفردي بهذه الانشادات الوطنية بقصد تأمين ازدهار المجموع . فالفرد يضيع في المجتمع . وهذا التعاضد والترابط يقتل روح الاصالة في الفرد . فمن رأي نيتشه : « القوة تخبل العقل » ، « ولا يمكن بصورة من الصور ، الادعـــاء والتبجح بتحقيق انتصار الحضارة الالمانية » . فعبـارة القوة توشك ان تسكر المانيا الشاعرة بقيمتها والمشبعة بفكرة تفوقها .

الفصل السادس

أوروبا الشرقية ويقظة الصقالبة

لا نرى قط ان مصائر البشرية جماء منوطة بأوروبا
الغربية وحدها (الكسندر هارزن ـ ١٨٥١)

بروز اوروبا الشرقية

بعد الخط الممتد من هبورغ الى ويستا ، تأخذ القارة الاوروبية بالتكثف والتضخم . فالمناظر التي تتعاقب تحت انظار المسافر تشير بانه يودع ، شيئاً فشيئاً استطالة العالم القديم في الغرب ليوغل اكثر فاكثر في قلب العالم القديم ، حيث تقع العين على اقطار اكثر اتساعاً وجبال شجراء وسهول فسيحة الأرجاء ، وطرق تندر وتقل ، وشبكة من الخطوط الحديدية مخلخلة العرى . وألوان الطعام تتغيرت وتبدلت فحلت العصيدة على الخبز ، وصرنا نلمح الواناً من الطعام بينها الـ *Borszcz* وهو مزيج من الملفوف والشمندر ، والـ *Braga* وهو ضرب من النبيذ المستخرج من الذرة البيضاء يشبه الـ *Kvass* الروسي (بينا يستطيب الالماني صنف الشوكروت مع الجعة) ، وتنامت المدن وتباعدت وهي اقرب الى القصبة من المدينة ، بكنائسها البيزنطية وشوارعها المتعرجة التي يبدو عليها الاهمال . في هذه المجتمعات البشرية ، كثيراً ما نرى تجمعات يهودية عديدة تؤلف احياناً غالبية السكان ، تستأثر بالتجارة واحياناً بالصناعة ، تتكلم اليهودية وتسكن حارات خاصة بها واحياء تنقطع اليها وتعتزل عن باقي الجماعات ، ترك شاغال لنا عنها العديد من الصور والرسوم . وقد تبلبلت فيها اللغات واللهجات المحكية وتنافرت لتصل احياناً الى عشر لغات مختلفة ، كما هي الحال مثلاً في مدينة لفوف [1] كما تعددت الاديان والمذاهب والمعتقدات ، كما في فيلنا (حيث وجد ١١ ملة أو طائفة) . ومدينة بودابست هي بمثابة جزيرة من طراز أوروبا الوسطى في وسط ريف على الزي الشرقي . ودالماتيا تؤلف واجهة من طابع لاتيني هي الباب الخلفي او البراني للبلقان . وهذا التشيكي في براغ يختلف تماماً عن هذا السلوفاكي في تتراس اختلاف الاسرائيلي في فيينا عن ابن دينه في الكربات الروتينية أو في البوكوفين .

وتضم الامبراطورية الالمانية ضمن وحدتها المتراصة جزءاً - بولونيا - من اوروبا الشرقية ليجد نفسه في وسط اكبر واقوى شعب في اوروبا الوسطى . اما في حوض نهر الدانوب فالأمر يبدو اكثر تعقيداً .

---

(١) ـ بالسترك . من هذه المدينة الاخيرة طلع الدكتور زمنهوف الذي وضع سنة ١٨٨٧ ، لغة الاسبرنتو .

الشراكة النمساوية المجرية في حوض الدانوب

على إثر معركة سادوا التي كان من بعض آثارها ان تبعد النمسا عن المانيا وتقضي على الاتحاد الكونفدرالي الذي انشيء عام ١٨١٥، توصلت فيينا الى تحقيق التفاهم مع بودابست ، هذا التفاهم الذي تحولت ملكية آل هبسبورغ القديمة بموجبه الى دولة مزدوجة قامت على الـ *Ausgleich* الذي تم عقده بين الطرفين عام١٨٦٧ ، فخرج بموجبه الى عالم السياسة مسمى جديد هو النمسا ـ المجر أو المجر النمسا على حد سواء، فوضع بذلك مملكة القديس اسطفانس والنمسا على قدم المساواة ، وبعبارة أخرى اكثر لباقة دبلوماسية ، وحد بين ترانسلبتانيا ما وراء النهر وترانسليتانيا عبر النهر .

وهكذا ضمنت اسرة هبسبورغ العريقة لنفسها البقاء وحمل رئيسها لقب الامبراطور الملك، ورمزها النسر ذو الرأسين رمز الاستمرار والوحدة . وبالرغم من قلب الدهر له ظهر المجن ، فقد عرف الامبراطور فرنسوا جوزف ان يحافظ على مركزه ومكانته عن طريق انصراف البلاد الخاضعة له ، العمل المثمر وطول عهده المديد في الحكم . فقد كان عهده عهد حكم مطلق ، خفف من حدته التكاسل الذي طبع حياة فيينا التي عرفت بنعومتها ورقتها . وكان تعلق السكان بالاسرة المالكة تعلقاً قوياً مخلصاً ، كما كان الجهاز العسكري فيها متيناً والشرطة يقظة .

وقد ألف الحوض الدانوبي ، الى هذا كله، مجموعاً طبيعياً متعاملاً متكافلاً لو تناثرت اجزاؤه وتفككت لأنزل ذلك به كارثة اقتصادية تأثر الجميع من عقابيلها الوخيمة . ومع انها ادركت متأخرة عهد التطور الرأسمالي والاقتصادي ، وكانت وسائل المواصلات فيها فقيرة ضيقة ، فلم تبرهن اسرة آل هبسبورغ عن مقدرة تستطيع معها رفع مستوى حياة الشعب المتأخر تحت حكمها . فالجمود الى الغرب ، بعد عام ١٨١٨، ورؤوس الأموال اللازمة النهوض بأسباب التطور وقطع مراحله حثيثاً ، لم يسمح للامبراطور فرنسوا جوزف الوقوف في وجه الاتحاد الجمركي الألماني (*Zollverein*) فاستطاعت بروسيا ان تؤمن لها الغلبة في ساحة الوغى. الا ان الولايات التابعة للتاج بالوراثة كانت غنية بمواردها الجيولوجية وتتوفر فيها يد عاملة لم تكن متطلبة . ولا تزال مقاطعات ستيريا وكارنثيا والنمسا العليا والسفلى ولا سيا بوهيميا تنعم بشهرة صناعية واسعة عرفت ان تحققها منذ عهد بعيد . واملاك التاج في هنغاريا ، وهي املاك ضخمة واسعة جداً ، تردف بمواردها الزراعية والراعوية الغنية ، الغلال والمحاصيل التي تعطيها سيليزيا من الحبوب والشمندر والمواعي . وهكذا يمكن اعتبار هذه الشراكة الثنائية أو المزدوجة ، سوقين استهلاكيتين تكمل الواحدة الأخرى .

هنالك ، مع ذلك ، فوارق ونزعات لا بد للمؤرخ من ان يلحظها ويأخذها بعين الاعتبار . فالصناعة، في النمسا، كانت بحاجة لسياسة حماية جمركية ، ومثل هذه السياسة لم تكن هنغاريا تتمناها أو تريدها باعتبارها بلداً مصدراً للحبوب وللمحاصيل الزراعية . ولذا كان لا بد من التوفيق بين مطلب الزراعيين واصحاب رؤوس الأموال الصناعيين . وهذا ما رمى اليه بالفعل الاتفاق الذي توصل الجانبان الى عقده، واعادة النظر فيه كل سنتين، على ضوء الاوضاع الراهنة .

ومقابل الفوائد التي أمنها هذا الاتفاق الحبي رأت النمسا تعويضاً لها عن تخلي المجر عن حقها في فرض تعرفة مرتفعة . وفي أثر أزمة عام ١٨٧٣ التي جاءت أخف وطأة على المنطقة الوسطى الشرقية منها في تلك المنطقة الصناعية الاكثر تطوراً، فقد انفتح في وجهها باب البلقان بفضل الاتفاقات التي تم عقدها مع كل من صربيا ورومانيا ، وبفضل التعرفة الاكثر رعاية عرفت مرافىء وموانىء البحر الادرياتيكي أمثال تريستا وفيومي ، ازدهاراً كبيراً .

فكبار الملاكين والبورجوازية هما القوتان الاجتماعيتان اللتان نسجت وقائع تنافسهما حيناً ، واتفاقهما احياناً ، وتطوراتهما ، تاريخ هذه الملكية الثنائية . فالارستوقراطية التشيكية الالمانية في بوهيميا ، والبولونية في غاليسيا ، والمجرية في هنغاريا أحكمت السيطرة على مداخل السلطة ومخارجها . فقد عرفت ، بما تم لها من ثقافة وخبرات واسعة ، كيف تتخذ لها بدأً من الاستثمارات الكبيرة لادخال التصنيع الآلي الى البلاد ولتطوير الاساليب الزراعية فيها . فهذه الارستوقراطية تصدر الحبوب وتشحنها الى الخارج بينا عدد كبير من سكان البلاد يتضورون جوعاً ويضطرون النزوح عن البلاد . صحيح ان هبوط اسعار المواد الزراعية ترك أثره العميق على الارباح وعلى ريع الاملاك ، ولذا راحت الاسر الكبيرة العريقة النسب تطالب بالحاح ، اكثر من أي وقت مضى ، ان توقف عليها الوظائف الكبرى ، كما اخذت تهتم ، من جهة أخرى ، بالنشاطات الصناعية .

وعندما اشتد ساعد البورجوازية اخذت بهاجمة المؤسسات الارستوقراطية والاكليريكية ، كما اخذت تطالب بعلمانية الدولة وتحقيق الوحدة الادارية التي من شأنها ان تيسر كثيراً المعاملات الرسمية ، فقد استطاع اليهود ان يؤمنوا سيطرتهم على المهن الحرة وعلى مرافق التجارة في البلاد (ففي الجنازات والمعاهد العليا اربعة من اصل خمسة هم من اليهود الامر الذي شحن النفوس بعداء مستحكم للسامية) . وبدافع من رجال الفكر والادب هب على البلاد تيار اشتراكي قوي وجد له عدداً من المؤيدين والانصار بين العمال في فيينا والمراكز الصناعية الاخرى . ووقعت اضطرابات وقلاقل اجتماعية ، سنة ١٨٤٨ ، ومنذ ذلك الحين رأت الملكية الثنائية نفسها عرضة للاضرابات والفتن الريفية .

فقد ألفت العناصر الموجهة في قلب الطبقات العالية، اقلية ضئيلة رفلت بجميع اسباب الراحة والرفه في المجتمعات الكبيرة وفي القصور . فهل من داع الى رهن اراضيه وأطيانه هذا المالك الكبير الذي كثر لديه الحشم والخدم ، والذي تزخر مائدته بأطايب الوان الطعام وترفل بالانبذ الفاخر من الشراب ، والذي تمّ له من طاقم الفضة ومجموعات السجاد والطنافس والخيول الأصيلة والعربات ، والذي يقيم له الحدائق والرياض الغناء (فالاملاك التي تخص الارشيدوق جوزف في كونتية فيجر والتي نسقت على الطراز الانكليزي حدائقها وبساتينها ، تمتعت بشهرة واسعة من حيث تنسيقها) ويقوم في فيينا مجتمع تليف ، مهذب ، لطيف المعشر ، متساهل ، تعشق الادب الرفيع والموسيقى واشرأبت عيناه نحو المانيا والغرب .

وبالرغم من هذا فقد عانى الامبراطور الملك من صراع القوميات . فكبار الامراء وبورجوازيو بوهيميا او غاليسيا هم على استعداد التفاهم مع فيينا على شروط معينة . والحقيقة التي لا مماراة فيها هي ان العنصر الجرماني الذي طبع عميقاً المؤسسات والاذواق ومناحي التفكير في الامبراطورية النمساوية القديمة لم يجر اتفاقه مع العنصر المجري الا ليتمكن من الصمود في وجه الدفع السلافي . « صونوا حدودكم نحافظ على سلامة حدودنا » كان يردد واحد من هؤلاء الذين قادوا المفاوضات التي ادت الى هذا الاتفاق [1] وهذا التفاهم الالماني المجري آل في نهاية المطاف ، الى التحالف مع برلين وبالتالي الى احتلال البوسنة والهرسك ، وكلاهما من الاراضي السلافية السكان ، فالامبراطور فرنسوا جوزف لا يلبث ان يصبح ، بعد قليل « الرفيق الجيل » للرايخ والمجري وسيط بينهما .

في حوض الدانوب ، كما نرى ، ناجحون وفاشلون . ولعدم قيام شكل فدرالي – قد يكون من المستبعد تحقيقه – بقي التعاون بين مختلف القوميات الواقعة تحت سيطرة آل هبسبورغ .

من البحر البلطيقي الى الادرياتيكي
قوميات مستعبدة تتململ وتتمطى

والقرن التاسع عشر الذي تميز بالاستقرار جغرافياً في اوروبا ، ساعد على ترسيخ التقسيمات الجغرافية الكبرى التي رفعت الى الشرق منها ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر لمصلحة الملكيات الثلاث : النمساوية والبروسيانية والروسية . فالاتفاق الذي تم عقده عام ١٨٦٧ بعد ان حدد الاهداف وعين المهام الموكولة لكلا الطرفين ، : إضعاف « الاجلاف » قطع سيلزيانيا : البولونيين والروتين في مقاطعة غاليسيا ، وباعد بين السلوفاك والتشيك والسلوفين والصرب والكروات في مقاطعة دلماتيا عن اخوانهم في الدم : الكروات والصرب في هنغاريا ، واحتفظ للامبراطورية النمساوية بايطاليي الترول وتريستا وبرومانيي بوكوفينا ، كما ادمج رومانيي ترانسلفانيا في ترانسلفانيا ، كل ذلك عملاً بالقول المأثور : « فرق تَسُد » .

بقيت المقاطعات البلطيقية الواقعة الى الشرق ، خاضعة منذ الاجيال الوسطى للنفوذ الجرماني . فالتجارة سيطر على مرافقها الالمان فجعلوا من مدينة ريغا مدينة حلوة جميلة ، كما استولى البارونات الالمان على الاراضي الزراعية . والتعليم في جامعة دوربات (تارتو) كان يعطى بالالمانية . الا ان عدداً من كبار الملاكين اضطر لبيع املاكهم في أثر عملية الاصلاح الزراعي الذي قام بها الروس ، عام ١٨٦١ . وهكذا ظهر في البلاد ، من جهة ، طبقة من صغار الملاكين ، كما ظهرت ، من جهة ثانية ، طبقة بورجوازية محلية ، بفضل ظهور الخط الحديدي وتطور المرافىء البحرية في هذه المنطقة . وقد نتج عن ذلك ، يقظة بين القوميات ابتدأت في مجال اللغة ثم تطورت الى المجال السياسي . فاذا ما رأت الحكومة الروسية ان توجه حركة اليقظة هذه ضد التيار الجرماني ، فلم تكن لترمي من وراء ذلك ، الى اطلاق حركة انفصالية ، بل

(١) في عام ١٨٨٠ ، هنالك ٩ ملايين الماني (منهم ٨ ملايين في النمسا نفسها) ، و٦،٥ ملايين مجري ، مقابل ١٧ ـ ١٨ مليون سلافي ، و٣ ملايين ونصف مليون روماني وايطالي .

رمت الى تشجيع حركة « رويس » هذه المقاطعات وطبعها بالطابع الروسي وذلك بتحريم استعمال اللغات واللهجات الاقليمية في التعليم والمنشورات الرسمية .

وفي غراندوقية فنلندا الظلية الاحراج والغابات القاسية المناخ والفقيرة والتي تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري والثقافة الروسية والفورية التي تغلغلت بين نبلاء البلاد والبورجوازية انتشر كثيراً بين سكان الريف الذين يتكلمون اللغة الفينية . وقد ترك الحكم القيصري هنا الشعور القومي ان ينمو ويشتد بحرية ، وذلك لاضعاف النفوذ الالماني المسيطر من عهد قريب ، كما ان الامبراطور اسكندر الثاني جرد الاكليروس البروتستانتي من حق الاشراف على التعليم ، وراح يوسع من الحريات المحلية بهذا المرسوم الذي اصدره عام ١٨٦٩ في اعقاب مجاعة مخيفة تعرضت لها البلاد . وقد اخذ الاقتصاد الفنلندي يتطور مع استثمار صناعة الخشب والصمغيات والقطران وصنع رب الورق وعيدان الكبريت . ونما عدد السكان فيها بسرعة . واذا اخذت الحكومة الروسية تنظر شزراً الى امتداد الحركة الوطنية واستفحالها في المنطقة ، فقد آلت على نفسها ان تربط بالامبراطورية الروسية ، سوقاً ناشطة ومقاطعة لها اهميتها الخاصة من الوجهة الستراتيجية ، تقع على قيد غلوات من ابواب عاصمتها . وسيصادف سوومي اوقاتاً عصيبة جداً في أخريات هذا القرن .

فكيف السبيل لعمري الى بعث الحياة في بولونيا وهي على ما نرى مقسمة الى ثلاثة أجزاء لكل واحد منها محور جذب وسيره الخاص ؟ غير ان الامة البولونية المتزايد سكانها ، الجامدة ، الفتية ، تحافظ على وحدتها الروحية . فهذه الآمال الرومنطيقية التي راودت خيالها الجموح ، ذهبت في الارض هباء منثوراً بعد الفشل الذريع الذي أصاب الثورات التي قامت بها في المنطقة الروسية ، عام ١٨٣٢ و ١٨٦٣ ، على اثر الغاء جمهورية كراكوفيا ، عام ١٨٤٦ . هذا الكيان المهلهل الذي بقي من الاستقلال البولوني . فالارستوقراطية البولونية فشلت تماماً في مقاومتها الدول الثلاث التي تقاسمت بولونيا من قبل ، كما لم يكن بالامكان مجابهتها بنجاح . وجل ما أطل من أمل مرتجى هو احتمال قيام تعاون موصول بين كبار ابناء غاليسيا وآل هبسبورغ ، كما ان حركة الاغتراب السياسي الكبيرة في جميع أرجاء اوروبا عجزت في محاولتها إثارة أي رغبة في تعديل معاهدات ١٨١٥ ، كما ان انتصار بروسيا على فرنسا عام ١٨٧٠ ، والتفاهم القائم بين الاباطرة الثلاثة ، أبعدت عن الانظار مثل هذا السراب الغرار ، ومنذ ذلك الحين ، غلبت على القائمين بالحركة « النظرة الواقعية او الموضوعية » ، أي النظرة الى الواقع بالعين المجردة ، أي محاولة الصمود في وجه كل حركة ترمي الى « جرمنة » و « رويس » البلاد ، والاقبال على تقوية القوى الحية الناشطة في البلاد ، الفكرية منها والمادية . ومنذ ذلك الحين اخذت تبرز الكيان بولونيا اكثر اخذاً بأسباب العصر ، واكثر إقبالاً على أسباب التصنيع ، مع العلم ان نشاطاتها الرئيسية تسيطر عليها العناصر اليهودية والالمانية . كذلك اخذ يبرز الضمير الوطني اكثر تحرراً بين البورجوازيين الاحداث واكثر اشتراكية بين رجال الفكر والادب واكثرهم من طبقة

البروليتاريا الذين راحوا يعولون على الدور الذي ستلعبه ، في المستقبل الطالع ، حركة عمالية ناشطة . ففي الشطر الالماني ، راح الفلاحون ورجال الاكليروس الكاثوليكي يقودون حركة الصمود في وجه عملية « جرمنة » البلاد الواسعة ، في المدرسة والريف . أما في الشطر الروسي فقد آلت حركة « ترويس » البولونيين الى نشر الامية بين جماهير الشعب . وعلى عكس ذلك برز الوضع في غاليسيا ، أي في الشطر النمساوي حيث سيطر جو حلم خفيف الوطأة ، اذ تمتعت المقاطعة بشيء من الاستقلال الاداري والثقافي جاء يوثق من روابط الاتفاق الذي شد الروابط بين أعيان المقاطعة من جهة ، وبين حكومة فيينا التي أخذت تشجع تدريس البولونية في مقاطعة لفوف (ليوبول) ، هذه المقاطعة التي ألفت مع كراكوفيا ، مشغلاً للآداب ومنارة العلوم والفنون. وهذه البرودة التي دبت الى العلاقات بين روسيا وبين الامبراطوريتين المركزيتين الاخريين ، ساعدت بدورها على بعث الامل في قرب انبعاث بولونيا الى الوجود .

وتاريخ الاقلية التشيكية اخذ مجراه ضمن المملكة النمساوية . ففي بوهيميا نفسها نرى العنصرين الالماني والتشيكي تارة على وفاق وطوراً في خصام . فالاول منها، اي الالماني ، يحتل المنطقة الجبلية الغنية بمعادنها واحراجها ونشطت فيها ، كما هي الحال في ساكس وفي سيليزيا ، صناعة النسيج. أما الثاني، فيسكن التجويف الجغرافي الذي يحيق بالعاصمة براغ التاريخية، وبمدينة بلزن المعروفة بصناعتها الحديدية ويطالب عالياً «بحقوقه التاريخية» في هذه المقاطعات التاريخية التي خصت عرش الملك فنسلاس، اي باعادة مملكة بوهيميا الى الوجود، ومن ضمنها مورافيا وسيليزيا . هنالك ارستوقراطية تشيكية ألمانية ألفت التعاون مع فيينا وراحت تعتمد في نشاطها السياسي ، على آل هبسبورغ ، كما قام من جهة أخرى ، بين بوهيميا والنمسا روابط اقتصادية متينة. وهذا الوضع بالذات حمل بلاتشكي على التصريح بعد الفشل الذي اصيبت به حركة الجامعة السلافية الفدرالية، عام ١٨٤٨، قائلا : «لو لم توجد الامبراطورية النمساوية من عهد بعيد، لوجب العمل على انشائها في الحال لخير اوروبا جمعاء». ولذا جاء الاتفاق (بين النمسا والمجر) صدمة عنيفة للحركة النمساوية السلافية التي لم تكن لتحقق في قلب مقاطعة سيليتانيا ، سوى تنازلات جزئية ، كازدواجية اللغة مثلا و كانشاء جامعة تشيكية . وبذلك اخفقت المساعي الى عقد اتفاق نمساوي تشيكي شبيه بالاتفاق المجري الكرواتي . والحال فالشعب التشيكي المعروف بخصب تناسله ، اخذ يحقق شيئا من السيطرة في هذه المناطق المتعددة، وأخذت طبقة من البروليتاريا الصناعية وبورجوازية تجارية تزيل تدريجيا الطابع الجرماني العالق ببراغ وبلزن ، بينما راحت الطبقة التشيكية المفكرة ، تنبذ هي الاخرى ، الثقافة الالمانية . وقام في وجه حزب « قدامى التشيك » الذي أخذ نفوذهم بالهبوط وحزب التشيك « الفتاة » الذي رفض التسليم أو القبول بسقوط الحقوق التاريخية ، وراح يطالب بانشاء دولة تشيكية ديموقراطية . وهكذا حوالي عام ١٨٩٠ ، وجه الاستاذ توماس مازارين التشيك والسلوفاك نحو الاتحاد معاً لدك السيطرة المجرية النمساوية . فقد حاول اجتذاب الفلاح السلوفاني في تتراس نحو بوهيميا وهو اكثر تطوراً موحياً بأن المجموم

يجب ان يتجه ضد بودابست وفيينا على السواء .

بين الشعوب التي خضعت للمالكية الهبسبورغية كان الشعب المجري هو اول من يستفيد من هذا الاتفاق . فاذا ما أطلت علينا حركة « تجيرة » قبل عام ١٨٦٧ ، واذا ما رفض الزعيم المجري كوسوت عام ١٨٤٨ للأقليات الاخرى، في مملكة القديس اسطفانس القديمة ما يطالب به هو اليوم للمجر، راح اولو الامر في بودابست يمارسون ضغطهم الشديد عندما وُضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ . « فعلى هنغاريا ان تبقى هنغاريا او تموت » ، بهذا كان يصرح كولومان تيزا . وهجوم المجري على الروماني اتسم بالعنف ، هذا الروماني الذي نزح من جبـال ترانسلفانيا الشجراء ليستقر في مقاطعة بانات وضواحي بيهور ، وكذلك هجومه على الصربي القابع في مـا بين النهرين الباتوني ، بالرغم من الاتفاق المعقود بينهما عام ١٨٦٨ والموجه ضد الكروات عـلى الاخص . وهذا المجري المتمركز في الوسط الذي يرى تحت تصرفه الموظفين ويستخدم في سبيل تحقيق اغراضه الكنيسة والمدرسة والجريدة والاكليروس والاحصاءات بعد أن يجري فيها تلاعباً وتزويراً ، يحاول أن يبسط سيطرته على المناطق الدائرية . فقد جاءت النتائج مشوشة ، مضللة للرأي العام في الخارج . والضغط ولد دوماً ردات فعل عكسية ، فدفع بالسلوفاك باتجاه براغ ، وفتح الطريق أمام حزب وطني جديد في رومانيا ، وحمل الصرب على الاتجاه بتواطرهم نحـو بلغراد ، وعمل على إثارة واهاجة الحركة اليوغسلافية التي الفت خطراً يحسب لها الف حساب في هنغاريا المجرية .

ويشمل صقالبة الجنوب بتيارات متضادة . هنالك بالفعل ثلاث أقليات سلافية : اثنتان منها ترسفان تحت حكم آل هبسبورغ من عهد بعيد هما السلوفين والكروات وتتجهان بأنظارهما نحو فيينا ونحو روما كذلك، بوصف سكانها من رعايا الكنيسة الكاثوليكية ، ولا يزال طرياً في الاذهان ذكر مرور الفرنسيين في إلليريا والمناداة باستقلالها القصير . اما الاقلية الثالثة ، وهي اكبرها على الاطلاق ، فتتألف من هـؤلاء الصرب المستقيمي الرأي أو العقيدة الذين خضعوا أجيالا طوالاً ، للسيطرة العثمانية ، مما حمل قسماً منهم على اعتناق الاسلام. من هنا: صربيا التي تحاول ان تلعب من بلغراد، نحو الاتراك ، الدور الذي لعبه البيامونت ، ومن هناك زغرب التي قد تصبح عاصمة اتحادية لثلاث اقليات هي كرواتية وسلافونية ودالماتية (*La Troyadna*) . وقد لعب الامبراطور فرنسوا جوزف آخر ورقة بيده هي حركة اوستروسلافية اخـرى . فالفريق الكرواتي بزعامة جيلاتشيلش قام برد على تمنت كوسوت كرجع صدى لبالاتسكي : « لو لم تكن النمسا موجودة لوجب ايجادها في الحال » . برنامج يوغسلافي هـذه المرة ، يضمه كرواتي ويدور حول الكروات . فبينما كانت صربيا تتحرك دائرة على نفسها ، فضلت فيينا ان تدخل في مفاوضات مع المجر وتوقفت الى ابعاد السلوفينيين عن الكروات فتلقي بهؤلاء الى ايـدي المجر بينما تحتفظ هي لنفسها ، بهذا الحزب من مقاطعة دالماتيا التي تقطنه أقلية صربية كرواتية الى جانب اقلية ايطالية اخرى . فكان على كرواتيا ان تنزل عند هـذا الاتفاق

الغامض الذي وقعه قوم يحيشون كراهية الحركة الصربية ، فلم يبقَ من ثم أي محل ، بعد هذا التدبير ، لالبريا . وتوترت على الأثر العلاقات بين بودابست وزغرب في الوقت الذي راحت فيه المملكة الثنائية ترافع عن الكاثوليك والمسلمين ضد الارثوذكس في مقاطعتي البوسنه والهرسك التي احتلتها عام ١٨٧٨ . وهكذا لم نَعُد ببعيدين عن هذا اليوم الذي ستشهد فيه الجامعة اليوغوسلافية وقوع انهيار الامبراطورية النمساوية - المجرية وتفسخها لمنفعة صربيا الكبرى.

وهكذا من البلطيق الى الادرياتيك، اشتد هياج الاقليات الواقعة تحت الضغط بالرغم من التطور الذي اصاب مرافق البلاد الاقتصادية ، في الامبراطوريتين الالمانية والنمساوية . وما هو انكى من هذا كله واوقع في النفس هو ان تصبح هذه المنطقة مكمناً للخطر يهدد السلام في اوروبا .

انهيار تركيا وبروز الدول البلقانية

والوضع السياسي في البلقان يبدو كثير المزالق واكثر ميوعة. فشبه الجزيرة البلقانية هذه التي تتقاسمها الجبال العالية وتجعل منها مناطق موصدة وحجيرات شبه مغلقة ، لا تضم ، بخلاف شبه الجزيرة الايبرية المقابلة في الطرف الآخر من البحر المتوسط ، أي صعيد في وسطها ، واصبحت على قاب قوسين وادنى من تحررها من نير الاتراك العثمانيين وعبوديتهم . نحن هنا أمام فتح مسيحي جديد . فقد حلت التجزئة محل الوحدة الاسمية ، وقد استفحل تدخل الدول الاوروبية في هذه المنطقة التي وقعت في صلب ما يعرف بالقضية الشرقية التي تعني النظر في أمر وراثة أو التصرف بتركة « الرجل المريض » ، اذ نرى من جهة ، الروس يشرئبون بأعناقهم الى القسطنطينية والى المضايق ، كما نرى من جهة أخرى البريطانيين يقفون في وجههم ويقطعون عليهم الطريق، كما نرى الضغط الجرماني المجري يشتد لينعه من حوض الدانوب السفلي شطر بحر ايجه ومنافذ البحر الادرياتيكي . لعبة متشعبة ، معقدة ، يعلل فيها الاتراك النفس بالأمل ان يفضي هذا التنافس الى ترسيخ اقدامهم كما تعلل القوميات التي تتحرك وتحور في هذه المنطقة النفس بأمل الاستقلال على ان تجد بين الدول الاوروبية الكبرى من ينصرها ويقف الى جانبها . وهكذا فطلوع هذه الدول البلقانية وإطلالتها على الدنيا ، تتم نهزة نهزة ، وفقاً لمجريات السياسة الاوروبية .

فقد فرضت هذه السياسة على السلطة العثمانية ، في مطلع القرن العشرين ، الاعتراف باستقلال اليونان ، وهي سابقة حرصت قوميات عديدة على تذكرها في اليوم العصيب . ولكن دولة اليونان هذه التي برزت عام ١٨٢٩ ، جاءت دولة فقيرة ، « قاحلة جرداء » في معظم مناطقها - هكذا نعتت الامارتين ، عام ١٨٣٢ - لا مال عندها ولا حكومة ، قوامها وكيانها يتألف من مقاطعة الاتيك وجزيرة أوبيه ومقاطعة البلوبونيز القديمة (الموره) وجزر السيكلاد ، وهي تتأرجح بين النفوذ الروسي والنفوذ البريطاني . ومع ذلك فبتنازل الانكليز عن الجزر الايونية، ثم حالفها الحظ فضمت اليها مقاطعة تساليا وفكرت جدياً بضم جزيرة كريت ومقاطعتي الأبير ومقدونيا ، كما اتجهت بأنظارها نحو شواطىء إيجه الآسيوية : حركة ضم وتوحيد

جريئة لعمري ، اذا ما نظرنا الى ضعف وسائل التنفيذ والعمل المتيسرة لديها . فحق الاقتراع العام يفعل فعله ، كما ان الأقبال على العلم والتعلم ينبض في كل صدر . الا ان الاقتصاد الوطني يشكو من الفقر المدقع كما ان الحاجة الشديدة الفنيين ولرؤوس الأموال مُقعدة لها مُمزحة ، اذ ان تحصيل العلم يفضي بطالبه الى مزاولة المهن الحرة والى الوظائف العامة والى المراكز ذات المرتبك المغريات والى المعترك السياسي. واثينا التي كانت قصبة صغيرة عند الاستقلال ، ألبانية الطابع والسمة اكثر منها يونانية ، قفز عدد سكانها من ١٥ ألف عند المناداة بها عاصمة للبلاد الى ١٠٠،٠٠٠ شلت فيها الجادات الواسعة في وقت عجزت فيه مرافق الزراعة عن تأمين إعالة السكان الآخذ عددهم بالازدياد بسرعة ، فبعد ان عطلت قلة المواصلات وافتقار البلاد للادوات والاجهزة المسعفة كل حركة . وسوء توزيع الملكية في البلاد وتوزيع الاقطاعات التركية لم يُحل قط دون بقاء اصحاب الاملاك الضخمة يرزحون تحت وطأة الضرائب والاعشار . فالاغريقي يؤثر التجارة ، وهنالك جانب كبير من الاغارقة يعملون خارج هـذه المملكة الصغيرة التي أمدتها بافاريا بملك من عندها عقبه ملك آخر من الدانمارك ، على أمـل أن يبقى هؤلاء الامراء فوق الحزبيات المحلية التي تتطاحن فيما بينها للاستئثار بأكبر عدد من المنافع . هذا هو لعمري وضع الاعجوبة اليونانية .

وهذه اليونان التي تؤلف شبه جزيرة صغيرة في قلب شبه الجزيرة البلقانية مع ما اليها مـن جزر متناثرة،تشمر في الصميم،انها تتصل بالبحر الابيض المتوسط بكل جوارحها. اما القوميات البلقانية الاخرى التي تتسم بالاحرى بالطـابع القاري الشرقي ، فهي تمور وتتحرك ضمن حدود مبهمة لا تستقر على وضع ولا على حال .

هنالك ابن ذاذ الحركة السلافية يحتل في هذه الجبال الوعرة المسالك ، عش نسر لا يرام ، يخضع لسيطرة العثمانيين . هذا البلد يعرف عند الاتراك باسم : كراداغ وعند الابطاليين بالجبل الاسود ، وعند اليوغوسلاف بـ *Tsemo Gora* ويطل من عَل على نهـر كوتور (كاتارو) . وتؤدي الى هذه الامارة الثيوقراطية التي يؤول الامر فيها لآل بتروفتش نيغوش ومن اليهم مـن هؤلاء الاقوام الرعاة الذين يتراوح عددهم بـين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألف نسمة ، الطريق الوحيدة المعبد لعربات الجر . فهو يكاد لا يظهر على الخريطة الجغرافية ، ومع ذلـك فقد كان حصناً حصيناً من حصون الحركة الصربية منذ ان لاقت صربيا دوشان حتفهـا في معركة كوسوفو الطاحنة .

وُبعث صربيا من جديد، ولو ببطء فتقتطع محلا لها تحت الشمس ليس بـين انهار بانونيا ، بل عند ملتقى نهري الدانوب والساف فيجربا معاً في وادي مورافيا بالجـاه مقدونيا . وهؤلاء الانكشارية الذين اتخذوا من قلعـة بلغراد حصناً حريزاً لهم لم يهدأ يوماً لهم روع ولا بال منذ ان تلاحق على مهاجتهم ، دونما ملل ، هؤلاء الفلاحون الخوارج الاشداء من سكان المقاطعات

المجاورة يربون قطعان الخنازير في غابة البلوط القريبة ، « غابة عذراء » في عيني لامارتين الذي زارها عــام ١٨٢٩ . وميلوخ اوبرنوفتش الذي اعلن نفسه رئيساً اعلى Knez للامة الصربية كان احد مربي الخنازير ، على شاكلة كارا جورج الذي تولى قيادة الثورة في عهد نابليون وراحت الامارة الصربية تجاهد صابرة ، مونيا ضجة في الظاهر ، وتناضل في سبيل التحرر من ربقــة الاتراك العثمانيين ، محاولة التوسع عبر مجاز نهر المورافا. الا انها عجزت عن الوصول الى احواض مقدونيا ، كما فشلت في محاولتها الاتصال بالشقيق الجبل الاسود . فقد استطاع الاتراك الاحتفاظ بالمجازات التي تفضي من ترافيا الى شواطىء البانيا والى البوسنة . وقد أقصيت ، هــذه الاخيرة ، عام ١٨٧٨ ، من الدولة السلافية الجنوبية ، التي تخلت عنها روسيا وتركتها وشأنها ، برهة من الدهر ، لتقع تحت تابعية الامبراطورية الاوسترو – مجرية الاقتصادية . وبعد ان حيل بينها وبين البحر وانعدمت لديها كل الامكانات والوسائل الضرورية واصبحت عالة على القروض التي تأتيها من الخارج ، وبقيت مملكة آل اوبرينوفيتش ، حوالي عام ١٨٩٠ ، بلداً فقيراً سكانه الفلاحون يتكاثرون وينمون بسرعة تشدهم بعضاً الى بعض وشائع القربى والتماسك مع مجتمعهم . ومــع ذلك،لن يلبث هذا الشعب الفخور، المناضل الذي لا يزيد عدد سكانه على مليوني نسمة ان يصبح مناط امل اليوغسلافيين الوطنيين الذين نظروا اليه نظر الايطاليين الى البيامونت فكان محــور وحدتهم وعمل على جبهتين : ضد الاتراك وضد النمسا والمجر .

وقد لعبت الـ *Munte* المولداف والفــلاخ ، في مطلع القرن التاسع عشر دوراً يشبه الدور الذي لعبته *Chaumadia* عند صغار المزارعين والرعاة الرومانيين متخلين عن الـ *Cimp* او السهل، للاسياد الروس *Boiars* الذين اخضعوا المزارعين العاملين عندهم لعبودية الارض تجار الحي اليوناني المعروف بالفنار . في استنبول فالثورة اليونانية أقصت سلطة السلطان عن الفناريين واستبدلتهم بأمراء محليين من ابناء اليونان جرى انتخابهم من قبل الـ *Boiars hospodars* الروس . ومع ان هذه الارستوقراطية الاقطاعية حررت الفلاحين واولتهم ، عام ١٨٦٤ ، حق تملك الارض ، على غرار ما فعلته الحركة الاصلاحية الزراعية في روسيا ، الا انها لم تفقــد شيئاً من سيطرتها وبأسها بهذا الاستقلال الذي ساهم نابوليون الثالث بتحقيقه . فهي تحكم رومانيا المولدو – فالاخ تحت ستار دستور معلن ، وتفتح ابواب البلاد امــام رؤوس الاموال الاجنبية التي تطمح الى السيطرة على ثروات البلاد من الحبوب والخشب والبترول . وهذا الاستثمار حرص على ان يبقي متدنيا ، مستوى العيش في شعب خصب التناسل ، سريع الخاطر ، حاد الذهن .

والسياسة الحزبية التي تعلن عن نفسها متحررة ، لم تحل قط دون ثورة الفلاحين ولا دون اضطهاد الاقلية اليهودية في البلاد والغالبة الوجود في المدن . هنالك نخبة صغيرة ثقافتها فرنسية تقطن قلب بخارست تقابلها هذه الجماهير الريفية التي تتسكع في الجهل والجهالة والتي تفتقر في الصميم لكل جهاز وآلة ، تشاطر الحيوانات الاهلية مسكنها الذي يتألف عادة من اكواخ من اللبن او من روث البقر المجفف سقفه المعروف من القش أو من القصب ، في جو قاس منفر . هذا وضع

تفح منه رائحة الروسي الذي يصدر الحبوب في الوقت الذي يتضور الفلاح فيه جوعاً . فالوفيات بينها عالية والانسال في خصب غريب . فرومانيا التي كانت تعد عـــام ١٩٠٠ خمسة ملايـين نسمة هي اكثر دول البلقان سكانا. فضمهم لقاطعة دوبروجيه الفراوية على البحر الاسود ليعوض عليهم خسارتهم لمقاطعة بسارابيا الجنوبية التي اضطروا التخلي عنها للروس . اما هذه الاتفاقات التي توصلوا الى عقدها مع فيينا ومع برلين بتأثير الملك شارل هوهنزولرن فهي لا تنسجم كثيراً مع هذه الوشائج اللاتينية التي كثيراً ما تبجح بها سكان رومانيا المعاصرون عند الدانوب السفلي.

والى الجنوب من هذا النهر تبرز بوضوح سيطرة الاتراك. فأينما أجلت النظر وقعت منك العين على الاملاك الضخمة و «الجفتلك» التي تعود لهؤلاء البكاوات والآغاوات، والفلاح فيها مشدود الى الارض شداً وثيقاً تابعاً لها يرزح تحت الجزية والخراج . فقد سجل الاسلام هنـا ارتدادات كثيرة تفادياً من الأهلين للطرد ولمصادرة املاكهم وأراضيهم . وهكذا اعتنق الاسلام البوماك او بلغار الرودولف ، والالبانيون في الجنوب ، وعــدد كبير من قـــرى ودساكر الصرب في البوسنة . ومن جهة ثانية فقد أقام مزارعون اتراك لهم ، هنا وهنالك ، مزارع عديدة . وفي وادي نهر الماريتزا ، حيث خضع الفلاحون لعبودية مرزحة عرفوا هنالك باسم روماني او رومي اي روماني ، الا انهم في الواقع ، من عرق البلغار ، هؤلاء البلغار الذين يرجع أصلهم البعيد الى قبائل الهونز ، تمت صقلبتهم على نطاق واسع واعتنقوا الارثوذكسية واستمسكوا بأراضيهم . وأتيح لهم ان يؤسسوا امبراطورية دامت ردحاً من الزمن ، ولم يلبثوا أن رزحوا تحت ضغط البكاوات ، عرضة للسرقة والاعتصار من قبل التجار اليونان يقتمون ، طعامهم ، بكمكة وبعض البندورة والبصل واللبن . فللمدن طابع تركي صرف بمآذنها الشاهقة واسواقها المسقوفة . ويبدو ان يقظة الضمير القومي في هذا الشعب تمت بصعوبة .

وفجأة أطلت علينا، بدافع من أطماع قيصر روسيا، عام ١٨٧٠ أكسرخا (امارة) بلغارية كما راح دعاة الروس يحثون الفلاحين المتاجين على الثورة ويدعونهم لانشاء دولة كبرى لهم ، تمتد من البحر الاسود حتى مشارف مقدونيا في إطار هذه الاكسرخا . والحال فقد اعتاد السلطان ان يحرك البوماك والارناؤوط المسلمين ضد سرايا الكوميتاجي المسيحيين . فالفظاظات التي اقترفها هؤلاء الباشبزق ، المعروفة في التاريخ « بالمآسي البلغارية » والاضطرابات التي وقعت في المنطقة وامتدت حتى البوسنة ، كانت السبب المباشر في اشعال الحرب البلقانية عام ١٨٧٧ ، كما كانت فرصة لتدخل الجيش الروسي فسجل على الاتراك انتصاراً كلفه غالياً . غـــير ان مؤتمر الدبلوماسيين الذي عقد في برلين ، في السنة التالية لم يقر سوى قيام « أمارة مستقلة اداريا خاضعة لولاء السلطان ، هي بلغاريا الجنوبية التي فصلوا عنها المقاطعة الجنوبية المعروفـــة باسم الروميلي الشرقية، بينما ارقف التقدم الروسي عبر وادي مورافيا واعترف للامبراطورية الحق بادارة البوسنة والهرسك . والثابت ان الامير اسكندر بانتبرج اي شقيق الامبراطور اسكندر الثاني اخذ منذ عام ١٨٨٠ ، يعتبر نفسه « امير بلغاريا الشمالية والجنوبية » الا انه لم يلبث ان

اختلف والقيصر واضطر ان يرفع استقالته كما اضطر خليفته الامـــير فرديناند الاول من اسرة ساكس كوبورج الملقب « برئيس الدساسين » ان يمهد الطريق لمدة طويـــلة وان يراعي جانب الدول الكبرى وان ينمي الموارد اللازمة لأمة خصب الانسـال فيها والتوالد لا يقل بشيء عما هي عليه جاراتها من هذا القبيل ،مدفوعة الى ذلك بما رُكز في طبيعتها من حب العمل ومـــا فيها من عطش ورغبة في العلم اذا ما ارادت يومـــاً ان تعاود سيرتها في جمع شمـــل كل الشعب البلغاري .

الا ان تركيا لا تزال تسـيطر على ممر ضيق من الاراضي ينطلق من المضايق ويستمر بلا انقطاع حتى يتصل بتراقيا وجبال رودولف بمقدونيا والبانيا والأبير حيث يؤلف الاقـوام فسيفساء مدهشة من الشعوب والاجناس. ويقوم الى الغرب من هذا الممر العرق الالباني، كاثوليكياً كان او ارثوذكسيـاً او مسلماً، ويعيش مستقلا في جبال صعبة المرتقى كثيرة الانحدار، تنتهي بسهل ساحلي ضيق يمتد على سيف البحر. أما في الوسط ، فتقوم مقاطعة مقدونيا، ذات الاسم السـاحر ، وهي تتألف من كتلة الجبال الصعبة ومن الناس ساكني تلك الجبال ، وهم اقوام ينكرون الى عرقيـة واضحة المعالم ، ينظر اليونان الى هذه المنطقة باشتهاء وازورار، كما يحدجون بأنظارهم سالونيك حيث يؤلفون ، مع اليهود ، اكثرية هؤلاء اليهود الذين قدموا من اسبانيا واستولوا على مرافق البلاد التجارية، كما ان الصرب كانوا يطالبون بها لأنفسهم تحت ستار رابطة اللهجة المحكية؛ يحوجها ظلماً بمواشيهم ، اقوام من رعاة الالبانيين والفالاخ . وفي نهاية الامر يستقر الاراك فيها وقـــد زرعوا فيها الفوضى باهمالهم الفاضح ، وعرفوا ان يستثمروا لمصلحتهم الخاصة المنافسات الحامية بين هذه الاقليات المتباينة الاجناس والعروق . واخيراً نجد في الطرف الشرقي من هـذا الممر ، مقاطعة تراقيا التي تؤلف مفترقاً طبيعياً للطرق المتصالبة ، وهي مقاطعة تتميز بطابعها السهلي يتشبث الاتراك بملكيتها كما يطالب بها البلغار على السواء. فهي تضم الرأسين الجغرافيين المندفعين في البحر باتجاه آسيا، احدهما يحمل عاصمة السلطنة التي تسهر الدول الكبرى العظمى على سلامتها وبقائها بغيرة وحرص كبيرين .

فهذا الجزء من اوروبا الجنوبية الشرقية ، لم يعد اوروبياً بالفعل . فبعـــد ان رزح اجيالاً متطاولة تحت وطأة الاتراك الذين اهملوا شأنه وأساؤوا استغلاله ، فقد وقع فريسة سهـــلة التقلبات السياسية بين قوميات تخشوشنة ، مفتولة العضلات ، حربية المزاج فقيرة الحـــال ، عرضة دوما للفوضى والاضطراب ، وهو وضع لم تحاول الدول الاوروبية الكبرى التخفيف من حدته او ادخال اي تعديل عليه. وموقف ألبانيا يذكرنا حتما بموقف مقاطعة القبائل في الجزائر كما تذكرنا مقدونيا بسوريا . اما هذه المدنية الزراعية والراعوية بما لها من عادات مجتمعية ، واعراف قومية وانماط العيش السائدة بين اقوامها، فهي تذكرنا ، وبحق، بروسيا القريبة منها .

العهد الاستبدادي الروسي والنظام القديم قبل حرب القرم

للامبراطورية الروسية منذ حرب التحرير التي خاضتها ضد الفتح النابوليوني نفوذ كبير . فهي الحامية النظام التقليدي السائد في اوروبا ، وهي الهادفة باستمرار ، الى تحقيق « الحلم اليوناني القديم » متابعة فتوحاتها الداوية في قلب آسيا وأطرافها الشمالية الشرقية . الا ان حرب القرم وما رافقها من شؤون وشجون وماجريات كشفت بجلاء عن عورات هذا الحكم المطلق وعن خلخلته .

هنالك سلطة تفرض الطاعة العمياء ، وشعب يأخذ بالخرافات والاساطير ، واكليروس كهنته جهة أميون لا اخلاق لهم ولا اعتبار ، يعمل في خدمة السلطان المستبد ويأتمر بحركات بنانه ، وطبقة من اسياد الارض يتمتعون بامتيازات عريضة شريطة السير في ركاب الحكومة والنظام ومساعدتها على ابقاء الفلاح تحت ولائها ، وطبقة من الموظفين هم من الباطنة والسذاجة ما يخفف كثيراً من وقع تصرفهم الكيفي ، الا ان الكسل والاهمال والعجرفة أصارتهم مكروهين من الناس . (من المبادىء التي سارت بينهم ان الكل يسرقون ، وان يسوع المسيح نفسه كان سرق لو لم تكن يداه مسمرتين على الصليب) ، وشرطة بوليسية لها محاكمها الخاصة تخضع البلاد والشعب لمراقبة شديدة ضيقة ، ولنظام حجر صحي آسر شديد يتصل نشاطه خارج روسيا ويعمل بغير علم السفارات الروسية ، وجيش بطاش هو أداة لفرض هيبة الحكم والنظام في البلاد ، واداة الفتوحات الاستعمارية ، الا ان عدم الانضباط فت في عضده . أما جمهرة الفلاحين فهي حيناً راضخة مستسلمة لمصيرها ، وحيناً متذمرة متأففة من وضعها المزرح المرهق ، نزاعة الى ردود فعل بربرية وحشية ، تكره نظارها وتحقد على وكلائها ، ألفت الحياة المجتمعية ، وتكالبت على الارض بنهم ، متخاذلة في مطالبتها بالتحرر من رق الارض وعبودية الفدانة (ظهري مطية لك يا سيدي ، اما الارض فهي لي) ، عاجزة ، مع كل هذا ، من امكان أي تحسين على الوضع المزري الذي يكتنفها . هنالك طبقة بورجوازية متوسطة وطبقة من أصحاب الحرف منصبة على العمل (« فليس في روسيا من طبقة ثالثة او طبقة الشعب » كما تلاحظ بحق مدام دي ستال) . هنالك صناعة مرتبطة بالدولة رأساً او ببعض الاسر الشريفة ، أو بأصحاب رؤوس اموال اجنبية تحميها التعريفات الرسمية ، تسير في تقاليدها المرعية ، لا تحيد عنها ولا تجدد فيها . (فالامبراطورية تتوقف عن تصدير ما تنتجه من الحديد عندما لا تلاقي شاريا او زبونا يرغب فيه بينما تستمر في بيع الحبوب) وبخلاف ما نشاهد في الغرب ، فالثروة المنقولة محدودة للغاية ، والحرف اليدوية تفتقر اصلاً ، للآلة وتفضل العمل الريف حيث تتوفر لها اليد العاملة . والمدن تشبه ، في سوادها الاكبر ، قرى وضياعا كبيرة منازلها من الخشب ، بعضها يستخدم كقلاع او حصون ، لها احياؤها المقفلة ولها ما يعرف عندهم بـ *Kreml* ، والحركة التجارية في البلاد مشلولة لعدم وجود طرق للمواصلات يسهل معها التنقل والانتقال ، والتضييقات المفروضة عليها من قبل الاجراءات القانونية من جهة وقلة النقد بين ايدي الناس ، من جهة ثانية .

كل شيء في هذا الهيكل الاجتماعي القائم في البلاد ، وفي العقلية المسيطرة على الناس يقف في وجه تطور رأس المال الحر الذي يعتبر بحق ، الخير الذي يطلع كل ثورة اقتصادية في البلاد، وسيؤول في نهاية المطاف الى زعزعة نظام الحكم القديم السيادي ، المطلق . فكيف السبيل الى إدخال اصلاحات على المؤسسات والنظم القائمة في البلاد دون إحداث هزة عنيفة في قلب هذه الطبقة الضخمة من الفلاحين الجهلة وبدون نقل هذه الهزة الى الاقوام الاخرى ، وبالتالي دون مس وحدة البلاد وإثارة التشكك في سلطة القيصر نفسه التي عليها يرتكز كل بناء الدولة ؟ وهكذا ندرك جيداً كيف ان كتابا مثل غوغول او تورغنيف او سالتيكوف تشيدرين الذين رسموا لنا صورة لاسعة لهذا النبيل المنحرف الاخلاق ، ولهـذا الموظف المختلس، لا يستنكفون عن التنبؤ بالمستقبل الذي ينتظر مثل هذه الروسيا العفنة .

ولكن لم يكن بدّ لهذه البلاد من ان تتبنى الاساليب والاشكال الجديدة التي يقتضيها الانتاج والتبادل التجاري . فوجودها ذاته يتوقف على هذا . فالفشل الذي منيت به الجيوش الروسية امام سيباستوبول تعود اسبابه البعيدة التأخر ويجب رد بواعثه الدفينة لهذا الوضع الذي رسفت فيه البلاد . فالقوة الحربية لا يمكن ان تقوم لها قائمة ما لم يدعمها اقتصاد قوي صحيح ، وما لم تطلق البلاد الاساليب البالية التي سارت عليها . وعبثاً يُخضع القيصر نيقولا الجامعات في البلاد لرقابة خانقة ، ويفرض على الكتب والمنشورات مراقبة لا ترحم ولا تلين ، فهو اعجز من ان يمنع كل اتصال مع الغرب ، ولا يستطيع ان يكم الافكار والالسنة . صحيح انه حدث بعض التطور في البلاد منذ محاولة القتل التي قامت بهـا جمعية المتضامنين السرية . فالافكار المتوارثة عن الثورة الفرنسية تتكفىء، وتعود القهقرى في الوقت الذي تقوم في البلاد ردة ضد عقلانية القرن الثامن عشر ، التي تهافتت عليها الاوساط الارستوقراطيـة تتلقف مبادئهـا وتعاليمها . فقد حل محل الفلسفة الفولتيرية الفلسفة الهيغلية التي غذت في البعض عبادة الدولة كما دفعت بالبعض الآخر الى الثورة والتمرد . وهكذا ظهر في البلاد ، في اعقاب حرب القرم ، تياران قويان تنازعا السيطرة على الافكار واستبدا بها: تيار « الغربيين » الذين شعروا عميقاً انهم قريبون من خصوم العهد كالاشتراكيين والفوضويـين والليبرالية البورجوازية اصحاب هذه الحركة الليبرالية ، و « انصار السلافيين » الذين استقر في روعهم ان التقليد الروسي يمكن له ويترتب عليه ان يمهد الطريق لتعاون وثيق بين القيصر والكنيسة الارثوذكسية ، والموجيك (اي الفلاح الروسي) الذي يُشيد كورولينكو وتولستوي بفضائله العليا . ولكن كلا التيارين ينظر على ما نرى الى المجتمع القروي صاحب المشارع واشكال العمل واهدافه ، نظرة ملؤها الارتياح والرضى . فاذا ما استسلم بعضهم لليأس وراحوا يصفون ما تقاسي النفس الروسية من عذابات اليمة ويصورون الشقاء والبؤس الذي يتحكم فيه المجتمع الروسي الغارق في الفوضى ، فمعظم القوم يؤمنون بقدرة البلاد على التجدد كما لا يسقط بعضهم من حسابهم احتمال قيامهـا بهبة ثورية .

الازمة الروسية في عهد اسكندر الثاني- الاصلاحات وبوادر الحركة الثورية

من الواضح ان النهوض بالامة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنجاح عملية واسعة للاصلاح الزراعي. ان إلغاء رق الارض وتحرير الفلاح لا يزيلان من الطريق كل العقبات . فتحرير الفلاح دون تأمين وسائل العيش الكريم له هو بمثابة أعداد مستقبل مليء بالمخاطر والشرور . ولما كان لا يمكن التفكير مطلقاً بمصادرة املاك النبلاء دون التعويض عليهم ، كان لا بد من فرض فداء للأرض وفقاً لشروط ، ولو مجحفة نوعاً بحق الملاك ، بدلاً من شروط يرزح تحتها صاحبها الجديد . ومها يكن ، فعلى السلطة ان تتحرك وان تقوم بعمل شيء ما . من هذه الاحداث التاريخية الحاسمة ، الثالث من آذار عام ١٨٦١ ، اذ فيه يعلن القيصر اسكندر الثاني الذي اخذوا بتلقيبه ، ابتداءً من هذا اليوم « بالمحرر » ، تحرير الفلاحين . فجمهور الفلاحين يجزل غبطة وسروراً . الا ان خيبة الامل لن تتأخر .

والذي حصل بالفعل هو محدود بالفداء لصالح المجتمع الريفي . فالدولة تقدم ٤/٥ المبلغ المتوجب . فالمتملكون ينالون سبعة هكتارات بوصفهم مزارعين تابعين للتاج وقد تنخفض حصة الواحد الى ٣ هكتارات في الاراضي السيادية حتى تصل الى هكتارين في الاراضي ذات التربة السوداء ، اذ لا مصلحة للملاك في التنازل او التخلي عن شبر واحد من هذه الاراضي . فهم سيقون يعانون الجوع الذي ستشتد وطأته مع التقسيم الجديد للارض بعد ان يتضاعف عددهم بفضل ارتفاع معدل المواليد في البلاد . فيستمرون أنفسهم قد هُزىء بهم وراحوا ضحية السرقة بينا تشابك القطع الزراعية التي نالوها بالقطع التي بقيت للملاك السابق ستكون مثاراً لدعاوٍ كثيرة امام القضاء. كل هذا والنبلاء ينفثون احقادهم: فقد اقتطع من حسابهم ليس مبلغ ساوى الدين فحسب بل ايضاً لم يستلموا سوى سندات لن تلبث قيمتها ان اصيبت بالهبوط. فلا عجب والحالة هذه ان تبيع املاكها او ان تؤجرها التجار. فالاملاك التي احتفظت بها لا تستغل بصورة احسن من قبل ، والفلاح الروسي لا يستطيع – لو شاء – ان يدخل اي تحسين على وسائل الزراعة. وبعض افراد هذه الطبقة لهم من الاراضي اكثر مما تستطيع استثماره (٧٥ مليون هكتار لم يستثمر منها سوى ٢٥ مليونا ، حوالي عام ١٨٨٠ ، كما ان البعض الآخر كان يشكو من الحرمان او من عدم حيازته ما يكفي منها (١٠٠ مليون) فقد كان هذا الاصلاح عملية فاشلة من كلا الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية

ردة الفعل - مكاسب الرأسمالية وبؤس الجماهير العمالية والزراعية في عهد القيصر اسكندر الثاني

ردت الجماهير الروسية على مقتل « المحرر » وتحسن النية « بالجمود . فحصول سنة ١٨٨١ كان طبيعياً كما ان جهاز الدولة تمكن من السيطرة على الحركة الإرهابية ، ولم تشهد البلاد سوى بضع مؤامرات فردية منها المؤامرة التي وقعت عام ١٨٨٧ التي أودت بحياة أوليانوف الشقيق الاكبر للينين . فبعد ان عرف كيف يكسب الوقت باعلانه عن انشاء مجلس عام من الـ Zemstvos وتخفيضه معدل فداء الارض بعد ان جعله

إلزامياً وبإنشائه مصرفاً للفلاحين يعنى بتسليف الهيئات الزراعية في القرى مـا تحتاج اليه من الاموال لاستثمار اراضيهم وبتخفيض ضريبة الاعناق وساعات العمل في المصانع ، وبتنظيم الهجرة الرسمية الى سيبيريا . وقع القيصر الجديد الذي رأى في الحركة التحررية هـذه شيئاً يبعث القرف في النفس ، تحت تأثير استاذه القديم بوبيا دونستزيف الاخصائي الكبير في القانون المدني الذي عين معتمداً امبراطورياً لدى السينودوس المقدس ، والذي راح يدعو الى «ملكية» اشتراكية ابوية على اساس من التسلسل الطبيعي . وقد اخذت ردة الفعل تميل نحو النبلاء ورجال الدين والوطنيين . ففي الوقت الذي انشىء فيه مصرف يعنى بمساعدة النبلاء الذين يعجزون عن استثمار املاكهم ، أعيد الى الـ *Barine* القديم الدور التقليدي الذي مثله من قبل بوصفه قيماً على الفلاحين ومرجعاً لهم في المناطق الريفية . وقـد لعبت الارثوذكسية دورها المعروف في الضغط على القوميات الغريبة ، متبعة في سياستها تلك اسلوباً منهجياً . ولم تلبث السلطة المدنية ان اشتدت وطأتها فضربت بيد من حديد الطوائف والملل الاخرى *Skopzy* (المنحرفين) والعقلانيين ، حتى الكاثوليك في بولونيا ، والوثنيين في الولايات البلطيقية ، وسببت انزعاجاً كبيراً للبطريرك رئيس الكنيسة الارمنية ولم توفر المسلمين في القفقاس حتى شملت البوذيين في آسيا واشتدت وطأة الاضطهاد خاصة ، على العنصر اليهودي الذي اصبح منذ ذلك الحين هدفاً لتدابير عنيفة اتخذت ضده. وقد وضع اولو الامر في بطرسبورغ خطة لتحقيق الوحدة في البلاد. رمت فيما رمت اليه من اهداف الى « ترويس » فنلندا والولايات البلطيقية والبولونية وبساراييا وطبعها بالطابع الروسي الى حد انها بعثت كردة فعل ، حركة انفصالية بين هذه القوميات التي راحت فريسة الضغط والارهاق . وفي الوقت ذاته وجد عهد الاستبداد هـذا عوناً مالياً ودبلوماسياً وعسكرياً لدى حكومة الجمهورية الفرنسية في باريس دون ان يقطع علاقاته بالامبراطورية الجرمانية .

وهذا الجهد المؤقت الذي بـذله الحكم المطلق في روسيا لاعادة هيبته ونفوذه يجب ربطه بحركة التطور الصناعي الذي اخذت روسيا بأسبابه ، اذ ذاك . فقد تهافتت رؤوس الأموال الاجنبية على هذه البلاد بعد ان أُخذت بسحر غنى مواردها الطبيعية الهائلة ووثقت بصلاحها للاستثمار والاستثمار . ففتحت المناجم وارتفعت في كل بقعة ومكان المصانع والمعامل التي اخذ سكان الريف البائسون يتجهون اليها من كل فج وصوب من جميع انحاء البلاد .

والاحصاء الاول الذي وقع عـام ١٨٩٧ ، دل على ان سكان البلاد قفز عـددهم الى ١٢٥ مليوناً بعد ان كان ٥٧ مليوناً عام ١٨٥٠ ، كما اثبت ان مقابل ٣ ملايين من صغار الملاكين ينعمون باليسر كما استقر في الاذهان ، هنالك ٢٢ مليوناً روسياً هم من البروليتاريا يعملون في خدمة الصناعة ، و٣٦ مليوناً من صغار الفلاحين الملاكين الفقراء و ٤١ مليوناً من البروليتاريا المزارعين . ويشير الاحصاء بشيء من الرضى الى الارقام العالية التي سجلها الانتاج في البلاد . اكتسبت الامبراطورية الروسية ، في بعض الحالات ، محلاً مرموقاً بين الدول الاقتصادية

الكبرى ، إلا انها تبقى عاجزة عن تلبية حاجة الاهلين من الغذاء . فهي تسجل ادنى مستوى العيش على الاطلاق في اوروبا وتشير غالباً الى صادرات البلاد العظيمة من القمح وتهمل تماماً الاشارة الى الفقر والمجاعة الضاربة اطنابها فيها .

وقد شجع *Rejtern* بوصفه وزيراً للمالية في عهد القيصر اسكندر الثاني مرافق الصناعة في البلاد ، وهي سياسة تبنّاها وسار عليها خلفاؤه في هذه الوزارة ، امثال بونج وفتشنغرادسكي وفيت (الذي كان موسيقياً أعجب بليست وشرحه) . واقبلت روسيا تقترض من الخارج واستجابت الدول لندائها في هذا المجال . فالدين العام زاد خمسة اضعاف واربى على خمسة مليارات عام ١٨٩٥ كما ان النظام المصرفي تطور في البلاد بسرعة . والدليل التجاري الاعلى الذي كان بمعدل ١٠٠ في الفترة الواقعة بين ١٨٠٠ ـ ١٨٢٥ ارتفع الى ٩٧٢ في الفترة الواقعة بين ١٨٧١ - ١٨٩٩ في حين ان عدد السكان لم يرتفع الا ثلاثة أضعاف . وهكذا دخلت روسيا حلبة التجارة الدولية على حساب طبقة الفلاحين فيها التي أستبيحت كما ان الطبقات الشعبية فيها راحت فريسة ضرائب ورسوم مرزحة . ومهما يكن فقد ساعد تهافت رؤوس الاموال الاجنبية على توسيع شبكة الخطوط الحديدية ، واصلاح المرافىء والموانىء البحرية والاقنية النهرية ، والصناعات الاستخراجية والانتاج الميكانيكي والمنسوجات في كل من بطرسبورغ وموسكو واوكرانيا . من الرواد في هذا الميدان ولا سيما في حوض الدونتز ، الروسي يوهل الذي عرف ان يستثمر رؤوس اموال فرنسية والانكليزي يوث . وتولى فرنسيون من مدينة ليون ، ادارة شركة كاما التي راحت تعنى بانتاج الصب والصفائح الحديدية ، كما اشرف غيرهم على صناعة الحرير في منطقة موسكو . وشغل بلجيكيون ، والمان مراكز هامة في البلاد وفي هذا العهد راح السويدي لودفيغ شقيق ألفرد نوبل ، وهو من رجال الصناعة المشهورين اذ ذاك ، يتعهد بناء البوارج الحربية في كرونستادت . واخذ يدعو لبترول باكو كما راح يصمم الصهاريج وبواخر النقل الخاص بالبترول .

وأخذت المدن العمالية تنمو وتكبر بعد ان شيدت على عجل دون الاهتمام كثيراً بوسائل الراحة والترفيه . هنالك ساكن يفترش ساكنوها الارض العراء لا حصير فيها ولا فراش . وقد اعدّت بعض الشركات لعمالها مباني ضخمة جهزوها بالحمامات والمغاسل وراح بعض ارباب العمل يفرضون على العمال شراء موادهم الغذائية من مخازن التموين التي انشأوها بالقرب من هذه المباني ، كما ان العمال راحوا يؤلفون لهم ، في بعض الاماكن تعاونيات لتأمين حاجياتهم . واليد العاملة غير مستقرة تفرض عليها ايام عمل شاقة وطويلة بأجر سيء وانتاج ضعيف ، كثيراً ما يتعرض العمال فيها لحوادث العمل ، ينمّون فيهم روح النقمة وحب الثأر والانتقام . ومنذ عام ١٨٨٠ ، قامت في البلاد إضرابات عديدة أدت الى هبوط كبير في الاجور كما ان ارباب العمل كثيراً ما عمدوا الى اقتطاع بعض اجور العمال اقتصاصاً منهم لسوء العمل . ولهذه الاسباب

راحت حكومة القيصر تحاول الحد من هذه التصرفات الصارخة وترسم سياسة اجتماعية تتسم بروحها الابوية .

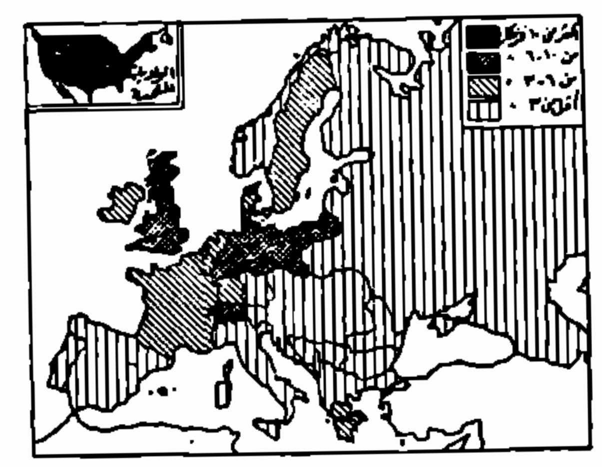
ومع ان الطابع العام للبلاد هو طابع ريفي فلم يستفد الفلاح الروسي كثيراً من فوائد الصناعة . من المفارقات الصارخة ، هذه الاراضي ذات التربة السوداء الصالحة لانتاج القمح . فقطع الارض في منتهى الصغر وحيث تشتد المجاعة فتصبح مخيفة (فقد ضربت مجاعة عام ١٨٩١ أرضاً تبلغ مساحتها مساحة فرنسا) اذ يضطر المنتج ان يبيع غلته في الخريف ليدفع ما يترتب عليه من الضرائب والاقساط السنوية المستحقة عليه ثم يضطر بعد ذلك لشراء حاجته من البذار بسعر أعلى مكتفياً في غذائه وغذاء قريبه بطعام رديء . هنالك سبعمائة ملاك يزيد مجموع ما يملكون من الاراضي على ٢٠٠ مليون هكتار . بينما ١٠٠،٠٠٠ من صغار الملاكين لا يزيد مجموع املاكهم على ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ هكتار . وقد استطاع واكلة ، الاراضي ان يغتصبوا ، شيئاً فشيئاً اطيب الاراضي المشاعية التابعة للهيئات البلدية ، بينما نرى فقراء الفلاحين ، في كل مكان ، في خصام موصول مع هؤلاء الغيلان . من هذه البروليتاريا الريفية الآخذة دوماً بالازدياد والنمو قسم يتجه نحو المعمل او يلتحق ببعض ورش العمل ، كما راح قسم آخر منها يطلق النفس بسأمه يستقر يوماً في سيبيريا حيث تنتظره متاعب الحياة ومنغصاتها . وهكذا نرى الوف من هؤلاء البؤساء يجوبون الارض سيراً على الاقدام لا يملكون شروى نقير او ما يمكنهم من ركوب القطار فيتساقط عدد كبير منهم عناء ويموتون فريسة الشقاء والبؤس . فظروف العيش لم تتغير كثيراً عن تلك الظروف التي رسف فيها أرقاء الارض .ولم يعد الموجيك يردد : « ليس غير الكسالى لا يوجه لنا اللطمة » ، فهو لا يزال يرى كما في الماضي : « ان الله بعيد عنه في الاعالي » كما ان القيصر بعيد عنه جداً في قصره . ففي خضوعه دوماً للحياة الجماعية ولمقتضياته ، فهو يرى نفسه مضطراً لتكييف نفسه ضمن الجدار الذي يحيط بكوخه الحقير – عزبة الشمال – المبنية من الخشب ، لا نافذة لها ، يحتل الوجاق جانباً كبيراً من كوخه ، ينام فيه صاحبه مع اولاده بملابسهم ، أو خطة الجنوب ، من اللبن وأحياناً من القش اليابس. ليس في هذا المسكن من صابون ، وقد يفتقر أحياناً للاضاءة ، كما يفتقر لبعده عن الغابة للحطب ، فيقنع ، ولا اختيار له ، بالقش والتبن . فالازدحام انما يعني : الاختلاط والفساد . فالشاي عندهم من الكماليات (واعطاه بقشيس ، في الروسية ، انما يعني: اعطاء شيء من الشاي) . وكثيراً ما يحتسون شراباً اشبه ما يكون بعصير التفاح يستخرجونه من نسغ الدردار وعصيره ، يعرف عندهم « كفاس » . فالنقص في المواد الغذائية والادمان على المسكرات برهان عالياً من نسبة الانحلال الفساد . والامل في الحياة يبقى ضعيفاً كما ان نسبة الوفيات بين الاطفال بقيت عالية جداً (فوالدا ليون تروتسكي مزارعان يهوديان ينعمان باليسر يفقدان أربعة من اولادهم الثمانية ، غير ان الخصب في التناسل هو مرتفع جداً ويكون معيناً للعديد من المعوزين والفقراء .

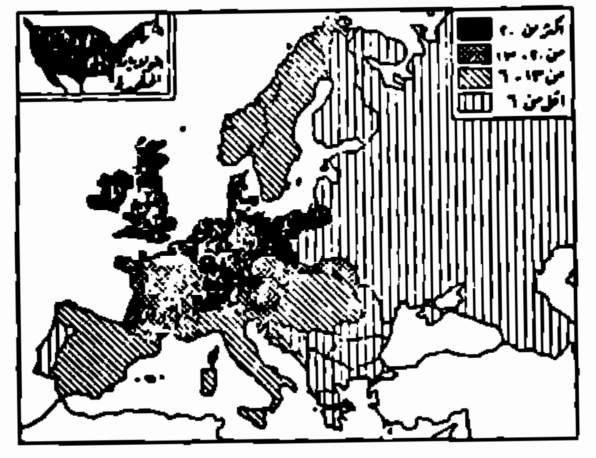
مظاهران مختلفان لروسيا : نخبة ادبية وفنية ممتازة وتأخر اقتصادي متصل

كانت روسيا ، منذ عهد بعيد ، مثار دهشة الاجانب لما تبديه حضارتها من اضداد ومفارقات . من جهة اخلاق شعبية ناعمة وان خشنت ملامسها، ومن جهة ثانية ، مجتمع رفيع مسلم للذات . هنا ، الجهل والسذاجة الفكرية والعقلية ، وهناك ، مرونة عقلية فائقة.

الادب الرومي أدب غني واقعي ، روحاني يصف لنا الموجيك الخشن الطباع والمرح معاً ، والتاجر الجشع ، والملاك الفظ بقلب الطفل ، والجذاف العامل على النهر ، والمتشرد التائه الذي لا جذر له ولا ينتمي لطبقة . فمن بوشكين الى نكراسوف الى بلوك ، ومن غوغول الى دوستويفكي ، ومن تشيخوف وتولستوي الى غوركي يقفز الادب الروسي عن شعر او قصة أو اقصوصة بلغت سدرة المنتهى بما تمور به من خيال مجنح ونقد لاذع وجزالة ادهشت اوروبا المهذبة وسحرتها . فالرغبة في العلم والاقبال عليه لا حدود لها ، وحب الفضول والظمأ الى المعرفة لا يروي له غليل ، وبقفزة واحدة يرتفع الفكر الروسي الى ابعد الحلول جرأة . فالانجازات العلمية عديدة ، سواء التجريدية منها والعملية الواقعية . صحيح ان الالهام الهندسي الذي نبع من الوحي الديني خبا وكأنه جف وغار ؛ الا ان معظم المنازل السكنية والمباني هي مستوحاة من الطراز الكلاسيكي أو الطراز القريب الذي غلب على اوروبا الغربية . ومع ذلك ، نحن أمام بوادر نهضة فنية روسية المصدر سلافية الينبوع، كما نرى ذلك في كنيسة المخلص في موسكو ، ومدارس الرسم الجديدة من الطراز الرومنطيقي او من الطراز الواقعي ، ورسم المناظر الطبيعية مع وفرة من التحف والنقش والحفر والرسم التزييني ، الا ان مظاهر الحساسية الروسية تجلت على اكملها في الموسيقى . فبينما نرى تشايكوفسكي وغلازونوف وروبنشتاين يقعون تحت سحر الموسيقى الالمانية ، نرى فريقاً كبيراً يستلهم بحق الادب الشعبي القومي والاغاني الفلكلورية ، والرقص القومي وأناشيد الطقوس الدينية امثال غلينكا ومن امثلهم دارغومسكي اولاً ، ثم « الخماسي » او الفريق الخمس الصغير *Koutchko* (او الكومة الصغيرة) كما كان يلقبهم بسخرية خصومهم ومنافسوهم . وقد برز بينهم : بورودين ورمسكي - كورساكوف وموسورغسكي الذين خرجوا لنا بأنغام والحان موسيقية تأخذ بمجامع القلب لما تتسم به من سمو وروعة ومناغاة وانسجام . وقد تتلمذ على رمسكي كل من سترافنسكي وبروكوفييف وخوستاكوفتش . كذلك عرف رقص الباليه المستوحى من الرقص الشعبي نجاحاً غريباً ، ووقع تحت سحره كثيرون من سكان المدن : « فالباليه المسكوبية هي ، ولا شك اكبر لذة يمكن ان يستمتع بها مشاهد » كما كانت تشهد بذلك مدام جوليت .

تمثل روسيا في الخريطة مساحة كبيرة اذ تؤلف مع مستعمراتها في آسيا كتلة واحدة . فهي في مقدمة الدول الاوروبية بكثرة سكانها. ويكوّن العسكريون لهم فكرة عن الجيش الاحتياطي الذي يتوفر لها كما يكوّن علماء الاقتصاد فكرة لهم للموارد الطبيعية الهائلة التي تتوفر لها . والحال ، فبالرغم من التطورات العظيمة التي حققتها خلال جيل ، فنشاطاتها لا تؤلف مع ذلك





شكل رقم ٢٠ ـ نشاط اوروبا سنة ١٨٩٠

شيئاً يذكر ، اذا ما قورنت بنشاطات دول اوروبا الغربية والوسطى . فمحصول روسيا من القمح في أواخر عهد اسكندر الثالث كان يوازي بالنسبة للقارة اجمع ١٠٪ من القمح ، يربى على ٢٥٪ من ماشيتها انها لا تنتج سوى ٢ بالمائة من الفحم ، و ٤ بالمائة من الصب ، و ٣ من الفولاذ ، ولا تصدر سوى ٤ بالمائة من الرسائل ، وعلمها لا يرفرف الاعلى ٣ بالمائة من مجموع السفن التجارية في العالم ، كما لا تساوي تجارتها مع الخارج سوى ٤،٦ بالمائة من مجموع الصادرات العالمية . اما مدارسها فلا تضم سوى ٢٤ تلميذاً لكل الف نسمة (١٧٢ في المانيا ، و ١٤٠ في السويد) .

فاذا ما سيت مناهج القيصرية وأعمالها القلق ، فالمراقبون السياسيون يشددون على صلابة «الصلاق الروسي من اقدام سريعة العطب » . وعندما اعلن القيصر نيقولا الثاني ، إثر اعتلائه العرش ، عام ١٨٩٤ ، عن عزمه بالدفاع عن مبادىء السلطة المستبدة ، كان الشك يخيم بالفعل حول حيوية هذا النظام بالنسبة للحاجات الكبرى التي يشعر الشعب الروسي اليها وبالنسبة للقوى الجديدة التي كانت تعتمل فيه .

القسم الرابع

الحضارات خارج أوروبا

اذا كانت اوروبا مدينة لتوسعها الخاص بارتفاع مستوى معيشتها واثراء ثقافتها ، فانها قد اوجدت بدورها مجتمعات جديدة على صورتها وزعزعت اكثر الاوساط البشرية اختلافاً عن وسطها . الا ان هذه الاوساط – المتنوعة جداً – لم تتطور الا ببطء ، وقد استساغ كل منها على طريقته ، وبنسبة متفاوتة ، ما أتى به الاجنبي . فان العالم الشمالي ، وافريقيا السوداء ، وشطراً كبيراً ممن اطلق عليهم بصورة عامة ، اسم البدائيين قد تقبلوا ما أتاهم دون ان يصدر عنهم ردة فعل تذكر . واخذ الاسلام ، بكليته تقريباً ، يرزح تحت سيطرة اوروبا ، ولكنه لم يتخل عن شخصيته المميزة القوية . وسلمت آسيا الرياح الموسمية تسليماً متفاوتاً بدخول الحضارة الاوروبية وقاومت جماهيرها الكثيفة طرائف اوروبا بتقليدية متصلبة ؛ واذا ما أخذت اليابان تذعن في النهاية لطرائق البيض ، فانها قد فعلت ذلك وكأنها تقصد مقاومتهم مقاومة أجدى . وكاد العالم اللاتيني الاميركي ، الذي كان بالامس اسبانيا وبورتغاليا ، لا يخفي الملامح التي تكون شخصية هذه الارض المميزة . ويجدر لفت النظر اخيراً الى ان العوالم الانكلوساكسونية نفسها في اميركا وافريقيا واوستراليا ، لم تكن ، ولم تستطع ان تكون ، صورة صحيحة لبريطانيا العظمى القديمة .

الفصل الأول

المجتمعات الشمالية الحقيرة

ادت الاستكشافات والتجارة ، حول الحوض القطبي الشمالي، المتوسط الامبراطورية الروسية واميركا الشمالية ، الى اخراج شعوب اقصى الشمال من عزلتها . فكان هنالك الشعوب الرعاة التي اعتمدت في معيشتها على حليب الرنة ، لحمها وجلدها ، والتي وفرت لهـا الاحراج الشمالية بعض الموارد الاضافية : الى هذه الفئة انتسب قبائل الآسيويين القدامى ، ال « اوستياك » ، و ال « صاموياد » ، وال « تونغوز » ، وقبائل ال « الاباسكيين » الاميركيين . ولكن سواد هذه الشعوب قدتعاطى في الوقت نفسه تربية الرنة واستثمار الموارد البحرية . ونخص بالذكر منها شعب الاسكيمو الذي امتدت املاكه من غرينلند » حتى « الابرادور » ؛ وقد اتاح له انتقاله الموسمي من منطقة الى منطقة اقتناص الكاريبو او الرنة الكندية والحيوانات الفروية وحيوانات المضائق الخاصة ؛ وكان يحسن استعمال الخاطوف ويستخدم المزلج الذي تجره الكلاب ، والكاياك او زورق الصيد الجلدي ايضاً . وكان يمسح جسمه بالادهان ويمتلىء من اكلها ؛ ويعيش منفرداً في الايغلو، او الكوخ الثلجي المؤقت ، طيلة فصل الشتاء البالغ القساوة في هذه المناطق .

ثم جاء الاجنبي ، وقد استهوته الحيوانات الغنية بالفرو والادهان والزيت والجلد والمواد القرنية والعاجية . فجلب معه لسكان السلاح الناري ، والاداة المعدنية ، والنفط الذي سهل الطهي والاضاءة ، والطحين والسكر والشاي مما جعل الغذاء اكثر تنوعاً ولذة ، والكحول وبعض الامراض ايضاً . وزاول القنص بوحشية فأفنى بعض الأنواع الحيوانية وقلب طرائق الحياة ظهراً على عقب . وهكذا فان اسكيمو اللابرادور قد اهملوا صيد الفقمة وبحثوا اكثر فأكثر عن الرنة الكندية والثعلب القطبي واستطابوا المأكولات الجديدة ، ولكن اوبئة الجدري والسل والداء الزهري فتكت بهم فتكاً ذريعاً ؛ فاضمحلوا اضمحلالاً تاماً في آلاسكا الشمالية .

وكان ان السلطات الكندية والاميركية ادخلت الى مناطق الشمال الفسيحة الرنة السيبيرية التي اخذت تتكاثر تكاثراً فائقاً مطرداً وفكرت بتنمية الرنة الكندية والثور المسك في الارخبيل القطبي ؛ وذهبت الدانمارك الى ابعد من ذلك فعزلت « غرينلند » لتضمن فيها حماية العناصر الخلاسية المنحدرة من الاسكيمو والسكندينافيين معاً .

الفصل الثاني

التقدم السريع
في العوالم الانكلوساكسونية الجديدة

«... هذا العرق المحيط منذ اليوم بالكرة الارضية والمقدر
له ان يملأها كلها يوماً ... »
(تشارلز ديلك ، ١٨٦٨) .

الاعمار : مشابهات واختلافات

ليس في القرن التاسع عشر ، في اعتقادنا، من احداث اكثر إثارة للانتباه من تكون عالم انكلوساكسوني يشمل اميركا الشمالية كلها ومجموع القارة الاوسترالية وارخبيل زيلندا الجديدة وشطراً واسع الاطراف من افريقيا الجنوبية . واننا نطلق على هذا العالم صفة الانكلوساكسوني لان أناساً ينتسبون الى الارخبيل البريطاني او البلدان الاخرى المحيطة ببحر الشمال قد عمروا هذه المساحات الشاسعة وطبعوها بطابع حضارتهم .

وهي اوستراليا وزيلندا الجديدة ، في الارجح ، ما تقدمان المثل على خير اعمار لجانساً . لقد تأخرت بريطانيا في استعمارهما ، ولكنها استعمرتهما بسرعة ، دون غيرها ، في النصف الثاني من القرن . ففي الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ حتى السنة ١٩٠٠ ، بينما لم تتجاوز نسبة تزايد عدد السكان سنوياً ٨،٠ بالمائة في اوروبا ، بلغت ٢،٤ في الولايات المتحدة ، و ٢،٦ في كندا ، و ٤،١ في اوستراليا ، و ٦،٨ في زيلندا الجديدة . ولم تكن اوستراليا لمدة طويلة سوى منفى يبعد اليه المجرمون ؛ ومن جهة ثانية ، لم يبد مناخها ملائماً الا لتربية المواشي التي لا تستلزم يداً عاملة وفيرة . فحدث آنذاك ما عرف بالاندفاع وراء الذهب الذي جاء بُعيد

المجاعة في ايرلندا وحركة الهجرة تحريكاً فجائياً : فارتفع عدد السكان الى المليون في السنة ١٨٦٠ ، وسوف يبلغ الخمسة ملايين في السنة ١٩٠٥ . واذا تدنت نسبة الولادات في هذه البيئة، فان نسبة الوفيات قد سقطت الى ١٠ بالمئة ، والبلاد قد نمت بنمو طبيعي عارم . ولم يبلغ البدائيون او الآسيويون الـ ١٠٠ الف نسمة في البلاد . اما الـ « ماوري » الذين انخفض عددهم الى ٤٠ الفاً ، فلم يكن لهم شأن يذكر في السنة ١٨٠٠ إزاء ٩٠٠ الف مهاجر مستعمر. ولكن هذه الدول الاوروبية الجديدة التي قامت في الجهة المقابلة لاوروبا على الكرة الارضية قد تميزت ابداً بطابع ضعف الكثافات البالغ .

في افريقيا الجنوبية كان البيض اقلية ازاء السود . فكان هناك اقل من ٥٠٠ الف بويري في جمهوريتي اورانج وترانسفال ، وزهاء ٣٠٠ الف اوروبي ، ثلاثة ارباعهم من البريطانيين في « الراس » وناتال ، حوالي السنة ١٨٥٠ . ويجب انتظار التهافت على المناجم حتى تؤلف العناصر الآتية من الخارج خطراً جديا على مراكز المهاجرين الاول الذين كانوا يتباهون بأنهم «افريقيون». ومها يكن من الامر ، فان اتحاد جنوبي افريقيا ، لم يضم غداة تكونه سوى ٠٠٠ ١٣٢ ١ ابيض مقابل ٤ ملايين ملون (يدخل في عدادهم ١٢٢ الف آسيوي) . اما كثافة السكان فكانت اعلى منها في اوستراليا (٤ انفس في الكيلومتر المربع مقابل ١) ، على نقيض المهاجرين الاوروبيين الذين كانوا دونهم في اوستراليا بصورة محسوسة، والذين لم يستطيعوا السيطرة عدديا.

ان أوجه الشبه كثيرة بين كندا والارض الاوقيانوسية الكبرى : اتساع الارجاء ، اقامة في مساحة ضيقة من الارض قبل وصول مهاجري العالم القديم ، إعمار تدريجي متأخر دونه في اوستراليا بالنسبة الى المساحة . وكما في افريقيا ، شعبان متقابلان : الشعب الفرنسي الاقدم استيطانا والشعب البريطاني الذي لم يلبث ان تفوق عدداً ؛ الا ان مصالحة واتحاداً جديا قد تحقق هنا لمصلحة الفريقين . اجل ان جاذب الولايات المتحدة الملاصقة قد افرغ المنطقة من بعض سكانها (اجتاز الحدود قرابة مليون نسمة بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٩٠٠) . الا ان عدد سكان البلاد ، التي اعلنت « ممتلكة » في السنة ١٨٦٧ ، قد ارتفع من اقل من مليونين في السنة ١٨٥١ الى اكثر من خمسة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وصحيح كذلك ان مساحات شاسعة ما زالت شبه مقفرة بين الولايات الغربية من نهر « سان - لوران » وبين المحيط الهادي (بحيث لم تكن الكثافة العامة سوى ٠،٦) ، كما امتدت مساحات مقفرة واسعة في اوستراليا بين الولايات الشرقية والولاية الغربية . ولكن منطقة المروج الكندية كانت مدعوة لمستقبل لامع ارتسم في اواخر القرن بفضل تزايد عدد المهاجرين تزايداً مطرداً . وقد تجمع الناطقون باللغة الفرنسية في كندا السفلى حول كيبيك، ثم تكاثروا بسرعة وتقدموا نحو كندا العليا، ممثلين نسبة ٣٠ بالمائة من مجموع السكان ، بينا عمت اللغة الانكليزية الولايات البحرية وسيطرت في مقاطعة اونتاريو وملكت سيدة في الغرب .

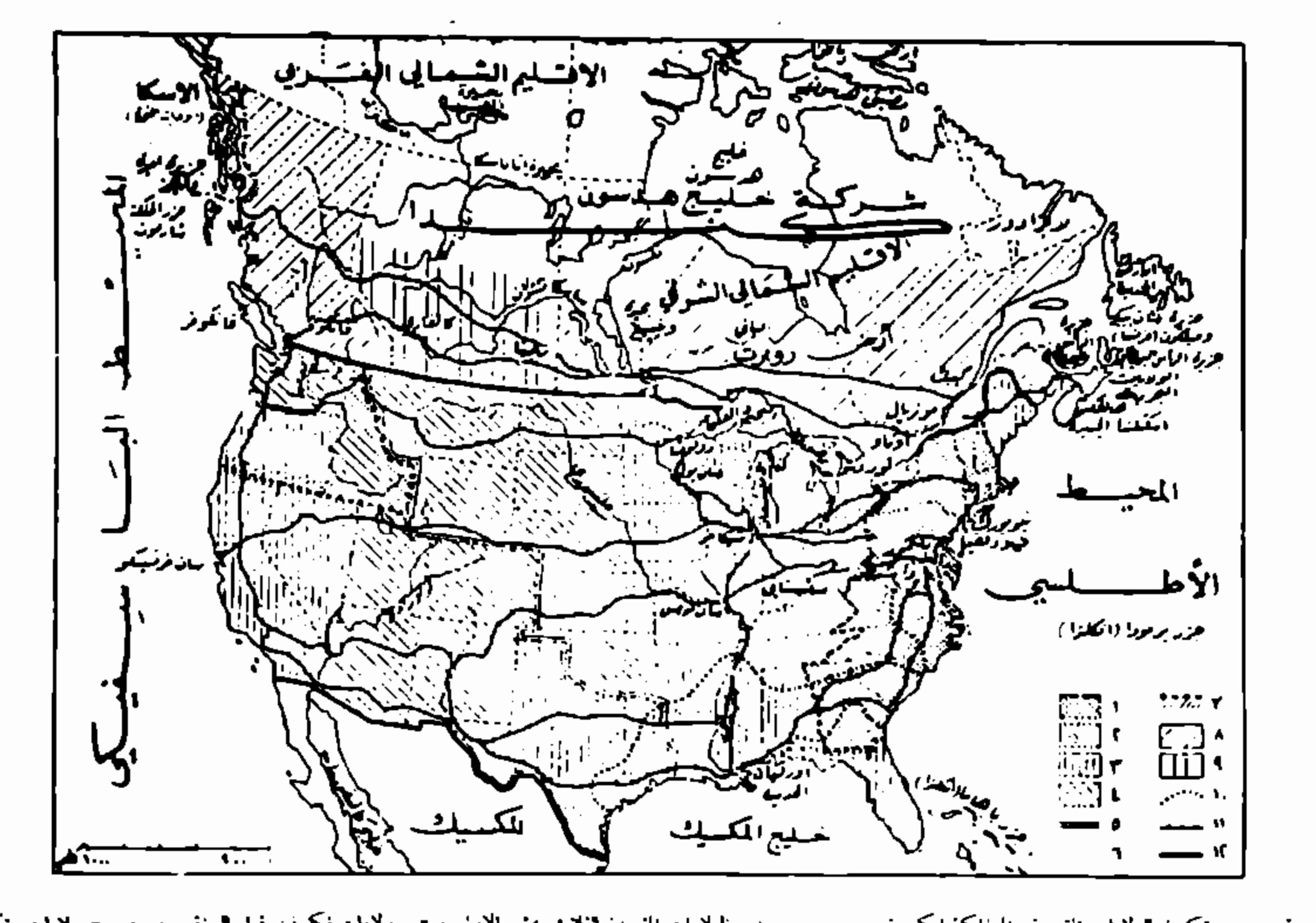
اجتذبت الولايات المتحدة وحدها سيلا بشريا دونه السيل البشري الى كافة المناطق التي

خلق فيها العلم البريطاني . ومرد ذلك الى امكاناتها الانمائية النادرة ، وربما الى استقلالها . سار الاستعمار فيها ، كما في كندا ، من الشرق الى الغرب ، وانطلاقا من الشواطىء البحرية ، على ان كل منطقة اميركية قد استعمرت قبل المنطقة الكندية المقابلة . وقد اثار فيهـــا وجود الزنوج والجماعات الآسيوية مسائل تعيد الى الذاكرة مسائل افريقيا الجنوبية ، كما ارتدى الصراع ضد الهنود ، في بعض الاحيان ، الطابع الوحشي نفسه الذي ارتدته الحرب الماورية . ولكن اذا لم تنتشر لغتان في الولايات المتحدة كما حدث في كندا ، فان عناصرها البشرية المتنوعة قد خضعت لعملية مزج حازمة اعطتها وجها مميزاً .

حوالي السنة ١٨٥٠ ، وعلى الرغم من أن المهاجرين أتوا من الارخبيل البريطاني وحده تقريباً ، كان مثال الـ « يانكي » الاميركي قد برز بصورة واضحة . وتفسير ذلك ان تكاثر سكان الولايات قد فاق المهاجرين الجدد منذ القرن الثامن عشر ؛ فلم يدخل البلاد اكثر من مليون شخص حتى السنة ١٨٤٠ ، ولم يتجاوز الداخلون الـ ١٠٠ الف شخص الا منذ هذا التاريخ . ولكن سكان الاتحاد كانوا قد بلغوا ٢٣ مليون نسمة ، حين ارتفعت نسبة الهجرة ارتفاعاً سريعاً بعيد الازمة الاوروبية بين السنة ١٨٤٦ والسنة ١٨٥٠ : ففي العقد السادس من القرن التاسع عشر ، بلغ عدد الداخلين ٥٠٠ ٠٠٠ ٢ نسمة مقابل ٧٠٠ ٠٠٠ ١ في العقد السابق ، و ١٠٠ ٠٠٠ ٢ في العقد اللاحق ، على الرغم من الحرب الانفصالية ؛ وقد بلغ عددهم ٨٠٠ ٠٠٠ ٢ خـــلال العقد الثامن . وقد نجم عن ذلك ان نسبة زيادة الولادات للداخلين قد تدنت ، فأصبحت ٧ مقابل ١ بدلا من ٩ مقابل ١ في السنة ١٨٥٠ . وهي اوروبا الشمالية التي ما زالت تصدّر اغلبية المهاجرين؛ غير انها ، بالاضافة الى البريطانيين ، أرسلت الايرلنديين والفلمنك والسكندينافيين والالمان . وقد حدثت آنذاك هجرة واسعة الى داخل القارة الاميركية ولا سيا الى المنطقة التي سيطلق عليها اسم « الغرب الاوسط » . ففاقت الجمهورية آنذاك كافة الدول الاوروبية باستثناء روسيا .

منذ السنة ١٨٨٠ ، باتت الهجرة اكبر حجماً واكثر كثافة ايضاً : فأدخلت ٥ ملايين نسمة في العقد التاسع و ٦٠٠ ٠٠٠ ٣ في العقد العاشر. ولكن نسبة الشماليين تدنت الى اقل من ٥٠ بالمائة وارتفعت نسبة اللاتين والسلافيين واليهود الشرقيين الى ٥٠ بالمائة . وقد ارتفعت نسبة المهاجرين الايطاليين وحدهم من ٦ بالمائة في السنة ١٨٩٠ الى ١٧ بالمائة في السنة ١٩٠٠ . وسيبلغ مهاجرو اوروبا الجنوبية والشرقية ٨٠ بالمائة من مجموع المهاجرين الذين يعبرون الاطلسي . وامام هـــذا العدد من المهاجرين الاجانب الجدد ، انخفضت نسبة المقيمين الى ٥٤ بالمائة ؛ وحتى الى ٢٠ بالمائة في نيويورك وشيكاغو .

في السنة ١٩٠٠ بلغ عدد سكان الولايات المتحدة ٧٥ مليوناً ، ولم تتجاوز كثافتهم الـ ١٠ في الكيلومتر المربع. ولكن لم يبق سوى سنوات معدودة امام الهجرة الحرة اذ ان الدلائل كانت تشير الى تصميم « يانكي» على مقاومة تتبع استمرار عمل البوتقة التوحيدي والتمثيلي .



شكل رقم ٢١ - تكون الولايات المتحدة والمملكة الكندية ١ - الولايات المتحدة الثلاث عشر الاولى ؛ ٢ - ولايات تكونت قبل السنة ١٨١٥ ؛ ٣ ولايات تكونت بين ١٨١٥ و ١٨٦٥ ؛ ٤ - ولايات تكونت بين ١٨٦٥ و ١٩١٠ ؛ ٥ - الحدود الغربية للمنطقة التي تخلت عنها فرنسا في السنة ١٨٠٣ ؛ ٦ - مناطق حصلت عليها الولايات المتحدة من اسبانيا (١٨١٩) والمكسيك (١٨٤٨) ؛ ٧ - منطقة حصلت عليها بعد تسوية اوريغون (١٨٤٦) ؛ ٨ - الولايات الاولى التي ضمتها المملكة الكندية (١٨٦٧ - ١٨٧٤) ؛ ٩ - ولايات كندية تكونت في عهد لاحق ؛ ١٠ - منطقة يقل فيها الزنوج ٥٠٪ من مجموع السكان ؛ ١١ - الخطوط الحديدية الرئيسية ؛ ١٢ - حدود الولايات المتحدة.

الساحات الفسيحة والحريات العامة : الحكم الذاتي والاتحادات

اذن ضمت الولايات المتحدة مساحات شاسعة يقابلها عدد قليل من البشر . ولكننا لسنا هنا امام امبراطوريات أسستها قوة فاتحة تولت هي الوصاية عليها ووزعت فيها المهام.

وقد ساد الاعتقاد ، منذ « توكفيل » ، بأن اميركا لا يمكن ان تكون الا ديموقراطية لأن كل شيء فيها يؤول الى السماح للفرد بالتصرع على هواه الى الله ويجمع الثروة دون اضرار بالغير . وكانت انكلترا قد اعترفت ، فيما بعد ، بأن المؤسسات التمثيلية توافق ممتلكاتها التي تنمو بدورها على غرار المستعمرات الثلاث عشرة التي كانت محصورة في القرن السابق .

اعطت الولايات المتحدة اول مثل عن كيان اقليمي كبير يرتكز الى المبدأ الاتحادي . فقد بدأ دستورها ، الذي كان بمثابة تسوية بين حاجات الدفاع المشترك وارادة الجماعات المحلية والاقليمية التقليدية ، وكأنه مثال الحكمة . وقد عرف الديمومة على الرغم من بعض التعديلات التي جعلتها الظروف ضرورية والتي لم تغير منه الروح . فجابه محنة الحرب الاهلية دون ان تتعين اعادة النظر فيه . وبات نفوذ السلطة الاتحادية منذئذ واقعاً لا يمكن انكاره او الاعتراض عليه ؛ وبدا كل انفصال مستحيلاً في المستقبل . فتواصل التوسع الاقليمي دون هزات جديدة : فكان هنالك ٣٦ ولاية و ١٢ اقليماً في السنة ١٨٦٧ ؛ وسوف تنشأ الولايات الـ ٤٨ في السنة ١٩١٢ .

بعد ان مرت كندا في ازمة شباب خطيرة ، حققت وحدتها ونعمت في الوقت نفسه بالحكم ذاته الذي منحتها اياه «وثيقة» السنة ١٨٤٠ . وفي السنة ١٨٤٧ ، اقدم اللورد « إلجن » صهر اللورد « دورهام » ، على إسناد الوزارة الى الزعماء المصلحين في بورجوازية الاحرار ؛ وكانت هذه الاخيرة راغبة في بذل جهود كبير التجهيز ، فتاقت الى تحمل مسؤولياتها . فبدأ حينذاك عهد عمل بناء استهدف تخفيف حدة الخلاف تدريجياً بين الناطقين باللغة الانكليزية والناطقين باللغة الفرنسية . فاتجه الكنديون من ثم نحو فكرة الاتحاد التي تقبلتها لندن في النهاية بحسن الرضى وطيبة الخاطر ، لا سيما وان هذه الصيغة قد بدت ، بعيد الحرب الانفصالية ، قادرة على إحباط بعض مقاصد الولايات المتحدة التوسعية على حساب كندا .

جمعت « وثيقة اميركا الشمالية البريطانية » - وهي وثيقة ولادة «المملكة» الاولى في السنة ١٨٦٧ – بين الحكم الذاتي على الطريقة الانكليزية والنظام الاتحادي على الطريقة الاميركية . فقد اتحد ، بموجب ميثاق ، شطرا كندا وسكتلندا الجديدة وبرونسويك الجديدة، ثم كولومبيا البريطانية ؛ وكما تقرر في الولايات المتحدة ، يمكن ان يقبل في الاتحاد كل اقليم يتقدم بطلب لهذه الغاية ، على ان تؤخذ بعين الاعتبار درجة إعماره وتقدمه . فمن جهة تحافظ كل ولاية على حكومتها الخاصة ، ومن جهة اخرى يكون على رأس الاتحاد حاكم يمثل الملك ، وبرلمان ، شبيه بالكونغرس الاميركي ، يتألف من مجلس الممثلين ومجلس الشيوخ . ولما لم يكن هناك رئيس

تنتخبه الامة ، فقد اسندت ادارة الشؤون ، على الطريقة البريطانية ، الى رئيس وزارة يختاره الحاكم ويكون مسؤولا امام المجلسين .

عرفت اوتاوا ، عاصمة المملكة الجديدة ، منذ ذاك الحين، نظام الحزبين نفسه المعمول به في لندن وواشنطن . وهم المحافظون – تحالف الملاكين العقاريين والبورجوازيين الكاثوليك والبروتستانت ، المعادين كلهم للراديكالية – من احرزوا الغلبة وتسلموا زمام السلطة اولاً . ثم قرب « الخط الحديدي الكندي الباسفيكي » المسافات بين الولايات الشان – لورانية وبين كولومبيا البريطانية . وفي السنة ١٨٧٠ ،ادى الاتفاق مع خلاسيي النهر الاحمر والـ «اسينيبويا» الى ادخال « مانيتوبا » في الاتحاد . ثم وضعت شرطة اوتاوا يدها على الاقاليم الشمالية الغربية حتى « الجبال الصخرية » بينما قضي على ثورة قام بها الخلاسيون والهنود، فمهد ذلك لقيام ولايتي « ساسكاتشوان » و « ألبرتا » . وعندما تسلم الاحرار بدورهم زمام السلطة ، تقدموا بمشروع تسوية لحيز استخدام اللغتين الانكليزية والفرنسية واخمدوا نار الخلافات الدينية والمدرسية ، واعدوا مشروعاً لإعمار الغرب واستثماره بسرعة ، وحافظوا على العلائق الطيبة بالوطن الام . ولكن المساواة في الحقوق، في نظر الديموقراطية الكندية ـ كما في نظر الديموقراطية الاميركية – لا تستلزم الحق في الحياة الا بقدر تأمين الفرد هذا الحق لنفسه بجهده الشخصي .

كانت المستعمرات الاوسترالية الاولى ثمرة نشاط مربي الاغنام . وعلى غرار ولاية « وايلز الجديدة » في الجنوب ، قامت في ولاية فكتوريا ، التي انفصلت عنها ، وولايات اوستراليا الجنوبية واوستراليا الغربية وكوينسلند ، مؤسسات تمثيلية عملت عملها لمصلحة اغنى المهاجرين المستعمرين. الا ان اكتشاف الذهب أثار بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ حركة اجتماعية كبرى؛ فقد تزعزت سيطرة المهاجرين المستعمرين ، وبرز الاقتراع العام الى الوجود ، واعتمدت بعض المستعمرات نظام الوزارات المسؤولة . فقامت الى جانب اوستراليا الاولى ، اي اوستراليا قطعان المواشي الكبرى في المساحات الشاسعة ، اوستراليا اخرى انتظر فيها المأجورون القليلو العدد ، المتحالفون مع صغار المزارعين ، مساعدة الدولة المطلقة ، لا سيما وان الحياة في اوستراليا اقل تعزيزاً منها في اميركا الشمالية . ولم يستطع الحكام ولا المجالس العليا احتباس التيار الديموقراطي الذي اتاح للمجالس المنتخبة بارادة الشعب تأليف وإقالة الوزارات التي زاد من ضعفها عدم وجود الاحزاب التقليدية . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان المجالس العليا باتت تعين ، منذ السنة ١٨٩٠ ، لفترة محدودة ، بواسطة هيئات انتخابية متزايدة العدد تدريجياً . وان مؤسسات اوستراليا المقتبسة عن مؤسسات الوطن الام قد تطورت بمزيد من السرعة ، وجاء النشاط التشريعي القوي يستجيب لانتظار حركة عمالية تطالب بتشريع اجتماعي . ولكن ذلك لم يبلغ حد التنازل عن الانانيات الاقليمية . لذلك فان الميثاق الاتحادي لن يبرم قبل السنة ١٩٠٠ ، كما ان « كومونولث » اوستراليا ، الذي تكون في هذا التاريخ،قد تمتع بصلاحيات اقل اتساعاً منها في المملكة الكندية .

كانت زيلندا الجديدة قد رفضت عرضاً بالاتحاد مع اوستراليا خشية منها ان تكون ضحية هـــذا الاتحاد . فاقتبست هي ايضاً مؤسساتها عن مؤسسات بريطانيا العظمى ، ولكنها كانت خلوا من الارستوقراطية ، وسوف تعين الوزارة مجلسها الاعلى لمدة سبع سنوات . وقد عقـــد الاحرار البورجوازيون تحالفاً مع العمال في السنة ١٨٩٠ ،فمنحوا النساء حق الاقتراع والماوري حق التمثيل والمأجورين حماية اجتماعية واسعة . وسترتقي زيلندا الجديدة في السنة ١٩٠٧ الى مصف « المتلكة » فتصبح مساوية في الامبراطورية لكندا واوستراليا ، بينما تكون افريقيا الجنوبية في طريقها الى هذا النظام .

على نقيض الكنديين الفرنسيين ، رفض المهاجرون الهولنديو المنشأ ، هنا ، التعايش السلمي مع البريطانيين . وعبثاً اقترح السير « جورج غراي » ، بعد رحيـــل البوير على نطاق واسع ، اتفاق شراكة بين الجمهوريتين البويريتين والناتال والراس لم تباركه لندن نفسها. ولكن المشروع سيبرز الى الوجود مرة أخرى : فسوف يتحقق الاتحاد الجنوبي الافريقي في اعقاب قتال دام ، وسوف تنظم المتلكة الجديدة نهائياً في السنة ١٩١٠ .

مصير الاعراق الملونة

حالت الاوهام العنصرية في كل مكان دون اتحاد الانكلوساكسون مع الاعراق الملونة ؛ ونادراً ما تغلبوا عليها باعتبار المنتمين الى هـــذه الاعراق مساوين لهم .

كان في اميركا الشمالية أناس تميزوا بقامة رفيعة وشعر اسود واملس وانف اقنـــى وجلد اصفر اخطأ المهاجرون بأن اطلقوا عليهم اسم الهنود الحمر . زاولوا صيد الحوت وقنص الرنـــة الكندية ، في الشمال الغربي ، وقنص البقر الوحشي والزراعة في الوسط (وقد ظهرت حضارة الذرة الصفراء بين البحيرات الكبرى والجبال الصخرية الوسطى)، وكانوا اهل حضر في الجنوب الغربي ؛ فتنوعت نظمهم السياسية تنوعاً عظيماً ، ابتداء من القبيلة المنعزلة وانتهاء بالاتحادات العسكرية الكبرى . وربما بلغ عددهم المليون « متوحش » عند وصول المهاجرين .

فلا مناص من ثم من احد امرين . نقلهم الى منطقة أخرى أو تقتيلهم . ولن يقر للمهاجر المستعمر قرار حتى تحل مسألة الحدود هذه . ثم جاء قانون السنة ١٨٨٧ الذي استهدف التهدئة بهبة الاراضي وتحسين الحالة الصحية والتعليم : فحدثت الثورة الاخيرة في السنة ١٨٩٠ ؛ وزال « الاقليم الهندي » الاخير من الوجود في السنة ١٩٠٥ . اما الباقون على قيد الحياة – أقل من نصف مليون – فقد خضعوا للقانون العام او انفردوا في « مناطق خاصة » .

وكذلك لم يخضع الماوري ، البولينيزي المنشأ ، المتوحش والفتان ، للسلطة النيوزيلندية ، الا بعد معارك ضارية . فزرع الذرة الصفراء والبطاطا في اراض مشاعية وتزيا بطيبــــة خاطر بالزي الاوروبي واعتنق المسيحية وتعلم التكلم باللغة الانكليزية .

وأبعد البدائيون الاوستراليون، البائسون والودعاء بالسليقة ، عن المناطق الكثيرة الصيـــد

الى الصحاري . ثم طاردهم البيض مطاردة فعلية بمساعدة شرطة من الزنوج . وهم لا يشكلون اليوم سوى اقلية لا اهمية لها الا في نظر العلماء .

وصل الاوروبيون الى افريقيا الجنوبية اثناء هجرة قبائل الـ « بانتو » من المنطقة الحارة الى الجبال والهضاب المرتفعة الخالية من الذبابة الناقلة مرض النوم والموافقـــة لتربية المواشي والكثيرة الصيد . فقاوم زنوج افريقيا الجنوبية احتلال البيض لاراضيهم مقاومة طويلة وضارية. ولكن كلما خفت حدّة المقاومة المسلحة تكاثر عدد الزنوج الذين خضعوا الشروط المفروضة عليهم ، ورفع المنجم كذلك عدد الكادحين من الاعراق الملونة . ومن جهـــة ثانية اجتذبت المهن الشاقة هنوداً وماليزيين عوملوا المعاملة نفسها ونظرت اليهم العناصر الأخرى كما الى دخلاء. وكان الخوف من الاعراق ، التي اعتبرها البوير والبريطانيون متدنية واستغلوها ، قسطه الكبير في التقريب بين هؤلاء واولئك .

وظهر عند الاوستراليين والنيوزيلنديين قلق مماثل أثاره فيهم الآسيويون – وجلهم مـــن الصينيين – الذين لم يكن عددهم مرتفعاً ، ولكنهم كانوا مهرة في التجارة والحرف الصغرى وحتى في الزراعة . فأدى ذلك منذ السنة ١٨٥٥ الى فرض القيود الاول على دخـول الصفر ؛ وقد نعت احد رجال السياسة النيوزيلنديين منافستهم بـ « القذرة والمنافية للطبيعة والجائرة ».

ويشاهد القلق نفسه كذلك عند اميركيي الغرب امام تدفق سيل الصينيين . فقد ظهـــر هؤلاء إبان الاندفاع وراء الذهب : فقد جمعتهم بعض الوكالات من ما كاوو وهونغ – كونغ ، ثم اشتغلوا في اعمال بناء الخطوط الحديدية . ولكنهم اشتهروا كطهاة وخدام منزليين واتقنوا غسل الثياب وكانوا اهلاً لتربية دودة القز وتجاراً اذكياء . فلم تتردد كاليفورنيا في السنة ١٨٨٢ في منع الهجرة ناقضة بذلك الاتفاق المعقود مع الصين ، وقد صادق المجلس الاعلى على هذا المنع . وسوف يتعرض التشريع لليابانيين في عهد لاحق .

اعتق الزنجي الاميركي منذ حرب الانفصال فاصبح من حيث المبدأ مواطنـــاً على غرار الآخرين . ولكن الرق والخلاف الدامي تركا آثاراً وذكريات دائمة . فخلال عهد « التجديد » الناقم ، عاد رجال الانفصال الى صوابهم وملكوا انفسهم ، فقابلوا بالعنف والارهاب بعض اعمال العنف التي اتاها الارقاء السابقون (ويعرف هذا العهد بعهد « كو كلوكس كلان »)وسيطروا مرة اخرى على المجالس التشريعية وحدوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا من الحقوق الممنوحة للاعراق الملونة بالتعديلات المدخلة على الدستور . فتجانب من ثم عرقان ، احدهما متشبع ابدا من تفوقه ومعاد لكل امتزاج وفارض على الآخر تمييزاً عنصرياً مذلاً . وعلى الرغم مـن ان عدد الزنوج قد انخفض نسبياً بالقياس الى مجموع السكان العام (١٢ ٪ في السنة ١٨٩٠ مقابـل ١٤ ٪ في السنة ١٨٦٠ وزهاء ٢٠ ٪ في السنة ١٧٩٠) ، فقد ارتفع ، بعد مرور ثلاثين سنة على الحرب الاهلية ، الى ٦ ملايين ونصف المليون يضاف اليهم زهاء مليون من الخلاسيين . وقـــد

مالت هذه الاقلية طبعاً الى التجمع في الولايات القريبة من خليج المكسيك : فجاء تجمعها هذا تميزاً جغرافياً اضفى على التمييز الآخر مزيداً من الخطورة .

عاد معظم الزنوج الى العمل في مشاريع استثمار الاراضي بصفة مكترين او مياومين . ولما كانوا يميلون طبعاً الى الانتقال من مشروع الى آخر ولا يعطون انتاجاً كافياً ، انتشرت شيئاً فشيئاً اشكال مزارعة شدّتهم الى الارض . وقد فضل اصحاب الاملاك « العامل بالحاصة » الذي لا يتوجب عليه سوى تقديم سواعده وبتقاضى اجوره عيناً ، « والشريك » الذي يقدم الحيوانات والادوات ويحتفظ بثلاثة ارباع الحصيد ، على المكتري الذي غالباً ما كان يعجز عن الوفاء .

الزنجي يزرع القطن
والزنجي يجمعه
والابيض يقبض المال
والزنجي يستغني عنه

السيدة تسكن القصر الجميل
والام الزنجية تقيم في الزريبة
والسيدة تحافظ على بياض ايديها
والام الزنجية تتولى كافة الاعمال الشاقة
والابيض يرتدي قميصه الشاة
ويجلس في مكان ظليل بارد
انه أكمل انسان خلقه الله .

اجل لقد ارتسمت حركة تستهدف السماح للزنوج بالدفاع عن مصالحهم في المعركة الاجتماعية . فقد كان باستطاعة النخبة ، بفضل العلم ، مزاولة المهن الحرة . ولذلك فقد قبل الزنجي في الهيئة الطبية في السنة ١٨٨٩ ، وفي المحاماة في السنة ١٨٨٩ . وقد نجح احياناً في الاعمال فاقتنى المساكن والعقارات التي اجرها بدوره . وبدأت رسالة المربين – واشهرهم « بوكر واشنطن » مؤسس جامعة « توسكجي » الزنجية – تعطي ثمارها حوالي السنة ١٩٠٠ . ولكن الكثيرين من الزنوج هجروا الارض بحثاً عن الثروة بين البيض في المناطق الاخرى، فلم تفقد الروح العنصرية شيئاً من حدتها ، بل انتشرت حيثما حلوا . ومهما يكن من الامر فان العالم الاميركي كان متشبعاً بهذا الوجود غير المرغوب فيه والمحتوم معاً ، ولن يستطيع التالك عن اقتباس « الجاز » الافريقي وعرض ملاكمي العرق المستحقر .

استثمار الاراضي الجديدة : من الاشكال البسيطة الى الاقتصاد التجاري الاكبر

في مجتمعات ارياف البلدان الانكلوساكسونية ، حل محل استثمار الارض البدائي استثمار واسع حقاً ولكنه مبني الآن على توزيع العمل توزيعاً مفرطاً . ولكن ما زالت هناك بعض النشاطات الابتدائية في اواخر القرن .

يجب هنا ان نضع جانباً مناطق الاقليم الحار حيث عرف المثال الاستعماري الديمومة وحيث

لم يستفد الابيض بسهولة من المساعدة التي وفرها له الملونون . وخير مثل هام على هذه المناطق هو جنوبي الولايات المتحدة . فالاقتصاد المنزلي يؤمن فيها الحاجات اليومية، بينما يتيح محصولان او ثلاثة محاصيل اساسية – القطن والتبغ قبل كل شيء – المقايضات مع الخارج . ولن يحدث فيها التحويل الجزئي الى الصناعة اي تبديل ؛ فذلك لن يزيل فقر فلاحين – بيض وسود على السواء – غير متعلمين ، ومفتقرين الى رؤوس الاموال وواقعين ابداً تحت رحمة المحاصيل السيئة وانخفاض الاسعار .

لم تمارس زراعة الاصناف الكثيرة ، الاوروبية المنشأ ، الا بين كندا وبنسلفانيا . يضاف الى ذلك ان تطوراً حدث فيها نحو اقتصاد الالبان والبقول والفاكهة . فظهرت هنا القرية كما عرفها العالم القديم . ولم يلبث المهاجر المستعمر الاميركي ان استهوته مساحات المروج الفسيحة حيث اصلاح الارض اقل صعوبة منه في المنطقة الحرجية ، وحيث تسهل تربية المواشي وزراعة الحبوب . ولكن ضرر الجفاف في ما وراء الميسيسيبي كان كبيراً جداً .

اما في نصف الكرة الارضية الآخر فان جبهة الاستعمار ما لبثت ان بلغت حدود المساحات الجافة الكبرى . فبرز من ثم « المستعمر » الاوسترالي الذي مارس عمل الصوف ، وهو العمل المثمر الوحيد ، آخذاً بعين الاعتبار المناخ والحاجة الى اليد العاملة وطريقة « وايكفيلد » . واحتل اعلى السلم الاجتماعي عدد محدود من كبار الملاكين : فقد امتلك اربعة منهم حوالي السنة ١٨٥٠ اقليما توازي مساحته مساحة بلجيكا ، كما امتلك بعضهم بين ٥٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠ رأس من المواشي .

قامت في « الراس » فئة من الاشراف الريفيين البريطانيي المنشأ ، نظراء « المستعمرين » الاوستراليين ، ولكن الـ « فلد » عاد للمهاجرين المستعمرين الهولنديي الاصل، الاوفياء للاعراف البطريركية . فالعائلة البويرية لا تقرأ على العموم سوى التوراة، وتسعى لان تكتفي نفسها بنفسها، وتضحي بكل شيء من اجل الماشية . انه لشعب نمطي ، لا يخضع ولا يقهر ، ساذج وكثير آراء سبق الوهم ، معاد للرأسمالي والزنجي الذين ينازعانه مسالكه وطرقه .

منذ السنة ١٨٦٠ تعاظمت مشاريع الاستثمار الحيواني في الولايات المتحدة . فبرز آنذاك « راعي البقر » ، رجل « مناطق الابقار » ، اي المناطق الواسعة الواقعة وراء الميسيسيبي التي اقتاد مواشيه عبر مسالكها في اتجاه خطوط الطول جامعاً بين حرارة ورطوبة الـ « تكساس » ومراعي « بلات » الصيفية . وبعد ان يسلم حيواناته في احدى « مدن الابقار » ، التي يلمع نجمها ويأفل بسرعة ، كان يقامر ويحتسي الخمرة بما ادخره من اجوره ، ويعتمد على مسدسه الذي يحمله ابدا في جيبه لسلب المسافرين وتوقيف وسلب القطارات الحديدية ؛ اما مأتيه فقد دونها كتاب « مشهد الغرب المتوحش » لـ « بوفالو بل » . ثم اضطر المثال الراعوي البحث الى ان يهاجر ابعد الى الغرب في الجبال الصخرية .

تقدمت الزراعة الكبرى على غيرها من الزراعات تقدماً حاسماً في منطقة المروج الاميركية وفي « اونتاريو » . فقد حدد قانون السنة ١٨٦٢ المساحة التي يتناولها عقد المزارعة بـ ٥٠ الى ٦٠ هكتاراً . الا ان الجزء الاكبر من الارض باعته اما شركات الخطوط الحديدية واما الولايات والحكومات الاتحادية انصبة اوسع مساحة الى حد بعيد . ولكن محاصيل الارض لم تكن جيدة في اي مكان ؛ فسعى المزارعون بالتفضيل وراء اختيار الاحسن من النباتات والحيوانات ؛ واتسع نطاق الزراعة في المناطق الجافة بواسطة « الزراعة البعلية » ، ونشط انتاج الالبان في منطقة جديدة حول البحيرات الكبرى . اما الوادي الكاليفورني ، التي كانت بورة في الأمس ، فقد تحولت الى زراعة الحنطة قبل ان تكتشف انها مدعوة لأن تصبح حديقة غناء .

في اواخر القرن تناول التشريع الاوسترالي مناطق تربية الغنم الواسعة ، ولما تعاظمت حاجات السكان المتزايدين عدداً ، شوهد ، الى جانب المستعمر المنتشر ، المستعمر « المنتقي » الذي تعاطى التجارة ببيع «مزرعته المتقنة » حيناً واستثمرها حيناً آخر ؛ يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الدولة قد حاولت تشجيعه بـ « سياسة مالية » ، انطوت على حفر الآبار الارتوازية وبناء السدود لاعمال الري . وفي « وايلز الجديدة » اتاح المناخ المتميز بمزيد من الرطوبة تربية المواشي الكبرى التي بيعت لحومها في مراكز التبريد في الموانىء ، وقيام صناعة ألبان راقبتها السلطات العامة . بيد ان زيلندا الجديدة هي البقعة التي شابهت خير مشابهة دولة اوروبية مثل الدانمارك .

اجل لقد تمتع صاحب المزرعة على العموم برفاهية هي اقرب ما يكون الى الرفاهية البورجوازية . ولكنه كان مضطراً لبيع كل شيء حتى يشتري كل ما يحتاج اليه تقريباً ، فارتكزت موازنته في اغلب الاحيان الى الدين الذي جعله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقطاع الرأسمالي . ولذلك فرضت المدينة شريعتها على هذا المجتمع الريفي بتجبر لم يعرفه العالم القديم نفسه .

مدينة العالم الجديد

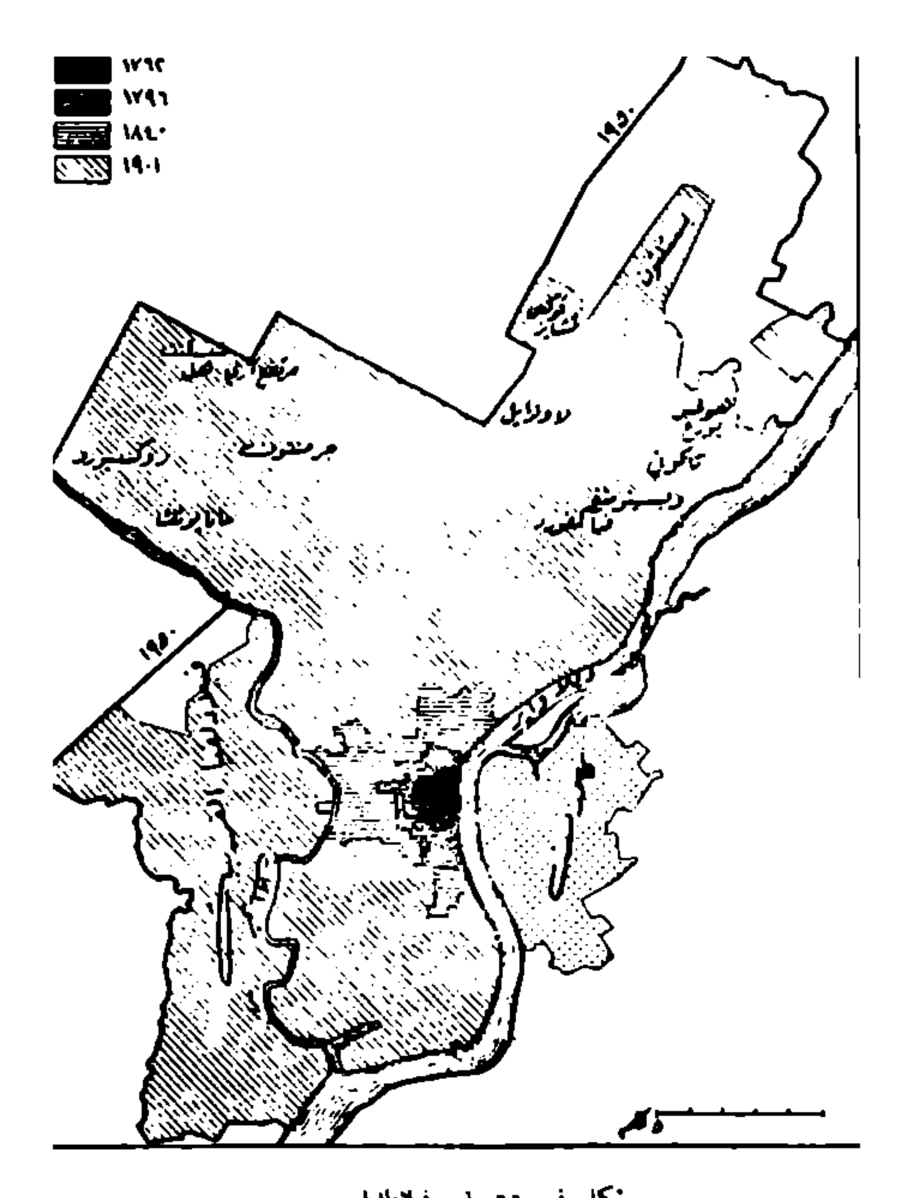
لم ترتد الظاهرة العمرانية طابع الاتساع العظيم الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ففي السنة ١٨٥٠ ما زال ١٩ مليوناً من السكان من اصل ٢٣ ، يعيشون في الارياف . وكانت كافة مدن المناطق الجنوبية متواضعة جداً . اما في السنة ١٩٠٠ فقد عاش في المدن ٣٠ مليوناً اميركياً من اصل ٧٥ ؛ وكان هناك اكثر من ثلاثين مدينة يزيد سكان كل منها على ١٠٠ ٠٠٠ نسمة ويبلغ مجموع السكان فيها كلها ١٢ مليون نسمة . ومنذ السنة ١٨٧٠ قفز سكان شيكاغو من ٣٠٠ ٠٠٠ الى ١ ٧٠٠ ٠٠٠ ، وتجاوز سكان نيويورك الـ ٣ ملايين وسكان فيلادلفيا المليون . وفي هذا المجال كان التطور متواضعاً في افريقيا الجنوبية ، وناشطاً في كندا ، وسريعاً جداً في اوستراليا حيث جمعت سيدني وملبورن وادلايد ، في السنة ١٨٩٠ ، ربع مجموع السكان العام ، وحيث ضمت ملبورن وحدها نصف سكان ولاية فكتوريا تقريباً .

فنحن من ثم امام ظاهرة تكاثر المدن الجديدة السريعة النمو . وكانت المدينة ، على الجبهة الاستعمارية ، مجموعة اولية تضم الحانات والكنائس والمدارس ودور البريد لكل تقسيم اداري . فكانت من ثم استجابة لوظيفة المقايضة التي لم تلبث ان فرضت نفسها على اهالي الارياف .ولكن غالباً ما كان المنجم او المصنع سبباً لقيام المدينة . وفي مثل هذه الحال نرى ان اعتماد الاسماء بعيد الفكر الخلاق بقوة الى الذاكرة : بسمر ، اتنا ، كرنجي ، مونسن (استن ومولونغاهيلا) حول بتسبورغ ، وايرونتون ، وايرونسونتن ، وايرونوود في اماكن أخرى . وهنالك كذلك عواصم تأسست لايواء المصالح الحكومية والادارية ، كواشنطن مثلاً .

لقد ولىّ الزمان الذي كان ممكناً فيه ابتياع « كل مستنقع شيكاغو اللعين » بزوج احذية عتيقة ، كما زعم بعضهم في عهد لاحق . وقد اعطى المثل « جون استور » تاجر الفراء بشرائه بعض الاراضي في نيويورك ؛ فان احد ابنائه ، الذي توفي في السنة ١٨٧٥ ، قد خلف وراءه ثروة تقدر بـ١٠٠٠ مليون دولار تشمل من جملة ما تشمل ٧٠٠ عقار على ضفاف نهر هودسن ! وفي السنة ١٩١٢ ، اصبح رأسمال آل استور ٤٥٠ مليون دولار بفضل ابتياعات جديدة وارتفاع الدخل العقاري. وفي شيكاغو ارتفع ثمن الـ ١٠٠٠ متر مربع من ٢٠ دولاراً في السنة ١٨٣٠ الى مليون دولار في السنة ١٨٩٢ .

ان في اتساق تقسيم المساحات الواسعة ، الممسوحة هندسياً ، ما يفسر التصميم الشبيه برقعة الشطرنج . فالى الشرق من الاطلسي يسير الشارع كما تسمح بذلك المنازل ، لأن تصميمه يفرضه رسم الاملاك غير المتسق ؛ اما هنا فالمنزل يشيد على جانب الشارع . وينجم عن ذلك وحدة سياق مفرطة يساعد الانتباه اليها ترقيم الشوارع . فان كثافة السكان في شيكاغو ، البالغة مساحتها ٤٤٠٠٠ هكتار ، وفي فيلادلفيا البالغة مساحتها ٣٥٠٠٠ هكتار ،هي ربعها في لندن للاولى وخمسها الثانية .

كانت نتيجة هذا الاتساع المفرط تشتيت المساكن التي كانت على العموم قليلة الارتفاع ومبنية بالقرميد . ولم تظهر الابنية المرتفعة الا بعد السنة ١٨٨٠ في الاحياء التجارية حيث اكتسبت الاراضي قيمة كبيرة جداً : وهكذا انتصبت ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عند رأس مانهاتن في المدينة المنخفضة ، القريبة من المرفأ ، زهاء ثلاثين بناء يتراوح عدد طبقاتها بين ١٠ و٣٠ ! وقد شيدها بعض الافراد الاثرياء او شركات التأمين او المصارف . وعلى مسافة قريبة من هذه الابنية الشاهقة التي اوت المخازن والمكاتب ، انبسطت منطقة من المساكن المدخنه والمهملة التي تخلى عنها تدريجياً لمساكين الفقراء ؛ فكان ان الكوخ الخشبي قد جاور ناطحة السحاب في بعض الاحايين؛ ثم انبسطت بعد ذلك مدينة صناعية جديدة احاطت بها احياء سكنية .فالقسم الشرقي من المدينة المنخفضة في نيويورك هو حي العمل الشاق ؛ وتكون مركز ثان للاعمال والسكن في وسط المدينة . فتجاذبت مجموعات مختلفة قطعت مناظرها العامة الخطوط الحديدية



شكل رقم ـ ٢٢ ـ توسع فيلادلفيا

و ـ م ، وسط المدينة ؛ ج ـ ش ، الحربات الشمالية ؛ س ـ و ، سوثوورك ؛ ك ـ ، كنسنتون ؛ ج ،
بلة الربيع؛ م ـ ، مويامنسنغ ؛ ب ـ الميبرنك .
(نقلا عن اوبرهلتزر في « فيلادلفيا ، تاريخ المدينة وسكانها » ومعلومات البروفسور « لن م . كايز »
ـة بنسلفانيا) .

والمؤسسات الصناعية . اما في ادلايد فكانت مدينة العمل ومدينة السكن منفصلتين تحيط بكل منهما الحدائق والرياض . وبدت المدن الاوسترالية من جهة ثانية احسن نظافة وافضل تنظيماً : فقد رصفت شوارعها بالاخشاب ، ولم تكن مساكنها المتشابهة لتظهر الفوارق الاجتماعية ، على نقيض مدن الولايات المتحدة حيث تميزت احياء الاغنياء عن احياء الفقراء تميزاً جافاً . وقد وصف المسافرون باعجاب مساكن الاثرياء الجميلة في بوسطن وفيلادلفيا ونيويورك ؛ وهكذا فان البارون « دي هوبنر » قد دهش حوالي السنة ١٨٧٥ في شيكاغو من « جادة ميشيغان الشهيرة ... » حي كبار الاثرياء ، ومساكنها الفخمة الزاهية ، الخشبية كلها ، والمسقوفة بالجص ، والمبنية وفقاً لشتى الانماط ، الايطالي ، والكلاسيكي ، والمستهجن ، والقوطي والروماني ، والمحاطة كلها ، اقله من جهة المدخل ، بحدائق جميلة صغرى » ... ولكن غبار الصيف واوحال الشتاء كانت آفات حقيقية . فقد لاحظ احدهم ان الجادة الخامسة في نيويورك تكاد لا تفضل غيرها تعهداً وعناية ونظافة ؛ اقذار في كل مكان ؛ وحاجة ماسة في كافة الفصول الى انتعال احذية من المطاط . اما في كندا ، فقد ذكر احدهم ان الشوارع الوحيدة المرصوفة بالبلاط هي شوارع تورونتو و « ونيبيغ » . ولكن الانارة افضل منها في المدن الاوروبية ، على ان الينابيع ما زالت في حالة سيئة والمياه تنقطع احياناً . ومنذ السنة ١٨٧٨ ، دشنت « بوفالو » تدفئة مركزية بخارية ما لبثت ديترويت ونيويورك ان اعتمدتاها بدورهما . وتعددت وسائل الانتقال ، وعلى نقيض المدن الاوسترالية ، الهادئة نسبياً بفضل مركباتها العامة التي تجرها الاحصنة ، اذهلت المدن الاميركية الاجانب بضجيج السير في شوارعها .

تميزت المدن الاميركية كذلك بزرقشة سكانها العنصرية . ففي نيويورك ، كان للايطاليين والايرلنديين واليهود والزنوج احياؤهم الخاصة . ولم تزل « البوتقة » قط هذه الخصوصيات ؛ ولكنها خلقت واضافت الى كل مثال خاص مثالاً اميركياً هو المثال المشترك .

حضارة الآلة في الولايات المتحدة والامكان الكبرى

احتلت الولايات المتحدة بين العوالم الانكلوساكسونية مركزاً خاصاً متفوقاً حقاً . ولم تكن مدينة به للامكانات الكبرى التي وفرتها البيئة الطبيعية فحسب ، بل لطبيعة شعبها الخاصة ايضاً . وقد سبق لـ « توكفيل » ولاحظ ان « المصلحة هي الرابطة » الجامعة بين العناصر « المختلفة جداً » التي يتكون منها هذا الشعب . فان هذه الامة ، التي لا ماضي لها والتي لا أوثق تشدها الى الارض ، تألفت من جماعة من البشر وضعوا نصب اعينهم الرفاهية المادية التي حققوها بخير الطرائق فعالية . وقد تميزت بغلواء الشباب المقتحم مغامرة كبرى والعامل في كل ما هو جديد .

حضارة جماهيرية ، كما هو محتوم . فالجغرافية نفسها قسمت القارة مناطق واسعة متشابهة . فقابل تشابه الطبيعة تشابه العمل البشري . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الخيار لم يكن جائزاً .

فاما يحكم هذا المجتمع على نفسه بالاملاق ، واما يقبل بالمنتجات « الموحدة » .

في كنف التصرفات الحامية ، وبفضل جهود تقني كبير استهدف تخفيض النفقات العامة ، وزيادة الانتاجية ، وبواسطة الاعلان الذي دعا الجماهير بالحاح الى زيادة استهلاكه ، اصبحت اميركا بالتالي بلاد الصناعة النسقية وانتاج القطع القابلة التبديل . تم التفح مكان كل من النشاطات جغرافيا ، بعد ان سهّل تعيينه بناء شبكة خطوط حديدية واسعة جداً . ورافق تجمع رؤوس الاموال انتاج الكميات الكبرى ، بينما تكاثرت الى جانب المشاريع الكبرى وفي ظلها الحرف المنزلية الصغرى التي تجمعت في حي العمل الشاق .

جرّت اوروبا شيئا فشيئا الى الاستفادة من خدمات الآلة ؛ ولا غرو فان سكان العالم الجديد مدينون لها بكل شيء . فهي التي تزرع الحنطة وتحلج القطن وتقتل الحيوانات في المسلخ وتقطعها . فهم سوف يستلمون منها بلء رضاهم المواد الغذائية والملابس والاحذية النسقية ، وسوف يأتمنونها على بناء منازلهم التي ستكون متشابهة بالضرورة . وهي توفر الكمية وتسهم في الوقت نفسه في تخفيض الاسعار . ان عملها لعمري لعمل استبدادي . ولكنه عمل مفيد في نظر الجماهير التي تطالب بحاجيات تكون في متناول ايديها .

لنتصور انطلاقة الصناعة . لقد ضمت ١٤٠٠٠٠ مؤسسة في السنة ١٨٦٠ ، و ٣٥٥٠٠٠ في السنة ١٨٩٠ ، و ٥١٢ الفاً في السنة ١٩٠٠ ؛ وربما بلغ رأسمالها ١٧ ملياراً في السنة ١٨٩٥ ، مقابل ٢١ في بريطانيا العظمى ، و ١٧ في المانيا ، و ١٤ في فرنسا . ومن المسلم به من جهة ثانية ، ان ثروة الولايات المتحدة قد تضاعفت اربع مرات بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٩٠ (في حال ان الدخل قد تضاعف مرتين فقط) . ولم تعرف اية دولة اوروبية مثل هذا التقدم في حقول التجهيز وصناعة مواد الاستهلاك . وان علم الاحصائيات الذي دون هذه النتائج المرضية قد أصبح هو نفسه موضوع عبادة : فقد اخذ الاميركي يقدم الارقام كخير البراهين الثابتة على تفوقه . ووطن نفسه على انه تقبل تصيب « الاعظم في العالم » ، وعلل نفسه منذ ذلك الحين بانه سيتمكن قريباً من ان يكون موّان العالم كله .

الا ان هذه التقنية المتطورة تطوراً دائماً قابلتها منافسة حادة جداً اعتبرت ضرورة حتمية . اجل تقدمت الارستوقراطية بعض التقدم ، ولكن بورجوازية اعمال كبرى نمت في النصف الاول من القرن ، فألفت طبقة منفتحة لأعداد كبرى تتجدد وتزداد ثروة في كل جيل . وقد ذل اعجاب الناس « الرجل المكون نفسه بنفسه » : يولد فقيراً ويتصرف ، حين يصبح من اصحاب الملايين ، - وسنتكلم قريباً عن اصحاب المليارات - تصرف « النحلة العاملة التي تردع الفقير الصناعي العمل الذي لن يتأخر سكان الفقير ، والجموع بصورة عامة ، عن الاستفادة منه » . هكذا تكلم « كرنجي » .

كان اتساع الحقل المفتوح أمام النشاط ، واهمية المشاريع ، وحتى نزعة السكان المسرفين

الى استخدام المصنوعات الموضوعة تحت تصرفهم استخداماً سريعاً ، عوامل مؤاتية كلها لتقدم الاعمال . فأميركا بلد المضاربات العنيفة والارتفاع المدوخ في الاسعار ؛ فـلا عجب من ثم اذا ما تحركت البادهات ، وتضخم حجم الوسائل النقدية تضخماً فجائياً ، وارتفعت الاسعار ، وارتفعت المكاسب بمزيد من السرعة ايضاً : كل شيء مرجو وجائز كما يبدو . وطبيعـي ان مثل هذا الدوار لا يمكن ان يدوم طويلا : فكما في اوروبا ، لا بل اكثر من اوروبا ، حدثت انهيارات مفجعة ؛ وحدثت بالتالي عملية اختيار طبيعية ، سقط الضعفاء خلالها الى الحضيض ، وتلتها عملية تمكين كانت نقطة الانطلاق لمرحلة صعودية جديدة .

كانت النتيجة الطبيعية لمثل هذه الحركة السريعة (على الرغم من التبذير الصناعـي) تقوية سيطرة رؤوس الاموال الكبرى . فمن أصل ٥١٢ الفاً ، استخدمت ٤٥٤ الف مؤسسة مليون اجير ونصف المليون ؛ ولكن ١٢ الف مؤسسة اخرى ضمت مليونين ونصف المليون : وربما راقب ٢٥ الف شخص نصف الاعمال الصناعية .

الفروع الكبرى لعالم الاعمال الاميركي

لا ريب في أن الحدث الرئيسي كان تقدم الصناعة الثقيلة تقدماً عجيباً نادراً . فمقابل مليوني طن حديدا و ٤٠٠ الف طن فولاذا في السنة ١٨٧٥ ، انتجت الولايات المتحدة اكثر من ١٠ ملايين طن حديدا وزهاء ٥ ملايين طن فولاذا في السنة ١٨٩٠ ، حين انتزعت الاولوية من بريطانيا العظمى . وقد توفرت لصناعة المعادن هذه موارد نادرة من الوقود والمعادن غير الخالصة . فهناك من جهة استخراج الفحم الحجري الذي ارتفع انتاجه من ٧ ملايين طن في السنة ١٨٥٠ الى ٢٥٠ مليونا في السنة ١٩٠٠ ؛ ومن جهة اخرى مناجم المعادن غير الخالصة التي احتلت الولايات المتحـدة، بالنسبة اليها ، المركز الاول ايضا . وقد تفاوت تجمع هذه الاعمال ، فكان في صناعة الفحم الحجري دونه في صناعة النحاس مثلا التي اشرفت عليها خمس شركات خضعت هي نفسها لسيطرة رأسماليي بوسطن ونيويورك ، او في صناعة القصدير التي اشرف عليها « مور » ، « ملك التنك » بالاشتراك مع « شركة التنك الاميركية » . وهي ارادة روكفلر ما ادارت حقل تجارة النفط ، اذ ان شركة « ستاندرد اويل تراست » قد روجت زهاء ٩٠ بالمائة من هذه المـادة في الاسواق . وقامت كذلك مشاريع كبرى في صناعة الفولاذ ؛ وكان كرنجي على رأس احداها في بتسبورغ ، ودعا الى تأليف تجمع يكون أعظم مشروع عالمي في حقل الفولاذ . وبعد خصام طويل وعسير خضع ثلثا الخطوط الحديدية لسيطرة بعض الفئات التي كان يرعاها « فاندربلت » ، و« بيير بونت مورغان » ، و « هاريمان » ، و « غولد » ، بينما اخرج « بولمن » من مصانعه في شيكاغو اكبر عدد ممكن من مقطورات السكة الحديدية . وترأس غولد كذلك شركة « تلغراف الاتحـاد الغربي » التي كادت تحتكر صناعة الاسلاك احتكاراً فعليا . ووزعت شركة « بل الاميركية للهاتف» خلال عشر سنوات، مليوني دولار تمثل ارباح رأسمال يبلغ ١٠ ملايين دولار، وقامت بعد انتشار الاضاءة الكهربائية ثلاث قوى اخـرى : « ادسون جنرال اليكتريـك » ،

و « طومسون – هوستون » ، و « وستنكهوس » . وبدأ « دوبون دي نمور » عملا واسعا في المواد الكيميائية .

اذا انتجت صناعات الحديد والفولاذ والآلات والادوات الاجهزة التي تحتاج اليها النشاطات الاخرى ، فهي التغذية والمنسوجات ما احتل المركز الاول بالنسبة لقيمة رؤوس الاموال الموظفة . فان صناعة معلبات اللحوم مثلا قد عرفت شركتين او ثلاث شركات كبرى كشركة « ارمور وسويفت » في شيكاغو التي توصلت بفردها » في مصانعها الواسعة (٢٥٠ هكتاراً) الى تقطيع وتوزيع بين ١٠ و ١٢ مليون حيوان ، وزادت أرباحها بصناعة المنتجات الثانوية: العظام والقرون للاسمدة ، الشحوم للصابون والكليسرين ، والدم للازرق البروسي ، وشعر الخنزير للفراشي ، وشعر الثيران للفرش. وبلغ التجمع كذلك شأواً بعيداً في تكرير السكر لمصلحة « شركة تكرير السكر » ،بينما قام « ديوك » بدعاوة ناشطة لفائف التبغ وأسس « شركة التبغ الاميركي » .

ما زال الشمال الغربي منطقة صناعة النسيج الاولى ، وعلى الرغم من ان « شارع القطنيات » في كارولينا وجورجيا ، القريب من المادة الخام ، قد أخذ ينافس المناطق الاخرى منافسة جدية ، فان « ماساشوستس » و « رود - ايلند » و « كونكتكت » ما زالت متفوقة في هذا المضمار . فان هذه الولايات قد تربعت مع بنسلفانيا على عرش المنسوجات الصوفية ، ولكن « باترسون » هي التي بلغت ، في سنوات قليلة ، مستوى « ليون » و«ميلانو» في صناعة الحرائر . وقد خرجت من مشاغل نيويورك وفيلادلفيا العائلية الوفيرة العدد الالبسة الجاهزة التي تسلّم الى تجار جملة يزودون بها المخازن الكبرى بدورهم ؛ وبرع المهاجر اليهودي في هذا العمل بفضل آلة خياطة انتجها مصنع « اليزابيت » ، فكان يفصل ويشرح ويصنع الملبوس ويكوي، لحساب المخازن الكبرى .

وزادت في الوقت نفسه سرعة التجمع المصرفي . فليس هناك ، خارج الشمال الشرقي ، سوى ١٤٠ مؤسسة من اصل ٢٧٠٠ ، وكانت البورصة المصرفية تصدر عن « وول ستريت » الذي ارتفع مجموع معاملاته المالية الى ٣٥ مليار دولار في السنة ١٨٩٠ . اضف الى ذلك ان معظم الشركات الصناعية رغبت في ان يكون مركزها في « مانهاتن » حيث يخفق قلب « الاعمال الكبرى » .

ولم يعن كل ذلك ان اميركا اهتمت اهتماما كبيراً لاجراء مقايضاتها الخارجية في ظل علمها الخاص . وقد قال كرنجي: « فلنترك البحر المانع للوطن الام القائم في وسط الامواج ولنكتف بالارض التي هي تراثها القومي » ! لذلك كان الاسطول متأخراً تأخراً بينا عن اسطول بريطانيا العظمى : ففي السنة ١٩٠٠ لم يكن محموله نصف ما كان عليه في السنة ١٨٦٠ . زد على ذلك من جهة ثانية ان التجارة مع الخارج قد تعاظمت وان الميزان كان دائناً مع اوروبا: فاحتمى الاتحاد بتصرفاته ووسع تجارته مع آسيا واميركا اللاتينية ، فساعد ذلك على نمو كاليفورنيا ومرفأه سان

فرنسيسكو » . ولن تلبث الولايات المتحدة ان تصاب بداء الاستعمار الاقتصادي .

سيادة المصالح الكبرى في الولايات المتحدة

جاز لانفلز ان يكتب لاحد مراسليه في السنة ١٨٩٢: « قد قدم الاميركيون للعالم الاوروبي ، منذ زمن غير قريب ، الدليل على ان الجمهورية البورجوازية هي جمهورية رجال الاعمال ، حيث السياسة عمل تجاري كغيره ...» ويكاد الاميركيون يعترفون بذلك في الواقع .

قدم كرنجي كتابه « الديموقراطية الظافرة » ، الجمهورية العزيزة التي تتيح لاي شخص كان الارتقاء في السلم الاجتماعي بجده وكده ، وخلص الى القول : « لا تتم التسوية بانزال الناس من مرتبة الى مرتبة بل برفعهم كلهم الى كرامة « المواطنية » التي هي ارفع كرامة يمكن ان يتوق اليها الانسان » . لقد ولى الزمان الذي جاز له « توكفيل » فيه القول بأن الناس كلهم يسهمون إسهاما باشطاق الشؤون العامة؛ فقد ارتفعت نسبة الامتناع عن هذا الاسهام كلما ارتفعت نسبة المنتمين الى الطبقات الجديدة من المواطنين المفتقرين الى مزيد من الثقافة والى الخبرة في النظام التمثيلي . ولما كان كل شيء يُرد ، من جهة ثانية ، الى الصراع بين فريقين يعرف اولهما بالفريق الجمهوري والثاني بالفريق الديموقراطي ، كان من الاهمية بمكان ، قبل أي شيء آخر ، ان يشجع الفريق الحاكم دائرة المصالح التي يتحرك فيها . فنجم عن ذلك ان المصالح الكبرى هي مـا قررت الاتجاه الحقيقي للتشريع والرئاسة . وصعب من ثم على اعظم الحكام نزاهة الوقوف في وجهها . ومرد ذلك الى ان الحملات الانتخابية باهظة الاكلاف ، ولا سيما حملات انتخاب الرئيس التي تستلزم جهوداً اعلانيا كبيراً جداً . وان مثل « تاماني هول » الزعيم الديموقراطي الايرلندي في نيويورك ، الذي عمل بنصيحة «تويد» ، تاجر الكراسي المفلس، واختلس قرابة ٥١ مليون دولار في اعقاب حرب الانفصال ، ليس مثلا نادراً . فان « غرانت » ، الجندي الطاهر الذيل ، قد اغضى عن اختلاسات بطانة تتناول عمالاتها من الميثارة ؛ كما ان كليفلند ، الرئيس الديموقراطي الذي اكتسب مدينة « بوفالو » ، بوصفه محافظها ، دعوى على متعهد البواليع وتجاسر ، بوصفه حاكم ولاية نيويورك ، على محاربة « تاماني هول » ، قد انتهى الى إثارة استياء حزبه الخاص بامتناعه عن تطبيق « مبدأ تقاسم مكاسب الانتصار » على نطاق واسع ، واستياء التجمعات النقابية التي لم يكن موافقا على قيامها ؛ ودان خصم كليفلند ، هاريسون ، بنجاحه ، لانتقال الاصوات في ولاية نيويورك الهامة بواسطة حاكمها السريع التأثر بالعروض .

بالاضافة الى الامتيازات وتلزيمات الأشغال الكثيرة التي تسند لاصحاب التعهدات الخاصة ـ وهي معارك يومية ـ ، عادت للاتحاد كذلك المسائل الكبرى الجمركية والنقدية . فكيف تنظم العلائق التجارية بالخارج يا ترى ؟ فضل الديموقراطيون تخفيض التعرفة لأنهم لا يستطيعون الفوز الا بمساندة المزارعين والمستهلكين الذين اعتبروا ان السوق الاميركية المقفلة انما هي سوق تسلط عليها الصناعة . اما المسألة النقدية ، وهي مسألة اكثر تعقيداً ، فقد فرقت بين رجال الاعمال الذين طالبوا اما بنقد سليم واما بوفرة النقد التي تحرك الصفقات ، فقال الفريق الاول

بإعتاد المعدن الواحد اساساً للنقد ، وقال الفريق الثاني طوعاً بإعتاد المعدنين . وقد ضم هـذا الفريق الاخير منتجي الفضة في المناطق الغربية ، والمزارعين ، الدائنين منهم والمصدرين ، الذين كانوا يفضلون التضخم . ثم انضم رجال الاعمال الكبرى الى الفريق القائل بإعتاد المعدن الواحد (الذهب) خلال فترة تجدد الازدهار الممتدة من السنة ١٨٩٥ الى السنة ١٩٠٠ .

بقيت هنالك مسألة حرية العمل . فمعين بتعرض التشريع التجمع النقابي ، انما يستهدف الدفاع عن الفرد . ولكن انصار التحالفات الصناعية ، بالاضافة الى انحكارهم على السلطات العامة حق التدخل في هذا المجال ، تـذرعوا بمصلحة المجموع التي تخدم خدمة فضلى بتحسين تنظيم السوق . والحال اجـاز العرف للولاية التعاقد مع المؤسسات التي تلعب دور الادارات العامة ؛ وفي سبيل اجتذاب رؤوس الأموال، كان بإستطاعة المجلس الاشتراعي الاجازة لاحدى الشركات بشراء اسهم الى شركة أخرى ، مشجعاً بذلك « الاحتكارات » (وقد اعطت ولاية نيوجرسي المثل في السنة ١٨٨٨ لمصلحة شركة « ستاندرد اويل » المهددة بخطر الافلاس) .
وليس « قانون التجارة بين الولايات » الذي استصدره كليفلند في السنة ١٨٨٧ سوى حق التحقيق في التصرفات السيئة المتناقضة وحرية التجارة . الا ان ولايات غربية عدّة قد استخدمته ضد شركات الخطوط الحديدية . ولكن « قانون شرمن لمقاومة التجمع النقابي » اسند أمر التقرير القاضي . ولما كان روكفلر هو المقصود آنذاك ، فقد توصل الى كسب الوقت ووجد في مبدأ « الاحتكار » وسيلة للدوران حول القانون .

معارضة المزارعين في الولايات المتحدة

شعر سكان المروج منذ عهد مبكر جداً بارتباطهم بالمدينة ، فأثار هـذا الشعور منذ عهد جاكسون خصومة بين الشرق والغرب . وكان ممكنا ان يفكر هذا الاخير بمدّ يده للجنوب الذي يرتكز الى اقتصاد ريفي ايضاً : وهو تحالف استند اليه ديموقراطيو الساعة الاولى ثم تجدد عقده بين حين وآخر . ولكن مجتمع « اصحاب المنازل » ، الملاكين المتوسطين ، كان مختلفا عن مجتمع المزارعين الجنوبيين . وقد نفر كذلك من التحالف مع طبقة الكادحين في المدن .

وهكذا كلما انفجرت أزمة ، قام الغرب بحركة سريعة الزوال . فبعد حرب الانفصال حدث اختلال بين اسعار المحاصيل الزراعية التي هبطت واسعار المنتجات الصناعية التي ارتفعت . فاعلن المسؤولون في احدى الجمعيات المعروفة بإسم « النبر » انهم اعتمدوا النظام التعاوني وحملوا احد عشر مجلساً اشتراعياً في الولايات على استصدار « قوانين نبرية » ضد التعرفات التفضيلية او التمييزية التي وضعتها شركات الخطوط الحديدية . ثم تعاظمت هـذه الحركة في فترة انخفاض الاسعار الكبير الذي عقب ازمة السنة ١٨٧٣ واصاب القطاع الريفي بصورة خاصة . وقد بلغ عدد « النبريين » ٠٠٠ ٥٠٠ ١ في السنة ١٨٧٥ ، لا بل انضم شطر منهم الى « الاتحاد القومي للعمل » بنية انجاح برنامج تضخمي ، وهو برنامج الاوراق النقدية . ثم رافق تجدد الازدهار في السنة ١٨٧٩ هدوء وقتي . وانما لوحظت منذ السنة ١٨٨٣ معاودة الهيجان بإدارة « التحالف

القومي للمزارعين». لقد ارتسمت مرة أخرى حركة شعبية تقدمت بمرشح للانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٩٢ . اما في السنة ١٨٩٦ فقد انضم المزارعون الى « براين » المرشح الديموقراطي وخسروا معه معركة اعادت الى الحكم لمدة طويلة الجمهوريين القائلين باعتماد المعدن الواحد ، المقربين لارباب الاعمال الكبرى . وسيستفيد الجمهوريون هؤلاء من عودة السنوات الخيرة . وقد اوصى كتاب « هنري جورج » ، « التقدم وإملاق » ، الذي صدر في السنة ١٨٧٩ ، بالصراع ضد الدخل العقاري بواسطة الضرائب التصاعدية : فلم تحدث هذه الاشتراكية الزراعية سوى صدى ضعيف .

العامل الاميركي
ونشأة النقابية في الولايات المتحدة

بات عمال الولايات المتحدة احدى اكبر الطبقات العمالية عدداً في العالم . ولكن اميركا كانت قد عانت لمدة طويلة من حاجة حقيقية الى اليد العاملة بسبب ضخامة الاعمال الواجبة التنفيذ : فتألفت من ثم طبقة اولى ، « يانكية » جداً ، متمسكة بالحرية الفردية وغير قابلة التأثر بالمذاهب المختلفة ، ومتقاضية اجورا على بعض الارتفاع . وفي الواقع كان لجاذب هذا الارتفاع اثره الكبير في الهجرة الواسعة التي حدثت في منتصف القرن . ولكن طبقات جديدة برزت ، متميزة بالفقر والامية والبعد عن كل رأي سياسي . وهي هذه العناصر التي قامت بالاعمال الصعبة لقاء اجور متدنية وغذّت حي « العمل الشاق » . وفي السنة ١٨٨٠بلغت نسبة اليد العاملة النسائية ٢١ ٪ – وهي اعظم ارتفاعاً الى حد بعيد في صناعة المنسوجات – وضمت الصناعة ١٧٠٠٠٠٠ فتى تتراوح اعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة (١٨٪) . وقد روت « الأم » « جونز » ، المناضلة النقابية ، ان « معدل ساعات العمل في مناجم الفحم الحجري في بنسلفانيا كان ١٢ و١٣ ساعة ، او ١٤ ساعة احياناً » ؛ « وان لا قانون يحمي جسم عمال المناجم او حياتهم . وان العائلات تعيش في مساكن الشركة الحقيرة التي قد لا تقبل بها الخنازير نفسها . وان مئات الاولاد يموتون بسبب جهل وفقر آبائهم » . وقد بينت الاحصاءات ان العمال كانوا يعملون ستين ساعة في الاسبوع في السنة ١٨٥٠ ، وستا وستين في السنة ١٨٦٠، وتسعاً وخمسين فقط في السنة ١٨٩٠ (بينا ارغم المياومون الزراعيون على العمل بين سبعين واثنتين وسبعين ساعة) . ولفت انظار كافة المراقبين ارتفاع عدد حوادث العمل . فقد ورد في « مذكرات « جول هوريه » : « انها لمذابح دائمة . لا يتخذ اي احتياط للمحافظة على حياة العمال ؛ ولما كانت الشركات كلية الاقتدار ، والحاكم واقعة تحت سيطرتها ، والقانون نفسه مسخراً لخدمتها لم تعر الامر اي اهتمام » . وسوف يسجل « ابتون سنكلير » في الفترة الممتدة من السنة ١٩٠١ حتى السنة ١٩٠٤ ، ٤١ ألف وفاة و ٢٥٠ ألف اصابة بجروح مختلفة . واذا ما نظرنا الى مجموع الفترة ١٨٥٠ – ١٩٠٠ ، لتبين لنا ان معدل الاجور لم يرتفع بنسبة ارتفاع الانتاج والارباح . فقد حدث ارتفاع بيّن ابان حرب الانفصال عقبه بعض التوقف ؛ لا بل تميز العقدان ١٨٧٠ – ١٨٨٠ و ١٨٩٠ – ١٩٠٠ بتدني القيمة الاسمية ، اذ ان العامل لم يشعر بالضيق نفسه خلال

العقد ١٨٨٠ – ١٩٠٠ بسبب هبوط الاسعار الزراعية . وكانت الاجور في الغرب ، المفتقر الى اليد العاملة ، اعلى منها في الجنوب بنسبة كبرى ؛ كما ان اجور عمال صناعة المعادن كانت اعلى من اجور عمال صناعة المنسوجات ؛ وربما بلغ الفرق بين اجور العمال الزراعيين واجور العمال الاختصاصيين نسبة ١ الى ١٠ .

يبدو ان اجر العامل الاختصاصي كان اعلى من اجر اي عامل ماهر في اوروبا[1] . ولما كان المأكل والملبس اقل ارهاقاً لموازنة العائلات العمالية ، فقد خصص للسكن مبلغ اكبر (ويقدر ان ١٢ ٪ كان لهم بيوتهم الخاصة مقابل ١ ٪ في اوروبا) . ولكن المسكن اختلف اختلافاً كبيراً بين مدينة واخرى : فقد اشتهرت بلتيمور وفيلادلفيا بسعة العيش فيها (ويقدر ان بين ٩ و ١٧ ٪ من البيوت العمالية كانت مزودة بغرف للاستحمام) ، على نقيض نيويورك التي كانت مساكنها متوسطة ، و « اورليان الجديدة » التي كانت تعتبر غير صحية اطلاقاً . وبصورة عامة لم يدخر العامل شيئاً من اجوره ، بل انفقها كلها يومياً وربما لجأ الى الاستدانة .

ان البيئة تعزز القناعة بان حظ كل انسان في متناول يده : وقد ابدى انغلز في رسالة يعود تاريخها الى السنة ١٨٩٢ هذه الملاحظة : « يتصور العامل الاميركي ان المجتمع البورجوازي هو ، بطبيعته ، وفي كل زمان ، تقدمي ومتفوق ولا يعلو عليه مجتمع . لا يفكر بالدفاع عن وضعه الا في نطاق عمله ، ولا يهتم اهتماماً كبيراً بالنشاط السياسي . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان السلطات العامة تقدم لارباب العمل مساعدة فعّالة : فالشرطة الاميركية تتدخل بقوة ، وحتى بوحشية احياناً ، والجيش يساندها اذا ما مست الحاجة الى ذلك . واذا ما تسربت الفوضوية الى داخل الحركة العمالية ، فان هذه الحركة لا تتأثر بالدعاوة الاشتراكية .

لقد قامت قبل السنة ١٨٤٨ حركة مطالبة بالحقوق ارتدت طابعاً نقابياً وتعاونياً . ثم ظهرت مرة اخرى « اتحادات عمال التجارة » اثناء الحرب الاهلية وطالبت بان تحدد ساعات العمل في اليوم بثماني واربعين ساعة . وتبنى « الاتحاد القومي » هذه المطالبة في برنامجه للسنة ١٨٦٦ ؛ ووقف كذلك موقفاً ايجابياً من التعاون وموقفاً سلبياً من التضخم ؛ ورغب في تحسين مصير الزنوج وتحرير المرأة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الهيجان طالما تجدد خلال « العهد المذهّب » الذي عمت فيه الرشوة وتكاثرت الفضائح المالية ؛ ولكنه استمر كذلك خلال فترة الهبوط التي عقبت ازمة السنة ١٨٧٣ بسبب توسع البطالة وتدني الاجور تدنياً نسبياً . وبينما لجأت بعض الجمعيات السرية ، كجمعية « مولي ماغوايرز » ، الى اعمال الارهاب في منطقة المناجم في بنسلفانيا ، انفجرت اضطرابات كثيرة كان اعظمها دوياً اضراب عمال السكك الحديدية في بلتيمور وبتسبورغ في السنة ١٨٧٧ : ادخل المضربون مئات القاطرات الى مستودعاتها في بتسبورغ ، واشعل فيها النيران بعض العملاء المحرضين ودمروها تدميراً تاماً ؛ وعلى الرغم من

---

(١) راجع الرسم البياني في الصفحة ٣٠١ .

اعضاء قوى الامن عن العمال ، كانت الكلمة الاخيرة للشركة التي صرفت العديد من المستخدمين واستبدلتهم بمهاجرين من اوروبا الوسطى .

في اعقاب هذا الفشل ، ظهرت « جمعية فرسان العمل » ، المنظمة التي كانت سرية من ذي قبل ، فأوصت بانهاض الطبقة العمالية عن طريق التربية والعمل على السواء . وبعد ان كان اعضاؤها متدينين ومسالمين جداً ، اصبحوا اشد ميلاً الى الكفاح تحت تأثير الاحداث. وقد تعاظم نفوذهم حين استحصلوا من « غولد » على اعادة استخدام عمال مصروفين بسبب انقطاعهم عن العمل . وفي السنة ١٨٨٦ كان عددهم قد بلغ اكثر من ٧٠٠ الـف ، ويقال ان مشايعيهم بلغوا الملايين . فأجاب ارباب العمل على الاضرابات التي تجددت وتكاثرت مرة اخرى بالصرف المؤقت . وحين حدثت بعض الاضطرابات في مؤسسة « ماك كورميك » في شيكاغو بتأثير دعاوة الفوضويين، اتهم عدة مسؤولين في الجمعية باثارتها وادينوا .

برز حينذاك بدوره الاتحاد الاميركي للعمل الذي اقترح اقامة مظاهرة في اول ايار من السنة ١٨٨٦ للمطالبة بتحديد ساعات العمل بثماني ساعات . وقد رغبت هذه الجمعية الجديدة ، التي امتدت فروعها الى كندا ، في تنمية نقابية على اساس المهنة ورفضت بحزم فكرة الصراع الطبقي ، كما رغبت في مفاوضة ارباب العمل في تحسين وضع العمال تحسينا تدريجيـا . ففازت بالساعات الثماني للنجارين ، ولكن اضراباً اعلن في مصانع كرنجي للفولاذ في « هومستد » وقمع بالقوة : فصرف ٢٥٠٠ عامل لانضمامهم الى الاتحاد المحلي ، فأتاح هذا النجاح لملك الفولاذ العظيم تطهير كافة المؤسسات التي كان يشرف عليها . وبعـد مرور سنتين ، رفض الاتحاد مساندة اضراب اعلن في مؤسسة « برلمن » في شيكاغو ، فأعادت قوى الامن النظام الى نصابه. يضاف الى ذلك ان ردة فعل ارباب العمل ستشتد بعد تحسن الاحوال الذي ارتسمت دلائله منذ السنة ١٨٩٥ .

في بريطانيـا خرج حزب العمال من اتحاد عمـال التجارة ؛ اما في الولايات المتحدة فليس بعد ما ينبىء بترعرع اشتراكية ، حتى « بدون عقيدة » . وقد لفت الانتباه في السنة ١٨٩٢ ان مرشح اوساط المزارعين قد جمع مليون صوت وان الاشتراكي « دبس » لم يجمع سوى ٢١٠٠٠.

فهل يجب علينا مشاطرة العالم الاقتصادي « سومبار » رأيه القائل ان مثل هـذه الحركة السياسية تتحطم على « شواء البقر » ؟

فاتحة الحركة العمالية في استراليا

ولدت في المجتمع الاوسترالي اشتراكية « بدون عقيدة » بتأثير ظروف خاصة . لمنذ عهد مبكر ، رأى جزازو الصوف ، وعمال احواض السفن الذين يشحنون البالات ، وعمال البناء ، انفسهم في موقف ملائم للمطالبة بحقوقهم بنجاح. ولما كانت الدولة متولية اعمال فتح الطرق وبناء الخطوط

الحديدية والمدارس والمستشفيات، فقد اصبحت احد ارباب العمل الرئيسيين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان ديون الجماعة ارتفعت ارتفاعاً سيفضي بالضرورة الى فرض الرسوم على الثروة المجموعة والدخول : وقد عزز ذلك مركز اصحاب الاجور الذين يتعذر بدون مساندتهم تطبيق مثل هذه الرسوم .

بُعيد السنة ١٨٥٠ حددت ساعات العمل في اليوم بثماني ساعات . ثم اعترف بالنقابة قانونياً . لا بل جعلت الحكومة النيوزيلندية من نفسها مؤمّنة على الحياة وألزمت ارباب العمل بالاعتراف بمسؤولياتهم حين يتعاقدون مع النساء والفتيان .

الا ان الفشل الذي انتهى اليه اضراب كبير في السنة ١٨٩٠ ، بينا اعطت هذه الطبقة العمالية مثل التضامن الفاعل بمساندتها عمال احواض السفن اللندنيين، وتجمه اتحادات عمال التجارة شطر النشاط السياسي ، فتألفت احزاب عمالية تحالفت مع الجناح التقدمي في احزاب الاحرار . فكان ذلك نقطة انطلاق اشتراكية برلمانية شبيهة بالاشتراكية البريطانية ، وبعيدة مثلها عن كل برنامج ثوري . وكان همها الاكبر وقف هجرة الملونين بغية الدفاع عن الاجور المرتفعة .

الايمان والثقافة عند الشعوب الانكلوساكسونية الجديدة

كانت اميركا الوطن المختار والمبارك للشيع الدينية . ويصح هذا القول كذلك في البلدان الانكلوساكسونية الاخرى في ما وراء البحار . فان الكاثوليكية لم تتجانس مع اي شعب ، وفي اي مكان ، تجانسها مع سكان كندا الناطقين باللغة الفرنسية ؛ وبلغ عدد اتباع الكنيسة الرومانية في الولايات المتحدة في السنة ١٨٩٠ عشرة ملايين مؤمن ساعدوها على تشييد اكثر من ٨٠٠٠ بناء للعبادة . واجتذبت البروتستانتية العقول بقوة كذلك في كنائسها التي لا يحصى لها عد . وقال الناؤون الاحرار بوجود الله والدين الطبيعي وانكروا الوحي ، واحتلوا مراكز قوية . وكان لمنحى التصوف والروحانية اتباع كثيرون . وتأثرت الطوائف اليهودية ، التي تعززت تعززاً كبيراً بهجرة اواخر القرن الواسعة النطاق ، بمذهب الاصلاح السياسي الذي قال به الحاخام « وايز » وبالنداءات من اجل اصلاح صهيوني . ويلفت الانتباه كذلك نجاح منظمات من امثال منظمة « جيش الخلاص » (وذلك بعد ان انصرفت الرغبة في الكمال على الصوفية الرمزية الغامضة القديمة) . وقد شاهد « بيير لروا - بوليو » حوالي السنة ١٩٠٠ ، تطوافاتها التي كانت تنضم اليها جماهير غفيرة « في كافة مناطق البحث عن الذهب في العالم ، في « كريبل كريك » في الجبال الصخرية » و « كولغاردي » في الغرب الاوسترالي » و « جوهنسبرغ » في الترانسفال » . ويعتبر « اندريه سيغفريد » انها « اسهمت اسهاماً كبيراً في طبع مدن (زيلندا الجديدة) بذلك الطابع التديني الذي يميزها » . والمقصود هنا هو الايمان العملي المطابق للتصميم على العمل في هذه الدنيا . وهو لم يدفع قط الى المجادلات اللاهوتية . ولم يفلح في معالجة عدم استقرار العالم معالجة ناجعة ، وانما طلب منه توفير الخير والاطار لنشاط يستهدف

مقاومة الرذيلة والبؤس . وقد تولى هذه المهمة بصورة خاصة ، بالاضافة الى « جيش الخلاص »، بعض الجماعات من الشبان : جمعية الشبان المسيحيين ، جمعية الشابات المسيحيات ، جمعية الشبان الكاثوليك .

تعهد هذه الطوائف مؤمنوها فلم تشعر بحاجة لطلب حماية الدولة . وعملت في مناخ حرية نادرة . واعتمدت الطرائق الاعلانية نفسها التي تعتمدها المؤسسات التجارية. واوصت بخدماتها لأجل خلاص النفوس كما يوصي رجال القانون بخدماتهم من اجل الطلاق . وقد اجريت تسويات مختلفة من اجل طبع المدرسة بطابع ديني: فرجحت في الولايات المتحدة كفة التعليم « العلماني»، بينما اسندت كل ولاية من ولايات كندا امر تنظيم التعليم الى لجنتين مختلفتين ، لجنة بروتستانتية واخرى كاثوليكية . ولم يكن باستطاعة المواطن الا ان يختار بين العبادات الماثلة امامه . وقد حظر عدد من ولايات الاتحاد كل عمل في يوم السبت ، وكان هذا الحظر مشدداً في كافة انحاء اوستراليا وزيلندا الجديدة . واقرت بعض المجالس الاشتراعية في الولايات المتحدة مبدأ تنافي شغل وظيفة عامة وعدم التقيد بالمبادىء الدينية . وحدث احياناً ان اعفيت املاك الكنائس غير المنقولة من الضرائب . اما رجال السياسة فغالباً ما التمسوا حماية الاله الكلي القدرة ، وحدث في السنة ١٨٩٦ ان حكومة « وايلز الجديدة » الراديكالية توسلت اليه بالحاح وخضوع ان يمن على البلاد بالمطر . وساند رجال المال والصناعة المؤسسات الدينية القوية . وجاهروا بان الالحاد وحتى اللامبالاة منافيان للاخلاق . وهكذا فان « بيربونت مورغان» المساهم الرئيسي في اوبرا «متروبوليتان » في نيويورك، قد منع التمثيليات التي اعتبرها منافية والاخلاق الجيدة. وفي السنة ١٨٧٩ حكمت محكمة الجنايات في الولايات المتحدة على الصحافي « بنت » بالاشغال الشاقة لمدة ١٣ شهراً بسبب مقالاته المناهضة للدين ، وقد رفض « مايس » ، رئيس المحكمة ، تخفيض العقوبة . وفي ناتال، انتقد الاسقف الانغليكاني « كولنسو » بعض فقر الكتب المقدسة، وكان بذلك سبب زلة للمؤمنين ، فتحمست كنيسة جنوبي افريقيا اكثر من كنيسة انكلترا في المطالبة بعزله في السنة ١٨٦٣ .

كان المدرس خاضعاً لاشراف الهيئة الانتخابية المحلية، وكان يختار من المنطقة نفسها ويلقي دروسه فيها ، ولكنه غالباً ما شكا من مركب نقص ولقن المبادىء التي يفرضها المجتمع . وحوالي السنة ١٨٩٠ بلغ عدد المعلمين الابتدائيين المتخرجين من دور المعلمين في بنسلفانيا ١٥٠٠ فقط من اصل ٢٠٠٠٠ . وفي السنة ١٨٧٠ - كما اقر بذلك « كرنجي » - كانت نسبة الاميين ١٦ ٪ من المواطنين الاميركيين ، واذا تدنت هذه النسبة ، بعد مرور عشرين سنة ، الى ٧ ٪ لمواليد اميركا ، فانها ما زالت ١٣ ٪ للمهاجرين و ٥٦ بالمئة للزنوج . وبينما وفرت زيلندا الجديدة بفضل الدولة ، العلم ا ١٣٠٠٠٠ ولد من ابناء السكان البالغ عددهم ٧٠٠٠٠٠ نسمة ، فان الترانسفال لم توفره الا ا ٨٠٠٠ ولد من ابناء سكانها البالغين مليون نسمة تقريباً . وكانت بعض الشيع قد اسست الدور الجامعية الاولى في الولايات المتحدة: هارفارد ويال . ثم اسست الولايات

بعض الدور الاخرى . ولكن اصحاب الملايين هم الذين لعبوا دوراً هاماً في هـــذا المجال : « بيبدي » في نيويورك ، و « هوبكنز » في بلتيمور ؛ وهنالك جامعة تعرف باسم « جامعة فاندربلت » ؛ وقد انقذ روكفلر جامعة شيكاغو بمنحها ١٢ مليون دولار ، بينما كرّس كرنجي مبلغاً مماثلاً لتأسيس معهد للابحاث العلمية .

لم تكن الاخلاق الديمقراطية لتتنافى ووجود بعض الفئات المقفلة . فقد كان منها ست في بوسطن . وكان ظرفاء نيويورك يجتمعون في « سومرست » او في « نيكربوكر » . ولكـــن الاميركي ، فقيراً كان ام غنيـــا ، لم يقرأ كثيراً : فقد كانت تكفيه الصحيفـــة التي توفر له بانتظام الاخبار المؤثرة والاخبار المتفرقة وتحمل على التقيد بالمبادىء السليمة . وقد لوحظ ان الطلاق كان اسهل منه في اي مكان آخر (طلاق من كل ١٥ زواجاً مقابل طلاق من كل ٣٠٠ في انكلترا) ، وبدت المغازلة وكأنها نظام معمول به . يضاف الى ذلك ان كافة هذه المجتمعات المدنية قد شعرت بحاجة ملحة الى الألاهي : فشغفت اميركا بمبارزات الملاكمة ؛ واوستراليا وزيلندا الجديدة بلعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم وسباق الجياد .

اذا افتقرت الحركة الادبية زمناً طويلاً الى صفات ذاتية مميزة في دول الامـــبراطورية البريطانية ، حيث تمتع المؤلفون الانكليز بنفوذ فعلي (كان لكندا وحدها مدارسها التي عبرت بالفتين عن فكر محلي خاص) ، فلا نزاع في ان الادب الاميركي قد لمع بنضارة الشعر ، ورقة التحليل السيكولوجي ، والحياة النابضة في وصف البيئة . فبرزت بين الادباء مواهب كبرى انتجت الكثير من المحاولات والقصص والروايات البالغة الأهمية .

ما كانت الولايات المتحدة من قبل لتجهل الرومنطيقية التي كان من شأن طبيعتها البكر ان تحرك اندفاقاتها . ثم جاءت الحرب الاهلية التي عظمها « وولت ويتمن » كامتحان عصاب : « شاهدت البرق الحقيقي . شاهدت مدني الكهربائية . عشت لكي أرى ظهور الانسان ويقظة اميركا المحاربة » . اجل لقد قام ، منذ السنة ١٨٧٠ ، من يشكو من عيوب مجتمع الاعمـــال والاوساط السياسية : وكان الغرب قاسيا ابداً حين شكا منها . وانما يجب انتظار السنة ١٨٩٠ حتى تميط الواقعية الستار حقا عن المفاسد ؛ وعلى الرغم من ذلك فان « كراين » قـد تعثر في فضيحة مع « ماغي » احدى « بنات الشوارع » ؛ ولكن « مارك توين » اكثـر من رغـــوه بمحادثة معاصريه بلغة ماجنة وبالاستهزاء بالتعابير الاوروبية القديمـــة المبتذلة . وسوف تبرز الطبيعة في عهد متأخر معنى القصة التشاؤمي في مؤلفات « درايزر » الذي سيشدد على التسلط الجنسي . فبقي ان فردية العالم الجديد النفسية قد ارتضت بنظريات سبلسر و « وليم جايمس » . استقبل الاول بحماس في السنة ١٨٨٢ ، ووجد صدى عظيما لدى رأي عام متفائل حقاً ؛ فدعا هذا الرأي العام الى التسليم بأن الحرية ومذهب الارتقاء يتزاوجان ويولدان التقدم . اما الثاني فقد نادى بالحاجة الى بذل الجهود ، ومثّل الحقيقة بالنجاح ، وأكد ان « الدين يتصل بالحياة » وربط بين صحة الاخلاق وصحة الجسد ، واقترح مذهباً عملياً مطابقـــاً لمقاصد شعب مولع

بالابتكارات العملية .

اما بصدد الحاجات الفنية ، فقد ارتأت هذه الشعوب الجديدة ، دونما خجل ، ارضاءهــا باقتباس افكار اوروبا وحتى منجزاتها . فقبل السنة ١٨٦٠ شغفت امــيركا بالمعبد اليوناني ، فشيدت الكثير من الدور الحكومية ذات الاعمدة والمزارع ذات المثلثات في أعلى مقدمتها ، ثم اخذت الى النمط القوطي وأضافت بعض التفاصيل الارسطية الى ابنية مربعة الشكل . وكل من توفر له المال اللازم اراد ، حوالي السنة ١٨٨٠ ، اقتناء مسكن على نمط مسكن « هوهن » ، او قصر على نمط الحمراء، او بيت خشبي على نمط البيوت السويسرية . ومع اعجابه بالروائع الاوروبية فقد نصح « وينمن » بعدم تقليدها ، وفي نظر رجل الشارع ما كانت كنيسة القديس بطرس في روما لتوازي الكابيتول في واشنطن . ولكن ذلك لم يمنع « هانت » من اعــادة بناء بيت « كورنيليوس فاندربلت » على النمط الايطالي ،ضيفاً اليه قفص سلم قد يتسع لمحطـــة سكة حديدية . وكان « فرانك لويد رايت » احد الاوائل الذين ابتكروا اشكالا جديدة ، واضحة ومتناسقة ، لا سيا في بوفالو وشيكاغو .

وبنت اميركا هذه نفسها مسارح فسيحة ، ولكنها لم تتوفق الى اعطائها الروح . وحـــين نزلت « راشيل » الى البر الاميركي في السنة ١٨٥٥ ، اهتزت نيويورك كلها حبوراً ، وعرضت حلويات ومخدّمات وسجاير وقبعات ليلية حملتها اسم راشيل،وفي اورليان الجديدة طلع صاحب احد المقاهي اخاملة اسم راشيل بشراب (« بونش ») راشيل . وصفق رواد الحفلات الموسيقية لموسيقى الكلاسيكيين والرومنطيقيين بينا فضلت الجماهير المهزلة الموسيقية المليئة بالحــوادث المؤثرة المعقدة .

لم تمثل الفنون التصويرية بأسماء كثيرة : فـ « هويستلر » هو الاسم اللامع الوحيد بــين رسامين كثيرين لم تنقصهم الموهبة ؛ ولكن ليس هناك من مدرسة مجددة حقيقية .

وجملة القول ان هذه الشعوب الانكلوساكسونية الفتية قد تفرغت بحب تفضيلي للنشاطات التي تتيح لها احكام السيطرة على الفضاء والمادة ؛ وقد بحثت اول ما بحثت عن البهجة في الحركة ، وناطت فخرها بفتح القارات وتحقيق الرفاهية المادية .

الفصل الثالث

الأيام الصعبة في أميركا اللاتينية منذ حروب الاستقلال

اختلفت اميركا ، المعروفة عموما باللاتينية ، اختلافا عميقا عن اميركا الانكلوساكسونية . فكانت لها حضارة خاصة اقدم عهداً . وكان سكانها يقدرون بـ ١٩ مليون نسمة في اوائل القرن التاسع عشر ، فكانت هي من ثم متقدمة من حيث الاعمار ؛ ولكن معظم سكانها كانوا منتسبين الى الاعراق الملونة ، وكان البيض عندئذ اكثر منهم عدداً في الولايات المتحدة . فلنقابل الآن احصاءات اواخر القرن : انها تشير الى اكثر من ٨٠ مليوناً في القسم الشمالي من العالم الجديد ، وهو اصغر مساحة بصورة ظاهرة ، بينا لا تشير الا الى ٦٣ مليونا في القسمين الاوسط والجنوبي من هذه القارة . فالزيادة من ثم كانت اقل منها في اميركا الشمالية . وعلى الرغم من أن الزيادة بلغت ٧٣ بالمائة بين السنة ١٨٠٠ والسنة ١٨٥٠ ، و ٩٢ بالمائة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ ، مما رفع معدل الكثافة من ١ الى ٣٠١ في الكيلومتر المربع ، فليس أمامنا بعد سوى نسبة عددية طفيفة من مجموع سكان العالم : ٤ بالمائة بدلا من ٢٠٥ [١] .

انطوى التوزيع من جهة ثانية على مضادات تلفت الانتباه . فقد احصي ١٥ مليونا في البرازيل التي لم تتجاوز كثافة سكانها العامة ١٠٢ ؛ ولكن اذا هبطت هذه الكثافة الى ٠٠٦، في « ماتو غروسو » و ٠٠٤، في « أمازونيا » ، فانها ارتفعت الى ٣١٢ في منطقة « ريو » . وقد بلغت ٥٣ في « سان سلفادور » ، و ٤ فقط في نيكاراغوا المجاورة . وكانت نسبة السكان في الانتيل ، بصورة عامة ، ارفع منها الى حد بعيد في القارة القريبة .

---

(١) راجع البيان في الصفحة ١٥٥ .

ربما كان باستطاعتنا ان نعزو هذا التدني الى وضع البـــلاد بالنسبة لخط الاستواء . فنسبة الولادات مرتفعة (٤٠ الى ٥٠ بالمائة في البرازيل) ، ولكن نسبة الوفيات مرتفعة جداً ايضاً . ومرد ذلك الى ان المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان هي حرم الهواء الاصفر (« الهواء الاسود » الذي فتك بـ ٢٨ الف ضحية في البرازيل بـــين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥) . كما يرد كذلك الى ان الاجبة والزحار تسلطا على الاراضي المنخفضة والحارة قرب الشواطىء ، وان الجدري والتيفوس قد عاثا فساداً في الهضاب المرتفعة . فالمناطق الجنوبية وحدها هي مـــا استهوى الاوروبيين ؛ ولكن الهجرة لم تتجه الا في عهد متأخر شطر هــــذه المنطقة الجنوبية النائية .

سيطرة مواليد المستعمرات والهجرة الاوروبية الجديدة

خلافاً لما حدث في اميركا الشمالية ، لم يتغلب العرق الابيض قط على العرق الاميركي بعنصر المغنى – وقد اقترح بعضهم تسميته بالعرق الاميركي الهندي او الهندي الاميركي – الذي دافع عن نفسه بفضل المناخ والبيئة والعدد. وهكذا فقد ألف الهندي قوام سكان بوليفيا والبيرو لانه يتحمل الـ « بونيا » أو داء الجبال الاندية العالية ، اكثر من البيض . ولكن الاوروبي توفق في كل مكان الى اخضاعه لسيطرته . وقد تحقق اخضاع اميركا الحمراء هذا على مرحلتين : قوّض « فالحو » القرن السادس عشر امبراطوريات الهضاب الاندية ؛ واضطر سكان المنطقة المعتدلة الـ « شاروا » في الاوروغواي والـ « آروكان » في « شيلي » الى الانحناء بدورهم خلال القرن التاسع عشر . وتأســـت كذلك في هذه الاثناء ، بواسطة النخاسة ، ولمصلحة البيض، اميركا السوداء .

كان عدد مواليد المستعمرات ٣ ملايين فقط حوالي السنة ١٨٠٠ . وكانوا مصممين على الحلول محل اسبانيا والبرتغال. وعلى غرار ما حدث في فرجينيا، لم تمن الحرية ، في رأيهم، الغاء الاعمال الشاقة والرق . ولكنهم خلصوا من قراءة الفلاسفة الى العزم على انتزاع املاك الاكليروس والحد من امتيازاته . والسبب في ذلك ان ممتلكات الكنيســة كانت على جانب كبير من الاهمية : فهي قد شملت ، في المكسيك مثلا ، نصف المساحات المستثمرة . وقد فرضت صفة الاملاك الوقفية وجود الكنيســة في كل مـكان .

وعرفت الديمومة الاملاك العلمانية الكبرى كذلك خلال القرن التاسع عشر . فحوالي السنة ١٨٨٠ كان لا يزال في المكسيك بين ٨ و ١٠ آلاف مشروع استثماري ، ولكن مساحة بعض المزارع الكبرى قد بلغت ٦٠ وحتى ١٠٠ الف هكتار ، وقاربت نسبة الريفيين المحرومين من الاراضي ٩٥ بالمائة . ومن مواليد المستعمرات الـ ٣٠٠ الف في الشيلي، امتلك ٣٠ الفاً كافة الاراضي الزراعية تقريباً ، و ٦٠٠ اكثر من نصف هذه الاراضي . وتقاسم السهل الفسيح في المنحدر الشرقي لجبال الاندس الجنوبية بعض كبار الملاكين الذين ادخلوا في خدمتهم خلاسيي المنطقـــة ، وأجروا المهاجرين الفقراء ، لآجال قصيرة ، بعض القطع الصغرى . وفي الهضبة البرازيلية ، حـدث ان



شكل ٢٢ - اميركا اللاتينية السياسية

١ - تيارات الهجرة ؛ ٢ - انتقال السكان ، الطرق التي سلكها العبيد



شكل ٢١ - امريكا اللاتينية الاقتصادية

- طرق مائية طبيعية مستعملة ، ٢ - الخطوط الحديدية الاول ، ٣ - مناطق تبدل فيه وجه الطبيعة بفعل عمل الانسان ، على حد قول جيجر .

بلغت الاملاك الكبرى مساحة تقارب مساحة دولة اوروبية كايطاليا او انكلترا . وفي كل مكان ساد اقتصاد يستهدف تأمين الحاجات الاولية قبل اي شيء آخر بسبب ضعف المقايضات وندرة النقد .

أتاح التجم جمع ثروات طائلة وظلت جزئياً في العقارات . وانما لم يكن هناك رأسمالية صناعية جديرة بهذا الاسم ، لأن اميركا اللاتينية كانت تصدر خاماتها ومحاصيل زراعتها دون ان يدخل عليها اي تحويل .

اكتفى الملاك من مواليد المستعمرات بالتمتع بحاضره . ففي بلدان كثيرة، كشيلي والبرازيل مثلاً ، احب الاقامة في المدينة حيث عاش عيشة بطالة . واذا ما حدث ان اقام في اراضيه ، فانه غالباً ما يكل امر ادارتها الى رؤساء خدامه . واذا جمع ثروة، فانه بفضل النفقات المفرطة؛ واذا حدثت أزمة فانه يقلل نفقاته او يستدين ؛ يلاطف امرأته ويخضعها لوصاية غيورة بعد ان تعتني بها المربية ؛ ولكنها امية وسريعة التصديق على كل حال .

كانت هذه الطبقة الريفية ، البطريركية الطابع ، غير المولعة بالاستعدادات ، الانيسة والبليدة ، تثقل وطأة الضرائب على يد عاملة بائسة يفسر انتاجها الضئيل الجمود المسيطر على الحياة الاقتصادية كلها . هذا هو ثمن الفتح . والحال تجددت الهجرة الاسبانية والبرتغالية على نطاق واسع في اواخر القرن . ولكن الحدث الجديد هو وصول الالمان ولا سيما الايطاليين باعداد كبرى . فكانت النتيجة ان اميركا اللاتينية القديمة ، الهندية والخلاسية والزنجية عنصرياً في الواقع ، انقسمت نهائياً الى منطقتين مختلفتين كل الاختلاف : فمن جهة ، المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان حيث توطد تفوق الدماء المختلطة والهنود ؛ ومن جهة اخرى ، اميركا بيضاء ثانية ، مماثلة للاولى ، اضيق رقعة منها واقل سكاناً، تقابل مستعمرات الراس واوستراليا وزيلندا الجديدة . وقد تحقق هذا الفتح الاوروبي الجديد بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٤ ، فأوجد تضاداً اقوى منه في الماضي بين الارجنتين والاوروغواي والشيلي وحتى شطر من البرازيل الجنوبي وبين باقي العالم اللاتيني – الاميركي .

حياة السكان الهنود ، بداءة وبؤس

هنالك مناطق واسعة لم يقم فيها سوى الهنود البرابرة تقريباً. فكان الـ « غوياهي » ، بين « بارانا » و« باراغواي » يأكلون كل ما يختص بالمولد الحيواني ، بما فيه من انواع الهوام كالزنابير والنحل الذي بحثوا عن عسله ايضاً . واشتهر الـ « بوتوكودي » او « ابوري » بأقراصهم الشفهية . وتسكع في البؤس نفسه الصيادون الـ « بورانا » و الـ « كارايا » في البرازيل ، و الـ « شانغو » في السواحل الشيلية ، والـ « اونا » في جزر النار ، وقد افنى هؤلاء الاخيرين شيئاً فشيئاً رجال المزارع ومرض السل. اما الـ « اباش » و الـ « الكومانش » في المكسيك الشمالي فكانوا بدواً يربون المواشي ، وقد انتشرت هذه الحياة البدوية في اقصى الجنوب، في منطقة « باتاغونيا » . واما الـ « شاروا » « القساة» الذين

واجه البيض والخلاسيون شتى الصعوبات في اخضاعهم، لقد اعتمدوا الحصان في صيد الحيوانات على غرار الـ « تهوالتش » ، وكانوا يكتفون بضرب خيام من الجلد يحتمون بها من الرياح . وفي الشيلي ، تعاطى الاروكان ، الذين الفوا الحاداً حربياً شبيهاً بالحاد الـ « ايروكوا »، زراعة الذرة الصفراء وتربية المواشي في آن واحد .

بيد ان اهل الحضر كانوا اكثر عدداً الى حد بعيد. ويمكننا الكلام عن حضارة الذرة الصفراء التي سيطرت على المناطق الواقعة بين الجبال الصخرية وجبال الاندس الجنوبية . فهناك منطقة الذرة الصفراء الشبه الممتدة حتى المكسيك الوسطى : حيث يسحق الحب بواسطة الهاون ويستهلك بشكل طلم . وافضت هذه الزراعة الى قيام قرى ثابتة ، ونشطت صناعة الخزفيات التي استجابت الحاجات المنزلية والتزيينية . وتبدأ في بـــلاد الـ « مايا » منطقة الذرة الصفراء المروية التي غالباً ما تزرع في الاراضي المحرقة : فأضيف الى الطلمة معجون الذرة الصفراء الممزوج بالماء فقط . اما الحبوب فغالباً ما تزرع وفاقاً لطريقة بدائية جداً : ففي نيكاراغوا استعمل بعضهم اداة شبيهة بالسيف اكثر موافقة لحفر حفر البذار منها لحراثة الارض . وفي كل مكان استخرجت من الذرة الصفراء جعة (شيشا) مسكرة .

في اميركا الوسطى والانتيل وغويانا مكان المنيهوت مفضلا في بعض الاماكن عـــلى الذرة الصفراء . ولكن الذرة الصفراء استعادت كافة حقوقها في جبال الاندس . ففي كولومبيـــا زرعت مع البطاطا والفلفل الهندي . وفي شيلي دخلت حبوبها في اعداد كافة اصناف الاطعمة واستخدم لباس زهرها لف الدخان . وفي هضاب البيرو وبوليفيا المرتفعة ولدت قساوة المناخ والجفاف حضارة مشتركة تمكنت من مقاومة الجدب بواسطة زراعة المنحدرات والري. وقد استمر مثال الهندي القديم ، الذي خضع فيما مضى لتنظيم دولي صارم ، ثم التحق بالنظـــام السيدي في عهد الفاتح الاسباني ، فشاهد تعاقب الحكام ، جامد القلب غالباً ، على مزيد من الفظاظة هنا ، ومزيد من الوداعة هناك، واحب الارض ، فتمسك بالاملاك المشتركة التي كانت غير قابلة البيع مبدئياً . ولكنه كان يخاف من الكد او لا يستطيع العمل بنشاط . ويرد ذلك الى سوء تغذيته . فاذا لم يحصل على الذرة الصفراء اكتفى بالبطاطا والاوبياء ؛ وقـــد احب بالتفضيل البطاطا المجلدة المطحونة التي دعاها « شونو ». وأعد حساء بأوراق « رجل الاوز » . وحصل على بعض الحليب من الجمل الاميركي والالبكة اللذين كان يحدث ان يربيها ؛ ولذلك كان يفتقر الى الشحوم والمواد الآزوتية . واكثر من احتساء الشيشا، وكان شغله الشاغل تحضير الـ « اكوليكو » وهي كتلة صغيرة من اوراق الكوكة يصنع منها كرية يضعها في فيه : يمضغها اثناء سيره او مزاولة اعماله فيتولد فيه النشاط . وكان بيته مبنياً بالصلصال المجفف بحـــرارة الشمس ، ومؤلفاً من غرفة واحدة لا نوافذ ولا سقف ولا ارضية لهــــا ولا سرير فيها . وكان ينام على فراش مصنوع من جلود الحيوانات . وقد رآه الرحالة « مرسلرز » ، في السنة ١٨٦٦، بعد بواسطة الحبال المعقدة . اجل لقـــد تمكن المستعمر من تقويض امبراطورية الـ « انكا »

وبشيرها بالانجيل ، ولكنه لم يتمكن من تغيير طبيعة هذا الكائن الذي بقي متعلقا بشياطينه الاليفة والارواح التوابع وآلهة الجبل والثلوج والبحيرات ، وعبد الشمس والقمر . واستغله الزعيم والكاهن والقاضي استغلالا دائما فتلهى بالرقص والعزف على الشبابة والمزمار . واذا هو تعلم الاسبانية فلا ينسيه ذلك لغته « ال « ايمارا » او الـ « كيشوا » او ال « ناهواتل » او ال « مايا » . وعلى الرغم من تمتعه بالحقوق المدنية ، لم تستهوه الوظائف العامة . ولم يكن من مشاركة حقيقية بينه وبين الابيض. يضاف الى ذلك انه حيثما كان فرضت عليه اعمال التسخير والاتاوات. وقد خضع لنظام نصف فدادي في المنجم. وكاد لا ينجو من هذا النظام الا بمرافقة قطيع جمال اميركية او بمواكبة القوافل او بصناعة القبعات ، كما في الاكوادور، بوص خاص يحاك تحت الماء .

مصير الدماء المختلطة والزنوج

كان عدد السكان من الدماء المختلطة اكثر من عدد السكان البيض . وكان معظمهم من الخلاسيين المولودين من البيض والهنود المتزاوجين ، يضاف اليهم نسبة دنيا من الخلاسيين المولودين من البيض والزنوج والـ « زامبو » المولودين من الهنود والزنوج. وقد نجح الخلاسي احيانا في الارتقاء في السلم الاجتماعي. وحدث أن جمع ثروة بتربية المواشي وادارة الاملاك وحتى باقتنائها احيانا ، واستثمر بدوره حينذاك الملونين الفقراء أو الارقاء . تعاطى حراسة قطعان الماشية ، فأصبح في فترة من الزمن ملك الارجنتين ، وانضم الى البولسيين فأسهم بنشاط في احياء الاراضي في الهضبة البرازيلية التي يمر فيها خط الجدي . وفي سالفادور تملك معظم الخلاسيين الاراضي فعرفوا بـ « لادينوس» ومن فرع الغوارني انحدر الـ «ملوك» المولود من ام برتغالية ، والـ « شولو » في البيرو ، والـ « درولو » في شيلي، وكلهم عناصر نشيطة. وانتسب سكان باراغواي الحراثون الى الغواراني وخلاسييهم . وقد سال الدم الهندي في عروق زعماء (كوديلو) كثيرين . ولكن عامة الدماء المختلطة لم ترتفع يوماً الى طبقة اهل اليسار . ففي الشيلي مثلا خضع الخلاسيون لاعمال التسخير وارتبطوا بكبار الملاكين من مواليد المستعمرات بعقود الحقت بهم المزيد من الغبن .

أقام الزنوج وخلاسيوهم حيث أدخل البيض الافريقيين اي من جهة الاطلسي ، من الانتيل حتى الريو . وفي اوائل القرن جاءت كذلك موجة من الانتيل نحو كولومبيا ومناطق غويانا ، وموجة اخرى من غينيا نحو « بارا » و « مارانهاوو » ، وموجة ثالثة من الكونغو وبنغويلا والموزامبيك نحو « باهيا » . واعتق ١٠٠ الف عبد في منطقة غويانا الانكليزية في السنة ١٨٣٨ ، و ٦٠ الفاً في المنطقة الهولندية في السنة ١٨٦٣ . ولكن الجماعات الكبرى عاشت في البرازيل. ففي السنة ١٨٧٠ ، كان في البرازيل البالغ عدد سكانها ١٠ ملايين نفس ، ٢٠٠ ٠٠٠ ١ زنجي بينهم ٩٠٠ الف معتق ، و ٤ ملايين خلاسي من ابوين اسود وابيض بينهم قرابة ٥٠٠ الف عبد، ولم تطرأ على الخلاسيين والبيض زيادة تذكر حتى السنة ١٩٠٠ .

كان الرق ، على ما يبدو ، اقل قساوة منه في الولايات المتحدة : فقد كانت البرازيل في نظر الاميركيين الشماليين بمثابة « فردوس الزنوج » . ومهما يكن من الامر فان الحصول على الحرية كان هنا اقرب منالاً . ولكن الغاء الرق سيتطلب وقتاً اطول . واما في المزرعة فكان العبد يشتغل من مشرق الشمس حتى مغربها ولا يتوقف عن العمل الا ساعة واحدة يتناول فيها طعامه؛ وغالباً ما ضُرب بالسوط على ظهره العاري ، وطُلب منه عمل اضافي في الليل . فلا عجب من ثم اذا كان انتاجه ضئيلاً . وقد شكا اصحاب مزارع البن من الاجور الباهظة التي تدفع لليد العاملة المتوانية .

اضطر الزنجي والخلاسي الزنجي ، بعد تحررهما ، الى العمل كمزارعين او كعمال زراعيين ، ما لم يفضلوا العمل في المنجم . ولكن مستوى حياة هؤلاء المساكين ، المعجبين بأنفسهم، الارقاء الكلام ، السريعي التهيج، لم يتحسن قط . فقد حافظوا بعناد على عاداتهم ومعتقداتهم الافريقية . وقد استطاع بعضهم تبيان اوجه الشبه بين حضارة الـ « ياروبا » وحضارة زنوج كوبا وباهيا ، وبين العادات في هايتي والعادات في مارانهاو وفي داهومي ؛ وفي غوبانا، ربما اعتقد الانسان بأنه عند الـ « فانتي » او الـ « اشانتي » . ولم تختف المسيحية الطقوس الوثنية اخفاء تاما : فقد دخل بعض الآلهة الافريقيين في عداد القديسين او بقوا موضوع تكريم وتعظيم ، وبقي للعبادات الافريقية تأثيرها الغامض .

التطفل الاقتصادي ووسائل النقل

كانت اشكال النشاطات متحركة لأنها كانت بدائية . واتصف عمل احياء الارض بطابع الوقتية لأن الاحراج لا تلبث ان تستعيد الاراضي التي ينتزعها الانسان منها . ولكن الزراعة نفسها مسرفة ؛ وقد قام الخلاف ابداً بينها وبين تربية المواشي والمنجم . فاذا تزاحم الناس على العمل في المنجم هاجر السكان المغارس وتركوا القطعان . واذا استُخرج كل ما في المنجم عادوا الى الاعمال الزراعية والراعوية . وكانت هنالك في البدء برازيل السكر والمناجم حول محور باهيا و « ميناس جيرايه » ؛ ثم تدنت زراعة قصب السكر ، بينما حلت محلها زراعة القطن وشجرة الكاكاو والتبغ او اجتذبت الناس الى ابعد من مواطن هذه النباتات ؛ وبالمقابلة عرفت « غوياز » و« ميناس الازمة : فان مصاهر تنقية المعادن المنشأة في جوار الاحراج حول « اورو-بريتو » قد اخمد نيرانها الخط الحديدي الذي نقل الحديد الاجنبي . فعاد رعاة البقر الى قطعانهم في الهضاب الداخلية ، وعاد من تبقى من عمال المناجم والمصاهر الى « ساو باولو » التي كانت بحاجة ماسة الى اليد العاملة في مغارس شجر البن ؛ وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ عرفت المناطق الواقعة على خط الجدي بدورها ثروة مفاجئة . اما شيلي الراعوية فقد اكتشفت حوالي السنة ١٨٥٠ رسالتها الزراعية بامارتها للباحثين عن الذهب في كاليفورنيا بالحبوب . وأما السهل الارجنتيني فقد تغير وجهه تكرارا اذ تعاطى فيه السكان على التوالي تربية المواشي الكبرى وتربية الاغنام ثم تقسم الى عدة مناطق تميز كل منها بنشاط مميز .

يصح القول نفسه في سرعة التغيرات التي طرأت على الصناعة الاستخراجية . فعلى الرغم من أن مناجم الفضة في « بوتوسي » و « سرو دي باسكو » ما زالت مثاراً للفتنة ، فان دلائل النقص في المعدن كانت سبباً ، في منتصف القرن ، في انتقال الجماهير الى « الجبـــال الملكية » و « اوروررو » من جهة ، والى جبال « كرابايا » من جهة اخرى حيث اكتشف الذهب على ارتفاع « آلاف متر واستأثر استخراج الفضة في البدء باهتمام شيلي ثم توجهت الاطماع شطر النـــترات والنحاس . اما في المكسيك فقد تعاقبت فترات ارتفاع حمى البحث عن المعادن وهبوطهـــا تعاقباً مطرداً .

كانت مسألة النقل احدى المسائل العسيرة جداً . لقد جعلت الطبيعة من قطـــع المسافات عملية طويلة وشاقة ، فابرز ذلك اهمية الطريق المائيـــة الطبيعية للجماعات البشرية والكيانات السياسية . فبينما وقفت مناطق البرازيل الشرقية سداً في وجـــه الساحل الاطلسي ، اتاحت الشبكة الامازونية بلوغ خلف جبال الاندس من الشرق وغوياز و« ماتو غروسو » . وحين اقفل « روزاس » البارانا بين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٥٢ ، تحولت حركة النقـــل الى الاوروغواي ، فكان ذلك فاتحة ازدهار الجمهورية الشرقية . ولم يكن الهـــدف من حرب الباراغواي سوى امتلاك شبكة الطرقات الطبيعية المؤدية الى « لابلاتا » .

فما العمل للانتقال من حوض الى آخر ؟ ما زال العائق الاكبر الجبل الذي يحاذي المحيـــط الهادي . ولذلك استخدم النقل الكولومبي نهر « ماجدولينا » ، ووجه الدولة الكولومبية شطر بحر الانتيل . وكذلك وجهت الطريق التقليدية الى هضاب البيرو شطر الاطلسي الجنوبي : على هذه الطريق الفضية تمكنت « توكومان » من تنمية مغارس قصب السكر بتصريفهـــا السكر في مناطق المناجم المرتفعة ، واستخدم الملح القريب من « بونيادي اتاكاما » لحاجات قطعان جبال الاندس قبل ان ينقل الى سكان الـ « بامبا » . ويتضح من ثم ما كان للزوامل ، ولا سيما البغال ، من اهمية كبرى . فهي قوافل البغال ما كانت تؤمن النقل في جبال الاندس والهضبة البرازيلية . اما في السهل فقد امكن استخدام العربات التي تجرها الخيول او الثيران : فالارجنتيني كان يمتطي الحصان اذا كان مستعجلا او يستخدم العربة الثقيلة التي يجرها حتى سبعة حيوانات والتي اتاحت عجلاتها الكبرى اجتياز المخاضات .

جانب الحياة في المدينة وبسط، تطور الوظيفة المدنيـــة

ان الاسبانيين والبرتغاليين المتوسطيين نقلوا معهم الى مـــا وراء الاوقيانوس ميولهم المدنية . وعلى الرغم من نمـــوها البطيء ، لعبت المدن دوراً عظيماً جـــداً في هذه الحضارة الايبيرو – اميركية .

ذكرت مدينة العهد الاستعماري تذكيراً مدهشاً بمدينة شبه الجزيرة ، وذلك بكاتدرائيتها الفخمة ، وابنيتها العامة العظيمة ، وينابيعها الجميلة . وعرضت لنا باعتزاز « ساحة الاسلحة » ، و « سانتياغو » الشيلية شوارعها الاربعة التي تنتصب على جانبها اشجار الحور الظليلة ، والاقنية

التي تمر فيها وتسمح برش الشوارع ، وتباهت « ريو » القديمة بمساكنها البرتغالية الانيقة ذات الشرفات . الا ان الحجر نادر بصورة عامة : ولم يبن بالحجر الجبلي الصلب سوى ريو و« كوزكو » .

فمواد البناء المستعملة عادة هي القرميد المشوي بحرارة الشمس الذي يجب طليه لاعطائه بعض البهرج . ولم تسقف البيوت الصغرى في اغلب الاحيان الا بالتبن الطويل ، وقد حدث ان الامطار المتساقطة بغزارة في ليما قد تسببت في انهيار السقوف . يضاف الى ذلك ان الناس كانوا يخشون الزلازل : فزلزال السنة ١٨٢٨ قد دمر عاصمة البيرو ، وزلزال السنة ١٨٥٤ دمر سان سالفادور . وفي كافة المناطق الحارة جمعت الغرف حول فناء تشاهد فيه بعض الطيور والحيوانات المؤالفة كالببغاء والقرد ؛ اما الاثاث فكان قليلاً . وافتقرت المدن الى النظافة ، لا سيا وان شوارعها لم ترصف رصفاً جيداً بالبلاط . وفي عهد مكسيمليان فتحت في مكسيكو جادة كبرى جديدة تؤدي الى شابولتيبك زرعت على جانبيها اشجار الكينا وانشئت فيها بين مسافة واخرى مستديرات ازدانت بالتماثيل . ولكن ما ان تهطل الامطار الاولى حتى يتعرقل السير بسبب الاوحال . اما التدابير الصحية فغير متوفرة ، لا سيا في الاحياء المنخفضة من الموانىء البحرية ، وهو الاطار الطبيعي ما اوجد الفتنة ، اذ ان النواصي قد حجبت الكثير من القباحات ، وقد اشتهر جورن ريو منذ تلك الايام بجماله الفتان .

ان القرن التاسع عشر لم يحمل قط ، بل بني بسرعة وبدون ظرافة . فالمدينة الجديدة في ريو عادية ومبتذلة على الرغم من اتساع شوارعها وظهرت بوينوس ايرس لمدة طويلة بمظهر حقير . فالمدينة نمت بسرعة فائقة وابنيتها شيدت في مساحات ضيقة . اجل لقد تم توسيعها وفاقاً لمخطط هندسي على طريقة المدن في اميركا الشمالية ، وانتقلت مساحة رقعتها من ٤٠٠٠ هكتار في السنة ١٨٨٠ لـ ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة فقط الى ١٩٠٠٠ في السنة ١٩٠٠ لـ ٧٠٠ ٠٠٠ ولكن الاوبئة فتكت فيها بالسكان فتكاً ذريعاً (١٣٧٠٠ في السنة ١٨٧١) ، ولم يتحسن تبليط الشوارع قط قبل السنة ١٨٩٠ . فمنذ هذا التاريخ انجزت اعمال كبرى لتزويد المدينة بمياه الشفة ولتجهيزها بشبكة بواليع ، وبدأ استخدام الغاز والكهرباء .

كان للمدينة وظيفتها الاقتصادية ، كما في اي بلد آخر . فقد استخدمت مستودعاً (هذا هو دور « لاباز » للكينا ، ودور « ساوباولو » للبن) ؛ وزادت « توكومان » و « سالتا » بالكثير لاسواق تجارة البغال ؛ ولم تنم الموانىء الا بنسبة نمو التجارة البحرية . ولكن بصرف النظر عن جودها وعن تصميم البعض لها بغية ايواء الادارات العامة وتأمين حاجات الحياة الاجتماعية ، فقد طبعت ابداً بطابع اداري وسكني بارز . وبين سكان المدن كثر هم الذين تفرغوا للسياسة والمهن الحرة : فان نصف الذين تلقوا دروساً عالية قد فكروا بمزاولة المحاماة . ولكن الهجرة قد ضخمت الطبقة الكادحة الامية بنوع خاص .

تخلفت العواصم الجنوبية تخلفا محسوساً عن العالم الانكلوسكسوني ، وهي ان تبرز حقاً الا في اواخر القرن ، دون ان يبلغ سكان اي منها المليون نسمة . ويجدر لفت النظر مرة اخرى

هنا الى اننا نتكلم عن عالم يجاوز سكانه الـ ٦٠ مليون نسمة .

ولادة رأسمالية اميركية جنوبية وتدخل الرأسمال الاوروبي

ان الطابع العقاري الصريح الذي طبع به الاقتصاد قد سيطر طيلة القرن على كافة ارجاء اميركا اللاتينية . فكان هناك اغنياء الرتهم الحنطة في شيلي، او اثرتهم الجلود واللحوم المملحة في مناطق « لابلاتا » . وبرز شيئاً فشيئاً في البرازيل بعض المستفيدين من زراعة البن : فان اول آل « برادو » المشهورين قد زاول تجارة البقال ، وتوصل احد ابنائه الى تلك مقصبة فسيحة ؛ وبين اولاد هذا الاخير اكتشف احدهم بدوره « ارضاً حمراء » جيدة جداً واصبح في السنة ١٩١٢ رب مزرعة تحتوي على ٠٠٠ ٧٦٧ ١ شجرة . واشترك معه احد اخوته في تأسيس شركة الخطوط الحديدية البولسية لخدمة المنطقة ؛ وضمت هذه الشركة بين كبار مساهميها رب مزرعة كبرى اخرى هو البارون « ايتابورا » ، وقد اصبح باروناً بانعام من الامبراطور « بدرو » الثاني. وأسهم المنجم كذلك إسهاماً كبيرا في توسيع عدد الاغنياء . ففي البرازيل ليس « ماتا » وحده من برز وبرهن بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ عن انه صيرفي ورجل اعمال ماهر راس العديد من شركات النقل والعمل في المناجم . ولكن التوفير ما زال ضئيلا لان المال ينفق على شراء المواد الباهظة الاكلاف او يبذر في الميسر والمراهنات . يضاف الى ذلك وجود الكثير الكثير من الوسطاء الاردياء : كالخمّار الذي يبيع بالتقسيط لقاء سندات توليه حق استيفاء دينه بتملك المواشي او البيوت ، و « الصرصور » الذي يزيف صكوك التملك .

ما كانت اميركا اللاتينية ، والحالةهذه،لتستطيع التجهز بدون مساعدة الدول الرأسمالية. فهي المؤسسات الاوروبية ما انشأت معظم الخطوط الحديدية . ويجب الاعتراف هنا بأن خط ساو باولو رائعة من روائع التقنية البريطانية : اذ ان القُطُر تتسلق خمسة منحدرات متعاقبة زوّد كل منها بجهاز خاص للجر . وهي « شركة البيرو التعاونية » ، التي كان مركزها في لندن واستخدمت مهندسين اميركيين ، ما بنت خط « مولندو » و « اريكوتيا » باتجاه كوزكو وتيتيكاكا . اما الخط الذي يمر عبر الاندس فقد بني قسم منه في البامبا في السنة ١٨٨١ ثم اسند « بارنغ » التزامه الى الـ « كرورزو » بعد ان امن مبلغاً من المال ، ولكن الالتزام رسا اخيراً على « كوكريل » .

في التجارة الخارجية احتلت بريطانيامركز الطليعة الاول بعد ان تراجعتا لولايات المتحدة نهائيا حوالي السنوات ١٨٤٠ - ٥٠ .وباستطاعتنا ان نعتبر ان اميركا اللاتينية تعلقت اقتصاديا ببريطانيا العظمى .

لم يكن الوضع المالي في الدول الفتية وضعاً سليما : فالوظيفة العامة باهظة الأكلاف ، على انها لم تكن في مأمن من الرشوة بسبب تدني الرواتب . زد على ذلك ان الحكام لم يحافظوا على مراكزهم الا بتعهد انصار يتأكلهم الجشع . لا بل كان من شأن برنامج التعليم العام وحده،

بسبب ما انطوى عليه من طموح ، إلحاق العجز بميزانية تغذيها بكل صعوبة الجمارك والضرائب المفروضة على مواد الاستهلاك . فتوجب من ثم اللجوء الى التضخم الذي خفض قيمة النقد والى القروض الباهظة . ولذلك فان تاريخ الجمهوريات هو ، على وجه التقريب ، تاريخ التزاماتها نحو الادارات المالية الاوروبية .

وافقت هذه الاخيرة على السلفات الاولى ابان الحروب الاستقلالية . ثم توجب عليها الاستمرار في مساندتها لتجنب الافلاسات التي ستجعل مدينيها عاجزين عن الوفاء . وهكذا استدانت شيلي من لندن بفائدة ٦ بالمائة في السنة ١٨٢٢ ؛ وتوقفت عن الدفع بين السنة ١٨٢٦ والسنة ١٨٤٠ ؛ وفي السنة ١٨٤٢ عُقد اتفاق حصلت سانتياغو بموجبه على مال جديد ؛ وفي السنة ١٨٥٨ ، استحصلت من آل بارنغ على قرض ثالث ؛ وفي تاريخ لاحق ولت البلاد وجهها شطر مؤسسة « مورغان » . وفي البيرو ، رهنت الشيلي النترات الذي وضعت يدها عليه خلال الحرب الباسيفيكية عند مؤسسة « دريفوس اخوان » . ولم يندر ان حصلت الدولة الدائنة على رقابة الجمارك او رقابة الخطوط الحديدية . ونذكر هنا قضية مشهورة جداً هي قضية دين « جكر » على المكسيك الذي كان سبب التحالف بين انكلترا واسبانيا وفرنسا ، ثم تدخل هذه الاخيرة تدخلا متمادياً. ولم تكن النزاعات بين الدول من اجل النفوذ نادرة الحدوث ايضا. وباستطاعتنا ، من اوجه كثيرة ، ان ننظر الى الحرب الباسيفيكية وكأنها مبارزة بين المصالح البريطانية وراء الشيلي ، والمصالح الفرنسية والاميركية وراء بيرو وبوليفيا ، كان النصر فيها حليف المصالح الاولى. وتقع على رأس المال الاجنبي كذلك مسؤولية اختلافات مدنية كثيرة.

وحدة الثقافة والتصادم بين التقليد وفكرة التقدم

ان من شأن الطابع الايبيري في حضارة اميركا الوسطى واميركا الجنوبية ان يخلق فينا وهما خادعاً . فلا ريب في انربع السكان يتكلمون الاسبانية أو البرتغالية، ولا يزال هناك عدة آلاف من اللهجات البلدية . وعلى الرغم من ذلك فان هذا الجزء من العالم مدين للغة الفاتح بوحدة ثقافية معينة : لغة العلائق من اجل المقايضات الاقتصادية وتبادل الافكار في مناطق شاسعة . ويلفت الانتباه ان الاشكال القديمة قد استمرت في الارياف دون المدن التي خلقت اشكالا جديدة .

على الرغم من ان الانجيل نادراً ما نجح في الحلول نهائياً محل المعتقدات القديمة ، فان الكنيسة قد لعبت دوراً كبيراً في نشر اللغات والعادات الايبيرية . والمقصود بالكنيسة هنا كاثوليكية متسلطة ترغب في رقابة الحياة الخاصة والشؤون العامة على السواء . وحين استطاع الاكليروس الى ذلك سبيلا ، ابطل حرية المعتقد واخضع الحقوق المدنية للمعتقد الكاثوليكي واحتفظ لنفسه بحق التعليم . ولكن اعداء الاكليروس حملوا الكنيسة مسؤولية امية الجماهير . وهكذا فان نسبة الذين عرفوا القراءة من الاحرار في البرازيل لم تتجاوز ٢٣ بالمائة في السنة

١٨٨٠ ، ومن العبيد ١ بالمائة .

بيد ان التمتع بلغة رنانة جية والميل الى ملاذ الفكر قد اعطيا الشعوب اللاتينية الاميركية مدارس ادبية غنية بالانتاج . ففي البدء قدّر كلاسيكيو شبه الجزيرة حق قدرهم ، ثم جاءت الرومنطيقية ، ونظم الشعر ، واكتشفت الواقعية والطبيعية بدورها حقــلا فسيحاً للتوسع والانتشار . فصدرت مؤلفات شخصية مبتكرة كثيرة تعبر عن الاهواء وتنطوي على وصف رقيق جداً للطبيعة البديعة . وقد تجانب في هذه المؤلفات انسلال الوقائع ووصفها الدقيق ، كما ان الشاعرية لم تفسر بالنضارة .

عصفت بالنخبة المثقفة مثالية متأججة . فبرزت بقوة مقاومــة الوصاية الكنسية (ضد اليسوعيين ومحكمة التفتيش بصورة خاصة) ، وكان لفكرة التقدم في الحرية سحرها الاخاذ . وعُمل بالقانون المدني الفرنسي في الجمهوريات بعد ان ادخلت عليه تعديلات تجعله يتفق والعادات الاسبانية ؛ اما القانون الجزائي في البرازيل فقد اعده خير اعداد حقوقي كبير اختصاصي في القضايا الاجرامية هو «برناردو دي فاسكونسلوس». وبكل جدية حرر الحقوقيون (من قراء « روسو » و « بنجامين كونستان » ، البنود الصريحة للنصوص الدستورية ؛ لقد قابـــل عدم الاستقرار الفعلي توق الى تثبيت القانون .

انتشرت الماسونية وانضم اليها الناس بأعداد كبرى . فان « سارمينتو »، حامل لواء التعليم العام في اميركا الجنوبية ، ومؤسس الدار الاولى لتخريج المعلمين – في شيلي ، في السنة ١٨٤٢ – ومؤسس المدرسة النموذجية في بوينوس ايرس ، ورئيس حزب الاحرار في الارجنتين ، ورئيس هذه الجمهورية بين السنة ١٨٦٨ والسنة ١٨٧٤ ، قد برز بين كبار باعثي محفل « الشرق الاكبر » ومحفل « المجلس الاعلى » . واشتهر الماسوني « غاريبلدي »باشتراكه في القتال من اجل استقلال الاوروغواي . وعن طريق الماسونية الانكلوساكسونية تسربت الروح النفعية الى مذهب الاحرار . ولكن الفلسفة الوضعية هي التي احرزت اعظم النجاحات إثارة للدهشة في اوساط المثقفين الذين كانوا يبحثون عن قاعدة يسلكون بموجبها . لا بل ان تعاليم « كونت » ، التي فسرت تفسيراً حرفياً ، قد دفعت الى تأسيس بعض الكنائس ، ككنيسة « معبد الانسانية»، واحدثت بعض النهضة في العلوم الاجتماعية . وسعى الشيلي « لاستاريا » الى التوفيق بين كونت و « جون ستوارت ميل » وتوكفيل . وفي البرازيل والمكسيك ادى الخوف من الفوضى والمذهب الوضعي مشتركين الى ولادة حزب « علمي » ابتغى نوعاً من الاستبداد المستنير القادر عـــلى تحقيق امور عظيمة .

كان سبب الخلاف في النزاع بين الكنيسة وخصومها نفوذ الاكليروس على المجتمع والمدرسة والسلطات العامة ؛ ولكن « الكفاح الثقافي » قد استهدف كذلك الممتلكات الكنسية الـــتي اتاحت للكنيســة ان تكون دولة داخل الدولة ، والتي طمعت بها هذه الاخيرة لان كاهـــل ميزانيتها كان مثقلاً بالديون . فقابلت اعمال العنف التي اتاها هذا الطرف اعمال عنف اخرى اتاها

الطرف الآخر . اما التسويات القلية التي تحققت لم تدم قط طويلا .

تعذر الوحدة الاقليمية

لم تضع حروب الاستقلال حداً للسيطرة الايبيرية فحسب : فهي قد كرست تجزئة الممتلكات الاسبانية الواسعة الاطراف . وهي البرازيل وحدها التي استطاعت المحافظة على اراضيها : ولو ان الاوروغواي انفصلت عنها . ثم توفي بوليفار منهوكا في السنة ١٨٣٠ بعد فشل مشروع كولومبيا – الكبرى . ولن تسفر المؤتمرات من اجل تحقيق الوحدة ، التي ستدعو اليها المكسيك ثم البيرو ، الى اية نتيجة ؛ فقد نشبت منذ ذاك التاريخ نزاعات دامية بين الجمهوريات الجديدة . وهكذا فان ١٦ دولة قد تقاسمت في النهاية اراضي البر الاميركي الجنوبي حتى رأس هورن ، قبالة الاتحاد الشمالي الاميركي .

نجد تفسير هذا التفتت في الجغرافية . فقد كتب « همبولدت » ان « الدول المتجاورة لا تتصل في معظم الاحيان الا بالمضائق الاستعمارية » . ولما كان البحر جانبيه ، فان التجمعات الطبيعية قد جرت بدلالة اقرب ساحل اليها . وكان للاحراج الامازونية نصيبها الاكبر في قيام فنزويلا على بحر الانتيل وفي الحد من توسع الممتلكات الغويانية الانكليزية والهولندية والفرنسية التي تمكنت من البقاء ، السبب نفسه ، على حدود البرازيل ، وعلى هامشها اذا صح التعبير . واوقفت الصحراء رمناً طويلاً التوسع الشيلي في الشمال . وتكونت باراغوي وراء الخطوط المائية والمستنقعات واشجار الغابات الشائكة في « شاكو » . فالحدود تعني من ثم منطقة لا خطاً واضحاً ، وقد تجددت المنازعات حولها تكراراً .

لم تقم سوى فوارق جزئية بين خريطة التقسيمات الادارية الاسبانية (نيابات ملكية وقبطانيات) وبين خريطة الجمهوريات . فان عواصم الامس قد احتفظت بوظيفتها الجاذبة ؛ ولكن المنافسات القائمة بينها ، على غرار الاثرة الاقليمية التي عانت منها اسبانيا في العهد نفسه ، قد زادت حدة التنازعات الاقليمية . فقد عجزت الوحدة الثقافية والتيارات التجارية التقليدية عن الحؤول ، في جو اقتصاد لا يزال بدائياً ، دون تفرق السكان بفعل المسافات . لا بل اذا كانت الدولة واسعة نسبياً ، اصبحت وحدتها قصيمة جداً . فان المنازعات تنفجر حينذاك بين العواصم والولايات ، وبين المدن والارياف ، وبين الوحدويين والاتحاديين : ففي فنزويلا مثلاً ظهرت نزعة سكان السهول الاستقلالية عن سكان كراكاس ، ونزعة رعاة المواشي الماثلة في البامبا الارجنتينية عن بوينوس ايرس . وغالبا ما رجحت كفة الحل الاتحادي في النهاية : الولايات المتحدة المكسيكية ، والولايات المتحدة الكولومبية ، والولايات المتحدة البرازيلية ، والولايات المتحدة الفنزويلية ؛ وقد اتخذت الارجنتين كذلك شكلاً اتحادياً .

كانت الحرب شبه دائمة بين هذه الدول الفتية التي تأكلها التحاسد واتجر حكامها الى خوض المغامرات الخارجية بداعي النفوذ وتنازعوا الطرق النهرية النادرة والهامة وثروات المناجم

الثمينة . وحدثت هذه النزاعات في كل مكان: بين كولومبيا والاكوادور ، وبين الاكوادور والبيرو ، وبين الجمهوريات الصغرى التي نشأت عن تفكك اتحاد اميركا الوسطى . وكان مسرح ثلاثة او اربعة منها نيابة لابلاتا الملكية القديمة التي كانت مناطقها النهرية الشمالية مطمع الطامعين؛ وانتهى اهم هذه النزاعات هولاً ، بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٧٠ ، الى افناء شعب باراغواي الصغير . وبعيد ذلك نشبت الحرب المعروفة بالحرب الباسيفيكية التي انتزعت الشيلي خلالها من بوليفيا والبيرو المقاطعات الغنية بالنطرون وأقصت الاول منها عن الشاطىء .

في اواخر القرن فقط ، اخذت هذه الدول تنصرف شيئاً فشيئاً عن طريق اللجوء الى القوة الى الاجراءات المعمول بها بموجب الحق الدولي . واوحت الاضطرابات التي عانى منها هذا الجزء من العالم بتقارب اميركي شامل اعتبر ضرورياً .

مرض آخر واسع الانتشار : الاضطرابات الدائمة في قلب الامم الفتية . حكم الزعيم الفرد وصعوبة ولادة النظام الدستوري

دانت الجمهوريات مبدئياً بالحريات وحتى بالديموقراطية ، ولكنها في الواقع كانت فريسة احزاب تنازعت الحكم بعنف. فنادرا ما توفرت الشروط التي تسمح بقيام نظام دستوري. يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان حروب الاستقلال ابرزت دور الزعيم ، اي الـ « كوديلو » . فان بوليفار «وسان مارتين » ، اللذين سيخلد ذكرهما ، قد تركا بعدهما خلفاء ومقلدين . وقد تجلت رومنطيقية ادبية مجدت العزائم الفردية : فان « ادرداد » قد ذكر بمآلي نابوليون ، كما ان « مونتالفو » ، في « المعاهدات السبع » ، قد احل بوليفار فوق بطل العالم القديم . وليس هناك من حكومة تولت الحكم الا في اعقاب انقلاب او انتخاب افسدت فيه ارادة الناخبين ، ثم كانت ضحية اللاشرعية والاضطرابات . ففي المكسيك تولى الرئاسة شخص كل سنة تقريباً خلال السنوات الست والثلاثين التي عقبت سقوط زعيمها الاول « ايتوربيد » .وفي فنزويلا نشبت ٥٢ ثورة في اقل من ١٠٠ سنة . وكانت بوليفيا مسرح ستين عصياناً عسكرياً ، وغيرت دستورها عشر مرات ، واماتت او سمحت بإماتة ستة من رؤسائها .ولم تعرف باراغواي نظاماً غير الدكتاتورية. ويروى ان ضحايا ثورة السنة ١٨٧٩ في كولومبيا بلغوا ٨٠٠٠٠ .

ان حسم الخلافات على هذا النحو اتاح لبعض المغامرين ان يلعبوا دورا هاماً . فان الرشوة والنداءات المهيجة والحقد المزمن على مواليد المستعمرات الاغنياء قد دفعت العامة الامية وراء المغامر الجسور . اضف الى ذلك ان الكوديلو قد بدا وكأنه مواصل عمل الزعيم الهندي . فكم من وجه اثار الاعجاب ؟ والى جانب بعض مواليد المستعمرات المهذبين تهذيباً ارستوقراطياً ، من امثال « روزاس » الشبيه بأشارف الاسبانيين ، « وبورتاليس » المحافظ على القيم التقليدية ، كم من ملون غريب الاخلاق ؟ واننا نكتفي هنا بذكر راعي الخنازير الهندي ، « كاريرا » ، الذي حكم غواتيمالا حكماً استبدادياً طوال خمس وعشرين سنة . واي انتقام كذلك حين يحكم المكسيك هندي من امثال « بنيتو جواريز » او خليفته الخلاسي « بورفيريو دياز » ، او حين

يحكم فنزويلا « بايز » الامي الطويل القامة الذي كان فارساً ماهرا نظير روزاس !

ورقة تولي الكوديلو السلطة وورقة اخرى تنزعها منه . اليوم هو رســول العناية الالهية الواجب الوجود ؛ وغدا سوف تلحق به كل شتيمة ؛ واذا ما استلم دفـة الحكم مرة اخرى ، استعاد شعبيته . ومن غريب التناقض انه انما ينتهك حرمة القانون بغية فرض احترامه احتراماً افضل . اما الكنيســة فترضى عمن ايدته او من هو بحاجة اليها ، وتعاني من النظام الذي تكون هي ضحيته .

ولكن مهما يكن من قساوته ، فان هذا النظام ، الذي كان وليد الفوضى، كان علاجها ايضاً . يثقل الضرائب لمصلحته ، ولكنه يثقلها لمصلحة الدولة ايضاً . وقد ظهر ممثله بمظهر الموحد حين دعـــي روزاس في الارجنتين وبورتاليس في تشيلي وجواريز في المكسيك . لقد تنكل بالامـين ولكنه اهتم اهتماماً كبيرا بالتعليم العام ؛ ونكل بالعسكريين والحقوقيـين ، ولكنه كان واسع الآفاق ، فوفر العمل بتأسيس المشاغل والمصانع . وجملة القول انه اعاد وصان وأمن المستقبل الوحدة الوطنية ، وان تخلى عن بعض حقوقه للرأسماليين وللدول الاجنبية .

الاستمرار والتنوع البرازيليان

من غويانا الى مشارف لابلاتا، ومن جبال الاندس الى الاطلسي امتدت سيادة واحدة ، كما في عهد السيطرة البرتغالية ، عـــلى اكثر من ٨ ملايين كيلومتر مربع . وعلى نقيض ما حدث في الاقاليم الاسبانية السابقة،استمرت هذه الوحدة في كنف السلالة الشرعية ، سلالة « براغانس » فكان للبرازيل من ثم وجـــه مميز خاص .

لم يستلزم ابقاؤها على سلالتها الاوروبية اي ارتباط بالوطن الام القديم . وقــد حافــظ « دون بدرو » على كرسيه في ريو لانه برهن في برهة من الزمن انه برازيلي اكثر منه برتغالي . وعرف كيف يقتنع بنظام دستوري ترك له ، من جهة ثانية ، سلطة حقيقية ، ولا سيا الإشراف على ادارة مركزية ؛ وتحلى بالفطنة ابداً فاستقال في الوقت المناسب ، تاركاً ادارة شؤون البلاد لوصاية ، وفي الواقع للطبقات المسيطرة التي سرّت بالحكم طيلة قصور ابن الامبراطور الشرعي والتمهيد لولاية مليك برازيلي حقاً . فلعب بدرو الثاني دوراً شبيها بذاك الذي لعبه في الماضي ماركوس اوريليوس ، وذلك بفضله في الخلافات السياسية وباهتمامه بالتحقيقات العملية قبــل اي شيء آخر .

كانت هناك في الواقع اربع دول برازيلية متجانبة اكثر منها متضامنة : برازيل الاحراج الامازونية منتجة الاخشاب الثمينة ، برازيل الهضاب الواسعة حيث يستمر النشاط المنجمي ، برازيل مشاجر المناطق الحارة (هذه هي برازيل قصب السكر والقطن في باهيا وبرنمبوك وريو)، واخيراً البرازيل الجنوبية التي اخذت منذ عهد قريب تتعاطى تربية المواشي . واذا اخــذ المهاجرون الاوروبيون ، وجلهم من الالمان ، يستوطنون هذه المنطقة الاخيرة ، فان الهنود ما

زالوا يسيطرون على المنطقة الاولى ، بينما تميزت المنطقتان الاخريان بعمل الارقاء في خدمة الارستوقراطيين من مواليد المستعمرات والخلاسيين . وكانت النزعة الانفصالية خافية ابداً حين لا تظهر بمحاولات انفصالية معلنة : حيناً في سيربا او برنمبوك ، وحيناً في بارا أو باهيا ، وآخر في ميناس ؛ وطوال عشر سنوات ، الى « ريو غراندة دو سول » الاهابة والخوف في جيوش ريو. كلها ازمات اضرت بالنمو الاقتصادي واثقلت كاهل الخزينة ، واوجبت تعهد قوة عسكرية وبحرية هامة . وكانت الكلمة الفصل الاخيرة للاسطول الذي يحاصر الثائرين . وقد اعتمدت في الوقت نفسه - في سبيل النفوذ والسيطرة على مداخل حوض « بارانا - بلاتا » - السياسة التوسعية البرتغالية القديمة باتجاه الغرب ، الى ما وراء خط « توردسيلاس » فأقحمت البرازيل في نزاعات دائمة باهظة الاكلاف لم تؤد الى اشباع مطامعها اشباعاً تامـاً . فان الشمل الذي انتهت اليه البارافواي مثلا لم يكن تعويضاً كافياً عن فقدان الاوروغواي .

توطدت الدولة البرازيلية شيئاً فشيئاً باستمالتها برؤوس الاموال البريطانية ، وبيعها المواد الغذائية والخامات وتشغيلها العبيد ، وتمويلها اصحاب المغارس والمناجم . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، وطيلة ١٥ سنة ، ارتسمت انطلاقتها بمزيد من الوضوح : فقد تضاعف دخل التجارة الخارجية وتوسعت عمليات احياء الاراضي ، وظهر الخط الحديدي والتلغراف . وكان ذلك العصر الذهبي للقطن والسكر . ولكن حرب البارافواي الرهيبة كلفت اموالاً كثيرة بلغت المليار ، فعقبتها مرحلة هبوط : ازمة سكر وازمة مناجم زادت من شدتها ازمة الرق . فبين قانون السنة ١٨٧١ ، وقد اقرت بموجبه حرية الزنوج الذي سيولدون (قانون البطن) ، وقانون الاعتـاق الشامل الذي صدر في السنة ١٨٨٨ ، تفاقم الهيجان والاضطرابات . فتخلى عن الامبراطور اسياد الارقاء ، كما تخلى عنه الاحاديون والجيش نفسه الذي شكا من ضآلة الرواتب،فتخاذل امام انقلاب السنة ١٨٨٩ .

كانت الخطى الاولى التي خطتها جمهورية الولايات المتحدة البرازيلية عسيرة جداً. وقد ترتب على كل ولاية ، منذ ذاك التاريخ، ان تعيش لنفسها . فتجهزت « ساو باولو » بالادوات ونجحت في بيع بنها وازدهرت ، بينا عاشت باهيا وبرنمبوك في ضيق ؛ واستفـاد الجنوب من الهجرة الاوروبية الثانية وربّى المواشي وزرع الحبوب ؛ ولكن منطقـة الهضاب اعتمدت الاقتصاد الراعوي ببعض الصعوبة . وأثار زوال اليد العاملة العبدية مسائل خطيرة دارت كلها حول اعتماد اقتصاد جديد مبني على نظام الاجور. الا ان تزايد الطلب الاوروبي والاميركي الشمالي قد ساعد البرازيل الحديثة على النهوض . وقد اجتاحت حمى المضاربة مجتمع اصحاب المزارع وتجار اللحوم والجلود ؛ ثم ما لبثت هذه الحمى ان امتدت الى مناطق احراج امازونيا الغنية بالمطاط فتحسن التجهيز واتسعت المدن ، ولكن تفضل الفئات المثرية قابله بؤس الجماهير التي كان الجوع رفيقها الدائم . وقابل نخبة من كبار الحقوقيين والكتاب المتنجين من جهة سيطرة امية واسعة من جهة اخرى . وقد طبعت التناقضات الاجتماعية والاقليمية الجمهورية الكبرى الخاضعة لنظام

الانتخاب العام المباشر بطابع مميز لم تعرفه من قبل .

جمهوريتان راعويتان : الارجنتين والاوروغواي

كما في القارات الاخرى ، وفي المناطق المتقابلة بالنسبة لخط الاستواء ، تمتد جنوبي خط الجدي مساحات واسعة جرداء ، وتصبح الارض جافة والمناخ منشطاً ومقوياً . تمتزل المجموعة السكنية في الباميا ، شبيهة بالمزرعة البويرية او الانكلوساكسونية ، ويتعاطى اصحابها تربية المواشي . ويذكر نمو المدن الجديدة بالاراضي الجنوبية المقابلة ايضاً : فمنذ السنة ١٨٧٠ اقام في المدن زهاء ١٠٪ من سكان الارجنتين ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ضمت « بوينوس ايرس » ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة من اصل ٤ ملايين ونصف المليون . وهنالك نسبة اعلى من هذه : فان الـ ٢٠٠ ٠٠٠ شخص الذين عاشوا في « مونتفيديو » كانوا يمثلون اكثر من ربع سكان الاوروغواي . ويذكرنا مرفأ تصدير الاصواف واللحوم والجلود هذان بمرفأي ملبورن وسيدني .

ويبرز التضاد خصوصاً مع البرازيل ، غير المتجانسة ، والمشلّلة بفعل النتوءات : فنحن نتصور دولة كبرى واحدة في اطار واسع جداً وخال من النتوءات هو اطار السهل الذي تتجه مياهه كلها الى لابلاتا . والحال لم يتجاوز سكان بوينوس ايرس الـ ٢٥ الف نسمة حين قررت انكلترا فيها إبطال الميثاق الاستعماري الاسباني وأولتها كل اهميتها . وحتى في السنة ١٨١٦ اعلن سان مارتين في تركومان استقلال ولايات لابلاتا المتحدة قبل ان يذهب الى « ليما » ليبحث فيها عن مفاتيح مسكنه . وستبقى حدود الجمهورية زمناً طويلاً بدون تعيين . ففي سبيل استمالة اقليم الـ « شاكو » ، وأقاليم المغارس والملح في منطقة جبال الاندس ، كان يقتضي الانتصار على الباميا التي لم تكن حلقة اتصال بل عائقاً جدياً . وقد اصاب سارميينتو حين قال : « ان المصيبة التي تعاني منها الجمهورية الفضية هي امتدادها ؛ الصحراء تحيط بها من كل جانب وتدخل الى قلب البلاد ؛ العزلة والمسافات الخالية من اي مسكن بشري تؤلفان الحدود المسلم بها بين الولايات المختلفة » . وهكذا فان البورة التي يسيطر عليها الجفاف واسراب الجراد وتمر فيهما مسالك نادرة للعربات ، قد تحكمت بوسط البلاد وحتى بمشارف العاصمة وعزلت الولايات وخلقت الفوارق الاقليمية . ولكن الحقيقة التي يجب قولها هي ان البلاد افتقرت الى السكان الذين لم يبلغوا المليونين في السنة ١٨٧٠ .

تخطى المفكر « ريفا دافيا » اهل زمانه الى تجربة محاولة ديموقراطية تكون على رأسها نخبة سكان العاصمة . فحدثت ردة فعل انفصالية عنيفة كادت تؤدي الى قيام ثلاث او اربع دول مستقلة مكان الارجنتين المفككة لولا شدة عزم «روزاس» . سار روزاس على رأس عمال المزارع ورعاة المواشي وسحق الزعماء المحليين او فاوضهم واقترح على الارجنتينيين احتلال المناطق النهرية وتحدي اوروبا . اجل لقد انتهت فظاظته بقتله ، ولكن عمله بقي من بعده .

كانت ارجنتين السنة ١٨٥٠ من خلق مواليد المستعمرات والخلاسيين الذين اسسوها . فكل

شيء فيما كان مرتبطاً بالراعي الذي يراقب ويطارد ويسلم القطعان الثانية: وقد عظمه سارمينتو في كتابه « فاكوندو » . ولكن بورجوازية اعمال نمت في بوينوس ايرس واتصلت بأوروبا ونازعت المزارعين المكاسب التي وفرتها لهم تربية المواشي . فان « اوركويزا » الذي مثّل العهد الاتحادي ما زال أشبه بسيد عقاري كبير ؛ اما سارمينتو فقد أنبأ بتسلم البورجوازيين زمام السلطة .

وكما جرى في البرازيل ، حدثت ثورة بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٠. فمن جهة رفعت الهجرة الاوروبية عدد السكان من مليونين الى اربعة ملايين : مما زاد نسبة البياض في لون الارجنتين . ومن جهة ثانية تعاظم شأن الاقتصاد الراعوي تعاظماً كبيراً : فنمت في الوقت نفسه القطعان المعدة لانتاج الاصواف والقطعان المعدة لانتاج اللحوم ؛ وعقبت تسليات اللحوم المجففة تسليات اللحوم المملحة ، وبني البراد الاول في السنة ١٨٨٢ . ثم بوشر تنفيذ بعض المشاريع ببناء الخطوط الحديدية ، فارتسمت الشبكة التي ستنشأ في المستقبل ولوثقت روابط الاتحاد . وزاد نفوذ بوينوس ايرس الفخورة بمجتمعها الانيق ونشاطها : وبرهنت ارجنتين سارمينتو وألبردي عن حرصها على التعليم الالزامي والدروس العلمية ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ، عادلت التجارة الخارجية بأهميتها تجارة البرازيل التي كانت تفوقها سكانا .

بينما كانت الباراغواي عائشة في ضيق تحت سلطة دكتاتوريها الذين دافعوا بلا مراء دفاعاً حريصاً عن شخصيتها العنصرية ، ولكنهم جروها الى كارثة لن تنهض منها قبل القرن العشرين ، استفادت الاوروغواي من حسن طالع الارجنتين . فالرعاة سنوا فيها الشرائع على غرار ما جرى في الجهة المقابلة وراء لابلاتا ، وتوصلوا في السنة ١٨٩٠ الى جمع ٢٣ مليون حيوان مقابل ٧٠٠ الف نسمة . ولكن بورجوازية مونتفيديو ، المدينة الجميلة القائمة على رأس داخل في البحر نظير قرطاجة ، اتصفت بانفتاح فكري عظيم . اجل كان الصراع عنيفاً بين البيض ، الاسبانيي المنشأ والكثوليك عموماً من جهة ، وبين الملونين ، الخلاسيين المنتمين الى المحافل الماسونية عموماً من الجهة الثانية : ولكنه لم يمنع انفصال الكنيسة عن الدولة ، وإلغاء عقوبة الاعدام ، واقرار قانون العمل .

التشيلي : غرابة جغرافية وطابع قومي

لم تسمح جبال الاندس بأن تحتل دولة واحدة كل عرض البر عند المناطق المتوسطة البعد عن خط الاستواء . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان قطانية التشيلي العامة كانت تابعة لها ؛ وعلى شواطىء الباسيفيكي قام الجسم المستغ الذي تحاذت ولاياته ، على طول ٤٢٠٠ كيلومتر و ٤٠ درجة من درجات العرض كما تتحاذى خرزات المسبحة ، وتميز بمواصلات برية بعيدة التصديق وبمواصل لتكثر فيها الرؤوس والخلجان . فكانت البلاد أشبه ما تكون بجزيرة تحيط بها المياه والقمم المرتفعة وأحراج المناطق الباردة في الجنوب – حيث تقطع الاخشاب الضرورية لبناء السفن – والصحراء

الحارة في الشمال ، ويمتد في وسطها واد معتدل المناخ وخصب التربة .

تسلم وادي سانتياغو هذا زمام السلطة مستفيداً من مرفأ كبير هو فالباريزو ومن مجاز « كومبو » المؤدي الى البامبا الغنية بالحقول التي اولع بها أصحاب المزارع. وأضافت بعض العائلات الغنية من مواليد المستعمرات مكاسب زراعة الحبوب الى تربية المواشي . وتحقق الاستقلال بمساندة الانكليز . ومنذ ذاك الحين ، أمن الحزبان المتنافسان ، المحافظون والاحرار – اللذان يعبران عن الجناحين مختلفين في الرأي العام الارستوقراطي – تسيير دفة الشؤون العامة دون صعوبات هامة .

ولكن التشيلي ما كانت لتحتل مركزاً هاماً في هذه المنطقة الضيقة . ففي سبيل السيطرة على الاحراج الجنوبية توجب عليها اخضاع الاروكان ، فدخلت صراعاً لن ينتهي الا في السنة ۱۸۸۳ ارغمها على البقاء في حالة حرب دائمة . واستغلت كذلك صفاتها الحربية بشنها على بوليفيا والبيرو، بغية الاستيلاء على الصحراء الشمالية الغنية بالمعادن ، حرباً لم تكن دون صراعها مع الاروكان عنفاً .

على الرغم من ان عدد سكانها قد تضاعف ، افتقرت التشيلي الى اليد العاملة ، وكانت الاجور فيها اعلى منها نسبياً في البلدان المجاورة . ولسنا نعني بذلك زوال البؤس ! فاستثمارات المناجم كانت أشبه بالجحيم . ولكن النترات والنحاس قد وفرا مداخيل اتاحت تجهيز البلاد بالخطوط الحديدية والمرافىء . وتعاظمت طبقة بورجوازية نازعت الاوليغارشية العقارية السلطة : فان ثورة السنة ۱۸۹۱ التي نهض بها الاسطول واستفاد منها رجال المال ، انتهت باستقالة « بالماسيدا » آخر رئيس سلك سلوك الاشارف . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار النهضة الاقتصادية وحسن ادارة الاموال العامة وتقدم التعلم وتقسم الاملاك الكبرى تقسيما تدريجياً ، بدا لنا ان مستوى الحياة العام كان آخذاً في الارتفاع .

الجمهوريات الاربع في جبال الاندس المرتفعة : تموها العسير

بعد تواري بوليفار وتبخر حلمه – وحدة النيابتين الملكيتين القديمة ، غرناطة الجديدة وليما – اشرف خلفاؤه على ولادة خمس جمهوريات خصيبة وفقيرة . ولكن الطبيعة نفسها قد ساعدت على التجزئة : فان قيام النيابتين قبل مشروع التوحيد كان مطابقاً لتضاد كلي الوضوح بين المناخات الرطبة والمناخات الجافة في الجبال التي لم تتأثر بها تأثراً كبيراً ؛ فلن يتمكن اي مركز من فرض نفسه بعد انهيار السيطرة الاسبانية .

جمع البيرو بين المناطق المنخفضة التي يتعذر زرعها الا بواسطة الري وبين وعورة الهضاب التي تعتبر بين اكثر هضاب الكرة الارضية ارتفاعاً واقفاراً . انها ارض الهندي والخروف والجمل الاميركي والمعادن الثمينة .

اما الكتلة الكثيفة ، التي ارتبطت بنيابة لابلاتا الملكية بعلائق تجارية وانضمت اليها في

عهد متأخر ، فقد حملت اسم « ليبرتادور » الجيد . ولكن اسمها لم يجعل منها دولة قوية : اذ لم يتجاوز سكانها المليوني نسمة في اكثر من مليون كيلومتر مربع في السنة ١٩٠٠ . وقد بلغ السيل الزبى عندما فقدت بوليفيا منفذها الضيق الى البحر وانتزعت البرازيل منها بعد ذلك اقليم « اكر » الغني بالمطاط . اضف الى ذلك ان سكانها الفقراء والمتخلفين لم يستفيدوا استفادة كبرى من ثروة الفضة التي ما لبثت ان انضمت اليها ثروة اعظم شأناً هي مناجم القصدير الوفيرة .

لم تكن البيرو اوفر حظاً . فان ليما، العاصمة الشتالية الساحرة ، كانت آخذة في التقهقر بسبب بعدها عن « الاراضي الباردة » أي عن المنطقة الهندية المرتفعة ، وقد مالت طبعاً الى اعتبارها كاحدى ملحقاتها . وقد اضرت بها « اريكويبا » بفضل حسن موقعها بالنسبة لمراكز الغوانو ، ومناجم النترات ، و « كوزكو » وحتى منطقةمونتانا الامازونية الطابع التي اجتذب « مطاطها الشتالي » العديد من المهاجرين في اواخر القرن. اجل لقد اعتق الكوديلو «كاستيلا» الزنوج والهنود ، ولكن مسألة اليد العاملة اصبحت مسألة عسيرة؛لا سيا وان الـ٩٠ الف صيني الذين نزلوا الى البر بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ لم يلبثوا ان اعتبروا غير مرغوب فيهم . ولكن الدولة يجب ان تعيش من الغوانو والمناجم : ألم يذهب « مانويل باردو » الى حد تقرير احتكار النترات في السنة ١٨٧٥ ؟ والحال فقد عجز الجيش الشغب والمتطلب ، الذي ارتبط به السلطة ، حتى عن الدفاع عن النترات ! وفقدان النترات يعني الافلاس ، لا سيا وقد ثقلت وطأة ضريبة الملح على كامل عامة الشعب. انه لتاريخ حكم معوز تخللته ثورات دائمة شاهدها الشعب دونما اكتراث .

عرفت الاكوادور ، الضيقة الرقعة ، مشاقات مماثلة . فان « كيتو » ، العاصمة الهندية القديمة ، القائمة على ارتفاع ٣ آلاف متر ، لم تتغلب على « غواياكيل »، سوق تصريف محاصيل مغارس المناطق الحارة . وازداد هذا التضاد الذي شاهدناه في البيرو بين « الاراضي الباردة » و « الاراضي الحارة » . وادت ازمة قصب السكر الذي كان يزرعه الزنوج الى افقار اصحاب المغارس ، وما كانت شجرة الكاكاو بعد لتخلص البلاد من ورطتها . ولذلك فان الجبل القاسي والمتخلف قد فرض « فلوريس » وساند « غارسيا - مورينو » والمحافظين ورجال الاكليروس. وقد دخلت الاكوادور في نزاع دائم مع جيرانها ، فانكمشت رقعتها شيئاً فشيئاً وفقدت في النهاية نصيبها من منطقة « مونتانا » .

ابعد الى الشمال تزول الانجاد في جبال الاندس وتزداد الرطوبة ، فتتجزأ كولومبيا جبالا وعرة المنحدرات ووديانا داخلية سحيقة موازية لخط الطول، بينا تعزلها عن شاطىء «شوكو» الباسيفيكي احراج كثيفة الاشجار . وذهب بعضهم الى حد القول انها اشبه بجزيرة جبلية تحيط بها الاحراج . وقد نشطت فيها تربية المواشي في « المناطق الباردة » الى جانب المغارس في « المناطق المعتدلة » ، ووجهت شبكتا « مجدلينا » و « كوكا » حركة النقل فيهما شطر بحر

الانتيل لمصلحة قرطجنة . واعطاها امتلاكها لمضيق باناما مركزاً دولياً قوياً لم يخل من الاخطار .

تسلطت ذكريات غرناطة الجديدة على رجال بوغوتا الذين لم يرضوا بالتخلي عن فكرة كولومبيا الكبرى على الرغم من ان حكم كولومبيا الحالية كان من الصعوبة بمكان بسبب انقسامها . فسكان المناطق المختلفة لا يرون مبرراً يوجب عليهم الانحناء أمام توجيهات سكان بوغوتا: فئات لجانبت وتألف كل منها من مواليد مستعمرات وخلاسيين وزنوج ومن بعض الهنود الذين لا شأن لهم . اضف الى ذلك ان الاقتصاد كان في حالة ركود : فقرطجنة لم تكترث لانكباس القناة التي كانت تصلها بمجدلينا ، والاسهام الاوروبي كان طفيفاً جداً . وكانت الاثرة الاقليمية والبؤس مصدر الاضطرابات التي ارتدت طابع الوحشية القصوى . وانتقل الحكم من المحافظة الاوليغارشية الى الراديكالية ، ومن مناهضة الاكليروس الى ردة فعل اكليروسية ، ومن الغاء حكم الاعدام الى مذابح بين انصار الفرقاء ، ومن الاتحادية بين الولايات الى الدكتاتورية الخانقة . واتضح التدخل الاميركي في النهاية وأدى الى خسارة بانامـا ، بينما هيأ نجاح زراعة القطن وشجرة البن لمستقبل قريب افضل ، بانتظار ظهور البترول ، ذلك المورد غير المتوقع .

فنزويلا بين سكان السهول واصحاب المغارس

جاءت الثورة مبكرة في شطر غرناطة الجديدة المتجه نحو بحر الانتيل والمجاور لمصاب الاورينوك ايضاً : فقد استطاع مواليد المستعمرات الاتصال بكوراسا ووترينيداد من جهة ، والحصول على المساعدة والحماية في السهول . وكانت هنالك حركة نقل هامة بين مناطق تربية المواشي الداخلية الواسعة وبين المرافىء ؛ وكانت الجزر قد ادخلت الى مرتفعات غرناطة الجديدة زراعة شجرتي البن والكاكاو واسترقاق الزنوج . فألف مربو المواشي وأصحاب المغارس من ثم الفئتين الاجتماعيتين اللتين سيتبع اتفاقهما انماء فنزويلا ، وربما تفسر خلافاتها تاريخها المضطرب ايضاً .

هم سكان السهول ، وسوادهم من الخلاسيين ، القساة والاميين، الذين الفوا، بقيادة « بايز» « زعيم السهول » ، خير عناصر الجيش الذي جمعه بوليفار . ولكن الدستور الاتحادي والاوليغارشي الذي خلفه « المحرر » ، ما كان ليحول دون الحروب الاهلية التي نمت ابانها الروح الانفصالية : فان انفصال « ماراكايبو » ، منافسة كاراكاس ، استعجل التطور نحو الصيغة الاتحادية ، فقسم دستور السنة ١٨٦٤ البلاد الى ٢٤ ولاية . وفي فترة من الزمن ادار الكوديلو « غوزمان بلانكو » دفة الحكم بقوة : فنظم الجيش وناصر الادباء وسعى الى تنمية الاقتصاد وعادى الكنيسة التي كانت ممتلكاتها مغرية ، ولكنه لم يرض مع كل ذلك بالخضوع لاوروبا الاستعمارية . فقد نشب نزاع على الحدود بينه وبين انكلترا حول اراضي « يوروراي » الغنية

بالقصب ، دام ١٣ سنة . ثم تجددت الاضطرابات ، مصادفة في الزمان حدوث الازمة التي عانت منها تربية المواشي : فوجهت الاوبئة الحيوانية والحروب الاهلية ضربة خطيرة لسكان السهول الذين كانوا يرفضون الانحناء امام فنزويلا البن والكاكاو . وهنا كما في غير مكان تم الانتقال بصعوبة من اليد العاملة العبدية الى نظام العمل المأجور : وعلى الرغم من ارتفاع عدد السكان ، فان الهجرة الاوروبية ما زالت غير كافية ، لا سيما وأن منافسة المزارعين البرازيليين كانت مثاراً للخوف . زد على ذلك اخيراً ان هوة سحيقة قد باعدت بين الاقلية المتملة والغنية وبين كبار الملاكين والسكان الآخرين ، في هذه الجمهورية المدعية بالديموقراطية .

الجمهوريات الصغرى في اميركا الوسطى

يمكننا اجمال القول بأن النظام الاتحادي قد حد من تجزئة الكتلة الاميركية الجنوبية . أما في اميركا الوسطى ، فقد اخفق وعجز عن تحقيق اعادة التجمع . فنطانية غواتيمالا العامة القديمة قد تجزأت بعد رفضها سيطرة المكسيك التي كانت متحدة بها في نيابة اسبانيا الجديدة الملكية .

دفع المناخ الحار والرطب نفسه بالانسان في كل مكان تقريباً الى « المناطق المعتدلة » . ولكن كثافة السكان متباينة تبايناً بعيداً والتكوين العنصري مختلفاً جداً . فبينما كانت غواتيمالا ، ولا سيما سان سلفادور ، اكثر أهلاً بالسكان من البلدان المجاورة ، تميزت كوستاريكا بنسبة كبرى نادرة من العنصر الابيض . ولكن هذه الأخيرة انفت من تحمل شريعة دول الملونين ، كما ان غواتيمالا افتقرت الى التفوق العددي الذي كان من شأنه ان يعيد اليها اولويتها السياسية القديمة .

سيطرت من ثم على هذه الدول حروب دائمة كثيرة ، كما سيطر على كل جمهورية اضطراب داخلي مزمن . ولم يحقق الغاء الرق التهدئة الاجتماعية . وهو أحد كبار اصحاب مغارس شجرة البن من انشأ في غواتيمالا الطريق الجيدة الوحيدة التي تستطيع اميركا الوسطى ان تفاخر بها .

لم تستهو اميركا الوسطى المهاجرين ، ولكنها اثارت اطماع الدول الاستعمارية والخلافات فيما بينها . واذا كثر الكلام عن قناة تفتح عبر غواتيمالا ، فان الخطوط الحديدية الاولى قد انشئت في باناما وتهوانتيبيك ، بينما فتحت القناة في النهاية في البرزخ البانامي .

ارتقاء المكسيك المتأخر

ما زال اسم المكسيك ، على غرار اسم البيرو ، يعيد الى الذاكرة امجاد الماضي العظيمة .

ولكن الواقع اراد ان تكون البلاد فقيرة . فان سواد السكان – ٦ ملايين حوالي السنة ١٨٠٠ ، و ١٣ مليون ونصف المليون في السنة ١٩٠٠ – خضعوا لمستوى معيشي متدن جداً . إلا ان هنالك نسبة من الخلاسيين ربما ساوت نسبة الهنود في اواخر القرن . وهذا هو بالضبط سبب حدة التضاد بين الارستوقراطية البيضاء الاسبانية الاصل وبين الملونين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان شبه الجزيرة المرتفع هذا يمتد في جوار الولايات المتحدة والدول الاستعمارية

الموجودة في الانتيل . فقد سعى مواليد المستعمرات الى اطالة النظام الاسباني بشكل ملكية محافظة تؤمن امتيازاتهم، كما رغب الاجانب ، فيما بعضهم ، في قيام سلطة تضمن استثمار الثروات المنجمية استثماراً هادئاً : فكان هنالك ارتباط مزدوج . وسواء عمت الفوضى أو ساد النظام فان مصير المكسيك يخضعها لأحد هذين الارتباطين . ولم تحمل الحكومة المقيمة في مكسيكو الا بصعوبة كلية دون تجزئة نيابة اسبانيا الجديدة الملكية القديمة : فمن جهة افلتت اميركا الوسطى من يدها ، ومن جهة ثانية ، اضطرت لأن تتخلى للولايات المتحدة عن مليون كيلومتر مربع ونصف المليون ! وبعد انفصال تكساس ، تغلبت بصعوبة على انفصال سونورا وشبهاهوا في الشمال الغربي الصحراوي ، ويوكاتان وراء احراج تيهوانتيبيك . ومهما يكن من الأمر فقد تغلب النظام الاتحادي الذي كرس ضعف السلطة المركزية .

عبثاً حاول « ايتوربيد » ، باسم « اوغسطين الاول » ، ان يقلد الاباطرة بمساندة الجيش والاكليروس وكبار الملاكين في الهضبة الوسطى: فحين انقطع عن اغراء الجيش بالمال ، بدأ عهد الحركات الانقلابية والاضطرابات بالاستناد الى دستور جمهوري اتحادي . واشتهر سانتا - آنا ، بغرابة اطواره وتقلبه - فتارة اعتمد على الفلاحين وأمر بابعاد حتى ٢٠ الف من مواليد المستعمرات، وأخرى استند الى الاوليغارشية والاكليروس - وعاش من القروض ولقط حيثما سقط ، فسيطر على عهد بلبلة لا يمكن وصفها أدت الى كارثة السنة ١٨٤٨ . ثم عرفت البلاد فترة حكم مركزي لم يكن اوفر حظاً . واخيراً استعجل الغاء الرق فقدان تكساس .

قام الراديكاليون - « الاطهار » - « باصلاح » على حساب الكنيسة لم يرض الجنود والفلاحين (فهم الرأسماليون من اشتروا الممتلكات المصادرة) ، بل تحول الى حرب اهلية وجر الى التدخل الاجنبي . أجل لقد حقق « جوارز » ، بعد اخفاق امبراطورية مكسيميليان المحافظة ، حكماً علمانياً افاد منه الفلاحون والتعليم الشعبي . ولكن الأمية كانت عميقة الجذور، والفدادية الهندية لم تُلغ ، والحكومة لم تتوفق الى فرض هيبتها نهائياً .

حين استلم نائب جوارز ، بورفيريو دياز ، زمام الحكم بدوره ، بدا الظرف مؤاتياً للعلماء ، الراغبين في تطوير المكسيك وجعلها دولة عصرية ، حتى ولو انتهت السلطة الى دكتاتور .

ولكن الكوديلو استخدم هذه الطبقة المثقفة المتأثرة بالفلسفة الوضعية وسحق كل مقاومة ولصوصية معاً بواسطة قوى أمن حسنة التنظيم ، واشرك في مجهوده الاكليروس ، والملاكين ، والمضاربين الذين اثروا بفضل « الاصلاح » ، وانصرف الى اجتذاب الثقة للرأسماليين الاجانب . فانشئت شبكة الخطوط الحديدية ووصلت بخطوط الولايات المتحدة ، وفتحت بعض المصارف ابوابها ، وارتفعت التجارة الخارجية الى خمسة اضعافها خلال ٢٥ سنة ، وجملت مدينة مكسيكو واتخذت فيها التدابير الصحية الضرورية ، وجمعت بورجوازية من الفلاحين ثروات طائلة . ولكن هذه النجاحات كانت اعجز من ان تخفي العجز المالي، والبؤس والجهل الشاملين، واستئثار الاجانب بالاراضي والمناجم .

غويانا والانتيل تحت السيطرة الاوروبية

من غرائب الظواهر ، بعد الاستقلال ، ان بعض الدول الشمالية قد حافظت على ممتلكاتها. وتشمل هذه الممتلكات ، بالاضافة الى هوندوراس البريطانية ، غويانا بكليتها ومعظم جزر الانتيل. لا بل حدث في السنة ١٨٩٨ ان اقصيت اسبانيا عن مستعمرتيها الاخيرتين ، كوبا وبورتوريكو .

ان جبال غويانا ، المرتفعة وراء ساحل منخفض كثيف الاشجار، والمغطاة بأحراج وسباسب المناطق الحارة ، وغير المؤاتية للاستثمار الاوروبي ، قد مرّت بأزمة حادة خطيرة . فقد افتقرت مغارس قصب السكر واشجار البن فيها الى اليد العاملة البديلة حين الغي الرق . بيد ان تحسناً نسبياً طرأ على الوضع حوالي السنة ١٨٩٠ بادخال الجاوانيين الى القطاع الهولندي والهنود الآسيويين الى القطاع البريطاني . اما القطاع الفرنسي فما زال يعاني من الأزمة .

ومرت جزر الهند الغربية كذلك بساعات عصيبة ايضاً .

خرجت بريطانيا العظمى بمكاسب كثيرة من التنازعات الدولية الطويلة . فعلى الرغم من ان الاسبانيين ما زالوا يتملكون جزيرتين كبيرتين من جزر الانتيل ، وان الهولنديين احتفظوا بكوراساو ، والفرنسيين استعادوا المارتينيك و « غوادلوب » و « ماري - غالنت»، فانها قد احتلت مركزاً ممتازاً في الوسط بفضل امتلاكها « جامايكا » وسلسلة شبه متصلة من الجزر ، من برمودا وباهاما الى مصاب الاورنيوك ، اي انها راقبت بالنتيجة المناطق المجاورة للمتوسط الاميركي والبرازخ .

ولكن الهزة الاجتماعية التي سببها الغاء الرق قد خلخل هذا العالم الذي كوّنه الاستثمار الاستعماري . فان الحروب العبدية التي اجتاحت جزيرة هايتي والتي لم تتعاف هذه الأخيرة من بعدها ، قد انتقلت الى جامايكا حيث لم يضمد اعتاق الزنوج جروح الاقتصاد . واذا اتاحت ثورة السنة ١٨٤٨ في فرنسا تبني مرسوم « شولشر » ، فان الامبراطورية الثانية حاولت العودة الى اشكال الأعمال الشاقة ، بينما سلمت هولندا بدورها بمبدأ الاعتاق . وبعد السنة ١٨٧٠ مثلت الجمهورية الثالثة مستعمراتها بالوطن الأم . اما اسبانيا فقد غضت الطرف بملء رضاها عن النخاسة التي وفرت لنخاسيها مكاسب كبرى؛ إلا أن الثورة التي اندلعت في كوبا وبورتوريكو ارغمتها على ان تحذو حذو الدول الأخرى . فلم يُسلم من ثم نهائياً بالقضية إلا بعد قرن كامل من المماطلات والتأجيلات . ويرد ذلك الى تصادف بروز دول جديدة ومنتجة لقصب السكر والقطن والبن والأبازير والاخشاب الغريبة ، ومنافسة الشمندر لقصب السكر والكيمياء للنيلج . فاصيب الاقتصاد الانتيلي بضربة مزدوجة .

في جزر الانتيل الفرنسية ضحي بالمزروعات « الشريفة » . ولكن الادوات اللازمة لانتاج المواد الاساسية كانت بدائية ، والعمل كاد لا يكفي لحاجات السكان الكثيرين المتزايدين تزايداً سريعاً . يضاف الى ذلك تزايد متطلبات صاحب الملك كلما هبط انتاج المغارس . وحين استعاد

السكر هجومه ، استفادت منه الاملاك الكبرى لان التكرير العصري يؤدي بالضرورة الى جمعه في « المعمل المركزي » . ففي السنة ١٩٠٠ احتل قصب السكر نصف الاراضي المزروعة في المرتينيك . وعلى الرغم من المؤسسات التمثيلية ، فقد باقي الفارق كبيرا بين كبار الملاكين وجمهور الزنوج الذين يكتفون بالقليل .

في جامايكا استمرت الحرب العنصرية حتى السنة ١٨٩٥ . وكثيرون هم الزنوج الذين رجعوا الى قلع الاعشاب واحراقها وذر رمادها على الارض الزراعية والى تربية المواشي البدائية . واستخدام البيض بالعمال الشرقيين المستأجرين الذين اثارت منافستهم اشتباكات مسلحة جديدة ؛ وقد اعتمدوا على الاجور المتدنية للمضاربة في اسواق السكر والبن ؛ ولكن الجمود كان كبيراً منذ السنة ١٨٨٠ . وتأثرت كذلك تأثراً كبيرا بأزمة السكر جزر ترينيداد والدومينيك وباربادا ، فاتجهت الاولى نحو زراعة شجرة الكاكاو والثانية نحو زراعة شجرة الليمون والثالثة نحو زراعة الـ « مارنتا » .

كانت كثافة السكان مرتفعة في بورتوريكو ، صغرى الجزيرتين الاسبانيتين . ولكن الجزيرتين اهلتا بأكثرية من البيض الذين تعودوا ظروف الحياة المحلية . وبفضل الهجرة الاسبانية كانت نسبة الملونين آخذة بالتدني . وفي كوبا ، توسعت زراعة قصب السكر توسعاً كبيراً في اراضي الغرب الجيدة ، بينما توزعت زراعة شجر البن والتبغ على مناطق مختلفة ، وحرس الرعاة الفرسان قطعان المواشي في « كاماغواي » الرملية . وهكذا ارتفع انتاج السكر من ٠٠٠ ١٢ طن في السنة ١٧٧٠ الى اكثر من ٧٠٠ الف في السنة ١٨٨٠ . وقد جمعت الثروات الكبرى بفضل المغارس والنخاسة ؛ ولكن فقراء البيض لم يكونوا اوفر حظاً من الزنوج وخلاسيي الزنوج والهنود .

عشية الحرب الانفصالية الاميركية ، بدأت الازمة الكوبية الكبرى . فبينما برز جانب الولايات المتحدة ، نرى الوطن الاسباني الام ، الذي اهمل تجهيز الجزيرة بالادوات اللازمة ، يتجاهل الامية والحال الصحية السيئة في المستعمرة ، ويفرض على معاملاتها التجارية رسوماً مرتفعة ، ويضع العراقيل في سبيلها . ولا يخلو من المغزى ان زعيم الثورة « دون كارلوس مانويل سيدس » كان احد كبار اصحاب المغارس الاغنياء ؛ وحين طلب الى الزنوج امتشاق السلاح ، اسرعت مدريد الى الغاء الرق .

اتاحت قضية كوبا للولايات المتحدة التدخل مباشرة في الانتيل وتحويل ميزان القوى فيها لمصلحتها .

جمهورية هايتي — مهما قيل في ما عانته الجزر الخاضعة للسيطرة الاوروبية ، فان البلايا التي امتحنت بها هايتي تفوق بلاياها طرا .

ان تاريخ الارض الهايتية انما هو تاريخ فوضى مستمرة واقتصاد متهور .

منذ زوال السيطرة الفرنسية ، لم يغادر الجزء الغربي من « سان دومنغ » القديمة ، الذي

استمداد اسم هايتي الاسبق ، سوى اثنين من رؤسائه ينهيان مدة ولايتهما . ولم يتردد احدهما ، « فوستين - نابوليون - روبسبير - سولوك » ، الطاغية المعجب بنفسه ، في الادعاء بالكرامة الامبراطورية . وقد احرقت « بور - او - برنس » في السنة ١٨٧٩ والسنة ١٨٨٣ ، ولكن الجيش ضم ٧٠٠٠ ضابط مقابل ٦٥٠٠ جندي . ولم يكن هناك من طريق جيدة ، ومعدل الرسائل التي ينقلها البريد هو رسالة واحدة للشخص الواحد كل ثلاث سنوات . ولكن هل يعرف احد بالضبط عدد مواطني الجمهورية ؟ فقد قدره بعضهم بمليون نسمة في السنة ١٨٠٠ ، بينما لم يقدره سواهم الا بـ ٥٠٠ الف الذي هو عددهم في السنة ١٨٠٠ . كل شيء كان متأخرا ولا سيما زراعة قصب السكر والقطن . الزنوج وخلاسيو الهنود والزنوج كانوا يتنازعون الاراضي ولا يتفقون الا على منع البيض من امتلاكها . وعلى الرغم من كل ذلك كان السكان مرحين ، يعتقدون بالسحرة والكهان الراقصين ، ويمارسون تضحية الديكة والكباش البيضاء وحتى الاطفال ، ويجهلون القراءة والكتابة . وقد يحدث احياناً ان يدفعهم طبعهم الحربي الى مهاجمة الجمهورية المجاورة .

في أواخر القرن الثامن عشر كان الجزء الفرنسي من الجزيرة متفوقاً تفوقاً بينا من حيث عدد السكان والثروة . ولكن نسبة الخلاسيين المرتفعة في القسم الاسباني قد خففت من وطأة الاختلافات العنصرية . اما الجمهورية الدومينيكية التي لم تخل من الاضطرابات ، فقد قبزت بمزيد من الحلم وتوقفت الى رفع عدد سكانها الى اربعة اضعافه ، والى تحسين تربية المواشي ونوعية التبغ . وقد كان من بعض مواليد المستعمرات وبعض خلاسيي الزنوج والهنود ، بقيادة احد مربي المواشي الحازمين ، « سانتانا » ، ان فكروا بالتخلص من الاضطرابات بالرجوع الى السلطة الاسبانية ؛ ولكن الاتفاق الذي عقد في السنة ١٨٦١ لم يدم طويلاً . وخلاصة القول ان التأخر في الاستثمار بقي كبيراً جداً ، ومستوى الحياة متدنياً جدا .

مذهب مونرو وبزوغ فجر سياسة اميركية شاملة

اذا ظهر منذ زوال الامبراطورية الاسبانية والبرتغالية ، الشعور الذي ابدته رسالة مونرو بشراكة المصالح بين الجمهورية الاميركية الشمالية الكبرى واميركا اللاتينية ، فقد قابل براهين التضامن التي قدمتها الاولى موقف حذر غير خفي وقفته الثانية . ومرد ذلك الى ان سكان واشنطن ونيويورك احتقروا كل ما هو « داغو » ، اي من اصل ايبيري ، بينما سخر « داغو » بـ « غرنغو » ، اليانكي الوقح . يضاف الى هذا ان اعمال العنف التي كانت المكسيك ضحيتها في السنة ١٨٤٨ من قبل الولايات المتحدة ، والقحة التي سوت بها هذه الاخيرة مسائل البرازيل تسوية مباشرة مع لندن ، كانت كافية لجعلها مريبة في نظر اولئك الذين كانت تتظاهر بحمايتهم . وما كان اميركيو الوسط والجنوب ليجهلوا انهم وثرواتهم هدف التنازع على النفوذ بين الدول الأوروبية والولايات المتحدة . فهم لم يشعروا بالميل الى سياسة اميركية شاملة كتلك التي يقول بها مونرو الا اذا بدا لهم الدفاع المشترك ضرورياً ضد استعمار ما زالت اخطاره محدقة بهم .

الا ان الشعور بتضامن ضروري بين الدول الاميركية قد نما عند رجـــال القانون وعلماء الاجتماع في الجمهوريات التي انهكتها حروب متكررة اعتبرت حروباً بين الاشقاء . وهكـــذا فقد نشر اندريس بالو الشاعر الكبير وجامع القانون الشيلي «مبادىء الحق الدولي» المشهورة التي استوحت مؤلفات القرن الثامـــن عشر الكبرى وبشرت ببيانات القرن العشرين . وفي الاجتماعات التي عقدت في ليما ، اقترحت صيغ جملة من اجل التعاون بين الامم التي يجمع بينها دم واحد وثقافة واحدة . ومع ذلك لم يبد غريبا ان تشتهي بعضهم رؤيا التقارب على قـــدم المساواة من الوطن الام القديم : فان كولومبيا وفنزويلا قد توجهتا الى اسبانيا لتسوية خــلاف على الحدود ، وكان غيرهم اكثر واقعية ، وربمـــا ارتضوا بالوصاية المقنّعة التي عرضتها بريطانيا العظمى الموجودة في كل مكان .

في السنة ١٨٨٩ ، بدأ عهد المؤتمرات الداعية لسياسة اميركية شاملة ، اي عهد « موزروية » تستجيب لحاجات دولة استعمارية . فهل كان على اميركا اللاتينية المنقسمة على نفسها والمتأخرة اقتصاديا ، حيث الـــسف الهندي والزنجي والمهاجر الابيض الكادح العناصر الرئيسية لسكان البائسين ، ان تتهرب من عروض الولايات المتحدة يا ترى ؟ ولكن هل هي ستتمتع طويـــلا بحرية الاختيار ؟

الفصل الرابع

العالم الاسلامي
من آسيا الوسطى الروسية حتى المغرب

مناطق الاسلام : وحدة واستمرار واتساع

لم تفقد الحضارة الاسلامية شيئاً من شخصيتها في وسط القارة القديمة . اجل لقد اخضعها الاوروبيون سياسياً شيئاً فشيئاً . ولكن العقيدة التي ارتكزت اليها قد حافظت على حيويتها ، ولم تتخل عن شرائعها المعيشية واستمالت المزيد من المؤمنين .

يوافق الاسلام من جهة ، وبصورة خاصة ، المساحة الشاسعة النادرة المياه ، او حتى الصحراوية ، التي تمتد من موريتانيا الى الهندوس السفلي وبورات تركستان : وهي تشمل ، على وجه التقريب ، فتوحات العرب الذين وجدوا فيها ظروفاً سكنية شبيهة بظروف بلادهم . ومن جهة ثانية ، تخطى دين النبي في عهد لاحق – يدخل فيه القرن التاسع عشر – حدود هذه المناطق باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي وانتشر في مناطق المناخ الحار الرطب وحتى الاستوائي، سواء في افريقيا وراء الصحراء ، ام في الصين الجنوبية ، حول المحيط الهندي ، وحتى في « الملوك »[1].

ما هو عدد هؤلاء المسلمين الذين يؤدون واجب الصلاة يومياً ، جاثين ارضاً ، ومتجهين نحو القبلة ، اي نحو مكة ؟ ان رقم الـ ١٧٥ مليوناً الذي اعطاه « بلونت » في كتابه « مستقبل الاسلام » (١٨٨٣) هو دون الواقع في الارجح (لم يقدر المؤلف الانكليزي حق قدرها اهمية عدد المسلمين في الهند والاراضي الروسية) . ومهما يكن في الامر فاننا نعتبر هذا العدد قليلا

(١) راجع خريطة الصفحة ٥٢٩ من المجلد الرابع (الطبعة العربية)، وخريطة الصفحة ٥٢٦ ـ ٥٣١ من هذا المجلد .

بالنسبة لمساحات على مثل هذا الاتساع . ويلفت الانتباه من جهة ثانية ان سواد المؤمنين يقطنون اشباه الجزر والجزر الآسيوية . ولكن الطابع القرآني يفرض في كلكوتا وباماكو والقاهرة وفاس وتومبوكتو على السواد اللغة المقدسة نفسها ، والشريعة نفسها ، والاخلاق نفسها ، والمؤسسات نفسها . فان ما امر به الكتاب المنزل من الله يصلح لكل الازمنة التي ستسبق مجيء « المهدي » (المسيح المنتظر) . والوحدة قائمة في الاستمرار نفسه ، والتقيد المشترك بالوصايا ، والانتظار المشترك اليوم الذي سيظهر فيه رسول الرب . ولذلك فان الاسلام خليق ابداً باسمه المشتق من من فعل « اسلم » ، اي سلم امره الى الله . يعامل الانسان بزيد من القوة تبررها مراعاته لحاجات الحياة وحتى لبعض مخالفاتها ، وتساهله بالتمتع ان لم يكن بالتجاوز ، باعتبار ان الحرمان ينطوي على مساوىء يعتبرها خطيرة . فهو مثلا ينظم تعدد الزوجات دون تحريمه ، ويبقي على الرق ويحاول في الوقت نفسه التخفيف من وطأته ، ويحرم المراباة ولكنه لا يمنع التجارة ؛ يجعل المرأة في مرتبة دنيا ولكنه يصرفها في ادارة ثروتها الشخصية ويحيطها بشتى مظاهر الاكرام ؛ يوصي بالحج الى مكة دون ان يجعل منه امراً الزامياً ؛ يحصر اللجوء الى الجهاد ، او الحروب المقدسة ، في الدفاع عن الدين الحقيقي وعدي الاوثان . يخلق بين المؤمنين اخوة ومساواة تتنافيان ووجود طائفة مختصة بالكهنة او الاشراف .

الايمان يدفع بألوف المؤمنين كل سنة الى الاماكن المقدسة . وقد قدر بعضهم ان زهاء ٥٠ الف هندي و ٢٠ الف ماليزي وعدداً كبيراً من المغاربة والمصريين والاتراك والايرانيين يذهبون الى مكة يؤدون طقوس العمرة حول الكعبة ؛ وقد يأتون للقيام بهذا الواجب حتى من افريقيا السوداء والصين . ينزل معظمهم الى البر في جدة التي تنقلهم اليها سفن بريطانية . أما طريق البر التي تبتدىء في دمشق ، فطويلة وشاقة ؛ لذلك سوف يعلق السلطان عبد الحميد اهمية كبرى على بناء خط حديدي ينتهي الى ضريح محمد ، الى المدينة التي تفصلها عن مكة مسيرة احد عشر يوماً . وسوف يرفع الخط الحديدي الى اكثر من ٢٠٠ الف عدد الحجاج السنويين الذين لن يستخدم الطريق البحرية منهم بعد ذلك سوى اقل من نصفهم . واجتذبت الجماهير كذلك المدن المقدسة في بلاد فارس الشيعية ، ولكن على طرق اقل طولا ومشقة .

ساعدت هذه الروحات والغدوات على سريان الافكار والاشعرة . ولكنها في الوقت الذي احيت فيه بعض التيارات التجارية ، أسهمت في انتشار الاوبئة ايضاً . ففي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦٨ ، ظهر الهواء الاصفر في مكة ، ثم انتقل الى شواطىء افريقيا الشرقية والحبشة ووادي النيل: فأدت معاودة الوباء واشتداده الى الفتك بزهاء ٣٠ الف شخص في زنجبار في السنة ١٨٧٠ . وانتقل الطاعون كذلك من الهند والخليج الفارسي ، فانتشر في السنة ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠ من جهة نحو مصر ، ومن جهة اخرى نحو افريقيا الشرقية وسنغافورة ، وحتى ابعد من ذلك في الباسيفيكي .

ما زال المؤذن في المغرب والسودان وتركستان والانسولند وفي كل مكان يوجه الدعـــوة الى الصلاة (الآذان) من اعلى المئذنة . وفي كل مكان ايضاً، وعلى الرغم مما ادخلته الفنون الاقليمية من اشكال متنوعة على تصميم الجامع وتزيينه ، آثر الاسلام تجديد القديم على الابتكار . فان بيت العبادة الذي شيده محمد علي في القاهرة لا ينم عن اي فن عصري ، شأنه شأن جامـــع الحميدية على كل حال ، مهما كان من رشاقة هذا الاخير . ولكن القصور الكثيرة التي خلفها بعض الامراء المتغطرسين – قصر شيراغان ، لعبد العزيز (١٨٦٢ – ٦٧) ، وقصر يلدز الذي احتفظ به عبد الحميد بدوره لنفسه بعد زمن قصير في اسطنبول ، وقصرا القباري والمكس اللذان شيدهما سعيد في الاسكندرية (وقد تهدم ثانيهما بفعل ضرب القنابل في السنة ١٨٨٢) ، او قصر « بهية » في المغرب الذي شيد بين السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٠ للوصي على العرش احمد بن موسى – استجابت لمستلزمات المناخ وسمحت في الوقت نفسه للابتكارات التزيينية بأن تطلق لنفسها العنان ؛ وانما لوحظ تأخر في الذوق منـــذ انتشار الفن الغربي المبتذل في اواخر القرن الثامن عشر .

يبدو شكل المدينة الاسلامية وكأنه ثابت لا يدخل عليه اي تغيير : تحاط بأسوار تفتـــح فيها ابواب فخمة ، وتضم ، بالاضافة الى قصورها او سراياتها ، بيوتها العمومية ، ومدارسها ، وزواياها التي تكرس لخدمتها دخول الاوقاف ، وحماماتها التي يتوجب على كل مسلم صالـــح ان يختلف اليها ؛ وتوزع هنا وهناك اسواقها المسقوفة التي تقوم على جوانبها الحوانيت ، وخاناتها التي تستخدم كمستودعات للبضائع او فنادق ، وتجمع فوضى بيوتها بين الاكواخ الحقيرة ومساكن الاثرياء التي يفرق فيها بين السلملك (او بيرون في ايران) المعد للاستقبال ، والحرم (او اندرون في ايران) المحفوظ للحياة الخاصة . ولكنها ، وان احاطت نفسها بتيقظ بالاسوار ، تحـــرص ابداً على الفصل بين المسلم واليهودي والمسيحي ؛ فكأنها تعزل مجتمعاً يرى الخير في احترام الوضع الراهن ، من اجل حمايته وتثبيته على حاله .

التيارات الدينية في الاسلام وسلوك المسلم حيال العبادات الاخرى

كانت ردة الفعل لمخالطة المسلمين لغير المؤمنين اتجاهاً نحـــو مزيد من التشدد او نحو موافقة ممكنة .

حاولت بعض الاتجاهات الاتفاق ومـا يعرف بالروح العصرية عن طريق التساهل . واننا نذكر منها البابية ، التي انبثقت من المدرسة الفارسية التي كانت تكتفي بتفسير الامور العجيبة المتعلقة بحياة النبي تفسيراً رمزياً . فان «ميرزا علي محمد» الذي اختار لنفسه اسم « الباب» في السنة ١٨٤٢ ، وبدا من ثم وكأنه « المهدي» ، قد طلع بتعليم يقتبس عناصر كثيرة من المزدية وفلسفة انسانية ماسونية الطابع ؛ أوصى بحياة مطابقة للطبيعة وبمزيد من الحرية الفردية وبمساواة المرأة للرجل ، فأحرز نجاحاً شعبياً جعل السلطة تتحير وخطر أعليها ، ثم أعدم بأمر الشاه في الارجح . ولكن احد تلامذته ، بهاء الله ، صمم على نشر دين جديد يقرب بين البشر ويخدم قضية السلام ، فالتف حوله في اوروبا واميركا اتباع اكثر عدداً من اتباعه بين

ابناء دينه من المسلمين . ثم تطورت البهائية بدورها ، بفضل عباس افندي ، ابن بهاء وخليفته ، نحو مذهب عقلي صرف . وبينا رجع الفارسي احمد خان بهادوس الى المعتزلية التي تقول بحرية الارادة ، اقترح جمال الدين الافغاني اسلاماً متحرراً، تابذاً في الوقت نفسه كل ما هو ،في نظره، مادية غربية . ثم جاء احد تلامذة هذا الاخير ، محمد عبده ،وطلع بنظريات اصلاح جـــذري، مسلماً بأفضلية وحدة الزواج ومنفعة الربا وتحرير المرأة . وقد اتفق مذهبه العقلي ومذهب سيد خان الذي اوصى في الهند بدراسة العلوم ولم يعترف للروايات القرآنية الا بمعنى رمزي .

ولكن تصلبا كان سيحدث في قلب الاوساط الميالة لأن ترى في تبني الافكار الاوروبيـة بداية ارتداد الى الدين المسيحي ، او اقله استسلاماً غير مقبول . فكما ان البابية لا يحسن فهمها الا في بلاد فارس ، كذلك يمكننا في الحقيقة ان نرى الوهابية ظاهرة مطابقة للوذهية العربيـة الخاصة . ولكن الاسلام ، شأنه شأن كافة الاديان ، قد عرف على الدوام انتفاضات استهدفت الحرص على نقاوة العقيدة . وهكذا جاء المذهب – المنبثق عن الطقس الحنبلي ، ابعد طقوس السنة عن الحرية – الذي بشر به محمد بن عبد الوهاب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر : خطئاً احترام الاولياء ، والتفضل ، والتبغ ، والمسكر ، والميسر ، وصمم بالاختصار على ان يعيد للاسلام نقاوته الاولى . فقد استجاب هذا المذهب لعبوسة عقلية البدوي في نجد الذي كان يثور ثائره بسبب الاعمال التجارية التي تجري بمناسبة الحج الى الحجـــاز . وكان من جهة ثانية مظهراً من مظاهر الصراع بين البدو والحضر . وعلى الرغم من ان باشا مصر قـد استولى بالقوة على المدن المقدسة وأخرج الوهابيين منها ، فان الوهابية التي انكفأت نحو الرمال قـد تحصنت فيها وانتشرت من جهة في الهند ، ومن جهة اخرى بين القبائل الليبية حيث حفزت الى تأسيس اخوية جديدة اشتهرت بكره الاجانب هي اخوية السنوسيين .

هي الاخويات ما جمعت الطائفات الصوفية التي انطوى عليها الاسلام . تزايد عددهـا حتى بلغ زهاء المئة في اواخر القرن التاسع عشر . فكان منها خمس في تونس في السنة ١٨٨١ ، وليس بعيداً عن المعقول ان يكون عدد التابعين المنضمين الى مثـــل هذه الاخويات في الجزائر قد بلغ الـ ١٧٠ الف حوالي السنة ١٨٩٠ . لكل طائفة مرشدها اي الشيخ الذي يقيم على مقربة من ضريح المؤسس ، ومقدموها،واخوانها ؛ وكل طائفة تتعهد وقفاً هو الزاوية ؛ كما ان كل طائفة تسعى وراء هدف خاص هو الذكر اي المحبة والتواضع والفقر والعزلة . وانما يجب ان لا تسقط التنافسات من الحساب . وهنا يجب ان نذكر على سبيل المثل النزاع الذي قام في منطقة وهران بين الدرقاويين والتيجانيين وبين القدريين الذين كان عبد القادر في عدادهم . فقد ارتـــدى بعض هذه الاخويات طابعاً ارستوقراطيا ، بينا ارتدى البعض الآخر طابعاً ديموقراطيا ؛ وقد انتسب سكان المدن بالتفضيل الى اخويات الفئة الاولى، بينا انتسب البدو الرحل الى اخويات الفئة الثانية .

انها لشبكة معقدة ومتحركة ، ولكنها شبكة انتقلت الشائعات بفضلها انتقالا سريعاً يثير الدهشة . ولنذكر هنا ان القدريين ، المشهورين باستقامة رأيهم ، قـــد امتدت فروعهم من

افريقيا الغربية الى « يونان » انطلاقا من مركزهم الرئيسي في بغداد . ولا عجب من ثم اذا ما قدمت الطوائف الدينية للاسلام قادة وجيوشاً لمختارة الحرب المقدسة . فان الدور الذي لعبه السنوسيون بات من الشهرة بمكان. كان سيدي محمد بن علي بن سنوسي وهراني الاصل ومنتسبا للقدريين ، فلفت اليه الانظار في مكة بصلابة عقيدته ، ثم اعتزل في السنة ١٨٥٥ في احدى واحات ليبيا وأسس فيها زاوية ما لبثت ان اشعت في كافة ارجاء افريقيا الشمالية الشرقية . فشكا تباعه من عدم اهلية سلطان الاستانة ورفضوا مدعياته بالخلافة وبشروا بمجيء مهدي في رأس السنة الهجرية ١٣٠٠ ، اي في ١٢ كانون الاول من السنة ١٨٨٢ . فسمع النداء ، ورفع حينذاك محمد احمد ، النجار النوبي ، لواء الحرب المقدسة . وكان مقدراً لثورة الدراويش ان تستنكد الدولة البريطانية طيلة سنوات عديدة .

وفاقا للتقليد نعم المسيحيون واليهود الذين عاشوا في البلدان الخاضعة للشريعة الاسلامية ، بمجرد تساهل ديني. ولكن هؤلاء غير المؤمنين قد تُركوا وشأنهم في ممارسة عباداتهم ونوع معيشتهم شريطة دفع ضريبتي الخراج والجزية ؛ ولما كانوا ذميين ، اي رعايا محميين ، حظر عليهم حمل الاسلحة . وبحسب الظروف المحلية ، اختلفت العلائق بين التعاون المطارف به (وهذه حال اروام الفنار) وعداء شبه مطلق . وقد مارس شيمبر فارس سياسة هدي الى الدين الاسلامي نجم عنها قيام فئات جديدة سرية من اليهود . وفي السنة ١٨٦٢ دعمت بريطانيا العظمى مسعى قام به آل روتشيلد لدى سلطان المغرب ، ولكن المرسوم الذي حظر كل مناكدة ما لبث ان ابطل . واثارت اسطورة الاغتيالات الطقسية في سوريا التي تحتلها جيوش محمد علي موجة تعصبية صاخبة في السنة ١٨٤٠ ؛ وبفضل تدخل «كريميو» و «مونتفيوري» نجا اليهود المتهمون قبل ان يعلن فرمان بطلان الاتهام .

ارتضت الكنائس المسيحية بنوع من التسوية ضمنت بموجبه طاعة مؤمنيها ؛ ولكنها بحثت في الوقت نفسه عن الابد في الخارج . وبحجة حماية هذه الطائفة او تلك ، تعودت بعض الدول الاوروبية التدخل في شؤون الامبراطورية التركية . وأخفت هذه التظاهرات الدينية بعض الحركات القومية: فساندت القيصرية بعناد مسعى الاكليروس والمؤمنين والحجاج الارثوذكسيين ؛ واعتبرت الحكومات الفرنسية المتعاقبة نفسها ملزمة بدورها بالدفاع عن حقوقها التقليدية في حماية الطوائف الكاثوليكية الشرقية التي انعم بها السلاطين على « الفرنجة » . وغالباً ما عاد سبب المنازعات لادارة بيوت العبادة في الارض المقدسة .

كان اهم نزاع ذاك الذي نشب في السنة ١٨٥٣ بين روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا العظمى من جهة أخرى ونجمت عنه حرب القرم . وفي اعقاب ذلك ، طالبت اوروبا في باريس ، في السنة ١٨٥٦ ، بالحصول على ضمانة جماعية للسكان المسيحيين في الامبراطورية التركية: مساواة امام القانون وإلغاء ضريبة الخراج . ويرتدي هذا التاريخ اهمية خاصة لأنه يوافق اول مسعى جماعي بغية فرض الاعتراف بمبادىء تتنافى والشرائع الاسلامية على دولة اسلامية مستقلة. وانساق الاوروبيون

بعد ذلك في كافة مستعمراتهم او محمياتهم الى اجراء اصلاحات مماثلة . ولكن المسألة مـا زالت معرفة ما اذا كان المسلمون يستطيعون القبول بمثل هذا التغيير دون التنكر لا يمانهم. ويجـــدر الاعتراف هنا بان الاسلام ، حيثما اختلط بجماعير تحركها العصبية الطائفية ، قابل هذه العصبية بعصبية مماثلة . فقد استمرت طويلاً في الهند والصين نزاعات مسلحة في اغلب الاحيان بـــين المسلمين وغير المسلمين.وما زالت الحال في افريقيا في مرحلة الحرب المقدسة ، والحوادث الوحشية ترافق ابدا الدخول الى المناطق الوثنية .

ميزات الدولة الاسلامية وارهاقها

لا يتصور الاسلام السلطة العامة الا بدلالةالدين.فليس للدولة مرتكز اقليمي ؛ وهي لا تعترف الا بجماعات طائفية ؛ ولا وجود لها على كل حال الا بفضل الفتح الذي ادى الى سيطرة المؤمنـــين . ليس المشرف على ادارتها سوى خليفة رسول الله او نائبه ؛ انه امير المؤمنين وامام ، ولكنه ليس له من منصبه حتى الحق في تفسير الشريعة لانها تأمر باسمه . ولما كانت الخلافة ، من جهة ثانية، نتيجة اختيار لا نتيجة حق ، فقد تعذر الاتفاق على النسب الشرعي ابتداء من محمد . وهـــذا يفسر التجزؤ السياسي العضال في العالم الاسلامي .

وانما يجب الا ننسى كذلك ، اذا كانت روثية الفتح فعل شعب من الرعاة ، ان القريشي المكي ينتسب الى ارستوقراطية من التجار تحتقر الزراعة . ان عمل الارض جدير بالرعية التي عليها قبل سواها ان تدفع الضرائب . ولكن نصيبا كبيراً من الارض يجمد بسبب الممتلكات الموقوفة من اجل تعهد دور ايواء الفقراء والمدارس ؛ ويحدث ان القاضي ، ابن المدينـــة ، الذي يفصل في العقود ، يسهل مصالح ابناء المدينة ، بحيث يصبح الحقل ملكاً للمرابين . ويحدث امـا ان تعود اراضي الارياف للشاغ ، او القبيلة ، واما ان تعود لملاك كبير من اعيان المدينة ، هو الآغا الذي يخشاه الفلاح بوصفه مزارعاً وملزماً بتقديم اتاوات عينية كثيرة. اما القبيلة فتحتفظ بقائدها وشيخها بسبب اختلاط الحق الخاص بالحق العام . وما الدولة في الغالب سوى هـــذه القبيلة التي لا حساب في داخلها الا لأواصر القربى والعداوات الشخصية . وحتى حين تضم في صفوفها البدو الرحل والتجار ، لا تنجح الا بصعوبة في معالجة تقلقل يكاد يكون طبيعياً ؛ وتتأرجح بين الاستبداد والتراخي ، وكلاهما تحكميان . وجملة القول ان الاسلام الذي فتـــح مناطق السباسب ومناطق الزراعات الحارة الرطبة ، لم يظهر الا على مجتمعات كانت مؤسساتها الاجتماعية اكثر بداءة من مؤسساته .

لا ريب في ان ديانة محمد تستجيب لفكرة شاملة : فان دار الاســـلام تسع العالم برمته . وهكذا تتحد فيها شعوب مختلفة جـــداً . ولكن الغيرة المذهبية ليست هي القومية . فحتى القومية العربية والاســـلام شيئان مختلفان . كما ان اللغة العربية ، التي هي اللغة القرآنية والكلاسيكية ، لا تحل محل اللهجات الاقليمية . وكثيراً ما يجد الناس اختلافاً بين الفقه والعرف

العالمي . ونادراً ما لا تضم الدولة الاسلامية ، بالاضافة الى عناصر مسيحية ويهودية قد يكون عددها كبيراً ، فئات اخرى مختلفة عنصرياً . وهذا ايضاً من مظاهر الضعف .

امام الاستعمار الاوروبي ، كان الاسلام ، المتخلف تقنياً واقتصادياً ، في وضع سيء اذ ان التضامن الديني لا يوفر وحده فعالية كافية . اجل ، حين شنت انكلترا الحرب على فارس في السنة ١٨٥٦ ، في اعقاب مساندتها لتركيا ، انتشر الاضطراب بين مسلمي الهند واسهم في اثارة الجنود الهنود في الحاميات البريطانية ؛ ولكن ذلك يشكل واقعة استثنائية . فالشاه قد فاوض القيصر بينما كان الروس في نزاع مسلح ضد الاتراك في السنة ١٨٢٨ - ٢٩ ؛ واستفادت لندن وبطرسبورغ من سوء العلائق بين الفرس والافغان ، كما ان مخاصمات السلطان لمحمد علي سهلت تدخل الدول .

وبانتظار بروز قوميات خاصة في الاسلام ، دقت ساعة اذلاله واستعباده .

الامبراطورية التركية : تنوع الشعوب

سارت الامبراطورية التركية في طريق التأخر منذ اواخر القرن السابع عشر ، ولكنها ما زالت في القرن التاسع عشر اكبر الدول الاسلامية مساحة واقواها نفوذاً . واذا ما ضممنا الى ممتلكات سلطان الاستانة الفعلية الاقاليم التابعة لسلطته ، فان نطاق ادارته ، البالغ ٦ ملايين كيلومتر مربع ، يشمل ، بين شبه جزيرة البلقان والمحيط الهندي ، وبين القفقاس وطرابلس الغرب ، بالاضافة الى شطر من اوروبا الجنوبية الشرقية ، افريقيا الشمالية الشرقية وكافة انحاء آسيا الامامية المعروفة بالشرق الادنى . وعلى الرغم من ان سكان هذه الامبراطورية لم يجاوزوا ٤٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٠ (يدخل في عدادهم ٩ ملايين مصري) فانها ما زالت تلعب دوراً رئيسياً في تاريخ العلائق الدولية ، لانها كانت تحتل مواقع هامة من الدرجة الاولى في قلب القارة القديمة ولا سيما الطرقات المؤدية من المتوسط الى آسيا الجنوبية .

لم يكن الاتراك في عقر دارهم حقاً الا في بلاد الاناضول التي لم يقطنوا سوى بورة هضبتها . اما في المناطق الاخرى فقد عسكروا بين الرعايا من اهل الذمة او بين شعوب اسلامية اخرى . وقد وافقت الهضبة الاناضولية المرتفعة الكبرى ، القاسية المناخ والمفتقرة الى المياه والاشجار ، هؤلاء الرعاة الذين اعتمدوا في معيشتهم التقتيرية على اللبن (يوغورت) والقشدة (قيمق) والاجبان والجريش والبرغل وشواء لحوم الاغنام . وكانوا ينتقلون من مراعي الشتاء الى مراعي الجبل ويسكنون في اكواخ حقيرة او تحت الخيام المصنوعة من المرعز ويصطلون بنار الزبيل ويمارسون عبادة ساذجة ولا يعترفون الا بسلطة الآغا . وانحصرت الزراعة في بعض الاحواض او في السهول الدائرية الوبيلة جلها ؛ زد على ذلك ان لصوصية اكراد الجبال والشراكسة او مجرد عبث القطعان بالمزروعات كانا يخمدان نشاط الفلاحين . وكانت الاراضي من جهة ثانية من حق كبار المالكين الذين يؤجرونها للمزارعين او يستثمرونها بواسطة الخدام ، حين لا تكون

موقوفة او ملكاً للدولة ؛ فكان الانتاج متدنيـــاً بصورة عامة . وغذت صناعة الطنافس ، والمصنوعات المعدنيـة ، والمطرزات، مع الجلود والحبوب والثمار والتبغ ، تجارة احتكرها الارورام والارمن واليهود في المرافىء البحرية . ورأت ازمير ، التي كانت تقاوم اوحال الـ « هرموس » مقاومة عسيرة ، اقواما كثيرين آتين من مرافىء الشرق الادنى يتـــدافعون في متيهة شوارعها الضيقة الكثيرة . وقد بلغ عدد الاروام ١٠٠ الف من اصل ٢٠٠ الف ، وقد استوطنوا ، كما في العصور القديمة ، السواحل الايجية والجزر المعتدلة المناخ التي سيطر اليهودالاسبانيون جزئياً على التجارة فيها . وكانت طرابيزون على الساحل الشمالي منطلق قوافل الجمال والخيول نحو ارمينيا وفارس التي كانت تسلك طريقا قديمة سلكها الجنويون من ذي قبل .

تميزت الاستانة بسحرها . وامام باب البوسفور العجيب هذا ، اكتفى التركي بالاستئثار بالراس الممتد بين القرن الذهبي وبحر مرمرة . فمن جهة ، وعلى الآكام التي قامت على احداها السراي واجيا صوفيا ، اسطنبول العثمانية ، بقصورها وجوامعها وحدائقها ومقابرها ومساكنها الخشبية السريعة الاحتراق : وهي تؤلف اختلاطاً من العظمة الصامتة والاهمال ؛ ومن جهة القرن الذهبي الاخرى ، غالاطا ومنحدرات بيرا حيث يتجمع « الفرنجة » اي الغربيون ؛ فكان اليونانيين والشرقيين والارمن واليهود احيازهم حول المرفأ : يونانيو الفنار الذين مثلوا « صـفـوة الاروام » حول بطريركهم ؛ واليهود المتحدرون من اللاجئين الاسبانيين ؛ والأرمن الذين عاش الكثيرون منهم عيشة يسار ورخاء . وجاشت المدينة بالحياة حول الخانات والاسواق التجارية في الشوارع القذرة والمتوخمة في الغالب ؛ كما نشطت بالتجارة التي سيطر البريطانيون على نصفها . ولم يكن للصناعة الكبرى من وجود . وكانت حركة السير عسيرة : فمـا زال السور البيزنطي يحيط بالمدينة من جهة البر ؛ ولم يقم هناك فوق القرن الذهبي سوى ثلاثـة جسور مركبة من سفن متلاصقة ، كما لم يوجد شيء يؤمن الانتقال السريع من اوروبا الى آسيا . وقد تراوحت تقديرات عدد السكان بين نصف مليون واكثر من مليون ؛ انها لمدينة غريبة ، جامعة من كل طوائف البشر وغامضة ومنكمشة على نفسها معاً ، مشابهة للمتحف والسوق الدورية ، شائعة الصيت بذكرياتها وموقعها ، ولكنها عاجزة عن التأثير في الامبراطورية .

الى الشرق من هضبة الاناضول ، تنازعت تركيا وفارس وروسيا الارمن المختلطي الاصل ، المسيحيين جلهم على الرغم من تخلقهم بالاخلاق الاسلامية في طريقة حياتهم ، الذين عاشوا على اتفاق مع السلاطين ، لا بل نازعوا الفناريين مراكز مرموقة ؛ ثم سقطت اشيامزين ، مقر الكاثوليكوس ، تحت سلطة القيصر الذي كان يعدهم بالاراضي وحرية العبادة ، فبدأت الهجرة باتجاه الشمال وساءت العلائق بالاستانة . حينذاك طمع الجيورجيون المتأثرون بالحضارة التركية ، والشراكسة ولا سيما الاتراك بالمنطقة الارمنية التي ما زالت تحت اشراف السلطان . وتاق الاكراد الذين طمحوا بالاستقلال وتكلموا لهجات مختلفة ودانوا بالاسلام وثني الطابع ، الى النزول الى الاحواض والسهول المجاورة لبلادهم الحرجية الوعرة : وكما تصرف الالبانيون حيال

مسيحيي مقدونيا ، تعدوا تكرارا على الارمن الذين تميزوا هم ايضاً بالسجس والتقلب . وكان مقدراً للمنطقة الوعرة التي تشرف على حوض الفــــرات ان تعرف في المستقبل مذابح بشرية رهيبة .

الى الجنوب من طوروس وكردستان يبدأ العالم العربي الذي يضم طوائف مسيحية ويهودية كثيرة . في هذا الهلال الخصيب الذي يحيط بالصحراء العربية السورية تسيطر الاثرة الاقليمية. فسوريا هي مقدونيا ثانية تضاف فيها الشيع الاسلامية المختلفة الى الطوائف المسيحية المختلفة . في كل مكان نرى البدوي والحضري وسكان الجبال والسهول او الواحــــات يتعايشون ويتجابهون . كما نرى علويي جبل النصيرية ودروز جبل الدروز يعيشون في عزلة ، بينما يتطلق الموارنة بجبل لبنان الوسطي وتظهر دمشق وحلب بمظهر العواصم العربية، احداهما مثال المدينة الواحة والثانية سوق مرتبطة بالجبال الشمالية ، وكلتاهما عطشان عند حــدود الصحراء . فقــد تكلم « لورتيه » في كتابه « جولة حول العالم » (١٨٨٢) عن « دمشق البهية المبنية مساكنها بالقراميد المجففة تحت اشعة الشمس والمطلية بطـــلاء اصفر ذهبي ... والمروية بساتينها باقنية كثيرة ... ». وزرعت الحبوب والكرمة هنا وهناك ، اما في الاحواض المروية كسهل البقاع ، واما في المرتفعات المسقية بعض الشيء كجبل الدروز . ولكن فقدان الامن والجفاف يتحالفان في ظل هذا الاهمال الذي يلحق الضرر بأحسن المرافىء. اما الشرطة والقضاء التركيان فيكتفيان بايجاد التفرقة بين الجماعات المختلفة وبالحد من توسع المذابح الفورية .

كان من الممكن الاستفادة من الجزيرة فيما بين النهرين ومن دلتا منطقة بابل القديمة ؛ ولكن ضفاف الفرات لم تستهو سوى جماعات حضرية قليلة تسكن اكواخاً قصبية حقيرة. فالمــلاحة شبه مفقودة بفعل الرياح العاصفة في الخليج الفارسي والاوحال التي تملأ مقره ؛ والحر شـــديد في بغداد ، التي لا يتعاطى سكانها تجارة الحبوب والتمور والاصواف فحسب ، بل النخاســة لحساب احرام العالم الاسلامي كله ايضاً ، ويلجأون صيفاً الى السراديب المزودة بمنافذ الهواء ؛ ويدخل في عداد هؤلاء السكان ٥٠ الف يهودي من بقايا السبي برعوا في التجارة ووفرت لهم المدارس بعد السنة ١٨٦٥ جمعية الاتحاد الاسرائيلي . اما البدوي فحاضر في كل مكان او على مسافة قريبة ، يضرب خيمته على ضفة الفرات ويجوب بورات الهـــلال الخصيب وكأنه السيد المطاع ؛ وهكذا فان قبيلة عنزه ، التي تضم ٣٠ الف فارس ، تقطع طريق الحج بين بلاد مــــا بين النهرين ونجد .

في اليهودية كما في سوريا ، ما تزال المدن والاديرة محصنة . الغور لا ينتج شيئاً بسبب افتقاره الى الري . ابن الصحراء يتوجه حيث يطيب له وينهمك في السلب والنهب ؛ ويفرض شيخه او اميره الخوة على الفلاحين او اهل المدن لمصلحة القبائــل القوية . ويخضع لهــذه الضريبة كثير من الحجاج ايضاً . وقــد وصف لامارتين يهوديه خربة ، ولم ير في اريحا سوى اكواخ من الطين

الجفف ونساء لسن سوى « اثالي » . وفي السنة ١٨٧٥ ؛ اعتبر « فوغويه » « انه يجب الكتابة بدموع الانبياء لوصف مثل هذا الجمال في مثل هذا الخراب ». وتأثر « غابريال شارم » في اورشليم بعظمة الاماكن وقذارة الشوارع وفقدان الامن فيها وتشابك الحقوق حول تلك اقل حجر والاستغلال الذي استهدف الحجاج الروس المساكين من قبل الاكليروس اليوناني وزعماء الطائفة اليهودية لذكرياتها الخاصة .

لم تكن الجزيرة العربية تركية الا بالاسم فقط . واذا اعترفت الحجاز بسلطة السلطان ، فمرد ذلك الى ان هذا الاخير قد توصل بعض الشيء الى فرض احترام سلامة طريق الحج . والى الجنوب من مكة خضعت عسير ، المنضمة الى الاسلام منذ عهد قريب ، للنفوذ الوهابي . وفي داخل الجزيرة العربية الواسعة الاطراف ، قامت في الشمال صحراء النفود التي تجتازها الطريق المؤدية من كربلاء الى حائل ، العسيرة والمهددة ابدا بهجمات رجال قبيلة عنزه ، كما قامت في الجنوب صحراء اخرى تعرف بالربع الخالي ؛ وارتفعت بين هذه وتلك جبال نجد ، معقل الوهابيين : ففي الرياض ، المدينة الحريصة على نقاوة العقيدة ، شيد الامير قصراً شبهه الرحالة « بالغرايف » بالسجن الانكليزي في «نيوغايت». وتدرّت لندن البحرين في الخليج الفارسي ، وقد خضع لها ساحل شبه الجزيرة الجنوبي اكثر من خضوعه للاستانة . واختارت الحكومة البريطانية عدن المرفأ الوحيد الصالح للرسو في حضرموت وقربت اليها سلطان مسقط الذي تعاطى حتى السنة ١٩٠٢ نخاسة رابحة . ولم تكن عدن مستودعاً هاماً جداً فحسب ، بل كان من شأنها مراقبة اليمن التي كان مينآؤها ، الحديدة ، رخيماً . واشتهرت اليمن الشبيهة بلبنان أو مناطق الجزائر الجبلية بزراعة البن (مخا) ؛ وسحرت عاصمتها صنعاء ، القائمة على ارتفاع ٢٣٠٠ متر ، بحدائقها الغناء وجوامعها الثمانية والاربعين . وقد واجهت هذه المنطقة كلها بلاد الحبشة واشتركت في حياة المحيط الهندي الاقتصادية .

« الرجل المريض » : فشل تنظيمات والتدخل الاوروبي في تركيا

افتقرت حكومة الاستانة الى الوسائل اللازمة لحكم سكان على مثل هذا الاختلاف في رقعة واسعة الارجاء . ويكفي هنا التذكير بسير البريد الذي اسند الى قبيلة تربية تقتني الجياد الاصيلة واقتضى له خمسة وثلاثون يوماً لنقل رسالة من العاصمة الى بغداد . ولما كانت السلطة الدينية التي يمارسها البادشاه محدودة جداً ، فقد عولت الامبراطورية على اقطاعية عسكرية : السلطان هو القائد العام ؛ والتقسيمات الادارية تطابق الاقطاعات ، والسنجق في الاصل راية يحملها البك . وتسلم الضرائب الى الاقطاعيين انفسهم الذين اقطعوا الاراضي ، الجفتلك ، بعد انتزاعها من المغلوبين على امرهم . فكانت نتيجة هذا الاختلاط بين السلطة والملك فساداً وابتزازاً . تثقل وطأة الضرائب بتعهد الجيش ، والجيش قد فقد الكثير من صفاته العسكرية بسبب عدم انضباطه وافتقاره الى العتاد العصري . فهنالك اقاليم واسعة قد شقت عصا الطاعة : الجبال التي يحتمي بها العصاة ، ومواطن البدو الرحل . يضاف الى ذلك

ان باشاوات كثيرين قد تصرفوا كما يطيب لهم التصرف . واخيراً ليس اقل التناقضات لفتاً للانتباه المركز الممتاز الذي اقامت منه بعض الجماعات · الفناريون والزعماء الطائفتين الارمنية واليهودية في العاصمة ؛ والاجانب الذين اتاحت لهم « الامتيازات » مزاولة الاعمال التجارية بشروط مناسبة جداً . اما الحكومة التركية العاجزة فقد لجأت الى الحيل الآنية التي تراوحت بين التسوية المعجلة (ويكفي آنذاك ان تسلم الطوامر) واستخدام القوة . انها « الرجل المريض » في نظر اوروبا التي تراقب احتضاره بكل انتباه .

ان ما عرف آنذاك بالمسألة الشرقية هو من ثم المسألة التي طرحها انحطاط الامبراطورية العثمانية . واذا حسب بعضهم في الخارج حساب فوائد التجزئة بينما آثر البعض الآخر الابقاء على الحوزة (التي من شأنها تجنيب مضاعفات شتى وتأمين مراقبة الموارد مراقبة شاملة توفر نتائج فضلى) ، فان الاوساط الاسلامية نفسها كانت مقتنعة بأن نقاهة المريض منوطة بتعالجه .
ولما كان النظر مصروفاً عن العودة الى الشريعة القرآنية المشددة التي تستتبع رفض كل تدخل اجنبي ، فبقي أن يعرف ما اذا كان القيام باصلاح على غرار الاصلاح في الغرب لن يستعجل الحركات القومية ،وبالتالي المصير المرهوب. والحقيقة هي ان تركيا بدت عاجزة عن المحافظة على انظمتها القديمة وعن التطور تطوراً حقيقياً . الا ان الدول ، رغبة منها في ارجاء موعد التصفية النهائية ، قد تجر الى اطالة حياة عليلة .

عاصر سليم الثالث الثورة الفرنسية ونابوليون وحكم حكماً استبداديا على غرار بطرس الاكبر فحاول قبل سواه اعادة تنظيم الجيش ، ولكن الانكشارية الذين حالفهم الحظ اكثر من « ستراتسي » جندلوه ، فنجم عن مقتله عهد اضطرابات استفاد الصرب واليونانيون منه لاعلان الثورة بينما اصبح باشا مصر محمد علي مستقلاً عملياً .

واذا أفلح محمود الثاني ، الذي عليه الاختيار، في التخلص من الانكشارية ، السجين ، فقد وجد نفسه في القضية اليونانية امام تحالف اوروبي وأمام مدعيات الباشا . وحين اضطر الى التخلي عن سوريا لصاحب الاقطاعة الخاضع له مبدئيا والتجوء مؤقتاً الى الحماية الروسية ، اخذ على نفسه التغلب على هذين الخطرين : اثار حفيظة المتمسكين بأهداب الدين بارتداء الزي الاوروبي وشرب المسكر والسماح بدخول البضائع الانكليزية معفاة من الرسوم وبيع عدن من بريطانيا العظمى واسناد امر تنظيم جيش جديد الى ضابطين بروسيين ، ثم أدركته المنية بينما الامبراطورية وكأنها تحت رحمة الباشا بعد انهزام جيوشه مرة اخرى .

في عهد عبد المجيد الشاب ، ورغبة منه في كسب الوقت وعطف اوروبا ، لخص رشيد باشا ، المستدعى من سفارة لندن ، في خطي شريف (١٨٣٩) او دستور غولخانه ، برنامج اصلاحات جريئة انطوى على بعض الضمانات القضائية وقمع التجاوزات الجبائية وتأسيس جمعية تمثيلية .ولكن ما ان ضمن له ميثاق المضائق حماية الدول الجماعية حتى آلت « التنظيمات » الى لا شيء تقريباً .

ولكن الباب الذي سانده الغرب في حرب القرم ، عقد قرضه الاول (بموجب « خطي همايون » في السنة ١٨٥٦) وسلم في الوقت نفسه بحرية العبادة والمساواة المدنية وحق الاجانب في تملك العقارات .

نشأت بعد قليل في المؤسسات المدرسية الاوروبية (فتحت كلية غالاطا العثمانية الفرنسية ابوابها في السنة ١٨٦٨) طبقة مثقفة اسست بعض الصحف وتمنت قيام اصلاحات جدية وطالبت بمراكز عمل بصورة خاصة . وعلى الرغم من استحداث بعض الوظائف العامة لأجل ارضائها ، فانها قد اشتكت من تبذيرات السلطان الطائشة وحملته مسؤولية افلاس يهدد ، كما حدث في تونس ومصر ، بجر البلاد الى حماية مالية غربية . وأمام الفوضى المنتشرة في الولايات البلقانية تسبب طلاب الحقوق والفقه في اندلاع ثورة في الاستانة واستقالة عبد العزيز . فاضطر خليفته عبد الحميد الى منح الدستور او القانون الاساسي في السنة ١٨٧٦ الذي تأسس بموجبه نظام برلماني . ولكن نفوذ منظمة « تركيا الفتاة » انهار حين خلع السلطان الجديد قناعه بعد ان ضمن حماية مؤتمر برلين . ولن يبقى من برنامج الاصلاحات سوى مشروع قانون مدني وضعته احدى اللجان بعد اعمال استغرقت ١٧ سنة .

ابتداء من السنة ١٨٨٠ ، بدا الرجل المريض وكأنه يستفيد من هدنة . ولكن ادارة الدين العثماني الباهظ عادت لمجلس دولي ، واسترهنت دخول الجمارك والضرائب وادارة حصر التبغ في سبيل عقد قروض جديدة . ومنحت في الوقت نفسه امتيازات كثيرة لاستثمار الخطوط الحديدية والمرافىء . والحال كان في نية الحركة الاسلامية الشاملة، على غرار الحركة الروسية المماثلة ، ارضاء قومية كان من شأن غزو رأس المال الاجنبي ان يكدرها . ولكن الامبراطورية العجوز لن تنجو من مصير محتوم : فليس باستطاعتها الاستعانة بأوروبا والتخلص منها في آن واحد .

فارس في عهد سلالة القجر

ان الغرابة هنا ، كما في الجزيرة العربية ، هي ان الصحراء تتوسط البلاد وان الحياة تتدفق في الاقسام الدائرية . فحول حوض وسطي يكاد يكون مقفراً ، كان على فارس ان تصون مناطق حدود وعرة المنحدرات يستهوي الانسان ثلاث منها بسبب غزارة الامطار فيها وتشهويه الرابعة بسبب موقعها الساحلي. ولكنها على الرغم من ذلك لا تسيطر سيطرة تامة على كتلة الجبال الشرقية الضخمة .

اهل الحضر اكثر سكانها عدداً ، ولكنهم تجمعوا في مساحات ضيقة : المناطق القزوينية الشبيهة بالمناطق الحارة التي يزرع فيها الارز وقصب السكر وشجرة التوت والتبغ ، وواحات الاقسام الدائرية التي تمر فيها الطرق الداخلية . فلاحين او مدنيين ، كان اهل الحضر هؤلاء فرساً واتراكاً وعرباً ويهوداً وأرمناً وزنوجاً ايضاً . فأين يجب من ثم تعيين مركز حقيقي ؟ لقد تبدلت الطوالع تبدلا سريعاً ، فكانت الاولوية تارة لاصفهان ، المواجهة لبغداد وشيراز ، التي

بلغت العظمة في عهد الصفويين ، واخرى لتبريز الواقعة على طريق البحر الاسود ، وثالثة لمشد ، المدينة المقدسة التي جعل منها ناصرشاه عاصمته على مقربة من البورات الطورانية ، ورابعة لطهران .

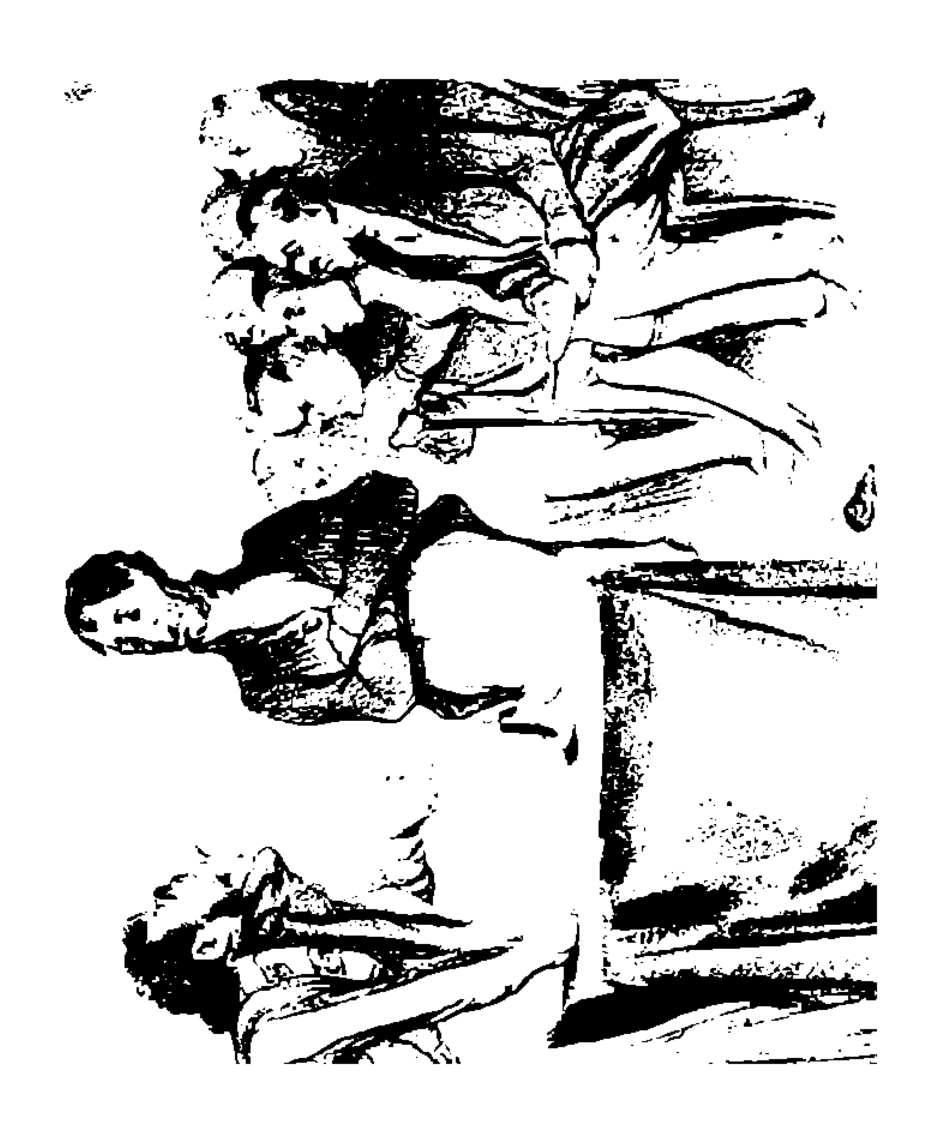
يجب في كل مكان ان يحسب حساب للبدو وانصاف البدو الذي يسرحون ويرحون في تسعة اعشار المساحة العامة متأثرين بالمناخ الذي يدفع بهم من المنطقة الحارة الى المنطقة الباردة : اكراد ، وبلوش ، ولور ، وبختيار ، وتركان ، بحسب المناطق . المدن والقرى محصنة بسبب فقدان الامن الشامل .

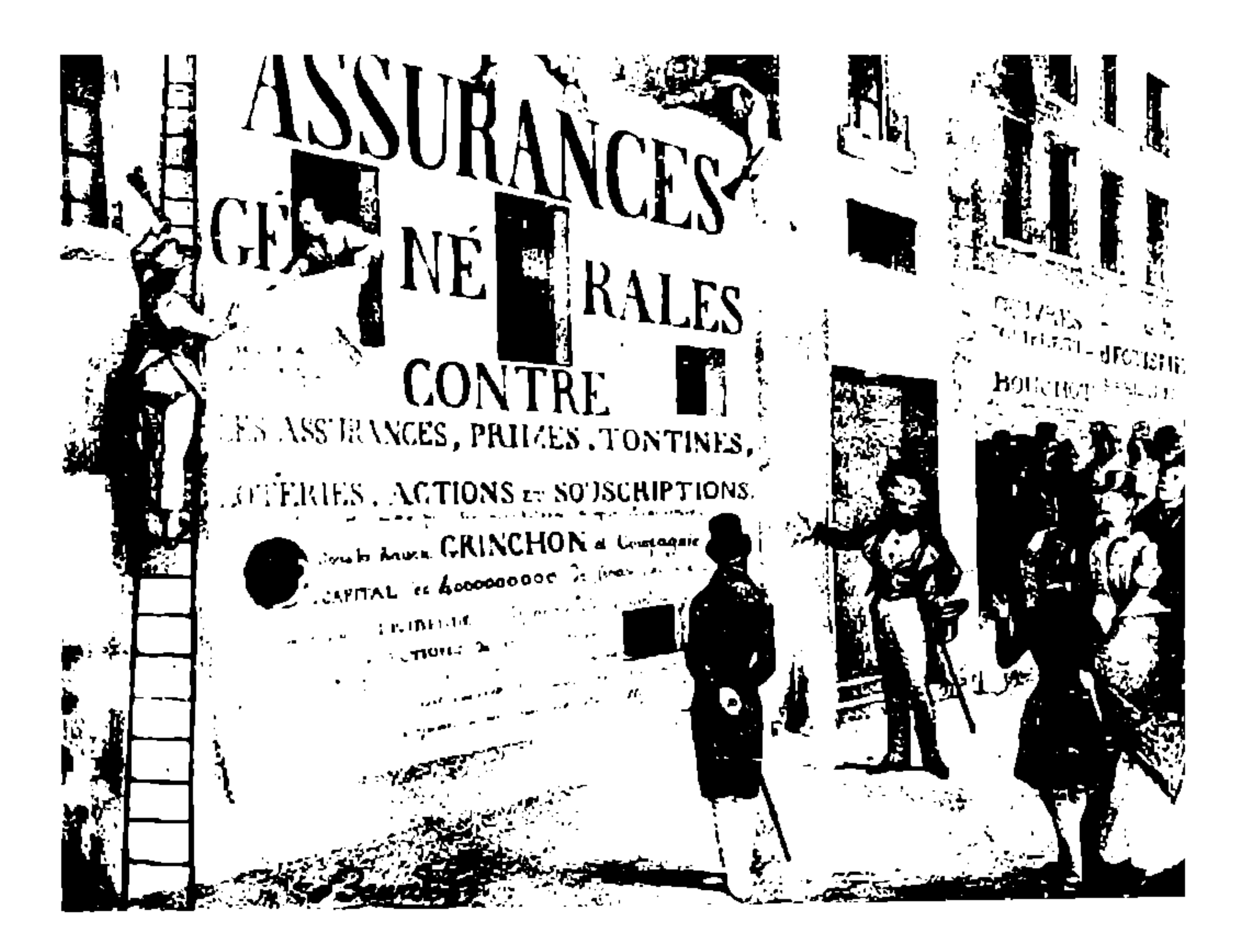
كان من ثم لطرق الاتصال الكبرى اهمية قصوى : الطريق الطورسية المؤدية من طرابيزون الى مشد مروراً بتبريز ، والطريق الشمالية الجنوبية المؤدية من رشت على بحر قزوين الى شيراز وبوشير على الخليج الفارسي مروراً بطهران وكوم واصفهان ، والطريق الكلدانية المؤدية من بغداد الى همذان ، وطريق كتا المؤدية من الهند الى مشد في الجهة المقابلة . وتتضح بالتالي صعوبة مسألة السيطرة على هذه الطرق المختلفة الاتجاهات وهذه المنافذ العديدة ، لا سيما وان المركز لا وجود له في اي مكان من حيث هو بالضرورة في احدى نقاط الاقسام الدائرية . ولذلك اقدم كل قسم بدوره على اعمال حربية تستهدف الفتح والتوسع . ففي اوائل القرن التاسع عشر نرى الحجر التركان ، الآتين من حوض « اترك » ، يتركزون في طهران ويعيرون اهتمامهم فارس الشمالية المياَلة طبعاً الى الوقوف في وجه الروس القادمين عبر القفقاس وبحر قزوين ، فارس المسهمة في الدفاع عن الجبهة الاسلامية الشمالية .

عبثاً شن المؤسس « الآغا محمد » وخليفته « فتح علي » حرباً لا هوادة فيها على القيصرية : فقد تكررت الهزيمة في السنة ١٨٢٨ بمعاهدة « تركانشاي » ، ثم تعرضت فارس لهجوم الافغان ففكرت بحماية انكلترا التي كانت تتطلع منذ ذاك التاريخ الى مرافىء الخليج الفارسي . ولكن الشاه اراد الاعاضة من خسائره الاقليمية في خراسان والقفقاس بفتوحات يحققها في الشرق ، فتوفق الى جعل خراسان في مأمن من غارات تركان طوران وصد خان « خيوا » ، ولكنه أخفق في افغانستان .

أدرك نصر الدين ، الذي سيموت قتلاً في السنة ١٨٩٦ ، ضرورة العدول عن المغامرات . يضاف الى ذلك ان التقدم الروسي في تركستان ازال الخطر التركاني ، وان انكلترا من جهتها سوت الخلافات حول الحدود الفارسية الجنوبية الشرقية لقاء استعاد الشاه بوجيهها سواحل الخليج الشمالية ، وبقي مبعداً عن الطرق المؤدية الى الهند . وأظهر نصر الدين شغفاً كبيراً بأحوال الغرب . فقصد العواصم الاوروبية حيث اثرت شخصيته الفاتنة في الناس . ولكنه كان مضطراً لأن يحسب التقاليد والآراء السائدة حسابها .

على من يجب الاعتماد لايجاد سلطة قادرة على تخليص فارس من وضعها المتردي يا ترى ؟





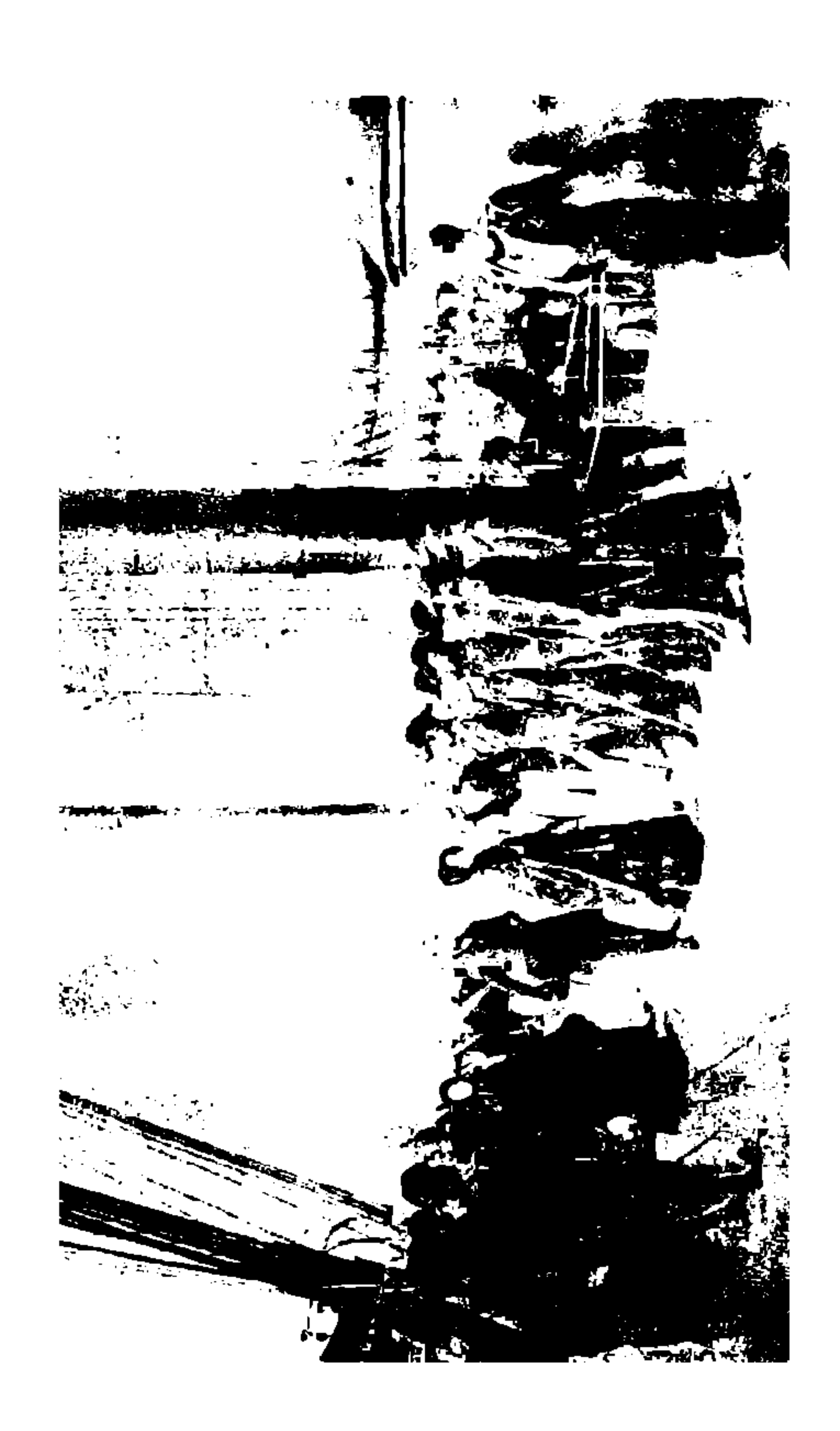
ASSURANCES
GÉNÉRALES
CONTRE
LES ASSURANCES, PRIMES, TONTINES,
LOTERIES, ACTIONS ET SOUSCRIPTIONS.
GRINCHON et Compagnie
CAPITAL de 4000000000











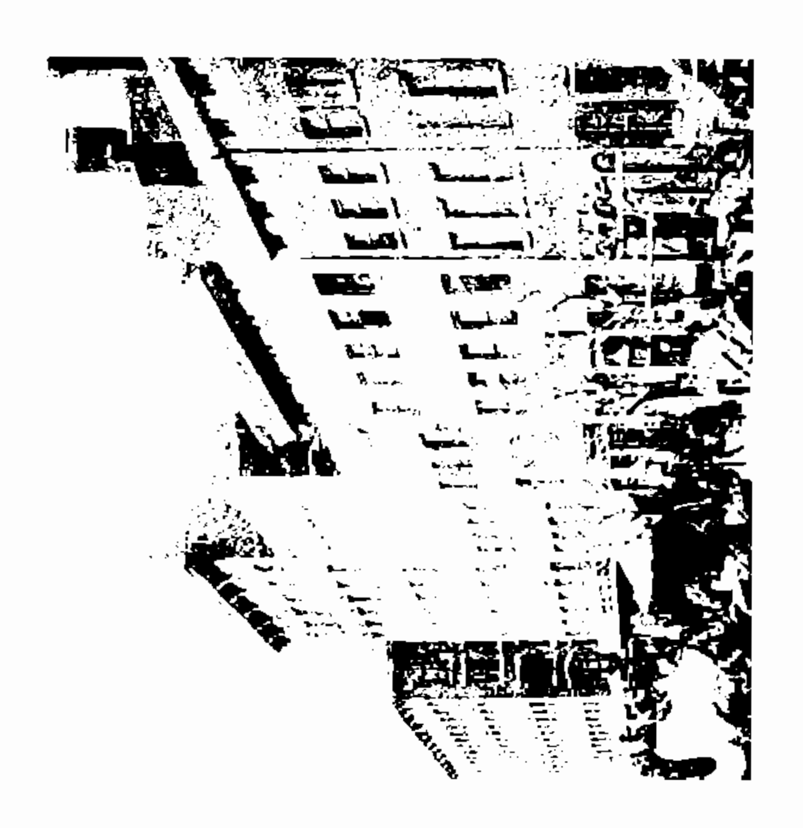




٢٥ - الزحمة في احد شوارع لندن .















يتمتع الاسلام الشيعي بقوة عظيمة ؛ وينجم نفوذه عن موقعه الغريب في قلب الاكثرية السنية : فانه يرتدي طابعاً شبه قومي على الرغم من أنذرقته لتشمل القسم الاكبر من بلاد ما بين النهرين الخاضعة للآستانة . ولكنه أبعد ما يكون عن الوحدة . واذا هو انطوى على نزعة صوفية معينة ، فانه لم يتوصل قط الى ملاشاة الشيع التي تجد في ايران حقلا مواتياً . زد على ذلك ان الكتمان حالة نفسية تسهل قيام الجمعيات السرية . فهكذا انتشرت الصوفية التي تدفع الى الاختطاف في العزلة وتشيع اكرام الاولياء في اوساط الشعب . وتأيدت في الوقت نفسه تأيداً دائماً النزعة الزردشتية الى رفض كل سلطة غير القبول الاجماعي . وسبق لنادر شاه ان واجه تبني دين من شأنه التوفيق بين كافة الاديان التوحيدية . ثم جاء الباب بدوره كنقذ ، ووجد نصر الدين نفسه ، عند توليه العرش ، امام حرب دينية واجتماعية حقيقية . وما البابية التي غلبت على أمرها في فارس بعد معارك دامية واضطهادات عنيفة سوى حركة اصلاحية انتهت الى الفشل .

لقد صمد زعماء المجتمع الذين وقفوا في وجه كل تغيير : المستفيدون من الاملاك الموقوفة الواسعة ، والاعيان المتتسبون الى كل الفئات الذين يديرون الحكم في خدمة الشاه ويعيشون في البلاد ، ولا سيا الحكام ، خلفاء المزاربة الحقيقيون . وقد عاد ثلثا الموارد للجيش والقصر .

تصرف الجيش ، الذي لم تدفع له اجوره بانتظام ، وكأنه في بلاد محتلة . وفي بلاط القصر ، اثار الشاه ، خليفة ملك الملوك ، اعجاب الجماهير بعظمته وكرمه الفائق ، ولكنه كان اسير الدسائس التي حيكت من حوله ، وقامت مهارة الحكم في نظره في التفاوض مع الحكام وزعماء القبائل . ونادراً ما أدرك الأمر هدفه اما لانه لا ينفذ واما لانه لا ينطوي على مزيد من القساوة .
وعلى الرغم من ذلك فان مستوى حياة الفرس ، المشهورين بـذوقهم المرهف واستهوائهم الموسيقى والمسرح ومهارتهم في الصناعة اليدوية ، كان متدنياً جداً . فهي الحرف الصغيرة الكثيرة التي حافظت على شهرة الفروش والطنافس والمنسوجات الحريرية والمخملية ودباغة الجلود وصناعة تحويلها ، ولكن طبقة التجار جمعت الثروات بالمراباة ، والدلالين اشرفوا على كافة الصفقات وجماهير الشعب شكت من الاملاك الكبرى والاوقاف . وعادت القرية للملك اولاحدى العائلات الكبرى او لاحدى المؤسسات التقوية ؛ فكان هناك ملاكون سيطروا بهذه الطريقة على ألوف الفلاحين . وقد تاه هؤلاء تحت وطأة الاتاوات فلم ينتجوا الا القليل ، واستخدموا السماد البشري ورووا الارض بواسطة النواعير ، وحتى بواسطة القرب المملوءة ماء . وما كان ملايين السكان الحسنة او السنة ليؤمنوا قط حاجتهم من المأكل ، وقد فتكت بعض المجاعات بألوف الضحايا (ويروى ان احداها قضت على نصف مشد) . وقد امتت الجمال والخيول مثل كل شيء . وجاء في كلام مأثور : « لو كان لدى الاوروبيين جياد شبيهة بجيادنا لما احتاجوا الى الطرقات » . وفي السنة ١٨٦٤ مد بين بغداد وبوصير السلك التلغرافي الذي وصله الاخوة سيمنس في عهد لاحق بخط لندن عن طريق تبريز . ثم منح الشاه أعمالياً بريطانياً كبيرا هو البارون « جوليوس روبار » (الذي

اشترى حاشية الامبراطور بالمال بهذه المناسبة) امتياز بناء خط حديدي بين بحر قزوين والخليج الفارسي ، وتأسيس عدد من المصارف ، وادارة الجمارك ، وحق استثمار الاحراج والمناجم ، مقابل ٤٠ الف جنيه استرليني ؛ ولكنه ما لبث أن ابطل العقد بعد حين . وحين افتقر الى المال بعد رحلاته الى اوروبا ، سلم غلة التبغ والاتجار به الى شركة « التعاونية الامبراطورية الفارسية للتبغ» مقابل ١٥ الف جنيه استرليني وربع الدخل السنوي ؛ ولكن احد المجتهدين النافذين دعا المستهلكين الى الاقلاع عن التدخين ، فاستعاد الشاه الامتياز مقابل دفع نصف مليون جنيه استرليني . ومنذ السنة ١٨٨٩ خضعت مالية البلاد في الواقع لمصرف فارس الامبراطوري ، الذي حصل على امتياز اصدار الاوراق النقدية . فوقعت فارس بدورها تحت سيطرة الرأسمالية الاوروبية .

الدولة الافغانية بين البريطانيين والروس

على نقيض فارس ، تتكون افغانستان من مجموعة جبال وسطية تحيط بها البورات . ومنطقة كابول فيها تثير الاعجاب بحدائقها الغناء وخورعا التي يذكر مذاقها بخمور جزيرة ماديرا ؛ اما غزنه التي حملت اسمها سلالة الغزنويين في القرن الحادي عشر فتدين بالشهرة لاقنية الري . ولكن طبيعة الارض وزعت السكان هنا وهناك وهنالك . وقد خضعت افغانستان زمناً طويلاً للسيطرة المغولية في الشمال والشرق ، والسلطة الفارسية في الغرب . وحتى في القرن التاسع عشر حاول الشاه السيطرة على هيرات ، وأمير بخارى السيطرة على تركستان ومنطقة بلخ(بختيار القديمة)؛ بينما شعرت قبائل المنحدر الشرقي بميل الى الدولة الانكليزية التي كانت مسيطرة على منافذ الوديان المنحدرة نحو الهندوس .

الأفغان سكان ارياف معظمهم رعاة او شبه بدو رحل يؤلفون خمسة المجادات قبلية مؤلفة بدورها من قبائل صغرى (يبلغ عددها ٤٥٠) يدير شؤونها خانات منتخبون وجمعيات تضم زعماء العائلات . ويقدم هؤلاء المحاربون الأشداء، القانون المتحدرون « الشرف الافغاني (نانجي بوختانا) على كل شيء ويطبقون فيما بينهم سنة « البدل » او الثأر . وتقوم في الشمال والشمال الشرقي منطقة باغستان المستقلة التي تقدم محاربيها البواسل لامير كابول ولاعدائه دونما تمييز . وقد عجز الافغان السنيون أبداً عن ان يطردوا من جبالهم الـ ٦٠٠ الف شيعي المغوليي الاصل الذين يهاجرون راضين الى المدن حيث يقومون بأشغال شاقة . وهناك مليون « تاجيك» من أهل الحضر في هذه المناطق الشمالية وفي جوار هيرات : ولكن هؤلاء الذين تعاطوا الصناعة اليدوية والتجارة ما كانوا ليرضوا بالسيطرة القبلية .

ما هو في هذه الظروف شأن الامير المتربع على عرش كابول بقوة السلاح ؟ انه في حرب دائمة مع القبائل التي لا تعترف بسلطته ولا يستطيع هو اخضاعها .

بيد أن وجود بلاد افغانية متمتعة بالسيادة نظرياً كان نتيجة المخاصمة الانكليزية الروسية

في آسيا الوسطى . واذا منيت انكلترا في السنة ١٨٤٢ بفشل ذريع في ثغرة « كرد كابول » الرهيبة ، واذا لم ينقذ « روبرتس » حامية كندهار في السنة ١٨٨٠ الا بصعوبة غاية في الجرأة ، فان الدبلوماسية والرشوة قد نجحتا بالنتيجة في اسناد الحكم في كابول الى الامير عبد الرحمن الذي وراؤه فيه التفوق البريطاني أمراً كبيراً . ولم تدفع بريطانيا العظمى بين مليونين وثلاثة ملايين لمحميها فحسب، بل ربطت بين البلاد ووادي الهندوس بطرق جيدة وبخطين حديديين يتجهان نحو مري خيبر وخوجا . وأسهمت كذلك في صد الفرس ووضعت بلوتشستان تحت حمايتها فعززت بذلك هذه المواقع الامامية للهند .

إلا أنه استحال على امير كابول ان يستسلم كلياً للانكليز . فبما كان من نقمة مساعدة بطرسبورغ،فانها انطوت مع ذلك على فائدة كبيرة للأفغاني هي ضمان لمحالف بديل عند الحاجة، لا سيما وان الضغط الروسي البعيد لم يبرز الا في عهد متأخر . ولكن الاستيلاء على مرو في السنة ١٨٨٤ قد فتح طريق هيرات أمام القائد كوماروف وكان مقدمة لاحتلال « بنجه » ، ثم ما [illegible] الروس ان بلغوا بامير .

وكان لأفغانستان فائدتها احياناً : ففي السنة ١٨٩٥ حافظت على منطقة فاخان الضيقة التي تفصل بين الامبراطوريتين الاوروبيتين على ارتفاع اكثر من ٣ آلاف متر . ولكنها في الحقيقة دارت في فلك الهند .

خضوع الاسلام للروس

في الحوض الجاف الواسع الاطراف الذي دخله الاسلام الى الشمال من ايران وضعت الحرب المقدسة الروسية تحت السيطرة القيصرية زهاء عشرة ملايين مسلم .

اقامت طلائع العالم الاسلامي هذه بين روسيا الوسطى والسهل السيبيري . فقد ألفت منذ ذاك الوقت على جانبي الفولغا مجموعة هامة تقدر بمليوني نسمة تنتسب الى الفرع التركي المغولي ولا يدخل في عدادها تتر القرم . فنمت « نجني – نوفغورود » عند حدود السلافيين الارثوذكس ، ولكن خازان ، عاصمة خانية الفرقة الذهبية بالامس ، قد شيدت المآذن منذئذ بين الكنائس . وبينما اعتنق الـ « شوفاش » المنحدرون من اصل فنلندي ، الدين المسيحي ، فقد مثل الاسلام ، ابعد الى الشرق في جبال الاورال ، الـ « بشكير » الذين اقلقوا القياصرة زمناً طويلاً بسجنهم ومساندتهم ا « بوغاتشيف » : أخذت البلاد ترتدي طابعاً روسياً في أواخر القرن ، ولكن البدو الرحل الذين استخدمت جيادهم في الحملات على فارس وتركيا قد بقوا اوفياء للخيمة وحليب الفرس المختمر .

وراء هذه المواقع الامامية ، انبسطت بورات صحراوية تحيط ببحري قزوين وارال وتكاد تكون خالية من السكان. ولكن حيثما كانت الحياةالبدوية ممكنة عاش بعض الرعاة من امثال الـ « كلموك » البوذيين عند الفولغا الاسفل ، ولا سيما القازاق الكرغيز ابعد الى الشرق .

وكان هؤلاء اراكاً مغوليي الطابع متمسكين ابداً باعتقاداتهم الشامانية وبعبادة الاموات ، فمارسوا اسلاماً سنياً متساهلا . وقد شيد الروس فيما بينهم خطاً من المراكز المحصنة وضعوا فيها حاميات من قوزاق اورنبورغ والدون ، رغبة منهم في ضمان مؤازرتهم . أما القبائل الثلاث التي امتلكت ملايين الجياد والاغنام والابقار فقد تألفت من قبائل صغرى ، او «اول» تضم كل منها بين ٣٠ و ٢٠٠ خيمة . وكان قوام غذائها الـ « عيرن » او الحليب الحامض ، والشاي ، واللحوم .

في القفقاس تغلب الروس بصعوبة على مقاومة السنيين والشراكسة الذين هاجر قسم كبير منهم الى تركيا . وقد خُططت الطريق العسكرية الى منطقة ما وراء القفقاس عبر ممر « داريال » بين الـ « اوسيت » الايراني الاصل المتميزين بمزيد من الاستعداد للخضوع . اما شيعو اذربيجان الذين يجوبون بورات « شروان » ويتطلعون الى ابناء يجدتهم في تبريز ، فلم يمض الفاتحون السلافيون عن استخدامهم في سياستهم الفارسية . ولكن الفاتحين هؤلاء الذين نشروا الامن والسلام في الفسيفساء القفقاسية ، وباشروا استثمار ثرواتها ، قد اضطروا الى الاكتفاء بترويس المسؤولين الاداريين .

الى الشرق من بحر قزوين ، سيطرت على الوديان المنحدرة من القمم المرتفعة رطوبة كافية لان تجعل من كل منها مصراً اخرى . وغذّت مجاري المياه واحات واسعة الاطراف . وكانت مواطن الحرير والقطن هذه ، حيث ازدهرت في العصور القديمة سوغديانا وبكتريانا ومرجيانا ، مهيأة ابداً لقيام الامبراطوريات . فان سمرقند تفتخر بضريح تيمورلنك ، كما ان بابر ، فاتح الهند ، هو ابن فرغانا . وقد تعززت حيوية الاسلام السني في بقاع عرفت بالامس حضارة يونانية ـ بوذية تتصف بالرقة . واذا استطاع الروس الاستقرار في « سميرتشه » ، او بلاد الانهار السبعة ، عند مدخل « زونغاريا » ، فانهم قد اصطدموا من جهة ثانية بدول اسلامية حسنة التنظيم في احواض « سيرداريا » و « اموداريا » و « مورغب » .

ان الاستيلاء على تركستان ، المدينة المقدسة ، وعلى طشقند ، قد قاد جيوش القيصر الى ابواب فرغانا . وقد خضعت هذه الاخيرة للصين حتى السنة ١٨٣٥ ، ثم امست خانية كوكند التي ضمت اهل حضر واهل وبر ، فأقام فيها التاجيك والسارت علاقات طيبة بسمرقند وقشغر على الطريق التي تصل بين تركستان الشرقية وتركستان الطورانية . وبعد ان حارب الروس اصبح خان الاوزبك التركي المغولي حليفهم رغبة منه في التفرغ لصد اعتداءات بخارى ، ولكن فرغانا قد ضمت الى روسيا في السنة ١٨٧٦ .

اما بخارى ، اكبر الدول الاسلامية ، فارتضت قبل ذلك بالخضوع للسيادة الروسية . ولكن خانها نصرالله سار قدماً في تحقيق برنامج ينطوي على الكثير من الطموح . فقد جهز هذا الزعيم الاوزبكي الاخر جيوشاً دائمة وهاجم جاره زعيم خيوا ، ثم استولى على سمرقند وخوجند ، وطرد امير كوكند من فرغانا لفترة قصيرة ، لا بل انه فكّر يوماً بغزو افغانستان ، ولكن

دون اتفاق على ذلك مع الانكليز ؛ وقد اشتهر بالاضافة الى ذلك باضطهاده المسيحيين ووحشيته في قمع الحركات الثورية . ولكن ابنه لم يستطع الصمود في وجه الهجوم الروسي ، وبعد سقوط سمرقند ، مدينة الجوامع الـ ١٦٥ والمدارس الذائعة الشهرة ، ارتضى بأن يكون عميل القيصر ، وبأن يلغي الرق ويستقبل في جيشه مدربين روسيين . فقابل ذلك ، ومقابل التخلي عن منطقة ظرفشان الغنية تمكنت بخارى ، الواحة المشهورة بجوامعها الـ ٣٦٠ وفنادقها الـ ٣٨ ، واسواقها الـ ٢٤ ، والمتميزة بأكثرية من التاجيك ، من الابقاء على مؤسساتها الاقطاعية .

موجت خيوا من الوراء فسقطت بدورها . وقد تنازع الاوزبك والتركمان هذه الواحة وهذه السوق النخاسية الكبرى ؛ وهم السارت والتاجيك ، هنا ايضا ، من القوا الاكثرية ودفعوا الجزية للملك الذي ابقاه الروس كذلك في مركزه بالشروط نفسها .

وكانت مرو مركز خانية تركمانية ضمت ٢٤ قبيلة صغرى ، وانشئت فيها ٢٤ قناة للري . وقد صمدت فيها المقاومة التركمانية بعناد ولم تنهر الا في السنة ١٨٨١ . فبات ممكنا حينذاك أن يحور الخط الحديدي المؤدي من « كراسنوفودسك » على شاطىء بحر قزوين الى فرغانا النائية دون أن يمر بصحراء تركستان الوسطى . ولن ينشأ خط حديدي مباشر بين موسكو وطشقند الا في السنة ١٩٠٥ .

نشر السلم الروسي الذي لم يتعرض تعرضاً يذكر العادات المحلية ، مقتصراً على مراقبة الغاء الرق ومنع بعض تجاوزات القانون الجزائي وتوطيد حرية الاديان والتجارة ، وتاركا للمدن الاسلامية طابعها وشوارعها الضيقة القذرة وحياتها . وقد آثر الفاتح ان يشيد لموظفيه وحامياته ومهاجريه المستعمرين ابنية خاصة به ، فأسس طشقند جديدة توازي باريس مساحة وجهزها بدار كتب ومرصد ، ومرو جديدة ، وحيا اوروبيا جديداً في سمرقند . واشترى الحرير ، وأدخل نوعاً اميركياً من القطن ، وانشأ مصانع للحلج وباع مصنوعاته في بلاده . ولكنه لم يدخل اي تحسين على الري وتربية المواشي . وبعد أن تغلب على زعماء الاوزبك والتركمان ، لم يكترث قط لمكافحة الرياح البوارح والجراد والملاريا .

ان تركستان ، الغنية بذكرياتها وامكاناتها ، مدينة لمجيء الروس بأمنها ووحدتها الجزئية . ولكن مستوى الحياة فيها لم يرتفع ارتفاعاً يذكر .

مصر : ارض خصبة وفلاح بائس

في القرن التاسع عشر ، لفتت مصر انتباه اوروبا بعد حملة نابوليون . فتبارى رجال السياسة وعلماء الاقتصاد واهل العلم في تبيان موقع البلاد الهام وغنى كنوزها الاثرية التي نبشتها اعمال التنقيب ، وثروة تربتها الذائعة الصيت .

اذا استثنينا الطوائف المسيحية - الاقباط وسواهم - واليهودية ، رأينا ان الشعب المصري يتألف ، بنسبة تسعة اعشار ، من الفلاحين المسلمين الذين تتوقف معيشتهم على فيضان النيل

وهناك اقل من ٣٠ الف كيلومتر مربع من الاراضي الزراعية (اي اقل من مساحة بلجيكا) من اصل ٦٠٠ الف ، ويمكن تقدير عدد السكان بمليوني نسمة في اوائل القرن التاسع عشر : فتكون الكثافة ٦٠ في كل كيلومتر مربع من المساحة الضيقة الصالحة للحراثة المتكونة من الدلتا والوادي والفيوم . وليست مصر من ثم سوى اكبر واحة في العالم . فالعهود تتوالى ولستفيد من عمل المصري الشاق : والمصري يتحملها ولا يحب سوى ارضه . ولكن الارض ليست لمن يزرعها . فالاملاك الموقوفة تمثل اكثر من ربع المساحة المستثمرة ولا تنتج كثيراً . يضاف الى ذلك ان الملك ، بوصفه صاحب الارض ، يوزع الانصبة الاخرى لقاء جزية معينة ؛ وفي قطع الارض هذه المعروفة بالخراج يكون الفلاحون مسؤولين بالتكافل عن تأمين الاتاوات المفروضة وملزمين بدفع رسوم اضافية للري .

بعد مصادرة املاك المماليك ، أمر محمد علي بمسح الاراضي مسحاً جديداً . فسجل كل قطعة ، مدى الحياة ، باسم زعيم العائلة ، ولكنه احتفظ لنفسه بأملاك خاصة واسعة ووزع الاملاك الكبرى على ملتزمي جباية الضرائب و « شيوخ البلد » . وقد استهدف من وراء ذلك ان يضمن بعض المؤازرين بغية توسيع زراعة النباتات الصناعية الوفيرة الارباح . فأدى ذلك الى رأسمالية رسمية مارسها اقطاعي كبير .

لم يدخل بذلك اي تبديل على معيشة الفلاح . ولكن سعيد منحه حق التصرف بأرضه واسماعيل حق التملك الكامل لكل من يدفع مسبقاً الضرائب المتوجبة خلال عشر سنوات : واحتفظت الدولة لنفسها بحق الاستملاك دونما تعويض بحجة المنفعة العامة ، او بحق الاسترداد في حال التخلف عن تسديد الضريبة . وبالنظر الى تزايد عدد السكان بسرعة (ارتفع الى ثلاثة اضعافه خلال نصف قرن) ، تفاقم خطر تجزئة الاراضي ، وحين اقر مبدأ انتقال الملك بالوراثة بعيد السيطرة الفرنسية الانكليزية المشتركة على مصر ، حدث من جهة ان ٧٠٠ الف عائلة لم تملك اكثر من خمسة فدادين (يساوي الفدان ٤٥ آراً تقريباً) ، ومن جهة ثانية ان ١١ الف شخص ملكوا اكثر من ٥٠ اي ما يوازي الضعف (لأن بعض الاملاك بلغت بضعة آلاف الفدادين ولا سيما مناطق الدلتا المكتسبة حديثاً) . ولكن المالك الاكبر كان الدولة التي احتفظت لنفسها بزهاء ٩٠٠ الف فدان . وأتاحت المراباة لجامعي الاراضي الخراجية توسيع ثرواتهم العقارية توسيعاً مستمراً . وحين اضطر خلفاء محمد علي للاستدانة ، انتقلت املاك الدولة عملياً الى رقابة الرأسماليين الاجانب . وهكذا فان روتشلد قد ارتهن ٤٢٦ الف فدان في السنة ١٨٧٨ مقابل قرض بلغت قيمته ٨ ملايين جنيه استرليني ونصف المليون .

الفلاح هو بالتحديد من يشقى . يعد الارض بواسطة مسحاة بسيطة او محراث بدون عجلة وقلب ، ويمهدها بعارضة خشبية بسيطة ايضاً هي « الزحافة » . اما معاونوه فهم الجاموس او

الحلز . ولكن العمل الاكبر هو عمل الماء ، اذ لا غلة بدون ماء . فيتوجب على الفلاح ان يشهد لوقت حدوث الفيضان . اجل لقد تولى محمد علي امر استبدال طريقة احواض الاغمار القديمة بأقنية الري الحديثة . ولكن الفلاح ملزم ، حتى في هذه الحالة ، بعمل جماعي شاق لا يعرف الكلل . فعليه ان يراقب الاحواض والاقنية ويصلحها احيانا ، ويتعهد السدود ، ويزيل كل ما يعيق جريان الماء ، ويرفع الماء حين يكون منخفضاً ، اما بواسطة زنبيل واما بواسطة الشادوف البدائي ، وكلها اعمال منهكة . فيجمع من ثم بين هؤلاء المساكين تضامن وثيق لا سيا وان اعمال التسخير من اجل المصلحة العامة ضرورة حيوية بالنسبة لهم . يزرع القمح والفول بعد الفيضان والذرة الصفراء والخضار والنباتات الصناعية والارز في الخريف. ولا يغادر الفلاح أرضه . فهنالك بيته المصنوع من مور مجبول بالتبن ، ويستخدم في صنعه زبل البقر مكان الملاط . لا كوة فيه سوى الباب ، وهو لا يضاء ولا يدفأ بسبب الحاجة الى المحروقات . ولكن السقف المغطى بالتبن غالباً ما تلتهمه النيران . ارضه الترابية مغطاة بالحصر وليس عليها بالاضافة الى ذلك سوى صندوق للملابس . المياه الصالحة للشرب نادرة ؛ والدين والفاقة يحرمان الحرية . قوام وجبة الطعام بصل ولفت وخيار وفول وعدس وأرز ، ولا سيما خبز الذرة الصفراء الذي ينقذ مصر من المجاعة . وجلي انه نظام غذائي نباتي قليل الفيتامينات ، لا يدخل فيه حتى حليب الجاموس . ويرتدي الفلاح قميصاً قطنية طويلة بسيطة ، ويكسو رأسه بكة تعرف باللبدة ، فيدعى بسببها بأبي لبدة . ويسير حافي القدمين او يحتذي البابوج احياناً . اما امرأته المحجبة فلا ترتدي سوى ثوب واحد ، ولكنها تكثر من الحلي اللامعة . رمد العيون والبلهرسية وضعف الدم الناجم عن الديدان الطفيلية امراض منتشرة تسبب اضراراً كبرى . الملاريا والكوليرا ينتشران بين حين وآخر ؛ وهناك بعض الاماكن الموبوءة بالطاعون . وينضم السفلس الوراثي الى الضعف العضوي للقضاء على نصف الاولاد الصغار . وعلى الرغم من كل ذلك يتزايد عدد السكان ويتزايد معه البؤس .

الفلاح مسلم بعيد عن التعصب ولا يفهم لغة القرآن . يزور ضريح الولي اكثر من الجامع البعيد . يحترم الدراويش ويتصف بروح التعاون. زد على ذلك ان شظف العيش لا يجعله شكساً : فانه يهوى الغناء ويستخدم الشبّابة والمزمار ويضرب الطبل . انه سهل الانقياد وراض بتدبير الله عموماً .

مطامع محمد علي وخلفائه
السيطرة البريطانية

شبه عمرو بن العاص الشعب المصري بالنحلة التي يحكم عليها الانسان بجني العسل من اجله . وسوف يتكلم الانكليز عن الضحية الدائمة لمنطق العصا . وفي اوائل القرن التاسع عشر جاء محمد علي الذي أراد بدوره استخدام البلاد لبلوغ اهداف كبرى .

اثرى في تجارة التبغ ، وكان امياً وفطناً وعادم الضمير . ثم اعترف السلطان بباشويته على

مصر فقتل المماليك على ايدي الباني، وما لبث ان أبعد الالبانيين السجين بدورهم . وجند بعد ذلك جيشاً من بين الفلاحين واسند امر تدريبهم الى بعض المدربين الفرنسيين وابتغى السيطرة على الشرق . وكان بصيراً وقاسياً فاقتبس عن اوروبا تقنياتها ودغدغ شغفها بالتاريخ المصري والآثار المصرية ، وسخر لمرض تعاظم لا حدود له ارادة استبدادية على غرار بطرس الاكبر .

ما كان احد في الحقيقة لينكر ان العجز التركي أوقع البلاد في حالة يرثى لها. فالاسكندرية ليست آنذاك سوى ميناء صغير لا يتجاوز سكانه ٨ آلاف نسمة . ولما كان الباب قد احتفظ لنفسه بالمرفأ القديم القادر وحده على ايواء السفن ، فقد بقيت السفن الاوروبية خارجه معرضة للرياح العاصفة . وتعرض تجار الغرب ، المجموعون في مكان واحد ، لألف ظلم وظلم ؛ ولكن الفرنسيين تمتعوا مع ذلك ببعض الامتيازات . اجل كان من شأن عظمة الابنية الفاطمية والايوبية والمملوكية ان تترك اثراً عظيماً في الناظر اليها : ٤٠٠ جامع بعضها اجلها في الاسلام ، جامعة الازهر الدينية الدائمة الشهرة ، المكتبة الفنية الضامة مخطوطات قديمة للقرآن ، كلية قصر العين الطبية . ويضاف الى هذه الابنية شوارع مليئة بالنضارة ، وتجار وصناعيون يدويون كثيرون؛ على ان اشكال النشاط قديمة العهد .

ان ما حلم به بونابرت ، وما نوى السانسيمونيون تحقيقه، قد رسمه محمد علي رسماً ايجازياً: برنامج اعمال كبرى خليق بالفراعنة . لم يبال بحياة الرعايا بل طلب منهم الاسهام في عمله وأراد ان يجعل من مصر ارضا توفر لصندوق ماله الدخول الوفيرة . عالج مسألة الري الرئيسية التي وجب برأيه ان تكون منظمة لا متروكة لأهواء الطبيعة . فنفذ جيش الفلاحين الزهيد النفقات تصاميم المهندسين الفرنسيين من امثال « لينان » و « موجيل » ، ونقل ١٠٤ ملايين متر مكعب من التراب ووضع مكانها ٣ ملايين متر مكعب من الحجارة المبنية . وعلى الرغم من التخلي عن مشروع سد عند الدلتا بعد جهود عشر سنوات ، اتسعت مساحات زراعة الحنطة والارز ، وأخذت البلاد ، بصورة خاصة ، تجني القطن المعروف بقطن « جومل » ،وقصب السكر ، والنيلج والزيوت ، المعدة كلها للتصدير . ولكن شيخ البلد والمدير الاقليمي والكتبة الاقباط في الوزارات صرفوا الذهن والفطنة في تحصيل كل ما يمكن بيعه في الخارج من الفلاح . أما الارباح التي وفرتها النخاسة ، فلم تكن مستهانة ايضا .

أنفق قسم من الموارد على تجميل القاهرة وتنظيم الاسكندرية وبناء قناة تصل هذا المرفأ بشعبة النيل اليمنى . وكان الجيش والاسطول موضوع عناية واهتمام خاصين . ولكن أحلام التوسع العظمى لم تتحقق . وقد توفي الباشا شبه معتوه بعد أن سير مصر على طريق نهضة لم يستفد منها الشعب الذي عومل معاملة قاسية لم يعرفها من قبل ، ولن تتم الا في عهد الوصاية الاوروبية .

اذا صرف سعيد واسماعيل النظر عن مطامعها في سوريا والجزيرة العربية وقبرص (لأن مدعياتها استهدفت السودان وافريقيا الشرقية) ، فان احلام العظمة ما زالت تراودها . ولكن السلالة غرقت في الديون أثناء فتح قناة السويس التي أضفت على مصر اهمية جديدة . وقد برهن سعيد عن بعض التساهل الديني ، ومنع الرق – اقله مبدئياً – وحظر العقوبات الجسدية، وحد من تجاوزات شيوخ القرى ، ولكن التقدم الاقتصادي لم يفد الفلاح كما لم يبرر النفقات المفرطة . وقد اطردت هذه الاخيرة في عهد اسماعيل الذي حصل من السلطان على لقب الخديوي واعتقد ان ذلك يسهل له الاستدانة من اوروبا . اجل لقد اقرت بعض المشاريع المجدية (كبناء الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة مثلا) . ولكن كم من انفاق مفرط مخالف الصواب الى جانب ذلك ! ألم يفكر هذا الامير بأن تدرب جيوشه امام قصره في الاسكندرية على ارضية حديدية حتى لا يزعجه الغبار المتطاير ؟ فمن جهة خرجت بور سعيد من الرمال ، وظهر الغاز في المدن ، وتأسست صناعة سكرية ، ونمت زراعة القطن ، ومن جهة اخرى ابتز الموظفون المتدنية اجورهم اموال الفلاحين ابتزازا لم يسبق له مثيل في الماضي ، وبات افلاس الاموال العامة أمراً محتوماً .

بقيت مصر توفيق وعباس حلمي مرتبطة بالباب بروابط التبعية الاقطاعية ، ولكنها اصبحت في الواقع تحت رقابة البريطانيين الذين أقاموا ، بأمر « بارنغ » (اللورد كرومر) ، حامية عسكرية دائمة ، وأداروا الشؤون المالية ، واستولوا على الجمارك والشرطة والخدمات الصحية ، وأعادوا تنظيم الجيش لمصلحتهم . فأرسخ الفاتح من ثم سلطته في السويس واستطاع تبني سياسة القاهرة لحسابه الخاص في وادي النيل الاعلى .

أما الفلاح ، فالمسألة التي عنه هي معرفة ما اذا كانت احواله ستتحسن بفعل استثمار يتحقق بهمة ونشاط لم تعرفهما مصر من قبل .

الوصايات الثلاث في الجزائر وتونس وطرابلس

حين يتجه المرء المغادر مصر من واحة سيوا نحو الغرب ، يدخل في بلاد البربر الممتدة حتى الاطلسي .
نشأت عن الفتح التركي وصايات الجزائر وتونس وطرابلس ، بينا توقفت سلطنة مستقلة في مراكش الى تثبيت اقدامها تثبيتاً متفاوت القوة . ولكن هذه البلدان الاربع خضعت خلال القرن التاسع عشر ، الواحدة تلو الاخرى ، لسيطرة الدول الاوروبية .

ومن غرائب المناقضات ان وصاية طرابلس هي آخر ما خضع لها من بين الوصايات الثلاث . فبين دلتا النيل والمغرب تتصل الصحراء الكبرى بالمتوسط ، مما اسهم في نمو طرابلس المعتمدة في معيشتها على القرصنة وعلاقاتها بالسودان التي اتاها منها الجمالة ناقلو الذهب والملح ومراكب قوافل العبيد . وطرابلس المتميزة باسواقها الناشطة ، قامت في مكان « اويا » القديمة وضمت حياً يهودياً هاماً وقذراً ، وعدداً كبيراً من المالطيين والطوارق والزنوج . وفي السنة ١٨٣٥ ، آثر

الطرابلسيون ، امام خطر قبيلة اولاد سليمان المحرابة ، التي بسطت نفوذها بين الساحل والا «فائم» التشادي ، استدعاء الاتراك ثانية ، لا سيما وان سلطتهم كانت سلطة اسمية فحسب . فبذل هؤلاء وسعهم في السيطرة على المناطق الداخلية ، واستولوا على واحتي غدامس وفزان ، ثم انشأوا ولاية بني غازي . وكان مقدراً لهذه الوصاية ، ربما بفضل فقرها بالذات ، ان تبقى عثمانية حتى السنة ١٩١١ ، تاريخ التدخل الايطالي المتأخر فيها .

بيد ان المغرب (جزيرة الغرب) الذي يضم الجبال القائمة بين المتوسط والاطلسي والصحراء لم يصلح يوماً لان يكون اطاراً لدولة واحدة . فكل ما في طبيعة ارضه ومناخه وطرائق المعيشة فيه قد اعده للتقسيم والتجزئة . وسوف يتوجب ان تفرض دولة اوروبية وجودها حتى تعرف افريقيا الصغرى هذه بعض الوحدة السياسية والادارية : فجاءت السيطرة من الخارج كما حدث في الماضي .

ما زالت الجزائر وتونس تعترفان بالخضوع للباب العالي . ولكن الموارد التي توفرها القرصنة كانت سائرة في طريق الزوال . فلم يكن « داي » الجزائر من ثم خاضعاً لمعاونية القراصنة او « طائفة الرؤساء » خضوعه لفرقة الانكشارية او « الاوجاق » ، كما ان باي تونس قد استند الى البورجوازية التجارية ، اكثر البورجوازيات طابعاً عربياً في المغرب ، التي كان يهمها الاحتماء من غزوات البدو . فقد بدا الحفصيون ثم الحسينيون في افريقيا امراء سلالات على بعض القوة . اما الداي ، الذي قال عنه مؤرخ اسباني انه « ملك عبيد وعبد رعاياه » ، فكان اداة في يد الجيش . فبالنظر الى توليه السلطة اما عن طريق الدسيسة واما عن طريق القوة ، ولما كان بالاضافة الى ذلك جاهلاً وتابعاً هواه ومتملقاً لجيرانه (ولذلك لن يعد له بد المساعدة لا باي تونس ولا الشريف المغربي في السنة ١٨٣٠) ، فلم يتمتع بسلطة كافية لنشر الامن والنظام في الجزائر .

تتميز الجزائر بالتنوع بسبب اتساع رقعتها . فمن الطبقة العسكرية التركية والنساء البلديات انحدر الا « كولوغلي » الذين يؤمنون الحراسة في حصون المدن ويتملكون بعض البساتين ؛ يحتقرون البورجوازيين والصناعيين البلديين ويثيرون خوف وحفيظة سواهم . ويتعاطى المغربي او الاندلسي على العموم حرفاً تتطلب بعض الذوق ، بينما يتعاطى الزنوج ، المحتقرون غالباً ، اعمال البناء المختلفة . ويزاول المزابيون ، المعتبرون كخوارج ، لتجارة الاقمشة والمواد الغذائية ، ولكنهم نادراً ما يستقرون في مكان معين ، بل يعودون الى مزاب بقصد جمع الثروة . اما الاسرائيليون سكان المدن فيؤلفون جماعات مستقرة ، ويبلغ عددهم زهاء عشرين الف نسمة منهم ٦٠٠٠ في مدينة الجزائر نفسها و ٣٠٠٠ في قسنطينة ، وينحدر جلهم من اصل بربري ؛ ولكن عدداً كبيراً منهم ينحدر كذلك اما من اصل عبراني آرامي واما من اصل اسباني . ويتوجب عليهم ارتداء زي خاص والاقامة ، على العموم ، في احياء منفصلة . ويعانون من

المظالم وحتى من اعمال العنف . وهم فقراء الحال بصورة عامة ، ولكن بعضهم يتعاطون تجارةرابحة ويلعبون دور الوسطاء المفوضين مع الاجانب .

اما سواد السكان فيتألف من خليط من العرب والبربر الموزعين على غير تساو بين المدينة والريف . اجل ان المدينة ، التي تحيط بها الاسوار بصورة عامة وتشرف عليها القصبة وبعض المآذن ، تبدو وكأنها مركز ثقافة عربية ؛ ولكن العنصر البربري متفوق في الاسواق . زد على ذلك ان المدن المعتبرة « حضرية » لا تتجاوز العشر عداً .

لا يزال التضاد قائماً بين البدوي الذي ترتبط حياته بانتقال القطعان من منطقة الى منطقة وبين الحضري او شبه الحضري . الجفاف عدو الجميع في كل مكان . والانسان يسيء مقاومته لانه غطي وقدري ولا يستخدم سوى محراث مزود بباسنة صغيرة بدون سكين ومقلب ، وكأنه مجرد كلاب يجره الحمار او الحصان او الثور ؛ يحصد بواسطة المنجل ، وينظف الحبوب من التبن بواسطة المذراة ، ويجمع الحبوب في المطامير . اجل انه يعتني بحدائقه وبساتينه . ولكنه لا يتقن تربية المواشي ويجهل امر سكناها في الزريبة ويقدم لها الاعشاب التي تنبت بفضله تعالى . وغالباً ما يحدث ان تموت الابقار والاغنام جوعاً باعداد كبرى . وتسبب الحروب الاهلية والثارات بخسائر توازي تلك التي تسببها الكوارث الطبيعية . وباستطاعتنا كذلك ان نرد الى الفوضى والاهمال سوء الحالة الصحية في السهول الساحلية .

الف الناطقون باللغة العربية مجموعات متراصة في جبال قابيلية واوريس وبين سنوسي منطقة تلمسن ، ولكن تعلمهم اللغة العربية وارتدادهم الى الاسلام لم يقضيا على عاداتهم القديمة . فقد قابل الشرع الاسلامي العادة المحلية : وهكذا فان قبائل قابيلية لا تخضع الا لقوانينها؛ وحتى اذا تجمعت العائلات المتصاهرة لتؤلف « الدوار » عند الرعاة و « القصار » في القرية ، فان هذين التجمعين لا يرتديان قط طابع الديمومة .

عجزت حكومة الوصاية عن تنشيط اقتصاد البلاد ، فلم تهتم الا لجمع الدخول . وقد تامنت لها الواردات بفضل الجمارك والمقايضات مع الخارج . وقد باع الداي الاصواف بواسطة يهود ليفورنو عقداً كبرا يوازي ٣٠٪ ويرتفع حتى ٥٠ ٪ حين يضاف اليه كسب التجار ؛ وقد اشتري هكتولتر الحنطة من المنتج بسعر يتراوح بين ٣ و ٨ فرنكات وبيع بسعر يتراوح بين ١٨ و ٢٠ في اوروبا . اضف الى ذلك ان الضريبة تفرض على القبيلة « الرعية » بالتخلي للحكومة عن بعض الحصاد والماشية ؛ وتجمع هذه الضريبة على يد قبائل تعرف بالمخزن وتقوم بعملها مقابل تخفيض الرسوم المفروضة عليها وحتى اعفائها منها، وبمساعدة الحاميات العسكرية . واذا احتفظ الداي لنفسه بادارة منطقة مدينة الجزائر (ملكه الخاص) ، فقد فوض بسلطاته الى بعض البايات في مناطق وهران وقسنطينة وميديا . وبديهي ان الامور لم تجر بدون صعوبات . فان باي قسنطينة ، الكرولوغلي الحاج احمد ، قد لقي الاهانة والخوف في كبار

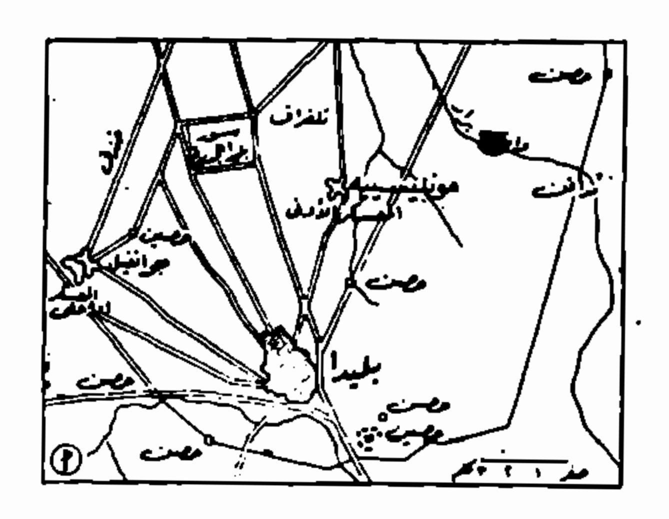
الاقطاعيين المدعين الانحدار من الفاتحين العرب (ارستوقراطية الدم الازرق)، ولكن الداي محمد بن عثمان لم يستطع اخضاع قابيلة (وسندوم الاسطورة القابيلية طويلا). اما في منطقتي وهران وتتري ، فقد ساندت فاس بعض الجمعيات التي تنازعت النفوذ فيها : فبينما نادت بعض الجمعيات الدينية المتميزة بروح ديموقراطية ، كجمعية الدركاوة ، بالثورة على السيطرة التركية، برز في الارستوقراطية المتصوفة زعماء تاقوا الى تخطي النظام القبلي وسموا وراء السلطنة ، ومن اشهر هؤلاء الزعماء عبد القادر الذي سار على خطى الامراء العرب . وقد استغلت القوى الروحية الاستياء العام الناجم عن البؤس ، قبل ان يستطيع الفرنسيون الاستفادة من الخلافات. وان عبد القادر لمدين بقسط كبير من شعبيته الى الغاء الضريبة العينية التي سبق ووعدت بها ثورة دركاوية . وجملة القول ان القبائل الرعايا كانت ترتقب اول فرصة للتحرر من نظام جائر . ثم جاء الفتح الفرنسي في وقته المناسب حين وجد السبيل ممهدا .

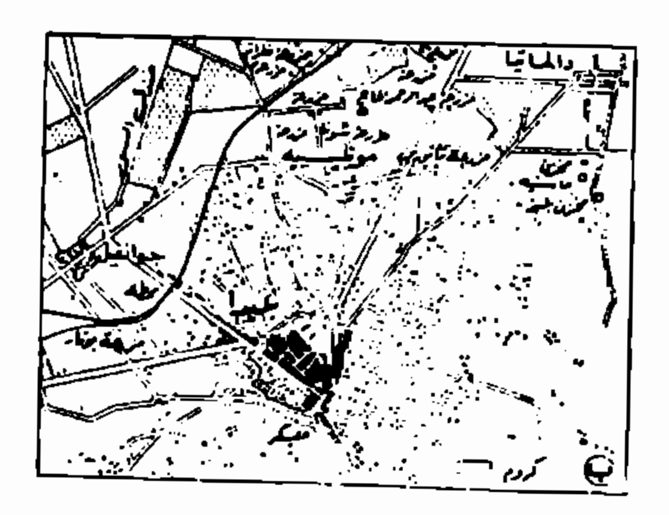
عمل الفرنسيين في الجزائر

بسبب جهل الاماكن واللهجات ، خضعت الحملات الاولى على الجزائر لعامل الارتجال ، وساد الاعتقاد بان الاتفاقات مع الزعماء المحليين - احمد في منطقة قسنطينة وعبد القادر في منطقة وهران - ستكون كافية لضمان احتلال جزئي ؛ يضاف الى ذلك ان الرأي العام لم يكن مستعداً للتسليم بتضحيات كبرى . ولكن الحاجة مست بعد قليل الى حماية المهاجرين المستعمرين في منطقة التل ، كما مست ، امام عبد القادر الاريب والخطر ، الى الاستيلاء على كل شيء خوفا من فقدان كل شيء. فكانت الحرب الكبرى مع ما تخللها من غزوات واعمال عنف وقد تولى عملياتها ضباط تمودوا ظروف القتال في افريقيا . وسهل عمل الفرنسيين فقدان الروح القومية وفشل التعبئة الدينية ، اي الاختلافات بين المسلمين . واذا لم تتحقق التهدئة النهائية الا بعد مرور زمن طويل ، فان اضطراب السنة ١٨٦٥ وثورة السنة ١٨٧١ الخطيرة لم يكونا خطرا على السيطرة الفرنسية . وسوف يصبح بمقدور الاحتلال بعد ذلك التوسع تدريجيا في كافة المناطق الداخلية والسير على طرق القوافل عبر الصحراء .

اقتنع الجيش شيئاً فشيئاً بان الجزائر انما هي عمله وتحقيقه ، ومن جهة ثانية بان السلطة العسكرية وحدها قادرة على ابقاء فرنسا فيها . ولم يسلم « بوجو » يوماً بان راي المدنيين يجب ان يتقدم رأي العسكريين، وعارض استثمار البلاد على يد مهاجرين احرار في التصرف كما يطيب لهم التصرف ، او على يد رأسماليين يقتطعون منها او من دخول سكانها ما يطيب لهم اقتطاعه . وبالمقابل درج الفاتحون شيئاً فشيئاً على تعيين او تثبيت الزعماء البلديين في مراكز المسؤولية مفوضين الى تدبيرهم امر جباية الضرائب ، فسهلوا بذلك استمرار نظام اقطاعي تناوله بالنقد المطالبون بنظام مدني .

لما كان الاستعمار الاسكاني قد بدا ممكناً منذ البدء ، فقد تقابل منذ البدء عالمان مختلفان





الشكل ٢٥ ـ مثال عن الاستعمار الاوروبي . بليدا ومنطقتها

أ ـــ بليدا في السنة ١٨٤٤ ، حين وضع الجيش يده عليها ،
ب ـــ بليدا في اوائل القرن العشرين بعد استثمار الزارعين والكرامين لاراضيها .
(نقلا عن « ج. فرانك » في كتابه « استعمار المتيجه » ص ٢٤٩ و ٥٦٤) .

ولكن استيطان الفرنسيين لا يمكن ان يتحقق الا على حساب البلديين . والحال لم يفكر أحد بتمه ، حتى ولا « بوجو » الذي كان يحلم بجنود فلاحين على غرار الرومان . فسارت الامور على غير هدى ، وفاقاً لحاجات الساعة او لاتفاق الآراء السائدة . وقد هاجر، اثناء الاعمال الحربية، بعض المساكين الذين أقاموا على مقربة من مدينة الجزائر ، وبعض المضاربين الذين اشتروا بغية تحقيق الارباح عند البيع ، وبعض هواة الاختبارات الزراعية الكبرى . ثم تسببت ازمة السنة ١٨٤٨ في هجرة عدد كبير من العمال ، وتبنى المجلس التشريعي مبدأ انزال الجنود في المنازل والاحياء الآهلة الذي يتيح اغتصاب اموال البلديين بموجب القانون. واذا أعرب نابوليون الثالث عن رغبته في حماية القبائل ، فان ذلك لم يمنع الامبراطورية الثانية من اطلاق حرية العمل للرأسماليين الذين حصلوا على امتيازات واسعة : هذه هي سانسيمونية الاشغال العامة الكبرى، التي توفرت لها وسائل مالية عظيمة ؛ ولكن سد « هبرا » قد انهار ، والشركة الجزائرية العامة أعطيت ١٠٠٠٠٠ هكتار دون اي تعهد من قبلها. فتثرت همة صغار المهاجرين المستعمرين فترة من الزمن ، ولكنهم استعادوا التفوق ابتداءً من السنة ١٨٧١ : فتوزع خلال عشر سنوات اكثر من ٤٠٠ الف هكتار . ثم بطؤ الاستعمار الرسمي . أضف الى ذلك من جهة ثانية ان الاتجاه نحو توسيع الانصبة التي بلغ معدل مساحتها الى ٢٥ – ٤٠ هكتاراً ثم ٦٠ – ٧٠ هكتاراً ، ثم ٢٠٠ هكتار . فعاد الى الاملاك اعتبارها بعد أن تأمنت لها رؤوس اموال وفيرة وتقنية متكاملة : وبعد عهد الاستعمار الديموقراطي في اوائل عهد الجمهورية الثالثة دخلت البلاد مرحلة رأسمالية زراعية صادفت في الزمن توسيع الاسواق للمحاصيل الكبرى كالخمور مثلاً .

لم تتحقق لسمري تقديرات « بريفو - بارادول » بأن افريقيا الشمالية قادرة على استيعاب ١٥ الى ٢٠ مليون فرنسي حوالي السنة ١٩٣٠ . ويرد ذلك الى ان الجزائر لم توفر للاستعمار الاوروبي الظروف المؤاتية نفسها التي وفرتها له كندا او ارستراليا . وحتى السنة ١٨٥٦ ، كان من ارتفاع نسبة الوفيات بسبب الحميات وسوء الحالة الصحية ان عدد الموتى بين المهاجرين كاد يوازي عدد الداخلين الجدد منهم . ففي السنة ١٨٤٩ فتك وباء الكوليرا بالسكان فتكا ذريعاً . واننا نذكر هنا على سبيل المثل ان سكان « بوفريق » قد تجددوا ثلاث مرات . غير ان بعض التحسن طرأ بعد السنة ١٨٦٠ ، فتضاعف عدد الاوروبيين بين السنة ١٨٥٦ والسنة ١٨٧٦ . وكانت نتيجة مرسوم « كريميو» لمصلحة اليهود وقوانين تجنس الاجانب تكوين قومية جزائرية حقيقية، شبيهة بالقومية الفرنسية ، ولكنها تعي مصالحها الخاصة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاوروبية قد اقاموا في المدن اكثر من الارياف ، فشيدت احياء جديدة في مدينة الجزائر ووهران والمدن الرئيسية الاخرى . وأنجب الاسرائيليون اولاداً كثيرين ، وحرصوا على تعليمهم واعتمدوا الزي والعادات الاوروبية ؛ وتعاطوا تجارة العقارات، ولكنهم احرزوا النجاح في الصناعة اليدوية واتجهوا طوعاً نحو المهن الحرة .

الا ان عدد المسلمين ارتفع ارتفاعاً سريعاً جداً فبلغ ٠٠٠ ٥٠٠ ٢ حوالي السنة ١٨٥٠؛ وحين تدنى حتى ٠٠٠ ١٠٠ ٢ في السنة ١٨٧٢ ، اعلن البعض ان الشعوب المتخلفة تنقرض امام الشعوب المتفوقة ؛ اما الحقيقة فان مرد هذا النقص هو انتشار المجاعة والتيفوس في السنة ١٨٦٧ واندلاع ثورة السنة ١٨٧١.فقد قفز عددهم الى قرابة٣ ملايين في السنة ١٨٨١ والى ٠٠٠ ٨٠٠ ٤ من أصل ٠٠٠ ٥٥٠ ٥ في السنة ١٩١١ .

لم يتطور جمهور المسلمين تطوراً يستحق الذكر . ولم يستفد استفادة كبرى من مؤسسات الحماية والتربية ؛ زد على ذلك ان اول مستشفى بلدي لم يفتح ابوابه الا في السنة ١٨٩٤ . وقد فتكت الامراض بأعداد كبيرة منهم كل سنة ، لا سيما التدرن الرئوي والسفلس اللذان يبدو في الحقيقة انهما زادا انتشاراً منذ مجيء الفرنسيين . ولا شك في ان التعليم في المساجد والمدارس والزوايا كان دينيا فحسب ، ولكنه كان يتيح للأولاد تعلم القراءة؛ فجاء الاسياد الجدد واستولوا على الاوقاف وقضوا على هذه المؤسسات . ولم تعط تجارب المدارس العربية الفرنسية نتائج مشجعة . وبسبب عدم توفر الموارد والمدرسين لم تؤمن قوانين « فري » للمدارس العامة البلدية سوى بضعة آلاف من التلامذة ؛ اضف الى ذلك أن التعليم المقترح لم يوافق دائماً الاوساط البلدية . واذا وفرت البلاد للفرنسيين حقلا غنيــاً للدرس والملاحظــة وحصاداً وفيراً للمواضيع الادبية ، فان الفن الاسلامي ، بالمقابلة ، مـا زال يتقهقر تقهقراً مطرداً : ارتسم اسلوب هندسي فرنسي جزائري للابنية العامة ومقاصف المهاجرين المستعمرين ، ولكن قصر احمد ، باي قسنطينة ، كان خاتمة الابنية البلدية بحسب النمط التركي الجزائري . اما الفنون الصغرى ، المزدهرة جداً من ذي قبل ، فقد تأثرت بزوال القرصنة ، ثم عرفت ازمة خانقـــة لا علاج لها بسبب المنافسة الاوروبية وارتداد البداوة الى الوراء . فالنجاحات التقنية تقضي على النشاطات القديمة قبل تحسين وضع المتخلفين . وهكذا فأن المجتمع الاسلامي قـــد قايض الطنفسة بالسرير الزهيد القيمة ؛ وحلت الشمعة محل السراج الخزفي ؛ وفقـــدت علب البارود المنقوشة مبرر وجودها حين اصبح من السهل شراء الفشك ؛ وهبط عدد الزوجات بفعل تبسيط اعمال المنزل ؛ فندرت في الوقت نفسه اليد العاملة اللازمة للحرف العائلية .

في المدينة عاش الكولوغلي والمغربي في ضيق ولم يتكيفا . اما البربر والعرب الذين اعتمدوا في معيشتهم على التيارات التجارية القديمة فقد خسروا الكثير بفعل الفتح الفرنسي الذي اوجد تيارات جديدة واسواقاً جديدة . فالتداول النقدي الوفير قـــد حل محل المقايضة واحدث انقلاباً في اسعار الحبوب والاصواف . وكيلت ضربة شديدة جـــداً لارستوقراطية الاشراف والزعماء والقادة الذين ثبتتهم فرنسا في البدء في سلطتهم ، والذين بلغوا ذروة نفوذهم في ظـــل « المملكة العربية » في عهد الامبراطورية الثانية ؛ فلم يفقد الزعيم القـــديم نفوذه فحسب ، بل فقد ثروته ايضاً بفعل الاقتصاد الجديد . وكان فقدان الاراضي بفعل تزايد عـــدد السكان اشد خطراً من كل شيء آخر.فقدخضع مليونا هكتار على الاقل لنظام القانون المدني. ولا عجب

من ثم اذا ما هاجر العديد من الرعاة خيامهم بسبب عجزهم عن تحسين تربية مواشيهم؛ ولا عجب كذلك اذا ما هاجر القابيليون بعد هزيمتهم في السنة ١٨٧١ وتعاطوا الاعمال المأجورة او المشاركات الزراعية . وغني عن البيان ان هذه المهاجرات قد فككت بيئة مغلقة كل الاقفال واسهمت في استرخاء الروابط العائلية . ولكن شطرا من السكان المسلمين تعود الاساليب الجديدة ، فأحسن العناية بالاشجار والمواشي ، وزرع البطاطا ، واستفاد من زراعة التبغ وبيع الاثمار . اما سوادهم الاعظم فما زال يعيش عيشة زرية .

يجب الاعتراف ، على الرغم من كل ذلك ، بأن الوجود الفرنسي قد اوجد بلاداً جزائرية جديدة . اجل ، ما زالت الاحوال سيئة في اوائل عهد الامبراطورية الثانية ؛ فالمهاجر المستعمر ، المفتقر الى الموارد ، يعيش في ضيق ويعاني من نظام حماية لا يسلم باعتبار المحاصيل الجزائرية محاصيل فرنسية ؛ وانتاج الحبوب في تقهقر مطرد ؛ ولم يزل خطر وهم مزروعات المناطق الحارة ، ولا سيا القطن ، الا في السنة ١٨٧٠ . ولكن القانون الجمركي الذي صدر في السنة ١٨٥١ مثل المستعمرة بالوطن الام . فتأسست شبكة مصرفية . وفي السنة ١٨٦٠ دشن اول سد لتخزين المياه . ويجدر القول هنا ان سدود التخزين ، التي فضلت بعناد على سدود الاسالة حتى السنة ١٨٨٧ ، قد خيبت الآمال . الا ان الانطلاقة باتت حقيقة واقعة عشية ازمة السنة ١٨٦٨ الرهيبة : فقد قابل تدفق المهاجرين الجديد تقدم سريع في توسيع المساحات المكرسة لزراعة الحنطة والبواكير وشجر الزيتون ؛ ودبت الحياة في التجارة بفضل الخطوط الحديدية والطرقات . وحوالي السنة ١٨٨٠ توسعت عملية القروض الزراعية وأدخلت الدرّاسات الآلية .

في هذه الاثناء أصبح اتفاق الظروف غير موافق لزراعة القمح التي مرّت في فترة توقف . زد على ذلك ان الجزائر اكتشفت مستقبلها في زراعة الكرمة . وقد برز الشغف بالزراعة الجديدة في اعقاب ازمة بيع اولى حصلت في السنة ١٨٩٣ ؛ فاحتلت الكرمة ١٥٠٠٠٠ هكتار في السنة ١٨٩٩ . وهكذا فعلى الرغم من عدم اهتمام المجتمع الاسلامي بالكرمة الا من أجل العنب فقط ، ضحّت البلاد بتربية المواشي واهملت الحبوب ، مع ان هاذين القطاعين حيويان جداً من وجهة النظر البلدية .

وفي عهد مبكر استرعت ثروات باطن الارض انظار الوطن الام والرأسماليين ؛ فدفع معدن الحديد الى تأسيس شركة « مُقتني الحديد » ؛ ثم بوشر في الجوار استثمار الفوسفات . فاسهمت هذه الصناعة الاستخراجية في موازنة المقايضات في منطقة تفتقر الى التجهيز وتستورد كافة الادوات المصنوعة تقريبا .

ولكن السؤال الذي بقي بدون جواب هو معرفة ما اذا كانت فرنسا ستعتبر الجزائر كمجرد امتداد لاراضيها الخاصة . فان الجزائريين الفرنسيي الأصل والجزائريين المتجنسين ، وهم فرنسيون حقاً ، قد تمتعوا بحقوق المواطنية الفرنسية . ولكن ما هي حقوق المسلمين يا ترى ؟ ثم هل يقبل

الجزائريون بأن تدار شؤونهم في باريس ؟ لذلك فان تاريخ نظــام الجزائر السياسي والاداري يفسر الصراع ، الدامي أحياناً ، بين النزعات المختلفة ، دون ان تتغلب احداها ، في يوم من الايام ، تغلباً لا مراء فيه . اجل ان المسافة بعيدة بين « المملكة العربية » والنظـــام المعروف بنظام الارتباطات ، وبين نوع من الاستقلال الذاتي والتمثيل ؛ ولكن الاستقلال الذاتي لم يكن يوماً حكماً ذاتياً ، كما ان التمثيل لم يستهدف البتة الجماهير الاسلامية . وبعد ثورة السنة ١٨٩٨ الفاشلة ، المعادية لليهود والمطالبة بالاستقلال الذاتي ، ساد شيئاً فشيئاً نظام التفويضات الذي منح المهاجرين المستعمرين مزيداً من الحقوق والحريات وابقى البلديين في وضع اجتماعي متدن . اما هذه الحالة التي ارادها الجزائريون الفرنســيون ، وهم اقلية ناشطة وهيئة انتخابية كبرى ، فقد وافقت مصالح الحكام في الوطن الام .

الحماية الفرنسية على تونس

هل ستستفيد فرنسا من اختبارهــا في الجزائر حين تسمح لهـــا الظروف باخضاع وصاية تونس بدورها لسيطرتها ايضاً ؟

ان البايات الحسينيين الذين قامت بينهم وبين الفرنسيين ، جيرانهم منذ سقوط الجزائـــر ، علائق صداقة وحسن جوار ، كانوا مصممين في الوقت نفسه على مواصلة العمل الاصلاحي الذي بدأه الحفصيون . فبعد ان ألغوا الرق وحرروا اليهود ، حاولوا توسيع منطقة الاحتلال او «بلاد الترك » واخضاع منطقة الانشقاق او « بلاد العرب» ووضعوا يدهم على مناطق طرق المواصلات واقطعوا مناصريهم بعض الاراضي ، واقاموا علائق طيبة اكثر استمراراً بينهم وبين البلدان المتوسطية الاخرى وشرعوا في تجهيز مرفـــأ تونس ، ومارسوا على العموم سياسة عطف على بورجوازية المدن ، ولكنهم سلكوا كذلك طريق الانفاق المفرط والاستقراض . اضف الى ذلك ان بعض الاجانب الاوروبيين والمسلمين ، كالخزندار اليوناني مصطفى والشركسي خير الدين ، قد حرّضوهم على الاصلاحات والاشغال الباهظة الاكلاف . ولكن ميثاق السنة ١٨٥٧ الاساسي الذي استوحى اعلان حقوق الانسان وقضى باحداث مجلس استشاري يضم بعض الاعيان ، لم يمنع زيادة الضرائب والمجاعة ، بالاضافة الى وباء الكوليرا ، من تمهيد السبيل لازمة خطيرة . فان محمد الصدوق ، الذي لم يبق امامه سوى عقد القروض الجديدة والافلاس ، قد خضع لسيطرة بعض الدول التي حركها الدائنون الجازعون ورجال الاعمال الطماع . فاختار فــرّي صيغة « السيد المحمي » المؤازر في ممارسة وظائفه . أي ان الادارة البلدية بقيت ، ولكن المقيم العـــام ، الذي تعينه فرنسا ، كان المشرف على كل شيء ، ووزارة الخارجية الفرنسية ، تمثل الوصاية القديمة في النطاق الدولي . وغني عن البيان ان الشراكة لم توجد المساواة بين الشريكين ؛ فلقــد أمنت مصلحة الدولة الحامية التي لم يخضع مواطنوها لقوانين البلاد . أما ليوتي فيفاخر بنظـام « لا يلغي مناصب الحكام القدامى ، بل يتيح « استخدامهم » . وفي المؤتمر الاستشاري الذي تأسس في السنة ١٨٩٦ أمّن الفرنسيون لأنفسهم رجحان السلطة والنفوذ .

اكد كليمنصو أن الهدف الاول هو « فتح الوصاية اقتصاديا » ، وسلم فري بأن تونس يجب

« أن تعتبر ، حتى اشعار آخر ، مستعمرة لرؤوس الاموال » . والواقع هو أن الحماية قد استهدفت تنمية البلاد بدلالة المصالح الفرنسية . فشقت بعض الطرقات وربطت شبكة الخطوط الحديدية بالشبكة الجزائرية . ولكن فوسفات الساحل لم يستثمر الاستثمار الا في السنة ١٨٩٥ ، وخصصت قاعدة بنزرت العسكرية بالاعتمادات نفسها التي خصصت بها المرافىء الاخرى : فخلال السنوات الخمسة عشر الاولى لم يقدر أحد سوى الاهمية الستراتيجية والامكانات الزراعية في الولاية الافريقية القديمة . ولم يحل تسجيل الاراضي في سجلات الحكومة واصلاح الملكيات الوقفية دون قيام املاك كبرى على غرار « انفيدا » التي باعها خير الدين من الشركة المرسيلية . وقد لوحظ ، بعد مرور عشر سنوات على توقيع ميثاق الحماية ، ان الفرنسيين كانوا يتملكون ٤٣٣ الف هكتار سجل ٤١٦ الفاً منها على اسم ١٦ ملاكاً فقط : فان صغار المهاجرين المستعمرين لم تستهوهم الاملاك الواسعة ، والبلديين خشوا عملية التسجيل . لا بل اصبحت الارض الزراعية نادرة بينما تزايد عدد السكان تزايداً سريعا . فمنذ السنة ١٨٩٠ عُمِل بعقد المغارسة لزراعة شجر الزيتون . وكما حدث في الجزائر تقدمت زراعة الاشجار المثمرة على زراعة الحبوب ، لاسيما وأن الكرمة أخذت تنتشر بسرعة . ولكن البعض افضعجهم عدد الفرنسيين الزهيد (٢٤ الف مهاجر مستعمر او موظف يقابلهم ٧١ الف ايطالي ، على زهاء مليوني نسمة) ؛ وقد استحصلت روما في السنة ١٨٩٦ على بعض الامتيازات لرعاياها .

اذا عرفت تونس الهدوء ، فانها لم تتطور قط . فالبلدي فيها لا يزال يعيش حياة فقر وحاجة ، بسبب تعرضه للمحول وتأثره بتقهقر الحرف الصغرى . ولكن نخبة بلدية محدودة تهذبت في المدارس الاسلامية وفي المعهد الصادقي الذي فتح ابوابه في السنة ١٨٧٥ . ودرست اللغة الفرنسية كلغة اجنبية في المدارس الفرنسية العربية ، ولكن هناك عدداً من المؤسسات الكاثوليكية والكليات العلمانية . اما الخدمات الصحية فغير مرضية .

يبرز التناقض في العاصمة بين الشوارع الجميلة في المدينة الجديدة وتيه الشوارع الضيقة القذرة التي تحيط بالقصبة وتصل بين المدينة العربية والاسواق وحارة اليهود . أمـا في الارياف حيث يعيش المهاجر المستعمر الغني حياة ترفه ، فلم يطرأ على المسكن اي تبدل : البدوي يعيش تحت خيمته ، والبيوت اكواخ مسقوفة بالتبن الطويل والاعشاب ومؤلفة من غرفة واحدة يسوّدها الدخان ويغزوها القمل والبراغيث والبق .

الامبراطورية الشريفية قبل التدخل الاوروبي

ان مراكش اكثر أجزاء المغرب عزلة وأقلها تأثراً بالاسلام . استخدمها الغزو العربي ممراً للانقضاض منها على اسبانيا ، ولكنها التفتت ابداً الى روابطها الشمالية بشبه الجزيرة الايبرية من جهة وروابطها الجنوبية بالصحراء الغربية من جهة اخرى . ومن تخوم الصحراء جاءت السلالات التي قاومت ، في منطقة فاس ومكناس ، حرب الاسترداد التي شنها الاسبانيون ،

اسياد حصون الحدود ، في سيرهم على تطوان .

هناك مغرب (مراكش) خارجية، على حدود الصحراء، منشأ القبائل العربية او المستعربة التي تسيطر على الواحات وغالباً ما تشن الغارات على السهول الاطلسية . فقد اقامت السلطنة رجالها الاوفياء في هذه الاراضي الجيدة وعودتهم الحياة البدوية . وأقامت هي نفسها بين الاطلس والريف حيث المدن الحضرية . الا ان الجبال المرتفعة تنتصب فوق السهول ، وتؤلف منطقة الانفصال التي تضم عظماء البدو المتحالفين وحضريي قراها المحصنة وقصورهـا المليئة بالمواد الغذائية . ويغلب فيها العنصر البربري لان الناطق باللغة العربية ، اذا ما استثنينا بدو الجنوب ، ليس سوى مدني او مزارع من مراكش الاطلسية . والحال يكاد ينحصر افقهم في الجماعة الصغرى التي تضم، كيفما تيسر ذلك ، الى القرية او القبيلة : وفي سبيل استمالتهم ، يجب اغراؤهم بجاذب البارود (المعركة) او الغزو . وقد يمكن من ثم تحديد الدولة المغربية بما يلي : حماية عربية الطابع ، ذات حضارة مدنية مغربية اندلسية ، على بلاد بربرية لم تخضع اخضاعاً تاماً . ولعل القاضي والشرع الاسلامي لم يضطرا يوماً الى مسايرة العرف ، والاسلام الى مسايرة الوثنية المستترة ، والحكم الى مسايرة صوفية زهدية توافق نزعة ديموقراطية خاصة ، كما حدث في هذه البلاد .

السلطان مطلق السلطة نظرياً ويستند قوله الى اصله الشريفي اي الى كونه منحدراً من النبي . أما في الواقع ، فجيش القبائل الثاني المرتبط مصيرها بمصير السلالة العلوية ، والموزعة على النقاط الهامة (فاس الجديد مثلاً ، على مقربة من فاس البالي ، المدينة الدينية والصناعية القديمة) ، هو ما يشكل قوة الحكم الفعلية الوحيدة . فكل سنة تدير السلطة « الحركة » ، وهي حملة عسكرية لا تستهدف القضاء على المنفصلين العصاة استهدافها ايجاد ثروة معهم بالتوفيق فيما بينهم . تسند اعمال الادارة والجباية الى القائد بتولية من السلطان ؛ وإذا كان القاضي ، الذي يعينه العلماء ، مرتبطاً بالشريف ، فان القاضي ، الذي يُختار من بين شيوخ القبائل ، يبقى مستقلاً . وتقوم سياسة السلطة بإرضاء القبائل الوفية ، ومعاملة القادة بالحسنى بغية شق المنفصلين واضعافهم ، ومراعاة جانب الجمعيات الدينية . اجل لم يعد هناك من ازمات سلالية . ولكن العلويين لا يقوون الا على المحافظة على التقاليد بالمحافظة على الظواهر والعمل ليومهم .

ولا نعني بذلك ان هؤلاء الشرفاء كانوا خلواً من الصفات والقيم . فان مولاي حسن ، الذي عاصر الثورة ونابوليون قد آثر انكماش البلاد على نفسها . واعتمد مولاي عبد الرحمن على البريطانيين منذ ان واجه خطر الفرنسيين بعد غزوهم الجزائر، ولكن السلطة اضعفتها الثورات . وحين عجز محمد عبد الرحمن عن صد الغارات الاسبانية الا بالجوء الى خدمات لندن ، اضطر الى التخلي عن الكثير من حقوقه لاستمالة القادة ومقاومة هجوم جديد شنه الانفصاليون .

عندما اصبح مولاي حسن شريفاً في السنة ١٨٧٣ ، بدت المغرب التقليدية وكأن نهايتها قريبة جداً . وكيف يمكن ان يستمر استقلال بلاد عاجزة عن التخلص من أنظمتها البالية ؟

فان مؤتمر مدريد قد فرض عليها ، على الصعيد التجاري ، نظاماً دولياً يرغمها على معاملة كافة الدول معاملة الدولة المفضلة : فكان ذلك حرماناً لفرنسا وانكلترا من مركزهما الممتاز ، ولكنه كان في الوقت نفسه مثاراً للاطماع المديدة والمنازعات من اجل النفوذ فيها . والحال اصيبت السلطة بالنهكة في اضطرارها من « الحركات » أو الحملات العسكرية دون ان تفلح في اعادة تنظيم جيشها وتحسين ماليتها. وجل ما توصلت اليه ، بقدر امكاناتها ، شل نفوذ الاجانب التجاري بغية المحافظة على روح قومية متحذرة .

عندما تولى السلطة مولاي عبد العزيز في السنة ١٨٩٤ كانت الزراعة آخذة في التقهقر بفعل غزوات البدو وثقل الضرائب ، وكانت الصناعة اليدوية محافظة بصعوبة على تقاليدها الفنية الماضية ، كما أن التجارة ، التي أعاقها النقص في وسائل النقل ، وحالة المرافىء المتأخرة ، والاحتكارات ، واقفال الحدود ، والحاجة الى النقد ، كانت في حالة ركود . وكانت كل منطقة تعتمد في معيشتها على نفسها ، وكل حي وكل قرية بجزعان لسلامتها . ففي فاس ، التي شاهدها « ادمون دي اميسس » نصف خربة ، لاحظ « شارل دي فوكو » ان «اليهودي ... يتنقل في «الملاح» بين الاقذار ويتعثر بالبقول النتنة ... »، ولكنه اضاف الى ذلك : «الاشياء الجميلة هي في المدينة العربية » . ولكن ما هي هذه الاشياء الجميلة ؟ جوامع وقصور وحدائق غناء تعيد الى الذاكرة عظمة دخلت في التاريخ ، بين اكواخ غير صحية وجداول تملأ مياهها جراثيم الحمى التيفية .فان طنجة ، المغربية واليهودية ، تعاني من تراكم الرمول في مينائها ، وليست كازبلانكا سوى مرفأ طبيعي خطر ، وموغادور ينزح عنها سكانها. وما هو عدد سكان المغرب يا ترى ؟ لقد تراوحت التقديرات بين خمسة ملايين والتي عشر مليونا .

اصبح الاستقلال رهناً بزوال المنازعات بين الدول ، يقضى عليه بتخلي لندن عن معارضة احتلال المغرب .

يتضح من ثم ان اوروبا اخضعت الاسلام في افريقيا الشمالية والشرق الادنى والشرق الاوسط على السواء . ولكن الاسلام لم يكن اوفر حظاً في مواقعه الامامية سواء في الهند ام في ماليزيا ام في الصين أم في افريقيا السوداء .

الفصل الخامس

بين خطي السرطان والجدي :
حضارات افريقية واوقيانية

تأخر تطور البيئة
ما بين خطي السرطان والجدي

على الرغم من امتداد شكل الحياة البدوية الراعوية بمبدأ الى الجنوب من خط السرطان (اذ نشاهده في هضاب الشرق المرتفعة وفي نصف الكرة الجنوبي) ، فان السكان ، ابتداء من السباسب والاحراج الملتفة الاشجار ، يعولون في معيشتهم على جني الثمار وصيد الاسماك والزراعة المتنقلة . وتساعد البيئة الطبيعية على نمو عوامل مرضية رهيبة : عوامل البلهرسيا وداء الخبطيات ومرض النوم . وهناك نطاق آخر لاشكال حياة بدائية ، اعني به اوقيانيا التي تمتاز من جهة ثانية بمناخ اكثر موافقة للصحة . وباستطاعتنا ان ندخل في ارخبيلات المحيط الكبير شطراً من الانسولند ، ولكن هذه الاخيرة عرفت في العصور القديمة اشكال حضارة اكثر تطوراً نشأت في الاصل في آسيا الجنوبية وشوهدت حتى في مدغشقر . وبينا تدخل الاستعمار الاوروبي منذ القرن السادس عشر في الغرب اي في اميركا الحارة ، ففي الشرق ، اي في الارخبيل الآسيوي الكبير وفي المحيط الهندي ، لم يستول على الاراضي الاوقيانية ومناطق ما بين خطي السرطان والجدي في افريقيا الا في القرن التاسع عشر .

تقدم الاسلام
والنصرانية في افريقيا

ان افريقيا ، المتراصة الرقعة والمتميزة بشواطىء تندر فيها المرافىء الطبيعية وانهار كبرى تعترضها الشلالات ، تفرض العزلة على الانسان بين الصحراء والغابة البكر . الا انها تتسع في نصف الكرة الشمالي حيث انبسطت منطقة بورية موازية لتلك التي تجاور المتوسط : هذه هي منطقة « الساحل » الجافة التي تمتد من مصاب نهر السنغال حتى البحر الاحمر وتغلب فيها تربية المواشي . ويتواجه فيها او بالاحرى يتداخل فيها عالمان : العالم الابيض والعالم الاسود ؛ من جهة البربر والعرب

والحاميون – سواء تأثر هؤلاء بالحضارة السامية أم لم يتأثروا – ، ومن جهة ثانية الزنوج السودانيون . « فبلاد السودان » هي بلاد السود في نظر العرب وتقابلها « بلاد البيضان » . وغالباً ما تنازع الساحل هذا الشماليون المقيمون وراء الصحراء والجنوبيون سكان السباسب . وتؤدي طرق القوافل التي تصل بين اواسط افريقيا والشاطىء المتوسطي الى تومبوكتو وكانو وكوكا حيث تنتهي كذلك المسالك المؤدية اليها من خليج غينيا . ولا وجود خارج هذه الطرق، بموازاة خط الطول ، وابعد الى الشرق ، سوى الطريق المؤدية من البحيرات الكبرى باتجاه النيل والبحر الاحمر .

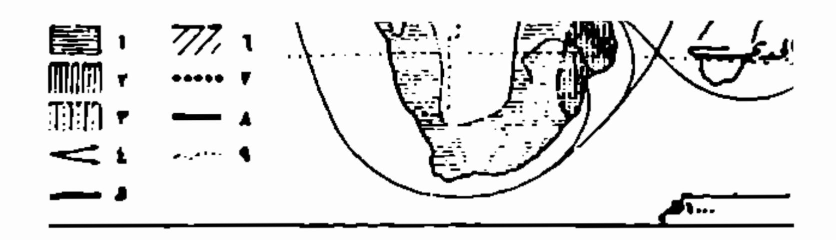
يبدو الاسلام في هذه المنطقة وكأنه واسطة نقل الافكار والتجارة والانظمة السياسية . فقد اجتاز الصحراء مع القوافل ولم يتوقف الا عند تخوم السباسب والغابات ؛ وتسلق كذلك الهضاب الشرقية انطلاقاً من البحر الاحمر والمحيط الهندي . انه موجود حيث يسيطر النظام الراعوي؛لأنه لم يتعرض للايمان بالارواح الذي دان به الحضريون المنعزلون في السباسب والغابات . يستخدم الجمل ، ولكن ما يكتشفه او يجده ثانية في السنغال وعند منعطف النيجر وفي تشاد هو الحصان؛ خير مساعد في اعمال الفتح . يهدي ويكيد ويكتسح وينظم الامارات والسلطنات السريعة الزوال . وينتزع من قلب القارة السوداء العبيد الذين يتّجر بهم .

بينا كانت تجارة الفحم البشري توفر للمسيحيين وسيلة لاستثمار العالم الجديد ، كانت تغذي اسواق المغرب والشرق الادنى الكبرى ؛ وكانت من جهة ثانية بمثابة حافز التوسع الاسلامي وانتشار روح الحرب المقدسة معاً بين السنغال وزنجبار ، كما كانت توفر للاسلام مورداً ثميناً لسيطرته السياسية. انها لامبراطوريات اسلامية قوتها في عصبيتها الدينية، ولكنها امبراطوريات استرقاقية . وحين وافقت اوروبا الرأسمالية والانسانية على إلغاء الرق ، الذي لم تطو صفحته المخزية الا لتفتح صفحة الحسابات الاستعمارية من جهة ثانية ، قوضت الدول الاسلامية وألغت الرق معاً . ولكن الرقعة الواسعة التي انتزعت من القرآن بقيت في الحقيقة تحت سيطرته .

الصحراء الكبرى الاسلامية والنفوذ الفرنسي

ان الصحراء الكبرى التي تقارب مساحتها ٨ ملايين كيلومتر مربع لم تخل يوماً من السكان . فالبعض يجتازونها من طرف الى اخر والبعض الآخر يستقرون فيها . وهي شعوب افريقيا الشمالية الاسلامية التي كانت لها الغلبة فيها في النهاية بفضل تفوقها العسكري وعصبيتها الدينية وتنظيمها الذي اعدها للقيادة .

ان الصحراء الغربية التي تأثرت اكثر من سواها بالاسلام كانت نطاقاً مغربياً ، عربياً ، بربرياً، سيطر فيه سكان الواحات المغربية الجنوبية من الناطقين باللغة العربية ، اي برابرة تُوات وتافيلالة ، الرعاة المتنقلون الذين كانوا ينقلون ملح « تاوديني » الى تومبوكتو وينفذون احترام الامبراطورية الشريفية ؛ وان الشيخ « ماء العينين » ، النخاس المنتسب لزاوية «شنقيـ» سوف



شكل رقم ٢٦ - افريقيا في القرن التاسع عشر

المعروفة حوالي السنة ١٨٧٠ ؛ ٢ - حدود مناطق النخاسة القديمة (باتجاه اميركا وآسيا ؛ ٣ - ... ة في النصف الثاني من القرن ؛ ٤ - الطرق البحرية للنخاسة القديمة ؛ ٥ - طرق القوافل ؛ ٦ - ... للسائقين برا ؛ ٧ - حدود الاسلام ؛ ٨ - حدود توسع المسلمين التجاري ؛ ٩ - الحدود الاستعمارية

يلف بقوة في وجه الفرنسيين ، اسياد السنغال منذ « فيدرب » ، الذين سيستولون على توات في السنة ١٩٠٠ . اما في الشرق فقد اقام برابرة يتميزون ببشرة داكنة هم الـ « تيبو » او الـ « توبو » الذين تكلموا لغة سودانية وراقبوا طرقات طرابلس الغرب وفزان الى تشاد ونازعوا جيرانهم الطوارق « كل وي » منطقة العير وواحة بلما المشهورين بملاحاتها .

اما في وسط الصحراء فالسيد هو الطارقي ، الملثم الوجه ، الناطق باللغة البربرية ، المتغطرس ، الوحيد الزوجة ؛ تنعم زوجته بحرية كبرى ؛ ويعرف هو القراءة ويعزف على الربابة . يؤلف الحادات حربية تشرف عليها طبقة من النبلاء ويدفع لها الجزية اصحاب الاخاذات والفداديون وتستخدم الارقاء العبيد في اعمالها . ولكل الحاد مرشده المتصوف . ولكن الاسلام ينحني امام وثنية لا تقبل التنازل عن عقيدتها ولا تعارض قيام علائق دائمة مع غير المؤمن . تسيطر جماعة الطوارق هذه على المسالك التي تؤدي من جنوبي منطقة وهران الى منعطف النيجر وتنازع شانبا المنطقة الرملية في جنوبي الجزائر – اعني بهم اعداءها الناطقين باللغة العربية – سلاسل الواحات التي تتناثر بين مجازات الاطلس الصحراوي وتيديكلت ، وقد تقدمت جنوباً حتى ادرار وضفاف النيجر حيث قوضت تومبوكتو وغاوو . ومارس هؤلاء البدو كلهم الغزو وتقاضوا « الغفارة » او الفدية . فلا عجب والحالة هذه ان يخيم الانحطاط على الواحـــة : تسلم قورها وحبوبها وبقولها ودخنها (بشنة)؛ وغالباً ما لا يبقى لها شيء يذكر لاستهلاكها الخاص .

حاول الفرنسيون اخماد الفتن بالقضاء على اللصوصية ، ويجدر بأهل الحضر ان يشكروا لهم عملهم هذا . ولكن تحويل التجارة الى طرق اخرى وإلغاء النخاسة ألحق الضرر بالجميع . فان بعثة « فلاترز » ، التي هلكت كلها ، كانت ضحية الدسائس التي حاكها لها النخاسون . وقـــد اخفق « فورو » بادىء ذي بـــدء ولكنـــه توفق الى احداث ثغرة في جبهة الطوارق والحاق بـ « جولان – مينيه » و « لامي » في « تشاد » ، بينا اعترفت اتفاقية عقدت مـــع انكلترا بسيطرة فرنسا على كافة ارجاء الصحراء الكبرى . ومنذ ذاك الحين نادى بعضهم ببناء خط حديدي يصل بين افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية . وفي سبيل استتباب الأمن في الصحراء انشأ « لابرين » وحدات هجانة من الشانبا ، وفي السنة ١٩١٠ ، كان الاتفاق مع مرشد هوجر ، المعارض لمجيء الاتراك الى فزان ، فاتحة خير التهدئة في الصحراء .

الشعوب الاسلامية في السنغال والسودان

قلب التدخل الاوروبي الوضـــع الذي أتاح البدوي منـــذ القرون الوسطى استثمار الصحراء الكبرى . وكان مقدراً له ان يعطي نتيجة مماثلة في الساحل السوداني والسنغالي وفي السودان نفسه . ولكن القسم الاكبر من القرن انصرم قبل عهد الاستعمار . واذا كان الفرنسيون في قلب السنغال منذ الامبراطورية الثانية ، فانهم لم يدخلوا تومبوكتو الا في السنة ١٨٩٥ ، ولم يوقع على الاتفاقات الدولية التي حددت ممتلكات الدول الا في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٨ .

في المنطقة التي لا تعرف سوى فصلين متباينين-لا يجاوز فصل الامطار ستة اشهر والامطار المتساقطة ملزا - نرى النباتات تتبدل سيماها الصحراوية بسيماء السباسب المشبعة والغابات القليلة الاشجار . هنا تسود تربية المواشي المتنقلة . ويستخدم الحيوان النقل لا للزراعة التي تستلزم عملاً مرهقاً في تربة صحراء متحجرة. ويبدو الحضري مفتقراً الى التغذية بالنسبة للراعي الذي يعتمد في غذائه على الالبان . وعلى جوانب النيجر وفي تشاد يعيش بعض السكان من صيد الاسماك . ولا يزرع الارز الا حيث تتيح زرعه المياه . ويعير السوداني الراعي الملح اهمية كبرى . وتنتقل السلع من بلد الى اخرى بشكل مقايضة أو بواسطة الـ « كوري» ، وهي محارة وحيدة المصراع تقوم مقام النقد . وتعطي البلاد ذهبها المسحوق للحصول على بارود الاسلحة النارية والاسلحة النارية نفسها . وتقايض الجلود والاصواف بنسائج قطنية . أضف الى ذلك ان عدد السكان ، حوالي ١٩٠٠ ، لا يجاوز المليون في السنغال والـ ا ملايين في كافة انحاء السودان . ولا تتجاوز الكثافة من ثم ٢ و ٣ في الكيلومتر المربع : ولا عجب في ذلك بعد عهد توحش طويل الامد مرده الفوضى المزمنة .

في هذه المساحات الشاسعة المفتوحة تتجانب افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء ؛ ولكن التخليط بين اللونين منحل جداً . فان الـ « هَوسا » الذين تشبه لغتهم اللهجات البربرية ربما ينحدرون من أصل سوداني أو من أصل حامي طرأ عليه بعض التحويل بعاشرة السودانيين. أما أصل الـ « فولبا » (أو « فولا ») فاكثر غموضاً أيضاً : فهم ساميون في نظر بعضهم ، أو حاميون في الارجح ، ولكنهم سود البشرة ويتكلمون لغة سودانية ؛ عاشوا حياة راعوية واعتنقوا الاسلام وتنقلوا ابدا من مكان الى آخر وتسللوا الى مواطن سواهم من سنغمبيا حتى تشاد و « اداموا » ولعبوا دوراً كبيراً في السباق الى السيطرة .

أسهمت النخاسة في صهر الشعوب وادت في الوقت نفسه الى نهكة البلاد . فقد دانت لهـا المجموعات السكنية الكبرى بأجمعها . وفي كوكا ، من اعمال بورنو ، حيث شاهد « بارث » حرما يضم ٧٣ غلاما و ٥٠ فتاة ، ابدى احد المراقبين في عهد لاحق ان الفتيان الذين تتراوح سنهم بين ١٠ سنوات و ١٥ سنة مرغوب فيهم جداً وان الفتيات البالغات يُبعن بـ ٢٥٠ و ٥٥٠ فرنكا . ويروي رحالة آخر ان النخاسين في قرى « فوتاجالون » يتصرفون مع الاسرى تصرف سائقي الثيران مع القطعان . ويعادل ثمن الحصان ثمن ١٥ الى ٢٠ شخصاً . وهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن النخاسة تفاقم خطرها في هذا الجزء من افريقيا بعد التدابير التي اتخذها الاوروبيون لمنعها في جهات المحيط الاطلسي . ومهما يكن من الامر فانها دعمت قوة الزعماء المطلقي السلطة من امثال « ساموري » في منطقة النيجر و « رباح » في « اوأداي » . فان ساموري قد جند جيشاً من بين أبناء الاسرى ، الـ « سوفا » ، أو الانكشارية الجدد .

حجب الاسلام المعتقدات القديمة دون ان يحل محلها . فهنا لا يكاد رجل الدين يتميز عن ساحر القرية ، وقد اضطر في غير مكان ان يتخلى عن سلطته للشاعر الموسيقي المتنقل . ولمـا

كان الطقس الديني هو ما يؤمن التلاحم في المجتمع الاسود ، اصبح للجمعية الدينية شأنها الكبير. ولكن بينا حال كهان عبادة الارواح في اغلب الاحيان دون ارتقاء الزعماء المحليين (الثاني في لوبا يختاران عن قصد من بين العائلات المتنافسة) ، كان بمقدور الجمعية الدينية ان تثير حركات كبرى بين المؤمنين الذين يستجيبون لنداء الملهمين ، فيهبون للحرب المقدسة والسلب والنهب أيضاً . غبات كاهن عبادة الارواح حينذاك امير المؤمنين . واستمال بسهولة قبائل البدو المخيمة على جوانب الطرق التي تسلكها القوافل والحجاج والنخاسون . فحدثت من ثم تجمعــات حمت بعض الشعوب ، وليس لمعظم محاولات تأسيس الامبراطوريات ، بـــين الصحراء والسباسب ، مصدر آخر وتفسير آخر . فبين السنغال الاعلى وغامبيا حاول الزعيم الديني محمدو الامين قيادة الـ « ساراكولي » ، ومثل الحاج عمر السنغالي جمعية التيجانية الديموقراطية النزعة ؛ واذا هو بسط سيطرته على فوتاجالون على حساب القادرية ، فان شيعة الموريين المتفرعة عن هذه الجمعية الاخيرة قد ثبتت اقدامها في « كايور » بقيادة « احمدو بامبا » ونسيبه « لات ديور » . فقاتل الفرنسيون هذا الاخير وردوا الحاج عمر نحو النيجر . ولكن هذا الفاتح ترك خليفة واصل سياسته وعمله هو ابنه احمدو الذي قاوم الفرنسيين حتى السنة ١٨٩٣ . وفي غضون ثلاثين سنة تقريباً اسس الساراكولي « ساموري توري » ثلاث أو اربع امبراطوريات : انطلق من اراسولو فحاول السيطرة على ضفتي النيجر فوق تومبوكتو وهدد كذلك البلاد الموسية الباقية على وثنيتها ولم يمن بالهزيمة الا في السنة ١٨٩٨ . والى الشرق من النهر الكبير ، انهارت الدول الهاوسية ، التي عرفت من قبل بعض الازدهار ، امام هجمات الفولبا بقيادة احد حلفاء الحاج عمر ، «عثمان دان فوديو » ، الذي اصبح شيخاً في كانو وامتدت سلطته حتى الكاميرون الحالية . ونعمت سلطنتا سوكوتو وكانو ببعض الاستقرار ، ويبدوا انهما خضعتا لحكم عسكري استمر حتى الفتـــح الاوروبي : وفي مستهل القرن العشرين كانت هذه المنطقة السودانية اكثر سكاناً وأقل بؤساً .

كان حوض التشاد ، على نقيض ذلك مسرح قتال وحشي : نزاعات من اجل النفوذ بـــين البورنو والكانم والباغيرمي الذين يتقاسمون الحوض ؛ ونزاعات من اجل طرقات القوافل والملح والاسرى ، ولا سيا الطريق التي تؤدي الى كوفرا ومصر وشرقي ليبيا عبر اواداي . وفي اللوحة التي رسمها « ناشتيغال » لاواداي ، يتكلم عن ازدهارها النسبي في كنف بعض الامراء العرب المطلقي السلطة الذين يهتمون بالمدارس والتجارة ، والنخاسة طبعاً . والحال كلما اقفلت طرقات الصحراء الغربية ، انتقل النشاط الى الطرقات المؤدية الى البحر الاحمر . فحين اضطرت القاهرة الى الكف عن تجارة العبيد ، تحولت هـــذه الاخيرة نحو الطريق الرئيسية المؤدية من اواداي الى الخرطوم على النيل الاوسط عبر كوردوفان . وكانت ثورة الدراويش بمثابة جهد اخـــير بذله منظمو القوافل بغية الاحتفاظ بخط المواصلات الاخير بالشرق الادنى . وكذلك ، فهو احـــد النخاسين ، رباح ، الذي جعل من اواداي حينذاك مركزاً لهـــذه التجارة وتوفق مؤقتاً الى السيطرة على مناطق التشاد . ولن تخضع اواداي اخضاعاً نهائياً الا في السنة ١٩١١.

شعوب المناطق الغينية

ما ان تظهر السباسب وتتكاثف الغابات ، حتى يصبح القطيع ، الذي يجزله المناخ ويتعرض لذباب الناقل مرض النوم ، غير كاف لتأمين معيشة الانسان . وعلى هذا الاخير ، بالاضافة الى ذلك ، مقاومة الملاريا والزحار ومرض النوم نفسه . ولما كان يغتذي بالاطعمة النباتية ، فانه يستهلك طحين الذرة الصفراء وطحين المنيهوت وزيت النخيل ، ويجد في جوزة شجرة الكولا مادة منبهة .

لم يرتفع كل هؤلاء السكان فوق مفهوم المقاطعة الصغرى . ولكنهم تكلموا لهجات سودانية ، وقد اسس الغزاة الشماليون عدة ممالك دون ان يؤدي ذلك الى انتشار الاسلام .

وتقاسم « موسي » و« اكانتي » حوض نهري الفولتا . وقد حكم الاولين ملك ذو سلطة دينية ، هو « موغوناِبا » ، « سيد العالم » ، « ملك بلاد المختونين » ، الذي كان بمثابة مولى اخاذة « ناكومسي » النبلاء الذين يقلدهم وظائف وزارية وادارية . اما ملك الاكانتي فيرأس مجلس الزعماء ولا يطاع حقاً الا في مقاطعته الخاصة كوماسي : قاتل اتحاد المقاطعات الصغرى الحرابة هذا الى جانب « فانتي » ، سكان السواحل ، الذين ساندهم البريطانيون . وفي داهومي تعين السلطة الملكية زعماء القرى وتتصرف في جمعية « دوكبوي » التي تضم الفتيان والشبان المدعوين لدور قيادي . ويجمع الارقاء من بين اسرى الحروب التي كانت مورداً كبيراً لشعب متأهب ابداً للقتال . فعلى كل محارب ان يأتي بأسير أو برأس جندي عدو مقتول . وتؤلف زوجات الملك والفتيات المكرسات لآلهة الحرب فرقة عسكرية من النساء .

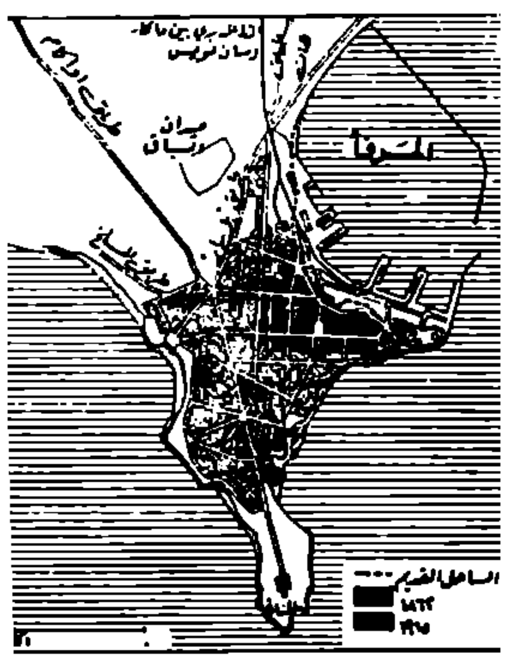
اقام الاوروبيون ، منذ زمن بعيد ، العلائق مع زعماء هذه المناطق وملوكها . فكان هناك « شاطيء العبيد » و « شاطيء الذهب » و « شاطيء العاج » بالاضافة الى « بنين » التي اشتهرت بمنتجاتها الفنية واضاحيها البشرية الشنيعة . فالذوق الجمالي هنا كان متقدماً عليه في السودان . وقد تمت المصنوعات البرونزية والخزفية والاقنعة الخشبية والعاجية والمقاعد المنقوشة عن تقاليد قديمة في مهارة الصناعة البدوية .

الاستعمار الاوروبي في افريقيا الغربية وتشاد

ان فتح المنطقة الشاسعة الممتدة بين الصحراء الكبرى وخليج غينيا – وهو عمل تطلب اجراء طويلاً – لم يكتمل الا حوالي السنة ١٩٠٠ . ولم تسوَّ الخلافات على الحدود بين الدول الا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ . فسارت كل دولة قدماً لمنع سواها من تخطيها ، حتى ان الحدود الاقليمية تعكس تقلبات الاستيلاء . وقد ارتكبت اخطاء كثيرة .

رأى « فيدرب » على الرغم من واقعيته المأثورة ، ان ثروة المستقبل في السنغال هي القطن قبل فستق العبيد ، كما غرر نفسه بذهب بامبوك . وحاول تأمين الاتصال بالنيجر عن طريق الرمول الداخلية ، ولم ير الاهمية التي تنطوي عليها اسواق غينيا والشاطيء العاجي كقواعد انطلاق لبلوغ النهر .

في كافة انحاء الساحل وفي السودان الاوسط ، كما
ن من مصلحة المستعمر الاعتماد على الفلاحين وحمايتهم
درب اول من سار على هذه السياسة التي تضحي بالبدو
رتياب بالرعاة المسلمين الذي يرد جزئياً الى القتال المر
ع المستعمرين جـــاءت الارساليات ، الكاثوليكية
سكان المخضمين . « انها لحرب صليبية حقيقية » ، كما
ينجر »مدير الشؤون الافريقية ، الى «خطر الاسلام
، يمكن ان تؤديها الخواص الاسلامية .



الشكل رقم ٢٧ – نمو مدينة استعمارية : دكار
في تصميم السنة ١٨٦٢ مشروع الحاكم « بينه – لابراد » .
شارة الى المكان الملحوظ للمدافن (م) وامتداد المدينة نحو
بل ؛ وفي الجنوب يشير الحرف ح الى الحاكمية العامة) .
(نقلا عن تصميم أطلعنا عليها « ر. بلكيه » الاستا
معهد الدروس العليا في دكار)

بلداً ، فقد فرضت عليهم واجبات ثقيلة : حرمان
لاجتماع ، ضرائب عينية وغرامات ، تسخير من اجل
لخدمة العسكرية وفاقاً لمقتضيات الحاجة .

عاد للدولة المستعمرة امر رفع مستوى المعيشة بتوفير الامن والنظام وتوزيع المهام على اساس سليم . ولكن الجهود استهدفت المزروعات والمناجم التي يمكن ان تغذي التجارة مع الوطن الام . وعلى هذا الصعيد كان النجاح في الشاطىء الذهبي ونيجيريا البريطانيتين اسرع منه في المستعمرات الفرنسية المفتقرة الى التجهيز : فاحتلت الاولى مركز الصدارة في انتاج الكاكاو واستثمرت احراجها ومنغنيزها وماسها ؛ وسلمت الثانية كمية كبرى من الاخشاب وزيت النخيل . وعلى نقيض ذلك آلت سيراليون الى الهبوط منذ الغاء النخاسة وعاشت جمهورية ليبيريا السوداء في ضيق على الرغم من جهود الكنيسة الميتودية . وكذلك عانت اقاليم غينيا والشاطىء العاجي وداهومي الفرنسية من نقص وسائل النقل ومن الافتقار الى الموانىء الحسنة التجهيز ومن تبدد اليد العاملة التي كانت تأنف من العمل المراقب .

واذا استفادت السنغال من فستق العبيد ومن التجارة مع السودان ، واذا حسنت دكار شوارعها الواسعة المحفوفة بالاشجار واعدت مناءها للملاحة الاطلسية الكبرى ، فان الداخل النيجيري ما زال متأثراً بويلات الحرب والجفاف ؛ وقد عقدت عليه آمال كبرى مجهولة . اما اقاليم تشاد فليست آنذاك سوى منطقة حدود عسكرية لن تعرف التهدئة الا في غد قريب .

وقد لوحظ ايضا ان ارتباطات الوطن الام قد ظهرت على الصعيد الاداري . فلم تكن السودان و « الانهار الجنوبية » في البدء سوى اقاليم ملحقة بالسنغال . كما ان « افريقيا الغربية الفرنسية » التي تكونت في السنة ١٨٩٥ ، ستعرف تغيرات كثيرة . اما « المناطق المنخفضة التشادية » فستلحق بافريقيا الاستوائية الفرنسية : وهكذا سوف تفك حلقات التماسك بين مختلف اجزاء المنطقة الساحلية لان وجود انكلترا والمانيا حتى مشارف البحيرة الافريقية الكبرى سيقوض وحدة الممتلكات الفرنسية .

في السودان النيلي : الاطماع المصرية والامبراطورية الدراويش

تتجه طرق دارفور واوغندا واثيوبيا كلها نحو مصر . ولكن من يسيطر على مصر لا يسيطر على النيل ، ومنذ القدم كان الحوض الأعلى محط انظار اسياد الدلتا رغبة منهم في ضمان سلامة البلاد ومراقبة فيضان النهر .

في القرن التاسع عشر ، نشاهد اثناء ولاية محمد علي وخلفائه توسعاً مصرياً جديداً في وادي النيل الاعلى . ولم يصطدم الباشا الا بمقاومة ضعيفة ترد الى انحطاط الممالك العربية - الشيخيات وسنار - في منطقة الشلالات الساحلية . ولكن الابتزازات الجبائية واحتكار التجارة وغزوات عملاء الباشا ما كانت لتسهل الاحتلال المصري ؛ فالنخاسون وحدهم هم من استفادوا من هذه التصرفات لان محمد علي شجع النخاسة واسس مدينة الخرطوم لهذه الغاية .

وطمع اسماعيل بدوره ببسط السلطة الخديوية على كافة انحاء افريقيا الشمالية الشرقية . وقد آزره في تحقيق مطامعه بعض الاوروبيين من امثال الرحالة « صموئيل باكر » ، والجندي

المبشر « غوردون » الذي انعم عليه بلقب باشا ، ورحالة آخر هو « شنيتزر » الـذي اعتنق الاسلام وحمل اسم امين باشا ، ولكنهم بذلوا في سبيل ذلك جهوداً كبرى لم تكلل بالنجاح . فحين شعرت حكومة القاهرة بخطر الافلاس يحدق بها ، اضطرت الى التخلي عن الاستفادة من النخاسة والى عزل حاكم بحر الغزال الذي كان هو نفسه نخاساً. واصبح السودان النيلي من ثم مسرحاً لثورة مهدية هائلة كان سببها العصبية الاسلامية والغاء تجارة رابحة معاً . فصمد امين باشا عند النيل الابيض الاعلى ، في ولاية اكواتوريا التي ارغمه ستانلي بعد ذلك على الجلاء عنها لمصلحة بريطانيا العظمى على كل حال والكن سيطرة الخديوي انهارت ، وتعذر على الانكليز انقاذ غوردون في الخرطوم .

على غرار امبراطوريات السودان الغربي ، رأت امبراطورية الدراويش ، وليـدة الثورات والقبائل البدوية المتعصبة والنخاسين ، النور وماتت في فترة زمنية قصيرة جـداً . فقد عجزت عن استمالة السنوسيين والتغلب على مصر ، ولم تعرف بعض الراحة إلا بفضل انتصار احرزته على نجاشي الحبشة ، والخلاف الذي نشب بين هذا الأخير والابطاليين . وقـد عانت البلدان التي اخضعتها من الاوبئة والمجاعة واصابة كل تجارة بالشلل. أجل لقد بلغت الحركة اواداي. ولكن الانكليز ، الموجودين في مصر ، توفقوا اخيراً في السنة ١٨٩٨ الى تنظيم حملة كتشنر التي هزمت الجيش المهدي وقضت على المطامع الفرنسية في طريق الكونغو ـ البحر الاحمر. فاصبح السودان النيلي ، باسم الخديوي ، السودان الانكليزي المصري .

في وسط المنطقة الجافة التي تتصل بالبحر في افريقيا الشرقية ، تنتصب الجبال الاثيوبية وكأنها خزان مياه وملجأ جبلي . وقد جاءت الموجة الاسلامية تضرب شواطيء هذه الجزيرة المسيحية فعجزت عن غمرها

اثيوبيا ، نيوموروس ومنليك

انها لبلاد غريبة التقسيم الطبيعي ، كل واد فيهـا يعيش في عزلة بقيادة زعيم . لا تسلم بالتضامن إلا امـام خطر كبير مشترك . الارض ملك طبقة سيدة من الرؤوس سوداوية اللون ومختلطة الدم . يبرز بين حين وآخر رأس الرؤوس ، النجاشي ، الذي يتمتع بسلطة اسمية لا تجعلها فعلية إلا الحرب وحدها . ليس من فارق كبير بين خرافات هؤلاء المسيحيين القائلـين بوجود طبيعة واحدة في المسيح وبين وثنية الا « غلا » جيرانهم . تعدد الزوجات منتشر وشبه شامل ، وكل حبشي ميسور يتصرف في عدد كبير من الخدام المنزليين .

البلاد تعتمد في معيشتها على مواردها القليلة ، ولكنها تجني الأرباح من مرور البضائـع التي تنقلها القوافل بين افريقيا الوسطى والمرافىء . وكان لنشاط الطرقات التجارية من ثم أثره في التاريخ السياسي . فبينما تقوم في مملكة امهرا مدينة غوندار ، ملتقى القوافل العامة ، تنتهي الى تيغره المنتجات المنزلة الى البر في ماسوا ، والى شوا تؤدي طريق هرار . ولذلك تنافست هذه الرئاسات الثلاث تنافساً دائماً .

في اواخر القرن الثامن عشر ، اضعفت المنازعات بين الرؤوس طاقـة الحبشي الهجومية فتراجع في كل مكان . ولكن نهضة تحققت في امهرا بفضل الرأس « كاسا » الذي نجح في إعادة جمع شتات الاراضي الاثيوبية وأعلن نفسه نجاشيـاً باسم تيودوروس ووضع سلسلة نسب التي جعلت منه خليفة داوود ، ووجه رسائل الى القيصر يقترح عليه فيها ميثاقـاً ضد الاسلام . وعندما استهان أحد منافسيه بالفرنسيين معترفاً لهم بحق الاقامة في اوبوك على شاطىء البحر الاحمر ، اعتمد تيودوروس على الانكليز . فكان ذلك منطلق التدخل الأوروبي .

عندما قاطع الانكليزَ على غير ترو ، عجز تيودوروس عن صد جيش بقيادة السير نابير وآثر الانتحار . فعقب ذلك عهد جديد من الاضطرابات استفاد منه الخديوي ، ثم الدول الاستعمارية للاستيلاء على الساحل الاريتري والصومالي . وحدث ان النجاشي الجديد ، « يوهانس » التغري الاصل ، قد لاقى حتفه في معركة ضد المهديين ، فوقع رأس شوا ، منليك ، بغية فرض نفسه ، معاهدة مع الايطاليين اعتبرتها روما بمثابة اعتراف بالحمـاية . ولكن هزيمة « عدوه » في السنة ١٨٩٦ قضت على مطامع « كريسبي » .

بعد الاعتراف بالاستقلال الاثيوبي توصل النجاشي منليك بسرعة الى بسط نفوذ جيليه على سكان المناطق المتاخمة . الا أن اثيوبيا الكبرى التي حققها ما زالت محاطة بمتلكات الاوروبيين، ولذلك نراها تفاوض فرنسا في أمر ربط عاصمتها ، اديس ـ ابابا ، بالشاطىء بواسطة خـط حديدي ينطلق من جيبوتي وبير بهرار . والواقع هو ان الجبـال الاثيوبية لم تجتذب التيارات المصرية بل رفضتها .

افريقيا البانتوية ونصيب زنجبار

الى الجنوب من خط وهمي يصل بين كامرون وزنجبار تمتـد البلاد البانتوية التي تختلف نماذجها البشرية ولهجاتها (١٨٢ على الأقل) اختلافاً بيناً عن نماذج ولهجات السودان وغينيا . ولكننا نرى هنـا ايضاً ازدواجية المناظر الطبيعية وانواع المعيشة ؛ فمن جهـة الحوض الكونغولي ، نطاق الاحراج والسباسب الكثيفة ، ومن جهة اخرى اطار من الهضاب الممتدة من افريقيا الشرقية حتى الـ « فلد » الجنوبي والصالحة لتربية المواشي .

ان البانتو الذين يقطنون منطقة الامطار الغزيرة بين خليج غينيـا والبحيرات الكبرى لم يخالطوا قط سوى الزنوج البدائيين المرتمين الذين ربما دانوا لهم بالقوام الوسيط والوبر الكثير واللون الداكن . ولكن بانتو الغابات ، على نقيض هؤلاء الزنوج الذين كادوا لا يعيشون الا من القنص وجني الثمار ، ولا يستقرون في مكان وينامون حتى في الاشجار ، قـد اقاموا في قرى مؤلفة من اكواخ مستطيلة قنصوا في جوارها الحيوانات وتعاطوا زراعة متنقلة ، واستخدموا أداة بدائية شبيهة بالعصا تتيح لهم طمر البذار واستخراج البطاطا في الارض المحرقة الضيقة . وجعل منهم الجوع اكلة تراب احيانـاً ، كما ان الأمراض ـ الزحار ومرض النوم ـ فتكت بهم

فتكا ذريعاً . وعلى مثل هذا الاقتصاد ، كان نظام المجتمع بدائياً . فلا حساب الا للتجمع العائلي وما يتبعه من زبن وارقاء . أما المسألة الكبرى فليست مسألة الارض بل مسألة اليد العاملة . ولم تضم الرئاسة الاقليمية سوى عدد محدود من القرى ، وهي تؤسس وتحل وفاقاً للحاجات الآنية ، كمملكة الـ « ماكوكو » عند الـ « باتيكي » مثلا . وما كانت نشاطات بعض القبائل الخاصة ، كالنقل المائي ونقل المعادن ومعالجتها ، حتى ولا الاعتقاد بالارواح ، لتقوى على ايجاد سلطات سياسية اوسع امتداداً .

يسود الاعتقاد ان بانتو الغابات وليد التكيف. أما بانتو البورات فيجاور في الشمال الحاميين والعرب والاسلام ، وفي الجنوب البرتغاليين والبوير والبريطانيين الاوروبيين . ولعل نزوحه نحو نصف الكرة الجنوبي نتيجة تقدم الحاميين المسلمين ، الماساي والواهوما (هؤلاء هم « الآتون من الشمال ») ، الذين اقاموا بين البحيرات الكبرى والمحيط الهندي مصطحبين الثور ذا الحدبة والجمل ذا السنام . وبينما زالت من الوجود ممالك « لوانغو » و « لواندا » و « لوبا » في الحوض الكونغولي ، ولم تخلف مونوموتابا سوى ذكريات عظيمة ، ما زالت اوغاندا تؤلف اطار دولة اقطاعية الطابع .

جاء الـ « كافر » والـ « ماتابيلي » والـ « بازوتو » والـ « بلشوانا » يروون ثيرانهم واغنامهم وماعزهم وحميرهم في مناطق خط الجدي بعد أن ردوا الـ « هوتنتو » والـ « بوشمان » الى الوراء . وكما حدث في السودان، تعاطوا زراعة الذرة البيضاء الى جانب تربية المواشي. وتنازعوا الطرق البرية والمائية فيما بينهم . وفي اعالي الزمبيز استقبل ليفنغستون استقبالاً حسناً في امارة تنظم غارات متكررة على جيرانها . وكان الـ « زولو » مهرة في استعمال الرمح والقوس والنبال محتمين بترس كبير من جلد البقر ، ولم يلبثوا أن قدروا فوائد الاسلحة النارية حق قدرها. وعند حدود « ناتال » و « فلد » اصطدموا بالبوير والانكليز الذين لم ينتصروا عليهم بسهولة .

كان الحدث الكبير ، من جهة المحيط الهندي ، التراجع البرتغالي امام هجوم عربي جديد صادف في الزمان تقدم الاسلام في داخل القارة الافريقية وانتقال النخاسة شطر الشرق . وقد برزت آنذاك قوة زنجبار التي نقل اليها امام مسقط عاصمته في السنة ١٨٤٠ . فظهرت مرة أخرى ميزات هذه الجزيرة الصغيرة الساحلية النادرة كموقع تجاري : وكان مقدراً لها ان تلعب، لحساب سلطنة اسلامية ، دوراً مماثلا لدور عدن وسنغافورة . فأدخل سكانها « السواحليون » المختلطو الدم (عرب وفرس وهنود وماليزيون) زراعة القرنفل . واهتمت كذلك بمحاصيل الداخل ومنتجاته ولا سيما النحاس والعاج . ولكن اعمال الارض ونقل المحاصيل تتطلب يداً عاملة وفيرة : وسوف تستحق زنجبار اسمها (زنج - بر أي بلاد العبيد) . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان النخاسة قد اتسعت هنا اتساعاً بعيداً بفضل بيع الاسرى في اسواق المحيط الهندي الأخرى . وتجمع الشهادات كلها على الخراب الذي خلفته في المنطقة الممتدة بين « اونيني » و « كاتانغا » . وقد اشار ليفنغستون الى القرى الكثيرة التي احرقها النخاسون والى النساء

المشنوقات بسبب عجزهن عن اللحاق بالمواكب . والتقى ستانلي في طريقه الوف الخلائق المسارقة والمقطورة برقابها ، ووصف الزعيم البلدي باحثاً عنها في غاباتها وجامعاً اياها لحساب التاجر العربي ، على مثال « الشريف الانكليزي الذي يدعو ذويه لقنص ديك الخلنج او لاصطياد الغزال بواسطة كلاب المطاردة » ، واشار الى عملية سلب استهدفت ١١٨ قرية لم تسفر الا عن ٢٣٠٠ اسير . فأقفرت المنطقة على جانبي الطرق المؤدية من الساحل الى البحيرات الكبرى والحوض الكونغولي . وكانت النتيجة إبادة القبلة و إفناء معظم السكان لسنوات طويلة .

بلغت زنجبار ذروة مجدها بين السنة ١٨٦٠و١٨٨٠ تقريباً . وقد بسط السلاطين حمايتهم على داخل البلاد حتى الكونغو والساحل البرتغالي ، وأقدم بعض الدول على عقد الاتفاقات معهم ، وبعض المؤسسات التجارية على تأسيس فروع لها في الجزيرة . الا ان إلغاء النخاسة ما لبث ان اصبح فعلياً وقرع ناقوس نهاية زنجبار المتجرة بالزنوج .

الانتشار الاستعماري لافريقيا البانتوية

منذ السنة ١٨٨٠ عمدت الدول الاستعمارية الى تقاسم افريقيا الوسطى وافريقيا الشرقية وافريقيا الجنوبية . فارتسمت نطاقات ثلاثة : نطاق فرنسي بلجيكي يضم مناطق الكونغو باتجاه الاطلسي، ونطاق انكليزي الماني بمحاذاة المحيط الهندي، ونطاق ثالث ابعد الى الجنوب يسيطر عليه الالمان ولا سيما البريطانيون.

لم يكن الاوروبي ليستطيع التفكير الا باستخدام عمل البلديين من اجل تحقيق مقاصده . وقد رغب في تبشير الزنجي بالانجيل وإنقاذه من الرق و إفهامه حسنات استثمار أرضه استثماراً مبنياً على العقل . ولكن ما هو السبيل الى إرغامه على مقايضة محاصيل بجنية الاسمار – المطاط مثلا – بالملح والبضائع المرتفعة الاسعار ، والعمل في المغارس وبناء الخطوط الحديدية ، ونقل الاثقال ? فهو اما يرده بدون انقطاع « مبامي » (بلغ مني الجهد) و « كوكولو » (الرحة)، وأما يفر من العمل . وقد اعترفت جريدة التايمس في السنة ١٨٧٢ بأن « هذه الشعوب عنصر تصعب سياسته ... فهي تجهل الرغبات والحاجات المركبة التي تكون ما يدعى بالحضارة ، وان في ازعاجهم بدون داع في الحياة البربرية التي يعيشونها راضين وسعداء لمسؤولية كبرى » .
اما « برازا » الذي حاول نهج سياسة تعاونية على غرار فيدرب ، فقد افتدى الارقاء وعقد الاتفاقات مع الزعماء ، وطالب بالحاح بان « تتحاشى الادارة العليا والتجارة العليا استغلال المستعمرة استغلالاً سريعاً ، ولما يعلم البلديون ما نريده منهم » . الا أنه لم يلق آذاناً صاغية، كما لم تلق اذاناً صاغية نداءات ليفنغستون ايضاً . فقد تميز البلجيكيون والالمان بوحشيتهم . ونُدرج على سبيل المثل هنا ما أعلنه الدكتور بيترز : « يخضع الزنوج لدوافع أو لبواعث تختلف كل الاختلاف عما نخضع له نحن . اذا انا اعطيت الزعيم الزنجي ثوراً، فلن يلبث ان يحاول سرقة كل قطيعي . واذا ضربته بالسوط ، فانه يسرع الى اعطائي بعض الماشية » . فاستخلص من ذلك النتيجة الطبيعية التالية : « اذا احسنت معاملة الزنجي ، اعتقد بأنك تخشاه . واذا اسأت معاملته ، اعتقد بانك متفوق عليه » . ولذلك فان الحجة الأخيرة غالباً ما كانت السوط

المصنوع من جلد فرس الماء الذي درج البرتغاليون على استعماله . وحين لا يكفي الضرب والغرامات والسجن ، تؤخذ الرهائن وتعتقل النساء والاولاد في المعسكرات . لقد سيطر على افريقيا الوسطى نظام استثماري لا يعرف للرحمة معنى .

استمرت مستعمرتا انغولا وموزامبيك البرتغاليتان في فقرهما وضيق عيشها ، وبقيت النتائج غير مرضية في الممتلكات الفرنسية ، ولكن الكونغو البلجيكي والممتلكات الانكليزية الالمانية في افريقيا الشرقية عرفت نمواً اسرع حدوثاً. فقد انصرفت الدولة الحرة الى قنص الفيل اولاً، وانما توجب ايقاف التقتيل وحاجة الجنس. ثم استثمرت الاخشاب الثمينة استثماراً وحشياً. وفي السنة ١٨٩٥ اندفع الناس وراء استخراج المطاط اندفاعاً جنونياً لم يدم سوى عشر سنوات تقريباً . ولكن عصر المناجم ارتسم في أفق كاتانغا و « اواليه » . اجل كانت الشبكة النهرية ذات منفعة كبرى للمستعمرة ، ولكن ذلك لم يمنع ستانلي من القول : « بدون خطوط حديدية لا تساوي الكونغو فلساً واحداً » ! فدشن في السنة ١٨٩٨ خط « ماتادي » الى « ليوبولدفيل » .

بنى الانكليز والالمان كذلك خطوطاً حديدية تنطلق من الساحل وتسير في طرق القوافل: واتجهت افكارهم الى شجرة البن والمطاط ، فأهملوا تربية المواشي ، ولم يهملوا العاج الذي كان يوفر لهم ارباحاً هامة . وتصرفت « الشركة ذات الامتياز » تصرفاً مماثلا في كلا جانبي الزمبيز : فبنت الخطوط الحديدية وعمدت الى قطع الاخشاب الثمينة واقتربت من كاتانغا وشرعت على حسابها في انهاض « اساكل » الموزامبيك .

وعلى الرغم من التجاوزات الكثيرة ، فان النظام الذي فرضه البيض قد ادخل المناطق الافريقية الممتدة بين خطي السرطان والجدي في طريق اقتصاد جديد .

مدغشقر في عهد الهوفا ثم الفرنسيين

ان مدغشقر أكثر انتساباً الى الاراضي المتناثرة في المحيط الهندي وحتى في المحيط الهادي منها الى افريقيا التي تؤلف هي جزءاً منها . وكان « وليم اليس » امين سر جمعية لندن التبشيرية ، وأحد الاختصاصيين في شؤون اوقيانيا ، بين الأولين الذين اشاروا في السنة ١٨٣٨ الى اوجه التقارب بين اللغة الملاغاشية واللهجات البولينيزية (اسم النارجيل واحد) . أما « غرانديدييه » ، الذي اتاح لنا بمؤلفاته معرفة البلاد معرفة جيدة ، فقد شدد في اواخر القرن على بعض اوجه التقارب بين سكانها وشعوب الهند الجنوبية . ولكن الواقع الذي سلم به الجميع هو ان معظم المفردات المستعملة عادة ماليزية المنشأ . وباستطاعتنا التأكيد من ثم ان الاهوريناه ماليزيون يتميزون بقصر القامة والجسم النحيل والبشرة الزيتونية اللون ، أتوا بعد كل من سواهم وحققوا التفوق.

تعرف المنطقة الغربية باسم « تحت الريح » وتتميز بالجفاف والتربة المتحجرة أو الكلسية واساليب الزراعة المهملة (تافي) وقلة الاشجار وتكاد لا تصلح الا لتربية المواشي وتشبه القلد

الجنوبية : وهذا يفسر ظهر اوساكالاف ، والقبائل البدوية أو شبه البدوية الأخرى التي تربي الثيران الحدبا . أما المنطقة الشرقية المعروفة باسم « في الريح » والمتميزة بالرطوبة ، فقد حافظت على زراعات المناطق الحارة . وقد خلف العرب آثاراً في « سيبرانو » ، الى الشمال الغربي ، وفي المناطق الجنوبية الشرقية الآهلة بالـ « تيمورو » (« الساحليون ») ؛ وكانت « دياغو - سواريز » ملجأ القراصنة ، وأسس الفرنسيون « فور - دوفين » في القرن السابع عشر . وتشتت الـ « بليمباراكا » الحلاسيون في الغابات الساحلية وتعاطوا الصيد والزراعة وتربية المواشي واقتاتوا بالارز والاثمار والاسماك وسكنوا اكواخا من الخيزران ولم يلعبوا اي دور هام . اما الـ « تسيمبيتي » الذين اتقنوا الزراعة في جبال « تساراتانانا» فكانوا سائرين في معارج التقدم .

اشتهر بين السكان الـ « بتسيليو » والمرينا سكان المرتفعات والاحواض حول «تاناناريف » و « فياناراتسوا» . احسن البتسيليو الزراعة وبرعوا في الصناعة اليدوية وضموا أربع طبقات : الاقطاعيين والاشراف والاحرار والفداديين ؛ وحين أخضعهم جيرانهم، اصبحوا اشبه بفداديي (« منتي ») المرينا . أما عند المرينا فقد اختلفت النماذج باختلاف الطبقة الاجتماعية : فالـ « اندريانا » او الاشراف زيتونيو اللون ، على غرار الهوفا أو الاحرار وعلى نقيض الـ «منتي» والعبيد أو « اندبفو » . الارز قوام التغذية ، وليس للثور الاهمية التي له في الغرب . البيت مصنوع من الخشب وحده في مدينة تاناناريف الملكية . وخلفت عبادات الارواح الكثيرة التي تتناول كافة اعمال الانسان آثاراً تذكر بآسيا . وقام رب العائلة بوظيفة كهنوتية، وأدار مجلس القدماء (فوكون اولونا) شؤون القرية .

عدد سكان الجزيرة غير مرتفع ، وهو لم يتجاوز المليونين في الارجح (وان قدره بعضهم خطأ بثمانية ملايين) . ومرد ذلك الى انهم عانوا من سوء التغذية وامتحنوا بالملاريا في الشواطىء وبالبرص والطاعون وتعرضوا للزحار وذات الرئة ؛ ويبدو ان السفلس كان واسع الانتشار ، وسيتسع كذلك فتك داء الزهري بفعل التجارة الاوروبية .

الا ان دولة هوفية تأسست مستهدفة السيطرة على انحاء الجزيرة . فقد توفق « اندريانامبوا نيمبرينا » في اواخر القرن الثامن عشر الى جمع المرينا واخضاع البتسيليو وتشكيل جيش وجباية جزية منتظمة بواسطة مجالس القرى . وكانت الارض ملكاً له يوزعها اقطاعات (مناكلي) على الاشراف الذين يشركهم بالحكم ، فبنى سدوداً وطرقات . ووفرت له نفدادية والرق اليد العاملة الضرورية . وقد صرح بما يلي : «يجب ان يكون البحر الحد الاخير لرزاقي» ؛ وأرسل الحاميات العسكرية الى المناطق التي أخضعها .

برهنت ملكية تاناناريف عن بصيرة ثاقبة حقيقية فعرفت زمناً طويلاً كيف تستغل التنافس الانكليزي الفرنسي وتستفيد من خدمات الاوروبيين دون التسليم بشروطهم . واذا تفوقت

الارساليات البروتستانتية على الارساليات الكاثوليكية – (بلغ عدد البروتستانت ٣٠٠٠٠٠ على الاقل في السنة ١٨٩٥ مقابل ٧٠٠٠٠ كاثوليكي – لقد عقدت بالمقابل معاهدة مع فرنسا في السنة ١٨٦٣ . ولكن العهد الحاسم كان الفترة الممتدة من السنة ١٨٦٤ الى السنة ١٨٩٦ التي سيطرت عليها شخصية « رينيلايارينفونا » الذي برز من بين صفوف الشعب واصبح رئيس وزراء الملكة « رازوهيرينا » ثم بعل « رانافالونا» الثانية و« رانافالونا» الثالثة.ففي السنة ١٨٦٨ ، بدا وكأن الدولة الهوفية سائرة نحو « ميجي » ، ع . لى غرار يابان « موتسو – هيتو » ، وبمساندة بريطانيا العظمى التي اسعفن بضباطها وخبرائها الفنيين : اعتماد البروتستانتية معتقدين دولة ، فتح مدارس توفر تعليما انكليزياً هوفيا ، احلال الموظفين الملكيين على الاقطاعيين ، جمع الاعراف السائدة في مجموعات كاملة ، ومنع الاجانب من امتلاك الارض . فانتشرت الاخلاق الاوروبية انتشاراً بطيئاً ، ونمت الصناعة اليدوية وتقدم التعليم . ولكن الفدادية والرق لم يزولا .

ما كانت الحكومة الهوفية في الحقيقة لتحرز الغلبة لو نشب نزاع مسلح بينها وبين دولة اوروبية اخرى، اذا لم يتدخل الانكليز لمساعدتها . والحال نشب هذا النزاع حين ارادت فرنسا وضع اليد « ساكالاف » تحت حمايتها . ففي السنة ١٨٨٥ ، وبعد فرض الحماية الفرنسية على تونس ، اضطرت ناناريف الى استقبال مقيم فرنسي . ولكن نظام الحماية اصطدم ببعض العقبات ، فتمت عملية « وضع اليد » بعد ذلك بعشر سنوات .

أزالت فرنسا نفوذ المرينا وواصلت في الوقت نفسه عمل الملوك الهوفيين وانتدبت غالياني الذي اعتمد سياسة أشبه بالاستبداد المستنير . فبعد ان استخدم القوة بغية اخضاع البلاد نهائياً عمد الى استخدام النخبة البلدية باخضاعها لسلطة موظفي الوطن الأم ؛ وألغى الرق ، ولكنه فرض خدمة خمسين يوماً في السنة للاشغال العامة (وهو فرض سيحوّل الى ضريبة) ؛ وراقب تعليم رجال الدين ، ولكنه قنع بأن تعد المدارس موظفين للدوائر ؛ والغى امتيازات الطبقات، ولكنه لم يقو على عزلة الفرنسي وحواجز المجتمع . وليس من شك في انه رغب في معالجة نقص وسائل النقل وحماية الجزيرة من الاستثمار العقاري على ايدي الشركات الرأسمالية الكبرى ؛ وانما نظراً لندرة رؤوس الاموال،لم يعد له استخدامها في قطع الاشجار والبحث عن الذهب وانتاج البن بالتفضيل على تحسين الماشية وتوسيع زراعة الارز . فاضطرت مدغشقر من ثم الى استيراد الارز والعدول في الوقت نفسه عن ابتياع سكر جزيرة «ريونيون » القريبة ونسائجها المفضلة على نسائج الرافيا. وانشئت مدينة على النمط الاوروبي تحت العاصمة القديمة ، ولكن العمران في المناطق الاخرى بقي في حالة يرثى لها . وبحسب الظواهر كان المفتش راضياً بنصيبه .

جزيرتان لتجارة السكر : موريس وريونيون

كانت « بوربون » و « جزيرة فرنسا » الجوهرتين الفرنسيتين في بحر الهند خلال القرن الثامن عشر في عهد « صاحبه دي لا بوردونيه » . وهما تشابهان جزر الانتيل الصغرى بطبيعة ارضهما البركانية ، ومناخهما الحر والرطب – في كل منهما منحدر في الريح وآخر تحت الريح – ، وارتفاع كثافة سكانها .

في السنة ١٨١٥ احتفظت بريطانيا العظمى بالجزيرة الاولى واعادت لها الاسم الذي اطلقه عليها الهولنديون اكراما « لموريس دورانج » . الا انها بقيت فرنسية اللغة والروح ، ودانت بنجاح مغارسها للادارة البريطانية ولضمان تصريف سكرها في أسواق الوطن الام ولوفرة اليد العاملة الهندية . الا ان فتح ترعة السويس قد ألحق الضرر بتجارة « بور لويس » .

أما مصير جزيرة ريونيون فكان أكثر تقلباً . فبعد الازدهار الذي عرفته بفضل بن « بوربون » ، وقرنفلها نزلت بها كارثتان : اعصار السنة ١٨٠٦ والحروب الفرنسية الانكليزية . الا ان ادخال قصب السكر اثناء الاحتلال البريطاني أتاح تجدد الازدهار فيها . فبينما تأخرت زراعة شجرة البن وانحصرت اخيراً في المهابط القائمة تحت الريح ، ازدهرت زراعةقصب السكر والونيلية في « مساكن » المنحدر المروي ، اعني بها تلك الاستثمارات الكبرى التي أدارها « القادة » . وقد انتج السكر بكميات كبرى على حساب المزروعات الغذائية والغابات . فتضاعف عدد السكان بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٠ . وانشئت طريق دائرية جديدة ، كما شرع في بناء خط حديدي دائري ايضا ؛ وبنيت بعد حين خطوط خاصة صغرى لتؤمن الوصول الى الاملاك المدرّجة . ثم عانى قصب السكر من الحشرات الطفيلية ومنافسة السكر . فبدأ عهد انحطاط هذه الزراعة . وفشلت محاولة استحضار العمال الهنود الصينيين . فتضاءل حجم التجارة التي تعاطاها هنود من بونديشيري وعرب وصينيون ومؤسسات ايداع اقتصرت على بيع السكر من التجار في الخارج . فعم التشرد ، وعرفت بعض المناطق داء التهاب الاوعية اللمفاوية وزاد انتشار الملاريا ، فتدنى عدد السكان .

عهد المرسلين والتجار وصيادي الحيتان في الباسيفيكي

خلال القرن التاسع عشر ما زالت الجزر المتناثرة في المحيط الكبير معتبرة في نظر الاوروبيين وكأنها تؤلف عالماً خاصاً متميزاً بعزلته وغرابة نماذجه العنصرية : وقد تضاربت الآراء في اصول وتشابه « الزنوج الشرقيين» – الميلانيزيين والمكرونيزيين – و«البرابرة البيض» اي البولينيزيين » على السواء . فقد تكلم كوك من قبل عن « فينيقيي العالم الشرقي » ؛ وتتبع بعضهم التزوحات البولينيزية انطلاقاً من مصر ، فطلعت احدى النظريات بأن هذه الشعوب انما هي بعض « اسباط اسرائيل التائهة » . ومهما يكن من الامر فان هذه الحضارات ، على الرغم

من انسجامها الكلي مع البيئة ، لم تكن لتتجاوز مرحلة الحجر المصقول [1] .

وصف الرواد المستكشفون جنة عدن حقيقية ، فقصد هذه المناطق بعدهم، وفي وقت واحد، رجال مقتنعون بأن هناك بشرية مستعدة لتقبل كلام المسيح واشخاص آخرون علقوا النفس باستثمار موارد الارض استثماراً سهلاً . اما الحكومات فوقفت موقفاً متحفظاً متحذراً ؛ فقد انتهى « غيزو » الى العدول عن سياسة الحمايات التي انتهجها امير البحر « دوبتي توار » : ولم يحتفظ الفرنسيون الا بـ « تاهيتي » . أضف الى ذلك من جهة ثانية ان المرسلين البروتستانت كانوا تواقين الى ادارة شؤون البلديين بأنفسهم .

بدأ التوسع المسيحي في تاهيتي في السنة ١٧٩٧ بوصول الـ « دوف » الذي ارسلته الجمعية التبشيرية في لندن . ثم اسرع المبشرون ، في كل مكان تقريباً ، الى محاولة استمالة الزعماء والتأثير بواسطتهم على السكان . فاوصوا بتحطيم الاصنام والاقلاع عن الاعتقاد بقدسية الاشياء واكل لحم الآدميين والحروب ، ودعوا كذلك الى الاقلاع عن العري والوشم والرقصات الطقسية ، ونادوا بوحدة الزواج وعظموا فضول العائلة وفتحوا المدارس ؛ وهاجموا احياناً ، في بولينيزيا ، امتيازات النبلاء . وفي جزر كوك ، انشأت جمعية الارساليات رقابة تيوقراطية حقيقية ، جاعلة من « المساكنة خارج نُوتق الزواج » جرماً ، وبحظرة الخروج من الاكواخ اثناء الليل . وفي « غامبيه » اشهرت السلطة العسكرية الفرنسية الاب « لافال » كمستبد « ضحكة » . فاهتدى بعض الزعماء خوفاً ، وارتد غيرهم احتياطا) . وفي اغلب الاحيان عمل البلدي بطقوس لم يدركها جيداً . أضف الى ذلك ان قدسية الاشياء قد استهدفت كبح غرائز شريرة تحررت الآن . فوهى تلاحم الجماعة وتشوش نشاط المجتمع . ولم تنس الارساليات من جهة ثانية واجبها في تأمين حاجاتها الخاصة ؛ فتعاطت التجارة وجنت الارباح من بيع الالبسة والادوات المعدة في الاصل لموعوظيها ، ولم تتوان عن جمع الثروات الطائلة عن طريق تجارة اللآلىء .

تدفق على الجزر مغامرون مختلفون كثيرون. فقد خطر لاحد التجار الاميركيين من مقايضي الفراء بالحرير في الصين ان ينقل خشب الصندل ويعرضه على زبنه الآسيويين . واهتم تاجر آخر بـ « خيار البحر » الذي رغب فيه مترفو كانتون لمذاقه وخواصه الناعوظية . ثم لفت الانتباه عرق اللؤلؤ وعرضت المسائج القطنية والسكاكين والبنادق وعرق السكر ؛ وبلغ من بعضهم ان احتجزوا الرهائن الى ان تُسلم الكميات المطلوبة. وعانت كافة الجزر التي تكثر صخور شواطئها تحت وجه البحر معاناة متفاوتة من الاصداف اللؤلؤية . ولم يندر ان استيق البلديون عنوة الى السفن لملء الفراغ الذي يتسبب فيه داء الخمر في صفوف البحارة . وقد استفاد ملوك بلديون كثيرون من جشع البيض : كملك هاواي الذي ارغم رعاياه على اهمال المزروعات الغذائية وقطع خشب الصندل ، فأحدث مجاعة في البلاد .

---

(١) « تاريخ الحضارات العام » ، المجلد الخامس ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨ (الطبعة العربية) .

لم تكن زيارات سفن صيد الحوت الشواطىء أقل تسبباً في المصالب. فقد عمد بحارتهـــا الى المقايضة للحصول على المواد الغذائية الطازجة ، ولكنهم لم يمتنعوا عن اساءة معاملة السكان باغتصابهم النساء واختطافهم الرجال أو قتلهم اياهم. وذلك بعض المناطق، كجزر «سوسيتيه» وفيدجي و«مارشال» و«كارولين» ، التي لم تنهض قط بعد الويلات التي حلت بها .

عهد التجارة والمناجم في اوقيانيا

بعد السنة ١٨٥٠ زادت اعمال السلب والنهب. فكان مضيق «توريس» بدوره مسرح اندفاع وراء الاصداف اللؤلؤية ، فأطلق عليه اسم مشؤوم هو «بالوعة الهادي» . ولكن اشكالاً استثمارية جديدة رأت النـــور ونمت نمواً عظيماً فاستتبعت اللجوء الشامل الى العمل الالزامي .

منذ السنة ١٨٣٥ ، لفتت جزر هاواي الانتباه بسبب السهولة التي توفرها لزراعـــة قصب السكر . فاشترت بعض الشركات الاميركية الاراضي واستحضرت عمالاً صينيين ويابانيـــين وفيلبينيين ، وبرتغاليين بعد حين . وولجت جزر فيدجي كذلك وجهها شطر انتاج السكر بعد فشل زراعة القطن التي بنيت عليها الآمال اثناء الحرب الانفصالية .

ولكن اوقيانيا اعتبرت في الدرجة الاولى قادرة على انتاج جوز النارجيل ، وقد تكلـــم بعضهم عن حضارة النارجيل ، اذ ان هذه الشجرة تؤمن معيشة سكان الجزر ليس بتوفيرهـــا غذاء وشراباً كحولياً فحسب ، بل مواد بناء البيوت والمادة الخام التي يستخدمونها في صناعـة شتى الادوات ايضاً . وفي العديد من الجزر اعتاش البلديون من تقديم الجوز الى زعمائهم المتعاملين مع التجار . وبسبب نقص اليد العاملة في «ساموا» لجأت مؤسسة غودفروا الهامبورغية ، الى العمال الميلانيزيين والصينيين ، دون ان تحقق نجاحاً كبيراً على كل حال ؛ ولجأت جزر فيدجي الى جزر «سليمان» للحصول على اليد العاملة .

كانت الحاجة اشد إلحاحاً الى اليد العاملة لاستثمار باطن الارض . فبعد ان اكتشف صيادو الحيتان الفوانو في ألوف الجزر الصخرية ، العارية والمقفرة احياناً ، عمـــدت بعض الشركات الاميركية الى استخراج هذا السماد الثمين : وتوجب لذلك الاقتراب من الشاطىء عبر الصخور الناتئة فوق سطح البحر ، وتأمين العيش بمواد غذائية تستحضر مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر من هونولولو أو من «ابيا» ، ونقل اكياس السماد الى مكان رسو السفن؛ فوقعت ضحايا كثيرة جداً بين البولينيزيين لا سيا في جزر «فينكس» . وحوالى السنة ١٩٠٠ كثر الكلام عن الفوسفات في «نورو» و«اوقيان» ، حيث استحضر عمال يابانيون لاستخراجه . وبوشر في كاليدونيـــا الجديدة استخراج النيكل والكروم والكوبلت ، وقد اعاقه عداء الـ «كاناك» الذين لم يسلموا كذلك باستملاكات الاراضي للمهاجرين الفرنسيين من أجل زراعة شجرة البن وتربية المواشي ؛ وفي اعقاب ثورة خطيرة نشبت في السنة ١٨٧٨ ، طلب العمال الصينيون بواسطة بيوت التجار وعاش الافيون في هونغ - كونغ وكانتون .

تقويض المجتمعات القديمة وافقار اوقيانيا حتى التقسيم الإستعماري

لا يرد تأخر تقسيم الجزر الى انتظار تقدم وسائل المواصلات واقامة خطوط تجارية منظمة واكتشاف بعض الثروات ردّه الى ركود الاحوال التجارية الذي حرك المنافسة والمطامع بين السنة ١٨٨٠ و١٨٩٥. ففي السنة ١٨٥٠ كانت تاهيتي وحدها خاضعة لحماية، وحين قررت باريس ضم كاليدونيا الجديدة اليها وقفت اوستراليا موقفاً معارضاً. ولم يقدم البريطانيون بحماس على ضم جزر فيدجي. ورفض بسمارك مساندة مؤسسة «هانسمن» التي اقترحت عليه تأسيس مستعمرة في غينيا الجديدة. الا ان دخول المانيا الحلبة، عشية افلاس مؤسسة غودفروا في جزر ساموا، هو الذي استعجل عملية التقسيم بين بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة. وكانت الدبلوماسية كافية لتنفيذ هذا العمل.

على غرار افريقيا ما بين خطي السرطان والجدي، عانت اوقيانيا الكثير من الويلات التي حلت وفتكت بسكانها. اجل ان في تقديرات الروّاد الاولين ما يثير الريبة؛ افلم يقدر كوك سكان تاهيتي بـ ٢٠٠٠٠٠ نسمة وسكان هاواي بـ ٣٠٠٠٠٠ — ٤٠٠٠٠٠ نسمة؟ ففي السنة ١٩٠٠ لم يجاوز سكان هذا الارخبيل الاخير الـ ١٢٥٠٠٠ نسمة، وما كان هذا العدد ليضم الا ٣٠٠٠٠ بلدي فقط. وليس من شك في ان اراضي كثيرة قد فقدت ثلاثة ارباع السكان، ان لم تفقدهم عن بكرة ابيهم وحين تتدلى النسبة فمعنى ذلك ان الهجرة تملأ الفراغ. فكما ان اوستراليا (اوستراليا وزيلندا الجديدة) قد اصبحت انكلوساكسونية بعد انقراض التاسمانيين والاوستراليين والموري، أو سيرهم في طريق الانقراض، كذلك جاء الهلاسيون والآسيويون يبدون إعمار معظم الفراديس الصغيرة المدفئة على الاقفار.

أجل لم يكن تدني نسبة الولادات حدثاً جديداً بسبب تضافر الحروب واكل لحوم البشر والامراض على ايقاف انطلاقة ارتفاع عدد السكان. ولكن المهاجرين المستعمرين قد زادوا في الطين بلة. فقد قتلوا الاهلين أو انهكوهم بالاشغال الالزامية الشاقة او ابعدوهم بأعداد كبرى (من اجل استخراج الغوانو، اختطف البيروڤيون والشيليون نصف اهالي جزيرة «الفصح» وثلاثة أرباع اهالي جزيرة «نوكوليلي» في أرخبيل «اليس»؛ وكادت ميلانيزيا تقفر كذلك بسبب حاجة اوستراليا الى اليد العاملة). وباعوا اسلحة قتالة ومشروبات روحية. واذا هم لم ينقلوا امراض السفلس والسل والتدرن الرئوي التي يرجح انها قديمة العهد في الجزر، فقد نقلوا الجدري والحصبة بكل تأكيد. وقد أورد «لوتي» انطباعاً بشرية في حالة الاحتضار بسبب ما كان لجرد مخالطة البيض، وما جاؤوا به من مصطلحات واعراف ورذائل، من اثر انحلالي فاسد. وكان مقدراً كذلك لـ «غوغين» و«البدائي» الذي جاء الى تاهيتي يتوسل فيها «الانخطاف والهدوء والفن»، «غوغين» و«البربري» الذي حقد على حضارة مزعجة، ان يعاني الكثير من الواجبات الثقيلة المفروضة على البلديين ومن الصغائر الادارية.

« لم تلبث حيالي في« بابيت» ان اصبحت وقرأ يضايقني . كنت مرة اخرى في أوروبا – اوروبا التي اعتقدت بأنني حصلت على حريتي بمغادرتها – وقد زادت على بشاعتها الاثرة الاستعمارية والتقليد المضحك الـمخزي لأخلاقنا وطرائقنا ورذائلنـــا وألاعيبنا الحضارية الـــتي تثير الاستهزاء ... » . فأين نحن من الاسطورة التاهيتية التي رواها بوغنفيل؟ لا بل هل كان حرياً بنا الاكتفاء بتوصية ديدرو : « تاجروا معهم ، واشتروا منتجاتهم ، واحملوا لهـــم منتجاتكم ، ولا تقيدوهم » ؟

الفصل السادس

الهند وآسيا الشرقية
أمام التوسع الغربي

« كنت اعتقد آنذاك بأن السيطرة الانكليزية مفيدة بالنتيجة لأولئك الذين تبسط عليهم » .
(غاندي ، « اختبارات الحقيقة ») .

« املاق حضارة النبات » في آسيا

توزع نصف البشر على السهول – الكبرى والصغرى – من مناطق الهند والشرق الاقصى في آسيا . لذلك كانت نسبة كثافة السكان مرتفعة في بعض هذه المناطق المعروفة بمناطق الرياح الموسمية . فنحن نعرف ، بفضل كتاب « احصاءات هندية » ان الكثافة قدرت في السنة ١٨٩١ بـ ١٥٣ نسمة في كل كيلومتر مربع من الاقاليم الخاضعة للادارة البريطانية وبـ ٢٠٠ وحتى ٣٣٠ احياناً في الكيلومتر المربع حيث يتجمع ٦٧ ٪ من السكان في ٣١٪ من مجموع مساحة البلاد . ويمكن اعتماد الارقام والنسب نفسها في اليابان وجاوا وصين الولايات الـ ١٨ والمناطق الدلتاوية في شبه الجزيرة الهندية الصينية . ويلاحظ من جهة ثانية ان ٢٢٢ مليوناً هندياً من اصل ٢٨٢ اقاموا في قرى لا يتجاوز سكانها الـ ٢٠٠٠ نسمة . وهذا يعني ان سواد الآسيويين من اهل الارياف .

تتألف طبقة الفلاحين هذه في الدرجة الاولى من اهل قرار يتعاطون الزراعة ولكنهم يحقرون – الا في اليابان – زراعة الغابات (لان الغابة نطاق بري) ويرفضون كل ما يذكر بالحياة الراعوية الطليقة بالبدو أو أشباه البدو في المناطق الجافة ، الذين تبعدهم عنهم تقاليد معيشة راسخة . ويلاحظ ان سكان اشباه الجزر يقرنون الجاموس والبقر الهندي في اعمال الحراثة ويستهلكون زبدة مغلاة ، ولكن سكان الهند لا يأكلون اللحوم . أما سكان آسيا الشرقية ، الذين يربون الطيور الداجنة والخنزير – الذي يحرمه الاسلام – فلا يعرفون كيف تحلب البقرة

ويفضلون الاسماك . فنحن من ثم امام « حضارة نبات » قوامهـــا غذاء من الحبوب والبقول وأمورات يكاد المعدن لا يدخل فيها : حضارة الارز الذي ينتج في كل مكان تقريباً ، وحضارة الحبوب الاخرى بعد ذلك ، وحضارة الخيزران الذي يستخدم استخدامات شتى . وبالاضافة الى ذلك ، اذا لم تجد تربية المواشي مكانا لها في هذا الاقتصاد ، فلأن هذا المكان ربما بـــدا كبيرا جداً .

يرتكز كل شيء الى العمل البشري المضني . فزراعة الارز ، الشاقة بحد ذاتها ، تتطلب عناية فائقة . ولما كانت الارض نادرة وعزيزة وموضوع نزاع عنيف ومثقلة بالضرائب والمرابات ومجزأة الى مـــا لا نهاية له (على العائلة ان تكتفي بـ ١٥٠ آراً في الهند ، و ٥٠ في اليابان ، و ٢٥ في كوريا ، وتبدأ الاملاك الكبرى اعتباراً من ٣ هكتارات في دلتا تونكين) ، فلأن هذه الزراعة تصبح اشبه بعمل الحدائق الدقيق جداً الذي يتوخى الفلاح منه اكبر انتاج ممكن. ومهما يكن من مهارة الفلاحين، فان مثل هذا الصراع اليومي يخبىء المفاجآت ويجر خيبة الامل احيانا . وهناك الحاجة الى الاسمدة التي تجعل من الفضلات البشري مادة ثمينة في الصين . وهناك كذلك الصراع ضـــد المياه التي تأتي بالفيضان الخصاب ، ولكنهـــا تغمر الاراضي المزروعة (وفي اماكن كثيرة زاد قطع الغابات من خطر الفيضانات المخربة) : وقد حدثت ادهى كارثة في السنوات ١٨٥٠ – ١٨٥٣ حين انتقل نهر « هوانغ – هو » من مجراه الى مجرى « بي – تشي – لي » مبتلعاً الوف الضحايا ومخفياً مناطق كاملة تحت طبقة كثيفة من الرمول. وتسبيت الاعاصير الدولية العاتية على السواحل والامواج المرتفعة المتلاطمة ، والزلازل في اليـــابان باضرار كبيرة أخرى دورية . ولكن مناطق الجدب القريبة في آسيا تترك أثرهـــا الرهيب ايضاً . فسنوات الجفاف سنوات مجاعة في الصين والهند . وربما بلغ عدد ضحايا الاولى ١١ مليوناًفي السنة ١٨٤٩، وبين ٩ و ١٣ مليوناً في السنوات ١٨٧٧ – ١٨٧٩ بينما أتى الجراد بعد ذلك على مزروعات ١٣ ولاية من اصل ١٨ . أما في الثانية فقد نزلت البلية في مواعيد متقاربة : فقـد اماتت أكثر من مليون نسمة في منطقة « اوريسا » في السنة ١٨٦٦ و ٤ ملايين في هند الامراء في السنة ١٨٦٨ ، وفتكت بـ ٢٠٠ الف رأس ماشية في « راجبوتانا » وحدهـــا ؛ وحلت بـ ٤١ مليوناً هندياً في السنة ١٨٧٧ وأودت بحياة زهاء ٤ ملايين منهم ايضاً ؛ ولكن الفاقة شملت ٧٧٤ الف كيلومتر مربع و ٧٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٥ ؛ وفي السنوات ١٨٩١ – ١٩٠١ هلـك نصف الاولاد الذين لم تجاوز اعمارهم ٥ سنوات في « بيرار » (وان برو كوفياف – وكان في سنه السادسة – ، الذي كان وقعُ ما حدث كبيراً عليه ، قد ألف حينذاك « القناص الهندي ») ، وفقـــدت المقاطعات المتحدة ٨٪ وولاية بومباي ٥٪ من سكانها . فلا عجب من ثم اذا ما توفق الفرنسيون ، في السنة١٨٥٩ ، الى تجويع هوّيه باحتلالهم دلتا ميكونغ حيث تتزود عاصمة « انام » بالارز ، واذا ما أمل كوربيه باستسلام حكومة بكين اثناء حملة السنة ١٨٨٤ – ١٨٨٥ باعتراض طريق القوافل الآتية من كانتون . كانت التغذية نباتية وبالتالي سيئة جداً . وان الفـــلاح في الصين

الجنوبية لم يستهلك المنطقة استهلاكه لل « كلو - ليانغ » (نوع من الذرة البيضاء) ، كما ان فلاح الهند لم يستهلك الارز استهلاكه الجاورس أو لاصناف أخرى من الذرة البيضاء . واستهلكت كذلك البقول الجافة التي تحشو المعدة وتجنب اوجاعها . واعتبر الشاي ، على غرار الارز ، مادة بذخية احياناً. وقد استلزم هذا الغذاء المائل ابداً، العسير الهضم اجمالاً ، بعض التوابل وحساء البصل الصيلية وحصية هضم الاسماك الذاتي المعروفة عند الفيتناميين باسم نووك - نام . وكان من المجاملات الصينية الدارجة طرح هذا السؤال : « هل تناولت الطعام ؟ » وقد وفر احتساء المشروبات الروحية وتدخين التبغ مزيداً من الانشراح ؛ كما وفر مضغ الفوفل والتنبل احتياجاً مستحباً . وقامت بين الهند والصين تجارة الافيون رائجة .

بالاضافة الى سوء تغذيته ، لم يتوفر للآسيوي مسكن مريح . وقد يحدث احياناً في الصين ان تذيب امطار الصيف الغزيرة جدران مساكنه المبنية بالطين الجفف . وغالباً ما التهمت النيران في اليابان المساكن الخشبية الجميلة . أما الملبس ، وهو عادي اجمالاً ، فقد منع في المنزل على العموم . وعاش شطر هام من السكان ، في المناطق الحارة ، مرتدين ثياباً رثة أو شبه عراة . وفي كل مكان شوهدت اعداد كبيرة من الزهاد والنساك والمتسولين . واذا كان البؤس من اسباب ارتفاع نسبة الولادات ، فانه يفسر في الوقت نفسه نسبة الوفيات المرتفعة ايضاً بين الاطفال وقصر الحياة . اضف إلى ذلك ان الأمراض التي يسهل انتشارها سوء التغذية وسوء التدابير الصحية تضم نتائجها الى نتائج المجاعة . فالكوليرا منتشرة ابداً هنا أو هناك في الهند : ويقدر بعضهم انها فتكت كل سنة بـ ٦٪ من السكان بين السنة ١٨٨٢ والسنة ١٨٩٠ ؛ ولكنها غالباً ما انتشرت في الشرق الاقصى ، وحتى في اليابان ، ايضاً . ولم يكن الطاعون أقل فتكاً ، بشكليه الدبيلي والرئوي : فقد هلك زهاء ٥٠٠ الف شخص سنوياً في الهند بين السنة ١٨٧٨ والسنة ١٨٨٧ ، و ٨٠١ الف في السنة ١٨٩١ و ٧٢١ الفاً في السنة ١٨٩٢ . وهو قد ظهر في الصين احياناً . وقد انتشر فيها انتشاراً واسعاً بعد الحرب الروسية اليابانية . وغالباً ما انتشرت كذلك اوبئة التيفوس والحمى التيفية والزحار والجدري . وسيطر الـ « بربري »(أو « كاكيه») على المناطق المنخفضة بين ماليزيا واليابان . وحوالي السنة ١٩٠٠ اصيب ١٣ الف شخص بالجذام في الهند وأكثر من ٥٠ الفاً في الهند الصينية ؛ ولكن الصين كانت المركز الأول لهذا المرض . ويعتقد بعضهم ان الملاريا تسببت في البنغال بوفيات تفوق كل ما تسببت به كافة الأمراض السارية الأخرى؛ يضاف الى ذلك انها كانت تعرّض الاجسام للنزلة الوافدة . وهناك، الى جانب هذه الأمراض كلها ، حيات فتاكة كثيرة .

رغب كل الناس في البيع بسبب نقص الوسائل النقدية . فقد امتلأت الطرقات بالفلاحين المترددين على الاسواق . وعوضاً عن استهلاك المواد التي لا تباع باسعار مرتفعة ، كان الفقير يعرضها بغية الحصول على بعض المال . وقد صرف ذهنه وفطنته في انتاج مصنوعات مختلفة لا تخلو من الذوق السليم . فانصرفت بعض القرى ، كما في الكونغو ، الى انتاج المصنوعات الجلدية ، بينما انصرف

غيرها الى صناعة المذاري والسلال والخزفيات والحدادة والحياكة . وكادت كل الأشياء تصنع باليد دونما حساب للوقت الذي تستغرقه صناعتها . ومهما كان من ضآلة المكسب ، فانه كان يوفر دخلاً لا يستهان به . فهكذا أعد الشاي والتبغ وصنع الحرير في الصين واليابان ، وهكذا رأت النور المصنوعات الترتيبية الكثيرة التي تنم عن ذوق فني رفيع جداً . أما في المدن فقد تكدس العديد من الريفيين ، وتعرضوا للفاقة والامراض ، ولكنهم توفقوا الى الارتقاء احياناً بمزاولة الأعمال التجارية . ويجب اخيراً ان يحصى بالملايين اولئك الذين استخدموا ، كالحيوانات، لنقل البضائع أو المسافرين بواسطة المركبات الخفيفة ذات العجلتين ، والنقالات الشراعية في الصين الشمالية ، والزوارق ذات المجاذيف .

استمرار حالة الفقر والنزوحات الآسيوية: حاجات الاستعمار الاوروبي وجاذب العالم الجديد

كانت آسيا منذ القدم مستودعاً بشرياً كبيراً ، ومن ثم منطلقاً لنزوحات كثيرة : نزوحات القوافل باتجاه اوروبا والمتوسط ، ونزوحات سكان اشباه الجزر والأرخبيلات باتجاه جزر المحيط الكبير ، ونزوحات الصينيين الى الفيلبين والجزر المالیزية. وخلال القرن التاسع عشر انقلبت الحركة في الجهة البرية ، ولكنها اتسعت على الطرقات البحرية ، في الوقت نفسه الذي تعاظمت فيه حركة انتشار الاوروبيين وفتحت ابواب اميركا على مصراعيها امام الهجرة . اجل لقد واصل الغرب السيطرة على الجماهير الآسيوية ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، اجتذب هذه الجماهير خارج مناطقها رغبة منه في معالجة حالة الفقر معالجة جزئية ، وجني مكاسب مهمة أيضاً . واذا لم يكن مرغوباً فيهم دائماً ولم يستقبلوا استقبالاً جيداً ، فقد توزع المهاجرون الآسيويون ، من عمال مقترين أو تجار مهرة ، اما على ممتلكات الدول الاستعمارية ، واما على مختلف مناطق الاميركتين . وعما إلغاء الرق ونقص اليد العاملة المحلية ما اتاحا لهم العمل بصورة عامة . ولما كان الهندي احد رعايا الامبراطورية البريطانية ، فقد بحث عن الاقامة في مستعمرات هذه الامبراطورية ما بين خطي الجدي والسرطان : في جزيرة موريس ، أو افريقيا الجنوبية ، أو في الساحل الغربي من افريقيا ، أو في غويانا او في جزر المحيط الهادي . ولما كان الماليزي خاضعاً من جهته لهولندا فقد طلبته العمل في مغارس سورينام ، كما طُلب الفيتنامي ، الخاضع لفرنسا ، للعمل في حقول ومناجم كاليدونيا الجديدة . وهي اوروبا التي فتحت باب الهجرة الصينية الكبرى بفتحها المرافىء الخمسة في السنة ١٨٤٢ بموجب معاهدة نانكين؛ وصادفت هذه الهجرة في الزمن عهد اضطرابات خطيرة في الامبراطورية السماوية . فمنذ السنة ١٨٤٦ ظهر العمال الآسيويون في كوبا والبيرو . ثم تضخم السيل وصب في اشباه الجزر والارخبيلات القريبة في الجنوب الشرقي الآسيوي ، وفي جزر الباسيفيكي وشواطئه النائية . وما لبث ان اتجه شطر منشوريا بعد ان اعترض سبيله هنا وهناك .وظهر اليابانيون بدورهم في هاواي وكاليفورنيا واوستراليا ، على الرغم من نفورهم من مغادرة بلادهم

ولكن هجرة البؤس هذه لا تمثل سوى نسبة ضئيلة جداً من الجماهير الآسيوية . يضاف الى ذلك ان اكثرية المهاجرين قد سافروا على امل العودة وحافظوا على غريزة التضامن القومي .

قوة التقليد

ان جمود التقنيات ونقص الموارد يستتبعان ديمومة المؤسسات الاجتماعية التي تكرس بدورها التعلق بالماضي . فيصبح الرضى بتدبير الله الفضيلة السامية الاولى . وقد قال « لاوتسو » : « ان من يكون قنوعاً يكون سعيداً ابداً » .

وتدعم حياة الجماعات « الكلية القدرة » في تنمية هذه الذهنية . فالفرد الخاضع لطبيعة لا يقوى عليها بسهولة ، يشعر بأنه ضعيف ومتروك لقواه وحدها . وهو لا يعيش الا بدلالة العائلة وبحماية العفاريت المنزليين ، ولا يقدم شيئاً على الاحترام البنوي وواجباته نحو اقربائه . ففي اليابان يكون الشخص « هي – نين » ، اي غير انساني ، اذا لم يَلق بالقربة التي ولد فيها . والمسكن الجماعي هو الطراز المألوف لأنه يستجيب لرغبات التعاون على العناصر والاعداء . ونجد روح التعاون هذه في المعمل الذي يغار على امتيازاته في المدينة والارياف على السواء . لا بل ان معظم الطبقات الهندية المقفلة ترتدي طابعاً مهنياً .

ولسلطة الدين تأثير مماثل . أجل ان الديانة الهندية تمر في أزمة . فالبراهما المثقفون ليسوا على اتصال بالجماهير التي يحتقرونها ، وتتساهل الطبقات الدنيا مع وثنية غليظة جداً حين لا تشجعها تشجيعاً . ويتميز سواد الملايين الخمسة من النساك والكهان الذين ضمتهم الهند حوالي ١٩٠٠ ، واعني بهم الـ « يوجي » ، بخرقتهم وكسلهم . اما المعابد فتزدان بمشاهد ُهجرية ! والمؤمنون يمسحون اجسامهم بزبل الابقار أو يشربون بول الحيوانات ، والحجاج يعبُّون مياه المنانبع الملوثة التي تطفو عليها جثث الموتى ، ثم ينشرون الاوبئة حيث يمرون . لقد عززت الديانة الهندية الطبقات المقفلة وشجعت الزواج في إطار الطبقة الواحدة وجعلت من المرأة شخصاً متخلفاً وأقصتها الى الـ « زانانا » . ولكنها حالت دون التبدل .

لا تدفع البوذية قط كذلك الى العمل لانها تعتبر الوجود شراً وتوصي بالحزم في الكفر بالمسرّات الخادعة . تحمل على حياة التأمل والحبة . أضف الى ذلك ان الشعب يكرم ارواح الطبيعة حتى في بورما وكمبوديا وسيام حيث تتفوق الفرع المعروف بـ « هينايانا » (المركب الصغير) ، وهو اقرب الفروع فلسفة الى فلسفة « غوتاما » غير الشخصية . وفي الصين تتفق بوذية الـ « ماهايانا » (المركب الكبير) – « فوكيو » في الصينية – مع سحر الـ « ين » والـ « يانغ » ، كما تتفق مع المبادئين الرسميتين الاخريين ، الـ « بوكيار » والـ « طاو – كيار » . وبينا تساعد الطاوية الانسان على تحمل المهانات ، تمتّن الكونفوشيوسية مبادىء الحكم البصير والضروري الذي تزيده السماء ويوافق التقليد . فلا حدود من ثم للسلطة الملكية لا في سيام ولا في كمبوديا . اما في اليابان فقد طابقت البوذية الخلق القومي : فان الـ « زن » الذي يرتدي طابعاً صوفياً ومشدداً ، يتصل بالشنتوية القديمة الشبيهة بمذهب الروحية الطبيعة والمنطوية على

عبادة الجدود والآلهة الحماة الكثيرين ، بينما تنادي الكونفوشيوسية ، خدمة للارستوقراطية ، بالتفاني في سبيل الميكادو ابن الاله وموزع الاعمال .

لم تنجح أية ديانة من الديانات الآتيه من الغرب في تحقيق السيطرة والنصر . ففي الهند اصطدمت المسيحية بالطبقة المغلقة وبعقيدة الرهبة الكون الهندية وبالمواقع التي استولى عليها الاسلام ، ولم يجاوز تباعها المليونين في اواخر القرن التاسع عشر . وفي الشرق الاقصى اعتبرتهـا السلطات خطراً ، ولم تتأثر بها الجماهير تأثراً يذكر . أما الاسلام فقد استمر في تقدمه في السهول حيث بلغ مشايعوه ٦٠ مليوناً حوالى السنة ١٩٠٠ . ولكنه لم يتألق لا بعلم فقهائه ولا بنقاوة ممارسته . ومع تجنبه عبادة الاوثان ، تأثر بالديانة الهندية وسلّم بأمور كثيرة للعادات والاعراف المحلية . واذا هو احتل المركز الاول في ماليزيا، فإنه لم يفلح هنا أيضاً في ازالة الطقوس الهندية وعبادات الارواح والحق الاندونيسي القديم .

انَّ آسيا هذه تنكمش على نفسها مرتابة وكارهة الاجانب . ولا يعني موقفها هذا انهـا تريد حجب صورة مثيلة قد تخجل منها ، ولكنهـا تحتقر « البربري » في سمو حكمتهـا . فالأجنبي في نظرها كائن ادنى ، ونجس بصورة خاصة . والآسيوي يجيب الاوروبي والاميركي اللذين يدعوانه الى السير قدماً برفض تغيير حاله بالتطور .

الانحطاط الفني : الى الغرب

اكد اللورد « كورزون » في السنة ١٩٠٤ « ان السيطرة البريطانيـة في الهند اعظم ما حققه الشعب الانكليزي ... سيطرة العدالة التي وفرت الامن والنظام والحكم السليم لقرابـة خمس الجنس البشري كله ... على ايدي حكام لا يمثلون سوى عدد ضئيل بين المحكومين او بقعة زبد بيضاء صغيرة جـداً في خضم محيط قاتم وصاخب ... » .

ولكن الشؤون الهندية ما زالت في السنة ١٨١٥ بادارة التاج وشركة من التجار معاً يرتبط الحاكم العام بكليهما ، وما زال كذلك وهم الامبراطورية المغولية قائماً . وسيدوم مثل هـذا الوضع الغامض حتى ثورة الجندين البلديين في الجيش البريطاني ، على الرغـم من النفوذ الذي ستتمتع به حكومة جلالته تدريجياً . انه لعهد امتد فيه الفتح البريطاني، بحسب اتفاق الحاجات الآنية ، وبدون تصميم ولا خطة ، الى كافة ارجاء شبه الجزيرة من جهة والى الاقاليم الشماليـة الغربية من جهة أخرى . وقد تحقق بفضل حروب دائمة ضد شعوب محاربة، اسلامية بأكثريتها، كالمهرات والغوركا والسيخ . فأثارت الفوضى والمجاعات والابتزازات على انواعها في انكلـترا ردود فعل قوية في الأوساط الاصلاحية والمتشاركة التي نسبت كل ذلك الى الشركة . اجل ان مشروع « ماكولاي » التعليمي لتثقيف البلديين المعدين لتسلم الوظائف العامة يعود لزمان فتح خطوط الملاحة المنتظمة . ولكن نظام الهند لن يتبدل تبدلاً جذرياً الا في اعقاب ازمة خطيرة .

كان الحدث الحاسم من ثم الثورة التي اندلعت في اعقاب تمرد الجندين البلديـين في الجيش

البريطاني في السنة ١٨٥٧ ، وكشفت النتائج من قلق عميق الجذور . فان إلغـاء الرق نظريا في الارياف بغية اخضاع الفلاح لضريبة ثابتة ، وغزو قطنيات لانكشاير الذي وجه ضربة قوية الصناعة اليدوية ، وزوال يد امراء كثيرين عاشت بفضلهم البلاطات والمبارة ، وإلغاء الاضاحي البشرية والانتحارات الدينية ـ نظريا ايضا ـ الذي صادف في الزمن اعتماد اختراعات «شيطانية» كالتلغراف مثلا ، كل ذلك خلخل مجتمعاً محافظاً على التقاليد تناولته الدعاوة المسيحية من جهة والدعاة الوهابية المضادة والمقاومة الهندية من جهة اخرى . ثم جاء الاحجام عن تعيين خليفة للامبراطور المغولي الاخير ، والخوف من ارسال الفرق العسكرية الى القرم وخسائر الجيش البريطاني في هذه الحرب ، زيادة بالطين بلة . فثار بعض الجنود البلديين حين تسلموا البندقية الجديدة « انفيلد » التي كان فشكلها مدهونا بشحم الخنزير كما يقول بعضهم او بشحم البقر كما يقول غيرهم . وقد أفضى الامتحان مضاجع المستعمر الذي استخلص منه درساً مفيداً .

بعد إلغاء الشركة بموجب وثيقتي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦١ ، لم يعد الحاكم العام، الذي اصبح نائب الملك ، ليرتبط الا بأمين سر دولة لشؤون الهند أطلق برلمان لندن يده فعين حاكمي مدراس وبومباي تعييناً مباشراً . وقد صدر التوجيه العام بعد ذلك عن الوطن الام ، ولكن ممثلي السلطة تمتعوا بحرية كبرى في اتخاذ القرارات اللازمة محلياً . فاحتفظ الانكليز لأنفسهم بكافة المراكز العالية وخلوا للهنود عن الوظائف الثانوية في الادارة الاقليمية وفروع الادارة المركزية . وكان باستطاعة الهنود العمل في الادارة المدنية التي تتولى أعمال القيادة ، شرط احراز النجاح في امتحانات تجري في بريطانيا العظمى . واذا كان على الموظفين الاوروبيين معرفة لغات البلاد ، فقد كان من جهة ثانية على البلديين الموظفين في الادارة ان يدخلوا مدارس ثانوية توزع التعليم باللغة الانكليزية . ويتضح من برنامج ماكولاي ان المدارس الابتدائية لم تضم ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، سوى ٤ ملايين تلميذ (نسبة الاميين بين الذكور ٩٠ بالمائة وبين الاناث ٩٩ بالمائة) ، بينما ضمت المدارس التكميلية والثانوية نصف مليون والجامعات اكثر من ٢٠٠ الف . ونظراً الى ان الضريبة العقارية هي التي تغذي الموازنة في الدرجة الاولى فكان ان الفلاح هو من يوفر المال لتعليم المثقفين الذين يتعاونون مع الدولة المستعمرة .

كانت الضرائب كلها توزع على الجماهير الريفية . وكان على هذه الاخيرة كذلك تأدية الرسوم غير المباشرة المفروضة على المشروبات الروحية والملح وتحمل ارتفاع الاسعار بصورة خاصة الناتج عن الرسوم الجمركية التي ألغيت لمدة وجيزة ثم ما لبثت ان فرضت مرة اخرى . ولكن تعهد الادارات العامة والجيش كان يستهلك اكثر من نصف الواردات .

ما زالت القوى العسكرية مؤلفة من عناصر بلدية يتولى قيادتها ضباط بريطانيون وتساندها فرق بريطانية . ولكن ثورة الجندين البلديين أظهرت محاذير فقدان النسبة العددية بين البلديين والبريطانيين (كانت النسبة نسبة ١٠ الى ١) فخفض عدد البلديين . وانما صرفت العناية بالمقابلة الى اختيار الجندين بالتفضيل من بين السيخ والغوركا والبلوتش وحتى من بين افغانيي الحدود

الشمالية ، ووضع الامراء البلديون تحت تصرف نائب الملك بين ٣٠٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠٠ رجـل يتولى قيادتهم ضباط بريطانيـون ويشاركون في المحافظة على الأمن ، ان لم يشاركوا في العمليات العسكرية الخارجية .

اذا نجح من ثم عدة آلاف من البريطاليين في ادارة امبراطورية واسعة ، فيجب الا ننسى ان الأجناس البشرية الكثيرة والمعتقدات الدينية المختلفة والطبقات الاجتماعية المقفلة واللغات المتعددة قد سهلت عمل المستعمر الذي عرف خير معرفة كيف يستفيد من هذا التنوع. فان الولايات التي اديرت مباشرة بمؤازرة موظفين بلديين كانت تحيط بالاقاليم التي استنسب الابقاء على ادارتهـا التقليدية . وشدت اسياد هند الامراء هذه مواثيق شخصية الى سيدهم الاكبر ، خليفة المغولي المعظم . فقد فازت فيكتوريا بلقب قيصرة الهند وبين اخلاص اصحاب الاخاذات .

ناهز عدد هذه الولايات الـ ٧٠٠ وبلغت مساحتها ١٥٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع (مقابـل مليونين للولايات البريطانية) وسكانها بين ٦٠ و ٧٠ مليون نسمة فقط مقابل ٢٨٠ (في السنة ١٨٩٠) . لم تدفع كلها الجزية ولكنها اعترفت كلها ببعض الأنظمة المتناولة الاخلاق وتنفيـذ الاشغال العامة وجمع الضرائب وحرية التجارة . واحتفظت لندن لنفسها بحق التدخل في حال العصيان . وقد اصاب اللورد « مايو » حين قال : « ان الابقاء على الامراء البلديين في مراكزهم لا ينتقص من سلامة الامبراطورية بل يزيدها قوة » . ولذلك لم يرَ الوطـن الام ضيراً في امتداح اخلاص اولئك الراجاوات الذين لم يجهل تمسكهم الكلي بصيانة امتيازاتهم . ولكن تبايناً مدهشاً يلاحظ بين هؤلاء الامراء: فالىجانب قوة وثروة ترافنكوروكوشين اللتين تقدر دخولها السنوية بالملايين ، تظهر الولايات الـ ٨٨ التي تتألف منها منطقة كاتيافار بمظهر غير مرض من الضعف والفقر . وقد راعت انكلترا بصورة خاصة شهامة سكان الجبال الشمالية المتربعين المتحكمين بالمسالك المؤدية الى ايران او التيبت؛ وصادقت امير كشمير السيخي الاصل وجندت من النيبال فرقاً مشهورة بقيادة مهراجا من الغوركا واكتفت بإقامة مركز حراسة على مقربة من بوتان التي يتولى الحكم فيها احد عظماء اللاما. وجملة القول انها دخلت تقليد الحياة البطريركية والسلطة المطلقة الذي تتميز به كل سلطة قائمة . فاحتفظت من الماضي بما امكنها الاحتفاظ به .

استثمار الهند على ايدي البريطانيين

كان المستكون بزمام السلطة لا يختلطون بالسكان. وقد اقام الانكليزي في مدينته الخاصة التي وفرت له ظروف حياة شبيهة بما في الوطن الام . ففي كلكوتا برز الفرق الكبير بين « مدينة الطين » التي تكدس البلديون في أكواخها وبين « مدينة القصور » – ذات الطراز اليوناني الجديد – بحدائقها العامـة الجميلة وشبكة اقنيتها . وبرز الفرق كذلك بين « المدينة السوداء » الغير المرتبة في بومباي « وبين مالابار هل »، « موطن السلطة والاناقة والثروة » التي أقصي عنها أثرياء التجار الفارسيين أنفسهم. وقامت كذلك دلهي الجديدة قبالة عاصمة الاباطرة المغوليين القديمة . وجهزت مساكن صيفية

في الجبال .

إلا ان هذا البعد بين الحكام والمحكومين لم يمنع الاول من إثبات وجودهم بايجاد اقتصاد جديد يحترم أشكال النشاط القديمة ويوفر لها في الوقت نفسه فوائد هامة . فلقد استوردت الهند من قبل شطراً هاماً من مخزون الفضة العالمي لانها كانت تبيع أكثر مما تشتري إلى حد بعيد. ولكن السيطرة الاجنبية قلبت هذا الاتجاه رأساً على عقب : فالامراء أدوا ضرائب كبرى ؛ ووكلاء الشركة ، والموظفون من بعدهم ، قبضوا رواتب مرتفعة ، وجاءت البضائع والمصنوعة في انكلترا ، تنافس المصنوعات الهندية بنجاح . فباتت الهند من ثم مدينة ؛ وتوجب عليها عقد القروض لتسدد نفقات الوجود البريطاني ؛ واستثمر الوطن الام أمواله استثماراً رابحاً في أسواق حصل منها على منتجات متنوعة . اجل ان انخفاض سعر الفضة قد زاد من حجم الصادرات ، ولكنه زاد من ثقل الدين ايضاً . وهي الشركة البريطانية التي رفعت طبقة القرن مستوى معيشتها على حساب ملايين الآسيويين .

اعتبر اللورد لورنس بأنه اتى عملا بطولياً بانتقاله من كلكوتا إلى دلهي في مدة اسبوعين فقط . ولا عجب في ذلك اذ ان أحد أعضاء مجلس العموم قد أكد في حينه « ان حكومتنا انكليزية واحدة مجهزة بطرقات مطروقة لا تتوفر للهند كلها » . ولكن شبكة صغرى رأت النور في عهد دلوزي ، فسهل وجود « طريق الخرطوم الكبير » بين البنغال وبلجاب قمع الثورة الكبرى . فالخط الحديدي كان لعمري خير أداة الدولة المستعمرة : اذ ان الراحة والسرعة والاسعار المعتدلة قد جعلت من الخطوط ، التي بلغ طولها ٤٠٠٠٠ كيلومتر في السنة ١٩٠٠ ، أفضل شبكة خطوط حديدية في آسيا . وزودت المرافىء الكبرى بتجهيزات جيدة: فقد بني سد مثلا بين اليابسة والجزيرة القائمة عليها بومباي .

كان هنالك شغل شاغل آخر هو مقاومة المياه والجفاف معاً ، اذ ان السدود والخزانات والاقنية القديمة كانت غير كافية وفي حالة سيئة . فست الحاجة إلى قناة لوزيع في السهول الجافة . فأنشىء بين السنة ١٨٤٨ والسنة ١٨٥٥ ، على طول الف كيلومتر تقريباً ، الفرع الاول لقناة الغانج المدلري ٢٧٥٠٠٠ هكتار . وأنشئت في عهد لاحق أقنية في البنجاب والسند املا من المسؤولين بأن تصبحا يوماً امصاراً جديدة . ولكن اقامة السدود في وجه المياه في دلتا انهار شبه الجزيرة وسع كذلك المساحات الصالحة للزراعة . وقد اكتسبت الهند بفضل ذلك مليونين ونصف المليون من الهكتارات . اما في البنغال الكثيرة الامطار فقد توجب احتباس المياه . وفي دكان احتبست المياه وانشئت الخزانات . ودرست من جهة ثانية امكانية استخدام الانهار للملاحة . وليست المقاصد المدروسة وحدها ما املى هذه الاعمال بل الحاجة الماسة الى محاربة المجاعات في الدرجة الاولى .

لا شك في ان المستعمر رأى فائدته في التخفيف من بؤس الفلاحين ؛ ولكن ما هدف اليه

في الدرجة الاولى هو تكثير ربع الربيع ، الذي يمكن اضافته الى ربع الخريف ، لان الربع الاول يعطي الحنطة في الشمال الغربي وانتاج ارز ثانياً في المناطق الكثيرة الامطار : الا ان المواد الغذائية التي تستوقف الانتباه لا تغري السكان اغراء يذكر . فان المنتج الذي قد يصبح احد كبار مبارة القمح لا يحتاج الى مثل هذه الكمية لاستهلاكه . لقد مست الحاجة في المستعمرة الى السكر المتدني الاسعار ، ولكن رؤوس الاموال وظفت في مقاصب جزيرة موريس . ولذلك اعتبر الافيون اوفر نفعاً لان احتكاره يوفر للخزينة دخلا كبيراً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان المضاربة التجارية قد تحولت الى الشاي والبن في الدرجة الاولى : اجل ان الهندي لا يهوى قط هذه الاشربة ، ولكن بعض الشركات القوية استثمرتها في املاك واسعة واستخدمت لذلك يداً عاملة وفيرة العدد وصدرتها الى اوروبا : واذا ما تأخرت زراعة شجر البن بعد السنة ١٨٨٥ ، فان زراعة شجر الشاي قد تقدمت تقدماً حثيثاً .

ليس ادعى إلى الاسف من تأخر الصناعة البلدية امام مزاحمة المصنوعات الاوروبية . فبين السنة ١٨١٤ والسنة ١٨١٥ هبط عدد النسائج المبيعة من ٠٠٠ ٢٦٦ ١ إلى ٠٠٠ ٣٠٦ ، بينما ادخلت بريطانيا ٥١ مليون يارد بدلا من ٠٠٠ ٨٠٠ . وهبط عدد سكان داكا ، مدينة النسائج الناعمة ، من ٠٠٠ ١٥٠ الى ٠٠٠ ٣٥ . وكان هناك مادتان هامتان للنسيج : القنب الهندي والقطن . فأفاد الاول ، الذي صنعت منه أكياس الارز ، ليس من الحبوب المصدرة من بورما وجاوا فحسب ، بل من محول المواسم في الهند نفسها . اما الثاني فقد ارسخ ، منذ زمن بعيد ، شهرة البلاد ، وقد حققت الشركة ارباحاً طائلة ببيع النسائج القطنية العادية والنسائج الموصلية . ولكن انقلابا حدث منذ ان انتشرت الحياكة الآلية في لنكشاير . فاضطرت المستعمرة منذئذ الى بيع القطن الخام وابتياع الملابس . وعلى الرغم من قصر الالياف ودونية نوعها غزت شجرة القطن الاراضي السوداء حول بومباي بعد حرب الانفصال ، فاستهوت الفلاح الساعي وراء جمع المال واضرت بالمزروعات الغذائية . ثم نمت صناعة الغزل الآلي بدورها بفضل التجهيزات المستوردة من انكلترا على الرغم من مقاومة منشستر الشديدة : وكانت هذه الصناعة ملك تجار الرياء بينهم عدد كبير من الانكليز ، واشرف عليها اختصاصيون انكليز ايضاً . اما الفحم المعدني الذي استورد بحراً من ذي قبل ، فلم يلبث ان استخرج من جوار بومباي وكلكوتا ، وقد وفر الوقود للقاطرات الحديدية .

اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى ارقام التجارة الخارجية ، بدت النهضة امراً لا جدال فيه : فالمقايضات ارتفعت الى ٥٠٠ ٣ مليون في السنة ١٩٠٠ ، مقابل ٧٠٠ عند الغاء الشركة . ولكن الرصاية الاقتصادية تبرز في بيع حبوب باكثر من ٢٦٠ مليوناً ، بينما كانت البلاد جائعة ، وقطن خام وملبوجات قطنية بـ ٣٠٠ مليون ، بينما هي اشترت نسائج بقيمة ٥٠٠ مليون .

تطور الهند الاجتماعي ويقظة الوعي القومي الهندي

لم يلبث سكان الهند ، الذين كانوا ١٠٠ مليون من قبل ، أن اصبحوا ٣٠٠ مليون يؤمنون حاجاتهم الضرورية بصعوبة . انه لنمو مخيف بلغت نسبته ١٠٪ بين السنة ١٨٨١ والسنة ١٨٩١ مثلا ، وستبلغ ١١٪ بين السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١١ ، وان تدنت الى ١٪ بين السنة ١٨٦١ والسنة ١٨٧١ ، والى ١،٦٪ بين السنة ١٨٩١ والسنة ١٩٠١ بسبب المجاعات الكبرى والاوبئة الفتاكة . ولم تقو لا مقاومة البلايا ولا التقدم التقني بصورة عامة على تدارك ارتفاع عدد السكان المتزايد . أضف الى ذلك ان حال الفلاح لم تتبدل . فطرائق الاستثمار وأدوات العمل بقيت بدائية ؛ وانواع الحيوانات لم تحسن (وقد اوصى الاوروبيون بألا يشربوا حليب الأبقار التي غالباً ما كانت مصابة بالسل) . ناهيك عن أن ثمن المساحة المزروعة فقط أعطى ريعين في السنة وعن ان ربع الاراضي الزراعية الجيدة والمهملة فقط قد أعيد استثماره . ولم تفقد البلاد ، بفعل الهجرة والصناعة ، سوى نسبة ضئيلة من اليد العاملة ؛ واذا تقاضى عمال المشاغل والمعامل اجوراً متدنية (٠،١٠ فرنك الى ٠،٧٥ للرجال ، و ٠،٣٠ الى ٠،٥٠ للنساء ، و ٠،١٠ للأولاد المتراوحة اعمارهم بين ٥ سنوات و ١٢ سنة) ، فان العامل الزراعي المياوم كان اسوأ حالاً . وقد اعترف اللورد كورزون في السنة ١٩٠١ بأن معدل الدخل السنوي لا يتجاوز ٣٠ روبية أي ما يعادل ٥٠ فرنكاً .

على الرغم من أن الارض كانت ملك الدولة وأن المزارع يستثمرها لقاء دفع اتاوة معينة ، فقد تكونت املاك كبرى منذ ان اسندت الادارة المغولية الى بعض الفلاحين (زمندار والكدار) أمر جباية الرسوم وجعلت منهم كفلاء مسؤولين . وبعد ثورة الجنديين البلديين صدرت سلسلة نصوص استهدفت تخفيف ابعادات محتكري الاراضي . ولكن المستثمر الصغير (رايات واري) بات فريسة المرابي (مارواري) بعد تقدم الاقتصاد النقدي . فصدرت نصوص أخرى تحدد حقوق الدائن وتعفي من مصادرة المعدات الزراعية . إلا ان الزمندار والتالكدار الاقطاعيين ، والمرابين على انواعهم ، قد سيطروا في الواقع على الفلاحين الذين كانوا ابداً تحت رحمة حصاد سيء .

سبق للورد بنتنك ان ثار على تضحية النساء المترملات وقتل الاطفال . ولكن « قانون الموافقة » الذي صدر في السنة ١٨٩٠ وحرّم الزواج قبل سن الثانية عشرة لم يعمل به قط ، واحجمت السلطات من جهة ثانية عن مساندة المصلح « مالاهاري » حين باشر حملته في هذا السبيل . وبغية تحسين حال الحجاج الذين كانوا يرتاحون من عناء السفر في الطرقات والساحات العامة ، فريسة التعب والجوع والمرض ، انشئت بعض المستشفيات ومحلات بيع المأكولات ؛ وتحقق تقدم آخر بفضل السكة الحديدية . ونزولا عند طلب نقابات العمال وشطر من الرأي العام الانكليزي ، تقررت بعض التدابير لحماية العمال في السنتين ١٨٨١ و ١٨٩١ ، ولكن ارباب العمل لم يتقيدوا بها .

ان ما تفاخر به بريطانيا العظمى هو تحديدها قوانين الاحوال المدنية واصدارها قانوناً جزائياً اوروبي الطابع وإقرارها لجنة المحلفين في الدعاوى الجنائية وسماحها للهنود بالمطالبة بلجنة مختلطة من المحلفين في الدعاوى التي يكون الاوروبيون اطرافاً فيها . لا بل رغب اللورد ريبون في ايلاء القضاة الهنود حق محاكمة الاوروبيين ، ولكن هؤلاء عارضوا ذلك .

لا مراء في أن هذا العالم المبرقش قد احرز بعض التقدم في طريق الوحدة . فقد حدث بعض الانصهار بفضل اتساع وسائل المواصلات الجديدة والنشاطات العصرية . وظهر بعض التجانس بفعل اعتماد المنتجات الاوروبية . ولم تفرض اللغة الانكليزية نفسها في الادارة وعالم الأعمال فحسب ، بل ان لهجات أخرى قد أخذت في الانتشار ايضاً كالـ « غوجاراتي » في الغرب بفضل الفرس ، والهندوستاني (وكتابتها سريعة ممتادة) في كل مكان تقريباً ، والـ « اوردو » التي تقابل الهندوستاني عند المسلمين . وأخرجت الصناعة من القل بعض العناصر المنحدرة من الطبقات الدنيا ، فانفتحت الطبقة المقفلة بتلطف طابعها الديني ، وارتفعت أو انخفضت بدلالة دورها المهني . وبفضل المدرسة توصل العديد من الهنود الى تولي الوظائف العامة التي تستهويهم أو الى مزاولة الاعمال التجارية التي توفر لهم الثروات ، وألفت طبقة المثقفين الجدد (بابو) ، المنحدرة من اصل وضيع على العموم ، الافكار الاوروبية وابتغت المساواة في داخل الادارة المدنية . وكان المرسلون قد اسسوا الصحيفة الأولى باللغة الوطنية : فباتت الصحف تعد بالمئات في السنة ١٩٠٠ ، وقد صدرت باللغة الانكليزية أو باللغات البلدية الرئيسية .

تفيدنا الاحصاءات وجداول ضريبة الدخل – التي أقرت في اواخر القرن – بأن كبار الملاكين العقاريين هم المعابد والاديرة والزمندار . فاذا مثلت الأجور نسبة ٣٠٪ من محصول الجباية ، فأن الدائنين والصيارفة وكبار التجار يؤمنون ثلث هذا المحصول، ويُحدد دخل ١٣٤٠ شركة مساهمة بـ ٥٧٥ مليوناً . وهكذا نمت الى جانب الراجا والنباب الذين اضربها الفتح الانكليزي والتطور الاقتصادي نسبياً، رأسمالية بلدية، عقارية وتجارية وصناعية معاً ، اخذت تعي مصالحها .

ولا عجب من ثم اذا ما استهدفت اعتراض المستعمرة سياسة انكلترا الجمركية وانتقد « الحصرية » الجديدة ونظام الحماية المعكوس . فمنذ السنة ١٨٧٠ ، ارتسمت في الأفق حركة « سوادشي » التي هاجمت المصنوعات الانكليزية وعظمت الانتاج البلدي ، ولكن الاحرار المتشاريين ارادوا اطلاق حرية دخول المصنوعات الانكليزية الى الهند ومنحوا بالتفضيل امتيازات سياسية : فأقرت قوانين الحكم الذاتي المحلي التي بموجبها منحت المدن والنواحي ثم الولايات مجالس تنتخبها الادارة والاعيان ؛ ثم انشأت لندن في السنة ١٨٩٢ ، الى جانب نائب الملك ، مجلساً تشريعياً يعين اعضاؤه بناء على اقتراح الهيئات الكبرى كغرف التجارة والبلديات ويتمتعون بصلاحية درس الموازنة وطرح الاسئلة. أضف الى ذلك أن الحاجة قد مست الى مخالفة جمعية ، معروفة باسم المؤتمر ، اجتمعت للمرة الأولى في بومباي في السنة ١٨٨٥ وطالبت بتولي

الهنود مراكز القيادة وبالمساواة القضائية وحرية الصحافة الكاملة ورقابة الموازنة الفعلية .

اعتقد البريطانيون زمناً طويلا بأن الاختلافات الدينية وتعلق الجماهير بالماضي وانضمام المثقفين الى سياسة التعاون المخلص ستشل انطلاقة حركة قومية بلدية . وقد هوي عدد من المثقفين الهنود الأدب الانكليزي : فنظم « مدهو سودان دات » الاشعار على طريقة بايرون ؛ وحل « دات » آخر اسم « دات » ، واصبح استاذ اللغات الهندية في جامعة لندن ونشر باللغة الانكليزية دراسات هامة حول حضارة بلاده . واشتهرت المدرسة الانكليزية الاسلامية التي اسسها السر سيد احمد خان في السنة ١٨٧٥ بانها تضاهي « اربعة جيوش » . وبذلت المحاولات كذلك في سبيل استغلال الاختلافات في داخل الديانة البراهمانية . فقد قوبل المتكلمون عن طرد الاجنبي ، لأنه يدنس مياه الغانج ويمنع تضحية المترملات ، بالمصلحين الذين استهوتهم الافكار الغربية . فلماذا التخوف من « براهما – سماج » ، « شيمة » ، رام موهام راي » ودبندرانات طاغور الذين تأثرا برسالة يسوع فنادبا بمذهب الفداء الشامل الذي من شأنه التقريب بين المسيحيين والمسلمين والبراهمانيين وبتحسين مصير المرأة والغاء الطبقات المغلقة ؟ وكيف يجوز التشكي من شيمة « اريا – سماج » التي عين لها البانديت سارا سفاتي كذلك رسالة نبية هي تعليم الأخوة البشرية ، كائناً ما كان تعلقها بعادات الجدود ؟ ومن جهة ثانية لم تبد صوفية راماكرشنا وتلميذه « فيفا كاندا » ، اللذين لم يتمسكا بحرف العقيدة تمسكهما بحرارتها ، اشد خطراً من وضعية « غوز » الذي رغب كذلك في « وحدة الشرق والغرب » ، أو من تصوف « اني بزنت » . واذا كان رفض التعلق بالحياة أو اقله الزهد فيه قد تراجعا شيئاً فشيئاً امام المحبة الفاعلة ، فيجب التهليل لمثل هذا التطور الذي حصل على مهل وعن غير قصد في الفكر الهندي .

بانتظار ذلك اصبحت المطالبات الهندية اعظم الحاحاً . ولا يعني ذلك ان المؤتمر الهندي قد حاد عن موقفه المتساهل : فالمجاعات والاوبئة اقضت مضجع الفئات النافذة التي تسيطر عليه والتي لا تطالب فقط الا بحقها في ان يقال : « انا مواطن بريطاني » . ولكن حركة اشد عنفاً تعاظمت منذ السنة ١٨٩٤ : فان « تيلاك » المنتسب الى طبقة براهمانية مقفلة ، والصحفي والخطيب اللاذع ، قد اسس جمعيات رياضية على غرار الـ « سوكول » وطالبه جهاراً بالاستقلال ودفع مناصريه الى الـ « سوادسشي » وحتى الى الاغتيال . وقد اعتقد نائب الملك كورزون في السنة ١٩٠٤ ان باستطاعته التأكيد بخيلاء : « ان مهمتنا عادلة وسوف تستمر » . ولكن ذلك لم يحل دون صعوبات الغد التي ستواجهها السيطرة البريطانية .

بورما ومالزيا البريطانيتان

حصنت امبراطورية الهند من الجهة الشرقية بسلسلة من الممتلكات : جزر اندمان مع ميناءها الطبيعي الكبير « بورت – بلير » واصلاحيتها الكبرى للهنود والمسلمين والبوذيين ؛ وجزر نيكوبار الغير الصحية ؛ وارخبيل مرغي الذي يتحكم ببرزخ « كرا » وساحل تناسريم ؛ وشبه جزيرة مالاكا وموقعها الهام سنغافورة ؛

واخيراً ساراواك الممتدة في طرف بحر الصين الجنوبي التي راقبها انكلترا منذ استيلائها على جزيرة لابوان : واضيفت الى ساراواك ، بورنيو الشمالية الانكليزية التي وليت عليهـا شركة ذات امتياز وراقبت ، بفضل سندكان ، الممر الكـائن بين الفيليبين الاسبانية والانسولند النيرلندية .

اذا ما نظرنا الى بورما من البحر لرأينا انها تضم دلتـا الايراوادي الكبرى المشهورة بزراعة الارز وساحلا غنياً بشتى انواع الاسماك. وجاورت البنغال من قبل مملكة بورنة اسهاء والمبراء في القرن الثامن عشر ، ففرضت سيادتها على « اراكان » و « بيغو » و « تناسريم » وصمدت « اسام » . وبعد حملة عسيرة ثبتت شركة الهند اقدامها في اسام ومانيبور واستولت على اراكان وتناسريم . ثم احتلت، دون ان تصادف مقاومة، بيغو المشهورة بالكاد الهندي الذي يستخرج منه صباغ قاتم تصبغ به الاقمشة القطنية ، فتأسست من ثم بورما البريطانية . فانكفأت مملكة بورما منذئذ الى الداخل ولم تحتم بعد ذلك الا بكيان مؤقت ، اذ ان الاستكشافات أثبتت اهمية المسالك المؤدية الى الميكونغ الاعلى والصين الجنوبية، وغنى البلاد بالحجارة الكريمة وخشب التك : فكان الضم الذي حطم، في السنة ١٨٨٥، محاولة «ميجي»واصطدام بمقاومة باسلة».

تضم بورما الجبلية ، بالاضافة الى الـ « شان » والـ « كاتي » والبيغوبين ، عـدداً من القبائل الوثنية . وقد استطاع البريطانيون الاعتماد على البيغوبين والـ « كارن » للوقوف في وجه الكاتي عند الحدود الصينية والـ « كاين »والحرابين ؛ ولكنهم لم يحققوا التهدئة قبل توقيع اتفاقيات الحدود في السنة ١٨٩٣ . فوضعوا نصب اعينهم جعل الدلتا قادرة على تصدير الارز ؛ فمست الحاجة الى طلب يد عاملة اضافية اتوا بها من البنغال ؛فاصبحت رانغون من ثم احدى اهم اسواق الحبوب في آسيا الجنوبية . ونقل خشب التك الى « مولمين » بواسطة الانهر التي نقل من قبل الى ضفافها على ظهور الفيلة . وفي جوار « ماندلاي » استخرجت الحجارة الكريمة وحفرت آبار البترول . وقد ابدى ليوتي هذه الملاحظة :« ما ان تحقق الفتح حتى بوشر العمل الجدي ؛ فبنيت ،انطلاقا من المرافىء ، مئات الكيلومترات من الخطوط الحديدة التي حاذت الايراوادي الى ابعد مـن ماندلاي وما لبثت ان اتصلت بكلكوتا . لم تضع دقيقة واحدة ، وقد طبقت الطريقة الادارية السليمة المتحنة على ايدي موظفين يعرفونها تمام المعرفة ولا يتلـون طريقهم ؛ فباستطاعـة المهاجر المستعمر ان يأتي بعد ان أعد له سريره » .

ان شبه الجزيرة الماليزية، القليلة السكان ، لم تلفت الانتباه بزراعتها بقدر ما لفتته بمناجمها. فان استثمار النارجيل والتوابل قـد تحقق منذ اوائل القرن بواسطة عبيد بباعون في جزيرة « بنانغ » ؛ ثم اتسعت زراعة قصب السكر وشجرة الشاي وشجرة البن ، فلجأ المسؤولون الى عمال هنود وسيلانيين . ثم تعرضت الاحراج لعملية نهب حقيقية . ولكن اهم حدث كان ظهور مناجم القصدير التي أمنت الشهرة لـ « مالاكا » . فتدخل البريطانيون حين حدثت الاضطرابات بين عمال المناجم الصينيين في « بيراك » ؛ وقضوا في الوقت نفسه على اعمال القرصنة الماليزيـة

في تلك الجهات .

وكانت جزيرة «بنانغ» التي احتلت في السنة ١٧٨٦ ، قد أثارت اهتمام رافلز الذي سيعرف باسم ولنغتون ، فجددت « شركة الصهر المحدودة » تنقية التصدير في المعمل الذي كان الصينيون قد أسسوه فيها . ولكن سنغافورة فاقتها اهمية الى حد بعيد . فمنذ ان ابتاعها « رافلز » ، ممثل شركة الهند ، من سلطان جوهور ، أصبحت قرية الصيادين هذه ، المحاطة بالمستنقعات والمياه ، سوقا لتجارة خارجية عظيمة تدفق عليها كل من تستهويهم التجارة ، والعمل في الزراعة والمناجم بموجب عقد اجار لمدة ثلاثمائة يوم . وفي السنة ١٨٦٩ احصى « لودوفيك دي بوفوار » في برج بابل هذا ١٠٠ الف صيني و ٢٣ الف ماليزي و ١٥ الف هندي و ٧ آلاف جاواني و ٦ آلاف عربي وارمناً وفرساً ويهودا ، وبضع مئات من الاوروبيين فقط . وقد بلغ عدد سكانها ١٦٠ الف نسمة في السنة ١٨٩٠ . وكان الناس يتجولون فيها بواسطة الحافلة الكهربائية أو الـ « جنريكيشا » اليابانية ـ كرسي ذو عجلتين يجره العامل الآسيوي الذي يضنيه هذا العمل . ومنذ السنة ١٩٠٠ اكتشف مصدر جديد للثروة هو مغارس اشجار المطاط التي اجتذبت رؤوس اموال كبرى ويداً عاملة وفيرة . وبفضل هذه القاعدة البحرية ، راقبت بريطانيا العظمى مستعمرات المضائق القريبة من اليابسة وحلف الدول الماليزية الاسلامية المحافظة على سلاطينها وراجاواتها . فوطدت تفوقها ونفوذها بين المحيط الهندي وبحار الشرق الاقصى عند مداخل الارخبيل الاندونيسي الواسع الاطراف .

شعوب الانسولند

ان الارخبيل الذي اعادته بريطانيا العظمى لهولندا في السنة ١٨١٥ يجمع بين العالم الاوقيانوسي وآسيا معاً . وهو يقوم بين خطي السرطان والجدي ويؤلف الى الغرب جزءاً من منطقة الارياح الموسمية ويضم الى الشرق جزراً عديدة اكثر جفافاً . وتتجاور فيه مناطق مكتظة بالسكان ومناطق شبه مقفرة وتجانب حضارات زراعة الارز المتقدمة التي يتعاطاها اهل القرار حضارات الشعوب البدائية المتأخرة . وقد جاءه الاسلام من آسيا واقتطع فيه مناطق واسعة كثيرة السكان ، ولكن التأثيرات البراهمانية والبوذية القديمة قد طبعت روح البلدان الانسولندية ولغتها وفنها وتنظيمها بطابع لا يطمس ولا ينطمس .

هنا كما في كافة انحاء آسيا القريبة ، تعاطى السكان البدائيون قطف الثمار والقنص والصيد . الا انهم تطوروا احياناً : ونورد هنا مثل الـ « كو ـ بو » في سومطرا الذين تحولوا الى زراعة الارز . ولم يختلف نوع معيشة بعض الشعوب الاندونيسية اختلافاً كبيراً : كالـ « باساب » في بورنيو مثلاً . ولكن معظم هذه الشعوب زاول اقله زراعة الـ « لادانغ » في الاراضي الحرجية المحرقة : هذا ما فعله الـ « داياك » في بورنيو الذين لم يؤمنوا معيشتهم من زرارقهم او من جمع محاصيل الغابات او من طحين نخل الهند ؛ وهكذا فعل كذلك الـ « باتاك » في سومطرا الذين اهتدى ربعهم الى الدين المسيحي على ايدي المرسلين الالمانيين . وانتشرت في معظم المناطق

الجبلية زراعة الـ « ساوا » المعول فيها على المياه المخزنة ؛ وقد نهضت بها الجواميس في الغرب والثيران في الشرق ؛ ولكنها استلزمت نقل الغراس ونزع الاعشاب المضرة ؛ ولبثت الفلاح في ارضه : فغالباً ما بني المسكن على الاوتاد وتحصنت القرية . وانتشرت كذلك في كل مكان تقنيات صناعة الخشب اليدوية وصناعة الخزف وصناعة المذاري والسلال ؛ واشتهرت شفار الخناجر المعروفة بالخناجر الماليزية وبجوهرات سلطنة « بروني » في شمالي بورنيو .

الماليزيون هم الاندونيسيون المستوطنون الشواطىء الذين اختلطوا بالشعوب الاخرى وتطوروا بتأثير الحضارات الهندية والعربية والصينية ، والاوروبية اخيراً . اجل قد يحدث لهم ان يحبوا الارض ويعتنوا بزراعتها ؛ ولكنهم يؤثرون البحر والتجارة والصيد وحتى القرصنة ؛ وينهمكون بشغف في المقامرة واللعب والمنبهات . ويلفت الانتباه انك تجد في جاوا وحدها الامثلة الثلاثة ، سوداني الغرب الذي يناقض بطبعه الخشن جاواني الوسط الهادىء الكسول ، بينا يبذل المادوري الشرقي ، اليابس الطينة ، مزيداً من الجهد في العمل .

ان الحضارة الهندية الفنية بذكرياتها قد عرفت الديمومة في وسط جاوا بابنيتها وشغل المعادن الثمينة والرقصات والمسرح « واجانغ » . وخلفت كذلك الطبقة المثقفة وروح الطاعة للراجا . وفي بالي حافظت الديانة البراهمانية على حرارتها التي جعلها الايمان المتأصل بالارواح اشد تحمساً وتهيجاً . وقد تمتع العرب ، على قلة عددهم ، بنفوذ اكتسبوه من دين اصبح مسيطراً ومن مواهبهم التجارية . وقد وجدوا حتى في « المولوك » التي تصدر القرنفل والقرفة وجوز الطيب الى اوروبا . وهو اسلام غوجرات الذي انتشر في الجزر الكبرى . وكان له اشياعه المتعصبون في الجهة من أعمال شمال سومطرا وفي « بانجارسن » من اعمال جنوب بورنيو وفي لومبوك . وقد واصل بنجاح نسبي هدي الوثنيين . وأرسل الى مكة عدداً كبيراً من الحجاج وضم اليه المهاجرين الى الهند الاسلامية . وأقام سلطنات قاومت الاوروبيين مقاومة غير متعادلة . ولم يفت الهولنديين الاستفادة من هذه الامكانات .

ارتفع عدد الصينيين من ١٠٠ الف في السنة ١٨٠٠ الى ٥٠٠ الف في السنة ١٩٠٠ . وقد خشيهم الماليزيون ، وغالباً ما زاحموا العرب في التجارة، وكانوا وسطاء نافعين في اعين الهولنديين لاقامة العلائق بالامبراطورية السماوية ، فقتنوا املاكاً واسعة وباشروا استثمار باطن الارض باللجوء الى العمل الالزامي .

استعمار الهند الهولندية

ترك الهولنديون بلاء رضاهم شركة الهند الشرقية « تحرث البحار » . وانما اكرهوا شيئاً فشيئاً على احتلال الجزر الكبرى والصغرى احتلالاً فعلياً . وعلى الرغم من ذلك فقد حصروا جهودهم العسكري فترة طويلة ؛ الا انهم اضطروا بعد السنة ١٨٧٠ الى استباق دول - ألمانيا وبريطانيا العظمى في الدرجة الاولى - قد تنازعهم امتلاك الاقاليم التي لم يرفرف فوقها العلم الهولندي . اضف الى ذلك انهم أرغموا من جهة ثانية على جمع قواهم في سومطرا حيث

صادفوا خصوماً أقوياء . فان سلاطين اتجه ، في طرف الجزيرة الشمالي الشرقي ، قد دافعوا بعناد عن استقلال شجعه البريطانيون في البلاد . أما في جاوا فقد انتهى عهد الحروب منذ السنة ١٨٢٩ بخضوع سلطان « جوجيا كارتا » . وفي بورنيو ، حيث سبقت انكلترا هولندا من الجهة الشمالية ، ثبتت هولندا اقدامها في شاطيء « بانجر ماسن » المشهور بفلفله وماسه ؛ ثم اخضعت بصعوبة المناطق الغنية بالذهب المعروفة بـ « الصينية » : سامبا ولنداك ؛ وان ما استهواها في بانجر ماسن هو الماس قبل الفلفل ؛ ولكن المناطق الداخلية في هذه الارض الكبرى بقيت ثائرة ومظفرة . وكذلك لم يخضع الـ « طوراجا » في « السيليب » للادارة المقامة في « ما كاسار » الى الجنوب وفي ميناهاسا الى الشمال . وعلى الرغم من قرب بالي ولومبوك من جاوا ، فانها لم تخضعا نهائيا الا في السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٨ . ولم تسيطر هولندا الا سيطرة اسمية على جزر السوند الشرقية حتى اليوم الذي جرت فيه القسمة بينها وبين البرتغال التي احتفظت بشرقي تيمور . وما عادت هولندا لتهتم بـ « فلوريس » وسومبا وممتلكاتها في غينيا الجديدة . فان عالم البابو قد أخذ همة تجار امستردام الذين اكتفوا بالمكاسب التي ما زالت المولوك توفرها لهم ؛ وقد اقتصر الاحتلال عملياً على الجزر الصغرى الغنية بالتوابل : ترنات ، باندا ، ولا سيما امبوان ، وتستثنى منها سيرام وهالما ـ هيرا الجبليتان والمغطاتان بالغابات . وفي الحقيقة انتقل مركز الثقل الاقتصادي نهائيا من المولوك هذه «التي فقدت منزلتها » الى الجزء الغربي من الانسولند ولا سيا جاوا .

اثناء الاحتلال البريطاني ، قاوم « رافلز » ، الحاكم بالوكالة ، الميثاق الاستعماري الاحتكاري وشجع التجارة الحرة واستبدل الضرائب بضريبة عقارية تحدد وفاقاً لمسح الاراضي .

بعد السنة ١٨١٥ توجب على الهولنديين بذل مجهود عسكري ومجهود مالي كبيرين . فعادوا من ثم الى الروح التجارية والاحتكار . ولم يكن المطلوب ان لا تكلف المستعمرات الوطن الام شيئاً فحسب ، بل ان توفي قسطها في اثرائه ايضاً . اضف الى ذلك ان «فان دن بوش» ، الذي كان على اتفاق مع الملك غليوم الاول ، لم يأت بجديد : فجدد هذا الاخير امتياز شركة الهند الشرقية وأعطاه شركة نيرلندية ذات امتياز ؛ وعمم نظام المزروعات الالزامية الذي لم يلغه الانكليز . فكان على الفلاح ان يعمل في الاراضي المخصصة لهذه المزروعات على ان يعفى من الضريبة العقارية . فبدا هذا البرنامج وكأنه مستوحى من الاستبداد المستنير وذهب بعضهم الى حد اعتباره برنامجاً يستهدف خير البشر .

لعل زراعة المناطق الحارة ، التي أدارها الاوروبيون وأعدوا منتجاتها للتصدير ، لم تعرف في أي مكان آخر مثل النجاح الذي عرفته . ولما كانت سياسة حكومة لاهاي لم تهدف الى تشجيع استعمار المواطنين ، فهو الموظف من كان وراء نمو الاقتصاد الذي خضع لنشاط منتظم ومنطقي . فمن التطبيقات الموفقة للعلوم الطبيعية تحسين انواع البن وانتقاء اصناف القصب بغية

حمايتها من طفيلي خفي الوانح ، وتبليد الكينا البوليفية بانتظار تبليد شجرة المطاط البرازيلية. وقد وفر البن والشاي والتبغ والنيلج والسكر والفلفل والقرفة ارباحاً طائلة (فائض بلغ ٨٣٢ مليون فلورين بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٧) . فكان للاختيار اثره حتى بعد ان استهدفه النقد : فان كتاب الانكليزي « موني » ، « جاوا » او كيف يجب ان تدار المستعمرة» الذي صدر في السنة ١٨٦١ ، قد أثار حركة في الرأي العام اللندني من اجل ادخال النظام الى جزيرة جامايكا السائرة في طريق الهبوط والى الهند التي طولب بزراعة النيلج فيها .

ولكن التجاوزات اصبحت فاحشة . فان الرواية التي نشرها « ادوارد دويس ـ دكر » ، باسم « مولتاتولي» المستعار» وتحت عنوان « ماكس هافلار » ، قد وفر لها مجرد طنية واسعة في السنة ١٨٦٠ ، حين كانت المبادىء المادية الحرة آخذة في الانتشار . فمنذ السنة ١٨٤٣ باتت الهند النيرلندية تعاني من الجدب ، لا بل كانت السنتان ١٨٤٩ و ١٨٥٠ سنتين مرعبتين . ولم يعد ممكناً اخفاء ابتزازات زعماء القرى الذين اعتبروا وكلاء مسؤولين والذين حصلوا على اراض وراثية مكافأة لهم على خدماتهم ، اقطعهم اياها الموظفون الهولنديون مقابل اتقاضات ، ومتعهدو المغارس ـ الذين قد يكونون صينيين احياناً: فقد فرض مثان وحتى ثلاثمائة يوم عملا، وصودر الاشخاص لاجل تجهيز الطرقات والمرافىء،واستمر في المطالبة بدفع الضريبة العقارية، وما زال الوكلاء البلديون ، المختارون من بين الاقطاعيين ، يلجأون الى الاقتسارات ويجبون بقايا ضرائب السنوات السابقة .

في هذه الاثناء حدثت الازمة الاقتصادية في اوروبا بين السنة ١٨٤٥ والسنة ١٨٤٨ . وبموجب ملحق لدستور هولندا الجديد انتزعت من التاج ادارة الشؤون الاستعمارية . فكان ذلك بمثابة انكار لنظام « فان دن بوش » . وقضت قوانين زراعية بالغاء الاعمال الزراعية الالزامية ، كما زالت الحقوق التفضيلية بفضل النظام الجمركي الحر . ولكن الدولة والشركة ذات الامتياز تواريتا بمجرد تواري أمام بعض الشركات الرأسمالية التي لم تتخل ، من حيث المبدأ ، عن العمل الالزامي ، ولم تسلم به بادىء ذي بدء الا في زراعة الشاي والنيلج والتبغ والتوابل ، اعتباراً منها أن عدداً من هذه المنتجات اقل دخلا ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد خصصت مساحات اضافية لزراعة شجرة البن وقصب السكر وشجرة الكينا ، كما اتسعت زراعة التبغ اتساعاً عظيماً في سومطرا ؛ ثم انخفض انتاج السكر والبن بدورهما بسبب انخفاض اسعارهما . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان رؤوس الاموال اخذت توظف في حفر آبار البترول وفي مناجم القصدير ومغارس اشجار المطاط . وتحول الانتباه ، دون ان يتحول عن جاوا ، الى الاراضي الواسعة الاخرى التي اخذت امكاناتها الكبرى تبرز شيئاً فشيئاً .

ولكن الواقع الهام ما زال الاولوية الجاوانية . ففي الجزيرة البالغة مساحتها ١٣٠ الف كيلومتر مربع ، كان عدد السكان زهاء ٢٨ مليون نسمة مقابل ٥ ملايين في أوائل القرن : وربما يحمل هذه الكثافة جديرة بالاعتبار ان جزر الارخبيل الاخرى كانت شبه مقفرة . وقد

تباهى الهولنديون بالنتيجة التي عزوها الى ظروف صحية وغذائية دونها الظروف المتوفرة الهند . اما الحقيقة فهي ان جاوا ، المتوسطة المساحة ، كانت أفضل إعداداً لادارة حازمة ولتجهيز أوفر دخلا . أضف الى ذلك ان خبرة دائرة الشؤون المائية في هولندا قد ساعدت كثيراً على تجنب تجدد المجاعات الكبرى بفضل تحقيق مشروع ري عظيم . اجل لم يدخل المدرسة سوى أقلية ضئيلة ، ولكن التلقيح ضد الجدري قد اعتمد بنجاح،والكوليرا والطاعون قد كوفحا ببعض الجدوى ايضاً . ولا مراء كذلك في نفعية المستعمر ، ولكنه احترم النظام الاجتماعي جهد الامكان مكتفياً بالتوفيق بينه وبين حاجاته الخاصة . وعلى غرار البريطانيين في الهند ، احسن معاملة السلاطين الذين قبلوا بخدمته : ٤ فقط في جاوا ، ولا اقل من ١٤٣ في سومطرا . وقد ذكر « بوفوار » ان سلاطين جاوا اغا هم « رهائن عاجزة رفعها المستعمرون على قواعد مرتفعة بغية تمويه الميثاق المظلم الذي يربط ، بالقوة والمحبة معا ، بين العرق السود وأسياده الاوروبيين » . واحيط الوكلاء بالاحترام وأغدق عليهم المال ، ولكنهم كانوا عرضة للعزل ، وقد اختيروا من بين العائلات الكبرى بغية نقل رغبات البيض الى زعماء القرى الذين مارسوا السلطة الفعلية الوحيدة برقابة الموظفين النيرلنديين .

ادار هذا الاستعمار عدد محدود جداً من الهولنديين لم يجاوز ٦٠ الفاً مقابل ٣٠٠ الف صيني وزهاء ٣٠ مليون بلدي . وقد بقيت الدوائر والمخازن في باتافيا قريبة من المدينة القديمة والمرفأ . ولكن المدن المرتفعة ، كـ « ولتفردن » المشهورة بمساكنها المحفوفة بالحدائق ، و « بويتنزورغ » حيث يقيم الحاكم العام ، قد وفرت لمواليد الوطن الام الرفاهية والصحة في منطقة استوائية المناخ .

نهاية السيطرة الاسبانية في الفيليبين

على نقيض الهولنديين ، حاول الاسبانيون ، في ممتلكاتهم الفيليبينية القديمة ، تمثيل السكان البلديين . فقد نجح اكليروس غيور وقوي في تبشير الـ « تاغال » اللطفاء . ولكنه تمثيل على بعض السطحية في الواقع : اذ ان عدم اكتراث الشعب النسبي قد سهل عمل « الاب » الذي حاول من جهة ثانية حماية رعيته من الزعيم البلدي . وتميزت الادارة بالخمول والبلادة . فلم تقرر مدريد الاستيلاء على « مندناوو » و « جولو » حيث سيطر الاسلام في اوساط الـ « موروس » (الذين يقابلهم المنود) الا رداً على احتلال بورنيو وسيليب احتلالا فعليا . وبقي داخل « لوسون » موطن الـ « ايفوغاوو » « المتوحشين » الذين برعوا في زراعة الارز في السطوح الترابية المتعاقبة .

تبدو الحياة في مانيلا مرحة وميسورة . ولكن التجارة ليست في ايدي الاسبانيين ، فمنذ السنة ١٨١١ لا تتجه أية سفينة كبيرة نحو اسبانيا الجديدة ، بينما تنقل السفن الانكليزية والاميركية الـ « اباكا » (او قنب مانيلا) والسكر ، وتأتي بالارز والنسائج . وبالنظر الى تزايد عدد السكان تزايداً سريعاً (بلغوا ٥ ملايين في السنة ١٨٩٠) ، يتفاقم الشقاء والضيقة .

وفي السنة ١٨٧٢ تستلزم خطورة الاضطرابات إرسال قوى مسلحة اضافية . وفي عهد لاحق تسبب ثلاثة حصائد ماحلة متوالية في جدوبة وعوز خطيرين .

نشأت طبقة خلاسية انيقة تلم بالاسبانية ،لم تخف استياءها من تهامل الوطن الام وامتيازات الاكليروس . والحال نفث مدوبد بدون ترو الى لوسون بعض المنادين بالحرية والاباحيين والماسونيين ، الذين اسهموا في نشر فكرة محاربة الاكليروس . وفي السنة ١٨٩٦ ، اعلنت بعض الجمعيات السرية (« كاتيبونام ») ثورة شاملة لم تقمع بسهولة ؛ لا بل ان الثوار ،بقيادة اغينالدو ، لم يلقوا السلاح الا بعد الحصول على وعد ببعض الاصلاحات . وحين لم يتحقق الوعد المقطوع لهم ، تحولوا الى الاميركيين الذين ساعدوهم على طرد الاسبانيين . فخاب املهم مرة أخرى اذ ان الاميركيين رفضوا التخلي عن الارخبيل . فنشب آنذاك صراع جديد ضار ؛ ولكن الفيليبيين هزموا في السنة ١٩٠٢ فاستبدلوا نيراً بآخر .

الدول السيامية

كان احد الشعوب الـ « تاي » اوفر حظاً من جيرانه بنجاته من الوصاية الاستعمارية . وهو مدين بهذه النعمة لموقعه الجغرافي في وسط شبه الجزيرة الهندية الصينية،بين بورما الخاضعة للسيطرة البريطانية، والجزء الشرقي من شبه الجزيرة هذه الذي احتلته فرنسا .

تنطبق سيام جغرافيا على حوض « مينام » الذي استوطنه الـ « تاي » واسسوا فيه عدداً من الممالك حول « كيينغماي » في الشمال و « افو – تيا » في الجنوب . ثم حدث ان هزم البورمانيون السياميين واخضعوهم ، فأسس هؤلاء إمارة جديدة مركزها بانكوك ، وباشرت سلالتهم الجديدة (سلالة شاكري) حركة توسعية باتجاه نهر ميكونغ وشبه الجزيرة الماليزية مخضعين في الوقت نفسه المنطقتين الجنوبيتين الجبليتين : مينام العليا وميننغ . وفي عهد مونغكوت اقفلوا حدودهم في وجه الارساليات التبشيرية المسيحية ، ولكنهم وقعوا معاهدات تجارية مع الدول الاوروبية وحاربوا فيتنام التي تقدمت بدورها نحو الغرب انطلاقا من الجبال الأنامية من اجل السيطرة على كمبوديا.وتوصلوا في فترة من الزمن الى السيطرة على دول لاوس . وبُعيد التدخل البريطاني في « بيغو » ونزول الفرنسيين في كوشنشين ، اختار « شولالونغكورن » ، الذي ربته امرأة انكليزية وعلم اولاده في انكلترا ، الاعتماد نهائياً على لندن : فجهز بعض السفن الصغيرة بالمدافع وزود جيوشه ببنادق « موزر » . وحين اصر على الاحتفاظ بولايتي « باتبانغ » و « سيمرياب » الكمبوديتين تحت ملكية « بنوم – بنه » وراء الاعتماد على فرنسا . فاضطر الى التراجع في السنة ١٨٩٣ ، ولكنه احتفظ بنفـذ عريض الى الميكونغ عبر حوض « سيمون » .

لم يكن عدد سكان سيام مرتفعاً – ستة ملايين نسمة (اي بمعدل ١٠ في الكيلومتر المربع)- وقد شمل ثلثاً من التاي الودعاء والصبراء والخاملين والراغبين في الاحتفالات والدائنين ببوذية تلفق وسلطة الرهبان ، وثلثاً آخر من الصينيين ارباب الاعمال في بانكوك ، وثلثاً اخيراً من الاقليات البورمانية والمالبزية واللاوسية المقيمة عند حدود البلاد . وكانت الدولة السيامية

ملكية بطريركية : فان الملك ، « سيد الاشخاص والممتلكات » ، يتولى الحكم مع طبقة من النبلاء ، بينما تفرض على جماهير الفلاحين اعمال التسخير الملكية التي توازي شهرين أو ثلاثة اشهر عملاً . وقد صدّرت البلاد الارز وخشب التك . وافتقرت زمناً طويلاً الى الطرقات والخطوط الحديدية ، ولكن مؤسسة الماني جهزتها بشبكة تلغرافية . وقد تأمنت علائقها الاقتصادية بالخارج بواسطة سنغافوره .

فيتنام ولاوس وكمبوديا قبل التدخل الفرنسي

في الشرق ، كما في الغرب والوسط ، تبرز المضادة القوية بين الاراضي المنخفضة والجبال في شبه جزيرة الهند الصينية هذه التي تنازعها – كما يدل على ذلك اسمها – النفوذان الهندي والصيني . واذا كان النفوذ الاول قد اتسع في حوضي مينام وميكونغ في عهد الامبراطورية الخيرية ، فان ردة الفعل التي حدثت لمصلحة النفوذ الثاني توافق تقدم الفيتناميين على طول الساحل الشرقي وفي دلتا الانهر . اما التاي – سواء اعتنقوا البراهمانية ام لا – والبدائيين فقد احتموا بالجبال .

ان التجمعات البشرية الكثيفة في دلتا الانهر قد اعطت الشعب الفيتنامي ، المزدحم فيها ، تفوقاً لا جدال فيه . فحوالي السنة ١٨٩٠ قدرت كثافة السكان في تونكين بـ ٥٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، وفي كوشنشين بـ ٣٠ ، وفي انام بين ٢٠ و ٣٠ ، وجاوم في البلدان الثلاث من الفيتناميين ، مقابل ١٠ فقط في كمبوديا و ٣ في لاوس ؛ وبلغت الكثافة بين ١٥٠ و ٢٠٠ في دلتا النهر الاحمر . اما في كمبوديا فقد ضم سهل « بنوم – بنه » ثلاثة ارباع سكان المملكة .

خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وبينما كانت الدولة السيامية آخذة في التجدد في حوض مينام ،توطدت شيئاً فشيئاً اركان امبراطورية فيتنامية مرتكزة الى امتلاك تونكين في الشمال وانام في الوسط و كوشنشين في الجنوب . وقد نهض بهذا العمل « نغوين – انه » الذي حمل بعد ذلك اسم « جيا – لونغ » ، وكان اشهر ممثل لسلالة نغوين التي تولت الحكم في هويه . فطلب اسلحة من الفرنسيين من اجل تحقيق الوحدة ؛ ثم ولى وجهه شطر الصين ليلتمس منها التنصيب التقليدي وقبل منها باسم فيتنام (ومعناها بلاد الجنوب) واقتبس عنها مجموعة قوانينها وتنظيمها السياسي – الاداري وسخر النظام لاعادة بناء السدود في تونكين وانشاء الطرق وتخزين الارز . فتجبر ورفض هدايا لويس الثامن عشر ولكنه عرف الجميل فأكرم الفرنسيين الباقين في خدمته .

تربع من ثم على عرش فيتنام ملك مارس ، على غرار امبراطور الصين ، سلطة مستمدة من السماء ، وكان عليه ممارستها من اجل خير كافة رعاياه . ولكنه استند عمليا الى المثقفين المختارين عن طريق المباراة بين اولئك الذين حصلوا العلم في مدرسة تلقن الواجبات نحو العائلة والدولة . وأسهمت روح القانون ، الذي نشر في السنة ١٨١٢ ، في تحويل نشاط هذا الحكم

شطر التقليد الفلسفي والاخلاقي بالتفضيل على التجديدات التقنية . فاصبح واجـــب الملكية المطلقة ، والحالة هذه ، ضمان حياة الجماعة المرتكزة الى زراعة الارز وعبادة الجدود .

استلزمت زراعة الارز المتنجة طاقة بشرية عظيمة ، اذ ان الصيد والصناعة اليدوية ما كانا ليوفرا سوى دخول محدودة وان كانت جليلة الفائدة . وقامت في كوشنشين ، المحتلة حديثـاً ، املاك كبرى كان مزارعوها (تاديان) المدينون تحت رحمة المرابين. وقد شد التضامن الضروري من أجل تنظيم العمل روابط الجماعة ، واتاحت التعاونيات (هوي) مواجهة الحاجات الملحة . وألف الـ « هو » او الـ « تو » الخلية العائلية التي تكتنف حياة الفرد في جميع مظاهرها ، ومـا زالت السلطة الأبوية اقوى سلطة حتى بعد ان حد منها قانون جيا - لونغ ؛ وقد جـاء في احد الامثال السائرة ان سلطة الملك تنحني امام العرف المحلي .

تحذر خلفاء جيا - لونغ من مخـالطة الاوروبيين ، بدافع من حرصهم على صيانة مؤسـسات امبراطوريتهم ، فانتهجوا سياسة اضطهاد المرسلين وحظروا المسيحية . وقـد جاء في مرسوم السنة ١٨٣٣ ان « هذه الديانـة مجموعة من الأكاذيب » . وجزم « تو - دوك » بدوره في السنة ١٨٥٠ بأنها « ديانة فاسدة لانها لا تنطوي على واجب عبادة الانـبياء المتوفين » . لذلك ارتدت حملة السـنة ١٨٥٨ ، التي استهلت التدخل الفرنسـي في شؤون بلاد يطلق عليها الغرب اسم انام ، طابع الحرب الصليبية .

لم يبق من الامبراطورية الخميرية القديمة سوى مملكة على بعض الصغر مقتصرة على منطقـــة الميكونغ بين كوشنشين وشلالات « خون » . وبعد ان فقدت كوشنشين،اي منفذها الى البحر ، تعرضت هذه المملكة لغزو السياميين المتقدمين حتى « تونـلي - ساب » . ثم خضعت لسيطرة سيامية فيتنامية مشتركة عقبتها حماية سياسية حقيقية . ولم يتمكن الملـــك « نورودوم » من التخلص من وصاية بانكوك الا بطلب حماية فرنسا .

بموجب حماية السنة ١٨٦٣ حق لفرنسا ان تمثل بمقيم عام في بنوم - بنه كا حصلت على حرية التجارة والتملك لمواطنيـها وحرية العبادة والتعلم للكنيسة الكاثوليكية . ولم يطـرأ في الظاهر اي تبديل على التنظيم التسلسلي الذي يضمن تلاحم الدولة . ولكن هذه الاخيرة فتت في عضدها بفعل خلافات العائلة الملكية ودسائس الزمانية التي توجب على السلالة مراعاة جانبها . ولم تتصف الحياة العائلية بصفتها الالزامية في فيتنام ، وقد حمل الفرد اسماً شخصياً . فتوزع السكان ، ولم تعرف زراعة الارز نشاطها في دلتا الانهر . آثر الكمبودي تربية الثيران والابقار الهندية ، والصيد في البحيرة الكبرى الغنـية بالاسماك ، والقنص على الفيلة وترويضها . وتميزت البلاد في الدرجة الاولى بروح بوذية تأملية هي روح « المركب الصغير » . وقد وفر مثل هذه العبادة تعزية كبرى للمؤمنين . فان هذا الشعب الوديع والبليد والمولع من جهة ثانية بالرقص والمسرح والموسيقى قد انحنى دون مقاومة عنيدة امام الاحتلال الاوروبي .

اختلط الـ « مان » والـ « ميو » بالشعبين الذين اتيا من الصين وعاشا حياة بدوية زراعية تعرف

« د راي » ، وواصلوا اغاراتهم عبر الجبال المرتفعة خلال النصف الاول من القرن . وتجمعوا « شان التاي والـ « موونغ » ، في الوديان اللاوسية حيث يزرع الارز بمزيد من السهولة. وقد توفرت لهؤلاء الأخيرين تقنيات اكثر تطوراً من تقنيات الجبليين الذين لحقوا بهم، او من تقنيات البدائيين (هؤلاء الـ « خا » هم انفسهم الـ « موي » الذين يتكلم عنهم الفيتناميون ، والـ « بنونــغ » الذين يتكلم عنهم الكمبوديون، وقد انتشروا حتى في انام الجنوبية بين بحازه آي ـ لاو » والـ « دوناي »).
وان ما ميز التاي والموونغ اجتماعياً هو التنظيم الاقطاعي الذي بموجبه زرع الاسياد ارزهم بتسخير الفلاحين وأخضعوا الحا لنظام الفدادية. اما التاي الذين تأثروا تأثراً عميقاً بالروح البوذية وعاشوا في سهول الاحواض لمعيشتهم شبيهة بمعيشة الكمبوديين. واما المرأة فمنفتاحة وتحب التزين وتتمتع بحرية كبرى ، وتسكن مع زوجها في بيت اهلها .

ان تقسيم البلاد الطبيعي ليفسر تجزئتها الى امارات عجزت ابداً عن الاتحاد في دولة واحدة. وعلى غرار كمبوديا، تعرضت اللاوس لغزوات السياميين والفيتناميين معــاً بسبب رغبة هؤلاء واولئك في الوصول الى الميكونــغ الاوسط . ولكن نائب القنصل الفرنسي « د اوغست بافي » توفق الى وصل تونكين ولاوس وادخال الميو والتاي الجبليين في منطقة النفوذ الفرنسي. فوضعت لاوس تحت الحماية الفرنسية في السنة ١٨٩٠ ، والحنت سيام في السنة ١٨٩٣ .

توائل عهد الهند الصينية الفرنسية

في الوقت الذي تحررت فيه الضفة الشرقية لميكونـــغ الاوسط من السيطرة السيامية ، انجزت فرنسا تأسيس اتحاد هندو ـ صيني ضم تحت اسم الهند الصينية بلداناً وشعوباً غير متلاحمة .

توفق اميرالات الامبراطورية الثانية ، بوسائل محدودة جداً ، وبمناسبة حرب ضد الصين ، الى احتلال نصف كوشنشين ، وبعد ذلك بفترة قصيرة سقط النصف الثاني بدون قتال . ولم تستلزم الحماية على كمبوديا عملية عسكرية . ولكن الاستيلاء على انام وتونكين كان من الصعوبة بمكان : اذ لم يعتمد الامبراطور « تو ـ دوك » على مساندة الصينيين فحسب ، بل توجب على الجيش الفرنسي اجتياز مناطق جبلية وعرة والحاربة في مناطق نائية قاسية المناخ مجهولة الموارد. فحتى بعد انحناء الصين ، وبعد اقامة الحماية في تونكين وانام، استمر القتال حتى السنة ١٨٩٦، عنيفاً ومضنياً ، في الجبال القريبة من الحدود الصينية ، ولم تتوقف المقاومة الا بعــد ان طبق « غالياني » ورئيس اركان حربه « ليوتي » خطة «بقعة الزيت». واقتضى من جهة ثانية قمع ثورة نشبت في شمالي انام . وحاولت كمبوديا نفسها القيام بثورة للتخلص من معاهدة حماية جديدة قاسية الشروط . وهكذا توصلت فرنسا ، بعد صراع ودبلوماسية استغرقا اربعين سنة ، الى السيطرة على امبراطورية اوسع مساحة من اراضيها ، يتراوح سكانها بين ١٢ و ١٤ مليونـــاً موزعين توزعاً غير متساو على انحاء الهند الصينية المختلفة .

لم يكن لفرنسا مــذهب استعماري في آسيا . فحتى السنة ١٨٨٧ ، ارتبطت كوشنشين

وكبوديا بوزارة الحربية والمستعمرات ، وانام وتونكين بوزارة الخارجية . ولما كانت سياسة الحماية بواسطة الزعماء البلديين سياسة ذات خطوة حين تم الاستيلاء على كوشنشين ، عمد الاميرال « بونار » ، على نقيض سلفه الاميرال « شارنر » ، الى اعادة الادارة المحلية الى زعماء القرى . ولكن اندلاع الثورة اوقف الاختبار . فاتجه الاميرال « دي لا غاردبير » حينذاك الى اعتماد طريقة الابقاء على السلطات البلدية وربطها بادارات فرنسية يشرف عليها حاكم يعاونه مجلس استشاري خاص . ولما كان القانون الفرنسي لا يطبق الا على الفرنسيين، ابقي على القانون المحلي بعد ان خففت العقوبات التي يفرضها. واتاحت اعمال المساحة توزيع الضريبة توزيعاً عادلاً، وتألفت بعض فرق الجيش الانامية . وفي السنة ١٨٧٩ ، بعد ان آلت الادارة الى المدنيين ، احتفظ الموظفون الفرنسيون بادارة الشؤون العامة يعاونهم الاعيان الاناميون . والغيت اعمال التسخير في الطرق ، وانما مست الحاجة الى تغذية الموازنة الاستعمارية باحتكار ادارة الافيون والمواد الكحولية وبواسطة الرسوم على تصدير الارز ؛ فحدثت بعض التجاوزات .

اصبحت الحماية اكثر تضييقاً في كمبوديا في السنة ١٨٨٤ . وحين فقد الملك حله المانع في تلك الارض ، لم يلبث ان اصبح في وضع مالي على بعض الصعوبة .

بوشر في الوقت نفسه تطبيق نظام الحماية على امبراطورية انام . فترأس المقيم العام في « هوية » مجلس الوزراء واشرف على ادارة دوائر الجمرك والاشغال العامة . ونعمت تونكين باستقلال اداري ، كما أقرت لها موازنة خاصة . وقد حاول « بول برت » ، الفيزيولوجي النابغة والكريم الاخلاق ، استمالة عواطف السكان . فأقام علائق ودية بالامبراطور الجديد« دونغ – خانه » المتحلي بالظرافة واللطف ، الذي قربه اليه ؛ ولكنه لم يتمكن من التغلب على عداء المجلس . وخفف من وطأة اعمال التسخير ، ووزع المساعدات المالية على الولايات التي خربتها الحرب ، واعفى من الضرائب المتأخرة ، واعاد بناء السدود . وكان علمانياً ، فاحترم العبادة البلدية وأوجب احترام الحرية الدينية . ورغب في التغلب على تقليدية المثقفين ، فأسس اكاديمية تونكينية لتنشئة معاوني الادارة الفرنسية وفتح مدارس فرنسية انامية على غرار المدارس المفتوحة في كوشنشين . وبعد محاولته تحقيق التهدئة في مناطق انام الشمالية والجنوبية ، توفي بسبب اصابته بمرض الزحار . وقد قاومه بعض المهاجرين المستعمرين والزعماء المحليين معاً .

في السنة ١٨٨٧ ، ورغبة في تخفيض النفقات وتنسيق نشاط الاقاليم غير المترابطة ترابطاً وثيقاً ، وجه « أتيان » ، ووزارة المستعمرات المرسوم القاضي إلى الـ « كي دورساي » ، فأنشأ البرلمان الفرنسي الاتحاد الهندي الصيني وأسند ادارته إلى حاكم عام.ثم ما لبثت الدولة المستعمرة ان ضمت إلى هذا الاتحاد مدن توران وهانوي وهايفونغ الحصينة الهامة . ولكن الافتقار إلى موازنة عامة شل عمل الحكام العامين الاولين الذين تعاقبوا تعاقباً سريعاً . الا ان « لانسان »

الذي آثر « على الحماية الماضية اللامبالية والجائرة » « حماية امينة على احترام القوانين والاعراف والمقيدة والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاداري في امبراطورية آنام » ، التمس محبة رعاياه او اقله ثقتهم : فأعفي من منصبه . وكان روسو اول من استحصل على قرض استعماري فسار بالهند الصينية نحو طريقة « دومر » الحازمة .

يؤشر باديء ذي بدء استثمار مناجم الفحم في « هونغاي » . ثم اكتشفت معادن مختلفة في تونكين لم تتوفر رؤوس الاموال لاستخراجها . ونقلت شحنة الشاي الاولى إلى فرنسا في السنة ١٨٩٤ . واذا كان صحيحاً من جهة ثانية ان الشبكة التلغرافية قد انشئت وان سايغون نمت نمواً اوروبياً ، وان هايفونغ جهز ميناؤها ، فان هانوي ليست بعد سوى مجموعة من القرى المتجاورة التي تحتاج الى مجهود تجهيزي كبير . واذا فاقت صادرات كوشنشين وارداتها ، فان كفة الواردات في الميزان التجاري في انام وتونكين مـا زالت راجحة .

ويجب الاعتراف بان البؤس قد تعاظم بتزايد الكثافة وان الاعيان لم يلقوا سلاحهم الا ظاهرياً .

الامبراطورية الصينية القديمة

بينما انتهت امبراطورية الهند المغولية الى الانحلال في القرن التاسع عشر ، اعادت السلالة المنشورية بناء الامبراطورية الصينية ، اوسع الدول الآسيوية اطلاقاً الى حـد بعيد . وقد ضُمت اليها ممتلكات خارجية واسعة – منشوريا ، منغوليا سن – كيانغ ، تيبت – امنت حمايتها من جهة بدو البورات ، لتامت بثقلها على مصائر الهند الصينية ، وتدخلت في النيبال ، وعقدت مع روسيا اتفاقات تعترف لها بحدود « آمور » ، وخط « سايتسك » ، والالتاي ، فكانت في الحقيقة « ارض الوسط » (تشونغ كور) » او « الامبراطورية الكبيرة الخالصة »(تا تسنغ كور)» البالغة مساحتها ١١ مليون كيلومتر مربع ونصف المليون ، والمحمية من السماء . ومع ان شخصاً واحداً لا يستطيع تقدير عدد سكانها ، فبمقدورنا ان نحلها في المرتبة العددية الاولى (بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون نسمة) .

وألفت كذلك أكبر مجتمع قروي في العالم ، منكب خير انكباب على العمل من أجل تأمين الغذاء اليومي في إطاري العائلة والقرية وفي كنف الجدود ، وناظر الى السلطة الامبراطورية الحامية كما الى شر لا بد منه . واذا لم يكن هناك من شعور قومي ، فان هذه الجماعات الغفيرة الكثيرة قد أحست ، بثقة وزهو ، بشعور انتمائها الى حضارة عـريقة يكمن سر تفوقها في انها تعرف وتحفظ سر كل حكمة . يضاف الى ذلك انها استمدت قوتها من ضخامة عدد السكان نفسها . وأساغت الفاتح بالسهولة التي ازدرت بها بالاجنبي . وقـد عرفت البقاء بالرغم من الكوارث الطبيعية والثورات السياسية ، حتى ولو اوجبت عليها دفـع الثقل ضريبة مكثفة للبؤس والمرض والمجاعة .

على غرار معظم السلالات التي اختارتها الصين ، او بالاحرى قبلت بها ، شـعرت السلالة

المشورية ببعدها عن الشعب وارتباطها به في آن واحد بميثاق محبة متبادلة. وقد عاش الامبراطور في بكين في المدينة المحرمة ، اسير عادات بروتوكولية مهيبة تحميه وتراقبه معاً ، « البيارق » التي تسيطر حامياتها العسكرية على الولايات . ولكنه « هوانغ – تي » ، اي انه يعرف الخير ويستطيع توفيره . ويكفيه التقيد بالاوامر المدونة في الكتب الكونفوشيوسية التي تقوم مقام الدستور ، شأن الاوامر القرآنية . ومن حيث لم تكن هناك طبقة اشراف وراثية ، عول على الاستبهال في تعيين من يطلب منه خدمة السلطة اي تحديد الكلمة الواجب قولها والحركة الواجب القيام بها والعادة الواجب اتباعها : ابواب الامتحان مفتوحة للجميع ويمكنة افقر الناس ان يصبح نائب الملك . ولكن كبار الموظفين ، بالاضافة الى اختيارهم بنتيجة امتحان عن ظهر القلب ، وبدون اي شرط خلقي او ذهني، قد الفوا في الواقع هيئة متسلطة السلطات ، ملزمة بالشكليات الضيقة ، متمردة نقل الاوامر ، ومسؤولة تجاه الرؤساء لا المرؤوسين . وعلى الرغم من واجب التجمل بالفضيلة ، لم يكن بالامكان تلافي الفساد. فكيف يؤمن الموظف معيشته ؟ لقد كان يتقاضى مرتباً ضئيلاً فاستغل نفوذه وقبض اجور خدماته وابتز اموال المكلفين . أضف إلى ذلك ان السلطة اعترفت ببيع الوظائف ، لا بل حددت اسعارها بمرسوم صدر في السنة ١٨٣٨ .

بيد ان آفة الدولة وآفة الموظفين الكبرى كانت الفقر والافلاس . فلا عجب من ثم إذا سادت الفوضى سيادة مزمنة . واذا صح انها كانت دواء لتطلبات السلطات ، فانها لم تحم الفلاح من الاختلاسات ، بل تخلت عنه للافتئارات . فيكفي ان يكون الامبراطور ضعيفاً او محاطاً بمعاونين فاسدين حتى تتسع وتنمو . ويبدو ان الاباطرة المشوريين كانوا بدورهم ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، ضحايا حياة البلاط الملأى بالدسائس الوحشية في معظم الاحيان . ولما كان الامبراطور يختار خليفته على هواه ، فقد اطلق العنان للمزاحمات وهو بعد في قيد الحياة ؛ وفي حال القصور الشرعي تنتهي السلطة إلى من يعرف كيف يضع يده عليها ، رجلا كان ام امرأة . لذلك ما زالت الاحبولة الحريرية هي طريقة الحكم . فيستنتج من كل ذلك ان ظاهر النظام ليس الا وهما خادعاً : ولا تستطيع شتى اشكال التهذيب المدروسة اخفاء التشويش الذي يشل الجهاز الحاكم .

وهنالك واقع خطير آخر : اعني به تدني عدد صغار الفلاحين الملاكين وانتقال الارض تدريجياً إلى ايدي ممثلي الادارة الذين يتعاطون المراباة اثناء جمعهم الضريبة واحقاقهم الحق . وكان من هزال الامن ان الكوارث الطبيعية والاضطرابات تعرض اراضي الجماعات لجشع الطامعين باحتكار الارض . اجل لقد حارب « كيان – يونغ » كبار الملاكين ؛ ولكن هؤلاء عادوا من بعده الى الهجوم بمحالفهم تزايد عدد السكان الذي حد من مساحة الاملاك الصغرى ومن موارد كل عائلة . وزاد في الطين بلة ان نمو التجارة مع الخارج ادى الى انخفاض قيمة الاراضي : فاستفاد اثرياء التجار من ذلك وضاربوا على قيمة الـ « تايل » الفضي التي تختلف بين سنة واخرى وبين

منطقة واخرى ، وربحوا كذلك من بيع السلع التي يبيعها الفلاح - وهو غالباً ما يكون صناعياً يدوياً - في المدينة مقابل بعض النقود النحاسية (سابيك) ، دون ان يفضي ذلك إلى تملص النشاط الصناعي من قيود تنظيمه الخانق . وقد نجم عن ارتقاء هؤلاء الاعيان والزعماء الريفيين تقوية الاثرة الاقليمية التي قاومت ابدا قيام سلطة مركزية على بعض القارة ، بسبب اتساع مساحة الامبراطورية .

لا تقوى وحدة الحضارة لمصري على إلغاء التنوع . وفي صين الولايات الثانية عشر ، تختلف الصين الشمالية عن الصين الجنوبية . فان تربة الاولى الصفراء والخصابة لم تكفها مؤونة الجاعات بسبب جفافها وافتقارها الى الاسمدة وفيضانات الانهر الكبرى المخربة احيانـــاً . وان هذه الصين التي لا تنتج حريراً جيداً ، والتي لا تنعشها الحياة البحرية قط ، عمدت ابداً الى مهاجمة المرتفعات الغربية ، وتطلعت الى « شان - سي » الغنية بالمناجم ، والمنحدرات التي يستطيع الاستثمار الريفي استثمارها ؛ صين معرضة لهجمات البدو ، اختارت السلالة المنشورية الاقامة فيها ، قريبا من منشوريا التي توفر لها جنود الحاميات العسكرية . ويقابلها صين حارة ورطبة وكثيرة النواتىء . وقد توفرت الشمال طرقات ومسالك تسير عليها العربة الثقيلة ذات العجلتين والنقالة الشراعية ؛ اما هنا فتوجب اللجوء الى الحمل المضني او الى الزورق الشراعي الذي امن المعيشة عن طريق الصيد والملاحة لعدد كبير عائم من السكان . وعاشت « هو - نان » في عزلة كارهة الاجانب ؛ وتوفرت لـ « تشي - كيانغ » مرافىء كثيرة السكان والحركة ، ومنحدرات تغطيها اشجار الشاي ؛ وهناك « نغان - هوي » و « كيانغ - سو » و « فو - كيان » - ويطلق عليها اسم « الازهار العجيبة الثلاث » - التي تتعاطى كلها زراعة الارز والقطن وتربية دودة القز ؛ والى اقصى الجنوب قامت « كوانغ - تونغ » التي استفادت من الاحتكار الذي استحصل عليه تجارها وتعاملت مع الاوروبيين عن طريق « ماكاو » .

الى الغرب من المناطق الكثيفة السكان ، انتصبت مناطق الحدود الجبلية القليلة الكثافة . فقد ثبت الصينيون اقدامهم في حوض « سي - تشوان » الاحمر الاعلى الذي يشاع الكثير عن موارده المختلفة ؛ وامتدت حول هذا الحوض مناطق واسعة ما كان الصينيون ليشعروا فيها بأنهم في بلادهم حقاً : ففي قلب « كوي - تشيو » و « يونان » اللتين يجب اجتيازهما مروراً بـ « طريق العشرة آلاف سلم » لبلوغ تونكين ، يختلط الـ « لولو » والـ « مياو - تسو » والـ « تاي » بأبناء الامبراطورية السماوية الذين يكاثر بينهم الخلاسيون ؛ وابعد الى الشمال تمتد « كان - سو » و « شن - سي » اللتان تؤلفان حدود امكانات الزراعة الصينية وتصلحان لتربية المواشي كما في البورات ، على الرغم من تربتها الرسوبية . اضف الى ذلك ان الاسلام استقر من جهة في كان - سو ، ومن جهة اخرى في يو - نان ؛ ويبدو ان هذا التسرب المزدوج كان خطراً على بوذية وكونفوشيوسية الشرق الاقصى ، بينما وصل « الشياطين البيض » الى مداخل الصين عن طريق البحر وطريق سيبيريا في آن واحد .

تفكك الامبراطورية الصينية عن ممتلكاتها الخارجية

بين حملايا وسيبيريا خضع جزء كبير من آسيا الوسطى للصين منذ توسع السلالة المنشورية الجديد في القرن الثامن عشر . ولكن ما حدث هو ان بستاني السهل الاصفر اهمل هذه المساحات او تعرض لغزوات البدو الفجائية . اضف الى ذلك ان هذه الاراضي كانت منطقة استعمارية في نظر اهل القرار الصينيين المعولين في معيشتهم على الحبوب والاسماك ، دونما اكتراث لتربية المواشي التي توفر الحليب فسيطرت هنا حضارة الالبان والخيام التي استخدمت الحصان والجمل والقطاس لاعمال النقل ؛ ولو فرضنا ان الصيني عرف ساكن هذه الخلوات بالحنطة والذرة البيضاء ، لاعدها لطعامه بزبدة نامسة .

وكانت الصين موجودة في هضبة التيبت الشديدة البرد والمقفرة في ثلاثة أرباع مساحتها . فأرسلت اليها المقيمين او « امبوان » ؛ ونصّبت الـ « دالاي - لاما » ، زعيم أعظم طائفة بوذية تصلباً وتسلطاً ، الذي يملك الارض ويجبي العشر ويشرف على التجارة ويبيع المعجزات والصلوات . وصدرت اليها الشاي والتبغ . وأدركت اشعاع اللاما الروحي على العالم البوذي : فضمنت راحة الحجاج الذين يسلكون طريقاً مخيفة تؤدي الى التيبت من « سي - تشوان » او من « كان - سو » ؛ وراقبت علائق التيبت بالهند بواسطة مجازات لاداك ونيبال وبوتان . الا ان الاتفاق بين الانكليز ودول مناطق حملايا قد أثار حفيظتها . وحين اضطر نائب الملك في الهند ، بعد زيارة موفد اللاما لبطرسبرغ ، رداً لزيارة بعض البوذيين الـ « بوريات » والـ « كلموك » الى التيبت ، الى الاستيلاء على سيكيم والقيام بمناورة عسكرية في لاسا في السنة ١٩٠٤ ، قبلت بكين ظاهريا باتفاق ينطوي على اقصاء كل دولة اخرى ، ولكنها عادت فاحتلت لاسا عسكريا منذ السنة ١٩١٠ . فكانت لها الكلمة الفصل مرة أخرى .

تناول الضغط الروسي مناطق الحدود الطويلة الممتدة بين بامير والآمور حيث كانت الامبراطوريتان متقابلتين وجهاً لوجه . ولكنه تقابل بعيد اتضحت معالمه بتوطد سلطة القيصر على سيبيريا وتركستان الغربية . فقد وصلت الاورال ببايكال ، بين البوريات والـ « تايغا » ، وعبر الانهار الكبرى ، طريق الـ « تراكت » السيبيرية البالغة ١٦٠٠ كيلومتر طولا . وأسهم سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في نرتشنسك ، ومعتقل « تشيتا » الذي جهزه رجال ثورة كانون الاول ، والاندفاع الجماعي وراء البحث عن الذهب في الالتاي باتجاه الـ « لينا » و الـ « فيتيم » ، واستمرار نفي المجرمين السياسيين ، في توطين السلافيين الاولين بين الـ « تونغوز » والـ « بوريات » الرعاة المتشتتين بين منغوليا والدائرة القطبية الشمالية . وأسس القوزاق في الوقت نفسه الـ « فوبسكوس » في نقاط عدة من الحدود وتعاطوا الزراعة وتربية المواشي والقنص والصيد . وفي مؤخرتهم وسع ألوف الفلاحين الفرنى ، باتجاه الشرق ، اراضي زراعة الحبوب التي تكمل الاراضي الاوروبية السوداء ، بينا انشئت المدن الكبرى المتميزة بمساكنها الخشبية وشوارعها الضيقة ، « اومسك » ، و « تومسك » ، و « كراسنويارسك » ، و « اركوتسك » ، التي ألفت

سلسلة من المحطات نحو الشرق الاقصى . وبعد ذلك امتدت اراضي شرقي بايكال الغنية بالمناجم والمواشي ، التي تتصل بالمناطق البحرية وأماكن صيد الاسماك فيها ، وحتى بالاسكا نفسها . ومنذ السنة ١٨٩١ انشىء اطول خط حديدي في العالم بغية تأمين المواصلات في كندا الثانية هذه على غرار « الخط الكندي الباسيفيكي » ، فجاء يعبر عن تصميم روسيا القيصرية على التوسع قرب الممتلكات الصينية الخارجية ، اعني بها سن – كيانغ ومنغوليا ومنشوريا .

حرصت بكين على مراقبة طرق القوافل وطرق الغزو هذه . وان سي – كيانغ التي عرفت قديماً باسم « سرند » هي تركستان الشرقية التي اقام فيها الروس والتي تصلها بالغرب مجازات سهلة . فمن جهة تؤدي طريق الشمال (بي – لو) عبر زنغاريا وكولجا واورومتشي ، الى « لان – تشيو » ؛ ومن جهة ثانية تمر طريق الجنوب (نان – لو) ، عبر « ترك – دافان » (مرقأ الحور) » في قشغر وتسير بموازاة التاريم الى ان تؤدي كذلك الى كان – سو وشن – سي . وان هذه الطرق التي اقام على جوانبها الرعاة وأهل القرار تمر كذلك في عدد من الواحات .

في نان – لو تولى زراعة السهول الرسوبية الضيقة اكلة خبز الحنطة او الذرة الصفراء الفارسيو المنشأ والمولعون بالـ « بيلاف » – الارز المتبل بالفلفل الاحمر – : جماعات سارتية شرقية ، وجماعات سوغديانية اعتمدت لهجة تركية قريبة من لهجة الاوزبك السارتيه . وكان رعاة « التنطاغ » اتراكاً ايضاً . فتطلع هؤلاء واؤلئك نحو الغرب الذي ابتاعوا منه الحبوب والاسلحة والادوات وباعوا منه الاصواف والجلود والطنافس والبود . وقد سيطر على هذه المناطق اسلام غير متطلب ، اذ ان المرأة حرة ولا تستتر بالحجاب قط . وتجانبت المدينة الاسلامية والمدينة الصينية على غير تعامل . واحدق بهذه المناطق خطر خانات فرغانا . لذلك فرض اباطرة القرن الثامن عشر الجزية على زعماء القبائل هؤلاء . ولكن امتداد النفوذ الصيني كان سريع الزوال .

على غرار قشغاريا ، عانت زونغاريابا الامرين من نتائج حروب الصينيين ضد المغول الغربيين ، المعروفين باسم « الوثنيين » ايضاً ، الذين رموا في النهاية الى ما وراء الالتاي . فأقيمت حاميات عسكرية صينية في كولجا وبي – لو ؛ ووطن كبار المسؤولين الصينيين في الجهة الشمالية من تيان – شان مغولاً من التوغورت الآتين من الفولغا ولا سيما من الـ « دونغان » الفلاحين والصناعيين اليدويين المجتهدين ، ولكن المرتفعات بقيت مأهولة بالرعاة القازاق المسلمين والكلموك البوذيين . وما لبثت العلائق ان اقيمت بينهم وبين المراكز الروسية المبنية على طول نهر « ايلي » ، وان فتحت معاهدة كولجا ، التي ابرمتها بكين في السنة ١٨٦٠ ، ابواب الـ « بي – لو » امام التجارة الاجنبية .

كانت آسيا العليا الاسلامية في حالة هيجان شديد حين اقتربت جيوش القيصر منها . ففي السنة ١٨٦٢ ، اندلعت ثورة في قشغاريا لم يلبث ان تولى قيادتها زعيم دونغاني اسمه يعقوب الذي يبدو انه سعى وراء اطماع سياسية كبرى : اعتمد على خان كوكند الذي زوده بالاسلحة

والاعتدة» ويراسل سلطان الاستانة وحتى حكومة الهند، وابتغى تأسيس امبراطورية «الولية» جديدة تعارض الطريقين الاوديتين الى سن - كيانغ. فاحتل زونغاريا ثم سار قدماً نحو «بامير». فاعترف الروس به واستفادوا من الفرصة السانحة للاستيلاء على كولجا. ولكن الرد الصيني جاء عنيفاً منذ السنة ١٨٧٧ . فهزم يعقوب وقتل، وتخلت روسيا عن كولجا بعد ان استحصلت على حق تعيين قناصل يمثلونها في بي - لو وتان - لو. فعمدت بكين ببراعة الى توطين جماعات منشورية وفلاحين آتين من وادي التاريم وتجاراً آتين من كان - سو وتركت للقضاة المسلمين حق الفصل في الدعاوى، ولكنها احتفظت لنفسها بملء كافة مراكز القيادة.

اذا احدث في جامعة كاران منبر لتعليم الصينية، فانها قد علت اللغة المغولية أيضاً. لقد ولى الزمان الذي كان فيه الفارس المغولي يمتطي حصانه الضليع ويتسلح بالقوس والرمح ويؤسس الامبراطوريات. فان القبائل (خوشوم)، المتضامنة او المتحالفة بقيادة امرائها الوراثيين، تعيش حياة خشنة حول الاخبية (يورت) اللبدية المرتبة بشكل «آورل» متجرعة حليب الفرس الحمض او حليب النعجة الخاثر وبائعة الاصواف من الصينيين. وقد شجعت بكين البوذية التي اضعفت الروح الحربية بجعلها عدداً كبيراً من هؤلاء المتشردين على التبتل. فبات اللاماء في وجه الحاربين، خير اعوان الامبراطور الذي نصّب الخانات وأمدهم ببعض المساعدات المالية. وتمت اديرة «اورغا» بشهرة عظيمة، وقد اقام الـ «جيتو - تومبا»، الذي كان تجسيداً لبوذا، على غرار الدالاي - لاما، في دير «كورّن». وقد مرت طريق الحجاج من التيبت الى منغوليا في «كوم - بوم» على مقربة من سن - تنغ حيث عاش رسول الجمعية اللاماوية. وكان لهؤلاء الرهبان فداديرهم الذين يمنون بقطعان الماشية؛ وقد بلغوا ١٠٠٠٠٠ في اورغا. وقد ارتدت طابع الاهمية نفسه طريق الشاي الكبرى التي تؤدي من بكين الى «قلغان» والى اورغا ايضاً، ثم تنقسم الى فرعين احدهما باتجاه بايكال والآخر باتجاه كوبدو وحوض الاوبي. وقد ذهب المستعمرون الصينيون في تقدمهم حتى مشارف «غوبي» الجنوبية حول الاوردوس. ولكن روسيا لم تبق عادمة النشاط والحركة. فقد استخدمت البوريات المغوليين وادخلتهم في فرق القوزاق وساندت «خامبا - لاما» كياختا «التابعة لاورغا وانشأت مصلحة بريدية بين هذه المدينة و «تيان - تسن»؛ وحاولت استمالة امراء منغوليا الخارجية الخاضعين لنفوذ الاورغا، ولن يقر لها قرار حتى يعلنوا استقلالهم عن بكين بعد سقوط المنشوريين في السنة ١٩١١ .

الا ان الجاز المنشوري الواسع قد استهواها اكثر من كل هذه المناطق. اجل لقد اعترفت به الصين في السنة ١٨٥٨ . ولكن هذا السهل الخصب لا يمكن ان يترك الى ما لا نهاية له لرعاة وقناصة مصرّين على موقفهم العدائي لا يستثمرون المناجم والغابات ويحيطون انفسهم بمناطق حدود مقفرة تجنباً لوقوع مراعيهم في ايدي الفلاحين الصينيين الطامعين في زراعة الـ «كاو - ليانغ» والذرة البيضاء والبساتين وحتى الحنطة. فشجع رفع القيود المفروضة على الهجرة

لدافق المستعمرين الآتين من « بي - تشي - لي » ومن « شان - لونغ » . وسهلت الخطوط الحديدية التي بناها الروس هذا الغزو السلمي ايضاً . وفي السنة ١٨٩٥ اصبحت منشوريا لمصري موضوع تزاحم دولي منذ ان اخذت اليابان وروسيا تتنازعانها .

وفي بحار الباسيفيكي الساحلية اعتبرت الصين كذلك جزيرة فورموزا وشبه جزيرة كوريا منطقتين تابعتين لها . ففي فورموزا - اي - وان - قام صينيو فو - كيان شيئاً فشيئاً باستثمار الاراضي ، فدفعوا امامهم الـ « ايغوروت » والـ « هاكا » البرابرة الذين لجأوا الى المرتفعات . وكانت « تشوسيان » ، « بلاد الهدوء الصباحي » ، مملكة خاضعة لسلطة بكين ، منعزلة جهد المستطاع ، تخشى المطامع اليابانية ، وتصبر على السيادة الصينية النائية : وقد بلغ سكانها بين ٩ و ١٢ مليون فلاح متكاسلين يكادون لا يحصلون على قوتهم الضروري ولا يمنون العناية الكافية بطرقهم وجسورهم ، ويبيعون من الصين الـ « جن - سانغ » ، المقوي المشهور ، والورق الذي يستخدمونه لغايات كثيرة ، ويرغبون في الملابس الزاهية . وقد كتب « دو كروك » : « ان سيول لمعمل كبير لتبييض النسج لا تتوقف فيه تكتكة الهاضيج قط » . واشتهرت البلاد بنسائها الانيقات الحريصات على العناية بشعرهن ، ورجالها القيد الهيانيين . وكانت ملكية مطلقة خفف من وطأتها كبار المسؤولين المثقفين ثقافة صينية . وقاومت كوريا التبشير بالديانة المسيحية ، لا بل عمدت الى اضطهاد اوجب على الغربيين القيام بمناورات بحرية في مياهها الاقليمية . ولكن الخطر احدق بها ، بعد السنة ١٨٧٠ ، من جهة اليابان التي ارغمتها على السماح لها باستخدام ثلاثة مرافىء ، على الرغم من اعتراضات الصين . وان موقع كوريا وضعفها قد جعلاها ، كما حدث من ذي قبل ، فريسة اليابان ، او أية سلطية أخرى ، كلما عجزت الصين عن حمايتها .

تباشير التدخل الاوروبي في الصين واول أزمات الامبراطورية الصينية ثورات الـ « تيبنغ » والمسلمين

اتضح انحطاط السلطة الامبراطورية في الصين في اوائل القرن التاسع عشر . ولعل ابتزازات كبار الموظفين وتجاوزاتهم والخفة والشنشنة العامة تفسر سوء حالة الطرق وخراب تحصينات المدن وفقدان الأمن ونقص الحبوب المتكرر في الشمال الذي جعل الحاجة اشد الحاحاً الى أرز المناطق الجنوبية . وكان كذلك لجشع كبار الملاكين العقاريين والتجار نصيبه في تفاقم سوء حالة الجماهير .

برزت منذ ذاك الحين مظاهر العداء لسلالة الـ « تسنغ » ، ولا سيا في الصين الجنوبية حيث كان نفوذ الاباطرة المنشوريين ضعيفاً وحيث تأسست جمعيات سرية كثيرة (الثالوث ، النيلوفر الابيض ، السراط المستقيم) اتخذت شعاراً لها : « لنقلبن التسنغ ونعيدن المنغ » ، ولكنها لم تخف قط كراهيتها للاجنبي . الا ان تدخل الاجانب بالذات هو ما اثار الازمة ، والعون الذي تلقته بكين من هؤلاء الأجانب أنفسهم هو ما ضمن لها الخلاص .

بعد التنازلات التي سُلم بها لكراهية الأجانب ، ساءت العلائق جراء ذلك بسبب تحريم الدعاوة المسيحية (١٨١٤) ورفض التفاوض مع الدول الاوروبية على قدم المساواة . وقد شكى الأجانب من تزايد متطلبات جمعية الـ « كوهونغ » الحاصلة على احتكار التجارة في كانتون . وفي سبيل زيادة حجم مكاسبها ، حاولت شركة الهند الانكليزية ، التي كانت تشتري الشاي والخزف الصيني والحرائر والقطنيات الصفراء والصموغ ، تصريف الافيون في الصين على الرغم من المنع الذي استهدف هذا العقار . فاعترضت بكين، واورد الامبراطور في احدى مذكراته في السنة ١٨٣٨ : « ان هذا الشعب (الانكليزي » الذي ليس لديه ما يؤمن به معيشته يسعى وراء استعباد البلدان الأخرى باضعاف سكانها اولاً ...) ، ولكن ما أغلق الحكام الصينيين اغلاقاً مماثلاً على الأقل هو انقلاب سعر المعدن الأبيض . فكان الرد من ثم على التهريب المطلق العنان الذي انصرف اليه الانكليز تحطيم صناديق الأفيون . فأفضى ذلك الى توجيه حملة عسكرية حاصرت كانتون ثم ضربت نانكين بالقنابل امام تصلب بكين. فوقعت في نانكين في السنة ١٨٤٢ اولى « المعاهدات غير المتساوية » التي فتحت خمسة مرافىء وألغت احتكار الكوهونغ واكرهت الصين ، بالاضافة الى ذلك ، الى التخلي عن جزيرة هونغ – كونغ ودفع تعويض حربي .

ألحقت « حرب الافيون » الضرر بالصين ، ووجهت في الوقت نفسه ضربة قاسية لنفوذ السلالة المنشورية التي أعطت الدول الأخرى حق حرية التجارة في المرافىء المفتوحة . ولكن غليان الشعب تزايد باطراد . فشكى المحافظون ، الذين تألموا في كبريائهم من الذل الذي لحق بالامبراطورية السماوية ، اتفاق السلطات المبهمة مع « البرابرة » ، تجار الأفيون والكتب المقدسة والبنادق ، وشاري العمال لمستعمراتهم . وبينما اخذ استيراد المصنوعات الاوروبية والاميركية يلحق أذى كبيراً بالصناعي البدوي ، زاد خروج الفضة من البلاد في سوء حالة المزارعين والمكلفين الذين اضطروا الى إيفاء ما عليهم نقداً معدنياً اكثر ندرة . أجل لقد جمع تجار المرافىء الثروات ، ولكن واردات الحكومة هبطت حين توجب عليها دفع قيمة التعويض الحربي .

كانت حركة التايبنغ من ثم ثورة بؤساء وفلاحين فقراء انضم اليهم معوزو المدن والملاحون والحمالون وعمال المناجم وحتى الافاقون والقراصنة والفارون من الجندية . ولكنها جرت وراءها ، في كل مكان تقريباً ، المثقفين والملاكين الطاريين والتجار المعادين لبكين . وشاعت بعض التنبؤات حول عودة المنغ وقص ثوار كثيرون ضفيرة الشعر التي فرضها التنغ عربوناً للخضوع . وقد عرف الثوار باسم رجال «تاي – بنغ تيان – كوو » أي رجال « المملكة السماوية للسلم الاكبر » ، وهي جمعية تأسست في كوانغ – سي بين الفلاحين الـ « هاكا »، الآتين من الصين الوسطى ، الواقفين في وجه الفلاحين المحليين الذين تساندهم بكين . فساروا وراء « هونغ هيو – شوان » الذي قرأ الكتاب المقدس وحفظ منه التوحيد وشمول مملكة الله .

وانتقدوا كونفوشيوسية كبار الموظفين الأنانية ، فحرروا المرأة وحرموا الأفيـون والميسر واعتمدوا روزنامة مستوحاة من الروزنامة الغربية ووضعوا نصب أعينهم تنمية التجـارة والصناعة ، ولكنهم نادوا كذلك بشيوعية زراعية بدائية واقتبسوا عن الصين القديمة الاولى بعض المؤسسات السياسية والعسكرية . ولن يلبث مثل هذا البرنامج ان يبعد عنهـم العناصر المتمسكة بالتقليد .

الا انهم احرزوا في البدء نجاحاً ساحقاً . ففي أقل من سنتين ، انطلقوا من كوانغ - سي وهزموا اعداءهم في كافة اتجاه حوض يانغ - تسي ، واستولوا على هان - كيو ثم على نانكين ونظموا حكومة تولت إعادة توزيع الاراضي لمصلحة جماعات الفلاحين وانشأت صناعة دولـة تنتج للمستودعات العامة المعدة لتموين جيش مبني على الخدمة العسكرية الالزامية . ولكن التايبنغ اخطأوا هدفهم بتفويتهم فرصة قلب الامبراطور الضعيف « هيان - فونغ » . ولعـل جنودهم انفوا من المخاطرة بنفوسهم في السهل الكبير . ولكن مهما يكن من الأمر فان سيرهم على بكين قد انتهى الى الفشل بسبب تأخره وسوء تنظيمه . ولم تحرز الثورة بعد ذلك تقدمـاً يذكر لانها ضعفت بفعل الاثرة الاقليمية التي اضاعت عليها الاهداف الواجب بلوغها، وامتعاض المثقفين والأغنياء الذين اخافتهم سياستها الاصلاحية المتطرفة، وامتعاض الفلاحين الذين اضطرت بدورها الى فرض ضرائب ثقيلة عليهم . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انها اعيقت في مؤخرتها، ابتداء من السنة ١٨٥٦ ، بثورة أخرى هي ثورة المسلمين في يونان التي اندلعت بين عمال مناجم كبريت الرصاص الممزوج بالفضة . وما لبث الاسلام الصيني بأجمعـه ، في كان - سو وسن - كيانغ ان انضم اليها .

ولكن بكين سوف تتمكن من الصمود . فقد ناصرها بادىء ذي بدء إقطاعيو هـو - نان الذين جندوا الجيوش ووقفوا في وجه التايبنغ ، ثم التف حولها كافـة كبار الموظفين الذين توحدوا امام الخطر ورفعوا علم الكونفوشيوسية . الا ان الوضع سيبقى متأزماً طالمـا هي لا تستطيع الاستعانة بالاجنبي . والحال استفاد هذا الاخير من الازمة ليفرض رقابة جمركيـة حقيقية ، ثم تطل بخرق المعاهدات ليقوم بمناورة جديدة لتثبت قوته . فاستولى الفرنسيون والانكليز على تيان - تسن ثم تقدموا حتى بكين حيث اجتاحوا « القصر الصيفي » . وقـد ارغمت الامبراطورية على فتح مرافىء جديدة ودفع تعويض حربي جديـد والتسليم بوجود ممثلي الدول في عاصمتها ، بينما حصل الروس على الولاية البحرية واسسوا فيها فلاديفوستوك على شاطىء بحر اليابان . فكان ان اللورد « إلجن » ، الذي سبق لوالده ان نهب الاكروبول في اثينا ، والذي تأثر هو نفسه بكنوز القصر الصيفي ، كتب في صحيفته ان التجارة « تمارس في ظروف فاحشة بالنسبة الصينيين ومفسدة للاخلاق بالنسبة لمواطنيه » . وعلى الرغم من ذلك ، فان السيد الحقيقي لعلائق الصين بالعالم اصبح منذ ذاك التاريخ السير « روبرت هـارت » ، مفتش الجمارك البحرية العام . وجلي في مثل هذه الظروف ان « البرابرة » ما كانوا ليقفوا الى جانب

التايبنغ . يضاف الى ذلك ان تحولاً قد طرأ على موقفهم حين آثر المرسلون والرأسماليون استتباب النظام في ظل سلطة تخضع لرقابة شديدة . ثم ان نجاحات الثورة الاسلامية قد لغمت تلك مضاجعهم ، فتكون بينهم وبين بكين تضامن لم يكن لمصلحة نانكين . فتدفقت الاسلحة والمتطوعون على المعسكر الامبراطوري ، واشرف الاميركي « وورد » والماجور البريطاني غوردون — الذي سيشتهر باسم غوردون باشا ـ على العمليات العسكرية التي انتهت بسحق العصيان .

الا ان قمع الثورة الاسلامية سيتطلب سنوات طويلة . اجل لقد عقد من قبل اتفاق في يونان مع السلطات الامبراطورية ، الا ان القتال تجدد بإشراف زعماء جدد حل احدهم لقب السلطان . وفي سن ـ كيانغ مضى يعقوب في المقاومة حتى السنة ١٨٧٧ . فاجتيحت ولايات كاملة ، ودمرت بعض المدن كـ « سو ـ تشيو » ونانكين ويونانفو . وكانت آثار الخراب لا تزال ظاهرة في يونان حوالى السنة ١٩٠٠ . وقد عقبت هذه الحروب مجاعة السنة ١٨٧٧ — ٧٨ الرهيبة التي جاءت ضغثا على إبالة .

فخرجت الصين من المحنة منهوكة القوى وخاضعة لوصاية تكاد لا تكون مقنّعة ، اعني بها وصاية الغرب .

نجاحات النفوذ الاجنبي الجديدة والأزمة الثانية في الامبراطورية الصينية

منذ السنة ١٨٧٠ حتى السنة ١٨٩٥ ، عرفت الصين هدوءاً نسبياً أتاح بروز رأسمالية بلدية وانتشار آراء الاصلاح والتجديد في الاوساط التي تعاملت مع « البرابرة » ورافقت بانتباه التطورات المدهشة التي كانت اليابان مسرحاً لها .

استمر التعاون بين الغرب وبكين في الحقل العسكري . وقد أقلق تفوق البيض المفوض « لن تساو — سن » ، فاستصدر منذ السنة ١٨٤٤ ، ١٢ مجلداً من « حوليات الامم البحرية المصورة » . كما ان المدفعية المصرية احدثت انطباعاً عظيماً . فتجند بعض الشبان في الوحدات البحرية البريطانية او تلقوا دروسهم في سان — شامون والا « كروزو » ، بينما اسند نائب الملك في فو — كيان الى بعض ضباط البحرية الفرنسية امر بناء دار صناعة بحرية في فو — تشيو سوف يضربها « كوربيه » بالقنابل في السنة ١٨٨٤ . ونقلت مؤلفات علمية عديدة بعناية معهد أسسه القس الاميركي « و. ا. ب. مارتن » : فعلمت الاصول الدبلوماسية ، ولقن اللغات الاوروبية بعض موظفي وزارة الشؤون الخارجية — « تسونغ — لي — يامن » — التي انشأتها الامبراطورية بعد المعاهدة . ثم اخذ يسود الاعتقاد بأنه يكفي الحصول على سر التقنيات الغربية للعودة بالبلاد الى الاستقلال .

ولكن علاقة وثيقة جداً لوحظت بين اوساط الاعمال الاجنبية وبعض كبار الموظفين .

ففي السنة ١٨٦٢ ، عين لسنغ - كوو - فان، الذي لعب دوراً هاماً في الحرب ضد التايبنغ، عدداً من المهندسين البريطانيين ، واسس اول دار صناعة بحرية على النهر الأزرق في نانكين. وبعد مرور ثلاث سنوات بدأت « شركة « كيانغنان » لاعمال الاحواض والهندسة » عملها في شنغاي . وفتح « تشانغ - تسي - تونغ » ، حاكم هونان ، مصنعاً للغزل ومصنع حياكة آلية في « او - تشانغ » ، ثم دار الصناعة البحرية في « هان - يانغ » . وكان « لي - هونغ - تشانغ » مثال الموظف الفطن ، فأقام ، بوصفه ناظر التجارة ، علائق ودية بينه وبين رقابة الجمارك ، ولم يهتم بتأسيس دور الصناعة البحرية ومصانع الغزل فحسب ، بل بتشجيع شركة « الملاحة البحرية لتجار الصين » وانشاء خط بين تيان - تسن وشنغاي بالاتفاق مع « شركة التلغراف الشمالية الكبرى» . فأدت مكاسب المقايضة الداخلية من ثم الى قيام مشاريع عصرية استمالت الرأسماليين الاوروبيين والاميركيين استمالة شديدة .

خضع هذا النشاط للسيطرة الانكليزية . ففي هذا العهد استطاعت منشأة الادعاء بالباس « الساويين » واحتلت لندن المرتبة الاولى كمستودع الشاي الصيني واحتلت مركز الصدارة في تجارة الجرائر التي اهتم بها « ارتشيبالد لتل » ، معهد الطريق للملاحة البخارية في « يانغ - تسي» الأعلى . وانطلقت هونغ - كونغ انطلاقة قوية وسريعة عانت منها كانتون وما كاو . فأصبحت أكبر مستودع للبضائع ومركزاً مصرفياً اشع في كافة انحاء الشرق الاقصى . وقد تولى مصرف « جاردين - ماتسون » ، ومصرف « هونغ كونغ وشانغاي » المرتبط بـ « مصرف شبه الجزيرة والشرق » ، البت بكافة المعاملات . وبفضل حسن ادارة حاكمها « هنري بوتنغر » ، مثلث الجزيرة ، التي لا تتجاوز مساحتها ٧٥ كيلومتراً مربعاً، بأحواضها وأرصفتها وابنيتها الكبرى، انتصاراً على الصخر الغرانيتي والحيّات والقراصنة . ثم انطلقت شانغاي بدورها . فانتشر نقدها « الـ « تايل»، في كافة انحاء الصين . وتجاورت المؤسسات البريطانية والفرنسية والاميركية على طول رصيف جيل - بوند - قامت أمامه احواض السفن والمعامل . أما المدينة الصينية المحاذية فقد حافظت داخل أسوارها على حوانيتها المضاءة بمصابيح ورقية والمعرف عنها بمناور عمودية ، كما حافظت على قذارتها وروائحها النتنة . وبفضل نشاط الملاحة دبت الحياة في مياه النهر الازرق الوحلة بين شنغاي وهان - كيو ، المركز الصناعي الآخر الآخذ في النمو . واما تيان - تسن والمرافىء الشمالية فستنال في عهد لاحق قسطها من هذا النمو .

مائة وثلاثون مليونا في السنة ١٨٤٢ ، واكثر من مليار في السنة ١٨٨٠ : ان هذه الارقام لخير دليل على لجاجات التجارة الخارجية . الا ان الميزان التجاري ما زال في عجز : فان شراء القطنيات والافيون والارز قد ضخم حجم الواردات تضخما مفرطا . اضف الى ذلك ان بكين قد عمدت الى صك كمية متزايدة من النقد الفضي لتتمكن من القيام بتعهداتها . وهبطت قيمة التايل الى نصف سعره بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٩٥ : فشجع ذلك عمليات التصدير ، ولكن البلاد استسلمت اكثر فأكثر الى الرأسمال الاجنبي عن طريق القروض وتوظيف الاموال .

ان الهجرة الى الصين ، المحدودة جداً بالنسبة لسكان هذه الاخيرة ، قد اصطدمت بعقبتين هامتين هما الفقر وكراهية الاجنبي . فان انشاء الخطوط الحديدية قد اعتبره العديد من الصينيين خرقاً للقدسيات : اذ ان التنين الصيني لن يغتفر لاولئك الذين يغرزون المسامير الفولية والمسامير المثناة في ظهره . وقد انتزع خط تبرعت به مؤسسة انكليزية في شنغاي لايصال هذا المرفأ بـ « اوسونغ » . ولمرض أحد بائعي الاراضي الضرب بالخيزران حتى الموت . ولم يباشر بناء خط بكين – تيان – تسن الا في السنة ١٨٨١ ، ولن يوصل بالشبكة المنشورية الا في السنة ١٩٠٧ .

نشبت نزاعات سنوية بين الحكومة الامبراطورية وبين هذه او تلك من الدول . وغالباً ما انحنت بكين أمام نفوذ التقليديين الذين ما كانوا ليرضوا بالتسليم بتدخل الدول الاجنبية في شؤون البلاد . ولم يكن بالامكان تجنب الحرب مع فرنسا بصدد الهند الصينية . ولكن نتيجتها المؤسفة لم تهدىء الافكار . وان في الصور الدعائية الجدرانية التي تمثل الخنزير يي – سو مصلوبا ، وتعديات الجماهير على الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية ، والمظاهرات العدائية بمناسبة تدشين الملاحة البخارية على اليانغ تسي ، لدليلا على المشاعر السامة التي لم يحاول البلاط مقاومتها كما يتضح من تقارير السفارات .

حدثت الازمة الكبرى الثانية حين هزمت الصين في حربها الكورية ضد اليابان في السنة ١٨٩٤ – ٩٥ ، فأنقذها الاوروبيون مرة أخرى منتهزين الفرصة للاستفادة اكثر فأكثر على حسابها . وترد الازمة الى ان معاهدة الصلح ، حتى بعد اعادة النظر فيها ، قد قضت بالتخلي عن فورموزا ، واعطاء اليابان مركزاً ممتازاً في الحقل التجاري ، ودفع تعويض حربي كبير جداً . ولما كانت بكين عاجزة عن تسديد المبلغ المطلوب منها ، لم تستطع حرمان مقرضيها من الفوائد التي سلمت بها للمنتصر عليها. فأسرعت الدول الى اقتسام المغانم : هذا ما يعرف بتجزئة الصين . وعلى الرغم من اعتراضات اليابان ومن مناداة الولايات المتحدة بسياسة الباب المفتوح ، تخلت الصين عن بعض الاقاليم لقاء عقود تأجيرية لمدة ٩٩ سنة،فأقامت روسيا والمانيا وبريطانيا العظمى في رأسي لياو – تونغ وشان – تونغ ، الاولى في بورت– ارثور والثانية في كياو – تشو والثالثة في اواي – هاي – اواي ، بينما أقامت فرنسا في حكوانغ – تشو قبالة جزيرة هاي – نان . ورافق هذا الاقتسام نفوذ اقتصادي سريع الخطى : فتح مناطق واسعة للتجارة ،وانشاء مؤسسات صناعية كثيرة (بعد ان حصلت اليابان على هذا الحق) ، وبناء خطوط حديدية جديدة ، واستثمار المناجم . وبرز توسع الرأسمال الغربي عمليا بتأسيس ثمانية مصارف هامة يدخل في عدادها المصرف الروسي الصيني الذي اسهم الفرنسيون في تمويله والذي اهتم بصورة خاصة بالمواصلات بين سيبيريا وبورت – ارثور عبر منشوريا ، فتميزت المعاملات التجارية وانتاج المصانع بالنشاط . ولكن الصناعة اليدوية انتهت الى الاضمحلال وميزان المقايضات بقي في عجز .

سلمت اوساط الاعمال وبعض المثقفين باضطرار الصين الى الاتفاق مع الاجانب ، فانتشرت

مؤلفات كانغ ـ يو ـ أواي التي أوصت باصلاح التعليم ، وطالبت باقتفاء أثر المستبدين المستنيرين ولا سيما بطرس الاكبر، واستهدفت مداراة كبرياء الصينيين بارشادهم الى الدور الذي باستطاعتهم ان يلعبوه في المستقبل على مسرح العالم . وندد تشانغ ـ تشي ـ لانغ بالتمسك المفرط بالشكليات ونادى بدراسة التقليات .

وهكذا حدثت في السنة ١٨٩٨ المحاولة المعروفة بمحاولة المائة يوم ، اي فترة الاسابيع المعدودة التي فرض خلالها كانغ ـ يو ـ اواي المتمتع بثقة الامبراطور الفتي كوانغ ـ سيو ، اصلاح الامتحانات ، وتبسيط الانظمة القضائية ، واحداث دوائر اقتصادية ، وتجديد الجيش ، ونشر الاخبار المتعلقة بالدول الاجنبية . ولكن الامبراطورة الام ، تسو ـ هسي ، قاومت المحاولة بمساعدة التقليديين والعسكريين المشوريين : فأرغمت الامبراطور على الاستقالة . أما الجماهير فلم تحرك ساكنا .

ما زالت هذه الجماهير متأثرة بالدعاوة لكراهية الاجانب . فقد حققت شيعة « قبضة اليد » السلام والعدالة ، التي اعلنت عداءها لغزو البرابرة البيض ، نفوذاً متزايداً في كافة الولايات الشمالية . وقد شجعها الانقلاب الذي قامت به تسو ـ هي ، فأتت أعمال عنف كثيرة ، مخربة الخطوط الحديدية ، ومحرقة الابنية ، ومشرفة للمبشرين والصينيين المعتنقين الدين المسيحي . وثارت بكين تلبية لندائها وحاصرت السفارات . فوجهت الدول ضد « الملاكين » جيشاً دوليا دخل العاصمة . ولم يتخلص البلاط من هذه الورطة الا بتسليمه ، بوساطة لي ـ هونغ ـ تشانغ، بحل الجمعيات المعادية للأجانب ، ومنع استيراد الاسلحة والاعتدة ، ودفع تعويض حربي ثالث قيمته ١٣٧٥ مليونا .

وجملة القول إن ازمة السنوات ١٨٩٤ ـ ١٩٠١ انتهت كما ابتدأت بذلة ومهانة . فمن اجل محاربة التايبنغ لجأت السلالة الى اوروبا واستسلمت لمشيئتها . اما الآن فبئا اعلنت عداءها للأجانب . وقد فقدت نهائيا كل امل حين سلكت الصين القديمة طريق الاصلاحات السياسية ، تحت ضغط القوى الاقتصادية والاجتماعية العصرية .

وجه اليابان القديمة الجنوب وازمتها

على غرار الصين ، خرجت اليابان نهائيا من عزلتها . وهو الاجنبي كذلك من أرغمها على فتح بابها . وانما توفرت هنا الشروط اللازمة لنهضة حقيقية .

تطيب الحياة فيها على ما يظهر . فان الارخبيل الذي ترتفع فيه الجبال ينعشه البحر بازميل امواجه . ويبسط عليه تآلف النور والرطوبة وتنوعات الارض زينة نباتات تلفت الانتباه باختلاف انواعها واريجها . ففي الجنوب يحمل الصيف منه احدى ولايات آسيا الحارة ، وفي الشمال ينزل الشتاء عليه ثلوج آسيا الباردة ، ولكن الربيع والخريف يستمران استمراراً كافياً لان يبقى المرج مزهراً ، ولا « مارا » ، التي يرتفع فوقها الا « فوجي » ساطعا ، مثاراً لسحر

الميون السامي . كما أن جواً بحارياً في اغلب الاحيان يقرب الآفاق ويحيط بسر غامض ووهم تخيلي المساكن الخشبية الصغيرة الواهية والانيقة والنظيفة ، والمعابد والاديرة والقصور المحفوفة بالاشجار ، وأعمال السكان . ويطيب لهؤلاء ، الذين لا يتصنعون قط ، البحث في كل شيء عن الناحية المضحكة وحتى الماجنة ؛ ويجدون لذتهم في النكات الغليظة ، ويولعون بالصور الهزلية والالقاب ، ويعبر فن الـ « نتسوكي » ، واعني به تلك النقوش الهزلية الصغيرة التي يزينون بها الازرار ، عن الذوق اللطيف الذي يتحلى به شعب مرح ومرهف الحس ، كما تعبر عنه الصور المطبوعة على الخشب .

أجل ان الارض تتزلزل (تهدم ١٠٠ الف بيت وفني ٣٠ الف شخص فيما يبدو في السنة ١٨٥٥) ، وتجتاح الـ « تسونامي » السواحل (تسبب احد هذه التيارات البحرية المتلاطمة الامواج في مقتل ٣٠ الف نسمة في السنة ١٨٨٥) ، ويقابل بركان فوجي الهادىء بركان « أساما » الغضوب ، وتتلف الحرائق الاكواخ الخشبية (أحرق ٥٠ الف كوخ في شتاء السنة ١٨٨١ – ٨٢ وحده) . الا ان الاستعارات المفندة اقل من ان تعبر عن جميل الكائنات التي يسعدها السكنى في ارض « الشمس الشارقة » ، المباركة من الآلهة ، حيث يوجد كل شخص في مكانه ، ابتداء من الـ « ارشيتو تنو » ، « الاله الحي بين البشر » ، حتى اوضع الفلاحين الذين الذين ينتجون الارز ، مروراً بالـ « ساي – اي – تاي شوغون » ، القائد المنتصر على البرابرة ، وصاحب الفضل الاول في استقلال البلاد ، المصون بمساعدة الـ « دايميوس » العظام والـ « ساموراي » البواسل . وقد تطلقت اليابان بماداتها ومؤسساتها التي اقتبست بعضها عن الصين من ذي قبل دون ان تخضع لها . ثم جاء الاوروبيون : فراقبتهم بفضول ، وربما فكرت باقامة العلائق معهم ولكنها اقصتهم حين خيل لها ان موجبات وجودها التقليدية مهددة بالخطر .

ان هذه العزلة المتوحشة حصرت « نيبون » في حضارة مرعليها الزمان لا يحجب عيوبها ما تنطوي عليه من جمال . ففي الارخبيل الصغير الذي تحتل الغابات والصخور ثلاثة ارباعه ، عاش ٣٠ مليون نسمة معركة قاسية لتأمين قوتهم اليومي . اضف الى ذلك ان الاجهاض وقتل الاطفال كانا علاجين مشينين حرمتها الانظمة واستخدما استخداما سهلا : وقد اشير الى هذه المالتوسية التي افضى اليها تزايد عدد السكان باسم « مابيكي » الذي يعني فن تخفيف الخضار .

ارتكز كل شيء الى زراعة غاية في التدقيق وغير كافية معاً . ووفر البحر الاسماك والاصداف والملح وحتى الاشنة التي استخرج منها نوع من السماد . ولكن الارز كان موضوع اعتبار تفضيلي . ولم تشكل الصناعة سوى تكملة لعمل الحقول ، وليس هنالك بالاضافة الى ذلك سوى مشاغل نادرة تصنع فيها الاسلحة والنقود . وقضى التنظيم الاجتماعي الشديد بأن تتوفر لكل شخص كمية المواد الاستهلاكية اللازمة له ، ولكنه شل كل نشاط ابتكاري

وعاد السلطة الشوغونية (باكوفو) امر توزيع الارز . وكان الفلاح موضوع تكريم ، ولكنه خضع لرقابة مزعجة . وبالاضافة إلى ان الاراضي كلها كانت ملك الاسياد ، وان طبقة الدايميوس النبلاء استوفت اتاوات عينية ، وان طبقة من المالكين غير المستثمرين قد تألفت واحتفظت بجزء من الحصاد فان هذا الحصاد دخل الاهراء العامة ، بعد احتفاظ المنتج بالكمية الضرورية لتأمين معيشته . وقد حظر ترك الاراضي الصالحة للزراعة مواتاً ، واستبدال الارز بزراعة اخرى ، ومغادرة ارض المزارعة دون اذن صريح بذلك . ولكن على الرغم من سهر يبدو على الاحتفاظ بالطابع الدائم لارض المزارعة هذه ، فقد رهن الدايميوس اراضيهم المذخرة، وزاد وضع المستثمر سوءاً .

سعت السلطة الشوغونية منذ زمن بعيد وراء ارغام الدايميوس على الطاعة : وقد كوفيء الامناء منهم بـ « كوكو » الارز . وحافظت طبقة المحاربين على امتيار حمل السيفين المعقوفين ، ولكنها الزمت بالخدمة وارغم اعضاؤها على الاقامة في يدو سنة بعد اخرى ، وترك الرهائن فيها اثناء غيابهم . وبسبب بطالتها اصبحت فاسدة الاخلاق وسريعة الغضب . واذا توفق « توكوغاوا » إلى اخضاع ارباب القصور في كوانتو – « بلاد الشرق » بالنسبة الى « فوجي » – فان السلطة السيدية قد حافظت على كل امتيازاتها تقريباً إلى الغرب من هوندو وفي « كيو – سيو » .

تقسم ندرة النقد ورقابة سوق الارز القوة المتزايدة التي تتمتع بها التجار اصحاب الامتيازات والصيارفة او « شونين » (اشتقاقاً : رجال المدن) . وكان من جملة اسباب افقال البلاد استدراك خروج النقد ولم يكن مركز النشاط التجاري ناغازاكي ، حيث عقدت بعض الصفقات مع الخارج ، ويبدو نفسها على الرغم من قوة جمعية تجار الارز بالجمل فيها « فودازاشي » ، بل اوساكا التي لقبت بـ « خزانة مؤونة الامبراطورية » بالنظر إلى اهمية اهرائها العامة . وكان اعظم الشونين نفوذاً الـ « توايا » او وكلاء النقل البحري ، لان الارباح سلكت طريق البحر بسبب نقص حيوانات النقل وكثرة ضرائب المرور السيدية . وتعاطى بعض التجار تجارة النقد بأقراض الدايميوس من اثمان الارز المتجمعة لديهم . واستمروا في احتكار الاراضي وابتزاز اموال المزارعين. وقد ورد في نص يرتقي إلى السنة ١٨١٦ ذكر « البورجواريين الادنياء النسب » و « انسباء المرابين » بين مشتري الالقاب الشرقية . فاثار فرار سكان الارياف الى المدن المخاوف الكثيرة لانه زاد من صعوبات التموين .

روّج ارتقاء اثرياء العاميين وضائقة النبلاء الفقراء الروايات والقصص والرسوم الشعبية الطابع ، البذيئة حيناً ، والهجائية حيناً آخر . وبينما استمرت الـ « نو » او المأساة المقدسة في طريق الانحدار ، انقطع الادب والفن الى وصف الاخلاق بعرض الرذائل او بالاستهزاء بالانحرافات . فأبدع « ابكو » في وصف حياة الجماهير .واذا ما نظر التقليديون الى«هوكوزاي» الحازم نظرهم الى لمصور القذر ، فلانه ينتمي الى مدرسة « اوكيو – يي » المبتذلة ويرسم كل ما

يرى ، حتى اكثر الحرف ضعة .

الا ان ردة فعل استهدفت الكونفوشيوسية التي اعتبرها موتووري مصدراً للاخلاق المتراخية . وعلى نقيض مدرســـة الـ « كنغاكوسا » التي ما زالت تطري تقشف الفلسفة الصينية ، رجعت مدرسة الـ « فاغاكوسا » إلى الاصول القومية واعادت الاعتبار لتعاليم الـ « شنتو » . وان موتووري ، الذي اسهم اكثر من اي شخص آخر في تكوين الـ « فابون » اي اللغة اليابانية المكتوبة ، قـــد اشار بقوة ، في كتابه « كوجيكي » ، الى حقوق السلالة المتوية في كيوتو والمتصفة بالصمت . ثم جاء « هيراتا » بعده يشيد بدوره بالعبادة الامبراطورية . وضمت المدرسة الجديدة عـدداً من مؤرخي الحوليات ، معاصري مؤرخي اوروبا الرومنطيقية وعلمائها الواسعي الاطـلاع ، الذين حاولوا ايقاظ الماضي المجيـــد . وبينما نادى حزب الـ « ميتو » ، الذي كان يمت بصلة الى الـ « توكوغاوا » ، باصلاحات من شأنها بعث اليابان القديمة وفاقاً لتعاليم الفيلسوف « هودزيتا » ، مكنت شنتوية مدرسة « كاغوشيا » عند كبار الدايميوس في المناطق الجنوبية الغربية ، ولا سيما « ساتسوما » و « شيوشيو » ، الحاقدين على بيدو ، الذين اقاموا علائق وثيقة بأوساط الاعمال في ناغازاكي . فنمت من ثم حركة عاطفة على إحياء الامبراطورية ، صادقة كانت ام غير صادقة في رغبتها في إنقاذ القيم الاساسية للحضارة القومية .

الا ان الظروف عاكـت السلطة الشوغونية اثناء عهد « تمبو » الذي يوافق النصف الاول من القرن التاسع عشر . ومن حيث ان كلفة المعيشة ارتفعت ارتفاعاً حثيثاً مطرداً ، فقـد قوبل تفضل البعض ، اكثر فاكثر ، ببؤس البعض الآخر . فبين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٤٠ ، تجددت المجاعات الكبرى التي حدثت في اواخر القرن السابق وتخللتها اضطرابات على جانب من الاهمية . فهاجم الـ « ساموراي » والشعب جماعة الـ « شونين » . وفي اوزاكا ، صب الثوار جام غضبهم على صيرفي موسر يدعى « ميتسوي » . فأصدرت بيدو اوامرها الى الفلاحين بالعودة الى اراضيهم ، ولكنها عبثاً حاولت قضاء وطرها من الاغنياء بواسطة نصوص تحـــد من النفقات المفرطة ، وفرض ضريبة استثنائية ، والغاء ديونها الخاصة إلغاء جزئياً ؛ وعبثاً ألغت امتيازات جـــمعيات التجار والتجارة الكبرى بغية تخفيض الاسعار عن طريق المنافسة : فقد ابطلت كافة التدابير حوالي السنة ١٨٥٠ امام مقاومة يبدو انه ضمت اوزاكا والدايميوس في المناطق الجنوبية الغربية .

وجملة القول ان السلطة الشوغونية قد فقدت المزيد من اعتبارها حين جاء التدخل الاجنبي يعقّد مهمتها ويخدم مصلحة خصومها .

فتح اليابان للاجانب وانهيار السلطة الشوغونية

كانت المقايضات العامة بين اليابان والعالم الخارجي عـادمة الاهمية . فقد خشيت بيدو خروج النقد وفرضت رسوماً جمركية مرتفعة . ولكن اعمال المهربين كانت آخذة في التوسع . الا ان نفوذ البيض قد افاد من الفضول الذي اثاره دخول اعوانهم العـــلمية وكتبهم . ففي

السنة ١٨١٠ اجازت الحكومة فتح مكتب ترجمة خرّج التراجمة وقراء المؤلفات الاجنبية . ومن هولندا أتي بالاحصنة والبطاطا وبالتلقيح ايضاً . وان اوغانا الذي مارس هذا الاخير ، قد اسس مدرسة الطب في اوزاكا وصنع ملقط جنين بالاستناد الى رسم . وفي ناغازاكي ، فتحت مدرسة عنيت بتعليم اللغة الهولندية التجارية بصورة خاصة ، وفي يدو فتحت مدرسة اخرى عنيت بالتفضيل بالدروس العلمية . وفي السنة ١٨٤٢ اهملت الروزنامة القمرية الشبيهة بالروزنامة الصينية . وفي السنتين ١٨٤٧ و ١٨٤٨ ظهر التصوير وفاقاً لطريقة « داغير » وصناعة الثقاب الفوسفوري والزجاج . والى العهد نفسه يعود اول مصنع للبنادق والمدافع جهزه « ايغاوا » الذي انزل الى البحر سفينة بخارية مزودة بآلة ابتاعها من الهولنديين ، واكب على تحصين جون يدو . واعرب بعضهم عن اعجابهم بما ءاه الغرب . فتذوق الرسام « شيبا – كوكان » رسوم الهولنديين ونقوشهم النحاسية وقلدها . والف « متسوجولي – غنبو » كتابا شاد فيه بذكر الدول الاوروبية . وصودر كتاب « يازوو – دوكوغو » (مناجاة ريفي عجوز لنفسه) لمؤلفه « سوغيتا – غانباكو » الذي كان اول من كتب بحثاً في علم التشريح باللغة اليابانية . وقد صادقه الرسام « واتانابه – كازان » الذي يروى انه مات مسمماً لانه اسس جمعية غايتها نشر الافكار الاجنبية . واحرقت المخطوطة الاصلية للصحيفة التي نشر فيها آراء معادية للنظام القائم . ولكن هل باستطاعة اليابان ان تقوم بما عجزت عنه الصين وتقاوم مناورة عسكرية بحرية ؟

منذ زمن بعيد اخذ الروس يقتربون شيئاً فشيئاً ، مترددين الى شواطىء سيبريا الغربية ومقيمين في الكوريل ، ثم في ساكالين ، في المياه الغنية بالاسماك . وجاءت سفن بريطانية تطلب تمكينها من التموين . ولكن المرافىء اليابانية كانت توفر التسهيلات المغرية للاميركيين بصورة خاصة، على طريق الشاي البحرية . وبعيد حرب الافيون اضطر الشوغون الى التخلي عن فكرة منع الـ « ربو – كيو » . فبلغت واشنطن انكلترا وروسيا وارسلت الكومودور « بري » ينظاهر في خليج يدو وارغمت الباكوفو المذعور على فتح « هاكودات » و « وشيمودا » في السنة ١٨٥٤ . وعلى الرغم من وجود هذين الميناءين في اطراف البلاد ، فان الخطوة الاولى قد خطيت ، ووقعت اتفاقات مماثلة وتكميلية الاحت للدول ، بعد فترة قصيرة ، الوصول الى ناغازاكي ويوكوهاما ونيغاتا ، والعهد مقيمين في ايدو واوزاكا ، وتعاطي التجارة مباشرة شريطة تسديد الرسوم المتوجبة . فاضطرت امبراطورية الشمس المشرقة بدورها الى توقيع معاهدات غير متساوية .

ادت هذه التنازلات الى تزايد كراهية الاجانب وثقلت وطأة الازمة الاقتصادية وعجلت ردة الفعل ضد السلطة الشوغونية التي دفعها « ايي ناوسوكي » الحاذق الى مصافحة يد الغربيين دونما وجل . فاستقبل نبأ المعاهدات بصورة عامة كاهانة تلحق بالبلاد . وخاف العديد من الصناعيين اليدويين والتجار من المنافسة وخافوا على امتيازاتهم . فلم يُحتد على الاجانب فحسب ، بل اقنع الدايميوس الامبراطور بالامتناع عن ابرام الاتفاقات ، ومن جهة ثانية أخذ دايميوس المناطق

الجنوبية الغربية على انفسهم إقفال مضيق « سيمونوساكي » . فكان الجواب قيام بعض السفن الحربية بقصف تحصينات المضيق بالقنابل ومراقبة الملاحة في مياه اوزا كا » فأبرمت الاتفاقات وخفضت الرسوم الجمركية . فبدا عجز اليابان وكأنه غير قابل للمعالجة .

ولكن اليابان تعرضت لهزة اقتصادية ايضاً . فمن جهة تسببت الواردات في خروج النقد وألحقت ضرراً كبيراً بالصناعة البلدية ؛ ومن جهة ثانية ادت الصادرات الى ارتفاع سعر الحرير والقطن والحنطة . واذا علمت ان النسبة بين الذهب والفضة كانت نسبة ٨ الى ١ لا ١٥ الى ١ ، تبين لك ان المقايضة وفرت ارباحاً طائلة للأجانب الذين عمدوا الى اخراج الذهب . فحدث اندفاع حقيقي وراء ذهب اليابان ، تأثرت به كافة طبقات المجتمع تأثراً متفاوتاً . واختل الامن وسادت الفوضى ؛ فتعددت الافلاسات ، وجابت زمر الساموراي البلاد معتدية على الاشخاص والممتلكات. وتوفرت عناصر الحرب الاهلية بفعل استطاعة انصار الشوغون وخصومه الحصول على الاسلحة والاعتدة بواسطة الرأسماليين ، من أمثال ميتسوي ، الذين لم ينتصروا لا لهذه الفئة ولا لتلك . ومن اغرب ما حدث ان الدايميوس الراغبين في الاصلاح الامبراطوري قد اضطروا ، في سبيل تحقيق غايتهم ، الى سلوك السبيل الذي اخذوا على « توكوغاوا » سلوكه . والحقيقة هي ان كل شيء آل الى احداث تبديل عميق. وهكذا اندلعت ثورة السنة ١٨٦٨ التي خرج الامبراطور الشاب موتسو هيتو في اعقابها ، بعد زوال السلطة الشوغونية ، من مقره في كيوتو وجاء يتولى الحكم في ييدو التي اطلق عليها اسم طوكيو (عاصمة الشرق) .

« ميجي » استلم النظام الجديد السلطة في جو البلبلة هذا ، ولم تتوفر له لا القوة العسكرية ولا الموارد المالية الكافية بمقاومة تدخل مسلح ممكن ، فلم يكن باستطاعته قطع علاقته بالدول . ومنذ السنة ١٨٦٨ ، حرص الميكادو على تمكين روعها حيال نواياه : الميجي يعني عهد الانوار ، وبالتالي عهد التعاون مع الدول المتطورة .

من هو بالضبط ذاك الذي سار باليابان في طريق التجدد يا ترى ؟ لقد تكلم بعضهم عن استبداد مستنير كان من شأنه ، باسم أجلّ تقليد وطني ، المحافظة على استقلال الامة بواسطة التغييرات الضرورية ، وضمان مقام سام لامبراطورية الشمس المشرقة بين الامم . ولا يجوز الانخداع بأهمية « ميثاق البنود الخمسة » الذي وافق عليه موتسو هيتو بغية الاخاء والتعاون بين الحكام والمحكومين » . فالواقع هو ان بعض الاحزاب حلت محل غيرها رغبة منها في السيطرة بمساعدة بعض الرأسماليين الحذاق وفي كنف الاسم الامبراطوري الساحر . وقد استخدمت في الحقيقة ثلاث قوى : زعماء الحركة المنتسبين الى النبلاء والراغبين في اقامة النظام الجديد ، ورجال المال الحريصين على تطوير الاقتصاد ، وروح التضحية عند الجماهير .

يبدو ان حزبي ساتسوما وشوشو قد تقاسما السلطة . فقد وجهت الامبراطور فئة محدودة

من المستشارين الاقوياء : وقد ألفت ما يعرف بالا «جنرو» او قيادة المشرفين على انتقاء الموظفين (وسوف يتكلم الامير كيون عن : «امتحان الدماغ») . وكانت هذه القلة توفد البعثات الى اوروبا للاطلاع على كل شيء ، فتعود وفي جعبتها مخططات جريئة لاعادة التنظيم . وكانت بدورها تفصل في كافة الامور ، لأنها لا تضع اي حد لامتيازات الميكادو الذي لا تميز مصالح الدولة عن مصالحه . وقد برز من بين كبار هؤلاء الموظفين اوكوبو توشيميشي ، و «ايتاغاكي» و «ايتو هيروبومي» . وعلى الرغم من أن الجنرو انبثق من الاقطاعيين ، فانه الغى اقطاعية اعتبرها بالية ووضعها في خدمة الامبراطور . ولن يكون هناك بعد اليوم سوى طبقة نبلاء الخدمة المدنية ، الشبيهة بالا «تشين» ، التي ستمنح في المستقبل القابا شرفية بحتة وفاقاً للطريقة الاوروبية . واذا اصبح المزارعون اصحاب الاراضي التي يزرعونها ، فان مجموع اعبائهم الاميرية آل الى خزانة الدولة التي وضعت يدها بالاضافة الى ذلك على ممتلكات الجمعيات البوذية . فأتاح هذا الاصلاح الاجتماعي الواسع رفع الادارات العامة الى مصاف الادارات العصرية : تبديل الاقطاعات بالولايات ، تجنيد جيش عن طريق التقييد السنوي للشبان البالغين سن ابتداء الخدمة العسكرية ، احداث تعليم قادر على تخريج مسؤولين اكفاء . وقد اقتبس ذلك عن فرنسا والمانيا بسبب شهرة الاولى بمركزيتها والثانية بصفات موظفيها ، كما أتى من انكلترا أو اميركا بمعظم الفنيين والقسم الاكبر من الادوات والتجهيزات . ولكن هذا الهيكل المتين كان تحت رحمة وضع مالي واقتصادي سيء .

ما كان المشرفون على الميجي ليجهلوا أهمية المسألة الزراعية ، ولم يفتهم ان قمع ثورة الفلاحين ليس حلا لها . فان الحرب الاهلية قد أضرت باعمال الزراعة ، والثورة خيبت آمال سكان الارياف الذين باتوا احراراً في ان يزرعوا كما يطيب لهم الزرع ، ويشتروا ويبيعوا ، ويمتلكوا الاراضي التي كانوا يتصرفون فيها تصرف المستثمرين فقط ودون انقطاع ، والزموا بالخدمة العسكرية وبدفع ضريبة نقدية دونها الاتاوات القديمة أحياناً ، بصرف النظر عن الاتاوات التي ما زال يحق للملاكين غير المستثمرين فرضها على مزارعيهم . وفقدوا كذلك حقوق الانتفاع من الغابات التي ضمها الميكادو الى املاكه ، فكان هو وهؤلاء الملاكين غير المستثمرين اول المستفيدين من الاصلاح . أضف الى ذلك ان مجاعة السنة ١٨٧٠ - ٧١ الكبرى كانت اكبر دليل على سوء حال الزراعة . فان زارع الارز في قطعة الارض الصغرى التي يملكها ما كان ليستطيع تحسين ادواته وزيادة انتاجه : وان النظام الجديد قد سهل احتكار الرأسماليين للارض باقراره حرية بيع العقارات .

كان عهد الاثوار كذلك عهد امثال ميتسوي وميتسوبيشي والمؤسسات الخمس أو الست الكبرى ، التي ساندت الاصلاح الامبراطوري . فقد كانت طوكيو بحاجة اليها لاصلاح سوق النقد وتمويل المؤسسات الصناعية والتجارية الجديدة . وفي الوقت الذي عقدت فيه قرضا من لندن ضمنته بمحصول الجمارك ، لجأت الى القروض الداخلية وسمحت لبعض المصارف باصدار

اوراق نقدية . فأتاح لها التضخم النقدي وفاء ديونها ، ولكن المصارف الوطنية المستوحاة من المثال الاميركي ، ما لبثت ان ضاقت مقاليدها ، بينا ازدهرت المصارف الخاصة ، كمصرف ميتسوي مثلاً ، ووظفت ارباحها في المناجم وشركات الملاحة والمعامل. وكانت النتيجة انخفاض قيمة النقد الفضي الجديد ، « ين » ، واستمرار خروج الذهب .

والحال انفت الروح الساموراثية من التخلي عن الاقتصاد للرأسماليين . فبذلت من ثم في البدء محاولة تستهدف تنمية رأسمالية رسمية حقيقية . فأخضع النشاط لرقابة شديدة تمارسها الادارة التي سعت جهدها لتأسيس شركات بمساعدة صغار النبلاء الذين كان يهمها ان تنتزعهم من الفقر : وقد يؤلفون طبقة تجارية جديدة ، هي طبقة الـ « شيزوكو » المتشبعة بالتعاليم الكونفوشيوسية . فظهرت المبادءة الرسمية في كافة الاتجاهات : استثمار مناجم الفحم الحجري ، وانتاج المعادن والمنسوجات (انشىء اول معمل لحياكة القطن الآلية على يد أحد الاسياد وبادرات انكليزية في السنة ١٨٦٧ ، ولكن الحكومة اسست في السنة ١٨٧٢ معملاً نموذجياً لغزل الخيوط الحريرية تحت اشراف احد الفرنسيين) ، والزجاجيات ، والورق ، وصناعة الاسمنت ، ومد الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية الاولى . واتجه الانتباه بصورة خاصة شطر التسلح البري والبحري . ولكن ما لبثت الحكومة ان عدلت عن هذه السياسة التي اثقلت كاهل الموازنة وأثارت استياء اوساط الاعمال . وهكذا فقد عجزت شركة وطنية للنقل البحري عن منافسة شركة آل ميتسوبيشي ، كما ان آل ميتسوي استردوا اكبر مصنع لانتاج الورق واداروه لحسابهم .

والحقيقة هي ان الميجي قد تعرض بين السنة ١٨٧٣ والسنة ١٨٧٧ لامتحان عسير . فعلى الرغم من الاضطرابات الريفية ، وبلبلة النقد المستمرة ، وعجز الميزان التجاري ، عرف الاقتصاد الياباني توسعاً بينا سهله التضخم وشجعته السلطة. ولكنه توسع عرّضته للخطر أزمة السنة١٨٧٣ العالمية . فان انخفاض حجم الصادرات والتباطؤ في بناء الخطوط الحديدية اثارا بعض القلق . وتعرضت حينذاك عدة مؤسسات حكومية للخطر . فحرض سايغو ، وزير الحرب المنتسب الى حزب ساتسوما ، والمولع بضرب السيف على الطريقة القديمة ، على القيام بعمل حربي إلهائي في الخارج ، ولكن الغلبة كانت لانصار السلام : فعدلت اليابان عن خوض غمار الحرب في كوريا . فانسحب سايغو من الوزارة مستاء واصبح زعيم معارضة قوامها الاشراف. وضمت هذه الاخيرة جمهوراً كبيراً من الساموراي الذين اغضبهم الاصلاح العسكري واضرّ بهم تحويل جعالاتهم الى صكوك دخل متدنية القيمة تدفعها الدولة . وفي سبيل تهدئة هذا الهيجان ، تأسس مجلس شيوخ وغزيت كوريا لفترة قصيرة . ولكن النزاع الحاسم انفجر في السنة ١٨٧٧ ، حين حرض سايغو ساتسوما على العصيان بعد اعتراضه على علمنة السياسة الخارجية وإلغاء السيفين واعتماد الاوساط السياسية البزة الاوروبية . فكان ذلك آخر ثورة اقطاعية اقليمية الطابع . وقد اغتيل اوكوبو على أيدي رجال حزبه بالذات ، ولكن الميجي خرج منتصراً ، وانتصر معه الاستبداد البيروقراطي . وارجأ الميكادو الى السنة ١٨٩٠ إعلان النظم الدستورية .

خرجت السلطة الامبراطورية راسية القواعد من هذه الازمة . الا انها اضطرت لأن تحسب حساباً متزايداً لاوساط الاعمال . فتخلت للمشاريع الخاصة عن عدد من المؤسسات التي كانت قد انشأتها . وسارت في تصميمها على تعديل موازنتها ، بينا لم تزل قيمة الـ « ين » في انخفاض مستمر ، فاكتفت بتقديم المساعدات المالية لانشاء خطوط مواصلات جديدة ولتشجيع تأسيس المصارف المطلوب منها مساندة الصناعة والتجارة . فاستمر التحسن الاقتصادي على الرغم من الصعوبات المالية . وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٠ اتضح وجه اليابان الجديد اتضاحاً بيناً .

مظاهر اليابان المتناقضة قبيل توسعها

في السنة ١٨٩٤، وبفعل نزاعها مع الصين، دخلت اليابان المسرح العالمي دخولاً يلفت الانظار والانتباه . فقد دقت ساعة توسعها الاستعماري. وتميزت اذ ذاك بخليط غريب من الحضارة التقليدية والطرائق المقتبسة عن الغرب .

واذا ظهر فيها حزبان معارضان منذ السنة ١٨٨٠ ، فان احدهما ، حزب الاحرار (جيوتو) قد استند الى آل ميتسوي ، والثاني، الحزب التقدمي (كيشنتو) كان مرتبطاً بآل ميتسوبيشي . اما دستور السنة ١٨٨٩ ، وهو بمثابة تنازل للبورجوازية الكبرى الآخذة في التكوّن ، لم يول حق الاقتراع سوى نصف مليون منتخب ، مختارين من بين المكلفين البارزين ، ولم يتمتع الامبراطور ، الذي يكون الوزراء مسؤولين امامه ، بحق تعيين اعضاء المجلس الاعلى فحسب ، بل بحق دعوة مجلس الممثلين ، المنتخبين عن طريق التصويت العام ، وحله ايضاً ؛ لا بل تمتع بحق تجاهل هذا المجلس بتوقيعه مراسيم لها قوة القانون وبحق الامتناع عن توقيع القوانين المقررة بالتصويت . وبالاضافة الى إشرافه الكلي على الجيش والاسطول والعلائق الخارجية ، حق له ، بعد الاستئناس برأي الجنرو ، اتخاذ مقررات هامة جداً .

انه كما في السابق فوق الخصومات وفوق البشر ، اذا جاز التعبير . والدستور ينص صراحة على انه « نازل من السماء ، مكرم ومصون » ؛ ويضيف الى ذلك انه « لن يكون موضوع اي تأويل او نقاش » . كان في البدء يظهر علانية مرتدياً الثوب الصيني ؛ ولكنه حين اعتمد الزي الاوروبي لم يعارض عليه احد وبات السير على خطاه مظهراً من مظاهر الادب . وقضى العرف بالسجود في حضرته (والزم الاجانب أنفسهم بالركوع في الشارع عند مروره) ، ولكنه قد يسمح لاحد المستشارين أو احد الوزراء بالظهور امامه بالـ « كيمونو » والسيجار في الفم وحتى القبعة فوق الرأس . وتفقد محبة الوطن كل معانيها اذا لم تقترن بعبادة الاقنوم المقدس . وفرض الخط الشريف الصادر في السنة ١٨٩٠ (شوكونغو) ، الذي يحدد القواعد الاخلاقية للتعليم الابتدائي ، ان يكتسب الولد « الاعتزاز القومي والاخلاص للسلالة والتضحية للوطن » . ويجدر الانتباه هنا الى ترابط هذه الصفات . واشتهر الياباني ، الذي أنف من التجريد ، بشغفه بالصورة ، كما ان الجماهير التي بسرها وجود الكائن المبارك من الله فيما بينها تشعر بقشعريرة صرعية . الا

ان الدولة توقفت في عهد الميجي عن رعاية الشنتوية ، والبوذية من قبلهـــا ، وتساهلت تساهلا فعليا حيال المسيحية . ويرد ذلك الى الرغبة في الحصول من الاجانب على ابطال « المعاهدات غير المتساوية » : وبما ان الشعب ، ولا سيا الحكام ، لم يقفوا سوى موقف اللامبالاة من رسالة المبشرين (لم يكن هناك سوى ١٠٠٠٠٠ مسيحي في السنة ١٨٩٠)، لم يكن للبادرة«الانتهازية» أية أهمية جدية من الناحية الاجتماعية .

ان استبداد الدوائر والعسكريين لم يتداول لمصري في موازنة الواردات والنفقات العامة الا مع المصالح الكبرى . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاحزاب تنازعت المراكز وغالباً مـا ذكرت اعمال العنف الحكامَ بأن الشرف النيبوني لا يسلم ببعض التفاوضات المذلة مع الاجنبي. وقد حدث احياناً ان تعرض بعض كبار الزائرين للاغتيال . وفي ذلك الدليل على ان ذهنيـــة الساموراي الفظة ما زالت تختبىء وراء ظواهر المؤســات العصرية .

شكلت الكتابة العقبة الكأداء في سبيل نشر التعلم نشراً واسعاً بين الجماهير . فكل مـا امكن تحقيقه في المدرسة الابتدائية هو معرفة واستنساخ ٥٠٠٠ حرف ضروري . ولذلــك وجب صرف وقت طويل ومال وفير للارتقاء حتى مستوى المدارس التقنية والعليا التي تخرج كبار الموظفين وقادة الفكر .

ولذلك فان اقلية ضئيلة عرفت ما تدين به اليابان للغربيين . فكانت براعـــة التقليد اكثر موافقة في هذه الحالة ، لا سيا وان مخالطة الانكلوساكسون اسفرت عن نمو الجدارة العملية. فاليهم طلبت طوكيو الفنيين والاطباء والاساتذة؛ واليهم فوضت امر تثقيف طلابها؛ فانتشرت قوانينهم التي استطاعت الامرأة اليابانية بفضلها ، على غرار الرجل ، التقدم بدعوى الطلاق . واعترف بالحريات الفردية ، ونشأت صحافة انطلقت انطلاقة سريعة . لا بـــل تناول البحث موضوع جعل اللغة الانكليزية لغة رسمية . وعلى اي حال ، فقد ترجمت مؤلفات كبار الفلاسفة والاقتصاديين والعلماء البريطانيـين ترجمة زادت في صعوبتها لغة ظريفة تفتقر الى الوضوح . وقد سبق لـ « هيراتا » تلميذ موتووري ، ان اشاد بالاصلاح الامبراطوري في مؤلفاته التاريخيـــة ؛ وجاء بعده « فوكوزاوا » ، الذي درس الفلسفة في انكلترا ونشر « شؤون غربية » ، فعلـم التفضية في جامعة « كيو » وفي الصحيفة « جيجي » . وتبارى مع ناكامورا في ترجمة مؤلفات كثيرة . والى هذا التاريخ يعود انتشار « بنتهام » و « جون ستيوارت مـــل » و « هربرت سبنسر » باستحسان المثقفين اليابانيين التفضيلي ، واقدام « تسوبوشي شويو » على ترجمـــة شكسبير .

وفتنت فرنسا اليابانيين بفكرها وقوانينها .فاستهوت مادية فلاسفة دائرة معارفها « ناكايه» الذي احب كذلك « روسو » و « كونت » . وسوف تعرف تمثيلاته نجاحاً عظيماً دائمـــاً . ولكن الالمان احرزوا تقدماً متزايداً بعد السنة ١٨٨٠ . فقد كان لانتصاراتهم العسكريـــة

وانضباطهم المدني وتحقيقاتهم التقنية اثر كبير في النفوس . فأرسلوا الى اليابان بدورهم الحقوقيين والاطباء والجراحين . ووفرت مؤلفات « ليست » التي ترجمت في السنة ١٨٨٥ - حين عاد « ايتو » من رحلة الى برلين وفيينا بمشروع دستور مقتبس عن الدستور الروسي- الحجج والادلة لانصار اقتصاد قومي خاضع لنظام الحماية . واعجب « كاتو هيرويوكي » بـ « هيغل » ومدرسته ولن يلبث « نيتشه » ان يستهوي اليابانيين .

الا ان هذا الاقتباس قد اضر في نواح عديدة بأصلية عبقرية الشعب . ففي القصة برزت النزعات نفسها التي برزت في اوروبا يرافقها استعداد طبيعي للرومنطيقية في مؤلفات « كودا روهان» ، ثم للواقعية في مؤلفات « شيازاكي توسون » و « ناهاما كاتاي »، بينما انساق «موري اوغاي » ، مترجم « إبسن » و « سترندبرغ » ، وراء التقليد التصوفي . وبحث الشعر عن اشكال جديدة (شنتاي - شي) في مؤلفات « ياصادا » وشياراكي ، بينما عمم « اوشياي » و « شيكي مازواكا » على بعث الـ « تانكا » والـ « هاي - كاي » التقليديين . اما المسرح الذي حاول « شويو تسويوشي » اصلاحه ، فقد عرض بعض مشاهد الامانة الزوجية والبسالة الابية وعرف المتشددين الاجانب برقصات الـ « غيشا » ، ولكن ما انطوى عليه من علم سوف يحمل الميكادو في السنة ١٩٠٧ على ايفاد مؤلفين مشهورين لدراسة الفن المسرحي في باريس .

درس الرسامون قواعد رسم الاشياء كما تراها العين ، وسعوا وراء تمثيل نواتج الظل والنور، واستوحوا الطبيعة وحدها لان تمثيل العري كان محرماً : ولكن لم يحظ منهم بالاعجاب والرضى في المعارض الدولية لا مصورو المناظر الطبيعية المشهورون من امثال « هيروشيجي » و «هودا» و « كاواكوبو » ، ولا مصور الصور المنزلية « كيوزاي » من مدرسة « هوكوزاي » . واذا ما زال هناك بعض منتجي المصنوعات التزيينية المهرة وبعض المصورين المدنيين الموهوبين ، على طريقة « كاوانابي » و « شيبا يوما » ، وبعض النقاشين الاقوياء - يامادي كيزاي بصورة خاصة - فان صناعة الاسلحة قد فقدت علة وجودها ، وصناعة الخزفيات قد عانت من سماجة ذوق الشارين الاجانب ، والبناء لم يعد يجد في الدين مصدر وحي ، فقلد الانماط الغربية المألوفة تقليداً أعمى في الحقل المدني . اما الـ « سامي - سن» (اعواد ذات ثلاثة اوتار) التي تصطحب الاغاني والرقصات ، فقد وجد المجتمع الرفيع ان عهدها قد ولى .

اقض مضجع البعض فساد الاخلاق في اوساط الطبقات الحاكمة نفسها ، ولكن احتماء فضائل الجدود في الارياف ومحافظة هذه الارياف على سحرها لم يحملا الميجي على تحسين مصير سكان الارياف تحسيناً ملموساً . فالملاك الصغير ، المرغم على دفع ضريبة عقارية ثقيلة والمحروم حق الانتفاع من الاملاك المشاعية ، عاش حياة صعبة . وسواء كان جني الارز سيئاً أو انخفض سعر الحبوب ، اضطر الى رهن ارضه او الى بيعها . ولكن ٧٤ ٪ من املاك الفلاحين و٧١ ٪ من الاراضي المستثمرة لم تتجاوز الهكتار مساحة . فنشترى الافراد الاثرياء بأسعار بخسة . وبسبب ازدياد عدد السكان ، ارتفعت قيمة استئجار الاراضي الى ٥٠ وحتى ٦٠ ٪ من قيمة

المحاصيل ، فازدادت حالة المزارعين سوءاً على سوء . وتقاضت اليد العاملة المياومة ، التي استخدمها الملاك غير المستثمر اجوراً ضئيلة جداً (٨٠٠ بن – ٤٠٠ فرنك – حوالي السنة ١٩٠٠) . ثم تحولت الزراعة نحو النباتات الصناعية التي تفضل الارز ريعاً ، لا سيما وان الارز نادراً ما يسد حاجة الاستهلاك . يضاف الى ذلك ان الفلاحين غالباً ما باعوه واكتفوا بالخضار والاسماك . ولكن مهما كان من نشاطهم ومهارتهم في العمل ، فانهم ما كانوا ليعرفوا البحبوحة واليسار باستثمارهم اراضي تقدر بـ ١٢ آراً لكل عائلة تقريباً ، بعد ان حرموا مدخل نول الحياكة الصغير ، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الدخل الذي وفرته لهم تربية دود القز . فلا عجب والحالة هذه اذا ما هاجروا الارياف نحو المدن مهاجرة مطردة السرعة .

كانت اليابان من ثم مسرح ثورة في توزيع السكان . فلم تضم المدن سوى ٢٥ ٪ من السكان في السنة ١٨٩٠ : ولكنها ضمت اكثر من ثلثهم بعد مرور عشر سنوات . ولما كان مجموع هؤلاء السكان قد ارتفع من ٣٠ الى قرابة ٤٥ مليوناً ، فان اكتظاظ الارياف بالسكان لم يتأثر تأثراً ملموساً بنمو المدن . وقد نجحت الحكومة في توطين ٨٠٠٠٠٠ نسمة – من فقراء الساموراي والجنود الفلاحين – في جزيرة هوكايدو الباردة المناخ التي تصلح لتربية المواشي اكثر من زراعة الارز . وشجعت السفر الى كوريا وهاواي وكاليفورنيا . ولكن اليابانيين انفوا من الهجرة ، وآثروا تعاطي نشاطات المدن .

على الرغم من ان مقر الميكادو القديم ، كيوتو ، قد بدا لـ « يوسكيه » وكأنه « فرساي خشبي ، متناسق ، كئيب ، محتضر ، خال من الحياة ... » فانه قد نما ، ونمت بجانبه ضاحية « اوزاكا » التي قامت فيها مصانع حياكة ومعامل خزف وميناولك . وعلى المتوسط النيبوني ، سارت اوزاكا قدماً في تقدمها التجاري وألفت مع « كوبيه » مركزاً كبيراً للنشاطات الصحية والبحرية : فقبالة ابراج القلعة الشوغونية التي تشرف على شوارعها المرصوفة بالقراميد واقنيتها التي بنيت فوقها آلاف الجسور الصغيرة الحديدية ، قامت الابنية العامة التي اعتمد فيها المهندسون الطراز الاوروبي . وكانت يوكوهاما بالامس مجرد قرية لصيادي الاسماك ، فاصبحت مرفأ للعاصمة بفضل مياهها العميقة ، وجهزت بمصنع بحري ، واتاحت لها تجهيزاتها البحرية الأخرى استقبال اكبر السفن حمولاً . اما طوكيو التي تأسست في احد المستنقعات في القرن الثامن عشر فقد تقاربت احياؤها القديمة كما في المدن الصينية : الـ « سيرو » أو القصر الامبراطوري المحاط بالاسوار والخنادق ، والـ « سوتو – سيرو » مع الـ « يشكي » أو قصور اهل المقامات وكبار الموظفين ، والـ « يمدزي » الذي كان – كما شاهد « هوبنر » في السنة ١٨٧٧ – واختلاطاً من الشوارع المطروقة والمقفرة ، والحدائق ، والبساتين ، والمرزّات والرياض والمعابد » ، والـ « هونجي » حيث تجاور المستودعات العامة اماكن اللهو والنزهات . فقامت حول هذه الاحياء المساكن القرميدية والخشبية والمشاغل والمصانع . وقد عاش مليون نسمة في مساحة شاسعة (بين ٨ و ١٠ كيلومترات من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب) . وطافت

المدينة ابدأ الزوارق الشراعية في البحر والـ « جنريكيشا » ذات العجلتين في الشوارع ، ولكن خطوط الحافلة الكهربائية انشئت واستخدم الهاتف وانتشرت الاضاءة الكهربائية . واختلطت الازياء النيبونية والاوروبية . وما زال افراد المجتمع الرفيع يرتدون في منازلهم الـ « جوبان » أي القمص القومية ، والـ « كيمونو » اي الثوب الضافي الاهداب ، وفي الاحتفالات الـ« كاوري» أي اللباس المثنى الذي لم يخل من التصنع . واذا ما ظهروا بالمروحة والمظلة ، والـ « جيتا » (قباقيب خشبية) في أرجلهم ، فانهم قد ارتدوا كذلك السترة القصيرة والسترة الطويلة المشقوقة الذيل المقتبستين عن البورجوازية الغربية . وما زالوا مولعين بالـ« سومو» والـ«جودو» ؛ ولكنهم اخذوا يهتمون بالـ « كريكت » و كرة السلة ايضاً .

الى هذه المدن وضواحيها جاء سكان الارياف المعوزون يبحثون عن عمل يؤمنون به معيشتهم . فنشأت من ثم طبقة عاملة اضطرت الى الاكتفاء بأجور كادت لا تتجاوز أجور العمال الزراعيين المياومين . ففي طوكيو تكدست في غرف لا تزيد مساحتها عن مترين مربعين عائلات مؤلفة من أربعة أو خمسة اشخاص تتغذى بحساء وخضار مطهية تفيض عن حاجة التكنات والمستشفيات لا تدفع ثمناً لها اكثر من فرنك واحد في اليوم . وقد رافق ارتفاع الاجور حركة الاسعار حتى السنة ١٨٨٧ ، ثم توقف بعد هذا التاريخ ، فاضطرت النساء والاولاد الى العمل ايضاً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان صناعيين كثيرين آثروا تقنية واسكان فلاحات شابات يخضعونهن لاقامة منفردة حقيقية . ولكن القاعدة التي اعتمدت هي عقد العمل لمدة ثلاث سنوات الذي لم يترك للعامل اية امكانية للاعتراض على شروط المعيشة المفروضة عليه . وصدرت في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ قوانين تمنع منعاً باتاً كل محاولة « تحالف» وتعاقبها عقاباً صارماً .

في هذه الاثناء كانت بورجوازية الاعمال آخذة بالنمو . فبعد ان ورثت عن الدولة مشاريع عديدة ، حصلت على حق تأسيس شركات مساهمة . وهكذا توطدت سيطرة بعض المؤسسات الكبرى ، الـ « زيباتسو » ، التي استفادت من انخفاض الـ « ين » لتحقيق احتكار واسع في نطاق الصناعة والتجارة بفضل وسائلها المصرفية . فكانت اليابان أسرع من روسيا نفسها في قطع أشواط التقدم ، وهي سوف تعرف رأسمالية الاحتكار في الوقت نفسه الذي سيعرفها فيه الغرب . وسوف توطد اوليغارشية الاثرياء هذه مراكزها بفضل الانطلاقة الشاملة التي ستعرفها اليابان بين السنة ١٨٩٥ والسنة ١٩١٤ .

ولكن الواقع الذي لا مفر منه هو ان الارخبيل الياباني ، شأن الارخبيل البريطاني ، كان مضطراً الى التصدير لتأمين حاجاته . وقد عاني من تقيده بمعاهدات لا تتيح له مقاومة المنافسة الاجنبية مقاومة فعالة . يضاف الى ذلك ان صناعته الحديثة العهد جداً كانت مفتقرة الى القطن وبعض الخامات الهامة وحتى رؤوس الاموال . فحدث احياناً ان بيع الارز للتمكن من شراء القطن والحديد والآلات . وقد زاد من ضرورة معادلة الميزان التجاري ان البلاد مدينة للخارج. فهو مستوى الحياة المتدني وكد الفقراء ما أتاحا تحقيق النهضة .

أظهرت الموازنة العبء الثقيل الذي تمثله الضريبة العقارية في الواردات ، ودفع المتأخرات وتعهد القوى المسلحة في النفقات . ولكن التوسع بدا العديد من اليابانيين و كأنه حاجة ملحة. واذا لم تستهو المغامرة الرأسماليين ، فربما استهوت العسكريين الغُيُر على امتيازاتهم . فتقرر في السنة ١٨٩٤ اختيار وزيري الحربية والبحرية بعد ذاك التاريخ من بين القادة وامراء البحر . وقد نشبت الحرب في السنة نفسها مع الصين . فهل يجب اعتبار هذه الحرب بمثابة عملية إلهاء؟ فمنذ انتخابات السنة ١٨٩٠ العامة تكوّن « حزب الشعب » ، المناوىء لرجال الجنرو ، الذي انتقد الادارة الحكومية ، ثم توسع نفوذه مرة أخرى في شهر آذار من السنة ١٨٩٤ : حين انضمت معارضة البورجوازيين لحزبي ساتسوما و شوشيو . وسوف يحقق الحماس الوطني مرة اخرى الوحدة حول العرش الامبراطوري ، وهي الحرب الظافرة التي ستدفع الثمن .

منذ السنة ١٨٨٩ اصدر كيلنغ حكمه الصائب في اليابانيين : « انهم رجال خبثاء قصار القامة يعرفون اكثر مما نتصور » .

احرزت اليابان انتصاراتها الاولى في شهر حزيران من السنة ١٨٩٤ . وفي شهر تموز وقعت مع انكلترا اتفاقية تجارية أبطلت احدى المعاهدات غير المتساوية ، ثم رشحت لان تحتل مركزها بين الدول العصرية العظمى بفضل نظامها العسكري ونزعتها التوسعية .

القسم الخامس

على عتبة القرن العشرين

قبل أن يخيم الظل على ملامح القرن التاسع عشر لاحت في الافق ملامح عصر جديد خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى .

الا أن ذلك لا يجيز الاعتقاد بأن كل شيء قد نيط بالكارثة التي أحس بها وخشيها وأعدها رجال هذا الجيل .

ما زال الاقتصاد الرأسمالي يمتلك قوة حقيقية ، ولكن نزعته الاحتكارية تعاظمت بعد أن باتت المنافسة أشد عنفا يوما بعد يوم ، فكانت تلك الايام أيام الدول الاستعمارية الكبرى . واذا ما وطدت البورجوازية مراكزها ، فان الطبقات الكادحة قد أحرزت بعض التقدم ورُشحت الاشتراكية لخلافة فرضية ممكنة .

أشارت بعض الدلائل منذئذ الى ان اوروبا خلفت وراءها ساعات اولوية لا جدال فيها . اجل لقد جاء الاسهام السامي في الفتوحات التقنية والعلمية المستمرة والتجدد المدهش في الخلق الفكري والفني برهانا على ديمومة حيوية فكر قوي وحازم ؛ ولكن الارتيابات التي حامت حول قيمة النجاحات المحققة عبرت عن قلق يمت بصلة الى تأزم الخلافات الاجتماعية والدولية . وكي لا يحدث ما لا يرتق فتقه ، كان من الواجب ان يدوم السلم - مهما بلغ من وقتيته ، من حيث هو سلم مسلح .

الفصل الأول

وثبة جديدة الى الأمام

تكاثر البشر

لم يستمر ارتفاع عدد سكان العالم استمراراً فحسب ، بل ازداد ازدياداً مطرد السرعة . فارتفعت نسبة الزيادة السنوية بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩١٤ ارتفاعاً اسرع منه بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . الا ان هذه الزيادة ابطأت في اميركا الشمالية واوقيانيا ، بينما هي اتصفت بمزيد من الزخوف في آسيا واميركا اللاتينية واوروبا . وانما يلفت الانتباه من جهة ان كندا كانت اكثر استفادة ، من حيث ان تقدم الولايات المتحدة كان محدوداً ، ومن جهة ثانية ان نسبة النمو الاوروبي ، اذا ما استثنينا روسيا الاوروبية ، ربما كانت اقل حجما كذلك (اذ ان نصيب روسيا وحدها كان ٣٤ مليونا مقابل ٨٧) .

اعار المعاصرون انخفاض نسبة الولادات اهمية كبرى . وقد برز هذا الانخفاض في كافة البلدان الاوروبية (باستثناء البلدان البلقانية) بما فيها روسيا ، وكان ملموساً جداً في البلدان الانكلوساكسونية في ما وراء البحار ، ولكنه لم يثر اهتمام مناطق الرياح الموسمية في آسيا ، ولا الهنود الاميركيين ، ولا الافريقيين في الارجح . واثار العديد من المراقبين بقلق - قرناً بعد مالتوس - الى الخطاط العرق الابيض ، وتخوفوا من « الغزو الاصفر » ، وتكلم « لروا-بوليو » عن « مسألة شيخوخة الامم الرهيبة » وندد « بالوثبة الجديدة » اي « الابتعاد عن المعتقدات والتقاليد القديمة » . فيتضح من ثم كيف ان لهجة الاقتصاديين الاحرار تبدلت تبدلا بيناً : اخذوا يلمسون صلة بين نقصان المواليد وارتفاع مستوى المعيشة ، مستندين الى ان سوء التغذية وفقدان التدابير الصحية ربما يفسران قوة الوثبة الحيوية في الصين والهند مثلا .

وعلى أي حال فان زيادة الولادات على الوفيات ربما كانت اقل حجماً لو لم ترتفع نسبة الوفيات ايضاً : وهي ظاهرة تثبت توفر ظروف صحية وغذائية فضلى تجلت بصورة خاصة في اكثر

المناطق الاوروبية تطوراً وفي بلدان ما وراء البحار حيث حالت بعض الشيء دون خطر تزايد عدد السكان .

لتبرز خريطة تصنيف الامراض في الكرة الارضية ، بوضوح مؤثر ، التضاد بين الرقعة الاطلسية الشمالية التي تكاثر فيها الامراض الاجتماعية ،وبين الاقسام المتبقية من العالم التي ما زالت تضنيها إما الامراض الموضعية وامراض المناطق الحارة وإما الاوبئة الآسيوية الكبرى كالطاعون والكوليرا والجذام .

بدت من ثم معرفة حياة الافراد الطبيعية والعقلية وكان من شأنها تعزيز الآمال التفاؤلية المطلقة على الثقة العمياء بامكانات العلم . والكل يعلم ان اواخر القرن سجلت عدداً من اعظم الاكتشافات اهمية في حقلي الطب والجراحة . فقد شرع « لويس لابيك » آنذاك ابحاثه حول الفيزيولوجية العامة للجهاز العصبي واجلى مدلول الـ *chronaxie* أو الوقت الفيزيولوجي الخاص بقابلية تحرك الاعصاب ، واتسع حقل السيكولوجية الاختبارية بفضل ابحاث « ريبو » و « وورندت » و « بافلوف » و « ماخ » ، وبدأ « سغموند فرويد » يستكشف العقل الباطن ، ويكشف الاثر الجنسي في الامراض العصبية ، ويقترح الاستقصاء السيكولوجي كأسلوب للمعالجة . وتنظمت في الوقت نفسه دراسة اضطرابات النشاط التصوري الخاص (التأثر المفرط، الصرع) والامراض التي تؤثر على الحركة (*apraxie*) والحواس والكلام (*aphasie*) . وبينما حقق علم الاجنة نجاحات جديدة بفضل جهاز « شابري » ، جدد « توماس ـ هونت مورغان » علم الوراثة انطلاقاً من عناصر النواة الملونة في الخلية ، واكتشف « فونك » الفيتامينات،و « لند ستاينر »الفئات الدموية ، واستصاح «تيريون» و « تيريه » عن المناعة بطريقة استئصال الجراثيم بدون استعمال مواد مضادة وذلك بالعودة الى تعاليم « باستور » . ومن الصين جاءت طريقة المعالجة بوخز الابر .

تزوحات السكان الكبرى وتوسع المدينة

يلفت الانتباه ان الامم البيضاء في القارات الجديدة خشيت منذ ذاك التاريخ هجرة الملونين اليها ولا سيما الآسيويين منهم . وبالمقابلة لم يحدث ما يحد من الخلل المسبب عن المهاجرين اليها من اوروبا . واذا استطاعت المانيا الحؤول دون نزوح مواطنيها ، فان بريطانيا العظمى وايرلندا ما زالتا ترسلان الى البلدان الانكلوساكسونية في ما وراء البحار اعداداً كبرى من المهاجرين الذين استوعبت كندا نصفهم .

الا ان اعظم موجة نزوحية سجلها التاريخ قد خففت في الحقيقة عبء اوروبا المتميزة بنسبة عالية جداً من الولادات في الارياف . فقد توجه فقراء شبه الجزيرة الايبيرية وشبه الجزيرة الايطالية باعداد وفيرة الى البرازيل والارجنتين اللتين استقبلتا منهم اكثر من ٣ ملايين بين

السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٣ (وقد نزل نصف مهاجري السنة ١٩١٠ الى البرفي دريو دي لابلاطه) وبلغ مجموع الايطاليين والسلافيين واليهود الذين نزحوا الى الولايات المتحدة ٦٠٠ ٠٠٠ ١٤ من اصل ٧٠٠ ٠٠٠ ٢٠ مهاجر ، واستقر بين ٦ و ٧ ملايين روسي في قفقاسيا وسيبيريا .

اما تيارات الهجرة من بلدان تتوفر فيها اليد العاملة الى بلدان مجاورة تفتقر اليها فكانت اقل اتساعاً واكثر ارتباطاً بفصول العمل . وهكذا فان فرنسا باتت بلاد اغتراب لكافة شعوب البلدان المحيطة بها ، وقد تجاوز عدد الاجانب فيها المليون نسمة ، ولكن المانيا نفسها استقبلت عدداً من البولونيين ، كما قصد بعض المكسيكيين الولايات المتحدة .

أعيق الصُّفر في نزوحهم في المناطق المعتدلة المناخ التي يسيطر عليها البيض فتدفقوا على جزر وشواطىء الشرق الاقصى : استعمر الصينيون بأعداد كبرى منشوريا حيث نزح كذلك كثير من اليابانيين الذين لم يجدوا لهم مكانا في هوكايدو او هاواي ، وتقاطروا دون انقطاع الى الهند الصينية والانسولند . أما الهند فقد هاجر عدد ضئيل من سكانها الى المستعمرات الاوروبية في ما بين خطي الجدي والسرطان .

ان الذين لم تؤمن الاراضي الزراعية القديمة معيشتهم ثابروا على إحياء الاراضي الجديدة واستثمار المنجم ، ولكنهم خضعوا بالتفضيل لجاذب المهنة المدنية . فنمت المدن نمواً مطرد السرعة في كافة البلدان ، وقد شمل هذا النمو كافة المناطق . فبين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٠ ، قفز عدد المدن التي تجاوز سكانها الـ ١٠٠ الف نسمة من ١١٨ الى ١٨٣ في أوروبا (كان ٤٢ في السنة ١٨٥٠) ومن ٣٢ الى ٤٨ في الولايات المتحدة. ودخلت في عداد المدن الهامة التي قاربت المليون نسمة ، اذا لم تبلغ هذا العدد بعد ، ريو دي جانيرو وبوينوس ايرس ، كلكوتا وبومباي، طوكيو واوزاكا وشنغاي وهان - كيو في الارجح . وان انقلاب ميزان القوى على حساب سكان الارياف ، الذي حصل في بريطانيا العظمى ، قد حدث آنذاك في المانيا والولايات المتحدة ، ولن يلبث أن يحدث في فرنسا واليابان .

فتوطد من ثم ، في اواخر القرن ، نفوذ القطاع المدني بقوة لم يعرفها في اي يوم مضى ، وكان تعبيراً عن نداء النشاطات الصناعية والتجارية الذي لا يقاوم .

تجدد النهضة الاقتصادية (١٨٩٠ - ١٩١٤)

ابتداء من السنة ١٨٩٥ لاحظ المعاصرون انقلاباً في حركة الاسعار العالمية ، التي اخذت في الانخفاض منذ السنة ١٨٧٣ ثم اخذت في الارتفاع . ويبدو ان ظاهرة الارتفاع لم تكن قصيرة الأجل ، اذ ان حركة تجدد النهضة قد استمرت استمراراً متواصلا. فاذا حددت نسبة الاسعار العامة بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين ، لتبين انها كانت ٩٠ في السنة ١٨٨٧ ، و ٨٣ في السنة ١٨٩٥ ادنى نقاط الخط البياني - ثم ارتفعت الى ٩٥ في السنة ١٩٠٠ ، وبلغت ١١٢ في السنة ١٩١٤ . اجل لسنا نلاحظ النسبتين ١٤٠ (١٨٧٠) و ١٤٥ (١٨٧٣) حتى ولا النسبة ١٢٠ (١٨٨٠)،

ولكن هذه العودة الى الارتفاع تبدو من الاهمية بمكان اذا ما أخذنا بعين الاعتبار التزايد العظيم في حجم السلع المعروضة . وتتعلق هذه العودة بأجور النقل البحري (أصبح نقل ١٠٠ كيلو من نيويورك الى ليفربول يكلف ١٧٫٦٠ فرنكاً في السنة ١٩١٣ بـدلاً من ١٤٫٦٠ في السنة ١٨٩٢) وبضائع استهلاكية كثيرة . وهكذا اذا ما حددت نسبة اسعار ٢٠ مادة غـذائية ضرورية في فرنسا بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين، لتبين انها كانت ٩٥ في السنة ١٨٩٢ وناهزت ١١٢ في السنة ١٩١١ . فقد ارتفع إنفاق العائلة العمالية بنسبة ١٠٪ تقريباً في باريس . وهي كلفة الكراء التي ارتفعت اكثر من كلفة الخبز أو الفحم ، على كل حال ؛ ويلفت الانتباه بصورة خاصة ارتفاع كلفة المعيشة في الفنادق العائلية .

والحال تُثبت الاحصاءات توسع النشاط . فقد قدر مجموع اصدارات الاوراق المالية المنقولة بـ ١٩٧٨٠٠ مليون في السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٠ مقابل ١٠٠٤٠٠ بـين السنة ١٨٩١ والسنة ١٨٩٠ ، و ٦١٥٠٠ بين السنة ١٨٨١ و ١٨٩٠ . وارتفـع حجم رؤوس الاموال التي وظفها البريطانيون من ٤٢ الى ١٠٠ مليار تقريباً بين السنة ١٨٩٣ والسنة ١٩١٤ ، والفرنسيون من ٢٠ الى ٦٠ ، والالمان من ٧ الى ٤٤ . وتضاعف تقريباً مجموع النقد الاجنبي الموجود في فرنسا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٢ (٤٠ ملياراً بدلاً من ٢٠) . واستخدمت مؤسسات الولايات المتحـدة الصناعية والتجارية ١١١ ملياراً في السنة ١٩١٤ بدلاً من ٤٨ في السنة ١٨٩٩ . وعلى الرغم من الاحتكار وجمع المؤسسات ارتفع عدد الشركات المساهمة في معظم البلدان الرأسمالية الكبرى : فقفز بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩١٤ من ٣٣٦٦ الى ٩٤٣١ في فرنسا ، ومن ٢٩٧٣٠ الى ٦٠٧٥٤ في بريطانيا العظمى .

ارتفعت النسبة العامة للانتاج الصناعي من ١٠٠ في السنة ١٨٩٩ الى ١٧٥٫٧ في السنة ١٩١٤ . واستُخرج ٥١٢ مليون طن فحماً حجرياً في السنة ١٨٩٠ و ١٣٤٠ في السنة ١٩١٣، كما استخرج ٩٨ مليون طن حديداً في السنة ١٨٩٠ و ١٤٥ في السنة ١٩١٣ . ولم تبلغ نسبة انتاج الوشائع النسجية ، في العقد التاسع من القرن التاسع عشر سوى ٤١٫٥ القطن و ٦١ الصوف و ٦٧ الكتان و ٥٩ القنب و ٢٦ القنب الهندي مقابل ١٠٠ قبيل الحرب العالمية .

وارتفع الانتاج الزراعي ارتفاعاً حثيثاً ايضاً . فالنسبة ١٠٠ في السنة ١٩١٣ قابلتها النسبة ٣٦ في الولايات المتحدة والنسبة ٢٧ في روسيا في السنة ١٨٩٠ . وازداد استهلاك الفرد الحنطة ازدياداً ملموساً: فبينما بلغ عدد سكان المانيا في السنة ١٩١٤ ٣٠ بالمائة اكثر منه في السنة ١٨٩٠ ، بلغت نسبة ارتفاع انتاج الحبوب ٨٠ بالمائة ؛ وقد بلغت هاتان النسبتان بالمقابلة ٢٥ و ٥٠ بالمائة في بلجيكا . واستهلك الاوروبيون مليون طن ونصف المليون من السكر في السنوات ١٨٩٨ – ١٩٠٠ و ٦ ملايين في السنة ١٩١٣ . وفي اليابان ارتفع استهلاك الاسماك بسرعة . اضف الى ذلك ان ألمانيا استخدمت أربعة أضعاف الاسمدة الكيميائية التي كانت تستخدمها ، كي تتمكن من مواجهة حاجاتها الجديدة .

وتضاعفت قيمة التجارة الدولية خلال ١٣ سنة بعد ان تضاعفت خلال ٣٠ سنة (٥٢ ملياراً

في السنة ١٨٧٠ ، و ١٠٤ في السنة ١٩١٠ ، و ٢٠٣ في السنة ١٩١٣) . وارتفع تصدير المصنوعات بالنسبة للشخص الواحد من ٥٢ فرنكاً الى ١٠٥ فرنكات في فرنسا ومن ٥٣ الى ١٢٥ في المانيا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٣ . وارتفع حجم تجارة الخيوط القطنية من ٤٣٣١ طنا الى ١١٩٨٦ بين هذين التاريخين نفسيهما .

فكانت النتيجة الراء لا منازع فيه قد يعطينا الدليل عليه تقدير الدخل القومي : ٣٦ ملياراً في فرنسا في السنة ١٩١٣ مقابل معدل ٢٧ ملياراً بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٩ ، و ٦٠٠ في بريطانيا العظمى مقابل ٤٠٠ ، و ١٧٥ في الولايات المتحدة مقابل ٦٠ ، و ٥٠ في المانيا مقابل ١٧ . وقد ارتفع معدل الدخل الفردي في اميركا من ٣٥٧ دولاراً الى ٥٠٢ بين السنة ١٨٨٩ والسنة ١٩١٣ .

واذا تحقق احراز النجاحات في الولايات المتحدة وفي معظم الدول الاوروبية نفسها (ومنها ايطاليا والنمسا وروسيا) ، فان الانطلاقة ارتسمت بصورة مفاجئة في العالم الجديد (كندا والمكسيك والبرازيل والارجنتين) وفي افريقيا (الجزائر ومصر) وفي آسيا (الهند والصين واليابان) . اجل لقد كانت السرعة متفاوتة ، ولكنها كانت شاملة .

ومما يلفت الانتباه ان النشاطات الزراعية ليست وحدها ما هبطت هبوطاً نسبياً في اكثر البلدان تطوراً ؛ فان القطاع الصناعي قد بات اقل تقدماً بعد اليوم ، من القطاع المعروف بالقطاع الثالثي اي ذاك الذي يختص بتوزيع الممتلكات وبالخدمات العامة . وقد لوحظت الظاهرة بوضوح منذ السنة ١٩٠٠ في الولايات المتحدة؛ ولكنها ما لبثت ان اصبحت محسوسة في شرقي الاطلسي ايضاً . وان في ذلك لدليلا على التبدل القريب ، العميق جداً ، الذي سيطرأ على توزيع المهام البشرية في الغرب .

اجل لقد جاءت ثلاث ازمات – في ١٩٠٠ و ١٩٠٩ ، و ١٩٠٧ ، و ١٩١٢ – تذكّر دونما رحمة بأن الاقتصاد العالمي ليس بأمن من الهزات ، حتى في مراحل تقدمه . الا انها لم توقف الوثبة العامة السنة . ولم يتردد بعضهم ، كـ « ميلين » في فرنسا ، في تشهير «الافراط في الانتاج » و « الجنون الذي يدفع كافة البشر الى الانتاج اكثر فأكثر يوماً بعد يوم » . وقد فكر رئيس الولايات المتحدة ، « تافت » ، بالدعوة الى مؤتمر تكون مهمته ايجاد الوسائل الكفيلة بمقاومة ارتفاع كلفة المعيشة . ولاحظ آخرون بفرح شديد ازدياد الاستهلاك ، فكان موقفهم شبيهاً بموقف « جول سيمون » الذي قارن في السنة ١٨٩١ بين العصر الذي كان فيه والعصر الذي عرفه في شبابه ، فقال : « نحن اليوم قد ألفنا ملاذ « كانوا » .

أما أسباب تجدد النهضة العظيمة هذا فتفتح باب مجادلات كثيرة . فقد طاب للاقتصاديين الاحرار التشديد على دور المطابقة الجدير بالاعتبار بين تزايد عدد السكان من جهة ، وتزايد الطلب ومن ثم تزايد الانتاج والتبادلات من جهة ثانية ؛ وكان من شان ذلك تخطئة مالتوس

مرة اخرى . وربما توجب كذلك أن تكون قدرة الجماهير على الشراء قد نمت نمواً كافياً لان يحدث انقلاب الاتجاه هذا ؛ ولكن ارتفاع الاجور الحقيقية ، خلال فترة الانحطاط السابقة ، بينما كانت الارباح الرأسمالية تتدنى تدنيا مستمراً ، قد تفسر ذلك . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان مكافحة الافراط في المنافسة بفضل اعادة تنظيم المؤسسات كان من شأنه كذلك ايقاف انخفاض الاسعار ، علة خمود المهمة ، واصلاح السوق ؛ وعندما تصبح قسمة الارباح اكثر مطابقة للعقل ، يتزايد توظيف الاموال .

ولكن مصادفة تجدد النشاط وتدفق المعدن الثمين معاً لم تفت انصار نظرية النقد الكمية . ففي السنة ١٨٩٥ ادرك « والراس » ان اثر ذهب الترانسفال في الاقتصاد المنحط سيكون اشبه بأثر منشط قوي . وفي الواقع ألقت اوستراليا الغربية وكولومبيا البريطانية وآلاسكا وافريقيا الجنوبية ، الواحدة تلو الاخرى ، في التداول ، كميات ضخمة من المعدن الاصفر . فبلغت الكميات المتداولة في السنة ١٩٠٤ اربعة اضعافها في السنة ١٨٨٥ . وقد انضمت الولايات المتحدة والنمسا وروسيا والهند واليابان الى معسكر المعدن الواحد ؛ ففرضت قاعدة الذهب نفسها . وكان من شأن ذلك اتساع التعامل بالدين ، وارتفاع اسعار الاوراق النقدية بسبب تجمع اموال الادخار في جيوب الافراد .

واستند بعضهم الى نظام الحماية . واعتبر سواهم ان حروب افريقيا الاستعمارية ومنازعات الشرق الاقصى ونشاطات التسلح قد كان لها دورها الفعلي في ايقاف انخفاض الاسعار والارباح ، كما حدث بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ ، لانها احدثت بتْرلا في مواد الاستهلاك وقوضت الثروات : واذا كان للذعر الذي سببته هذه الاحداث تأثيره السيء على المصفق ، فان سد حاجات القوى المسلحة قد ثبت اسعار المواد الخام وسير الاعمال في المؤسسات العامة . اما الماركسيون فقد انتقدوا الاقتطاع الرأسمالي الذي شجعه التدني النسبي في الاسعار واعتبروا تطور النظام تطوراً عضوياً في اتجاه الاحتكارات دليلاً على انحطاط عضال . واعتبروا كذلك الظرف مؤاتياً لنشاط المأجورين .

من عصر البخار الى عصر الكهرباء

تظهر ارقام الانتاج انطلاقة استخراج الفحم الحجري العجيبة . لذلك ما زالت السيطرة للفحم الحجري في السنة ١٩١٤ . وقد وفر آنذاك للانسان ، بحسب بعض الاحصاءات ، ٨٧ بالمائة من الطاقة واكثر من ٩٠ بالمائة مع الخشب المتفحم ؛ بينما لم يوفر البترول والغاز سوى ٧ والقوى المائية ٢٫٣ ؛ وبحسب احصاءات اخرى يجب الا ينسب اليه سوى ٧٥ بالمائة فقط من حيث ان الخشب وفر ١٥ بالمائة تقريباً . وسُيّر ٨٩ بالمائة من السفن بالفحم الحجري و ٨ بالمائة بالاشرعة و ٣ بالمائة بالبترول : فقد انتصر مسخن الماء من ثم على المركب الشراعي قبل ان يقلقه المحرك الذي يدار باحراق البترول . لقد لوث منظر مناطق المصانع بدخان الفحم الذي تنفثه المداخن المرتفعة . فالا « ميدلندس » البريطانية والمنطقة الرينانية الوستفالية وحوض « سانت - اتيان » وحوض

بتسبورغ ، كلها بلدان سوداء نموذجية تتميز بها الحضارة الصناعية في القرن التاسع عشر المشرف على الانصرام، اعني بها حضارة الفحم الحجري والحديد والفولاذ التي شوهت الطبيعة واذلت الانسان.

والحال ولدت الكهرباء لتفتح آفاقاً اكثر بشاشة . اجل سوف تطلب مساهمة المنجم حتى بعد اكتشافها ، ولكن المهندس التفت الى الماء الذي ينحدر شلالات من الجبال، فولدت الطاقة المائية هذا الفحم الآخر الذي اطلق عليه اسم لا يخلو من الظرافة هو الفحم الابيض . لمنذ السنة ١٨٦٩ — سنة حصول « غرام » على براءة اختراع مولد كهربائي ذي تيار متصل — التي اعد فيها « برجيس » لمصنع الورق في « لانسي » شلالا يبلغ ٢٠٠ متر ارتفاعاً ، ومنذ ان نجح « مارسيل ديريه » في نقل الطاقة للمرة الاولى الى معرض موتيخ — وقد اجري هذا الاختبار ، بعد مرور فترة قصيرة ، بين فيزيل وغرينوبل — اتاحت العنفة والدينم ، اللذان أحكما تدريجيا ، تحويل الطاقة المائية الآلية الى طاقة كهربائية . وقد لعبت العنفة المائية في مصنع انتاج الكهرباء بواسطة الماء الدور الذي لعبته العنفة البخارية في مصنع انتاج الطاقة الحرارية . وبينما صمم « فورنيرون » منذ السنة ١٨٢٧ العنفة المائية التي بلغ انتاجها ٧٠ بالمائة لم تتحقق العنفة الاولى الا بعد السنة ١٨٨٤ بفضل السويدي «دي لافال» والانكليزي « بارسونز» : اشتق نموذج لافال من عجلة برانكا التجارية الدافعة (١٦٢٩) وعرف بالعنفة المحركة او المتساوية الضغط ، بينما عرف نموذج « بارسونز » بالعنفة غير المتساوية الضغط ؛ وكانت هذه سريعة جداً وتلك اقوى منها الى حد بعيد ؛ ولكنهما اعطيا كلاهما انتاجاً مرتفعاً جداً (٩٠ بالمائة) . فأتيح من ثم انتاج الكيلواتات انطلاقاً من الاحصنة البخارية .

بدأ بالتالي عصر الكهرباء مع عهد هذا المحرك الجديد الذي كان بالنسبة للآلة البخارية التناوبية ذات المكبس ما كانته هذه الآلة بالنسبة لآلة « نيوكومن » الهوائية .

اما نقل الطاقة الكهربائية فقد استلزم تحويلا في التيار حققه « غولار » . فاذا زيد فرق الطاقة بين طرفي خط كهربائي عشرة أضعاف، ازدادت الطاقة المنقولة مائة ضعف . ولكن خطر التوتر العالي والصعوبات التي انطوى عليها عزل الخطوط الناقلة حالت زمناً طويلاً دون النقل الى مسافات بعيدة . وفي السنة ١٨٩١ ، عجب الناس من ان « فرانكفورت » تمكن ، بواسطة مولد التيار الكهربائي التناوبي (المعروف باسم مبتكره « تسلا ») ، من استخدام الـ ١٥٠٠٠ فولت المنتجة على الـ « نكار » على مسافة ١٤٠ كيلومتراً . ولذلك اقيمت مصانع الطاقة الحرارية من جهة على مقربة من المراكز البعيدة عن الجبال او الشلالات، ومن جهة ثانية فكر الناس باقامة التجهيزات التي يمكن عزلها بسهولة على مقربة من الجبال والشلالات . وفكروا بادىء ذي بدء باستخدام اما مياه المنحدرات القوية واما الشلالات الطبيعية (كشلال نياغارا مثلا) ؛ ولكنهم لم يلبثوا ان أنشأوا الشلالات بواسطة السدود الاصطناعية .

الا ان المصانع الحرارية ، التي كان تجهيزها سهلا ، قد انتجت تياراً مرتفع الكلفة ، في حال ان الفحم الابيض الذي يستلزم تجهيزات باهظة الاكلاف قد وفر التيار بكلفة دنيا . ولكن

الكهرباء ، على نقيض المنجم ، قد وزعت النشاطات ، وخلقت كذلك منظراً صناعياً جديداً لا يشوبه الدخان والغبار ، كان اكثر توافقاً والاطار الطبيعي ، ولم يخل من بعض العظمة حين تنتج الكهرباء من الماء . وقد حيا الامير كروبوتكين ، العالم والفوضوي ، مجيء هذه القوة المحررة .

استطاعت الساحرة ان تغمر بعطاياها بلداناً افقدها الفحم الحجري الحظوة : كاتالونيا ، سويسرا ، ايطاليا الشمالية ، سكندينافيا ، كندا ، وحتى اليابان. وقد اعتمدت اماكن عدة هذا المنبع الضوئي دون ان تعرف غاز الاضاءة من قبل، كما بنت اماكن اخرى الخطوط الحديدية قبل ان تنشىء طرقات جيدة . ولكن ذلك استلزم الكثير من رؤوس الاموال والعديد من الفنيين. فحوالي السنة ١٩٠٠ دفعت اعمال الانارة الكهربائية الى تأسيس شركات مساهمة قوية تشرف اما على انتاج التيار واما على تقديم المواد . ولكن الاهتمام بزيادة الدخل دفع الى تجهيز اوفر المساكن ثروة او ارفعها مستوى معيشياً بامكانات خلاقة مستحبة . ويلفت الانتباه ان اميركا الشمالية احتلت مركز الصدارة في انتاج الفحم الابيض ، اذ كان لديها في السنة ١٩١٠ سبعة ملايين حصان بخاري (انتج شلال نياغارا وحده منها اكثر من مليون) ، تخلفه وراءها فرنسا والمانيا وايطاليا (مليون واحد في كل منها) والسويد ونروج وسويسرا (½) . كما يلفت الانتباه كذلك ان بريطانيا العظمى ، التي نامت على غار اولويتها الفحمية، لم تحتل آنذاك سوى مرتبة وضيعة ، لا سيما وانها افتقرت الى الشلالات السهلة التجهيز . ولكن الترتيب يتبدل اذا ما اخذت المصانع الحرارية بعين الاعتبار .

في الحقيقة لم يتوفر النور الكهربائي بعد الا لعدد ضئيل من البشر . اجل ان مصباح اديسون ، الذي استهلك في البدء ٤،٤ وات للشمعة الواحدة ، لم يستهلك سوى نصف وات بفضل استخدام التونغستين ابتداء من السنة ١٩١٣ ؛ ولكنه لم يتقدم بعد على مصباح « اوير » الغازي . وعلى الرغم من ذلك كان للارياف حتى الفقيرة من المدن .

احتل المحرك الكهربائي مكاناً ضيقاً ، ولم يستلزم عناية كبرى ، وادير بسهولة ، واعطى انتاجاً بلغ وتجاوز ٨٠ بالمائة ، ولكنه اذا لم يستمد الطاقة من مراكم غير ثقيلة معبأة بشحنة تكفي لمدة طويلة ، فقد وجب ان يستمدها من التيار بواسطة خطوط ناقلة ممدودة فوق الارض او تحتها اذا استخدم الجر . ولذلك لم يستعمل بسهولة الجر الا على مسافات قصيرة : فسيرت بالكهرباء الحافلة البخارية او الحافلة التي تجرها الاحصنة منذ السنة ١٨٩٧ في لندن وفي معظم المدن الهامة من بعدها ؛ ثم اشتهرت وسيلة النقل هذه مدناً اخرى ؛ وقد فكرت بها العواصم الكبرى حين ارادت القيام ببناء الخطوط فوق الارض او تحتها ، كخط الـ « مترو » في باريس مثلاً . اما كهربة الخطوط الحديدية فسوف تنتظر تحسينات تقنية جديدة قبل ان يواجه استخدامها على نطاق واسع: ولكن لن يطلب منها سوى تسهيل تسلق المنحدرات القوية واجتياز الانفاق الطويلة .

على نقيض ذلك تكشف توزيع القوة المحركة عن مزيد من الافراء كلما اعتمدت هـــذه القوة في عمل ينجز في مكانه . فان استخدام الهواء والماء المضغوطين او الاسلاك الناقلة القوة الى مسافة بعيدة كان يستلزم تركيبات محدودة الانتاج بسبب الاحتكاكات المختلفة . وحلت كذلك محل التحويلات الآلية تحويلات كهربائية تحققت باستخدام البنزين في تسيير الآلة البخارية او العنفة المائية ، ما لم يكن التيار ناجما عن التوزيع . وحدث ما هو اهم من ذلك ، اذ امكن تجهيز المثاقب والمقصات والمخارط والجسور الدائرة ، التي لا تستطيع السيور تحريكها بسبب انتقالها من مكان الى آخر ، بمحركات كهربائية . فبدا ممكنا بعد ذلك تسيير كل اداة صغرى ، وحتى كل آلة كبرى ، في المعمل وفي البيت ، دون ان تنبعث منها الحرارة والرائحة وحتى الضجة .

وانما اذا لم يستطع السلك بعد من نقل القوة المحركة الى مسافات طويلة ، فهو قد اجتازها لحمل رسائل الانسان واسماع صوته . فانتشر التلغراف والهاتف يوماً بعد يوم واتسعت شبكاتها . وحين اخترع كازاتي ال « بان تلغراف » (التلغراف الشامل) ، اعتقد الناس بامكانية نقل الصور كهربائيا . اما « كورن » الذي استخدم خاصيات السيلينيوم ، فقد حسن الطريقة في السنة ١٩٠٢ ، فحصلت ال « الوستراسيون » على احتكار براءة الاختراع في فرنسا . وفي تاريخ لاحق وضع جهاز بلين لنقل الرسوم الجامدة ، تحت تصرف الصحف والشرطة ، وسيلة إعلامية حاسمة وامينـــة .

وانما كان مقدراً لاختراع التلغراف اللاسلكي ان يثير الاعجاب اكثر من أي اختراع آخر ، لأنه جعل الكهرباء تبث عبر الفضاء اصواتاً واضحة سهلة الادراك بدون خطوط ناقلة . وقد جاء هذا الاختراع نتيجة لابحاث طويلة . فقـــد سبق لـ « ماكسول » ان لفت الانتبـــاه الى موجات توصل « هرتز » في السنة ١٨٨٦ الى كشفها بواسطة « عازل » والتقاطها في « رنانـة » لا تتصل بأي سلك . وكان مقدراً لهذه الموجات الهرتزية ان يروضها «ادوار برانلي » و«اوليفر لودج » اللذان ابتكرا في آن واحد تقريباً من السنة ١٨٩٠ كاشفاً افضل هو « الملحم » البرادي ، و« بوبوف » الذي اخترع الهوائي اللاقط ، و « ماركوني » الذي عاد اليه فضل إرسال البرقية الاولى من انكلترا الى فرنسا في السنة ١٨٩٩ . وقد توفق لودج منذ السنة ١٨٩٤ الى تحقيق نقل حتى مسافة ٣٠ متراً وفكر بمطابقة طول موجة المحطة اللاقطة على طول موجة المحطة الباثة . وسوف يكتشف بعد ذلك المصباح الالكتروني – مصباح علاء الدين الجديد – : مصباح فلمنغ ذو القطبين الكهربائيين ، ومصباح « لي دي فورست » ذو الاقطاب الثلاثة ؛ وهما سوف يتيحان للموجات نقل الرسائل حتى اقاصي الارض .

بيد ان الساحرة التي نقلت فكر الانسان اما بواسطة السلك واما بدونـــه ، وساعدت الانســان منذ ذاك التاريخ على تسيير ادوات عمله وحتى على الانتقال ، قد أخذت تفعل في المادة نفسها ولتحدث حركة ناشطة في تقنيات الكيمياء .

انطلاقة الكيمياء المثمرة

ان النطاق الشاسع الاطراف الذي وضعت الكيمياء يدها عليه خلال القرن التاسع عشر ، اخذت الصناعة تستثمره استثماراً واسعاً منذ السنوات ١٨٨٠ – ١٩٠٠ . لقد اهتم الرأسماليون والتقنيون في الدرجة الاولى بالمواد العضوية ، الكربون والهدروجين والاوكسجين والازوت . فحللوا منذئذ غاز الاضاءة والفحم المعدني المقطر ؛ ثم انشئت تجهيزات ضخمة اعطت كل يوم مزيداً من المنتجات الثانوية ، كالقار على انواعه والملونات والعطور والاسمدة والمتفجرات . وهو الفحم الحجري ماولد ابدا هـذه الصناعات الجديدة ، الوفيرة الارباح ، في الوقت نفسه الذي انتج فيه التيار الكهربائي . فلقد انتجت المانيا ـ بفضل منطقة الـ «رور» بصورة خاصة ـ في السنة ١٩١٠ ثلاثمائة مليون كيلوغرام من سلفات النشادر مقابـل ٦٥ مليوناً في السنة ١٨٩٠ (وقد حقق « فريتز هابر » آنذاك النشادر التركيبي) ؛ واعطت مصانع استخراج المعادن فيها ١٨٠٠ مليون كيلوغرام من خبث الحديد مقابل ١٠ ملايين . ومن القار استخرجت بعض الزيوت الصالحة للتدفئـة او للمحركات (زيوت ثقيلة وبنزول) وانواع حمض الفينول المستعملة في اعداد حمض البكريك وشتى انواع السكرات . وكان التحليل بالجرى الكهربائي قد سهل الى حد بعيد انتـاج ملح القلي والكلور والكلورات والكلورور والمنتجات الازوتية . فانتج بعد ذلك المواد الكلورية المزيلة الالوان (ماء جافيل) وعلولات استخدمت لتبييض الاقمشة ومعجون الورق وتطهير مياه البواليع . واختصر دباغة الجلود ووفر وسيلة لسقاية الادوات الفولاذية . واتاح كذلك طلياً بالنيكل جعل صفائح الرسوم المعدنية اكثر صلابة وصان القطع المعرضة للصدأ صيانـة فعالة . واتاح بالطريقة نفسها استخراج المنغنيز والقصدير والفضة والنيكل نفسه بفضل قدرته على التحليل

ولعل اهم تحقيقاته معدن الالومينيوم . فقد كان هذا المعدن الجديد بالامس مجرد غرابة مختبرية ، ولكنه دخل نطاق التحقيقات العملية بفضل قابليته للتصفيح وخفته ومتانته : فقـد هبط سعر كلفة الكيلوغرام من ١٠٠ فرنك في السنة ١٨٧٠ الى فرنك واحد في السنة ١٩١٠ ؛ وقفـز الانتاج العالمي من ١٧٥ طناً في السنة ١٨٩٠ الى اكـثر من ٥٠٠٠٠ في السنة ١٩١٢ ، اذ ان انتاج البوكسيت – وهو ام المعادن غير الخالصة المستعملة في صناعته – قـد تجاوز ٥٠٠٠٠٠ طن في هذا التاريخ الاخير .

وعلى نقيض ذلك نرى ان الكيمياء الصناعية وصناعة تنقية المعادن مجتمعتين ، استخدمتـا الفرن الكهربائي ، وتوفقتا بوجود التونغستين والنيكل والكروم الى ايجاد معادن مركبة جديدة ، اعني بها انواعاً خاصة من الفولاذ ضرورية لصناعة السيارات بصورة خاصة . واحدث « ألفرد ويلم » ثورة حقيقية في السقاية التي حققها في السنة ١٩٠٩ في « دورن » بواسطة الدورالومـين المركب من الومينيوم ونحاس وكميات صغرى من المغنيزيوم والمنغنيز والسيليسيوم . ثم وضـع « هنري له شاتليه » في السنة ١٩١٣ سنة السقاية المزدوجة المتعلقة بتغيير تركيب المعدن بمزجه بمادة أخرى تحت تأثير الحرارة . وسيعرف الانتشار كذلك لحام المعادن بالذاتها ، وهو لحام

كهربائي بات ممكنـــاً بواسطة الاسيتيلين المستخرج من كربور الكلسيوم الذي ينتجه الفرن الكهربائي ايضاً .

وعادت الكيمياء العضوية في الفترة نفسها ابرة بعض النسائج الجديدة . وكان ريومور قد عبر عن يقينه بان الحرير الاصطناعي سيبصر النور قريباً . فعرض « شاردونيـــه » في السنة ١٨٨٩ اول طريقة صناعية ، انطلاقاً من سلولوز القطن ؛ وقد توجب ازالة الازوت من النسائج لجعلها غير قابلة الاحتراق . واستخدم « كروس » و « بيفان » و « بيدل » لب الاخشاب . وفكر « ريمري » و« اوربان » بتحليل السلولوز في ماء غالٍ يحتوي بعض الامونيـــاك والنحاس ، واســـوا في السنة ١٨٩٩ مصانع « غلانزستوف» . وفكر غيرهم كذلك بـ « كسانتات السلولوز » . ولكن هذه الخيوط الحريرية الصناعية لم تقو على مقاومة الرطوبة مقاومة طويلة الامد . وقـــد انتج منها ١٠٠٠ طن في السنة ١٩١١ (نصفها في فرنسا) و ١١٠٠٠ في السنة ١٩١٣ ، وسارت المانيا على رأس هذه الصناعة ؛ لأن الانتاج الفرنسي لم يتضاعف . ولاحت دلائل عصـــر المواد العجينية مع ظهور الـ « غالاليت » ، و الـ « باكيليت » التي امكن احلالها على صمغ اللـّك .

واذا لم يفكر احد بعد بصناعة المطاط التركيبي ، فان « ساباتيه » و « سندرنس » قد اثبتا ان مزج الاسيتيلين بالهدروجين بوجود النيكل من شأنه ان يعطي سائلاً شبيهاً بخلاصة البترول المكرر . والحال كانت تقنية المطاط والبترول تتقدمان تقدماً حثيثاً بدلالة الحاجات الجديدة . وعلى نقيض الصمغ الهندي العجيني والعازل ، امكن استخدام المطاط ، الرخص والمرن ، في صناعة الانابيب والسيور والاحذية . الا انه توجب اخضاعه لعمليات مختلفة نخص بالذكر منها الكبرتة التي أشار بها « غوديير » لتغيير طبيعته : فان احماءه في البخار يزيـــل عنه كل قابلية التصاق ويصلبه دون أن يزيل عنه صفته المميزة . وكان اختراع المطاط لعجلات الدراجة قـد ابرز دوره المحتمل في الآلات المتنقلة من مكان الى آخر ، وأثبت ميشلين ذلك في السنة ١٨٩١ بمناسبة السباق بين باريس وبرست : وكان ميشلين حفيداً لصانع كرات واختـــام وسيور من المطاط مقيم في « كلرمون ـ فران » ؛ وكان نسيبه بالمصاهرة « ماك انتوش » ، قـــد اكتشف قابلية ذوبان المطاط في البترول . ولن يلبث دور طوق المطاط أن يصبح دوراً أولياً : ففـــي السنة ١٨٩٥ ظهرت السيارة الاولى « البرق » التي صنعها « بوجو » مزودة بمحرك « دايلر » ومركبة على أطواق من المطاط الخالص بعناية ميشلين؛ ثم عمت هذه الطريقة بعد السنة ١٩٠٥ . فارتبط مصير المطاط منذئذ بمصير العجلة والسيارة ولم تعد شجرة المطاط البرية كافية لتموين المصانع التي تكبرت المطاط : فزرعت بعض الحبوب التي كان ويكهام قد جمعها في امازونيـــا وأسفرت عن نمو ٢٠٠٠ شجرة جميلة في حديقة « كيو » على مقربة من لندن ؛ ثم أرسلت هـــذه الاشجار الى سيلان . ولن تلبث مشاجر آسيا الجنوبية أن تتسع بسرعة : فمن أصل ١٢٤ الف طن انتجت في السنة ١٩١٤ لم يعط المطاط البرازيلي سوى ١٩ الفاً؛ وقد عاد ثلاثة أرباع لاستهلاك الصناعي الولايات المتحدة .

وهي الولايات المتحدة كذلك ما سارت في الطليعة لجهة انتاج البترول . وان هذا السائل ، الذي اعتبر نهائياً كمصدر الطاقة ، قد عرف في روسيا باسم النفط وفي آسيا باسم الزفت وفي الغرب باسم البترول او « الزيت » . ولكن تكريره بعث الآمال في استخدامه كوقود للدفع الى الامام . وقد ابتكرت بالفعل مساخن قادرة على الحلول بجدوى محل الفحم الحجري في السفن . فزودت بها سفينتان في الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ كما زود بها يخت نابوليون الثالث . واخذ الروس يسيرون سفنهم في بحر قزوين وقاطرات خط « باكو - تفليس » بدردي التكرير او « مازود » ، الذي كانت طاقته الحرارية ضعف طاقة الفحم الحجري . ثم ألح اتقان المحرك المسير بالغاز الاستفادة من غاز البترول . الا أن التقدم بقي بطيئاً حتى السنة ١٨٩٥ تقريباً . فقد كشف التكرير المتقن والمحرك المسير بانفجار الغاز آنذاك عن كل ما يمكن ان ينتظره الانسان من الوقود السائل . وارتفعت كمية البترول المستخرج من ٨ ملايين طن في السنة ١٨٩٠ الى ٥٦ مليوناً في السنة ١٩١٤ ، استخرج منها ٣٤ في اميركا الانكلوساكسونية وحدها . الا أن كميات البترول المكرر التي استهلكتها محركات السيارات والطائرات والغواصات لم تتجاوز ٦ ملايين طن ! فهي السفن التجارية والسفن الحربية ما اقتطعت حصة الاسد حتى قبل ان يثبت محرك « ديزل » افضليته على موقد بسيط للاحتراق الخارجي . ولكن التكرير ، بصرف النظر عما تستلزمه صناعة استخراج البترول ونقله من معدات واجهزة ضخمة ، استوجب عمليات تسخين وتصفية معقدة (طريقة الحمض الكبريتي ، ثم طريقة الانيدريد الكبريتي السائل منذ السنة ١٩٩٠ ، وطريقة الـ « الكراكنغ » او التكرير بالحرارة المرتفعة تحت الضغط العالي ، في السنة ١٩١٢) . فهنا ايضاً ، تخطت الكيمياء الى حد بعيد مرحلة الانبيق لبترول الاضاءة [1] .

وما كانت السينما لتمر الدور كذلك بدونها اخيراً . فلا ريب في أن التصوير الشمسي كان نقطة انطلاق هذا الفن الجديد (في السنة ١٨٧١ بدأ مادوكس يستعمل « جيلاتينو - برومور » الفضة) ؛ ولكن السلولويد الذي اخترعه الاخوان «هيات» ، وهو جسم صلب وشفاف وقابل الاحتراق وقادر على مقاومة العوامل الطبيعية ، قد اثبت أهليته لصناعة ورق التصوير السلبي (الذي اطلق عليه « ايستمان » اسم « ستريبنغ فيلم ») . ولم يبق بعد ذلك سوى اكتشاف جهاز يتيح بواسطة التصوير تحقيق تركيب مراحل الحركة وبالتالي ايهام الناظر برؤية الصورة المتحركة . وقد اسهم في ذلك « رينو » في الدرجة الاولى ، و « ماراي » و « دمني » و « اديسون » من بعده . فاستفاد الاخوان « اوغست » و « لويس لوميير » من تجاربهم الطويلة وتوفقا في السنة ١٨٩٥ الى تحقيق اول عرض سينمائي امام جمهور من الناس . وعند ذلك جهز « جورج ميلييس »

---

(١) فهي قد لعبت دورها كذلك في صناعة الاسمنت المستعمل في البناء الا « باطون » الذي احدث ثورة في مستهل القرن العشرين .

اول « ستوديو » (مكان خاص للتصوير وتسجيل الصوت) ونجح في تحقيق تزامن المحاكي والسينما واهتدى الى بعض الاكتشافات ، كازدواجية الاشخاص . فولدت من ثم صناعة جديدة قامت على تعاون الكيمياء والآلية وضمت، في الولايات المتحدة مثلا ، شركات التصوير العامة كـ « اديسون » و « ايستمان كوداك » .

من الآلة البخارية الى محركات الانفجار والاحتراق الداخلي : ظهور السيارة والطائرة

لم يتوقف القرن التاسع عشر يوماً عن مواصلة تحسين الآلة البخارية. ولكن النتيجة لم تتحسن قط : فقاطرة القطار الحديدي مثلا لم تحقق سوى تقدم بطيء . اجل لقد بدا أن الملاحة تدخر مستقبلا على بعض اللمعان للسفنة البخارية . وانما بقيت الحاجة ماسة الى اختراع محرك يمكن تسييره اما بواسطة وقود سائل ، واما بخلط من الهواء والغاز ، ما دامت الكهرباء لم تحل محل الفحم الحجري للنقل البعيد . فأعطت الصيغة الاولى محرك الاحتراق الداخلي : يدخل السائل مباشرة الى الاسطوانة حيث يولد الضغط القوي الاشتعال الذاتي . أجل لقد كان مفروضاً ان يتيح هذا المحرك الوفير الانتاج استخدام الزيوت الثقيلة « المعدنية » والنزجة ، كالمازوت و « زيت الغاز » . وعلى الرغم من ذلك فقد وجب انتظار السنة ١٨٩٣ لمشاهدة أول نموذج من هذا النوع – نموذج ديزل – يمكن استخدامه في الغواصة والسفينة والجرارة . وفي السنة ١٩١٢ امتحن في تسيير احدى القاطرات . الا ان استخدامه لن يعم الا بعد الحرب العالمية الاولى .

لعل « هويغنس » كان أول من فكر بمحرك الانفجار ، عندما اكتشف ان امتداد الغازات المتسبب عن احتراق البارود في اسطوانة ينتج طاقة آلية . وفي السنة ١٨٦٠ –وهي سنة ابتكار الطريقة « المركبة » – وفق « جان – اتيان لنوار » الى تحريك مكبس باحداث انفجار خلط من الهواء وغاز الانارة بواسطة شرر كهربائي : ولكنه لم يبتعد بعد عن مفهوم الآلة البخارية ، ولم يحقق سوى طاقة ضعيفة ، اذ أن آلته التي قطعت مسافة ١٨ كيلومتراً في ثلاث ساعات استهلكت مترين مكعبين في الساعة للحصان الواحد . واذا فكر « بو دي روشا » بعيد ذلك بالضغط ودور الاوقات المتساوية الاربعة ، فان « سيغفريد ماركوس » لم يعتمد البترول المكرر ولم يفكر بالآلة المغنطيسية الكهربائية للحصول على الشرر الا في السنة ١٨٧٥ .

سار الكونت « دي ديون » والميكانيكي « بوتون » على خطى « كونيو » وصنعا سيارة بخارية تسير على الطرقات في السنة ١٨٨٣ . وبعد مرور سنتين سارت السيارات بالبنزين المكرر دون أن تتجاوز سرعة ٢٠ كيلومتراً في الساعة . فظهر بعد ذلك عدد كبير من النماذج التي اقتبست اشكال معظمها عن العربات التي تجرها الجياد .

ثم تحقق تقدمان حاسمان ابتداء من السنة ١٨٩١ : ابتكر « فرنان فورست » المحرك الرباعي الاسطوانات واخترع قبس الاشعال (بوجي) وزود جهاز اشباع الهواء بأبخرة البترول

المكربن بجهاز صغير ينظم مفعول هذا البترول ؛ ولحق ارمان بوجو بسباق الدراجات بين باريس وبرست وعاد الى فالنتيني التي انطلق منها . ثم ظهرت الدراجة البخارية بفضل دايملر الذي سير الدراجة العادية بمحرك غازي . وعلى طريق باريس – بوردو تلاحق « الشّور » للشّور « وشريكه » بانهارد « على البخار ، وحسن ميشلين طوق المطاط الذي صممه « دنلوب » واستخدمه « بوجو ». واخترع « رينو » طريقة الجمع المباشر ، وجهز اول معرض للسيارات في ساحة الـ « انفاليد » .
وفي السنة ١٩٠٠ ، ابان السباق بين باريس وتولوز ، « انتشرت فرنسا جماء تأثراً ديموقراطياً ورياضياً » ، كما يروي « بول موران » . فترك الحصان للموسيقيين وروث الحصان والبغل للتوربين. وكان عدد السائقين في الطرقات العامة اقل من ان يسمح بنعتهم بالداهسين . ورغم الشيوخ وحدهم من اعترضوا وطالبوا وزير الداخلية دون جدوى بمنع هذه الالعاب البهلوانية ، وقالوا بوجوب اعداد مقابر خاصة لسائقي السيارات على جوانب الطرق » . وبعد السنة ١٩٠٠ تحسن هيكل السيارة وتوازنها المطاط ومحركها واجهزة نقل الحركة فيها ، واتضح شكلها الخارجي المميز . وفي السنة ١٩١٤ سارت السيارة بسهولة بسرعة ٧٥ كيلومترا في الساعة . وبلغ عدد السيارات مليونين استخدم قرابة نصفها في الولايات المتحدة التي اضطرت الى انشاء شبكة طرقات بسرعة. اجل لقد تناول التجديد طرقات اوروبا ايضاً ؛ ولكن طرقات المشاة القديمة لم تكن معدة لسير العربات المزودة بالمحركات ، فاضطرت السلطات العامة الى تنظيم السرعة في المدن . ثم غُطيت الطريق بأحد مشتقات البترول المكرر وهو القار ، فمنع الغبار .

في أواخر القرن الثامن عشر توصل الانسان الى الارتفاع في الهواء بواسطة كرى ملأى بالغاز: المنطاد المملوء بالهواء الساخن ، والمنطاد المملوء بغاز الاضاءة . لقد كتب ميشليه : « انها لساعة نادرة ! لانهاية الفضاء تتسع شيئاً فشيئاً ... » ثم تميزت عمليات الصعود الى الجو ، بغية استكشاف الطبقات الجوية العليا ، بمزيد من المغامرة والجرأة . ففي السنة ١٨٧٤ ارتفع احد المناطيد الى علو ٨٧٠٠ متر ، فغاب اثنان من ملاحيه عن رشدهما ولم يستعيداه قط . وفي السنة ١٩٠١ ارتفعت المناطيد الى اكثر من ١٠ آلاف متر .

تحقق منذئذ المنطاد المسير : وقد فكر « ديبوي دي لوم » و « جيفار » بالدفع الآلي الى الامام بواسطة المروحة والبخار . واحكم « رينار » و « كربس » جهازاً يسير بالكهرباء ، فكان ذلك حدثاً هاماً كرس له « فكتور هوغو » بعض أشعاره قبل ان تدركه المنية . فهل بالاستطاعة تزويد سفن جوية حقيقية بمحركات انفجار يا ترى ؟ لقد آمن الناس في المانيا بمستقبل ما هو أخف من الهواء ، وأسس الكونت « زبلين » في السنة ١٨٩٦ معامل انتجت سفناً جوية ضخمة: فان الـ « ساخسن » الذي سيبنى في السنة ١٩١٣ سيبلغ ١٤٠ متراً طولاً و ١٥ متراً قطراً ، وسيزود بثلاثة محركات قوة كل منها ١٧٠ حصانا وسيلسع ٢٠ راكبا .

ولكن أليست اسطورة « ايكار » سوى خيال يا ترى ؟ فمنذ مشروع الطائرة الطوافة الذي

عرض على أكاديمية العلوم في السنة ١٧٨١ حتى طائرة فورلانيه المسيرة بالبخار التي اقلعت في السنة ١٨٧٨ ، قد انقضى قرن كامل تقريباً . وكم هم الذين تذكروا في هذه الاثناء رسوم « فنشي » او لم يتذكروها وحاولوا عبثاً الطيران على طريقة الطيور معرضين حياتهم للاخطار في اغلب الاحيان ؟ الا ان انصار ما هو اثقل من الهواء قد تعززت آمالهم بعد السنة ١٨٨٠ . وقد عبر « جول فيرن » عن هذه الثقة على لسان « روبور الفاتح » الذي تفوقت طائرته على المنطاد المسير . وللمرة الاولى توفق « كليمان ادر » الى الارتفاع عن الارض بوسائله الخاصة على « أيول » بواسطة محرك بخاري . وفي السنة ١٨٩٧ ، في « سالون » طارت طائرته « افيون » مسافة ٣٠٠ متر ، وكانت شبيهة بالخفاش ؛ ولكنها تحطمت بهبة ريح شديدة ، فكف « أبو الطيران » عن مواصلة تحقيق مشروعه . فتوجب اكتشاف محرك آخر .

اهتدى اليه ميكانيكيا دراجات هما الاخوان « رايت » : في السنة ١٩٠٣ ، وبناء على تعليماتهما ، قذف بها في الهواء بواسطة منجنيق في احدى ساحات اميركا أمام خمسة مشاهدين؛ فارتفعت الطائرة الى علو ثلاثة امتار وقطعت مسافة ٢٦٠ متراً بفضل محرك انفجار خفيف الوزن جداً . وبعد مرور ثلاث سنوات قطع البرازيلي « سانتوس - ديمون » ، صاحب احدى المزارع الكبرى ، الذي استهواه المنطاد من قبل ، مسافة ٢٢٠ متراً على ارتفاع ٦ امتار فوق الارض . فكانت نتيجة هذه المآثر الحقيقية التي أثارت الحماسة ، استحثاث الابحاث . وتعاقبت الاحداث بعد ذلك بسرعة مطردة : في السنة ١٩٠٨ قطع « فارمان » الكيلومتر الاول في مدار مقفل ، وفاز « ولبور رايت » بكأس ميشلين الاولى بتحليقه في الجو طيلة ساعتين ونصف الساعة وقطعه مسافة ١٢٤ كيلومتراً ؛ وفي السنة ١٩٠٩ اجتاز « لويس بليريو » بحر المانش عند كاليه ؛ وفي السنة ١٩١٠ اجتاز « شافيز » جبال الألب ؛ وفي السنة ١٩١٣ اجتاز « غاروس » المتوسط . وفي السنة ١٩١٤ جاوز الرقم القياسي ألف كيلومتر مسافة و١٣ ساعة طيراناً ، و ٦ آلاف متر ارتفاعاً ، ومئتي كيلومتر في الساعة سرعة . فما ان الحرب العالمية الا ان تندلع لان البشر سوف يعرفون كيف يقاتلون في السماء .

نصيب التقنيات الحربية الكبير

ان تطبيقات العلوم الطبيعية والكيميائية ، التي هلل لها بعضهم ، قد اثارت المزيد من التحفظات لدى اولئك الذين استوقفهم بالتفضيل خضوع الانسان لعلم الآليات ووسائل التدمير الجديدة .

ولقد زعم بعضهم ان الفضل الاكبر في الانتاج بالجملة يعود الى الحرب الآلية ، وان الجراحة مدينة بنجاحاتها لساحات المعركة في الدرجة الاولى .

في اواخر القرن التاسع عشر بدأ عصر الفولاذ . فلا ارتياب بعد اليوم حول الدور الاولي الذي يلعبه القطار الحديدي وخطوطه الفولاذية في نقل القوى المحاربة والاعتدة . وهي اصناف الفولاذ المختلفة - ولا سيما الاصناف الخاصة - التي زادت من قوة الاسلحة وقوة الدرع : وقد

استفادت المدفعية والسفينة المدرعة من طرائق « بسمر » و « مارتين- سيمنس » . فسيطرت مصانع الاسلحة الكبرى على صناعة استخراج وتنقية المعادن بعد أن يسرت اعمالهـا الحروب التي نشبت بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ . فقام بعد ذلك ارتباط وثيق بينها وبين الحكومات وبين القيادات العسكرية العامة . واشتد هذا الارتباط كلما تطورت تقنيات الصناعـة . فالبندقية ما زالت اوسع الاسلحة انتشاراً ، وقد تحسنت تحسناً مستمراً . فحلت محل البندقية « شاسبو » المزودة بابرة لاطلاق النار ، التي كانت ملكة العمليات الحربية البرية في السنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، البندقية المزودة بجهاز حشو وببارود لا ينبعث منه الدخان ، الـتي تطلق طلقات متواترة « من طراز « ليبل » و « موزر » .

ولكن المهندسين الاميركيين ، « حيرام مكسيم » و « ب. ر هوتشكيس »، قـد احكما السلاح الذاتي الذي اطلق « ريفاي » عليه اسم مدفع الرصاص والذي حال تركيبه الدقيق دون استخدامه استخداماً فعالاً خلال الحرب الفرنسية الالمانية . وبعد ذلك بزمن قصير ظهر المدفع الذاتي الحركة السريع الاطـلاق الذي لم يلبث ان عُرف باسم المدفع الرشاش . وبالمقابلـة زاد المدفع المفرض من داخله والمطوق من خارجه صلابة وبعد مرمى وقابلية حركة . وقد زوده الكولونيل « دي بانج » بصمام جعل حشوه من مؤخره اكثر فعالية . وزود كذلك بجهاز يمنع مفعول اندفاعه الى الوراء وبأجهزة تسديد تبيح الاطلاق غير المباشر. فبلغت سرعة القذائف المطلقة ، بعد اطلاقها مباشرة ، ٥٠٠ متر في الثانية . كما ان القذائف التي استطاعت المدفعية اطلاقها قد بلغت الطن وزناً .

لقد حدثت ثورة حقيقية في فن اطلاق النار . ففي السنة ١٨٧٠ ، نادراً ما استعمل غـير البارود الاسود الذي يرتقي استخدامه الى اواخر القرون الوسطى : ففكر « برتلو » باستبدال مزيج الفحم والكبريت وملح البارود هذا بأول اوكسيد الازوت السائل . ولكن الاميركيين كانوا قد استخدموا خلال الحرب الانفصالية بعض المواد المتفجرة المعول في تركيبهـا على بعض التيارات السريعة الانفجار. وبينما ولى «نوربين » وجهه شطر البيكرات وحصل على «الملينيت» آشر « فياي » النيتروسلولوز المعروف باسم قطن البارود او القطن المتفجر ، و « نوبـل » النيتروغليسرين الذي يعطي الديناميت . وقد اثبت هذا الاخير فاعليته بتدمير صخر تحت سطح البحر في مرفأ نيويورك وبالمساعدة على فتح نفق « غوتار » . ولجأ الارهابيون الايرلنديون اليـه لنشر الذعر في انكلترا . ثم توفق « فياي » الى تسهيل استعمال هذه المواد في الاطـلاق بازالة خاصياتها التحطيمية . فجاء من ثم البارود الذي لا ينبعث منه الدخان يضاعف قوة النار بحشوة محدودة منه .

استفيد من كافة الاستحداثات. فقد سهلت ساعة قياس الوقت الدقيقة تقدير المدفعيين لسرعة القذائف عند اطلاقها . وهو احد هؤلاء المدفعيين ، « كولين » ، من اعلن : « ان التلغراف قد بدّل ظروف الحرب تبديلاً كلياً باتاحته تولي القيادة من مسافات بعيدة » .

الا ان واحداً لا يعلم ما اذا كان الهجوم سيفضّل الدفاع . وقد مال معظم الاختصاصيين الى العمليات الطويلة ، وعمليات « الخنادق » و « الحصار » ؛ ويبدو ان اختبار الحرب في منشوريا كان حجة قاطعة من هذا القبيل . وفي السنة ١٩١٢ ، بينما امر القائد «دي برناردي » ، وفاقاً لنظريات قيادة الجيش الالماني التي اوصت بزيادة قوة النار والهجوم حتى الموت ، على ان يكتب : « يجب استفراغ الجهود بغية احراز النصر بالسرعة القصوى » ، اجاب الكولونيل « مونتانيه » : « النهكة هي ما سوف يقرر مصير المعارك » . ولكن القائلين بهذا الراي او ذاك قد حسبوا حساب النتائج المرعبة التي سيسفر عنها الاصطدام الاول . فتصرفوا من ثم بحيث يكون هذا الاصطدام قادراً على تأمين النصر الكامل .

أعيرت الاهتمام كذلك الاختراعات الجديدة في الحرب البحرية . فان اعتماد البخار كقوة محركة لم يبدل ظروف المعركة كما بدّلها ظهور التدريع والمتفجرات الازوتية في آن واحد تقريباً . وقد بدأ السباق بين هذه وذاك . فبنيت السفينة المدرعة ذات الابراج التي بلغت سماكة فولاذ هيكلها حتى ٥٠ سنتمترا وعرفت قياسات لم تعرفها السفن من قبل : فحوالي السنة ١٨٩٠ تجاوز طولها ١٠٠ متر واتسعت لحمول ١٠ أو ١٥ الف برميل ولـ ٨٠٠ أو ٩٠٠ طن وقوداً ، وسارت بسرعة تتراوح بين ١٥ و١٧ عقدة . فكانت شبيهة بحصن بحري حقيقي وقادرة على الشروع في القتال من مسافة بعيدة تساندها الطرادات المدرعة والطرادات المحمية التي كانت اسرع سيراً وأقل قوة . ولم يكن اعداؤها نيران العدو فحسب ، بل الالغام وقذائف نسف السفن ايضاً . وقد اوحت قذيفة « وايتهد » ، الذاتية الحركة ، بفكرة السفينة النسافة السريعة التي زودت بأنابيب لرمي القذائف ، والتي اثبتت الحرب الروسية اليابانية مرونتها . ثم جاءت الكهرباء تتولى ادارة اجهزة الحركة والملائم ونطلق الالغام .

ثم تعاظم شأن الغواصة التي استلزمت مجموع اجهزة محكمة ارتبطت كذلك بأجهزة الحركة الكهربائية . فقد واصل القرن الحادي منذ ان توفق « فولتون » الى تغويص الـ « نوتيلوس » في السنة ١٨٠٠ . فسعى « برون » و « نوردنفلت » الى تحقيق جهاز يكون فيه الهواء مضغوطاً وتكون اقسامه الداخلية محكمة لا ينفذ اليها الماء . وفي السنة ١٨٩٩ ، ابتكر « لوبوف » الـ « نارفال » : وصمت هذه الغواصة بهيكلين رتبت بينهما الاثقال بغية اتاحة التغويص والعودة الى سطح الماء وسارت بواسطة آلة بخارية ؛ وادارت اثناء الغوص محركاً كهربائياً واستخدمت المنظار والبركار الجيروسكوبي . ثم لم تلبث ان اعتمدت محرك ديزل . وكانت قادرة على القيام بعمليات الاستكشاف وزرع الالغام ورمي القذائف فبدلت بدورها معطيات الستراتيجية البحرية .

كانت هذه الاخيرة موضوع دراسات كثيرة . الا ان كتاب الاميرال « ماهان » ، « اثر القوة البحرية في التاريخ » ، قد هيج الافكار ، والمنافسة الانكليزية الالمانية اسهمت اسهاماً

قوياً في تقدم التقنيات .

في السنة ١٩٠٥ ، وتحت تأثير الاميرال « فيشر » ، انزلت بريطانيا العظمى الى البحر الـ « دردنوت » ، المثال الجديد للسفينة المدرعة الكبرى ، الذي جاوز محموله ١٨٠٠٠ برميل : كان مزوداً بمنفذات بخارية ومسلحاً بـ ١٠ مدافع من عيار ٣٠٥ مبلمترات و ٢٤ مدفعاً من عيار ٧٦ ، وقد استغني فيه عن المدفعية الثانوية . فكانت اسلحته من ثم خير اسلحة لمعركة يشارك فيها من مسافة بعيدة .

ثم اخذ الاميرال فيشر نفسه بعين الاعتبار فوائد البترول الفضلى ، فأمر باستبدال الفحم بالمازوت . فضوعفت دائرة العمل بورن وقود متساو ، وزال الدخان . ولكن هذا التغيير كان في اولى مراحله فقط حين نشب نزاع السنة ١٩١٤ .

وكان مقدراً للحرب العالمية ان توسع بسرعة استعمال الوقود الجديد والآلات المسيرة بمحركات انفجار او احتراق داخلي .

تباشير ثورة علمية جديدة : الاشعاع الذاتي والنسبية

في الوقت الذي تكاثرت فيه النتائج العملية ، والرهيبة في اغلب الاحيان ، للاختراعات التي بدا القرن وكأنه يملق عليها سمته ، كانت تُعد ثورة حقيقية في حقلي علم الرياضيات وعلم الطبيعة .

بينما كان القائلون بامكانات العلم الكلية يعتبرون العلم ، حوالي السنوات ١٨٨٠–١٨٩٠ ، مقعداً على مبادىء متينة ، انهار بناء الحتمية ، الذي اعتبر كلاسيكياً ، في سنوات قليلة امام سلسلة من الاكتشافات غير المرتقبة . فبعد الاشعة المهبطية التي سُلم بالعديد من النظريات حول طبيعتها ، اكتشفت في آن واحد تقريباً – اواخر السنة ١٨٩٥ واوائل السنة ١٨٩٦ – الاشعة التي دل « رونتجن » عليها بالحرف X ، والاشعة التي عزاها « هنري بكريل » للاورانيوم والتي لن يلبث « بيير وماري كوري » ان يهتديا اليها (١٨٩٨) منبثقة بمزيد من القوة عن جسمين آخرين هما البولونيوم ولا سيا الراديوم . وهكذا ظهر الاشعاع الذاتي أو النشاط الاشعاعي .

اجل لقد وجد في الشعاع الذاتي كا في الاشعة المهبطية الكهيرب المعروف – دل عليه لورنز في السنة ١٨٩٥ كعنصر تركيب – والموجات الهرتزية واشعة X والنور نفسه ؛ وانما اكتشف فيه كذلك إشعاع اطلق عليه اسم اشعاع « غاما » كا في اشعة X ؛ واخيراً حقق « روذرفورد » شخصية الاشعة « الفا » كثويات دون كهيربات لذرات الهيليوم . وهنا كان مثار الدهشة .

فما هي سنن الاشعاع يا ترى ؟ لقد لاحظ « لنار » ان اشعة ماوراء البنفسجي تنتزع بعض الكهيربات من المادة بينما لا تستطيع اشعة ما دون الاحمر ذلك . فكل جسم يبث من ثم اشعاعاته الخاصة بذبذباته الخاصة .

ثم جاء « ماكس بلانك » في السنة ١٩٠٠ يدلي بدلوه ايضاً ، فأنكر صدور الطاقة صدوراً مستمراً وصاغ مبدأً جديداً مفاده ان الطاقة تبدو كذلك بشكل جزئيات تنبث عن المادة

انبعاثاً غير مستمر ؛ أما قيمة هذه الجزئيات فنسبية التواتر .

وبعد انقضاء خمس سنوات اثبت « البير انشتاين » صحة هذه الثابتة بتطبيقها على مفعول الضوء والكهرباء الذي اوضحه هرتز في السنة ۱۸۸۷ والذي يلخص بأن النور ينتزع بعض الكهيربات من المادة ؛ وهكذا يظهر ان « لنار » قد تثبت الشيء دون ان يستطيع تفسيره .

وهكذا نشأت في وقت واحد النظرية الذرية ونظرية النسبية ، وقد اتصل بالاولى علم الذرات والكهيربات الذي تختلف سننه اختلافاً كلياً عن سنن علم الطبيعة الكلاسيكي . فحدد « روذر فورد » الذرة في السنة ۱۹۱۱ بأنها متكونة من كهيربات تدور حول نواة ؛ وابان ان تصنيف الاجسام وفاقاً لعدد الكهيربات يتبع استثناءات جدول اقترحه « مندليف » منذ السنة ۱۸٦۹ . اما « بوهر » فقد شدد الكلام في السنة ۱۹۱۳ على الطاقة المنبعثة عن الكهيرب، بحسب نظرية الجزئيات ، شريطة ان يقفز من ذرة الى اخرى. فتكون هذه الطاقة من ثم غير مستمرة ، خلافاً لقواعد علم خاصيات التيارات الكهربائية ، وتتكون اما من جزئيات طاقة الضوء او اشعة ما وراء البنفسجي أو اشعة ما دون الاحمر أو اشعة γ ايضاً. ومنذ السنة ۱۹۰۰، اي منذ « روذر فورد » و« سودي» عكف عدد كبير من العلماء - « موريس دي بروي» ،«ميليكان» ، « ج . - ج . طومسون » ، « ولسون » ، « استون » ، وسواهم - على قياس عناصر هذا الكون الجديد ، وحققوا تشابه الخواص ، بينها حدد « لنجفين » بدقة نظرية المغناطيسية .

وجاء علم الرياضيات ينصف ويدعم علم الطبيعة الجديد . فتخطى « فيتو فولتيرا » مرحلة المعادلات التفاضلية التي سبق لـ « هنري بوانكاريه » ان وجد لها اسلوباً عاماً ووصل الى المعادلات التكاملية ؛ ونقل التحليل الى الدالات التي كشف القرن التاسع عشر القناع عنها والتي تعمق في درسها هنري بوانكاريه نفسه و « وايرستراس » و « اميل بيكار » . وكانت جورج كانتور من جهته قد توسع في مفهوم اللانهاية انطلاقاً من مجموع الاعداد العادمة القياس ، مما قلقل مفهوم الاستمرار . وسيطبق « بير » بدوره نظرية المجاميع والدالات هذه ، كما ان « اميل بوريل » و « لوبِّغ » سيحددان بعد ذلك خاصيات الدالات لعدة متحولات . اما نظريات الفئات التي طلع بها « غالوا » ، وتبناها « كوشي » و « كميل جوردان » من بعده ، فقد كللها اميل بيكار و « كارتان » ايضا . والحال كانت فئة « لورنز » مدخلا للنسبية المحصورة .

في هذه الاثناء كانت هذه النظرية آخذة في شق طريقها . فقد اثبت ميكلسون في السنة ۱۸۸۱ ان سرعة النور واحدة في كافة الاتجاهات . فكان اثباته هذا ملاحظة مدهشة اذ ان حركة المصدر الضوئي او حركة المراقب لا تغيران في الامر شيئاً . ثم انطلق انشتاين من هذا المبدأ ليثبت أن الزمان والفضاء ليسا مطلقين وان حجم جسم ما يتبدل بتبدل سرعته وان المادة نفسها ليست سوى شكل من اشكال الطاقة : فأدى ذلك الى انهيار الآلية الكلاسيكية كلياً بدورها والى استثبات نظرية الجزئيات في نطاق الاجسام المتناهية الصغر . وسوف يجمع

لويس دي بروي" في عهد لاحق بين الكهرب والموجـة وبؤس الآلية التموجية : ولكن « لان » كان قد أثبت في السنة ١٩١٢ طبيعة ١. التموجية . وسينتقل انشتين من جهته من نسبية « محصورة » الى نسبية « شاملة ». انها لآفاق جديدة كل الجدة في طبيعة الكون بالذات خلّفت بعيداً وراءها نظريات كوبرنيك وغاليليو ونيوتون ولابلاس .

تطور الثقافة الشعبية والرياضة — قليلون جداً هم الذين رافقوا تقدم العلم وقدروا اهميته . فـما القول عن الجماهير التي "سدّ" بابه سداً محكماً بالنسبة اليها .

في نظر « دوركهايم »، « ان الانسان الذي يجب ان تحققه التربية فينا ليس الانسان كما صنعته الطبيعة بل كما اراد المجتمع ان يكون » . لذلك فقد فرض المجتمع ابداً معرفة على مثاله . وقد عرف ذلك المحافظون والمجددون والثورويون على السواء . ولكن المسألة ازدادت خطورة يوماً بعد يوم لان الذين يطالبون بأن يكون لهم مكانهم في وليمة المعرفة قـد تزايد عددهم تزايداً مطرداً .

الحت مطامع « هو » و « مارينوني » و« مرتّصفة» مرغنتالر » ثم سابكة « لانستون» لتخفيض ثمن الكتاب الذي بات اكثر استهواء وأوفر حياة بفضل التصاوير والرسوم الزهيدة الكلفة . وصدر الكتاب المدرسي والقصة الشعبية بأعداد كبرى . ولكن الصحيفة ايضاً استفادت من النجاحات التقنية نفسها : فقد بيعت ب ١٠٫٥٠٠ فرنـك في فرنسا قبل حرب السنة ١٩١٤ . وأصبحت من ثم في متناول الجميع . وكانت أداة اعلام عظيمة ، فوفرت المعلومات والألاهي ؛ وقلقت الرأي العام ووجهت ؛ فراعت جانبها واستخدمتها السلطات العامة والمصالح الخاصة : وقد امست لعمري احدى اعظم القوى الاجتماعية . وطبعت الشباب المجلة الدورية المسلية : فأصدرت جمعية « اوفنستات » الباريسية مجلة « المدهش » التي خلقت مثال « الاقـدام المطلية بالنيكل » ، و « الفتاة » و « الشجاع » و «الجدجد». وقامت الاكشاك في الشوارع والساحات الآهلة جداً حيث بيعت كميات كبرى من المطبوعات الزهيدة الثمن (روايات عاطفية وبوليسية وروايات مغامرات) .

استمرت الامية في التقهقر ، ولكن احداً لا يستطيع تحديد اهمية هذا التراجع بدقة . فان نسبة الاميين في الخدمة العسكرية التي هبطت في فرنسا من ١٤ الى ٤٪ بـين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ ، قد انحدرت الى ٢٪ في السنة ١٩١٤ ؛ ولكن جنوداً كثيرين لم يحسنوا القراءة والكتابة . وبينما تزايد عدد الطلاب تزايداً مستمراً في الجامعات ، القديمة والجديدة منهـا ، انتشر التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي بسرعة . ففي انكلترا مثـلا كلف « قانون التربية » الصادر في السنة ١٩٠٢ الجمعيات التمثيلية تأمين نفقات التعليم دون إلغاء المعاهد الخاصة ؛ وقد أملته رغبة في تسهيل انتقال التلامذة من المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية . اما في فرنسا وبلجيكا حيث ما زال الصراع على أشده بين العلمانيين والجمعيات الدينية ، فقد اعترف بوجوب

البقاء في المدرسة حتى سن الثانية عشرة او الرابعة عشرة ؛ ومواصل الدروس بعد ذلك اما في المدارس الابتدائية العليا واما في المدارس التقنية .

ارتسمت حركة جديدة استهدفت تجديد الاساليب التربوية ، بعد أن أظهرت سيكولوجية الطفل فوائد التعليم المتفق واذواق كل عمر وامكاناته . فنادى « جون ديواي » و« كرشنشتاينر » و « ألفرد بينه » بالاساليب المعروفة بالاساليب الفعالة التي استنتجتها « ماريا مونتسوري » و « ديكرولي » من ملاحظات اجرياها على المتخلفين وغير الطبيعيين .

وكانت الشاغلة نفسها سبباً لقيام الكشفية : فقد رغب مؤسس هذه الحركة ، احد ضباط الجيش البريطاني ، « بادن ـ باول » ، في انماء بداهة النشاط المفيد والميل اليه عند الولد ، عن طريق اللعب والانضباط المختار بحرية . وطمحت الكشفية بأن تكون مجتمع اولاد يخضع لقانون ادبي . وربطت بين سلامة الجسم وسلامة العقل . ويرد نجاحها الى حد بعيد بعد السنة ١٩١٠ الى حاجة الفرار نحو الطبيعة التي يشعر بها سكان المدن .

والسبب عينه نرى أن الرياضة التي توفر فوائد الراحة والصحة معاً ـ العمال اليدويين ورجال الفكر على السواء ـ احتلت المرتبة الاولى في النشاطات الاجتماعية. اجل غالبا ما تفرض مباريات وحشية وتتطلب جهوداً ترهق الجسم . ولكنها تستهوي وتذهب بالعقل . فالملاكمة حدث هام في الولايات المتحدة . وأسماء مشاهير المصارعين اخذت تثير اهتمام الرأي العام في العالم القديم ؛ وباتت شعبية سالقي الدراجات المشتركين في سباق الدوران حول فرنسا تفوق شعبية معظم البرلمانيين في قصر بوربون وفي مجلس الشيوخ . فانتقلت مفردات انكليزية كثيرة (*tennis . rugby . football, basket - ball . base - ball*) الى لغات الشعوب الاخرى . وانتشرت الجمعيات الرياضية في العالم اجمع وعقدت فيما بينها علائق زادت وثوقاً يوماً بعد يوم . وفي فرنسا كرس « بيير دي كوبرتين » نشاطه ولبث التمارين الرياضية في التربية ،وأطلق فكرة اعادة الالعاب الاولمبية التي بعثت في السنة ١٨٩٦ في اثينا واشتركت فيها ١٣ دولة . فدخلت المباراة العصرية في التاريخ حين بعثت اولمبيا على نطاق عالمي .

واذا رسم « فرنيه » و « جريكو » فرسان السباق والجياد الاصيلة ، فان رياضة ركوب الخيل قد الهمت كذلك « مانيه » و « ديغا » ، بينما عالج « مونيه » و « سورا » المشاهد المائية بلذة .وسيطرت المدرسة التكعيبية بدورها على المواضيع الرياضية .

الانتاج الادبي الوفير والنهضة المسرحية

فما القول عن الآداب الجميلة والفنون الجميلة التي انما تخاطب العقول الجميلة بحسب التقليد ؟

افضت « الحركة المرقوبية » التي ظهرت بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٠ ـ و « هي أغرب حركات القرن » كما يقول باريس ـ الى المحطاط الواقعية والطبيعية في فرنسا انحطاطاً نهائياً . واذا كان مقدراً لهذه النزعات ان تتفتح بعد ذلك في اوروبا واميركا ، ولا سيما في القصة ، فقد سيطرت العاطفة والغريزة في الشعر بفضل الرمزية

وتعددت المدارس في كل مكان تقريباً وتنوعت أساليب التعبير الذي يفسرهـا ليس فورة الافكار فحسب ، بل تزايد عدد الكتاب العائشين من قلمهم وتزايد عدد القراء ايضاً . وقد انصرف اصحاب الاذواق الرقيقة و «منحطو اواخر القرن» الى الاكثار من المعابد الصغرى بلذة خاصة ، فآثروا التمييز ، وحتى العزلة ، على التجمع .

أما الجيل الطالع والباحث عن نفسه فقد عبد الصدق والاعتراف الشخصي واستطاب التفكير بمسائل المصير البشري الكبرى . وقد شجع الازدراء بالمذهب العقلي الخدّاع انتقال العاطفة الدينية الى الهجوم ، ودفع الى التحليل الباطني والبحث في الوعي الغامض والمسائل الجنسية؛اضف الى هذا ان وصف البؤس الاجتماعي وصفاً عنيفاً وشجياً كان على الدوام موضوعاً جذاباً او مفيدا .

بعد السنة ١٩٠٠ استمرت افنان الشجرة الرمزية في الامتداد فوق اوروبا الشرقية ، فأزهرت في روسيا ازهاراً جيلا . ولكنها اخذت تذبل من جهة الغرب . فنظم بعض الشعراء المبتدعين شعراً طليقاً جدا او مدروساً جداً ، نذكر منهم « ابولينير » ، « ييتس » ، و جامس ، « هولز » ، « دهمل » ، و « جورج » ، « فرودنغ » . وطلع الايطالي « مارينتي » بمدرسة « المستقبل » في السنة ١٩٠٩ ، واسس مواطنه « اونغارتي » مدرسة « الحطامية » ؛ وقد تأثر كلاهما « كروتشي » المؤرخ والفيلسوف العادي. ولاحت كذلك دلائل مدرسة استقبالية في روسيا . ولوحظت في اسبانيا حركة عرفت « بحركة السنة ١٨٩٨ » طالبت بعد الهزيمة في كوبا والفيليبين بفحص الضمير فحصاً متيقظاً ؛ وفي الوقت نفسه مشى « روبن داريو » على رأس « مدرسة عصرية » غنائية لم تلبث ان استهوت معظم بلدان اميركا اللاتينية . وبعد ان قدرت المانيا طبيعية « هوبتمن » و « سودرمن » التي وقفت في وجهها مدرسة الرومنطيقيين الجدد « باهر » ، و« هوفمنستاهل » و شنيتزلر في النمسا ، تذوقت « الانطباعية » الذاتية ثم – بعد السنة ١٩١٢ – « التعبيرية » التي انفت من الوصف ولم تهتم الا بجوهر الاشياء . وسيطر الغنائيون والفرديون من بين « رجال السنة ١٨٨٠ » مدة طويلة في هولندا . واعتنق الغنائية كذلك مشاهير الشعر السكنديناڤي . اما النهضة الادبية التي حدثت من قبل بين البلطيق والادرياتيك وايجه ، فما زالت تثبت اقدامها ، ولا سيما عند البولونيين والتشيكيين والهنغاريين والرومانيين .

كان « ابسن » قد نقل الرمزية الى المسرح ؛ وقد عرفت مسرحيته « مترلنك » نجاحاً عظيماً جداً . ثم ظهر التطور نحو الصوفية في مؤلفات « كلوديل » و « هوبتمن » ، بينما أنتجت ، ارضاء للشاهدين المتزايدين عدداً يوماً بعد يوم ، مسرحيات النظريات والمآسي الاجتماعية او السيكولوجية ، والمؤلفات المرتكزة الى التحليل العاطفي دون غيره . وحاولت الهزلة التملص من النسبة المبتذلة بالفكاهة والتهكم : وقد اشتهر في هذا الحقل « كورتلين » ، « وتريستان برنار

و « اوسكار وايلد » وبرنارد شو. اما « بيرنديلو »، الذي انتقل من القصة الى المسرح وذهب في التأمل الباطني حتى النهاية ، فقد ابتغى اثبات صفة الوجود المقلقة .

توفر للمسرح من الوسائل الجديدة ويلغ من تنوع الالوان ما حال دون سيطرة اية نزعة او اتجاه . فمن جهة جعلت تقنيات الاضاءة التمثيل الذي سمي وراء المشهد المظلم ؛ ومن جهة اخرى حاول الاداء ، بردة فعل طبيعية ، اعادة الانتباه الى تمثيل الممثلين بالاستغناء عن التزيين المسرحي جهد المستطاع . فبعد « أدوارد ابيا » حرص « لونيه سو » في « مسرح العمل » و « كوبو » في مسرح « برج الحمام العتيق » ، و « انطوان » في « المسرح الحر » ، على التجديد الذي رأوا فيه رأي « ماكس رينهارت » مؤسس « المسرح الصغير » ، ورأي « ستانسلافسكي » مؤسس « المسرح الفني » وتلميذه « مايرهولد » . وان مسرح « الطليعة » هذا قد اثار الاهتمام بتصميمه على الاتيان بشيء جديد على الرغم من تلمسه طريقه . وفي باريس احرزت التمثيليات الكلاسيكية والرومنطيقية مزيداً من النجاح بفضل ممثلين مشهورين بسحر فنهم من أمثال « مونيه — سولي » و « سارة برنار » . زد على ذلك ان هوى المأساة القديمة قد ظهر في اطار الابنية التي لم تقو الايام على تدميرها نهائياً . وبينما امسى الرقص الكلاسيكي ايقاعياً او حراً بتأثير من « ايزادورا دونكان » ، توصلت مدرسة الرقص الرمزي الروسي ومدرسة « دياغيليف » الى خلق مشاهد تأخذ بمجامع القلوب معيدتين الاعتبار في الوقت نفسه الى رقص الذكور ايضاً : انها لظاهرة جديدة للاعداء الشرقي الذي تمناه ومهد له الطريق من قبل « مالارميه » و « ديغا » وكيفته عبقرية « سترافنسكي » وسلمت به عبقرية « رافيل » .

اوائل ثورة موسيقية

لم تتوصل هيمنة « فاغنر » الى الاستقرار والرسوخ دون مقاومة على الرغم من وضوحها ومن خدمة هوى الرمزية والنفوذ الالماني لها . فان ايطاليا كانت تفاخر بـ « فردي » ، وقد اسست المدرسة الواقعية الايطالية للادب والموسيقى ؛ وفي فرنسا عرف النغم كذلك ، على طريقة « غونو » ، نجاحا ثابتاً راهناً . انضف الى ذلك ان الموسيقى الغنائية ما زالت اختيارية : ففي فيينا مثلاً نرى في عداد التمثيليات الغنائية المقررة « لوهنغرين » و « المشهورون » و « عايدا » و « مينيون » وحتى الـ « هوغنو » . وظهرت مغناة « بوريس غودونوف » لـ « موسورغسكي » فريدة من نوعها بفضل اختصار اللحن الالقائي المؤثر في النفس راهبة اللهجات الشعبية . ولحق « براهمز » عبر الضوضاء الرومنطيقية ، بالاشكال البيتوفنية . وبشر « فرانك » بـ « عودة الى باخ » . نعم الشعور بأن كلاسيكية جديدة ستظهر في الافق : ولكن ظهورها قد تأخر .

فقد جرى حينذاك الحادث المرضي الذي اطلق عليه اسم الثورة الديبوسية . فاهتم « غبرييل فوريه » منذئذ بالمعارض الزائل والافراط التوافقي الذي جعل موسيقاه تمت بصلة الى الاسلوب الانطباعي واشركه في الوقت نفسه بجمال الرمزية . وعلى غراره ، استوحى « كلود ديبوسي »

« فرلين » واحب « بودلير » وورد الى مجلس المالارميين : فوضع في السنة ١٨٩٢ « مدخل الى ظهيرة احد آلهة الحقول» . واذا لم ينج فيه من السحر الفاغنري،فانه قد قاوم قول استاذ بإيروت بالسلم الملون،واذا لم يستوح « بوريس غودونوف » فقد اوثق الربط،على طريقة «موسورغسكي»، بين الغناء والكلام وفصل بين انواع الآلات الموسيقية المختلفة . وبموجب«المدخل» احتجب الخط وراء اللون ، وضحى اللحن بنفسه على مذبح توافق الاصوات، وملكت العاطفة نفسها خجلاً . وتأمن بعض الشهرة في السنة ١٩٠٢ ، بفضل « بلياس ومليزاند » ، لهذه التقنية الجديدة ، المقيدة والرقيقة والحالمة .

وفي لغة اكثر شهوانية وأشد قساوة اطال « رافيل » و « روسيل » و « فلوران شميت » عمر الديبوسية في فرنسا على الرغم من انهم تخطوهـا . ففي عهد « البنيز » و « غرانادوس » و «مانويل دي فالا » ، اراد « موريس رافيل » ان تكون اسبانيا – بالاضافة الى الرقص والمشهد الفاتن – احد مواضيعه المفضلة : فالـ « لاهابانيرا » ، ورقصة الـ « بافان» و « القصيدة الاسبانية » و « الساعة الاسبانية » هي من أشهر ما انتجه صاحب الذوق الرقيق هذا .

اما الحقيقة فهي ان الانطباعية المتميزة بتوافقاتها الخالصة لم تلبث ان استنفدت مرادهـا وتأثيرها . فبالاضافة الى ان ديبوسي نفسه قد أسهم في تحوير المدلول التقليدي لخاصة اللحن ، جرى البحث بالمقابلة ، في قلب « مدرسة المغنين » ، عن لون جديـد عند « فنسان دندي » و « سكريابين » و « بيلا برتوك » و « ريشار شتراوس » (« الموسيقي الالماني العبقري الوحيد في ايامنا » كما قال عنه « رومان رولان » في السنة ١٩٠٥) . وسلك « اريك ساتي » طريـق « التعبير اللحني » وابتكر « ارنولد شونبرغ » سلما موسيقياً حقيقاً لا لحن فيه اقصي عنه كل ايقاع بارز . وبدت انكلترا ،حيث تأسس في السنة ١٩٠٩ « تحالف موسيقي»، وكأنها اهتدت الى سر الخلق المدفون في ارضها منذ وفاة « بورسيل » . وفي هذه الاثناء برزت مواهب « ايغور سترافنسكي » : فتعاقبت مؤلفاته ، « الطـير الناري » و « بتروشكا » و « مسح الربيع » (وقد تكلم كوكتو عن « قبلة المسح ») ، التي الفت موسيقى متعددة الاصوات انطوت على رسم غاية في الجرأة والتنوع . وجاء بروكوفييف في السنة ١٩١٤ بدعم هجوم « البرابرة » هذا بـ « الملحق الفنزي » .

سيقول سترافنسكي عن موسيقى الجاز انها « تقليد الفولكلور » . ولكن الفن الجديـد ، الذي كان جامحاً حيناً وشهوانياً حيناً آخر ، لم يستطع التملص من واقعه : تحالف بين «البربري» والبدائي . فموسيقى الجاز هي إلى حد ما ، انتقام الزنوج ، في اميركا اولاً ، بألحانها الروحية الدينية والحنينية وانغامها الصارخة المسرحية او المضحكة . ولكنها كذلك تكيف الموسيقى تكيفاً مدهشاً وفاقاً للاسلوب الضاج الذي تميزت به الحضارة الآلية .

وهي في كلا الحالين بعض الهزيمة لاوروبا القديمة .

الاتجاهات الجديـــدة في الفنون التصويرية
ردة الفعل ضـــد الانطباعية

تعددت الصالونات والمعارض . وتكاثر السماسرة والهـواة . ودخلت اميركا المسرح بقابلية الجبابرة : فقـد جمع « جون بيربونت مورغان » العاديات البيزنطية المنقشة بالميناوأواني الخزف الصيني ولوحات « رافائيـــل » و « رمبرانت » و « فراغونار » و « غاينسبورور » ودفع ٤٠٠ ٦٠٠ دولار ثمناً لاحدى لوحـــات « فرمير » ؛ ولكن مورغان وامثاله اشتروا ما عرفوا بوجوده عن طريق الاعلان . وانما حدث احياناً ان الولع كان نتيجة خداع . وربما صح ذلك في « مثل » لوحة « الجركي » أو « روسو » التي روجها « امولـنير » و « سالمون » ؛ بحسب « فرنسيس كارلو » ، واستحسنها « غوغان » و « جاري » و « ريمي دي غورمون » . وعلى الرغم من ذلك فان « فان غوغ » لم يعرف لا النجاح التجاري ولا اهتمام الهواة الصامت ؛ ونقل « ماتيس » لوحاته إلى الصالون على عربات جرها بيـــده ؛ وتخلى « اوتريلو » عن لوحاته لبائعي الخمور في مونمارتر مقابل قطعة نقدية او قنينة نبيذ .

وفرض رودان « الصاخب » نفسه بفضل الطابع المنجم في النفس الذي طبع به القلــق البشري . فهو قد ضحى بكل شيء على مذبح التعبير والرمز . وجـــدة القول انه بقي منعزلا بعض الانعزال . واما بورديل « الخلاق » فقد تقيد اكثر منه بمستلزمات الخط الهندسي ورجع الى الفن القديم الذي اوحى به علم الآثار . وهوى « مايول » الخطوط القليلة الانحنـاء التي سعى وراءها الاسلوب المصري . وقد برزت مواهب قوية في كل مكان تقريباً · « قولب » في المانيا ، و « ابشتين » في انكلترا ، و « وشتورسا » في بو هيميا ؛ ولكن النقاشة عانت من تعذر اشتراكها مع التصوير الذي ابتعد راضياً عن الفنون الاخرى وعن الجماهير ، ومع هندسة العمارة التي لم تسلك طريقها بعد ؛ وعانت كذلك من استعبادها لطلبات زبائنها .

دان الرسم بنجاحه للاعلان والبطاقة البريدية المصورة والجريدة . وقد تفوق الرسامون الفكاتون في الرسم الاعـــدادي المباشر . واشتهر في التصوير الهزلي « كين » و « هاين » والامـــيركي « جيـــون » والتشـكي « موشا » و « كران داش » و « فورين » و « ويليت » و « ستنلن » الذي امتدح اناتول فرانس « فنه المباشر والرصين » المتصف احياناً « بعظمـــة ورقة » . وتابع التصوير كذلك سيره بحزم في الطريق الاستقلالية التي بدت له وكأنها طريـــق الخلاص . وهذا ما عناه « ريمي دي غورمون» في الدرجة الاولى حين كتب في السنة ١٨٩٩ : «ان الفن هدفاً خاصاً انانياً كله ... لا يتكلف برضاه اية رسالة ، لا دينية ، ولا اجتماعيـــة ، ولا اخلاقية ... يريد ان يكون حراً ،ونكداً ،وغير معقول». فهل يعني ذلك انتصار ما هو مخالف للصواب يا ترى ؟

كان نفوذ الانطباعية كبيراً جداً ، وقد واصلت جولتها في اوروبا ، فكانت مصدر وحي في المانيا أ « فون اوهد » و « كورنت » ، وفي النمســا أ « كلمت » ، وفي السويد أ « زورن » ودخلت هنغاريا وروسيا بفضل « باستـان – له باج » . وانما حـــدث ما ازال بعض العطف

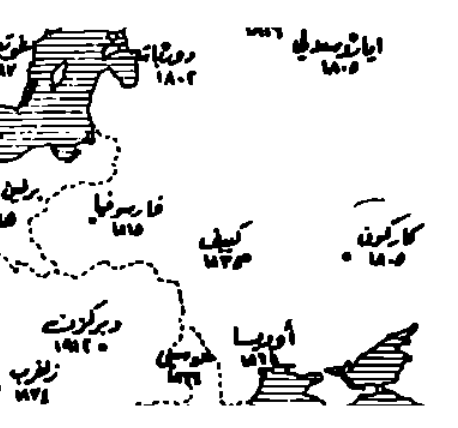
روسيا

عليها . ويرد ذلك الى ان طريقة « مونيه » قد حيّرت في النهاية اولئك الذين لم يرضوا ، على الرغم من كل شيء ، بالتضحية بالتأليف ورغبوا في تأثر اعظم قوة . « هي العين ما تأكل الرأس » كما سيقول « موريس دني » عن التصوير الانطباعي . واراد « بوفي دي شافان » ، المزين الجدراني ، لصورة الرمزية ، رصانة يستوجبها التصوير على الجدران ؛ ولشاهد رمزيته اكثر شهوانية عند « أليير بسنار » ، واكثر غموضاً وتخيلاً عند « غوستاف مورو » . وانما أطلق اسم « الالف » على فنانين من أمثال « فانتين لاتور » كلفوا بالموسيقى الفاغنرية ، وأمثال « كاريير » اقصى اتجاههم الميتافيزيقي النشوة التصويرية ، واخضعوا جميعهم كل شيء للحياة العميقة ، وقد انحدروا بسهولة الى التجريد والغموض .

كانت طريقة « تجديد البنيان» عمل ثلاث شخصيات قوية في الدرجة الاولى : « سيزان » ، غوغان » ، « فان غوغ » . استطاع الاول في البدء الاختلاط بالفئة الانطباعية : عجز عن القبض على الحركة ، على ما هو سريع الزوال ، فنادى بما هو دائم ومتين. فأعاد التصميم شأنه ؛ واهمل ما لا يهمه حتى ولو لم يبنه موضوعه ؛ وكان كاثوليكيا غير صوفي ، وعقلاً ذكياً شغفا بالعظمة البسيطة ، فحن إلى ما هو بدائي وتسلطت عليه فكرة الشمول . اما غوغان فقريب الشبه اليه من اوجه كثيرة : اطلق عليه الرمزيون اسم « التأليفي » ، لانه لم يحفظ من الحواس الا اهمها تأثيراً ؛ ولكنه لم يتوصل الى اشباع هواه البدائي الا بالعيش بين البدائيين الاصليين . واما فان غوغ ، الذي ادمن على السكر ومات معتوهاً ، بعد ان انجز معظم انتاجه بين السنة ١٨٨٧ والسنة ١٨٩٠ ، باذلا في عمله جهداً عنيداً متواصلا ، فقد اعتمد اصباغاً لامعة واعاد الى اللون كافة امكاناته .

ثم جاءت « الانطباعية الجديدة » ، التي افرغت مجهودها في التعبير عن الضوء والنور بلجوئها إلى طريقة « التجزئة » ، المزعومة علمية ، التي اعتمدها « سورا » و « كروس » و « سيناك » . وجاء « الشقر » بدورهم حوالي السنة ١٩٠٥ : « ديرن » ، ماتيس » ، « روو » ، « وسوامم » ، ولا سيا « فلامنك » الذي اعلن « ان التصوير انما هو المحبة » . وقد انتسب بعضهم الى غوستاف مورو والبعض الآخر الى غوغان وفان غوغ . اما في الحقيقة فلا يجمع بينهم سوى عداء مطلق للانطباعية والجاهاة بناهضة الثقافة . فهم انصار اللون الساخط في وجه اللون الساطع . ولكن ماتيس سعى وراء تحقيق نوع من « التوازن » ، وماركيه وراء الاتصاف برقة خفية وعظمة ساذجة ومنطقية معا . وفي ايطاليا نبغت مدرسة « المستقبل » بالثورة حين ارادت التعبير عن ارتعاش السرعة العصرية . وعلى نقيض الانطباعية ايضاً ، اعتمدت التعبيرية التبسيط الذي بلغ حد التصوير الهزلي احياناً : وقد ظهرت في المدرسة الالمانية ، المعروفة بـ « الجسر » ، التي دانت بالكثير لـ « سيزان » والنروجي « مونخ » المؤثر في النفس الذي احيا « الفن الفني » .

يجدر لفت الانتباه هنا الى ان سيزان وسورا وغوغان ، وبصورة عامة كل معتمدي الرسم الايجازي ، قد اتجهوا بالرسم نحو التكعيبية . فقد اعلن ابولينير : « ان الهندسة بالنسبة



كازان
١٨٠٤
دوربات
١٨٠٢
خاركوف
١٨٠٥
كييف
فارسوفيا
أوديسا
١٨٦٤
زغرب
١٨٧٤

الفنون التصويرية هي بمثابة الاجرومية للكتاب ، (واعلن كذلك : « سيغدو التصوير العصري فناً جديداً كل الجدة وسيكون التصوير ، كما نظر اليه حتى اليوم ، ما هي الموسيقى للادب » . فالتكعيبية مطلقة ، اصلية ، قاطعة ، واكثر اقفالا من اي وقت مضى ، وتحدد بما يلي : «هندسة غنائية » . وقد جانبها كثيرون : فكانت اشبه بـ «ماتيس» تبسيطات الالوان) وانتقلت من الحياة عند ديرين الى الاشكال المجردة حقا ، التي يجب ان توافق « الحقيقة بحسب الروح » ، عند « براك » ثم عند بيكاسو . فبموجبها تشابكت المسطحات والمكعبات والزوايا الناتئة (وتذكر الصور المقصة كما يفصل الماس برسوم النقاشة الزنجية او البولينيزية . فان الاندلسي بيكاسو ، الذي اطلق عليه ابولينير اسم « عصفور بنين » ، قد جاء الى باريس في السنة ١٩٠٠ وخلق لنفسه عالما اصبحت صوره هندسية بالتجريد . فكان ان بعضهم اكدوا مع الشاعر : « ليس للمشابهة اية اهمية ، لان كل شيء يضحى في سبيل حقائق وحاجات طبيعية سامية يفترضها دون ان يكتشفها . فتغلب عدم الاستمرار في هذا الفن كما تغلب في موسيقى « سترافنسكي » .

وانما اذا كانت غاية التكعيبية اكتشاف جوهر الاشياء ، فانها قد مثلت من بعض الاوجه ، شاءت ام ابت ، مجهود تصوير نفشي بغية الاتفاق وجسارات الخطوط الهندسية التي ظهرت لمباشرها .

من الاسلوب العصري الى هندسة العمارة الاستتية

منذ اوائل القرن فرضت المدينة نموها المسيخ والفوضوي . ووجب انتظار السنة ١٨٨٠ حتى يبرز ويعم الاهتمام بالتجهيزات التجميلية في المدن : فبعد نابوليون الثالث وهوسمن ، اوصى البرليني « ستوبن » باحترام الماضي والارض ، وشدد الفييني « سيت » الكلام على التوافق الواجب بين الساحات والابنية ، وآثر الانكليزي « هارفارد » المدينة – الحديقة التي حققها « اوفرين » في « لشوورث » في السنة ١٩٠٧ ، وفكر السكتلندي « جدس » بتنظيم المناطق التي تضم عدة مدن . وبينما كانت المانيا البلاد الاولى التي نظمت توسيع المدن ، اعطت البلدان الانكلوساكسونية الجديدة مثل « نظام الساحة » . وطلع « غارنيه » بفكرة الطرق المرتفعة وترتيب الابنية وفاقاً لزوايا معينة . واتاحت المؤتمرات والمعارض مقابلة هذه النظريات وتمت اقرار تعلم بوجهها . ولكن تجميل المدن ابطأ في وعي واجباته العظيمة .

كانت بعض التحقيقات صدمة « للمتمدنين القدماء » : فقد طاب لـ « م. باريس » في كتابه (كوليت بودوش) اظهار التضاد بين « متز » القديمة ، « مدينة الروح » الروح الفرنسية القديمة ، العسكرية ، الريفية » ، وبين الابنية الالمانية : « محطة القطار الحديدي الجديدة (التي) يبدو كأنها تتباهى بعزتها الثابتة على خلق اسلوب امبراطوري عظيم » ، و « التي ليست سوى قطيفة او فطيرة عظيمة محشوة بالفحم ») والحي الجديد المعبر عن جنون العظمة (الذي) يضم الخانات الكبرى والمقاصف البورجوازية المثقلة بالنقوش الاقتصادية الصاخبة» ، «ويتطلع الى العظمة

والثروة » ، و « ليس سوى كذب وفوضى وافلاس عبقرية » .

ولم يلج الحديد كذلك نهضة هندسة العمارة : فالمبا كل المدنية الحية قد طليت حتى لا تتأكسد. اجل لقد عرف برج ايفل البقـــاء بفضل الرسوم المفروضة على الصعود اليه ؛ ولكن كثيرين لم يكفوا عن الانتقاد امام « الظل البغيض للعامود البغيض المصنوع من صفائح حديــدية مثبتة بمسامير ضخمة » .

ولم يتوصل الاسلوب العصري ايضاً الى حجب قفر الابنية الرسمية او الابنية التي تعطي دخلا لمالكيها . فهو في تصميمه على تزيـين وجـه البناء بتقعيره او تحديبه ، كأنما يطيب له التهرب من الخطوط البسيطة التي بدا وكأن مواد البناء الجديدة تفرضها . الا انه جدد التزيين والورق الملون والفراش ؛ وكان مصدر وحي لمصنوعات الحديد المطرق الجميلة ؛ واعتمدت زخارفه الزهرية في الاعلان نفسه ؛ ولجأ اليه الزي النسائي باحكام الاكمام و « التنانير » في اعلاها وتوسيعهـــا في اسفلها بشكل نورات الزهر : فنعته الساخرون « بالاسلوب الخامل » و « المتموج » ، و « اسلوب الحرية » ايضاً الذي زعم في انكلترا انه مدين بالكثير الى ازياء ما قبل رافاييل .

هي الفنون التزيينية التي استفادت اعظم استفادة من « اسلوب السنة ١٩٠٠ » . وقـــد نظم اتحادها المركزي مظاهرة في مكان العرض . وفي معرض خريف السنة ١٩٠٣ ، خصها مهندس العمارة « فرانتز جوردين » بمكان فسيح . فأعطى تعليم « وليم موريس » و « وولـتر كراين » ، مجددي الفنون التطبيقية ، ثماره آنذاك ؛ فتلفت اليها « فان دي فلد » الذي أسس مدرسة في « فيمار » ، واستعاض عن الرسم المزهري بالخطوط المموجة .

حينما اصدر « فيوليه له دوك » حكمه على التزيين النافل باسم العقل . وقد وجب ان يظهـر الاسمنت المسلح مزاياه في الولايات المتحدة حتى ينطلق لمن يتصف بـ « العقلية » . فقـــد ألبس الاميركيون المباني الحديدية بزيد من الاسمنت والماء والرمل . ولم يقاوم بناؤهم النار فحسب ، بل كان انجازه سريعاً واقتصادياً ايضاً . وهو « وليم له بارون جني » من حقق البناء الاول في شيكاغو في السنة ١٨٨٣ ؛ ثم جاء دور نيويورك في السنة ١٨٨٩ . والغرابة التي تلفت الانتباه هي أن معهد الفنون الجميلة في باريس هو ما خرّج معظم مهندسي العمارة الذين حددوا بـدقة ، شيئاً فشيئاً ، تقنيات ناطحات السحاب وسننها الجمالية . وهو « لويس سوليفان » ، خريـــج هذا المعهد ، من اقترح لمبنى الـ « اوديتوريوم » في شيكاغو اثبات الحجم العمودي ، ومن فرض نفسه في السنة ١٨٩٩ بمخازن كارسون الكبرى .

في السنة ١٨٩٤ استخدم « اناتول دي بودو » ، احد تلامذة « فيوليه له دوك » مادة البناء الجديدة في كنيسة مونمارتر القديس يوحنا الانجيلي . فانتصب في العاصمة الفرنسية ، بعد مرور خمس سنوات ، شذوذ بناء من الاسمنت المسلح . ومنذ ذاك التاريخ كان الـ « وركبوند » ، الذي رغب في توحيد الفن والصناعة وتكلم عن « اسلوب موضوعي » ، قد بدأ محاولته . فوجههـــا

« لوس » في النمسا » و « موزر » في سويسرا » و « سانتيليا » في ايطاليا » والاخوان «بريه» و « له كوربو » في فرنسا . وقدم لها « فان دي فلد» مساعدة كبرى. فأصدروا حكماً على التقليد سواء كان كلاسيكياً مستعارا او نهضة مستعارة او فنا قوطيا مستعاراً او اسلوب فرنسوا جوزف . ففرض الخط المستقيم نفسه » لا سيا وقد املاه القالب الخشبي . والى ماكس كلنجر عاد الفضل في صرامة المربع . وانتقلت البساطة الى لندن في « كوداك بيلدنغ » و « ادلايد هاوس » و « بوش هاوس) . وتركت مزيداً من التأثير مخازن ورتهايم الكبرى في برلين التي بناها « الفرد مسل » . وفاز الفنانون « الموتيخبون » بأغلبية الاصوات في معرض الخريف في باريس في السنة ١٩١٠ . أفلم تؤالف التكعيبية العين بما ترى ؟ وتوجب من جهة ثانية التسليم بالواقع الواضح : لما كانت الجدران لا تحمل ثقل البناء » اذ ان الهيكل الاسمنتي يقوم بذلك » اتسع المجال في التركيب الهندسي للحاجات العصرية. فكان ان القرن التاسع عشر قد خلف في النهاية وعوداً بأسلوب هندسي جديد حقاً يجمع بين المتانة وجسارة الخطوط وصرامتها .

الفصل الثاني

تجدد الحياة الصوفية والروحية في أوروبا

« كل ما حل اسما في الفن او العلم او الادب كان مغايراً للدين » .

(« بول كلوديل » ، ١٨٨٦)

« فأفضى بي الامر الى انني ازدريت في غالبي بذلك العلم الذي كان مبعثاً لمساري » .

(« اندريه جيد » ، « اللاجئ » ، ١٩٠٢)

المنازعة حول قيمة العلم

عند الانتقال من قرن الى قرن ، بدت انطلاقة التقنيات العلمية وكأنها قادرة على تبرير الآمال التي وضعها الانسان الغربي في تحقيقات العبقرية البرومثية . لا بل ان مكاسب الثقافة توسعت توسعاً سريعاً ؛ واستفادت الآداب والفنون من مناخ مؤات . لذلك فقد عزم رينان ، قبل وفاته ، على نشر كتاب «مستقبل العلم » الذي اوحى « برتلو » اليه به في السنة ١٨٤٨ والذي يمكن اعتباره بمثابة وصية وضعية . واكثر برتلو نفسه من المجاهرة بإيمانه العميق بإمكانات العلم ؛ وقد صدرت خطبه ومقالاته المجموعة في كتابين : « العلم والاخلاق » (١٨٩٧) و « العلم والفكر الحر » (١٩٠٣) . وصدر في الفترة نفسها كتاب « احاجي الكون » لـ « هكل » . فقد اعلن برتلو ان « العلم هو ولي نعمة الانسانية » . وهو يطالب اليوم بادارة المجتمعات الفكرية والاخلاقية على السواء . وبفضله تخطو الحضارة العصرية خطوات مطردة السرعة . ومهما يكن من مزاعم محتقريه ، فهو سائر في سبيله ، غافلاً سنة العمل القاسية وخالقاً انسانية اخوية . « فمن معرفة الكون وتركيب الانسان الطبيعي والاخلاقي معرفة ابعد عمقاً ، ينجم مفهوم جديد لمصير الانسان

وجهه المداليل الاساسية التضامن الشامل بين كافة الطبقات وكافة الامم » .

ولكن العلم نفسه بدا متخلخلا حتى في أسسه بفعل الثورة التي تعرض لها . « ظن خيراً بقواه الفتية ، ووعد متكبراً بأن يعطي الكلمة الشاملة عاجلا ام آجلا » : هذا هو الكلام الذي اطلقه « رومان رولان » على لسان رفيق مضطرب ، رومان رولان نفسه الذي تكلم عن « زلزلة السنوات ١٩٠٠ وثورانات الفكر التي قوضت واحرقت روح القرن (العشرين) الطالع». فطبت المفاجآت المدهشة مفاجآت اخرى أعظم اذهالا . بالامس استلزم كل مصباح يستخدم للاضاءة اشتعالا احاجا، أما اليوم فمصباح اديسون لم يعد يشتعل لأنه يرتكز الى مبدأ يمنع جذب الهواء . وبالامس اقعدت الداروينية التطور على الاستمرار ؛ أما اليوم فقد عاد « دراش » و « وايسمن » و « دي فريز » الى فكرة التحولات الفجائية واعلنوا: « ليس من استمرار بين الانواع » . وفي الحقيقة لم يعد التفسير الآلي الكون ليقنع ويشبع الرغبات. ومنذ السنة ١٨٧٦، ابدى كيرشهوف بعض الارتيابات حيال قيمة النظام النيوتوني ، وجاء ماك يخطىء تعابير « الاتساع المطلق » و « الزمان المطلق » لانها لا تطابق شيئاً في النطاق الكمي : واقترح علم طبيعة يرتكز الى الظواهر دون غيرها ؛ وقادت نظرية « الجزئيات » اميل بوريل الى التساؤل عما اذا لم يكن تفسير الظواهر تفسيراً احصائياً اكثر النظريات اقناعاً واشباعاً للرغبات ، اميل بوريل نفسه الذي تعمق ، مع « تشيبيشيف » و « هنري بوانكاريه » و « باشليه » ، في درس حساب الاتفاق . وسوف يكون من ردة الفعل في أوساط علماء الطبيعة ان « لنين » سيتهمهم بالوقوع « في المثالية » عن طريق مذهب النسبية ، بسبب جهلهم الجدل » . وعلى أي حال فقد شدد الرياضيون على حاجتهم الى المبادىء الاساسية المسلم بها بدون برهان والى الحقائق البديهية السير في نظرياتهم . فقد قال أميل بوريل : « ان موضوعية العلم الكاملة ليست سوى اضغاث احلام ؛ فعلمنا يقاس بقياسنا » . ومع العلم ان بوانكاريه لم يترك اي مكان للاتفاق ، فانه قد اعتبر انه لا يمكن وضع اي شيء واضح مدقق وراء كلمتي قوة او مادة ، وبالتالي فان الاختبار يترك لنا حرية الاختيار ... بمساعدته ايانا على تمييز اسهل طريق يمكن سلوكها » . وطالب له التذكير بأن « العلم لن يكون الا ناقصاً » ؛ «وان من يقول علماً يقول ثنوية بين العقل العارف والشيء المعروف » . وبعد ان يطرح هذا السؤال : « ما هو العلم ؟ » يجيب : « انه تبويب قبل اي شيء آخر، اي نوع من التقريب بين الاحداث التي تفرق بينها الظواهر ... » يجب الا نرى فيه سوى « نظام علائق » . وبالتالي اذا ما عين العلم حدوده ، وخطأ الاوهام الخادعة، وطلب الينا التوقف عن اصدار احكامنا ، فان الكثيرين وينقدون بأنه يرتاب بنفسه . فيحدث انتقال من اليقين الى الاحتمال البسيط في نظر « بوترو » الذي شدد على كثرة العلوم وكثرة طرائقها . وقرت عين مذهب العملية بتأكيده ان العلم مجموع مصطلحات سهلة الاستعمال ، او بالتفصيل أن السنن ليست كلها سوى سنن تقريبية . وسوف يتمكن برغسون من التأكيد ان الاستمرار الحقيقي لا وجود له الا في الوعي فقط لأن استمرار المادة ليس سوى استمرار متحرك .

لقد لوحظ مراراً كثيرة ان السنة ١٨٨٩ ، سنة احد المعارض العامة ، قد شاهدت صدور كتابين مما هما «محاولة في معطيات الوعي المباشرة» ورواية «التلميذ» التي اظهر فيها «بورجيه» كيف ان « المفكر الكبير ، ذاك العقل الواعي ، الذي كاد يكون عادم الانسانية بسبب قوة منطقه ، يتضع وينحني وينهار امام سر المصير المغلق » ، وارتد في النهاية إلى الله . وقد نشبت معركة حقيقية في فرنسا بمناسبة مقال « برونتيير » « بعد زيارة الفاتيكان » ، وكتاب رينان « مستقبل العلم» . فان برونتيير ، رفيق بورجيه ، قد وجد امامه برتلو الذي كان من قبل مصدر وحي لرينان . واعلن برونتيير : افلاس العلم ! فهو احد اولئك الذين انتقلوا بالاستنتاج من قول « نحن لا نعلم » إلى قول « نحن لن نعلم البتة » . فأجاب برتلو عن ذلك بمجاهراته بعقائد العقلية . بيد ان « زولا » اعترف بأن العلم « لم يعد بالسعادة ، بل بالحقيقة » ، واضاف : « وللاكتفاء به يوماً ، يقتضي الكثير من التضحيات ونكران الذات نكراناً مطلقاً وطمأنينة فكر قانع يبدو وكأنها لا تصادف الا عند نخبة معينة . ولكن بانتظار ذلك ، اية صرخة يائسة تصدر عن الانسانية المتألمة ! » لذلك حاول «وانكاريه التوفيق بين وجهات النظر المختلفة بتأكيده ان « الانسان لا يمكن ان يكون سعيداً بالعلم ، ولكنه ... بدونه سيكون اقل سعادة ايضاً » . وفي الرسالة الحبرية التي وجهها لاون الثالث عشر في السنة ١٩٠٢ ، خلص على الرغم من ذلك إلى عجز العلم « عن ارواء التعطش إلى الحقيقة ، والإلهيات ، واللانهاية التي تتطلع اليها برغبة شديدة ... » .

اكد المؤمن بامكانات العلم انه يمتلك مفتاح اليقين ، وان النتائج المطلقة تتصف بركانة تكاد تكون جلية . وعلى عتبة عهد النسبية ، بدت اعتقاديته وكأنها تشجع ردة الفعل اللاحتمية التي عقدت مع المذهب القائل بتفوق الايمان على العقل تحالفاً غريزياً .

سلمت التطورية اللاماركية بان التبدلات الناجمة عن البيئة تنتقل الى الذراري : وهكذا اعتقدت فئة من رجال الفكر ، ضمت « كونت » وسبنسر ، بتكامل الانسانية الفيزيولوجي والفكري معاً . اما التحولية فقد وجهت ضربة هائلة ، بقولها بامتناع هذا الانتقال ، لتفاؤل قرن تأمل الكثير من نمو افضل الميول . وانما ظهر ان النوع ، اذا تم الانتقاء الطبيعي بأفضل فظاظة ، لا يتعذر عليه الترقي فحسب ، بل قد يتأخر في الواقع عضوياً ايضا . فافضى ذلك الى حل المالتوسية الجديدة الذي اقترحه علم تحسين النسل والذي يقضي بانتقاء طوعي ؛ وفي السنة ١٩٠٧ اجازت عدة تشريعات في الولايات المتحدة تعقيم بعض الافراد من ذوي العاهات . ثم الم يقترح « فاشيه دي لابوج» منذ السنة ١٨٨٨ الاستعاضة عن التوالد الحيواني والاختياري بالتوالد الموجه والعلمي ؟ » ...

الارتياب في تقدم النوع
رفض الحضارة العصرية
ودعوة الشرق الى اللاعنف

حام الشك في الوقت نفسه حول تفوق المبادىء التي طالب الغرب بالسيطرة باسمها . فهل يقتضي الاعتقاد ، بموجبها ، بالسلم الاجتماعي والسلم بين الشعوب ؟ لاشك في ان برتلو قد قام بوعد : « سيكتسب الانسان مزيداً من اللطف والاخلاق لانه سيكف عن اعتماد التقتيل وافناء الخلائق الحية سبيلا للعيشة » . ولكن الجنرال « دي برناردي » ، حين اوضح ميزات « الحرب العصرية » لم يتردد كذلك في السنة ١٩١٢ في الجزم بمايلي : « المستقبل لـ « بروميتيه » وليس لـ « ابيميتيه » » .

بانتظار ذلك تمنع الشرق عن الانحناء امام نظام لم يمثل في نظره سوى ظواهر قوة مادية . فقد سبق الصوفية الروسية ان رفضت القيم المرتكزة إلى تقدم التقنيات . وقد أسهب تولستوي في تفسير العظة على الجبل ، واصدر حكمه على بابل العصرية ، فأعلن هو ايضاً افلاس العلم وخص بلاده برسالة توفير النصر لثورة اخلاقية . فكتب في السنة ١٨٨٤ – ٨٥ : « ما هو المطلوب منا يا ترى ؟ » بمقاومة تقسيم العمل المشؤوم ؛ ورفض الوضعية ، والفن للفن ؛ « والتندم على الذنوب ، واقتلاع الكبرياء الذي تأصل فينا بالعلم ... » ، والاقلاع من ثم عن استغلال امثالنا في سبيل الاثراء ؛ والربط بين النشاط الفكري والعمل المادي . « انه لتطلع ساذج ، يعبر » في نظر لينين ،« عن عدم ادراك فلاح بطريركي بسيط» وبذكر « بصوفيات العالم الآسيوي » .

قال بعضهم ان التولستوية قد استمدت علمها الاخلاقي من الانجيل واستوحت البوذية على الصعيد الفلسفي . اجل لقد سحرت الهند بحكمتها . ولكنها حين قصدت هي نفسها اكتشاف الغرب ، لم تخف نفورها الشديد. فقد اغتم « فيفا كانندا » اغتماماً مؤلماً. ثم جاء ابن «دبندرانات» « رابندرانات طاغور » ، الشاعر والفيلسوف والمؤلف المسرحي والموسيقي ، فوقف موقفاً مناهضاً لمذهب التزمد» ولكنه اصدر حكمه في الوقت نفسه على حضارة اقترفت ذنباً بايثارها النهضة المادية على التكامل الروحي والاخلاقي . واستسلم غاندي لافتكاره في افريقيا الجنوبية حيث ذهب بدافع عن مواطنيه ضد الاوروبي : فقرأ روسكين ؛ وعرف تولستوي الذي اوحى بتشاؤم الروائي الياباني « هاسيغاوا فوتاباتاي » ؛ وجاهر بان الجمال يكمن في العمل اليدوي ورفض الاستسلام للغرائز العنيفة . وفي السنة ١٩٠٩ ناشد الهند « ان تنسى كل ما تعلمته منذ خمسين سنة » ، وذهب حتى النهاية في رفض التقدم كما يفهمه الغرب ، فأعلن: « يجب ان يتوارى عنا القطار الحديدي والتلغراف والمستشفيات والمحامون والاطباء ، الخ . » .

كان اللاعنف من ثم جواباً على العنف، مولد المجتمعات الجديدة – الذي اعتبره بعض علماء الاجتماع ، من أمثال « له دانتيك » و « له بون » و « ستيلمتز » ، ملازماً الجنس البشري ، على نقيض « دوركهايم » الذي كان مقتنعاً بان تقسيم العمل يكبح الغرائز الوحشية . وكان على

اللاعلف هذا » في نظر الاول لفرانس، الابيقوري الذي اقلقه ثوران الاهواء القومية ، و «رومان رولان » المرهف الحس في تذوق الجمال ، ان حب الى مساعدة العقل المستقل والكلف بالجمال .

التقليد الروحاني والتصوفي

العصر القرن مسألة ما هو ممتنع المعرفة على دور حيادي ، أو مجهول أحياناً ، ما دامت المعرفة تتناول العلائق بين الاشياء

لوق تناولها طبيعتها . فقد كان هناك علماء مؤمنون بامكانات العلم ، من امثال « تين » ، مثلوا العلوم الاخلاقية بالعلوم الطبيعية ؛ ولكن عقولا لاادرية كثيرة ، منذ كونت حتى بوانكاريه، قد سلمت بأن بعض المسائل ما زالت بعيدة المنال . والحال ، اذا كان صحيحاً أن العلم « لم يعد بالسعادة بل بالحقيقة » وان نسيان « هاجس اللانهاية » يقتضي كفراً بالذات لا يقوى عليه كثيرون ، لأدركنا حينذاك عجز المؤمنين بامكانات العلم عن اشباع رغبة اولئك الذين اعتبروا مسألة الاسباب الأولى والاسباب الغائية مسألة رئيسية ، حتى خارج الاعتقاد التقليدي . فلماذا يجب ربط مفهوم الواجب يا ترى ؟ هل يكفي القول ،كما فعل برتلو ، ان الاخلاق ليست منوطة « لا بالانانية ، ولا بالعصبية ؟ » فعلى افتراض ان العقل يفسر كل شيء ، يبقى عليه ان يفسر نفسه ، ونعود حينذاك الى درس المعرفة .

الا أن المصلحين لم يكونوا قلة في يوم من الايام . وسوف يقول بيغي : «روحانية « كوزين » الصبيانية والحكومية على الاقل» . وبعد مرور نصف قرن سعى « بول جانيه »جهده ليثبت ان العقل يسمح بالفصل بين نطاقين ، نطاق الحتمية ونطاق حرية الارادة : بإيماننا بالحرية ، نجعل من أنفسنا أحراراً ونخلق الله بتصرفنا كما لو كان موجوداً . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان رينوفييه انطلق من نسبية تصوفية تجعل الفرد يستعذب المبادهة ، ولم يحد قط عنها حين سلم بالله مبدأ كل شيء .

وفي المانيا شوهدت كذلك عودة الى « كانت » : طالما ان الايمان يوفر « مزيداً من اليقين » اصبحت التمييزات الكانتية امراً واجباً . ثم برز تأثير شوبنهور قوياً ، وان متأخراً ، حين يقول : « لا يكون لدي ما يقلقني ، فان هذا بالذات ما يقلقني ! وقد اقام هذا الكانتي البرهان على تصميم على الحياة مخالف للصواب، وعلى وجود نزعة غامضة وعمياء ومحدودة وثابتة» .

حوالي ۱۸۸۰ - ۹۰ ، تفتحت لعمري الروحانية التي تمثلت ، منذ باسكال ومالبرانش ، بـ « مان دي بيران » في السنوات ۱۸۰۰ - ۱۸۲۰ . واعاد « رافيسون » الاولوية لعلم ما وراء الطبيعة ومهد الطريق امام البرغسونية . وفي نظر « لاشلييه » ان الحقيقة الوحيدة هي الضمير ، من حيث ان الاشياء تعبر عن نشاط الفكر فقط . ويدخل « بوترو » في هذه الفئة بنظرية « عدم لزوم سنن الطبيعة » : في نظره ان « قابلية التحول هي القاعدة » . ولم يسبق ان وجه احد مثل الاتهام الشديد الذي وجهه الى مبادىء العلم الوضعي . وكان تأثيره عظيما على الفكر العلمي في اواخر القرن .

بالمقابلة اتجهت التصوفية الهيغلية في وجه الاختبارية والاعتيادية ، وغــزت البلدان الانكلوساكسونية . فلم يجد « هل غرين » ، في اوكسفورد ، فرقاً بين روح كل شخص والروح التي تبعث ، من الداخل ، التطور الكوني . وشدد تلميذه برادلي والاميركي «رويس» بدورهما، الكلام على ان وساطة هذه الروح الكونية وحدها تتيح التعاطف بين شتى الضمائر المتناهيــة . اما نظرية الظواهر التي طلع بها الالماني « هوسرل » ، والتي لم تكتف بمبدأ ديكارت « الفكر اذن انا موجود » ، بل ارادت بلوغ الذات اللانهائي الشامل ، فقد كانت « علم الضمير » وقادت الى علم المعقولات السامي من طريق اخرى .

وعلى الرغم من ان « ليون برونشفيغ » قد قال بأولوية العلم، فقد انتهى هو ايضاً الى تصوفية لانهائية تعاكس الواقعية الاختبارية. وذهبت فلسفة هاملين من المجرد الى المحسوس، بينما سلوا كنز فلسفة برغسون الى الاختبار المباشر المستعجل . ومن حيث هي فلسفة عقلية ، فقد ابرزت ، قبل اي شيء آخر ، وحدة الفكر وعبثت بواعثها المنطقية . واليها توجهت تأثيرات « هيغل » و « رينوفييه » و « لاشلييه » .

« ليس الشك بل اليقين ما يجعلنا مجانين» . هكذا تكلم نيتشه قبــل ان يصبح معتوها . وان هذا لشكل آخر من اشكال الاعتراض على القبول

تعظيم الشخصية

الســهل بمبدأ الايمان بامكانات العلم . انطلق من شوبنهور ، فحاول ابداً الانتصار على «عناء الحياة» . وعندما خيبه « فاغنر » اتجه نحو زردشت الذي تعلم رسالة الانسان» القادر على مواجهة المخاطر ، كيف يصل الى القوة ، اي كيف يرتفع فوق مفاهيم المحبة والمساواة غير المصيبة ، اذ ان المسيحية والديموقراطية مسؤولتان على حد سواء عن هذا « العناء » القنط . « طالما انا حي ، اريد ن تكون الحياة في نفسي وفي كل ما هو سواي ، فائضة ووافرة وحارة جهد المستطاع» . وقد قدمت الرومنطيقية الجديدة والوثنية الجديدة الارستوقراطية والتهربية لتفسير المواضيع الكبرى : موت الله ، خرافة العودة الازلية ، خلق انسانية متفوقة . « احدى الحركتين غير شرطية ، لسوية الانسانية ، المثامل البشرية الكبرى . اما الحركة الثانية ، حركتي ، فهي على نقيض ذلك ، ابراز التناقضات والمهاوي ، والغاء المساواة ، وخلق كائنات كليــة القدرة » . فكان صدى الرسالة عظيماً جداً في اوروبا وحتى في يابان الساموراي . اما « كير كغارد » ، المسيحي القلق ، فقد اقترح قاعدة سلوك تتيح للكائن ان يتحقق بكليته اذ ان الحقيقة ذاتيــة وخاصة وجزئية (وهذا الشعور المسرحي بالوجود قد كدر «اونامونو» و«ماشادو دي آسي ») . وجاء نيتشه بدوره – وقد جعله بعضهم احد مصادر الفلسفة الوجودية – يعظم الـ « انا » ويعين للانســان مهمة التفوق ابداً على اعماله السابقة .

وان موضوع الشخصية ، التي تتفتح في الجهد المبذول ، قد طرقــه كذلك « براندس » و « ليليانكرون » و « جورج » و « دانونزيو » ، لا بل ظهر عند « توماس مان » و « ريلكه » ،

ايضا . وبالحرص على القيم الموجودة في هذا القمر المكر الذي استكشفه فرويد استكشاف العالم ، مثث « الجونية » بصلة الى النيتشية : وقد املت على اندريه جيد تحليلا صادقا حول الصدق لنفسه وللآخرين . واقترح الكالفيني السيفيني فلسفة العمل المجاني في حاضر يجب التمتع به ، واوصى باعتماد الاقتسار ضد الاقتسارات : « يجب ان يكون الانسان طليقا من كل ناموس للاصغاء الناموس الجديد » . وقد قال بهذه الفلسفة « سوينبورن » و « مردث » و « وايلد » و « باتلر » و « هاردي » الذين طاب لهم تعثير المعجبين بالعصر الفكتوري المشرف على نهايته واهتدوا الى لهجات كبار الروائيين الروس العنيفة . وفي جوار هـذه الفئة النشيطة قام « ودكند » و « شو » و « بنفانت » الذين رفعوا القناع ايضاً وانتقدوا المراءاة على اشكالها المختلفة انتقاداً مرا . وبدا شو بصورة خاصة اشبه بموليير جديد نافر من البشر قد لا يتأخر عن اطراء « اشتراكية غير اجتماعية » . اما ريشار ستراوس ، الذي تردد بين التشاؤم واكثر التصوفيات غطرسة ، فقد استوحى زردست ولحّن مؤلف اوسكار وايلد : « سالومه » .

الموقف العملي

اما الذين كان كافيا في نظرهم تحديد الافكار بوجه استخدامها و لجعلها واضحة ، فقد ركنوا الى ما في المعرفة من فائدة ملموسة جداً . وكان هذا الموقف شبيهاً بالاختبارية من اوجه كثيرة . وبردة فعل كذلك ضد التطورية البشرية ، اتجه الفكر الانكلوساكسوني اتجاهاً شبه طبيعي نحو عملية الاميركيين وليم جايمس وديواي القادرة بموجب تحديدها نفسه على الدفع الى العمل : وقد اعتقد بعضهم باكتشافها في تعاليم ماركس نفسه الذي لم يفرض على نفسه مهمة تفسير العالم بل تحويله . واستعمل الانكليزي شيلر كلمة « الانسانية » للتعبير عن موقف يقوم بتوجيه البحث قبل اي شيء آخر نحو اهداف تتفق ومكانة الانسان . وقد مثل جميعهم ما هو حقيقي بما هو مفيد ، وسلموا واوصوا بكافة الاختبارات الانسانية ، بما فيها « الاختبار الديني » ، بنسبة قدرتها على تمين الاعمال . وهي ظروف الحياة مما يفرض الكيان ، وليس الكيان ما يفرض ظروف الحياة ؛ ولكن العمل يسمو على الفكر ، بينما يرى الماركسي الذي بقي امينا لمذهب العقلية ، ان الفكر ، الملازم للعمل ، يسمو عليه بالعلم . فللايمان بالله ما يبرره في احدى الحالتين ، وليس له ما يبرره في الحالة الثانية . فاقترح العمليون من ثم تعليماً تفاؤليا التقدم في احترام القيم العريقة في القدم . ويمكن ان يفسر ذلك تفسيراً مختلفاً : فالعملية تساعد على اعادة الحياة العاطفية ومحاربة الحتمية العلمية ، كما تساعد على ايجاد ماكيافلية عمل حقيقية والسلوك بسهولة بموجب الضمير .

الثورة البرغسونية

بينما ارتأى العمليون ، شأن بورو وكثيرين سواه ، عدم لزوم السنن الطبيعية ، متمسكين بمفهوم الفاعلية ، قامت هناك فلسفة استوحت العاطفة وهدفت الى تخطي موقفهم بالسمو على الاختبارية والعقلية على السواء . فكأنما حدثت ، بحسب « له روا » ، منذ صدور كتاب « محاولة في معطيات الضمير المباشرة » (١٨٨٩) ، ثورة حقيقية

شبيهة بـ « الثورة الكانتية » او حتى بـ « الثورة السقراطية » ، فكانت « ثورة على طريقة كوبرنيك » في نظر « وليم جايمس » الذي اعلن في السنة ١٩٠٧ : « لقد مات مسخ المذهب العقلي . فقد قتله برغسون بضربة قاضية » . وعلل بيغي بقوله : « لقد حطم قيودنا » .

انها لعملية حدسية نوعاً ما : فالمقصود هو معرفة الـ « انا » لا بتحليل قد يشوهه بتفكيكه اياه ، بل بواسطة « استماع » الى الضمير نفسه ؛ لان الـ « انا » لايقع تحت قياس يعطي الزمان دون الديمومة . وهكذا فان باستطاعة الحدس وحده التمكين من اكتشاف الـ « انا الغامض » .

والحال لا تتميز ظواهر الضمير في تعاقبها، بل هي تتعاقب دون ان تتميز : هنالك جريان لا آخر له في هذه الديمومة ؛ هذا هو مد الحياة بالذات، هذا هو « الاندفاع الحيوي » . وفي كتاب « التطور الخلاق » الذي صدر في السنة ١٩٠٧ رفض برغسون الوجوب الآلي نهائياً . « لقد انقضى قرن كامل منذ اختراع الآلة البخارية ، ونحن بدأنا اليوم فقط نشعر بالهزة العميقة التي احدثتها فينا ... » . فـ « الانسان العارف » ليس فقط من ثم هو « الانسان العامل » . واذا الغريزة حددت الصعود نحو الاشكال العليا ، فالعقل يدفع اليها ؛ ولكن المستقبل يبقى غير معين ، وحرية الفكر كلية ؛ واذا ما بدت الحرية غير قابلة التوفيق مع سنن العلم ، فرد ذلك الى ان هذا الاخير لا يعبر الا تعبيراً ناقصاً عن الواقع ، الواقع غير المستمر ؛ اذ ان الاستمرار لا وجود له الا فينا ، في جريان الضمير الذي هو نوعية وديمومة .

كانت نظرية المعرفة ونظرية الحياة من ثم متلازمتين في مذهب يجعل الانسان في اعلى سلم الكائنات ، لانه يمتلك الضمير الذي يتيح له الوصول إلى المطلق ، إلى الله نفسه . وفي السنة ١٩٠٥ ، اظهر برغسون « الحاجة الى فلسفة اقرب الى المعطيات المباشرة من الفلسفة التقليدية » . ولما كانت هذه الفلسفة معاصرة لنظرية الجزئيات ، فقد اعتقدت ان بمقدورها استخلاص حرية ارادة على مستوى بشري من لا حتمية الجزئيات . ورجعت البرغسونية عن الحكم الذي اصدره كانت وكونت على علم المقولات ، فجددت السيكولوجية واسهمت اسهاماً رئيسياً في نقد الايمان المطلق بامكانات العلم .

النهضة الدينية

برزت غزوة ما هو مخالف للصواب ، كما في العهد الملكي بعد الثورة ، بضخامة عدد الاهتداءات الدوية ، التي كانت الكاثوليكية المستفيد الاكبر منها ، كما في السنوات ١٨٠٠ ـ ١٨٢٠ . ففي غضون القرن ، وجهت الكاثوليكية كلامها الى الجماهير بصورة خاصة ؛ اما اليوم فهي اكثر استمالة لاولئك الذين لم تشبع الوضعية رغباتهم ، وتقززت نفوسهم من الواقعية والطبيعية الادبيتين . ويرد ذلك الى اثر الرواية الروسية (روايات دوستويفسكي بصورة خاصة) التي روجها كتاب « فوغويه » في السنة ١٨٨٦ ، فوغويه الذي عرف الكثيرين كذلك بفاغنر والثالوث الشمالي العظيم : « ابسن » ، « بجرنسون » ، « ستريندبرغ » . ولكن تولستوي نفسه ابتغى الرؤية بناظري الفلاح الروسي ؛ شعر بالحاجة الى التألم بكل تواضع

الجهلي مع البؤساء . ومن جهة ثانية انتقل سترندبرغ من الالحـــاد والوقاحة الى الدين بقراءته مؤلفات سفندنبورغ : فنشر في السنة ١٨٩٧ كتاب « جهنم » ، الذي وصف فيه آلامه النفسية المبرحة ، واكتشف « طريقه الى دمشق » . واهتدى كذلك « لوغازارو » الذي قرت نفسه من المدرسة الواقعية الايطالية ، و « هويسمنس » الذي تخلص بذلك من تسلط فكرة المرض على عقله ، والشاعر كوبيه ، والاشتراكي هوبتمن ، وجورجنسن الذي كان « فرلين » مصدر وحي له في كتاب « اهتداء » ، والناقد الادبي « برونتيير » الذي استهواه القرن السابع عشر الكلاسيكي والمسيحي في نظره ، وكلوديل ، وغوساير وآدي المتصلون بالرمزية . فقد كتب هويسمنس في السنة ١٨٩٥ : « بعد ان عرضت امراضي النفسية على كافة مستشفيات الافكار ، ذهبت في النهاية ، بنعمة الله ، الى المستشفى الوحيد الذي يضجعونك فيه ويعتنون بك ، الى الكنيسة » . ونذكر ايضاً اهتداء كان له صداه العظيم ، اعني بـه اهتداء بيغي ، عند الانتهاء من قضية « دريفوس » . فان بيغي هذا قد اعلن في السنة ١٩٠٠ : « سوف نقصي بحزم هؤلاء الملافنة العائدين من روما الذين يوصوننا بانكار العلم والعقل ، والانقياد الدائـــم ، والصمت المتحذر والتوقيري » . وهو الذي كان اشتراكياً بالامس ، فنابذ الاشتراكية ، وجوريس وما اعتبره عداء للاكليروس وحباً للسلم باليين ، بل متؤومين ، لان مسائل الخطيئة والنعمة تسلطت على عقله . لذلك كان « مستقبل العلم » في نظره كتاباً غاية في المراوغة ، وتكبياً دائماً عن الحية ، وسوء ائتمان . فأصبح ، كما يؤكد « لويس جيليه » ، « ذاك الذي يوحي لي صورة القديس بولس الحية » .

التحق هؤلاء المهتدرن اذن بجماعة المؤمنين . فهذا هو الراعي فرنسن ، الروائي الرقيق الذي الّف « جورن اوهل » و « هيلينجلاي » ؛ وهـــذا هو الصوفي « فرنسيس طومسون » الذي يضاهيه رقة ؛ وهذا هو هيلير بلوك ، واضع المحاولات الحماسية ؛ وهذا هو « ليون بلوا » الذي اطلق على نفسه اسم « أفاق الرب » وكان جريئاً في ادعاء الرؤيا ، قادراً على كل بغض عنيف ، معذباً بالبؤس والالم . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان المفكرين الكاثوليك اختلفوا على طريقة اقعاد الايمان اقعاداً افضل ، فشدد « اولّيه ـ لابرون » على دور الارادة ، بينما لجأ موريس بلونديل الى سمو الله لسد الفجوة بين الارادة وقدرة الضمير .

وبالمقابلة برز تجدد في الفن الديني . فان تاريخ القديسة جنفيف الذي رسمـــه « بوفي دي شافان » على جدران البانتيون ليس قط عمل فن مقدس ، ولا لوحـــة « المسيح والملائكة » لـ « مانيه » ، ولا لوحة « الصلب » لـ « سيزان » . وباستطاعتنا تعيين السنة ١٨٩٠ تاريخاً لنهضة هذا الفن الجلية بفضل لوحة موريس دونيس ، « السر الكاثوليكي » . ثم سار ديفاليير عـــلى خطاه ، واشار ليون بلوا منذئذ الى بلاغة « روو » . وقبيل الحرب العالمية انتصبت ابنية العبادة الاولى المتميزة باسلوب جديد حقاً ، وبدأ باريليه يجدد فن صناعة زجاج الكنائس .

وكانت نهضة الموسيقى الدينية افضل ظهوراً ايضاً . وكان اصلاح الترتيل الطقسي نتيجة لنشر الانغام الغريغورية الذي اعاد الترتيل الكنسي معناه الصحيح . وجعل الوحي الصوفي من

تلامذة مدرسة « نيدر ماير » ، و « وبدور » و « فيرن » و « فرانك » مجددي الارغن : فعبروا بشكل بساطة عن اندفاعات تقوى متينة لا مواربة فيها . وفي « مدرسة المرتلين » عند « فنسان دندي » تسببت مأساة الحياة الداخلية في وضع مؤلفات اشد الحاحا .

النزعة المحافظة ضد النزعة العصرية

سار موريس بلوندبل في الخط الاوغسطيني ، في حال ان الكنيسة التي انشغلت في عهد لاون الثالث عشر بخطر الايمان المطلق بامكانات العلم ، ساندت الحركة التومية الجديدة التي ابتغت الاستعاضة عن تأكيدات المثاليين المفروضة بتحقيقات العلوم العصرية ، ورغبت في تحليل نشاطات المسيحي الاجتماعية .

ولكن ما هو السبيل للتوفيق بين التقليد والعصر؟ لقد اعرب بعضهم مرة اخرى عن املهم ، في عهد « الانضمام » الى الثورة الفرنسية وبراءة « الاشياء الجديدة » ، وفي الوقت الذي اقتصر فيه « اوغست ساباتيه » اللاهوتي الكالفيني القدير ، المسيحية على حالة نفسية داخلية ورفض كل ما لا يمكن فرضه الا باسم سلطة خارجية وانتهى الى مسيحية بدون عقائد وطقوس ورؤساء . وعلى نقيض ذلك ، وفي مناخ عملي ، اتخذت « النزعة الاميركية » التي نادى بها الاب « كلاين » ، بمجامع القلب ، لا بل ووجهت امكانية عقد مؤتمر للتقريب بين الاديان . ولكن لاون الثالث عشر استقبح في السنة ١٨٩٩ موقف الاحبار في ما وراء الاطلسي آخذاً عليهم تضحية الفضائل السلبية على مذبح الفضائل الفاعلة . ولكن النزعة العصرية تسلطت بالرغم من ذلك على العقول في المعاهد والمؤتمرات الكاثوليكية التي حاولت النهوض بعلم عقلي للدفاع عن العقائد المسيحية ، يمكن من محاربة العقليين في عقر دارهم . فكانت مؤلفات مولو ولويس موشين وألفرد لوازي الهادفة الى تفسير الكتاب المقدس نتيجة التأويلات التي ما كان رينان نفسه ليتبرأ منها في الارجح . وارتأت لاون الثالث عشر وضع حد لذلك برقيمه « الله العلي المنزه » الذي انكر كل خلاف بين اللاهوت والعلم . ولكن الفلاسفة « له روا » وبلوندبل والاب لابرتونيير قد اعتقدوا هم ايضاً بالاهتداء الى الله باندفاع الكائن وحده : فالتومية لم تشبع رغباتهم . وانتشرت في ألمانيا كاثوليكية جديدة ، هي شبيهة بالعلمية على الرغم من ان لاون الثالث عشر قد اصدر حكمه على هذه « النفسانية الجذرية » . وعمم الاب اليسوعي تيرل النزعة العصرية في انكلترا حيث احرزت « الكنيسة المتسامحة » نجاحات جديدة ؛ وقد انضم اليها مشايعون عديدون في ايطاليا : وقد فسر فوغازارو هذه الرمزية ببراعة في رواياته . وحين اقصي لوازي عن المعهد الكاثوليكي في باريس ، اصدر السنة ١٩٠٢ كتاب « الانجيل والكنيسة » : فاتهم هذه الاخيرة بمناقضة روح الانجيل واعتبر رينان « المعلم الاول للعصريين الفرنسيين » . وبينما ذكر ليون الثالث عشر قبل موته « بأن العلم البشري لم يجب على المسائل الكبرى التي تتعلق بمصالحنا السامية » ، استصدر الديوان البابوي مرسوماً يعدّد ٦٥ « خطأ وضع العقبات حول العلوم المقدسة وتفسير الكتاب المقدس واسرار الايمان الرئيسية » .

في عهد بيوس العاشر وطدت النزعة المحافظة مواقعها. فان براءة السنة ١٩٠٧ نسبت الى النزعة العصرية انها « تجمع كافة الهرطقات » . وقد علق عليها اناتول فرانس ساخراً بما يلي : « يتعذر على الانسان ان يقدر حق قدرها حكمة البابا بيوس العاشر الذي اصدر حكمه على دروس تفسير الكتاب المقدس لأنها منافية الحقيقة المنزلة ووخيمة العاقبة على العقيدة اللاهوتية القديمة ومميتة للايمان » . ثم تناولت ردة الفعل كافة اشكال الكاثوليكية الحرة ، ولا سيما في فرنسا حيث بدا « الانضمام » قضية خاسرة منذ انفصال الكنائس عن الدولة . فهكذا صدر الحكم على مطبوعة «الاخدود» ؛ وهكذا حذرت براءة السنة ١٩١٢ الكاثوليك من اخطار العمل المشترك بين الطوائف الدينية على الصعيد الاجتماعي .

الا ان النزعة العصرية لم تفض إلى حركة هرطقية واسعة . فأمام انشقاق قليل الشأن عددياً، حافظت السلطة الروحية على مواقعها التقليدية التي بقيت جماهير المؤمنين متمسكة بها . وفي عهد بيوس العاشر ، الكاهن القديس الذي كرس نفسه للدفاع عن العقيدة بدون تساهل ، نرى الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت اقل حرصاً ظاهراً على تجديد الروح المسيحية منها في الماضي، تهدف في الدرجة الاولى الى ان تبقى خير معتصم في خضم الارتيابات والاضطرابات .

النفسانية والمادية امام التطور البشري

اذا سلمنا ، كما يسلم ماركس ، « بأن الآراء السائدة في زمن من الازمنة لم تكن يوماً سوى آراء الطبقة المسيطرة » ، فقد يجدر بنا معرفة ما اذا كانت ردة الفعل التصوفية والروحانية لا تبرز بالدرجة الاولى في الاوساط التي تقلقها « الاشتراكية العلمية » : استفادت البورجوازية من العلم ، فلم تأنف من الايمان بامكانات العلم المطلقة ؛ ولكن اليست الخشية من مادية معينة ، قد يحسن او يساء فهمها ، وتنذر بحتمية تقضي بوجوبها ايام النظام الاجتماعي القائم ، دافعاً لها لأن تعتصم بارجحية وعرضية قادرتين على انقاذ حرية الفكر وبالتالي على استحقاب المستقبل ؟ هذا ما ارتآه « رومان رولان » : « منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وبعد ايام حزيران ١٨٤٨ التي سالت فيها الدماء غزيرة ، اخذت البورجوازية تفقد محبة ذاك التقدم الذي لم يتوقف قط من اجلها ، وذاك العقل ، الممتنع التبدل ، الذي بذلت جهدها بدون تروٍ في سبيل إرساخ سلطته . وهي الطبقات الصاعدة ، اي انباء البروليتاريا ومدارسها الاشتراكية ، من وضعت يدها عليها لحسابها » . وفي « اوهام التقدم » سوف يتولى جورج سوريل ، فيما يعنيه ، تقديم البرهان على ان التفاؤل القائل بامكانات العلم المطلقة انما هو انتاج بورجوازي ، ولتحذير « الطبقة الصاعدة » من نظرية مجففة ، وفي الوقت نفسه ،وبصورة خاصة، انتقاد العلمية ، وهي « التعبير الاخير الذي توصل اليه الفكر البورجوازي » . « ان هذه الفلسفة توافق موافقة كلية كل حديث نعمة يرغب في الانتماء الى عالم متساهل جداً ، بفضل دمائته ، وثروته وقحة لجاحه » . وقال « جوريس » على طريقته الخاصة : « ليس بعد اليوم سوى طبقة واحدة تستطيع اعطاء الفكر شكلا اجتماعياً : هي البروليتاريا » . ولذلك حرص

لينين على ابراز الاهتمام الذي يتوجب على هذه الاخيرة ابداؤه نحو تحقيقات العلم . ولقد سخر من « العاصفة » التي اثارها كتاب هكل « في البلدان المتمدنة » وعلل « اللاهبية الاجتماعية الحقيقية » التي ينطوي عليها هذا المؤلف ابان « صراع المادية ضد التصوفية واللاادرية » . واثبت اسباب ازوراء الفلسفة في الفكر « الخالص » وحصر مهمتها في التبصر في ذاتها بدلاً من التبصر في الواقع ، خوفاً من ان يخطئها الواقع الاجتماعي . وفي رأيه ان الهرب امام نظرية المعرفة المادية قد ارتدى اشكالا مختلفة جداً ، لا سيا وانه يسهل جمع حلقات السلسلة التي تؤدي من النسبية العلمية الى العمليا ، الى التصوفيات الكثيرة والروحانية القائلة بتفوق الايمان على العقل . فالتصوفية ليست سوى شكل محصص من اشكال مذهب تفوق الايمان على العقل، الكلي القدرة ، الذي يعتمد على منظمات كبرى ولا يزال يؤثر على الجماهير تأثيراً مستمراً ، مستفيداً من اقل غوايات الفكر الفلسفي .

ولكن ما لا يمكن انكاره ، على كل حال ، ان المفهوم النفساني ، الذي احتفظ من جهة ثانية بانصار اقوياء ، قد الب في النطاق التاريخي عدداً كبيراً من خصوم الماركسية . اجل لقد امعن « ماكس وَبر » النظر في العلاقة بين « علم الاخلاق البروتستانتي وروح الرأسمالية » وامسك عن « احلال تفسير مادي من طرف واحد محل تفسير روحاني... من طرف واحد ايضاً » ؛ ولكن « درويسن » يجزم بأن « تأمل ومعرفة الاشياء الماضية لا وجود ولا ديمومة لها الا في الفكر المتناهي » ، و « روه » يضع في الحاضر « مركز رسم المنظور » ، و« توينبي» البرغسوني المقتنع ، سينتهي الى نوع من التاريخ اللاهوتي . اما « بندتو ـ كروتشي » فيعتبر ان التاريخ « يدخل في مفهوم الفن العام » ، وانه « روحاني » ، وان عليه اكتشاف الاندفاع الخلاق مرة ثانية ، كما اراده « فيكو » (الفن حدس خلاق ، وليس ، كما حدده « فرنسكو دي سانكتس » تلميذ هيغل ، « نتاجاً لاشعورياً من نتاجات روح العالم في فترة معينة من فترات وجوده)، وليس من تاريخ ، في نظره ايضا، سوى التاريخ المعاصر : « لأن موضوعه ، مهما بلغ من قدمه ، يعيش في فكر المؤرخ بهوى الحاضر نفسه » . فنحن من ثم امام تاريخ فلسفي ونسبي كان ردة فعل للتاريخ الوضعي الاسلوب والماركسي المفهوم .

رأى كروتشي في الواقع الاقتصادي نفسه عملا من اعمال الارادة . ولكن الاقتصاد السياسي ، فيما يعنيه ، يعيد التفكير في مسائله نفسها . فلما لم يعد الايمان بالتوافق ممكناً ، بحسب حلم المدرسة الحرة ، فقد فُرِّق بين الاقتصاد الخالص ، المجرد ، المنظور اليه نظرة توازنية خلوا من المغزى العملي، وبين الاقتصاد النشيط الذي يستلزم الاختلالات ويخضع لحاجات الانسان اكثر من الاقتصاد الاول . وعاد العلماء الى كورنو ، فاسندوا برهانهم الى قوة آخر رغبة اشبعت : فأراد « الفرد مارشال » « الاهتمام بعواقب الانسان ... الانسان المركب من لحم ودم » . هذه هي نظرية القيمة - الفائدة التي جعلها الهامشيون مقابلة لنظرية القيمة ـ العمل الماركسية : وقد استنتجوها من المبدأ النفساني ، باعتبار انه«الانسان الاقتصادي» يعمل في اتجاه مصلحته المدركة

غير ادراك . وهناك المدرسة الرياضية ، او مدرسة لوزان ، مع « جيفونس » و «والراس » و« باريتو » ، التي يؤول كل شيء فيها الى مسائل توازن تطرحها آلية المقايضة دون غيرها ؛ ومدرسة فيينا او « منجر » السيكولوجية التي واصل تعليمها « بوم - باورك » و « فون وايزر » اللذان يعتبران الجهد المبذول والتضحية المقبولة امرين جوهريين. فاعتقد شارل جيد في السنة ١٩١٣ ان بامكانه كتابة ما يلي : « لم يعد قط من اقتصادي يؤمن بأن القيمة ثمرة العمل ... فالرغبة هي سبب القيمة الاوحد ... » .

لقد خضعت مميزات الآليات الاقتصادية من ثم لجدل حام ، وساد الارتياب حول الاقتصاد المعروف بالاقتصاد الكلاسيكي . فلم يبق قط هنا سوى ارجحية بسيطة تخفف من تفاؤل الامس الذي وجه اليه ماركس والوقائع ضربات خطيرة .

الفصل الثاني

الدول الاستعمارية والحمى القومية
أعراض التقهقر الاوروبي

في الوقت الذي كانت فيه عوامل الحياة تتجدد باطراد ، أخذت اخطار مخيفة تتهددها باستمرار .فالاقتصاد الرأسمالي الذي ركبته حمى التوسع والانبساط يخضع لسنة الحشد والتجمع ويسعى دوما انقطاع الى توحيد السوق العالمية مع اثارته الروح الامبريالية التي اخذت تلم الدول الاستعمارية الكبرى بعضها على بعض . وفي الوقت ذاته ،نشهداحتداماً كبيرا في المشاعر القومية التي أخذت تجيش وتضطرم في نفوس هذه القوميات او الاقليات المستضعفة . وهكذا أطل على العالم احتمال قيام حرب عامة واستبدت الفكرة الى حد بعيد بأذهان البشر وسيطرت على تفكيرهم اليومي .

الاقلية الرأسمالية تزداد بأسا وحولا ونوسعا

ساعدت الازمة المالية التي عانى منها العالم طويلا بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ في تكوين تكتلات صناعية ومالية . وبالرغم من رجوع العافية الى الناس واستئناف النشاط ، فلا يزال مسيطراً على النفوس الخوف من وقوع ارتكاسات تجر وراءها ركوداً جديداً في الاعمال وهبوطاً اكبر في نسبة الأرباح ومعدل المكاسب . فالازمات التي كان يتجدد وقوعها بصورة دورية كانت تأتي فعلها في مثل هذا المصير الذي لم يكن من السهل تفاديه . فالأزمة المالية التي وقعت عام ١٩٠٠ / ١٩٠١ تسببت بتكوين ٢٩ اتحاداً احتكاريا في الولايات المتحدة الاميركية . ففي سنة ١٩٠٩ ان ١٪ من المشاريع الانشائية كانت تستخدم ٣٠ بالمائة من مجموع اليد العاملة كا كانت تستعمل ٣٨ بالمائة عام ١٩٠٤ . وفي تلك الغضون ، وقعت أزمة ١٩٠٧ التي سجلت ارتفاعاً في التكتلات التجارية

ارتفع عددها بين ١٨٩٦ – ١٩١٠ في المانيا وحدها من ٢٥٠ الى حوالي ١٠٠) ؛ وفي سنة ١٩٠٨ كان واحد في المائة من المشروعات الانشائية يستخدم ٣٩ بالمائة من اصحاب الاجور ويسيطر على ٧٧ بالمائة من القوى المحركة. وهذا التطور يبدو على شكل اوقع وصورة أفعل في النفس في بعض البلدان الاخرى كروسيا واليابان اللذين حاولا قطع المراحل بسرعة . وبالرغم مما بلغ من اتساع ورحب حركة المنافسة ، فقد بقيت مع ذلك، مرتبطة ، على اقدار مختلفة بأقلية من المحتكرين . ان نصف ثروة الولايات المتحدة الاميركية القومية هي في يد ٢٥ الف فرد من افراد الشعب الاميركي .

فسيولة الرأسمالية النقدية هي التي استطاعت أن تؤمن لحسابها مثل هذا الحشد . هنالك بعض المصارف الكبرى ، لا يزيد عددها خمسة او ستة على الاجمال ، هي التي تستبد بأمر الدول الكبرى في اوروبا كما ان للولايات المتحدة الاميركية الخمسة الكبار *The Bib Fives* من هذه المصارف. فالبنك الاهلي الالماني يشرف على ٨٧ مصرفاً ثانوياً في البلاد كما كان يسهم في ادارة ٣٠ مصرفاً آخر ، عام ١٩١٠ . هنالك عدد لا يحصى من الاتفاقات والمشروعات ربطت ، بشكل آخر ، الاستثمارات الصناعية بهذه المصارف التي فتحت لها باب الاعتمادات المالية . فالبعض منها اتبع الحشد الافقي (امثال : دورمان ، لونغ وبلدوين في الميتالورجيا او الصناعات الحديدية ، وبرادفورد دايرز في صناعة الاصباغ والالوان ، وشركة *Cable Makers* لدى البريطانيين ، كما ان البعض الآخر آثر الحشد الشاقولي او العمودي ، فانطلقت كروب من صناعة الحديد لشراء مناجم الفحم ولتجارة الفحم والغاز ومشتقاته ، بينما بتصرف تيزين وستيز للتخصص بتجارة الفحم من استخراج وتسويق وتنفيق، وبنشيء في هذا السبيل شبكة من الخطوط الحديدية .ولم يقنع وليم هسكيث لفر،مؤسس شركة *Port Sunlight* و *sunlight* ان ينشيء امبراطورية له من فروع هذه الشركات في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية . بل ابتاع له مزدرعات واسعة في افريقيا والفيليبين وانشأ فيها مصافي لتكرير البترول ، كما اهتم بانشاء مراكز لصيد السمك ، وانشأ صناعة المرجرين او السمن النباتي بحيث اصبح بتصرف بأكثر من مليون ليرة انكليزية عام ١٨٩٠ ، وبعشرين مليون عام ١٩١٣ .

ونشاهد منذ الآن التفوق الساحق الذي حققته في اليابان شركتان يابانيتان هما : الميتسوبي والميتسوبيشي . وجبابرة المال على شاكلة مورغان وفندربلت وروكفلر ، سيطروا ايضاً على مرافق صناعة الميتالورجيا وعلى الطاقة الكهربائية وعلى صناعة البترول في اميركا . لا يمكن ان نغفل عن ذكر هذه الشركات العقارية الضخمة وشركات المخزن الكبرى وشركات التأمين على الحياة وشركات صنع الاسلحة . فقد وحد باسيل زهاروف الذي رفعه ملك انكلترا الى رتبة النبلاء بين شركة نوردنفلت وشركة مكسيم ، كما ضم ، فيما بعد ، مكسيم الى فيكرز ؛ ورئس البرت فيكرز اتحاداً دولياً من كبار رجال الاعمال من بعض الشركاء فيه بتلهم وتريني ، كما أن شنيدر وكروب يشرفان على اعمال شركات *Poutilov* و *Skoda* . والكرتل الدولي لصناعة

البارود وقع تحت اشراف اتحاد نوبل ودوبون دي نمور .

اما الارباح التي لا يزال بحثها العلمي في مرحلته الاولى ، فمعدلها يختلف نسبة بين سنة واخرى ، ومن قطاع الى آخر . فشركة دوبون مثلا حققت ربحاً صافيا بلغ ٥٠ مليون دولار بين ١٩٠٢ - ١٩١٢ . وبفضل الطريقة المعروفة بارساء رأس المال نرى شركة صنع الفولاذ الاميركية ترفع رأسمالها من ٦١٢ الى ٧١٧ مليون دولار وتصدر اسهماً بـ ١٤٤ مليون دولار بعد ان امتصت شركة مناجم بحيرة سوبيريور البالغ رأسمالها ٩٢ مليون دولار وتطورت الى شركة جديدة رأسمالها ١٤٨ مليون دولار . ويعترف كروب بأن ارباحه بلغت ٢٠ مليونا صافيا عام ١٩٠٣ و ٣٤ مليونا عام ١٩١٣ - ١٩١٤ .

وراح فرقاء من أصحاب المصارف يخططون لهجوم نموذجي بعد ان اخذوا يتقاسمون فيما بينهم او يتنازعون في كل مكان ، المشروعات الاستثمارية ذات الاهمية . نحن نجهل الكثير من حوادث هذه المعركة ودقائقها وهي معركة خاضوها للسيطرة على الخامات الضرورية والاسواق العالمية . هنالك حرب صامتة كان من اهدافها السيطرة على التصدير ، وأخرى رمت للسيطرة على الكبريت واخرى للتحكم بالتبغ دارت رحاها بين الشركات الاميركية والانكليزية . واحدى هذه المعارك الاكثر معرفة لدينا في دقائقها وتفاصيلها هي معركة النفط او البترول ، نشبت اول ما نشبت ، بين شركة ستاندارد اويل ورويال دتش شل من جهة ، وبين شركات نوبل - روتشلد . فوقائعها البارزة تدور حول نفط القفقاز وبين المناطق البترولية الجديدة التي تسيطر عليها الولايات المتحدة في المكسيك والعراق وايران . واتخذت هذه الحرب شكل صراع بين الانكليز والاميركيين . وقد شعر الرأي العام بمثل هذا الصراع الواسع المدى بين الدول دون أن يتبين تماماً مداه ، وهو صراع ان لم يهدد السلام مباشرة في العالم فقد زرع مع ذلك الاضطرابات في كثير من الدول .

ضعف اوروبا في الاسواق العالمية

اخذت المنافسة الاقتصادية بين الدول الاوروبية الكبرى تشتد وتحتدم ، وهو وضع يمكن رده الى الصعوبات والعراقيل التي اعترضت سياستها التوسعية الامبريالية .

ويبدو ان اوروبا اخذت تتلمس بعض مواطن التأخر والضعف النسبي في مركزها ونشاطها . ففي عام ١٩١٣ كانت اوروبا تسيطر على ٨٠ بالمائة من مجموع النقل البحري وهي نسبة لا تعادل سوى ٤٢ بالمائة من مجموع حركة النقل في العالم ، وهو معدل محترم الا انه آخذ بالتقهقر والهبوط تدريجيا ، وهو ادنى من حصة اميركا الشمالية (٢٦ بالمائة) بالنسبة لفارق السكان بين القارتين . لا تزال بريطانيا العظمى تحتفظ بمركزها الممتاز في صناعة النسيج والحياكة ، الا انها عجزت كما عجزت المانيا نفسها عن الاحتفاظ بالاسبقية في انتاج الفحم الحجري والميتالورجيا ، وهي اسبقية صارت الى الولات المتحدة الاميركية التي سجلت في مجال الطاقة الكهربائية سبقاً

اكبر وأبعد .

وأخذت اوروبا تفقد شيئاً فشيئاً القدرة على الاكتفاء الذاتي وراحت تعتمد اكثر فاكثر كل سنة على اقطار اخرى في العالم ليس في الخامات التي هي بحاجة اليها فحسب بل ايضاً في المواد الغذائية التقليدية . ونلاحظ ان بريطانيا العظمى لم تعد تعول على محاصيلها الزراعية ، الا بنسبة ٦٠ بالمائة ، وان بلجيكا تستورد عام ١٨٩٠ نحواً من ٥٥ بالمائة من القمح و٧٥٪ بين السنوات ١٩١٠ – ١٩١٤ .

ان ٦٠ بالمائة من التبادل التجاري يقع في داخل اوروبا او بين هذه الدول والدول الاخرى في العالم . الا ان وضع اوروبا من هذه الناحية هو اقل من قبل لصالحها . والجدير بالملاحظة هنا التأخير الذي نلاحظه في موقف انكلترا التي كانت تنتج ستة اضعاف ما تنتجه الولايات المتحدة من الفحم ، عام ١٨٧٠، بينما انعكس الوضع بينهما عام ١٩١٣، اذ نقص انتاجها من هذه المادة الى الضعفين من انتاج اميركا . فاذا ما عرفت ان تحتفظ بالمرتبة الاولى الى عام ١٩١٠ بانتاجها الحديد ، فقد جاءت عام ١٩١٣ ، في المرتبة الثالثة ، بعد الولايات المتحدة والمانيا . ومجموع الحركة التجارية انخفض معدلها من ٢٣ بالمائة حوالي عام ١٨٧٥ ، الى ١٥ بالمائة عام ١٩١٣ ، وهبطت حصتها من النقل البحري الى الخمس بعد ان كانت الربع . ومن جهة اخرى بينما يأخذ الميزان التجاري في البلدان الواقعة الى الشرق من المحيط الاطلسي (هو ١٠ بالمائة لالمانيا و ٢٠ بالمائة لفرنسا و ٣٠ بالمائة لانكلترا) تسجل حركة الصادرات في الولايات المتحدة ارتفاعا كبيرا . واوروبا مدينة بما لها من قوة في ميزان المدفوعات لاستثماراتها العديدة في الخارج . فهي تحتفظ بثلاثة ارباع الثروة المنقولة ، بينما بريطانيا العظمى وحدها تبز الولايات المتحدة في حساب الثروات الوطنية . وقد تبين من عملية حسابية ان الفرد الواحد ينفق في السنة ٢٣ الف فرنك بينما لا ينفق الفرد الانكليزي سوى ٢٠،٧٠٠ ، والفرد الفرنسي سوى ١٤،٥٠٠ فرنك . وهذا انما يعني انه اذا كانت اوروبا لا تزال تبز سكان الولايات المتحدة استهلاكاً في العام للمواد الاستهلاكية من اي نوع كانت ، فلا يزال الاميركيون في الطليعة بالنظر لعدد الفرقاء المتناولين . والشعور السائد في اوروبا هو ان ما تتمتع به من مستوى اعلى في العيش ، يعود الفضل فيه لهذا التراث الذي خلفته لها العصور الماضية . ان اي تطور من هذا الشكل من شأنه الا يساعد قط على قيام حالة من التفاهم بين الدول ولا السلام الاجتماعي .

استثمار اقوى للبلدان الجديدة

لما كان تم تقريبا اقتسام كل الارض القائمة على كرتنا الارضية ، فقد انصرف الاستثمار اكثر فاكثر الى استثمار بطن الارض وثرواتها المخبوءة في هذه المستعمرات . فبين ١٨٩٠ – ١٩١٣، زاد طول شبكة الخطوط الحديدية التي انشئت في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية (٢٦٥،٠٠٠) كلم مقابل ٣٢٢،٠٠٠ كلم في المستعمرات وفي البلدان الاخرى المستقلة او المتمتعة بشيء من الاستقلال الاداري . فبينما

يرتفع ، في المدة نفسها، مجموع صادرات الدول الصناعية من ٢٢ ملياراً الى ٧١ مليار فرنك، زادت هذه الحركة ٢٤٪ داخل المجال الذي يسيطر عليه رأس المــــال ، و ١٤١٪ في هذه المنطقة التي لا يكاد يوجد فيها اي اثر يذكر لهذا الرأس المال . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار معدل الزيادة في حركة المبادلات التجارية نرى ان الدليل ١ في عــام ١٨٩٥ ارتفع في اوروبا الى ٢ عام ١٩١٣ ، والى ٤٤٣ في الارجنتين ، والى ٤٨٠ في اليابان . فمن اصل ٢٢ دولة سجلت تجــــارتها الخارجية مليار فرنك واكثر عام ١٩١٣ هنالك عشر بينها ، باستثناء الولايات المتحدة ،تقع خارج اوروبا.

وقد تركز الانتباه حول الاقطار التي تستطيع تقديم الخامات والمواد الاولية او تصلح للتجهيز الصناعي والتقني . ومن الامور التي لها دلالتها ان الولايات المتحدة رفضت اعطاء الفيلبين استقلالها بعد ان وعدتها به، في الوقت الذي انصرفت فيه لمد هذا الارخبيل وكوبا وبورتوريكو بما تحتاج اليه من عدة وعتاد وتجهيزات. وقد قبلت بلجيكا من جهتها ، هبة الكونغو الذي كشف عن غناه بفلزات الحديد وإنتاجه لها . وقد اتجهت اطماع الدول الكبرى الى المغرب وطرابلس الغرب حتى الى تركيا ، ولم يمتد شمالي افريقيا من جبل طارق الى قناة السويس ، ان وقع تحت احتلال الدول الاوروبية . كذلك اتجهت حركة التبادل التجاري في انكلترا بالاحرى ، نحو الهند وبـــلاد الدومنيون ومقاطعات افريقيا الاستوائية ودول اميركا الجنوبية ، بينما لم تسجل هذه الحركة مع دول القارة الاوروبية والولايات المتحدة الاميركية سوى تقدم خفيف . وانصرفت جهـــود فرنسا الى ادخال تحسينات محسوسة على وسائل ووجوه استغلال امبراطوريتها الاستعمارية وهي سياسة قامت بخدمتها وتمهيد السبل لاحقاقها ، الجهود التي قام بها بعض رواد الاستعمار الفرنسي أمثال اتيين وجونار ودومر، كما اتجهت هذه الجهود لتقوية المصالح المصرفية والصناعية والتجارية. وهكذا اطلت علينا الجزائر كبلد تتوفر فيه محاصيل الكرمة وبواكير الفاكهة والمزيــــد من انتاج المعادن . وقد زاد انتاج البلاد من القمح مع بقاء المساحات الصالحة للزراعة على وضعها ، وادخلت وسائل جديدة على تخصيب التربة ورفع قدرتها الانتاجية . وقد جلبت زراعة الزيتون وثروات البلاد من الفوسفات الانظار الى تونس . وقد سار دومر قدماً في هذا المجال في الهند الصينية ولجأ الى فرض رسوم عالية على المشروبات الكحولية ، وعلى الملح لتغذية صندوق هــذا القطر الذي يتمتع باستقلال اداري ، كما عمد الى تنشيط حركة الانشاءات الكبرى بفضل مساهمة الشركات الخاصة . وقد لفتت مصر الانظار بسرعة تطور صناعة السكر وزراعة القطن بفضل السدود الكبرى التي اقيمت على النيل في الصعيد. وكان اهم من ذلك بكثير قدرة الهند والانسولاند الانتاجية،وهذا الدفع الاستعماري الذي شهده العالم في هذه الحقبة ، ساهمت به على اقدار متفاوتة كل من كندا واوستراليا وروسيا والصين والبرازيل . وهكذا برزت امام المــــين سمات الدول الاقتصادية العظمى التي تقاسمت فيما بينها اقطار القارات الخمس .

التطور المتزامن للرأسمالية الدولية والقومية الاقتصادية

ومع ذلك فعندما ننظر الى النزعـات القائمة نرى تضارباً قـوياً بين السياسة التي ترمي الى توحيد السوق العالمية وبين السياسة التي تسعى الى تنشيط الحماية الجمركية .

فالى الـ ٦١ اتفاقاً دولياً عقدتها الدول حتى عام ١٨٩٠ ، يجب ان نضيف ٦١ اتفاقاً دولياً جـديداً تم توقيعها بين ١٨٩٠ – ١٩٠٠ و ١٠٨ اتفاقات اخرى جرى توقيعها بين ١٩٠٠ – ١٩١٠ وقد قامت عبر الحدود والسدود علاقات اوثق واوطد . فشركة *Ritchie* الانكليزية الاميركية لاستثمار مناجم النيكل في كندا ، اقامت لها مصانع كبيرة في الولايات المتحدة وفي بلاد الغال وعلى مقربة من ك.ن . ومعامل الصلب في لنغواي تنضم الى معامل الصلب القائمة في روتشلنغ في ساربروك وثالث شركة *Thyssen* وشركة *Gelsenkirchen* امتياز استثمار فلزات الحديد في فرنسا ، وشركة دندل الفرنسية الالمانية لها معاملها الخاصة بصنع الحديد والفولاذ في مقاطعة اللورين ، ومصانع لاستخراج الكوك في الروهر ،ومصانع برتيلوف وقعت تحت اشراف اصحاب معامل أسن وكروزو ، وتعمل معامل كروب سنيدرز وفيكرز على مد الدول القائمة فيها هذه المعامل والدول الاخرى، بما تحتاج اليه من العتاد الحربي دونما تمييز فيما بينها.والرأسمال المال البلجيكي يسام بشكل مخصوص في بناء شبكة المترو في باريس ، كما ان ٦٠٪ من فنادق الشاطىء اللازوردي يعود لشركات اجنبية . وبناء خط بغداد الحـديدي تم بعد عـدد من الاتفاقات الدولية يشترك في التوقيع عليها عدد من المصارف والشركات في كل من المانيا وفرنسا وانكلترا . والتضامن يبدو على اكمله في هذه المراكز الدولية التي تتحكم باسعار البضائع وبحركة البورصات في العالم . وبشيء من الاعتداد بالنفس، راح الامين العام لجنة مناجم الفحم في فرنسا، هو هنري بيير يهوف، يصرح في حزيران ١٩١٤ قائلاً : « حلت سياسة المشروعات الاستثمارية محلاً مرموقاً وراء الحدود ، الى جانب السياسات الاخرى ، كسياسة المفاوضات الدبلوماسية والتنظيمات الكبرى، ويبدو ان عبقرية السان سيمونيين والكوبدنيين عملت دوماً بزخم مدفوعة الى ذلك بالتفاؤل وحب السلام للسير بالبشرية تحت قيادة وتوجيه نخبة من الاشخاص الدوليين ورجال الاعمال المتصفين بالدراية والحنكة . وهذه الشبكة الواسعة من رؤوس الأمـوال التي تشد العالم بعضه الى بعض تتالف من ملايين المودعين ومن كبار رجال المال المساهمين بعملية مسكونية باتساعها ، جماعية بالفعل لخير الانسانية الاكبر .

الا ان هنالك، على كل حال ، ضغط مستمر على السلطات العامة والبرلمانات بحيث ان المنافسة الدولية لم تسبب اي اذى للنشاطات الوطنية . وهذه الغيرة ذات النزعة الخاصة التي افـادت كثيراً من الازمات الطويلة التي اشتدت وطأتها بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ ، ومن الخوف من الحرب، ومن الرغبة في التسلح لتأمين السيطرة والامتداد، بقيت ناشطة بعد زوال الازمة وعودة الامور الى نصابها. فانتصار ولـست ،على كوبدن ظهر واتضح.صحيح ان بريطانيا العظمى رفضت الاخذ بالبرنامج الذي عرضته عليها عصبة اصلاح التعرفة الجمركية التي انشأها تشمبرلن . ونظام حرية

التبادل التجاري الذي اعتمدته وسارت عليه بعد ان ادخلت عليه تعديلات مستوحاة من نظام الدول الاكثر رعاية، عول سكنير أ على اخراج الفكرة المرعية لاي دولة تعول على الخارج في امور معايشها ادهى مما تخشاه ارتفاع تكاليف العيش لديها. لمن ميلين الى بولوف ، ومن ماك كنلي الى وايت ، كان على التعرفة الجمركية ان تتيح للمزارعين والصناعيين المتضامنين بعضهم مع بعض ان يخضعوا المستهلكين للقوانين التي تخضع لها المتجرون ، الذين يرغبون في ان يكونوا بأمن من هبوط جديد في الاسعار ، مما يسبب لهم انخفاضاً في ارباحهم . والحماية الجمركية ذات النزعة الوطنية التي اصبحت كالاتفاق المهني ، شكلاً لا بد منه من اشكال الاقتصاد المنظم ، تعتبر بفضل استمرار الاخذ بها والعمل بموجبها ، الدليل القاطع على تحول النظام الرأسمالي الحر.

اسس السياسة الاستعمارية الوطنية

تتصل السياسة الوطنية الاقتصادية بالسياسة الوطنية التقليدية، وتصدر مثلها من معين القومية المتذرة ومن كره الاجنبي المتأصل في ابناء البلاد . بلغنا ، يؤكد ماك كنلي بصراحة ، عام ١٩٠١ ، هذه الدرجة من النمو الصناعي بحيث لا بد لنا من ايجاد اسواق جديدة للفائض من انتاجنا ، بعد ان تم لنا فائض يتحتم تنفيقه وتصريفه . وراح الفرد ملنر ، بعد ان قام باصلاح النظام المالي في مصر ، ورأس تكوين اتحاد جنوبي افريقيا ، يصرح ، عام ١٩٠٤ ، امام مجلس ادارة الرابطة البحرية البريطانية ، قائلاً : « انا رجل استعماري، امبريالي مائة بالمائة ». والحال نرى مواطنه الاقتصادي الحر هوبسن ينسب الى الروح الاستعمارية الذي يصفه دريو، عام ١٩٠٧ بأنه الحماسة الاكثر تميزاً والاكثر جدارة بالملاحظة التي برزت في اخريات القرن التاسع عشر، نطلقاً سياسياً – اجتماعياً واقعياً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً باقتصاد رأسمالي يخضع للروح القومية . وهذا القول يتفق تماماً مع الرأي الذي قال به لنين وهلفردنغ ومعظم فلاسفة الاشتراكية . ومهما يكن من الامر ، فقانون التضخم التاريخي كما ورد على لسان تارب الذي قال باجتذاب الكتل الكبيرة الكتل الصغيرة ، هذا القانون الذي عبر عنه عالم اجتماعي آخر، هو الاستاذ *Greef* ، احد تلاميذ *Corny* ، يجب ان يعمل لصالح الدول الكبرى ، التي جاءت على مقاييس « امبراطوريات كونية » . وقد رأى هاز رئيس رابطة الجامعة الجرمانية في الامر مرحلة ضرورية في حركة تطوير اي جهاز عضوي حي سليم .فهذا الاندفاع الحيوي يحتاج الى مدى حيوي هو *Lebensraum* .

ومن الطبيعي جداً ان تشهد كل سياسة استعمارية الارض والسماء عالياً « بأن الامبراطورية الانكليزية ، بما هي عليه من مساوىء وعيوب ، تتمتع بنفوذ بشري، تمديني مما لا مثيل له في عالم اليوم » ، وبولوف نفسه يصرح قائلاً : « يدعو الانكليز الى انكلترا عظمى ، ويدعو الفرنسيون الى فرنسا كبرى ، ومن حقنا نحن ايضاً ان ندعو لالمانيا كبرى » .

وفي سبيل الدفاع عن الوطن الام ، راح عدد من دعاة الاستعمار سوادهم من الفرنسيين يفكر باستثمار المستعمرات الواقعة وراء البحار . افلم يقترح ملكيور دي فوغويه ، عام ١٨٩٩،

حشد جيش من ١٠٠ او ٢٠٠ الف من هؤلاء الجنود البواســـل ، بين سنغاليين وسودانيين لا يعرفون للمنطق دوراً ولا الصفح محلا ؟ وقد كتب لويس سوبرليه ، عام ١٩١٢ ، قائلا : « على الزنجي ان يفهم ويدرك جيداً بان الدولة التي استقرت في داره وفرضت عليه سيادتها وسؤددها، هي سيدة مطاعة ، تبسط سيطرتها فوق السهول والاحراج والغابات ، هي اقوى واجد من كل ما تعاقب عليه وعرف من اسياد وخبر في ما مضى من سلطات حاكمة . فما من شيء يأخـــذ بمجامع قلبه ويؤثر فيه اكثر من اطلاعه على هذه الامجاد وهذه الانتصارات الحربية المجيدة التي سجلها كل من لويس الرابع عشر والجمهورية ونابوليون ، وهـــذه المعارك الطاحنة التي دارت رحاها على مرأى منه »

« اني أقدم لكم هذه الامة المتشاوفة التي تدعي المسيحية ، العائدة اليكم بما هي عليه من ادران ووسخ ، ملطخة بالدماء ، مرضوضة ، فاقدة شرفها من اعمال القرصنة التي قامت بها في كياو – تشاو ، ومنشوريا وجنوبي افريقيا والفيليبين. فالفؤاد والحشا ملء برمتها وجيوبهـــا منتفخة من الذهب الذي سلبته ، ولسانها يفيض رياء وكفراً . اعطوها ثياباً نظيفة وصابوناً ، ولكن اياكم والمرآة ، ابعدوها عنها » (مارك توين).

الدليل العرق والعنصرية

لم يلبث مبدأ القوميات الذي استشرى الأخذ به في القرن التاسع عشر ان اتخـــذ مظهراً له فكرة العرق او العنصر ، هذه الفكرة التي لم يمـــد مدلولها ليقتصر على الجنس البشري ، بل تعداه الى شتى الفرق ليذوب في مفهوم الدولة او الدول . وهكذا اخذ الناس يعتقدون بوجود عروق سامية ، وهي عروق مختـــارة او مصطفاة معدة لقيادة العروق الاخرى حتى راحت تعتقد ان مستقبل « الحضارة » مربوط الى حد بعيد بقيام هذه العناصر المختارة وبالرسالة السامية المرسومه لها من قبل العناية الالهية. وفي الوقت ذاته اخذت الاوساط العلمية تتردد ، في ابداء رأيها، حول طبيعة العرق وجوهره ، وراح بعض الكيميائيين ، بدافع من الافكار الرجعية او بدافع من الغرض الشخصي يجعلون من العرقية حقيقة واقعية تتميز كلياً عن الدولة وعن الديموقراطية والطبقة الاجتماعية ، وغير ذلك من التجريدات المسلم بها اليوم .

بقي ان نعرف من هو لعمري العرق المختار. فقد سبق لغوبينو ان اقترح « العنصر الآري»، وجعل العنصر الارستوقراطي في الدرجة الاولى بشهادة اشتقاق الاسم . وهكذا شـــدد على المناقبية التي يتمتع بها الاوروبي الشمالي الفاتح او الغازي ، في الاصل ، وهـــذه النظرة تتلاقى والنظرة التي قال بها وعلم بولنفيليه ومونتلوزييه اللذان راحا ، منذ القرن الثامن عشر يشيدان بما للفرنك من حق صراح بهذه المميزة بوصفه محارباً نبيـــلا ، مؤهلا ليحكم العنصر الغالو–الروماني ، الذي غُلب على امره وبرهن عن دناءة وخساسة .

ولكن ما هو السبيل للتمييز ابين السكسوني والجرماني ، في اوروبا اليوم ؟ فبعد ان رحب

كل من كرايل وكنغسلي ومن بعدهما دلك وسيلي؛ وبعد ان غنى كبلنغ راح الاول يشيد بالمآتي والانجازات الحربية التي تمت على يد سكان الجزر ، سواء في قلب الشعوب القديمة او في سباسب اميركا وافريقيا واوستراليزيا العذراء .

تراثنا واسع رحب ومساهمتنا وافرة

وروابطنا اقوى وامتن من هذه الحياة السريعة العطب (كبلنغ)

ومع ذلك فالاعتداد الاميركي لا ينقص بشيء عن تطرف الوطنية البريطانية وغلوها . فهما من أرومة واحدة . ولذا احتار هذان الاخوان المتنافسان ما اذا كان عليهما ان يمضي في تنافسهما الحاد للسيطرة على العالم او ان يتحدا معاً على حكمة وتعقل وفرض سيطرتهما عليه .

ومهما يكن ، فقد شدت بينهما رغبة واحدة بالمحافظة على نقاء الاصل عن طريق الامتناع عن مصاهرة ومخالطة العروق الملونة المعترف بانحطاطها ، فقد اخذا بصورة غريزية بمبدأ العرقية او العنصرية في هذه القارات الجديدة حيث يدعون انهم في ديارهم . فمن طريق الاستثناء او اقله عن طريق التمييز العنصري ، اخذوا يحدون من تطور الاسود والاصفر على السواء . فمن اجراءات فردية او جزئية اتخذت في كاليفورنيا وفي فكتوريا ، توصلوا الى سن تشريعات منهجية منها :قانون تحديد الهجرة ، في الولايات المتحدة وفي استرال آسيا تجاه الآسيويين والميلانزيين ؛ وقانون التربية الوطنية في مدينة الكاب وفي بريتوريا،هذا القانون الذي اخذ يحدد مناطق الزنوج الاصلية (فجعلها ١٢٪ فقط من مجموع هذه البلاد ، وهو قرار تتبناه المحكمة العليا في واشنطون وتطبقه على الزنوج في الاتحاد الاميركي الذي يتسلح بشرط الجد البعيد او الارومة ويحتج بهذا الشرط ليحرم الزنوج من حقوق الانتخابات العامة ، مع الاحتفاظ شكلا ، بخرافة « المنافع المتساوية » . يجري كل هذا بصرف النظر عن ردود الفعل الجماعية البديهية او العنيفة ، والدوافع التي تملي على هذه الاشتراكية التي لا تنهض على اساس ، يقول بها الاستراليون، تنحصر في قانون جزيرة العمال الحادثة الذي صدر عام ١٩٠١ ، وهو قانون نم عن عقلية صالحة لظهور ما يعرف بالاشتراكية الوطنية .

وقد راحت المانيا تدعي ، من جهتها ، التفوق العنصري او العرقي ،واستشهدت في هذا السبيل بأرمينيوس وشارلمان والامبراطورية المقدسة والقوة المستعادة التي يعمل ريتشكيه وسيبل على شرحها وتفسيرها بأسلوب مشوق . فهي تستشهد بغوبينو لاثبات نظريتها هذه وتعمل على نشر مؤلفاته وآثاره المخطوطة . وفي هذا الوقت بالذات ، ينشر الكاتب الانكليزي هوستن ستيوارت تشمبرلن،عام ١٨٩٩،من جهة نظر الشعور الجرماني ، كتابه الموسوم : « اسس القرن التاسع عشر » لما فيه باللائمة على الدور الضار الذي قام به انسان البحر المتوسط كما يشجب التعاليم الدينية التي جاء بها ابن البابوية ، ويروح غليوم الثاني ينذر ، وهو برأس مجمع سينودس سان جان في مارينبورج : « بالانقضاض على « المحرمات » تأديباً لهم على رقاعتهم بحيث يجعلهم

حقاً » . ويطل نفسه باقناع انكلترا – رهبة او رغبة – باقتسام الرسالة التمدينية امام الخطر الاصفر والمنافسة الاميركية التي تزداد حدة وسورة .

ما هي الاسس التي ينهض عليها التفوق الانكلوساكسوني ؟ يتساءل ديمولين ومهما يكن فهناك سبيل لنبذ الفكرة المغلوطة التي تقول بالمساواة بين الشعوب والتكافؤ فيما بينها» كما يصرح الدكتور غوستاف لوبون الذي يرى التصالب او التهجين يذهب بصفات الجنس المميزة . ويمتدح فاشيه دي لابونج فضائل « الانسان المستطيل الرأس»المعروف بحبه للسيطرة وبرغائبه الملحة» ويحذر من البورجوازي « هذا القطر الطفيلي السام الذي ينمو في ظل المنصة ويرتوي من ولغ دماء النبلاء والكهنة » . والدعوة الى الغرائز الدفينة تجد صداها ، على الاجيال ، بين العاملين في الارض،وهي دعوة تتجلى عند بارس في قصته : « النشاط الوطني » . وعند بورجيه الذي يتبنى نظرية Gobineau و Vereinigung ويدعو الى بعث فضائل الاسرة ، وعند موراس الذي كان همه الاكبر الرجوع الى نظام ملكية لا مركزية نقابية ، وعند باسكولي واوناموتو . « ليكن لدينا ، يقول بارس في كتابه ، « الاكمة الملهمة » الشجاعة على استئناف السير على هذه الارض البدائية بجرأة وان نمشي، بالرغم من الظواهر البارزة،بحرائة ملكة الحماس الفائقة » . فالكل ومن بينهم بيغي يشد العرق بالارض التي تغذيه وتنميه وتعطيه اسباب البقاء والديمومة . فاذا ما احتج احدهم ، فعلى الفوضى الجشعة وعلى اشتراكية الصراع الطبقي . فالعنصرية تهيء السبيل امام ثأر اللاتينية الكاثوليكية التي ترى نفسها مع « البعث الاسباني » عام ١٨٩٨ ، ولفرنسا المتعصبة ضد دريفوس ، معدة هي الاخرى لمهمة تمدينية جديدة سامية .

العرقية اللاسامية وظهور الصهيونية الدولية

قبل عام ١٨٤٨ قام المستشرق لاسن يضع الساميين تجاه الآريين . فغوبينو يرى من جهته ان « الآري المتحدر من صلب يافث يسمو ليس على اقوام السود والصفر فحسب ، بل ايضاً على ذرية سام . وقد زعم بعضهم ان اليهود، خلافاً للتعارف المألوف بين الناس، يؤلفون، بين شعوب اوروبا لعدم تزاوجهم الا فيما بينهم، العرق الصافي الوحيد، وهو الذي يستطيع وحده بالتالي ان يسود ويحكم . وعبثاً راح رينان الذي لم يكن مع ذلك ،دوماً فوق الشبهات والاخذ بالوجوه، يهاجم هذا الرأي الذي انتشر وشاع بين الناس بفضل جهود بعض الدعاة أمثال ادرار درومون .

والحال ، هنالك دعاوة مناهضة للسامية كانت غافية تحت الرماد تنتظر من يبعثها ويوقظها. فالى الوراء من الغرب الاوروبي ، حيث كان العنصر اليهودي يتغلغل ويرسخ بفضل الروح التحررية البورجوازية وعرف ان يحافظ الى الشرق من على القارة ما اتصف به من حيوية ،حيث شكلت المجتمعات اليهودية العديدة أقليات تمسكت بشدة بتقاليدها وعاداتها، بالرغم مما تعرضت له من الاضطهادات والتضييقات واسطورة الذبيحة البشرية التي دعموا ان الطقوس التلمودية

نصت عليها واوصت بها ، كانت لا تزال تلقى اذناً صاغية وألسنة تتناقلها بالرغم من تلاشي نفوذ التلمود بين اليهود ، في الاوساط اليهودية .

من الاسباب التي ادت الى اشتداد حركة مناهضة السامية في الامبراطورية الالمانية والامبراطورية الاوستروـ مجرية ، تزاحم اليهود اليها من بولونيا واوكرانيا . فاذا ما رأى الكثيرون في السامي، على الاجمال، مرابياً جشعاً لا امل باصلاحه ، فقد تبين بعضهم فيه اوروبا يتكالب على تقويض القيم المرعية وخلخلتها طمعاً منه بالصيد في الماء العكر . وصورة جانوس المزدوجة الوجه تذكرنا ملامح احدهما بملامح روتشيلد كما ان ملامح الوجه الآخر تنم عن ملامح ماركس . ومن جهة اخرى ، فالحسد مفسدة ويفضي للأذى في هذه البلدان وهذه الاوساط حيث يلاقي النشاط اليهودي ، بفضل التساهل الديني الذي يسود هذه البلدان والاوساط ، التسهيلات اللازمة للنجاح . وهكذا أطلت حركة منافسة اليهودية واتخذت شكل مناهضة السامية والتصدي لها ، واتجهت ضد الاجيال المتحررة ، بحيث راح اشخاص امثال برينو — بارامول وارنست هاقيه، يرحبان بظهورها ويعلنانها من المنافع التي طلعت بها الحضارة . فكيف نفسر الغنى والثراء الذي يرفل فيها اليهود ؟ أليسوا لانهم تفننوا في اساليب السرقة والابتزاز ؟ وكيف نفسر تجاحهم في الوظائف العامة ؟ فهم يحتلون عن غير استحقاق ، الوظائف التي يمارسونها . اما كفاءتهم العلمية والادبية والفنية فكثيرون ينكرونها عليهم ويشكون بوجودها، من بينهم درومون ، مثلا .

قد يصرح بيبل قائلا : « ان عداء السامية ليس سوى اشتراكية المتوهمين »، كما ان باستطاعة فورنييه ان يوضح قائلا : « لنا إلهنا ماركس ولنا شيطاننا الرجيم روتشيلد » . هنالك عدد من انصار فورنييه وبرودون وبلانكي ، ومن اعضاء حزب شعبيي الروس حتى وبين تلاميذ غمد يتهمون الرأسمالية ، اليهودية في صميمها ، بينما يرى ماركس ان عبادة المال تؤلف حائلا دون تحرير اليهود وتحرير جميع الناس ايضاً . « ليسقط روتشيلد ، ليسقط اليهود » ، كانت تهتف باريس ، عام ١٨٨٠ ، وهو الهتاف نفسه الذي يحرك دوماً شفاه الفقير المعدم ضد الغني الذي انتفخت صناديقه ، وراح المتمسكون بالتقاليد يستغلون هذه الاحقاد ويحولونها ضد هذه الفئة المشبوهة التي تحوم حولها الشكوك والظنون ، ويثيرون غضب الجماهير واحقادها ، ويذكون في النفوس البغضاء ضد العنصر السامي المعروف بشعوبيته وبعدم انتمائه الى اي وطن ، فيؤلبون الناس احزابا وعصائب تطالب باتخاذ اجراءات جذرية لصيانة المجتمع ، وبالتمييز العنصري ، والطرد ، واحياناً بالمذابح (وهكذا أطل علينا مثلا بشخص موراس فلسفة وضعية مضادة لليهود) . وهذا لا يعني قط ان هؤلاء المنبوذين كلهم اغنياء . فاسمع ما يقوله هنا الكاتب الكاثوليكي المتحرر ، الاول لاروا- بوليو : « لا اعتقد قط انه يوجد على كرتنا الارضية عنصر شعب فريسة الاملاق والفقر المدقع مثله » ، كما ان بينني يصرح من جهته قائلا : عنصر الفقراء بين اليهود ؟ عددهم كبير، هم من الكثرة بحيث يتعذر عدهم او احصاؤهم، أراهم في كل

مكان » . وهذه البروليتاريا تزرع الخوف في نفس الفتى ، يهودياً كان ام غير يهودي ، ولأنه يهودي وهذا ذنبه الاكبر، والبروليتاريون الآخرون لايطيقون منافسته لهم. فاذا ما راح الفتى سنوكير يشكل في بروسيا اتحاد العمال الاشتراكيين المسيحيين الذي اخذ يطالب بالحد من توظيف اليهود في الخدمات العامة وفي دواليب الاعمال ، وهو برنامج تبناه بحذافيره الحزب الوطني الالماني الذي شكله شونرير والذي مكن لويجر من الفوز بعمدة فيينا ، عام ١٨٩٥ ، فقد سنت انكلترا ، عام ١٩٠٥ ، قانون هجرة للاجانب الذي اوصد ابوابها دون الشرقيين المعوزين ، كذلك فعلت اوستراليا .

ومع ان حركة مناهضة السامية اخذت تمتد وتتسع في كل من النمسا والمانيا ـ مع ان بسمارك وغليوم الثاني يستخدمون رجال الاعمال من اليهود ويرعيان جانبهم ، والزعيم الوطني ترتشكيه يكتب : « اليهود هم مصيبتنا الكبرى - فروسيا هي التي تعلنها عليهم حرباً عواناً تتصف بالعنف والشدة بينما يحتفظ لفرنسا الجمهورية بعمل مشهود . أهو تلاقي الخلفاء ؟ فقد قابل فظائع كيشينيف وبياليستوك هيجان العواطف التي اثارتها قضية درايفوس . وعلى كل فبين الحادث الفردي الذي أثارته قضية الضابط الفرنسي وبين المأساة المشتركة التي وقعت في الشرق ، مأساة اليهودي البائس ، ليس من سبب مشترك الله في الظاهر . فالفضيحة الكبرى في نظر القرن التاسع عشر المتحرر هي : « القضية التي وضعت وجهاً لوجه النظام والحركة ، التقليد والعدالة . فالمبادىء الكبرى ، مبادىء عام ١٧٨٩ ، تعود فتتغلب وتفوز بالطبع ، ولكن بعد ازمة حادة طويلة خلفت وراءها ذكريات مريرة « الثورة الدريفوسية » كما يسميها جورج سوريل باسلوب غامض .

ولم تلبث نتائج هذا الدفع العنصري او الطغيان العرقي ان ظهرت دون تأخر . فيطل علينا « اليهودي التائه » الذي يمضي في سيره الموصول ، فنشهد هجرة من اقوى واشد الهجرات ينتقل معها اكثر من مليونين من يهود روسيا الى الولايات المتحدة الاميركية ، حيث اثار قدوم هؤلاء البائسين ، في الرأي العام الاميركي ، ردات فعل ضد دخول عناصر غير مرغوب فيها ، البلاد الاميركية بحرية .

ولما كان في العالم شعب يهودي يتميز عن غيره من شعوب الارض ، فلتمد اليه ، على الاقل ، البلاد التي عاش فيها قديماً والتي ألف فيها وطناً قومياً له ! ومنذ عام ١٨٦٢ ، راح احد حاخامات مدينة تورن يدعى كاليشر ، يطالب بانشاء وطن قومي يهودي . وفي سنة ١٨٧٠ ، اي في السنة ذاتها التي تأسس فيه الاليانس الاسرائيلي ، انشأت هذه المؤسسة الدولية ، في مدينة يافا ، مدرسة زراعية لتدريب طلائع المهاجرين اليهود الى فلسطين. واذ قام جريتز يضع كتابه الكبير : « تاريخ اليهود » ليعيد الى اذهان ابنا جلدته ، امجاد الشعب اليهودي وانجازاته عبر الاجيال . فاذا ما مكنت الهبات المالية التي قدمها ادمون دي روتشيلد الى « اصدقاء صهيون »

من تأسيس اول المستعمرات الزراعية في الاراضي المقدسة، فقد وقع اكثرهم،وفقاً لرغبة البارون دي هيرش ، تحت تأثير الدعوة بالذهاب الى العالم الجديد . وقد جاء الحكم على الضابط اليهودي دريفوس وانتخاب لويجر عمدة لمدينة فينا حافزاً حاسماً في توطيد عزم الزعيم المجري ثيودور هرزل على نشر كتابه الموسوم : « الدولة اليهودية » ، محاولا بذلك ايجــــاد حل نهائي للقضية اليهودية، وهو كتاب صدر عام ١٨٩٦ .وبالرغم من مقاومة فريق كان يخشى من ان يتحول اليهود عن الرسالة التي عهد بها الى اسرائيل – هذا الشعب النبوي ، على زعم بيغـــي ، - كما يخشى من استغلال المناهضين للسامية ، لهذا الشعور القومي ، فقـــد اخذت الفكرة الصهيونيـــة بالانتشار والسريان في العالم . وهرزل الذي كان رسول هـــذه القضية ، والجاهـــد الاكبر الذي نهض بها دونما ملل ولا سأم ، عرف ان يضمن لقضيته انصاراً ومريدين متحمسين، من بينهم العالم الاجتماعي المشهور ماركس نوردو، والكاتب الاسرائيلي زنجويل. وعمل على عقد المؤتمرات ، واكثر من الصالات برؤساء الدول ومراجعتهم ، وحاول ان يكسب لدعوته هذه عطف البابا والسلطان العثماني والامبراطور غليوم الثاني والحكومة البريطانية . ولما كان محولا في مسعاه بفكرة سياسية اكثر منها دينية فقد اضطر بعد ان ذاق مرارة الفشل واليأس، الى قبول عرض قدم اليه بمقترح انشاء وطن لليهود في اوغندا . الا انه بعد عام ١٩٠٠ ، طلعت علينـــا الدعوة (الصهيونية او العَودة) الى فلسطين وانشاء الصندوق الوطني اليهودي في سبيـــل شراء فلسطين وانشاء مؤسسة تل افيف وبعث اللغة العبرية .

الهيجان القومي في اوروبا واهم مناطق الخطر

في كتابه : مذكرات اوروبي ، يصف لنا ستيفان زويغ الضيق الذي اعتراه ، عندما حضر بوصفه يهودياً نساوياً ، في ربيع عام ١٩١٤ في احدى دور السينما في مدينة تورس حيث ظهر على الشاشة صورة غليوم الثاني وفرنسوا جوزف ، والهياج الذي اثارته هذه الصورة بين النظارة والشاهدين « في تلك الصالة المظلمة علاها الصفير الداوي وارتفعت جلبة جهنمية وقرع الارض بالاقدام ... والكل يصيح ويعوي من نساء ورجال ، واولاد يشتمون ويلعنون كأنها لحقت بهم اهانة نكراء. فقد اعتراني الخوف وشعرت بالقلق في الصميم ، بعد ان تبينت الى اي حد بلغ تسمم مشاعر الجماهير وهياجها من جراء دعاية مغرضة مهيجة ، استمرت سنوات بكاملها » .

وهوس الحرب الذي تملك النفوس من جراء الحرب الالمانية الفرنسية (١٨٨٠ – ١٨٧١) ، وسباق التسلح ، هذا السباق الذي عجل في اندلاعها من جديد ، وهذه الاستنفارات المتتالية – هذا الهوس الذي لا معنى له بدون هذه الهيجانات الدورية – زاد استخدامه عن طريق وسائل الدعاية المعروفة ، اذ ذاك ، كالصحافة مثلا، بما فيها من الانباء المثيرة والمقال الاخباري المأجور والخدمة العسكرية والمدرسة وبرامـــج التعليم حيث لم تلبث دروس الجغرافية والتاريخ ان استحالت مظاهرات وطنية .وراحت منظمات ومؤسسات عديدة تأخذ على نفسها الاشادة بقوة الامة وتتغنى بأمجادها الوطنية . وبينها من له من النفوذ ومن بعد الشأن ما يؤثر على مقررات

الحكومات ومقرراتها الحاسمة ، اما عن طريق مناورات وأساليب خفية واما عن طريق التلويح بالمظاهرات الشعبية. فأحاديث الحرب والتبجحات الصارخة، هي من بعض هذه العملات الدارجة . فها هو غليوم الثاني يكتب بمناسبة المؤتمر الاول للسلام المعقود عام ١٨٩٨ : « لا بأس عندي من الاشتراك بتمثيل مسرحية السلام،الا انني احتفظ بخنجري الى جنبي لرقصة الفالس» ، كما راح يهتف وهو متجه نحو طنجه : « اليد على مقبض السيف والترس ممدود امامنا على الارض ، عسى ان نجيب Tamen او ليحدث ما يحدث ! » وها هو كليمنصو ، يصرح عام ١٩٠٨ : « انا مؤمن بالحرب وأومن ان ليس بالامكان تفاديها ... لن نأتي شيء بطلقها ، ويجب ان نمتنع عن الاتيان بأي شيء يفجرها . ولكن علينا أن نكون على اتم استعداد لها » . وبول كبون يصرح في السنة التالية لاحد مراسليه قائلا :تمسكي بالسلام لا يقل بشيء عن تمسكك به . ويقيني ان خير طريقة للمحافظة على السلام هو ان نكون اقوياء . كل بلد ثائر الاعصاب يذهب فريسة اول طارىء يدهمه ، اما اذا كان هذا البلد مدججاً بالسلاح ، وتنبض الروح العسكرية في عروق شعبه ويكون على استعداد لخوض المعركة ، فهو على يقين بفرض احترامه على الآخرين ، وبتجنب فظائع الحرب » . والمصير ذاته يتجلى لثيودور روزفلت : « الحرب وحدها تتيح لنا ان نتحلى بصفات الرجولة التي لا بد منها للانتصار في حرب لا هوادة فيها ولا رحمة » . فخصوم دريفوس وقفوا منه هذه الموقف العسير ، دفاعاً عن شرف الجيش ، وذلك عندما راحوا يعارضون اعادة النظر في قضيته .

والرومنطيقية الحديثة نفسها التي تشيد بفضائل العرق والتي كثيرا ما تفننت بموضوعات هي موضوع احترام الجميع وتقديسهم ، مثل : ارض الوطن ، الجدود ، العَلَم ، لا تتحمل هنا اي شك ولا ترضى بأية مداعبة او مزاح في هذا الموضوع . « فالارستوقراطية الفكرية » التي يكشف برونتيير عن امرها ، و« التعقلية » او التمجيد المقل الذي يبدو للأب ديدون ، والقدر الذي يدينه الوحيد الازدراء بالقوة والاستهانة بها ، هما عرضة لهجوم عنيف. هل الامر مرتبط بروح نقدية او برأي مستقل ؟ ولذا رضخ الكثيرون ولم يجدوا جوابا والتزموا الصمت . هنالك بالطبع مسيحيون مخلصون يشجبون الحرب . فقد نشأت جمعية مسيحية هي جمعية Gratry للدفاع عن السلام والمحافظة عليه بين الدول لم تلبث ان استحالت عصبة دولية سلبيه كاثوليكية، تولى رئاستها البلجيكي اوغست برنائرت . الا ان « يقظة البطولة » التي يشيد بها رجل من عيار مارك سانييه ، لا يتحرج من قضية الضمير الا عملا بما هو عليه من قناعة مخلصة ؛ والعصبة المسيحية الديمقراطية الايطالية التي لم يلبث البابا بيوس العاشر ان شجبها ، تمت من الصميم استئناف الجهاد ضد النمسا ، في سبيل تحرير تريستا وترانت . والاشتراكية التي رأت موجباً لتزكي نفسها بالقول : « ان العمال لا وطن لهم » ، وهو قول ينم عن مزاج عاطفي ويؤلف رداً منافيا للواقع ، يؤذي جداً الجدل الناشب بين البوروجوازيين الوطنيين الذين رأوا في الشيوعية عنصراً هداما للوطن » ، كما اعتقد جوريلس نفسه . وهكذا أعدت المأساة الدولية التي وقعت

عام ١٩١٤ .

« فباستثناء فرنسا ، لا يوجد في اوروبا دولة واحدة سلطتها وسيادتها لها صدى صادق لاماني كل الولايات وتعبير عفوي عنها » . هذا ما نقرأه في مفكرة جورج لويس سفير فرنسا لدى برلين ، وهذا ما يعترف به باغوف وزير الخارجية الالماني ، عام ١٩١٣ . هنالك اقليات وطنية وفئات غريبة تنتفض وتتحرك في كل ناحية ومكان في اوروبا . صحيح ان مطالب كتلونيا لا يكمن فيها اي خطر على وحدة اسبانيا ، كما ان مطالب الفلاندر لا تؤلف اي تهديد لسلامة بلجيكا . الا ان موقف برشلونا يهيج اعصاب مــدريد كما ان موقف مدينة غنت يزعج بروكــل . وحين يسعى البريطانيون الوصول الى اتفاق حبي مع ارلندا يؤمن لها مصالحها وسلامتها ، يحوز على رضى طلاب الاستقلال في دبلين وطلاب الانفصال في مقاطعة الولستر. فقد عجزوا عن اجتذاب بلفاست كما عجزوا عن ايقاف الحـــركة الاستقلالية او الحد من المطالبين بوطن قومي لهم المعروفين باسم *Sinnfein* بحيث ان الحــرب الاهلية كانت على وشك الانفجار في الجزيرة عـــام ١٩١٤ .

وبقيت الالزاس واللورين مثاراً القلق بين فرنـسا والمانيا . فاذا لم تفكر الاولى بالركون الى الحرب لاسترجاع ولاياتها السليب ، فقد برهنت الثانية عـــن نزق شديد لعجزها عن امتصاص السكان وتمثيلهم في هاتين المقاطعتين ، الذين لم يرضوا قــط بالتنازلات الواسعة التي قدمتها لهم الحكومة الالمانية ، في الوقت الذي خضعوا فيه لسلطة برلين وادارتها...ودون ان نذهب بعيداً في شرقي المانيا ، فالحركة البولونية التي عرفت ان تصمد في وجـــه سياسة جرمنة البلاد كانت مثاراً لازعاج اولي الامر في برلين وبعث القلق في نفوسهم ... والاقلية الدنماركية في مقاطعة شلسويغ فشلت مساعيها للتحرر من السيطرة الالمانية كما ان النرويج تمكنت من زحزحة نير السويد عن رقبتها . ومهما بلغ من بطش وقوة الدولة التي كونهـــا بسمارك ، فهي تخشى كثيراً الابتكارات الجغرافية التي ستتجاوب في اراضيها من جراء اي وهن او اي ضعف يبدو عليها .

وعلى كل ، فالامبراطوريات الثلاث : الالمانية والروسية والاوستروهنغارية تتحسس الخطر الذي يتهددها من جراء الحركات والهزات التي تقوم بها هذه القوميات الواقعة بين البحر البلطيقي والبحر الابيض المتوسط . ان تحرر الفنلندي والبلط والبولونيين والرومانيين من سكان بسارابيا انما يعني عند روسيا ، فقدانها اسواقها الغربية التي امتد التصرف بها على هواها في هذه البلاد من عهد بطرس الاكبر والرجوع بروسيا الى طابع آسيوي اكثر منه اوروبي . ثم ان بروز حركة سلافية دانوبية قوية لا تدفع كان من شأنه ان يؤلف خطراً يهدد جدياً وجود المملكة الثنائية ، قبل ان يتحقق حلم ولســـ «بقيام اوروبا وسطى تمتد من بحر الشمال الى البحر الاسود . وهكذا قضت الضرورة ، يوماً بعد يوم ، بايجاد صيغة جديدة لتكون فدرالية الطابع او ثلاثية الاقنوم . والحال ان ادخال شريك جديد ، صربي – كرواتي على هذه الامبراطورية الثنائية ، سياسة

قوبلت بالعداء والتنكر من قبل المتعاربين واليوغوسلافيين الذين يعملون لاستقلالهم الناجز . اما ضم البوسنه والهرسك فعمليــة زرعت الشك في قلب بودابسـت ، كما اثارت بلغراد وقضت مضاجعها . ففي انصراف آل هبسبورج لكبح جماح الجامعة الصربية ، خطر يتهدد مصيرهم، كما انه يجر المانيا الى المجازفة بحرب عالمية كبيرة .

من سخرية القدر الغاشم ان يرتبط مصير المدنية الاوروبية بهذه الاقطار البلقانية التي قــال عنها بسمارك انها لاتسوى عظام جندي بوميراني واحـــد . فالارفق من جميع الوجوه الابقاء على التركي في مكانه بدلا من انتزاع التنازلات الاقتصادية منه شيئا فشيئا . ومع ذلك فشبه الجزيرة « بتبلقن » ، وهذه الاختلافات والمشاجرات التي تنشب بين الشعوب المحيطة بمقدونية ، واطماعها في البحر الادرياتيكي وبحر ايجه ولد يجرالق من الصعب احيانا حصرها والحد منها.

القوة الالمانية وسباق التسلح

كلف السلام اوروبا كثيراً منذ عام ١٨٧١ ، فقد تمتعت اوروبا بامتياز قد تكون الوحيدة فيه باستثناء اليابان التي زاحمتها وحدها فيه وهي ان ارض دولها كانت تفترشها الثكنات العسكرية ودور الصناعات الحربية والاستحكامات، كما كانت دولها تكثر من حشد ادوات التقتيل واعتدة التهديم، وتاخذ بنظام الخدمة العسكرية بحيث يستعد للحرب ويتدرب على فنونها ، الملايين من الشبان .

وليس من شك قط ان توحيد المانيا تم بسرعة وبشكل عنيد ، فظ. فقد وصفها كلير بأنها عملية بناء ضخم استخدم فيها السمنت بخشونة وسرعة ، وبأنها كانت سبب هـــذه المنافسة العسكرية الموصولة ، وهي منافسة قامت بين شعبين جاشت احشاؤهما بالعداء ، اثارها خوف الالمان من عملية ثأر على نطاق واسع يقوم بها الفرنسيون ، والخوف لدى الفرنسيين من غزوة المانية جديدة على فرنسا .

وهكذا استمر الصراع الفرنسي الالماني خلال فترة السلام،فسمم الاجواء وشحنها بالمخاوف والاراجيف. وعرفت الامبراطورية البسماركية ان تؤلب حولها روسيا والنمسا والمجر وايطاليا. وبذلك جعلت فرنسا في عزلة تامة . وهذا الحلف المقدس الجديد لم يتوقف عن التسلح وانتهى امره الى القطيعة والتفرقه فالانحلال . والحال ، فقد جاشت المانيا بين ١٨٨٥ – ١٨٩٠ التي كان ازدهارها الاقتصادي مثار الاعجاب والدهشة،بروح استعمارية وشرهت نفسها الى بناء امبراطورية استعمارية لها .فمع غليوم الثاني طلع علينا جيل من الالمان قدر عاليا الانجازات التي قام بها الرواد وتطلع الى القيام بانجازات اكبر واروع . كان لا بد للشعب الالماني الآخذ بالنمو والازدياد وان يشتري وبالتالي كان عليه ان ينتج وان يبيع اكثر فاكثر كل يوم . ولما كان فخورا بمآتيه وبما تم له من عدة وعتاد ، وبالسبق الذي حققه في مجـــال الصناعات الحديدية والكيميائية ، وبالمدن الجبارة التي قامت على ارضه ودياره ، وبثقافته الفنيــة والعلمية ، فقد راح ينظر شزراً الى الثروة الضخمة التي تمت لفرنسا ، والى عظمة الامبراطورية البريطانية ،وقد تشبع بفكرة حتمية الصراع

بتوزيع اعدل واقرب للمنطق ، للخامات والمواد الأولية في العالم ، وهو حق عرف ان يناله بعد فترة طويلة من القصور والعجز المشين، وبعد ان حقق مثل هذه النهضة العظيمة التي تمت له ، قام هنا في اوروبا الوسطى «شعب وقع تحت النير فطأطأ رأسه واقتصر وضعه على انضباط سلبي » كما يقول فيه بيغي ، ومجتمع جنل لخضوعه لدولة هي ظل العناية الربانية على الارض ، وطبقة من الموظفين المدنيين والعسكريين ، وقدر عالياً قيمة النظام والبزة الرسمية وقد قل بما تم له من قوة العدد والتنظيم والقدرة على تأليف الشركات . وهذا المجتمع عرف جيل هؤلاء الاشتراكيين الذين ابطلوا فعالية الدولية كما قدّر عالياً هؤلاء الذين دافعوا عن العرقية او العنصرية فصقلوا لهذه الامة مرآة ، ابرزت عند النظر اليها قسمات العنصر الالماني وصاله المميزة . فقد فرض وافتخر على الاجنبي ذوقاً موسيقياً انبثق من المانيا ، وقد ارسل هذا الشعب هؤلاء التجار المتجولين الى جميع اقاصي الارض يرغّبون الناس ويدعونهم لشراء المصنوعات التي خرجت من يد النبوغ الالماني الخلاق ، ويحث بحارته في ان ينشروا العلم الالماني خفاقاً فوق جميع البحار كما دعا جيشه للاحتفاظ بباروده جافاً وان يتكلم قيصره عالياً . « فالتوران اعترى دماغه ، كما يقول رومان رولان ، عام ١٨٩٩ . فعند نيتشه وشتراوس والامبراطور غليوم شيء من النيرونية التي يعبق بها الجو » .

وبخلاف الاميركيين الذين يهدرون مواردهم هدراً ، يتفنن الالمان من جانبهم ، بالافادة مما تم لهم من هذه الموارد ، ومع ذلك فاقتصادهم يبقى ضعيفاً ، وهناً . وعندما يعجز الالمان عن تأمين التوازن في حساباتهم عن طريق الاستثمارات الناجحة في الخارج ، يضطرون للمضي في التوسع بعد ان يخفضوا اسعار الكلفة الى الحد الادنى . ولذا عاشت البلاد دوما تحت كابوس تضييق اسواقها التجارية . وبما ان موقفهم السياسي *Weltpolitik* يضطر بريطانيا العظمى للوقوف الى جانب فرنسا وروسيا ، فالسباق على التسلح البري تضاعف بسباق بحري لم يقل احتداماً وخطراً وكلفة عن الاول . فبينما تعمد الدبلوماسية الالمانية الى الشانتاج احياناً والدعوة المكشوفة الى الحرب وهي طريقة لم تنفع في توسيع مدى المستعمرات الالمانية في الخارج ، وازداد الرايخ نرفزة بعد ان رأى نفسه محاطاً من كل جانب . ان موقف المانيا الممتاز في قلب اوروبا جعلها في وضع ممتاز كذلك لبسط سيطرتها على هذا الجزء من القارة الاوروبية ، فهي تشعر بأن هنالك ما يحد من طاقتها من كلا الشرق والغرب على السواء ، مما يجعلها عرضة لفقدان حليفها الوحيد في الجنوب هو الامبراطورية الاوسترو – هنغارية ، اذ دعاها ما سبب انهيارها ، او اذا ما جرت الى مغامرة كبرى وقف هذا الحليف الى جانبها حتى النهاية .

وهكذا رزحت اوروبا تحت وطأة التسلح ، وهي وطأة شديدة شعرت بثقلها ليس الدول التي ارتبطت بعضها ببعض بمواثيق دبلوماسية او عهود عسكرية فحسب ، بل ايضا دول اخرى مثل بلجيكا والسويد اللتان جزءتا جداً على استقلالهما وسلامتها . فالاستعداد للحرب زادت نفقاته ثلاثة اضعاف بين ١٨٧٥ – ١٩١٤ ، في كل من المانيا وبريطانيا العظمى ، كما ازدادت ضعفين في فرنسا ، ومثلت ثلث الميزانية العامة في روسيا . اما ايطاليا فقد كادت تختنق لفداحة هذه

التكاليف عندها . فبينا ترصد الموازنة العامة في فرنسا مليارا ونصف المليار الجيش وللاسطول الحربي ، فالبرلمان الفرنسي يرصد ٣٠٠ مليون فرنك للتربية والتعليم ، و١٠٦ ملايين للاشغال العامة في البلاد وللاسعاف العام ، قبل عام ١٩١٤ . ان بناء طراد واحـــد كان يكلف الدولة بين ٣٠ – ٤٥ مليون فرنك ، اذ ان الطلق الواحد يكلف ٤٠٠٠ فرنك (اي ما يوازي المرتب السنوي لموظف متـوسط) .

فالمبدأ القائل : اذا اردت السلم فاستعد للحرب ، فرض نفسه كبدأ ساحر وبدا ان لا مناص منه ولا حيدة عنه لاوروبا هذه الطاعنة في السن . نحن امام انقسام تاريخي ولاشك . ولكن هل كان من المقدور ان يحول تنوع الطاقات الوطنية بين دول القارة في نهاية الامر هذا التنوع الذي كان وراء عظمة الحضارة الاوروبية دون تحقيق وحدتها السياسية التي وحدها تستطيع ان تحول دون الانقسامات الجغرافية الاخيرة المنذرة بانهيار محتوم ؟ فالمـــانيا التي رشحت نفسها لرئاسة وقيادة تجمع اوروبي ، حلت لرها ما ، بعد فارق ٧٥ سنة،محل فرنسا التي حاولت هي الاخرى تحقيق مثل هذا التجمع، وهي محاولة منوه بالفشل امـام الصخرة البريطانية، لمعاصرو غليوم الثاني والاميرال ربتز يستطيعون اكثر مما تم لمعاصري نابوليون،ان يضطلعوا بمهمات على مستوى عالمي . وانصار سياسة الـ *Weltpolitik* لن يعدموا وسيلة للنهوض بهذه السياسة ، ملوحين بالخطر الاصفر حينا ، وبالمنافسة الاميركية احيانا ، كما يحتجون ، من جهة ثانية ، بالعجز الذي نزل بالشعوب الاستعمارية القديمة والقصور الذي اصيبت به .ومع حرصهم على صيانة مصالحهم الاساسية والدفاع عنها ، فقد وقفوا الى جانب روسيا ، عام ١٨٩٥ ، لارغام اليابان ، على التخلي عـــن منشوريا والانسحاب منها وعملوا على تعيين قائد عام الماني لقيادة الجيش الدولي الذي عهد اليه اعادة نفوذ البيض الى العاصمة بكين. الا انهـــم نظروا الى الحلف المعقود بين انكلترا واليابان نظرهم الى خيانة مصالح اوروبا . وقد تجلت اطماعهم وبرزت بصورة اجلى واوضح في الوقت الذي اخذ فيه الاستعمار الاوروبي يصادف صعوبات جديدة .

ثلاث حروب فاشلة تصاب بها اوروبا : الحبشة ، كوبا ، منشوريا

تمثل الحقبة ١٨٩٤ – ١٩٠٤ اكثر واوفر حقب هذا العصر حروبا بعد الحروب والفتن الدامية التي وقعت في منتصفه ، اذ وقعت خـــلال هـــذه السنوات العشر معظم الحروب الاستعمارية . يجب ان نضع جانبا قضية كوريا التي انتهت بتقهقر اليابان امام تدخل المانيا وفرنسا وروسيا . صحيح ان بريطانيا العظمى انتصرت على الترانسفال بعد تضحيات كبيرة ، في الوقت الذي تابعت فيه فرنسا تغلغلها في افريقيا السوداء باحتلالها جزيرة مدغشقر الكبيرة . الا ان الدول الاوربية خسرت ثلاث حروب خاضتها خلال هذه الحقبة ، فعجزت ايطاليا عن التغلب على الحبشة ، كما ان اسبانيا انهزمت في كوبا والفيلبين، وروسيا غلبت على امرهـــا وانهزمت انهزاما منكرا امام اليابان في منشوريا .

فانكسار ايطاليا في عدوة امام الاحباش يجب رده اصلا الى عدم تقدير الامور قدرها اللازم والى نقص جذري في الاستعدادات الضرورية . ومع ان هذا النصر حققته الحبشة امّن لها فترة من الهدوء والسلام ، فلم يستطع ان يوقف الحركة الاستعمارية في افريقيا . وقد اصيب المراقبون في اوروبا بدهشة كبرى لدى انكسار الاسبان امام الاميركيين . وقد رد اماول فرانس صدى تكهنات هؤلاء المراقبين ، في كتابه « التاريخ المعاصر » . اما هزيمة الروس فقد كان لها وقع دونه وقع الصاعقة ليس في الاوساط العالمية فحسب ،بل ايضاًسبب ثورة ضد نظام الحكم العنصري هزته هزاً عنيفاً دون ان تسقطه ، كما سببت منافسة حادة بين فرنسا والمانيا نشبت حول قطر لا يزال حراً في افريقيا ، هو المغرب ، واخيراً ضد الرايخ الولهمي ، وتجمعاً انكليزياً فرنسياً روسياً ، جاءت اليابان تدعمه في آسيا .

هنا تكمن الاسباب الاصيلة لحادثين من اضخم الحوادث التي استهلت التاريخ المعاصر : الحرب العالمية الاولى ، ١٩١٤ والثورة البلشفية ، عام ١٩١٧

الدول الاستعمارية خارج اوروبا بروز الولايات المتحدة الاميركية واليابان

حوادث الخيبة والفشل التي لحقت باوروبا في المجال الاستعماري ، اصابتهــا في هذه الاقطار والاصقاع التي اصطدمت فيها بهذه الدول الاستعمارية الفتية المنافسة لها . وهــذا الفشل يتفق وقوعه مع ظهور الولايات المتحدة الاميركية واليابان المتزامن ، بوصفها دولتين من الدول الكبرى الفازية .

فبالرغم من الفوارق التي تباعد بين مجتمعها ، والمفارقات التي تميز حضارة كل منهما ، فهنالك مع ذلك ، نظائر مشتركة بينهما اذا ما نظرنا الى سياستها العالمية .

فالولايات المتحدة بلاد العجائب والغرائب المدهشة تؤلف بيئة حليمة صفة الى اكبر حد النجاحات الفردية كما تكون ملاذاً يكن اليه كل من تعذر عليه العيش او اصيب بالضيم والحيف في العالم القديم . كل شيء فيها تم على عجل وبدا ضخماً جباراً وكل شيء فيها يــدل على ان حضارتها امتداد لحضارة اوروبا الشيخة ،في الوقت الذي راحت فيه الاذواق والنماذج الاميركية تتحرر وتتسع وتتنوع .

واليابان القديمة ، بما لها من طابع غريب عجيب عرفت ان تسحر الشعراء والفنانين والهواة ، وبالرغم من هــذا التحول الصاعق الذي حققته حضارتها الصناعية فلسماتها المميزة لم تتغير ولم تتبدل وما زالت تفتن بسحرها الاخــاذ واحدأمثل الكاتب هيرن، والذي عُرف عنها وذاع خبره بين الناس شرقاً وغرباً هو رخص البضاعة اليابانية التي اخذت تنافس الى حد بعيــد مصنوعات اوروبا واميركا في الاسواق الآسيوية ، والاسترالية.

ويشيد جوريس « بهذا القطب الرأسمالي الخاتق » ملمحاً بذلك الى جمهوريــة آل كارنجي وآل فندربلت وبيار بونت مورغان وروكفلر . فالفردية الليبرالية مهدت السبيل لطلوع طبقة

متنقلة من كبار رجال الثروات الطائلة لم تعد تحسب حساباً الحاكم والنقابة والنظريات الثورية لتحت لها في الداخل اسواق لبز اوروبا باتساعها . وقد اطل علينا عهد من الامتداد والضخامة بحيث ان حركة التجارة الخارجية تضاعف حجمها بين ١٩٠٠ – ١٩١٤ ، وزادت ثلاثة اضعاف باتجاه آسيا . واستثمرت اكثر من مئة مليارات من الدولارات في الخارج وانشأت لها بالفعل امبراطورية في اميركا الوسطى والمحيط الهادي كما ان اميركا اللاتينية هي على وشك ان تصبح منطقة نفوذ لها وحدها بفضل سياسة الرابطة الاميركية . فمداخلاتها كتحكم لحل قضية منشوريا والمغرب تشير بالفعل الى ما بلغته من اشعاع عالمي ، كما ان سياسة « الباب المفتوح » التي اتبعتها في الصين وفي افريقيا الوسطى جاءت تناهض سياسة مناطق النفوذ التي سارت عليها الدول الاستعمارية الاوروبية واليابان . وهذه الرأسمالية المركزة تلعب دوراً بارزاً في طوكيو ايضا ، يشد من ازرها عدد من السكان يشكو الفقر ابداً في نماء وازدياد ، تشحذ الحاجة فيهم الاطماع . ولما كانت اليابان بأشد الحاجة للتصدير بأي ثمن لتأمين اسباب العيش للاهلين، فقد دخلت باندفاع وقوة لا تدفع عصر الاستعمار . فتحت ستار الدستور ، لا تزال احزاب الـ *Genrô* تحكم البلاد باسم الميكادو وباسم النظام الاوتوقراطي المستبد الذي تسير عليه معتمدة فيه على الجيش والاسطول والبيروقراطية مبقية تحت قبضتها الجماهير العمالية . فبعد ان انتصرت على الصين وفازت بروسيا واصبحت حليفة لانكلترا وشريكة الإئتلاف الثلاثي في اوروبا ، احتلت نيبون (اليابان) فورموزا كما احتلت كوريا والقسم الجنوبي من منشوريا ، وأقامت لها علاقات تجارية وطيدة مع الهند والصين والهند الصينية واصبحت في آن واحد زبوناً للولايات المتحدة الاميركية تستورد منها وتصدر اليها ، زبونا من الدرجة الاولى ، وحاولت ان تكسب تجاريا على حساب اميركا ـ كل منطقة المحيط الهادي . لهذه الصين التي راحت فريسة الفوضى تسحرها بمالها من موارد وخامات ضخمة . فهي ان عملت على إيقاظ آسيا ، ففي سبيل طرد « البرابرة » البيض واخراجهم منها ، شريطة ان تعمل هي على استثمارها لوحدها .

طلائع الثورة الصينية

يؤلف انهيار الامبراطورية الصينية القديمة حادثا تاريخيا ضخما تتعدى نتائجه كل حساب . فمنذ الثورة التي قام بها اتباع الطائفة الدينية *taipings* ، عام ١٨٥٠ ، والصين تحاول البروز بصورة متجددة دون ان تحسن تحديد تقاطيع وجهها . هنالك قوى هادرة تعتمل في هذا الهيكل الصيني العتيق الضخم ، المتمسك بالتقاليد المستحكمة . فالرأسمالية حققت من جهتها نجاحات باهرة مربحة . فمنذ حادث البوكسر (الملاكمين) اخذت الصين تكثر من انشاء المصانع والشركات التجارية كما انشأت لها شبكة من الخطوط الحديدية ، ووثقت من الروابط التي شدت بين الطبقة البورجوازية التي اخذت تتكون وتقوى وبين الاجانب الذين ضاعفوا من استثماراتهم في البلاد خلال عشر سنوات . ثم ان وجود « البرابرة البيض » ، من جهة ثانية كان بمثابة جرح بليغ يجرح من كبريائها . فقد

اخذت المتضادات والمفارقات تبرز اكثر فأكثر . هنالك صين قروية ، ريفية زراعية يجري اعتصارها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . ولما كان الميزان التجاري يتسع يوما بعد يوم ، والوحدة النقدية ال Tael تفقد من قيمتها الاسمية ، كانت تكاليف الحياة دوما في ارتفاع . ومن جهة اخرى ، فأزمة الشاي الناجمة عن انخفاض التصدير حلت الدمار والخراب الى الولايات الجنوبية بكاملها حيث كانوا يتخلصون بسهولة من المواليد الاناث . الا ان صين الاستثمارات وصين التجارة والاعمال الكبرى رفعت عالياً واجهتها البذخية ، فبدت مزيجاً غريباً من الروح الآسيوية ومن الروح الاوروبية ، كما بدت لنا في صورتها المثلى ، في مدينة شنغاي ، مثلا ، كما رآها جان رود ، عام ١٩١٠ الذي يقارنبين هونغ كنغ ، مثال النجاح البريطاني في هذه الناحية من العالم ، وبين «كنتون» «المريعة» بقناتها القذرة التي تغص بما يطرح فيها من النفايات والاوساخ فتزيد من سواد مياهها النتنة ... ومنازلها المتهدمة التي تغشاها طبقة لزجة من الاوساخ ، وهذه الارتال من المستعطين تتقزز النفس لرؤيتهم ، يقابل في الطرف الآخر منظر أخاذ من السحر والتصنع .

وبعد ان احبطت حكومة الصين محاولة اصلاح استمرت مائة يوم عولت الادارة الامبراطورية على المباشرة بإصلاح من طراز اسكندر الثاني : يتناول الوظائف العامة والامتحانات والمحاكم والجيش . ومنعت منعاً باتاً محششات الافيون ، ووعدت بمد البلاد بدستور جديد . الا ان عجزها الواضح غل في يدها وعجزت عن تحقيق شيء من هذا . فهي لاتستطيع الاعتماد على الاجنبي ، كما انها تعجز عن محاربته وايقافه عند حده . فقد آلت حركتها هذه في نظر طلاب الاصلاح الى الانتقاص من كرامة البلاط والحط من هيبتها ، دون ان تتوصل الى اصلاح شيء .

قام بين المفكرين والتجار العاملين خارج الصين حركة ثورية رمت الى التخلص من الاسرة المنشوكية المالكة سعيداً ، ومن ال Meiji . فالانتصارات التي حققتها اليابان ، والثورة الروسية التي وقعت عام ١٩٠٥ ، بعثت فيها النشاط وحركت فيها الرغبة بعمل شيء ما للخروج من الوضع الزري الذي انحدرت اليه الادارة والبلاد،ووضعت لهذه الحركة منهجاً استمدت خطوطه الكبرى من المثل الانكلوسكسونية ، واضعة نصب اعينها : الحرية والديموقراطية واحلال نظام الاقتصاد الرأسمالي محل الوسائل البالية المتبعة في الانتاج . والدكتور سن – يات – سن الذي تلقى دروسه تباعاً في الكلية الاميركية ، في هونولولو ،ثم في كلية الملكة في هونغ كنغ، ثم انتقل الى كنتون قبل ان يقوم برحلة طويلة الى اميركا واوروبا طاف خلالها على الجاليات الصينية الكبرى الموافقة حول الامبراطورية السماوية ، دخل عضواً في عدد من الجمعيات السرية ثم انشأ ، هو نفسه «جمعية يقظة الصين» ، ودخل في عضويتها كثيرون من الصينيين ومن رجال الفكر ورجال المال والاعمال العاملين في مناطق الامتيازات الاجنبية او في اليابان وفي غير ذلك من المناطق والاقطار الآسيوية،وراحت تنادي بسيادة الشعب وبتوزيع الاراضي

الاميرية على المزارعين . وحاولت هذه الجمعية ان تجر وراءها الطبقات المتعلمة ، المتذمرة وان تقيم لها علائق مع الجماعات الوطنية في التونكين التي تقوم بأعمال المشاغبة ، ولم تكن بغريبة قط عن محاولة انقلاب في كوريا ضد الاحتلال الياباني الجائر . وساعدت سلسلة من ازمات المجاعة وقحط المواسم المتعاقبة وبوارها على حمل جميع من يتأففون او يتذمرون لامر او لآخر على الوقوف موقفاً معادياً لبكين . وثار العمال العاملون على الخطوط الحديدية او العاملون في ترسانة هان - كيو ، كما تمرد قائد الجيش يوان - شي - كاي ،واعلن العصيان على الامبراطور . وهكذا وقعت ثورة عام ١٩١١ .

وعبثاً راح سن يات سن زعيم حزب الشعب باسم كومين - تانغ الذي رمى الى المناداة بنظام جمهوري ديموقراطي ، فلم يستطع ان يعتمد على الجماهير الامية البائسة . ولما كان صينيا من الجنوب فلم يستطع ان يكون اكثر من رئيس لجمهورية الصين الجنوبية ، ولم يلبث ان انسحب من الحياة العامة . فعادت السلطة الى يوان الذي ما كان يتخلص من الاسرة الحاكمة حتى راح يفرض نفسه على البلاد بأجمعها ، وبعد ان امّن لنفسه ولاء بكين والجيش في الشمال اعاد تكوين وحدة البلاد لمصلحته الخاصة . وعرف ان يؤلب حوله كبار الموظفين وحكام الولايات وارباب التجارة واصحاب الثروات والقوى الاخرى التي اشد ما كان يقلقها رؤية الفوضى في البلاد . وهكذا تمكن هذا الجندي الذي جاشت نفسه بالاطماع ان يجمع بين يديه وان يحتكر لنفسه السلطة في هذه الجمهورية الناشئة . وهكذا فمصير هذه الصين الشاسعة الاطراف الغريبة الاطوار بقي لغزاً يحتار له العالم قبيل الحرب العالمية الاولى .

الحركات القومية خارج اوروبا براعم ردة مضادة للاستعمار

فاذا ما تحركت الصين وتمطت،فلم يكن ذلك للمرة الاولى . ولم ينتظر فكتور بيرار نهاية الحرب الروسية اليابانية ، ليضع كتابه الموسوم : « ثورة آسيا » . وعلى الاثر توالى على الظهور فيض من المطبوعات والمؤلفات التي تعالج القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية حتى والستراتيجية التي اثارتها انتصارات جيوش الميكادو والصدى الداوي الذي احدثته والاثر البعيد الذي اطلقته في البلدان والاقطار المتصلة بالمحيط الهندي والمحيط الهادي ، حتى في تركيا . فالمفكرون السياسيون ورجال السياسة من اليابانيين انفسهم لم يكتموا قط الآمال المراض التي جاشت بها نفوسهم . فالمؤلفات التي وضعها المؤلف الياباني اوكاكورا بعنوان : « مُثل الشرق » و « يقظة اليابان » تؤكد بوضوح وحدة الآمال التي تجيش بها قلوب الآسيويين . صحيح ان المؤسسات الاوروبية والاميركية لم يبد عليها ما ينم عن خوف او ما يشعر بقلقها ، الا ان حوادث الاضطرابات الفردية التي يكاد لا يشعر بها احد هنا او تتخذ لها هنالك طابعا مزعجا ، اخذ يتكاثر وقوعها ، شيئا فشيئا . فقد قامت حركات وطنية مناهضة للاستعمار . فالفتح الياباني اقلق خواطر كثيرة في بلدان كثيرة وراح سكان هذه الاقطار يقومون بحركات رجعية

بدافع ما ينبض فيهم من بغض شديد لما هو اجنبي ، لم يكن مع ذلك ليتنافى بالضرورة مع الرغبة باعداد محاولات اصلاح سياسية واجتماعية ، (وضع الصين خير شاهد على ذلك) ، كثيراً ما ارتدت شكل رفض لانماط الحياة الجديدة .

فحزب الاستقلال الذي غلب على امره في الفيليبين، عام ١٩٠٢ ، لم يستطع النهوض وراحت الولايات المتحدة تشدد من قبضتها على الارخبيل المذكور وتعمل بسرعة على مده بالاجهزة والاعتدة التي لا بد منها .

وفي الحين الذي اشتدت فيه مقاومة الكوريين لسيطرة اليابان ، وهي مقاومة لم يتمكن اليابانيون من كبحها وكبها الا بعد عام ١٩١٠ ، اخذت بنكوك تعمل عكس ذلك تماماً ، وتسعى الى توسيع حرياتها بالاعتماد على طوكيو . فالسلام هيمن على شبه الجزيرة الهند الصينية. فلم يقم في وجه الحاكم الفرنسي العام دومر اي حركة مقاومة يحسب لها حساب ، بعد ان امعن في إذلال الامراء وحكام الولايات قبل ان يبدأ بتطبيق برنامج واسع من الاشغال العامة . وقد راح خليفته بول و يحاول تحسين العلاقات بين المثقفين وبين الفرنسيين مع قيامه ببعض الاصلاحات الانسانية . والخطر الذي ذر قرنه بين التونكين عام ١٩٠٨ حيث قامت حركة تمرد لم تلبث ان قمعت بسرعة ، بقي براود ذكره الاذهان ، لا سيما في هذه السنوات التي تلت رأساً ، المساعدة التي يمكن ان يلاقيها خصوم فرنسا، في كل من الصين واليابان .وقد استؤنف العمل الاستعماري بين شعوب هذه الاقطار دون ان يتنكر احد منها للفوائد الناجمة عن هذا العمل .

اما في الهند ، فاليقظة القومية أخذت تنشط وتحتدم بسرعة . فعلى اللورد كورزن الذي يذكرنا نشاطه بنشاط دومر في الهند الصينية ، أن يحسب حساباً لهذه الجماهير الوطنية التي تشمل فيها وتختمر قوى محافظة مشهورة بعدائها للبريطانيين ، وللذرائع والاساليب الاوروبية وطبقة من المثقفين تطمح بأبصارها الى التربع في الوظائف الكبرى ، وبورجوازية تساعدها الارباح التي تحققها في التجارة والصناعة الناشئة ، على تضخيم المطالب القومية .

فشبه الجزيرة الهندية ، كالصين نفسها، تفيض بهذه المفارقات والتناقضات الحرية بالملاحظة . « فمدينة بمباي ، كما يلاحظ احد الاداريين الانكليز عام ١٨٩٩،مدينة صناعية عصرية حيث الصناعة الحديثة تأسر النظر بوجهيها الكالح والمشع معاً. ففي بمباي احياء، منازلها واطية، غير صحية يتكدس فيها السكان على اشد ما بلغه تكديس السكان في المدن الاوروبية .فيها العديد من اصحاب الملايين الذين ساعدوا بهباتهم ومكارمهم الانسانية ، على تشييد الابنية الضخمة التي تزدان بها المدينة » . والتحقيق الذي أجرته لجنة من لجان العمل ، عام ١٩٠٧ ، يشهد عالياً بالفقر المدقع الذي تتخبط فيه البروليتاريا ، وينزل بالمصانع التي يُعالج فيها القطن حيث يعمل العمال من ١٧ – ١٨ ساعة في اليوم ، بأجر يتراوح بين ٢٥ – ٣٢ فرنكاً في الشهر الواحد ، كما يشير الى ان العديد من الاولاد ، بين السادسة والسابعة من اعمارهم يعملون ١٢ ساعة في اليوم

ويكسبون نصف هذا المبلغ في الشهر . إلام يؤدي نجاح حركة مقاطعة البضائع الانكليزية يا ترى ؟ فقد تبدى لبعض المفكرين في الهند ، أمثال رابندرانات طاغور ان استغناء الهنود عن استعمال البضائع الانكليزية من شأنه ان يزيد استثمار الجماهير فداحة . اما فيما يتعلق بالاستقلال الذي يطالب به تيلاك والذي أقره المؤتمر الهندي عام ١٩٠٦ ، فهل يعني قيام دولة هندية تتطور على طريقة اليابان ، أو على الطريقة التي اقترح الاخذ بها غاندي منذ عام ١٩٠٧ ، اي اعلان المقاومة في وجه التقدم ، على اي شكل كان . رشجب التصنيع ، ومنع كل ما يولد الضجيج والرجوع بالبلاد الى المغزل . ومهما يكن ، فقد أطل على البلاد ، عام ١٩٠٨ ، عهد من الاضطرابات طلع اول ما طلع ، في البنغال ، لم تعمل على تهدئتها ولا على ادخال الطمأنينة الى النفوس القلقة ، الاصلاحات التشريعية الجديدة التي أجراها اللورد منتو وموريلي . صحيح ان المؤتمر بقي تحت سيطرة المتدلين الذين يخشون دوماً الحركات الارهابية المتسمة بالعنف ، والحادث المهم هنا هو ظهور العصبة الاسلامية لجميع الهند التي جاءت ردف هي الاخرى المعارضة لوجود الاجنبي في البلاد . عاد غاندي الى الهند ، عام ١٩١٤ ، وسيعطي بفضل ما له من شخصية بارزة ، الحركة الوطنية في الهند ، قوة جديدة ، ودفعاً شديداً الى الامام .

من اهم اغراض غاندي والاهداف الرئيسة التي وضعها نصب عينيه ، شد اواصر الوحدة بين المسلمين والهندوس . فهو لا يجهل قط ما للاسلام من اهمية رشأن كبيرين في آسيا وافريقيا . وقد لاحظ بعين ثاقبة الارتجاجات والهزات العنيفة التي واجه بها الضغط الاوروبي . وقد سلم المعتزلي خوده بخش « بأن القرآن يصح ان يكون دليلا ومرشداً للمؤمن لا ان يكون حجر عثرة او حائلا دون التطور الاجتماعي والادبي والقضائي والفكري » . كذلك ، شدد على إظهار المخاطر الكامنة تحت شعار بعض الفئات التي تدعي انها متطورة : «اخذنا عن الاوروبيين لباسهم وطريقة عيشهم حتى مساوئهم المعروفة من معاقرة الخمرة الى الميسر ، الا اننا لم نأخذ شيئاً من فضائل هؤلاء الاوروبيين » . هذا ما يتوجب معرفته لدى هؤلاء المعجبين بأوروبا . ولذا لم يتردد احد كبار ممثلي انكلترا في الشرق ، هو اللورد كرومر ان يكتب عام ١٩٠٨ قائلا : « لا سبيل الى اصلاح الاسلام . فالامر الذي يخضع للاصلاح لم يعد الاسلام ، بل شيئاً آخر ... لن يكون ممكنا كما يرجحون ان يصنعوا هميانًا من الحرير الفرنجي من اذن خنزيرة شرقية» . فهو يرى ان المصريين المتخلقين بأخلاق الاوروبيين فقدوا اسلامهم واصبحوا اوروبيين من ذوي اللاقربات» . ولويس برران ، هذا المراقب الحصيف يذكر ، عام ١٩١٠ ، في كتابه الموسوم « السراب الشرقي » ملاحظاً : « ان ندرك ابداً هذا الغضب والحقد الذي يثيره في قلب سكان المدن الجزائرية ، من ابناء البلاد الاصليين ، الواجب المترتب عليهم بافراغ سلة القمامة في ساعات معينة من النهار » .

فالمسلم اعتبر دوماً ، على اقدار مختلفة ، وجود الاوروبي في دياره ، ضرباً من الاهانة لصيبه في الصميم ، فهو لا يمكن ان يألف او ان يأنس الى وجود حكومة تدين بغير دينه ، كما يلاحظ موظف روسي عمل مدة طويلة في التركستان . فهو يصف بالجنون هذا السباق الى

الفاتح الذي يستسلم له غزاته ومستعبدو ارضه وبلاده . « بلغت اوروبا اوج قوتها وبطشها ، كما يؤكد يحيى صديق . وبالرغم مما حققت من امجاد وعظمة وقوة فهي اليوم اكثر انقساماً على نفسها واكثر عطباً من اي وقت مضى » . ولذا قام دوماً بحالة كون ، شعور بجامعة اسلامية تحمل المقت لما هو اجنبي غريب ، كثيراً ما برهن عن وجوده ، هنا او هنــاك ، بشكل او بآخر ، واحياناً بعنف شديد ... ففي الوقت الذي ارتدت فيه الحركة الوهابية الى تجسد ، فالطوف يلي عصور الحركة السنوسية التي تقوم بدعوة لا تقل تمتد من ضفاف خليج سرتا الى مشارق النيجر ونهر الشانج . وقد احسنت الصمود في وجه الايطاليين في طرابلس الغرب . «توهمت ايطاليا انها امام تركيا» كما يلاحظ منوتو ، «فقد وجدت نفسها وجها لوجه مع الاسلام» . فالطريقة السنوسية اختارت لها طرائق سرية تتصف بالفطنة والحذر ، وابت ان تربط نفسها بعجلة القسطنطينية عندما حاول السلطان عبد الحميد ان يرفع فوقها علم الخلافة . فالجامعة الاسلامية ، هذه الرابطة السياسية الدينية التي سبق لغبرييل شارم ان حذر ، منذ عام ١٨٨٣ ، من الاخطار التي تمثلها ، اتخذت سلاحاً لها وعدة الترهيب ودهاء الدبلوماسية ، لم تتورع عن هدر دماء المسيحيين في ارمينيا وكريت ومقدونيا ؛ والسلطان الاحمر نفسه طوح به الغرور لاقامة علاقات مع اليابان ، بعد أن راح بعضهم يبشر مهدداً بقرب اعتناقها الاسلام بالجملة . وهنالك حركة للتقارب ظهرت سنة ١٩١٢ ، بين المسلمين وبين الوطنيين من الهنود والصينيين . فتحت لنصرة الاسلام والمسلمين اكثر من ١٠٠٠ صحيفة اوروبية ، يخرج بعضها من القاهرة بالجملة بغداد وطهران وامرتسار ، والبعض الآخر من القسطنطينية باتجاه بمباي او باتجاه معاكس ، لتصدر من كلكوتا باتجاه ايران وتركيا ومصر .

وهذه الجامعة الاسلامية الجبية ينتصب في وجهها قوميات فتية . فلم تستطع كبت النفور المستعصي بين الاتراك والعرب ، في قلب السلطنة العثمانية وراح جمال الدين الافغاني يشيد عالياً بحضارة العرب وشهدها في لبنان بعثاً من دعاته رحلته الكبار خليل مطران وجبران خليل جبران . ويقوم الكاتب السوري الكواكبي يطالب بوجود الخليفة – خليفة المسلمين– في مكة المكرمة . وفي عام ١٩٠٥ ، اذاعت عصبة الوطن العربي من باريس نداءها المشهور ، في الوقت الذي راح فيه نجيب عازوري ينشر كتابه : « يقظة الامة العربية » . ونشبت في الحين ذاته ، في الحجاز وفي اليمن ثورة عجزت تركيا عن قمعها بالقوة .

وبعد ذلك بقليل قامت في الاستانة ثورة استبدلت النزعة الاسلامية التي قال بها عبد الحميد ، والتي باءت بالفشل وقابلها الناس بالاعراض ، بحزب وطني تركي هو حزب تركيا الفتاة .

وحوالي عام ١٨٩٥ ، أطلت علينا الجامعة الطورانية ، ظهرت اول ما ظهرت عند تتــار روسيا ، اذ قام بعض اغنياء تجار باكو بدعم حركة تدعو لم شعث الجماعات الطورانية المتناثرة حلقاتها بين فنلندا ومنشوريا ، للوقوف في وجه القيصرية الروسية التي كانت تدعم وتعمل

« لتروبس » هذه الاقوام . فقد ضم اول مجلس تمثيلي روسي (دوما) عدداً محترماً من الاعضاء المسلمين كان لهم وقع مهيب في النفس اقلق خواطر اولي الامر في روسيا . فلم تتطور الامور ، من هذه الناحية ، الى ابعد من ذلك . الا ان اكشورا اوغلو ، احد تتار الفولغا، جاء الاستانة واسس فيها جمعية طورانية ، حيث قام احد مواطنيه المدعو احمد بك آغا ييف معاية ناشطة بين حملة الفكر من خصوم حكم السلطان عبد الحميد . وظهر اذ ذاك الى الوجود حزب تركيا الفتاة عرف ان يكسب له اعضاء كثيرين في الاوساط التركية وفي صفوف الجيش ، مستغلا الفشل الذي بليت به محاولات السلطان ومعرضاً بالتنازلات التي تخلى عنها الخليفة ظل. وراح هذا الحزب يتغنى بفضائل الشعب التركي المسلم البعيد عن التعصب ويجمع باقامته ، في وجه العربي الذي وصفوه بالمتقلب والفوضوي ، حركة قومية متعصبة مستهجنة تسلمت مقاليد الحكم في البلاد بفضل جيش افراده من الرعايا والذميين ، اطلق على لجنته الادارية اسم « الاتحاد والترقي » ، اذ كانت تضم بين صفوفها ، مسيحياً ويهودياً ، وانتسبت بالمبادىء التي نادت بها الى اوغست كونت والى « فلسفته الوضعية الكاملة » ، وراحت تنادي «بالعثمانية » بحيث يصبح كل رعايا السلطنة دون اي تمييز عرقي فيما بينهم « عثمانيين » . الا ان الفشل جاء تاماً ، كاملا ، هنا ايضاً ، وذلك بفقدان تركيا طرابلس الغرب ، حيث تمثلت المقاومة وتبلور الصمود في وجه الغازي المستبيح ، بالسنوسيين ، وبفقدان البلقان ، وبانفصال البلدان العربية تدريجياً من تركيا . وقد ظهر ان « الوطن العثماني » يجب ان يقتصر ، بعد امد وجيز على العثمانيين الاقحاح . ففي الحين الذي راحت فيه انكلترا تظهر عطفها على العرب، كانت المانيا تؤيد الجامعة الاسلامية الحميدية وتتظاهر بتأييد الحركة الوطنية التركية في الاستانة . وفي نهاية الامر ، لم يلبث حزب تركيا الفتاة ان دب سوء التفاهم بينه وبين الجامعة الجرمانية .

سقوط عبد الحميد عن كرسي السلطنة سبق بقليل سقوط الشاه محمد علي ، هذا الشاه المستبد في دولة راحت فريسة الفوضى المخزية . هنا حزب تركيا الفتاة وهناك حزب ايران الفتاة ، وقد تألف الاخير منها من لميم الاعيان ورجال الفكر وبعض المغامرين جاؤوا من القفقاس ومن ارمينيا ومن بعض ائمة الشيعة . فتبريز تقف في وجه طهران. وقد راح الشاه فريسة هذا التقارب الذي تم بين الانكليز والروس ، فاضطر ان يجمع المجلس الوطني وان يعتزل الحكم عام ١٩٠٩ لابنه الشاب . الا ان الثورة التي تستجدي معونة المستشارين الاميركيين ، وتحاول لفترة قصيرة استمالة برلين الى جانبها ، لم تستطع الصمود امام التدخل المزدوج من قبل الروس والانكليز . فحوادث الفتن والاضطرابات لن ينتهي عهدها بسرعة في ايران التي راحت فريسة الدول الاستعمارية المجاورة لها .

والحوادث الدامية التي وقعت عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ في كل من تركيا وايران تردد صداها في القاهرة . فقد كان سبق اللورد كرومر ان غادر مصر بعد ان كان قد تولى ادارتها مدة ٢٨

سنة، وعمل على تنظيمها وفقاً لتطلبات المصلحة البريطانية. ولكن الروح القومية المصرية التي بدت طلائعها في ثورة عرابي باشا، لم تخمد جذوتها قط كما يلاحظ المستكشف شوابنفورث عام ١٨٩٥. فاذا ما رضي جناحها المعتدل ممثلا بالشيخ محمد عبده، شكلاً من التعاون المؤقت، فقد راح يؤكد بصوت مصطفى كامل «المصريون لمصر ومصر للمصريين». ومع ذلك كان كامل يراعي جانب المحتل. وعندما توفي عاد الاضطراب الى البلاد واشتدت حركة المقاومة كما حدث في الصين والهند بفضل التطور الذي عرفته البروليتاريا الصناعية في البلاد. «ان كلا ضفتي النيل، كما يلاحظ لويس بروان، عام ١٩١٠ – تزخر بالمصانع ومعامل السكر ومعامل نسيج القطن التي ترتفع سحائب مداخنها السود فوق عزب الفلاحين ومنازلهم المتخذة من اللبن».

وجاء كتشنر واسرع الى تعطيل الجرائد الوطنية واخذ يلاحق احرار البلاد ويضيق على زعمائها الخناق. الا ان الملحق الصحفي سدني راح يعترف بالحقيقة قائلا: «لسنا محبوبين في مصر». كما ان لوتي اخذ يتحسب قائلا: «مسكين هذا النيل، حقا مسكين... ما هذا الانحطاط الذي صار اليه! بعد هجمته السحرية التي امتدت عشرين قرناً نراه اليوم تنتقل على متن ظهره تكتات وكالة كوك الطافية، ويغذي مصانع السكر ويجهد نفسه ليؤمن بما يفيض به من غرين خصب، المواد الاولية للمنسوجات القطنية الانكليزية».

حري بنا ان نلاحظ هنا ان الحركات الوطنية في العالم الاسلامي اخذت تستيقظ في هذا الوقت بالذات الذي بدا فيه ان الدول الاوروبية اخذت تقضم من جنباته وتقتضي فيه نهشاً وتقاسمه. فغزو الدول الغربية الضخم وقع في الوقت بالذات الذي تم فيه غزو المغرب، فالضربة تلو الضربة، اذ يحتل الايطاليون طرابلس الغرب، ويفرض الفرنسيون حمايتهم على فاس، ويفقد الاتراك كل ممتلكاتهم في اوروبا باستثناء تراقيا الشرقية، وتبدو الاستانة وشيكة الوقوع بيد البلغار، وآسيا الغربية تتمخض بانقسامات وطنية وشيكة الوقوع. ألم يُنشأ وطن قومي لليهود في فلسطين؟

والمقاومة في المغرب بدت عنيفة وطويلة، فتمركزت في جبال الاطلس وفي الريف وحدود الصحراء الكبرى. ومن الامور التي لها مدلولها هنا، مهما قل شأنها، ظهور الحركة الثورية لتونس الفتاة، التي ضمت بين صفوفها، عدداً من رجال الفكر وبعض الشيوخ مطالبة بتوسيع الحريات وتسبب ببعض حوادث العنف، اذ ان المقيم العام في تونس مسيو ألابتيت، والسكرتير العام السيد روي إستمرا في ادارة الحمية وفقاً للمبادىء والنصوص التي حددها كمبون وروى نفسها، وهو اتفاق راعى مصالح الاقلية الاوروبية في البلاد والدولة الحسينية المتعاقبة على الحكم.

وفي الجو الهادىء الذي ساد الجزائر حيث ازدياد حركة الاسكان بين الفرنسيين لم تستطع، بالرغم من النسبة العالية التي سجلتها ان يزيل الفارق الكبير لصالح الاكثرية الاسلامية. واخذت ترتفع في تلك البلاد، منذ عام ١٩١٠ بعض الاصوات من بين الاوساط الوطنية

التي تخرجت ، هنا كما في تونس ، المعاهد المصرية على النهج الاوروبي. وقد اغتنم هؤلاء الشبان الجزائريون مناسبة تقديم مشروع الخدمة العسكرية ليطالبوا ، بالمقابل ، بالمساواة في الحقوق والواجبات امام الضرائب ، ونشر التعليم وتمثيلا اكبر في مؤسسات البلاد. أما اصحاب العمائم الذين تختار فرنسا من بينهم القضاة والاغاوات ، فقد رفضوا مشروع الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي مدعين انهم انما يستجيبون ، في موقفهم هذا لمطلب الدفاع عن حقوق الاسلام .

صحيح ان افريقيا الجنوبية الغربية الالمانية شهدت عام ١٩٠٣ - ١٩٠٥ انتفاضتين قامت بها تباعاً قبائل الـ *Hereros* وقبائل الـ *Hottentots* احتجاجاً منهم على الاستعمار البشع الذي استهدفوا له ، وعلى سياسة العنف والبطش التي راحوا فريسة لها ، وهي سياسة اخذت الى حد ما ، تراعي جانب ابناء البلاد والتي استأنف الاخذ بها ، منذ عام ١٩٠٧ امين سر الدولة درنبرغ . الا ان الزنجي مسلماً كان ام وثنياً ، لم يكن سواء في السودان او في مناطق الكونغو على اختلافها ، لم تكن اعتملت نفسه بعد « بالروح الافريقية » .

ومدغشقر لم تعرف سوى فتنة بسيطة وقعت عام ١٩١٣. وعلى عكس ذلك يجب ان نسجل هنا طلوع روح قومية جياشة في قلب افريقيا الجنوبية التي تعد مليوناً ونصف مليون من البيض واربعة ملايين ونصف من السودان والهنود . فالمنافسة الحادة الطويلة التي قامت بين البيض من بريطانيين وبورز لتأمين السيطرة لجانب من الفريقين انتهت ، عام ١٩٠٢ بغلبة الـ *Uitlanders* على الروح القومية التي يمثلها الـ *Afrikanders* . الا ان الدومنيون الذي انشيء عام ١٩١٠ نهض على الشعار المعروف : القوة في الوحدة . ان تضامن الفئتين وتوحيد موقفها تجاه سكان البلاد الاصليين عرف كيف يتغلب على وطنية الافريقيين ، وامّن قيام عهد من التعاون بينها وبين لندن نص على الدفاع عن حقوق البيض . وعلى غرار حادث شبيه بالحادث الذي وقع للولايات المتحدة الاميركية بعد حرب الانفصال ، فما كادت تنتهي حقبة « التعمير والانشاء » حتى راح العنصر الوطني المغلوب على امره يعمل على ترسيخ وشائج العنصرية التي قال بها وعلى إظهار عدائه للرأسمالية . وقد قام فريق من البويرز يلتفون حول الجنرال هرتزوغ يطالبون باتخاذ اجراءات تزيد التمييز العنصري والتشهير بفريق ارباب المناجم . وفي كانون الثاني ١٩١٤ ، تألف حزب وطني في جنوبي افريقيا لم يلبث بعض الغالين من عناصره ان اتفقوا مع غلاة الوطنية في ايرلندا ، خلال الحرب العالمية الاولى ، على شن هجوم مشترك ضد بريطانيا .

لا نرى في ما تبقى من اجزاء الدومنيون البريطاني من قوة طاردة شبيهة بالقوة التي تبعثها النزعة الافريقية في الكاب وبريتوريا . ولما كانت المطالب الاقليمية الكندية قد برزت على بعد متساو من لندن وواشنطون فلم تصب مصالح انكلترا الاستعمارية ،بأي اذى او ضرر يذكر ، واوستراليا تعتمد على اتحادها مع البلد الام لتصمد في وجه التهديد الاسيوي . والحقيقة التي

لم يتطرق اليها اي شك هي ان هذه الشعوب أخذت تشعر بوجودها ، كما اننا نلاحظ عندها رغبة بأن تصبح امة معترفاً بها .

ولكي يحطم اصحاب المناجم في جنوبي افريقيا قوة اتحادات العمال لجأوا الى عمال افريقيين لم يكن ليسمح لهم بذلك من قبل . وبعد حوادث اضرابات عنيفة وقعت عام ١٩١٣ – ١٩١٤، اقبل هؤلاء العمال على الدخول في عضوية النقابات العمالية بأعداد كبيرة . الا انهم لم يلبثوا ان خضعوا هم انفسهم للتشنيع بالزنوج الخاضعين لوضع فيه نصف عبودية .

اما بلدان اميركا اللاتينية حيث اخذت الرساميل تتجمع، فقد راح ارباب المال فيها يقيمون لهم علاقات ناجحة مع رجال الاعمال من الاوروبيين والاميركيين. لاشك ان العصا الضخمة التي اوح بها تيودور روزفلت في اميركا الوسطى بعثت الريبة في النفوس وأبت الجامعة الاميركية ان تمهد الى « الولايات المتحدة الاميركية ، سلطة بوليس دولي في المنطقة ، وهو مطلب وقف بوجهه بعناد رجل القانون الأرجنتيني المشهور داغو ، الا انه لم يقو شيء ضد سيطرة رؤوس المال الأجنبية . وحري بنا ان نذكر هنا مثل المكسيك . فالثورة التي انهت عام ١٩١٠ نظام حكم الرئيس بورفيرو دياز ، عجزت عن احقاق مطالب جماهير الفلاحين المحرومين من الاراضي ، كما عجزت عن إشباع مطالب البروليتاريا ، الناشئة ، هذه البروليتاريا التي اخذت تترعرع في احضان النقابية والاشتراكية ، ولاارضاء البورجوازية المستنيرة بعض الشيء التي تمنت قيام نظام حر ، وهذه الحكومات الصورية او الوحشية التي تعاقبت على الحكم في البلاد كان عليها ان تراعي جانب واشنطون التي كانت دوماً على استعداد التدخل بشؤون البلاد.

وهكذا ، في مكسيكو كما في بريتوريا ، في القاهرة كما في نانكين ، لم تلبث ان برزت قسمات وجه هذه القوميات الوطنية التي تطمع ان تكون سيدة مصيرها . وهكذا فالحركة التي بدت طلائعها في اوروبا ، منذ القرن الثامن عشر ، اخذت تثير في القرن العشرين اهتمام بلدان القارات الخمس . فقد اصبح « التجمع البشري » في الوطن ، امراً عاماً ، شاملاً يشمل جميع المجتمعات البشرية بحيث ان فكرة الوطن لم تعد تستند ، كما يلاحظ جوريس، على الاصول الاقتصادية وحدها ، ولم تعد « تنحصر في دائرة ضيقة هي من حق طبقة معينة ، لان اصولها تنبع من طبيعة الحياة البشرية » . وفي وسط هذا « التجمع البشري » ، راحت المشاعر الفردية « تتجمع وتنطلق » عارمة بحيث ان « المستثمرين » و« المستعبدين » اخذوا يتذوقون طعم الكرى والنوم الهني عند ادنى درجات الصرح الشامخ ، ولتشعر في صميمها بارتياح اكبر مما كانت تشعر به » في هذا العالم البراني الذي يجيش بالعداء العنيف ويتنزى بالقلق الصاخب » .

الفصل الرابع

الارتكاسات العالمية والدفع الاشتراكي

العاملون على تأمين ضروريات العيش هم اكثر الناس افتقاراً لها ، بينما هي تتوفر بسخاء للذين لا يعملون شيئاً في انتاجها .

(أناتول فرانس : جزيرة البنغوين ، ١٩٠٨)

البروليتاريا ووضعها القائم في اواخر القرن

ان تحول النزعة الاقتصادية ، منذ عام ١٨٩٥ والانطلاقة الجديدة التي عرفتها حركة الانتاج والتبادل التجاري ، كل ذلك عاد بالخير العميم على الرأسمالية . غير ان الانتهاء من عملية اقتسام المستعمرات ، والمنافسة الحادة حول الخامات والمواد الاولية ، والسيطرة على الاسواق العالمية كل ذلك وقع في الوقت ذاته التي طلعت علينا اوليغارشية محتكرة شديدة البأس . ومن ثم ، فقد اضطر اصحاب الاعمال للتخلي ، شيئاً فشيئاً ، عن مواقفهم الفردية المتعذر بسطها التي لم يعد بوسعهم الدفاع معها عن مصالحهم . ففرنسا وحدها ، ارتفع عدد النقابات العمالية ، بين ١٨٩٠ – ١٩١٤ ، من ١٠٠٤ نقابة او رابطة الى ١٩٦٧ ، كما ارتفع في الفترة ذاتها ، عدد الاعضاء المنتمين اليها من ٩٣ الف الى ٠٠٠ ١٠٢ .

والثابت ان دنيا العمل المأجور اخذت تتطور ، من الوجهة العددية تطوراً عظيماً . فالى فئات العمل المختلفة العاملة في الصناعات الصغرى والوسطى والكبرى يجب ان نضيف هنا فئة اخرى تعمل في القطاع الذي يمكن ان نسميه : « القطاع الثلاثي » حيث يعمل اصحابه في توزيع الحاصيل والانتاج وتأمين الخدمات العامة . والذين يتمثلون بهؤلاء العمال الذين يرتدون الياقة المستعارة وربطة العنق والقبعة اللينة . وقد كانت نسبتهم في فرنسا ، عام ١٨٦٦ ، بنسبة ١٠ موظفين الى ٢٤٠ عامل ، فارتفع الى ١٤٥ عام ١٩٠٦ ، والى ١٢٠ عام ١٩١٤ . ففي الحقبة الواقعة بين ١٨٩٥ – ١٩١٤ ، قدروا أرباب الاسر التي لا دخل لها سوى اجر رئيسها ، من ٨ – ١٢ مليون ونصف المليون ، وعدد الطبقة العمالية ، بحصر المعنى ، في الولايات المتحدة من ٥ – ٧ ملايين ، وفي روسيا من ٣ – ٤ ملايين .

فالازمة الكبرى التي نزلت باليد العاملة في بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الغربية والانكلوسكسونيا خارج اوروبا انقشعت كربتها عن بعض مكاسب تمثلت في تحسين ظروف العمل التي كانت تكتنفها . فاذا ما استمر ارتفاع الأجر الاسمي ، خلال الظروف التي اطلت . (راجع الجدول المثبت صفحة ٩٠) فالأجر الفعلي أجـر لحقه بعض التأخر اذا ما نظرنا اليه من ناحية تكاليف الحيـاة . فالارتفاع في هـذه التكاليف ، اختلف من بـلد الى آخر ومن مهنة الى اخرى ، وبصورة ابرز واوضح ، في ايطاليـا حيث الاجـر كان اقـل (كان الدليل الاسمي ٧٦ عام ١٩٠١ مقابل ١٠٠ عام ١٩١٣) وبدا زهيداً في انكلترا (الدليل ١٠٠ عام ١٨٨٠ ، مقابل ١٣٢ عـام ١٩٠٠ ، و ١٤٣عام ١٩١٣) ، وتوقف في بلجيكا منـذ عام ١٩٠٤ ، ثم عقبه حالة من الركود الفعلي (دليل ٨٩ عام ١٨٩٥ ، و ١٠٤ عـام ١٩٠٤ ، و ٠٠ عام ١٩١٣) .

والمرافق الاكثر حظوة هي المناجم والميتالورجيا اللتان زاد الطلب عليها بصورة محسوسة . فعامل المناجم في الروهر كان يتقاضى ، عام ١٩١٠ ، ٦ ماركات عن كل طن فحم يستخرجه ، مقابل ٣ ماركات عام ١٨٩٧ . اما عامل مناجم الفحم في فرنسا الذي كان اجره ضئيلا ، حتى ذلك العهد ، فقد حسنت اوضاعه وارتفع اجره (من فرنكين ، عام ١٨٥٠ الى ٣،٣٠ فرنكات عام ١٨٨١ ، ثم ٤،١٠ فرنكات عام١٨٩٥ ثم الى ٥،٤٠ فرنكات عام ١٩١١) اما عامل النسيج فقسمته ضئزى : فالاجرة التي كان يتناولها في معمل ورقان النسيج في مدينة غنت لم تكن توازي اكثر من ٦٣ ٪ من كلفة الانتاج ، عام ١٩١٣ ، مقابل ١٢ بالمائة عـام ١٨٩٧ ؛ ومع ان انكلفة العامة تضاعفت قيمتها ، فقد امكن المحافظة على تكاليف الترضيب كما حوفظ على معدل الربح اذ اتاح إدخال التصفيح تأمين زيادة في الانتاجية .

فالاجر يبقى متدنياً جداً في معظم قطاعات العمل . فاذا ما أوضح التحقيق الذي اجري في فرنسا ، عام ١٩١١ ان النجار وصانع الاقفال والسنكري يربح ١٠ فرنكات على الاقـل ، في اليوم فعلى العمال المياومين ان يقنعوا بأجر يتراوح بين ٤ - ٥ فرنكات بينا تربح المرأة ما بين ٢ - ٣ فرنكات في اليوم ، وليس بنادر قط ان تقوم عاملات المنازل بعمل ١٥ سـاعة لتربح ١،٥٠ فرنك . اما في آسيا ، فالارقـام تهبط الى ادنى من ذلك بكثير ، اذ يتناول الولد الياباني الذي يعمل في المصنع نصف فرنك و٢٥ سنتيا اذا ما عمل في مزارع الأرز .

بالاضافة الى هذا كله ليس ثمة عمل موصول او مستمر . هنالك ازمات بطـالة مزمنة . وحركة النزوح او الهجرة بالجملة التي يقوم بها اليابانيون على نطاق واسع تشهد عالياً على الفقر العام الذي تتخبط فيها الجماهير .

حتى في هذه البلدان الاكثر أخذاً بأسباب التطور ، تبقى اليد العاملة في وضع مجحف جداً بالنسبة لرأس المال . فقد كان العامل في الولايات المتحدة ، عام ١٩١٤ ، يتناول من الدولارات ضعفي ما كان يتناوله منها عام ١٨٩٩ ، بعد ان ارتفع عدد العمال في البلاد ٤٠ بالمائة بينا اصاب الرأسمال من الربح ما يعادل الضعفين ونصف في عدد من الاستثمارات وزاد قليلا عن قبل .

(فالدليل الاصلي ١٠٠ لعام ١٨٩٩ ، انتقل الى ١٣٦ في قطاع الاجور ، والى ١٧٠ في قطـــاع الارباح ، و ١٣٧ في الانتاج الصافي ، و ١١٦ في تكاليف المواد الاولية) . ففي الوقت الذي زاد فيه ربح المتمدن الفرنسي ٢٠ بالمائة تضاعفت فيه ارباح شركات الاستثمار . فهل من يستغرب بعد هذا كيف ان ٨٥ بالمائة من الدخل القومي في انكلترا ، قبل الحرب العالمية الاولى ، كان يذهب الى جيوب ٥ بالمائة فقط من مجموع السكان ؟ ، وان ٢٥ مليونا في فرنسا لا يخــلفون لدى وفاتهم اية تركة تذكر ، وان ١٢ – ١٣ فرد منهم يملكون ٣٠ بالمائة من الثروة العامة ، وان اقل من مليون يملكون ٧٠ بالمائة ، وان في الولايات المتحدة الاميركية بين ٢٠ – ٢٥ مليون من المكلفين منهم ٣٢٥،٠٠٠ فقط مسجلة اسماؤهم في سجلات ضريبة الدخل ، وان دخــل منهم يزيد ١٥،٠٠٠ فرنك ، وان في المانيا ٣ ملايين يتمتع الواحد منهم بدخل يزيد على ٣٠٠٠ مارك في السنة (بينهم ٩٠٠٠ يزيد دخل الفرد الواحد منهم على ١٢،٥٠٠) ، وان معدل مـــا يصرفه العامل يتراوح بين ٧٠٠ – ٢٢٠٠ مارك) .

الناحية الاهم وظهور التخصص التقني (او التيلورية)

للمحافظة على ارباحه وحرصاً منه عـلى إنمائها ، راح رب العمل يدرس بعنـاية مكلية قضيـة توزيع العمل في مصنعه والتخصص في كل وجه من نشاطاته . فلم يستطع يوماً ان يوحد نظرته الى العمال القائمين على تأمين الانتاج في معمله . فقد قسمهم الى فئات متميزة بين عمال مهرة وعمال ملفقين . كذلك لم يغفل قط عن ان العمل الفردي يختلف جودة واتقاناً بين عامل وآخر باختلاف ما هما عليه من اهلية ومراس واستعداد خلقي وتقنية مما يتوفر للواحد منها . والشيء الذي فرض نفسه كنتيجة حتمية للتصنيع هو تقهقر العمل الموصوف بالتفني امام الآلة . ولهذا السبب نرى العامل نفسه يستنزل في مطلع العصر اللعنات والحرم على الآلة وعلى الذين استنبطوها بعد ان اتهمها بالقضاء على المهارة التقنية اليدوية . والحقيقة التي لا مراء فيها هـــو ان الآلة الميكانيكية اقتضت إعـــداد فئة خاصة من العمال المهرة المتخصصين يطلب اليهم إدارتها وتوجيه نشاطها . ليس مفروضاً في هؤلاء العمال ان يفقهوا دقائق ســـير الآلة في مجموعه وعمل كل قطعة على حدة . المطلوب منهم ان يكونوا مراقبين لعملها الفني المحض . وعلى هذا الاساس نرى عدد العمال غير المتخصصين يهبط من ٦٥ الى ٢٥ بالمائة بين ١٨٣٠ و ١٩١٠

فاذا ما ادركنا على وجهه الصحيح الدور الذي يلعبه التصنيـع من هـــذه الناحية ادركنا الاثر الذي تتركه الآلة في رفع الانتاج ودفعه والتوفير الذي تتيحه من جهة اليد العاملة . ففي مناجم الفحم ، مثلاً حيث يخف الانتاج وينقص كلما عمق الاستخراج ، جاءت الآلة ترفع من كميته المستخرجة . ولما كانت نسبة ارتفاع الاجر مرتبطة الى حد بعيد بتطور الآلة التي تزيد من الانتاج فقد ساد الرأي العام ، الاعتقاد بأن تنظيم العمل تنظيماً دقيقاً يراعى فيه الاختصاص والمهارة والمراس ، يعود النفع فيه على العامل ورب العمل معاً ، وقد اتخـــذت الشركات الاستثمارية الكبرى حجة منه وذريعة للتعويل عليه اكثر فأكثر ، اذ تستطيع معـــه اكثر مما

يستطيعه صاحب الورشة الواحدة ، تطبيق خير اساليب الاستثمار واجراء وفيرات محسوسة في سعر الكلفة والانتاج ، وبيع المصنوعات بالتالي بسعر ارخص مع تحقيق ربح اكبر .

ولذا كان لا بد من توزيع العمال في المصنع حسبا تقتضيه طبيعة العمل ومقتضيات مصلحة التصنيع الآلي . ان تكييف العامل والفراغه وفقاً لحاجة التصنيع من شأنه ان يوطد فيه الثقة بينه وبينها . فالنظرية العلمية تبحث فكرة المنهجية في العمل والمصنع . فهي قضية تتعلق في صميم علم النفس التطبيقي . فبينا كانوا يعتمدون إختبارات الذكاء للكشف عن كفاءات العامل واستعداداته النفسية ، راح موتسلبرغ وهو من تلاميذ روتنا الذي هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية ، يقترح عام ١٨٨٠ ، تطبيق علم النفس التقني على الصناعة .

الا ان المحاولة الاولى لتنظيم العمل تنظيما علمياً يجب ردها ، كما هو شائع المهندس تيلور . فقد اقترح على شركة بتلهم لصنع الفولاذ ، لتحديد معدل الوقت الذي يقطعه العامل للقيام بحركة ما، على ان يتولى قسم التخطيط في المعمل تحديد الوقت القياسي لصنع غرض ما قياسي *Standard* واوصى بالوقت ذاته بتنحية او إبعاد كل عامل لا يتقيد بالخطة المرسومة .

وهكذا نرى ان التيلورية لم تكن بحد ذاتها اساساً لتحسين ظروف العمل لدى العامل ، بل كانت تتوخى الوصول الى تسجيل اعلى انتاج يمكن عن طريق تطبيق الآلية الذاتية (الاوتوماتيكية) هذه الاوتوماتيكية التي تجعل من العامل قطعة من الآلة . فاذا ما جاءت الطريقة في مصلحة الرأسمالية فلم تلبث من ناحية ثانية ان احدثت ردة عكسية لدى اصحاب الاجور . وامر مجلس الكونغرس الاميركي في واشنطون القيام بتحريات حول الادارة العلمية في العمل . ولم يكن نقد هذه الطريقة باقل حدة في اوروبا . فقد رأى فيها العالم النفساني ساخس «تنظيماً للجهد البشري» كما ان النقابي العمالي بوجيه استعمل هذا التعبير عنواناً لكتاب له يفضح هذه الطريقة التي تساعد على جعل العامل آلة ذاتية « بلهاء » .

وعندما راح فورد يخصص ، عام ١٩١٢ مكافأة للعامل المطيع الذي يستثمر وفره ويؤسس له عائلة ، لم يضع نصب عينيه ، من اقتراحه هذا ، هو ايضاً سوى تحسين وسائل الانتاج (فالدليل الأسمي للأنتاج الذي كان ١٠٠ عام ١٩٢٩ ، لم يكن سوى ٢٧٣ عام١٨٦٩ و ١٢ عام ١٨٨٩ ، و ٥٩٫٣ عام ١٩٠٩) .

وهكذا بدت العلاقات بين الانسان والآلة بشكل ابقى تابعية الانسان لمقتضيات الانتاج والسعي الوصول لتأمين المزيد من الربح وفقاً لمبادىء الرأسمالية .

المزيد من المؤلفات الاساسية

أطل علينا بعد جيل الرومنطيقية الاجتماعية أجيال عنت تباعاً بالواقعية والطبيعية ، وانصرفت بكليتها لدراسة اوضاع المساكن والبائسين ووصف ما يكتنفهم من اوضاع اجتماعية وصفاً موضوعياً فذا خلا من الشعورية او الاحساسية .

وقد انتشرت هذه النزعات الشعورية واستطال الاخذ بها حتى اواخر القرن ، ان لم يكن في فرنسا ، فانه في عدد كبير من البلدان الاوروبية الاخرى ، وقد كان الكاتب الفرنسي زولا اثره البالغ في هذا المجال امتد من سهول الفلاندر حتى مشارف البحر البلطيقي ، وظهرت هذه النزعة بوضوح عند لمان كرونتجن وكراين ، كما ظهرت بوضوح عند نكس وريمونت وهوبتهان وقد غزت حتى تشيخوف في قصة « الموجيك » وتغلغلت في روايه زولا : جرمينال ، والارض بالأكران مختلفة .

نحن الذين اصطلحوا على تسميتنا سفلة
بلغت منا الروح التراق ، نحن الافاكون
أفضل لنا الف مرة ان نذهب هياكلنا العظمية
مع هياكل اولادنا وبناتنا فننسج أكفاننا بأيدينا
(هوبتمان ، الحائك)

وانفجرت الثورة الاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية . من شتى قلم كتاب امثال درايزر وأبتون سنكلر وهوايتلوك . اذ اخذوا بتحريك « الثقالة » وبلغت روسيا مع كوروليحكو وغوركي ، وكوبرين .

الا ان الرمة المثالية ليست بالضرورة هروباً من المشاهد المريعة . فقد وقف الى جانب المسكين : فرنسن بما عُرف عنه من حنو وليون بلوا بقشريرة انما بروح مسيحية حقة ، والروح الناهضة للدين ولرجاله التي جاش بها هذا الاخير كادت تتصل ببابانيز وزولا .

والكاتب التقليدي هو الذي يجر الى المعركة ويثيرها احتجاجاً على هذا الظلم الاجتماعي الذي يبدو من البورجوازية ، كتاباً امثال شو وويلز . وقد دفعت قضية دريفوس ، كاتباً فرنسيا هو جول رينار نحو الاشتراكية ، واخرجت من برجه العاجي اناتول فرانس ، هذا الكاتب الساخر المستهزىء الناعم الذي عالج او بحث اموراً جمة . ومن هؤلاء الكتاب من يحملنا نفكر بمسرح شعبي وبأغان شعبية ، فرومان رولان هذا الكاتب الرمزي الذي هو خير من يمثل الانسانية المسالمة يتوخى ان يترك لنا وصف عظام الرجال الذين تألموا وجاهدوا في سبيل رفع مستوى الحياة . فنحن امام طلع حقيقي من هؤلاء الشعراء والروائيين الاحقاق من ابناء الشعب لا يتورعون عن استعمال اللهجات الشعبية امثال شارل لويس فيليب ابن صانع القباقيب في مقاطعة البوربونية الذي كشف لنا قصته المعروفة بوبا دي مونبارناس ، وجاره اميل غيومه ولضع القصة : حياة احد البسطاء والخياطة مرغريت اردو التي صرفت ٢٠ سنة في كتابة روايتها « ماري كلير » ، ثم بعض هذا الفريق الذي يمثل في فرنساء ثلة الكتاب المتواضعين ، الدالبين على انفسهم الثائرين خير من يمثلون جيل الادباء في فرنسا اذ ذاك . وغوركي الذي يبدو لنا اليوم بوهيمياً يصور لنا بعاطفة ملؤها الرومنطيقية مثال التائه البطل . فما اكثر الادلة والشواهد على الآلام الاجتماعية .

المركزية العامة وروح التضامن وقضية « ديموقراطية مسيحية »

ومع ذلك فقد راحت الطبقات العامة تحتل يوماً بعد يوم ، محلاً اكبر في الحياة السياسية ، بعد ان افادت كثيراً من تطور الدول وتحولها نحو النظام التمثيلي الذي ارتضته البورجوازية المتحررة وساعدت على رواجه . فالتحرر السياسي سار وفقاً للمبادىء الداعية الى الفردانية ومتطلبات السيادة الوطنية بينما تنزع القوى الاجتماعية منذ ذلك الحين ، الى تنظيم نفسها عن طريق المواثيق الصناعية والجمعيات المهنية . فالى اي حد يا ترى يتمازج المواطن « المواطن المجرد » بهذه المدنية الديموقراطية ، بهذا الانسان العالمي ؟

نرى ، قبل كل شيء ، ان النظام الاستبدادي او المطلق الذي استبدل في اليابان عام ١٨٨٩ بالنظام التمثيلي او الدستوري ، اخذ يتوارى تباعاً في كل من روسيا (١٩٠٥) وتركيا (١٩٠٨) وايران (١٩٠٩) ، والصين (١٩١١) . فالبلدان التي بقي فيها حق الاقتراع ، مدداً تقصر او تطول ، امتيازاً مقصوراً على اصحاب الثروات وحدهم ، استبدل بالاقتراع العام الذي اخذ يفرض نفسه في كل مكان. والتمثيل النسبي الذي عجل به في كل من بلجيكا وسويسرا والارجنتين، اخذ يلقى ارتياحاً ورواجاً لدى الفرنسيين .

ومع أن الرأي العام اخذ يهتم، بفضل الصحافة على الاخص ، بنشاط الهيئات النيابية، فحق الاقتراع الشعبي لم يكن ليعني قط اوليفيد ان المواطن اخذ يساهم ، اكثر فأكثر ، بتسيير القضايا العامة في البلاد . فقد بقيت هذه المساهمة اسمية أو نظرية ، في هذه البلدان التي لا يهتم فيها جمهور الناخبين ، جهلا منه او تكاسلا ، الا ما ، لواجباته وحقوقه المدنية ، وهي مساهمة تأتي جانبية او غير مباشرة في معظم الحالات ، وكثيراً ما حدت منها أساليب الاخذ بالنظام التمثيلي ، والمؤثرات الشخصية والحزبيات ومداخلات ارباب المال. ومن جهة أخرى،فالخدمات العامة التي تتطور بسرعة تأخذ موظفيها من رجال « السلك » ، فاذا ما تغلغلت فيهـا الروح النقابية ، كما هي الحال في فرنسا على الاخص ، فالدوائر العامة هي بمأمن من التيارات السياسية. الا ان الدولة التي لا يزال فيها انصار النظام القديم ينددون بشدة التدخل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ترى باستمرار دورها ينمو ويزداد بازدياد الضغط الذي تمارسه الهيئات والمنظمات النقابية المختلفة الحسنة التنظيم .

ان اعادة النظر في الليبرالية الفردانية الصرف التي بوشر بهـا منذ جون ستيورات مـل ورنوفيه اشتدت حركتها تحت تأثير الفلسفة الوضعية وعلم الاجتماع السبنسري ومدرسة دوركهايم. فالترابط القائم بين البشر رأى فيه مكثيرون نتيجة حتمية للقانون الطبيعي الذي يشد بعضاً الى بعض، اعضاء كل جنس من الاجناس الاحيائية. فبدلا من حقوق الانسان التي تراعي الى حد بعيد جانب الفرد، راح ليون بورجوى يوصي العمل بالعقد ذات المفعول الرجعي المسلم به، والذي يقتضي قيام رابطة سابقة تشد الفرد الى المجتمع ، وذلك في بحثه الموسوم : « محاولة حول فلسفة التضامن » . يرسم لنا فيه الخطوط الكبرى لفلسفة اشبه ما تكون بالليبرالية المستحدثـة التي

تبلتها الراديكالية الفرنسية . نحن أمام علمانية إنسانية تفرض على « من ينعمون بالامتيازات » ، واجبا اجتماعيا عليهم ان يؤدوه باسم العدالة ، على ان يحموا المواطنين الاكثر حرماناً ، عوناً ضد العجز الطبيعي والاخطار الاجتماعية مع التعهد بتأمين منافع التربية الابتدائية للجميع على السواء . وقد تبنى مثل هذا البرنامج عدد كبير من الاحزاب المتحررة المحافظة الموجودة في البلدان السكندينافية والانكلوساكسونية ، وفي سويسرا وبلجيكا و « التقدميون » في الولايات المتحدة الاميركية .

ان نظرية من هذا الشكل تتفق تماماً والمسيحية الاشتراكية كما يتمثلها بعض البروتستانت . فالكاتب الفرنسي شارل جيد الداعية الى التعاون يعرض علينا نظرية تعاونية أساسها الاختيار الادبي والاداري . وقد عرض لنا ولفرد مونو القضية بوضوح كلي في كتاباته العديدة ولا سيما بكتابه المعنون : « نهاية المسيحية » . « فالمسيحية ترزح تحت وطأة حرم ثقيل لأنها تأخذ بالجدية اللازمة» العمل على محاربة البؤساء في العالم وازالة آثارهم» . فنظام الاجر المعمول به اليوم مقضي عليه امام محكمة العقل ومحكمة الضمير ومحكمة التاريخ» .اما ألمانيا، فتسيطر عليها روح انسانية رحبة تقود الحزب الوطني الاجتماعي الذي اسسه نوماف اكثر منه حزب العمل المسيحي الاجتماعي المعروف بروحه المحافظة والناهضة السامية . اما في بريطانيا العظمى ، فالروح البروتستانتية هي التي تتنزى بالنزعات الفابية ونزعة الجمعية الفابية الانكليزية التي نشطت عام ١٨٨٤ والتي سعى اعضاؤها الى نشر المبادىء الاشتراكية بالوسائل السلمية .

وبالفعل فقد راحت الكنيسة الكاثوليكية تبحث عن طريقة تحد معها من حركة تجريد الطبقات من الروح المسيحية . ف« البراءة البابوية » التي صدرت عام ١٨٩١ شجبت بعنف ليس الكفر والروح المادية التي تطفو على التعاليم الاشتراكية ، فحسب بل ايضاً نزلت باللائمة على الرأسمالية التي تعمل على عزل«العمال وجعلهم بغير دفاع عن حقوقهم في الوقت الذي وجدوا انفسهم واقعين تحت رحمة أرباب العمل الذين تجردوا من كل شفقة » راحوا فريسة الجشع ومنافسة جنونية لا حد لها » . وراحت تؤكد ان الطبقتين المذكورتين معدتين من قبل الطبيعة للعمل معاً بانسجام كلي ، وتذكر الدولة بأن عليها واجبات معينة نحو « اصحاب الاجور » وتوحي بتشكيل جمعيات اخوية مشاركة بين ارباب العمل والعمال ، وبعبارة اخرى، تأليف نقابات مختلطة تخضع « لادارة رائدها الحكمة » .

غير ان الكثلكة الاجتماعية اخذت تتأرجح بين روح محافظة ذات نزعة نقابيةمناهضة لكل تعاون يقوم بين العلمانية وبين الحركات او التيارات التي تنتسب صورياً الى « الديموقراطية المسيحية » . فاذا ما راح الحزب الكاثوليكي ينتزع بنجاح من الحركة الاشتراكية جانبا من العمال الناخبين في بلجيكا وفي المانيا ، فالمسيحيون الاجتماعيون في النمسا راحوا يتخذون من محاربة السامية ذريعة لهم ، ومناهضة السامية التي تميزت بها بعض الاوساط الكاثوليكية في فرنسا هي التي تهدد بالخطر ، الفوز الذي يسم الحركة الديموقراطية المسيحية خلال قضية

درابلوس . الا ان الاب لومير اصطدم ، على غرار البير دي مون من قبل ، بالقضية المطالبة المحافظة وبعصبية ارباب العمل التي لا يهمها كثيراً ان ترتبط بروابط قانونية .

ولذا راحت البراءة البابوية التي صدرت عام ١٩٠١ ، توصي بالفصل بين العمل السياسي والنشاط الاجتماعي . ومنذ ارتقائه السدة البابوية ، راح البابا بيوس العاشر يدعو العمل الشعبي الكاثوليكي للامتثال لتوجيهات السلطة الكنسية ، بعد ان وافق على موقف الاسابيع الاجتماعية في فرنسا . وعندما راح مارك سانييه وألبون بطلنان عالياً موافقتهما على الغاء الاجر الرسمي وسيادة الشعب، راح الكرسي الرسولي يشجب « هذه النزعات المقلقة » حتى هذه الاتفاقات والمواثيق المعقودة بين عدة طوائف في قلب الاتحاد العمالي في المانيا، فقد نصحت بالتخلي عنها. اما في ما يتعلق بالانانية الانطوائية فعلى البراءة *Rerum Novarum* ان تذكر بالقواعد والمبادىء التقوية : « كالفقر ليس حطة او اهانة ؛ وعلى الانسان ان يتسلح بالصبر لما هو عليه من وضع » .

الضرائبية البيروقراطية وتطور التشريعات المالية

في اعتراف الليبرالية بضرورة المصالح العامة الدائمة اعتراف ضمني بحقوق الدولة باستيفاء ضريبة من افراد الشعب ، وفقاً لامكانيات الفرد وطاقته على الدفع . الا انه ظهر للكثيرين ان الضريبة المستوفاة يمكن ان تصبح بدورها اداة لتوزيع هذا الريع . وهذا التطور في مفهوم الضرائبية تم في الوقت الذي كانت فيه النفقات العامة ترتفع بسرعة في الدولة...وبالرغم من شجب الاشتراكيين الضرائب غير المباشرة باعتبارها اعتصاراً بغيضاً للأجور والدخل الصغير فقد استمرت تبهظ بثقلها الجماهير التي رزحت تحتها . ومن العسير جدا ان لايطلب من اصحاب الثروات القيام بمجهود اضافي في هذا المجال . من هنا اللجوء الى الضريبة على التخل التي تأتي تصاعدية نوعاً ما والتي قبلت العمل بها بعض المقاطعات السويسرانية ، مع ضريبة إضافية تم فرضها في الوقت ذاته على رأس المال ، في كل من بروسيا وساكس، على غرار بريطانيا العظمى التي سارت في تجارتها على سياسة حرية التبادل التجاري . وقد اعترض معارضون على هذه الضريبة ونعتوها بانها تفتيشية ، اذ انها تفرض التثبت من صحة الريع المعلن عنه ، وهي ضريبة عادلة ، على عكس ذلك ، لانها تصاعدية ، يجيب انصارها ومعظمهم اشتراكيون او من محبذي الاشتراكية . وهكذا تم في انكلترا نوع من التحالف اطرافه الاحرار والعمال لاقرار ضريبة عام ١٩١١ تعرف بضريبة الدخل ، وفرض رسم معين على التركات ذي طابع تصاعدي وهي ضريبة تقع بكاملها على ارستوقراطية اصحاب الاملاك، ولهذا راح لويد جورج يصرح قائلاً : « دوق واحد يكلف ما يكلفه صنع دارعتين » . ومن المستحب الاستشهاد هنا بمثل اوستراليا التي « آثرت ان يكون لها مجلس شيوخ اعضاؤه من الكنغورو على ان يكون لها مجلس لوردات » . فالقانون البرلمان انقص من سلطة هذا المجلس ومهد الطريق امام تشريع اكثر تشبعاً بالروح الاشتراكية. اما في فرنسا، فالمعركة استمرت ١٢ سنة (فمشروع القانون الذي قدمه كايو للمجلس

















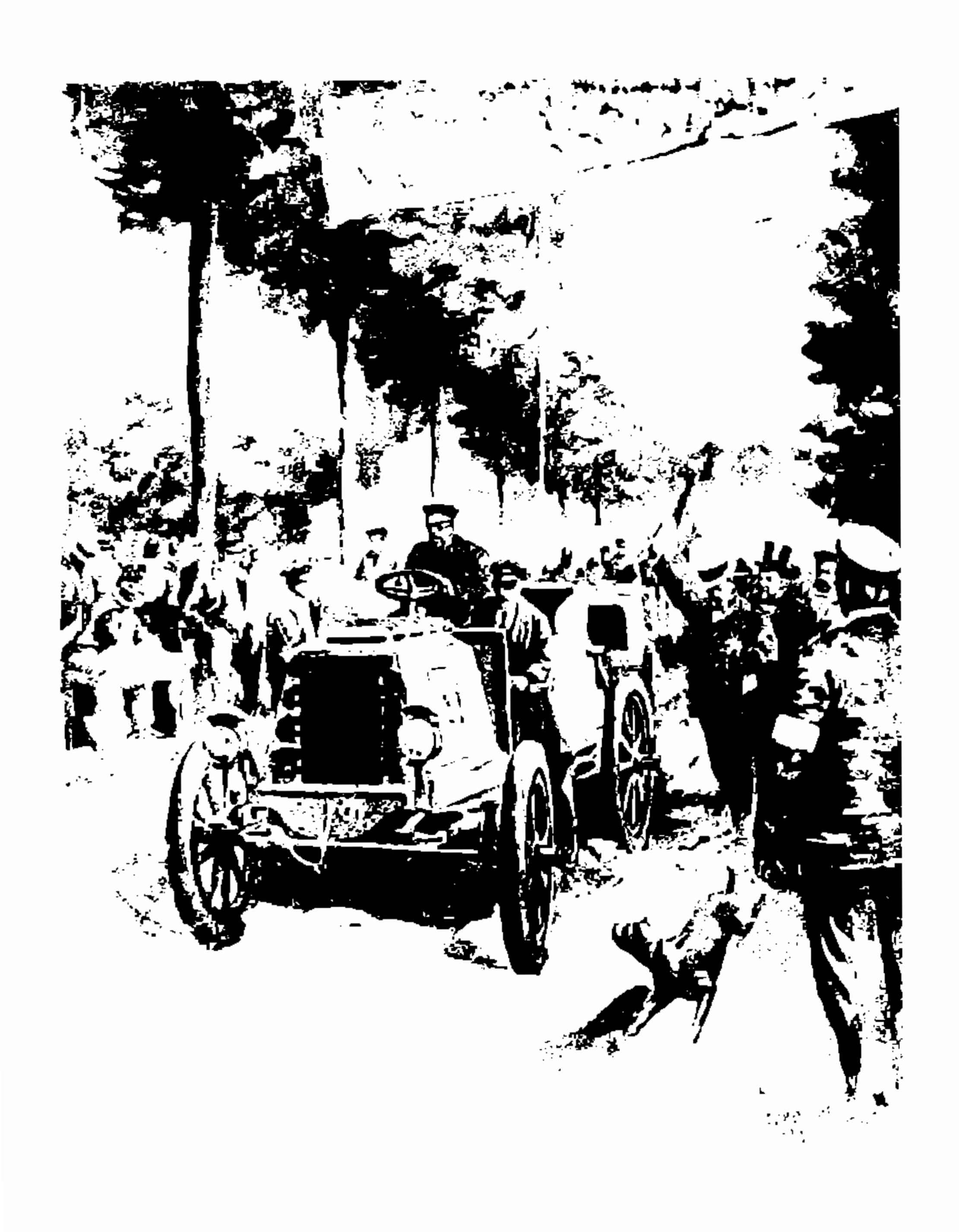


١١٠ - ـتين









١٥ - انطلاقة السيارات الســـ [illegible] ([illegible] - [illegible] ١٩٠١) .







بشأن الضريبة ، على الدخل ، وهو قانون صادف معارضة قوية في البرلمان ، ما كاد يمر في مجلس النواب حتى قام مجلس الشيوخ بدفنه الى عام ١٩١٤ . اما في الولايات المتحدة الاميركية وفي انكلترا في عهد بيل وكوبدن فالتخفيف من الرسوم الجمركية ، عام ١٩١٣ ، قابله فرض ضريبة الدخل .

اما في نطاق سياسة الاقتصاد التدخلي حيث لا نلاحظ اي تأثير للحركة الاشتراكية ، فقد تطورت التشريعات ضد الاتحادات الاحتكارية *Trust* في الولايات المتحدة الاميركية التي بعد ان رأت خطراً يطل من « التباين » التصاعدي فقد امر الحزب الجمهوري الحاكم حل شركة ستاندرد أويل والشركة الاميركية للتبغ اللتين اعادتا تنظيمهما بشكل آخر . ولما عاد الحزب الديموقراطي الى الحكم من جديد عام ١٩١٢ ، عمد الديموقراطيون الى تشديد الاحكام المنصوص عنها في قانون شرمان الصادر عام ١٨٩٠ الذي جاء الاختبار يبرهن عن قلة جدواه واخذ الناس يتشككون في صلاحه .

ففي الوقت الذي لم تكن انطلقت فيه بعد في اوروبا ، حركة مناهضة الاتفاقات الصناعية ، راح عدد من الدول يحاول شراء شبكة الخطوط الحديدية في ارضها كلها او جزءاً منها ، وانتشرت من كلا جانبي المحيط الاطلسي عملية تأميم البلديات *Municipalisation* لمصالح المياه والغاز والنقل وجعلها خاضعة للبلدية إدارياً . ففي مدينة برمنغهام ، قام جوزف شمبرلين المعروف اذ ذاك بنزعته الراديكالية يوصي بفرض الضريبة التصاعدية ، وفرض ضريبة على الدخل ، وهي ضرائب تتيح جبايتها للبلدية تعمير مساكن شعبية .

وراح الاشتراكيون ينظرون ، نظرة حذراً وطوراً نظرة رضى وارتياح ، الى هذا التطور الذي حققه التشريع الاجتماعي الذي هدف الى تلافي المساوىء الفاضحة التي رافقت ، في الماضي ، النظام الرأسمالي ، بقصد تحسين العلائق والروابط بين العمال وارباب العمل . الا ان تدخل القانون وتحكمه لم يقم على نظريات منهجية . فقد تباينت نصوص التشريعات الصادرة وتضاربت بين بلد وآخر باختلاف طبيعة التركيب الاجتماعي والمزاج الوطني في البلاد ، مع العلم ان التشريع في الولايات المتحدة الاميركية هو من اختصاص الولاية اكثر منه الحكومة الاتحادية .

والروح الفردية في فرنسا رأت نفسها ملزمة بمقاومة عنيفة ، هذا الالتزام الذي كان وقعه اخف في المانيا وبعض البلدان الانكلوسكسونية منه في فرنسا . فبلدان استرالآسيا التي مثلت هنا دوراً رائداً وجاءت ابداً في الطليعة ذهبت الى حد ضمان حد ادنى للاجر ، بينما انكلترا حيث اقر القانون المعروف بـ *Trade Board Act* المبدأ الذي اقترح الاخوة *Ebb* تعيين « حد ادنى وطني » ، اقتصرت تطبيقه على عمال المناجم لا غير . وتنظيم يوم العمل الذي قوبل بالاحترام على درجات مختلفة ، اخذ في الانتشار والتوضيح ، وان قصّر عن تحقيق مطالب العمال كلها : فاذا ما تبنت استرالآسيا قاعدة العمل ثماني ساعات في اليوم ، منذ عام ١٨٩٠ – ١٨٩٣ فهذا

الاقتراح لا يطبق في انكلترا الا على العمل في المناجم ، وفي الولايات المتحدة الاميركية ، على عمال الخطوط الحديدية . اما تعطيل يوم الاحـــد ، فعادة دينية وصلتنا عبر الاجيال ، لم تشأ الروح الليبرالية ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، الاعتراف بها كواجب او عادة ملزمة . ومع انه لم يعد من يرتاب او يشكك بشرعية الحركة النقابية في البلدان الصناعية - باستثناء اليابان نرى بين ارباب العمل فريقاً يشمئز كثيراً من رسوخ هـــذا الامر ويرفض التسليم للمنظمات العمالية حتى التكلم في المفاوضات باسم اصحاب الاجـــور . ولذا حرصت حكومات البلاد البورجوازية دوماً على قبول العمل بهذه الطريقة او باخرى ، في مفاوضات التحكيم ، فهي تقترح بعض القواعد التي لا بد من الاخذ بها في عقود العمل وضمان الاجر وتأمين الامـور الصحية ، وراحت الدول الاوروبية ، على غرار المانيا ، تدرج في تشريعها العمالي نصوصاً معينة تؤكد الضمان في حوادث العمل الطارئة . ونظمت كل من انكلترا والنرويج وبلجيكا الضمان ضـد البطالة ، بينما اقتصرت فرنسا مساعدتها على الشرع ببعض المال لصندوق النقابة . وسار البريطانيون بعد الالمان بزمان ، في طريق إقرار الضمان الالزامي ، عندما سنوا ، عام ١٩١١ ، قانون الضمان الوطني . الا ان تلك التدابير الجزئية التي اقرها البرلمان الفرنسي لم تؤد قط الى تشريع عام خاص بالمرض وبالشيخوخة قبل الحرب العالمية الاولى .

فمنذ انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٩٠ ، بُذلت جهود كبير في سبيل وضع تشريع عام خـاص بالعمل . فالاهداف الاقتصادية كانت تسبق دوماً الاهداف الانسانية وتتقدمها . فقد رأى احد اعضاء مجلس بال المعروف بنشاطه الجم هو السويسري فراي في تخفيض معدل ساعات العمل ، علاجاً ضد اغراق الانتاج ، وقد اقر مؤتمر برن المعقود ، عـام ١٩٠٥ ، مبدأ تحريم الفسفور الابيض في صناعة عيدان الثقاب او الكبريت الا ان السويد أبت ان توقـع الاتفاق اذا تمنعت اليابان التي لم تحضر المؤتمر عن قبول مقرراته وتوقيعها . وتحريم العمل ليلا للاولاد والنساء اقتضى الوصول الى إقراره الكثير من الجدل والنقاش ، خلال هذه المؤتمرات التي تناولت بحث هـــذا الموضوع حتى عام ١٩١٤ . وقد وقعت بعض اتفاقات ثنائية ، مثلا بين فرنسا وبلجيكا ، وبين ايطاليا والمانيا نصت على حماية العمال بين البلدان التي ترسل او تقبل اليد العاملة التي يمكن لهـا استخدامها .

الاضطرابات الاجتماعية والهجوم الكبير التي عبات لسببه النقابية في كل من اوروبا واميركا

ازدادت اضطرابات العمل ومصادمات العمال حدة بين السنوات ١٨٨٠ - ١٨٩٠ ، وبرزت الحركة العمالية اكثر رهبة من الدولية الاشتراكية الثانية ، في هذا النشاط الذي جاشت به ، مثلا بهذه الاضرابات الواسعة العنيفة التي قامت بها وبهذه الاحتفالات الواسعة بعيد اول ايار ، تضخم الروح النقابية واستشراؤها .

فقد بدأ الاضراب والاعتصاب في اعين العمال خير الاساليب واسرعها للحصول على مطالبهم

والفوز بتحقيقها . فقد قام العمال في فرنسا وحدها عام ١٩٠٩ بأكثر من ١٠٢٥ إضراباً ، ونظموا في المانيا ١٥٣٧ اعتصاباً ، وفي انكلترا ٧٣٥ ، اشترك فيها اكثر من ٣٠٠،٠٠٠ عامل وجرت اضطرابات في مناجم الولايات المتحدة عام ١٩٠٠ ، و ١٩٠٢ ، و ١٩٠٣ ، ١٩١٢ ، و ١٩١٤ ، كما اخذ عمال مصانع الحديد يتحركون في هرج ومرج عام ١٩٠١ و ١٩٠٩ ، وعمال الخطوط الحديدية ، عام ١٩٠٤ و١٩١١ ، وعمال النسيج وصنع الالبسة عام ١٩١٠ ، و ١٩١٢ ، و١٩١٣ . اما ايطاليا فقد وقعت فيها ١٢٥٠ حركة اضراب بين ١٨٧٠ – ١٨٩٠ ، وحدث فيها ١٧٠٠ حركة اضراب بين ١٨٩٠ – ١٩٠٠ و ١٤٠٠ ، في سنة ١٩٠١ وحدها ؛ وهي انتفاضات وهيجانات رأى فيها جورج صاند « ملحمة » .

لنتصفح مذكرات نقابية مجاهدة هي الماما جونز التي ساهمت بنشاط في هذه المعارك العمالية التي وقعت في اميركا . فالوصف الذي تركته لنا عن هذه الاضطرابات شيء مزعج مقلق . ففي كولورادو ، عام ١٩٠٣ ، اعلن الاضراب في التاسع من تشرين الثاني ١٩٠٣ ، طالبة بثمان ساعات عمل في اليوم ، وبتعيين مدقق اوزان من قبل العمال وللمطالبة بعملة فضية ونقد عيني بدلاً من بونات ... فلم يستخرج من المنجم اي قطعة فحم . فالبرد قارص في تشرين الثاني في الكولورادو واخذ الناس يشعرون بوطأة الاضراب ... اخيراً وجه انذار للعمال ... فالمعارك الحامية العنيفة وقعت حول *Creeple Creek* ، وتم طرد العمال من منازلهم التي كانت ملكاً للشركة ، فالتجأوا الى الجبال الموحشة بعد ان نصبوا خيامهم وسط زمهرير الشتاء الذي سقطت درجة الحرارة فيه الى ٤٥ درجة تحت الصفر . ولفوا أرجلهم بالثياب الرثة اتقاء لقرص الزمهرير ، وضمرت وجوههم بعد ان عضهم الجوع كالذئاب في الغابات .، فاضطرهم الجوع وحده لاستئناف العمل في المصانع .

وفي اوروبا اتصفت الاضرابات في المناجم بكثرتها وشدتها .ومما يلفت النظر تطور التضامن الصناعي ، اذ تضامن عمال الروهر عام ١٩١٢ ، مع عمال الفحم في انكلترا ، مما افضى الى زيادة محسوسة في الاجور وتحسين اوضاع العمل لدى هذه الطبقة المحرومة .

فاذا ما اكثر العمال البائسون في روسيا من إظهار تململهم من الوضع الذي يرسفون فيه ، فالعمال العاملون في المناجم والموانىء البحرية في كل من المكسيك والارجنتين والشيلي ، اخذوا ، هم ايضاً يتململون بشيء من الحدة في التسعينات ووقعت بعض حوادث العنف في اليابان . فاضراب عمال مناجم الفحم ، عام ١٩٠٠ صادف نصف نجاح . وفي عام ١٩٠٧ ، ظهرت لاول مرة المقاومة ضد شركات الفحم في افريقيا الجنوبية ، حيث تميزت السنوات ١٩١٣ و ١٩١٤ بالحوادث العنيفة التي وقعت فيها .

والجديد في الامر هو دخول موظفي المصالح العامة الحلبة : ليس فقط عمال الفحم وبحارة الاسطول التجاري ، بل ايضاً عمال المناجم وعمال الشحن في المرافىء ، وعمال البناء .

والاضرابات في الريف ارتدت هي الاخرى ، بعض الاهمية . فقد هزت القلاقـــل والاضطرابات روسيا واميركا الجنوبية وعلى الاخص اقطـار جنوبي اوروبا التي نزح عنها اهلها بعد ان وقعوا فريسة الازمة التي حلت بزراعة الكرمة . وقامت بالفعل فتن عديدة في الارياف الايطالية كما تكاثرت حركة الاضراب بين فئة *Braccianti*. في كل مكان من البرتغـال الى غاليسيا، اخذ القلق يساور الفلاحين ويدفعهم الى حركة انتقال واسعة تحملهم الى مجاهل اميركا . وهنالك قطر آخر مشهور باستثماراته الكبيرة هو انكلترا حيث تقوم بروليتاريا من المياومين تلحف بالمطالبة وتتشدد بها . ويقوم في فرنسا الكرّامون بعـــدة حوادث من الاضطرابات والمظاهرات الصاخبة : فقد ضاقوا ذرعاً بتصريف الكميات الضخمة من النبيذ والنبيذ المزغول ، التي انتجوها ، كما يطلل كايو قيام هذه المظاهرات في مذكراته . « فقد اشترط رئيس الحكومة اذ ذاك (كليمنصو) ان يعود كل شيء الى الهدوء ، وقد اكثر من ارسال الجيش الى المقاطعات الثائرة ، وسالت الدماء في ناربونا » . الا ان القائمين بأعمال الحصاد في حوض باريس والفحامين وجامعي صمغ الراتنج يرون انفسهم مدعوين للمظاهرات بدافع من البؤس الذي يتضوررون منـــه .

وفكرة الاضراب العام الناشم الذي لا يقهر ، المنتصر ، الفكرة القوة التي لا تدفع ، هـذه الفكرة التي خطرت لجورج صوريل ، سارت طريقها في الاتجـاه المرسوم ، بالرغم من الفشل الذي منيت به المحاولة الاولى التي قامت في ايطاليا ، عام ١٩٠٤ . فبعـــد ان نظر اليها الماركسيون نظرتهم الى شيء مستحيل ، إنتشرت الفكرة على الاخص ، بـــين انصار الحرية واللاسياسيين .

« فمع ندرته في الغرب ، كما يلاحظ تروتسكي في مذكراته : « حياتي » ، فالاضراب السياسي هو الطريقة الناجحة المثلى في روسيا » . فالاضراب يجر وراءه نحو مليون رجل الى قلب الثورة ، عام ١٩٠٥ ، واكثر من مليون في النصف الاول من عام ١٩١٤ .

ومن الامور التي لها دلالتها الخاصة هنا هو وقوع الاجماع على اختيار اول ايار واتخاذ العـلم الاحمر لدى الطبقة العاملة تأييداً لمطالبها الحقة . « يوم ، ورمز ذو طابع دولي . « ومـا هو ادعى من ذلك ، كما يلاحظ سان سيمون بمناسبة الاحتفال بأول ايار عام ١٨٩٠، هو هذا التفاهم الدولي بهذا الشأن من فوق الحدود ، والاتفاق على نص واحد للتعبير عن المطالب المشتركة ، وطريقة واحدة مشتركة للتعبير عن المطالب الواحدة المشتركة . نحن امام تحول عظيم للنظام الاجتماعي » . سجل عيد العمل ، والحق يقال ، فترة قصيرة الامد من البطولة : فقـــد قامت عام ١٨٩١ ، مظاهرات شعبية حماسية وفتن في مدينة كليشي واطلاق العيارات النارية في مدينة *Fourmies* بفرنسا ، واصطدامات حامية في ايطاليا وفي فلورنسا وفي اسبانيا والجر ، واضطرابات حامية في شيكاغو وفي البرازيـــل وحوادث في لودز وقعت عام ١٨٩٢ . هذه هي المناسبة التي راح فيها جان باتست كليمان يضع هذه الاناشيد الحربية :

هذه الرأسمالية التي تتكلم بلهجة السيد الآمر
لتجعل هذه البقظة اليوم رداً حاسماً قائلين
لكل انسان عمله تحت الشمس
لكل انسان حقه من الراحة والرفاهية

ثم هبط الحماس وخمدت جذوته . وعند حلول العيد في تاريخه المعين كل سنة لم يعد اول ايار يلهب الخيال ويرعب الطبقات ويسمر الخوف في قلوب الاثرياء. فالمسيرة التقليدية تسير سيرها العادي المألوف وتتجاوب الارجاء صدى نشيد الدولية ، هذا النشيد الذي وضعه اوجين بوتييه ، عام ١٨٧١ ، وقد يرتفع فيه احياناً العلم الاحمر الذي رأى فيه ابناء الكومون « رمز السلام والمساواة » ، وقوى الامن تسهر على الامن وتكبح جماح المتظاهرين وتجبرهم على التزام الانضباط ولن يلبثوا ان يتفرقوا من حيث جاؤوا . وقد علق المجلس الشيخ في اليوم التالي لاول ايار عام ١٨٩٢ قائلا : « كان عيد اول ايار هنا (في لندن) جميلا جداً ، اذ انه اصبح شيئاً من هذه الاشياء العادية التي تمر كل يوم او بالاحرى كل سنة . لقد ذهب رواؤه الاول وولى رونقه » . ونشرت الجمهورية الصغرى ، في اول ايار ١٨٩٥ ، قائلة : « في الامس الغابر كانت تقوم ثورات اما اليوم فتنتظم مسيرات . في الامس كان لابد من جيش يكبح هيلج الجماهير وحماسها في الضاحية ، اما اليوم فبضعة انفار من قوى الامن تكفي لتشتيت بضعة الوف من المتظاهرين » . ما الفائدة لعمري من التظاهر في الشارع اذا كان لا بد من الانتهاء الى مثل هذه النهاية .

حاول زعماء الحركة النقابية مراراً ان يستغلوا عيد اول ايار . وبمناسبة الاحتفال به عام ١٨٩٦ ، وجه بلونييه نداء بأسم بورصات العمل ، وهو يرى ان على البروليتاريا ان تؤلف ، قبل كل شيء « جمعية عملاقة ، مدركة لمصالحها الحيوية عليمة بالوسائل والذرائع المحققة لها » . وراح مؤتمر العمال العام يحاول سنة ١٩٠٦ ، اثارة حماس الحركة لاجل تكريس العمل بثمان ساعات عمل في اليوم ، وذلك بالاستعداد وللاحتفال بعيد اول ايار بشكل مثير ؟ انه « لعيد فخم » بالحقيقة كما جاء على لسان ادوار فيّان ، ولكنه عيد لاغد له .

في هذه البلدان التي يشتد فيها الروح النقابية والاقبال عليها بحيث ارتفع عدد الاعضاء المسجلين فيها الى ٤ ملايين، كما هو الوضع في انكلترا ، ومليونين ونصف في المانيا ، ومليونين في الولايات المتحدة الاميركية ، عام ١٩١٤ ، يستنكف العمل السياسي تبنى برنامجاً اصلاحياً بصراحة :

فاتحاد العمل الاميركي الذي يرأسه غمبرز يصطدم بمقاومة عنيفة لا تلين من قبل ارباب العمل الذين يسخرون بمنظمي الاضراب والسلطة القضائية لكسر حدة الاضراب . ولذا وضع نصب عينيه تحسين وضع العمال باحترام اللعبة نفسها بتحقيق المزيد من المكاسب . الا ان حركة العمال

الصناعيين في العالم تبدو اكثر اخذاً بالاصول ، عام ١٩٠٥، وفي السنة نفسها بؤسس أبتن سنكلر الجمعية الاشتراكية الجامعية التي آلت رئاستها الى رجال لندن .

وفي المانيا راحت الحركة النقابية تنشق على نفسها نتيجة النزعات المختلفة والتيارات الفكرية التي هبت عليها : مسيحية ليبرالية لـ (هرش – دونكر) ، واشتراكية وراحت الفئة الاخيرة بزعامة ليجيان تنظم نفسها بيروقرطياً لا سيا وزعماء الحزب الاجتماعي الديموقراطي الماركسي لم يضعوا نصب أعينهم التضامن معها .

والحركة النقابية العمالية ساندت في بريطانيا العظمى كما في اسائر الآسيا حزب العمال البريطاني. فقد شجعت العمل المباشر الذي اوصى باعتماده كل من فيلت وتوم مان في انكلترا ، ولاركن في إرلندا . فنظام العمل الذي إستنه لا يختلف كثيراً عما كان متبعاً في بلجيكا والبلاد الواطية وفي النمسا حيث المنظمات الدينية الطابع تنبذ جانباً كل ما يشتم منه العنف .

اما فرنسا، فالوضع فيها على عكس ذلك، اذ ان الروح النقابية توصي بعدم الثقة بالاشتراكية السياسية : ماركسية كانت ، ام اصلاحية ، وبالقيام بعمل مستقل بنفق ومنهج اتحاد العمل العام الذي عد بين اعضائه نصف مليون عضو منتسب ، عام ١٩١٤ . وتحت توجيه رؤساء امثال بلوتيه وبوجيه وغريفويلز ومرهايم الذين ينتسبون نوعاً ما الى برودون وباكونين وجان غرايف والى المذهب الفوضوي ، اكثر من انتسابهم الى ماركس، وهو اتحاد كان يرمي « للتخلص من ارباب العمل ومن اصحاب الاجور معاً . وقد دعت الى ابعد من ذلك ، الى التوصية بالماطعة (buy cottage) رب العمل المعروف بعدائه ، والى اللجوء التصنيف تمييزاً لهم ، او الى اعمال التخريب ، كما يدعو بحزم الى اتحاد البروليتاريا في كل العالم ، وادعى لنفسه بانه « حزب العمال الحقيقي ». وبميثاق أميان الذي تم وضعه وتبنيه عام ١٩٠٥ ، راح اتحاد العمل العام (C. G. T) يؤكد رغبته في تزعم حركة « الصراع الطبقي .. بعيداً عن كل مذهب سياسي» . وقد ظهر تأثير المطالب التحررية ، بشدة في ايطاليا وفي قلب غرفة العمل والنقابات الزراعية ، كما ظهر الخارج باول لجربة يقوم بها ، اذ اعلن اضراب وطني عام وتشكيل منظمات مناضلة ؛ منها مثلاً : لجنة المقاومة ، والعمل المباشر ، والاتحاد النقابي . وراح لابريولا وليونه يعملان على ترويج مؤلفات سوريل ويضمان جانباً المذهب الاصلاحي الذي تبناه اتحاد العمل العام الايطالي . وفي سنة ١٩٠٧، راح الفوضويون يعقدون مؤتمراً لهم في امستردام أقر اقتراحاً قدمه مالاتستا يحبذ العمل النقابي المستقل . وقد ادى ذلك الى ظهور منظمة التضامن العمال في كتلونيا التي عرفت بموقفها المعادي للدين وللحرب معاً ، ثم في عام ١٩١١ ، الى تأسيس اتحاد العمل العام الذي وقف في كل اسبانيا ، موقفاً مناهضاً لاتحاد العمال العام ، الذي تأسس سنة ١٨٨٨ ، أي في هذه السنة بالذات التي تشكل فيها الحزب العمالي الاسباني . ونلاحظ مثل هذه السيطرة عند الايديولوجيا في اميركا اللاتينية .

وكان من حق الاختلاف والتباين بين هذه الفئات والمنظمات ما أفسد كثيراً عمل النقابية الدولية . فقد تألفت ضمن كل منظمة سكرتيرية وطنية ، منذ عام ١٨٨٩ ، وقام منها حتى عام ١٩١٤ ، ثمانية وعشرون سكرتيرية عامة ، منها ٢٤ جعلت من برلين مركزاً أساسياً لها . وبالاضافة الى هذا كله ، فقد اتخذت تدابير خاصة لاعداد اجتماعات دورية يحضرها ممثلون عن هذه النقابات المركزية . وتأسس عام ١٩١٣ ، اتحاد نقابي دولي جعل من مدينة زوريخ مركزاً له .

ومهما يكن، فسواء تعلق الامر بالكفاح ضد الرأسمالية او بموقف منيا العمال من الامة، خلال الحرب ، لم يكن في وسع المنظمات العمالية ان تتجاهل ما الحركة الاشتراكية من عمل سياسي .

الدفع الاشتراكي وتركة ماركس

حققت الاشتراكية ، كالنقابية ، مكاسب جوهرية حتى في الولايات المتحدة الاميركية حيث لم يستطع مرشح الحزب ان ينال قسماً كبيراً من اصوات الهيئة الانتخابية . الا انه استطاع ان يؤمن لمرشحه ، في انتخابات الرئاسة ، عام ١٩١٢ نحواً من مليون صوت بينما عجز عن اعطائه ١٠٠،٠٠٠ صوت في انتخابات عام ١٩٠٠ . اما في اوروبا ، فقد قفز الحزب الاجتماعي الديموقراطي الالماني ، من ١،٥٠٠،٠٠٠ صوت الى ٤ ملايين ، بين ١٨٩٠ – ١٩١٢ ، وبلغ عدد اعضائه في هذا التاريخ بالذات المليون ، ونال الفرع الفرنسي للدولية العمالية ، عام ١٩١٤ ، نحواً من ١٠٣ مقاعد بقطع النظر عن الاشتراكيين المستقلين . وقد كان للفئات الاشتراكية ٧٩ مقعداً في المجلس النيابي الايطالي ، عام ١٩١٣ . ودخل حزب العمال في انكلترا الحلبة بحزم فنال ٢٩ عضواً في انتخابات ١٩٠٦ ، و ٤٠ عضواً عام ١٩٠٩ . ومقابل ضعف الحركة الاشتراكية في بلد كأسبانيا بالنسبة لعدد البروليتاريا فيها (عضو واحد في الكورتيس ، عام ١٩١٠) تقوم من جهة اخرى المكاسب السريعة التي حققتها المنظمات السياسية الاشتراكية الديموقراطية : كالحزب الاشتراكي الثوروي ، وحزب العمال والحزب الشعبي في روسيا، وهي مكاسب كشفت عنها بسرعة ثورة عام ١٩٠٥ فقد نالت هذه الاحزاب مجتمعة ٤٠ ٪ من المقاعد في الدوما[1] الاولى. وكان لا بد من قانون الانتخاب الشديد الوطأة الذي اعلن عام ١٩٠٧ لتخفيض عدد ممثلي هذه الاحزاب في المجلس النيابي .

منذ الثورة الفرنسية ، عاد الى النبلاء – هم في مجموعهم من الطبقة البورجوازية – حق سن القوانين . فلم يقم حزب ما أصيل من الفلاحين . ولذا فظهور منظمات سياسية غيها تأخذ على نفسها الدفاع عن مصالح طبقة اجتماعية معينة وتفرض على اعضائها التقيد بالتزام سلوك معين في الانتخاب ، كان له دوي كبير في الخارج .

صحيح ان الاشتراكية بمساهمتها في الحياة النيابية لم تتخل قط عن الاساليب التي سارت عليها،

(١) الدوما هو مجلس النواب في روسيا قديماً .

ولم تتبذ ما عُرفت به من اعراف وعادات . فقد استمرت بعضها في البلدان الانكلوسكسونية «دون ان يكون لها فلسفة خاصة بها. فنحن امام حركة عمالية مشبعة بالروح النقابية الاصلاحية، لها اهدافها المعينة ومؤثراتها الاخلاقية الخاصة . » لا يمكن لنا ان نرتبط بهذه النظريات الاشتراكية المعمول بها في اوروبا، يصرح العضو العمالي الاسترالي وطسن . نحن نؤمن بالمبادىء الاساسية التي تنادي بها الاشتراكية . كل شيء يجري على مهل » . عظيم هو النفوذ الذي تلعبه الطوائف والجمعية الفابيانية لدى البريطانيين على حزب العمال . فعامل المعادن بورت، لا ينقطع عن الوعظ في الكنيسة الميتودستية او انتخابه عضواً في مجلس العموم . ويحدثنا زميله كير - هاردي عن تجلي الحقيقة الكبرى التي اعلنها السيد المسيح باذلاً حياته في سبيلها ، وهي ان لا سبيل لخلاص النفس الفردية ان لم تخلص النفس الجماعية » . فمن رمسكن الى وليم موريس الى وب الى رمسي مكدونالد ، فنقد المجتمع الرأسمالي لا ينتهي فقط بالدعوة للثورة والانتقاض على المستثمر . فهذا يضع نصب عينيه، في الدرجة الاولى ، مصلحة الامة الكبرى . « غايتنا الاولى هو الرأسمالية وليس ازالة طبقة اصحاب الاجور ، كما يؤكد الاخوة وب الذين يفكرون بجعل كل الناس موظفين يتناولون اجورهم من الدولة » . ان تأميم وسائل الانتاج والخدمات العامة يجب ان يفسح المجال لنظام اجتماعي عادل . ومهما يكن فوضع البروليتاريا لا يزول من العالم تدريجيا الا تحت تأثير تشريع سلمي ملائم. فكما ان حزب العمال البلجيكي الاصلاحي الصميم يكسب انصاره على حساب حزب الاحرار وينحاز مع ذلك اليه ضد الاكثرية الكاثوليكية ، يقدم حزب العمال اصواته الى حزب الاحرار برئاسة لويد جورج الذي اعاد اللوردات الى الصواب . اما في فرنسا ، فالاكثرية بين البرلمانيين الاشتراكيين في المجلس إضطرت، لاغراض انتخابية ، الى مساندة « كتلة اليسار » المعروفة بمناهضتها الروح الوطنية المشهورة بروحها الرجعية والدينية ، وذلك نزولاً منها عند «نظرية اتحاد الاحزاب الاصلاحية» التي في مقدورها وحدها ، كما يؤكد هربر ، عام ١٩٠٨ ، ان تمد السبيل امام طلوع « السلام الاجتماعي » عن طريق التطوير المطرد للديموقراطية .

والامر الذي استأثر باهتمام الولايات المتحدة الاميركية ، وبريطانيا العظمى هو غزو الماركسية لاوروبا الغربية ، الوقت الذي راحت فيه الفوضوية تتحصن وراء النقابية في الغرب. أو في قلب الحزب الاشتراكي الثوري في روسيا . فقد عاش المجلس حتى عام ١٨٩٥ . « تجلى امامنا هذا الرجل كأنه نصف اله ، كما يلاحظ فندرفيلد ، هذا الرجل العظيم الذي عرف ماركس وعمل معه » . فقد كان من نشاطه ان حال دون الانتفاع ، كما يجب ، بهذه النصوص الاساسية التي وضعها المعلم ، بدلاً من هذه المقتطفات النادرة التي قدمها لنا . فالطبعة الاولى لكتابه « الرأسمال » صدر منها ١٠،٠٠٠ نسخة ، لم تكن نفذت كلها بعد صدور الكتاب بـ ٢٥ سنة . فتعاليم المعلم حلت في طياتها شيئاً غريباً ، نوعاً من ايمان جديد أخذ بالانتشار . وكما ان طلوع العصر الجديد من شأنه ان يرسم امام الناظر علامات استفهام كبيرة ، راح تلاميذه

يتساءلون قائلين : « ان ماركس كالتوراة، كان يقول ويعلم ليكتشف ، فالكل يفسره على هواه ويؤوله تأويلا مضاداً للآخر » .

وقد سبق لانجلس ان استشعر بالخطر ، قبل وفاته اذ يقول : « نظرتنا ليست بعقيدة ، بل هي تعبير عن سير تطور ، وهذا التطور يفترض حدوث ادوار وعهود متتابعة » . وبدون ان ينكر اهمية المكاسب الديموقراطية التي تحققت فقد حذر من ان تتوص الاشتراكية في رمال الليبرالية البورجوازية . وفيما كان يؤكد ان « عصر الانقلابات المفاجئة والثورات تقوم بها اقلية واعية قد مضى وانقضى » فقد جعل من دكتاتورية البروليتاريا التي لا بد من طلوعها شراً تركه البروليتاريا المنتصرة في صراعها من اجل تخفيف فوز الطبقات » .

ما لم نستنتج مع باريتو ان « تنبؤات ماركس وانجلس ليست بحقائق فقط » ، ومع ليروى – بوليو ان الاشتراكية ليست الا خيمياء علم الاجتماع ، هنالك امكانية الخروج ببرنامج عملي من هذه التعاليم المقصورة على فئة خاصة . الا انه يجب قبل كل شيء الوصول الى تفاهم حول المعنى الصحيح للحكم بالموت الذي صدر في اعقاب محاكمة الرأسمالية . فاذا كانت الفاجعة وشيكة الوقوع ، تحتم علينا ان نكون على استعداد لمواجهة هذا الحادث الرهيب . اما اذا ما تأخرت ساعتها وجب علينا ان نعرف ما هو سبيل البورجوازية لتأخير سير عقرب الساعة . فاما ان تلعب الاوتوماتية الاقتصادية دورها او انه يُبرلغَ جداً في تحديد دورها (هنالك رائحة مذهب اللاحتمية في الجو) . ومهما يكن يجب فحص النصوص بدقة وتوضيحهــا على نور الايضاحات التي تقدمها الحوادث وفاقاً للمنهج ذاته .

ففي الوقت الذي تكشف فيه الفوضى بلسان كتاب امثال غرايف وركلو وكرموتكين بأنها تربط الصراع ضد استثمار رأس المال بالصراع ضد اي اضطهاد او استغلال ، فهي تشدد دوماً على الحرية الفردية ، وتختار دونما تردد ، جانب التعاون العفوي المتبادل، مع العلم انهم كثر عددهؤلاء الاشتراكيون الذين مع انتسابهم الى الماركسية يخضعونها للنظر والنقد ، تحدث جورج سوريل، عام ١٨٩٨ ، عن ازمة الاشتراكية . وبعد ان انصرف لتحديد علم الاخلاق جعلهــا وفقاً لوجهة نظر برغسون ، في خدمة الاخلاقية الديناميكية وبصفق استحساناً لموقف جوريس الذي اندفع، بالرغم من نصيحة غيسد له ، وراء معركة درايفوس . وبعد انتهاء « القضية » وامـام عملية « التنظيف » يشتد انزلاق سوريل في الوقت الذي يحمل الفشل الذي مني به ، على ابعاد بيغي عن الاشتراكية .

غير ان الهجوم الداوي وقع عام ١٨٩٩ وفي المانيا بالذات ، قام بـه الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي بالرغم من استفحال شأنه الظاهر اخذ يصطبغ بطابـع البيروقراطية . وينتقد برنشتاين في كتابه : « الاشتراكية النظرية » والاشتراكية الديموقراطية » ، الجدلية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، ونظريات التمركز ونظرية تقييم العمل ، والازمات والكتبة

المستحدثة ، ويطالب بإيلاء الثقة للنزعة الحرة نحو الخير . وبعد ان رفض الاخذ بنظرية الكارثة الخيرة التي تقول بها الماركسية البلانكية التي كانت تصلح لعام ١٨٤٨ راح يدلي ببراهينه على جدوى التكتيك الانتهازي . وقد تنطع كونسكي للرد عليه وروزا الكسمبورج محتجين على هذه الاقوال بالارقام ، موضحين مغالط التفسيرات المعطاة (من ذلك مثلا ان برنشتاين خلط بين اكتناز الثروات وبين حشد وسائل الانتاج في ايد قليلة) ، مع انه اعترف ، من جهة أخرى بفائدة الحركة البرلمانية ، وهو يتوقع « صراعاً طويلا مريراً » (الاصطلاح للكسمبورج) . وبعد هذا اوصى كونسكي ، في الاقتراح الذي عرضه على مؤتمر العقود في باريس ، عام ١٩٠٣ ، « بتنظيم البروليتاريا على غرار جيش مستعد للحرب الاجتماعية » ، ونبذ بعيداً ، وفقاً لرغبة غيد ، فكرة كل تحالف اشتراكي مع الاحزاب البورجوازية الاخرى . الا ان الوحدة لم تتم بدون جهد طويل .

وقد تصادم غيد وجوريس في فرنسا ، بعد أن اتجه جوريس في تفكيره نحو المصالحة التأليفية : « نحن إصلاحيون وواقعيون في الصميم وفقاً لطريقتنا بقدر ما نحن ثورويون في اهدافنا » . ومن جهة « الحياة الاقتصادية هي التي كانت في صميم مدار تاريخ الانسانية » غير ان الانسان ، هذه القوة العاقلة يتطلع بأنظاره الى ملء الحياة الفكرية ويشرئب من كل جوارحه الى مشاركة العقل القلق ، المتطلع دوماً الى الوحدة والى هذا الكون الغريب... فالشجاعة هي في طلب المثل وتفهم الواقع .. اذ ان قيادة البشر وتوجيههم يقتضي له نور الفكر ... « اخلاقية الرجاء والشجاعة بقدر ما هي اخلاقية العدالة اولا واخيراً .

فاتباع الديموقراطية الاجتماعية لدى الروس ، بين منشفيك وبلشفيك ينقسمون على انفسهم عام ١٩٠٣ حول السلوك الذي يتوجب عليهم اتخاذه . فالاول من هذين الحزبين يحبذ قيام حزب يضم الجماهير ، بينما يحبذ الثاني حزباً نظامياً قوامه المركزية . فالأول يقول بالتحالف مع الاصلاحيين البورجوازيين ، بينما يعتقد الحزب الآخر بفائدة التعويل على طبقة الفلاحين .

ومن جهة اخرى فقد خسر الثورويون والاصلاحيون المرصصة في قلب الحزب الديموقراطي الاجتماعي الألماني ، وذلك عندما دعا مؤتمر الدولية المنعقد في امستردام عام ١٩٠٤ ، بصراحة المنظمات الاشتراكية الفرنسية الى الاتحاد وبعد ان امتثل جوريس للدعوة طلعت علينا المنظمة *G. F. I. O.* .

وفي هذه الغضون ، وقع حادث خطير احدث هزة عنيفة في قلب الحركة الاشتراكية كلها الا وهو نشوب الثورة في روسيا .

الثورة الروسية عام ١٩٠٥ والرها في الحركة الاشتراكية

عام ١٨٧١ ، قامت الكومون في باريس ، وعام ١٩٠٥ وقعت ضد النظام القيصري ، ثورة الفلاحين والبحارة الروس ، فقد اسقط في يد الدولية الاولى وعجزت عن انقاذ الكومون ، بينما شاهدت الدولية الثانية ، وهي عاجزة ، الحركة الثوروية تضطرم وتتأجج من بطرسبورغ الى مدينة اوديسا على البحر الاسود .

بعد ان جر الشعب الروسي ، إثر ازمة اقتصادية حادة قسراً منه وعصباً عنه ، الى حرب ثالية ضد اليابان ، قام هذا الشعب واعلن الثورة التي جاءت ضربة قاصمة على النظام القيصري لم ينهض منها . وقد دار في خلد نيقولا الثاني انه « للحؤول دون قيام الثورة لا بد من ضربة قصيرة رابحة » . الا أن الحرب استمرت اطول مما اراده وزادت من اوصاب الشعب وآلامه . وجاءت الهزيمة فيها وصمة عار في جبين الشعب الروسي ، كما جاءت تحقيراً له وانتقاصاً من كرامته ومنزلته . فثورة الكومون في باريس جاءت نتيجة الحماس الوطني ، وقامت في وجه حكام بورجوازيين انتقدت عاليا قصورهم الفاضح وخيانتهم. اما في روسيا فلن يكن من ينكر او يتغاضى عن مساوىء الحكم القيصري المستبد . ومع ذلك فقد راحت البروليتاريا تجر اذيال الخيبة والفشل .

تطور الاقتصاد الرأسمالي في امبراطورية القياصرة على غرار التطور الذي عرفته فرنسا خلال الامبراطورية الثانية . فبينما يستمتع الاعيان والنبلاء في غربي البلاد بتقاليدهم المتحررة ويحكمون بمساعدة طبقة من اصحاب الاملاك الفلاحين ، كان القسم الشرقي منها لا يزال بعد بحاجة ماسة لمثل ثورة ٩٨ الفرنسية ومن جهة أخرى ، فالبورجوازية الروسية لا تتوفر لها بعد قوة العدد ولا الاستقلال الاداري (يكفي ان نشير هنا الى الدور الحاسم الذي لعبته الدولة ورأس المال الاجنبي في التنمية الاقتصادية) في الوقت الذي لقي فيه حشد المشروعات الانشائية بعض التضامن وتأييد الطبقة العمالية . ولكن ما هو الدور الذي لعبه سكان الريف ، يا ترى؟ ثم لو افترضنا عجز البورجوازية وفشلها واستيلاء بروليتاريا فقيرة معدمة على مقاليد السلطة والسيطرة على دولة طابعها نصف طابع الأجيال الوسطى،فهل في الأمر ما يُرغب فيه او يُرضى عنه من الوجهة الاشتراكية ؟

فقد دهش ماركس لأول وهلة من النجاح الباهر الذي حققته نظرياته وتعاليمه في روسيا . فقد هزئوا طويلا من هذا الشعب الذي « بقفزة مميتة مفاجئة وجد نفسه ضمن مملكة فوضوية ــ شيوعية ــ ملحدة . فالانكسارات التي توالت عليه لم تفاجىء لنين : كل حرب تشنها دولة متأخرة تلعب دوماً ، كما حدث ذلك مراراً عبر التاريخ ، دوراً كبيراً في تعجيل الثورة وتفجيرها ، بمثل هذه الافكار والتأملات واجه سقوط بورت ارثور بيد اليابانيين. الا انموقف الاشتراكية بدا هنا في غاية الدقة : « لا نستطيع الخروج فجأة عن الحدود البورجوازية للثورة الروسية » كما لاحظ رئيس الحزب البلشفيكي ، في الوقت الذي كان يستعد فيه للرجوع الى روسيا .

فقد جاءت الحوادث تثبت بصورة لا تدع مجالا للشك ، حدة الازمة وعجز الثوار : ماركسيين كانوا او شعبيين ، عن اسقاط النظام القديم . فقد وقعت ثورة قام بها الفلاحون وحدثت فتنة على يد البروليتاريا من سكان المدن ، واسعة ، وحركات عصيان وتمرد في الجيش والاسطول . من الحوادث البارزة ، اذ ذاك ، الأحد الأحمر الدامي الواقع فيه

٢٢ كانون الثاني ١٩٠٥ ، في بطرسبورغ ، وتمرد الطراد الذي يحمل اسم الامير بوتمكين ، وبيان ٣٠ تشرين الاول الذي اذاعه الامبرطور نيقولا الثاني بعد فيه البلاد بتشكيل حكومة دستورية ، ومعركة الشوارع في موسكو في كانون الاول . وقد خيل لبعض الماركسيين لمدة قصيرة ان سلطة شعبية ستطلع وتتولى الحكم من بين هذه الجماهير التي انتظمت صفوفها فجأة في السوفييت. فالشاب برونشتاين ، يقول تروتسكي ، شارك مشاركة فعالة في تشكيل مجلس السوفييت في بطرسبورج . اما لينين فقد رأى ان المحاولة مكتوب لها الفشل التام لافتقارها التنظيم . الا انها افادت كثيراً في ضرورة وضع خطة منظمة لكل ثورة او فتنة .

وقامت القيصرية بتجربة الدوما (المجلس النيابي) لاول مرة ، هذا النظام الهجين الذي فشل في اعادة الحكم الاستبدادي الى البلاد كما عجز عن اقامة وترسيخ برجوازية ليبرالية ، كما عجز عن تأمين نجاح عملية الاصلاح الزراعي التي حاول ستوليبين القيام بها والتي رمت الى تشجيع الملكية الفردية في البلاد ، وما أدت الى تأمين الازدهار للانتاج الزراعي والصناعي الذي كان من شأنه ان حداً للاضطرابات الاجتماعية .

احدثت هذه الهزة ردة بعيدة المدى في الغرب. فاذا ما راح جوريس يتنبأ « بان تحرير الشعب الروسي سيلاقي نصيبه الكامل في قيام نظام عمل في البلاد تبرز معه البروليتاريا الروسية ، الى الطليعة بين صفوف البروليتاريا في اوروبا » ، فقد راح اناتول فرانس يصرح من ناحيته قائلا : « مهما كانت نتائج هذه المحاولة الضخمة المريعة ، فقد لعب اتباع البروليتاريا ، منذ الان دوراً حاسماً في مصائر بلدانهم ومصير العالم. فالثورة الروسية هي ثورة عالمية ». وقد رد ارثر ماير على هذا القول في جريدة الغولوا قائلا : « كل ثورة كبرى قامت في العالم زرعت حولها جرائم ضارة مؤذية ، الا ان الثورة الروسية لها جانبها الاحمر المرعب » ، ثم زاد قائلا : « انا ضد ثورة مماكسة شاملة تستطيع وحدها تجنيبنا اسوأ الكوارث » . اما غليوم الثاني فقد اعرب للامبراطور نيقولا الثاني عن رأيه قائلا : « ها هي روسيا تطوي صفحة جديدة من سفر تاريخها .. فالوسائل التي يجدر لها التذرع بها ، والذرائع التي يحمل اعتمادها ، والاشخاص الذين يدعون لتنفيذ هذه المهمة ، كل هذا سيترك اثره المباشر على الدول الاخرى الواقعة على حدودها » . ليس من ينكر قط ان الضربة التي نزلت بالنظام الاستبدادي القيصري كان لها صداها البعيد في آسيا حيث نفوذ الغرب كان اخذ يتغلغل اليها كما تغلغلت الرأسمالية الاستعمارية الى روسيا .

وقد جاء الحادث يكرس نهائيا انقسام الماركسيين الروس . وعلى ضوء هذا الحادث ، فقد رفض لنين ان لا يرى في مجلس السوفييت سوى « جهاز اداري ليس الا على شكل ما لنقابة المشتغلين . فقد اولاهم دور « اجهزة الفتنة » على طريقة تروتسكي الذي بقي مصراً على رأيه وتفكيره في ان « السوفييت يؤلف جامعة عمال الروس التي يمكن لها ان تتسلم ، في المستقبل ، امارة الجماهير الثائرة وتوجيهها » . لقد سبق لامجلس وكتب قائلا : « ان اسوأ ما يمكن ان

بصيب زعم متطرف هو ان يرى نفسه مجبرا لاستلام الحكم عندما لا تكون حركة تاريخية معينة الت أكلها بعد ، بحيث يؤمن السيطرة الطبقة التي يمثلها » .وقد حلا لبلاخانوف وبارلوف ودان ان يرددوا هذا التصريح مراراً . ولكن بخلاف هــؤلاء المتشككين الذين لم يرضوا بساهمة البروليتاريا في اقامة ديموقراطية بورجوازية ، وبعد ان اعادوا الى الاذهان الفشل الذي اصاب البابوفية الزراعية وبعد ان اتهموا بالتحول الى البلانكية «وقع لينين» وهو اقوى يقينا واكثر ايماناً «قيام » دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية » في اعقاب ثورة بورجوازية بالترتب على الديموقراطية البورجوازية دعمها قبل كل شيء . وفي مؤتمر براغ ، سنة ١٩١٢ ، حدد البلشفيك اكثر من اي وقت مضى مهمة تحقيق اطار ضيق وادارة صارمة تشرف على القوى البروليتارية ، اذ ان القضية لا تطرح على بساط البحث في اي مكان من اوروبا كما تطرح عندنا في روسيا » . وهذا الاضطراب الاجتماعي الشديد المتجدد النشاط قد يتنبأ في البلبن الوطيد بان ازمة فاصلة هي وشيكة الوقوع في الامبراطورية القيصرية ، فوجه من كراكوفيا ، عام ١٩١٣ – ١٩١٤ تعليماته الدقيقة بحيث تلاقي هذه الازمة لدى وقوعها ، حزباً ماركسياً مستعداً للعمل يستطيع ان يجر القوى الشعبية ويقودها بفضل ما له من قوة وما تم له من دهاء التنظيم .

وعلى عكس ذلك ،كانت الحركة الاشتراكية في اوروبا الغربية والوسطى تدفع عنها بمشقة ، هجمات الايديولوجيا الوطنية ومغريات الحركة الليبرالية . وليس في سبيل الشيطان راح لينين يستعرض في كتابه « المادية والنقد التجريبي » المحتوى البورجوازي لمذهب اللاحتمية العلمي والفلسفي . وتجهد جوريس في فرنسا ، بما اوتي من فصاحة وبلاغة ، على تحديد المثل الاعلى للاشتراكية التي تلهج دوماً بالاخوة والعدالة . وراح جورج سوريل من ناحيته يهاجم بعنف الديموقراطية البورجوازية ويدفع بمبدأ العفية وينادي بتفسخ الماركسية وانحلالها ، ولم يعد يتوقع التحرر الا من « الشعور بما هو سام » و « بالاسطورة » وهكذا يرى نفسه الى جانب المتمسكين بالتقليد . وراح احد تلامذته ، هو ادوارد برث يتحدث عن الفسق الديموقراطي ، ولم يتوان قط عن قرع جرس الحزن معلنا انتهاء حكم « الادباء » امثال بيغي وانتهى الى الوقوف بجانبه ، عام ١٩١٤ . اما الاشتراكيون « المعتدلون » فلن يتقاعسوا عن التعاون مع الجمهوريين الراديكاليين والمعتدلين . «فالبورجوازية تصفح بيسر للذين تهددوها عندما يتضح لها ان في مكنتهم الدفاع عنها وحمايتها » ، كما ألمع الى ذلك بوانكاريه في مذكراته . من الغريب جداً ، كما يلاحظ بول كبون من ناحيته ،ان رجاءنا الوحيد منوط في الاعتماد على آباء الاشتراكية امثال بريان او ملاران . فهم يدينون بوصولهم الى سدة الحكم لما اوتوا من فهم حاد وذكاء متوقد ... فـلم يحبسوا انفسهم ضمن مدرسة خاصة ضيقة ، ولم تحش نفوسهم بروح حزبية ،فهم قابلون للتطور » .

وفي قلب الديموقراطية الاجتماعية الالمانية ، كتب النصر في نهاية الشوط « للتبدلية » المحكوم عليها حسب الظواهر . فبعد ان رفض بيبل وشيدمان القول : « بأن سنة واحدة من الثورة امنت للبروليتاريا الروسية التربية او الخبرة التي عجزت ثلاثون سنة من الصراع التمثيلي

تأمينه ولو بشكل مصطنع « البروليتاريا الالمانية » ، وحملتها على رفض الاضراب العام ذات الهدف السياسي الذي اقترح اللجوء اليه روزا لكسمبورج .

غير انه لا يمكن للاشتراكية ان تبقى خالية البال امام تطور الاقتصاد الرأسمالي . فهلفرنغ، في كتابه : الرأس المال النقدي ، وروزا لكسمبورغ في كتابه الموسوم : حشد رأس المال ، يشددان على الضرورة المترتبة على رأس المال الاحتكاري بالسيطرة على مجالات غير رأسمالية، ليحافظ بذلك على وجوده وفقاً لمبادئه . فهذه المؤلفات الموضوعة اصلا باللغة الالمانية، ازالت القلق والاضطراب في قلب الديموقراطية الاجتماعية التي راحت قريبة تفكيرها بالمنافع والمكاسب التي من شأن الامبريالية ان تؤمنها للدول الصناعية . فهل تساعد هذه الامبريالية في نهاية المطاف ، على طلوع الاشتراكية ، وذلك برفع مستوى العيش في هذه الدول التي بلغت في تطورها الصاعد الى المستوى الاعلى، او انها تعجل في انتفاض الحرب وتقرب ساعة اعلانها لسقوط النظام البورجوازي ؟

الفصل الخامس

من السلم الى الحرب الأوروبية

عدم جدوى معارضة العالم العمالي للامبريالية والحرب

عللت الاشتراكية « الخيالية » نفسها بحلول سلام شامل في العالم ورؤية جميع شعوب اوروبا في جسم سياسي واحد مع احتفاظ كل منها باستقلاله الوطني كما عبر عن هذا الحلم المعسول سان سيمون واوغستين تياري ، منذ عام ١٨١٤ ، او بمجيء « جمهورية الله » كما تمنى ذلك قسطنطين بكور عام ١٨٤٤ .

ومنذ عام ١٨٤٨ ، راح الديمقراطيون الانسانيون امثال هوغو يرددون كلمة السر : « الولايات المتحدة الاوروبية » وعقدوا في هذا السبيل عدة مؤتمرات السلام . فقد تمنى بلانكي المعروف بروحه الوطنية إلغاء الجيوش المحترفة واستبدالها بإنشاء شعبية ؛ وبرودون نفسه وضع كل آماله في النظام الفدرالي . أما موقف ماركس فقد كان مغايراً لهذا كله : فالحرب ، هذه الفكرة الملازمة للنظام الرأسمالي ، سترتفع من هذا العالم بارتفاع هذا النظام والغائه الا انها قد تولد مجتمعا جديداً . واذ خشي ماركس ، خلال الدولية الاولى من ان تغدو البروليتاريا ، في الغرب وفي ألمانيا هدفاً لعدوان مسلح من قبل الحكم القيصري المستبد ، فقد نبذ جانباً فكرة نزع السلاح . الا انه عدل من موقفه بعد الفشل الذي منيت به الكومون . ولم يعد المجلس يتوقع ، بعد ذلك بطويل ، خيراً من اي حرب تقع في اوروبا « لدينا وسائل اسلم السير قدماً » ، كما راح بؤكد عام ١٨٩٣ ، فوسيلتنا الكبرى وحيلتنا المثلى هي العمل الحازم الذي تمثله البروليتاريا ، في بروزها الذي لا يُرد .

وجاءت امثولة عام ١٩٠٥ . فالحرب في منشوريا كالحرب في جزيرة القرم انزلت الوهن في النظام القيصري . وفي مؤتمر امستردام ، عام ١٩٠٤ ، راح بلاخانوف يعانق المندوبين اليابانيين قائلا : « لو قيض للقيصر وربح الحرب على اليابان ، لبات الشعب الروسي هو الخاسر الاكبر

والمغلوب على امره » . وقد وجد هذا القول صداه في كلمة القاها ستولبين : « الحروب وحدها تضمن فوز الثورة ، فبدون حرب تبقى الثورة عاجزة » . فالدرس يدعو الثورويين امثال لينين للتفكير جدياً في الامر .

وقد رفضت الاشتراكية في الغرب التسليم بالقول ان الحرب هي سبيل الخلاص .فقد « دلل جوريس على بطلان هذه النظرية ، الثوروية » . « ولا نريد ان نعرض ايماننا الوطيد بتحرر البروليتاريا المتصاعد للقدر الغاشم الطالع من حبات النرد الدامية » .

ولكن أليست الامبريالية ، من هذه الذرائع المثلى الكفيلة بتخفيف ضغط الطبقة العاملة على ارباب العمل ؟ فقد ذكر جيوليتي في «مذكراته» ،عام ١٨٩٣،« ان الرأي العام في ايطاليا ذُهل لهذه الفضائح المصرفية وان الطبقات الحاكمة كانت جد وَجِلة من جراء هذه الاضطرابات الاشتراكية الطالعة ، وسنحت فرصة استعمارية مثلى لصرف الانظار وتحويلها عن الوضع المتأزم » . ولذا راح سيسل رودس يكتب عام ١٨٩٥ بفظاظة قائلاً : « أليست الامبراطورية هي قضية بطن ، كما كنت دائماً اردد ؟ فاذا ما رغبتم في تجنب الحرب الاهلية ، عليكم ان تنصرفوا للاستعمار » . وهكذا ندرك تماماً كيف ان برنشتين ، رغبة منه في التوفيق بين الامبريالية والماركسية ، يبرر نزعات الرايخ الى المستعمرات . ثم ألم يلاحظ الجلس ، منذ عام ١٨٥٥ ، ان العمال الانكليز كانوا جد مرتاحين لعملية توسع وانبساط عادت عليهم بتحسين مستوى العيش عندهم ؟

يبقى بعد هذا ان بقدر ما تعمل الامبريالية على ديمومة النظام الرأسمالي وتأمين استمراره ، بقدر ذلك تحرص الاشتراكية على اصلائها حرباً عواناً لا هوادة فيها.اما السباق الى التسلح، فلا مبرر له على الاطلاق عندها ، اذ ان النفقات الباهظة التي يتطلبها التسلح يقع عبؤها على الجماهير .

ففي فرنسا وايطاليا واسبانيا حيث النقابات تتحسس عميقاً كلمة السر وتأتم بها ، حرص الفوضويون من ناحيتهم على بث فكرتهم بوجوب القضاء على الجيش باعتباره اداة القمع وعدة الحرب ، كما يجب ، في نظرهم كذلك القضاء على الكنيسة والدولة وارباب العمل . فالدسائس يحبكون خيوطها تتخذ ذريعة لسن القوانين « المجرمة » من قبل المجالس الفرنسية . فبعد قضية دريفوس راح جانب كبير من الرأي العام في فرنسا يتقزز من موقف اركان الحرب في البلاد واقلقته القلاقل الوطنية ، يتجه نحو مجافاة الروح العسكرية ومناهضتها ونحو الدعوة للسلام . واخذ فاكيه يعبر عن تذمره ، عام ١٩٠١ ، قائلاً : « يقتضي المرء شجاعة كبيرة ليعبر عن ولائه لفرنسا » .

والاضراب العام الذي اقترح باكونين الدعوة اليه ، احتجاجاً على الحرب ، عام ١٨٦٨ ، امام الدولية الاولى ، بقي من هذه المستحبات والاماني الاثيرة لدى النقابية الثوروية . « فالديماغوجيا المرفستية » التي يحبها يبغي تبني هذا الاقتراح وتعرضه على الحزب الاشتراكي

الموحد . « نحن لسنا بوطنيين ، يصرح هرف ، ولا يمكن لنا قط ان نكون وطنيين ، طالما نحن اشتراكيون ». وجوهو ، السكرتير العام لاتحاد العمل العام ، يصرح في٢٩ تموز ١٩١٤ قائلا : « الاضراب العام ... واجب يترتب على جميع العمال دونما تمييز » . وعند وقوع حوادث المغرب ، عام ١٩٠٩ اعلن عمال المرافىء في برشلونة الاضراب وحالوا بذلك دون ركوب وحدات الجيش البحر . وعلى أثر ذلك ، اطلقت النار على المجاهد الحر فرنسيسكو فرابر ، احد رواد المدرسة الحديثة .

غير ان الماركسيين لم يتنازلوا . فالروح العسكرية ، في نظر غسد ، ليست سوى نتيجة الرأسمالية : فليس من مبرر ، والحالة هذه لمحاربتها ومناهضتها منفردة . واحسن من ذلك « هو ان الدول تمثل شيئا كبيراً في تطوير البشرية وتطورها . فهي تؤلف مرحلة من هذه المراحل التي يترتب على الاسرة البشرية ان تقطعها ، والدور الذي تلعبه هذه الدول الآن لن ينتهي امره غداً . وقد زاد جوريس على ذلك واخذ يوصي بتأليف « جيش جديد » يكون بشحمه ولحمه ديموقراطياً ، شعبياً ، « قادراً على الدفاع عن الوطن ويكون اعجز من ان يلحق أي أذى أو ان يقوم بأي عدوان ضد الجمهورية » . فهو لا ينبذ من حب الوطن الا ما يغله من بغض وحقد . ولم يتردد بيبل قط عن الافصاح عن عزمه وعن استعداده لتناول بندقيته للدفاع عن المانيا اذا ما ُهوجمت .

ومهما يكن من الامر فان قادة الاشتراكية الفرنسية يخشون كثيراً من هذا الالتباس المزعج الذي يغشى موقف الدولية العمالية . لا شك ان « عقبة اللغة » جعل من العسير تبادل وجهات النظر الضيقة والمباشرة بين رؤساء الفئات الوطنية المختلفة . ففي رأي فندرفولد ، هذا العائق لم يكن موجوداً ، في الدولية الاولى ره اركان حربها ، الذين تألف سوادهم الاكبر من نازحين ومبعدين . وكثيراً ما ردد المجلس هذا الامر وتمه بأكثر من ١٧ لغة ولسان . وكان ماركس يكتب براحة دونما فرق لديه ، الفرنسية والانكليزية والالمانية . . . اما في الدولية الثانية ، فالامر على عكس ذلك تماماً . فتعدد اللغات والالسن ، باستثناء بعض الشواذات النادرة – هو من نصيب الاعضاء اليهود ، امثال تروتسكي وادلر وبلاخانوف... ، ولذا لم يكونوا يتفاهمون عموماً .

والى هذا ، فلم يتخل ممثلو الاشتراكية الالمانية عن مشاعرهم المعادية للروس . ألم يُسر المجلس في اذن احد مراسليه ، في اثر توقيع الاتفاق الفرنسي الروسي قائلا : « اذا ما اعلن الروس الحرب علينا ، لحتم على الاشتراكيين الالمان مهاجمة الروس والفرنسيين وحلفاءهم ، ايما كانوا ، بعنف شديد » واذ كان الالمان يخشون كثيراً الامبراطورية القائمة شرقيهم ، ابى افراد امثال ادلر وبوير ورينر ان يتصوروا احتمال او امكان انحلال الامبراطورية النمساوية المجرية . ومن ثم فالتعديلية وفقاً لنظرية برنشتاين كانت تركت اثرها عميقاً في الديموقراطية الاجتماعية التي كان انصارها ومؤيدوها بمثابة عرفاء حسني التدريب في خدمة القيصر ، بينما جعل بيغي من جوريس « داعية الجامعة الجرمانية وعميلا للحزب الالماني ».

ففي ظروف كهذه ، ليس من عجب قط ان تكون احتجاجات الدولية واعتراضاتها على التسلح مجرد مطالب افلاطونية . فقد اسقط مؤتمر شتوتغارت ، عام ١٩٠٧ ، اقتراحاً باعلان الاضراب العام في حالة نشوب حرب مع تحريض العمال على القيام بأعمال التخريب بأي طريقة أو وسيلة يرونها ناجعة والتي تختلف باختلاف ضراوة كفاح الطبقات والوضع السياسي العام » . وقد لوّحوا في مدينة بال عام ١٩١٢ ليس « بصورة هذا التعاون العظيم بين العمال في جميع ارجاء العالم فحسب ، بل ايضاً بالخوف المستحوذ على الطبقات الموجهة ، من جراء قيام ثورة بروليتارية تعقب حرباً عالمية » . كل شيء تم قبوله والتسليم به منذ ان غير جوريس رأيه قائلا: « اذا لم ينص الاقتراح عن طريقة معينة للعمل ، فهو لم يستثن أية طريقة على الاطلاق . وهكذا تعاقبت الاجتماعات وتوالت الخطب والاقتراحات . والصحيح هو ان المسؤولين عن الحركة الاشتراكية تركوا الامر مربوطاً بالقرار المتخذ . ولدى اجتماع مكتب الدولية الاشتراكية في بروكسل في ٢٩ / ٣٠ تموز ١٩١٤ وقع الحاضرون نص محضر عدم وجود . فالحزب الديموقراطي الاجتماعي ، اذ اعتبر روسيا المسؤولة الاولى عن الحرب ، صادق على الاعتمادات المرصدة للدفاع عن الحضارة وعن الاستقلال « الالماني » ، وقد رأى روزا لكسمبورج في هذا القرار « انهياراً لا مثيل له في التاريخ على مدى الاجيال » .

وعندما غادر جوريس بيت الشعب في بروكسل ، أسر في اذن فندرفلدت قائلاً : « ما اشبه القضية بقضيه اغادير . سنشهد ارتفاعاً وهبوطاً ولكن الامر سينتهي بتسوية في نهاية المطاف . امامي ساعتان قبل ركوب القطار لنذهب للتحف لنشاهد اسلافك الفلامان البدائيين» .

«شعرت البروليتاريا ان مصير الانسانية ومستقبلها متوقف عليها في هذه الساعة الحاسمة . . . » كما راح يؤكد المؤتمرون المجتمعون في مدينة بال . ولم يُخف جوريس قط انه يضع امله الوحيد في « قطاع المصالح الاقتصادية والمالية » التي تلزم الشعوب بمراعاة مصالح بعضها البعض ، وفي تجنيب الكوارث التي تجرها الحرب معها» . ومن جهته راح هاز احد اعضاء الحزب الديموقراطي الاجتماعي الالماني يصرح ، عام ١٩١٢ ، بالاتفاق مع برنشتاين وكوتسكي ، امام المؤتمر المنعقد في خمنتز ، بأن الفئات الرأسمالية ، في شتى البلدان المترابطة والمتعاقدة دولياً فيما بينها ، ترى من الافيد والاصلح لها ان تتقاسم الاسواق العالمية بدلا من ان تنهك نفسها في عراك دام لا يعرف احد ما ستكون نتائجه ، يهدد بالخطر كل المكاسب» ، وسيفضي التفكير بكاوتسكي الى وضع هذه النظرية التي يصفها لينين بأنها بلغت « منتهى الحماقة » ، وهي النظرية التي بموجبها ستتعاون الامبرياليات تعاوناً دولياً بحيث تتفادى الحرب .

وبانتظار ذلك ، وبسخرية من القدر العابث لتعتمد الاشتراكية الانسانية المتزعة على الرأسمالية في مهمة انقاذ السلام بانقاذ نفسها .

اول « مؤتمرات السلام » . فشل التحكيم الدولي والدعوة الى نزع السلاح

«الرأسمالية لا ترغب في الحرب ، الا ان الفوضى التي تثيرها تحول دون تفاديها » ، هـذا ما كان يصرح به جوريس . ليس من شك قط ان بعض ارباب الاعمـال لم تشعر بدنو الحرب كا لم تكن لترغب فيها ، بينا قامت بعض الاوساط الاخرى ، من حيث تدري او لا تدري بنشاط لا يخلو قط من خطر . يصف لنا انالول فرانس « القوى المالية » ، قوى هدامة لـلروح الوطنية والقومية ، ثم يكشف لنا ، من ناحية اخرى كيف ان كبار رجـال الصناعة ينشطون لصنع المدافع وبناء البوارج الحربية غيرة منهم على الدفاع عن الوطن واستدراجاً للطلبات . ويطمئن كيون ، عام ١٩٠٠ الى ان الامبراطور غليوم الثاني ليس سوى واحد من رجال الصناعة يسعى لاستثمار معمله واستغـلاله » . كذلك هو يضمن ما اليهود من نفوذ عظيم . . . بيدهم السلم والحرب . فلا مجال للدهشة هنا ولا للاحتجاج . هذا هو الواقع القائم ، علينا ان نأخذه بعين الاعتبار . وبالفعل ، نرى مديراً يهودياً لاحـد مصارف فرصوفيا هو جان دي بلوخ يشارك الى جانب الاقتصادي البريطاني فريدريك باسّي من انصار سياسة حرية التجـارة ، والى الجهز الحربي نوبل في « صليبية السلام » التي من اجلها يؤسس نوبل جائزة خاصة ، «هل من الممكن الاعتقاد «امام هـذه الارقام الفلكية» المجازفة» باعلان الحرب؟» ، يتساءل الالماني نجارك عندما راح يلمح الى هذه الملايين التي تمثل قيمة السندات الدولية . والمعروف ان كل هزة سياسية او ضغط سياسي شديـد كان يولد قلقاً او اضطراباً في الاسواق المالية . « انا آخذ على نفسي جانب الاوساط المالية الكبرى ، تدبروا انتم امر الدولية» كلاهما يريد السلام . فاذا ما ارادنا ذلك استطعنا إنقاذ السلام » ، كان يقول كلير لالبرت توماس خلال ازمة اغادير .

حاول الاشتراكيون تأمين الاخوة الانسانية بين البشر عن طريق الاشتراكية والديموقراطيون عن طريق الديموقراطية ، والمسيحيون عن طريق الكنيسة ، وانصار سياسة التبادل الحـر بالتجارة الحرة ، والفقهاء بالقانون . فالازمة الاقتصادية الكبرى عزاها العديدون من رجـال الاعمال ، الى هذه الاخبار التي يأخذ الناس بترويجها باستمرار . وبمناسبة المعرض الدولي العام الذي اقيم عام ١٨٨٩ ، تأسس مكتب دولي ومكتب برلماني دولي عام لنشر فكرة التحكيم الدولي بين الشعوب . ودوى اذ ذاك صوت البـابا ليون الثالث عشر في جمع الكرادلة ، كما اجتمع في واشنطون مؤتمر الجامعة الاميركية . ولكن هـذا النشاط كله لم يخرج بشيء يلزم حكومات الدول الكبرى بالاتفاق

واخذت بعض موازنات الدول ترزح تحت وطأة اعباء التسلح الاوروبي . وهـذا الوضع يفسر لنا الاقتراح الذي تقدمت به روسيا عـام ١٨٩٨ ، في اعقاب الحرب الصينية اليابانية والحرب الاسبانية الاميركية . فموارد اوروبا لا تنهض باطماع القيصرية . وارسلت ٢٦ دولة الى مؤتمر لاهاي المعقود عام ١٨٩٩ ممثلين لها الى « اول مؤتمر دولي للسلم » . صحيح ان الفشل

كان كامنا ، لم يتمكن المؤتمرون سائره ،لهذه القرارات التي اتخذوها بشأن قوانين الحرب ، وبالتوصية التي اتخذوها بانشاء محكمة دائمة للتحكيم الدولي . فكيف التوفيق ، والحالة هذه ، بين مبدأ السيادة الوطنية التي تضمم خلفها كل دولة ، وتحديد التسلح « الذي اعتبر امراً مرغوباً به جداً لتأمين المزيد من الرفاهية للجنس البشري » . ألم يقدم غليوم الثاني للامبراطور نيقولا الثاني هذا الاحتجاج الحازم ، الشديد : « هل يمكنك ان تتصور ملكاً أو الرئيس الاعلى في الدولة يأمر بتسريح وحداته العسكرية ، هذه الوحدات التي كرستها اجيال متطاولة عبر التاريخ المديد ، لترفع على جدران دور الصناعة وفي ابهاء المعارض هذه الاعلام والبيارق المجللة بالامجاد، والتنازل،بهذا الشكل ، عن هذه المدن والحصون والقلاع للفوضويين والديموقراطيين؟» والمؤتمر الثاني الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في مكسيكو ، عام ١٩٠١ ، بدعوة من الولايات المتحدة الاميركية ، تخفيفاً منها للتأثير السيء الذي تركه فيها اصطدامها باسبانيا، لم يتمكن ، هو الآخر من التوصية بالرجوع إلزامياً الى التحكيم في كل مشكلة دولية يستعصي حلها .

قامت الحروب في الترنسفال والصين ، ومنشوريا ، ونزلت أزمة حادة في المغرب . وبناء على اقتراح تيودور روزفلت، عقد عام ١٩٠٧ فقط مؤتمر دولي في اعقاب المؤتمر الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في الربو . ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية تجر وراءها اميركا اللاتينية ، فقد حضر المؤتمر ٤٤ دولة . أعيد ولا شك تنظيم محكمة التحكيم . الا ان سلطتها التي تعوزها صفة الالزام والاستمرار ، تحد من آمالها وتقصرها على أقضية نادرة حول مشاكل وقضايا ثانوية ، اقتصرت على الجلوس في قصر منيف فخم تم تشييده بفضل هبة سخية قدمها كارنجي .وقد جرى تبني النص الذي يوصي بانشاء محكمة عدل للتحكيم الدولي تجلس باستمرار ، غير ان تعيين القضاة الاعضاء بقي مجرد مشروع .ولذا راح القائد الاميركي موميوس ليا يصرح قائلا : « ان التحكيم الدولي يتجاهل تماماً ما للشرائع الطبيعية من تصلب لا يقبل الرحمة . . . اما الحد من التسلح فهو يصطدم بالاعتراضات ذاتها التي اصطدم بها عام ١٨٩٩ . لتكن راحتهم في الحرب » ، أخذ ينادي الصحافي وكهام ستيد. وبصعوبة كلية توصلوا الى إكمال التوصيات المتخذة عام ١٨٩٩، المتعلقة باعراف الحرب واخلاقها،وبالتخطيط لمؤتمر ثال يعقد عام ١٩١٥، الذي كان سيقضي من جراء الفشل المرتقب ، الى تطوير الجامعة الاميركية التي اقتنعت ، حتى الآن بالنتائج التي طلع بها مؤتمر بونس ايرس، عام ١٩١٠ .

واذ ذاك ، أخذت الازمات تتعاقب آخذ بعضها برقاب بعض : من أزمة البوسنه الى أزمة المغرب ، الى أزمة طرابلس الغرب ومنجديد الى أزمة البلقان . فلا ايطاليا ولا الدول البلقانية فكرت بعرض أختلافاتها مع تركيا على محكمة العدل في لاهاي. فلا عجب والحالة هذه ان تغرق الدول في تسلحها وتغوص في إعداد العدة للحرب الى ما فوق أذنيها . وأخذ الجنرال هيرنجن وزير حربية المانيا ، يصرح امام مجلس الرايخشتاغ قائلاً : التجربة التي تمت لنا بعد الاتفاق

المعقود بشأن المغرب والكونغو ، عام ١٩١١ ، علمتنا ان حشد قواتنا المسلحة لم يؤلف رادعاً كافياً » .

وعبثاً راح مدير شركة *Hamburg - Amerika* الملاحية، والمتمول الانكليزي كاسل يخططان عام ١٩١٢ ، لوضع حد لهذه المنافسة الحامية بين انكلترا والمانيا للسيطرة على البحار. وعندما وصل الكولونيل هاوس ، سكرتير الرئيس ولسن الى اوروبا ، في ربيع عام ١٩١٤ ، حاول دعوة برلين ولندن الى الجلوس حول طاولة مستديرة للمفاوضات وصولاً الى اتفاق بحري. فالقضية النمساوية الصربية التي نجمت عن مقتل ولي العهد الارشيدوق فرنسوا فرديناند، في سيراجيفو وضعت حداً نهائياً لمحاولة لتخفيض التسلح تخفيضاً جزئياً . وفي ٣٠ تموز رفضت المانيا الاقتراح الروسي بعرض المشكلة على محكمة العدل في لاهاي .

وقد بدا ان الجماهير اصابها الدوار فعطل فيها كل قوة على التفكير الصحيح حتى ان الجماهير في باريس توهمت انها ترى في ٢/٨/١٩١٤، كوكب المشتري منطاد زبلن يحوم في سماء العاصمة الفرنسية.

ساد صمت عميق عاجز او مشارك جو الكتيبة
وكتب النصر للنزعات القومية والامبريالية

من الجميل ان يحارب المرء ويداه نظيفتان والقلب بريء وان يضحي بحياته
مرضاة العدل الالهي (لويس جيليه اليرومان رولان ، في ١-٨-١٩١٤)

يتمنى الجميع هذه الحرب من الصميم وهم راضون بالتضحية بدمائهم على هيكلها
(رومان رولان : يوميات سني الحرب ١٩١٤ - ١٩١٨)

الخـاتمـة

١

من من الاوروبيين ألقى عام ١٩١٤ ، نظرة متمليـة على اطلس جغرافي الا ان يكون تملكه الزهو وان ترتكض نفسه غبطة وحبوراً ، عندما تبين المدى البعيد الذي بلغت اليـه سيطرته الاستعمارية . فهذه السيطرة تمتد فوق القارة الاوروبية بكاملها وتغمر اوقيانيا تقريباً وتشرف على نصف آسيا وعلى ربع القارة الاميركية ، بحيث تضم مع اوروبا ٦٠ ٪ من مجموع مساحة الاراضي غير المغمورة ، كما تضم ٥٠ ٪ من مجموع سكان الكرة الارضية . فهو يعرف معرفة اليقين انه قلما يقوم على الارض قطر أو صقع لا ينتفع ، بوجه أو بآخر ، من نشاطه . فهو لا ينكر قط ما تمّ للولايات المتحدة الاميركية من بأس وقـوة متصاعدة لا يرى فيها الآن أي خطر على نفوذه وسيطرته ، كما انه لا يخشى قط من ان تتمكن اليابان ، بما تم لها من سؤدد وسلطان ، من إرغامه على الانسحاب والانكفاء من اقطار آسيا الشرقية . عندما يعتكف الى نفسه ويجايز الشوط الذي قطعه في مضمار التمدن خلال قرن من الزمن يخرج من إلتفاتته هـذه راضياً كل الرضى عن هذه النتائج التي سجلها ولسانه يردد قائلاً : الذي مضى وانقضى هو في الصميم ، قرن اوروبا . وعندما تنطّ الى خاطره تنبؤات ملطوس التشاؤمية ، تعاوده هزة شعورية ، بأن حدثان الزمان جاءت تكذبها وتظهر بطلانها . فلم ترفل يوماً هذه القارة بمثل ما رفلت به اذ ذاك من السكان ، اذ بلغ عددهم ٤٠٠ مليون بعد ان كانوا ٢٠٠ مليون ، عام ١٨١٥ كما انها لم تتمتع يوماً بمثل ما تتمتع به عام ١٩١٤ من مستوى عيش رفيع.

وما عسى ان تعتزم اوروبا تقديمه للعالم ؟ توحيده بحيث تتوفر للجنس البشري حياة افضل ، وبحيث تستطيع هي ان تتحكم بالقدر الغاشم الذي قيض لها وفرة النسل وكثرة الناس في مثل هذه الرقعة الضيقة كما راحت تستذيق هذه الحضارة المرفهة . والحال ، فقد نهضت ، على خير وجه واوفر نشاط ، بالرسالة التي اضطلعت بها ، واوشكت ان تفرغ من عمليـة استكشاف الكرة الارضية واقتسامها فيا بينها . فلم تعد البحار لتؤلف ، في القرن الثامن عشر ، عقبة تحد من مواصلاتها ، وتم لها منذ ذلك الحين اقتسام هذه القارات . فاذا ما توارت عن الانظار هذه الامبراطوريات الاستعمارية التي توصلت حول شبه الجزيرة الايبرية، الى انشائها، استطاع الغير من

هذه الامبراطوريات ان يرسخ اصوله ويعرق في الارض . فالمغامرة الروسية ترتدي مقاييس اورآسيا كما ان السيطرة الفرنسية إتسمت بطابع عالمي . الا ان الانجازات الانكلوسكسونية التي اقتضت جهوداً جبارة تثير الفخر والاعجاب ، انشئت للعرق الانكليزي امبراطورية استعمارية لم يعرف التاريخ لها مثيلا . من جهة انكلترا التي سيطرت على امبراطورية الفرشت ٣٣ مليون كيلومتر مربع ، وضمت ٥٠٠ مليون نسمة ، ضمت في ما تضمنته اجزاؤها المكونة ، قارات بعرضها وطولها وسيطرت على معظم المواقع الستراتيجية الهامة ؛ ومن جهة ثانية ، الولايات المتحدة الاميركية ، هذه الكتلة الضخمة التي تنعم بموارد لا حدّ لها ولا حصر : عملاقان جاءا على نسبة ما تم لهما من وسائل النقل الحديثة .

والمهم في هذه كله انتقال البضائع والافكار حتى والبشر ، اذا ما دعت الحاجة القصوى الى ذلك . وهكذا أخذت هذه الكرة الارضية تضيق على اهلها في هذا الوقت بالذات الذي أخذت تطل علينا هذه العوالم الفلكية والعوالم الاخرى المتناهية الصغر . ولم يكن في مقدور غوتيه ان ينتقل بأسرع ما تم لأرسطو . فاذا بالآلة البخارية تطلع علينا فجأة ، ولم تلبث ان طبعت العصر بطابعها ، كما يؤكد برغسن وأخذت في تصنيف جديد للمدنيات ، واضعة في المرتبة الدنيا هذه الكيانات الدولية التي لا تزال تعول في نشاطها الحياتي على العضل المفتول والهواء المتحرك . فالسيطرة ، والحالة هذه ، هي من نصيب هذه الشعوب التي تسيطر على هذا الشريط الجغرافي الضيق من الاراضي الغنية بالفحم الحجري ، الذي يمتد من بنسلفانيا الى الدونتز ، كما ستصبح بعد لأي قصير من نصيب البلدان التي افاضت عليها الطبيعة ، ثروات معدنية ، طائلة من الحديد والفولاذ ، أي العمل الذي ينهض على المنجم ويعتمد عليه . كل هذا يضفي على العصر « رسالة » يوليها ميشال شفالييه طابعاً إلزامياً ، مصيرياً ، ربانياً ، وبعبارة أخرى ، صناعياً .

وبمجمل القول وبكلمة واحدة : وفرة الانتاج ووفرة وسائل العيش والسكن وتنوع نماذج اللباس ، وانتاج المجموعات الذي يوجب التقيد بالكمية السوية وحشد القوى العاملة ؛ وقد خرج من احتياطي الريف في اوروبا تياران قويان في حركة الاغتراب : الاول النزوح الى المدينة والثاني : الهجرة باتجاه الاميركتين والاقطار الجنوبية الأخرى المعروفة باعتدال مناخها . وهكذا اطل على المجتمعات المدنية عهد من التطور الفاصل ، بينما برز في الريف سواء منه في اوروبا أو في هذه البلدان الجديدة ، مجتمعات ريفية اضافية تسهر على تأمين اسباب العيش للمجتمعات الاولى التي تسلمت بنشاط وحماس قيادة العالم وتوجيهه . وقد برزت لندن ، بين عواصم الدنيا الكبرى : اكبر مرفأ واكبر مركز تجمع لرأس المال في العالم كله . فهي عاصمة أوسع وأغنى امبراطورية على كرتنا الارضية فالبضائع على انواعها تروح وتجيء في كل مكان مع تداول العملة بحرية وسهولة السيولة . فسياسة حرية التجارة التي نهجت نهجها عاصمة المال ، قابلها في الطرف الآخر ، استقرار العملة . فالذهب يتدفق على اسواق اوروبا من منابعه الثرية : بونت موروغان ، ومن الجبال الصخرية والرائد ، كما ان الاصفر الرنان يضمن نجاح المشروعات

الكبرى التي ينهض بها البيض ، في الوقت الذي تتدفق فيه على الهنـد وآسيا الصفراء عملات الفضة . والبركة ترفرف فوق رأس المال الآخذ بالتنافس لا يتهيب أية مغامرة ولا يرتد كليلا عن أي مشروع مهما ضخم ، فليس من يشك أو يتشكك بامكاناته وطاقاته التي لا حد لها .

فالحلم الذي راود العالم وعلله بطلوع حياة ملؤها الهناءة والسعادة اصبح تحقيقه على قـاب قوسين وادنى . فبعد ان تمت للانسان السيطرة على القوى الطبيعية العابثة وسخرها لخدمته ، نراه يزداد رفاه وعافية بعد ان راح يتقصى اسباب المرض وعرف كيف يمط حبل الحياة . فبامكان التربية والعلم الاتيان بالعجائب المدهشة والقضاء على الاوهام والمخـاوف الصبيانية التي عشعشت في الاذهان . انظر الى الخدمات الجلى التي افاضها الورق والطباعة على الادارة الحكيمة المدبرة . والجريدة المسلية والكتاب المهذب ، والشعور المتزايد بالتضامن والتضافر بين الافراد والجماعات. كل هذا وما اليه اخذ بالازدياد ولن تلبث فكرة الحرب ذاتها ان تصدم ادب العصر ، بعد ان وثقت الروابط التي شدت الشعوب بعضاً الى بعض . فبينا تأخذ الآلة العبدة محلا لهـا اكبر في خدمة الناس لا تلبث ان تصبح العبوديات على انواعها ، اثراً بعد عين ، في كل من اوروبا واميركا ، كما اخذت القهقرى في المناطق الاخرى .

فانجيل الحرية ينتشر حاملا الى الجميع بشرى انفتاح الشخصية البشرية وازدهارها. فالجلون الجدد، وهذه الوجوه التي هي مـلء العين والسمع ، أطلت من بين صفوف السوقة في الامس ، وطلعت من بين ابناء الطبقة الثالثة ، هم ابناء هذه الطوائف وهذه الجماعات التي رزحت طويلا تحت الضغط والاضطهاد كالبنائين الاحـرار ، والمشاقين واليهود ، اي من الفوا عصر روتشيلد وعصر ماركس ، هـذا العصر الذي كان اينشتاين خاتمته . والتسامح يسير جنباً الى جنب مع استثمار الطاقات والامكانات الخصبة . وهذا الايمان المبلّغ-مسيحيا كان ام علميا – الذي يجيش به ربع العالم ، يعمل جاهداً ، على تهذيب وصقل الثلاثة الارباع الباقية . فجاءت روح جوريس بالتفاؤل « هذا التفاؤل المسلكي » كما ينعته بيغي ، كما جاءت به روح روكفلر وهـو يردد : « انا لست متشائما . لي كل الثقة بالانسان والاخوة الانسانية » .

وهذا لا يعني قط ولا يفيد مطلقاً ان الحضارة المشتركة تؤدي بالضرورة الابداع الفكري : فحرية الفكر تخصب الابتكارات والابداع العقلي والفني التي قد تعبر احياناً عن التوق الى الانفلات والانطلاق . فاوروبا لا تتخلى ولا تتقاعس في هذا المجال لانها تنشد الخلق وتصبو الى الابتكار والابداع في المجالات كلها . فالتجدد عندها لا ينقطع كما ان التنوع على اشده . فبها إشتدت وشائج الرومنطقية ، بالقرن الثامن عشر من وجوه عدة ، فقد اطلقت ، بعد ان دارت ظهرها للحركة العقلانية ، مشاعرها واحاسيسها المتأججة ، قبل طلوع عصر البخار وبروز البورجوازية الرأسمالية . هذا هو مرض العصر بالنسبة للمصير الطالع.راحت الواقعية والطبعية تركز نظرها على حضارة الحديد وحضارة الذهب ، في الوقت الذي سارت فيه العلمية قـدماً تشع على الناس املا ورجاء،كما راحت الفلسفة الوضعية،من جهتها تقترح على البشرية عبادة الذات.

الا ان المندية او ملعب الذاتية بقيت متمسكة بحقوقها . فبعد ان جرى إقصاؤها مدة عن المسرح ، عاودتها القدرة على التعبير من جديد ، وذلك عندما حدثت الردة اللاجبرية ، في هذا الوقت بالذات الذي وقع فيه تداعي التأكيدات المثالية .

وبالفعل فلقد اخذت الحرية الفكرية في اوروبا تبدي عوارض الضعف في اواخر القرن الذي توقعت منه اوروبا ان يطلع عليها بما فيه شفاء غليلها واشباع اطماعها . فقد برز برغسون وانشتاين بعد افول نجم كلود برنار وبرتلو . كان من اللازم هضم واستمراء المكتشفات العلمية وتحديد المفهوم الصحيح للتطور .

٢

هذه الحضارة التي تبهى بها اوروبا وتفتخر ، لا يمكن ان تخفي ، بما لها من سحر وفتنة ، قسمات سحنتها الحربية، حتى في سنغافورة وفي هونغ كونغ حيث يتوارى الجندي وراء التاجر. فهي تمسك بهذه الجزيرة الصغيرة التي احتلتها غلاباً وتشكل معقلا او خراجاً في قلب مدنية تلك البلاد الوطنية ، تتبرم منه وتضيق به ذرعاً . هنالك حضور مشترك – كما ينم عنه الوضع في كل من الهند وافريقيا – او في اميركا الشمالية واستراليا ، حيث تجري تصفية « المتوحش » بكل بساطة . ففي رسائل امفاره، يبدو لنا كبلنغ ، المثال الاكمل لهذا المستعمر البريطاني الذي يتجافى الملونين ، ولا يتردد الا على ناديه المفضل ومجتمعه الاثير. صحيح ان الاوروبي يسخو في أعطياته ويرحب بكل مساعدة او مشاركة موالية كما يتمناها ويحدث عن مشاريعه الاستثمارية وعن الارباح المتدفقة التي يجنيها ، الا انه يشترط ، قبل كل شيء ، اساساً للنجاح ، الامتثال لتوجيهاته والعمل بها بكل دقة . ينشر لواء السلام ولا يتورع عن فرضه بالقوة . هو دوماً في حديث عما يجلب الخير للمستعمرة ، انما تجهيزها مربوط اصلا بمقتضيات مصلحته الخاصة . فاذا ما راح ينشر بشارة الانجيل وتعاليم السيد المسيح فلايمانه الوطيد انه يعمل على نشر مبادىء اخلاقية وادبية سامية . فاذا ما باع اصنافاً وسلعاً مصنوعة في اوروبا ، فلانه يعتقد بفائدتها للشاري وباهميتها له . يحز في نفسه ان يرى انه غير مقدر ، ويشعر بانه غير محبوب ، ولذا يروح ينعت الناس بالجحود ونكران الجميل . فاذا لم يعمل ، عامداً ، على نشر الامراض التي كثيراً ما عانى منها كالسفلس والتدرن الرئوي ، واذا لم يعمد ، عن سابق قصد وتصميم ، الى انهاك التربة ، فلم يجيء ركونه الى السخرة والعمل الاجباري وحرصه على الاتجار ، بالكحول عملا بغير وعي منه او شعور ، بل جاء إشباعاً لمطامعه الاشعبية . كم من هذه المدنيات التي وُصفت تافهة او متخلفة، هُدِرت واستبيحت على مذبح الحضارة المتطورة ؟

وهذه الانقلابات الواسعة التي قام بها العرق الابيض لا يمكن ادخالها في رصيد حساب اوروبا. فالمستعمرات الاوروبية الجديدة لم تلبث ان وعت إصالتها . فقد شهد القرن التاسع عشر ، عن

كثب ، التطور السريع الذي اخذت بأسبابه الممتلكات الانكلوساكسونية ، فيأما لتلعب الدور الذي ستلعبه فيا بعد كدول كبرى ، واضعة نصب اعينها مثال الولايات المتحدة الاميركية التي كانت بمثابة بوتقة لجنس من البشر ، عرف بروحه المغامرة وبجبروته ، توفر له من الخامات والموارد الاولية الطائلة ما جعله يعقد الآمال الطوال على تحقيق مستوى رفيع من العيش الكريم الهنيء ، دونه ما تم مثله لاوروبا القديمة التي ترزح تحت وطأة كثافة عالية ، من السكان كما ترزح تحت تقاليدها المرعية . فمنذ عام ١٩١٤ ، سارت اميركا الشمالية في طليعة الركب الحضاري ، بنشاطها الصناعي الزاخر ، واخذت تشرئب باعناقها ، نحو القيادة والرئاسة . وبالرغم من ان الدومنيونات البريطانية ،الاخرى لم يتم لها ما تم للولايات المتحدة ، فقد راحت مع ذلك ، تنظر الى حكومة لندن نظر الند للند ، بينا اخذ يبرز من بين دول اميركا اللاتينية ما يبشر بقرب طلوع امبراطوريات جديدة كالبرازيل والارجنتين والمكسيك ، التي وان خشنت منها الملامس ، يدب فيها دم الشباب الحار . ومن رأس هورن الى ريو غرانديه دي نورته ، يبسم الحظ ، من هنا ومن هناك ، امام الخلاسي او امام الهندي الاحمر ، بعد ان دقت عنده ساعة الثأر والانتقام لنفسه .

اما العالم الاسود فهو في خنوعه واستسلامه يلثم اقدام المنتصر . وهذا الاسلام المنكمش ، لم يفقد شيئاً من ايمانه وامانيه ، وآسيا الشرقية التي لا تقل عنه انكماشاً وغموضاً ، تأبى هي الاخرى ، الخضوع والاستسلام لهذا « البربري الابيض » . لم تزل قط من المغرب الى المحيط الهادي وشائج بمثل هذه المتانة كالوشائج التي شدت بعضاً الى بعض ، مدنيات تفخر بأمجادها الماضية وبما تم لها من ترف . كذلك لم تزل قط ادلة اقطع وحججاً ادفع على ما يقوم من تناقض مطلق بين عقليتين وذهنيتين لمفهوم الحياة . فالموقف يختلف تماماً عند مواجهة الغرب ، باختلاف المكان واختلاف الظروف . فالموقف يتناوح بين السلبية الصامتة ، نصف المشلة ، المستطية ، وبين الثورة المكشوفة . فها هي اليابان ، ومثلها ينتصب امامنا ، تستمد من الحضارة الصناعية ومن التقنية ما تختزنان من امكانات وطاقات لتحسين وسائل الدفاع عن استقلالها الغالي . انه لدرس بليغ فيه كل العظة والعبرة ، اذ ان اسلحة الرقي والتطور ، ترتد في آخر الامر الى وجه من اتقنها وشحذها .

فالفوز بآسيا والفوز بالاسلام يقتضي له اساساً السيطرة على روح آسيا وعلى روح الاسلام والتصرف بها . ولكن ما العمل وها هي اوروبا منقسمة على ذاتها ، تتناوش دولها وتتهارش ، فاعمت الاحقاد قلوبها . فمها بلغ من تطور البروليتاريا فيها ، فهي اشبه ما تكون ضحية نظام يقوم على الظلم الاجتماعي : حرية غرارة ، كاذبة ، تحول دون توزيع المواد الغذائية ، توزيعاً عادلاً ، ضمن « المساواة » الاخرى ، التي نزلت بها — الكلمة لويس جيليه — فالروح القومية التي جاشت فيها ، غدت ، بالرغم من مرور مائتي سنة من السلام الموصول ، إلهامات ضارة ، بعد ان عجزت اية سيطرة من اي لون كانت : فرنسية او انكليزية او روسية او المانية ، عن ان تضع لها حداً ، وانزياح السيطرة الى المانيا التي اخذت تنمي سوء حظها وقسمتها الضنزى

لما تم لها من موقع جغرافي ، اثار ما هو اشد هولاً على السلام ، بعد ان خيم على القارة، ورزح على كلكلها ، شبح التسلح المضني ، الموهن الذي مكنت له المدنية الصناعية . والحياز دول العالم الى المعسكرين القائمين في اوروبا ، الذي جاء نتيجة حتمية لاتساع رأس المال والروح الاستعمارية المتعصبة ، يقدم لنا مشهدا لهذا العالم الذي يكافح ضد استعمار اوروبا ، وهو كفاح جاء يخدم في نهاية الامر الروح الاستعمارية في اميركا واليابان معاً .

وهكذا نرى العالم نفسه امام رهنين فكيف السبيل الى رفعها ؟ وهكذا نزلت بالعقل الاوروبي ازمة اخذت بخناقه عند مطلع قرن جديد كل دلائلها تنذر بمصاعب جديدة .

« وهذه الهرطقات العصرية » ، لا تزال الكنيسة ، ولا سيما الكثوليكية منها ، تشجبها بعنف ، في المرتبة الاولى منها هذا الاعتداد الفاجر ، العاري من كل قيد ، على العقل البشري ، هذا الفجور المساوي لخطيئة الكبرياء . الا ان رفض الاخذ بالعنف ، وبعبارة اخرى ، المحبة ، محبة القريب وغير ذلك من هذه الروحانية ، التي اخذ المسيحي يتلمسها في الكتاب المقدس ، تؤلف شيئاً واحداً مع تعاليم الهند ، مع هذا الذي يسميه غاندي «*Ahimsa*» اي « اقصى حدود التواضع » . فبينا يتجه ، هذا الانسان – نيتشه – الى الحكمة القديمة ، هذا الرجل الذي يعلن على رؤوس الاشهاد « جدب القرن التاسع عشر الجذري » ، يتمنى لو يطلع علينا نموذج بشري اقوى واكمل ، اخذت اوروبا تطالب بحقوق الفكر ، بعد طغيان الروح المادية الجارف ، التي أسيء فهمها . وهل لفظ ، يا ترى ، الاقتصاد الحر ، كلمته الاخيرة؟ فربابنة هذا الاقتصاد وكبار المساهمين فيه نظروا الى انفسهم نظرة ربان سفينة اشتدت العاصفة حولها . فاذا بالماركسية تطل وتنمو وتتسع ، واذا بصوت جوريس يجلجل ويطفو على صوت لينين مبشراً بطلوع مجتمع لا اثر فيه للطبقات .

صحيح ان نبوغ الغرب الخلاق لم يذبل قط ولم يتب ، لا الحركة الاجتماعية الفائقة ولا هذه الاستعدادات لحرب تحمل في طياتها الفناء والدمار . فأخذ ينقل الى اقصى حد هذه الاختراعات التي حققها في مجال الكهرباء والضوء ، كالمصباح الكهربائي والدينامو والسينما والتلغراف اللاسلكي ، ثم استنبط الغواصة والسيارة والطائرة ، ونفذ الى اسرار الذرة ، وانفتحت امامه اسرار الفضاء الزمني واسرار النسبية . وطلعت علينا ثورة جديدة في مجالات العلوم والتقنية بعد هذه الاكتشافات التي تناثرت حباتها طوال القرن التاسع عشر والتي كان من شأنها ان وطدت نفوذ اوروبا .

وما عسى ان يكون مصير اوروبا هذه عندما تندلع شرارة الحرب العالمية الاولى ؟ فراح بول فاليري يتساءل : « ابقى لنا اوروبا ، كما كانت دوماً لنا ، هذه اللؤلؤة الثمينة في عالمنا الارضي ، جوهرة هذه الكرة ، والدماغ النابض في هذا الجسم الجبار » . فنحن امام نوع من الاعجوبة ، لم نشهد لها مثيلا منذ بضعة اجيال ، هذه الاعجوبة التي يمكن للقدر الغاشم ، المهدد المزمجر ، ان يضع حداً لها .

لم يذكر في هذا الجدول سوى عدد محدود من المؤلفات التي اختيرت من كل ما هـــو حري باستلفات انتباه القارىء الراغب في الاستزادة . ولم تذكر بصورة عامة المؤلفات الموضوعة بلغة غير الفرنسية . الا ان كتب الدراسة في معاهد التعلم العالي توفر مراجع اكثر تفصيــلا وعرضاً للاحداث اكثر توسعاً . ونقصد هنا بصورة خاصة :

LA COLLECTION «Clio» (Paris P.U.F.) t. IX, l'Epoque Contemporaine : 1 **Restaurations et Révolutions (1815-1871)**, par J. DROZ, L. GENET et **J. VIDALENC** (2e édit; 1963); **La paix armée et la Grande Guerre (1871-1919)**, par P. RENOUVIN, E. PRECLIN et G. HARDY (2e édit., 1947).

LA COLLECTION «Peuples et Civilisations» (Paris, P.U.F.), dirigée par L. HALPHEN et Ph. SAGNAC : t. XV, **L'éveil des nationalités et le mouvement libéral** (1815-1848), par G. WEILL, 1930 (réed. F. PONTEIL, 1960); **Démocratie et Capitalisme** (1848-1860), par Ch. H. POUTHAS (2e édit; 1948); **Du libéralisme à l'impérialisme** (1860-1898), par H. HAUSER, J. MAURAIN, P. BENAERTS (2e éd., révisée et refondue par F. L'HUILLIER, (1952); **L'essor industriel et l'impérialisme colonial** (1878-1904), par M. BAUMONT (2e éd., 1949); **La crise européenne et la première guerre mondiale**, par P. RENOUVIN (4e éd., 1962).

LA COLLECTION «NOUVELLE CLIO» (Paris P.U.F.): **L'expansion européenne (1600-1870)**, par F. MAURO (Paris, 1964); **L'Europe de 1815 à nos jours. Vie politique et relations internationales** par J. B.

L'Histoire générale de la civilisation d' L'Amérique anglo-saxone de 1815 à nos jours par C. FOHLEN (L'homme (Paris, Colin, 1960) par Ch.

مؤلفات عامة

L'Essai sur la civilisation d'Occident. L'home (Paris, Colin, 1960) par Ch. MORAZE.

L'Histoire générale de la civilisation d'Colin, 1959) du même auteur.

L'Histoire générale de la civilisation d'Occident de 1870 à 1950. I. 1870-1914, par J. CHAPPEY (Paris, Presses Universitaires, 1950);

Les grands courants de l'histoire universelle par J. PIRENNE (Paris, Albin Michel) : IV de la Révolution Française aux Révolutions de 1830 (1951); V. de 1830 à 1904 (1953); VI (1955) et L'Histoire Générale Contemporaine du milieu du XVIII° siècle à la deuxième guerre mondiale par F. FONTEIL (Paris, Dalloz, 1951).

La terre et l'évolution humaine (Paris, Albin Michel, rééd. 1949) par L. FEBVRE.

Les fondements de la géographie humaine, 3 tomes (Paris, Colin, 1943-1952) par MAX SORRE.

Principes de géographie humaine (Paris, Colin, 1922), par VIDAL DE LA BLACHE.

Nouvelle géographie universelle ,19 vol. (Paris, 1875-94), par E. RECLUS.

Atlas historique et géographie VIDAL DE LA BLACHE (Paris, Colin).

Atlas de géographie historique SCHRADER et CALLOUEDEC (Hachette).

Atlas du monde chrétien par A. FREITAG (Paris, Elsevier, 1959).

Nouvel Atlas historique par P. SERRYN, H. MARC-BONNET et BLASSELLE (Paris, Bordas, 1961).

التوسع الاوروبي

G. LE GENTIL, Découverte du monde (Collection «Pays d'Outre-Mer», P.U.F. 1954).

J. ROUCH, P.E. VICTOR et HAROUN TAZIEFF, Histoire universelle des explorations (Paris, Nouvelle Librairie de France, 1956).

R. CLOZIER, les étapes de la géographie (Paris, P.U.F., 1942).

G. HARDY, La politique coloniale et le partage de la terre aux XIX° et XX° siècles (Paris, Albin Michel 1937).

B. DE VAULX, En Afrique : Cinq mille ans d'exploitation (Paris, A. Fayard, 1960).

J. STENGERS, Belgique et Congo : L'élaboration de la Charte coloniale (Bruxelles, la Renaissance du Livre, 1963).

H. BRUNSCHWIG, l'Expansion Allemande outre-mer du XV° siècle à nos Jours (Paris, P.U.F., 1957).

J. TRAMOND et A. REUSSNER, Eléments d'histoire maritime et coloniale contemporaine (1815-1914) (Paris, Société d'Editions géographiques, 1924).

A. SIEGFRIED, Suez, Panama et les routes maritimes mondiales (Paris Colin, 1941).

G. HANOTAUX et A. MARTINEAU, Histoire des colonies françaises et de l'expansion française dans le monde, 6 vols. (Paris, Plon, 1930-34).

توسع فرنسا

H. BLET, Histoire de la colonisation française, t. II et III (Paris, Arthaud, 1947-1950).

H. DESCHAMPS, Méthodes et doctrines coloniales de la France (Paris, Colin, 1953).
R. DELAVIGNETTE et Ch. A. JULIEN, Les constructeurs de la France d'Outre-Mer (Paris, Corréa, 1946).
H. BRUNSCHWIG, Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français, 1871-1914 (Paris, Colin, 1960).
J.P. FAIVRE, L'expansion française dans le Pacifique entre 1800 et 1842 (Thèse, Paris, 1953).

تطور التقنيات

P. ROUSSEAU, Histoire des techniques (Paris, A. Fayard, 1956).
P. DUCASSE, Histoire des techniques (Paris, P.U.F., 1942).
VIERENDEEL, Esquisse d'une histoire de la technique, 2 vols, (Bruxelles, Vromant, 1921).
H. PASDERMADJIAN, La deuxième révolution industrielle (Paris, P. U. F., 1959).
LEWIS MUMFORD, Technique et civilisation (Paris, Ed. du Seuil, 1950).
P. DES ROUSIERS, Les grandes industries modernes, 5 vols. (Paris, Colin, rééd. 1930).
L. GUILLET, Les étapes de la métallurgie (Paris, P.U.F., 1942).
D. FAUCHER, Le paysan et la machine (Paris, Ed. de Minuit, 1954).
H. FAUCHER, La houille blanche, (Paris, Colin, 1946).
P. ROUSSEAU, Histoire de la vitesse (Paris, P.U.F., 1942).
L.M. JOUFFROY, L'ère du rail (Paris, Colin, 1953).
A. THOMAZI, Histoire de la navigation (Paris, P.U.F., 1942).
J. GODECHOT, Histoire de l'Atlantique, (Paris, Bordas, 1947).
R. CHAMBE, Histoire de l'aviation, (Paris, Flammarion, 1949).
G. WEILL, Le journal, (Paris, Albin Michel, 1934).
LO DUCA, Histoire du cinéma, (Paris, P.U.F., 1942).

التطور الاقتصادي والرأسمالية

J. MAILLET, Histoire des faits économiques des origines au XX^e siècle (Paris, Payot, 1952).
J. A. LESOURD et C. GERARD, Histoire économique XIX^e et XX^e siècles, (Paris, Colin, 1963).
A. PHILP, Histoire des faits économiques et sociaux de 1800 à nos jours (Paris, Aubier, 1963).
J. FOURASTIE, Le grand espoir du XX^e siècle (Paris, P.U.F., 1952).
J. LACOUR-GAYET, Histoire du commerce, t. III, IV, V (Paris, Spid, 1951-1952 - 1953).
H. ARDANT, Les crises économiques (Paris, Flammarion, 1948).
JOHAN AKERMAN, Structures et cycles écolnomiques (Paris, P.U.F., 1955-57, 2 vol; paru en Suède en 1944).

F. MAURETTE, Les grands marchés de matière première (Paris, Colin, 1940).
H. PEYRET, La lutte pour les denrees vitales (Paris, P.U.F., 1942).
H. PEYRET, La Bataille des trusts (Paris, P.U.F., 1943).
W. SOMBART, L'apogée du capitalisme, 2 vol. (Paris, Payot, 1932).
F. STERNBERG, Le conflit du siècle. Capitalisme et socialisme à l'épreuve de l'histoire (Paris, Club français du Livre, 1960).
J. HALPERIN, Les assurances en Suisse et dans le monde (Neuchâtel, La Baconnière, 1945).
M. AUGE-LARIDE, La révolution agricole (Paris, Albin Michel, 1955).

المسائل والآراء الاقتصادية والاجتماعية

L. CHEVALIER, Démographie générale (Paris, Dalloz, 1951).
M. REINHARD et A. ARMENGAUD, Histoire générale de la population mondiale (Paris, Monchrétien, 1961).
A. SIEGFRIED, Itinéraires et contagions. Epidémis et idéologies, (Paris, Colin, 1960).
H.A. CITROEN, Les émigrations internationales (Paris, Librairie de Médicis, 1948).
J. LAJUGIE, Libre-échange et protectionnisme (Paris, P.U.F., 1963).
G. LEFRANC, Histoire des doctrines sociales dans l'Europe contemporaine (Paris, Aubier, 1960).
E. HALEVY, Histoire du socialisme européen (Paris, Gallimard, 1948).
H. ARVON, Le marxisme (Paris, Colin, 1955).
A. CORNU, Karl Marx et Frederich Engels (Paris, P.U.F., 1955-58, 2 vols. parus).
A. PIETTRE, Marx et le marxisme (Paris, P.U.F., 1955-58.
H. CHAMBRE, De Karl Marx à Mao-Tsé-Tung (Paris, Spes, 1959).
J. DUCLOS, La Première Internationale (Paris, Ed. sociales, 1964).
A. KRIEGEL, Les Internationales ouvrières (Paris, P.U.F., 1964).
G. HAUPT, L'Internationale socialiste 1889-1914). Etude de sources. Essai bibliographique (Paris-La Haye, Mouton, 1946).
P. VAN DERESH, La deuxième Internationale 1889-1923 (Paris, Rivière, 1957).
Th. RUYSSEN, Les sources doctrinales de l'Internationalisme, t. III (Paris, P.U.F., 1961).
A. SERGENT et C. MANUEL, Histoire de l'anarchisme, 2 vols, (Paris, Le Portulan, 1956).
G. LEFRANC, Le Syndicalisme dans le monde (Paris, P.U.F., 1949).
E. DOLLEANS, Histoire du mouvement ouvrier, 3 vols. (Paris, Colin, 1936-1947-1954).
G. MARTIN, Histoire de l'esclavage dans les colonies françaises (Paris, P.U.F. 1948).
E. TERSEN, Victor Schoelcher, Esclavage et colonisation (Paris, P.U.F.,

1948).
R. AIGRAIN, Histoire des Universités (Paris, P.U.F., 1949).
H. VAN EFFENTERRE, Histoire du scoutisme (Paris, P.U.F., 1947).
B. GILLET, Histoire du sport (Paris, P.U.F., 1949).

التيارات الدينية والفلسفية

A. FLICHE, et V. MARTIN, Histoire de l'Eglise.
J. LEFLON, La crise révolutionnaire, 1789-1846 (Bloud et Gay, 1940).
DANIEL-ROPS, l'Eglise des Révolutions; I : En face de nouveaux destins (Paris, A. Fayard, 1960).
R. AUBERT, Le pontificat de Pie IX (Paris, Bloud et Gay, 1949-1952).
Ch. LEDRE, Un siècle sous la tiare : De Pie IX à Pie XIII (Paris, Amiot-Dumont, 1955).
H. MARC - BONNET, La papauté contemporaine (Paris, P.U.F., 1946).
H. MARC - BONNET, Histoire des ordres religieux (Paris, P.U.F., 1949).
J. M. SEDES, Histoire des missions françaises (Paris, P.U.F., 1950).
Mgr. DELACROIX et Collaborateurs, Histoire universelle des missions catholiques; t. III : Les missions contemporaines, 1800 - 1957 (Paris, Grund, 1958).
R. LAURENTIN et Dom B. BILLET, Lourdes, documents authentiques (Paris, Lethielleux, 1958, 4 vol.).
E. G. LEONARD, Histoire du protestantisme (Paris, P.U.F., 1950).
E. G. LEONARD, Histoire générale du protestantisme (Paris, P.U.F., t. III, 1964).
A. CHOURAQUI, Histoire du judaisme (Paris, P.U.F., 1957).
E. BREHIER, Histoire de la philosophie, t. II. (Paris, P.U.F., 1932).
P. DUCASSE, Les grands philosophes (Paris, P.U.F., 1942).
G. BOUTHOUL, Histoire de la sociologie (Paris, P.U.F., 1950).
A. BAYET, Histoire de la libre pensée (Paris, P.U.F., 1959).

الحركة العلمية

P. ROUSSEAU, Histoire de la science (Paris, A. Fayard, 1945).
S. F. MASON, Histoire des sciences (Paris, A. Colin, 1956).
R. TATON, et Collaborateurs, Histoire générale des sciences; t. III : La science contemporaine (Paris, P.U.F., 1961).
M. DAUMAS et Collaborateurs, Histoire de la science (Paris, Gallimard, 1957).
P. MARCHAL, Histoire de la géométrie (Paris, P.U.F., 1943).
O. BECKER et J. HOFMANN, Histoire des mathématiques (Paris, Lamarre, 1956).
M. BOLL, Les étapes de la mécanique (Paris, P.U.F., 1943).
P. COUDERC, Les étapes de l'astronomie (Paris, P.U.F., 1943).

P. GUAYDIER, Les étapes de la physique (Paris, P.U.F., 1960).
M. CAULLERY, Les étapes de la biologie (Paris, P.U.F., 1941).
E. MAY, La médecine, son passé, son présent, son avenir (Paris, Payot, 1958).
LECENE, L'évolution de la chirurgie (Paris, Masson, 1923).
J. CUEILLERON, Histoire de la chimie (Paris, P.U.F., 1957).
L. LEPRINCE-RINGUET, Grandes découvertes du XX' siècle (Paris, Larousse, 1956).

الحركة الادبية والفنية

Encyclopédie française publiée sous la direction de L. FEBVRE, t. XVI t. XVII, Arts et littératures dans la civilisation contemporaine; t. XVIII, La civilisation écrite (Paris, Larousse, 1935-1939).
P. VAN TIEGHEM, Histoire littéraire de l'Europe et de l'Amérique, de la Renaissance à nos jours (Paris, Colin, 1941).
R. AYRAULT, La genèse du romantisme allemand (Paris, Aubier, 1960).
A. BEGUIN, l'âme romantique et le rêve (Corti, 1963).
R. M. ALBERES, L'aventure intellectuelle du XX' siècle, 1900-1950 (Paris, Albin Michel, 1959).
L. HALPHEN, Histoire et historiens depuiscinquante ans : 1867-1925, 2 vol. (Paris, P.U.F., 1927-1928).
P. LAVEDAN, Histoire de l'art: Les faits et les doctrines (Paris. P. U. F., Collection «Clio», 1944).
L. REAU, Histoire universelle des arts, t. III et V (Paris, Colin, 1936).
L. HAUTECOEUR, Histoire de l'art; t. III : De la nature à l'abstraction (Paris, Flammarion, 1959).
A. FOCILLON, La peinture aux XIX' et XX' siècles, (Paris, Lamens, 1927).
L. REAU, L'ère romantique, Les arts plastiques (Paris, Albin Michel, 1949).
E. DEKEYSER, L'Occident romantique, 1789-1850 (Skira, 1965).
P. COUTHION, Le romantisme (Skira 1961).
P. FRANCASTEL, L'impressionnisme, (Paris, Les Belles-Lettres, 1937).
M. SERULLAZ, L'impressionnisme (Paris, P.U.F., 1961) ; Le Cubisme, (Paris, P.U.F., 1963).
R. RAY, La peinture moderne (Paris, P.U.F., 1942).
LO DUCA, L'Affiche, (Paris, P.U.F., 1943).
E. VUILLERMOZ, Histoire de la musique (Paris, A. Fayard, 1949).
A. EINSTEIN, La musique romantique (Paris, Gallimard, 1959).
H. H. STUCKENSCHMIDT, Musique nouvelle (Paris, Corréa, 1956).
P. HUOT-PLEUROUX, Histoire de la musique religieuse, des origines à nos jours (Paris, P.U.F., 1957).
L. GUICHARD, La musique et les lettres au temps du romantisme (Paris, P.U.F., 1958).

التطور السياسي

Encyclopédie française, publiée sous la direction de L. FEBVRE, t. X, l'Etat moderne (Paris, Larousse, 1935).

J. TOUCHARD et Collaborateurs, Histoire des idées politiques, t. II (Paris, P.U.F., Collection «Thémis», 1959).

M. DUVERGER, Les partis politiques (Paris, Colin, 1951).

G. E. LAVAU, Partis politiques et réalités sociales (Paris, Colin, 1953).

A. LATREILLE et A. SIEGFRIED. Les forces religieuses et la vie politique (Paris, Colin, 1951).

R. FUSILIER, Les monarchies parlementaires, Suède, Norvège, Luxembourg, Belgique, Pays-Bas, Danemark (Paris, Les Ed. Ouvrières, 1960).

العلائق الدولية

P. RENOUVIN et J.B. DUROSELLE, Introduction à l'histoire des relations internationales (Paris, Colin, 1964).

J. DROZ, Histoire diplomatique de 1648 à 1919 (Paris, Dalloz, 2ème Ed. 1959).

F. L'HUILLIER, De la Sainte Alliance au Pacte Atlantique. Le dix-neuvième siècle, 1815-1898 (Neuchâtel Ed. de la Baconnière, 1954).

L. DE SAINTE-LORETTE, L'idée d'une fédération européenne (Paris, Colin, 1955).

M. N. DRACHKOVITCH, Les socialismes français et allemand et le problème de la guerre (1870-1914) (Genève, E. Droz, 1953).

E. CARRIAS, La pensée militaire allemande (Thèse, 1948).

J. U. NEF, La route de la guerre totale (Paris, Colin, 1949).

F. SCHNEIDER, Histoire des doctrines militaires (Paris, P.U.F., 1957).

H. COURSIER, La Croix-Rouge internationale (Paris, P.U.F., 1959).

اوروبا

Ch. SEIGNOBOS, Histoire politique de l'Europe contemporaine. Evolution des partis et des formes politiques (1814-1914) (Ed. 1924, Paris, Colin).

Ch. SEIGNOBOS, Essai d'une histoire comparée des peuples de l'Europe (Paris, Rieder, 1938).

B. CROCE, Histoire de l'Europe au XIXᵉ siècle (Paris, Plon, traduction H. BEDARIDA, 1959).

A. SAUVY, L'Europe et sa population (Paris, Ed. Internationales, 1954).

G. WEILL, L'Europe du XIXᵉ siècle et l'idée de nationalité (Paris, Albin Michel, 1938).

P. HENRY, Le problème des nationalités (Paris, Colin, 1937).

H. CONTAMINE, L'Europe est derrière nous (Paris, A. Fayard, 1953).

H. HEATON, Histoire économique de l'Europe, t. II (Paris, Colin, 1952).

A. DEMANGEON, Le déclin de l'Europe (Paris, Colin, 1920).
A. DEMANGEON et L. FEBVRE, Le Rhin, problème d'histoire et d'économie (Paris, Colin, 1953).
F. PERROUX, L'Europe sans rivages (Paris, P.U.F., 1954).
F. PONTEIL, 1848 (Paris, Colin, 1937).
E. TERSEN, Quarante-huit (Paris, Club Français du Livre, 1957).
J. DROZ, Les révolutions allemandes de 1848 (Paris, P.U.F., 1957).

فرنسا

E. LAVISSE, Histoire de France contemporaine, t. IV à VIII par CHARLETY et SEIGNOBOS (Paris, Hachette, 1921).
P. GAXOTTE, Histoire des Français, t. II (Paris, Flammarion, 1951).
G. DUBY et R. MANDROU, Histoire de la civilisation française, t. II (Paris, A. Colin, 1958).
Ch. MORAZE, La France bourgeoise (XVIIIe - XXe siècles) (Paris, Colin, 1946).
G. DUPEUX, La société française, 1789-1900 (Paris, A. Colin, 1964).
F. PONTEIL, La monarchie parlementaire (Paris, Colin, 1948).
Ph. VIGIER, La monarchie de Juillet (Paris, P.U.F., 1962).
A. DANSETTE, Louis-Napoléon à la conquête du pouvoir (Paris, Hachette, 1961).
M. BLANCHARD, Le Second Empire (Paris, Colin, 1950).
G. BOURGIN, La Commune (Paris, P.U.F., 1953).
J. A. FAUCHER, La véritable histoire de la Commune (Paris, Atlantic, 1960, 3 vol.).
H. GUILLEMIN, Les origines de la Commune (Paris, Gallimard, 1950-1960, 3 vol.).
P. BOUJU et H. DUBOIS, La Troisième République (Paris, P.U.F., 1963).
H. REMOND, La droite en France de 1815 à nos jours (Paris, Aubier, 1964).
P. COMBE, Niveau de vie et progrès technique en France, 1860-1939 (Thèse, Strasbourg, 1955).
G. P. PALMADE, Capitalisme et capitalistes français au XIXe siècle (Paris, A. Colin, 1961).
L. DUNHAM, La révolutions industrielle en France (1815-1848) (Paris, Rivière, 1953).
GIRARD, La garde nationale 1814-1871 (Paris, Plon, 1964).
J. L'HOMME, La grande bourgeoisie au pouvoir 1830-1880 (Paris, P.U.F., 1960).
G. WORMSER, La République de Clémenceau (Paris, P.U.F., 1961).
J. HOURS, Le mouvement ouvrier français (Paris, Ed. Ouvrières, 1962).
G. LEFRANC, Le Syndicalisme en France (Paris, P.U.F., 1953).
R. DAVAL, Histoire des idées en France (Paris, P.U.F., 1953).
R. GARAUDY, Les sources françaises du socialisme scientifique (Paris, Ed.

Hier et Aujourd'hui, 1948).
D. LIGOU, Histoire du socialisme en France (Paris, P.U.F., 1962).
G. LEPOINTE, L'Eglise et l'Etat en France (Paris, P.U.F., 1960).
E. CARRIAS, La pensée militaire française (Paris, P.U.F., 1960).
C. DIGEON, La criseallemande de la pensée française, 1870-1914 (Paris, P.U.F., 1959).

اوروبا الشمالية والشمالية الغربية

L. CAHEN, L'Angleterre au XIX^{e} siècle. Son évolution politique (Paris, Colin, 1924).
E. HALEVY, Histoire du peuple anglais, 5 vol. parus (Paris, Hachette, 1913-1946).
A. J. BOURDE, Histoire de la Grande-Bretagne (Paris, P.U.F., 1961).
J. CHASTENET, Le siècle de Victoria (Paris, A Fayard, 1947).
L. CAZMIAN, L'Angleterre moderne. Son évolution (Paris, Flammarion, 1928).
B. VAN KALKEN, Histoire de la Belgique et de son expansion coloniale (Bruxelles, Office de Publicité, 1954).
J. DHONT, Histoire de la Belgique (Paris, P.U.F., 1963).
E. VAN GELDER, Histoire des Pays-Bas (Paris, Colin, 1936).
L. KRABBE, Histoire du Danemark (Paris, Klincksieck, 1950).
SVANSTROM et PALMSTIERNA, Histoire de Suède (Paris, Stock, 1944).
P. JEANNIN, Histoire des pays scandinaves (Paris, P.U.F., 1956).

اوروبا الوسطى

J. ANCEL, Manuel géographique de politique européenne. L'Europe centrale, 2 vol. (Paris, Delagrave, 1937 - 1940).
P. BENAERTS, Les origines de la grande industrie allemande (Thèse, Paris, 1933).
H. LICHTENBERGER, L'Allemagne moderne. Son évolution (Paris, Flammarion, 1908).
J. DROZ, Le romantisme politique en Allemagne, (Paris, 1963).
E. VERMEIL, L'Allemagne contemporaine, sociale, politique, culturelle (Paris, Aubier, 1953).
J. DROZ, Histoire de l'Autriche (Paris, P.U.F., 1947).
J. ANCEL, Slaves et Germains (Paris, Colin, 1939).
R. AUERBACH, Les races et les nationalités en Autriche-Hongrie (Paris, Alcan, 1917).
L. EISENMANN, Le compromis austro-hongrois de 1867 (Thèse, Paris, 1904).
E. TERSEN, Histoire de la Hongrie (Paris, Hachette, 1959).
G. DE BERTIER DE SAUVIGNY, Metternich et son temps (Paris, Hachette, 1959).

Ch. GILLIARD, Histoire de la Suisse (Paris, P.U.F., 1944).

اوروبا الجنوبية

P. GUICHONNET, L'unité italienne (Paris, P.U.F., 1961).
M. VAUSSARD, Histoire de l'Italie contemporaine (1870-1946) (Paris, Hachette, 1950).
J. HURE, Histoire de la Sicile (Paris, P.U.F., 1957).
P. HURE, Histoire de l'Espagne (Paris, P.U.F., 1947).
Ch. E. NOWELL, Histoire du Portugal (Paris, Payot, 1953).

اوروبا الشرقية والتوسع الروسي

A. MOUSSET, Le monde slave (Paris, S.E.F.S., 1946).
J. MEUVRET, Histoire des pays baltiques (Paris, Colin, 1934).
H. DE MONFORT, La Pologne (Paris, La Renaissance du Livre, 1947).
A. JOBERT, Histoire de la Pologne (Paris, P.U.F., 1953).
J. ANCEL, Manuel historique de la Question d'Orient (Paris, Delagrave, 1927).
R. RISTELHUEBER, Histoire des peuples balkaniques (Paris, A. Fayard, 1950).
M. DEVOS, Histoire de la Yougoslavie (Paris, P.U.F., 1955).
N. SVORONOS, Histoire de la Grèce moderne (Paris, P.U.F., 1953).
J. TULARD, Histoire de la Crète (Paris, P.U.F., 1962).
A. EMILIANIDES, Histoire de Chypre (Paris, P.U.F., 1962).
P. MILLIOUKOV, Ch. EISENMANN, Ch. SEIGNOBOS, Histoire de Russie, t. II et III (Paris, Leroux, 1932).
G. ALEXINSKY, La Russie révolutionnaire (Paris, Colin, 1947).
M. SEMIONOV, La conquête de la Sibérie (Paris, Payot, 1936).
L. HAMBIS, La Sibérie (Paris, P.U.F., 1957).
B. PONOMAREV et Collaborateurs, Histoire du parti communiste de l'Union Soviétique (Moscou, Ed. en langue étrangère, 1960).
H. LEFEBVRE, Pour connaître la pensée de Lénine (Paris, Bordas, 1957).

الامبراطورية الالمانية

A. DEMANGEON, L'Empire britannique. Etude de géographie coloniale (Paris, Colin, 1923).
J. J. CHEVALLIER, L'évolution de l'Empire britannique, 2 vol. (Paris, Ed. Internationales, 1930).
J. MAGAN DE BORNIER, L'Empire britannique, son évolution politique et constitutionnelle (Paris, Mechelinck, 1930).
H. GRIMAL, Histoire du Commonwealth britannique (Paris, P.U.F., 1962).
R. RUMILLY, Histoire du Canada (Paris, La Clé d'Or, 1951).

J. A. LESOURD, L'Union sud-africaine (Paris, P.U.F., 1963).
A. W. JOSE, Histoire de l'Australie (Paris, Payot, 1930).
A. HUETZ DE LEMPS, Australie et Nouvelle Zélande (Paris, P.U.F., 1954).

اميركا

P. CHAUNU, l'Amérique et les Amériques (Paris, Colin, 1964).
Ch. B. CLOUGH, Histoire économique des Etats-Unis d'Amérique depuis la guerre de Sécession (Paris, P.U.F., 1953).
H. U. FAULKNER, Histoire économique des Etats-Unis d'Amérique (Paris, P.U.F., 1958, 2 vol.).
J. NERE, La guerre de Sécession (Paris, P.U.F., 1961).
M. J. BUTCHER, Les noirs dans la civilisation américaine (Paris, 1958).
F. L. SCHDELL, Histoire de la race noire aux Etats-Unis du XVII[e] à nos jours (Paris, Payot, 1959).
O. W. LARKIN, L'art et la vie en Amérique (Paris, Plon, 1952).
H. S. COMMAGER, L'esprit américain (Paris, P.U.F., 1965).
P. CHAUNU, Histoire de l'Amérique latine (Paris, P.U.F., 1964).
A. SIEGFRIED, Amérique latine (Paris, Colin, 1934).
R. S. COTTERIL, Histoire des Amériques (Paris, Payot, 1946).
V. ALBA, Le mouvement ouvrier en Amérique latine (PaPris, Ed. Ouvrières, 1953).
G. FREYRE, Maître et esclaves (Paris, Gallimard, 1952).
P. MONBEIG, Le Brésil, (Paris, P.U.F., 1954).
Ch. MORAZE, Les trois âges du Brésil. Essai de politique (Paris, Colin, 1954).
J. TOUCHARD, La République argentine (Paris, P.U.F., 1952).
Ch. AUBRUN, L'Amérique centrale (Paris, P.U.F., 1952).
F. WEYMULLER, Histoire du Mexique (Paris, P.U.F., 1954).
E. PEPIN, Le panaméricanisme, (Paris, Colin, 1938).

العالم الاسلامي

H. MASSE, L'Islam (Paris, Colin, 1930).
L. GARDET, La Cité musulmane: Vie sociale et politique (Paris, 1954).
L. STRODDARD, Le nouveau monde de l'Islam (Paris, Payot, 1923).
X. DE PLANHOL, Le monde islamique. Essai de géographie religieuse (Paris, P.U.F., 1957).
G. NIGEON, Manuel d'art musulman, 2 vol. (Paris, Picard, 1927).
R. FURON, La Perse (Paris, Payot, 1938).
R. DOLLOT, L'Iran, Perse et Afghanistan (Paris, Payot, 1951).
G. HANOTAUX, Histoire de la nation égyptienne, t. VI-VII (Paris, 1935-36).
M. CHRETIEN, Histoire de l'Egypte moderne (Paris, P.U.F., 1951).
Ch. A. JULIEN, Histoire de l'Afrique du Nord (Paris, Payot, 1952).

Ch. A. JULIEN, Histoire de l'Algérie contemporaine (Paris, P.U.F., 1964).
J. KLEIN, La Tunisie (Paris, P.U.F., 1949).
J. GANIAGE, Les origines du protectorat français en Tunisie, 1861 - 1881 (Paris, P.U.F., 1959, thèse).
E. F. GAUTIER, Un siècle de colonisation : Etude au microscope (Paris, Alcan, 1930).
A. AYACHE, Le Maroc (Ed. sociales, 1966).
R. MONTAGNE, La civilisation du désert (Paris, Gallirmard, 1946).
R. CAPOT-REY, Le Sahara français (Paris, P.U.F., 1953).
V. MONTEIL, Les musulmans soviétiques (Paris, Ed. du Seuil, 1957).
J. P. ALEM, L'Arménie (Paris, P.U.F., 1959).
E. E. RAMSAUR, The Young Turks. Prelude to the révolution of 1908 (Princeton, University Press, 1957).

اسرائيل والحركة الصهيونية

C. ROTH, Histoire du peuple juif (Paris, Ed. de la terre retournée, 1948).
A. CHOURAQUI, L'Etat d'Israël (Paris, P.U.F., 1955).
J. COHEN, Le mouvement sioniste (Paris, Ed. de la terre retournée, 1946).
A. CHOURAQUI, Théodore Herzl inventeur de l'Etat d'Israël (Paris, Ed. du Seuil, 1960).
Chaim WEIZMANN, Naissance d'Israël (Paris, Gallimard, 1957).

افريقيا السوداء وعالم ما بين خطي الجدي والسرطان

P. GOUROU, Les pays tropicaux, (Paris, P.U.F., 1941).
H. LABOURET, Histoire des noirs d'Afrique (Paris, P.U.F., 1946).
R. CORNEVIN, Histoire des peuples de d'Afrique noire (Paris, Berger-Levrault, 1960).
R. CORNEVIN, Histoire du Togo (Paris, Berger-Levrault, 1959).
R. CORNEVIN, Histoire du Dahomey (Paris, P.U.F., 1965).
D. PAULME, Les civilisations africaines (Paris, P.U.F., 1953).
H. DESCHAMPS, L'éveil politique africain (Paris, P.U.F., 1952).
RICHARD-MOLARD, L'Afrique occidentale française (Paris, Berger-Levrault, 2ème éd., 1952).
H. DESCHAMPS, Les religions de l'Afrique noire (Paris, P.U.F., 1960).
E. REVERT, Les Antilles (Paris, Colin, 1954).
A. YOU, Madagascar, Colonie française (Paris, Société d'Editions géographiques, 1931).
H. DESCHAMPS, Histore de Madagascar (Paris, Berger-Levrault, 1960).
A. TOUSSAINT, Histoire de l'Océan Indien (Paris, P.U.F., 1961).
Ch. A. JULIEN, Histoire de l'Océanie (Paris, P.U.F., 1942).
D. L. OLIVER, Les îles du Pacifique. L'Océanie des temps modernes à nos jours (Paris, Payot, 1952).

آسيا : الهند والشرق الأقصى

P. MEILE, **Histoire de l'Inde** (Paris, P.U.F., 1951).

R. PALME DUTT, **L'Inde d'aujourd'hui et de demain** (Paris, Ed., sociales, 1957).

M. K. GANDHI, **Expériences de vérité ou autobiographie** (Paris, P. U. F., 1950).

Ch. ROBEQUAIN, **Le monde malais** (Paris, Payot, 1946).

J. BRUHAT, **Histoire de l'Indonésie** (Paris, P.U.F., 1958).

LE THANH-KHOI, **Histoire de l'Asie du Sud-Est** (Paris, P.U.F., 1959).

P. FISTIE, **Singapour et la Malaisie** (Paris, P.U.F., 1960).

GONNARD, **La colonisation hollandaise à Java** (Paris, Thèse, 1905).

E. DENNERY, **Foules d'Asie** (Paris, Colin, 1930).

P. GOUROU, **La terre et l'homme en Extrême-Orient** (Paris, Colin, 1947).

P. RENOUVIN, **La question d'Extrême-Orient** (Paris, Hachette, 1946).

A. MASSON, **Histoire de l'Indochine** (Paris, P.U.F., 1950).

A. MASSON, **Histoire du Vietnam** (Paris, P.U.F., 1960).

LE THANH-KHOI, **Viet-nam, histoire et civilisation** (Paris, Ed. de Minuit, 1955).

A. DAUPHIN-MEUNIER, **Histoire du Cambodge** (Paris, P.U.F., 1961).

A. DUBOSCQ, **l'évolution de la Chine** (Paris, Bossard 1921).

E. HOVELACQUE, **La Chine**, (Paris, Flammarion, 1923).

G. MASPERO, **La Chine**, 2vol. (Paris,Flammarion, 1923).

G. MASPERO, **La Chine**, 2 vol. (Paris, Delagrave, 1925).

R. GROUSSET, **Histoire de la Chine** (Paris, A. Fayard, 1946).

G. DUBARBIER, **Histoire de la Chine moderne** (Paris, P.U.F., 1949).

LA MAZELIERE, **Histoire du Japon, t. III, IV, V** (Paris, Plon, 1908).

R. BERSIHAND, **Histoire du Japon des origines à nos jours** (Paris, Payot, 1959).

F. LEGER, **Les influences occidentales dans la révolution de l'Orient: Inde-Malaisie-Chine, 1850-1950** (Paris, Plon, 1955).

S. SCHRAM et H. CARRERE D'ENCAUSSE, **Le marxisme et l'Asie, 1853-1964** (Paris, Colin, 1965).

K. M. PANNIKKAR, **L'Asie et la domination occidentale du XV° siècle à nos jours** (Paris, Ed. du Seuil, 1956).

L. AUBERT, **Les maitres de l'estampe japonaise** (Paris, Colin, 1922).

G. WILLOQUET, **Histoire des Philippines** (Paris, P.U.F., 1961).

مــراجــع عربيــة

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية رأت « دار منشورات عويدات » في بيروت تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر الاختصاصي بفن المكتبات والخبير العالمي بالبيبليوغرافيا الشرقية والتوثيق العلمي ، وأحد المترجمين لهذه الموسوعة التاريخية إعداد قائمة ببليوغرافية « بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء الخاص بتاريخ العالم بين ١٨١٥–١٩١٤ وقد نزل الاستاذ داغر عند رغبتنا هذه فأعد هذه القائمة خدمة للبحث العلمي وتيسيراً لأسبابه والعاملين في مجالاته في عالم الضاد ممن يهتمون بالدراسات التاريخية العائدة لهذه الحقبة المهمة من التاريخ العام .

فعسى ان يجد الباحثون في هذه القوائم المختارة مــا يغني بعض الشيء عن جهد التقصي والتفتيش .

اوروبا ـــ التاريخ الحديث

حداد ، جورج مرعي – تاريخ اوروبا والمسألة الشرقية في الازمنة الحديثة ١٧٨٩ – ١٨١٨ حلب المطبعة الوطنية ١٩٣٥ ، ٢٥١ ص ، مع صور – خريطة .

رابلـكر ، انطون – الوجه الاقتصادي لاوروبا ، ترجمة جابر عمر – بغداد ، دار المعرفة ١٩٥٢ ، ٣٢٣ ص .

شكري ، محمد فؤاد – الصراع بين البورجوازية والاقطاع (١٧٨٩ – ١٨١٨) ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ٣ مجلدات .

الفلكي ، محمود صالح – التكتلات الاقتصادية الغربية : نشأتها ، انظمتها ، اغراضها المباشرة ، اهدافها البعيدة – القاهرة ، دار النشر للجامعيـــات المصرية ١٩٦٢ ، ١٢١ ص ، مراجع ص ١١٧ .

فيشر ، هربرت البرت لورنس - تاريخ اوروبا في العصر الحديث ، ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤١ ، ٦٦٩ ص - خرائط .

قاسم ، محمد - تاريخ القرن التاسع عشر وما يليه من حوادث حتى نهاية الحرب العظمى - القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ ، ٣٥٦ ص ، صور ، خرائط .

هيروفيل ، هوبير - اقتصاديات بلدان الحوض المتوسط . ترجمة نهاد رضا - بيروت ، منشورات عويدات ١٩٦١ ، ١٨٧ ص .

قاسم ، احمد واحمد نجيب هاشم ، التاريخ الحديث والمعاصر - القاهرة ، دار المعارف ١٩٦١ ٢٥٦ ص - صور ، خرائط .

هيز ، كارلتون جوزف - الثورة الصناعية ، ترجمة احمد عبد الباقي - بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٩٥٠ ، ٢١٩ ص .

روسيا

أنور الكيراي ، يوسف - كارثة القرم الاسلامية في الاتحاد السوفياتي - القاهرة ، مطبعة الصاوي ، ١٩٥٠ ، ١٨٢ - خرائط .

سليم قبعين - سياحة في روسيا - مصر .

نخلة قلفاط - تاريخ روسيا الحديث - بيروت ، ١٨٨٦ - ١٨٨٨ ، في اربعة اجزاء .

امين الشميل - الوافي : فصل في تاريخ المسألة الشرقية ومتعلقاتها وتاريخ الحرب العثمانية الروسية سنة ١٨٧٧ ، في كتابين يقعان معاً في ٦ أجزاء ، طبع الثاني منها فقط .

حلمي المعظم - دفاع بلفنا (في حرب الروس مع الدولة العثمانية) سنة ١٨٧٨ دمشق ، مطبعة الترقي ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) ١٤٣ ص مع خريطة .

المقتطف - دولة الروس أو ثلثمائة سنة على بيت رومانوف ، مجلد ٤٢ (١٩١٣) ، ص ٣١٣ و ٤٧٦ ، و ٥٦٨ .

البلقان - تركيا - الحرب البلقانية - اليونان

ابن حبيب ، الحسن - درة الاسلاك في دولة الاتراك - دمشق ١٩٦٧ مجلدان .

الايام ، جريدة (يوسف نعمان معلوف) ، اسرار يلدز او العقد الثمين في تاريخ اربعة سلاطين نيويورك ، مطبعة الايام ، ١٩٠٠ ، ٣٣٧ ص مع صور .

بيهم ، محمد جميل – العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب . مراسة لـشرح دور العرب والترك في تنازع العالم على السيادة – بيروت المطبعة الوطنية ١٩٥٧ ، ص ٢٢٥ .

... فلسفة التاريخ العثماني – بيروت ، مطبعة صادر ، ١٩٢٥ – ١٩٥٤ ، مجلدان .

جودت ، احمد – تاريخ جودت ، ترجمة عبد القادر الدنا – بيروت ، مطبعة جريدة بيروت ١٣٠٨ هـ .

جيانا كوليس ، ليودور – اليونان : شعبها وارضها . ترجمة محمد امين رستم – القاهـــرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ .

الحداد، سليم – تاريخ الحرب البلقانية المصورتين الدولةالعثمانية ودول الاتحاد البلقاني-القاهرة مطبعة الهلال ، ١٩١٣ .

حلمي ، ابراهيم – التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية – القاهرة، مطبعة ديوان عموم الاوقاف ١٩٠٥ ، ٢٥٤ ص .

خانكي ، عزيز – الذكرى المئوية لواقعة نزيب (٢٤ يونيه ١٨٣٩ – ٢٣ يونيـــه ١٩٣٩ – القاهرة ، ٣٨ صفحة .

دروزة ، محمد عزة – تركيا الحديثة – بيروت ، مطبعة الكشاف ١٩٤٦ ، ٣٥٥ صفحة .

البستاني ، يوسف افرام – تاريخ حرب البلقان الاولى بين الدولة العالية والاتحاد البلقاني ، القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩١٣ ، ٢٢٧ صفحة – خريطة – صور .

الريس، محمد ضياء الدين – تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية اثناء الدور الاخير الخلافة (١٧٧٤ – ١٩٢٤) – القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٠ (يشتمل على تاريخ مصر وتركيا والشام والعراق وجزيرة العرب منذ اواخر القرن الثامن عشر الى العصر الحاضر) .

سامون، عزرا صموئيل – تاريخ مدحت باشا وجمعية الاتحاد والترقي العثمانية – الاسكندرية مطبعة جرجي غرزوزي ، ١٩١٠ ، ١٠٤ صفحات.

شاكر ، علي – القول السديد في حرب الدولة العلية مع اليونان – القاهرة ، مطبعـــة الموسوعات ، ١٣٢١ هـ. ١٩٤ ص .

صفوت ، محمد مصطفى – مؤتمر برلين ١٨٧٨ واثره في البلاد العربية – القاهرة ، معهـــد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧ .

... محاضرات في المسألة الشرقية ومؤتمر باريس – القاهرة ، معهد الدراسات العربيـــة العالية ١٩٥٨ ، ٦٢ صفحة .

كامل ، مصطفى – المسألة الشرقية – القاهرة ؛ مطبعة الآداب ، ١٨٩٨ ، ٣٥٢ ص .

ايطاليا ـ النزاع الايطالي في الحبشة (١٨٩٥ – ١٨٩٦) مأخوذ عن التقرير الايطالي المرفوع الى عصبة الامم ، ترجمة رستم درويش – ٣٢ ص .

المانيا

جمال الدين ، فوزي ـ من بسمارك الى هتلر (للتلاميذ وتلميذات السنة الرابعة بالمدارس الثانوية بالسودان). – امدرمان ، مكتبة الحرية ١٤٠ ص .

العقاد سليم – غليوم الثاني . ترجمته الشخصية والسياسية – القاهرة المطبعة العصرية ، لا . ت. ١٨٦ ص .

الاستعمار

رياض ، زاهر – استعمار القارة الافريقية واستقلالها – القاهرة ١٩٦٦، ٣٣٣ص - خرائط مراجع ص . ٣٢٦ – ٣٣٣ .

... استعمار افريقية– القاهرة ، دار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ ، ١٦١ ص ـ صور ـ خرائط ـ مع مراجع .

الشهابي الأمير مصطفى ـ محاضرات في الاستعمار ـ القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ، جزآن .

حربي ، محمد ـ تاريخ العصر الحديث : مصر ـ الولايات المتحدة ـ الاستعمار الاوروبي ـ القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٢٦ ، ٣١٣ ص ـ صور ـ خرائط .

عبده ، علي ابراهيم ـ اضواء على المنافسة الدولية في اعالي النيل ـ القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٢ ، ٢٠١ ص مراجع ص ١٩٧ ـ ٢٠١ .

... المنافسة الدولية في اعالي النيل (١٨٨٠ ـ ١٩٠٦) ـ القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ ، ٣٩٨ ص ـ خرائط ـ مراجع ص ٣٨١ .

الغزالي ، محمد ـ الاستعمار : احقاد واطماع ـ القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٧ ، ص ٣١٠ .

فهمي ، عبد العزيز – الاستعمار عدو الشعوب – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٣ ، ١٩٢ ص .

لينين ، ف. ا ـ الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية ، ترجمة راشد براوي ، مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٧ ، ٢٠٨ ص .

محمد ، محمد عوض ـ الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ـ القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٣ ، ١٦٤ ص .

نكروما ، كوامي ـ الاستعمار الجديد ، آخر مراحل الامبريالية ، ترجمة عبد الحميد حمدي القاهرة ، دار القاهرة للطباعة والنشر ١٩٦٦ ، ٣١١ ص .

افريقيا

ابو المجد ، صبري – ثورة افريقيا – القاهرة ، الشركة العربية ، ١٩٦٠ ٢٩٨ صفحة .

حمدان ، جمال – افريقيا الجديدة . دراسة في الجغرافية السياسية – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٦ ؛ ٤٠٧ ص ، خريطة .

رفلة ، حبيب – الجغرافية السياسية لافريقيا مع دراسة شاملة للدول الافريقية سياسياً واقتصادياً وجغرافياً ؛ طبعة ثانية – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ٩٦٦ ، ٦٧٢ ص – خرائط .

سافيدج ، كارين – قصة افريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ، ترجمة راشد البراوي – القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ ٢١٠ صفحات – صور . خرائط .

سميرن ، انتوني – حول افريقيا . ترجمة احمد حمزة ومحمد الخولي ـ القاهرة ، دار القومية للطباعة والنشر ، لا . ت ، ١٩٤ ص

الصقار ، فؤاد محمد ـ التفرقة العنصرية في افريقيا – القاهرة ، دار النهضة المصرية ١٩١٢ ، ٣١ صفحة .

طاهر ، احمد ـ افريقيا في مفترق الطرق ـ القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ ، ١٩٩ صفحة .

العقاد ، صلاح – المغرب العربي والاستعمار الفرنسي الى التحرر القومي ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، لا . ت . مراجع .

عودة ، عبد الملك - السياسة والحكم في افريقيا – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٩ ، ٥٧٥ صفحة ـ مراجع ص ٥٥٧ – ٥٧٥ .

نكروما ، كوامي ـ الوجدانية : فلسفة وعقيدة التحرر والتطور خصوصاً بالنسبة للثورة الافريقية ، ترجمة كريم عزقول ـ بيروت ، ١٩٧٤ ، ٢١٩ ص .

السويس

ابو السعود ، جمــــال سليمان – قناة السويس : ماضيها وحاضرها ومستقبلها ـ القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٥٦ ، ٢٦٥ ص .

براوي ، راشد ـ المركز الدولي لمصر والسودان وقناة السويس ـ القاهرة مكتبة النهضة المصرية ٩١٥٢ ، ٢٣٢ ص .

حرب ، محمد طلعت – قناة السويس ـ القاهرة ، مطبعة الجريدة ، ١٩١٠ ، ١٤٠ ص.

الحفناوي ، مصطفى ـ قصة قناة السويس ، القاهرة ـ مطبعة مخيمر ١٩٥٨ ـ ١٦٥ صفحة مع صور وخرائط .

... قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ـ القاهرة ، ١٩٥٢ ، ٣ اجزاء .

خاكي ، عزيز ـ قناة السويس :نبذة تاريخية ومالية ـ القاهرة ، المطبعة العصرية ، لا . ت . ٥١ ص .

رشوان ، عبدالله ـ المركز الدولي لقناة السويس ونظائرها ـ القاهرة ، مطبعة حجاري ، ١٩٥٠ ، ٤٣١ صفحة .

الشاعر ، يحيى ـ قناة السويس بين ادارتين . دراسة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، قانونية ـ بيروت ، الجامعة اللبنانية ١٩٦١ ، ٣٦٣ ورقة ـ خريطة .

شفيق ، احمد ـ قناة السويس معجزة القرن التاسع عشر ـ القاهرة مطبعة حوليات مصر السياسية ، ١٠٣ صفحات .

الشناوي ، عبد العزيز محمد ـ الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسألتي قناة السويس والبريد الجديدة ـ القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ٦٣ص .

... السخرة في حفر قناة السويس ـ الاسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٥٨ ، ٣٧٦ ص ـ خرائط .

شونفيلد ، هيو جوزف ـ قناة السويس ، ترجمة احمد خاكي ـ القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ ، ١٨٣ ص ـ خريطة .

صبري ، محمـــد – كتاب القناة : اسرار قضية التدويل واتفاقية ١٨٨٨ ـ القاهرة ، دار القاهرة ١٩٥٠ ، ٩٦ ص .

صفوت ، محمد مصطفى ـ انكلترا وقناة السويس ١٨٥٤ ـ ١٩٥١ ـ الاسكندرية مطابع رمســـيس ١٩٥٢ .

... مسألة قناة السويس ـ القاهرة ، دار الشرق ، ١٩٥٧ ، ٣٢٤ ص .

غالي ، بطرس ـ قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤ ـ ١٩٥٧ ـ الاسكندرية مطابع البصير ١٩٥٨ ، (نص بالفرنسي والعربي) .

غلاب ، محمد السيد وآخرون ـ السويس ـ القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦، ٣٠٧ ص .

قناة السويس : حقائق ووثائق (مع الاتفاقات والمعاهدات والبيان الثلاثي) ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ٢٨٠ ص ـ صور .

البحر المتوسط والبحر الاحمر

الجمل، شوقي عطاالله ـ الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الاحمر ١٨٦٣-١٨٧٩ جمعها وحققها ورتبها واعدها للنشر ، مع دراسة تحليلية ... ـ القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٩ ، ٤٣١ ص .

خانكي ، جميل ـ امراء البحر في الاسطول المصري ، من النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مصر ، ١٩٤٧ ، ١١٣ ص ، صور .

... تاريخ البحرية المصرية – القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٨، ٤٩٢ ص ، صور .

رفعت ، محمد – تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية – القاهرة دار المعارف ، ١٩٥٠ ، ٥١٤ ص – خرائط .

ضرار ، محمد صالح – تاريخ السودان والبحر الاحمر واقاليم البجة - بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٦ ، ١٦١ ص – صور .

فزالة ، حبيب ، جزيرة رودوس جغرافيتها وتاريخها وآثارها – القاهرة ، مطبعة الاعتماد، ٩١ ص مع خرائط وصور .

يحيى ، جلال – سواحل البحر الاحمر – الاسكندرية ، المكتبة الافريقية ١٩٦٠، ١٢٨ص.

الولايات المتحدة الاميركية

برايس ، جيمس ـ المؤسسات والنظم الاميركية . نظرات تأملية في طبيعتها ، ترجمة أنيس صايغ ، مراجعة ابراهيم داهر ، بيروت الدار الشرقية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ، ٣٧٥ ص .

بنيه ، ستيفن فنسنت – اميركا، ترجمة عبد العزيز عبد المجيد – القاهرة ، مكتبة الولايات المتحدة الاميركية للاستعلامات – ١٩٤٥ ، ١٩٠ ص .

بيرلنجم ، روجير – آلات صنعت امة ، ترجمة احمد عبد الرحمن حمود – القاهرة، مكتبة الآداب . لا.ت – ٢٣٢ ص .

جيمس ، برسثون – ملحمة اميركا الشمالية ، ترجمة جورج فاعي – بيروت ، المدرسة الشرقية لا.ت – ٢٠٨ ص .

الحناوي ، كمال الدين – الاستراتيجية في الحرب الاهلية الاميركية – القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ٢٠٠ ص – خرائط .

زيادة ، فرحات – تاريخ الشعب الاميركي – برنستون ، مطابع جامعة برنستون ١٩٤٦ ، ٣٤٦ ص – صور – خرائط .

سيرز ، ارل شيلك – حضارة العالم الجديد من عصر الاستكشاف الى عصر الذرة . فصول تاريخية أسهم في اعدادها ٦٠ استاذاً جامعياً – بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٥٨، ٣٨٤ ص، صور .

صبري ، محمد – تاريخ العصر الحديث ، مصر ، الولايات المتحدة – الاستعمار الاوروبي – القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، ٣١٣ ص – صور خرائط .

صروف ، فؤاد – مشاهد العالم الجديد – القاهرة ، مكتبة العرب ١٩٢٥ ، ١٦١ ص .

فؤاد ، احمد عبد الحميد – امريكا في الشرق الاوسط – القاهرة ١٩٥٤ .

ليسني ، دان – الثورة الاميركية : دوافعها ، مغزاها ، ترجمة سامي ناشد – القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦ مجلدان .

ماير ، فكتور – معركة السفينة ، ترجمة صبحي الجبار – القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٢ .

هاملتن ، الكسندر – الدولة الاتحادية : اسسها ، دستورها ، ترجمة جمال محمد احمد بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٩ ٦٨٨ ص .

كوسولاس ، ديتري – مفتاح التقدم الاقتصادي ، ترجمة محمد ماهر نور – القاهرة، دار الفكر العربي ، لا . ت ١٣٢ ص .

كويل ، دافيد – النظام السياسي في الولايات المتحدة ، ترجمة توفيق حبيب – القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٥٢ ، ٣٢٠ ص .

كلاو ، شيارد – الاساس الاقتصادي للحضارة الاميركية ، ترجمة احمد حلمي حجاج – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ ، ١٩٩ ص .

ويرنت ، جون فيليب – الرخاء بدون تضخم . ترجمة حسن عمر ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، لا . ت ، ١٨٠ ص .

جَدول زمَني مقارَن

١٨١٥ ــ ١٩١٤

١٨١٥ ــ اختتام مؤتمر فيينا . نهاية نابليون . الحلف المقدس

١٨١٦ ــ قصف مدينة الجزائر وطرابلس الغرب تاسيس جمعية ارساليات فرنسا ورهبانية اوبلات مريم بلا دنس والجمعية المريمية . الدكتور لاينك يدشن طريقة الفحص بالقرع ــ هولر يضع كتابه : تجديد العلوم السياسية . ماجندي يضع : مختصر الفيسيولوجيا ــ غريلبرزر يؤلف روايته : الجدة وهوفمان ، رحيق الشيطان ، وروسيني : حلاق اشبيليا .

١٨١٧ ــ تحرير التشيلي ــ الشروع باعمال ترعة بحيرة ايريه ــ اختراع البارون درايس للدراجة المسماة باسمه : « درايسينة » ــ اسرة روتشيلد تقيم في باريس ــ ريكاردو يضع كتابه : مبادىء الاقتصاد السياسي ــ وكارل ريتر كتابه : الجغرافيا ــ وستيلر : هنداتلاس ــ لامنيه يضع كتابه : محاولة حول اللامبالاة في امور الدين ــ وت. مور : لالا روخ .

١٨١٨ ــ وافدة التيفوس في اوروبا ــ اختراع الستركنين ــ فيكا يتوصل لصنع صنف من الاسمنت يشبه الاسمنت المسلح ــ جيفروا سانت هيلار ينشر كتابه : فلسفة على التشريح ــ وكيتس ينشر : انديميون ــ وشيلي : ثورة الاسلام ــ تاسيس اكاديمية الفنون الجميلة في هافانا على يد ج.هـ. غرماي احد تلاميذ دافيد .

١٨١٩ ــ تاسيس جمهورية كولمبيا ــ احتلال البريطانيين لمدينة سنغافورا ــ المجاعة تفتك في شمالي غربي الهند ــ بدء العمل بالاتحاد الجمركي الالماني Zollverein ــ اول سفينة تجارية لاسافانا تقطع المحيط الاطلسي ــ تاسيس جمعية مرسلي بال ــ تاسيس شتاين جمعية دراسة التاريخ الالماني ــ شوبنهوير ينشر كتابه : العالم بين التصميم وبين التحييز ــ جوزف دي مستر يضع كتابه : حول البابا ــ و. سكوت ينشر روايته : ايفنهو ــ و غريلبرزر : صافو ــ وجيريكو : طوف المدوزا ــ وثورتفلدس : اسد لوسرن .

١٨٢٠ ــ دخول جمعية الفحامين فرنسا ــ اتفاق ميسوري ــ مذكرات ماك آدم التقنية ــ فيربرن يضع نولا جديدا للحياكة ــ وتوماس الارثموميتر ــ اختراع دي لارو لاول مصباح للانارة ــ اورستد وآمبر يكتشفان المظاهر الكهردينامية وادانو يتوصل الى توليد المغنطيسية من الكهرباء ــ هكمان يقوم باول محاولة للتخدير في الطب ــ المرسل والعالم الهندي كاراي ينشىء

مؤســـة تعنى بدرس المدنيات الهندية والاوروبية دراسة مقارنة ــ لامارتين يضع : تأملات شعرية ــ وشلي : بروموثيه محررا ــ و. و. ارفنغ : كتاب الرسوم ــ ولامب : محاولات ايليـا .

١٨٢١ ــ ثورة اليونان ــ استقلال البيرو وتحرير فنزويلا ــ موت نابليون في جزيرة سانت هيلين ــ البابا بيوس السابع يحرم جمعية الفحامين ــ فرينل يشرح نظرية تموجات النور وسيبك يكتشف الكهربائية الحرارية ــ تأسيس معهد الوثائق (مدرسة الشارت) والجمعية الجغرافية البارسية ــ سان سيمون يضع كتابه : النظام الصناعي ــ منزوني يضع كتابه : الخامس من شهر مايو ــ و. مولر يضع كتابه : الماني الاغريق ــ ت . كونسي يضع كتابه : اعترافات آكل الافيون ــ كونستابل يضع روايته : عربة التبن لجتاز المخاضة ــ وبر يضع : الفريشتز .

١٨٢٢ ــ استقلال البرازيل وتحرير الاكوادور ــ اتجاه انكلترا الليبرالي في الامور الاقتصادية ــ المجاعة في ايرلندا ــ تأسيس الجمعية العاملة لتنشيط الصناعة الوطنية في البلاد الواطية ــ تأسيس مجمع انتشار الايمان ــ شمبليون يفك رموز الخط الهيروغليفي ــ اول اجتماع تعقده جمعية علماء اللغة الالمانية ــ ج.ب. فوريه يضع كتابه : النظرية التحليلية للحرارة ــ بوشكين يضع روايته : اسير القفقاس ــ ديلاكروا ينشر روايته : قارب دانته ــ بيتهوفن يضع لحنه : قداديس على مفتاح ر ــ وشوبرت يضع : السنفونيا غير المنجزة .

١٨٢٣ ــ رسالة الرئيس مونرو ــ شركة للملاحة البخارية على الفولغا ــ اول منارة دوارة تعمل بعدسة ــ ليبس يشير الى مبادىء التصوير الفوطوغرافي ــ متشيالتش يضع ديوانه : افان واناشيد ــ بتهوفن يضع : السمفونية التاسعة مع القورس .

١٨٢٤ ــ هزيمة اسبانيا عند اياكوشو (البيرو) ــ المجاعة في الدكن الهند ــ تأسيس جمعية المرسلين الانجيليين في باريس ــ سادي كارنو يضع كتابه : تأملات حول قوة النار المحركة ــ كولار يضع : ابنة سلافا ــ ولغريلبرزر : اوتوكار ــ اول معرض بريطاني في صالة باريس ــ افتتاح الناشنال غاليري ــ ديلاكروا يضع : مذابح اسيو .

١٨٢٥ ــ بناء الخط الحديدي بين ستوكتن ودرلنغتن باشراف ستيفنسن ــ رحلة الانترابرايز باتجاه كلكوتا ــ روبرتس يخترع النول المتحرك ذاتيا في حياكة القطن ــ شفروي وغاي لوساك يخترعان الشمعة المصنوعة من الستيارين ــ اولى منشورات اوغست كونت ــ ماكولي يضع كتابه : محاولات ــ الريون يضع : جزيرة السعادة ــ تيجر : ساغافرتيوف ــ جوزي ماريا دي هيريديا : اشعار ــ دافيد دانجيه : قبر الجنرال فوا

١٨٢٦ ــ مؤتمر بناما ــ البريطانيون يغزون اسام ــ اول رحلة للسفينة رد روفر بين كلكوتا وهونغ كونغ ــ البابا ليون الثاني عشر يحرم الماسونية برائه الرسولية ــ اولى مذكرات آبل ــ مذكرة لوبتشفسكي حول الهندسة اللااقليدية ــ الموسوعة الجرمانية التاريخية ــ هاين يضع : ديزلبلدر ــ ليوباردي يضع : فرسي ــ ف. كوبر يضع : آخر الموهيكان ــ بلو يضع : غابات المنطقة الحارة ــ بيتهوفن يضع : الرباعيات الاخيرة .

١٨٢٧ ـ موقعة نافارين البحرية ـ سبفن يخترع المرجل الانبوبي ـ مرجل بركنز ـ فورنيرون يضع اول طوربين مائية ـ وهلر يحلل عناصر الماء لاول مرة ـ اوهم يضع قانونه المعروف ـ رحلة رينه كايه ـ هوغو يضع : مقدمة كرومويل ـ منزوني يضع : الخطيبان ـ فيروس مارلي يضع : الوادي المسحور ـ انغر يضع رسمه المشهور : تاليه هوميروس .

١٨٢٨ ـ تحرير المشاقين في انكلترا ـ تاسيس حزب العمال في فيلادلفيا ـ رحلات منتظمة تقوم بها سفينة رد رولر بين ليفربول ونيويورك ـ وهلر يتوصل لاول مرة الى صنع البول التاليفي ـ محاضرات غيزو حول تاريخ الحضارة الاوروبية في كلية فرنسا ـ اول كونسرتو لشوبين في فينا ـ اوبير يضع : Muette Von بورتيشي

١٨٢٩ ـ تحرير الكاثوليك في انكلترا ـ عودة التيفوس الى اوروبا من جديد ـ اولى بؤس مستعمرة نيوهرموني ـ ستيفنسن يضع قاطرته : الصاروخ ـ برايل يخترع كتابته النافرة للعميان ـ انطوان بيكربل يضع او بطارية (او حاشدة كهربائية) ـ هوغو يضع ديوانه الموسوم : الشرقيات ـ روسيني يضع روايته : وليم تل .

١٨٣٠ ـ استيلاء فرنسا على مدينة الجزائر ـ فتن وثورات في اوروبا ـ استقلال بلجكا ـ تاسيس شركة استراليا الجنوبية ـ ظهور وباء الهيضة في اوروبا ـ بناء الخط الحديدي بين منشستر وليفربول ـ بلاكوريلس ومادلاي يخترعان النول الدائم الحركة ـ ليمونيه يخترع ماكينة الخياطة ـ كوشي يصوب نظرية المتغيرة الخيالية ووظائفها ـ خناقة التشريح المقارن : كوفيه ضد جوفروا سانت هيلار ـ كونت يضع : دروس الفلسفة الوضعية ـ معركة هرناني ـ ستاندال يضع : الاحمر والاسود ـ فرجلاند يضع : الخليقة والانسان والمسيح ـ ديلاكروا يضع : الاستحكام او الحرية تقود الشعب كلرو يضع : كاتدرائية شارتر ـ برليوز يضع : السمفونية الغريبة .

١٨٣١ ـ كبح الثورة البولونية ـ مازيني يؤسس : ايطاليا الفتاة ـ عمال الحرير يثورون في مدينة ليون ـ المجاعة في ايرلندا وفي روسيا ـ محرر هاريسون ـ دال نغرو ينشيء اول محرك كهربائي كما يخترع ماك كورميك اول حاصدة ميكانية ـ اكتشاف الكلوروفورم على يد ليبيغ وسوبيران ـ اكتشاف فرادي لتاثير Induction رحلة داروين البحرية على ظهر السفينة بيكل ـ تاسيس الجمعية البريطانية لترقية العلوم وتطويرها ـ ميشليه يضع : المدخل الى التاريخ العام ـ بوشكين يضع : يوجين اونيغين ـ دوميه يضع : غرنتوا ـ ومير بير يضع روايته : روبرت المغريت .

١٨٣٢ ـ اعادة تنظيم الرهبانية البندكتية على يد غيرانجيه ـ براءة Mirari Vos للبابا غريغوريوس السادس عشر ـ اختراع سوفاج للدفاش ـ غالوا يخلف لنا قبل وفاته نظرية الفئات ـ دولاي يهاجم هندسة اوقليدس ـ لينو يضع ديوانه : قصائد ـ منتشيافتش يضع كتاب : الامة البولونية ـ سلفيو بلليكو يضع : سجوني ـ رونبرغ يضع روايته صيادو . . . ـ ا . كلدرون يضع : مشاهد اندلسية ـ لار يضع روايته : رسائل المختار

المسكين .

١٨٣٣ ـ المجاعة في الدكن الهند ـ بدء حركة اكسفورد ـ طلائع جمعية القديس منصور دي بول ـ قانون غيزو بشأن التعليم الابتدائي ـ الغاء الرق في المستعمرات الانكليزية ـ اوين يضع كتابه الاتحاد العمالي ـ وجريدة « الشمس » بنحاسين ـ التلغراف الكهرمغنطيسي اختراع غوس وويبر ـ وايكفيلد يضع : انكلترا واميركا ـ ليال : مبادىء اولية في علم طبقات الارض ـ غوليه ـ غوست الثاني ـ بلزاك : اوجين غرانديه ـ انغر : رسم برتن البكر ـ جورج سنو يستعمل لاول مرة في واشنطون : اولى الصفات المدنية

١٨٣٤ ـ فتن في باريس وليون ـ قانون الفقراء في انكلترا ـ الاتحاد الوطني للعمال في الولايات المتحدة ـ اول تريك عند البوبرز ـ ج.ب. دوماس يكتشف روح الخشب (الكحول المثيلي) ـ جاكوب بركنز يخترع طريقة للحصول على البرد الصناعي ـ اختراع صباغ الانيلين على يد رونج ، مسن نطران الفحم ـ لامنيه يضع كتابه كلمات مؤمن ـ منشيفتش يضع كتابه : السيد تاديه ـ وغوغول يضع : طاراس بولبا ـ ودوميه : شارع ترانسنونان .

١٨٣٥ ـ اسبانيا ترضخ لقانون الزيارة ـ الاتراك في طرابلس الغرب ـ فرفانة تتحرر من حماية الصين ووصايتها ـ تأسيس وكالة تاس للانباء ـ غوردون بنيت يصدر جريدة نيويورك هيرلد ـ اختراع اول سكة من الفولاذ في الولايات المتحدة الاميركية ـ مورس يجري اول تجربة للتلغراف البرقي ـ بيرو يخترع جهازا للطباعة على القماش يحمل اسم « بروتين » د . ستراوس يضع كتابه : حياة يسوع ـ تكفيل ينشر كتابه : الديمقراطية في اميركا ـ واندرسن : قصص وحكايات ـ ولونروت يضع روايته : كالفالا ـ وكراسنكي : الكوميديا غير الالهية ـ وف . هالفي يضع رقصة اليهودية .

١٨٣٦ ـ جكسون يعارض انشاء البنك المركزي ـ تأسيس شركة شنيدر وشركاه ـ تومسن يضع : دليل متحف كوبنهاغن ـ فاج يصدر : الفازيتة الوطنية الالبرية ـ تأسيس جريدتي : الصحافة والعصر ـ دكنز يضع روايته : اوراق بكويك ـ بلاتسكي يضع : تاريخ بوهيميا ـ تولشيف ينشر : قصائد مرسلة من المانيا .

١٨٣٧ ـ اضطرابات في كندا ـ ثورة ضد متسوي في اليابان ـ المجاعة تفتك في شمالي غربي الهند ـ رحلة دومون دورفيل الى انتاركتيك ـ تدشين خط سان جرمين آن لاي ـ تأسيس جمعية الجبل القديم ـ جاكوبي يحقق عملية التلفنة ـ مورس ، ستاينهل و ويتستون براءة اختراع التلغراف البرقي ـ شاسل يضع كتابه : لمحة تاريخية في اصول طرائق الهندسة وتطورها ـ ميشليه يضع كتابه : تاريخ الثورة ـ ولامنيه كتابه : سفر الشعب ـ كارليل : الثورة الفرنسية ـ وشافاريك : تاريخ الصقالبة القديم .

١٨٣٨ ـ بدء اضطرابات المولقين ـ كوبدن يؤسس رابطة القانون المضاد لزراعة الذرة ـ بريطانيا العظمى تستولي على عدن ـ المجاعة في بمباي ـ رحلات السيريوس والغرايت وسترن ـ اختراع هول السطحي واختراع

تاسمث وفرنسوا بوردون للمطرقة ــ بســل يقيس لاول مرة بعد النجمة من الارض ــ شيلدن يطلع بنظرية الخلايا النباتيــة ــ أولى ابحـــاث بوشيه دي برث حول عصور ما قبل التاريخ ــ داند دانجيه يضـع كتابه : هوغو ــ وس . روخ : نصب دورر في نورمبرغ .

١٨٣٩ ــ خطة دورهام في كندا ــ عهد الاصلاح في اليابان ــ انشاء البريد البري نحو الهنــد ــ غودير يحقق كلفنة المطاط ــ اراغو يعرف باول صـــور فوطوغرافية على طريقة داغير ــ مؤتمر بيزا العلمي ــ لويس بلان ينشر كتابه حول تنظيم العمل ــ وانجلس : رسائل من وادي وبير ــ ورانك : المانيا في عصر الاصلاح الديني ــ وستاندال : لاشارتروز دي بارمـا ــ ولنغفالو : هيبريون وليرمونتوف : الشيطـان .

١٨٤٠ ــ الحكم الذاتي لكنـدا ــ تأسيس حزب يطالب بالغاء الرق في الولايـات المتحدة الاميركية ــ حرب الافيون ــ البريطانيون يستولون على زيلانـدا الجديدة ــ ازدهار النخاسة في زنجبـار ــ طلائع رواج الفوافنـو ــ ظهور فولاذ « بول » ــ تأسيس خط كونارد ــ اول بندقية اميركية متعـددة الطلقات ــ استعمال الطابع البريدي في انكلترا ــ لفنغستن يشرع برحلاته الاستكشافية ــ كابه يضع قصة : رحلة الى ايكاريا ــ وبرودون كتابه : ما هي الملكيه ــ وليبيغ : الكيمياء المطبقة على الزراعة ــ وسانت بوف : بورت رويال ــ وموسيه : الليالي ــ وفريلـدزر : دير تروم ، ابن لوبن ــ واندرسن : كتاب رسوم بـدون رسوم ــ وفت : البنثيون الشعـري ــ وشومـان : ليـدو .

١٨٤٢ ــ معاهدة نانكين ــ البريطانيون يحتلون هونغ كونغ ــ دستور ولاية نوفيل نقابة المعدنين في انكلترا ــ تاسيس الـ Punch ــ تأسيس توماس كول لاول وكالة للسفر ــ قانـون جول ــ ليسـت يضع كتابه : النظـام الوطني للاقتصـاد السياسي ــ وفيورباخ : كنه المسيحية ــ وامرســن : محاولات ــ وغوغول : النفوس الميتة .

١٨٤٢ ــ معاهدة نانكين ــ البريطانيون يحتلون هونغ كونغ ــ دستور ولاية نوفيل غال الجنوب (استراليا) ــ صدور جريدة لندن المصورة الاخبارية ــ لوز يحصل على شهادة اختراع صنع السوبر فوسفاط ــ رينوفييه يضـع كتابه : دليل الفلسفة العصرية ــ وسو : اسرار باريس .

١٨٤٣ ــ استيلاء الفرنسيين على مقر عبد الكريم ــ البريطانيون في ناتال ــ تريك البويرز الجديد ــ ظهور الدعوة السنوسية ــ بدء دعوة الباب ــ لاكوردير يعيد النشاط الى الرهبنة الدومنيكية ــ فربور يضع أول آلة كاتبة ــ بدء استخدام صمغ المطاط في الصناعة ــ بوتا يقوم بحفرياته في خرسبـاد ــ مذكرة ش. هرميت حول الدالة الاهليليجية ــ مول يكتشف بروتوبلازما الدم ــ كيركيغارد يضع كتابه : واما . . . واما ــ وج.س.مل يضع كتابه : المنطق ــ وماكولي : محاولات في النقـد والتاريخ ــ وجيوبرتي : أوليـة الايطاليين المدنية والادبية ــ ورسكن يضع : المجلد الاول مـن رسامي العصر ــ وهوغو : البرغراف ــ وبو ينشـر : الجعل الذهبي ــ وواغنر : السفينة الشبح ــ المهندس لابروست يباشر بناء مكتبة سانت جنفياف في باريـس .

١٨٤٤ ــ ثورة عمال النسيج في سيليزيا ــ تعاونية « الرواد العدول » في روشدايل ــ مزيني يؤسس اوروبا الفتاة ــ كلر يخترع الورق المأخوذ من رب الخشب كما يخترع فالواي اللينولايوم ــ مورس يصل واشنطون ببلطيمور هاتفيا بعد ان اخترع لويس بريفيه جهازا له وجه ساعة ــ ظهور بندقية درايز التي تشحن من المؤخرة ــ لاسن يباشر باصدار : تاريخ الهند ــ لوستل يضع كتابه : اليهود ملوك العصر ــ وكلرليل : الماضي والحاضر ــ بيتوفي ينشر ديوانه : قصائد ــ وطوبفر يصدر كتابه : اسفار متعرجة ــ و ا. اوجيه : الشوكران ــ واسكندر دوماس : الفرسان الثلاثة .

١٨٤٥ ــ المجاعة في ارلندا ــ انكلترا تولي اليهود حق الانتخاب ــ هلمان يخترع مشطا ميكانيكيا ــ ارساء كابل تحت نهر الهدسون ــ رحلة السفينة Chipper Rainbow ــ هو يدخل تحسينات هامة على آلة الخياطة ــ وليم بارسونز دي روس يكتشف لاول مرة مجرة حلزونية الشكل ــ ا. دي همبولدت يصدر كتابه : الكسموس (الكون) ــ و م. ستزنر : الوحيد وخاصيته ــ و ف. انجلز : اوضاع الطبقة العاملة في انكلترا ــ دزرائيلي . سبيل ــ و واغنر : لوهنغرين .

١٨٤٦ ــ المجاعة والازمة تلم باوروبا ــ الغاء الرسوم المفروضة على القمح في انكلترا ــ ظهورات العذراء في ساليت ــ الصين تتساهل مع الكاثوليك ــ اعمال اركسون في قناة ترولهارتن ــ هو يدخل الاسطوانة المتحركة على الطباعة في فيلادلفيا ــ رايت يخترع القوس الكهربائي ــ زايس ينشىء مصنعه للاجزة البصرية في اينا ــ لوفرنيه يكتشف الكوكب عطارد بطريقة حسابية ــ قانون وبير الخاص بعلم النفس ــ برودون يضع كتابه : نظام المتضادات الاقتصادية ــ ماركس ينشر كتابه : بؤس الفلسفة ــ هرزن : على من الذنب ؟ ــ وهالبس : الفلسفة الاساسية ــ وميشليه : حول الشعب ــ ومريميه : كارمن ــ وجورج صاند : مستنقع الشيطان ــ تاسيس المدرسة الفرنسية في اثينا ــ وبرليوز : هلاك فوست .

١٨٤٧ ــ المجاعة والازمة والطاعون في اوروبا ــ ظهور آفة ارمداد الكرمة ــ اكتشاف الذهب في كاليفورنيا ــ الروس يدخلون فرغانة ــ المؤتمر الدولي العمالي في لندن ــ مذكرة يضعها سمبسن حول خصائص الكلوروفورم المخدرة ــ كروب يتوصل الى صنع مدفع من الفولاذ ــ هلمبولتز يصدر كتابه : حول الابقاء على الطاقة ــ بوشيه دي برث : الاثار الكلتية والسابقة للطوفان ــ ايمرسن : قصائد ــ ا. برونتيه : مرتفعات هورليغان ــ وغونزكوف : اوربال اكوستا ــ واراني : تولدي ــ وورد : يقظة نابوليون ــ متحف التصوير في ميونيخ .

١٨٤٨ ــ الثورات تنشب في اوروبا ــ ماركس وانجلس يصدران : بيان الحزب الشيوعي ــ الانتخاب العام في فرنسا ــ الغاء الرق في جميع المستعمرات الفرنسية ــ الغاء رق الارض في اوروبا الوسطى ــ انتهاء الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك بشان التكساس ــ البريطانيون يستولون على البنجاب ــ جمعية لروح القدس ورهبانية قلب مريم الاقدس ــ ماربنوني يصنع مكبس مجاوبة ذات اربع اسطوانات ــ صنع الزجاج والاسلحة في اليابان ــ وبرستراس يضع كتابه : مساهمة في نظرية التكامل الابليانية ــ

كلود برنار يكتشف عمل الكبد في توليد الغليكوز ـ ج. س. مل يضع كتابه : مبادىء الاقتصاد السياسي ـ وشاتوبريان : مذكرات من وراء القبر ـ وثاكراي : معرض الاباطيل ـ د. س. روستي يؤسس : الرابطة السابقة لرفائيل ـ ورانيت : العرش الليلي ـ وبلوي : القنطور واللايت .

١٨٤٩ ـ ردة فعل عامة في أوروبا ـ الغاء قانون الملاحة في انكلترا ـ اكتشاف الذهب في استراليا ـ المجاعة في الصين ـ تأسيس اتحاد الكنائس الانجيلية الحرة في فرنسا ـ اختبار فيزو حول سرعة النور ـ دكنز يضع روايته : دافيد كوبرفيلد ـ ورسكن : مصابيح الهندسة السبعة ـ وكوربيه روايته محطمو الحجارة .

١٨٥٠ ـ اتفاق كاليفورنيا ـ البرازيل يوافق على حق الزيارة ـ نهاية طريقة فان دن بوش ـ اعادة السلطة الدينية الكاثوليكية الى انكلترا ـ التصديق على قانون فلو ـ رحلة بارث الى السودان ؛ ولفنستن الى افريقيا الجنوبية ورحلة ماك كلور الى الممر الشمالي الغربي ـ ارساء اول كابل بحري في مضيق كاليه ـ انتهاء الاشغال لاقامة الجسر الحديدي فوق مضيق مينيه وفقا لتصميم روبرت ستيفنسن ـ مطرقة المدن لاستخراج الفحم في المناجم ـ عرض اول قاطرة بخارية ـ البيانو الميكانيكي ـ كبرتة الكرمة في مكافحة مرض التعفن ـ فوكو يخترع المرآة الدوارة والقوس الكهربائي ـ بستيا يضع كتابه : التناسق الاقتصادي ـ ا. باريت برونتغ يضع : اناشيد ـ وهوثورن الرسالة الارجوانية ـ وكوربيه : الدفن في اورنانس ـ وروستي : البشارة ـ وميريون : الجسر الصغير ـ وليست : مازيبا .

١٨٥١ ـ ظهور الكوليرا من جديد في اوروبا ـ الجوع في روسيا ـ بدء ثورة التايبنغ في الصين ـ معرض لندن في صالة كريستال بالس ـ قانون مباني السكن في انكلترا ـ آل بورن يجهزون السفينة حمالايا بالدفاش ـ أول فرن على الغاز في المطابخ ـ بدء الطابعة المتحركة في الطباعة ـ انشاء وكالة رويتر للاخبار ـ اختبار هزاز فوكو ـ اعادة رهبنة الاوراتوار ـ حركة رجعية مضادة للمسيحية في فيتنام ـ كونت يصدر كتابه : نظام الفلسفة الوضعية ـ ملفيل يضع روايته جولي دك ـ وواغنر : اوبرا ودراما : ورسكن : الحركة السابقة لرفائيل وحجارة البندقية ـ فردي يضع روايته : ريغولتو .

١٨٥٢ ـ اعتراف الانكليز باستقلال الترانسفال وضمهم البيغو ـ انزال اول سفينة ناقلة للفحم الى البحر في انكلترا ـ اول ترامواي في نيويورك ـ تدشين محلات بون مارشيه في باريس ـ تأسيس مصرف التسليف العقاري والتسليف على المنقول ـ فرانكلاند يضع نظرية التكافؤ ـ هـ. سبنسر يضع كتابه : مبادىء علم النفس ـ السيدة بيتشر ستو : منزل العم توم ـ لكونت دي ليل : قصائد قديمة ـ تيوفيل غوتييه يضع كتابه : مصنوعات الميتا والكاميه ـ تورغنيف : حكاية صياد ـ اسكندر دوماس الابن : غادة الكاميليا ـ ت . روسو : الخروج من غابة فونتنلو ـ بلطار : بناء الهال الوسطى في باريس .

١٨٥٣ ـ تدخل الاميركيين والروس في اليابان ـ الفرنسيون يحتلون كاليدونيا الجديدة ـ تخطيط شبكة الخطوط الحديدية في الهند ـ المجاعة في دكن الهند وشمالي غربي الهند ـ هوسمان محافظ مقاطعة السين ـ ارساء

الكابل البحري في بحر الشمال وقناة الشمال ـ برونيل يعمل على بناء الخط الحديدي الشرقي ـ استعمال الفولاذ المذاب ـ صنع الساعات بالجملة ـ ب. غراتري يضع : فلسفة معرفة الله ـ غوبينو ينشر كتابه : حول عدم المساواة بين الاجناس البشرية ـ مومسن يضع كتابه : تاريخ الرومان ـ جوكاي يصدر روايته : نابات مجري ـ تامايو بي بوس : فرجيني ـ الكسندري : دوبناس ومضمت ـ وليست : اغاني مجربة .

١٨٥٤ ـ حرب القرم ـ فيدهرب حاكم عام على السودان ـ عقيدة الحبل بلا دنس ـ تاسيس الارساليات الافريقية في ليون ـ نفق سمرينغ ـ اول سفينة معدنية تبنيها شركة كونارد ـ اول معمل لنسيج القطن يقام في مدينة بمباي ـ اوليس يخترع مصعدا يتحرك بالماء ـ ريمان يصدر كتابه : الفرضيات الاساسية في الهندسة ـ م. برتلو يضع مبادىء الكيمياء الحرارية ـ سانت كلير ديفيل يعزل الالومنيوم بواسطة الصوديوم ـ لينسن يضع روايته : هجوم الكتيبة الخفيفة ـ جيرار دي نرفال : بنات النار ـ و ا. اجوبيه : صهر السيد بوادييه ـ فيوليه لو دوك يضع : المعجم الفلسفي للهندسة الفرنسية .

١٨٥٥ ـ ثورة المسلمين في الصين ـ هزة ارضية عنيفة في اليابان ـ المجاعة في روسيا ـ معرض في قصر الصناعة في باريس ـ ظهور السفينة الحربية المدرعة ـ برتلو يتوصل الى اختراع الكحول الصناعي ـ له بلاي يصدر كتابه : عمال اوروبا ـ وبوخنر : قوة ومادة ـ تيوفيل غوتييه : رواية المومياء ـ وفرنتاغ : له وعليه ـ هـ. تورو : وولدن ـ و. هويتمان . قصايد ـ بلومي : جسد ولنشتاين ـ رحلة راشيل في اميركا .

١٨٥٦ ـ مؤتمر ومعاهدة باريس ـ وافدة التيفوس في الشرق ـ حملة برتن وسبك الى بحيرات افريقيا الوسطى ـ بسمر يعرف المحولة التي اخترعها ـ لويس شاتليه يبني الفرن ذات المصباح ـ هـ. و. بركنز يتوصل لصنع ملون الانيلين ـ اكتشاف الاموباك ـ اكتشاف انسان نيندرتال ـ ج. كلر يضع روايته : روميو وجوليت في القرية ـ ستيكوف تشلشدرين يضع : رسم تعرس للولاية .

١٨٥٧ ـ ازمة اقتصادية ـ ثورة السباي في الهند ـ اجراءات لتحسين وضع الفلاح المصري ـ مباشرة الاشغال في نفق سنيس ـ اول معمل لنسيج الحوت في الشمال ـ باستور يضع مذكرة حول الاختمار اللبني ـ ابحاث كيرتشوف وبنزات حول التحليل الطيفي للنور ـ هرزت يؤسس الكولوكول ـ فلوبير يضع روايته : مدام بوفاري ـ وبودلير ديوانه : ازاهير الشر ـ وابس : اولاف للجكرانز ـ وراندبرغ : ستفوالا ـ وكورو : اغنية ربيعية ـ ومليه : اللاقطات .

١٨٥٨ ـ الغاء شركة الهند الانكليزية ـ الحملة الفرنسية الانكليزية الى الشرق الاقصى : معاهدة تينسن ـ الروس ينزلون على ضفة نهر العامور اليمنى ـ قانون المصارف المساهمة في انكلترا ـ محاولة ارساء كابل بحري في قلب المحيط الاطلسي ـ ظهورات العذراء في لورد ـ تاسيس اكاديمية لومبة ـ كيكوله يكتشف الكربون الرباعي التكافؤ ـ فيرشوف يضع كتابه : دروس حول الباتولوجيا الخلوية ـ وواغنر يضع : سيغفريد .

١٨٥٩ ـ حرب ايطاليا ـ احتلال فرنسا لمدينة سايغون ـ الروس يضعون حدا لمقاومة الزعيم القفقاسي شامل ـ بدء الاعمال في شق قناة السويس ـ كوزا كسودار الامارات الرومانية ـ فتح اول بئر بترولية في بنسلفانيا ـ دوربان يبني أول سفينة حربية مدرعة ـ بلانتيه يخترع المختبر الكهربائي ـ اكتشاف مغارة اورنياك التي تعود الى عصور ما قبل التاريخ ـ داروث يضع كتابه : اصول الانواع ـ وماركس : نقد الاقتصاد السياسي ـ وميسترال : ميراي ـ وبنسون دي تراي : انجازات روكمبول ـ وواغنر : تريستان وايزولت ـ وغونو : فوست .

١٨٦٠ ـ الحملة الفرنسية على سوريا ولبنان ـ الحملة الفرنسية الانكليزية على بكين ـ معاهدة بكين ـ المعاهدة التجارية بين فرنسا وانكلترا ـ اتحاد النقابات العمالية في انكلترا ـ تاسيس الاليانس الاسرائيلي العام ـ بناء المتروبولتن في لندن ـ سبيك وغرانت عند منابع نهر النيل ـ اختراع الماكينة المركبة ، ومحرك لونوار المفرقع ، وجهاز هوغ الناقل للبرقيات ـ استخدام الشافية الماسية ـ قانون فخنر في علم النفس ـ مؤتمر الكيميائيين في كارلزرو للوصول الى نظرية مشتركة حول التركيب الذري ـ م. برتلو يضع كتابه : الكيمياء العضوية المبنية على التاليف ـ تدشين مسرح الفولي برجير في باريس ـ لابيش يصدر قصته : رحلة السيد بريشون ـ جورج اليوت : الطاحون على الفلوس ـ اوستروفسكي : العاصفة ـ وداوس دكر (مولتاولي) ماكس هافلار .

١٨٦١ ـ بدء حرب الانفصال في الولايات المتحدة ـ الغاء رق الارض في روسيا ـ المناداة بمملكة ايطاليا ـ صنع اول ظهر على طول السفينة ـ ميشو يتوصل الى صنع دراجة بدواسة ـ فيليس يدخل تحسينات على زنبرك الساعات ـ بروكا يضع نظريته الخاصة بالتمركزات الدماغية ـ كورنو يضع كتابه : بحث حول ترابط الافكار الاساسية ـ و ج. اليوت يضع روايته : سيلاس مارنر ـ وبكل : تاريخ الحضارة في انكلترا ـ وهيبل : نيبلنجن ـ ودستويفسكي : تذكارات بيت الموتى ـ ومداخ : ماساة الانسان ـ غارنييه يباشر بناء الاوبرا في باريس ـ تمثيل تونهوسر في باريس يثير الهيجان .

١٨٦٢ ـ حرب المكسيك ـ احتلال فرنسا لمدينة اوبوك ـ المعاهدة الفرنسية اللقاشية ـ الثورة في كنغاريا ـ انشاء ترسانات بحرية في نانكن ـ قانون همستد في الولايات المتحدة الاميركية ـ ازمة حادة في بروسيا : تعيين بسمارك ـ انشاء السوكول في بوهيميا ـ تاسيس الجمعية العامة للعمال الالمان على يد لاسال ـ معرض لندن ـ فولو يقدر سرعة النور ـ بو دى روشاس يعرض نظرية الدورة ذات الازمنة الاربعة ـ هوغو ينشر روايته : البؤساء ـ بوميالوفسكي ينشر روايته : مولولوف ـ وكاربو : اوغولين وبنوه ـ فيوله ـ لو ـ دوك ينتهي من ترميم قصر بيرفون .

١٨٦٣ ـ الثورة البولونية ـ روبرت هار يعين مفتشا عاما للجمارك في الصين ـ معاهدة هويه واعلان الحماية الفرنسية على كمبودجيا ـ الغاء الرق في مقاطعة غويانا الهولندية ـ اكتشاف مناجم الماس في جنوبي افريقيا ـ القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات ذات المسؤولية المحدودة ـ مؤتمر العلماء الكاثوليك في مونيخ بناء لاقتراح دولنجر ـ رينان يضع : حياة

يسوع ـ برتلو يحقق اختراع الاستيلان الصناعي ـ يوناس يخترع الالة الخائطة المطرزة ـ لونولر يخترع جهازا يعمل على البترول ـ طريقة سلفاي لاصطناع السودا ـ بناماول منارة كهربائية في راس هيف ـ هلمهولز يضع : بحث فيزيولوجي حول الوسيقى ـ لتريه يباشر وضع معجمه : قاموس اللغة الفرنسية ـ جول فرن يضع روايته : خمسة اسابيع في منطاد ـ مانيه يضع روايته : الفطور على العشب .

١٨٦٤ ـ حرب في سبيل الدوقيات الدانماركية ـ تصفية فتح القفقاس ـ تأسيس الجمعية الدولية للعمال ـ اعتراف فرنسا للعمال بحق الاضراب ـ اتفاقية جنيف : تأسيس الصليب الاحمر الدولي ـ البراءة البابوية Quantor Cura والسيلابوس او فهرس الكتب المحرمة ـ اخترع فرن مارتن ـ الفرد نوبل يخترع النتروغليسرين ـ كلوسيوس يضع : نظرية الحرارة الميكانيكية ـ هكسلي يصدر كتابه : مركز الانسان في الطبيعة ـ بيير لاروس يباشر نشر معجم القرن التاسع عشر الكبير ـ وفوستل دي كولانج : المدينة القديمة ـ وتنيسن : انوخ اردن ـ وتولستوي : الحرب والسلم ـ دوستويفسكي : رجل المغاور ـ اوفنباخ : هلن الجميلة ـ ا. توماس : العزيزة .

١٨٦٥ ـ الغاء الرق في الولايات المتحدة الاميركية ـ بدء حرب براغواي ـ الاتحاد التلغرافي الدولي ـ الاتحاد اللاتيني (النقدي) ـ الاعتراف القانوني في فرنسا بقيمة الشك او التحويل ـ اصدار أوراق نقدية صغيرة في فرنسا من القطع الصغير بقيمة ٥٠ فرنكا الورقة الواحدة ـ بارنوم : الدجالون في العالم ـ قانون مندل ـ حراقة بنسن ـ كلوسيوس يعطي الصيغة الانتروبية للديناميكية الحرارية ـ لستر باخذ باستعمال التطهير ـ مونييه يتوصل لصنع الاسمنت المسلح ـ كيكوليه يحدد صيغة البنزين ـ كلود برنار يضع كتابه : المدخل لدراسة الطب التجريبي ـ فرنز مولر Fur Darwin تاين يضع كتابه : فلسفة الفن ـ الاخوة غونكور : جرميني لاسرتو ـ سوينبرن : اطالنتا في كاليدون ـ انترودي كواتال : اناشيد عصرية ـ مانيه : اولمبيا .

١٨٦٦ ـ الحرب النمساوية الالمانية : معركة سادوفا ـ تبني البندقية ذات الابرة وبندقية شاسبو ـ الازمة الاسبانية الشيلية ـ الروس في طشقند ـ الارهاب في روسيا ـ المجاعة في الدكن الهند ـ الباخرة مدينة باريس ذات الدفاش تجتاز المحيط الاطلسي بتسعة ايام ـ ارساء اول كابل بحري في المحيط الاطلسي ـ نوبل يكتشف الديناميت ـ هيكل يضع كتابه : مورفولوجيا عامة ـ فرلين يضع : اناشيد زحلية ـ زولا يصدر روايته تريز راكين ـ دوستويفسكي : الجريمة والقصاص ـ اوفنباخ : الحياة في باريس ـ سميتانا : الخطيبة المباعة ـ فوكوزاوغا : اشياء الغرب .

١٨٦٧ ـ الاتفاق النمساوي المجري ـ اعلان كندا دومنيون ـ شراء الولايات المتحدة لالاسكا ـ معرض باريس ـ تدشين نفق البرنر ـ حق الاضراب وحق الاتحاد النقابي في بلجيكا ـ تدخل بريطاني في الحبشة ـ رحلة دودار دي لاغريه وفرنسيس غرنييه في الصين الجنوبية ـ سقوط نظام الشوغونا في اليابان والمباشرة بصناعة النسيج الميكانيكي فيها ـ المجاعة في روسيا ـ

مؤتمر النقد الدولي ـ القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات المساهمة ـ ماركس يضع كتابه : راس المال ـ (المجلد الاول) ـ اختراع مكبح وستنغهوس ـ اختراع مكبس مارينوني الدوار ـ شولز ودنسمور يخترعان الالة الكاتبة ـ أوتو لانجن يخترع جهاز الغاز ـ باستور يدرس ظاهرات اجتماد النبيذ ـ ابسن يضع روايته : بيرجنت ـ ومنزل : الاحد في قصر التويلري ـ وداغنر : رؤساء المغنين في نورمبرغ .

١٨٦٨ ـ بدء العصر الجديد (عصر الانوار) في اليابان ـ الثورة في كوبا ـ المجاعة في الهند ـ الكوليرا في الجزيرة العربية ـ ظهور فيلوكسيرا الكرمة في فرنسا ـ تأسيس جمعية الاباء البيض او مرسلي افريقيا على يد الكردينال لافيجري ـ اول مؤتمر لنقابات العمال في انكلترا ـ مؤتمر السلام والحرية انشاء الكلية الفرنسية في غلاتا ـ رحلة رختهوفن الى الصين ـ جنسن ولوكيير يكتشفان غاز الهليوم ـ دوبلكس يخترع الدبلكس في التلغراف البرقي ـ اختراع الكرو ـ مانيون . ا. دوديه ينشر كتابه : الشيء التافه ـ وموسورغسكي : بوريس غودونوف .

١٨٦٩ ـ افتتاح قناة السويس ـ الانتهاء من بناء أول خط حديدي عبر الولايات المتحدة الاميركية تنشيء نظام فارس (شفاليه) ، عمل ـ مجمع احرار اليهود في ارلندا ـ تأسيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي في المانيا ـ الولايات المتحدة الاميركية تنشيء نظام فارس (شفاليه)، عمل ـ مجمع احرار اليهود في لايبزيغ ـ ميج ـ موريس يتوصل الى صنع السمن النباتي ـ الاخوة هيات يخترعان السلولويد ـ برجيس يتوصل الى استخدام اول شلال في جبال الالب ـ غرام يخترع الدينامو لتوليد التيار المتصل ـ مكسويل يشرح نظريته حول كهرطيسية النور ـ منديليف يضع لائحة العناصر البسيطة ـ كوربيه يعرض رسومه في برلين وليل يحذو حذوه في باريس ـ سيزار فرانك يضع كتابه : التطويبات .

١٨٧٠ ـ الحرب الفرنسية الالمانية ـ اعلان عصمة البابا ـ ظهور الجمهورية الفرنسية الثالثة ـ اعلان روما عاصمة لايطاليا ـ فرنسا تعترف ليهود مدينة الجزائر بالجنسية الفرنسية ـ قتل الاجانب في ليتسن ـ القانون الزراعي الخاص بالمزارعين في ارلندا ـ سيمانس يخترع فرنا كهربائيا ـ روكفلر يؤسس شركة ستاندار اويل ـ حفريات شليمان في طروادة ـ نيومن يضع كتابه : اجرومية الموافقة ـ ن. ريبو يضع كتابه : السيكولوجيا الانكليزية المعاصرة ـ ولين يضع كتابه : حول الفهم والادراك ـ وفرنشسكو دى سنكتس : تاريخ الاداب الايطالية ـ وفنتين ـ لاتور : مرسم مانيه في باتنيول .

١٨٧١ ـ تأسيس الامبراطورية الالمانية ـ ثورة الكومون في باريس ـ معاهدة فرنكفورت ـ قانون الضمانات في ايطاليا ـ الدستور القانوني لاتحاد العمال في بريطانيا العظمى ـ قانون « الجوف الخاوي » في البرازيل ـ اجراءات في صالح الفلاح المصري ـ ثورة بلاد القبيلي في الجزائر ـ الغاء نظام الاقطاع في اليابان ـ المجاعة في ايران ـ سويس يشرع بنشر كتابه : وجه الارض ـ رينان يصدر كتابه : الاصلاح الفكري والادبي ـ وفرانك : الفداء .

١٨٧٢ ـ بدء الكولتور ـ برنامج ايساخ اجتماعي ـ الغاء الرق في كوبا ـ اضطرابات وقلاقل في الفيلبين ـ اليابان يعترف بالحرية الدينية ـ اول خط حديدي في اليابان ـ السفينة « تشالنجر » تقوم بتطوافها حول الارض ـ ماريتوني يعطي الصورة الاخيرة للروتاليف ولضابطة الهامش الميكانيكية ـ باكلاند يتوصل لاول مرة لصنع اللدائن المعروفة باسم بكليت ـ جول فرن يضع روايته : دورة حول العالم بثمانين يوما ـ اختراع غريبالدي ـ كورنو يضع كتابه : خواطر حول سير الافكار والاحداث في العصر الحديث ـ وبرانديس ينشر كتابه : تيارات الادب الكبرى في القرن التاسع عشر ـ وسولتيكوف : الاخوة غولوفييف .

١٨٧٣ ـ الازمة الاقتصادية ـ اعلان الجمهورية لاول مرة في اسبانيا ـ « الصليبية باتجاه الشعب » في روسيا ـ سكوباليف في خيفا ـ فرنسيس غارنييه في هانوي ـ الاصلاح العسكري في اليابان ـ المجاعة في الدكن ـ احادية المعدن في النقد في كل من المانيا والولايات المتحدة الاميركية ـ فان در والز يوضح نظرية تمدد الغاز ـ وندت يصدر كتابه : مبادىء علم النفس المرضي ـ ورمبو : فصل في الجحيم ـ وتولستوي : انا كارنين .

١٨٧٤ ـ السياسة العسكرية في المانيا ـ البريطانيون في جزر فيجي ـ تأسيس الاتحاد العام للبريد ـ ظهور النادي الالبي الفرنسي ـ اختراع المضاعفة في التلفون الكهربائي ـ بولرو : حول امكان حدوث نواميس الطبيعة ـ مونيه : انطباع ، الشمس المشرقة ـ استعمال كلمة « انطباعية » لاول مرة ـ مارك تواين يصدر : العصر الذهبي ـ ومانيه : كاس الجمة الطيب ـ ورينوار : المحفل ـ وبوفي دي شافان يرسم افاريز البانثيون ـ وغريك يصدر : بيرجنت .

١٨٧٥ ـ برازا في الغابون ـ انكلترا تبتاع من خديوي مصر ما له من اسهم في قناة السويس ـ انكلترا تصدر القانون الخاص بالعمال وارباب العمل ـ اتحاد الاحزاب العمالية في مؤتمر غوتا في المانيا ـ تأسيس الكلية الانكليزية الاسلامية في الهند ـ م. برتلو يحقق التاليف الكيميائي ـ لمبروزو يصدر كتابه : الرجل المجرم ـ وتين يصدر كتابه : اصول فرنسا العصرية : النظام القديم ـ اليزيه ركلو يضع كتابه : الجغرافيا العامة الجديدة (المجلد الاول) ـ مارك توين : توم سوير ـ بيزيه يضع : كارمن .

١٨٧٦ ـ طلائع مجاعة هائلة في الدكن ـ ضم الروس لمقاطعة فرغانة ـ اتفاق تشه ـ فو ـ تأسيس الجمعية الدولية الافريقية في بروكسل ـ معرض فيلادلفيا ـ اول رحلة تقوم بها السفينة فريغوريفيك ـ بل وغراي يضعان اول تلفون يعمل على الكهرباء ـ اكتشاف الدلفين ـ بورا يقوم بنجاح بالعملية القيصرية ـ كوخ يبحث اسباب مرض الجمرة ـ مالارميه يصدر كتابه : كيف يقضي اله الحقول الاصيل ـ زولا يضع كتابه : المغلق ـ وفرشليكي : اناشيد ـ وفازوف : علم وضلا .

١٨٧٧ ـ حرب البلقان والقفقاس ـ انكلترا تضم اول جزء من الترانسفال ـ ثورة سايغو في اليابان ـ سقوط ياقوب في آسيا الوسطى ـ المجاعة في الهند ، والصين الشمالية والبرازيل ـ اضراب عمال مناجم الفحم في الولايات المتحدة ـ توماس وجيلكريست يخترعان المحول الكهربائي ، شارل غرو واديسن الحاكي ، ودابنو البراكسينوسكوب ـ بورسل وفلراند يدخلان

تحسينات هامة على فرن مارتن — فرنسا تتبنى مدفع باتج ـ ليبرمان يصدر كتابه : الباقير .

١٨٧٨ ـ مؤتمر برلين يضع حداً للحرب في الشرق ـ البابا ليون الثالث عشر يشجب تعاليم العصر الكفرية ببراءته Quod Apostaloci ـ تاسيس جيش الخلاص ـ نوردنسكولد يجتاز الممر الشمالي الشرقي ـ تاسيس أول مكتب للهاتف في مدينة نيو هافن ـ راير يتوصل الى تركيب النيلة صناعيا ـ لافال يخترع النابذة في فصل القشطة من الحليب ـ انجلس ينشر كتابه Anti Duhring ـ وكاردوتشي : اناشيد بربرية ـ وكيلر : اخبار من زوريخ ـ برنز جونز يعرض في باريس اثره الرائع : فيفيان ومرلين الساحر ـ بناء التروغادبرو .

١٨٧٩ ـ الرجوع الى سياسة الحماية الجمركية في المانيا ـ خلع الخديوي اسماعيل في مصر ـ خلق جمهورية الترانسفال ـ حرب افغانستان ـ حرب المحيط الهادي ـ براءة البابا ليون الثالث عشر للدفاع من تعاليم القديس توما الاكويني ـ مؤتمر الجغرافيا التجارية في بروكسل ـ المجاعة في الصين ـ تاسيس تلغراف كولدج في لندن ـ سوان وادیسن يخترعان المصباح المنير بالفراغ ـ باستور يكتشف مبدأ التلقيح ـ اختراع انابيب كروكس ـ ارنست سيمنس ينشيء أول قطار كهربائي ـ زحيل السفينة جانيت باتجاه القطب ـ هنري جورج يصدر كتابه : رقي وفقر ـ ومسبرو : دراسات مصرية ـ ولافيس : ابحاث حول تاريخ بروسيا ـ ترايتشكه يصدر : تاريخ المانيا في القرن التاسع عشر ـ وابسن : بيت الشعب ـ وسترندبرغ : الغرفة الحمراء ـ وكابوانا : تشياستنا .

١٨٨٠ ـ اجراءات ضد الرهبانيات وقوانين التعليم في فرنسا ـ مؤتمر مدريد حول المغرب ـ الحرب الاولى بين الانكليز والبوير ـ نفق سان غوتار ـ بناء الخط الحديدي عبر القفقاس ـ تاسيس شركة قناة بناما ـ تنظيم تروست نوبل ـ تحسين مدوس الدراجة ـ عربة طابعة تسير على خط حديدي في الولايات المتحدة ـ ايبرت يكتشف باسيلوس التيفوئيد ـ تين : فلسفة الفن ـ ج. تسن يضع : مدينة الليل والهوى ـ رودان يضع : المفكر .

١٨٨١ ـ قتل القيصر اسكندر الثاني ـ مذابح اليهود في اوكرانيا ـ بدء الحماية الفرنسية في تونس ـ انشاء الكلية التشكية في جامعة براغ ـ مؤتمر الفوضويين في لندن ـ براءة البابا ليون الثالث عشر حول نشأة السلطة المدنية ـ قتل بعثة فلاترز في الصحراء الكبرى ـ بناء الخط الحديدي عبر جبال الاندلس وفرع الخط الحديدي بين بكين ولبنسن ـ انارة القطار بالكهرباء على خط لندن ـ برايتن ـ تاسيس شركة اديسن الكهربائية ـ باستور يجري اختباراته حول اللقاح ضد الجمرة ـ اختبار ميكلسن حول سرعة النور ـ هنري بوانكاريه : حول نظرية الدالات الوكشية ـ ت. ريبو : امراض الذاكرة ـ فوغزارو يضع روايته : مالميرا ـ وفرغا : مالافغليا ـ وماشادو دي اسيس : براز كوباس ـ واوسبانسكي : قدرة الارض ـ ورينوار يضع روايته : فطور البحارة .

١٨٨٢ ـ عقد الحلف الثلاثي ـ تدخل انكلترا في مصر ـ الايطاليون في الارثرية ـ تاسيس مدينة ليوبولدفيل ـ طرد اليهود من روسيا ـ منع هجرة العرق

الاصفر الى كاليفورنيا ـ قبول القوتين في الجسم الطبي في الولايات المتحدة الاميركية ـ اضطرابات اجتماعية في ايطاليا ـ تأسيس الاتحاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعية ـ توزيع النور الكهربائي في نيويورك للعموم ـ تأسيس حكر ستاندرد اويل ـ كوخ يكتشف باسلس التدرن الرئوي ـ تسلا يخترع النوبة الكهربائية ـ ديبريز يحقق لاول مرة نقل الطاقة الكهربائية في معرض مونيخ ـ بيك يضع روايته : الغربان ـ فلورس : الراهب الالم ـ المهندس سدبل يبني مخازن البرنتان في باريس ـ واغنر يضع : برسيفال ـ الرباع الاول لفوريه .

١٨٨٣ ـ اول قانون للضمان الاجتماعي يصدر في المانيا ـ حرب التونكين ـ تدخل فرنسا في مدغشكر ـ الحركة المهدية في السودان ـ تأسيس الجمعية الفابية في انكلترا ـ ظهور الحزب الماركسي في روسيا ـ الاخوة تساندييه يصنعون منطادا مسيرا ، وديون وبوتون عربة بخارية تسير على الطرق ـ اديسن يكتشف « ظاهرة اديسن » التي تفضي الى المصباح الالكتروني ـ والبارون جني يبني اولى ناطحات السحاب في شيكاغو ـ كليبس يكتشف باسلس الدفتريا ـ تيجلي يضع كتابه : الميكانيكا الفيسيولوجيا للتطور ـ ونيتشه يصدر كتابه : هكذا تكلم زرادشت ـ وسورات يضع : الحمام .

١٨٨٤ ـ قانون ناكيه حول الطلاق في فرنسا ـ الاعتراف قانونا بالنقابات في فرنسا ـ الثورة في كمبودجيا ومعاهدة حماية جديدة ـ حرب الصين ـ مؤتمر برلين الاستعماري ـ غردون في السودان ـ تأسيس الجنوب الغربي الافريقي الالماني ـ اكتشاف الذهب في الترانسفال ـ المجاعة في روسيا ـ الاستيلاء على مرو ـ تطور الحركة النقابية في بريطانيا العظمى ـ انشاء احتكار دولي للخطوط الحديدية ـ بارسنز يبني طربين بخارية ومرجنثالير يخترع اللينوتيب ـ فيل يدخل تحسينات على « البارود بدون دخان » ولوروبين على الناسفة ـ الاخوة رينار يبنون منطادا ـ سينوبوس يضع كتابه : تاريخ الحضارة ـ هويسمانز : بالمقلوب ـ ولرفا ـ الخيالة الريفية ـ افتتاح صالون : « المستقلين » ـ ماسينيه : مانون .

١٨٨٥ ـ اتفاقة برلين بشأن الرق وانشاء دولة الكونغو المستقلة ـ فرنسا تعلن الحماية على مدغشكر ـ معاهدة تيان تسن الثانية وتوكيد الحماية الفرنسية على التونكين ـ انكلترا تضم بورما الى ممتلكاتها في آسيا ـ عقد اول مؤتمر هندي ـ تأسيس اول حزب للعمال في بلجكا ـ نشر الجزء الثاني من كتاب راس المال ـ اختراع الحاصدة ـ الرابطة ، والرشاش مكسيم ـ باستور يشفي ولدا عضه كلب مسعور ـ دملر وبنز يصنعان عربة تسير على البنزين ـ اول رحلة علمية يقوم بها الامير البر ، امير موناكو ـ زولا يضع روايته : جرمينال ـ ونيتشه : الى ما وراء القوى ـ بناء متحف امستردام الوطني لويترل ـ فان غوغ يضع : آكلة البطاطا .

١٨٨٦ ـ اضرابات في بلجيكا ، وبريطانيا العظمى والمانيا والولايات المتحدة ـ مظاهرات اول ايار في الولايات المتحدة ـ تشكيل حلف العمل الاميركي ـ تأليف شركات مشارطة في كل من الكونغو ونيجيريا ـ بناء خط حديدي عبر كندا ـ العثور على الذهب في استراليا الغربية ـ انشاء فبركة حديثة للحرير في كنتون ـ اختراع المنفخ الكهربائي لصناعة الزجاج ـ هول وهيرولت

بتوصلان لصنع الالومينيوم بالتحليل الكهربائي كما توصل هرتز الى اكتشاف الموجات الكهرطيسية ـ استمان يخترع جهازا سينماتوغرافيا ـ ـ جان فاليس يضع روايته : الثائر ـ ودرومون كتابه : فرنسا اليهودية ـ و ج. تارد : الاجرام المقارن ـ ورمبو : الاضاءة التزيينية ـ ولوتي : صياد ايسلندا ـ وبالاماس : اغاني بلادي ـ ولويس سوليفان اقام اوديتوريوم شيكاغو ـ وبارتولد : الحرية تضيء العالم ـ وفنسان دندي : سمفونية جبلية .

١٨٨٧ ـ أول مؤتمر يعقده ممثلو الامبراطورية البريطانية ـ الحكم الفرنسي البريطاني المشترك على جزر هبريدس الجديدة ـ انشاء الاتحاد الهندي الصيني ـ الغاء الرق في كوبا ـ الدكتور زامنهوف يضع لغة الاسبرنتو ـ اكتشاف طريقة سيندةاللعب ـ انطوان يؤسس المسرح الحر ـ رتشردسن يشيد مخازن مارشال فيلد في شيكاغو ـ موباسان يصدر روايته : الهورلا ـ ولوتي : مدام كريزنتام ، وكبلنغ : قصص بسيطة من الروابي ـ دانتزيو : المراثي الرومانية ـ تشيخوف : اخبار مضحكة .

١٨٨٨ ـ فانسن في غرينلاند ـ أول قرض فرنسي لروسيا ـ تأسيس حزب العمال في سكتلاندا ـ الغاء الرق في البرازيل ـ براءة البابا ليون الثالث عشر حول الحرية البشرية ـ تدشين معهد باستور في باريس ـ هدفيلد يضع الفولاذ بالمنغنيز ـ فورست يخترع محركا يعمل على البنزين ـ ظهور البنوماتيك (الهواء المضغوط) واستعماله في الدراجة ـ لمبروزو يضع كتابه : الرجل النابغة ـ ونيتشه : المسيح الدجال ـ وباريس : تحت نظر البرابرة ـ روسني الاب يضع : الخبهوس ـ وسترندبرغ : الدانون ـ وسودرمان : الشرف ـ رودن ودارىو : آزور ـ غوكن : الرؤية بعد الخطاب : أو يعقوب والملاك ـ رمسكي كورساكوف : شهرزاد .

١٨٨٩ ـ مؤتمر حول الرق في بروكسل ـ سقوط الامبراطورية في البرازيل ـ اعطاء اليابان دستورا جديدا ـ اول مؤتمر لرابطة الشعوب الاميركية ـ موجة اضرابات في اوروبا ـ معرض باريس : برج ايفل في الشان البزيه ـ تأسيس الدولية العمالية الثانية ـ تأسيس شركة : جنرال الكتريك ـ تشييد اول ناطحات السحب في نيويورك ـ ادسون يخترع آلة سينماتوغرافية ، واستمان الشريط التصويري من السلولبد ، وشاردونيه : طريقة لصنع الحرير الاصطناعي ، وهلريث : حاسبة كهربائية ـ براون سيكوارد يوضح وظيفة الغدد ذات الافراز الداخلي ـ غويو يضع كتابه : الفن من الوجهة الاجتماعية ـ وبورجيه يضع روايته : التلميذ ـ وكبلنغ : اول كتاب حول الادغال ـ ييتس : اسفار اولسن ـ ج. هوبتمان : قبل الفجر ـ غوكن : المسيح الاصفر ـ فان غوه : رسم الرجل المقطوع الاذن ـ رتشرد شتراوس : الموت والتجلي .

١٨٩٠ ـ مقايضة زنجبار بهليغولند ـ اتفاقات استعمارية افريقية ـ مؤتمر العمل الدولي في برلين ـ افلاس بنك بارينغ والازمة الاقتصادية ـ تأسيس شركة رويال دوتش ـ اللورد بنتنك يصدر في الهند قانون التسليم ـ تعرفة ماك كنلي ـ قانون شرمان بخصوص احادية المعدن في العملة ـ القطار السريع امبير صتايت تزيد سرعته على ١٠٠ كيلومتر في الساعة ـ برانلي ولودج

يخترعان كشافا لجهاز التلغراف اللاسلكي ـ لافال يبني طوربينا جديدا يعمل على البخار ـ ادر يرتفع على ظهر الابول ـ ماراي يخترع الكرونوفوتوغراف ـ المحاولات الاولى لتزفيت الطرق ـ ماهان يصدر كتابه : تاثير القوة البحرية على التاريخ ـ و. جيمس : مبادىء علم النفس ـ ب. فاليري يصدر كتابه : نرسيس ـ و س. جورج : اناشيد ـ ومسكاني كتابه : الخيالة الريفية ـ وموري اوغاي : الراقصة ـ ومونيه .

١٨٩١ ـ الرسالة البابوية Rerum Novarum حول الوضع البشري ـ تأسيس الاكداس ـ و م. دنيس : السر الكاثوليكي ـ وبوروديين : الامير ايغور . المكتب الدولي للسلام في برن ـ المجاعة في روسيا واجراءات معادية للسامية ـ الشروع ببناء الخط الحديدي عابر سيبيريا ـ نقل الطاقة الكهربائية الى مسافات بعيدة لاول مرة ـ فوربست يخترع محركا من ٤ اسطوانات ـ بافلوف يدرس رد الفعل المشروط ـ الدكتور دوبوا يكتشف انسان فردجاوا المنتصب القامة . ـ ا . والله ضم رواته : جريمة اللورد ارثر سافيل ـ كونين دويل : مغامرات شارلوك هولمز ـ س. لانجرلوف : ساغا كوستابرلنغ ـ مونيه ينشر كتابه : الحوريات ـ فرويدنغ: قيثارة واكوردوين ـ وودكاتند ـ يقظة الربيع ـ ورونو : الحلم .

١٨٩٢ ـ الاتفاق العسكري الفرنسي الروسي ـ حكومة مالين وسياسة الحماية الاقتصادية ـ اضرابات في الروهر وفي صناعة التعدين في الولايات المتحدة ـ القوانين الاسترالية الخاصة بالمصالحة والتحكيم ـ التوسيع من صلاحيات المجالس التشريعية في الهند ـ مواسو يخترع فرنا كهربائيا ـ لورنتز يكتشف الكهيرب والالكترون ـ هـ . بوانكاريه يضع كتابه : المناهج الحديثة في دراسة الميكانيكية الفلكية ـ ا. وايزمان يصدر كتابه حول الوراثة والانتخاب الطبيعي ـ وهوبتمان : الحياكة ـ وشارنتيه : انطباعات من ايطاليا .

١٨٩٣ ـ تأسيس حزب العمال المستقل في انكلترا ـ كيردوف ينشىء اتحاد الفحامين ـ الفرنسيون يحتلون الداهومي ـ والاميركيون جزر هاواي ـ الحبر الاعظم ليون الثالث عشر يعيد تنظيم رهبانية البندكتيين ورهبانية الترابست ـ اختراع محرك ديزل ـ ماري يكتشف الكشاف السينمائي ـ اول مطبخ كهربائي ـ ج.جرايف : المجتمع الجديد والفوضى ـ بلوندل يصدر كتابه : العمل ـ وكبلنغ : البحار السبعة ـ دوركهايم : حول انقسام العمل الاجتماعي ـ برادلي يصدر كتابه : بين المظهر والواقع ـ وفرلين : مرات ـ ج.م دي هريديا : الاسلاب ـ اناتول فرانس : مشوى الملكة بيدوك ـ كورتلين : السادة الموظفون الاداريون ـ س. فرانج : ماغي : ابنة الازقة ـ ديبوسي : تمهيد لبعد الظهر عند احد الحيوانات ـ فوكين : اغنية راعوية من تاهيتي .

١٨٩٤ ـ الحرب الصين ـ اليابانية ـ غاندي وتأسيس المؤتمر الهندي في ناتال ـ التشريع حول التحكيم الالزامي في زيلندا الجديدة ـ تكوين الحلف العمالي الارجنتيني ـ نشر المجلد الثالث من كتاب رأس المال لانجلس ـ رو يكتشف مصلا ضد الدفتيريا ـ كما يكتشف يارسن باسيلس الطاعون الدملي ـ اونز ينشىء مختبرا للتبريد ـ ابحاث فولتيرا حول المعادلات الصحيحة ـ ليون بورجوا يصدر كتابه : التضامن ـ وجورجنسن :

التحول ـ ورودين : بورجـوا كاليه ـ وايـا : اخراج الدراما الوالمثرية ـ أ.دي بوديـه ، يشيد كنيـة يوحنا الانجيلي في حي مونمارتر .

١٨٩٥ ـ فشل مشروع وطني قومي لارلندا ـ فتح قناة كيتيل ـ الحملة الفرنسية على مدغشقر ـ تأسيس مستعمرات روديسيا ـ التهافت على المطاط في افريقيا الوسطى ـ حرمان فنلندا من استقلالها الداخلي ـ مذابح الارمن في لاستانة ـ دستور الاتحاد العام للعمال في فرنسا ـ الفرد نوبل يؤسس عند وفاته الجائزة التي تحمل اسمه ـ ابحاث برن ولوراتتر حول الكهيرب ـ بوبوف يضع قارية (هوائي) للتلغراف اللاسلكي ـ بوجو يسير مربة على عجل يعمل بالهواء المضغوط ـ الاخوة لوميير يصنع جهازا للسينما ـ رنتجن يكتشف الاشعة السينية ـ هرزل يضع كتابه : الدولة اليهودية ـ دوركهايم يصدر كتابه : قواعد الطريقة الاجتماعية ـ فيرهيرن يضع كتابه : المدن ذات المجسات ـ ج.هـ. ويلز : جهاز لاستكشاف الزمن ـ وث. هاردي : جود المجهول ـ فوغزارو : العالم القديم الصغير ـ تولستوي مملكة الظلام ـ وسينكفتش : الى اين ? ـ فان غرونتجن : قبضة من الكائنات البشرية ـ بروز مدرسة مونتربال الادبية

١٨٩٦ ـ الحملة الايطالية على الحبشة ـ المجاعة في الهند ـ ضم مدغشكر الى فرنسا ـ تأسيس مصانع زبلين ـ فورد يبني اولى سياراته ـ اولى الالعاب الاولبية في اثينا ـ مساهمة مركوني في اختراع التلغراف اللاسلكي ـ كروبوتكين يصدر كتابه : الفوضى : فلسفتها ومثالها الاعلى ـ و أ. ربكلو : الفوضى ـ واناتول غرانس : التاريخ المعاصر ـ وبلاكو ابانيز : الارض الملعونة ـ وروبن داريو : النثر الدنيوي ـ بيكاسو يضع : المستعطي .

١٨٩٧ ـ حرب تركيا واليونان ـ الالمان ينزلون في كياو ـ تشاوين ـ المجاعة في البنغال ـ تأسيس الحركة الصهيونية في مدينة بال ـ اكتشاف مناجم الذهب في الكلندايك ـ طيران على متن طائرة ـ لاغستن يدخل تحسينات ملحوظة على المونوليب ـ هنري بكيريل يكشف الطاقة الاشعاعية في الراديوم ـ فرنسا تتبنى مدفع عيار ٧٥ للجيش الفرنسي ـ غليوم الانفار والفولاذ مع النيكل ـ لندن تسير الترام الكهربائي ـ م.أ.س. بلوك يصدر كتابه : حرب المستقبل ـ أ. ساباتيه مدخل الى فلسفة الدين من خلال علم النفس والتاريخ ـ برونشويغ يصدر كتابه : كيفية الحكم ـ وبرللو : العلم والاخلاق ـ ولانغلوا وسنيوبوس : المدخل الى الدراسات التاريخية ـ باريس يصدر قصته : من لا أصول لهم ـ وجيد : الاغذية الارضية ـ س. موم : ليزا لاميث ـ ر. م. ريلك : متوج الاحلام ـ ستريندبرغ : جهنم ـ تشيخوف : الموجيك ـ انجال غانيفيه : المثال الاسباني .

١٨٩٨ ـ الحرب الاسبانية الاميركية ـ كتشنر يهزم المهدية ـ قضية فشودا ـ المحاولة الاصلاحية لمدة ١٠٠ يوم في الصين ـ الروس يحتلون بورت ارثور ـ قضية دريفوس في فرنسا ـ اضطرابات اجتماعية في ايطاليا ـ المجاعة في روسيا ـ اقرار استعمال اللغتين في بلجكا ـ بيير ومدام كوري يكتشفان الراديوم ـ سنتوس ـ دومون يبني منطادا ـ لويس رينو يخترع الوصلة المباشرة ـ اول معرض للسيارات في باريس ـ روستان يصدر

كتابه ـ سيراتودي برجرالد ـ برنارد شو : تمثيليات مسلية ومزعجة ـ سترندبرغ : طريق دمشق ـ ابانيز ـ الاستحكام ـ وبشنيني : حياة البوهيمي .

١٨٩٩ ـ حرب الانكليز والبويرز ـ اول مؤتمر للسلام في لاهاي ـ الطاعون في مصر وفي سنغافورا ـ المجاعة في الهند ـ برانلي وماركوني يؤمنان اول اتصال بالتلغراف اللاسلكي ـ لوبوف ينزل اول غواصة الى البحر ـ تأليف المجلس الدولي الدائم لاستكشاف البحر في كوبنهاغن ـ الحبر الاعظم البابا ليون الثالث عشر يقف موقفا مناهضا للنزعة الاميركية الدينية ـ لويس سوليفان يبني مخازن كلرسن الكبرى في شيكاغو ـ برنشتاين يصدر كتابه : الاشتراكية النظرية والديمقراطية الاشتراكية العملية ـ فاشيه دي لابوج يضع كتابه : الآري ودوره الاجتماعي ـ هيكل : اسرار الكون ـ تولستوي : القيامة ـ وينس : الربح بين القصب ـ ريمي دي غورمون : استتيكا اللغة الفرنسية ـ رافيل يضع كتابه ش الرقص الوقور للاميرة المتوفاة ـ اول منزل يقام في باريس بالباطون المسلح .

١٩٠٠ ـ معرض باريس ـ ثورة البوكر والحملة التاديبية على الصين ـ سن . يات .س يؤسس الحزب الاشتراكي الصيني ـ الفرنسيون يحتلون تشاد ـ بلانك يضع نظرية الكم ـ الانتفاع بمادة الغالاليت Galalite لصنع ـ اضراب عمال المناجم في اليابان ـ المجاعة في البنغال .م. بلانك اللدائن ـ لاندستاينر يكتشف فئة الاحمر الدموي للرسم ـ لوكيير يصدر كتابه : التطور اللاعضوي ـ س.فرويد : تفسير الاحلام ـ موراس : بحث حول الملكية ـ كوتسكي يصدر كتابه : الماركسية وناقدها الاكبر برنشتاين ـ ج. ريتار : شعرة الجزر ـ شارل لويس فيليب : بوبو مونبارناس ـ برناردشو : تلاميذ الشيطان ـ درايزر فيليب : كاري ـ ظهور النزعة : الفوفية في الرسم ـ المؤتمر الدولي الاول للموسيقيين في باريس ـ شاربنتيه لويزا ـ بتشيني : لاتوسكا .

١٩٠١ ـ تأسيس رابطة الدومنيون الاسترالي ـ تعديل بلات بشأن كوبا ـ مؤتمر جامعة الدول الاميركية في مكسيكو ـ انشاء الصندوق الوطني اليهودي ـ انشاء شركة فولاذ الولايات المتحدة ـ الاضراب الكبير في ايطاليا ـ انشاء المكتب الدولي للعمل في بال ـ البراءة البابوية Graves de Communi ـ لوازي يضع كتابه : الانجيل والكنيسة ـ رولز فورد يوضح طبيعة اشعاع الراديو ـ هـ.دى فريز : نظرية التغيرات ـ فرويد : علم طبائع الامراض العقلية في الحياة اليومية ـ توماس مان : آل رودنبروك

١٩٠٢ ـ التحالف الانكليزي الياباني ـ اخضاع الفيلبين للاميركيين ـ الخط الحديدي عبر سيبريا يصل فلاديفوستوك ـ الغاء الاتجار بالعبيد في زنجبار ـ مؤتمر برلين الاستعماري ـ انشاء امانة سر دولية نقابية ـ بلوليه : تاريخ بورصات العمل ـ البابا الثالث عشر يشكل لجنة للدراسات الكتابية ـ مذكرة فريد هولم حول المعادلات الصحيحة ـ هنري بوانكاريه يصدر كتابه : العلم والحدس ـ ب. كروسي : الاستتيكا باعتباره علم الاحساس وعلم اللغة العام ـ اندريه جيد يصدر كتابه

الفاسق – غوركي : الاغوار – آزورين : الارادة – دبوسي : بلياس ومليزانـد .

١٩٠٢ – التخلي عن مشروع قناة بناما – الثورة في مقدونيا – المانيا تحصل على امتياز خط بغداد الحديدي – مؤتمر الحزب الديمقراطي الاجتماعي في لندن : الاصطدام بين البلشفيك والمنشفيك – مذابح جديدة لليهود في روسيا الجنوبية – المؤتمر الصهيوني – كورن يدخل تحسينات على طريقة ارسال الصور بالكهرباء – طيران الاخوة رايت – تأسيس محلات فورد – تسيولكوفسكي يصدر كتابه : درس الفضاء بالاجهزة المبنية على التجاوب الرجعي – زولا : الحقيقة – ر. رولاند : حياة بيتهوفن – كنراد : العاصفة ابانيز : الكاتدرائية – رابمونت : الفلاحون – افتتاح صالون الخريف في باريس

١٩٠٤ – بدء الحرب الروسية اليابانية – عقد الاتفاق الودي . سن – يات سن يؤلف حزب الكومنتانغ – محاولة اعلان الاضراب العام في ايطاليا – مؤتمر الدولية الاشتراكية في امستردام – وضع الحق القانوني بايعاز من البابا بيوس العاشر – فلامنغ يخترع القنديل الكهربائي الثنائي القطب – بلتزن بتوصل لصنع الفران (النيلون) – روما رولان يصدر تباعا : جان كريستوف والفجر – سويريز : حول وفاة اخي – ولغيومسين : حياة ساذج – وهوبرت كرابتز : الخبز الاسود – وبيرندللو : المرحوم متياس باسكال – ولولسورتي : فريسو الجزيرة – لافكاديو هيرن : اليابان ، ومحاولة تبرير – فكتور بيرار : طريق آسيا – وبونتيني : مدام بترفلاي .

١٩٠٥ – انتهاء الحرب الروسية اليابانية – الثورة في روسيا والحركة الرجعية فيها – ازمة المغرب الاولى – وقوع الانفصال بين السويد والنروج – الغاء آخر مقاطعة للهنود الحمر في الولايات المتحدة – انشاء حزب الوطن العربي – فصل الكنيسة عن الدولة في فرنسا – مؤتمر برن حول التشريع العمالي – انزال الدردنوط الى البحر – مذكرات انشتاين حول تأثير الضوء الكهربائي ونواميس النسبية – هنري بوانكاريه : قيمة العلم – فرويد : النظرية الجنسية – لافيس : لويس الرابع عشر – الان : خواطر – برنشتاين : الزوبعة – ظهور التكعيبية في فن الرسم – سترافنسكي : سمفونيا مي بيمول – بيلا بارتوك : النتيجة الاولى – مانويل دي فالا : الحياة القصيرة .

١٩٠٦ – مؤتمر الجزيرة حول المغرب – مؤتمر الشعوب الاميركية في الريو – القحط في روسيا واصلاح ستولوبين الزراعي – اتفاقية روما حول مراكز البريد الدولية – طيران سنطوس دومون – قانون العطلة الاسبوعية في فرنسا – البراءة الرسولية Vehementer برغسون ينشر : التطور الخلاق – اختراع تفاعل واسرمان – ابتن سنكلر : الادغال – ادي : قصائد جديدة – تكسون : بل الفاتح – بادن باول : الكشافة للاولاد – شيمازاكي توزون : المخالفة .

١٩٠٧ – المؤتمر الثاني للسلام في لاهاي – تشكيل الائتلاف الثلاثي والاتفاق الروسي الياباني – انشاء محكمة عدل لاميركا الوسطى – البراءة البابوية

Pascendi – تأسيس جمعية فرانري لتوطيد السلام بين الشعوب – غاندي يتبنى سياسة Satyagrapha بغية تنظيم المقاومة السلبية – الازمة الاقتصادية – المجاعة في الهند وفي الصين – اضراب عمال مناجم النترات في الشيلي – تأسيس شركة شل – تجربة التصوير الملون على يد لوميير – لي دي فوريست يخترع القنديل الثلاثي القطب – هوغ يضع كتابه : بحث في الجيولوجيا – هاملن : محاولة حول العناصر الاساسية في التمثيل – اونامونو : قصائد – هوابتلوك : دورة القبان – غوركي : الام – هارغاوا فوتبانيه : دون المتوسط – تاهاما كتاي : الغطاء – النزعة الى التربة تغزو كندا – شوانبرغ : سمفونيا الحجرة .

١٩٠٨ – ضم بلجكا للكونغو وضم البوسنه والهرسك الى النمسا والمجر – ثورة تركيا الفتاة – اختراع الريح الصدرية – ج. سوريل : تأملات حول العنف – دانونزو : صحن الكنيسة – رافيل : امي الاوزة .

١٩٠٩ – الثورة في تركيا وبلاد فارس – أزمة البوسنه – الهيجان في برشلونا وتنفيذ حكم الاعدام بفرابر – اضرابات في الارجنتين – بيري يبلغ القطب الشمالي – بلاريو يجتاز مضيق المانش بالطائرة – ولم يطلع علينا بالدور الوميين – بيكلاند يوضح خصائص راتنج الفينول – الفورمول (الباكليت) – لنين يضع كتابه : المادية والنقد التجريبي – اندريه جيد : الباب الضيق – باريس : كوليت بودوش – بلوى : دم الفقير – مرغريت أودو : ماري كلير – ماترلنك : العصفور الاخضر – بوردبل : هيراكليس النبال – بيكاسو : المرأة والمندولين – دياغيليف والباليه الروسية في باريس –

١٩١٠ – انشاء دومنيون جنوب افريقيا – اليابان تضم كوريا – مؤتمر شعوب اميركا في بونس ايرس – اضراب عمال مناجم الفحم وقانون التقاعد العمالي في فرنسا – الحكم على بيون – سقوط الملكية في البرتغال – شافيز يجتاز جبال الالب – ماري كوري تعزل الراديوم – سلك تنغستين الذي وضعه كولدج يتيح للتصوير صنع مصباح يعمل بسلك تنغستين – هابر يتوصل الى الامونيا الصناعي – ظهور طريقة اللزوجة – توماس هونت مورغان يجدد علم الوراثة وبوجين باتايون يحقق التناسل العذري الصناعي – هلفردنغ يضع كتابه : الرأسمال النقدي – نورمان انجل : الوهم الاكبر – وجوريس : الجيش الجديد – الاب سرتلانج يضع كتابه : القديس توما الاكويني – وبيغي : سر محبة جان دارك – ستافنسكي ودياجيليف : عصفور النار .

١٩١١ – الثورة في الصين – الازمة المراكشية – الايطاليون في طرابلس الغرب – الفتنة الزراعية في زاباتا ، المكسيك – ازمة سياسية في بريطانيا العظمى – امندسن يبلغ القطب الجنوبي – فونك يكتشف الفيتامينات – رازرفورد يوضح خصائص الذرة – ا. و ج. بريه يبنيان مسرح الشان اليزيه – بيكاسو : الطبيعة الميتة – سترافنسكي : بتروشكا – لاشتراوس : فارس الوردة – بيلا بارتوك : قصر بارب بلو .

١٩١٢ – الحرب البلقانية – يوان شي – كاي ، سيد الصين – اعلان الحماية الفرنسية على المغرب – مجلس العموم يصوت على الوطن القومي – التشريع حول الضمان في بريطانيا العظمى – ازدياد الهيجان الاجتماعي

في روسيا ـ مؤتمر الدولية الاشتراكية في بال ـ ر. لكسمبورغ يضع كتابه : تجمع رأس المال ـ تيلور : مبادىء الادارة العلمية ـ ظهور طريقة فورد للعمل ـ كاروس يجتاز البحر المتوسط ـ لاين يوضح طبيعة الاشعة السينية ـ هس يثبت حقيقة ظاهرة التأين ـ دوركهايم : الاشكال البدائية للحياة الدينية ـ اناتول فرانس : «الآلهة العطشى ـ الان فورنيه : مولن الكبير ـ كلوديل : البشارة لمريم ـ برنارد شو : بجمليون ـ بابيني : رجل انتهى ـ مارينتي : منتقيات مستقبلية ـ رافيل : دافني وكلوية ـ سوينبرغ : بييرو المعتوه .

١٩١٣ ـ الحرب البلقانية ـ قوانين الحرب في كل من المانيا وفرنسا ـ مجلس اللوردات يرد مشروع الوطن القومي في ارلندا ـ التشريع الاميركي ضد الاحتكار ـ المؤتمر العربي في باريس ـ لا شاتليه يوضح قانون سقاية الفولاذ الثنائية في عملية الكربنة ـ هابر يتوصل الى تركيب الامونياك الصناعي ـ فرويد : يصدر كتابه : الطوطم والتابو ـ هوسرل : فلسفة مبحث الظاهرات ـ باريس : الاكمة الملهمة ـ مارتن دوغار : جان باروا ـ بروست: بحثا عن الوقت الضائع ـ هيمون : ماريا شبدلين ـ شارل لويس فيليب : شارل بلانشار ـ بيرانديلو ـ منزل الآخرين ـ طاغور ينال جائزة نوبل ـ جاك كوبو : تاسيس كولمبيه القديمة ـ ج. ابولينير : رسامو التكعيبة ـ سترافنسكي : تكريس الربيع .

١٩١٤ ـ الازمة الاوروبية ـ الاضطرابات في الاولستر ـ الانتهاء من شق قناة بناما ـ هـ. ن. رسل يبسط نظرات جديدة حول تطور النجوم ـ اونايل : العطش بوردبل : السنور المحتضر ـ بروكوفيف حاشيه سكيثية ، والبط الصغير الرديء .

فهرست الاعلام

ث

ج

ح

ز

ش

غ

ل

م

ن

و

ى

فهرست الخرائط والتصاميم

فهرست الصّــــوَر

٢٦ – دخول غاريبلدي الى نابولي .
٢٧ – الساحة الحمراء في موسكو ، في السنة ١٨٤٤ .
٢٨ – برودواي ، في نيويورك ، في السنة ١٨٥٥ .
٢٩ – سنغالي في السنة ١٨٦٠ .
٣٠ – دخول لنكولن الى مدينة ريتشموند ، عاصمة الولايات الجنوبية ، (١٨٦٥) .
٣١ – مكتب القطن في اورليان الجديدة (١٨٧٣) .
٣٢ – مدينة بوينوس ايرس في السنة ١٨٦١ : منظر مأخوذ من ساحة الجمرك .
٣٣ – اول استعراض للعمال الاميركيين بمناسبة عيد العمل في نيويورك (١٨٨٢) .
٣٤ – سوق لبيع العبيد في مدينة الجزائر .
٣٥ – دخول النقيب (بنجر) الى (كونغ) (افريقيا الغربية الفرنسية) .
٣٦ – حمامات الفانج المقدسة .
٣٧ – دخول الجيوش الفرنسية الى قلعة (هونغ ـ هوا) ، في ١٣ نيسان ١٨٨٤ .
٣٨ – مسرح في اليابان ، في اوائل القرن التاسع عشر .
٣٩ – مصائب الحرب : النزوح عن (سان ـ كلود) (تشرين الاول ١٨٧٠) .
٤٠ – الاقتراع العام : قلم اقتراع في انتخابات ٧ كانون الثاني ١٨٧٣ .
٤١ – الافسنتين .
٤٢ – اخراج الفرش من بيت الرهن .
٤٣ – كليمنصو يلقي كلمة في اجتماع عام في ميدان (فرنندو) (١٨٨٥) .
٤٤ – عظمة البورجوازي وانحطاطه .
٤٥ – انطلاقة السيارات المتسابقة (باريس ـ برلين ، ٢٧ حزيران ١٩٠١) .
٤٦ – متنزه الدراجة في غابة بولونيا .
٤٧ – حفلة راقصة في (طاحونة الطلمة) .
٤٨ – النزهة الباريسية .

فهرست عام

القسم الأول

بين الاستمرار والتغييرات المحتملة في مطلع العصر

القسم الثاني

قوى الغرب وتوسع الاوروبيين العالمي

القسم الثالث

الحضارة الاوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

القسم الرابع

الحضارات خارج اوروبا

القسم الخامس

على عتبة القرن العشرين

انتهى المجلد السادس، ويليه المجلد السابع والأخير

العهد المعاصر

زدني علماً

١ ـ حوار الحضارات
٢ ـ الميتولوجيا اليونانية
٣ ـ مبادىء في العلاقات العامة
٤ ـ الخلدونية
٥ ـ سوسيولوجيا الأدب
٦ ـ الأسواق الزراعية
٧ ـ الجمالية الفوضوية
٨ ـ تاريخ الفنون العسكرية
٩ ـ الفكر الفرنسي المعاصر
١٠ ـ الأدب المقارن
١١ ـ الإسلام
١٢ ـ برغسون
١٣ ـ سيكولوجيا الفن
١٤ ـ تأملات ميتافيزيقية
١٥ ـ في الدكتاتورية
١٦ ـ العقد النفسية
١٧ ـ دستويفسكي
١٨ ـ نظرية العفو
١٩ ـ الإنسان ذلك المعلوم
٢٠ ـ سوسيولوجيا الفن
٢١ ـ السيمياء
٢٢ ـ التخلف المدرسي
٢٣ ـ علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي
٢٤ ـ مدخل إلى علم السياسة
٢٥ ـ نقد المجتمع المعاصر
٢٦ ـ روسو
٢٧ ـ الأدب الرمزي
٢٨ ـ طريقة الروائز في التربية
٢٩ ـ مصير لبنان في مشاريع
٣٠ ـ من ديكارت إلى سارتر
٣١ ـ الانطباعية
٣٢ ـ تاريخ قرطاج
٣٣ ـ باسكال
٣٤ ـ المؤسسات العامة
٣٥ ـ المسألة الفلسفية
٣٦ ـ تاريخ السوسيولوجيا
٣٧ ـ الفدرالية
٣٨ ـ أمراض الذاكرة
٣٩ ـ المذاهب الأخلاقية الكبرى
٤٠ ـ نقد الايديولوجيات المعاصرة
٤١ ـ الفلسفات الكبرى
٤٢ ـ العواطف والحياة الأخلاقية
٤٣ ـ المكتبات العامة
٤٤ ـ منظمة الأمم المتحدة
٤٥ ـ الدستور واليمين الدستورية
٤٦ ـ هذه هي الحرب
٤٧ ـ الممارسة الايديولوجية
٤٨ ـ المواطن والدولة
٤٩ ـ فلسفة العمل
٥٠ ـ مونتاني
٥١ ـ علم الجمال
٥٢ ـ تدريب الموظف
٥٣ ـ فلسفة التربية
٥٤ ـ السوق النقدية
٥٥ ـ الإنسان المتمرد
٥٦ ـ تيار دو شاردان
٥٧ ـ التربية الحديثة
٥٨ ـ كيركيغارد
٥٩ ـ تقنية المسرح
٦٠ ـ المذاهب الأدبية الكبرى
٦١ ـ النقد الجمالي
٦٢ ـ الحضارات الإفريقية
٦٣ ـ ديكارت والعقلانية
٦٤ ـ العلاقات الثقافية الدولية
٦٥ ـ البيبليوغرافيا
٦٦ ـ علم السياسة
٦٧ ـ الإعلانيا
٦٨ ـ سوسيولوجيا السياسة
٦٩ ـ الأدب الطبيعي
٧٠ ـ الجمالية عبر العصور

٧١ـ فن تخطيط المدن
٧٢ـ علم النفس التجريبي
٧٣ـ أصول التوثيق
٧٤ـ دينامية الجماعات
٧٥ـ تاريخ العرقية
٧٦ـ قيمة التاريخ
٧٧ـ سوسيولوجيا الصناعة
٧٨ـ الماركسية بعد ماركس
٧٩ـ معرفة الذات
٨٠ـ تاريخ الطيران
٨١ـ التعليم المبرمج
٨٢ـ السلطة السياسية
٨٣ـ سوسيولوجيا الحقوق
٨٤ـ الخطوط الأولى لفلسفة ملموسة
٨٥ـ مدخل إلى التربية
٨٦ـ معرفة الغير
٨٧ـ القيمة
٨٨ـ عظمة الفلسفة
٨٩ـ الإنسان الأول
٩٠ـ اللحظة العدمية المتعالية
٩١ـ الجمالية الماركسية
٩٢ـ تاريخ بابل
٩٣ـ الفلسفة والتقنيات
٩٤ـ جغرافية العالم الصناعية
٩٥ـ فلاسفة إنسانيون
٩٦ـ الحرب الأهلية
٩٧ـ أصل الموحدين الدروز
٩٨ـ من الرأي إلى الإيمان
٩٩ـ التسويق
١٠٠ـ دفاعاً عن الأدب
١٠١ـ الذين يحضرون غيابهم
١٠٢ـ الجماعات الضاغطة
١٠٣ـ الأسطورة
١٠٤ـ التوفير والتثمير
١٠٥ـ الإحصاء
١٠٦ـ الوظيفة العامة
١٠٧ـ الكلام
١٠٨ـ النظام السياسي والإداري في بريطانيا
١٠٩ـ الثقافة الفردية وثقافة الجمهور
١١٠ـ توظيف الأموال
١١١ـ الأدب الألماني
١١٢ـ المحاسبة التحليلية
١١٣ـ النظام السياسي والإداري في فرنسا
١١٤ـ الأمومة والبيولوجيا
١١٥ـ الحريات العامة
١١٦ـ قانون الفضاء
١١٧ـ تلوث المياه
١١٨ـ النقد الأدبي
١١٩ـ النظام السياسي والإداري في الاتحاد السوفياتي
١٢٠ـ التلوث الجوي
١٢١ـ النسبية
١٢٢ـ السوريالية
١٢٣ـ حلول فلسفية
١٢٤ـ التلفزيون الملون
١٢٥ـ مدخل إلى الاقتصاد
١٢٦ـ الأخلاق والحياة الاقتصادية
١٢٧ـ مناهج علم الاجتماع
١٢٨ـ استطلاع الرأي العام
١٢٩ـ موحدة الوجود العقلية
١٣٠ـ الأدب الإيطالي
١٣١ـ المذاهب الاقتصادية
١٣٢ـ الفن التكعيبي
١٣٣ـ التربية الجنسية عند الولد
١٣٤ـ فلسفة القانون
١٣٥ـ الطفولة الجانحة
١٣٦ـ الرواية البوليسية
١٣٧ـ النقد البنيوي للحكاية
١٣٨ـ تاريخ الجزائر المعاصر
١٣٩ـ الكوميديا
١٤٠ـ تاريخ علم الآثار
١٤١ـ الميكانيك الصناعية
١٤٢ـ الدولة

منشورات عويدات ٩١٩ / ١٩٨٧

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME VI

LE XIX^{e} SIÈCLE

L'APOGÉE DE L'EXPANSION EUROPÉENNE

(1815-1914)

par

Robert SCHNERB
Professeur honoraire de Première Supérieure
Docteur ès Lettres

QUATRIÈME ÉDITION REVUE

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER & Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

٦

القرن التاسع عشر

تأليف

روبير شنيرب

أستاذ فخري في الدراسات العليا

دكتوراه دولة في الآداب

هذا المجلد من خمسة اقسام، يتصدَّرها مدخل توضيحي.

القسم الأول من سبعة فصول، حول سكّان اوروبا، والعناية بالارض فيها، والتقنيات الجديدة في الصناعة والنقل، والدفع الراسمالي والبورجوازي، والحركة الرومنطيقية وعودة الشرعية الى اوروبا، والحركات القومية والنضالية العمالية، وبروز الذات الاميركية في الإستعمار.

القسم الثاني من تسعة فصول، حول الحروب القومية في اوروبا والحرب الإنفصالية في الولايات المتحدة، وعصر الإيمان بإمكانات العلم، واستكشاف الأرض وانتشار المثل الاوروبية، وارتفاع عدد السكان وفتح المحاصيل الحيوانية والنباتية الكبرى، والعبقرية الصناعية، وانطلاقة وسائل المواصلات في عهد البخار، وانطلاقة الراسمالية في الغرب، والإستعمار الأوروبي ونشاة السياسات التوسّعية الكبرى.

القسم الثالث من ستة فصول، حول المدينة ودفعها الشديد، واستقلال الذوق الفني، وتطوّر الريف، والمدينة بين القوى المحافظة والقوى الإشتراكية، والدول الأوروبية بين المحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط، ويقظة الصقالبة في اوروبا الشرقية.

القسم الرابع في ستة فصول: في المجتمعات الشمالية الناعسة، وتقدم الإنكلوساكسونية، والأيام الصعبة في اميركا اللاتينية، والعالم الإسلامي، وحضارات افريقيا واوقيانيا، والتوسع الغربي اللاحق الهند وآسيا الشرقية.

القسم الخامس في خمسة فصول: وثبة الى الأمام، تجدّد الحياة الروحية في اوروبا، اعراض التقهقر الأوروبي، الإرتكاسات العالمية والدفع الإشتراكي، فالإنتقال من السلم الى الحرب الأوروبية.

يقع هذا المجلد في ٧٢٠ صفحة من القطع الكبير مجلد بالقماش الفاخر ومزود بـ ٢٩ رسماً وخريطة وفيه ٤٨ لوحة ترافق النص الى جانب جدول زمني مقارن وجدول بالاعلام والاماكن.



Bibliotheca Alexandrina
02803374
تـاريخ الحضـارات العـ
منشـورات عـويـدات - بـيروت - بـاريس